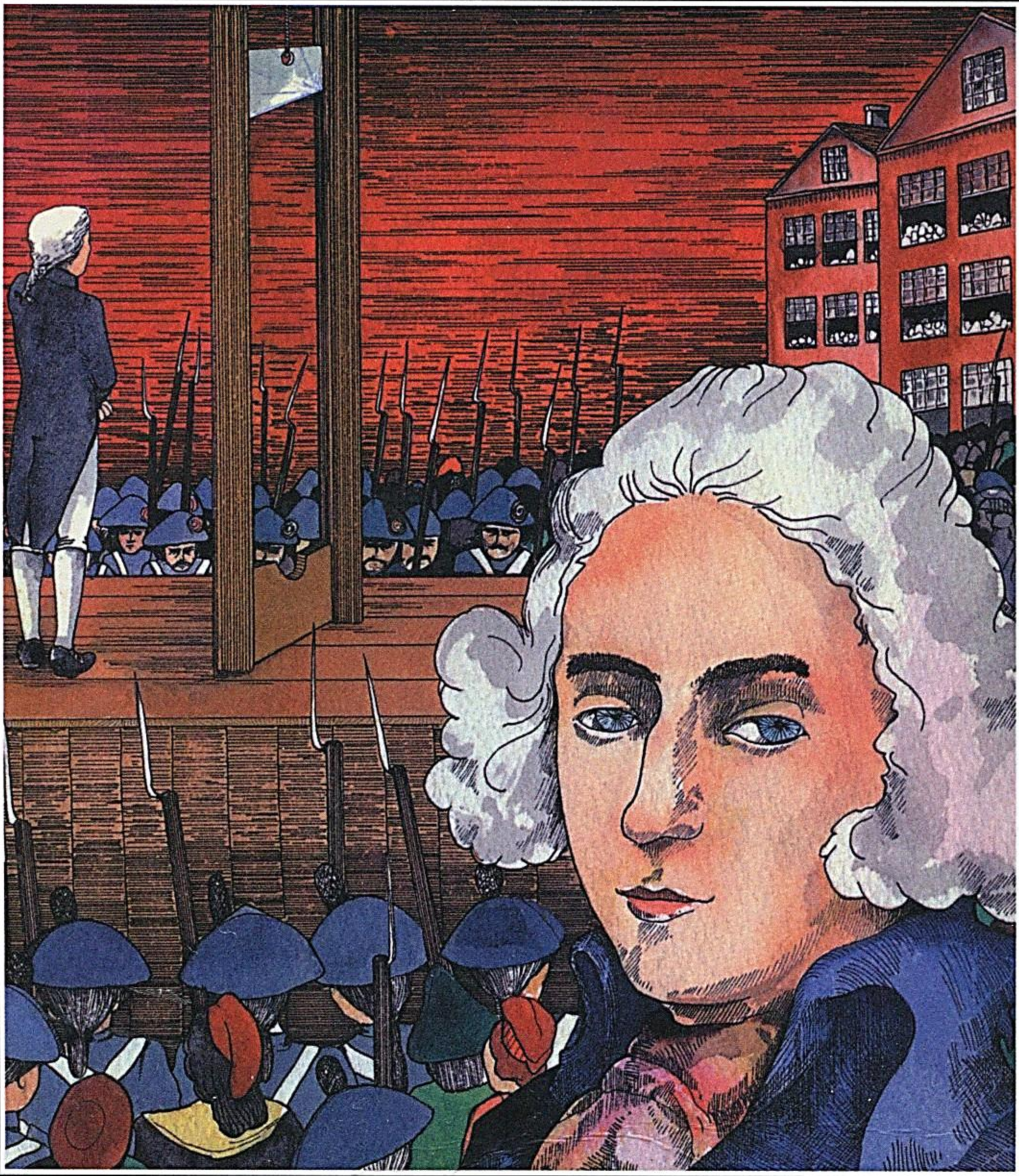
روائع الأدب العالمي 16

إعترافات جان جاك روسو

تأليف الكاتب الفرنسي

جان جاك روسو



إعترافات جان جاك روسو

إعترافات جان جاك روسو

تأليف
جان جاك روسو

ترجمة
حلمي مراد

الناشر
دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - بيروت
تلفون : 674 803 1 961 00 فاكس : 223 790 1 961 00
E-mail : darbachir@terra.net.lb

الإسم الأصلي للكتاب

LES CONFESSIONS DE J.J. ROUSSEAU

إسم المؤلف

Jean Jacques ROUSSEAU

حلم . . طالما تمنيت تحقيقه!

عزيزي القارئ . .

– بصُدور هذه الترجمة الكاملة (لاعترافات) "چان چاك روسو" يتحقق حلم من أضخم الأحلام الأدبية التي رَاوَدْتني منذ عَشقْت الأدبَ، وأدركتْني حرْفَته ! . . ويَتَجسَّم هدف من أعز الأهْداف التي أغْرَتْني بإصدار سلْسلَة (مطبوعات كتابي) منذ زمن قريب.

ولئنْ كانت هذه المطبوعاتُ قد تَمكنَّت من أن تبلُغ هذا الهدفَ في مثْلِ هذا الزمن القصير، بعد أن ظلت (اعترافات) "روســـو" منيعة "مُسْتَعصية" على النَّشْر بالعربية طيلة نحو قرنين كاملَيْنْ، تُرجمَتْ خلالهما إلى جميع اللغات الحيْة، ما عدا لغَتَنا العربية! . . فإن هذه السِّلْسلةَ ما كانت لتُحققَ هذا الهدف من أهدافها لو لم تَتلقّها أنت وتَتَعهَّدها منذ وُلدَتْ دت برعايتك وإعْزَازك اللذيْن مَكنَّاها من تذليل جميع الصِّعَاب التي تعترض طريقها ، والسير قُدُما نحو غايتها.

وإذا أردت أن تعرف قيمة هذا الكَنْز الأدبي الخالد الذي تُوافيك به (مطبوعات كتابي) اليوم فإليك ما كتبه عنه المفكر المطَّلع الأستاذ "سلامه موسى" في عدد ١٩ نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٩٥٥ من جريدة "أخبار اليوم" . . إذ قال : "واعترافات "چان چاك روسو" من الكتب التي كان يجب أن تُتَرجَم إلى لغتنا قبل ١٠٠ أو ١٥٠ سنة . . فلقد تغيرت "أوروبـــا" بتأثير أفكار هذا الأديب، ونستطيع أن نَعْزوُ أهمَّ التطورات التي حدثت في هذه القارة إلى آرائه التي يتلخّص مَغْزاها في كلمات معدودة، هي :

" أن الطبيعة حسنة، والإنسان طيب ولكنهما يَفْسُدان بالمجتمع السيئ. . فما أَحْوجَنا في البلاد العربية إلى هذه الخَمَائر"!

. .كما كتب الأديب والشاعر الكبير الأستاذ" عبد الرحمن صدقي" في مقال بمجلة (الثقافة) بتاريخ ١٤ شباط (فبراير) عام ١٩٣٩ يقول : "انقضى نَيِّفُ ومائة وستون سنة على وفاة "روســـو" ، وانصرف الأدباء وجَمْهَرة القراء عن مطالعة (العقد الاجتماعي)و (إميل) و(هيلويز الجديدة) ، ولكنهم لم ينصرفوا ولن ينصرفوا عن مطالعة (اعترافاته)؛ ذلك أن الآراء في السياسة والاجتماع والتربية والأخلاق يدخلها التغيير والتَّبْديل، أما نَجوْى النفس البشرية فهي لاتتغير ولاتتبدل ، فنحن نتعرَّف فيما نحسه في أعماقنا على غرائز رجل الكهوف. . فكم بالحري إذا كان صاحب هذه النجوى مثل صاحب (الاعترافات)، أقرب إلى عصرنا بثقافته، وإن كان أشبه بأهل الفطرة في صراحته ، وجُرْأَته ؟! " .

والواقع أن هذه (الاعترافات) التي تقدم "مطبوعات كتابي" إليك اليوم أول ترجمة أمينة كاملة لها باللغة العربية، والتي تعتبر من أعظم الشوامخ الخالدة في الأدب "الكلاسيكي" ، هي أَدقُّ وأصدق مصدر لسيرة المفكر العبقري "چان چاك روســو" ، في الثلاثة والخمسين عاما الأولى من حياته على الأقل. . ولقد كان من أهم الميزَات التي كَتَبتْ الخلود لهذه (الاعترافات) أنها كانت أول عمل أدبي يكشف صاحبه فيه عن نفسه ، فيُظْهِرها على حقيقتها الكاملة دون أي زَيْف أو تَستُّ . . فقد سجل "روســـو" في هذا الكتاب أدقَّ أحداث حياته – خيرها وشرها، طيبها وخبيثها– دون أن يَجْفُلَ من مواجهة الحقيقة، وكأنه مؤمن صادق التوبة يُصارِحُ إلهه بأخطائه بُرْهانا على صدق توبته ، والتماسا

لصفحه.

ولكن .. هل كان هذا هو الهدف الذي ابْتَغَاه "چان چاك روسو"، من وراء تسجيل اعترافاته؟

قد نجد الجواب عن هذا السؤال في مُؤلَّفاته التي سبقت (الاعترافات) وفي كتاب (إميل) بالذات.. فلقد أورد "**روسو**" في هذا الكتاب، وفي بعض مؤلفاته السابقة، صُوَراً من حياته، ومن الشخصيات التي صادفته وأثَّرتْ فيه .. ولكنه كان يَسْدُلُ عليها سِتْراً من الزَّيفِ و"الرتوش"، شان كل كاتب واديب، حين تُوحي إليه بعض مراحل حياته وذكرياته بمادة تَنْسَاب على طرف قلمه اثناء الكتابة فيحاول أن يحيطها ببعض المظاهر المفتعلة التي تُبَاعِد بين هذه المادة وبين شخصيته الحقيقية في نظر القارئ!

ولكن "**روسو**" كان يهدف من إيراد هذه الذكريات إلى أكثر من مجرد رسم شخصيات، أو افتعال أحداث. كان يسعى إلى أن يُقدِّم تَجاربه للناس، سيما في ميدان التربية ورعاية النشء. فلما وَاتَتْه الجُرْأة، نزع سِتْر الزيف والتضليل، وساق الحديث صريحا واضحا، واعترف بالسرقة والانحراف – مثلا– لِيُنَبِّه الآباء إلى العوامل التي قد تدفع بالأبناء بعيدا عن جَادَّةِ الصواب .. ولِيُنَبِّه المجتمع إلى الأشياء التي تنكبه بالمنحرفين من الأعضاء.

وهذا ما نلمسه واضحا في بعض مواضع من (الاعترافات): فهو يقول تعليقا على معاملة أبيه لأخيه الأكبر: "كان من جَرَّاء الحنان الضَّافِي الذي أَسْبغَهُ أبي عليَّ أن أهمل هذا الأخ.. وتأثرت تربية أخي بهذا الإهمال؛ فسلك مسالك السوء قبل أن يبلغ سنا تتناسب مع إدمان الفجور!"..... إلخ

.. ويُبيِّن– في سِيَاق حديثه عن المدة التي قضاها في تعلم حِرْفَة الحفر على المعادن– كيف أن مُخَالَطَةَ الصغار لزملاء يَكْبُرونهم سنا، ويختلفون عنهم بيئة ونشأة يدفعهم إلى الخضوع لما يوحي به إليهم هؤلاء الكبار. إذ تَعوَّد "**چان**" الصغير السرقةبِإِيعَاز من زميل له!

كل هذه الصور توحي بأن (الاعترافات) لم تكن– في غايتها – سوى دروس اجتماعية وتربوية.

الاضطهادات تلاحقه في

كل مكان!

– ولقد تناولت (الاعترافات) حياة "**روسو**" حتى سنة ١٧٦٥. ومن الطَّريف أنه بدأ في وضعها عندما هاجر إلى "**إنجلترا**". فإن بعض كتبه السابقة–(**إميل**)و(**العقد الاجتماع**) و(**هيلويز الجديدة**)–تضمنت من الآراء والمُهَاجَمَات ما أثار غضب حكومة "**فرنسا**"، ورجال الكنيسة،وأنصار المدارس الفلسفية في "**فرنسا**" و"**هولندا**" و"**چنيف**"، حتى لقد أُحْرِقَتْ كتبه عَلَناً في بعض البلدان، واضْطُرَّ إلى أن يهرب من "**فرنسا**" إلى جمهورية "**بيرن**"، ولكن مجلس شيوخها أمره بمبارحتها،؛رحل إلى "**مورتيير**" بمقاطعة "**نيوشاتل**" – وكانت تحت حكم "**فردريك الثاني البروسي**"..

على أن "**روسو**" ما لبث أن أصدر كتاب (**خطابات الجبل**)؛ فإذا الضجة التي أحدثها هذا الكتاب تضطره إلى الرحيل إلى جزيرة "**سان بيير**" في بحيرة "**بيين**".. ولكن مجلس شيوخ جمهورية "**بيرن**" عاد فامره بِمُبَارحة هذه الجزيرة التي كانت تابعة للجمهورية!

وكان "**روسو**" قد تَلقَّى دعوة من صديق إنجليزي، فسافر إلى "**إنجلترا**" .. ووصل إلى هناك في كانون الثاني (يناير) سنة١٧٦٦، فمكث شهرين في "**لندن**" ، ثم انتقل إلى الريف في "**ووتون**" بـ"**ستراد فورد شاير**"حيث وضع الكراسات الست الأولى من (الاعترافات) ، وتصادف أن نشرت الصحف في تلك الأثناء خطابا بتوقيع ملك "**بروسيا**"، يَطْعنُ في أخلاق "**روسو**" ، فَظَنَّ هذا بمضيفيه وأصدقائه في "**إنجلترا**"الظنون ، ونَزَح في أيار (مايو) سنة ١٧٦٧ إلى "**أميين**"، حيث نزل بقلعة "**تراي**" التي كانت ملكا للأمير"**دي كونتي**"، فاقام بها رَدَحاً تحت اسم "**رينو**" ! ..

وهناك استأنف كتابة(الاعترافات) . ثم رحل إلى "**جرينوبل**"،فما لبث أن ملها وسئم أهلها، من ثم رحل إلى "**بورجوان**"، بيد أن جوها لم يلائم صحته؛، فانتقل في سنة ١٧٦٩ إلى "**مونكان**"، حيث أتم الكراسة العاشرة من اعترافاته ..

وما لبث"**روسو**" أن عاد إلى "**باريس**" ، حيث سُمِحَ له بالإقامة ، على شريطة ألا يكتب شيئا ضد الحكومة أو الدين.

فانصرف إلى نقل "النوتات" الموسيقية ، وإلى الاختلاط بعِلْيَةالقوم. حتى إذا كان شهر أيار(مايو) سنة ١٧٧٨ ، نقل الكاتب الفيلسوف- الذي كان قد بلغ السادسة والستين من عمره- إلى كوخ في "**ارمنونفيل**" يمتلكه الكونت" **جيراردان**" .. وهناك، تُوُفيَ فجاة في ٣ تموز (يوليو) من ذلك العام . وقد ذهب فريق من الناس – ومنهم مدام"**دي ستايل**" – إلى أنه انتحر .. كما ذهب فريق آخر إلى أنه مات في نَوْبة صَرَع.

الطبعة التي ترجمنا عنها

الاعترافات

– ولقد كان من عادة "**روسو**" أن يُشْرِف بنفسه على إصْدار طبعة واحدة من كل كتاب يضعه . على أنه كان يتدخل في الطبعات التي تصدر بعد ذلك فَيضيفُ إليها بعض الملاحظات ، دون أن يحذف أو يغير شيئا من موادها.

ولقد تولى ثلاثة من أقرب خُلَصَائِه – هم" **دوبيرو**" و"**مولتون**" **الجنيفي** ومركيز "**جيراردان**" – فحص مخطوطاته بعد موته ، ومطابقتها على ما سبق أن أفضى به إليهم .. وقد انتهت تحقيقاتهم صَدَد(الاعترافات) إلى إصدار طبعة منها في "**جنيف**" في سنة ١٧٨٢ على أن "**دوبيرو**" لم يَرْضَ عن التعديلات التي أدُخلَتْ على الكراسات الست؛ فأصدر بنفسه طبعة أخرى، استند فيها إلى ما كان بين يديه من وثائق ، لاسيما رسائل "**روسو**".

وفي سنة ١٨٠١ صدرت طبعة ثالثة من (الاعترافات) أُخِذَتْ عن أصول قدمتها مدام"**روسو**" ، ولاتزال محفوظة في البرلمان الفرنسي .. وكان الفارق بين كل من هذه الطبعات الثلاث وبين الأخرى ، لايَعْدو مجرد تعديلات بسيطة في بعض العبارات ، وليس في الوقائع.

والترجمة التي تُقَدِّمها لك "مطبوعات كتابي" اليوم أُخِذَتْ عن طبعة أصدرتها دار "**لوليفر**" في سنة ١٨٥٩ ، بعد دراسة الطبعات الثلاث وتحقيقها؛، ومن ثم فهي تُعْتَبر أدقَّ طبعة صدرت من "**اعترافات چان چاك روسو**" .. وقد بُذل في نقلها إلى العربية كل جَهْد ممكن للمحافظة على النص

والروح بأمانة تامة ، لم يَشُبْها أي اختصار ، أو حذف، أو تحوير.. بل لقد بُذلتْ عناية فائقة لجعل التعبير والأسلوب أقرب ما يكونان إلى النص الذي كتبه الأديب العبقري ، بقدر ما سمحت بذلك لغتنا العربية..

وأخيرا ، فأملي أن تكون "مطبوعات كتابي" بنقلها هذاالتُّراثِ الإنساني الخالد إلى لغتنا قد ساهمت في تَزْويد المكتبة العربية بأثر شامخ من شوامخ الأعمال الأدبية الباقية على الزمن..

وبهذه المناسبة ؛ أَحْسِبُك تُقِرُّني على أنه لم يكن من الممكن نشر كتاب بلغ الألف صفحة تقريبا، في جزء واحد من "مطبوعات كتابي" ، ومن ثم لم يكن بد من نشر هذه (الاعترافات) في خمسة أجزاء متتابعة، أولها هذا الجزء الذي بين يديك..

وإلى اللقاء على صفحات الجزء الثاني من هذه الاعترافات .

والله ولي التوفيق

حلمي مراد

الكراسة الأولى

١ - من سنة ١٧١٢ إلى سنة ١٧١٩

إنني مُقْدِم على مشروع لم يَسبقْهُ مَثِيل، ولن يكون له نَظِير ؛ إذ إنني أَبْغي أن أعْرِضَ على أقراني إنسانا في أصدق صُوَرِ طبيعته.. وهذا الإنسان هو : أنا !.. أنا وحدي..! فإني أعرف مشاعر قلبي ، كذلك أعرف البشر ! ولست أراني قد خُلِقْتُ على شَاكِلَة غيري ممن رأيت ، بل إنني لأجرؤ على أن أعتقد بانني لم أخلق على غِرار أحد ممن في الوجود!.. وإذا لم أكن أفضل منهم فإنني - على الأقل- أختلف عنهم!.. ولن يَتسنَّى البت فيما إذا كانت الطبيعة قد أصابت أو أخطأت إذ أتلَفَتْ القَالَب الذي صَاغتْني فيه إلا بعد قراءة هذه الاعترافات!

فإذا ما انطلقت آخر صيحات بُوقَ البعث ، عندما يُقَدَّر له أن يُدَوِّي، فلسوف أَمْثُلُ أمام الحاكم العادل وهذا الكتاب بين يَدَيَّ ، ولسوف أقول في رباطة جَاش: " هذا ما فعلت ، وما فكرت ، وما كنت ..لقد رَوَيْتُ في كتابَي الطِّبَ والخَبِيثَ على السواء، بصراحة ، فلم أمح أي رديء ، ولا أنتَحَلْت زورا أيَّ طيب ، وإذا كنت قد استخدمت بعض التَّزْوِيق الفارغ - بين وقت وآخر - فما ذلك إلا لأملأ فراغا نشأ عن نقص في الذاكرة . ولربما قطعت بصدق أمرا أعرف أنه "قد" يكون صحيحا ولكنني قط لم أزعم صدق ما عرفته زيفا.. لقد صورت نفسي على حقيقتها : في ضِعَتِها وزرايَتها.. وفي صلاحها، وحَصَافَة عقلها ، وسُمُوِّها .. تبعا للحال التي كنت فيها!.. لقد كشفت عن أعمق أغوار نفسي ، كما كنتَ أنت تراها ، أيها الخالد السَّرْمَدي.. فَاجْمع حولي الحَشْدَ الذي لاحَصْرَ له من أبناء جنسي ، ودعهم يُصْغُون إلى اعترافاتي، فَيَرْثُون لخِسَّتي ، وَيخجَلُون لمثَالبي. ثم ادْعُ كلا منهم إلى أن يكشف بدوره - وبعين الصراحة- أسرار فؤاده، عند قوائم عرشك ، ولِيَقُل إن جَرُؤ:" لقد كنت خيرا من ذلك الرجل"!

*****

ولدت في **"چنيف"** ، في عام ١٧١٢ للمواطنين **"إيزاك روسو"و"سوزان برنار"**، وكان تقسيم ميراث أسرة أبي - على قلته- بين خمسة عشر ابنا وابنة ، قد هبط بنصيب أبي إلى نَذْرٍ لايكاد يذكر، فلم تكن له وسيلة عيش سوى مهنته كـ"ساعاتي" - وكان في الحق جداً بارع فيها - أما أمي فكانت أحسن منه حالا. كانت ابنة القس البروتستانتي "برنار"، وكانت ماهرة ، جميلة ، وقد وجد والدي عناء في الظفر بيدها ، إذ بدأ حبهما منذ طفولتهما الباكرة ، وما إن بلغا الثامنة حتى اعتادا أن يتمشيا كل مساء في طريق **"تريي"** ، أبدع طرق "چنيف" فلما صارا في العاشرة، لم يعودا يفترقان.

وعزز التَّعَاطُفُ والائتلافُ الروحي ذلك الإحساس الذي خلقته الأُلفَةُ بينهما .. ولم يكن كل منهما - وقد خُلِقَ مُرْهَفَ الحس رقيق الشعور - ليرجو سوى تلك اللحظة التي يتاح له فيها أن يكتشف عند الآخر نفس ما كان يُخَالجُهُ من إحساس.. أو - على الأصح- كانت تلك اللحظة ترتقبهما ، فأسلم كل منهما قلبه للآخر في أول فرصة .. وكأني بالقدر - حين لاح أنه يُعَارِضُهما- قد زادهما وجدا.. وإذا بالعاشق الشاب الذي عجز عن الظفر بحبيبته - إذ أبى أهلها أن يُزَوجُوه

إياها– يذوب أسى وحزنا، فنصحته فتاته بالتَّرْحَال ، وبأن يسعى لنسيانها ، فسافر ، ولكن . . دون جدوى ؛إذ عاد مُدلّهاً أكثر من ذي قبل ! ووجد تلك التي أحبها لاتزال وفية ، صادقة الحب ، فلم يبق لهما – بعد تلك التجربة التي اختبرا بها عاطفتهما – إلا أن يظلا متحابين طِيلَةَ عمريهما . . فأقسما أن يفعلا ذلك، وباركت السماء تعاهدهما!

وحدث أن وقع **"جابرييل برنار"** – شقيق أمي– في حب إحدى شقيقات أبي . فلم تُوافقْ على خطبته إلا على شريطة أن يتزوج أخوها من أخته ، وهكذا دبر الحب كل شيء، وعُقِدَتْ الزِّيجَتَان في يوم واحد ، فأصبح خالي زوج عمتي، وقُدِّرَ لأولادهما أن يكونوا أولاد عمومة وخُؤُولة لي . . وفي نهاية العام الأول للزواج رُزِقَ كل من الفريقين بطفل، ثم تَشتَّتَ شملهما . فقد كان خالي مهندسا ، فَعُيِّنَ في خدمة الإمبراطورية– في **"المجر"** – تحت إمرة الأمير – **"يوجين"**، واستطاع أن يُبْلِي بلاء حسنا في معركة **"بلجراد"**. أما أبي فقد رحل– بعد مولد أخي الأوحد – إلى "القسطنطينية"، حيث استُدْعِيَ ليتولّى منصب "ساعاتي السلطان" واستطاعت أمي – في غيابه – أن تكسب ولاء عدد كبير من المعجبين بفضل جمالها وذكائها ومواهبها (١) . وكان من أشد هؤلاء المعجبين تَهَافُتاً مسيو **"ديلاكلوزير"** ، المندوب الفرنسي المقيم ، ولابد أن شغفه بها كان عارما ؛ فقد رأيته شديد التَّأثر وهو يحدثني عنها ، بعد ذلك بثلاثين عاما! على أن أمي كانت تتذرع لمقاومة كل محاولات بما هو أكثر من الفضيلة . . كانت تحب زوجها حبا مُبَرِّحاً. وقد راحت تُلْحِفُ عليه في العودة؛ فترك كل شيء ورجع . وكُنْتُ الثمرة التَّعِسَةُ لهذه العودة؛ إذ وُلِدتُّ بعد عشرة أشهر، ضعيفا سقيما . وقد كبدت أمي حياتها ، وكان مولدي أول ما حاق بي من نحس وتعاسة ! ولم يقص على أحد قط كيف احتمل أبي هذا المصاب ، ولكني أعرف أنه لم يَتَعَز أبدا ، وكان يَخَال أنه يرى زوجته في شخصي، دون أن يقوى على أن ينسى أنني الذي حرمته إياها !. . أبدا لم يحتضني دون أن ألاحظ – من تنهداته والاختلاجات التي كانت تعتريه وهو يضمني إلى صدره– أن حسرة مريرة كانت تُخَالِطُ قبلاته ، فلا تزيدها إلا حنانا. وكان إذا قال لي : "لنتحدث عن أمك يا **"جان جاك"** أجبت :"حسناً ، لسوف نبكي إذن يا أبت!"

وكانت هذه العبارة وحدها كفيلة بأن تبعث الدمع إلى عينيه ، فكان يهتف مُتَأوها: " آه!. . ألا رُدَّها إلي!. . كُنْ عزائي عن فقدها ، وأملأ الفراغ الذي خلفته في نفسي !. . أفتراني كنت أحبك هذا الحب كله لو أنك كنت مجرد ابن لي؟" . . وبعد أربعين عاما من مُصَابه فيها مات بين ذراعي زوجة ثانية. . ولكن اسم الأولى كان على شفتيه ، وصُوَرتُها في قَرَارة فؤاده!

وهكذا كان الاثنان اللذان أو جداني ، ولم يورثاني – من كل النعم التي أسبغتها عليهما السماء– سوى قلب رقيق مرهف الحس. . ولقد كان قلباهما مُنْبَعي سعادتهما ، أما قلبي فقد كان منبع كل شِقْوَة في حياتي!

*****

ولقد هبطت إلى الدنيا في حال تَقْرُبُ من الموت، فلم يكن ثمة أمل يذكر في إنقاذ حياتي . وكنت أحمل في كياني بُذُوَر عِلَّة أخذت تقوى على مر الزمن ، ولا تبارحني في بعض الأوقات ، إلا

(١) كانت مواهبها تفوق مكانتها الاجتماعية بكثير . . فإن أباها القس كان يحبها إلى درجة العشق ، وقد بذل في تعليمها وتربيتها عناية فائقة؛ ومن ثم فإنها كانت تجيد الرسم ، والغناء ، والعزف على آلة تشبه العود . . كما كانت كثيرة الاطلاع ، وكانت تنظم أشعارا لا بأس بها وقد حدث– أثناء غياب زوجها وأخيها – أن خرجت للنزهة مع زوجة أخيها، فصادفتا شخصا ذكرهما بالغائبين، وإذا هي تقول على الفور شعرا هذا معناه:

لتقسو في تعذيبي بشكل آخر . وقد أولَتْني إحدى عماتي – وكانت شابة لطيفة فاضلة – من الرعاية ما أنقذ حياتي . وهي لاتزال حتى كتابة هذه السطور على قيد الحياة ، ولقد بلغت الثمانين من عمرها، وتوفرت على تمريض زوج يصغرها سنا ولكن الإفراط في الشراب أنْهَكَ قُواهُ .. إنني لاأغفر لك، يا عمتي العزيزة أن أبقيت على حياتي، وما أعمق أسفي إذ أراني عاجزا عن أن أرد إليك – في أواخر أيامك – تلك الرعاية السَّابِغةَ التي أوليتنيها في أوائل أيامي! (١) .. كذلك لاتزال مرضعتي العزيزة العجوز "**جاكلين**" على قيد الحياة، موفورة الصحة والقوة ، وكأني باليدين اللتين فَتَحَتا عَيْنيَّ عند مولدي ستُغْمِضَانِهِما عند وفاتي !

ولقد تَنبَّهَ إحساسي قبل أن يتنبه فكري .. وهو شيء يحدث لجميع البشر، ولكنني كنت أكثر من سواي خبرة به وتجربة له .. ولست أدري ماذا كنت أفعل قبل أن أبلغ الخامسة أو السادسة ، ولا أعرف كيف تعلمت القراءة.. وكل ما أذكره، أول مرة قرأت فيها ، وما كان لها من تأثير ، فقد اتخذتها تاريخا لما درجت عليه من شعور مستمر بالذات ..وكانت أمي قد خلَّفْت بعض قَصَص غرامية، شَرَعْتُ في قراءتها مع أبي، عقب العشاء ، في كل ليلة ، وكان القصد من ذلك – في البداية– مجرد تدريبي على القراءة، بالاستعانة بالكتب المشوقة. وكان الشغف لم يلبث أن دب فينا، فكنا نَتَنَاوَبُ القراءة دون توقف ، ونُنْفِقُ ليالي بأكملها في هذا العمل ، وكنا نعجز عن التحول عن الكتاب حتى نَفْرُغَ منه ، وكان أبي يقول أحيانا في اسْتِحْيَاء ، وهو يسمع العصافير تشرع في الشقشقة مع مطلع النهار: " هيا بنا إلى الفراش .. كأني أنا الطفل ولست أنت !" .

وبفضل هذا الأسلوب الخطر استطعت في أمد قصير أن اكتسب حِذْقاً بالغا للقراءة والفهم.. ليس هذا فحسب بل إنني أحرزت أيضا دراية بالعواطف المشبوبة ، كانت نادرة بالنسبة لطفل في سني ، فباتت جميع مشاعر الحياة العادية مألوفة لدي، وإن لم أكن أدرك كُنْهَهَا .. كنت أحس بكل شيء ، دون أن أفقه كنه أحاسيسي. فمن المؤكد أن هذه المشاعر المُهَوَّشَةَ المبهمة– التي كنت أشعر بها واحدة بعد أخرى – لم تُؤَلِّف نسيجا قوي الإدراك لدي؛ لأنني لم أكن أحظى إذ ذاك بهذه القوى ، ولكنها ساعدت على تشكيلها في أعماقي على نسق خاص ، وأوحت إلي بأفكار خيالية غريبة عن الحياة الإنسانية، لم تقو التجربة وقوة التفكير على أن تُبَرِّئني تماما منها طيلة حياتي !

٢- من سنة ١٧١٩ إلى سنة ١٧٢٣

وفرغنا من الروايات في صيف سنة ١٧١٩ ، فإذا الشتاء التالي يوافينا بمادة تختلف عنها؛ إذ إننا لم نكد نُسْتَنْفِدُ مكتبة أمي حتى تحولنا إلى نصيبها – الذي آل إلينا – من مكتبة أبيها . وكان بها بعض كتب دسمة ، لحسن الحظ. وما كان من المنتظر أن تكون غير ذلك إذ كانت جزءا من مكتبة جمعها قس ، كان – في الوقت ذاته – عالما ، على غِرَار ما كان مألوفا في أيامه. كما كان رجلا ذا ذوق وذكاء! وكان من هذه الكتب التي آلت إلينا :" **تاريخ الإمبراطورية والكنيسة**" لـ"**لوسيور**"، "**ورسالة في تاريخ العالم**" لـ"**بوسويه**" و"**حياة مشاهير الرجال** " لـ"**بلوتارك**" و"**تاريخ البندقية**" لـ"**نافي**" و" **التطورات**" و"**الأصول**" لـ"**أوفيد**" و"**العوالم**" و"**حوار الموتى**" لـ"**فونتنيل**"، وبعض مؤلفات "**موليير**" ..

---

(١) كانت هذه العمة تدعى مدام "جونسيرو" . وقد رتب لها "روسو"– منذ مارس سنة ١٧٦٧– معاشا قدره مائة جنيه، كان يدفعه إليها دائما ، وفي مواظبة دقيقة حتى في أشد أوقات ضيقه!وهذان السيدان الغائبان .. عزيزان علينا من كل جانب ، فهما صديقانا وحبيبانا ، وهما زوجانا وشقيقانا .. وهما والدا طفلينا!

فنقلت كل هذه إلى غرفة أبي، وأخذت أقرؤها عليه وهو عاكف على عمله ، وكنت أستوعبها في اسْتِسَاغَة نادرة، بل لعلها كانت فَذّة بالنسبة لعمري ، وأصبح "**بلوتارك**" – بوجه خاص– هو أحب المؤلفين إلى نفسي، فابراني الاستمتاع بقراءة كتابه مرارا وتكرارا من بعض الشغف الذي كان قد تملكني نحو الروايات ، وسرعان ما شُغِلْتُ بابطاله، وبدات أُفَضِّلُ "**إجيسلاوس**" و"**بروتس**" و"**ارستيدس**" على "**أوروندانيس**" و"**إرتامينس**" و"**جوبا**" ، وقد ادى هذا الاطلاع المشوق والمحادثات التي كان يثيرها بيني وبين ابي إلى تَوَلُّد روح الحرية في نفسي .. تلك الروح الأبيَّة، المنيعة ، التي لاتُطيقُ العبودية أو الاسترقاق ، والتي عذبتني طوال حياتي ، في مواقف كانت بعيدة عن أن تُتيحَ لها مجالًا.. وهكذا اصبحت افكاري في شُغْل لاينقطع بـ"**روما**" و"**أثينا**"، وقد دبت فيهما الحياة خلال سير عظمائهما . وقد أذكى حماسي أنني وُلِدَت مواطنا في جمهورية ، وابنا لأب كانت وطنيته هي أشد عواطفه اتقادا ، فكنت إخَالُ نفسي إغريقيا أو رومانيا– حسب شخصية العظيم الذي أقرأ سيرته – وكنت أُذِيبُ شخصيتي في شخصيته ، كما كان الإسْهَابُ في ذكر صفات الجلد والبسالة – التي كانت تستهويني – يجعل عيني تُومِضَان ، وصوتي يقوى وقد حدث ذات يوم أن انطلقت أروي سيرة "**سيكفولا**" للأفراد الذين ضمتهم مائدتنا فإذا بالجزع يتولاهم إذ رأوني في غمرة التحمُّس أتقدم فاضم قبضتي على "المِشْوَاة" .. "الشواية"– الساخنة ،لأصور عملا من أعمال البطل! وكان لي شقيق يكبرني بسبع سنوات ، يتلقى عن أبي حرفته ، وقد كان من جراء الحنان الضَّافِي الذي أسبغه أبي علي، أن أهمل هذا الآخر ، وهي معاملة لاأقرها ولا أُحَبِّذُهَا !.. وتأثرت تربية أخي بهذا الإهمال؛ فسلك مسالك السوء قبل أن يبلغ سنا تتناسب مع إدمان الفجور. وقد عهد به أبي إلى معلم آخر ، فكان لاينفك يهرب منه ، ومن البيت ، حتى إنني نادرا ما رأيته وأكاد أقول إنني لم أكن أعرفه ! على أنني لم أكف عن أن أحبه في شغف . أما هو فقد أحبني كما يحب الشريد أي شيء!.. وأذكر أن أبي عاقبه – في إحدى المناسبات بغلظة وغضب ، فاندفعت ملقيا بنفسي بينهما، واحتضنته.

وبذلك حجبت جسمه بجسمي ، فتلقيت عنه الضربات التي كانت موجهة إليه!.. وظللت متشبثا بهذا الوضع في عناد، حتى اضْطُرَّ أبي في النهاية إلى أن يتخلى عن العقاب ،إما لأن صرخاتي ودموعي الانت قلبه ، أو لأنه خشي أن يُؤْذِيني أكثر مما كان يؤذي أخي. على أن حال هذا الأخ ما لبث أن ازدادت سوءا، ففر واختفى كل أثر له ، وسمعنا بعد ذلك بزمن أنه كان في "**ألمانيا**" ، بيد أنه لم يكتب إلينا قط ، ولا تلقينا عنه نبأ على الإطلاق ؛ ومن ثم صرت الابن الأوحد لأبي!

وإذا كان هذا البائس قد نشأ محوطا بالإهمال إلا أن هذه لم تكن حال أخيه .. أنا ! فما كان أبناء الملوك لِيَحْظَوْا بأكثرمن الرعاية التي حَظِيتُ بها في سني حياتي الأولى .. كنت أحظى بحب كل المحيطين بي.. على أن هذا الحب لم يجعل مني طفلا مدللا مفسودا ، كما هو المألوف في الأطفال الذين يحظون بحب أهلهم، ولم يتح لي قط– إلى أن غادرت دار أبي– أن أجري في الطرقات مع سواي من الأطفال ، ولا أحتاج أحدا إلى أن يشجع أو يَكْبَحَ في نفسي تلك النزوات الخيالية التي تعترض حياة الأطفال ، والتي تُعْزَى– خطأ– إلى الطبيعة، وهي في الواقع من ثمار التربية.. ولقد كنت أرتكب المآخذ المألوفة لدى أقراني في السن: فكنت ثرثارا ، نَهِمًا، كذوبا في بعض الأحيان .. وربما كنت أسرق بعض الفاكهة ، أو الحلوى ، أو المأكولات.. ولكني لم أنشد قط متعة في إيذاء الغير ، أو الإضرار بهم ، أو اتهامهم، أو في تعذيب الحيوانات البكماء المسكينة ، وإن كنت أذكر أنني تبولت مرة في قدر أو وعاء لجارة لنا– تدعى مدام"**كلو**"– بينما كانت في الكنيسة. وإني لأجهر ، حتى بعد أن بلغت هذه السن، بأن ذكرى هذا

الحادث تثير ضحكي .. فقد كانت مدام "كلو" أكثر الذين عرفتهم إمعانا في الشكوى ولجاجة في التَّذمُّر ، وبرغم أنها كانت طيبة عدا ذلك.. وهذه – بإيجاز وصدق- كبرى إساءاتي في الطفولة!

*****

وكيف كان من الممكن أن أغْدُو شريرا ، وقد كانت عيناي لاتقعان إلا على أمثلة للطف والدماثة، ولم يكن يحيط بي سوى خير ناس في الدنيا؟.. والحق أن أبي وعمتي ومربيتي وأقاربي وأصدقائي وجيراني ، لم يكونوا يخضعون لرغباتي ولكنهم كانوا يحبونني ، وكنت أنا الآخر أحبهم ، وقليلا ما كانت رغباتي تُثِير – أو تستحق- معارضة ، حتى لَيَخْطُر لي أنني لم تكن لي أية رغبات على الإطلاق!.. وبوسعي أن أقسم على أنني ما عرفت كنه النَّزَوات أو الشَّطَط في الهوى ، إلى أن قُدِّر لي أن أعمل في خدمة معلم . وما عدا الأوقات التي كنت أقضيها في القراءة أو الكِتابة- بصحبة أبي- أو التي كانت مربيتي تصْحَبني فيها للنزهة.. ما عدا هذه الأوقات كنت دائما مع عمتي ، أجلس أو أقف إلى جوارها ، أرقبها وهي تطرز ، أو أصْغِي إليها وهي تغني .. وكنت أَغْتَبِطُ بهذا ، ولقد طبعت بشاشتها ولطفها ووجهها السمح أثرا عميقا، بهيجا في ذهني، حتى إنني لاأزال أتمثلها بخلقها ومظهرها وتصرفاتها ، ولا أزال أذكر لهجتها الحنون.. وبوسعي أن أصف ما كانت ترتديه من ثياب، وكيف كانت تصفف شعرها ، دون أن أنسى الخصلتين اللتين كانتا تَتَدلَّيان على صَدْغَيْهَا ، من شعرها الأسود ، على غرار ما كان شائعا في ذلك العهد.

وإني لأعتقد بأنني مدين لها بميلي – بل ولعي – بالموسيقى، وهو الولع الذي لم يستكمل نموه في نفسي إلا بعد ذلك بزمن طويل، وكانت تعرف عددا من الألحان والأغاني الممتازة،التي اعتادت أن تُرَدِّدَهاَ بصوت جد رفيع رخيم!.. وقد كان الطرب الذي فُطِرَتْ عليه نفس هذه المرأة الرائعة ، يطرد عنها وعن كل المحيطين بها الوساوس والاكتئاب، وكان السحر الذي يفرضه غناؤها على نفسي عظيما ، حتى إن بعض أغانيها بقيت على الدوام في ذاكرتي.. بل إن كثيرا من أغانيها التي كنت قد نسيتها تماما منذ أيام طفولتي تَرْتَدّ اليوم إلى ذهني – بعد أن فقدت هذه العمة ، وبعد أن تقدم بي العمر–مصحوبة بسحر لاقبل لي بوصفه ! أَفَيُصَدِّق أحد أنني وقد غدوْتُ شيخا مُخرِّفا تنْتَهِبْهُ الهموم والمتاعب أجد نفسي- في بعض الأوقات – منخرطا في البكاء كالطفل عندما أترنم بإحدى هذه الأغاني بصوت مُنحَشْرِج مهدم؟.. بل إن إحدى هذه الأغاني عاودتني بكل جزئية من لحنها ، وإن استعصت علي بعض كلماتها ، برغم كل جهد أبذله لاستعادتها .. وها هو ذا مطلعها ، وكل ما أستطيع أن أذكره من بقيتها:

" لست أجرؤ يا "تيرسيس" على سماع مزمارك تحت شجرة الدُّرْدار.

"فقد بدأ القوم يتحدثون عنا في قريتنا!

" .. راع،... من خطر، فالشوك دائما تحت الورد"(١)

وإني لأتساءل : أين السحر المؤثر الذي يجده فؤادي في هذه الأغنية؟.. إنها نزوة واهمة لاأستطيع أن أفهمها ومع ذلك فمن المستحيل تماما أن أردد هذه الأغنية دون أن تقطع علي دموعي الاسْتِرْسَالُ فيها! ولقد اعتزمت مرارا لاحصر لها أن أكتب إلى "باريس" متحريا عن بقية الكلمات ، إذا كان ثمة من يعرفها ، على أنني أكاد أكون موقنا من أن قسطا من الطرب الذي أشعر به إذ أتذكر اللحن ، لن يلبث أن يتلاشى إذا تبينت أن هناك من ترنم بهذه الأغنية غير عمتي "سوسن" المسكينة!

*****

(١) لا تزال هذه الأغنية معروفة في "باريس" وشائعة بين طبقات العمال فيها وهذه هي تتمة الكلام الناقص :
" القلب إذا ما إشتبك بحب راع، لا ينجو من خطر". "فالشوك دائماً تحت الورد".

وهكذا كانت مشاعري الأولى في بداية عهدي بالحياة.. وهكذا بدأ يتكون ويتكشف في صدري ذلك القلب الأبي الشفوق، وتلك الشخصية التي لاتلين ولاتنثني برغم رقتها القريبة من الأنوثة ، والتي استطاعت خلال حياتي - بتَذبْذبِها بين الخجل والجرأة ، وبين الضعف والسيطرة على النفس - أن تجعلني مُتقلّبا ، والتي تسببت في أن أصبحت التقوى والمتعة، واللهو والتعقل ، تفلت من قبضتي على السواء !

ثم قطع على المضي في الخُطْوة بهذه التربية حادث كان لتَبعَاته تأثير على كل ما تبع ذلك في حياتي : فقد اشتجر أبي مع "يوزباشي" في الجيش الفرنسي يدعى "**جوتييه**" ، كان على علاقة ببعض أعضاء المجلس الشعبي ، ولقد نزف أنف ذلك "**الجوتييه**" - الذي كان جبانا ، وَقحاً - أثناء الشجار، فأراد أن يثأر لنفسه ، واتهم أبي بأنه شهر سيفه داخل أسوار المدينة . وقد تَشَبثَ أبي - الذي أرادوا أن يلقوا به في السجن - بأن لابد لصاحب الاتهام أن يرسل هو الآخر إلى السجن ، وفقا للقانون ، فلما عجز عن أن يحقق هذا آثر أن يهجر "**جنيف**" ، وأن يَنْفِي نفسه من وطنه بقية حياته على أن يتخلى عن أمر يتعلق بالشرف والحرية ، كما تراءى له !

وبقيت أنا في كنف خالي "**برنار**" ، الذي كان في تلك الحِقْبَة يعمل في إنشاءاستحكامات "جنيف" ، وكانت ابنته الكبرى قد ماتت ، وبقي له ابن في مثل سني ، فأوفدنا معا إلي "**بوسي**" لنقيم في رعاية القس البروتستانتي " **لامبرسييه** " ، كي نتلقى - إلى جانب اللغة اللاتينية - كل تلك السَّفاسف الداعية للأسف ، والتي يزج بها تحت اسم التربية والتعليم. وقد الانت السنتان اللتان قضيتهما في القرية من خشونتي الرومانية بعض الشيء ، وردتاني طفلا من جديد ، ففي "**جنيف**" كنت أهوى المطالعة والاطلاع، إذ لم تكن ثمة مَهَام مفروضة علي .. أما في "بوسي" فإن واجباتي جعلتني أحب الالعاب التي كانت تُتيحُ لي الفرار من تلك الواجبات، وكان الإقليم جديدا بالنسبة إلي ، فلم يَهُنْ استمتاعي به ، وقد تملكتني عاطفة قوية نحوه ، لم تخب منذ ذلك الحين . فكانت ذكرى الأيام الهنيئة التي قضيتها هناك تملأ نفسي حنينا محسورا إلى بهجتها ، في كل فترات حياتي، حتى اليوم الذي قدر لي فيه أن أعود إلى ذلك الإقليم!

ولقد كان مسيو"**لامبرسييه**" لبيبا ، ذكيا ، لم يسرف قط فيما كان يفرضه علينا من واجبات ، ولم يهمل في تعليمنا . ويكفي دليلا على أن أسلوبه في التعليم كان جيدا ، إنني برغم كراهيتي للقيود ، لم أذكر مرة سُوَيْعات دراستي بامتعاض.. وإنني ، حتى إذاكنت لم أتعلم كثيرا على يديه ، استوعبت في غير عناءما تلقيته عنه ، فلم أنسه أبدا . وكانت بساطة الحياة الريفية لاتُقَدَّر بقيمة في اعتباري ، فقد فتحت قلبي للصداقة. إذ إنني لم أكن قد عرفت حتى ذلك الحين سوى بعض المشاعر ، التي كانت - على سموها - خيالية متعلقة بأوهام!. على أن تعود العيش في وئام مع ابن خالي- وابن عمتي في الوقت ذاته- شَدَّ كلا منا إلى الآخر بروابط من التعاطف ، وسرعان ما أصبحت عواطفي نحوه أكثر مودة من تلك التي كنت أُوثِرُ بها أخي ، ولم يقدر لها قط أن تَهُن أو تضعف ، وكان ابن خالي طويلا ، نحيفا ، ضعيفا.. رقيقا في مسلكه بقدر ما كان رقيقا في بنيانه، لم يحاول مطلقا أن يسيء استغلال الإيثار الذي كان يلقاه في البيت بوصفه ابن الرجل الذي كان يَكْفُلُنِي !.. وكانت واجباتنا ، وميولنا ، وأذواقنا واحدة ، وكنا وحيدين، وفي سن واحدة ، وكل منا بحاجة إلى زميل .. فكان الفراق - في نظرنا - نوعا من الهلاك!.. ومع أنه لم تُتَحْ لنا سوى فرص قليلة لإبداء هذا التعلق المتبادل إلا أنه كان تعلقا قويا شديدا ، فلم يكن من العسير علينا - فحسب- أن نعيش لحظة متباعدين ، بل إننا لم نكن نتصور أن من المحتمل أن نفترق!

.. ولما كان كل منا على استعداد لأن يَجْنَح إلى اللُّطف والدَّعة مع الآخر - في الأحوال التي لم

يكن فيها أي قَسْر- فإننا كنا دواما على اتفاق في كل شيء . وإذا كان ابن خالي قد اعتاد أن يحظى بشيء من الامتياز دوني ، عندما كنا نجتمع باللّذين كانا يرعياننا - نظرا لمكانته في اعتبارهما - فإنني كنت أحظى ، إذا ما خلا كل منا إلى الآخر ، بامتياز عليه ، مما كان يحقق التعادل بيننا .. فكنت - ونحن نستذكر دروسنا- أؤنبه إذا ما أبطأ ، كما كنت أساعده إذا ما فرغت من واجباتي الدراسية .. أما في تسليتنا وألعابنا ، فقد كان عقلي أكثر نشاطا من عقله دائما ؛ مما كان يكفل لي الزعامة . وقصارى القول إن شخصيتينا انْسَجَمَتَا تمام الانسجام ، كما أن الصداقة التي توثقت بيننا كانت من الإخلاص الصادق بحيث إننا لم نكن نفترق تقريبا ، طوال السنوات الخمس التي قضيناها معا ، سواء في "**بوسي**" أو في "**چنيف**" .. ومع أننا كنا نشتجر أحيانا ، إلا أن الشجار لم يكن ليفرق بيننا ، ولا كانت منازعاتنا تدوم لأكثر من ربع ساعة ولا كان أي منا يشكو الآخر أو يتجنى عليه !.. وقد تكون هذه الملاحظات صبيانية - إن شئت أن تراها كذلك - ولكنها تضرب مثلا قد يكون فريدا في نوعه ، مذ وُجِدَ أطفال على الأرض!

*****

ولقد راقت لي الحياة التي مارستها في "**بوسي**" حتى إنها لو دامت أطول مما قُدِّرَ لها لكانت خليقة بأن تُشَكِّلَ شخصيتي .. فقد كان أساسها الحنان ، والعطف ، والرقة.. وكنت أومن بأن أحدا من أبناء نوعنا لم يكن يبزني فيما فُطِرْتُ عليه من تحرر من الغرور، وكنت أسمو بنفسي فأحلق عاليا ، ثم لا ألبث سراعا أن أهوي إلى ضعفي الطبيعي واسْتِخْذَائي ..

كانت أكثر رغباتي إلحاحا ، هي أن أكون محبوبا لدى كل من يتصل بي عن كَثَب ،وقد كنت ذا فطرة رقيقة ، وكذلك كان ابن خالي ، والشخصان اللذان وُكِلَتْ إليهما رعايتنا ؛ ومن ثم فإنني لم أشهد ، ولا خبرت - خلال عامين كاملين- أي شعور أهْوج عنيفا بل كان كل شيء يغذي في قلبي تلك الميول التي أودعته الطبيعة إياها ، ولم أكن أعرف سعادة تسمو على أن أرى كل الدنيا راضية عني ، وعن كل شيء ! ولن أنسى ما حَيِيتُ أن شيئا لم يكن يَقُضُّ راحة بالي قدر مشاهدتي أمارات القلق والاستياء على محيا الآنسة "**لامبرسييه**" - أخت القس - عندما كان يُقَدَّرُ لي أن أتردد أو أَتَلَعْثَمُ ، وأنا أتلو الدرس الديني من الذاكرة في الكنيسة . كان هذا - في حد ذاته - أكثر إزعاجا لي من أن أكشف عن عجز في أمام الملأ، على ما كان في هذا من إيلام لنفسي؛ ذلك لأنه وإن لم يَسْتَخِفَّنِي الإطراء إلا أنني كنت شديد التأثر بما يخجل ، وإني لأذهب هنا إلى القول بأن التفكير في تأنيبات الآنسة "**لامبرسييه**" كان أقل إزعاجا لي من الخوف من أن أجرح شعورها!

على أن الشدة لم تكن تُعْوِزُ الآنسة وشقيقها -إذا دعا إليها الأمر- ولكن هذه الشدة كانت عادلة في الغالب ، ولم تكن قط صادرة عن انفعال أو مَوْجِدَة ؛ ومن ثم فإنها كانت تؤلمني دون أن تثير تمردي .. كان الإخفاق في الإرضاء أَقْسَى وقعا على نفسي من العقاب، وكانت أمارات الاستياء أكثر إيذاء لي من العقاب البدني .. وقد يكون من المُحْرِج أن أمضي في الحديث عن نفسي بأكثر من هذا ، ولكنني لاأجد بدا .. فما أشد ما تتغير إليه معاملة المرء للصغار ، إذا قُدِّرَ له أن يرى بجلاء مدى آثار أسلوب المعاملة المألوف الذي يُنْتَهَجُ دائما دون ما تَبَصُّر ولاحكمة !.. وأن الدرس الهام الذي قد يستمد من مثال واحد - شائع بقدر ما هو خطير العواقب - ليحملني على أن أروي هذا المثال:

كـانت الآنسـة "**لامبرسييه**" تُكِنُّ لنا حنان الأمومة ، ولكنها كانت كذلك تَفْرِضُ علينا سُلْطَان الأم، وكانت أحيانا تذهب في ذلك إلى حد معاقبتنا – كما يعاقب الأطفال – عندما نستحق ذلك . ولقد اكتفت – بعض الوقت – بالتهديدات؛ فكان الإنذار بالعقاب يبدو لي رهيبا ؛ إذ كان جديدا علي .. على أنني تبينت – بعد تنفيذه – أن الواقع كان أقل رهبة من الترقب . .والأغرب من ذلك ، أن العقاب جعلني أكثر تعلقا بتلك التي أَنْفَذَتْهُ في ! ووجدتني بحاجة إلى أن أَتَذَرَّعُ بقوة هذا التَّعَلُّق، وبكل ما أُوتِيتُ من وداعة فطرية؛ لأَكْبَحَ نفسي عن إتيان ما قد يجعلني أهلا لتكرار العقاب؛ إذ إنني كنت أشعر بالألم – على ما فيه من خزي – بلذة تجعلني أقل خوفا، وأكثر رغبة في أن أحظى به مرة أخرى، من نفس اليد!

ولاريب في أن غريزة جنسية ما –ذات نضوج مبكر سبق أوانها – كانت تخالط هذا الشعور ؛لأن عين النوع من العقاب لم يكن يبدو مستحبا إذا ما أوقفه بي شقيق الآنسة! . . على أنه لم يكن ثمة خوف من أن يَحِلَّ القس محل أخته في معاقبتي ، نظرا لرقة مشاعره. وإذا كنت قد نأيت بنفسي عن أن أستحق العقاب، فما كان ذلك إلا عن خوف من أن أتسبب في استياء الآنسة "**لامبرسييه**" . ذلك لأن كرم الخلق كان أقوى تأثيرا على نفسي من كل لذة حسية؛ ومن ثم فقد كان دائما يسيطر على هذه الأخيرة في أعماقي!

ولقد نَجَمَ تَكْرَارُ العقاب – الذي تفاديته دون أن أخشاه– عن غير ذنب مني .. ولي أن أقول إنني أفَدت منه ، دون أي تَبْكِيت من ضميري. . ولكن هذه المرة الثانية كانت هي الأخيرة كذلك؛ لأن الآنســة "**لامبرسييه**" – التي لاحظت ولاشك شيئا أقنعها بأن العقاب لم يؤثر الأثر المنشود– أعلنت أن هذا العقاب يُضْنِيهَا، وأنها لذلك اعتزمت أن تتحول عنه ! وكنا حتى ذلك الحين ننام في غرفتها، بل وفي سريرها أحيانا ، أثناء الشتاء . ولكنا – بعد يومين – نقلنا للنوم في غرفة أخرى . ومنذ ذلك الوقت ، حظيت بشرف المعاملة كفتى كبير، وهو شرف كنت على استعداد لأن أتخلى عنه مغتبطا!

*****

وهل يصدق أحد أن هذا العقاب الصبياني الذي كانت تُنْزِلُهُ بي– وأنا لم أتجاوز الثامنة من عمري – شابة في الثلاثين ، قد أثر على ميولي ، ورغباتي ، ونزواتي ، وعلى نفسي ذاتها ، طوَال بقية حياتي، وبشكل يناقض تماما النتيجة الطبيعية التي كان ينبغي أن يؤدي إليها؟. . فما إن اتَّقَدَتْ مشاعري مرة حتى انطلقت شهواتي ، وإن لم تَحْفُلُ بأن تتطلع إلى أكثر من الإرضاء المحدود الذي شعرت به بالفعل في ذلك العقاب! . . على أنني برغم دمي الحار– الذي كان يتقد بالشهوة منذ مولدي تقريبا– صنت نفسي عن كل شائبة، حتى السن التي تستيقظ فيها أبرد الطباع وأكثرها فتورا وبطئا ! . . فقضيت زمنا طويلا التهم كل الحسان اللائي كنت أقابلهن بنظرات مُتَّقِدَة ، وأنا أتعذب دون أن أدري لذلك سببا! . . ، وكان خيالي لا يفتأ يُذَكِّرني بهن لالشيء إلا لأستغل أطيافهن على طريقتي الخاصة، فأجعل منهن نسخا عديدة من الآنسة "**لامبرسييه**"! . . بل إن هذا الذوق الغريب– الذي ظل كامنا في نفسي على الدوام و الذي ذهب سلطانه علي إلى حد أن فرض علي الحرمان واستبد بي إلى درجة تثير الغيظ – لم يؤثر على أخلاقي ، حتى بعد أن بلغت سني النُّضُوج، برغم أنه كان خليقا – بطبيعته – بأن يُقَوِّض من هذه الأخلاق!

وإذا كانت ثمة تربية عفة طاهرة،فهذه هي تربيتي يقينا. فإن عماتي الثلاث لم يكن أمثلة للتقوى فحسب بل إنهن كن متحفظات إلى درجة لم تعد مألوفة بين النساء منذ أمد طويل.

وكان أبي محبا للهو ولكنه كان في لهوه من أتباع المدرسة القديمة في الكياسة، فما نطق يوماً بكلمة يمكن أن تبعث حمرة الخجل إلى وجنات العذارى ، ولو في حضرة نساء يُؤْثرُهُنَّ بما لم يكن يؤثر به سواهن من حب.. ولم يكن الوقار- الخليق بأن يُلْتَزم في حضور الصغار - موضوع مراعاة في أسرة ما قدر ما كان مرعيا في أسرتي ، وفي حضوري ..

وقد وجدت من السيد **"لامبرسييه"** نفس الحرص في هذه الناحية ، حتى لقد فصل من خدمته خادما جد بارعة، لمجرد أنها استعملت في حضورنا تعبيرا كان يعتبر مُسْتَهْجَناً غير لائق!. وقد ظللت حتى بلغت مبلغ الرجال ، دون ما فكرة واضحة عن ممارسة الحب بين الجنسين.. ليس هذا فحسب ، بل إن الصورة المُبْهَمَة ، غير الواضحة المعالم عن ممارسة الحب ، لم تكن لتخطر ببالي إلا في أقبح الأشكال وأزرأها . وكنت أشعر نحو البغايا بازدراء عَارِم لم تَخف حدته يوما ، وظل أي مشهد للفجور يملأ نفسي بالسخط ، بل وبالاشمئزاز دائما .. وهكذا وُلِدَ استبشاعي للفسق منذ اليوم الذي سرت فيه إلى تلال **"بيتي ساكونيكس"** - على غير قصد واضح مني - فشهدت على الجانبين حفرا في الأرض ، قيل لي إن تلك المخلوقات - البغايا - كن يمارسن فيها بغاءهن. وقد ظل مجرد التفكير في أي بَغِيٍّ ، يبعث في ذهني صورة جماع الكلاب، فكانت الذكرى وحدها كافية لأن تثير اشمئزازي!

هذا الاتجاه الذي اتجهت إليه تربيتي ، والذي أدى - في حد ذاته - إلى تأخير الاندلاعات الأولى لطباع قابلة للالتهاب .. أقول إن هذا الاتجاه وجد - كما ذكرت - ما يُعَزِّزهُ في الاتجاه الذي اتخذته أولى بَوَادِرِ الحس الشهواني في حالتي.

فإن اقتصاري في شغل خيالي على ما أحسست به بالفعل- برغم ما كان فوران دمي يُسببه لي من متاعب - علمني كيف أحول شهواتي نحو هذا النوع من اللهو الذي كنت آلفه ، دون أن أتمادى إلى ذلك النوع الذي وجدت نفسي تبغضه ، والذي كان جد وثيق الارتباط بالنوع الآخر !.. فكنت في تصوراتي الطائشة ، وفي فوراتي الجنسية المكبوتة. وفي التصرفات الهَوْجَاء التي كانت تدفعني هذه وتلك إليها أحيانا.. كنت في كل هذه ، ألجأ في "خيالي" إلى الاستعانة بالجنس الآخر، دون أن يخطر قط ببالي أن هذا الجنس يصلح لخدمة أي غرض سوى ذلك الغرض الذي كنت أتحرق شوقا إلى أن أستخدمه فيه ، وعلى هذا النحو استطعت - برغم ما جُبِلْتُ عليه من طبيعة شهوانية هَوْجَاء تسبق أوانها في النضوج- أن أجتاز فترة البلوغ دون شهوات بل دون ما إدراك لأية ملذات شهوانية اللهم إلا تلك التي نبهت الآنسة **"لامبرسييه"** حسي إليها في براءة تامة، ودون أن تفطن!

فلما بلغت - مع الزمن - مبلغ الرجال إذا بالأحاسيس التي كانت خليقة بأن تقضي علي ، هي ذاتها التي صانتني من الدمار.. وبدلا من أن يختفي شعوري الصبياني القديم إذا به يَقْتَرِنُ بالشعور الآخر- المتسامي- بدرجة تَعذَّر علي معها أن أقصيه عن الرغبات التي أخذت شهواتي تُذْكيها في نفسي.. وكان هذا الجنون ، إلى جانب ما جُبِلْتُ عليه من خجل فطري يجعلني دائما أبعد ما أكون عن أن أروق في نظر النساء،؛إذ كانت تُعْوِزُنِي الجُرأة على أن أقول كل ما ينبغي أن يقال ، كما كانت تعوزني القدرة على أن أفعل كل ما ينبغي أن يفعل .. ذلك لأن النوع الذي كان يروق لي من المتعة - والذي كانت اللذة الأخرى هي الحلقة النهائية المكملة له - لم يكن مما يلجأ إليه المشوق إلى اللذة ، ولا مما يخطر ببال المرأة التي تجد من نفسها استعدادا لأن تمنح اللذة!

وهكذا قضيت عمري في شوق مُتَقَاعِس دون أن أنبس ببِنْتِ شفة في حضرة أولئك النساء اللواتي أحببتهن كل الحب .. على أنني أرضيت ذوقي أخيراً – وأنا أشد ما أكون استحياء من المجاهرة به– في مواقف كانت تتمشى معه ، وإن احتفظت في نفسي بالفكرة!.. فكان مجرد الاستلقاء عند قدمي سيدة جليلة ، وإطاعة أوامرها ، واستغفاري إياها أحلى متعة في رأيي!.. وكلما أذكى خيالي النشيط وَقْدَةُ دمائي ازداد ظهوري بمظهر العاشق الخجول . ومن السهل أن يتصور أي امرئ أن هذا النَّهْجَ في الهوى لايقود إلى نتائج عاجلة ، ولا هو جد خطير على فضيلة أولئك الذين يخضعون لسلطانه .. ومن أجل هذا ، ندر أن ضاجعت امرأة ، لكنني – مع ذلك– متعت نفسي بطريقتي الخاصة .. أعني ، في خيالي فقط !.وهكذا تسنى لأحاسيسي المنسجمة مع "طبعي" الخجول وروحي الخيالية الشاعرية، أن تصون مشاعري نقية ، وأخلاقي خالصة مما يعاب، وذلك بفضل نفس النزوات التي كانت خليقة– إذا ما اقترنت بقليل من النزق– بأن تَزُجَّ بي إلى أبشع مسلك شهوي حيواني !

بهذا أكون اجتزت أصعب الخطوات في أظلم وأقذر الدروب في اعترافاتي . وإنه لأيسر على المرء أن يعترف بالذنب منه بأن يقر بالنَّزَق الذي يدعو إلى الخِزْيِ.؛ومن ثم فإني واثق من أنني – بعد أن جرؤت على أن أقول ما قلت – لن أجْفُلَ من شيء . وفي وسع أي إنسان أن يقدر مدى ما كبدتني هذه الاعترافات ، إذا علم أنني خلال حياتي كلها لم أجسر قط على أن أفضي بشيء من ضلالاتي لأولئك الذين أحببتهم بعاطفة هوجاء حرمتني البصر والسمع ، وسلبتني مداركي ، وجعلتني أرتجف في اختلاجات عنيفة.. فما استطعت يوما أن أحمل نفسي على أن أسأل امرأة أن تمنحني النعمة المُشْتَهَاةُ دون كل النعم ، مهما كنت وثيق الصلة بها!.. أجل لم يحدث لي هذا سوى مرة احدة، وكان ذلك في حداثتي ، ومع فتاة من سني .. وحتى في تلك المرة، كانت الأنثى هي السباقة إلى العرض!

وإذ أرجع بالذاكرة إلى المعالم الأولى في حياتي الداخلية أعثر على عوامل قد تبدو– في بعض الأحيان – غير ذات بال ولكنها مع ذلك اتحدت لِتُنْتِجَ في قوة أثرا بسيطا مهذبا.. كما أعثر على عوامل أخرى قد تبدو– في ظاهرها – كسابقتها ولكنها كونت اتحادات مختلفة عن تلك ، بفضل تعاون ظروف معينة ، دون أن يتصور المرء مطلقا أنها كانت مترابطة!.. فمثلا، من ذا الذي يعتقد أن نزعة من أقوى نزعات نفسي قد هَذَبَّتْ وذَلَّلَتْ في أعماقي النبع الذي فاض منه في دمي سيل من الشهوة ومن التَّخَنُّث؟.. ولسوف أرسم على ضوء هذا الموضوع – دون أن أخرج عن نطاقه– صورة أخرى مختلفة:

فقد حدث ذات يوم أن كنت أستذكر دروسي في عزلة في الحجرة المجاورة للمطبخ ، وكانت الخادم قد وضعت أمشاط الآنسة "**لامبرسييه**" أمام المدفأة لتجف. فلما جاءت لتستعيدها وجدت مشطا قد تحطمت جميع أسنانه.. فعلى من كان يقع اللوم؟

لم يكن ثمة من دخل الحجرة سواي ! فلما سئلت أنكرت أنني مسست الأمشاط، فشرع السيد والآنسة"**لامبرسييه**" في أخذي بالرفق، ثم بالضغط ، ثم بالوعيد ولكنني أصررت على إنكاري في عناد ، على أن القرائن كانت جد قوية ، بحيث فاقت كل احتجاجاتي– برغم أنها كانت المرة الأولى التي ظُنَّ فيها أنني أكْذِبُ بمثل هذه الجرأة! – فاعْتُبِرَتْ المسألة خطيرة، وكانت في الواقع جديرة بذلك. وبدا الذنب ، والكذب ، والعناد، خليقة كلها بأن تتطلب العقاب ، ولكن العقوبة لم تنفذ

بيد الآنسة **"لامبرسييه"** في هذه المرة، وإنما أُرْسِلَ خطاب إلى خالي **"برنار"** ، فحضر واتهم ابن خالي المسكين بذنب آخر خطير ، لا يقل عن ذنبي ، فحق عليه نفس العقاب وما كان أفظعه !.. فلو أنهم شاءوا أن يستخلصوا العلاج من الداء، وأن يقتلوا إلى الأبد أحاسيسي المكبوتة لما فعلو أكثر مما فعلوا في هذه المناسبة ، فقد كفت مشاعري الشهوية عن إزعاجي أمدا طويلا بعدها !

ذلك أنهم لم يستطيعوا أن ينتزعوا مني الاعتراف المنشود. ومع أنني مثلت بين أيديهم عدة مرات، تعرضت لمحاولات أرهقتني إلى درجة خليقة بالرثاء ، إلا أنني لم أتزعزع عن موقفي . وكنت على استعداد لأن أَصْمُدَ حتى الموت، وقد عقدت عزمي بالفعل على ذلك ! واضْطُرَّتْ القوة إلى أن تتراجع أمام "العناد الشيطاني" الذي كان صادرا عن غلام صغير- كما وصفوا ثباتي - وأخيرا نجوت بجلدي من هذه المحاكمة القاسية وأنا محطم .. ولكنني كنت منتصرا ! ولقد انقضى حتى الآن خمسون عاما منذ وقع هذا الحادث - فلست أخشى أن أعاقب ثانية من أجله - ومن ثم فإنني أعلن على مشهد من السماء أنني كنت بريئا من الذنب ، وأنني لم أكسر المشط أو أمسه ، ولا اقتربت من المدفأة ، بل ولا فكرت في ذلك .. ولا جدوى من وراء سؤالي عن كيفية حدوث ما حدث ، فإنني لا أدري ولا أستطيع أن أدري .. كل الذي أعلمه عن يقين ، هو أنني لا شأن لي به !

*****

ولكم أن تتصوروا شعور غلام خجول ، ومُطيع في حياته العادية ، ولكنه شديد الاعتزاز ، مُفْرِطُ الكبرياء ، جامح العواطف.. غلام لم ينَقْدَ قط إلا إلى صوت العقل ، ولم يعامل إلا بالرفق ، والإنصاف، والتقدير ، فليست لديه أية فكرة عن الظلم .. تصوروا غلاما كهذا يتعرف للمرة الأولى على مثل هذه الصورة الفظيعة للظلم، وعلى أيدي أولئك الذين كان يحبهم بالذات ويحترمهم أكثر من غيرهم !.. فيالها من صدمة خيبت آراءه ! وياله من حادث أَخَلَّ باتزان مشاعره ! وياله من انقلاب ألَمَّ بقلبه وعقله وكل كيانه الذهني والمعنوي على صغره ! تصوروا هذا إن استطعتم !.. أما أنا فإنني أعجزعن تبين أو تتبع أي أثر من الآثار التي خالجتني من جَرَّائه!..

ذلك أنه لم يكن لي من الإدراك يومئذ ما يمكنني من أن أرى إلى أي مدى كانت الظواهر تقف ضدي ، ومن أن أضع نفسي في موقف الآخرين. لقد صمدت في موقفي ، فكان كل ما شعرت به يتمثل في قسوة العقاب الرهيب عن ذنب لم أرتكبه ..ولم أحس بالألم الجسدي- برغم شدته - إلا قليلا ، وإنما كان كل شعوري ينحصر في السخط ، الغضب ، والقنوط .. وكذلك كان ابن خالي - الذي كانت حاله مشابهة لحالي ، والذي عوقب لخطأ صدر عن غير إرادته وكأنه كان عملا مُدَبَّرا مُتَعَّمدا - فقد لاذ بسُخْط مثل سخطي ، وانساق إلى عين الانفعال الذي انسقت إليه. وإذ كنا ننام في سرير واحد فقد احتضن كل منا الآخر في ضمات تَشَنَّجية،حتى شعرنا باننا نوشك أن نختنق . وعندما سري عن قلبينا الصغيرين بعض الشيء- في النهاية- بدأ القلبان يَنْفُثَان غلّهما ، فاستوينا جالسين في سريرنا ، رحنا نصرخ بأعلى صوتنا، مرات لا عداد لها " أيها الجلاد!" .. الجلاد!.. الجلاد!" .

إنني لأشعر- إذ أكتب هذه الكلمات- بأن خفقات قلبي تتسارع ، فلسوف تظل ذكرى تلك اللحظات ماثلة أمامي أبدا،ولو عشت مائة ألف سنة!.. لقد ظل أول شعور لي بالعنف والظلم محفورا في نفسي إلى درجة أن كل الأفكار المتصلة به تَرُدُّني دائما إلى الانفعالات الأولى التي

خالجتني .. وقد اشتد هذا الشعور ، الذي لاقيمة له في جوهره إلا لدي أنا وحدي، اشتد في حد ذاته، واستقل عن كل تأثر أو ميل شخصي ، حتى إن قلبي ليكتوي حَنَقًا كلما سمعت أو رأيت أي عمل من أعمال الظلم – مهما تكن فريسته أو أينما يرتكب – وكأنما ينصب تأثيره علي أنا .. وعندما أقرأ عن فظائع أي جبار طاغية ، أو منكرات أي قس لئيم ، فإنني لا أتردد في أن أغمد خنجرا في قلب شقيين كهذين ، وأنا مسرور .. ولو قُضِيَ علي بأن أعدم مائة مرة من أجل ذلك ! .. وكثيرا ما أنهكت نفسي – حتى يَتَفَصَّدُ العرق مني– وأنا أطارد ، أو أرمي بالأحجار ديكا أو بقرة أو كلبا، أو أي حيوان أكون قد رأيته يعذب حيوانا آخر لمجرد شعوره بأنه الأقوى! .. وقد تكون هذه الرغبة طبيعية بالنسبة لي– وإني لأعتقد أنها كذلك!–ولكن الأثر الذي خلفه الظلم الأول في نفسي ظل طويلا مرتبطا بها بقوة بالغة ، إلى درجة لم يكن من الممكن معها ألا يقوى ويشتد!

وبوقوع الحادث الذي رويته ولت طمأنينة طفولتي ووداعتها ، فكففت منذ تلك اللحظة عن الاستمتاع بأية سعادة صافية ، ولاأزال أشعر – إلى اليوم – بأن ذكرى مفاتن طفولتي وقفت عند ذلك الحد! ولقد مكثنا بعد الحادث بضعة شهور في "بوسي" ، غير أننا كنا هناك كما كان الإنسان الأول فيما يصورونه لنا : كنا في جنة أرضية ، ولكنا لم نعد نستمتع بها ! صحيح أن حالنا ظلت في ظاهرها على ما كانت عليه ولكنها كانت قد تغيرت في جوهرها تغيرا تاما . فإن التعلق ، والاحترام ، والمودة ، والثقة ، لم تعد تَرْبِطُ التلميذين بِرَائديهما ؛ومن ثم فإنا لم نعد نعتبرهما من "الملائكة" لم نعد نعتبرهما ملكين قادرين على استطلاع قلبينا ؛ ولهذا أصبحنا أقل من ذي قبل استحياء من ارتكاب الأخطاء ، وأكثر خوفا من أن نتعرض للاتهام.. وبدأنا نفقد سذاجتنا ، وطاعتنا ، وشرعنا نلجأ إلى الكذب.. وقَوَّضَتْ كلٌّ رذائل السن التي كنا نجتازها بَراءَتَناَ ، وألقت على موارد تسليتنا قناعا قبيحا ! بل إن الريف ذاته فقد في نظرنا ما كان له من روعة وبساطة فاتنتين تتغلغلان في القلب، وأصبح يلوح لنا موحشا كئيبا . أصبح يبدو وكأنه استتر وراء قِنَاع حَجَبَ جماله عن أعيننا ، فكففنا عن فلاحة حوضينا في الحديقة ، وعن غرس نباتاتنا وزهورنا .. ولم نعد نفلح الأرض في رفق ونصيح فرحا حين نرى البذرة التي غرسناها قد بدأت تشق وجه الأرض. أصبحنا نكره الحياة، وأصبح الغير يكرهوننا؛ ومن ثم اصطحبنا خالي معه فافترقنا عن السيد والآنسة "**لامبرسييه**" وقد سئم كل فريق منا الفريق الآخر ، فلم نأسف على الفراق إلا قليلا ! .. بل لقد مكثت حوالي ثلاثين عاما بعد مغادرة "**بوسي**" دون أن أستعيد فترة إقامتي بها مصحوبة بأي سرور أو ذكريات!

أما الآن– وقد تجاوزت شرخ العمر، وأخذت أدنو من الشيخوخة – فإنني أشعر بهذه الذكريات بالذات تقفز إلى بالي بينما يتوارى سواها .. إنها لتنطبع على صفحة ذاكرتي بخطوط يتضاعف سحرها ووضوحها يوما بعد يوم ، وكأنني – إذ أشعر بالحياة وقد بدأت تتسلل مني – أحاول أن أمسك بناصيتها، فأغتبط بأتفه أحداث ذلك العهد لا لشيء إلا لأنها تنتمي إلى تلك الفترة من حياتي! .. وأكاد أبصر الخادمة أو الخادم منهمكا في تنسيق الغرفة، أو عصفورا يمرق خلال النافذة ، أو ذبابة تحط على يدي وأنا أتلو ما استذكرت من دروسي .. بل إنني لأتمثل الغرفة التي اعتدنا أن نقيم فيها، بكل تفصيلاتها .. وإلى يمينها غرفة مكتب السيد "**لامبرسييه**" . ولوحة نحاسية نقشت عليها رسوم كل البابوات و"**بارومتر**" وتقويم (نتيجة حائط) كبير معلق على الجدار ، وأشجار الخداش(١) الكثيفة– التي كانت تنمو على بقعة جد مرتفعة من الحديقة– تواجه مؤخرة الدار؛ ومن ثم فإنها كانت تنشر ظلالها على النافذة ، وقد تقتحمها أحيانا! .. وإني لأدرك أن القارئ غير راغب في الإلمام

(١) الخداش نبات متسلق ذو ثمار حمراء ، يشبه العليق.

بكل هذا ولكني مسوق إلى أن أقصه عليه ، فلماذا لاتواتيني الجرأة على أن أروي له كذلك كل الحكايات التافهة التي وقعت في ذلك العهد السعيد، والتي تهزني نشوة حين أتذكرها ؟

إنني لأتوق إلى أن أروي خمسا أو ستا منها ، بوجه خاص .. ولكن ، لنجعلها صفقة بيننا! سأنزل عن خمس منها، بيد أنني راغب في أن أروي لك السادسة ، على شريطة أن تسمح لي بأن أرويها بكل تفصيل ممكن؛ لكي أطيل في اغتباطي !..

ولو أنني اقتصرت على ما فيه فكاهة لك لاخترت لك قصة سقوط الآنسة "**لامبرسييه**" في المرج، وانكشاف ظهرها- أو عجزها على الأصح - لسوء حظها ، حتى لقد بان بأكمله لملك "**سردينيا**" الذي تصادف مروره في تلك الفترة!.. ولكن قصة شجرة الجوز المطلة على الشرفة ، أكثر إمتاعا لي؛ إذقمت فيها بدور - في حين كنت مجرد متفرج في قصة السقوط في المرج!- كما أعترف بأنني لاأجد ما يدعو قط إلى الضحك في حادث أثار- برغم طرافته - خوفي على سلامة شخص كنت أحبه، فقد كنت أحب الآنسة"**لامبرسييه**" كأم ، بل أكثر من أم!

والآن ، أنصتوا أيها المتشوقون إلى حكاية شجرة الجوز المطلة على الشرفة .، أنصتوا إلى المأساة الرهيبة ، حاولو أن تتفادوا الارتجاف إن استطعتم!.. ففي خارج باب فناء البيت كانت تقوم إلى يسار المدخل شرفة اعتدنا أن نجلس فيها فيما بين الظهيرة والأصيل. ولما كانت في غير وقاء من الشمس مطلقا فقد أمر السيد "**لامبرسييه**" بإقامة شجرة جوز هناك ، وتمت عملية غرسها في أكثر مظاهر الاحتفال جلالا، إذ اختير نزيلا الدار- أنا وابن خالي- إشبينين للشجرة! وبينما كان التراب ينهال في الثغرة التي أقيمت فيها الشجرة، أسند كل منا الشجرة بإحدى يديه، ورحنا نردد أناشيد الانتصار والفوز!.. ولري الشجرة أنشئ حول أسفل جذعها ما يشبه الحوض ، وإذ رحت وابن خالي نرقب ريها كل يوم بشغف اشتد بنا الاقتناع- بطبيعة الحال- بأن من المستحسن غرس شجرة أخرى في الشرفة ذاتها ، فإن هذا أفضل من أن ننشر غطاء على ما بين فروع شجرة الجوز من ثلمات .

وعقدنا العزم على أن نستأثر بما في هذا العمل من فضل، فلا نشرك معنا أحدا .. ولهذا بادرنا فقطعنا غصنا من صفصافة ، وغرسناه في الشرفة ، على مسافة تتراوح بين ثمانية وعشرة أقدام من شجرة الجوز الضخمة ، ولم ننس أن نحفر حول شجرتنا قناة لريها شبيهة بتلك التي حفرت حول الشجرة الأخرى ، ولكن الصعوبة تمثلت في ابتكار طريقة لملء القناة بالماء، إذ كان الماء ينساب على مسافة من الشجرة ، ولم يكن مباحا لنا أن نهرع لاجتلابه .. ومع ذلك فلم يكن ثمة غنى عن اجتلاب قدر منه لصفصافتنا ، وقضينا بضعة أيام نجرب كل طريقة ممكنة للحصول على ماء ، حتى نجحنا إلى درجة دبت عندها الحياة في الشجرة ، فنبتت عليها أوراق صغيرة. وأقنعنا نموها- الذي كنا نحسبه ونقيسه في كل ساعة - بأنها لن تلبث أن تفيء علينا ظلالا ، برغم أن طولها لم يكن قد تجاوز قدما واحدة!.. وإذ استأثرت شجرتنا بكل اهتمامنا -حتى إننا لم نعد قادرين على تلقي أو استذكار أي درس- وأصبحنا في غشية حجبت عن عقولنا كل شيء آخر.. وإذ شد رائدانا قبضتيهما علينا ، وهما لايدريان ما ألم بنا ،رأينا أن اللحظة الحاسمة التي لن نجد فيها ماء لشجرتنا وشيكة الحلول ، فطارت نفسانا شعاعا لمجرد التفكير في رؤيةالشجرة تذوي من العطش .. وأخيرا ، أوحت لنا الحاجة- وهي أم الاختراع - وبطريقة تجنبنا الأسى ، وتجنب الشجرة الهلاك المؤكد ، وذلك بأن نحفر قناة تحت سطح الأرض، تسرب إلى صفصافتنا - خفية- قسطا من الماء الموجه إلى شجرة الجوز! .. على أن المشروع فشل في البداية ، برغم الحماس الذي اكتنف تنفيذه ، فقد حفر النفق بطريقة بدائية فلم يجر

الماء فيه مطلقا ، إذ انهار التراب وسد القناة ، وامتلأ المدخل بالطين ، وتلف كل شيء! لكن شيئا من هذا لم يثبط من عزمنا، فإن الدأب يقهر الصعاب جميعا ؛ ومن ثم زدنا المجرى عمقا لنمكن الماء من الجريان ، كما قطعنا قيعان بعض الصناديق إلى شرائح صغيرة ضيقة ، بسط بعضها على القاع– شريحة إثر شريحة– وأقيمت الباقية على الجانبين بميل أقام قناة مثلثة الشكل . ثم غرسنا بضع قطع صغيرة من الخشب متباعدة لدى المدخل ، فكانت أشبه بحاجز أو مصفاة تصد الوحل والأحجار دون أن تمنع انسياب الماء.. ثم غطينا مجراتنا بتراب دسسناه في حذر وعناية حتى سويناه مع سطح الأرض . وإذ انتهى كل شيء ، شرعنا ننتظر– ونحن في أشد الانفعال من جراء الأمل والخوف– موعد الري.. وحانت الساعة أخيرا، بعد انتظار خلناه استغرق قرونا ، فجاء السيد "**لامبرسييه**" ليعاون في العملية كالمعتاد بينما حرصنا نحن على أن نكون خلفه لكي نحجب شجرتنا، التي كان – لحسن الحظ – يوليها ظهره! وما إن سكب أول دلو من الماء حتى رأينا بعضه يجري إلى قناتنا ، وعند هذا المنظر فارقنا تعقلنا ، فبدأنا نطلق صيحات ابتهاج حملت السيد "**لامبرسييه**" على أن يلتفت، وكانت هذه هي الطامة ، فقد تولاه اهتمام ضاف وهو يرى ما كانت عليه التربة التي قامت فيها شجرة الجوز من جودة، وكيف ابتلعت الماء بشراهة ، وإذ دهش لرؤيته الماء ينساب موزعا بين حوضين ، صاح بدوره ، وأنعم النظر ، فتبين الحيلة ! إذ ذاك أمر بإحضار معول ، وكسر بضربة واحدة شريحتين أو ثلاثا من خشبنا، ثم صرخ بصوت جهوري: "قناة! قناة!" وراح يكيل الضربات في كل اتجاه ، دون ما رحمة، فكأنما كانت كل منها تصيب قلبينا مباشرة ! وإن هي إلا لحظات حتى كانت شرائحنا الخشبية ، وقناتنا ، ومجراها، والصفصافة ، وكل شيء ، قد تقوض واجتث من مكانه ، دون أن ينبس القس خلال هذا العمل التدميري بكلمة، اللهم إلا ذلك التعجب الذي راح يكرره دون توقف" قناة!" .. وهكذا راح يصرخ وهو يهدم كل شيء" قناة ! قناة!" . ومن الطبيعي أن يخطر بالبال أن المغامرة انتهت أسوأ نهاية بالنسبة للمهندسين الصغيرين ، ولكن هذا الحدس خاطئ، فقد انقضى ذكرها بانتهاء الهدم، لم ينبس السيد "**لامبرسييه**" قط بكلمة لوم ، أو ينظر إلينا في استياء ، كما أنه لمن يشر إليها بشيء مطلقا ، بل إننا لم نلبث أن سمعناه بعد قليل يقهقه مع أخته ، فقد كانت قهقهته تسمع عن بعد .. على أن الأكثر مدعاة للدهشة هو أننا – بعد أن زايلنا الخوف الأول – لم نشعر بأي انزعاج أو ضيق ، بل إننا غرسنا شجرة ثانية في بقعة أخرى ، وكثيرا ما كنا نذكر نفسينا بالنكبة التي انقضت على محاولتنا الأولى ، بأن رحنا نردد في لهجة ذات معنى : " قناة ! قناة!" .. وكانت تواتيني – حتى ذلك الوقت – نوبات من الزهو ، بين آن وآخر ، إذ إخال نفسي مثل "**آريستديس**" أو " **بروتس**" أو غيرهما من أبطال التاريخ ، ولكن هذه النوبات لم تلبث أن زايلتني إذ شعرت بأول نبضات الغرور واضحة ملموسة .. فقد لاح لي أن إنشاءنا قناة بأيدينا ، وغرسنا فرعا من شجرة لنتحدى به دوحة ضخمة ، كان عملا يرقى إلى ذروة المجد !.. وهكذا كنت – أنا في العاشرة من عمري – أقدر على تمييز المجد من "**قيصر**" حين كان في الثلاثين !

وقد ظلت شجرة الجوز هذه ، والقصة الصغيرة المتعلقة بها حيتين في ذاكرتي ، أو أنهما عادتا إليها بعد حين، حتى لقد كان من المشروعات التي وفرت لي سرورا عظيما– خلال رحلتي إلى "**جنيف**" في سنة ١٧٥٤– أن قررت الذهاب إلى "**بوسي**" وزيارة مراتع صباي ، وفي مقدمتها جميعا "**شجرة الجوز**" التي كان عمرها في ذلك الوقت قد بلغ ثلث قرن!..

ولكني شغلت طيلة فترة وجودي هناك ، ولم يكن لي كثير سلطان على نفسي ، فلم أجد لحظة

أرضي فيها هذه الرغبة.

وليس ثمة احتمال يذكر في أن تسنح لي هذه الفرصة مرة أخرى، ومع ذلك فإن الرغبة لم تتلاش بتبدد الأمل في تحقيقها، بل أكاد أوقن من أنني إذا قدر لي أن أعود إلى تلك البقاع الحبيبة، وأن أجد شجرة الجوز العزيزة قائمة على قيد الحياة، فلن أحجم عن أن أرويها بدموعي!

*****

وبعد عودتي إلى **جنيف**" أقمت مع خالي عامين أو ثلاثة، ريثما يقرر أصدقائي ما ينبغي أن يتم بشأني. ولما كان خالي قد أراد ابنه أن يكون مهندسا، فقد حمله على أن يتلقى شيئا عن الرسم، كما علمه مبادئ "يوكليد" (١) فاستذكرت هذه المواد معه، وتولاني ميل إليها وإلى الرسم بوجه خاص.

وفي تلك الأثناء، كان الجدل يدور حول ما إذا كان يخلق بي أن أصبح صانع ساعات، أو من رجال القانون، أو قسا واعظا!.. وكان ميلي يتجه إلى تفضيل الاحتمال الأخير منها؛ إذ كان الوعظ يبدو لي أمرا بديعا، بيد أن الدخل الضئيل الذي كان يدره عقار أمي - والذي كان يجب أن يقسم بيني وبين أخي - لم يكن كافيا لأن يمكنني من متابعة دراساتي. ولم تكن ثمة ضرورة عاجلة لاتخاذ قرار، نظرا لسني في تلك الفترة؛ ولذلك مكثت مؤقتا مع خالي، دون أن أفيد كثيرا من وقتي ودون أن أدفع مبلغا يذكر لقاء نفقات إقامتي، كما كان الإنصاف يقتضي.. أما خالي، فمع أنه كان محبا للهو مثل أبي، إلا أنه كان عاجزا عن أن يكون مثله في تقيده بالواجب، كما أنه لم يكن يكبد نفسه كثير عناء من أجلنا. وكانت عمتي تعتبر من المنصرفات للتقوى - بحيث كانت تؤثر أن تنشد المزامير على أن تعنى بتعليمنا!. ومن ثم فقد أتيحت لنا حرية كادت أن تكون مطلقة، ولكننا لم نسئ استغلالها قط، فكنا دائما قانعين بصحبتنا أحدنا للآخر، إذ لم نكن نفترق قط كما أننا لم نتعرض لمغريات تحملنا على أن نتخذ من أندادنا من أبناء الشارع رفاقا، فلم نتعلم شيئا من العادات المنحلة التي كان التبطل خليقا بأن يقودنا إليها.. بل إنني لأخطئ إذ أقول: إننا كنا متبطلين، فإننا لم ننحط قط إلى هذا الدرك في حياتنا، وكان من أعظم ما حبانا به الحظ أن كل الطرق التي كنا ننتهجها لتسلية نفسينا، والتي شغفنا بها على التوالي، كانت تشغلنا معا في البيت، دون أن ننساق لغواية الخروج إلى عرض الطريق.. فكنا نصنع أقفاصا، وصافرات "الناي"، وخذاريف (النحلات التي يلعب بها الأطفال)، وطبولا، وبيوتا، وقاذفات للحصى، أو مقاليع)، وأقواسا للرماية، ولقد أتلفنا أدوات جدنا في محاولاتنا أن نصنع ساعات، كما كان يصنع هو!.. وكان لنا مزاج خاص في الإسراف في نماذج الورق، وفي الرسم، واستخدام الألوان المائية، وتوزيع الأضواء، وإفساد الألوان. لقد وفد على "**جنيف**" صاحب مسرح إيطالي يدعى "جامبا - كرتا" فذهبنا لمشاهدة عرضه مرة، لم نرغب بعدها في الذهاب مرة أخرى!.. ولكنه قدم فيما قدم عرضا للدمى (على غرار خيال الظل)، فشرعنا نصنع دمى.. ولما كانت عرائسه تمثل فكاهات، فقد عكفنا على إعداد مسرحيات فكهة من وضعنا. ولما كانت تعوزنا الأداة التي تصدر ذلك الصوت المصوصو المصرصع، فقد عمدنا إلى تقليده بأصوات نصدرها من حلقينا، لكي نخرج مسرحياتنا الفكهة البديعة، التي تذرع أقاربنا المساكين المتفضلون بالصبر كي يجلسوا وينصتوا إليها! ولكن خالي "برنار" قرأ على الأسرة ذات يوم موعظة بديعة من

(١) كان "يوكليد" عالما عاش في الإسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد، وقد وضع أصولا - أو مبادئ - للعلوم الرياضية في ١٣ مجلدا، خص الهندسة منها بتسعة مجلدات

تأليفه ، فإذابنا نهجر المسرحيات الفكهة لنؤلف المواعظ!

إني لأعترف بان هذه التفصيلات ليست مشوقة جدا،ولكنها تبين كيف أن تربيتنا الأولى كانت موجهة خير توجيه، كما يبدو من أننا ندَر أن انسقنا إلى إساءة استغلال الفرص التي كانت متاحة لنا ، برغم أننا كنا سيدي نفسينا وصاحبي السيطرة على وقتنا ، في تلك السن المبكرة! . . ذلك لأننا لم نكن بحاجة تذكر إلى أن ننشد رفاقا وزملاء ، حتى إننا كنا نهمل الفرص التي تقود إلى ذلك ، فكنا إذا خرجنا للتريض، نظرنا ، ونحن نمر بأندادنا في السن ، إلى وسائل لهوهم،دون ما أدنى رغبة، بل دون مجرد التفكير في أن نشاركهم إياها . كانت صداقتنا المتبادلة تملأ قلبينا تمام الملء ، حتى لقد كان يكفينا أن نجتمع معا ، كي نجعل من أبسط أسباب التسليةملهاة سارة ! . . وما لبثنا أن استرعينا الانتباه بتلازمنا هذا، وعدم افتراقنا ، سيما وأن ابن خالي كان فارع الطول ، بينما كنت أنا جد قصير، فكنا نؤلف ثنائيا غريب التكوين! . . كان قوام ابن خالي الطويل النحيل، ووجهه الصغير الشبيه بالتفاحة المسلوقة، وأخلاقه الرقيقة، ومشيته الهينةالمتخطرة ، تستثير سخف الأطفال ، فكان يسمى في ساحة الحي "**بارنا بريدانا**"! وكنا حين نغادر البيت لانسمع سوى صيحة "**بارنا بريدانا**" ! تحف بنا، وقد احتمل هو ذلك بهدوء فاق هدوئي ، إذ كنت أفقد جلدي، وأبدي الرغبة في العراك ، وهذا عين ما كان ينشده الأوغاد الصغار، وقدر لي أن أتشاجر مرة ، فمنيت بالهزيمة. وحاول ابن خالي المسكين أن يساعدني ما استطاع، ولكنه كان ضعيفا، فصرعته لكمة واحدة ، وإذ ذاك اشتد هياجي. على أنني وإن تلقيت لكمات وافرة – لم أكن الهدف الحقيقي للعدوان، وإنما كان "**بارنا بريدانا**" هو الهدف. . وما لبث غيظي المستعر أن زاد من استفحال الموقف، حتى إننا لم نعد نجرؤ على الخروج من الدار – فيما بعد– إلا في أويقات المدرسة خشية أن يتعقبنا الأطفال ليسخروا منا!

ألا ترون إذن أنني أقمت من نفسي ماحيا للمظالم! . . ولكي أصبح "**بالادين**"(١) حقا ، كنت في حاجة إلى سيدة، ولكنني أوتيت اثنتين! فلقد اعتدت أن أذهب – بين وقت وآخر – لزيارة أبي في "**نيون**" ، هي بلدة صغيرة في إقليم"**فود**"، استقر به المقام فيها ، وقد حظي بحب القوم هناك ، وقدر لابنه أن يشعر بآثار ذلك ، ففي الفترة القصيرة التي كنت أمكثها معه ، كان الأصدقاء يتبارون في الاحتفاء بي ، وقد آثرتني سيدة منهم – كانت تدعى السيدة "**دي فيلسون**"– بالف قبلة، ثم توجت كل هذه الحفاوة بأن اتخذتني ابنتها حبيبا لها! . . ومن الميسور أن تفهموا معنى الحب هنا إذا تذكرتم أنني كنت في الحادية عشرة من عمري ، في حين أن الفتاة كانت في الثانية والعشرين! . . ولكن هؤلاء الشابات الخبيثات– جميعا!– لم يكن يتورعن قط عن أن يلعبن أمام الملأ بدمى صغيرة– مثلي – لكي يسترن وراءها أحبابا كبارا، أو لكي يغوين بها هؤلاء الكبار! . . أما أنا، فلم أر شيئا من عدم التكافؤ بيننا ، فحملت المسألة على محمل الجد ، وانغمست بكل قلبي– أو بالأحرى بكل رأسي – إذ إنني لم أقبل على الحب إلا بذلك الجزء من نفسي ، فتماديت إلى درجةالجنون، وكان طربي وانفعالي وخبالي يؤدي إلى مناظر كافية لأن تجعل أي فرد لايتمالك نفسه من الضحك حتى ينشق جنباه!

ولقد ألفت نوعين صادقين من الحب يختلف كل منهما عن الآخر تمام الاختلاف ، فلا يكاد يكون بينهما أي تشابه ، وإن كان كل منهما حارا مشبوبا ، كما أنهما يختلفان– كلاهما– عن الصداقة العاطفية. . بل إن عمري كله موزعا بين هذين النوعين من الحب ، برغم اختلافهما الجوهري ، فاعتدت أن أشعر بهما معا ، وفي آن واحد. . مثال ذلك أنني في الفترة التي أتحدث عنها ، وفي

---

(١) رمز للبطل الذي يدافع عن الحق ويدفع الجور عن المظلومين.

أن يقترب منها أي رجل!- في تلك الأثناء بالذات حظيت عدة مرات قصيرة لكنها حافلة ، مع فتاة معينة - تدعى الآنسة "**جوتون**" - فكانت تعمد خلال تلك اللقاءات إلى القيام بدور المعلمة! وكان هذا غاية الأمر ، ولكن "غاية الأمر" هذه - وكانت هي الغاية فعلا، بالنسبةلي- بدت في نظري منتهى السعادة. . وإذ شعرت بقيمة الغموض، وإن لم أكن أدري كيف أستغله اللهم إلا في نطاق حيل الطفولة ، رحت أكيل بنفس الكيل للآنسة "**دي فيلسون**"- التي لم ترتب في الأمر- جزاء دأبها على استغلالي كستار لإخفاء عشاق آخرين ! بيد أن سري لم يلبث أن تكشف - وبالعظم أسفي!- أو أنه لم يحط من معلمتي الصغيرة بمثل ما كنت أحيطه به من كتمان ، من ثم فسرعان ما افترقنا . . وحدث بينما كنت أجتاز "**كوتانس**" في طريقي إلى "**جنيف**"- بعد ذلك بوقت قصير - أن سمعت بعض فتيات صغيرات يهتفن متهامسات : "**جوتون تيك - تاك روسو**" !

ولقد كانت هذه الآنسة"**جوتون**" الصغيرة فتاة فذة . . فمع أنها لم تكن جميلة ، إلا أنها أوتيت وجها لايسهل نسيانه . . ولاأزال أتمثله في مخيلتي في كثير من الأحيان، في حنان لا يليق بشيخ أرعن! . . وما كان شكلها ، ولا أخلاقها ، ولا عيناها -قبل كل شيء - بالتي تتناسب مع سنها . وكان لها مظهر أشم ، متسلط ، يتفق كل الاتفاق مع دورها ، كمعلمة ، بل إن مظهرها هذا هو الذي أوحى إلي - في الواقع- بأول تفكير في هذا الدور . . ولكن أغرب ما كان فيها ، هو امتزاج بين الرعونة والتحفظ ، لم يكن من الهيّن إدراك ماتاه . . كانت تتصرف معي بكل حريتها ، ولكنها أبدا لم تسمح لي بأن أعاملها بأي تحرر. كانت تعاملني كما تعامل طفلا فحسب ، مما يوحي إلي بأن أعتقد أحد أمرين : إما أنها لم تعد - إذ ذاك- طفلة ، وإما أنها كانت - على العكس- من الطفولة بحيث إنها لم تر في الخطر الذي كانت تعرض له نفسها سوى لون من التسلية واللهو!

وكنت أهب نفسي تماما - كما ينبغي أن يقال - لكل من هاتين الفتاتين ، فإذا ما كنت مع إحداهما ، لم أفكر مطلقا في الأخرى ، وفيما عدا ذلك ، لم يكن ثمة أي شبه - مهما يكن ضئيلا - بين المشاعر التي كانت كل منهما تبعثها في نفسي !

كان بوسعي أن أنفق كل حياتي مع الآنسة "**دي فيلسون**" دون أن يخطر لي أن أفارقها ، ولكن اغتباطي بالقرب منها كان هادئا وخلوا من الانفعال ، وكنت أحبها أكثر مما أحببت أية فتاة من فتيات المجتمع الراقي ، فقد كانت الفكاهات المنبعثة عن ذكاء لماح ، والمجون المستظرف ، وما كانت تبديه من مظاهر الغيرة العابرة ، تستهويني وتستأثر بشغفي . وكنت أشعر بزهو وغرور لما كانت تضفيه علي من مظاهر الإيثار أمام المزاحمين الكبار الذين كانت تعاملهم في ازدراء! . . وكنت أتعذب ، ولكنني أحببت العذاب ! . . وكان التصفيق ، والتشجيع، والضحك ، يبعث الثقة ،والإلهام في نفسي. .وكانت تنتابني نوبات من الوجد المشبوب ثم تنفثئ في فكاهات جريئة . . كان الحب يحيلني شخصا آخر ، في المجتمعات . . أما في الخلوات ، فكنت محرجا ، فاترا ، بل لعلني كنت ضيق الصدر. ومع ذلك فإنني كنت أشعر بعاطفة صادقة نحوها، وكنت أتألم إذا هي مرضت ، بل إنني كنت أتمنى لو أهبها صحتي كي تستعيد عافيتها - برغم أنني كنت أعرف ، بالتجربة معنى المرض ومعنى العافية!- وكنت أفكر فيها وأفتقدها حين أغيب عنها . . أما حين أكون بالقرب منها فإن عناقها كان يهز قلبي ، دون أن يهز حواسي ! كنت متعلقا بها دون ما طمع يشوب حبي، فكان خيالي لا يطلب أكثر مما كانت هي تنعم علي به ، ومع ذلك فإنني لم أكن أطيق أن أراها تفعل مثل ذلك للغير . كنت أحبها حب الأخ لأخته ، ولكنني كنت أغار عليها غيرة العاشق على معشوقته! . . وكنت خليقا بأن أغار على الآنسة "**جوتون**" غيرة التركي ، أو

المجنون أو النمر، لو أنني توهمت مرة أنها قادرة على أن تبدي لغيري ما كانت تبديه لي من معاملة .. ولكنها لم تكن قادرة ، بل إن هذه المعاملة كانت صنيعا اعتدت أن أسالها إياه وأنا جاث أمامها!

كنت أسعى إلى الآنسة "**دي فيلسون**" بفرح طاغ ، ولكن دون ما انفعال، في حين أنني كنت لا اكاد أرى الآنسة "**جوتون**" حتى تنبهر حواسي ، فلا أعود أرى سواها !.. كنت آلف الأولى دون ما كلفة، بينما كنت في حضرة الثانية على النقيض خجولا بقدر ما كنت منفعلا ، حتى في أقصى درجات الفتنا ، واعتقد أنني كنت خليقا بأن أموت لو أنني مكثت معها طويلا ، فإن خفقات قلبي كانت كفيلة بأن تخنق أنفاسي!..

وكنت اخشى أن تستاء مني الاثنتان على السواء ، ولكني كنت أغمر الأولى بمزيد من حفاوتي ، وأبدي للثانية مزيدا من خضوعي ، فما كان لأي شيء في الدنيا أن يحملني على أن أغضب الآنسة "**دي فيلسون**" ، أما إذا أمرتني الآنسة "**جوتون**" بأن ألقي بنفسي في اللهب ، فأعتقد أنني كنت قمينا بأن أطيعها في الحال !.. ولم يستمر حبي – أو بالأ حرى لقاءاتي – للأخيرة سوى وقت قصير. قصير بالنسبة لسعادة كل منا! ومع أن علاقاتي بالآنسة "**دي فيلسون**" لم تكن في خطورة علاقاتي بالاخرى ، إلا أنها لم تخل من الخطر ، بعد أن استمرت أمدا أطول . وجدير بجميع العلاقات التي على هذه الشاكلة أن تنتهي دائما بطريقة شاعرية، وأن تصبح مادة لزفرات الأسى . ومع أن صلتي بالآنسة "**دي فيلسون**" كانت أقل شدة واضطراما من علاقتي بالآنسة"**جوتون**" إلا أنها كانت أكثر توثقا ومتانة،فلم نفترق قط دون دموع ، وكان من الخليق بالعجب حقا،ذلك الفراغ المحير الذي كنت أشعر بأنني أتردى فيه بمجرد أن كنت أفارقها!.. فما كنت أتحدث أو أفكر في سواها، وكان أساي صادقا ومحتدما ولكني أعتقد أن هذا الأسى المنطوي على البطولة لم يكن– في قراره– من أجل الفتاة نفسها ، وإنما كان للمتع التي اعتدت أن أنعم بها في قرب الفتاة، دور في خلقه ، وإن لم أفطن إذ ذاك!.. ولقد اعتدنا– لتخفيف لوعات البعاد– أن نتراسل بخطابات كنا نضمنها من الشجون ما يذيب قلب الصخر!

وظفرت في النهاية، إذ إن الفتاة لم تستطع أن تمضي في التجلد فجاءت إلى "**چنيف**" لتراني . وفي هذه المرة فقدت حجاي تماما ، فكنت منتشيا ، مجنونا ، أثناء اليومين اللذين مكثتهما . فلما رحلت رغبت في أن ألقي بنفسي في الماء وراءها ، وتردد صراخي في الهواء!.. وبعد ثمانية أيام أرسلت لي بعض الحلوى وقفازين ، وكنت خليقا بأن أعتبر هذا مجاملة عظيمة لولا أنني علمت – في الوقت ذاته – أنها تزوجت ، وأن الزيارة التي راق لها أن تشرفني بها إنما دبرت في الواقع من أجل شراء ثوب الزفاف !.. ولن أحاول أن أصف حنقي ، ففي الوسع تصوره!.. وأقسمت – في غضبي السامي – ألا أرى "**الغادرة**" مرة أخرى ، إذ لم أكن لأتصور عقابا أكثر قسوة عليها من هذا !.. ولكنها لم تمت من قسوتي ، إذ حدث – بعد عشرين عاما – بينما كنت أتنزه مع أبي في النهر ، أثناء إحدى زياراتي له ، أن سألته عن سيدتين كانتا في قارب على غير مبعدة منا ، فهتف أبي مبتسما :

"عجبا! ألا ينبئك قلبك؟.. إنها حبيبتك القديمة، التي كانت الآنسة "**دي فيلسون**" وأصبحت السيدة "**كريستان**"!..

وأجفلت إذ سمعت الاسم الذي كاد يصبح منسيا ، سألت النوتيين أن يحولا اتجاه قاربنا ، فمع أن الفرصة كانت سانحة – في تلك اللحظة– لكي أثار لنفسي ، إلا أنني لم أر أية قيمة لأن أعاتب امرأة في الأربعين ، وأن أجدد خصاما مضى عليه عشرون عاما !

٢- من سنة ١٧٢٢ إلى سنة ١٧٢٨

وهكذا بددت أغلى فترات صباي في الحماقات ، قبل أن يستقر الرأي على مهنتي المقبلة ، وبعد جدل طويل بشأن ميولي الطبيعية انعقد العزم على مهنة لم أكن لها سوى أقل ميل ، فقد عهد بي إلى السيد "**ماسيرون**"- كاتب البلدة - لأتعلم على يديه مهنة المحاماة النافعة!.. وكان مجرد الاسم الدارج لهذه المهنة- "مغتصب الأجر" -بغيضا لدي غاية البغض ، ولم يستهوني الأمل في كسب عدد من "الكراونات" (١) من مهنة "وضيعة" كهذه !.. بل إن العمل ذاته بدا لي مملا لايطاق، فإن المطالبة المستمرة ، والشعور بالعبودية أتما كراهيتي ، فما ولجت المكتب مرة دون أن أشعر بنفور أخذ يزداد حدة يوما بعد يوم! كذلك كان السيد "**ماسيرون**" من ناحيته ضيقا بي، فكان يعاملني بازدراء، ولا يفتأ يرميني بالغباء والبلادة، ويردد على أذني كل يوم أن خالي أنباه بأنني على قسط من المعرفة، في حين أنني كنت - في الواقع- لا أعرف شيئا !.. وأنه بشره بأنني فتى ذكي، في حين أنه ابتلاه بجحش !.. وفصلت أخيرا من المكتب موصوما بأنني غير كفء مطلقا، وصرح معاونو السيد "**ماسيرون**" بأنني لم أكن أصلح لشيء سوى نقل الملفات!

وإذ انتهى الأمر في تقرير مهنتي على هذه الصورة ، أرسلت لأتعلم حرفة.. لا لدى "ساعاتي" ، وإنما لدى أحد الناقشين على المعادن.(٢) وكان الصّغار الذي عاملني به السيد "**ماسيرون**" قد أذل نفسي كثيرا ، فأطعت بدون تذمر ، وكان معلمي الجديد- السيد "**ديكومين**"- شابا فظا ، قاسيا أفلح في أمد وجيز في إطفاء كل ما كان لي في طفولتي من ذكاء ، وفي تخدير طبيعتي الودود النشيطة، وفي الهبوط بي إلى مرتبة "صبي الصانع" فعلا ، سواء في العقل أو في المركز!.. وقدر لما كنت قد حصلته من اللاتينية والتاريخ، ولما عرفته عن الأقدمين وآثارهم ،أن ينسى أمدا طويلا.. بل إنني لم أعد أذكر أن قد كان في الدنيا أي من الرومان ! ولم يعد أبي يرى في - حين ذهبت لزيارته - محبوبه القديم.. كما أنني لم أعد في نظر السيدات ، "**جان جاك**" الكيس المقرب إلى قلوبهن ، وأيقنت أنا نفسي ، من أن الأخوين "**لامبرسييه**" ما كانا ليعرفا في شخصي تلميذهما القديم، حتى إنني خجلت من أن أزورهما، فلم أرهما منذ ذلك الحين. وحلت أرذل الميول وأحط مفاسد السوقة محل أسباب التسلية الساذجة ، بل إنها محت كل ذكرى لها! ولابد أنني كنت قد أوتيت استعدادا عظيما للانحدار - برغم أنني حظيت بنشأة أعظم ما تكون استقامة- ذلك لأن الانقلاب أصابني بسرعة عظيمة ، دون أتفه عسر، فما قدر قط "**القيصر**" مبكر النضوج أن أصبح "**لاريدون**" بمثل هذه السرعة(٣)

ولم تكن الحرفة- في حد ذاتها - هي التي لم تصادف هوى من نفسي ، إذ كان لدي ميل أكيد للرسم، وقد لذ لي العمل بآلة الحفر، ولما كان ثمة طلب محدود على الحفار الماهر للاستعانة به في صناعة الساعات فقد ساورني الأمل في أن أبلغ الكمال في هذه الحرفة ، ولعلني كنت بالغا هذه الدرجة لولا أن فظاظة معلمي الوحشية ، وإفراطه في فرض القيود علي، حملاني على أن أكره عملي! وكنت أسترق بعض ساعات العمل لأوفر على بعض أعمال مشابهة- ولكنها كانت تفتنني بما كنت أحسه في ممارستها من حرية- فكنت أحفر الأوسمة التي ترمز إلى طبقة من الأشراف ابتكرتها لنفسي ولزملائي . وفاجأني معلمي مرة وأنا في هذا العمل المحظور، فضربني ضربا مبرحا ، معلنا أنني كنت

(١) "الكراون" عملة تعادل ثلاثة فرنكات. (٢) حفار يصنع الأختام و"الميداليات" بالحفر على المعادن. (٣) استعير هذا الاسم من "لافونتين" الذي أطلقه على الكلاب المنحطة في أسطورة بعنوان: "التربية" ، إذ قال : "أواه ! كم من قياصرة أصبحوا لاريدونات؟"

أتدرب لأغدو مزيفا للنقود، إذ إن الأوسمة التي صنعتها كانت تحمل رسم شعار الجمهورية.. وأقسم إنني لم أوت- إذ ذاك - أية فكرة عن النقود الزائفة ، بل إنني لم أوت إلا أتفه فكرة عن النقودالطيبة!.. وكان إلمامي بعملات الرومان- التي قرأت عنها في الكتب - يفوق معرفتي بنقودنا المستعملة!

وأخيرا أدت ربقة معلمي إلى أن صار العمل - الذي كنت مهيأ لأن أشغف به- شيئا لايطاق ، وأفعمتني برذائل كنت خليقا بأن أكرهها لولا جبروته ، مثل الكذب ، والتكاسل ، والسرقة!.. ولقد علمتني ذكرى التبدل الذي أصابني في هذه الفترة من حياتي - أكثر من أي شيء آخر - الفرق بين تبعية الابن للأب ، وبين الخضوع الذليل . ومع ما فطرت عليه من خجل واستحياء ، لم يكن ثمة عيب يجافي خصالي الطبيعية قدر بذاءة اللسان . على أنني كنت أستمتع بحرية كريمة لم تلبث أن تعرضت للقمع تدريجيا - بعد ابتعادي عن أبي- حتى تلاشت تماما. وكنت جريئا مع أبي ، غير مكبوت مع السيد "**لامبرسييه**" معتدلا مع خالي، فصرت جبانا مع معلمي ! ومنذ تلك اللحظة أصبحت طفلا حائرا ضالا . ولما كنت قد ألفت أن أكون على قدم المساواة التامة في اتصالاتي بمن يكبرونني، ولم أعرف ملهاة بعيدة عن متناولي ، ولا رأيت صحفة طعام لايحق لي أن أنال منها نصيبا ، ولا رغبة لا أملك أن أعبر عنها جهارا.. لما كنت قد ألفت كل هذا ، واعتدت أن يكون كل ما في قلبي على طرف لساني ، فإن من الميسور تقدير ما كنت مسوقا إلى أن أتحول في بيت لم أكن أجسر فيه على أن أفتح فمي ، وكنت مضطرا فيه إلى أن أغادر المائدة قبل أن أفرغ من نصف الوجبة ، وأن أبرح الغرفة بمجرد أن أفرغ من شأني بها.. في بيت كنت فيه مغلولا إلى عملي باستمرار، ولم أكن أرى فيه سوى أسباب المتعة لسواي والحرمان لنفسي .. حيث كانت رؤيتي الحرية التي يستمتع بها معلمي وزملائي تضاعف من وطأة الخضوع على نفسي ، وحيث لم أكن أجرؤ على أن أفتح فمي إذا ما ثار الجدل حول أمور كنت على خير دراية بها!.. وقصارى القول ، حيث كان كل ما يقع عليه بصري يغدو هدفا لشوقي ، لمجرد أنني كنت محروما من كل شيء!

منذ ذلك الحين فارقتني وداعتي ولطفي وخفة روحي ، وتلك البشاشة التي كانت - فيما مضى - تقيني العقاب إذا ما ارتكبت ذنبا ، كل هذه تبددت . ولا أتمالك أن أضحك كلما تذكرت كيف أنني- ذات مساء- أرسلت إلى الفراش ، في بيت أبي،دون عشاء ، لذنب أتيته.. وفيما كنت أجتاز المطبخ وفي يدي كسرة خبز تدعو إلى الأسى رأيت قطعة لحم تقلب على السفود- "الشواية" - فأخذت أتنسم عبيرها ! وكان كل أهل البيت وقوفا حول النار ، فاضطررت إلى أن ألقي على كل منهم تحية المساء ، أثناء مروري ، حتى إذا فرغت من تحيتهم غمزت بعيني لقطعة اللحم التي بدت بديعة المنظر ، والتي كانت زكية الرائحة ، ولم أتمالك أن انحنيت لها - كما انحنيت للآخرين - وقلت بلهجة حزينة : "عمي مساء يا قطعة الشواء !" .

وأطربتهم هذه الملحة الساذجة إلى درجة جعلتهم يستبقونني للعشاء . ولعلها كانت كفيلة بأن تتخذ نفس الوقع من نفس معلمي ، ولكنني واثق بأنها لم تخطر ببالي قط ، ومن أنني ما كنت لأجد الشجاعة على أن أقولها في حضوره!

وبهذا النهج تعلمت كيف أكتم ما أشتهي، وكيف أنافق، وأكذب، و- أخيرا- أسرق!.. وهو أمر لم يخطر - حتى ذلك الوقت - ببالي مطلقا ، ولم أستطع منذ ذلك الحين أن أبرئ نفسي منه تماما . ذلك لأن الاشتهاء المكبوت والضعف يقودان دائما إلى هذا الاتجاه ، الأمر الذي يفسر السر في أن

جميع الخدم نصابون ، وفي أن جميع الصبيان لدى أصحاب الحرف مسوقون إلى أن يكونوا كذلك .. ولكن هؤلاء يفقدون – بتقدمهم في مدارج العمر– هذه الرذيلة المشينة، إذا أتيحت لهم المساواة في جو وادع مأمون ، يألفون فيه أن يكون كل ما يرونه في متناولهم . ولما لم تتح لي هذه الميزات فإنني لم أملك أن أجني نفس الفوائد !.. وأكاد أقول إن الذي يدفع الطفل إلى أن يخطو أولى خطواته نحو الشر هو دائما المبادئ ،الطيبة التي يساء توجيهها ، فلقد مكثت مع معلمي عاما دون أن أفكر في الإقدام على أخذ أي شيء – حتى من المأكولات – برغم ما لاقيت من حرمان وإغراء مستمرين ، وكانت أولى سرقاتي من أجل شخص سواي ، ولكنها فتحت الباب لسرقات أخرى ، لم يكن الباعث إليها أمرا محمودا !..

فلقد كان لدى معلمي عامل باليومية – يدعى السيد "**فيرا**"– يقيم في دار مجاورة ، وله حديقة على مسافة منها تنتج نوعا راقيا من "**الاسفاناخ**" ، وخطر للسيد "**فيرا**" الذي لم يكن يحصل على حاجته من المال – أن يسرق بعض الاسفاناخ الصغيرة التي كانت أمه تستنبتها ، فيبيعها لتدر عليه ما يكفي لإمداده بفطور طيب ليومين أو ثلاثة ، ولما لم يكن راغبا في أن يقدم بنفسه على المغامرة ، كما أنه لم يكن خفيف الحركة ، فقد اختارني لهذه المهمة ، وبعد محاولات أولية وتملقات– زاد من سهولة نجاحها في التأثير علي ، أنني لم أكن أدرك هدفها– عرض علي الأمر كفكرة خطرت له عفو اللحظة ، فعارضتها بشدة ، ولكنه ألح ، وليس بوسعي قط أن أقاوم التملق ، ومن ثم فقلد انصعت له، وأخذت أذهب في كل صباح فأجمع أبدع نبتات الاسفاناخ وأحملها إلى سوق (**مولار**) حيث أدركت امرأة طيبة أني كنت أسرقها لتوي، فكانت ترميني بهذا الاتهام لتبخسني الثمن ، وكنت في ذعري أقبل أي ثمن تقدمه ، ثم أحمله إلى "**فيرا**" فسرعان ما يتحول المبلغ إلى فطور كنت أتكفل بإحضاره ، وكان يتقاسمه مع زميل آخر ، بينما أقنع أنا ببضع لقيمات .. ولم أتذوق قط النبيذ الذي كانا يتناولانه مع هذا الفطور!

واستمرت هذه الخطة عدة أيام، دون أن يخطر لي قط أن أسرق – بدوري، من الباطن– السارق الأصلي ، وأن أفرض "**عوائد**" على ما كانت تدره اسفاناخ السيد "**فيرا**" بل كنت أؤدي دوري في المهمة بمنتهى الإخلاص ، وليس لي من حافز سوى رغبتي في إرضاء ذاك الذي كان يحرضني. مع ذلك، فكم من صفعات وشتائم وقسوة كنت خليقا بأن أتلقاها– لو أن أمري انفضح– بينما كان من المؤكد أن يبادر الوغد إلى انتحال أكذوبة تقابل بالتصديق – ومن ثم يتضاعف عقابي إذ يعتبر اتهامي إياه – وهو العامل وأنا الصبي – وقاحة!..

وهكذا نرى أنه – في كافة ظروف الحياة–كثيرا ما يحدث أن المذنب القوي ينجي نفسه على حساب البريء الضعيف!..

وبهذه الطريقة تعلمت أن السرقة لم تكن من الفظاعة بالقدر الذي كنت أتصورها عليه ، وأنه ليس من شيء أشتهيه يعز علي ، مادام في متناول يدي. ولم أكن سيئ التغذية على طول الخط ، ولكن العفة أصبحت أمرا متعذرا علي وأنا أرى معلمي ينظر إليها كشيء منكرا.. يبدو لي أن اعتياد إقصاء الصغار عن المائدة ، في الوقت الذي تحمل إليها فيه أشهى الأطعمة ، هو أروع طريقة تنتهج لجعلهم نهمين ولصوصا!.. وسرعان ما أصبحت نهما ولصا ، واستطعت أن أمضي موفقا – بوجه عام – فلم يفتضح أمري إلا في مرات نادرة كنت أفاجأ فيها!

إنني لأرتجف – واضحك في الوقت ذاته – إذ أتذكر أن سرقة بعض التفاح كادت تكبدني غاليا! فقد كانت تلك التفاحات في قرار حجرة لاختزان المؤن ، تضاء بالنور المنساب من المطبخ خلال كوة عالية ذات شبكة حديدية ، وفي ذات يوم ، وقد خلت الدار إلا مني ، صعدت على المعجن– حوض العجين – لألقي نظرة على الثمار الغالية في حديقة "هيسبريد"(١) . ولما كانت بعيدة عن متناولي فقد أحضرت سيخا لأحاول أن أتبين ما إذا كان بوسعي أن أمس التفاحات ، ولكنه كان جد قصير ولكي أزيده طولا ربطت إليه سيخا صغيرا كان يستخدم في شي الحيوانات الصغيرة، إذ كان معلمي مغرما بالصيد .

ودفعت السيخين عدة مرات ، دون أن أوفق ، وأخيرا شعرت لعظم اغتباطي أنني أصبت تفاحة ، فتأهبت لان أستحوذ عليها ، ولكن .. من ذا الذي يستطيع أن يصف أساي حين وجدتها أكبر من أن تمر خلال قضبان الكوة! وكم من حيل بذلتها لأنفذها خلال القضبان! .. وكان لابد لي من العثور على ما يبقي السيخ في مكانه ، والحصول على سكين ذات طول كاف لشطر التفاحة ، وقطعة من الخشب أستعين بها على إبقاء التفاحة عاليا، وتمكنت أخيرا من أن أشطرها ، يحدوني الأمل في أن أستطيع أن أجتذب النصفين ، واحدا بعد الآخر، ولكنهما ما إن انفصلا حتى هويا إلى أرض المخزن!– الا فلتشاركني أساي ، أيها القارئ الشفوق !– ومع ذلك فإنني لم أفقد جلدي مطلقا ، لكنني كنت قد ضيعت وقتا ليس بالقصير ، فخشيت أن أفاجأ ، وأرجأت القيام بمحاولة أخرى – تكون موفقة– إلى اليوم التالي، وعدت إلى عملي في سكينة ، وكأنني لم آت أمرا ، دون أن أفكر في الشاهدين المشطورين اللذين كانا يقبعان في المخزن!

وفي اليوم التالي ، انتهزت فرصة سانحة ، وقمت بمحاولة جديدة ، فصعدت على مقعدي ، وربطت السيخين وهيأتهما، وهممت بأن أدفعهما ، ولكن "**الغول**" لم يكن نائما ، لسوء الحظ ، فقد فتح باب المخزن بغتة، وخرج منه معلمي ، فعقد ذراعيه ، وتطلع إلي ، وقال : "تشجع!" .

إن القلم يسقط من يدي! .. على أن حساسيتي إزاء العقاب لم تلبث أن ضعفت، من جراء سوء المعاملة المستمر فكنت انظر إلى السرقة على أنها نوع من التعويض يخول لي الاستمرار فيها! وبدلا من أن أستعرض ما فات و أقدر ما كنت ألقى من عقاب ، رحت أتطلع إلى الأمام وأفكر في الانتقام! .. ورحت أرى أنني إذا كنت أضرب بزعم أنني لص، فإن هذا الضرب بخولني أن أتصرف كلص ، وتبينت أن السرقةوالضرب أمران يسيران جنبا إلى جنب ، فجعلت منهما جانبين في صفقة عادلة .. فإذا قمت بدوري كان علي أن أدع معلمي يؤدي دوره! وبهذا التفكير شرعت أمارس السرقة بنفس أكثر طمأنينة من ذي قبل ، وكنت أقول لنفسي:" ما هي النتيجة ؟.. ساضرب؟ لا بأس، لقد تعودت الضرب!"

إنني مشغوف بالأكل ، ولكني لست شرها .. وأنا مغرم بإرضاء نزواتي البدنية ، ولكني لست نهما ، فإن لي ميولا كثيرة أخرى تحول دون ذلك ، وما جشمت نفسي يوما أية متاعب بشأن الطعام، اللهم إلا حين يكون قلبي خاليا مما يشغله، و هذه حال كانت من القلة في حياتي بحيث إنني

---

(١) هيسبريد : اسم لواحدة من عذارى ورد ذكرهن في أساطير الإغريق على أنهن كن يحرسن شجرة تثمر تفاحات ذهبية.

نادرا ما وجدت وقتا للتفكير في الأطايب اللذيذة ؛ ولهذا السبب لم أقصر اتجاهاتي في اللصوصية على المواد الغذائية– لأمد طويل– بل سرعان ما بسطتها إلى كل شيء كان يغريني ! وإذا كنت لم أصبح لصا محترفا فإنما ذلك لأنني لم أجد قط في النقود إغراء شديدا ، وكانت في الطريق إلى خارج "الورشة" العامة حجرة خاصة لمعلمي ، وجدت وسيلة لأن أفتح بابها وأغلقه دون أن يفطن أحد إلى ذلك ، وهناك ، رحت أشاطره خير عدده وآلاته ورسومه وتجاربه .. بل كل شيء كان يجتذب ميولي ، وكان هو يحرص على إبقائه بعيدا عني لهذا السبب! .. وكانت هذه السرقات – في قرارها – بريئة تماما ، إذ ما كنت أستغلها إلا في خدمة معلمي . على أنني انتشيت إذ جدت هذه التوافه في متناولي ، وخيل إلي أنني كنت أسلبه مواهبه و ما كان ينتج عنها! وإلى جانب ذلك، وجدت صناديق تحوي مبارد وأساور صغيرة وبعض النفائس والعملات الذهبية والفضية . وكنت حين أجد في جيبي أربع أو خمس قطع من فئة "السو" (١) أعتبر نفسي غنيا ، ومع ذلك ففضلا عن أنني لم أمس شيئا مما وجدته هناك فإنني لا أذكر قط أنني رمقتها يوما بعينين مشوقتين ، وإنما كنت أنظر إليها في جزع أكثر مني في ابتهاج! وأعتقد أن هذا الاستنكار لسرقة المال والنفائس كان راجعا – إلى حد كبير – إلى تربيتي ، وإلى ما كان يقترن بها من أفكار دفينة عن العار، والسجن ، والعقاب، والمشانق ، مما كان كفيلا بأن يجعلني أرتجف فرقا لو أنني تأثرت بالإغراء .. هذا في حين أن أحاييلي كانت تبدو في نظري كمجرد أعمال خبيثة– أو "شقاوة"- لا أكثر، وأنها لايمكن أن تفضي إلى أكثر من "علقة" طيبة من معلمي .. وكنت أعد نفسي مقدما لذلك! .. وأكرر أنني لم أشعر قط برغبة كافية في أن أكبح نفسي ، فلم يكن ثمة ما يقلق ضميري . وكانت قصاصة واحدة من ورق الرسم البديع أكثر إغراء لي من نقود تكفي لأن أبتاع رزمة منه ! وهذه الظاهرة الفذة ترتبط بإحدى ميزات خلقي وشخصيتي ، وقد كان لها من عظم النفوذ على مسلكي ما يجعلها أهلا للشرح!

*****

إنني إنسان ذو حمية بالغة ، إذا ما استبدت بي سورتها، فلن يعدل اندفاعي شيء : إذ أنسى كل حكمة ، وكل شعور بالاحترام والخوف والوقار ، فإذا أنا أغدو شرسا، متهورا، عنيفا ، غير هياب ،، لا يصدني أي إحساس بالعار، ولايرهبني أي خطر .. بل إنني لا أحفل من الكون كله إلا بالغاية التي تشغل بالي فحسب ! على أن هذا كله لا يستمر إلا لحظة، ثم إذا بي في اللحظة التالية أنغمس في سكون تام. أما لحظات هدوئي ، فأنا الخور والجبن ذاتهما ، إذ يخيفني ويثبط همتي كل شيء : فالذبابة التي تمر بي و هي تطن تفزعني .. واضطراري إلى أن أقول كلمة أو أبدي حركة يقض خمولي .. وهكذا يتسلط علي الخوف والخجل إلى درجة يسرني معها أن أستخفي عن بصر زملائي من الآدميين! .. وإذا كان علي أن آتي تصرفا فإنني لاأدري ماذا ينبغي أن أفعل ، وإذا قدر علي أن أتكلم فإنني لا أدري ما ينبغي أن أقول . وإذا نظر أحد إلي تولاني الارتباك! .. ولقد أوفق إلى الكلمات الخليقة بأن تقال ، عندما أستثار لدرجة عالية ، ولكنني – في الحديث العادي – لا أعثر البتة

---

(١) "السو" عملة فرنسية صغيرة تعادل ٥ سنتيمات، أو جزء من عشرين من الفرنك.

على شيء يقال ، وأغدو في حال لاتطاق، لمجرد أن أجدني مضطرا إلى الكلام!.. أضف إلى ذلك أن ليس بين رغباتي المتسلطة ما يتجه إلى أشياء يمكن أن تشترى ، فلست أشتهي سوى المتع البريئة غير الزائفة ، وكلها مما يسممه المال ويفسده ، من ذلك أنني مشغوف بمتع الطعام ، ولكنني – إذ لاأحتمل عبء الجلوس في جماعة، أو الشراب في حانة– لاأملك أن أحظى بها إلا برفقة صديق أما إذا كنت وحيدا ، فإن خيالي يشغل إذ ذاك بأمور أخرى ، فلا يعود للأكل حظوة لدي، وبرغم أن دمي الحار يهفو إلى النساء فإن قلبي المشبوب أشد حنينا إلى العاطفة الصادقة ومن ثم تفقد النساء – اللاتي يشترين بالمال – كل مفاتنهن في نظري.. بل إني أرتاب في أن أجد من نفسي قابلية للإفادة منهن ، كذلك شأني مع كل المتع التي في متناول يدي ، فأنا أجدها غثةطالما كانت لاتكبدني شيئا !.. وإنما أحب من المتع وأسباب اللذة ما لايكون ملكاً لأول إنسان يعرف كيف يستمرئها!

و المال .. أبدا ما تراءى لي نفيسا كما يقدر عادة بل إنه لم يبد لي قط ذا صلاحية خاصة ، فهو عديم القيمة في حدذاته إذ لابد من استبداله لكي يتيسر الاستمتاع به . فالمرء مضطر إلى أن يشتري ، ويساوم ، ويتعرض للغش ، ويغبن ويبهظ ، ولا يخدم حق الخدمة.. وحين أنشد شيئا جيدالصنف أوقن من أنني لن أحصل بالمال إلا على صنف رديء !.. فإذا ما دفعت نقودا من أجل بيضة طازجة ، وجدتها فاسدة .. أو من أجل ثمرة طيبة من الفاكهة ألفيتها فجة.. وقد أدفع من أجل فتاة ، فإذا بها مفسودة !.. وأنا مولع بالشراب الجيد، ولكن أين أظفر به؟ ألدى تاجر المشروبات؟ مهما أفعل فإنه لن يتحرج عن أن يسممني ! ولو شئت أن أحظى بخدمة طيبة حقا ، فياللعناء ويالللحيرة ! لابد لي من أصدقاء، ورسل ، ومن أمنح عمولات ، وأكتب ، وأروح وأجيء، وأنتظر .. وغالبا ما أكون في النهاية ضحية للغش !.. أي عناء ألقاه من مالي. إن خوفي منه لأشد من شغفي بالشراب الجيد!

كم من مرات يخطئها الحصر خرجت فيها – أثناء تعلمي الحرفة وبعد ذلك – وأنا أعتزم شراء بعض الحلوى .. فكنت أقبل على حانوت صانع الحلوى فأرى بعض النسوة عند طاولة البيع، وإخال أنني أبصرهن بالفعل وهن يتضاحكن من هذا النهم الصغير!.. فأذهب إلى الفاكهي ، وأرمق الكمثرى فيغويني شذاها ، ويرمقني شابان أو ثلاثة على مقربة .. وهذا رجل يعرفني ، يقف أمام حانوته .. وأرى فتاة مقبلة من بعد ، أفتراها خادم الدار؟ إن قصر نظري يهيئ لي كافة الرؤى الوهمية، فإخال المارة جميعا من المعارف، وهكذا أجد في كل مكان من العراقيل ما يفزعني ويصدني.. وتتضاعف رغبتي بازدياد خجلي واستحيائي ، ثم أعود – في النهاية – إلى البيت كالمغفل ، والشوق يضنيني ، وفي جيبي الوسيلة لإشباعه ولكني لم أوت الجرأة على أن أبتاع شيئا!

ولقد أنساق إلى أكثر التفصيلات اجتلابا للمال إذا سمحت لنفسي– وأنا أصف كيف كانت نقودي تنفق، عن طريقي أو عن طريق سواي – بأن أشرح الارتباك ، والاستحياء، والإحجام ، والتململ ، والإزعاج، التي كنت أمر بها دائما.. على أن القارئ المتتبع لمجرى حياتي، لن يلبث – إذا ما عرف حقيقة طباعي وسجيتي – أن يفهم كل هذا دون أن أتجشم عناء روايته عليه!

ولو تسنى له فهم هذا فسيسهل عليه إدراك ظاهرة من أبرز ظواهر التناقض لدي : وهي اجتماع شح يكاد يكون خسيسا ، مع بغض شديد للنقود !.. فما النقود سوى قطعة من أثاث لاأجد فيها من الراحة سوى القليل ، حتى إنه لايخطر ببالي قط أن أصبو إليها عندما لاتتوفر لي .. وحتى إذا ظفرت بها، فإني أبقيها طويلا دون أن أنفقها . عجزا مني عن أن أدري كيف أستخدمها بطريقة تدخل السرور على نفسي . أما إذا سنحت لي فرصة ملائمة ومواتية ، فإنني أقبل على استخدام النقود حتى ليخلو كيسي منها قبل أن أفطن !.. وإلى جانب ذلك، فلا داعي لأن يتوقع أحد أن يجد عندي تلك الخلة العجيبة التي تتوفر في البخلاء: الإنفاق ، لمجرد التظاهر بالإنفاق! بل إنني – على النقيض– أنفق في السر من أجل الاستمتاع ، وبدلا من أن أفخر بالإنفاق أخفيه! ويبلغ من شدة شعوري بأن لانفع للمال لدي ، أنني أكاد أخجل إذ أقتني أي قدر منه وأكون أشد خجلا حين أستخدمه! .. ولو قدر لي يوما من الدخل ما يكفي لأن أعيش حياة مريحة ، فإنني أجزم بأنني ما كنت لأكون بخيلا بل كنت أنفقه عن آخره دون أن أحاول زيادته ، ولكن ظروفي غير المستقرة تلزمني الحرص ، فأنا أعشق الحرية ، وأمقت الكبت والعناء ، وأن أكون عالة على الغير! وطالما بقي المال في كيسي فإنه يطمئنني إلى استقلالي ، ويعفيني مؤونة البحث عن أعمال لتملأ الكيس من جديد ، وهي ضرورة تبعث الجزع في نفسي دائما .. ومن ثم فإن الخوف من أن أرى ما لدي من المال قد استنزف يجعلني أكتنزه في حرص .. فالمال الذي يمتلكه الشخص هو أداة حريته ، أما حين نسعى إليه ملهوفين فيكون أداة العبودية .. ولهذا أتشبث بما لدي ، ولا أرغب في مزيد ! ومن ثم فإن عدم شغفي بالمال لم يكن سوى تقاعس وتبلد، فإن متعة الاقتناء لاتستحق عناء التحصيل .. وكذلك الحال بالنسبة لإسرافي ، فهو ليس أكثر من تقاعس وبلادة ، وعندما تحين فرصة الإنفاق النافع ، فإنني لا أحسن استغلالها ..

فالمال أقل إغراء لي من الأشياء، إذ إن ثمة وسيطا – على الدوام – بين المال وبين اقتناء الأشياء المنشودة، في حين أنه لايوجد أي وسيط بين الأشياء وبين الاستمتاع بها .. فإذا ما رأيت الشيء فإنه يستهويني ، وما إن أتبين وسيلة الظفر به حتى يفقد إغراءه !.. ولهذا السبب اعتدت أن أرتكب السرقات ، ولا أزال – حتى الآن– أختلس التوافه التي تستهويني ، والتي أوثر أن آخذها بهذه الطريقة على أن أطلبها.. ولكني لاأذكر أنني – سواء في طفولتي أو في كبري – قد سلبت أي امرئ درهما واحدا ، اللهم إلا في مناسبة واحدة– منذ خمس عشرة سنة– إذ سرقت سبعة "ليبرات" وعشر قطع من فئة "السو" ، هذا الحادث جدير بالذكر؛ لأنه يشتمل على خليط عجيب من النزق والقحة ما كنت لأصدقه بسهولة لو أنه كان يتعلق بشخص سواي!

ولقد وقع هذا الحادث في "**باريس**" ، إذ كنت أتمشى مع السيد "**دي فرانسوي**" في حدائق "**الباليه رويال**" حوالي الساعة الخامسة.. فإذا به يخرج ساعته ، فيستطلعها الوقت ، ثم يقول : "لنذهب إلى الأوبرا!" . ووافقت، فذهبنا . واستأجر السيد مقعدين في "الصالة" وأعطاني إحدى التذكرتين ، ثم مضى بالثانية يتقدمني ، فتبعته . ودخل إلى "الصالة" ، فلما هممت بالدخول خلفه،

إذا بالناس يسدون الطريق. وتلفت فإذا كل فرد واقف ، فظننت أن من السهل أن أتوه وسط الزحام ، أو أن أوهم السيد "**دي فرانسوي**"بانني ظللت على أية حال ، ومن ثم خرجت فاسترجعت ثمن التذكرة ، وانصرفت بالنقود ، دون أن يخطر ببالي أن الجميع كانوا قد اتخذوا مجالسهم بمجرد بلوغي الباب الخارجي. إن السيد "**دي فرانسوي**" قد تبين أنني لم أكن موجودا!(١) .. وإذا لم يكن ثمة تصرف ينافي مسلكي العادي مثل هذا التصرف فإنني أذكره لأبين أن هناك لحظات ينبغي الا يحكم فيها على الرجال بأعمالهم ، لأنهم يكونون في شبه ذهول أو شرود! .. ذلك لأنني لم أكن راغبا في اختلاس النقود ذاتها ، وإنما أردت أن أسرق وجه استخدامها ولكن هذا التصرف كان مشينا بقدر ما كان بعيدا عن السرقة!

*****

ولن يقدر لي أن أفرغ من كل هذه التفصيلات لو أنني ألمحت بكافة الدروب التي اتبعتها- أثناء تعلمي الحرفة- في هبوطي من ذرا البطولة النبيلة، إلى درك التفاهة! ومع ذلك، فإنني لم أستمرئ رذائل المركز الذي كنت فيه ، وإن مارستها . سئمت أسباب التسلية التي كان زملائي يقبلون عليها ، حتى إذا اشتد تقييد حريتي فجعل العمل في نظري أمرا لايطاق، سئمت كل شيء! .. وجدد هذا من شغفي بالقراءة بعد أن كنت قد فقدته زمنا . ولكن هذه القراءة – التي كنت أختلس لها فترة من وقت العمل – أصبحت عيبا جديدا استوجب عقابي.. وإذا الميل إليها يتحول – بالقمع- إلى وجد لم يلبث أن أصبح جنونا! .. وكانت "**لاتريبو**"– وهي امرأة اشتهرت بإعارة الكتب- تمدني بكتب كافة ألوان الأدب ، وكانت كلها- الغث منها والنفيس – سواء عندي ، إذ لم يكن لي في الأمر خيار ، فأخذت أقرأ كل شيء بنفس النهم: رحت أقرأ وأنا أمام طاولة العمل، وأقرأ وأنا منطلق في بعض المهام، وأقرأ بجوار صوان الملابس، وأنسى نفسي ساعات طويلة حتى يدور رأسي لفرط القراءة .. فما كنت أملك سوى أن أقرأ ! كان معلمي يراقبني ، ويباغتني ، ويضربني، وينتزع الكتب مني.. وكم من مجلدات مزقت وأحرقت وطوح بها من النافذة !.. وكم من مؤلفات تركت ناقصة الأجزاء – لهذا السبب- في مكتبة "**لاتريبو**" ! .. وكنت إذا عزت علي النقود أقدم للمرأة أقمصتي ، وأربطة عنقي، وملابسي .. كما كانت تستولي مني في يوم الأحد من كل أسبوع على قطع "السو" الثلاث التي كنت أتقاضاها لمصروفي الخاص!

سيقال لي هنا: إن النقود من الضرورات لي . وهذا حق لكنه لم ينطبق علي إلا عندما حرمني شغفي بالقراءة، من كل نشاط. فإن انصرافي بكل نفسي إلى هوايتي ، وعدم اكتراثي بغير القراءة الهاني عن السرقة! وهذه ميزة أخرى من الميزات البارزة في شخصيتي ، ففي غمرة انغماسي في أي مسلك في الحياة، يستطيع أي أمر تافه أن يجتذبني ، وأن يحولني ، وأن يستأثر بانتباهي ، ثم يغدو شغفا ، وإذ ذاك يصبح كل شيء منسيا ، فلا أعود أفكر في غير الشيء الجديد الذي يستحوذ على اهتمامي .. هكذا كان قلبي يخفق في صبر نافد إذا ما أحضرت كتابا جديدا ودسسته في جيبي ، فلا

---

(١)ذكرت "جورج صاند" في كتابها "تاريخ حياتي"، أن السيد "دي فرانسوي" – وكان جدها – اعتاد أن ينكر دائما صدق هذه القصة.

أكاد أخلو إلى نفسي حتى أخرج الكتاب ، ولا أعود أفكر في التنقيب في حجرة معلمي بالورشة.. لا أكاد أصدق أنني كنت أقدم على السرقة ، ولو كانت لي أهواء تكلفني نفقة أبهظ .. كنت في اقتصاري على الحاضر ، لا أجد اتجاها إلى ان أدبر أمر المستقبل بهذه الطريقة، فقد كانت "**لاتريبو**" تعطيني الكتب بالنسيئة "تأجيل السداد مع زيادته"، وكانت الدفعات صغيرة، لكني كنت أنسى كل شيء بمجرد أن أطمئن إلى وجود الكتاب في جيبي . وكانت النقود التي تأتيني بطرق شريفة تذهب بنفس الأسلوب إلى يدي هذه المرأة! ولم يكن أهون علي – عندما تشتد في الضغط علي – من أن أنزل عما أمتلك. وكانت السرقة – قبل الحاجة إلى المسروق – تتطلب كثيرا من بعد النظر ، ومن ثم لم أكن أتعرض لإغراء يحملني على السرقة لكي أدفع ما كانت المرأة تطلبه!..وكان من جراء المشاجرات، والضرب ، والاطلاع خفية على كتب أسيء اختيارها ، أن صرت شرسا، صموتا ، وشرد عقلي، وأصبحت أعيش منطويا !.. على أنه إذا كان إدراكي لم يعصمني من الكتب السخيفة والفاسدة ، فإن حظي الحسن صانني من الكتب الفاحشة والنابية .. لا لأن"**لاتريبو**" – التي كانت امرأة لينة الجانب ، من كل اعتبار- كانت تثير أي اعتراض دون إعارتي هذه الكتب ، وإنما لأنها كانت تذكرها لي في لهجة مشوبة بالغموض ، لكي تضاعف من قيمتها لدي ، فإذا بهذا الغموض ، يحملني على رفضها، بدافع من الاستهجان والاستحياء .. وقد ساعدني حظي على الاحتفاظ بهذا المسلك الطيب الورع ، فانقضى أكثر من ثلاثين عاما قبل أن تقع عيناي على أحد هذه الكتب الخطرة، التي ما كانت أية سيدة رقيقة لتجد مطالعتها مريحة؛ لأنها لاتقرأ إلا بيد واحدة فقط(١).

وفي أقل من عام ، كنت قد استوعبت الثروة الضئيلة من الكتب، التي كانت لدى"**لاتريبو**" ، وأصبح افتقاري إلى ما يشغلني – خلال فراغي – أمرا مضنيا ، وكنت قد أبرأت نفسي من نزواتي الصبيانية النابية، بفضل ولعي بالمطالعة. بل إني بفضل الكتب التي كنت أقرؤها- برغم أنها كانت سيئةالاختيار، وكثيرا ما كانت رديئة- ملأت قلبي بمشاعر أنبل من تلك التي كان محيط حياتي يوحي إلي بها ، وإذ امتلأت اشمئزازا من كل شيء كان في متناول يدي ، وشعورا بأن كل ما كان خليقا بإغرائي قد أقصي عني تماما ، لم أعد أرى ثمة ما يمكن أن يهفو إليه فؤادي. وكانت حواسي المهتاجة قد طال شوقها إلى متعة لم يكن في وسعي أن أدرك كنهها ، ولو في الخيال!.. كنت نائيا عن المتعة الواقعية ، وكأنني خال من الجنس.. وكنت – لاكتمال نموي وإرهاف مشاعري- أفكر أحيانا في نزواتي ، ولكنني لم أكن أبصرمما وراءها أي شيء.. وفي هذه الحال العجيبة ، أقبل خيالي المضطرب على شاغل أنقذني من نفسي وهدأ من حساسيتي الشهوية النامية! وكان هذا الشاغل هو تعليل نفسي بالحالات والمواقف التي استرعت انتباهي أثناء مطالعاتي ، وبفضل تذكرها، وتنويعها ، والجمع بينها ، وتصور أنها تمت لي حقيقة، أصبحت واحدا من الشخصيات التي كانت تملأ خيالي ، وأصبحت أرى نفسي – دائما – في أكثر هذه المواقف ملاءمة لذوقي .. وأخيرا، جعلتني الحال الخيالية – التي وفقت إلى وضع نفسي فيها- أنسى حالي الحقيقية التي لم أكن راضيا عنها! وقد أفضى بي هذا الولع بالموضوعات الخيالية، والاستعداد الذي كنت أتوسل به إلى شغل نفسي بها، إلى

---

(١)يقصد "روسو" الكتب المثيرة ، التي كان يبلغ من عنف إثارتها للقارئ أن تغريه على ممارسة العادات السيئة.

الاشمئزاز من كل شيء حولي، وإلى إقرار ذلك الميل إلى الوحدة الذي لم يفارقني بعد ذلك . وسنرى – أكثر من مرة في سياق الحديث ، الآثار العجيبة التي ترتبت على هذا السلوك الذي كان يبدو كئيبا، ومنطويا ، ولكنه – في الواقع– راجع إلى قلب مفرط العطف ، ومفرط الحب، ومفرط الحنان، اضطر إلى أن يغذي نفسه بالأوهام إذ عجز عن أن يجد في الوجود أي قلب آخر يشبهه ! على أنني أكتفي– في الوقت الحاضر– بأنني حددت أصل ومبعث هواية خففت كل نزواتي ، وفرضت عليها من نفسها قيودا ، فجعلتني على الدوام بطيء التصرف، نظرا لفرط تأجج شهوتي!

*****

وهكذا بلغت العام السادس عشر من عمري ، وأنا قلق، غير راض عن نفسي ولا عن أي شيء ، خلو من شيء من الميول التي تتوفر في مثل الحال التي كنت أعيش فيها.. خلو من ملاهي السن التي كنت أجتازها ، يضنيني اشتهاء الغاية التي كنت أجهل كنهها .. فكنت أبكي دون ما داع للدموع، وأتنهد دون أن أدري لذلك سببا! وقصارى القول : كنت أداعب أطياف خيالي بحنان؛ لأنني لم أكن أرى حولي شيئا يرجحها.

وكان زملائي – الذين كانوا يتعلمون الحرفة معي – يفدون في أيام الآحاد يبحثون عني بعد الصلاة ، لأذهب فأنشد بعض اللهو معهم. كنت أشعر بأنني خليق بأن اغتبط لو استطعت أن أهرب منهم، ولكني لم أكد أشترك في ملاهيهم مرة ، حتى ازددت تحمسا وتماديت إلى أبعد مما كانوا يذهبون إليه!..

هكذا كان مسلكي دائما ، يصعب حملي على الشيء، كما يصعب إيقافي عن المضي فيه إذا ما بدأت !.. فكنت – خلال نزهاتنا خارج المدينة– أذهب إلى أبعد مما يذهب إليه أي واحد منهم ، دون ما تفكير في العودة، ما لم يتذكرها لي الآخرون!.. ولقد تورطت في هذا الصدد مرتين ، إذ أغلقت أبواب المدينة قبل أن أتمكن من العودة ! فكنت – في اليوم التالي – أقابل من معلمي بما يمكن تصوره! بل إنني أنذرت في المرة الثانية بأن أقابل – إذا ما تكرر التأخر – استقبالا جعلني أعقد العزم على ألا أقدم على التعرض لهذا الخطر ثانية!.. مع ذلك، فقد قدر للمرة الثالثة أن تأتي ، برغم بشاعتها : فقد أفسد علي حرصي ضابط لعين من الحرس – كان يدعى الكابتن "**مينوتولي**" – اعتاد دائما أن يغلق "البوابة" التي كان يحرسها قبل أن تغلق الأبواب الأخرى بنصف ساعة! وكنت في تلك المرة عائدا مع زميلين ، وقبل أن نبلغ المدينة بنصف فرسخ سمعت البوق الذي يستحث العائدين ، فضاعفت من خطاي.. وعدت أسمع البوق، فهرعت بكل قواي .. ووصلت وأنا مقطوع الأنفاس ، غارقا في العرق ، وقد راح قلبي يخفق بعنف .. ورأيت الجنود– من بعد– يتخذون مراكزهم، فاندفعت نحو البوابة وأنا أصرخ بصوت كاد يخنقه التهدج.. ولكن الفرصة كانت قد فاتت ، فما إن أصبحت على عشرين خطوة من مركز الحراسة الأمامي ، حتى رفعت القنطرة الأولى ! وارتعدت وأنا أرى طرفيها الرهيبين يرتفعان في الهواء ، كنذير شؤم بغيض بالمصير الذي كان في تلك

اللحظة يفغر فاه ليبتلعني !

وفي الفورة الأولى لأساي ، ألقيت بنفسي على الأرض المنحدرة ، ورحت أعضها ، وبادر زميلاي لتوهما – وهما يضحكان من نحسهما – إلى تقرير ما ينبغي عليهما عمله .

وقد حذوت حذوهما ، ولكن قراري كان يختلف عن قرارهما . فقد أقسمت – في تلك البقعة – ألا أعود إلى معلمي قط! فلما ولجا المدينة في الصباح التالي، بعد أن فتحت الأبواب، ودعتهما إلى الأبد ، ولم أسألهما سوى أن ينبئا ابن خالي "**برنارد**" بقراري ، سرا ، وبالمكان الذي يستطيع أن يراني فيه مرة أخرى ! . . ولم أكن– منذ تتلمذت في الحرفة– قد رأيته إلا لماما، فقد ظللنا وقتا نلتقي في يوم الأحد من كل أسبوع ، ولكن كلا منا أخذ يتجه رويدا إلى عادات غير عادات صاحبه ، فأخذت لقاءاتنا تقل باطراد . وأعتقد أن لأمه يدا في هذا التحول ، فقد كان من أبناء الحي الراقي بينما كنت تلميذا فقيرا أتلقى أصول الصنعة . كنت من أبناء "**سان جيرفيه**" – حي الفقراء بالمدينة – فلم تعد ثمة مساواة بيننا ، برغم قرابتنا ؛ ومن ثم فقد كان من الحطة له أن يكون ذا شأن معي! . . ومع ذلك ، فإن الصلات بيننا لم تنقطع تماما ، فإن ابن خالي – بما أوتي من فطرة طيبة– كان يتبع في بعض الأحيان ما كان يمليه عليه قلبه، وليس ما كانت تمليه عليه أمه ! . . فلما أنبئ بما عقدت عليه العزم، أسرع إلي ، لا ليحاول أن يثنيني عنه أو يشاطرنيه ، وإنما ليخفف متاعب فراري ببعض المنح البسيطة، إذ كانت مواردي لاتساعدني على الذهاب بعيدا . وكان بين الأشياء الأخرى التي وهبنيها سيف صغير استهواني كثيرا ، وظللت أحمله حتى بلغت "**تورين**" ، حيث اضطرتني الضرورة إلى أن أنزل عنه ، إنني كلما فكرت – منذ ذلك الحين– في التصرف الذي انتهجه ابن خالي نحوي في تلك اللحظة الحرجة ، ازددت اقتناعا بأنه إنما اتبع تعليمات أمه وربما أبيه أيضا، إذ إنه من الأمور التي لاسبيل إلى تصديقها أنه كان يقعد عن بذل اي مجهود لاستبقائي ، أو يحجم عن أن يتبعني ، لو أنه كان يتصرف من تلقاء نفسه . . ولكنه – على العكس – كان في مسلكه أقرب إلى تشجيعي على أن أمضي في خطتي ، منه إلى إثنائي عنها! . . وعندما تبين أنني كنت مصمما تركني دون أن يذرف كثير دمع ، ولم يقدر لنا أن نتبادل الرسائل أو أن يرى أحدنا الآخر ، منذ ذلك الحين ! وإنه لأمر يدعو للأسف، إذ كانت شخصيته بطبيعتها طيبة ، وكنا قد خلقنا لكي يحب كل منا الآخر !

قبل أن أستغرق في الحديث عن حظي وقدري ، اسمحوا لي أن أحول عيني لحظة إلى الحظ الذي كان خليقا بأن ينتظرني – بحكم طبيعة الأمور– لو أنني وقعت بين يدي معلم أفضل من معلمي هذا . . فما كان ثمة ما هو أنسب لميولي ، ولا ما هو أصلح لإسعادي ، من الحياة الهادئة ، المغمورة ، التي يحظى بها أي صاحب حرفة محترم ، لاسيما إذا كان من طبقة كطبقة الناقشين على المعادن في "**چنيڤ**" . . إذ إن مثل هذا المركز – الذي يدر من الكسب ما يكفي لتهيئة معاش مناسب ، ولكنه لا يكفي لتكوين ثروة – كان كفيلا بأن يحد من طموحي ما تبقى لي من العمر ، وبأن يفسح لي فراغا شريفا لكي أرعى ميولي المتواضعة ، وبأن يستبقيني في المحيط المناسب لي ، دون أن يتيح لي أسباب تجاوزه ! . . فقد كانت موارد خيالي من الخصب بحيث تخلع جمالا على كل المهن والأعمال وما

يحيط بها من القوة بحيث تنقلني – إن صح هذا التعبير – من حال إلى حال، وفق إرادتي ، لذلك لم يكن للمركز الذي أجد نفسي فيه أي اعتبار مادي في الواقع ، وما كان أي مكان أوجد فيه ليبعد عن أولى قلاعي التي كنت أشيدها في الهواء بمسافة تقعدني عن أن ألوذ بقلعتي دون ما عناء! .. وترتب على هذا وحده أن أبسط مهنة ، المهنة التي تنطوي على أقل عناء، والتي تتيح أكبر قدر من الحرية الفكرية ، هي التي كانت تروق لي أكثر من سواها .. وهكذا كانت مهنتي تماما! .. وكان من الممكن أن أقضي حياة هادئة وادعة ، كتلك التي تتطلبها ميولي ، في أحضان عقيدتي ، ووطني ، وأسرتي ، وأصدقائي وفي رتابة المهنة التي تلائم ذوقي ، وفي الرفقة المحببة إلى فؤادي .. كان من الممكن أن أكون مسيحيا طيبا، ومواطنا طيبا، وأبا طيبا لأسرة ، وصديقا طيبا، وعاملا طيبا ، ورجلا طيبا في كافة روابط الحياة .. وكان من الممكن أن أحب مركزي في الحياة، بل ولعلني كنت أمجده .. وكان من الممكن بعد أن أقضي حياة بسيطة وخاملة مغمورة في الواقع- أو فلأقل هادئة وقورا- أن أموت بسلام ، في أحضان أسرتي .. ومع أنني كنت خليقا بأن أغدو نسيا منسيا بعد قليل – دون ما ريب – إلا أنني كنت خليقا إذ ذاك بأن أجد من يحزن علي – على الأقل- ما بقي على قيد الحياة واحد ممن يذكرونني!

أية صورة أوشك أن أرسمها ، بدلا من هذه ؟.. لنكف عن استباق شجون الحياة ، فسوف أشغل قرائي بما هو فوق الكفاية من الأسى !

الكراسة الثانية

٤- من سنة ١٧٢٨ إلى سنة ١٧٣١

بقدر ما بدت اللحظة – التي أوحى إلي فيها الخوف بفكرة الفرار– حزينة فإن اللحظة التي أقدمت فيها على تنفيذ الفكرة بدت بهيجة.. فقد كنت أهجر بلدي ، وأهلي، وأسباب عيشي ، ومواردي ، وأنا بعد صغيرا!.. كنت أنصرف عن حرفة– وأنا في منتصف دراستها – دون ما معرفة كافيةبها،تمكنني من أن أكسب عيشي.. كنت أسلم نفسي لأهوال العوز دون أية وسيلة لإنقاذ نفسي منها !.. كنت أعرض نفسي– وأنا بعد في سن البراءة والضعف – لكل غوايات الرذيلة والقنوط .. كنت أنشد – في البعد – العذاب ،والخطأ، والزلات، والعبودية، والموت تحت ربقة أشد طغيانا من تلك التي لم أطق احتمالها !.. هذا ما كنت أوشك أن أفعل ، وهذا هو المستقبل المحتمل الذي كان يجب أن أقدره!.. فما أبعد هذا عن الخيال المزوق!.. كان الاستقلال الذي اعتقدت أنني اكتسبته هو الشعور الوحيد الذي أخذ يحركني .. فقد اعتقدت أن بوسعي – وأنا حر، سيد نفسي– أن أفعل كل شيء، وأن أحقق كل شيء ، وليس علي سوى أن أدفع نفسي فإذا بي أرقى وأحلق في الهواء !.. لقد دخلت الدنيا الواسعة وأنا عامر القلب بالشعور بالأمان، وبأن هذه الدنيا لن تلبث أن تفعم بصيت أعمالي ، وأنني سأجد في كل خطوة احتفالات ، وكنوزا، ومغامرات ، وأصدقاء على استعداد لأن يخدموني ، وعشيقات تواقات إلى إرضائي!..

فليس علي سوى أن أظهر، فأشغل بال الدنيا بأسرها.. ومع ذلك فلم أكن راغبا في الدنيا كلها ، إذ كان بوسعي أن استغني عنها ، إلى حد ما !.. كانت الرفقة اللطيفة تكفيني، دون أن أضني نفسي ببقية الدنيا.. كنت في تواضعي قد قصرت نفسي على مجال ضيق، مختار ، بهيج، يكون سلطاني عليه أمرا محققا .. كان أقصى طموحي يتمثل في نطاق غزو قلعة واحدة : فلو قدر لي أن أكون أثيرا لدى السيد والسيدة وحبيبا للابنة، وصديقا للابن، وحاميا للجيرة ، لقنعت .. فما كنت راغبا في مزيد !

وفي ارتقاب هذا المستقبل المتواضع رحت أهيم حول المدينة لبضعة أيام ، متخذا مقامي لدى بعض فلاحين كنت أعرفهم ، وقد استقبلوني في كرم يفوق ما كان أي امرئ من سكان المدينة خليقا بأن يبذل لي ، فقد رحبوا بي ، وآووني، وغذوني بكرم يفوق كل ما كنت أستحق .. ولا سبيل إلى وصف عملهم بأنه "إحسان ، إذ إنهم لم يكونوا يخلعونه علي بترفع أو مَن .. وهكذا رحت أتنقل وأهيم على وجهي ، حتى بلغت "**كونفينيون**" ، بمنطقة "**سافوي**" ، على بعد فرسخين من "**جنيف**" . وكان مطرانها يدعى السيد "**دي بونفير**" وقد استرعى انتباهي هذا الاسم الذائع في تاريخ الجمهورية، وكنت تواقا لأن أشهد سلالة "فرسان الملعقة"(١)

---

(١)كان هؤلاء الفرسان الكاثوليك من رعايا "دوق سافوي" وكانوا يؤلفون عصبة في "جنيف" في عهد الإصلاح وقد أطلق عليهم لقب "فرسان الملعقة" ، لأنهم كانوا يفخرون بأنهم "أكلوا أعداءهم بالملعقة" !.. ومن ثم فقد كانوا يحملون ملعقة مدلاة من أشرطة حول أعناقهم، وكانوا يرأسهم فارس من آل "دي بونفير" .

وسعيت إلى السيد "**دي بونفير**" فتلقاني في رفق وتحدث عن زندقة "**جنيف**" ، وعن سلطان كنيسة الأم المقدسة، ثم دعاني إلى العشاء، ولم أجد ما أرد به على حديث انتهى إلى هذه النتيجة، بل إنني خرجت برأي أوحى إلي بأن المطارنةالذين يحظون بمثل هذا العشاء ، لايقلون صلاحا عن كهنتنا. وكنت -يقينا - أكثر معرفة من السيد "**دي بونفير**"ولكني كنت لا أقل صلاحية كضيف عني كمتبحر في علوم اللاهوت، كما أن نبيذ "**فرانجي**" الذي قدم على المائدة ، والذي لاح لي بديعا كان موفقا في كسب كل حجة إلى صف المطران،فقد كان خليقا بي أن أستحيي من أن أوقف فم مثل هذا المضيف العجيب عن الكلام .. ومن ثم فقد رحت أسلم بحججه أو - على الأقل- أحجم عن أن أبدي مقاومة صريحة . ولو أن أحدا رأى ما كنت أبدي من حذر لخالني مخادعا . ولكن هذا غير صحيح ، فمن المحقق أنني إنما كنت أصدر في تصرفي عن ملاطفة عامة ، إذ إن المجاملة ولين الجانب ليسا من الرذائل دائما ، بل إنهما كثيرا ما يكونان من الفضائل ،لا سيما لدى الشبان. ذلك لأن الكرم الذي يعاملنا به أي شخص ، يقربه إلى قلوبنا ، فإذا ما جاريناه في آرائه فلن يكون ذلك عن تملق، بغية استغلال كرمه ، وإنما هو تجنب لإغضابه، أو لمقابلة حسنته بسيئة.. إذ ما الصالح الذي كان السيد "**دي بونفير**" يبتغيه من وراء استقبالي ، أو إكرامي ، أو محاولة إقناعي؟.. لاشيء سوى مصلحتي أنا. هكذا أنباني قلبي الشاب ، فهزني عرفان الجميل وتوقير مثل هذا الكاهن الطيب . وكنت أشعر بتفوقي عليه في المعرفة ، فلم أشأ أن أجازيه عن ضيافته بان أذهله بهذا التفوق ، ومن ثم لم يكن في مسلكي شيء من النفاق ، فما فكرت قط في أن أغير ديني ، بل إنني كنت أبعد ما أكون عن أن أروض نفسي سريعا على هذه الفكرة ، وما نظرت إليها إلا في استنكار ساعد على أن يقصيها عني أمدا طويلا . إنما كانت كل رغبتي هي أن أتفادى إغضاب أولئك الذين كانوا يحسنون معاملتي سعيا منهم إلى تحويلي عن عقيدتي ، كنت أبغي أن أنمي حسن نواياهم ، وأن أدع لهم الأمل في النجاح ، وذلك بأن أبدي لهم أنني أقل مناعة مما كنت في الواقع ، وكان مسلكي في ذلك يشبه تدلل النساء ذوات المكانة المحترمة ، اللائي يعرفن كيف يثرن آمالا تفوق ما يعتزمن أن يحققنه أحيانا في سبيل بلوغ مآربهن ، دون أن يجدن بشيء ، أو يتقيدن بوعد!

كان العقل ، والشفقة ، ومراعاة النظام تتطلب من الناس أن ينقذوني من الدمار الذي كنت أهرع لملاقاته ، وإعادتي إلى أسرتي، بدلا من معاونتي على طيشي ! هذا ما كان كل إنسان صالح صادق التقوى خليقا بأن يفعله ، أو يحاول فعله ولكن السيد "**دي بونفير**" وإن كان رجلا طيبا ، إلا أنه لم يكن- قطعا- بالرجل التقي .. بل إنه كان - على النقيض- متعصبا، لايعرف عن التقوى سوى أنها عبادة الصور، ترديد التسابيح .. كان من ذلك النوع من المبشرين الذين لايملك الواحد منهم أن يفكر في شيء لمصلحة عقيدته ، أفضل من كتابة الاتهامات ضد قساوسة "**جنيف**"!.. وبدلا من أن يردني إلى موطني ، استغل الرغبة التي كنت أحس بها في الفرار من هذا الموطن ، وعمل على أن يجعل العودة متعذرةعلي ولو شئتها!.. ومن المحتمل أن الطريق التي وجهني إليها كانت كفيلة بأن توردني موارد التعاسة ، أو أن تجعلني إمعة لا وزن له .. ولكنه لم يكن يتطلع إلى ذلك أو يحسب حسابه ،

فما كان يرى أمامه سوى نفس أنقذت من الكفر وردت إلى الكنيسة. سواء أكنت شريفا أم وغدا، فما قيمة ذلك مادمت أذهب إلى القداس؟.. علي أن المرء يجب ألا يعتقد أن مثل هذا التفكير مستغرب لدى الكاثوليك بل إنه مألوف لدى كافة الأديان المتعصبة التي يعتبر الإيمان هو الشيء الرئيسي فيها، وليس الأعمال!

وقال لي السيد "**دي بونفير**": "إن الله يدعوك، فاذهب إلى "**أنيسي**"، وهناك ستجد سيدة طيبة، محسنة، جعلها كرم الملك في مركز يمكنها من إنقاذ الأرواح من الخطأ الذي نجت هي نفسها منه!".

وكانت السيدة المقصودة هي "**مدام دي فاران**"، التي اعتنقت الكاثوليكية حديثا، والتي اضطرها القساوسة- في الواقع- إلى أن تقتسم مع من كانوا يبيعون عقيدتهم من الدهماء معاشا قدره ألف فرنك كانت تتلقاه من ملك "**سردينيا**". وشعرت بهوان من جراء طلب المعونة من سيدة طيبة محسنة؛ فقد كنت جد تواق إلى أن أحصل على ما يفي بحاجاتي وليس إلى أن أحظى بصدقات!.. كما أن التفرغ للدين لم يكن يستهويني، ومع ذلك فقد حملت نفسي - في شيء من العناء- على أن أسعى إلى "**أنيسي**" مدفوعا بإلحاح السيد "**دي بونفير**"، وبضغط الجوع، وبمتعة الرحيل في سبيل غاية محددة، وكان بوسعي أن أبلغ وجهتي في يوم واحد ولكنني استغرقت في سفري ثلاثة أيام؛ إذ لم أكن في عجلة من أمري..ولم أجرؤ- في تلك الأثناء- على أن ألج قصرا، أو أقرع بابا؛ فقد كنت بطبعي شديد الخجل ولكني كنت أغني تحت النوافذ التي يراودني الأمل في أن يكون خلفها من يسمعني، وكنت أصدم عندما أنهك رئتي بالجهد المتواصل ثم لا أرى سيدات ولا عذارى ينجذبن إلى صوتي أو معاني أغاني، لاسيما وأنني كنت أعرف منظومات رائعة علمنيها زملائي، وكنت أغنيها في إلقاء لايقل عن معانيها روعة!

ووصلت أخيرا، فرأيت مدام" **دي فاران**". ولقد حددت هذه الفترة من عمري شخصيتي، فلست أقوى على أن أحمل نفسي على المرور بها مرا سريعا.. كنت في منتصف العام السادس عشر من عمري، وكنت بديع التكوين، دون أن أكون ما يسمونه "فتى مليحا".. كنت صغير القدم، مستوي الساق، رضي الخلق، ذا قسمات معبرة، وفم صغير بديع، وشعر فاحم، وحاجبين أسودين، وعينين صغيرتين غائرتين قليلا ولكنهما - مع ذلك- كانتا ترسلان بقوة تلك النار التي كانت تتأجج في دمي!.. على أنني - لسوء الحظ - لم أكن أعرف شيئا عن ذلك، فما خطر لي قط - خلال حياتي - أن أفكر في مظهري الشخصي اللهم إلا بعد أن فات أوان الإفادة منه!.. وكان الجبن المألوف في مثل سني هذه يرتبط بوجل ناشئ عن شخصية جبلت على الحب، فهي دائما في هم من خشية الإساءة إلى أحد. هذا إلى جانب أنني وإن أوتيت عقلا حسن التكوين، نشأ على التسامح، إلا أنني لم أكن قد رأيت الدنيا، وكانت تعوزني "آداب" السلوك.. وبدلا من أن تسد معرفتي هذا النقص فإنها لم تؤد إلا إلى مضاعفة خجلي وجبني؛ إذ أظهرتني على مدى حاجتي الماسة إلى هذه الآداب! ومن ثم فإن خوفي من أن يخفق مظهري - في أول لقاء مع مدام "**دي فاران**" في أن يكسب عطفها دفعني إلى تجشم متاعب أخرى - فنظمت رسالة بديعة، في أسلوب خطابي، خلطت فيها عبارات منتقاة من الكتب، بتعبيرات مكتسبة من الزملاء العمال، وكشفت عن كل بلاغتي؛ لكي أكسب رضاء السيدة، وأرفقت برسالتي خطاب السيد "**دي بونفير**"، ثم سعيت إلى المقابلة التي كنت أرهبها!.. ولم تكن مدام "**دي فاران**" في البيت بل قيل لي إنها بارحته لتوها إلى الكنيسة، إذ كان اليوم أحد السعف من عام ١٧٢٨، فهرعت في أثرها، ورأيتها، فلحقت بها وخاطبتها، وخليق بي

أن أذكر البقعة التي التقينا فيها ، فكم رويتها بدمعي وغطيتها بقبلاتي منذ ذلك الحين ! وكم أتمنى أن أحيط هذه البقعة المباركة بسياج من ذهب . كم أود أن أجتلب إليها تمجيد العالم وخشوعه.. وخليق بكل من يحب تكريم ذكريات خلاص النفوس البشرية الا يقترب منها إلا وهو راكع على ركبتيه!

كانت تلك البقعة دربا يمتد خلف منزل السيدة ، ويصل بين جدول – إلى اليمين – يفصل البيت عن الحديقة ، وسياج الفناء – إلى اليسار – ويؤدي إلى باب خلفي لكنيسة الفرنسيسكان"(١) وفي اللحظة التي همت فيها مدام **"دي فاران"** باجتياز هذا الباب سمعت صوتي ، فالتفتت خلفها ، وكم أذهلني منظرها !.. كنت قد تمثلتها عجوزا ، عابسة، متعصبة في تدينها– فما كانت السيدة التقية التي تعرف السيد **"دي بونفير"** لتعدو هذه الصورة ، في رأيي!– بيد أنني رأيت بدلا من هذه الصورة وجها يفيض بالسحر، وعينين زرقاوين جميلتين – مفعمتين رقة– وبشرة تبهر البصر، ومعالم عنق فاتن .. لم يفلت شيء من النظرة السريعة التي ألقاها المريد الفتى– فقد غدوت منذ تلك اللحظةمريدا تلميذا متعلقا بها– وقد داخلني اقتناع بان دينا يبشر به حواريون من قبيل هذه السيدة، لابد أن يقود إلى الفردوس! وتناولت مني المرأة مبتسمة ، الرسالة التي قدمتها إليها بيد مرتجفة ، ففضتها ، وألقت نظرة على ما كتب السيد **"دي بونفير"** ، ثم ارتدت إلى ما كتبته أنا فقرأته كله، وهمت بأن تعيد قراءته لولا أن نبهها خادمها إلى أن الوقت قد حان لتلج الكنيسة ، فقالت لي بلهجة هزت كياني :

"حسنا ياصغيري .. إذن فأنت تهيم في البلاد ، في مثل هذه السن؟ .. إنه لأمر يستحق الرثاء حقا!" .. ولم تنتظر حتى أجيب ، بل أردفت : " اذهب فانتظرني ، وسلهم أن يقدموا لك فطورا.. ولسوف آتي بعد الصلاة لأتحدث إليك" .

كانت **"لويز اليونور دي فاران"** شابة تنتمي إلى آل **"لاتوردي بيل"**، وهي أسرة عريقة ونبيلة من أسرات **"فيفاي"** إحدى مدن مقاطعة **"فودن"** ، وكانت قد تزوجت وهي جد صغيرة من السيد **"دي فاران"**– من آل **"لويس"**– وكان الابن الاكبر للسيد **"دي فيلاردان"** ، من **"لوزان"** ، ولم يكن هذا الزواج – الذي لم يعقب ولدا– زواجا هنيئا، فلم تلبث السيدة **"دي فاران"** – تحت تأثير حزن عائلي – أن انتهزت فرصة وجود الملك **"فيكتور أماديو"** في **"إيفيان"** فعبرت البحيرة ، وألقت بنفسها عند قدمي هذا الأمير.. ومن ثم هجرت زوجها وأسرتها وبلادها ، في فورة حمقاء تشبه فورتي!– وقد وجدت متسعا من الوقت بعد ذلك للندم ، كما فعلت أنا – وإذ كان الملك مشغوفا بان يظهر بمظهر الكاثوليكي الغيور ، فإنه أخذ السيدة تحت حمايته ، ووقف عليها معاشا سنويا قدره ١٥٠٠جنيه بييمونتي(٢).. وهو مبلغ كبير يعد إسرافا من أمير كان بطبعه غير ميال للسخاء.. على أنه علم بعد ذلك بما قيل – بسبب استقباله إياها – من أنه أحبها، فما كان منه إلا أن أرسلها إلى **"أنيسي"** في حماية فصيلة من حرسه ، حيث نبذت العقيدة البروتستانتية في دير "الزيارة"، تحت إرشاد روحي من**"مشيل جابرييل دي برنيكس"**، الأسقف الأسمى لـ**"جنيف"** .

وكانت قد قضت ست سنوات في **"أنيسي"** عندما قدر لي أن أصل إليها ، وكانت وقتئذ في الثامنة العشرين من عمرها؛ إذ ولدت في بداية القرن ، ولقد كان جمالها من النوع الذي يبقى مع الزمن؛ إذ إنه يقترن بالمحيّا أكثر منه بالملامح والقسمات.. كما أنه كان – لديها في باكورة تألقه. فكان لها طابع لطيف

---

(١) أصحاب الحبال: وهم افراد طائفة دينية أنشاها القديس "فرانسيس الاسيسي" في سنة١٢٢٣ وقد أطلق هذا الاسم فيما بعد على جماعة أنشاها "دانتون" و"مارا" و"ديمولان" – زعماء الثورة الفرنسية – في سنة ١٧٩٠ كانت تعقد اجتماعاتها في دير الفرنسيسكان العتيق بـ"باريس" .

(٢) نسبة إلى ولاية "بييمونتي" – تكتب بالحروف اللاتينية "بييد مونت" ولكن التاء تغفل في النطق– وتقع على حدود "فرنسا" و"سويسرا"، في الشمال الغربي لـ" إيطاليا" .

، حنون ، وشكل رقيق وابتسامة ملائكية، وفم يشبه فمي، وشعر أشهب خفيف نادر الجمال ، ترسله في إهمال كان يكسبها مظهرا أخاذا . وكانت صغيرة القد ، بل إنها كانت قصيرة ، وإن لم يكن هذا يعيبها . على أنها أوتيت رأسا وصدرا ويدين وذراعين لاتملك العين أن تقع على أجمل منها . . ولقد كانت تربيتها جد عجيبة : كانت قد فقدت أمها عند مولدها – مثلي – وتلقت العلم في غير انتظام ، كلما عنّ لها أو صادفتها الفرصة . . فأخذت قدرا ضئيلا من مربيتها، وقليلا من أبيها، وقليلا من مدرسيها ، وحظا وافرا من عاشقيها لاسيما من شخص منهم يدعى السيد **"دي تافيل"** كان رجل ذوق وعلم ، فكان يزين المرأة التي تتجه إليها عواطفه بروائع معرفته، ولكن تعدد أنواع المعرفة المتباينة– بهذه الكثرة – جعل كلا منها يعرقل الآخر! ولما كانت السيدة قدواصلت دراساتها دون ما نظام مرسوم ، فإن إدراكها السليم– بطبعه– لم يصب أي تحسن . ومن ثم فإنها – برغم إلمامها بشيء من أصول الفلسفةوعلم الطبيعة – ظلت تحتفظ بما كان لأبيها من ميل إلى الطب التجريبي(١) والكيمياء ، وكانت تحضر أنواع :"الإكسير" والأصباغ ، والبلاسم (المراهم) والمساحيق السامية(٢) . وكانت تزعم أنها تمتلك عقاقير سرية! ولقد استغل مدعو الطب من الدجالين ضعفها، فتسلطوا عليها، وأعنتوها ، وأفلسوها . . وبين البواتق والعقاقير بددوا ذكاءها، ومواهبها، ومفاتنها التي كانت خليقة بأن تبهر بها أرقى مجتمع! . . ومع ذلك ، فبالرغم من أن الأوغاد الخبثاءأساءوا استغلال تربيتها التي لم تلق التوجيه الصالح –لكي يطفئوا ضياء عقلها– إلا أن قلبها السامي صمد للمحنة ، وظل دائما على سموه . . ما تغيرت شخصيتها الودود اللطيفة، ولا عطفها على التعساء ، ولا طيبتها التي لم يكن لها حد ،ولا خلقها البشوش ، الصريح ، المستقيم . . بل إنها حين عدا عليها الكبر، وأحاطت بها الحاجة والعناء والمصائب من كل الأنواع ، ظلت سجيتها الوادعة الجميلة، محتفظة– حتى نهاية عمرها – بكل ما كان بها من بهجة في أهنأ الأيام!

ولقد كانت أخطاؤها راجعة إلى معين لاينضب من النشاط الذي كان في حاجة مستمرة إلى شاغل . ولم تكن تبغي شيئا من الدس كما كانت تفعل غيرها من النساء ، وإنما كانت تبغي مشروعات تعنى بتوجيهها وتنفيذها . فلقد خلقت لتسهم في الشؤون المهمة، ، ولو أن مدام **"دي لونجفيل"** كانت في مكانها لكانت مجرد دساسة تنصرف إلى المؤامرات . . أما هي، فلو أنها كانت في مكان مدام **"دي لونجفيل"** لحكمت الدولة وساست أمورها ! ولكن قدر لمواهبها أن تتوفر في غير المجال الصالح لها، فإذا هذه المواهب التي كانت خليقة بأن تجلب عليها الشهرة– لو أنها كانت في مركز أسمى–، تؤدي إلى دمارها وهي في المركز الذي عاشت فيه! . . ذلك أنها كانت – في كل ما يقع في مجال طاقتها العقلية– ترسم خطتها مبكرة في رأسها فترى غايتها مضخمة، مما كان ينجم عنه استخدامها وسائل أكثر تناسبا مع آرائها منها مع قوتها . . ولقد أخفقت بفضل أخطاء غيرها . وعندما فشل مشروعها ، أفلست ولما يكدسواها يخسر شيئا ! . . على أن هذا الشغف بالأعمال التجارية – الذي أضر بها أبلغ الضرر– كان عظيم النفع لها من ناحية أخرى في عزلتها الرهبانية، إذ حال بينها وبين البقاء في هذه العزلة ما بقي من عمرها ، كما كانت تعتزم . فما كان من المحتمل أن تليق حياة الراهبات المنتظمة المتقشفة، ولا الثرثرة المنبعثة عن الخمول والكسل بعقل كان في حركة مستمرة ، وكان يبتكر في كل يوم نظما جديدة، ويحتاج إلى الحركة ليكرس ذاته لهذه النظم!

وكان أسقف **"برنيكس"** الطبيب يشبه **"فرانسوا دي سال"**(٣) في كثير من النواحي ، وإن لم يعد له مهارة . . كما أن مدام **"دي فاران"** – التي كان يدعوها بابنته – كانت تشبه مدام **"دي شانتال"** (٤) في

---

(١) الطب التجريبي هنا يقصد به ذلك الطب الذي تكتسب معرفته بالممارسة والتجربة ، وهو ما يعرف لدى العامة بطب "البركة" . (٢) المساحيق السامية مساحيق كانت تعزى إليها ميزات عالية. (٣) أسقف "جنيف" (١٥٦٧–١٦٢٢) (٤) سيدة امتازت بتقواها ، وهي التي أسست نظام راهبات "الزيارة" وقد أقر رهبنتها البابا "كلمينت الثالث عشر" .

كثير من النواحي ، وكانت خليقة بأن تشبهها أيضا في اعتزالها الناس لولا أن حياة الدير الخاملة كانت بغيضة إليها . ولم يكن عن نقص في حمية هذه السيدةالطيبة أن عزفت عن تكريس نفسها للعبادات البسيطة التي تتطلبها الرهبنة ، والتي كانت تبدو ملائمة لمؤمنة حديثة عهد بالعقيدة ، تعيش تحت إرشاد أسقف .. فمهما يكن الباعث الذي أغراها على أن تبدل عقيدتها ، فإنها كانت صادقة الإخلاص- عن يقين – للعقيدة الجديدة التي اعتنقتها. ومن المحتمل أن تكون قد ندمت على إقدامها على ذلك إلا أن من الأكيد أنها لم ترغب قط في النكوص، فهي لم تمت على مذهب الكثلكة فحسب، بل إنها برهنت خلال حياتها على أنها كانت كاثوليكية صالحة ، وإنني لأجرؤ – وأنا الذي يعتقد أنه قد اطلع على سريرتها- على أن أؤكد أن عزوفها عن أن تبدو في ثياب التقوى علانية إنما كان ناجما عن استبشاعها للتصنع.

كانت تقواها على درجة من الصدق كانت تأبى معها أن تظهرها للملأ. . على أن هذا ليس بمجال الحديث عن مبادئها،فلسوف تسنح لي فرص أخرى للخوض فيها.

على الذين ينكرون تعاطف الأرواح أن يفسروا – إن استطاعوا – كيف أن مدام "**دي فـــاران**" أوحت إلي منذ اللقاء الأول ، بل منذ الكلمة الأولى ، والنظرة الأولى بثقة كاملة لم تكشف قط عما يكذبها ، فضلا عما أوحت إلي به من مشاعر الولاء والتعلق ، ولو سلمنا بأن أحاسيسي نحوها كانت حبا حقيقيا- وهو ما سيبدو موضع شك، على الأقل ، لأولئك الذين يتتبعون تاريخ علاقتنا- فكيف تسنى أن يكون هذا الحب منذ بدايته مقترنا بمشاعر قل أن أوحى بها الهوى – وأعني بذلك طمأنينة القلب ، والسكينة ، والسرور، والثقة ، والاعتداد؟- كيف تنسى أنني عندما سعيت لأول مرة إلى امرأة لطيفة ، مهذبة،ذات جمال باهر .. إلى سيدة أرفع مني مقاما – وما كنت قد خاطبت يوما مثيلة لها – وكان مصيري ، بطريقة ما ، يتوقف عليها ، وفقا لمدى ما قد تستشعره من ميل للأخذ بيدي. .أقول : "كيف تسنّي – رغم كل هذا- أن أشعر لفوري بانطلاق، وبارتياح تام ، وكأنني كنت واثقا كل الثقة بأنني سأروق لها؟ .. كيف تسنى أنني لم أحس- ولو للحظة واحدة – بأية حيرة ، أو ارتباك ، أو تحرج؟. . لقد كنت بطبيعتي خجولا، سهل الاضطراب ، لا أعرف شيئا من الدنيا، فكيف تسنى لي منذ اليوم الأول ، بل اللحظة الأولى ، أن أتخذ معها المسلك السهل، واللغة الرقيقة ، واللهجة الأليفة التي سادت بيننا بعد ذلك بعشر سنوات ، عندما جعل الود الوثيق هذه الأمور طبيعية؟. . فهل من المحتمل أن يحب المرء بدون غيرة- ولست أقول بدون رغبات ، فإن هذه كانت متوفرة لدي!- أفلا يرغب المرء في أن يعرف على الأقل- من هدف عواطفه – ما إذا كان حبه يقابل بحب مثله أم لا ؟. . الواقع أنه ما خطر لي في حياتي أن أوجه إليها هذا السؤال ، ولا أن أسأل نفسي ما إذا كنت قد أحببتها!. . كما أنها لم تبد فضولا نحوي من هذا القبيل . كان ثمة شيء فذ في مشاعري نحو هذه المرأة الساحرة ، ولسوف يصادف القارئ – في سياق حكايتي – عجائب غير مرتقبة!

كان الموضوع يتعلق بما سوف يصير إليه أمري ، وقد استبقتني السيدة للغداء كي نتحدث بشأن مستقبلي . وكانت تلك أول مرة في حياتي تخلت عني فيها شهيتي ، حتى لقد قالت وصيفة السيدة- التي قامت بخدمتها على المائدة- إنني كنت أول قادم من سفر ، في مثل سني وطبقتي ، رأته في مثل هذه الحال ، ومع أن هذه الملاحظة لم تنل مني في نظر سيدتها إلا أنها أصابت مرمى في نفس طفيلي كبير كان يتناول الغداء معنا ، وكان قد التهم وحده ما يكفي ستة أفراد! أما أنا، فقد كنت في حال من النشوة العاطفية لم تكن تدع لي سبيلا إلى الأكل. كان قلبي يتغذى من شعور

جديد عليَّ كل الجدة،وقد ملأ كل كياني ، ولم يدع بنفسي ميلا إلى أي شيء آخر !

ورغبت مدام "**دي فاران**" في أن تعرف دقائق تاريخ حياتي القصيرة ، فاستعدت وأنا أرويها كل ما فقدت خلال تتلمذي في الحرفة من حماسة ومرح . وكنت كلما استثرت اهتمام تلك الروح السامية، ازدادت هي إشفاقا علي مما اعتزمت أن أعرض حياتي له . ولم تجرؤ على أن تنصحني بالعودة إلى "**جنيف**" ، فقد كان ذلك – بالنسبة لموقفي – عملا ينطوي على خيانة للعقيدة الكاثوليكية، كما أنها كانت تعرف تمام المعرفة كيف أنها كانت محوطة بالرقابة، وكيف أن كلماتها كانت توزن بميزان دقيق . على أنها حدثتني بلهجة مؤثرة عن أسى أبي ، حتى لقد كان من السهل أن يرى المرء أنها كانت تحبذ عودتي كي أواسيه، ولم تكن تدري كيف أنها كانت تترافع بقوة ضد نفسها ، دون أن تدري ، إذ أظنني قد قلت من قبل إن عقلي كان قد استقر على قرار ، فكنت كلما ازدادت كلمات السيدة ذلاقة وإقناعا ، وكلما ازدادت تغلغلا في فؤادي ازددت عجزا عن أن أفكر في الانفصال عنها! كنت أشعر بأن العودة إلى "**جنيف**" بمثابة إقامة عوائق لاسبيل إلى تذليلها بيني وبين هذه السيدة ، ما لم أتشبث بهذه الخطوة التي اتخذتها ؛ومن ثم ظللت صامدا في موقفي ، وإذ رأت مدام "**دي فاران**" أن جهودها غير مجدية لم تمعن في الإلحاح ، حتى تتفادى إحراج نفسها ، بيد أنها قالت لي وهي ترمقني في إشفاق : " أيها الصغير البائس ، يجب أن تذهب إلى حيث يدعوك الله ، ولكنك ستتذكر حديثي عندما تكبر!"

واعتقد أنها لم تكن تتصور إذ ذاك مدى القسوة التي قدر لهذه النبوءة أن تتحقق بها!

وكانت المشكلة عسيرة، وكيف كان بوسعي – وأنا في مثل تلك السن الصغيرة– أن أجد موارد للعيش بعيدا عن وطني؟ . . كنت جد بعيد عن أن أتقن حرفتي وأنا لم أكد أتم نصف فترة التعلم والمران .. حتى لو أنني كنت أتقنها ، فقد كنت خليقا بأن أعجز عن كسب قوتي منها في إقليم "**سافوي**" ؛ لأن الإقليم كان أفقر من أن يجد ما ينفقه على الفنون .. على أن الطفيلي الذي كان يلتهم الأكل – نيابة عن السيدة وعني – وجد نفسه مضطرا إلى التوقف كي يريح فكيه ، فانتهز الفرصة وقدم اقتراحا قال إنه مستلهم من السماء ، وإن كان خليقا – إذ حكمنا عليه بنتائجه– بأن يكون مستلهما من مكان آخرمضاد للسماء. وكان الاقتراح يوحي بأن اذهب إلى "**تورين**" حيث أجد عونا روحيا وبدنيا في دار للضيافة أقيمت للوعظ والتعليم الديني، إلى أن يتاح لي أن أنضوي تحت لواءالكنيسة ، فأستطيع أن أحصل على عمل بفضل أريحية المحسنين. واستطرد صاحبي قائلا : "أما نفقات رحلته، فإن سيادة الأسقف سيتكرم بلا شك بتوفيرها، إذا اقترحت السيدة هذا العمل الخيري عليه. ولا مراء كذلك في أن السيدة"**البارونة**" وتابع قوله وهو ينحني على طبقه: " وهي جد محسنة ، ستتوق هي الأخرى إلى المساهمة."

ووجدت فكرة الإحسان بهذا الشكل جد بغيضة فاثقل الألم قلبي ولم أنبس ببنت شفة. أما مدام "**دي فاران**" ، فقد اكتفت بأن قالت– دون أن تتحمس في قبول الاقتراح– إن كل إنسان جدير بأن يصنع الخير بقدر ما في وسعه ، وأنها على استعداد لأن تتحدث إلى الأسقف بهذا الصدد ولكن صاحبنا اللعين الذي لم يكن له في الأمر شأن يذكر ، والذي كان يخشى ألا تتحدث السيدة إلى الأسقف بالطريقة التي كان يرجوها ، سارع إلى دعوة المحسنين ، وبذل جهده في إقناع القساوسة ببراعة .. فلما رغبت مدام "**دي فاران**"–التي كانت تخشى علي من الرحلة– في الحديث إلى الأسقف عنها وجدت أن كل شيء قد دبر. وأسلمها الرجل لفوره النقود التي خصصت لنفقات رحلتي

المتواضعة ، فلم تجسر على الإلحاح في بقائي ، إذ كنت أقترب من السن التي لايليق عندها بامرأة في عمر السيدة أن تعبر عن رغبتها في استبقاء شاب معها!

واضطررت – بعد إذ دبرت رحلتي بهذا الشكل– إلى الانصياع ، بل إنني أقدمت على الرحلة دون إحجام . ومع أن "**تورين**" كانت أبعد من "**جنيف**" – كما قدرت – إلا أنها ، كعاصمة للإقليم، كانت أوثق اتصالا بـ"**أنيسي**" من أية بلدة تابعة لعقيدة مختلفة ، وفي أرض أجنبية ، وإلى جانب أنني كنت مقدما على الرحيل إطاعة لمدام "**دي فاران**" فإنني اعتبرت نفسي باقيا تحت رعايتها ، فكان هذا أهم عندي من أن أقيم على مقربة منها . ثم فكرة الانطلاق في رحلة طويلة أثارت شغفي بالتجوال والترحال ، وهو شغف كان قد بدأ يعلن عن نفسه،وبدا لي أن من التجارب البديعة أن أعبر الجبال– وأنا في تلك السن– وأن أرفع نفسي عن كل رفاقي بقدر ارتفاع جبال "**الألب**" .. إن في مشاهدة مختلف الأقطار لسحرا لايكاد أي امرئ من أبناء "**جنيف**" يقوي على مقاومته. ومن ثم فقد قبلت الرحيل . وكان ذاك الطفيلي مزمعا أن يسافر مع زوجته خلال يومين، فعهدوا بي إلى رعايته ، كما عهدوا بنقودي – التي ضاعفتها مدام "**دي فاران**"– إليه. على أنها منحتني كذلك مبلغا بسيطا لمصروفي الخاص، وزودتني بنصحها. . وفي يوم الأربعاء من "أسبوع الآلام" ، بدأنا سفرنا .

*****

وفي اليوم التالي لرحيلي ، وصل أبي إلى "**أنيسي**" – متعقبا أثري – مع صديقه السيد "**ريفال**"، وهو ساعاتي مثله ، موهوب بل مشحوذ الذكاء ، كان ينظم أشعارا تفوق أشعار "**لاموت**"ولم يكن يقل إيداعا للكلام عنه بالشعر ، فضلا عن أنه كان طيبا في كل ناحية ، بيد أن ميله للأدب– في غير مجاله– لم يجد عليه من الثمار سوى دفع أحد أبنائه إلى اعتلاء المسرح! .. ولقد قابل السيدان – أبي وصاحبه – مدام "**دي فاران**"واكتفيا بأن رثيا لحظي ، بدلا من أن يتبعاني ويستردانى، وهو أمر كان من اليسير عليهما أداؤه ، إذ إنهما كانا يمتطيان جوادين ، في حين أنني كنت أسير على قدمي!ولقد حذا خالي "**برنار**" حذوهما ، فوصل إلى "**كونفينيون**" ثم ارتد إلى "**جنيف**" بعد أن سمع أنني كنت في "**أنيسي**" ..وكأنما كان أهلي متحالفين مع نجمي المنحوس على أن يسلموني إلى المصير الذي كان يرتقبني ، ولقد ضاع أخي بفضل إهمال شبيه بهذا ، وكان ضياعه شبه نهائي ، حتى إن أحدا لم يعرف قط ما جرى له !

وما كان أبي رجلا شريفا فحسب ، وإنما كان ذا استقامة مشهود بها ، وقد أوتي نفسا من تلك النفوس القوية القادرة على جليل الفضائل، وكان فضلا عن ذلك أبا صالحا لاسيما بالنسبة لي ، فقد كان يحبني ويخصني بحنان فياض ولكنه كان يحب مسراته كذلك ، وقد اكتسب – مذ أصبحت أعيش بعيدا عنه – ميولا أخرى أحالت عاطفته الأبوية فاترة بعض الشيء. وكان قد تزوج مرة أخرى في "**نيون**" ، ومع أن زوجته لم تكن في سن تمكنها من أن تمنحني إخوة ، إلا أنها كانت ذات أقارب وأهل ، مما خلق لأبي أسرة جديدة، وأهدافا جديدة ، ووسطا جديدا ، فلم يعد يكثر من استعادةذكراي .. وكان قد اكتهل ، وليس لديه ما يعيش عليه ، ولكني وأخي كنا قد ورثنا عن أمنا ثروة بسيطة ، كان من حق أبي أن يحصل على ريعها في غيابنا، ولم تواته هذه الفكرة مباشرة ، ولا هي حالت بينه وبين أداء واجبه ، ولكنها كانت تتغلغل خفية في نفسه، دون أن يفطن إليها! قد خففت – في بعض الأحيان – من تحمسه الذي كان خليقا بأن يدفعه إلى الانطلاق في تعقب أثري ،

كما حدث عقب رحيلي عن "**أنيسي**" . وهذا – فيما أعتقد – هو السر في أنه ، وإن كان قد سعى إلى "**أنيسي**" للبحث عني في الواقع ، فإنه لم يتبعني إلى "**شامبيري**" ، حيث كان حريابان يعثر علي ولابد .

وكان هذا هو السر كذلك في انه كان يستقبلني عندما أزوره– كما صرت أفعل كثيرا بعد فراري – بعناقات الأب وقبلاته، ولكن . . دون ان يبذل أي جهد صادق لاستبقائي معه!

على أن هذا التصرف من جانب أبي– الذي كنت أعرف حنانه واستقامته تمام المعرفة– قادني إلى تأملات في حالي، ساهمت بدرجة غير طفيفة في استبقاء قلبي سليما ، فمنها استنتجت الدرس الأخلاقي العظيم الذي قد يكون الدرس الأوحد ذا القيمة العملية : تفادي تلك المواقف التي تعترض الحياة ، والتي تدفع واجباتنا إلى التضارب مع مصالحنا، والتي تبصرنا بما قد يكون لنا من نفع في مصائب الغير. . فمن المؤكد – في مثل هذه المواقف – أنه مهما يكن حبنا للفضيلة صادقا فلابد من أنه سيأخذ في الضعف ، دون أن ننتبه إلى ذلك – إن عاجلا أو آجلا – حتى يصبح ظالما شديدا في تصرفاته ، وإن لم يكف عن أن يظل منصفا طيبا في أعماق قلوبنا !

هذا المبدأ الذي انطبع في قرارة فؤادي ، والذي هداني – وإن جاءت هدايته متأخرة– في كل مسلكي في الواقع ، هو أحد المبادئ التي جعلتني أبدو مخلوقا شديد الغرابة والحماقة في نظر العالم ، وفي نظر معارفي قبل سواهم ! ولقد عيب علي أنني أحاول أن أظهر فذا ، مغايرا لكل من عداي، والحقيقة هي أنني لم أجشم نفسي قط عناء التصرف على شاكلة غيري من الناس، أو على نقيضهم ، وإنما كنت أتوق مخلصا إلى أن أفعل ما كنت أراه صوابا . فكنت أبتعد– بقدر ما في وسعي– عن المواقف التي تجعل مصالحي متعارضة مع مصالح الغير، والتي قد توحي إلي– من جراء ذلك– برغبة خفية في إيذاء الغير ، ولو دون إرادة مني! . . ولقد أراد سيدي اللورد"**مارشال**" أن يثبت اسمي في وصيته– منذ عامين– فعارضت ذلك بشدة ، وقلت له: إنني لاأبغض شيئا في الدنيا، قدر أن أعلم أن اسمي مثبت في وصية أحد، وفي وصيته هو بالذات. ولقد نزل أخيرا عن رغبته ولكنه أصر على أن يمنحني معاشا مدى الحياة، فلم أعارض. ولسوف يقال إنني كسبت بهذا التعديل ، وهو قول قد يكون صحيحا ، ولكن . . أواه أيها الأب وأيها المحسن! . . إنني لأوقن بأنه إذا قدر لي – لتعاستي– أن أعيش بعدك، فإنني سأفقد بفقدانك كل شيء ، ولن أكسب شيئا!

هذه– في رأيي – هي الفلسفة الحقة، بل الفلسفة الوحيدة التي تناسب القلب البشري في الواقع ، وإني لأزداد في كل يوم تأثرا بمتانتها وثباتها ، حتى إنني عرضتها– تحت أضواء متعددة– في كتاباتي الحديثة ، ولكن الجمهور سطحي الإدراك، لا يعني إلا بالقشور، فلم يدر كيف يستوعبها. ولو قدر لي أن أعيش ، بعد أن أفرغ من مهمتي الحاضرة، حتى أضطلع بمهمة جديدة، فإنني أعتزم أن أقدم– على غرار ما فعلت في "**إميل**"(١) – مثالا جذابا رائعا لهذه الفلسفة، يضطر القارئ إلى أن يعنى به . ولكن . . لنكتف بهذا القدر من تأملات المسافر، فقد آن لنا أن نواصل الرحلة!

*****

وجدت الرحلة أبدع مما توقعت ، ولم يكن مرافقي الطفيلي من السماجة بالقدر الذي كان يلوح عليه : كان رجلا في أواسط العمر ، له شعر أسود بدأ الشيب يدب في حوافه، وقد بدا كجندي من قاذفي القنابل ، وأوتي صوتا جهوريا . . وكان عارم البشاشة ، يغذ (يسرع) في سيره ، ويسرف في

---

(١) يقصد بهذه الإشارة ما أورده في الخطاب العشرين، بالجزء الثالث من قصته الطويلة "هيلويز الجديدة".

أكله، ويمارس كافة أنواع الحرف ، دون أن يجيد شيئا منها.

واعتقد أنه كان يزمع إنشاء مصنع ما في "**أنيسي**" ، ولم تتخل مدام "**دي فاران**" عن تحبيذ فكرته، وكان لابد له – كي يقدم على المحاولة – من الحصول على موافقة الوزير؛ ولهذا كان في طريقه إلى "**تورين**" ، مزودا بالمال . وكان صديقنا هذا ذا براعة في الدس والتآمر ، حريصا دائما على أن يتقرب إلى رجال الدين، وبينما كان يبدي تلهفا عظيما على أداء الخدمات لهم استطاع أن يقتبس عن مدرستهم أسلوبا وذلاقة ورعتين كان لايفتأ يستغلهما مباهيا بأنه واعظ كبير.. بل إنه استطاع أن يحفظ آية من التوراة باللاتينية، كان لايكف عن ترديدها ألف مرة في اليوم ، فيبدو وكأنه يعرف ألفا منها !.. ونادراما كان يعوزه المال إذا ما عرف أن لدى سواه نقودا.. كان بارعا أكثر منه أفاقا ، وكان عندما يردد "**كابوشينياته**"(١) بلهجة ضابط تدريب المجندين ، يشبه الراهب "**بطرس**"(٢) عندما كان يدعو إلى الحرب الصليبية ، ملقيا خطبه الدينيةوهو ممسك بسيف!.. أما زوجته– السيدة "**سابران**" – فكانت امرأة طيبة ، أهدأ بالنهار منها بالليل. ولما كنت أنام في حجرتهما فإن نومها الصاخب كثيرا ما كان يوقظني ، وكان خليقا بأن يستبقيني ساهرا لو أنني علمت سببه، ولكني لم أشعر باتفه ريب، وقد أدى غبائي في هذه الناحية إلى وقوع عبء تعليمي على الطبيعة وحدها!

ومضيت في رحلتي مع مرافقي التقي وزميلته الصاخبة، دون أن تعكر صفو سفري أية بادرة . كنت أسعد، بدنياوذهنيا ، مما كنت طيلة عمري . كنت فتى قويا ، موفور الصحة ، خلوا من الهم ، مفعما بالثقة في نفسي وفي الغير . كنت أستمتع بتلك الفترة الغالية – برغم قصرها – من الحياة..

اللحظة التي تنبسط فيها الحياة على سعتها فتضخم من شعورنا بكل حواسنا وأحاسيسنا ، وتجعل الطبيعة في أبصارنا ، إذ تبديها تحت سحر وجودنا !.. وكان قلقي البهيج يخضع لهدف يقيد من حدته ، ويسكن من خيالي . كنت أنظر إلى نفسي كصنيعة وتلميذ وصديق ، بل وحبيب– تقريبا– لمدام"**دي فاران**" كانت الأمور المؤدبة التي حدثتني بها ، واللطف البسيط الذي خصتني به ، والاهتمام الحنون الذي لاح أنها أولتنيه ، ونظراتها الودية التي بدت لي وكأنها مليئة بالحب– إذ إنها كانت تلهمني هذا الشعور!– كل هذه الأمور شغلت أفكاري خلال الرحلة ، وأغرقتني في أحلام لذيذة لم يكن يعكرها أي خوف أو شك بشأن مستقبلي . فقد رأيت أنهم – إذ أوفدوني إلى "**تورين**" قد تكفلوا بأن يعولوني هناك، وأن يحصلوا لي على مركز مناسب.؛لذلك شعرت بأنني في غير حاجة إلى أن أحمل هم نفسي بعد ذلك ، فقد حمله عني سواي، ومن ثم مضيت في سفري بخطى خفيفة بعد أن تخلصت من هذا العبء . كان كل شيء يلوح لي وكأنه يعزز سعادتي المبكرة، وكنت بين الجدران أصور لنفسي المآدب والحفاوات الريفية .. وفي المرج أصور لنفسي الألعاب الخشنة.. وعلى ضفاف الأنهار : السباحة والنزهات وصيد السمك .. وفوق الشجر : الفواكه الشهية.. وتحت ظلالها : الخلوات العاشقة.. وعلى الجبال : دلاء مترعة باللبن والقشدة ، وخمول حبيب وسكينة وبساطة ، ومتعة الانطلاق دون ما غاية!... وقصارى القول إنه لم يكن ثمة ما يصادف بصري دون أن يبعث في فؤادي شيئا من الافتتان الممتع !.. كانت فخامة المناظر المحيطة بي، وتنوعها. وجمالها الحقيقي تجعل تلك الفتنة أهلا للتدبر والتأمل ، بل إن الغرور كان يطالب لنفسه بنصيب في ذلك ، فقد لاح لي شرفا يفوق ما يؤهلني له عمري أن أزور "**إيطاليا**" – وأنا لاأزال صغيرا– وأن أرى مثل هذا القدر من الدنيا، وأن أقفو أثر "**هانيبال**" عبر الجبال!.. وكنا – إلى جانب

---

(١) خطب وعظات دينية غثة، كتلك التي كان يلقيها الرهبان "الكابوشان" (٢) يعتبر بطرس الراهب أهم محرض على شن الحملة الصليبية الأولى وكان يطوف بقرى أوروبا على ظهر بغلة، ويخطب في الناس ممسكا سيفا ويتخذ من الغيرة الدينية وسيلة لتحريك الأحقاد.

ذلك – كثيرا ما نقف بالفنادق الريفية الجيدة . وكانت شهيتي متفتحة للأكل ، كما كان إرضاؤها متوفرا بكثرة ، والواقع أنني لم أجد داعيا لأن أحرم نفسي شيئا ، لاسيما وأن وجباتي لم تكن بالشيء الذي يذكر إذا قورنت بوجبات السيد "**سابران**"!

ولست أذكر خلال حياتي كلها وقتا حظيت فيه بتحرر تام من الهم والقلق كما تحررت في الأيام السبعة أو الثمانية التي استغرقتها رحلتنا ! فإن مقدرة السيدة "**سابران**" على السير – وهي المعدل الذي كنا مضطرين إلى أن ننظم خطانا وفقا له– جعلت الرحلة تجاوز نزهة طويلة على الأقدام!

ولقد خلفت لي ذكرى هذه المناسبة ميلا شديدا إلى كل شيء كان مرتبطا بها لاسيما الجبال والسير على الأقدام ، فما سبق لي في الأيام السالفةمن عمري، أن سافرت على قدمي . . فضلا عن أن سفري هذا كان مقترنا بأعظم المسرات ، ذلك لأن الواجبات والأعمال وكثرة الأمتعة ، اضطرتني فيما بعد إلى أن أتخذ دور السيد الراقي، وأن أستقل عربة في أسفاري. كما أن الهموم ،والارتباكات والشواغل الممضة لم تلبث أن تسربت إلي ، فغدا كل همي في رحلاتي متجها إلى بلوغ غايتي ، بعد أن كنت لاأكترث بشيء سوى الاستمتاع بالسفر! . . ولقد قضيت وقتا طويلا أحاول أن أعثر على رفيقين أوتيا مثل ميولي بحيث يقبلان أن ينفقا خمسين "**لوي**"(١) من مالهما ، وعاما من وقتهما في الترحال معي على الأقدام ، لنجوس خلال "**إيطاليا**"، دون أن نصحب معنا سوى غلام واحد يحمل حقائبنا . ولقد بدا على الكثيرين الافتتان بالفكرة ولكنهم لم يكونوا يرونها – في الواقع– أكثر من وهم يطيب الحديث عنه ، دون أي تفكير في تنفيذه! وإنني لأذكر أن"**ديديرو**" و"**جريم**" – اللذين ناقشت معهما الفكرة بحماس ذات مرة – قد تحمسا لها في النهاية ، فخيل إلي أن الأمر قد استقر ، ولكنه انتهى إلى أن قمنا برحلة على الورق، لم يجد فيها "**جريم**" من السرور أكثر من أن يجعل"**ديديروا**" يرتكب عددا من الأخطاءالإلحادية، ثم يسلمني إلى التحقيق بدلا منه! (٢)

*****

لم يخفف من أسفي لسرعة الوصول إلى "**تورين**" سوى سروري برؤية مدينة كبيرة ، والأمل في أن يقدر لي أن أقوم بدور يليق بشخصي ، إذ كانت أبخرة الطموح قد بدأت تتصاعد في مخي ، وأصبحت أرى أنني قد سموت – إلى ما لا نهاية – فوق حالتي السابقة أيام كنت أتتلمذ للحرفة . . وكنت أبعد من أن أظن – مجرد ظن – أنه قد كتب لي أن أهوي ، في أمد وجيز ، إلى ما دون تلك الحال! . . على أن من واجبي أن أسأل القارئ الصفح، أو أن أبرر له – قبل أن أمضي في قصتي – تلك التفصيلات التافهة التي خضتها ، أو التي سأخوضها في سياق القصة، والتي قد تبدو في نظره عديمةالقيمة . . فإن المهمة التي آليتها على نفسي – إذ وعدت بأن أكشف نفسي للملأ على حقيقتها، دون ما تحفظ – تتطلب عدم إبقاء شيء يتعلق بي في طي الإبهام أو الخفاء، وأن أدع نفسي تحت أبصار الملأ باستمرار ، حتى يصحبوني في كل هفوات قلبي ، وفي كل الأركان الخفية في حياتي، فلا أغيب عن أعينهم لحظة واحدة ، خشية أن يتساءلوا لو أنهم عثروا في روايتي على أضأل ثغرة، أو أتفه فراغ: " ما الذي كان يفعله خلال ذلك؟ . . فلا يلبثوا أن يتهموني بأنني غير راغب في أن أفضي بكل شيء . وإن ما أكتبه ليعرضني لغضب الجنس البشري بما فيه الكفاية ، دون ما حاجة لأن أعرض نفسي – بصمتي– لمزيد!

---

(١) "اللوي" عملة فرنسية قديمة كانت تساوي عشرين فرنكا. (٢) يقصد "روسو" أن الرحلة لم تخرج من نطاق الورق والقلم والانطلاق في الخيال، بحيث غدت قصة وهمية.

وكان مصروفي الخاص الضئيل قد نفد، إذ كنت في ثرثرتي قد تحدثت عنه ، فلم يتوان مرشداي عن استغلال عدم حرصي ، واستطاعت مدام "**سابران**" أن تحصل مني على كل ما كان معي .. حتى على قطعة صغيرة من شريط مكسو بالفضة كانت مدام "**دي فـاران**" قد منحتنيها لأزين بها سيفي الصغير. وكانت حسرتي عليها أشد منها على أي شيء آخر بل إن السيف ذاته كان خليقا بأن يبقى في حوزتهما لو أنني تهاو،نت في مقاومتي ، لقد تكفلا بنفقاتي – في أثناء الرحلة، – بأمانة، ولكنهما لم يدعا لي في الوقت ذاته شيئا. . فبلغت "**تـوريـن**" بلا ثياب ولا مال ولا متاع، وغدوت مضطرا إلى أن أدع لمواهبي وحدها شرف الحظ الذي كنت أرجو أن أحظى به!

أن أحظى به وكنت مزودا ببعض خطابات قدمتها ، فسرعان ما اقتدت إلى نزل الوعاظ ، حيث بدأت أتعلم الدين الذي كان علي أن أكسب به عيشي! . . ورأيت عند وصولي بابا ضخما ذا قضبان حديدية ، أغلق خلفي – وأحكم رتاجه – بمجرد أن أجتزته. وبدت لي هذه المقدمة منفرة أكثر منها مقبو لة.

وكانت قد بدأت تغذيني بالخواطر عندما اقتدت إلى غرفة رحبة الجوانب ، كان كل أثاثها عبارة عن هيكل خشبي يعلوه صليب كبير – في نهاية الحجرة – وقد قامت أمامه أربعة أو خمسة مقاعد صنعت هي الأخرى من الخشب ، ولاحت كأنها مصقولة خصيصا، في حين أنها إنما كانت تلمع من كثرة الاستعمال والمسح والاحتكاك. وفي هذه الحجرة المخصصة للاجتماعات ، كان ثمة أربعة أو خمسة من الأشرار الرهيبين .. أولئك كانوا رفاقا من الطلبة الذين لاحوا لي وكأنهم من الزبانية وليسوا من الطامعين في شرف أن يصبحوا أبناء للرب ، كان اثنان من هؤلاء الأوغاد من "السلافيين" الذين يزعمون أنهم من اليهود أو المراكشيين ، وقد اعترفا لي بأنهما قضيا عمريهما في التجوال في ربوع "**إسبانيا**" و"**إيطاليا**" ، وأنهما كانا يعتنقان المسيحية من آن لآخر ويتقدمان كي يعمدا أينما كان يحلو لهما أن يقضيا بعض الوقت!

وما لبث أن فتح باب حديدي آخر فشطر شرفة رحبة تمتد بطول الفناء ، وأقبلت خلال هذا الباب أخواتنا . كن من التلميذات اللائي قدر لهن – كما قدر لي – أن يولدن من جديد ، لا عن طريق التعميد ، وإنما عن طريق نبذ عقيدتهن السابقة . وكن حقا أعظم أفاقات وأبشع متشردات لطخن زمرة رعايا الرب ، على أن واحدة منهن فقط لاحت لي جميلة وجذابة، وكانت في حوالي عمري، أو ربما كانت تكبرني بعامين أو ثلاثة . وقد أوتيت عينين جريئتين أخذتا تلتقيان بعيني أحيانا، فالهمني هذا برغبة في التعرف بها ، ولكنني وجدت خلال الشهرين اللذين قضيتهما في النزل بعد وصولي – وكانت قد مكثت ثلاثة أشهر قبلهما– أن من المستحيل إطلاقا أن أتحدث إليها ، فقد كانت حارسة سجننا العجوز مأمورة بأن تشتد في رعايتها ، كما كانت تحت رقابة دقيقة من المبشرالديني الذي كان يبذل مزيدا من الحماس والجهد لتحويلها عن عقيدتها ، ولابد أنها كانت مفرطة الغباء ، وإن لم تكن تبدو كذلك ؛ إذ إن تلقين العقيدة لم يكن يستغرق قط مثل هذا الوقت الطويل ، فقد كان رجل الدين يجدها دواما غير متاهبة لإعلان خروجها عن عقيدتها السابقة. على أنها مالبثت أن ملت عزلتها عن العالم ، فأعلنت عن رغبتها في ترك النزل، ، سواء صارت مسيحية أو لم تصر ، واضطروا إلى أن يكتفوا بإعلان انضوائها للكثلكة– دون أن تعي تعاليمها–خشية أن يتولاها العناد فترفض!

وعقدت الجماعة الصغيرة اجتماعا لتكريم الداخلة الجديدة في حظيرة الدين، وألقي علينا خطاب قصير، وجه إلي فيه الحض على أن أستجيب لفضل الله الذي أتيح لي ، بينما دعي الآخرون إلى أن

يصلوا من أجلي ، وأن يشجعوني بأن يكونوا قدوة لي . وعادت عذارانا– بعد ذلك– إلى معزلهن، وانفسح أمامي الوقت كي أفكر جديا في الخطوة التي كنت مزمعا اتخاذها ، مذهولا في موقفي على ضوء هوى قلبي . ثم اجتمعنا في الصباح التالي مرة أخرى لنتلقى الدرس ، وإذ ذاك بدأت – للمرة الأولى –أفكر في الظروف التي قادتني إلى ذلك!

ولقد قلت – ولا أزال أقول ، ولعلني سأظل أردد وأنا أزداد كل يوم اقتناعا – بأنه إذا كان ثمة طفل قد تلقى تربية معقولة سليمة ، فهذا الطفل هو أنا! فقد كنت أنتمي إلى أسرة امتازت بأخلاقها عن عامة الناس، فما تعلمت من أقاربي سوى دروس الحكمة ، وكنت دائما أرى أمام عيني أمثلة مشرفة ، فلقد كان أبي – برغم ولعه باللهو – رجلا شديد الاستقامة، ليس هذا فحسب ، بل إنه كان أيضا على قدر كبير من الشعور الديني .
كان رجلا ذا شهامة في شؤون الدنيا ، ومسيحيا في قرارة فؤاده ، ولقد بث في قلبي منذ الصغر ما كان يخالجه من أحاسيس ، وكذلك أفدت من عماتي الثلاث ، اللائي كن جميعا عاقلات فاضلات ، فقد كانت الكبريان منهن تقيتين ، أما الصغرى – وكانت فتاة فياضة الحسن والذكاء والذوق– فلعلها كانت أكثر منهما تقوى ، وإن لم تكن تبدي تقواها إلا لماما. ومن حضانة هذه الأسرة انتقلت إلى السيد "**لامبرسييه**" الذي كان واعظا ومن رجال الدين، ومع ذلك فإنه كان مؤمنا في قرارة قلبه ويكاد يمارس دائما كل ما يعظ به ! ولقد عمل وأخته – بالرفق والتعليم الحكيم المتئد – على تنمية ما وجدا في فؤادي من مبادئ التقوى ، ولقد استخدم هذان الشخصان الكريمان في سبيل غايتهما هذه وسائل صادقة ، حكيمة، معقولة ، دون أن يملا الوعظ والتعليم، وكنت دائما أتأثر بهذا الجهد منهما ، اتخذ قرارات طيبة، نادرا ما كنت أغفل تنفيذها عندما أذكرها ، أما في حالة عمتي "**برنار**" فإن تقواها كانت منفرة لي بعض الشيء ، لأنها كانت تتخذ منها حرفة وصنعة . على أنني نادرا ما فكرت فيها أثناء مدة تدريبي الحرفي دون أن أغير الرأي.. كذلك لم أتصل قط بأي شخص في باكورة العمر يمكن أن يفسدني ، ومع أنني غدوت شريدا إلا أنني لم أكن قط منحلا!
وكنت– من جراء هذا – أعرف من الدين كل ما يمكن لطفل في سني أن يعرفه بل إنني كنت أعرف أكثر من ذلك – إذ لاجدوى من أن أكتم خاطري !– فإن طفولتي لم تكن شبيهة بطفولة أندادي ، بل إنني كنت دائما أشعر وأفكر كما يشعر الرجل ويفكر ! وما دخلت زمرة الأفراد العاديين الطبيعيين إلا عندما كبرت ، ولكني لم أكن في طفولتي عاديا! ولسوف يضحك القارئ إذ يجدني أصف نفسي – متواضعا – كشخص ممتاز ، فليكن ! ولكن ليتصور – إذا ما فرغ من الضحك– طفلا في السادسة من عمره بلغ به الافتتان بالقصص الخيالية والاستساغة لها والتأثر بها ، درجة تجعله يذرف الدمع سخينا عليها !.. إذا استطاع القارئ أن يتصور هذا ، فسأشعر بأن غروري كان سخفا ، وساعترف بأنني مخطئ ! وإذا كنت أقول إننا جديرون بألا نحدث الأطفال عن الدين – إذا شئنا لهم أن يعتنقوا أي دين – بل إذا كنت أذهب إلى القول بأنهم غير قادرين على معرفة الله، ولو وفقا لآرائنا فيه فإنما أنا قد خرجت بهذا الاعتقاد من مشاهدتي ، وليس من خبرتي الخاصة ؛ إذ إنني أدرك أن ليس بين النتائج التي تستمد من خبرتي ما يصلح لغيري من الأطفال ، وإلا فاصنعوا منهم "**جان جاك روسو**" كذلك الذي كنته في السادسة من عمري ، وتحدثوا إليهم عن الله إذا ما بلغوا السابعة ، وإذ ذاك اطمئنكم إلى أنكم لن تتعرضوا لأية مجازفة!

وأعتقد أن من المسلم به أن التدين لدى الطفل – بل ولدى الرجل – يعني اتباع الدين الذي ولد

عليه . ولكن هذا الإيمان قد يتضاءل أحيانا ، ونادرا ما يقوى . . فالإيمان الأعمى من ثمار التربية، وإلى جانب هذا المبدأ العام الذي ربطني بعقيدة آبائي الدينية فإنني أوتيت ذلك النفور الذي امتازت به قريتنا إزاء الكاثوليكية، والذي كان يصورها على أنها وثنية رهيبة،ويلطخ قساوستها بأشد الألوان قتامة! ولقد بلغ من شدة هذا الشعور في نفسي، أنني- في البداية- لم أشهد قط جوف أية كنيسة ، ولا قابلت قسا في زي الكهنوت، ولا انصت إطلاقا إلى جرس جنائزي إلا وسرت في جسدي قشعريرة خوف وفزع ، لم تلبث أن زايلتني في المدن ولكنها كانت كثيرا ما تعاودني في "أبرشيات"(١) الريف لأنها أكثر شبها بتلك التي واتاني فيها هذا الشعور في البداية. ومن الصحيح أن هذا الأثر يتناقض - بشكل بارز - مع ذكريات العطف الذي كان قساوسة ضواحي "**جنيف**" مولعين بإسباغه على أطفال المدينة.

وبينما كان الجرس الذي يعلن الراحة الكبرى - الموت- يفزعني كان جرس القداس وصلوات الغروب تذكرني بالفطور ، واللقاء حول المائدة، والزبد الطازجة ، والفاكهة، والغذاء المخلوط باللبن!. . ولايزال عشاء السيد "**بونفير**" الشهي يحدث في نفسي أثرا عظيما!

*****

على أنني أقصيت كل تلك الخواطر من ذهني ، وأقبلت - وأنا أنظر إلى البابوية من ناحية علاقتها بالتسلية وطيب الحياة فقط- على ترويض نفسي على فكرة العيش في غمرة الكثلكة، بيد أن فكرة الانضواء نهائيا تحت لواء كنيسة "**روما**" كرجل من رجال الدين لم تخطر ببالي إلا لحظة ، وكاحتمال للمستقبل البعيد ، أما الفترة التي أنا بصددها، فلم يعد بوسعي أن أغرر بنفسي ، بل تبينت في جزع نوع القبول الذي قطعته على نفسي ، وما يترتب عليه من نتائج لامحيد عنها.

ولم يكن لرهبان المستقبل المبتدئين-الذين كانوا حولي- حساب في تعزيز شجاعتي ، ولا كان في طوقي أن أخفي عن نفسي أن العمل المقدس الذي اعتزمت الاضطلاع به كان في الحقيقة نوعا من السرقة! ذلك لأنني شعرت برغم صغر سني إذ ذاك ، بأنه أيا كان الدين الحق بين العقائد فإنني كنت مقدما على بيع عقيدتي. . وأنني وإن كنت قد اخترت عقيدة طيبةإلا أنني كنت- في قرارة فؤادي- أكذب على الروح القدس وأستحق ازدراء البشر! . . ولقد كنت أزداد سخطا على نفسي كلما ازددت تفكيرا في ذلك، وكنت أزفر حسرة على المصير الذي ساقني إلى هذه الطريق ، وكأنما لم يكن المصير من صنعي أنا! وكانت تمر بي لحظات تشتد فيها هذه الخواطر، إلى الدرجة التي كانت خليقة بأن تجعلني أفر بكل تأكيد ، لو أنني كنت قد ألفيت الباب مفتوحا لحظة ! ولكن هذا كان مستحيلا، كما أن عزمي لم يكن بالقوة الكافية. فكم من رغبات خفية صارعتها لئلاتتغلب علي . . ثم إن تصميمي الثابت على عدم العودة إلى "**جنيف**" ، والاستحياء ، وصعوبة اجتياز الجبال ثانية ، والحيرة التي انتابتني إذ وجدت نفسي نائيا عن بلدي ، بلا أصدقاء ولا موارد . . كل هذه المشاعر اجتمعت على أن تجعلني أرى في وخزات ضميري ندما جد متأخر، لقد كنت أتعمد أن ألوم نفسي على ما فعلت ؛ لكي أجد العذر في إتيان ما أوشك أن أفعله ! وبينما كنت أضخم أخطاء الماضي ، رحت أعتبر أخطاء المستقبل نتائج محتومة لها . . فبدلا من أن أقول لنفسي" إنك لم تأت الفعل بعد ،وفي وسعك أن تظل بريئا، إذا شئت"، رحت أقول: " اندم على الجرم الذي أدانتك نفسك به، وفرضت على نفسك ضرورة تنفيذه"!

---

(١) الدوائر التابعة للكنائس الريفية.

أية قوة ذهنية خارقة كان لابد منها ، في مثل سني تلك،لأذكر كل شيء وعدت به أو رجوته إذ ذاك ، من أجل تحطيم الأغلال التي فرضتها على نفسي، ولكي أعلن في جرأة أنني كنت راغبا ، مهما يبلغ ما أتكبده ، في أن أظل معتنقا دين آبائي! .. مثل هذه القوة لم تكن طبيعية ميسورة لامرئ في سني، وما كان من المحتمل تماما أن تنجح ، إذ إن الأمور كانت قد تطورت إلى مدى لم يعد معه إخفاق هذه القوة أمرا يدعو إلى الخجل .. وكانت تزداد تطورا كلما ازددت مقاومة، حتى عز علي أن أقرها !

وكانت السفسطة التي قضت علي هي ذلك المنطق الفلسفي المألوف لكثيرين ممن يشكون الحاجة إلى القوة بعد أن يكون أوان الانتفاع بهذه القوة قد فات ، فالفضائل لا تغدو عسيرة المنال إلا بفضل أخطائنا ، ولو أننا استطعنا أن نتمسك دائما بالحكمة والروية لندرت حاجتنا إلى الجري وراء الفضائل.

ولكن الميول المنحرفة التي يسهل قهرها تتعجل انحدارنا لأننا لانقاومها . نحن ننساق لغوايات طفيفة ، ازدراء منا لخطرها ، كما أننا نقع – دون أن نفطن – في مآزق خطيرة كان من اليسير علينا أن نتوقاها، ولكنا – متى وقعنا فيها– لانستطيع أن ننتزع أنفسنا منها دون جهد مستبسل يضنينا.. في النهاية نهوي إلى الدرك الأسفل ، ونحن نلوم الله ، ويسأله كل منا في عتاب :" لماذا خلقتني ضعيفا بهذا الشكل؟" .. ولكنا– على الرغم من أنفسنا – نسمع ضمائرنا تجيب بلسانه . "إنما خلقتك أضعف من أن تقوى على إنقاذ نفسك من الهوة؛ لأنني خلقتك أقوى من أن تسقط فيها"!

والواقع أنني لم أكن قد عقدت العزم تماما على أن أصبح كاثوليكيا، ولكني استغللت الفرصة ، وأنا أرى الوقت أمامي متسعا ، لكي أروض نفسي على هذه الفكرة تدريجيا، وكنت أتمنى في الوقت ذاته أن تحدث ظروف غير منتظرة تنزعني من هذا المأزق ، ولكي أكسب الوقت ، قررت أن أتخذ خير ما كان في طوقي من أساليب الدفاع ، ولكن غروري سرعان ما أعفاني من التفكير في قراري هذا ، فما إن تبينت أنني كنت أحيانا أحيِّر أولئك الذين كانوا راغبين في أن يعلموني حتى وجدت في هذا ما يكفي لأن أسعى إلى أن أضاعف من حيرتهم حتى أعجزهم جميعا ! بل إنني أخذت أبدي شوقا أهوج إلى تحقيق هذه الغاية ، وبينما كانوا يحاولون التأثير علي ، رحت بدوري أحاول التأثير عليهم اوكنت أوقن حقا بأن الأمر لن يكبدني أكثر من أن أوفق إلى إقناعهم ، فإذا هم ينقلبون إلى بروتستانتيين! .. وكان من جراء ذلك ، أنهم لم يجدوا في من الانسياق لهم قدر ما كانوا يتوقعون ، سواء من حيث معرفتي أو من حيث استعدادي ورغبتي ، والبروتستانت– عادة– أفضل تعليما من الكاثوليك. وهو أمر طبيعي ، لأن عقيدة الأولين تدعو إلى النقاش ، في حين أن عقيدة الآخرين تتطلب الانصياع ، فالكاثوليكي مضطر إلى أن يعتنق الرأي الذي يقدم إليه ، أما البروتستانتي فلابد من أن يتعلم كيف يقرر بنفسه الرأي الذي يعتنقه ! .. وقد كان هذا أمرا معروفا، ولكن أحدا لم يكن يتوقع أن يثير فتى في مثل سني وموقفي مصاعب لأفراد ذوي خبرة وتجارب . فضلا عن أنني لم أكن قد تلقيت أول "مناولة"(١) ولا لقنت التعاليم الخاصة بها.

وكان هذا أمرا معروفا كذلك ، ولكن الشيء الذي لم يعرفوه هو أنني تعلمت على يدي السيد "**لامبرسييه**" وأخته ، وأنني – فضلا عن ذلك – كنت أختزن ثروة لاتروق لأولئك السادة، من المعرفة بتاريخ الكنيسة والامبراطورية . فقد حفظت هذا التاريخ عن ظهر قلب أثناء مقامي مع أبي ، ثم نسيته تقريبا بعد ذلك، ولكنه أخذ يعود إلى ذاكرتي كلما اشتد وطيس الجدال!

ورأس الاجتماع الأول– الذي ضمنا جميعا– قس كبير السن، صغير الجسم، على شيء من الوقار

---

(١) فريضة "المناولة" أو فريضة "الاشتراك في العشاء الرباني" هي من أهم الفرائض والاسرار المقدسة التي تركها المسيح لتلاميذه وأتباعه، لكي يذكروه بها كلما مارسوها ، وهي تقوم على تناول خبز مكسور ، رمزا إلى جسد المسيح المصلوب ، وعلى تناول جرعة من عصير عنب مختمر ، رمزا لدم المسيح المسفوك على الصليب. وكل الكنائس المسيحية تمارس "المناولة إلى وقتنا الحاضر.

والمهابة. وكان هذا الاجتماع بالنسبة لزملائي درسا في الدين، وليس مجالا للمناقشة؛ ومن ثم فقد شغل القس بتعليمهم لايمحو اعتراضاتهم . على أن الوضع تغير في حالة واحدة: فعندما حان دوري رحت أستوقف القس عند كل نقطة، ولم أعفه من أية عقبة كان بوسعي أن ألقيها في طريقه، فأطال هذا من وقت الاجتماع وجعله مملا للحاضرين. وأسهب قسي الشيخ في الكلام ، وبدا انفعاله يزداد، وأخذ يشرد عن موضوعه، ويخرج من المأزق بادعاء أنه لم يكن يجيد الفرنسية ! فلما كان اليوم التالي، رؤي أن اعتراضاتي الرعناء قد تؤذي رفاقي، فوضعت في حجرة أخرى، مع قس آخر كان أصغر سنا من قس الأمس، وأكثر ذلاقة لسان– أعني أنه كان يجيد التلاعب بالعبارات – وأعظم رضا عن نفسه مما يجوز لأي مدرس!..

على أنني لم أدع نفسي تنصاع لمسلكه المتسلط ، وما إن اطمأننت إلى أن بوسعي – برغم كل شيء– أن أحتفظ بموقفي حتى شرعت أجيبه في ثقة وطيدة ، وأضغط عليه من كل جانب بغاية جهدي! .. وخيل إليه أن بوسعه أن يحيرني بذكر القديس أوغسطين، والقديس "**جريجوري**" ، وغيرهما من الآباء الروحيين، ولكنه لدهشته التي فاقت كل تصور، وجد أنني أجيد الجدال بشأن الآباء جميعا بإسهاب لايقل عن إسهابه ، لا لأنني كنت قد قرأت عنهم من قبل – كما قرأ هو– وإنما لأنني كنت أتذكر فقرات عديدة من كتاب ديني عن مجاهدة النفس ، فما إن كان القس يذكر فقرة منه دون أن يتوقف لمناقشتها حتى كنت أجيبه بفقرة أخرى من أقوال الأب نفسه الذي نقل عنه ، مما سبب له ارتباكا غير قليل ، في كثير من الأحيان! ومع ذلك فقد انتهى الأمر إلى فوزه، وذلك لسببين: أولهما: أنه كان الأقوى جانبا، ولما كنت أشعر بأنني تحت رحمته ، فقد حكمت عن صواب – برغم صغر سني– بأنه ليس من الصواب أن أحرجه ، إذ إن هذا قد يدفعه إلى التطرف ، لاسيما بعد أن رأيت بجلاء أن القس الشيخ الضئيل الجسم لم يعد شديد العطف علي أو على تعليمي! .. والسبب الثاني: هو أن القس الشاب كان متعلما ، في حين أنني لم أكن متعلما ، الأمر الذي جعله يستخدم في نقاشه أسلوبا عز علي أن أجاريه فيه ، فكان إذا أحس بنفسه محرجا تحت ضغط اعتراض غير ظاهر يرجئ الاجتماع إلى اليوم التالي، متعللا بأنني كنت أشرد عن الموضوع . وكان في بعض الأحيان يأبى أن يصدق ما كنت أذكره من أقوال مقتبسة ، زاعما أنها مصطنعة زائفة ، ثم يتحداني أن أرشده إلى مواقع هذه المقتبسات من الكتب ، وهو مطمئن إلى أنه لن يتعرض لكثير من الحرج ؛لأنني برغم علمي المستعار لم أكن ذا خبرة كافيةللبحث في الكتب، ولم أكن من الدراية باللاتينية إلى الدرجة التي تمكنني من البحث عن فقرة في مجلد كبير. مهما أكن متأكدا من وجودها فيه! .. وكنت من ناحيتي أذهب إلى الشك في أن القس الشاب كان يعمد إلى عين ما أتهم به قساوستنا من خداع وعدم أمانة ، وإلى افتراء الفقرات ليوسع لنفسه مخرجا من مأزق أكون قد أوقعته فيه!

*****

وبينما كانت هذه المجالات العارضة حول التوافه مستمرة،والوقت يمضي في نقاش ، وتمتمة وصلوات ، دون ما عمل ، تعرضت لمغامرة صغيرة مستهجنة، أوشكت تماما أن تسفر عن نتائج سيئة بالنسبة لي! ذلك أنه ما من نفس خبيثة ، ولا قلب همجي ، إلا ولصاحبهما ميل ما ، وقد ساورت أحد الشقيين اللذين كانا يزعمان أنهما مراكشيان عاطفة نحوي ، فكان مشغوفا بمتابعتي ، لا يفتأ يكلمني بلكنته الغريبة، ويؤدي لي بعض الخدمات البسيطة ، ويمنحني في بعض الأحيان شطرا من

غذائه ، بل وكثيرا ما كان يقبلني في حرارة كانت تغيظني ! وعلى الرغم من الجزع الطبيعي الذي كان يمتلكني من وجهه الأسمر المشوه بندبة طويلة ، ومن ملامحه التي كانت تبدو أقرب إلى الشراسة منها إلى اللطف فإنني كنت أحتمل قبلاته قائلا لنفسي :"لقد تملكت المسكين صداقة طاغية نحوي فمن الخطأ أن أصده!" . ولكنه أخذ - بالتدريج يستبيح لنفسه حرية متزايدة معي، وكان أحيانا يعرض علي اقتراحات غريبة ، جعلتني أظنه مجنونا .. وأراد في إحدى الليالي أن يبيت معي ، فرفضت قائلا إن سريري صغير جدا، وإذا به يلح علي أن أصحبه إلى سريره ، ولكني رفضت من جديد ، إذ كان الوغد جد قذر ، تفوح منه رائحة الطباق الذي كان يمضغه ، بحيث كانت نفسي تغثى منه!

وفي ساعة مبكرة من الصباح التالي كنا وحيدين في قاعةالاجتماع، فشرع يعانقني ويقبلني في حركات عنيفة لم تلبث أن أثارت خوفي . وأخيرا شاء أن يستبيح لنفسه أبشع تحرر معي، وأمسك بيدي محاولا أن يحملني على أن أستبيح نفس التحرر معه! فأرسلت صرخة عالية ، وقفزت إلى الخلف مفلتا منه ، وبدون أن أبدي غضبا أو حنقا - إذ لم تكن لدي أتفه فكرة عما كان يسعى إليه- أعربت له عن دهشتي وازدرائي بشكل جعله يتركني حيث كنت .، ولكني رأيت - بينما كان ماضيا في إتمام الحركات التي كان قد بدأها - شيئا أبيض لزجا ينبثق منه مندفعا في اتجاه المدفأة ، ثم سقط على الأرض، فأثار مظهره معدتي ، واندفعت إلى الشرفة وأنا أشد تأثرا، وأشد انزعاجا، وأشد خوفا مما كنت في أي يوم في حياتي ، حتى لقد شعرت أنني أوشك أن أقع مريضا!

ولم يكن بوسعي أن أفقه ما أصاب التعس ، بل اعتقدت أنه أصيب بنوبة من الصرع ، أو بنوع من الجنون أقسى من الصرع ! والحق أنني لاأعرف ما هو أبشع لدى أي شخص هادئ الأعصاب ، من رؤية مثل هذا المسلك المشين القذر، ولا مثل تلك الملامح التي ألهبتها الشهوة البهيمية! .. وما رأيت قط رجلا آخر في مثل هذه الحال، ولكن إذا كنا نتعرض لهذا المشهد ونحن مع النساء ، فلابد أن نظراتهن تخضع لسحر خاص ، يحميهن من أن يشمأززن منا!

وهرعت لأنبئ كل أمرئ بما جرى لي ، ولكن المشرفة العجوز أمرتني بأن أعقل لساني ! على أنني رأيت أن قصتي قد أثرت عليها بدرجة كبيرة، وسمعتها تتمتم:"ياله من كلب لعين!.. وحش كاسر!" .. ولما كنت لم أدرك الحكمة في أن أمسك لساني ، فقد مضيت في إخبار كل شخص بما حدث، برغم أمرها ، فإذا بأحد المشرفين يفد في ساعة مبكرة من اليوم التالي فيوجه إلي تقريعا مقذعا، ويتهمني بالإساءة إلى شرف دار دينية وبإثارة ضجة حول حادث تافه!.. ونسج محاضرته بحيث شرح لي أشياء كثيرة كنت أجهلها ، ولكنه لم يكن يصدق أنه كان يعرفني بها لأول مرة ، إذ إنه كان مقتنعا بأنني مادافعت عن نفسي إلا لأنني كنت غير راغب ، وليس لأنني لم أكن أفقه ما ابتغاه المراكشي مني !.. ثم أنباني- برصانة- بأن ذلك العمل محرم ، وبأنه جد بعيد عن الأخلاق، ولكن اشتهاءه ليس إهانة للشخص الذي يكون هدفا له، ومن ثم لم يكن ثمة داع لأن أغضب من شخص اعتبرني جديرا بالمحبة! وأنباني بوضوح أنه - هو نفسه- قد تقبل في صغره هذا الشرف حين عرض له؛ وأنه عندما فوجئ به وهو في حال لا تمكنه من المقاومة . لم يجد الأمر مؤلما في حد ذاته!..

وكان من عدم الحياء بحيث أنه راح يستعمل ألفاظا صريحة، وأخذ- وهو يتصور أن مقاومتي كانت ناشئة عن خوف من الألم- يطمئنني إلى أنه ليس ثمة داع للخوف ، وأنه ما كان لي أن أنزعج دون ما مبرر للانزعاج!

ورحت أصغي إلى ذلك التعس في ذهول ضاعف منه أنه لم يكن يروي أمرا يخصه ، وإنما بدا أنه

كان ينصحني بما فيه الخير لي ، كان الموضوع يتراءاى له بسيطا إلى الدرجة أنه لم يحاول أن يتستر أو يتكتم، بل إن حديثا انساب إلى أذني طرف ثالث تمثل في رجل من رجال الكنيسة ، لاح أنه لم ينزعج هو الآخر من الأمر ! وأثرت علي هذه الروح المتساهلة التي أبدت الأمر عاديا ، إلى درجة أنني اقتنعت بأنه – ولابد – عادة معترف بها في العالم ، وإن لم تتح لي فرصة الإلمام بها قبل ذلك الحين! . . وكان من جراء ذلك أنني رحت أصغي بدون غضب، ولكن إصغائي لم يخل من الاشمئزاز . ولقد ظلت صورة ما حدث لي– وما رأيته– بوجه خاص – منطبعة في ذاكرتي إلى درجة أنني لا أزال أشعر بالتقزز كلما تمثلتها !. . وبدون أن أفطن ، امتد نفوري من الشيء إلى الشخص الذي كان يبرره ، إذ لم يكن بوسعي ، أن أتمالك نفسي إلى الدرجة التي تحول بينه وبين مشاهدة الأثر السيئ لدرسه في نفسي ؛ ومن ثم رماني بنظرة كانت بعيدة عن أي ود! ومنذ ذلك الوقت لم يدخر وسعا في أن يجعل إقامتي في النزل مكروهة ، ولقد وفق في ذلك إلى درجة إنني لم أر سوى وسيلة واحدة للفرار، فبادرت إلى اتخاذها ، بنفس التحمس الذي كنت أتذرع به حتى ذاك الحين لتفاديها!

ولقد أمدتني هذه المغامرة بمناعة في المستقبل ضد محاولات "**فرسان الكم**" ، فكانت رؤية أولئك المنتمين إلى مذهبهم تذكرني بمنظر وحركات المراكشي الرهيب ، فتوحي إلي دائما بجزع يعز علي إخفاؤه! ومن ناحية أخرى، يبدو لي أن النساء ظفرن بكسب نسبي من جراء هذه المغامرة ، إذ تراءى أنني مدين لهن بالعواطف اللطيفة وبالمجاملةكتعويض لهن عما يلحقه بهن أبناء جنسي من إهانات . . وكانت أبشع مومس تصبح في نظري أهلا للعبادة، إذا ما تذكرت ذلك الإفريقي الزائف !. . أما هو ، فلم أدر ما قيل له ، ولم يظهر لي أن أحدا –ما عدا السيدة "**لورينزا**"– بدل من شعوره السابق نحوه ! على أنه لم يعد يلاحقني أو يتحدث إلي ، وبعد ثمانية أيام ، تم تعميده في جلال عظيم، وسربل بالبياض من رأسه إلى قدمه ، رمزا لطهر روحه التائبة! وفي اليوم التالي غادر النزل ، فلم أره البتة منذ ذلك الحين . ثم حان دوري بعد شهر ، فقد كان لابد من هذه المدة لأتيح لمرشدي شرف الفوز بهداية "كافر" صعب المراس ، واضطررت إلى أن أجتاز امتحانا سئلت فيه عن جميع التعاليم ، حتى يتسنى لهم أن يزدهوا باستعراض علمي الجديد!

أما وقد تعلمت أخيرا– ما فيه الكفاية– وتم إعدادي بالدرجة التي ترضي أساتذتي ، فقد اقتدت في موكب مهيب إلي كنيسة القديس يوحنا الكبرى ، لأعلن خروجي على عقيدتي أمام الملأ، ولأتلقى شهادات التعميد– وإن كنت لم أعمد فعلا ، إذ كنت معمدا منذ مولدي – ولكن مثل هذه الاحتفالات تنفع في إيهام الناس بأن البروتستانتيين ليسوا من المسيحيين في شيء !. . وارتديت يومذاك معطفا رمادي اللون ، مزدانا بضفادع بيضاء ، كان يستخدم في مثل هذه المناسبات. وحف بي رجلان – من أمام ومن خلف – يحملان وعاءين من النحاس، أخذا يضربان عليهما بمفتاحين ، فكان كل امرئ يلقي في هذين الوعاءين بما يتصدق به، تبعا لتقواه ولمدى اهتمامه بالمؤمن الجديد ، وقصارى القول إن شيئا من مظاهر عظمة الكنيسة الكاثوليكية لم يدخر، وذلك لإسباغ آيات الجلال على الحفلة في نظر الناس، وإمعانا في إذلال نفسي. ولم يكن ينقصني سوى الرداء الأبيض، الذي كان يليق بي،والذي لم يسمح به لي كما سمح به للمراكشي ؛ لأنني لم أحظ بأن أكون يهوديا قبل انضمامي للكنيسة!

على أن هذا لم يكن كل ما في الاحتفال ، إذ اضطررت بعد ذلك إلى أن أذهب إلى ديوان التحقيق، لأتلقى قرار توبتي من جريمة الزندقة ، ودخولي إلى حظيرة الكنيسة في احتفال كان الملك

"هنري" الرابع ممثلا فيه في شخص سفيره ! ولم يكن في مسلك قداسة الأب المحقق، ولا في مظهره ، ما يمحو الرعب الخفي الذي تملكني وأنا ألج الدار .، وبعد عدة أسئلة عن عقيدتي ، ومركزي ، وأسرتي ، سألني فجأة عما إذا كانت أمي ملعونة؟ .. وحملني الذعر على أن أكبت أول مظاهر الاستنكار ، واكتفيت بأن أجبت بأنني أجرؤ على أن أرجو ألا تكون ملعونة. وأن يكون الله قد أنار بصيرتها في ساعتها الأخيرة . وصمت الراهب، ولكنه كشر عن ابتسامة لم يبد لي أنها من أمارات الرضا في شيء! وعندما انتهى كل شيء، وفي اللحظة التي توقعت فيها أن يمدوني بالمال الذي يلائم آمالي، إذا بهم يشيعونني إلى خارج الأبواب وفي يدي ما يزيد قليلا على عشرين فرنكا بالعملات الصغيرة .. وهي نتيجة الصدقات التي جمعت لي . وزودت بالنصح بأن أعيش مسيحيا صالحا، وأن أظل صادق الولاء لشرف العقيدة .. ثم تمنوا لي حظا حسنا، وأغلقوا الباب دوني ، فلم أرهم بعد ذلك!

*****

وهكذا تلاشت كل آمالي العظام في لحظة، وكانت النتيجة الوحيدة التي خرجت بها من الخطوة التي اتخذتها ، وهي الشعور بأنني كنت مرتدا عن ديني ، وغرا مغفلا ، في آن واحد! ومن اليسير تصور أية ثورة مفاجئة أصابت آرائي عندما رأيت نفسي مقذوفا من حالق أحلام الثراء البراقة إلى البؤس المدقع! وبعد أن كنت– في الصباح– أطيل التفكير في انتقاء القصر الذي أقيم فيه ألفيتني في المساء مضطرا إلى أن أنام على قارعة الطريق! .. وقد يخطر بالبال أنني بدأت أستسلم لشعور من القنوط ، زاده قسوة ما انتابني من حسرة رحت معها ألوم نفسي لأن نحسي إنما كان من صنع يدي ، ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، إذ كنت قد مكثت سجينا– لأول مرة في حياتي – أكثر من شهرين، فكان أول ما انتابني هو شعور بالفرح لاسترداد حريتي . ووجدتني سيد نفسي وتصرفاتي من جديد – بعد فترة طويلة من الاستعباد – في مدينة كبيرة ، وافرة الموارد ، غنية بذوي المكانة الذين لايمكن أن أخفق في أن أحظى بضيافتهم – حين أصبح معروفا – لما كان لي من خلال طيبة ومواهب . وإلى جانب ذلك ، كان الوقت متسعا أمامي ، وكانت الفرنكات العشرون القابعة في جيبي تلوح لي كما لو كانت كنزا لاينضب معينه! كنت أملك أن أنفقها كما أشاء ، دون أن أقدم عنها حسابا لأحد . وكانت هذه هي المرة الأولى التي أملك فيها مثل هذا المبلغ ؛ ومن ثم فبدلا من أن تثبط عزيمتي ، أو ينساب دمعي ، اكتفيت بأن عدلت آمالي ، دون أن يفقد قلبي الطاهر شيئا من جراء هذا التعديل .. فما شعرت قط بمثل ما داخلني إذ ذاك من طمأنينةوثقة ، إذ اعتقدت أن حظي بات أمرا مقررا ، ورأيت أن من البديع حقا ألا يكون لأحد – سواي – فضل في ذلك!

وكان أول ما فعلته هو أن سعيت لإرضاء فضولي إلى الطواف بالمدينة، ولو لأستمتع بملاذ الحرية! .. فذهبت لمشاهدة فرسان الحرس، وهناك راقت لي الموسيقى العسكرية إلى درجة بعيدة . وتبعت المواكب . فانتشيت بالموسيقى الكنيسية التي كان يعزفها القساوسة. وسعيت لمشاهدة قصر الملك ، فاقتربت منه في رهبة وخشوع، حتى إذا رأيت غيري يلجونه حذوت حذوهم ، فلم يستوقفني أحد ! ولعلي كنت مدينا بهذه الخطوة للفافة التي كنت أحملها تحت إبطي– وكيفما يكن الأمر ، فإنني بدأت أقيم وزنا كبيرا لنفسي عندما ألفيتني في القصر ، بل إنني بدأت أتمثل نفسي مقيما فيه بالفعل ، وما لبثت في النهاية أن سئمت الرواح والغدو ، وكنت جائعا ، والجو حارا، فولجت حانوت لبان ، وابتعت قسطا من جبن "الجيونكا(١) واللبن الرائب، وشريحتين من الخبز

---

(١) جبن "الجيونكا" نوع من الجبن الطازج الذي ينقل إلى السوق في حصير .. كالجبن المعروف في مصر باسم "القريش".

البييمونتي البديع الذي أفضله على ما عداه ، وبخمس أو ست قطع من فئة "السو" حظيت بوجبة من أشهى الوجبات التي تناولتها في حياتي !

وكنت مضطرا إلى البحث عن مأوى ، وكان من السهل أن أعثر على واحد ، إذ كنت قد ألممت من اللغة البييمونتية بقدر يمكنني من أن أجعل حديثي مفهوما ، وكنت من الحكمة بحيث راعيت في اختياري ما يناسب مواردي وليس ما يلائم ذوقي ، فقد أنبئت بأن زوجة جندي في شارع "**دوبو**" تؤوي الخدم المتعطلين مقابل "سو" واحد في الليلة، وكان لديها سريرخال ، فاستأجرته ، وكانت المرأة شابة حديثة العهد بالزواج، وإن كانت قد أنجبت خمسة أطفال أو ستة من قبل!.. ونمنا جميعا في غرفة واحدة :الأم والأطفال، والنزلاء.. "وقد ظللنا على هذه الحال طيلةإقامتي عندها!" .. وما عداذلك كانت امرأة طيبة ، سريعة السباب كالحوذية، تكشف دائما عن ثدييها ، وتدع شعرها مشعثا. على أنها كانت شفوقة القلب ، بشوشا ، مالت إلي ، بل كانت ذات نفع لي!

وقضيت عدة أيام مسلما نفسي لمباهج الاستقلال والفضول وحدها ، فجست خلال المدينة وحارجها ، متفحصا كل مكان ، متأملا كل ما كان يبدو لي جديدا أو غريبا .، وهكذا كان الشأن بالنسبة لكل شيء، لدى شاب غادر لفوره معتقله، ولم يسبق له أن رأى عاصمة . وكنت- قبل كل شيء – أتردد بانتظام على القصر ، كما كنت حريصا على أن أحضر القداس الملكي في كل صباح ، فقد رأيت من البديع أن أكون في كنيسة واحدة مع الأمير وحاشيته، ولكن شغفي بالموسيقى كان قد بدأ يغدو محسوسا ، وكان أكثر دفعا لي على الحضور المنتظم من الرواء الملكي الذي ما أن يرى بانتظام، وبنفس الشكل،حتى يفقد فتنته وطرافته .. وكانت لدى ملك؛"**سردينيا**" في ذلك الوقت خير فرقة من المترنمين في أوروبا. وكان "**سومي**" و"**ديجارادنه**" ،و"**بيسوتزي**" هم بالتتابع نجومها اللامعين.

وكان هذا أكثر مما يلزم لاجتذاب شاب يستهويه صوت أسوأ آلة موسيقية إذا كان العزف عليها سليما . وبجانب ذلك، كان الإعجاب الذي أحسست به نحو العظمة والفخفخة- اللتين بهرتا بصري – إعجابا خاليا من التعقل، ولا يستحق أن يغبطني أحد عليه. وكان الشيء الوحيد الذي أثار اهتمامي في كل رواء البلاط الملكي هو أن أرى ما إذا كانت ثمة أميرة شابة،جديرة بتكريمي، وبأن أتصل بها في مغامرة غرامية؟!..

وكنت قد أوشكت أن أبدأ مغامرة من هذا النوع، في وسط أقل رواء ، ولكنها مغامرة كنت خليقا بأن أجد فيها – لو أنني مضيت قدما – متعا تفوق متع الغرام بالأميرات ألف مرة!

*****

ومع أنني كنت أعيش بأقصى درجات التقتير ، إلا أن كيسي بدأ ينضب رويدا. ولم يكن اقتصادي في النفقات نتيجة حكمة بقدر ما كان نتيجة بساطة في ذوق لم يبدلها- إلى يومنا هذا – تعودي على أن أجلس إلى موائد علية القوم. فما عرفت- بل لا أزال بعيدا عن أن أعرف- ما هو أبهج من الطعام الريفي. وفي وسع أي امرئ أن يطمئن إلى إكرامه لي إذا هو قدم لي بعض منتجات اللبن ، والبيض والخضر، والجبن، والخبز الأسمر ، وبعض النبيذ المقبول.. إذ إن شهيتي تتكفل بما يبقى بعد ذلك . هذا في الوقت الذي لا أرتاح فيه إلى وجود كبير للسقاة وعدد من الخدم حولي ، يحيطونني بتكلفهم المزعج! وقد كنت في ذلك العهد أحظى بوجبات تتكلف ستة أو سبعة "سو" ، وتفضل ما

اعتدت بعد ذلك أن أحظى به لقاء ستة أو سبعة فرنكات!.. كنت معتدلا؛ لأنني لم أتعرض لإغراء يبعدني عن الاعتدال، ومع ذلك فإنني أخطئ حين أقول إنني كنت معتدلا ، إذ إنني كنت أحظى في الوقت ذاته بكل الملاذ الحسية الممكنة ، كانت الكمثرى ، والجيونكا" ، وشرائح الخبز، وبضعة أقداح من نبيذ" **مونفيرا**" الكثيف الذي يستطيع المرء أن يقطعه إلى شرائح، تجعلني أسعد أكول! ومع ذلك، فقد دنت نهاية فرنكاتي العشرين، كنت أزداد شعورا بهذا يوما بعد يوم، ومع ما كانت تتسم به سني من خلو البال فإن قلقي من المستقبل سرعان ما أصبح جزءا حقيقيا! ولم يبق لي من كل القصور التي كنت أشيدها في الهواء سوى ضرورة البحث عن وسيلة للعيش، وهذا ما لم يكن سهلا ميسورا ، وفكرت في حرفتي القديمة ، ولكني لم أكن أعرف منها ما يكفيني لأن يغري أي معلم على أن يستخدمني، فضلا عن أنه لم يكن ثمة كثير من المعلمين في "**تورين**" ، وأخذت أتنقل من حانوت إلى آخر، عارضا خدماتي لحفر الشعارات والرموز على الفضة ، راجيا أن أغري بعض العملاء برخص أجري – ريثما يتاح لي عمل أفضل – بل إنني تركت لهم تقدير الأجر . ومع ذلك فإن هذا المشروع لم يسفر عن نجاح يذكر ، بل كنت أطرد عادة ، فكان العمل الذي أظفر به من القلة بحيث إنني نادرا ما كسبت ما يكفي لثمن وجبتين أو ثلاث ! على أنني لمحت ذات يوم ، وأنا أسير في "**كونترادا نوفا**" في ساعة مبكرة ، امرأة شابة بدت لي– خلال نافذة أحد الحوانيت– موفورة اللطف ، جذابة المنظر إلى درجة أنني – برغم حيائي من النساء– دخلت الحانوت دون تردد ، ووضعت مواهبي المتواضعة رهن إشارتها ! ولم تصدني في جفاء ، بل أجلستني وسألتني أن أروي لها سيرتي القصيرة ، فلما فعلت أشفقت علي، وسألتني ألا أبتئس؛ لأن المسيحيين الصالحين ما كانوا ليتخلوا عني بالتأكيد ، وبعد أن أرسلت إلى صائغ يجاورها في طلب الأدوات التي أنبأتها بأنها تعوزني ذهبت إلى المطبخ فأعدت لي بيديها فطورا.

ولاح لي أن البداية تبشر بالخير، فلم تكذب النتيجة حدسي، إذ بدا على المرأة أنها رضيت عن العمل الذي أنجزته، وكانت أكثر رضاء عن ثرثرتي المتواضعة ، عندما اطمأننت قليلا إليها ، فقد كانت ذكية، أنيقة الملبس ، وعلى الرغم من مسلكها الرحيم المتلطف ، فإن مظهرها أوحى لي بالهيبةوالوقار.، على أن كرم حفاوتها، وصوتها الشفوق ، وأخلاقها اللطيفة الدمثة، لم تلبث أن سرت عني كل تحفظ، فتبينت مدى توفيقي ، مما ضاعف من هذا التوفيق !.. وكانت المرأة إيطالية، ذات إغراء ودلال إلى حد ما ، لكنها كانت في الوقت نفسه ذات حياء . وكنت من ناحيتي خجولا، حتى إنه كان من العسير أن يؤدي الموقف إلى أي شيء أبعد مما جرى بيننا! كما أن الوقت لم يتح لنا كي نمضي في المغامرة . وإني لأذكرفي أقصى نشوة تلك اللحظات الوجيزة التي قضيتها إلى جوارها ، وبوسعي أن أقول:

– إنني – في بدايتها – تذوقت أحلى وأنقى مباهج الحب!

وكانت تلك الإيطالية الحسناء سمراء البشرة ، بالغة الفتنة، يزيد من تأثير حسنها ما كان يحمله وجهها الجميل من مخايل طيبة النفس . وكان اسمها مدام "**بازيل**"، تركها زوجها– الذي كان أكبر منها سنا، وكان غيورا بعض الشيء– في رعاية كاتب(١) بدا أبغض من أن يكون ذا غاية أو إغراء، ومع ذلك فإنه لم يكن خلوا من خلال ميزة كان يبديها مقترنة بطبعه السيئ الذي آثرني به، برغم أنني كنت مولعا بأن "إله الدمامة" الجديد يزمجر كلما رآني ألج المكان، ويعاملني في ازدراء أخذت مخدومته ترده إليه كاملا! بل لقد بدا لي أنها كانت تستعذب التلطف في وجوده؛ لكي تثير غيظه، وكان هذا النوع من الانتقام– برغم مجافاته لذوقي– خليقا بأن يكون أكثر استساغة، لو أنه كان في خلوة، ولكنها لم تدفع الأمور قط إلى هذا الحد، أو – بالأحرى– دفعتها، ولكن بشكل آخر! وسواء

---

(١)"كاتب" هنا بمعنى موظف كتابي أي **CLERK**

كانت قد ألفتني جد صغير ، أو أنها لم تكن تعرف كيف تقدم على المراودة، أو كانت تعتزم حقا أن تظل عاقلة ، فإنها أخذت تبدي في ذلك الحين نوعا من التحفظ لم يكن يصدني عنها، ولكنه كان يجعلني أهابها دون أن أدري السر في ذلك! ومع أنني لم أحس نحوها بذلك الاحترام الحقيقي، العاطفي، الذي أحسست به نحو السيدة"**دي فاران**" إلا أنني كنت أشد خجلا وأقل ألفة مع مدام "**بازيل**" مني مع السيدة المذكورة ، كنت أجدني محرجا ، مرتبكا، لاأجرؤ على أن أتطلع إليها، أو أتنفس بالقرب منها، ومع ذلك فقد كنت أشد كرها للبعد عنها مني للموت ، كنت ألتهم بعين نهمة كل ما أستطيع أن أتطلع إليه فيها دون أن يلمحني أحد : من الزهور التي تزين ثوبها، وأطراف قدميها الرشيقتين ، ولمحة من ذراع بيضاء، ملتفة، كنت أراها بين قفازها وكمها. . وجزءا من صدرها كان يتجلى أحيانا بين طرف ثوبها والمنديل المحيط بعنقها . وكان كل شيء من هذه يعزز تأثير بقية الأشياء الأخرى!. . وكانت عيناي تضطربان من النظر إلى ما كنت أراه– بل وما وراء ما كنت أراه– ويضيق صدري ، فتزداد أنفاسي تهدجا في كل لحظة ، حتى لاأكاد أقوى على التنفس، بل يغدو كل ما أستطيعه هو أن أصعد زفرات متلاحقة غير محسوسة، كانت شديدة الإحراج لي في غمرة السكون الشامل الذي كثيرا ما كنا نلقى نفسينا فيه!. . على أن مدام"**بازيل**" لم تكن – لحسن الحظ – تلاحظ ذلك، على ما كان يبدو لي ، لانهماكها في عملها . ومع ذلك فإنني كنت أرى صدر ثوبها يخفق أحيانا ، وكأنها تشفق علي. وكان هذا المنظر الخطر يفقدني رشدي تماما، حتى إذا أوشكت أن أطلق العنان لانفعالاتي قالت لي – بصوت هادئ – عبارة ما، ترد إلي إدراكي في الحال!

*****

ولقد رأيتها عدة مرات في هذه الحال– ونحن وحيدان دون ما كلمة أو إشارة أو نظرة تحمل من المعاني أكثر مما ينبغي ، أو ما يوحي باتفه تفاهم بيننا. وكان هذا الجو– على ما فيه من تعذيب لي– جد مستعذب ، حتى إنني كنت لاأكاد لسذاجة قلبي أجد سببا لما كنت أحس به من لوعة! وكان يبدو أن هذه الخلوات القصيرة كانت مستطابة لديها هي الأخرى، فإنها– على أية حال– كانت تتيح الفرص لها بكثرة!. . وإذا تساءلنا عن النفع الذي كان هذا المسلك يحققه لها، أو لي ، فمن المؤكد أنه كان على الأقل مسلكا خاليا من أي ضرر !

. . إلى أن كان ذات يوم ، سئمت فيه المرأة الحديث السخيف الذي انطلق فيه الكاتب الدميم، فصعدت إلى غرفتها ، وأسرعت أنا أتم المهمة البسيطة التي كنت أؤديها في الحجرة الخلفية بالحانوت، ثم تبعتها . وكان باب حجرتها مواربا، فدخلت دون أن يراني أحد. وكانت عاكفة على التطريز بجوار إحدى النوافذ ، وظهرها نحو الباب ، فلم يكن بوسعها أن تراني ، ولا أن تسمعني –نظرا لجلبة العربات في الطريق – وكانت تحرص دائما على أناقة ملبسها ، لكنها في ذلك اليوم بالذات كانت قد افتنت في زينة وجهها إلى درجة مغرية ! وكان وضعها بديعا ، إذ كان رأسها– في انحناءته البسيطة– يكشف بياض عنقها. . وكان شعرها معقوصا إلى أعلى في رشاقة ، وقد ازدان بالزهور ، وبالاختصار ، كان يرين على قوامها بأسره سحر أخذت أطيل تأمله حتى أخرجني عن تجلدي، فإذا بي أجثو على ركبتي لدى الباب ، وأبسط ذراعي نحوها في حركات ملتاعة ، وأنا واثق بأنها لم تكن تسمعني ، ودون أن يخطر ببالي أن من المحتمل أن تراني. .

بيد أنه كانت ثمة مرآة على رف المدفأة وشت بي إليها!

ولست أدري أي أثر أحدثته نوبة جنوني في نفسها، فإنها لم تنظر نحوي ، ولم تنبس بكلمة إنما لفتت رأسها لفتة صغيرة ، وبحركة بسيطة أشارت بأصابعها إلى الحصيرة التي كانت عند قدميها ، وكانت اللحظة تتطلب أن أرتجف، أو أصرخ أو أرمي بنفسي حيث أشارت ، ولكن من العسير أن يصدق أحد أنني في ذلك الموقف لم أجسر على أن أحاول أكثرمن الاستلقاء عند قدميها ، فلم أنبس بكلمة واحدة ، ولا رفعت عيني إليها ، بل ولا مسستها في محاولتي المضنية كي أستند إلى ركبتيها لحظة.. ومع أنني عجزت عن الكلام أو الحركةإلا أنني كنت بعيدا عن الهدوء والسكينة ، بل كان كل شيء يشي بانفعالي ، وفرحي، وعرفاني، ورغباتي الجامحة التي لم يكن لها هدف معين، والتي كان يكبحها الخوف من استياءالسيدة ، وهو أمر ما كان قلبي الشاب ليرتاح إليه!

وبدا أنها لم تكن أقل تأثرا ولا أقل خجلا مني.. وأزعجها أن تراني هناك ، وحيرها أن تكون قد اجتذبتني إلى ذلك المكان، وبدأت تشعر بعواقب الإشارة التي صدرت عنها دون أن تفكر فيها التفكير الواجب!.. ولكنها لم تقربني إليها، ولا هي صدتني عنها ، فإنها لم ترفع رأسها عن الرقعة التي تطرزها، بل حاولت أن تتصرف كما لو لم تكن تراني عند قدميها! على أن كل ما أوتيت من غباء ما كان ليمنعني من أن أستنتج أنها كانت تشاطرني ارتباكي ، وربما رغباتي ، وأنها كانت تكبح عواطفها بنفس الحياء الذي كان يدفعني إلى أن أكبح عواطفي، وإن لم يساعدني ذلك على أن أتغلب على هذا الحياء!.. وإذ كانت تكبرني بخمس سنوات أو ست ، فقد رأيت أنها كانت خليقة بأن تكون أكثر جرأة، وقلت لنفسي إنها إذا كانت لم تفعل ما يوقظ جرأتي، فلابد أنها غير راغبة في أن أبدي أية جرأة من ناحيتي ! ولا أزال حتى اليوم أرى أنني كنت مصيبا، وأنها كانت- بالتأكيد- من الذكاء بحيث فطنت إلى أن ناشئا مثلي كان بحاجة لا إلى تشجيع فحسب ، وإنما إلى "تدريب" أيضا!

لست أدري كيف كان لينتهي هذا المشهد الحافل الصامت ولا إلى أي وقت كنت سأظل دون حراك في وضعي المستهجن المستعذب، لولا أننا فوجئنا بما قطع علينا الموقف ! ففي اللحظة التي بلغ فيها انفعالي عنفوانه سمعت باب المطبخ- الذي كان ملاصقا للحجرة التي كنا فيها- يفتح ، فاستولى على مدام "**بازيل**" ذعر جائح تجلى في كلماتها وإشاراتها وهي تقول: " انهض!.. ها هي ذي "**روزينا**" قادمة!" . وأسرعت بالنهوض، ممسكا باليد التي بسطتها لي ، طابعا عليها قبلتين ملتهبتين، شعرت عند ثانيتهما أن هذه اليد الفاتنة تضغط شفتي ضغطا خفيفا!.. ولست أغالي إذا قلت إنني لم أستمتع في حياتي بلحظة في مثل حلاوة تلك اللحظة، غير أن الفرصة التي فقدتها لم تسنح قط مرة أخرى، وكف غرامنا الوليد عن النمو عند ذلك الحد! ولعل هذا هو عين السبب في أن صورة تلك المرأة اللطيفة ظلت مطبوعة في أعماق قلبي بهذا الشكل الفاتن ، بل إنها ازدادت جمالا بازدياد معرفتي بالدنيا والنساء . ولو أنها كانت قد أوتيت مجرد قدر بسيط من الخبرة ، لأقدمت على تصرف مخالف كي تشجع فتى مثل الذي كنته!.. ولكن ، لئن كان قلبها قد أوشك أن يضعف في تلك اللحظة، فإنه كان في الواقع مستقيما ، وما انساقت للميل الذي جرفها إلا على غير إرادة منها، فكانت هذه – على ضوء كل المظاهر- أول خيانة تفكر فيها، ولعلني كنت خليقا بأن أجد في مغالبة خجلها عناء يفوق ما كنت ألقاه في مغالبةحيائي! على أنني، دون أن أذهب إلى ذلك المدى ، كنت أجد في وجودها سعادة لا توصف، وما عادل شيء من المشاعر التي يخلقها نبل النساء ، تلكما الدقيقتين اللتين قضيتهما عند قدمي هذه المرأة دون أن أجسر على مجرد لمس ثوبها!.. لا ، ليست هناك متعة تعدل تلك التي تستطيع أن تتيحها امرأة فاضلة يحبها المرء!.. إن كل شيء يغدو جميلا

في صحبتها.. ولقد كانت إشارة من أصبع، ويد التصقت خفيفا بفمي، وهما كل النعم التي حظيت بها من مدام "بازيل" ، ولا تزال ذكرى هذين الرمزين البسيطين تفتنني كلما فكرت فيهما!

وعبثا حاولت – في اليومين التاليين– أن أنتهز فرصة لخلوة أخرى ، فقد استحال علي أن أجد هذه الفرصة، ولم ألاحظ أي حرص من جانب مدام "بازيل" على أن تتيحها . ومع أن مسلكها لم يصبح أقل فتورا عن ذي قبل إلا أنها صارت أكثر تحفظا من المعتاد ، وأعتقد أنها كانت تتفادى نظراتي خشية أن تعجز عن أن تسيطر على نفسها سيطرة كافية! وغدا كاتبها اللعين أثقل ظلا من أي وقت مضى، لاسيما وقد مضى يمزح ويداعبني قائلا : إنني خليق بأن أجد حظا لدى السيدات! وكنت أرتجف كلما فكرت في أنني ربما كنت قد ارتكبت حماقة . ولما كنت قبل ذلك أعتبر أن ثمة تفاهما بيني وبين مدام "بازيل" ، فقد رغبت الآن في أن أتكتم الميل الذي لم يكن بحاجة إلى التكتم من قبل ، فجعلني ذلك أزداد حذرا في تحيني الفرص لإرضاء هذا الميل ، ومن فرط حرصي على أن تكون هذه الفرص مأمونة ، تعذر على أن أعثر عليها إطلاقا!

وكانت هذه نزوة غرامية أخرى، لم يقدر لي قط أن أبرأ منها، وقد استطاعت باقترانها بحيائي الطبيعي أن تكذب نبوءة الكاتب الدميم بدرجة تبعث على العجب!.. فقد كنت من الصدق في حبي بدرجة أجرؤ معها على القول بأنها لم تكن لتمكنني من أن أسعد بسهولة . فما كانت العواطف يوما أشد توثبا وأطهر طبيعة مما كانت لدي، ولا كان الحب يوما أرق، وأصدق ، وأبعد عن المصلحة مما كان عندي ! .. كنت على استعداد لأن أضحي بسعادتي ألف مرة من أجل سعادة المرأة التي أحبها . كانت سمعتها أعز لدي من حياتي، وما كنت لأرجو البتة أن أعرض طمأنينتها لحظة واحدة لأي خطر ، في مقابل كل المباهج والمتع ! وقد حملني هذا الشعور على أن أسرف في الحذر والتكتم والحيطة في مغامراتي ، إلى الحد الذي لم يقدر عنده لأي منها أن تنجح!.. وما كانت حاجتي إلى أن أوفق مع النساء إلا ناجمة دائما عن حبي العارم لهن!

*****

ولنعد الآن إلى ذلك الدميم، عازف القيثارة : كان الغريب في أمر هذا الغادر أنه كلما ازداد ثقل ظل بدا أكثر لطفا وإيناسا !.. وكانت مخدومته – منذ اليوم الأول الذي مالت فيه إلي – قد فكرت في أن تجعلني نافعا في الحانوت. وكنت أجيد الحساب ، فاقترحت عليه أن يعلمني كيف أمسك الدفاتر التجارية ، ولكن الجلف تلقى الاقتراح في امتعاض لعل مبعثه أنه خشي أن يزحزح عن عمله!ومن ثم فقد كان كل عملي– إلى جانب حفر المعادن– يقتصر على نسخ بضعة حسابات ومذكرات، وتصحيح بعض الدفاتر ، وترجمة بضع رسائل تجارية من الإيطالية إلى الفرنسية، وفجأة، عن لصاحبي أن يعود إلى الاقتراح الذي سبق له أن رفضه، فتطوع لتعليمي القيد المزدوج(١) ، وقال إنه بات راغبا في أن يجعلني كفئا لأن أتقدم بخدماتي إلى السيد "بازيل" عند عودته. وكان في صوته ومسلكه شيء من الزيف والحقد والسخرية، لم يوح إلي بالطمأنينة! ولم تنتظر مدام "بازيل" حتى أجيبه ، بل قالت له في برود إنها شاكرة له تطوعه ، وإنها تأمل أن يجازيني القدر في النهاية عن طيب صفائي ، وإنه لأمر جدير بأعظم الرثاء لو أنني لم أغد – برغم كل مواهبي – أكثر من "كاتب" مثله !

وكانت السيدة قد أخبرتني ، في عدة مناسبات ، بأنها راغبة في أن تقدمني إلى شخص قد يستطيع أن يساعدني . وكانت من الحكمة بحيث أدركت أن الوقت قد حان كي نفترق، إذ إن

(١) طريقة قيد الحسابات التجارية ، بتسجيل كل عملية في الجانب الدائن والجانب المدين" منه" و"له".

اعترافاتنا الصامتة بالحب وقعت في يوم الخميس ، فلما كان يوم الأحد التالي أقامت مادبة عشاء كنت ممن حضرها ، وكان بين الضيوف راهب من المذهب "اليعقوبي" ، حسن الطلعة، قدمتني إليه السيدة، فعاملني بحفاوة بالغة، وهنأني بانضوائي تحت لواء الكثلكة، وحدثني عن حياتي بطريقة نمت لي عن أن السيدة قد أفضت إليه بتفصيلاتها . ثم نصحني - وهو يربت خدي بظهر يده في ود- بأن أتصرف بما يليق بكرامتي ، وبأن أكون قوي الجلد شجاعا ، وبأن أذهب لزيارته ليتاح لنا أن نتبسط في الحديث معا . وأدركت من الاحترام الذي كان كل امرئ يبديه له ، أنه رجل ذو مكانة . كما أدركت من اللهجة الأبويةالتي كان يوجه بها حديثه إلى مدام" **بازيل**" ، أنه الراهب الذي تفضي إليه باعترافاتها !كذلك أذكر أن الألفة البالغة التي كان يبديها نحو تائبته(١) كانت مشوبة بمظاهر التقدير ، بل والاحترام ، الأمر الذي لم يدهشني إذ ذاك قدر ما يدهشني الآن ، ولو أنني كنت أذكى مما كنت إذ ذاك ، لكنت خليقا بأن أتيه فخرا لمجرد التفكير في أنني استطعت أن أمس أحاسيس شابة كانت تلقى كل هذا الاحترام من الراهب الذي كان يتلقى اعترافاتها !

ولم تتسع المائدة لنا جميعا ، فرؤي إضافة مائدة أخرى صغيرة ، كان من حظي أن جلست إليها ، مواجها للكاتب . .

ولم أخسر بهذا التنظيم شيئا من الرعاية أو التلطف ، فقد نقلت عدة صحاف من الطعام إلى المائدة الصغيرة ، لم يكن صاحبي هو المقصود بها بالتأكيد ! وكان كل شيء يسير كما ينبغي حتى ذلك الوقت ، فكانت السيدات جد طروبات، والرجال مرهفي الانتباه . وكانت مدام "**بازيل**" تدعو إلى الأنخاب في مهابة فاتنة . وفي منتصف العشاء وقفت عربة بالباب ، وأقبل شخص يصعد السلم . . وكان القادم هو السيد "**بازيل**" . وإني لا تمثله الآن بنفس صورته حين دخل علينا ، مرتديا معطفا قرمزيا ذا أزرار مذهبة ، وهو لون اعتدت منذ ذلك اليوم أن أنفر منه ! وكان طويلا ، مليحا، حسن المظهر، وأقبل في جلبة ، شأن الرجل الذي يفاجئ ضيوفه ، برغم أن الحضور جميعا كانوا أصدقاء له . وألقت زوجته ذراعيها حول عنقه، وراحت تضغط يديه ، وتضفي عليه ألوان الغزل والملاطفة ، فتقبلها جميعا دون أن يلتفت، وحيا الجماعة ، وجلس ليتناول الطعام .

ولم يكد الضيوف يشرعون في الحديث عن رحلته حتى وجه عينيه نحو المائدة الصغيرة ، وتساءل في صوت جاف عمن يكون الفتى اليافع الذي رآه جالسا إليها ، فروت له مدام "**بازيل**" كل شيء في بساطة ساذجة ، فتساءل عما إذا كنت أقيم في الدار، فأجبت بالنفي، وإذ ذاك قال بصوت أجش! : " ولم لا ؟ . . مادام يقضي سحابة النهار هنا ، فمن المستحسن أن يمكث خلال الليل" . وأمسك الراهب بزمام الحديث، وبعد أن تحدث عن مدام "**بازيل**"بعبارات الإطراء المخلص الصادق،ذكر بضع كلمات في امتداحي ، وأضاف قائلا للزوج : إن من الجدير به أن يتوق إلى المساهمة في العمل الخيري الذي أدته زوجته الصالحة ، بدلا من أن يلومها عليه ، فليس في هذا العمل ما يجاوز حدود الحكمة والكرامة . وأجاب السيد "**بازيل**" في لهجة غاضبة حاول إخفاءها بعض الشيء، احتراما لوجود الراهب، ولكنها كانت كافية لأن تجعلني أشعر بأنه تلقى أنباء عني ، وأن الكاتب قد دس لي لديه!

وما إن انتهت المادبة حتى أقبل الكاتب مزهوا ، وقد أوفده مخدومه ليدعوني -بأمره- إلى أن أبارح البيت فورا، فلا أضع فيه قدمي بعد ذلك! وحشا رسالته بكل ما كان كفيلا بأن يجعلها قاسية مهينة . فانصرفت بدون أن أنبس بكلمة، ولكن بقلب طعين، لم تكن تعذبه فكرة مفارقة تلك المرأة

---

(١) تقضي التقاليد الدينية لدى الكاثوليك بأن يعترف الشخص إلى قس الكنيسة التي يتبعها ، فيعظه القس ويصلي من أجله ، ويكون اعترافه دليل التوبة ، فهو بهذا الوضع تائب .

اللطيفة ، بقدر ما كانت تضنيه فكرة تركها وحيدة لزوجها المتوحش!.. ولا مراء في أنه كان على حق في رغبته الاتخونه زوجته ولكنها كانت - برغم ذكائها وحسن تربيتها- إيطالية الأصل، أعني أنها كانت مفطورة على الحس المرهف وحب الثأر . ويلوح لي أنه كان مخطئا إذ عاملها بأكثر الطرق قابلية لأن تجلب عليه ما كان يخشاه من نحس!

هكذا كانت نتيجة مغامرتي الغرامية الأولى . ولم أغفل أن أمر بالشارع مرتين أو ثلاثا ، على أمل أن أرى - على الأقل المرأة التي لم يكن قلبي يكف عن التحسرعليها . ولكني رأيت - بدلا منها - الزوج والكاتب المتربص الذي لم يكد يلمحني حتى أشار نحوي بالشريط الخشبي الذي يستخدم لقياس الياردة، إشارة كانت تنطوي على أكثر من مجرد التهديد ! وإذ تبينت أن الرقابة شديدة ، فترت عزيمتي، ولم أمر بالحانوت مرة أخرى. ولقد رغبت في أن أسعى إلى الراهب الذي كانت مدام "**بازيل**" قد هدتني إليه، ولكني لم أكن أعرف اسمه ، لسوء الحظ ، فطوفت عدة مرات بالدير آملا في أن أصادفه ، ولكن دون ما توفيق، وأخيرا، عدت أحداث أخرى على ذكريات مدام "**بازيل**" البهيجة ، فلم ألبث أن نسيتها تماما بعد وقت قصير .. بل إنني -لسذاجتي وحداثتي - لم أعد أحس بميل إلى الجميلات.

على أن كرم مدام "**بازيل**" زود صوان ثيابي إلى حد ما، وإن كانت قد راعت التواضع وبعد النظر الذي تتصف به المرأة العاقلة التي تفكر في نظافة الملبس أكثر مما تفكر في زينته ، مما نم عن أنها كانت تبغي أن تصونني من الهوان، لا أن تزينني .

وكانت الثياب التي حملتها معي من "**جنيف**" لاتزال صالحة للارتداء ؛ومن ثم فإنها لم تضف إليها سوى قبعة وبعض الثياب الداخلية. ولم تكن عندي قفازات ولكنها أبت أن تمنحني شيئا منها، برغم أنني كنت جد تواق لذلك ، فقد كانت قانعة بأن تجعلني في وضع يمكنني من أن أحتفظ بنفسي نظيف الملبس والمظهر ، وهو أمر لم تكن بحاجة إلى أن توصيني بالاهتمام به ، عندما كنت معها!

وبعد أيام قلائل من طردي من الحانوت أنبأتني صاحبة البيت الذي كنت أقيم فيه- وقد ذكرت أنها مالت إلي - بأن من المحتمل أن تكون قد وجدت لي عملا، فإن سيدة ذات مكانة قد رغبت في أن تراني ، وعند هذه الكلمات ، ظننت أنني أصبحت فعلا وسط مغامرات راقية، إذ كان ذهني يدور دائما حول ذلك . على أن المغامرة في هذه المرة لم تكن من البهاء كما صورتها لنفسي ، فقد ذهبت لمقابلة السيدة مع الخادم الذي حدثها عني ، فسألتني وامتحنتني ، ولم أخيب رجاءها ، فالتحقت بخدمها لفوري ، لا في مركز مقرب لديها ، وإنما كخادم يرتدي الزي الخاص بخدمتها! وكان الفارق الوحيد بيني وبين هؤلاء أنهم كانوا يلبسون أنشوطات على أكتافهم(١)أما أنا فلم أكن أفعل .. ولما كانت ثياب خدمها لاتزدان بشيءمن الوشي فإنها كانت تبدو كالأزياء العادية.. وهكذا كانت النهاية غير المرتقبة لآمالي العظام!

وكانت "**الكونتة دي فيرسيللي**" - التي التحقت إذ ذاك بخدمتها - أرملة بلا ولد ، وقد كان زوجها من أبناء "**بييمونت**" . وكنت دائما أخالها من إقليم "**سافوا**"، فماكنت لأصدق أن بين أهل "**بييمونت**" من يجيد الفرنسية إلى درجة الكلام بلهجة خالية من أية لكنة ، وكانت في أواسط العمر، ذات منظر ممتاز ، وقد أوتيت ذهنا مثقفا . كانت مولعة بالأدب الفرنسي الذي كانت على دراية واسعة به ، كما كانت تكثر من الكتابة، وبالفرنسية دائما ، وكانت لرسائلها روح ، بل وروعة ، رسائل مدام "**دي سيفينييه**" ، حتى إن بعضها يخاله المرء من قلم هذه الأخيرة ، وكان عملي الرئيسي من نوع لم أكن أكرهه ، إذ كنت أكتب لها ما تمليه علي من هذه الرسائل ، فقد كانت مصابة بسرطان في المعدة ، يكبدها آلاما عظيمة تجعل من المستحيل عليها أن تكتب بنفسها!

---

(١) حبال مجدولة (اسبلايت) أو شارات مما يوجد على أكتاف بعض السعاة.

لم تكن مدام "**دي فيرسيللي**" ذات ذكاء عظيم ولكنها أوتيت روحا قوية عالية . وكنت معها أثناء مرضها الأخير، فشهدتها تتعذب وتموت دون أن تبدي بادرة من بوادر الضعف ، ولو لحظة واحدة، دون أن تبذل أقل جهد في السيطرة على نفسها أو تفعل شيئا لايليق بامرأة ، بل ودون أن يخطر ببالها أن مسلكها كان مثالا للفلسفة ، وهي كلمة لم تكن قد أصبحت شائعة، ولم تكن السيدة تعرفها بمعناها المألوف اليوم.

وكانت قوة شخصيتها هذه تطغى في بعض الأحيان حتى تصبح برودا! .. كانت تبدو لي دائما وكأنها لا تكن من المشاعر لسواها قدر ما تكن لنفسها ، وعندما كانت تبدي كرما لأي تعس ، فإنما تصدر في ذلك عن رغبة في إتيان الخير والعمل الصالح ، أكثر منها عن شعور حقيقي بالصدقة، لقد خبرت هذا القصور في شعورها – إلى حد ما – خلال الأشهر الثلاثة التي قضيتها معها ، ولقد كان الأمر يبدو طبيعيا لو أنها قدرت شابا ذا مواهب ، كانت تراه أمامها باستمرار ، فإذا ما شعرت بنهايتها تدنو فكرت في أنه قد يصبح بعدها في حاجة إلي المعونة والمساعدة .. ولكنها لم تفعل شيئا من ذلك، إما لأنها لم تعتبرني أهلا لرعاية خاصة ، أو لأن الذين كانوا يحيطون بها لم يتيحوا لها أن تفكر في سواهم!

على انني أتذكر جيدا أنها أبدت بعض فضول إلى تعرف قصتي ، فكانت أحيانا توجه إلي أسئلة، وتحب أن أريها الخطابات التي كنت أكتبها إلى مدام "**دي فاران**" ، وأصف لها مشاعري ، . على أنها لم تسلك – بالتأكيد – الطريق الصحيحة للتعرف على هذه المشاعر ، إذ إنها لم تبح لي قط بشيء من مشاعرها الخاصة ! وكان قلبي يحب أن يكشف عن دخليته على شريطة أن يطمئن إلى أنه إنما يفضي بسريرته إلى قلب آخر . أما الأسئلة الباردة الجافة ، التي لاتنطوي على بادرة من رضاء أو لوم إزاء إجاباتي فلم تكن توحي إلي بشيء من الثقة . وعندما كنت لاأرى ما ينم عما إذا كان حديثي يرضيها أو يضايقها ، كنت أشعر دائما بجزع !.. على أنني لاحظت، منذ ذلك الحين ، أن هذه الطريقة الجافة في توجيه الأسئلة إلى الناس للتعرف على شخصيتهم ، حيلة كثيرا ما تعمد إليها النساء اللواتي يرغبن في أن يبدون ذكيات بارعات ، فهن يخلن أنهن بإخفاء مشاعرهن يكن أكثر توفيقا في الكشف عن مشاعرك أنت! ولكنهن يخفقن في أن يرين أنهن بهذا العمل يجردنك من الجرأة على هذا الكشف!.. والرجل إذا ما سئل بادر إلى التحفظ من أجل ذلك السبب وحده ، وإذا اعتقد أن سائله إنما يريد أن يحمله على الكلام فحسب ، دون أي اهتمام حقيقي بامره ، فإنه إما أن يعمد إلى الكذب ، أو إلى حبس لسانه ، أو يضاعف من حيطته ، مفضلا أن يظن أنه أحمق عن أن يكون تسلية للفضول ! وقصارى القول ، إن المرء إذا رغب في قراءة قلوب الآخرين فإن من سوء السياسة أن يظهر أنه يخفي ما في قلبه!

ولم يحدث لمدام "**دي فيرسيللي**" أن باحت لي قط بكلمة تعبر عن ود ، أو شفقة ، أو عطف . إنما كانت توجه إلي أسئلة بلهجة باردة، فأجيب عليها بتحفظ ، ولابد أن إجاباتي كانت تبدو لها تافهة مضجرة . وما لبثت في النهاية أن كفت عن الأسئلة ، ولم تعد تكلمني إلا لتصدر لي أوامرها!كانت تحكم علي في ضوء ما دفعتني إليه بمسلكها ، وليس في ضوء ما كنته .. وما رأت في قط سوى مجرد خادم ، فكانت تمنعني من أن ابدو في غير شخصية الخادم !.. وأعتقد أنني منذ ذلك الوقت أعاني من خبث هواية التآمر في الخفاء التي تدفعني إلى الانحراف، والتي أوحت إلي بنفور طبيعي جدا من الأوضاع التي خلقت هذه الهواية ، وكان وريث مدام "**دي فيرسيللي**"– التي كانت

بلا ولد – هو ابن أخيها الكونت "**ديلاروك**" الذي كان مثابرا على التقرب إليها. وفضلا عن ذلك ، فإن رؤساء خدمها – الذين رأوا نهايتها تدنو – لم يغفلوا مصالحهم ، ومن ثم فقد كان يحيط بها كثيرون ممن يظهرون الوفاء لخدمتها ، فكان من العسير عليها أن تفكر في شخصي .وكان على رأس قصرها رجل ماهر يدعى السيد "**لورنزي**" استطاعت زوجته – التي كانت تفوقه ذكاء– أن تتملق مولاتها وأن تكسب رضاها إلى درجة أنها صارت منها بمثابة الصديقة أكثر منها الخادم الأجيرة . وقد استطاعت بذلك أن تظفر لابنةأخيها بمنصب وصيفة السيدة! وكانت ابنة الأخ مخلوقة ماكرة ، تدعى الآنسة "**بونتال**" تجيد الظهور بمظهر وصيفة الشرف، وبذلك وفقت إلى مساعدة عمتها في التقرب إلى السيدة ، فلم تعد هذه ترى إلا بعيون الاثنتين ، أو تعمل إلا بأيديهما! ولم يكن لي حظ إرضاء هؤلاء الأشخاص الثلاثة–السيد "**لورنزي**" وزوجته وابنة أخيها– فقد كنت أطيعهم ولكني لم أخدمهم، إذ لم أفطن إلى أنني– بجانب خدمة مخدومتنا المشتركة– كنت مضطرا إلى أن أكون خادما لخدمها! ..

فضلا عن أنني كنت من ذلك النوع من الخدم الذي يثير قلقهم، إذ رأوا بوضوح أنني كنت في غير المكان الذي أستحقه ، فكانوا يخشون أن ترى السيدة ذلك بدورها، وأن تعمد – كي تضعني في المركز اللائق بي– إلي إجراء قد يقلل من حظهم من مالها! .. ذلك أن أبناء هذه الطبقة هم في العادة أشد جشعا من أن يكونوا منصفين ، وتراهم ينظرون إلى أية منحة لسواهم وكأنها حق استلب من مالهم الخاص! ومن ثم فإنهم تآمرا على إقصائي عن بصر السيدة. ولما كان غرامها بكتابة الرسائل قد صار بمثابة تسلية لها في ضعفها الصحي ، فإنهم أوحوا إليها بما جعلها تكره هذه الهواية ، وصرفوها عن المضي فيها مستعينين بنصح طبيبها، وبالتثبيط من عزيمتها بزعم أنها عملية جد مرهقة لها! .. ثم صوروا لها أنني لم أكن أفهم واجبي ، وبذلك أقنعوها بأن تعين في مكاني خادمين لئيمين، كي يحملا مقعدها ! وبإيجاز، فإنهم تعمدوا – ببراعة– ألا ألج غرفتها طوال ثمانية أيام ، هي الفترة التي كانت أثناءها تعد وصيتها! ومن الصحيح أنني بعد هذه المدة عدت أدخل غرفتها كعهدي من قبل ، وأخذت أبدي لها من الاهتمام فوق ما كان يبديه أي شخص سواي ، إذ إن الآلام التي كانت تعانيها المسكينة أخذت تمزق قلبي، والجلد الذي كانت تتحملها به أوحى إلي بأن أوقرها وأعطف عليها إلى أقصى درجة..

حتى إني كثيرا ما كنت أذرف دموع الأسى صادقا في غرفتي دون أن يراني أحد!

وأخيرا فقدناها .. ورأيتها تجود بآخر أنفاسها، وكما عاشت حياة امرأة موهوبة ذكية ، فإنها ماتت ميتة الفلاسفة.

وبوسعي أن أقول إنها ألهمتني تقديرا عاليا للعقيدة الكاثوليكية، بفضل ما كانت تبديه من إقبال على اتباع تعاليمها، دون إهمال أو تصنع . كانت في الواقع ذات طبع حاد ، وقد أخذت تبدي– في نهاية مرضها– نوعا من الانشراح الذي كان انتظامه يوحي بأنه غير حقيقي ، فما كان سوى رد فعل لحالتها الأليمة ، وسوى ثمرة من ثمار العقل، مع أنها لم تلزم فراشها إلا في اليومين الأخيرين ، إلا أنها ظلت تتحدث في هدوء مع كل امرئ حتى النهاية ، وأخيرا، لم تعد تتكلم ، ولكنها في نزعات الموت صاحت بصوت مرتفع : " حسنا ! .. إن المرأة التي تستطيع أن تطلق الغازات من أمعائها ، لاتموت" .. وتقلبت في فراشها، وكانت هذه آخر كلمات نطقت بها!

.. ولقد تركت لصغار خدمها أجور عام كامل، أما أنا فلم أتلق شيئا، لأنني لم أكن في قائمتهم!

على أن "**الكونت ديلاروك**" أمر بإعطائي ثلاثين ليرة(١) ، كما ترك لي السترة الجديدة التي كنت أرتديها ، والتي أراد السيد "**لورنزي**" أن يأخذها مني ! بل إن الكونت تكرم فوعد بأن يحاول إيجاد عمل لي، وأذن لي بأن أذهب لأراه ، وقد ذهبت مرتين أو ثلاثا ، دون أن أتمكن من التحدث إليه. ولما كنت سريع القنوط ، فإنني لم أذهب بعد ذلك. ولسوف يتبدى – بعد قليل –أنني كنت مخطئا.

وليتني كنت أستطيع أن أنهي، عند هذا القدر، كل ما لدي من قول عن فترة إقامتي لدى مدام "**دي فيرسيللي**" !.. لكن الواقع أنني لم أبرح الدار كما دخلتها، وإن ظلت حالي كما كانت . لقد حملت معي من الدار ذكريات باقية للجريمة ، وعبئا لايطاق من الندم، لا يزال يثقل ضميري برغم مرور أربعين عاما ! وبدلا من أن تزداد مرارته ضعفا ووهنا، إذا بها تقوى وتشتد كلما تقدمت بي السنون: فمن ذا يصدق أن غلطةصبيانية تؤدي إلى مثل هذه التبعات القاسية ؟ التبعات التي كانت أفدح مما يخطر بالبال ، والتي لايجد قلبي عزاء من أجلها؟.. ذلك أنني تسببت في دمار فتاة لطيفة ، شريفة، جديرة بالتقدير– بل كان من المؤكد أنها تفوقني جدارة– إذ دفعت بها إلى الخزي والتعاسة!

وإليك القصة : إن من الأمور التي لامناص منها ، أن تغير نظام بيت من البيوت خليق بأن يحدث شيئا من الفوضى في البيت ، فتضيع أشياء عديدة . ومع ذلك فإن الخدم في دار تلك السيدة كانوا من الأمانة – كما كان "**لورنزي**" من اليقظة– بحيث إن شيئا لم يفتقد من دار مدام "**دي فيرسيللي**" عندما أحصي ما كان فيها . ولكن حدث أن الآنسة "**بونتال**" فقدت قطعة من شريط قديم باللونين الأحمر والفضي، ولقد كانت تحت يدي أشياء كثيرة تفوق تلك القطعة في القيمة ، غير أن هذه وحدها هي التي أغرتني، فسرقتها! ولما كنت لم أجشم نفسي عناء إخفائها فإنها سرعان ما وجدت .. وشاءوا أن يعرفوا كيف آلت إلى حوزتي ، فإذا بي أرتبك، وأتلعثم ، وإذا بوجهي يتضرج .. ثم قلت– في النهاية: إن "**ماريون**" أعطتنيها! وكانت "**ماريون**" شابة من "**موريين**" اتخذتها مدام "**دي فيرسيللي**" طاهية لها عندما كفت عن إقامة الولائم فسرحت طاهيتها وأصبحت تكتفي بالحساء الجيد عن الأطعمة الشهية.

لم تكن "**ماريون**" هذه رشيقة فحسب بل كانت ذات لون حاضر، لايوجد إلا لدى أهل الجبال، كما كانت تتصف – فق كل شيء– بنوع من اللطف والتواضع ، يستحيل معه على من يراها الايحبها !.. ثم إنها كانت فتاة طيبة، ورعة، لاجدال في أمانتها؛ لذلك دهش الجميع عندما ذكرت اسمها ! وكان كل منا موضع ثقة، لذلك كان من المهم أن يتبينوا من منا اللص الحقيقي ؟ ومن ثم استدعيت ، واجتمع نفر من القوم، بينهم الكونت" **ديــلا روك**" وعندما قدمت، عرض عليها الشريط.. واتهمتها في جراة ، فبهتت ، ولم تقو على أن تنبس بنت شفة ، وإنما اكتفت بأن رمقتني بنظرة كانت كفيلة بأن تجرد "**إبليس**" ذاته من أسلحته، ولكن قلبي البهيمي كان منيعا دونها ! وأخيرا، أنكرت الفتاة السرقة بلهجة جازمة، ولكن دون غضب وخاطبتني فناشدتني أن افكر، والا أشوه سمعة فتاة بريئة لم تلحق بي أي أذى لكنني أصررت على قصتي ، في قحة شيطانية، وأعلنت في وجهها أنها هي التي أعطتني الشريط!.. فشرعت المسكينة تبكي ، ولم تقل سوى :" آه ! كنت أظنك رجلا طيبا يا "**روسو**" . إنك تشقيني كل الشقاء، ولكني لا أتمنى أن أكون في موقفك!" .. وكان هذا كل ما عندها لي ، فقد راحت تدافع عن نفسها في بساطة وحزم ، دون أن تسمح لنفسها بأن توجه إلي أقل تأنيب أو لوم! وادى هذا الاعتدال– بالقياس إلى لهجتي الجازمة– إلى ضررها ، فما كان من الطبيعي أن تقابل مثل هذه القحة الشيطانية من جانبي، بوداعة ملائكية من جانبها!

---

(١) الليرة: عملة قديمة كانت قيمتها تتباين بتباين الأزمان والأماكن ، وقد أطلق الاسم على "الفرنك" في بعض الأوقات.

ومع أن المسألة لم تسو نهائيا، إلا أنه بدا أنهم جميعا مالوا إلى جانبي ، ولكنهم لم يضيعوا وقتهم في التعمق في المسألة، في غمرة الفوضى التي كانت تسود الدار، واكتفى الكونت "**ديـــلاروك**" وهويفصلنا معا من الخدمة- بأن قال: إن ضمير المذنب خليق بأن يثأر للبريء! .. ولقد تحققت نبوءته، بل إنها لتتحقق في كل يوم!

ولست أدرى ما جرى لضحية اتهامي الزائف ، ولكن من غير المحتمل أنها استطاعت العثور على مركز طيب بعد ذلك ، فقد حملت معها وصمة لطخت شرفها بقسوة من كل النواحي.

لقد كانت السرقة طفيفة تافهة ولكنها كانت – برغم ذلك- سرقة ! ومما زاد الطين بلة أنها ارتكبت لإغواء شاب .. ثم إن الكذب والعناد لم يخلفا شيئا يرتجى من شخص اجتمعت في نفسه كل هذه الرذائل ! بل إنني لاأظن أن التعاسة والنبذ هما أعظم الأخطار التي تسببت بفعلتي في تعريض الفتاة لها، فإن المرء لايستطيع أن يدري مدى ما قد يدفع إليه القنوط والشعور بالبراءة الجريحة، فتاة في مثل سنها! .. أواه! إذا كان شعوري بالندم لايطاق ، لمجرد احتمال أنني جعلتها تعسة، ففي وسع المرء أن يقدر ما يخالجني من شعور إذ أتصور أنني قد أكون دفعت الفتاة إلى أسوأ من هذا المصير!

إن هذه الذكرى تقض راحتي وتمضني في بعض الأوقات، إلى درجة تجعلني إخال – في ساعات السهاد- أن الفتاة المسكينة مقبلة لتلومني على جرمي ، وكأنني ارتكبت هذا الجرم بالأمس القريب ! ويخف عذاب هذه الذكرى طالما كنت أعيش في هدوء ودعة ، لكنها في غمرة الحياة الصاخبة تسلبني لذة العزاء ، وتجعلني أحس بما أذكر أنني قلته في أحد كتبي من أن :"الندم يهجع عندما تكون حظوظنا في ازدهار ، ويجعل عذابه محسوسا في أوقات النوائب " ! ..

ومع ذلك فإنني لم أقو البتة على أن أحمل نفسي على أن أفضفض عن صدري بأن أعترف بالقصة لأحد من أصدقائي.. فإن أوثق الود لم يصل بي يوما إلى هذا الحد مع أي امرئ، حتى مع مدام "**دي فـاران**" . كل ما استطعته هو أن اعترفت بأن علي أن ألوم نفسي على عمل فظيع ، ولكني لم أفصح إطلاقا عن كنهه! ولقد ظل هذا العبء يثقل ضميري إلى اليوم دون أن تخف وطاته ، وإني لأذهب إلى حد التأكيد بأن الرغبة في الخلاص منه – إلى حد ما – ساهمت بدور كبير في إقدامي على كتابة هذه "الاعترافات" !

لقد كنت صريحا أمينا في الاعتراف الذي ذكرته ، ولسوف يتضح بالتأكيد أنني لم أحاول أن أخفف قتامة جرمي . ولكني لا أحقق الهدف المرجو من هذا الكتاب إذا أنا لم أعرض – في الوقت ذاته – أعمق مشاعري الدفينة ، وإذا أنا ترددت في أن أبرز نفسي ، بحقائق محضة صادقة : فما كانت النيةالخبيثة بمنأى عني في أية لحظة ، بقدر ما كانت في تلك اللحظة القاسية . ولقد كان من الغريب – ولكن من الصحيح أيضا في الوقت نفسه- أن صداقتي للفتاة التعسة كانت هي السبب في أنني اتهمتها ! .. ذلك أنها كانت ماثلة في خاطري ، فلم أر بدا من أن ألقي اللوم على أول شخص قفز إلى فكري، فاتهمتها بفعل ما كنت أعتزم فعله.. اتهمتها بأنها أعطتني الشريط،؛لأني كنت أعتزم أن أعطيها إياه ! فلما رأيتها أمامي – بعد ذلك- تمزق قلبي لكن وجود كل ذلك العدد من الناس كان أقوى تأثيرا على نفسي من التوبة! .. وما كنت خائفا من العقاب وإنما كنت خائفا من العار، فقد كنت أرهبه أكثر من الموت ، وأكثر من الجريمة، وأكثر من أي شيء آخر في الدنيا! .. وكم كنت أغتبط لو، أن الأرض انشقت فجاة فابتلعتني وخنقتني! وهكذا تغلب الخوف الطاغي من العار

على كل شيء ، فلم يزدني إلا قحة .. إذ إن ازدياد إجرامي ، وازدياد نفوري من الاعتراف أديا إلى انعدام خوفي من الافتراء فما عدت أرى أمامي- إذ ذاك - سوى بشاعة الفضيحة ، وهتك ستري للملأ، في حضوري ، باعتبار أنني لص.. وكاذب.. ومفترا.. ذلك ما كان الارتباك الشامل يجردني من كل شعور سواه ، ولو أنهم أتاحوا لي فرصة أسترد فيها رباطة جأشي لما كان ثمة ريب في أنني كنت أعترف إذ ذاك بكل شيء!.. لو أن السيد **"ديلا روك"** انتحى بي جانبا، وقال لي : "لاتفسد على هذه الفتاة المسكينة حياتها .. إذا كنت مذنبا فاعترف لي" لألقيت بنفسي في الحال على قدميه.

إني لموقن تماما من ذلك! ولكنني حين افتقدت التشجيع لم ألق منهم سوى الإرهاب!

ثم إن الإنصاف يدعو إلى النظر بعين الاعتبار إلى سني، فقد كنت يومئذ أقرب إلى الطفولة مني إلى الرجولة ، والجرائم الحقيقية تكون في الصغر أكثر اتصافا بالإجرام منها في الكبر، أما الجرائم التي لاتعدو أن تكون نزوات مبعثها الضعف فلا تكون في الواقع ناجمة - لدى الصغار- عن روح إجرامية.

ومن ثم فإن العمل الذي ارتكبته لم يكن - في جوهره - أكثر من "مخالفة" !.. وهكذا فإن ذكراها لا تكربني لما فيها من شر، بقدر ما تكربني بسبب تبعاتها ونتائجها الشريرة. على أنها أحسنت في الواقع ، إذ صانتني بقية عمري من كل عمل يميل إلى الإجرام.. وأحسنت إلي بالأثر الرهيب الذي انطبع في نفسي من جراء الذنب الوحيد الذي ارتكبته، وإني لأومن بأن استبشاعي الكذب إنما يرجع بدرجة كبيرة إلى ندمي على أنني استطعت أن أقدم على مثل تلك الأكذوبة المخزية!.. إنه جرم يمكن التكفير عنه ، بل إنني لأجرؤ على القول بأنني قد كفرت عنه بكل الشقاء الذي طغى علي السنوات الأخيرة من حياتي.. بأربعين عاما من الاستقامة في أوعر الظروف !.. وإن **"ماريون"** المسكينة لتجد في الدنيا كثيرا من المنتقمين لها ، بل إنهم لمن الكثرة بحيث إنني - مهما يكن عظم ذنبي ضدها- لم أعد أخاف أن أموت غير مستمتع بالغفران!

وهذا كل ما أود أن أقوله بهذا الصدد ، فاسمحوا لي بألا أعود إلى الحديث قط في هذا الموضوع!

الكراسة الثالثة

٥- من سنة ١٧٢٨ إلى سنة ١٧٣١

وإذ تركت دار مدام **"دي فيرسيللي"** في حال قريبة من تلك التي كنت فيها حين دخلتها عدت إلى صاحبة النزل التي كنت اقيم عندها من قبل ، فقضيت معها خمسة أسابيع أو ستة،عادت خلالها الصحة والشباب والكسل إلى إشاعة الاضطراب في طباعي ، فاصبحت قلقا ، شارد الفكر، حالما .. صرت أبكي ، وأتنهد ، وأتوق إلى سعادة لم تكن لدي عنها أية فكرة، ولكني – مع ذلك– كنت أشعر بأنني راغب فيها! ولاسبيل إلى وصف هذه الحال ، بل إن الذين يستطيعون تصورها قليلون بين الناس ، يصبو معظمهم إلى حياة تجمع بين العذاب والعذوبة ، وتخلق الشعور باللذة في عنفوان الشوق .،وكان دمي الفائر يملأ مخي دائما بالنساء والفتيات ، ولما كنت جاهلا بالعلاقات الجنسية، فقد رحت أستغل تلك الرؤى وفقا لأفكاري المتخبطة، دون أن أدري طريقة أخرى للإفادة منها! .. وقد استبقت هذه الأفكار مشاعري في حالة نشاط ممض، دون أن ترشدني– لحسن الحظ– إلى طريق الخلاص من هذه الحال.. ولقد كنت إذ ذاك على استعداد لأن أجود بكل حياتي مقابل العثور على "آنسة **"دي جوتون"** أخرى ، ولو لربع ساعة! ولكن الوقت الذي كان لهو الطفولة يتخذ فيه هذا الاتجاه – باعتباره الاتجاه الطبيعي– كان قد ولى! .. كان الشعور بالعار– وهو رفيق الضمير السيئ – قد شرع يزداد ظهورا كلما تقدمت بي السنون، مما ضاعف من خجلي الفطري إلى الدرجة التي لم أعد عندها أقوى على مغالبة هذا الخجل.. فما عدت أقوى إذ ذاك– ولا فيما بعد– على أن أحمل نفسي على محاولة غير بريئة ، اللهم إلا إذا كانت تلك التي أحاولها معها ، هي التي تضطرني – بطريقة ما – إلى الإقدام . مهما اعرف أنها متهتكة ، ومهما أشعر عن شبه يقين بانها ستتلقى محاولتي بالقبول!

ولقد اشتد اضطرابي حتى إنني – لعجزي عن إشباع رغباتي – أخذت أستثير هذه الرغبات بأكثر التصرفات شذوذا.. فكنت أهيم في الأزقة المظلمة والدروب المستخفية ، حيث يحتمل أن يتاح لي أن أعرض نفسي على النسوة بالشكل الذي كنت أرجو أن أكون عليه معهن! .. على أن ما كن يرينه مني لم يكن منكرا مستقبحا ، فما خطر ببالي قط مثل هذا ، وإنما كان ما يرينه سخفا ونزقا .، ولا سبيل إلي وصف السرور الأرعن الذي كنت استشعره من جراء عرضه عليهن ! .. ولم يكن باقيا أمامي سوى خطوة ضرورية أخرى ، ثم أكتسب خبرة واقعية بالمعاملة التي كنت أشتهيها . ولو أنني أوتيت جلدا على الانتظار لما كان ثمة شك في أن يمر بي شخص لديه من الجرأة ما يكفي لأن ينيلني المتعة المنشودة! .. ولقد أفضت بي حماقتي إلى ورطة كانت خليقة بان تكون مضحكة لولا أنها لم تكن مما يلائمني!

ففي ذات يوم، اتخذت مكاني في مؤخرة ساحة قصر ، كانت بها بئر اعتادت بنات الدار أن ينقلن منها الماء، وكان في تلك البقعة منحدر بسيط يقود إلي مخزن "كرار" خلال مداخل عدة ، ففحصت – في الظلام– هذه الدروب الممتدة تحت مستوى الأرض ، حتى إذا وجدتها طويلة ومعتمة، استنتجت عدم وجود منفذ منها إلى الخارج، وان بوسعي أن أجد فيها مخبأ أمينا إذا أنا شوهدت

وطوردت . وإذ اطمأننت ، أخذت أعرض على الفتيات – اللاتي كن يفدن إلى بئر – منظرا أدعى إلى الضحك منه إلى الإغواء فكان أكثرهن احتشاما يتظاهرن بأنهن لم يرين شيئا ، بينما شرعت بعض الفتيات في الضحك، واستاءت أخريات فأحدثن جلبة .. وهرعت إلى مخبئي ، وإذا بي أشعر بمن يتبعني ، سمعت صوت رجل – وهو أمر لم أكن أتوقعه وقد أفزعني – فاندفعت في المسارب الممتدة تحت الأرض ، معرضا نفسي لأن أضل السبيل ، ولكن الضجيج ، والأصوات ، وصوت الرجل بالذات ظلت تتبعني .. وكنت أعول باستمرار على الظلمة، وإذا بي أرى ضوءا، فارتجفت، وأمعنت في الإيغال في الظلام ، وإذا بجدار يستوقفني ، حتى إذا عجزت عن التقدم اضطررت إلى أن أقبع في انتظار مصيري . وإن هي إلا لحظة حتى أمسك بي رجل طويل ذو شاربين كثين وقبعة كبيرة وسيف طويل ، تحف به أربع أو خمس نسوة عجوزات تسلحت كل منهن بيد مكنسة ، وبينهم جميعا لمحت الشقية الصغيرة التي كشفت أمري ، والتي كانت تبغي – دون ريب – أن تتشفى في وجها لوجه!

وسألني الرجل ذو السيف بخشونة، وهو ممسك بذراعي ، عما كنت أفعل في ذلك المكان . ومن اليسير تصور أنني لم أجد جوابا حاضرا على أنني ما لبثت أن تمالكت جاشي ، وفي غمرة اليأس الذي ألم بي في تلك اللحظة الحرجة، انتحلت عذرا خياليا لقي نجاحا ، فقد توسلت إلى الرجل في لهجة ضارعةأن يرحم سني وحالي، وقلت إنني كنت شابا غريبا ، من أصل طيب ، وقد أصبت بلوثة، واضطررت إلى الفرار من أهلي لأنهم أرادوا أن يحبسوني ، وأنني ضائع لا محالة إذا هو وشى بي .. أما إذا تركني انصرف فقد أستطيع يوما أن أجزيه لقاء كرمه . وعلى النقيض من كل ما توقعت أحدثت كلماتي ولهجتي أثرها ، فإذا بقلب الرجل الرهيب يلين ، وبعد أن وجه إلي توبيخا قصيرا تركني أنصرف في سلام ، دون أن يمضي في سؤالي ! وأدركت من مسلك الفتاة والعجوزات – حين رأينني أنصرف – أن الرجل الذي خفت منه كل ذلك الخوف ، كان عظيم النفع لي، وأنني ما كنت لأفلت بهذه السهولة لو تركت للنسوة وحدهن ! فقد سمعتهن يتمتمن بحديث لم أكد ألقي إليه بالا ، فقد كنت أشعر – ما دام الرجل وسيفه لم يتدخلا في الأمر – باعتداد، ونشاط ، وقوة تمكنني من الإفلات منهن ومن هراواتهن!

وبعد أيام قلائل ، بينما كنت أسير في إحدى الطرقات ، مع رئيس أحد الأديرة المجاورة كدت اصطدم بالرجل ذي السيف !.. وعرفني الرجل ، فقال يقلدني بلهجة ساخرة: " إنني أمير ، إنني أمير، وإني لجبان.. ولكن ، حذار من أن يعود صاحب السمو مرة أخرى ! " ولم يزد على ذلك، بينما نكست أنا رأسي في طريقي دون أن أجسر على التطلع إليه، وأنا أحمد له– في قرارة قلبي– حكمته وتسامحه ، وحدست أن العجوزات اللعينات قد عيرنه بسذاجته إذ صدق روايتي ! وكيفما كان الأمر فإنه كان رجلا طيبا، برغم أنه من "بييمونت" ، وما تذكرته قط إلا وشكرت له صنيعه؛ لأن قصتي كانت ساذجة ، وكان أي امرئ في مكانه خليقا بأن يعيرني بها، ولو رغبة في إثارة الضحك. ومع أن هذه المغامرة لم تنته إلى العواقب التي كنت أخشاها ، إلا أنها جعلتني ألزم الحذر وقتا طويلا!

وكانت إقامتي لدى مدام "**دي فيرسيللي**" قد أكسبتني بعض المعارف الذين وثقت صلاتي بهم أملا في أن يستطيعوا لي نفعا.

وكان بين الذين أخذت أزورهم منهم راهب من أبناء "**سافوا**" يدعى السيد "**جايم**" كان معلما لأبناء الكونت "**دي ميللاريد**" وكان لايزال شابا، وقد اعتاد أن يختلط قليلا بالمجتمع لكنه كان مفعما بالإدراك السليم ، والأمانة ، والذكاء، كما كان من أشرف الرجال الذين عرفتهم. لم يكن ذا نفع لي

في الغرض الذي حملني على زيارته ، إذ لم يكن لديه أي اهتمام يدفعه إلى أن يبحث لي عن منصب، بيد أنني اكتسبت منه منافع أكثر قيمة من ذلك، إذ ظل نفعها يلازمني طيلة حياتي .. اكتسبت منه دروسا في الأخلاق القويمة ومبادئ الإدراك السليم ، فلقد كنت – في ميولي وأفكاري المتقلبة –أسرف في الارتفاع أو أسف في الانحدار.. فأنا إما "**أخيل**" أو "**ثيرسايتز**" (١).. كنت بطلا في بعض الأحيان ، وتافها – إمعة – في أحيان أخرى، وقد آلى السيد "**جايم**" على نفسه أن يردني إلى مكاني اللائق بي، وأن يطلعني على نفسي في ألوانها الحقيقية، دون ما إسراف أو تثبيط. كان يحدثني عن مواهبي فيوليها ما كانت جديرة به من تقدير ولكنه كان يضيف إلى ذلك أنه كان يرى عقبات تنبعث منها تحول بيني وبين الإفادة منها على خير وجوه الإفادة ؛ ومن ثم فإنها خليقة بأن تكون أقل نفعا لي، كسلم أرقى عليها إلى الثروة والحظ ، منها كأداة تغنيني عن هذا الحظ وهذه الثروة! .. وبسط الراهب أمامي صورة صادقة للحياة الإنسانية ، التي لم تكن لدي عنها سوى أفكار زائفة، فأراني كيف يستطيع الرجل العاقل أن يكافح من أجل السعادة– وسط تيارات القدر المعاكسة– وأن يدفع زورق حياته برغم الرياح المضادة، لكي يصل إليها ، وبين لي كيف أنه لاوجود للسعادة الحقة بدون الفطنة والدراية ، وأن هذه الفطنة أو الدراية تتعلق بكل ظروف الحياة. وبدد محدثي إعجابي بالعظمة والأبهة الظاهرتين، إذ أثبت لي أن أولئك الذين يتبوءون الحكم بين الناس ليسوا أسعد ولا أوفر حكمة وعقلا من المحكومين .. كذلك أنبأني ،بشيء كثيرا ما تذكرته منذ ذلك الحين: لو أتيح لكل امرئ أن يطلع على قلوب غيره من البشر جميعا لاتضح أن عدد الراغبين في الهبوط يفوق عدد الراغبين في الصعود في هذه الحياة! وهذا الخاطر– الذي يذهل صدقه العقل ، والذي لاينطوي على مغالاة – ظل ذا نفع كبير لي خلال مجرد حياتي ، إذ ساعدني على أن أعيش راضيا بمكاني في الحياة!.. لقد أطلعني هذا الراهب على أولى الأفكار الصحيحة عما هو مشرف ، مما لم يتح لذكائي المتضخم أن يلم به إلا في أكثر صوره مغالاة ومبالغة. فجعلني أشعر بأن حب الفضائل السامية نادرا ما يرى في المجتمع .. وأن المرء إذ يحاول أن يسرف في العلو، يغدو معرضا لخطر السقوط .. وأن تعود أداء الاجبات الضئيلة باستمرار ، وعلى خير جه ، لا يتطلب مجهودا أقل من ذاك الذي تتطلبه أعمال البطولة ، ولكن المرء يكسب من الأولى تبجيلا وهناء يفوقان ما يكسبه من الأخيرة.. وأن استمتاع المرء بتقدير أبناء جلدته في جميع الأوقات ، يفوق على طول الخط استمتاعه بإعجابهم في مناسبات عابرة!

وفي سبيل تحديد واجبات الإنسان ، كان لابد من العودة إلى أصول تلك الواجبات .. كما أن الخطوة التي اتخذتها قبل ذلك مباشرة ، والتي كانت حالي الراهنة من نتائجها أفضت بنا إلى الحديث في الدين : ومن الممكن أن يتصور القارئ عند هذا الحد أن السيد "**جايم**" الفاضل ، هو – إلى حد كبير على الأقل – الأصل الذي قبست عنه شخصية "**أسقف سافوا**" (٢) ولم يكن يقتصد في صراحته وانطلاقه في الحديث إلا في نقاط معينة كانت الحكمة تلزمه فيها بأن يكون أكثر تحفظا في كلامه وما عدا ذلك كانت عظاته وأحاسيسه وآراؤه هي هي لاتتبدل ، وكان كل شيء – حتى نصحه لي بالعودة إلى أهلي – يتسم بما صورته به للرأي العام منذ ذلك الحين.

---

(١) "أخيل" بطل إغريقي ، هو الشخصية الرئيسية في إلياذة" هوميروس". كان من أشجع وأجمل أبطال الإغريق ، وقد اشترك في إلياذة "طروادة"، أما "ثيرسايتز" فكان أقبح أبطال هذه الحرب وأكثرهم شراسة وجدالا ، وقد قتله "أخيل".

والذي يقصده "روسو" من عبارته هنا أنه كان لايعرف اعتدالا في تلك الفترة من حياته، فهو إما مسرف في الشجاعة ونبل النفس ، وإما مسرف في بشاعة الروح وشراسة الخلق والرغبة في الجدال عن حق أو عن باطل! (٢) أسقف "سافوا" هو إحدى شخصيات كتاب "روسو" المعروف: "إميل".

لذلك ، فلا حاجة إلى التوسع في سرد محادثاتنا ، إذ إن مادتها في متناول كل امرئ وإنما أكتفي بأن أقول: إن دروسه- التي لم يؤت ما فيها من حكمة ثماره في البداية- أصبحت من بذور الفضيلة والدين التي لم تذو قط في فؤادي ، والتي لم تحتج إلى أكثر من رعاية يد أخرى عزيزة حبيبة، كي تثمر وتزدهر!

ومع أن تحولي إلى العقيدة الكاثوليكية لم يكن- في ذلك الحين- تحولا كاملا، إلا أن هذا لم يحرجني في شيء . وبدلا من أن أشعر بالملل من أحاديث السيد **"جايم"** وجدتني أشغف بها لوضوحها وبساطتها؛ ولذلك القدر من حرارة القلب التي كنت أحس أنها تزخر بها . . ولقد أوتيت طبعا ودودا ، وكان تعلقي بالناس دائما بسبب الخير الذي أدوه لي ، أقل من تعلقي بهم من جراء الخير الذي كانوا يرجونه لي ، ونادرا ما أخطأ شعوري تقدير هذا الأخير . وكذلك كنت صادق الميل للسيد **"جايم"** . فكنت في الواقع تلميذه الثاني ، وكان لهذا الأمر- في تلك الفترة- فائدة لاتقدر إذ حال بيني وبين الميل إلى الرذيلة التي كان تعطلي عن العمل يجتذبني إليها!

وفي ذات يوم، تلقيت استدعاء من الكونت **"ديلا روك"** ، وكان هذا آخر ما أتوقعه ، فإن الزيارات العديدة التي قمت بها دون أن أتمكن من الحديث إليه أياستني منه ، فكففت عن الذهاب إلى داره ، وظننت أنه نسيني ، أو أنه احتفظ بفكرة سيئة عني ولكني كنت مخطئا ، فإنه كان قد شهد- أكثر من مرة -السرور الذي كنت أؤدي به واجباتي لعمته . . بل إنه ذهب إلى حد أن حدثها عن هذا السرور، كما أنه تكلم معي بشأنه في وقت كنت قد نسيته فيه! . . . ولقد تلقاني في رفق وأنبأني بأنه رأى أن يدبر لي بالفعل منصبا – بدلا من أن يمنيني بوعود لاتقترن بتنفيذ- وأنه قد وفق في مسعاه ، وسيعينني في منصب يمكنني من أن أغدو إنسانا ذا قيمة ، وأن ما بقي بعد ذلك رهن باجتهادي . فإن الأسرة التي سعى لي عندها كانت ذات نفوذ ومكانة ، ولن أحتاج إلى وساطة أخرى لديها ثم أضاف أنني- وإن كنت سأعامل في البداية كخادم ، كما كان شأني من قبل – إلا أنني خليق بأن أطمئن إلى أنهم على أتم استعداد لأن يستبقوني في هذا المركز إذا ما استطاع خلقي وسلوكي أن يحملاهم على أن يروا أنني أصلح لعمل أفضل ، وخيبت خاتمة الحديث بقسوة ما أوحت إلي به بدايته من آمال مشرقة ، فقلت لنفسي: "ماذا؟ . . أظل خادما دائما؟!" وخامرني إحساس بسخط مرير، لم تلبث الثقة أن محته ، فقد شعرت بأنني أقل صلاحية لمثل هذا المركز من أن أخشى أن أظل فيه(١)

واصطحبني محدثي إلى الكونت **"دي جوفون"** رئيس ركائب الملكة ، وكبير بيت" **سولار**" الباذخ، فإذا الروح الشماء التي اتصف بها هذا الرجل الوقور تضاعف من أثر حفاوته ، وسألني في اهتمام ، فأجبته في إخلاص صادق ، وقال للكونت **"ديلا روك"** : إن لي ملامح تروق للعين، وتبشر بالذكاء ، وإنه – في الواقع لايرى أنني تنقصني هذه الموهبة، ولكنها ليست كل شيء ، ومن ثم فقد كان من اللازم أن يرى ما كنت عليه في كافة النواحي الأخرى . ثم التفت نحوي وقال :"إن البداية شاقة في كل الأمور تقريبا يا صغيري ، على أن مشقتها لن تذهب – في حالتك – إلى مدى بعيد . كن أريبا ، واسع إلى إرضاء كل واحد هنا وهذا كل ما عليك أن تفعله في الوقت الحاضر . وما عدا هذا، كن مقداما تجد رعاية !" . . وذهب بعد ذلك مباشرة إلى المركيزة" **دي بريي**" – زوجة ابنه – فقدمني إليها ، ثم قدمني إلى الأب **"دي جوفون"** ، ابنه . . ولاحت لي هذه البداية مؤذنة بالخير ، فقد كنت من التجربة بحيث أدرك أن الخدم لايلقون كل هذه الحفاوة . والواقع أنني لم أعامل كواحد

(١) يقصد أن قلة صلاحيته لمنصب الخادم كانت كفيلة بألا يتقن مهامه إتقانا يرضي مخدوميه ، وهذا يؤدي إلى إحدى نتيجتين: إما أن يسرحوه، وإما أن يقدروا أن مواهبه تؤهله لمنصب أرقى.

من الخدم ، بل كنت أتناول وجباتي على مائدة وكيل أعمال الكونت ، ولم أكن أرتدي الزي المخصص للخدم. وعندما أرادني الكونت "**دي فافريا**" – وهو شاب أحمق خاوي الرأس– على أن أركب في مؤخرة عربته حرم جده ركوبي خلف عربة أي فرد، أو قيامي بخدمة أحد خارج الدار! على أنني كنت – في الدار– أتكفل بالخدمة على المائدة، وأمارس كافة واجبات الخدم تقريبا، بيد أنني كنت أقوم بذلك متطوعا إلى حد كبير ، دون أن أكون ملحقا بخدمة فرد معين ، وما عدا كتابة بعض الخطابات التي كانت تملى علي ، وتسجيل بعض الحسابات للكونت "دي فافريا" فإنني كنت حر التصرف في وقتي طيلة اليوم تقريبا . وكان هذا"الامتحان" الذي لم أفطن إليه ، عظيم الخطورة في الحقيقة ، بل إنه كان بعيدا عن الرحمة لأن هذا الفراغ الطويل كان خليقا بأن يقودني إلى رذائل ما كان لي أن أقارفها ، على أن هذا لم يحدث ، لحسن حظي ، إذ إن دروس السيد "**جايم**" كانت قد خلفت أثرا مطبوعا على قلبي ، وقد تولاني ميل إليها كان يدفعني – في بعض الأوقات – إلي أن أتسلل فأذهب للإصغاء إليها ثانية. وأعتقد أن أولئك الذين كانوا يرونني أبارح الدار سرا ، لم تكن لتخطر ببالهم أقل فكرة عن المكان الذي كنت أذهب إليه، وما كان ثمة ما هو أحكم من النصيحة التي أزجاها الراهب إلي بصدد مسلكي : فلقد بدأت عملي بداية تدعو إلى الإعجاب ، أبديت من الاجتهاد ، واليقظة والتحمس ، ما سحر كل امرئ فنصحني الراهب – عن فطنة – بأن أخفف من اندفاع الشباب، خشية أن يخف من تلقاء نفسه تدريجا ، مما قد يسترعي الانتباه ، وقال :" إن القاعدة بأن يقاس تصرفك بالقدر الذي بدأت به، فحاول أن تدبر أمرك بحيث يزداد جهدك بمضي الزمن ، ولكن حذار من أن يقل مجهودك يوما عنه في اليوم الذي سبقه!"

وإذ لم يتجشم أحد عناء اكتشاف مواهبي المسكينة ، ولما لم أكن قد اعتبرت ذا مواهب سوى تلك التي أضفتها علي الطبيعة؛ لذلك لم يبد لي أن أحدا قد فكر في أن يفيد مني.

برغم ما كان السيد "جوفون" قد أنبأني به وما لبثت أن جدت أمور جعلتني منسيا تقريبا.. في ذلك الحين كان "المركيز"**دي بريي**" ، ابن الكونت "**دي جوفون**" سفيرا في "**فيينا**" وقد وقعت أحداث في البلاط تركت آثارا محسوسة في الأسرة ، فإذا بكل فرد يظل في حالة انفعال لبضعة أسابيع، مما لم يدع لأحد وقتا في شأني. على أنني لم أكن قد خففت من حميتي في العمل– حتى ذلك الحين– إلا قليلا. وكان ثمة أمر أفادني وأضر بي في آن واحد: أفادني في أنه حفظني من المغريات الخارجية.. وأضر بي في أنه جعلني أقل انتباها إلى واجباتي بعض الشيء!

كانت الآنسة "**دي بريي**" شابة في مثل سني، بديعة التكوين، مليحة المنظر إلى حد كبير، نضرة المحيا ، ذات شعر حالك السواد .. ومع أنها كانت سمراء إلا أنها أوتيت مظهرا رقيقا تمتاز به الشقراوات عادة، ولم يكن قلبي يقوى على مقاومته إطلاقا! وكان الزي الذي ترتديه كعضو في البلاط الملكي يلائم الشباب تماما ، ويبدي قوامها الجميل في أبهى مظاهره ، ويترك صدرها وكتفيها عارية ، ويجعل بشرتها أكثر فتنة ، نظرا للحداد الذي كانت تتسم به ثياب الحاشية في ذلك الوقت . وقد يقال إنه ليس من شأن الخادم أن يلاحظ هذه الأشياء ، وقد كنت مخطئا بلا ريب ، ولكني لاحظتها جميعا مع ذلك ، ولم أكن الوحيد الذي لاحظها ، فقد كان كبير الخدم، والوصفاء ، يتحدثون عنها على المائدة أحيانا ، في لهجة خشنة كانت تؤذي شعوري بدرجة قاسية . ومع ذلك فإن عقلي لم يفقد اتزانه فيوقعني في الحب بكل سهولة ، بل إنني لم أنس نفسي، ولم أنس مكاني ومركزي ، كما أن رغباتي لم تكن تلقى من الحرية أكثر مما ينبغي !.. وإنما كنت أحب أن أرى الآنسة

"**دي بـريي**"، وأن أسمعها تنطق ببضع كلمات تكشف عن ذكائها وحسن إدراكها وتـواضعها . ولقد اقتصر طموحي على متعة القيام بخدمتها ، فلم أتجاوز حدودي . وكنت أنتهز الفرص دائما – عندما تجتمع الأسرة حول المائدة– لتعزيز هذه الحدود ، فإذا بارح خادمها الخاص مكانه خلف مقعدها لحظة، بادرت لفوري إلى شغل مكانه ، وما عدا ذلك كنت أتخذ موقفي في مواجهتها ، وأحدق في عينيها لأرى ما توشك أن تطلبه ، وارقب اللحظة المناسبة لإبدال طبقها .. واي شيء كنت أحجم عن إتيانه لو أنها تنازلت فالقت علي أمرا، أو نظرت إلي ، أو وجهت إلي كلمة واحدة<؟! .. لكن ، لا ! كان مقضيا علي بألا أكون شيئا يذكر لديها ! بل إنها لم تكن تلاحظ وجودي ! ومع ذلك فقد حدث في إحدى المناسبات ان وجه اخوها – الذي اعتاد ان يكلمني احيانا وهو جالس إلى المائدة – عبارة غير مهذبة إلي، فرددت عليه بكلمات منتقاة ، دقيقة التعبير، إلى درجة جعلت الآنسة تنتبه فتحول بصرها نحوي . ومع أن هذه النظرة كانت خاطفة إلا أنها سحرتني! .. وفي اليوم التالي، سنحت فرصة للفوز بنظرة ثانية، فسارعت إلى استغلالها : فلقد أقيمت وليمة عشاء كبرى لمناسبة معينة ، فرأيت أثناءها – لأول مرة – أن رئيس الخدم كان يرتدي قبعته على رأسه ، وسيفه إلى جانبه ، مما أدهشني ! وتحول الحديث مصادفة إلى العبارة التي كان بيت "سولار" يتخذها شعارا، والتي كانت منقوشة على الرسم الذي تالف منه رمز الأسرة هي عبارة:

Tel fiert qui ne tue pas

ولما كان "أهل "بييمونت" غير متفقهين في اللغة الفرنسية ، فقد أشار واحد من الحضور إلى جود غلطة هجائية في الشعار، وأعلن انه يجب الا يكون ثمة(T) في كلمة fiert. وهم كـونت "**دي جوفون**" الشيخ بأن يجيب لولا أن لاحت منه نظرة نحوي ، فرآني ابتسم دون أن أجسر على أن أقول شيئا، فأمرني بأن أتكلم ، ومن ثم قلت: إنني لا أعتقد أن حرف (T) لم يكن ضروريا ،إذ إن الكلمة من الفرنسية القديمة ، وليست مشتقة من ferus،" ومعناها متكبر أو متوعد"، وإنما كانت مشتقة من "ferit، "ومعناها يضرب أو يجرح . ومن ثم فإن معنى الشعار – كما بدا لي – لم يكن: كم من رجال تواعدوا ، وإنما .. كم من رجال ضربوا ولم يقتلوا!!

والتفت أفراد الجماعة بأسرهم نحوي ، ثم التفتوا إلى أنفسهم ، دون أن ينبسوا ببنت شفة، أبدا ما رأيت في حياتي مثل هذه الدهشة! ولكن أكثر ما أستخف زهوي، هو أنني رأيت من أسارير الآنسة "**دي بريي**" أنها كانت جد مسرورة. وتنازلت هذه السيدة الشابة المترفعة فرمتني بنظرة ثانية كانت مساوية– على الأقل– للأولى ، ثم أدارت عينيها نحو جدها ، وبدا أنها كانت تنتظر ، في شيء من عدم الصبر–المجاملة التي كنت أستحقها، والتي قدمها الجد إلي – في الحق – كاملة وافية ، وفي مظهر من الرضا جعل الحضور يسارعون جميعا إلى الانضمام إليه. وكانت اللحظة وجيزة، ولكنها كانت من أعذب اللحظات من جميع الاعتبارات . كانت من تلك اللحظات التي لاتسنح إلا نادرا جدا ، والتي تضع الأمور في نصابها الطبيعي وتعوض إهانات القدر، وتثأر للكفاءة التي لم تكن تلقى تقديرا . وبعد دقائق معدودة ، سألتني الآنسة"**دي بريي**" في صوت واهن مستحٍ – وهي ترفع عينيها نحوي مرة أخرى– أن أناولها بعض الشراب .

ولست بحاجة إلى أن أقول إنني لم أدعها تنتظر ، ولكني ارتجفت بعنف وأنا أقترب منها ، حتى إنني أرقت بعض الماء على طبقها ، بل وعليها ، وسألني شقيقها– في غباء – عن السر في ارتجافي. ولم يفلح هذا السؤال في أن يرد إلي جلدي،بينما تضرج وجه الآنسة "**دي بريي**" حتى طغى الاحمرار

على بياض عينيها !

وعند هذا انتهت هذه المغامرة الغرامية التي يلاحظ منها – كما كان الأمر في حالة مدام **"بازيل"** خلال بقية حياتي – أني لم أكن سعيدا في ختام غرامياتي!.. وعبثا صرت أبدي اهتماما بالحجرة الملحقة بمخدع مدام **"دي بريي"** – الأم فإنني لم أحظ بأية بادرة أخرى تنم عن انتباه ابنتها إلي! فقد كانت تلج الحجرة وتغادرها دون أن تنظر إلي.. كما أنني – من ناحيتي – كنت لاأكاد أجسر على أن أتجه بعيني نحوها.

بل لقد بلغ من غبائي وارتباكي أنني عندما وقع منها قفازها وهي تمر بي ذات يوم لم أجسر على مبارحة مكاني، بدلا من أن أندفع لالتقاط هذا القفاز الذي كنت أتمنى أن أكسوه بقبلاتي، وتركت وصيفا فضوليا– كنت على استعداد لأن أخنقه بكل سرور – يلتقطه!.. ومما ضاعف انفعالي أن تبينت أنني لم أحظ برضاء مدام **"دي بريي"**، فلم تقتصر على عدم إصدار أوامر إلي، بل إنها لم تعد تتقبل خدماتي البتة، وسألتني بلهجة فاترة إذ وجدتني في الحجرة الملحقة بمخدعها – في مناسبتين– عما إذا كنت لا أجد عملا آخر يشغلني؟ ومن ثم اضطررت إلى تجنب هذه الحجرة، وقد تحسرت على ذلك في البداية، ولكن الشواغل تدخلت فسرعان ما كففت عن التفكير فيها!

وسرى عني برود مدام **"دي بريي"** كرم حميها، الذي انتبه أخيرا إلى وجودي : ففي ليلة المأدبة التي ذكرتها تبادل معي حديثا عقب العشاء لنصف ساعة. بدا أن الحديث أرضاه، فطربت لذلك. كان هذا الشيخ الطيب أرق قلبا من مدام **"دي فيرسيللي"**– إن لم يكن موهوبا مثلها– وقد كنت معه أحسن حالا مما كنت معها، وقد طلب إلي أن أكون خادما خاصا للأب **"دي جوفون"**– الذي كان يوليني بعض الاعتبار– عسى أن يفيدني ذلك إذا أنا أحسنت استغلاله، فيساعدني على اكتساب ما كان ينقصني حتى يهيئني لما كانوا يعتزمونه لي. ومن ثم أسرعت – في الصباح التالي – إلى الراهب، فلم يستقبلني كخادم، وإنما حملني على الجلوس إلى جانب المدفأة، وأخذ يسائلني بأعظم لطف، فسرعان ما تبين أن تعلمي – الذي كنت قد بدأته في كثير من الأمور – لم يكن مكتملا في أي شيء. وحين وجد أنني كنت – بوجه خاص– على إلمام قليل باللغة اللاتينية، تكفل بتلقيني مزيدا منها.، واتفقنا على أن أذهب إليه في كل صباح، فبدأت من الصباح التالي مباشرة وهكذا كنت – بإحدى تلك المصادفات الغريبة التي ستظهر كثيرا في مجرى حياتي فوق مكانتي وتحتها في آن واحد! كنت تلميذا ووصيفا في بيت واحد! وبينما ظللت خادما حظيت بمدرس كان نبل محتده خليقا بأن يجعله أستاذا لأبناء الملوك، ولا أقل منهم! كان الأب **"دي جوفون"** ابنا أصغر في أسرته، أعده أهله ليكون أسقفا، ولهذا السبب فإن دراساته لم تذهب إلى أبعد من القدر المعتاد لدى أبناء علية القوم. فقد أوفد إلى جامعة **"سيينا"**، حيث مكث عدة سنوات، عاد بعدها بجرعة قوية من العناية الدقيقة بانتقاء الألفاظ ومن ثم فإنه كان يؤدي في **"تورين"** نفس الدور الذي كان يؤديه الأب **"دي دانجو"** (١) في **"باريس"**. وقد دفعه كرهه لعلوم اللاهوت إلى دراسة الآداب وهو أمر جد مألوف في **"إيطاليا"** لدى أولئك الذين يتعلمون ليشغلوا مناصب دينية. وقد قرأ إنتاج الشعراء في اهتمام ووعي، وكتب أشعارا **"لاتينية"** و **"إيطالية"** مقبولة. وبإيجاز كان لديه ذوق كاف لأن يشكل ذوقي، ويدخل شيئا من التنظيم على الركام المهوش الذي كان رأسي محشوا به. على أنه –إما لأن ثرثرتي أعطته فكرة زائفة عن درايتي، أو لأنه لم يكن يطيق مبادئ اللاتينية المضجرة– قد جعلني أبدأ بداية تفوق المستوى الذي كنت فيه بكثير وما إن جعلني أترجم بضع أساطير عن **"فيدروس"** حتى زج بي

---

(١) الأب "دي دانجو" كان من أعضاء المجمع اللغوي الفرنسي – الأكاديمي فرانسيز – في منتصف القرن السابق على تلك الفترة، وقد ألف رسائل في قواعد اللغة الفرنسية.

في أشعار "**فيرجيل**"التي لم أكد افقه منها شيئا ! ولقد كان مقدورا علي دائما –كما سيتجلى فيما بعد– أن أشرع في تعلم اللاتينية من جديد ، أكثر من مرة ، دون أن أسير في الشوط إلى غايته . على أنني ، في هذه المرة ، اجتهدت في حمية ، فأخذ الراهب يسبغ اهتمامه علي في عطف لا أستطيع– حتى اليوم– أن أذكره دون أن يخفق قلبي تأثرا! . . صرت أقضي شطرا كبيرا من فترة الصباح معه لأتلقى العلم ولأؤدي للسيد الخدمات،ولم تكن هذه الخدمات شخصية ، فما سمح لي البتة بأن أؤدي هذا النوع ، وإنما كنت أكتب ما يمليه علي وانسخ ما يعهد به إلي ، فكانت واجباتي كسكرتير أكثرنفعا لي من دراساتي كتلميذ! . . فإنني – بهذه الطريقة– لم أتعلم الإيطاليةفي أرقى أساليب بلاغتها فحسب وإنما اقتبست ذوقا أدبيا، واكتسبت بعض المعرفة بالكتب الجيدة التي كان من المستحيل الحصول عليها من مكتبة"**لاتريبو**" والتي كانت عظيمة النفع لي فيما بعد عندما شرعت في الاعتماد على نفسي في التأليف!

تلك كانت الفترة الوحيدة في حياتي التي كان من المعقول أن أطمع فيها في النجاح ، دون ما مشروعات خيالية! . . أخذ الراهب – الذي كان جد راض عني – يحدث كل شخص عن ذكائي . وأولاني أبوه تقديرا خاصا، حتى لقد ذكر لي الكونت "**دي فافريا**" أنه تحدث عني إلى الملك! . . حتى مدام "**دي بريي**" تخلت عن مسلكها المهين نحوي ، وبإيجاز، أصبحت ذا حظوة في الدار ، مما أثار غيرة الخدم الآخرين،الذين أدركوا– إذ رأوني أتشرف بتلقي الدروس على يدي ابن مولاهم – أنه لم يعد مقدرا لي أن أبقى واحدا منهم!

وبقدر ما أمكنني أن أحدس عن وجهات النظر التي كانت تعالج أمري– من بضع كلمات كانت تلقى إلي في عجلة ، ولم افكر فيها مليا إلا فيما بعد– يبدو لي أن آل "سولار" كانوا تواقين إلى مناصب السفارات ، وربما إلى المناصب الوزاريةفي المستقبل؛ ومن ثم فقد كانوا على استعداد لأن يتولوا – بكل سرور– تعليم شخص موهوب ، جدير بالثقة ، يصبح فيما بعد – لاعتماده المطلق على أسرتهم في معاشه – مستودع ثقتها ، ويستطيع أن يخدمها بإخلاص ،. وكان هذا المشروع من الكونت "**دي جوفون**" مشروعا نبيلا حكيما كريما، جديرا حقا بأن يصدر عن رجل نبيل عظيم كريم بعيد النظر . وغني عن الذكر أنني – إذ ذاك – لم أستطع أن أحيط بكل نطاقه ، فقد كان فوق مستوى إدراكي ، كما أنه كان يتطلب فترة طويلة من التبعية والانصياع . وكان طموحي الأرعن لايرى الحظ الحسن إلا في وسط المغامرات ! ولما لم يكن لأية امرأة شأن بهذا المشروع ، فقد بدت لي هذه الوسيلة من وسائل النجاح بطيئة ومضنيةً، وكئيبة. . في حين أنه كان خليقا بي أن أعتبرها آمن وأشرف من أية وسيلة أخرى ، لنفس السبب الذي ذكرته ، عن عدم تدخل النساء فيها، فإن ذلك النوع من الجدارة الذي تقبل النساء على بسط حمايتهن عليه ، لايتسم بالطابع الشريف الرفيع الذي يتسم به النوع الذي كان مفترضا أنني أمتلكه!

ومضى كل شيء على أبدع حال، فاكتسبت احترام الجميع أو بالأحرى انتزعته تقريبا! وانقضت فترة الاختبار، وأصبحت مرموقا في الدار– بوجه عام – كشاب يبشر مستقبله بخير عظيم . ولئن كان قد قدر له ألا يشغل المركز الجدير به فإن كل امرئ كان يتوقع أن يرقى إلى هذا المركز. بيد أن مكاني لم يكن ذاك الذي قدره لي الجميع وقد كتب علي ألا أبلغه إلا عن طريق جد وعرة .. وهذا يفضي بي إلى خلة من تلك الخلال الشخصية التي امتزت بها، والتي لاأحتاج إلى أكثر من أن أبسطها للقارئ دون مزيد من الإسهاب.

ذلك أنه بالرغم من أن "**تورين**" كانت تضم كثيرين سواي ممن اعتنقوا الكثلكة حديثا إلا أنني لم أكن أميل إليهم ، ولم أسع قط إلى لقاء أحد منهم ، على أنني كنت قد عرفت - فيمن تعرفت إليهم- شخصا من أهل "**جنيف**" يدعى السيد "**موسار**" ، ويلقب بـ "**ذي الفم الأعوج**" وكان من رسامي التحف الدقيقة، وذا صلة بي. وقد تبين أنني كنت أقيم لدى الكونت "**دي جوفون**" ، فجاء ليراني مع شخص آخر من "**جنيف**" يدعى "**باكل**" ، كنت زميلا له حين كنت أتدرب على الحرفة.

وكان "**باكل**" هذا مسليا ، شديد المرح، راوية للفكاهات النوادر التي كانت تبدو مستملحة لمن في مثل سنه، ومن ثم فإن لكم أن تتصوروا كيف افتتنت فجاة بالسيد "**باكل**" إلى درجة لم أعد معها أقوى على أن أفارقه!.. وكان قد اعتزم الرحيل عائدا إلى "**جنيف**" بعد وقت قصير، فيا للخسارة التي خيل إلي أنني سأمنى بها!.. وإذ تبينت مداها رأيت أن أفيد إلى أقصى حد- على الأقل - من الوقت الباقي قبل رحيله، فلم أكن أفارق جواره إطلاقا ، أو بالأحرى أنه هو الذي لم يكن يفارقني ، لأنني- في البداية- لم أبلغ من الطيش الحد الذي كان يجعلني أقضي اليوم كله معه خارج القصر دون إذن. على أنهم سرعان ما تبينوا أنه كان يشغل كل وقتي ، فحرموا عليه ولوج الدار ، مما أثار حنقي فنسيت كل شيء عدا صديقي "**باكل**" ولم أعد أقترب من الراهب أو الكونت ولم أعد أشاهد في الدار ! بل إنني لم أكترث للوم والتأنيب، فأنذرت بالطرد .. وكان في ذلك دماري.، إذ أغراني بأن من الممكن الا يرحل "**باكل**" دون رفيق ! ومنذ تلك اللحظة لم أعد أرى مسرة ، ولا مصيرا ، ولا سعادة تفوق القيام بمثل تلك الرحلة! ومما ضاعف هناءتي المرتقبة ، أن مدام "**دي فاران**" لاحت لي في نهايتها ، ولكن .،. على بعد سحيق ، إذ لم يكن ليخطر ببالي قط أن أعود إلى "**جنيف**" بالذات!.. وأخذت رؤى الجبال والمروج والغابات والجداول والقرى تمر أمام ناظري في تتابع لا نهاية له ، قد تجددت مفاتنها!.. وبدا أن هذه الرحلة وقد ابتلعت كل حياتي ، فرحت أتذكر في ابتهاج كيف سحرتني هذه الرحلة وأنا قادم إلى "**تورين**" ، فما بالك إذا ما استمتعت - إلى جانب كل سحر الاستقلال - ببهجة جديدة تتمثل في صحبة صديق في مثل سني وميولي ، أوتي روحا طروبا.. لاسيما وأنه لن تكون ثمة قيود ، ولا واجبات ، ولا رقابة ، ولا اضطرار إلى الذهاب أو البقاء في أي مكان ، ما لم يرق لنا ذلك!.. وخيل إلي أن المرء يكون أحمق ولاريب إذا ما ضحى بمثل هذا الحظ الطيب من أجل خطط طموح، بطيئة، شاقة، غير مؤكدة التحقق !.. خطط لم تكن - حتى إذا سلمنا بأنها قد تتحقق يوما ما ، وبرغم كل اشراقها ووميضها - لتعادل ربع ساعة من السرور الحقيقي ومن حرية الشباب !

وإذ تملكتني هذه الفكرة الحكيمة أقبلت على التصرف بطريقة أفلحت في حمل القوم على فصلي من خدمتهم ، وإن كان هذا لم يتم في الواقع دون كثير من العناء ، وهكذا ، ذات مساء ، أسلمني رئيس الخدم عند عودتي إلى الدار أمرا من الكونت بفصلي ، وكان هذا هو عين ما رجوت ! .. غير أنني كنت- بالرغم من نفسي - أدرك جموح مسلكي ، وقد أضفت إليه جورا وعقوقا حين خيل إلي أنني بحمل القوم على طردي أستطيع أن ألقي اللوم على سواي ، وأن أنصف نفسي وأبرز مصيري ، وكأنني كنت مضطرا- بالرغم مني - إلى انتهاج المسلك الذي كنت في الواقع المسؤول الوحيد عنه!

وقبل أن أرحل في الصباح التالي أرسل الكونت "**دي فافريا**" يدعوني لمقابلته ، ولما كانوا يرون أنني فقدت كل تعقل ، وأنني قد لا ألبي الدعوة فقد ذكر لي رئيس الخدم أنه سيعطيني بعد تلك المقابلة مبلغا من المال خصص لي ، برغم أنني كنت لاأستحقه بالتأكيد ، وذلك لأنهم لم يكونوا قد

قرروا لي أجرا ، نظرا لأنهم لم يكونوا يعتزمون استبقائي في منصب الخادم!

ومع ما كان عليه الكونت "**دي فافريا**" من صغر السن وضآلة التفكير ، فإنه تحدث إلي في هذه المناسبة بما ينم عن وعي وعطف ، بل إنني لأكاد أقول إنه تحدث بحنان بالغ ، وإخلاص صادق ، وفي تلطف يهفو بالقلب ، فاطلعني على عطف عمه الراهب علي، وعلى نوايا جده بشأني ، وأخيرا .. وبعد أن عرض علي بأوضح ما كان في وسعه، كل الميزات التي كنت أضحي بها لأندفع نحو هلاكي ، عرض أن يتوسط لي في البقاء علي شريطة أن أتخلى عن ذلك الشاب الشقي الذي أفسدني . وكان من الجلي أنه لم يقل كل هذا من تلقاء نفسه ، فقد كنت -برغم حماقتي العمياء - شديد الشعور بكل ما كان مخدومي الشيخ يكنه لي من إشفاق ، وقد تأثرت به ، ولكن رحلتي الحبيبة كانت منقوشة بخطوط غائرة على صفحة خيالي ، فلم يكن في وسع أية مغريات أن تمحوها ! كنت قد فقدت رشدي تماما ، فاشتد عنادي وصلابة رأيي، وتذرعت بكرامتي، وأجبت - في صلف - بأنني قد تلقيت أمر فصلي من الخدمة، وأنني تقبلته ، وأن أوان سحبه قد فات ، وأنني قد عقدت العزم على ألا أسمح لنفسي بأن أطرد مرتين من بيت واحد ، مهما تكن العواقب ! . وإذ ذاك رماني الشاب بما أستحق من ألقاب ، وقد ثار عن حق، وأمسك بكتفي فالقى بي خارج غرفته وأوصد الباب خلفي! .. فانطلقت مزهوا كأنني أحرزت نصرا باهرا! وخوفا من أن أضطر إلى احتمال صراع ثان ، تركت للخسة أن تحملني على الرحيل بدون أن أشكر للراهب كرمه!

ولتكوين فكرة عن مدى ما كان جنوني يسوقني إليه في تلك اللحظة يجدر بالمرء أن يعرف إلى أية درجة يثور فؤادي بسبب التفاهات البسيطة ، وبأي عنف يندفع وراء الشيء الذي يستهويه ، مهما يكن هذا الشيء خلوا من أية قيمة! ..

ذلك أن أغرب الخطط ، وأكثرها طيشا صبيانيا ، وأشدها حماقة، تتمشى مع الفكرة التي تحلو وتعززها ، حتى أقتنع بحكمة الإقبال على تنفيذها ! .. أفهناك من يصدق أن إنسانا ما - لم يكد يبلغ التاسعة عشرة من عمره - يستطيع أن يشيد آماله في العيش، ما بقي من عمره -على زجاجة فارغة؟ .. إذن فاسمعوا: كان الأب "**دي جوفون**" قد أهداني - قبل ذلك بأسابيع قلائل- نافورة صغيرة من نافورات "**هيرو**" (١) اغتبطت بها ، وإذ كنا لا نكف عن اللعب بهذه النافورة ، أثناء حديثنا عن رحلتنا خطر لـ"**باكل**" العاقل، ولي، أن في وسع النافورة أن تنفعنا في إطالة الرحلة، فأي شيء في الدنيا أغرب وأدعى لإثارة الفضول من نافورة "**هيرو**"؟" .. وكانت هذه الفكرة هي الأساس الذي بنينا عليه صرح خطتنا المقبلة ، فلم يبق علينا سوى أن نجمع فلاحي كل قرية حول نافورتنا، فينهال علينا الطعام وكل المشتهيات في وفرة عارمة- فقد كنا نوقن بأن المؤن لاتكلف منتجيها شيئا،- ومن ثم رحلنا نتوقع أن نجد أعراسا ومهرجانات في كل مكان مما يمكننا - دون أن ننفق شيئا اللهم إلا أنفاسنا ومياه نافورتنا- من أن نكسب نفقات رحلتنا خلال "**بييمونت**" و"**سافوا**" و"**فرنسا**" .. بل العالم كله في الواقع! .. وعلى أثر ذلك أخذنا نرسم خططا لا حصر لها لرحلتنا ، ثم رأينا أن نتجه أولا نحو الشمال ، للاستمتاع بعبور الألب!

٦- من سنة ١٧٣١ إلى ١٧٣٢

وهكذا كانت الخطة التي شرعت فيها ، هاجرا - دون ما ندم- راعي وأستاذي ، ودراساتي ،

(١) نافورات صغيرة الحجم ، كاللعب ، اخترعها مهندس من أبناء الإسكندرية يدعى "هيرو".

وآمالي ومستقبلا كان شبه مؤكد ، لأبدأ حياة التشرد المنتظم!.. وودعت العاصمة(١) والقصر الملكي ، والطموح ، والزهو ، والحب، والنساء الحسان، وكل المغامرات المثيرة، التي حملني الأمل في العثور عليها إلى "تورين" قبل ذلك بعام .. وانطلقت مع نافورتي وصديقي "**باكل**" ، بكيس خفيف، ولكن بقلب مليء بالغبطة ، وبال لايفكر في شيء سوى استمرار سعادة التجوال التي قصرت عليها بغتة مشروعاتي البراقة. ولقد جعلت هذه الرحلة الشاذة ملائمة بالقدرالذي كنت أتوقعه ، وإن لم يكن ذلك بنفس الطريقة التي أردتها تماما ، ذلك لأنه بالرغم من أن نافورتنا كانت ملهاة لصاحبات الفنادق الريفية وخدمهن لبضع لحظات، إلا أنا كنا نضطر – مع ذلك– إلى أن ندفع نفقات إقامتنا إذا ما هممنا باستئناف الرحيل، بيد أن هذا لم يزعجنا إلا قليلا ، ولم نفكر في استغلال النافورة كمورد جدي للدخل إلا عندما بدأت نقودنا تنفد . على أن ثمة حادثا أعفانا من العناء ، فقد انكسرت النافورة ونحن على مقربة من "**برامان**" ، والواقع أن الوقت كان قد حان و إذ كنا قد شعرنا –دن أن نجرؤ على المصارحة – بأن التعب قد بدأ يدب فينا ، وقد جعلنا هذا النحس أكثر ابتهاجا من ذي قبل، فضحكنا كثيرا من غبائنا، إذ نسينا أن ثيابنا وأحذيتنا لن تلبث أن تبلى ، وإذ اعتقدنا أن بوسعنا أن نبتاع جديدا غيرها بعرض نافورتنا على الأنظار!.. وهكذا تابعنا رحلتنا ونحن في مثل ما بدأناها فيه من حبور، و إن يممنا – في اتجاه مباشر أكثر من ذي قبل – شطر الغابة التي كانت مواردنا المطردة النضوب تحتم علينا بلوغها.

وفي "**شامبيري**" بدأت أطيل التفكير ، لا بسبب الطيش الذي اقدمت عليه– فليس من إنسان أقدر مني على تعزية نفسه سريعا ، وبشكل كامل ، فيما يتعلق بالماضي– وإنما بسبب الاستقبال الذي كان يرتقبني لدى مدام "**دي فاران**" ، فقد كنت أتطلع إلى منزلها كما لو كان منزلي الخاص، وكنت قد كتبت إليها أنبئها بالتحاقي بالخدمة في دار الكونت "**دي جوفون**" وقد عرفت مركزي هناك، وعندما، هنأتني أزجت إلي بعض النصائح الجليلة فيما يتعلق بالسلوك الذي يجب أن أنتهجه جزاء الكرم الذي أبدي نحوي . ولقد اعتبرت السيدة أن مستقبلي بات مضمونا ، اللهم إلا إذا أفسدته أنا بخطأ مني .. ترى ما الذي ستقوله حين تراني عند وصولي!.. أبدا لم يخطر ببالي احتمال أنها قد توصد الباب دوني ، ولكني كنت أرهب الحزن الذي كنت موشكا على أن أسببه لها ، وكنت في خوف من تأنيباتها، التي كانت أقسى على نفسي من أعظم شقاء ! فاعتزمت أن أتحمل كل هذا في صمت ، وأن أبذل كل ما في وسعي لأهدئ من أساها ، فما كنت أرى لي في الحياة ملاذا سواها ، وكان احتمال العيش في خزي منها أمرا مستحيلا !

على أن الشطر الأكبر من قلقي كان بسبب زميلي في السفر، فما كنت راغبا في أن أثقل كاهلها به إلى جانبي ، كما كنت أخشى ألا يسهل علي التخلص منه ! وقد هيأته للفراق بأن أخذت أعامله – في اليوم الأخير – بشيء من الفتور ، ففهم الوغد أمري – فقد كان طائشا أكثر منه غبيا! وقد ظننت أن تقلبي سيخز قلبه ، فإذا بي مخطئ ، إذ كان اللعين لايسمح لشيء بأن يتغلغل إلى قلبه .. فما أرسينا أقدامنا علي أرض "**أنيسي**" ، حتى قال لي : " هأنتذا في بلدك"، وعانقني مودعا ، ثم نكص على قدميه، واختفى .. فلم أسمع عنه بعد ذلك البتة! وقد دام تعارفنا وصداقتنا ستة أشهر في مجموعهما لكن تبعاتهما ستبقى ما حييت!

*****

---

(١)كانت "تورين يومئذ عاصمة مارة "بيمونت".

ولشد ما يخفق قلبي وأنا أقترب من دارها!.. لقد أخذت ساقاي ترتجفان تحتي، ورانت غشاوة على عيني، فلم أر شيئا، ولا سمعت شيئا، وما كان بوسعي أن أعرف شخصا!.. واضطررت إلى أن أتوقف عدة مرات لأتمالك أنفاسي وأسيطر على نفسي. أفكان الخوف من الا أحظى بالمعونة التي كنت بحاجة إليها هو الذي أزعجني بهذا القدر؟.. وهل يبعث الخوف من الجوع مثل هذا الجزع في شخص في مثل سني؟.. لا! هذا ما أعلنه في صدق وكبرياء، فما استطاع الاهتمام بالنفس ولا استطاعت الحاجة قط– في أية لحظة من حياتي – أن يفتحا قلبي أو يغلقاه!.. ففي مجرى حياتي – غير المستقيم، والذي تقترن ذكراه بكثرة تعرجاته وانحناءاته، وبكثرة ما كنت خلاله بلا مأوى ولا خبز – ظللت دائما أنظر إلى الثراء والفقر نظرة سواء! ولقد كان بوسعي في أوقات الحاجة أن أتسول أو أسرق– كما يفعل أي امرئ ولكنني لم أكرب نفسي قط من جراء انحداري إلى هذا الدرك. وأعتقد أن قليلين هم الذين صعدوا من الزفرات قدر ما صعدت، وذرفوا من الدموع في حياتهم مقدار ما ذرفت، ولكن الفقر أو خوف الانحطاط إليه لم يقويا قط على أن أنفث زفرة، أو أذرف دمعة!.. إن نفسي – التي خلقت في حصانة ضد الحظ، فهي لاتتأثر به– لم تعرف قط استكانة إلى نعمة.. وعندما لاأفتقر إلى شيء يمكن أن تمس إليه الحاجة، فذاك هو الوقت الذي أشعر فيه بأنني أشقى المخلوقات!.

*****

ما إن مثلت أمام مدام **"دي فاران"** حتى طمأنني مسلكها!

وقد ارتجفت لأول نبرة من صوتها، وارتميت على قدميها.

وفي اختلاجات تنم عن أقوى غبطة جياشة الصقت شفتي بيدها! ولست أدري هل كانت قد سمعت أي نبأ عني، ولكن وجهها لم ينم عن كثير دهشة أو استياء، بل قالت في صوت حنون: "ياصغيري المسكين! أهذا أنت مرة أخرى؟ كنت أعرف أنك أصغر من أن تقوم بهذه الرحلة. إنني مغتبطة على أية حال لأنها لم تنته إلى ما كنت أخشاه!".. ثم حملتني على أن أروي لها قصتي، التي لم تكن طويلة، والتي رويتها بأمانة، وإن كتمت بعض تفصيلات قليلة، دون أن أتستر على نفسي أو أستميح لها الأعذار!وكان تدبير المكان الذي أنام فيه مشكلة، فاستشارت وصيفتها. ولم أجسر على أن أنبس ببنت شفة خلال الحديث، ولكنني لم أكد أسمع أن بوسعي أن أنام في الدار، حتى كدت أعجز عن تمالك نفسي!.. رأيت متاعي القليل يحمل إلى الغرفة التي عينت لي، بمثل المشاعر التي رأى بها "سان برو" محفته تنقل إلى مأوى عربات مدام **"دي ولمار"**(١). ومما ضاعف اغتباطي أنني علمت أن هذه الخطوة لم تكن أمراعابرا، ففي اللحظة التي كان يبدو علي فيها أنني أفكر في شيء آخر سمعت السيدة تقول: "دعيهم يقولون ما يشاءون"، فقد عقدت العزم – مذ ردته العناية الإلهية إلي – على الا أفارقه!"

وهكذا استقر بي المقام أخيرا في دارها. على أن هذا الاستقرار لم يكن بعد هو ذاك الذي أتخذه بداية لتاريخ الأيام السعيدة في حياتي ولكنه ساعد على تعبيد الطريق إلى ذلك اليوم، فبالرغم من أن هذا الشعور المرهف في القلب – الذي يجعلنا نغتبط بأنفسنا غبطة صادقة – هو من صنع الطبيعة، وربما كان من نتاج نظامها، فإنه يتطلب مواقف معينة تنميه. وبدون الأسباب التي تحدث هذه التنمية، فإن الرجل الذي ولد بحساسية قوية قد لايشعر أو يحس بشيء، وربما مات دون أن يعرف

---

(١) "سان برو" و"مدام دي ولمار" من شخصيات قصة "روسو" الطويلة: "هيلويز الجديدة".

قط حقيقة نفسه! .. ولقد كان هذا هو الشأن معي – أو ما يقرب منه – حتى ذلك الحين، وربما كنت مسوقا إلى أن أبقى كذلك دائما لو لم يقدر لي أن أعرف مدام **"دي فاران"** أو لو أنني – بعد أن عرفتها – لم أقم معها وقتا كافيا لأن استمرئ حلاوة المشاعر الرقيقة الحانية التي ألهمتنيها بل إنني لأجرؤ على القول بأن ذاك الذي لايشعر بغير الحب وحده ، لايحس بأحلى ما في الحياة ، فأنا أعرف شعورا آخر ربما كان أقل سورة وحرارة ، ولكنه أكثر من الحب متعة ألف مرة! .. وهو قد يقترن أحيانا بالحب ، ولكنه كثيرا ما يكون منفصلا عنه ، وليس هذا الشعور هو الصداقة البسيطة، إنما هو أشد منها عنفا في غوايته، وأكثر حنانا في رقته. ولست أعتقد أن من الممكن الشعور به نحو شخص من جنسك .. وعلى كل حال ، فإنني عرفت الصداقة كما لم يعرفها أي رجل آخر ، ومع ذلك فإنني لم أحس بهذا الشعور في حضور أي شخص من أصدقائي . وهو شعور غامض خفي إلى حد ما ولكنه لايلبث أن يتضح فيما بعد، وفيما ينجم عنه – فالواقع أنه ليس من سبيل إلى وصف المشاعر بدرجة مرضية ، إلا عن طريق آثارها ونتائجها !

كانت مدام **"دي فاران"** تقيم في بيت عتيق بالغ الاتساع بحيث يحتوي على غرفة بديعة تزيد على حاجة السيدة ، فكانت تتخذ منها حجرة للجلوس ، وفي هذه الحجرة أنزلتني، وكانت تفضي إلى الدرب الذي سبق أن تكلمت عنه والذي تم فيه أول لقاء بيننا وعلى ضفة الجدول المقابلة ، كانت البساتين والريف تبدو للعين ، ولم يكن هذا المنظر قليل الشأن بالنسبة للشاب الذي شغل الحجرة ، فقد كانت هذه هي المرة الأولى– منذ كنت أقيم في **"بوسي"** – التي رأيت فيها أية خضرة أمام نافذتي! كنت دائما محوطا بالجدران ، وليس أمام عيني سوى سقوف الدور ، أو سمرة الطرقات الكالحة .. فبأي طرب شعرت بسحر التجديد الذي عزز ميلي إلى المشاعر الرقيقة الحانية! .. لقد اعتبرت هذا المنظر الفاتن كلون آخر من ألوان كرم ربة نعمتي العزيزة، ولاح لي أنها هي التي وضعت كل شيءهناك، خصيصا من أجلي ، فغرست نفسي هناك إلى جوارها، وقد امتلأت بهناءة وادعة .. وصرت أرى راعيتي في كل مكان ، وسط الزهور والخضرة. كانت مفاتنها تمتزج بمفاتن الربيع أمام عيني بطريقة لا يلم بها إدراكي ! .. وانتفخ قلبي – الذي كان مكبوتا حتى ذلك الحين– وامتد في هذا الفضاء غير المحدود ، وأصبحت زفراتي تجد متنفسا طليقا وسط البساتين!

ولم أجد لدى مدام **"دي فاران"** الأبهة التي رأيتها في **"تورين"**، ولكني وجدت نظافة ، وأناقة ، وخيرا فياضا ، لاتقترن بها الغطرسة والكبرياء قط! .. كانت تمتلك أطباقا قليلة العدد ، فلا صيني ولا خزف، ولا لحوم في مخزن المؤونة ، ولاخمور أجنبية في أقبية القصر! .. ولكن المطبخ وقبو الدار كانا مزودين بما يكفي أي امرئ كانت السيدة تقدم في الأقداح الدلفية(١) قهوة رائعة. وكان كل من يزورها يدعى إلى العشاء على مائدتها . . وما من عامل ، أو رسول ، أو عابر طريق مر بالدار دون أن يأكل ويشرب ، وكان خدمها يتألفون من وصيفة – على قسط من الجمال – من بلدة **"فريبور"** تدعى **"ميرسيريه"** ، ووصيف من وطنها يدعى **"كلود آنيه"**– سأذكر عنه مزيدا فيما بعد– وطاهية ، واثنين من الحمالين كانا يستأجران لحمل المحفة"السيدان"(٢) في المناسبات النادرة التي كانت السيدة تؤدي فيها الزيارات . وكان هذا العدد من الخدم عبئا على معاش سنوي قدره ألفا "ليبرة" ، لولا أن دخل السيدة الضئيل كان – إذا أحسن تدبير إنفاقه–كافيا في بلد كانت الأرض فيه سخية جدا ، والنقود شحيحة جدا! ولكن الاقتصاد لم يكن لسوء الحظ من الصفات الحبيبة لدى السيدة ، فكانت

---

(١) الأقداح الدلفية: أقداح من خزف مصنوع في "هولندا" . (٢) "السيدان" هي محفة مؤلفة من مقعد ذي مظلة ، يحمله رجلان، وكانت من مركبات ذلك العصر.

تستدين ، ثم تدفع بقدر ما تستطيع.

كانت النقود تذهب في كل ناحية ، والأمور تسير على خير ما يمكن أن تسير!

وكانت الطريقة التي نظمت بها دارها هي ما كنت أوثره لو عهد إلي اختيار هذا التنظيم ،؛ومن ثم فمن الميسور تصور مبلغ سروري بالحياة معها ، والإفادة منها ، أما الأمر الذي كان أقل مدعاة للسرور، فهو أنني كنت مضطرا إلى أن أبقى جالسا إلى المائدة وقتا طويلا، فقد كانت السيدة لاتكاد تحتمل أن تشم العبير المتصاعد من الحساء وأصناف الطعام الأخرى عندما تحمل إلى المائدة، إذ كانت الرائحة تسلمها إلى الإغماء ! وقد دام هذا النفور بعض الوقت، لكنها لم تلبث أن تمالكت نفسها تدريجا . وكانت إذا جلست إلى المائدة انصرفت إلى الكلام ، دون أن تأكل شيئا ، فلم يكن ينقضي أقل من نصف ساعة قبل أن تتناول قطعة لحم! وكان بوسعي- في هذه الفترة- أن أتناول ثلاث وجبات ؛ ومن ثم فإنني كنت دائما أفرغ من طعامي قبل أن تشرع هي في الأكل بوقت طويل.وقد اعتدت- لكي أؤنسها – أن أشرع في الأكل مرة أخرى !

وبهذا الوضع كنت أتناول غذاء شخصين ، وما شعرت إطلاقا بضير من ذلك، وبعبارة موجزة: أسلمت نفسي للذة الشعور بالراحة ، التي كانت تخامرني عندما أكون معها ، لاسيما وأن هذه اللذة التي كنت أستمرئها كانت خلوا من أي قلق بشأن وسائل الاحتفاظ بها! .. ولما لم أكن قد أشركت بعد – بثقة تامة– في شؤون السيدة، فقد رحت أتصور أن الحال الراهنة قد تستمر على الدوام. ولقد وجدت نفسي هذه الرفاهية في دارها في أوقات أخرى بعد ذلك، ولكني كنت قد ألممت بحقيقة وضعها ، وتبينت أنها كانت تستنفد معاشها قبل أن تتسلمه؛ ومن ثم فلم أكن أشعر بعين الغبطة التي شعرت بها في ذلك الوقت! .. إن التطلع إلى المستقبل يفسد دائما هناءتي . فليس من المفيد لي في شيء أن أتنبأ بالمستقبل ، إذ إنني لم أعرف البتة كيف أتفاداه!

ولقد توطد بيني وبين مدام"**دي فاران**" – منذ اليوم الأول– أكمل ود وألفة ، وقد داما خلال ما بقي من عمرها . كان اسمي لديها "الصغير"، وكان اسمها عندي "ماما"، وقد ظللنا دائما "الصغير" و"ماما" ، حتى عندما محت السنون كل فارق بيننا تقريبا . إني لأرى أن هذين الاسمين يعطيان فكرة جد رائعة عن لهجة أحاديثنا ، وعن بساطة الأسلوب الذي كان مرعيا في سلوكنا ، وعن العلاقةالمتبادلة بين قلبيناقبل كل شيء آخرا .. كانت – بالنسبةلي – أرق أم ، فلم تسع قط إلى ما فيه سرورها ، وإنما كانت تسعى دائما إلى ما فيه الخير لي . وإذا كانت الشهوة قد خالطت يوما تعلقها بي، فإنها لم تبدل من طابع هذا التعلق ، وإنما جعلته أكثر فتنة .. أسكرتني ببهجة الظفر بأم شابة حسناء كنت أجد غبطة في أن الاطفها (١) "الاطفها" بأدق ما في الكلمة من معنى ، فما خطر لها قط أن تقتصد في قبلات الأم ، أو في عناقاتها الرقيقة وملاطفاتها، ومن المؤكد أنه لم يخطر ببالي إطلاقا أن أسيء استغلال ذلك، وقد يقال إننا – في النهاية– ارتبطنا بعلاقة ذات طابع مختلف ، وإني لأقر بهذا ، ولكني أرى أن أتريث قليلا ، فليس في وسعي أن أروي كل شيء في التو!

كانت لحظة لقائنا الأول ، هي اللحظة الوحيدة التي جعلتني أشعر بها مليئة بالانفعال العاطفي الحقيقي. على أن هذه اللحظة كانت من نتائج المفاجأة.. ولم تجسر نظراتي قط على أن تتسلل مستخفية إلى ما تحت المنديل الذي كان يحيط بعنق السيدة ، برغم أن سوء التستر على بدانة هذا العنق كان خليقا بأن يجتذب النظر . ولم أكن أشعر في حضورها بأية نزوات أو شهوات ، بل كنت في حالة استجمام فاتن واستمتاع، وإن لم أدر فيم كان هذا الاستمتاع !.. وكان بوسعي أن أقضي في

---

(١) الملاطفة هنا يقصد بها التحسس والقبلات والغزل.

هذه الحال كل حياتي الدنيوية، بل وحياتي الأخرى،دون ما لحظة من الملل والسأم ، فإن مدام **"دي فاران"** هي الشخص الوحيد الذي لم أشعر معه بذلك الفتور والنضوب اللذين يتطرقان إلى الحديث فيجعلان الاضطرار إلى المضي فيه ضربا من التضحية والاستشهاد !.. ولم يكن كلامنا الهامس في خلواتنا حديثا بقدر ما كان ثرثرة لاينضب لها معين ، ولم تحن لها نهاية اللهم إلا إذا طرأ ما يقطع استرسالها! ولم تكن ثمة حاجة بها إلى أن تدعوني للكلام ، بل كانت الحاجة إلى فرض السكوت علي أكثر لزوما وكانت كثيرا ما تستغرق في شرود حالم لفرط تفكيرها المستمر في مشروعاتها ، فكنت أتركها لأفكارها ، وأمسك لساني ، وأنظر إليها.. وإذ ذاك كنت أسعد الرجال!.. وكنت لاأزال أحتفظ بخيال فذ ، فكنت أسعى دائما إلى مسامرتها دون من ولا تظاهر بصنيع ، فقد كنت أستمرئ هذه الخلوات بشغف يتطور إلى جنون عندما كان الضيوف المزعجون يعكرون صفوها ! فما إن يفد أحد سواء كان رجلا امرأه– حتى أغادر الحجرة وأنا أزمجر– عاجزا عن أن أبقى في حضور طرف ثالث ! وكنت أقبع في حجرتها الداخلية، أعد الدقائق ، والعن هؤلاء الضيوف– الذين يأبون الانصراف– ألف مرة ، وأنا لاأقوى على أن أتصور كيف كان لديهم من الحديث ما يشغل كل هذا الوقت.. فقد كان لدي ما يفوقه!

ولم أكن أشعر بقوة تعلقي بالسيدة إلا عندما كنت لا أراها.. ولا كنت هانئ البال إلا حين أراها، فإذا غابت كان قلقي يصبح أليما. كانت حاجتي إلى العيش معها تسبب لي نوبات عاطفية كثيرا ما انتهت بالدموع! ولن أنسى مطلقا أنني في يوم عيد من الأعياد مضيت للنزهة خارج المدينة بينما كانت هي في قداس المساء.. وشعرت أن قلبي قد امتلأ بصورتها، وبرغبة متأججة في أن أقضي حياتي معها، وكنت من الإدراك والعقل بحيث أرى أن هذا كان مستحيلا في وقتي الراهن، وأن السعادة التي كنت أستمتع بها كل الاستمتاع كانت قصيرة الأمد.. ولقد بعث هذا في خواطري مسحة من الأسى، لم يكن فيها –مع ذلك– أي اكتئاب ، بل كانت تخفف منها آمال مراودة .. كان صوت الأجراس – الذي كان يهزني دائمابوجه خاص– وشدو الطيور ، وبهاء ضوء النهار، والمناظر الطبيعية الساحرة، والمساكن القروية المتناثرة التي كان خيالي يتخذ منها مقاما لنا.. كل هذه كانت تخلق في نفسي تأثيرا قويا ، عاطفيا ، حزينا، يهز أوتار قلبي إلى درجة أرى معها أنني أنتقل في غيبوبة حالمة إلى ذلك الوقت والمكان السعيدين، اللذين كان قلبي فيهما يمتلك كل ما كان يصبو إليه من سعادة ، فيقبل على تذوقها في انتشاء لاسبيل إلى وصفه، دون أدنى تفكير في لذة شهوية. وما أذكر البتة أنني أوغلت يوما في التفكيرفي المستقبل بقوة وخيال يفوقان ما خامرني في تلك المناسبة. وكان أعظم ما أدهشني من ذكرى هذا الحلم بعد أن تسنى له أن يتحقق ، هو أنني ألفيت الأمور تطابق تماما ما تصورته في الخيال. وإذا قدر يوما لأحد أحلام اليقظة التي تراود ذهن إنسان ما أن يكون شبيها برؤى النبوة فهو حلمي هذا بالتأكيد. فما خدعني خيالي إلا في الأمد الذي تصورته ، فقد تمثلت في الحلم أن حياتنا معا امتدت أياما وأعواما في سكينة صافية سامية لايعكرها شيء .. في حين أن هذه الحال لم تدم – في واقع الحياة سوى لحظة.. وياحسرتي !.. فإن أبقى سعادة ظفرت بها إنما كانت حلما لم تلبث اليقظة أن أعقبت تحققه في الحال!

ولن أفرغ من مهمتي إذا أنا خضت في تفصيلات كل الحماقات التي كان تذكري لهذه الأم العزيزة يحملني على ارتكابها عندما لاأكون في حضرتها : فكم كنت أقبل سريري لأنها نامت فيه يوما ، وستائري وكل أثاث حجرتي لأنها كانت ملكا لها ، ولأن يدها الجميلة كانت تمسها!.. حتى الأرض

كنت أتقلب عليها مادامت هي قد خطرت فوقها!.. وكنت أحيانا أرتكب- في وجودها- نزوات ما كان ليوحي بها سوى أعنف الوان الحب وقد حدث ذات يوم أن كنا نجلس إلى المائدة ، وما إن وضعت قطعة من اللحم في فمها حتى هتفت قائلا: إنني لمحت شعرة فيها ، فردت القطعة إلى طبقها ، وإذ ذاك انقضضت عليها في لهفة وابتلعهتها ! وبإيجاز : لم يكن بيني وبين أشد العشاق تدلها سوى فارق واحد- ولكنه جوهري- يجعل حالتي فوق كل تصور وإدراك!

وكنت قد عدت من "**إيطاليا**" على غير ما ذهبت إليها ، بل لعلني عدت منها كما لم يعد قط أي امرئ في سني ، فقد حملت معي - في عودتي - طهري الجسدي ، وإن لم أحتفظ بطهري العقلي والخلقي! ولقد شعرت بحكم السنين ، وقدر أخيرا لطباعي القلقةغير المستقرة أن تغدو ملموسة محسوسة ، وقد سبب لي تجليها لأول مرة- على غير إرادة مني- انزعاجا بشأن صحتي ، بدرجة تبين أكثر من أي شيء آخر مدى البراءة التي كنت أعيش فيها حتى ذلك الحين. وما إن اطمأننت، حتى تعلمت تلك الوسائل الخطرة التي تعاون تلك الطباع ، والتي تغرر بالطبيعة وتوفر للشبان الذين أوتوا مثل مزاجي ، كثيرا من الاضطرابات والوان الإفراط ، على حساب صحتهم وقوتهم و.. حياتهم أحيانا! ولهذه الرذيلة - التي يرتاح إليها الخجل والجبن- إغراء عظيم يجتذب التخيلات.

ذلك هو- كما ينبغي أن يقال - حشد الجنس بأسره لإرضائها ، واستغلال الجمال لملذاتها ، دون ما حاجة إلى الحصول على موافقته أو رضاه!.. وتحت إغراء هذه الخلة المهلكة ، جهدت في تدمير البنية البديعة التي منحتنيها الطبيعة ، والتي أتحت لها الوقت لتتسق في تشكلها . أضف إلى هذه العادة ظروف مركزي الحالي، إذ كنت أقيم في دار امرأة جميلة ، اداعب طيفها في قرارة قلبي ، وأراها باستمرار طوال النهار، وأحاط في الليل بأشياء تذكرني بها ، وأنام في سرير عرفت أنها كانت تنام فيه!.. فأية مثيرات هذه ! إن القارئ الذي يتمثلها لنفسه يرى لاريب أنني كنت في منتصف الطريق إلى الموت بالفعل !ولكن الأمر كان على نقيض ذلك تماما ، فإن الشيء الذي كان خليقا بأن يقضي علي ، كان عين ما انقذني ، ولو إلى حين : ففي انتشائي بسحر الإقامة معها، وبالرغبة الجامحة في أن أقضي أيامي بقربها ، كنت أرى فيها دائما - سواء كانت غائبة أو حاضرة- أما حنونا ، وأختا حبيبة ، وصديقة لطيفة.. ولا أكثر من هذا !.. هكذا كنت أراها دائما ، وهكذا كانت دائما ، فلم أكن أرى سواها قط!

وكانت صورتها الماثلة في قلبي دائما لاتدع مكانا لأحد البتة!..

كانت لي المرأة الوحيدة في العالم، وكانت العذوبة البالغةالتي اتسم بها ما كانت تلهمني من مشاعر ، لاتدع لحواسي وقتا تستيقظ فيه على غيرها ، بل كانت تعصمني منها ومن كل جنسها ! ومجمل القول إنني كنت عفيفا ، لأنني كنت أحبها!..

فليقل من يستطيع - على ضوء هذه النتائج التي لم أحسن وصفها - أي نوع كان تعلقي بها؟.. أما أنا ، فكل ما أملك أن أقول عنه: هو أنه إذا كان يبدو جد غريب، فإنه سيبدو في عواقبه أغرب!

وكنت أقضي وقتي على خير وجه ، وإن شغلت بأقل ما كان يروق لي من أشياء . كانت ثمة مشروعات تدبر، ومذكرات تنسخ مصححة، ووصفات تنقل ، وأعشاب تنتقى، وعقاقير تصحن وتسحق ، وأنابيق " أجهزة للتقطير" تراقب .. وفي غمرة هذا كله ، كان عابرو السبيل والمتسولون والزائرون- من كافة الطبقات - لايكفون عن الوفود زرافات، فكنا نضطر إلى أن نستضيف جنديا وصيدليا وكاهنا وسيدة راقية وطالب مأوى .. في آن واحد! وكنت أسب ، وأزمجر ، والعن، وأتمنى

ان يتخطف الشيطان كل هذه الشرذمة اللعينة. أما مدام "**دي فاران**" - التي كانت تتقبل ذلك بحسن نية- فكانت غضباتي تضحكها حتى تدمع عيناها ، وكان يضاعف من ضحكها أن تراني أزداد سخطا لأنني لم أكن أملك أن أصد نفسي عن الضحك!.. كانت الفترات القصار التي كنت أحظى فيها بالزمجرة لحظات ساحرة!.. ولو أن قادما جديدا من هؤلاء الضيوف الثقلاء أقبل خلال الجدال فإن السيدة كانت تعرف كيف تنتزع لنفسها من ذلك تسلية ، وذلك بأن تطيل الزيارة في تخابث ، وهي ترميني بنظرات أود معها لو أضربها!

وكانت تتمالك نفسها بعناء حتى لاتنفجر مقهقهة ، إذ تراني أتجلد وأكظم مشاعري تأدبا ، وأرمقها كشخص مسلوب النهى، في حين أنني كنت في قرارة فؤادي - بل ورغما عن نفسي أرى الأمر كله داعيا للضحك!

ولئن لم يكن كل هذا يسرني ؛ إلا انه كان يروق لي ، لأنه كان يؤلف جزءا من نوع من الوجود كان يبهجني. ولم يكن في كل ما كان يجري حولي- ولا في كل ما كنت مضطرا إلى عمله - شيء يلائم ذوقي ، ومع ذلك فقد كان كل شيء يروق لفؤادي . أعتقد أنني كنت قمينا بأن أميل إلى الطب لولا أن نفوري منه سبب تلك المناظر المضحكة التي أطربتنا كثيرا.. ولعل هذه هي المرة الأولى التي يخلق فيها هذا الفن أثر كهذا . كنت أزعم أن بوسعي أن أعرف أي مركب طبي من رائحته ، وكان الطريف في الأمر أنني نادرا ما كنت أخطئ ! ولقد حملتني مدام "**دي فاران**" على أن أتذوق أفظع العقاقير ، ولم تكن ثمة جدوى من الفرار أو محاولة الدفاع عن نفسي ، فبالرغم من مقاومتي ومن عبوسي، وبالرغم من اصطكاك أسناني، كنت أضطر أخيرا إلى أن أفتح فمي عندما أرى أصابعها الجميلة - ملطخة بالعقار - بالقرب منه ، فأمتصها !.. وعندما كان كل أهل دارها يجتمعون في حجرة واحدة ، يسمعون جرينا وصراخنا وضحكنا ، كان أي امرئ خليقا بأن يظن أننا كنا نمثل إحدى المسرحيات ، بدلا من تحضير البلاسم والأكاسير!

على أن وقتي لم يكن وقفا على هذه الحماقات ،. فقد وجدت في الغرفة التي كنت أشغلها بضعة كتب : "**المتفرج**" ،و"**بيفندروف**" ، "**سانت إيفريموند**" ، والقصيدة " **الهنرية**" . ومع أنني لم أكن أحتفظ بجنوني القديم بالقراءة إلا أنني كنت أقرأ قليلا عندما لاأجد شيئا آخر أفعله. كان كتاب "**المتفرج**" يلذ لي بوجه خاص ، وقد أثبت أنه كان ذا نفع لي وكان الأب "**دي جوفون**" قد علمني أن أقرأ في غير إسراع ، وبمزيد من التأمل ، ولهذا أصبحت المطالعة أكثرفائدة لي وعودت نفسي أن أفكر في اللغة والأسلوب وبلاغةتركيب العبارات ، كما دربت نفسي على أن أميز الفرنسية الفصحى من التعبيرات الإقليمية ، وتعلمت كيف أصحح الكثير من الأخطاء الهجائية التي كان يشاركني في ارتكابها جميع أهل "**جنيف**" !

وكنت أتحدث إلى "ماما" أحيانا عن مطالعاتي ، كما كنت أقرأ لها أحيانا ، فأحظى بسرور عظيم، وأحاول أن أتقن القراءة ، وكان هذا - بدوره - مفيدا لي . ولقد ذكرت أنها كانت ذات عقل مصقول، كان ذلك الوقت بالذات في عنفوانه.

وقد أبدى عدد من رجال الأدب شوقا إلى الظفر بالحظوة لديها ، فعلموها كيف تحكم على المؤلفات التي تنم عن عبقرية. وكان لها ذوق "**بروتستانتي**" بعض الشيء - إذا جاز لي أن أقول هذا - فلم تكن تتكلم إلا عن "**بايل** " وكانت تقدر القديس "**إيفريموند**" الذي مات في "**فرنسا**" قبل ذلك بوقت قصير . ولكن هذا لم يعقها عن أن تتعرف إلى أي أدب طيب،وأن تناقشه في فطنة.

كانت قد نشأت في مجتمع رفيع ، ووفدت على "**سافوا**" وهي بعد صغيرة . وفي الوسط البهيج الذي يعيش فيه علية القوم في هذه البلاد ، فقدت طريقة أهل إقليم "**فود**" في الحديث ، حيث تحرص النساء على التظاهر بالحصافة واللباقة ، ولا يعرفن الكلام إلا بالطرائف والحكم الشعرية!

ومع أنها لم تحظ إلا بمعرفة عابرة بالبلاط الملكي إلا أنها ألقت عليه نظرة سريعة ، كانت كافية لأن تعرفه بها . وكانت تحتفظ لنفسها دائما بأصدقاء فيه ، وعلى الرغم من الدسائس الخفية المنبعثة عن الغيرة، وبالرغم من الاستياء الذي كان مسلكها وديونها تثيره ، إلا أنها لم تفقد قط معاشها ، ولقد أوتيت خبرة بالدنيا ، ومقدرة فكرية على الإفادة من هذه الخبرة ، فكانت تؤلف أفضل موضوع في أحاديثها ، وكان هذا بالذات هو الموضوع الذي أجدني في حاجة ماسة إلى الإلمام به، بالنسبة إلى آرائي الخيالية.. ولقد قرأنا كتاب "**لابروبير**" ، فاعجبها اكثر من كتب"**لارو شفوكو**" الذي كان أديبا كئيبا ممضا ، لاسيما للشباب الذين لايكترثون لرؤية الناس على حقيقتهم ، وكانت إذا وعظت استغرقت أحيانا في خطب طويلة ، ولكني كنت أتزود لاحتمالها بتقبيل فمها ويديها من وقت إلى آخر ، فلا يعود إسهابها يضجرني!

*****

وكانت هذه الحياة أبهج من أن تدوم ، وكنت أشعر بذلك ، فكان اغتمامي بالإشفاق من أن أراها تنتهي هو الشيء الوحيد الذي عكر استمتاعي بها ! وكانت "ماما" في وسط مداعباتها تدرسني ، وتراقبني ، وتسائلني ، وترسم – من أجل تقدمي – مشروعات كنت أتجاوزها بسهولة. ولحسن الحظ أنه لم يكن كافيا أن تعلم ميولي وأذواقي وإمكانياتي ، بل كان من الضروري البحث عن فرص لاستخدامها على وجه نافع، أو "خلق" هذه الفرص ، ولم يكن هذا بالعمل الذي يتم في يوم واحد ، بل إن الأحكام الصادرة عن الهوى ، والتي كانت المسكينة تتخذها إزاء مواهبي ، كانت – في الوقت ذاته– سببا في تأجيل لحظات تطبيقها بالذات، إذ كانت تجعلها تعنى عناية خاصة باختيار الوسائل ، وبالإيجاز : سار كل شيء وفق رغباتي بفضل حسن رأيها في . ولكن هذه الحياة كانت مسوقة إلى نهاية، إن عاجلا أو آجلا.. وإذ ذاك، وداعا لكل أمل في الطمأنينة !.. فقد جاء لزيارة مدام "**دي فاران**" قريب لها – يدعى السيد "**دوبون**" – كان رجلا عظيم الدهاء يجيد الدس ، وذا عبقرية – مثل قريبته – في رسم المشروعات ولكنه كان أبرع من أن يدع مشروعاته تقضي عليه كان من المغامرين ! وكان قد اقترح على الكاردينال" **دي فليري**" مشروعا لتنظيم "**يانصيب**" ، بلغ من تعقده أنه لم يلق قبولا. فجاء بعرضه على بلاط "**تورين**" ، حيث قبل ونفذ ، وقد مكث هذا الرجل بعض الوقت في "**أنيسي**" ، حيث عشق زوجة وكيل الحكومة ! وكانت امرأة جد لطيفة ، قريبة إلي ذوقي ، حتى إنها كانت الوحيدة التي كنت أسر برؤيتها في دار "ماما".

ولقد رآني السيد "**دوبون**" ، وحدثته قريبته عني ، فتكفل بامتحاني ليرى ما أصلح له ، فإذا وجدني أهلا لشيء ، بحث لي عن منصب!

وأرسلتني مدام "**فاران**" إليه في صباحين أو ثلاثة متعاقبة، بحجة بعض مهام لها ، دون أن تبصرني بشيء،. وأفلح الرجل في حملي على الكلام ، وأبدى لي الود، وتبسط معي إلى أقصى ما أمكنه ، وتحدث معي في مسائل غير ذات بال ، وفي كافةالموضوعات .. كل ذلك دون أن يشعرني بأنه كان يراقبني ، ودون أدنى كلفة ، وكأنه وجد في صحبتي مسرة فرغب في التسامر معي دون ما قيود.

وأعجبت به . . وكانت نتيجة ملاحظاته أنني – برغم مظهري الجذاب وملامحي الدالة على الفطنة – كنت فتى قليل الذكاء ، عديم الأفكار ، عديم المعرفة تقريبا ، إن لم أكن غبيا ! . . وبعبارة موجزة ، كنت محدود العقل من كل الاعتبارات، وكان أرفع منصب يحق لي أن أصبو إليه ، هو أن أصبح يوما راعيا لكنيسة إحدى القرى !

هكذا كانت النتيجة التي قدمها عني لمدام **"دي فاران"** وكانت هذه هي المرة الثانية أو الثالثة التي يحكم علي فيها بمثل ذلك.

بل إنها لم تكن المرة الأخيرة . فكم من مرة عزز فيها رأي السيد **"ماسيرون"**.

وكانت أسباب هذه الأحكام ترتبط بخلقي ارتباطا وثيقا لاداعي معه إلى أي ريضاح هنا ، ذلك لانه من المفهوم– صراحة – أنني لاأستطيع أن أقر هذه الآراء دون تحفظ، وإنني – بكل حيدة وتجرد عن الهوى– لا أستطيع أن أتقبل كل ما قاله السيدان **"ماسيرون"** و **"دوبون"** وغيرهما على علاته! . . فلقد اتحد في نفسي شيئان متنافران تقريبا، بطريقة لاأملك إدراكها : طباع حادة، وعواطف محتدمة صاخبة . . وفي الوقت ذاته ، أفكار بطيئة النمو، مهوشة، لاتكشف قط عن نفسها إلا بعد فوات الأوان، ومن الممكن أن يقال إن قلبي وعقلي لايمتان إلى فرد واحد ، فإن الشعور يستحوذ على نفسي بأسرع من البرق الخاطف ، ولكنه يكويني ويعشي بصري ، بدلا من أن ينيرني ، فإذا بي أحس بكل شيء دون أن أرى شيئا ! إن العواطف تجرفني ، ولكني بطيء التفكير، لابد لي من أن أسري عن نفسي حدة الانفعالات لكي أستطيع أن أفكر.

والعجيب في الأمر هو أنني– برغم ذلك– أوتيت رأيا مؤكد الصواب ، وبصيرة نفاذة ، ودقة في الحكم، إذا ما أتيح لي الوقت الكافي . . وإنني لأصدر آراء عاجلة إذا تركت وشاني، ولكني لم أفه يوما بشيء ذي قيمة في اللحظة التي طلب إلي فيها ذلك! وبوسعي أن أجيد النقاش عن طريق التراسل، بنفس النهج الذي يقال عن الأسبان إنهم ينتهجونه في لعب الشطرنج ، وعندما قرأت عن أحد دوقات **"سافوا"** أنه قطع رحلته وعاد ليصيح: " سأنقض على عنقك أيها التاجر الباريسي" ، لم أتمالك أن أقول : "هكذا أنا" !

هذا البطءفي التفكير مع فورة الشعور ، لايلازماني في الحديث فحسب ، وإنما هما معي حتى في وحدتي ، وعندما أعمل! . . فإن أفكاري تنسق نفسها في رأسي بعناء لايكاد يصدق ، إذ إنها تدور فيه على غير هدى ، ثم تتخمر وتفور حتى تحركني وتبعث الحرارة في كياني ، فيتسارع خفقان قلبي. وفي غمرة هذا الانفعال، لاأعود أرى أي شيء بوضوح، ولا أقوى على أن أكتب كلمة واحدة، واضطر إلى الانتظار والتريث . . ولا يلبث الانفعال العظيم أن يخف بطريقة لا أفقهها ، فينقشع الاضطراب ، ويستقر كل شيء في مكانه، ولكن في بطء ، وبعد انفعال طويل مربك . أفما قدر لك يوما أن تشهد **"الأوبرا"** في **"إيطاليا"** ؟ . . ففي خلال تبديل المناظر ، تسود هذه المسارح العظيمة فوضى غير مستحبة، تمتد فترات طويلة . إذ تختلط كافة الزخارف "الديكورات" بعضها ببعض ، وترى الأشياء تجذب في كل ناحية بشكل مؤلم ، حتى ليخال للمرء أن كل شيء قد انقلب رأسا على عقب! ثم لايلبث كل شيء أن ينظم شيئا فشيئا، ولا يبقى أي نقص ، ويدهش المرء إذ يرى منظرا رائعا عقب هذه الفوضى الطويلة! هذه العملية تقرب من تلك التي تجري في مخي عندما أرغب في الكتابة ،. ولو أنني تعلمت أن أتريث أولا ، ثم أجني الأشياء التي ارتسمت في ذهني ، صاقلا جمالها ، لما تفوق علي سوى قليل من الكتاب!

ومن هنا كانت الصعوبة البالغة التي أجدها في الكتابة . وإن مخطوطاتي بما فيها من كشط ومحو وسطور متداخلة، وكتابة لاتكاد تقرأ ، لتشهد بالعناء الذي تكبدنيه، فليس بينها ما لم أضطر إلى نسخه أربع أو خمس مرات قبل أن أستطيع أن أدفع به إلى المطبعة! وما استطعت قط أن أنتج وأنا جالس إلى منضدتي وأوراقي والقلم في يدي ، وإنما اعتدت أن أكتب على صفحة ذهني بينما أتمشى وسط الصخور والغابات ، أو في الليل وأنا متسلق في فراشي مستيقظا . وفي وسع المرء أن يقدر ذلك البطء لاسيما إنسان حرم تماما من ذاكرة تحفظ الكلام ، وما قدر له في حياته أن يحفظ ستة أبيات من الشعر عن ظهر قلب! .. بل إن من عباراتي وجملي ما ظللت أقلبه وأديره في رأسي خمس أو ست ليال، قبل أن يغدو صالحا لأن يسجل على الورق ! وهنا أيضا السر في أنني أكثر توفيقا في أعمالي التي تتطلب جهدا مني في تلك التي تتطلب خفة أسلوب معين كالرسائل .. وهي خفة لم يقدر لي قط أن أتمكن من الإلمام بها ، ومن ثم فإن هذه المهمة ترهقني ، فلست أكتب رسالة في أتفه موضوع ، إلا وتكبدني ساعات من الضنى .. كما أنني إذا حاولت أن أكتب فورا ما يعن لي ، لا أدري كيف أبدأ ولا كيف أنتهي؛ ومن ثم تكون رسالتي لغوا طويلا مهوشا ، يلقى المرء عناء في فهمه إذا ما قرأها!ولاتكبدني الأفكار عناء في تسجيلها فحسب ، وإنما تكبدني العناء ذاته في تلقيها . لقد درست الناس ، وأعتقد أنني قوي الملاحظة ، ومع ذلك فإنني لاأملك أن أرى بوضوح شيئا مما أشهده، وإنما أتمثل بوضوح ما أذكره ، ولا أبدي الفطنة إلا في ذكرياتي .. فمن كل ما يقال ، ومن كل ما يعمل ، ومن كل ما يجري في حضوري ، لا أشعر بشيء ولا أتغلغل ببصيرتي في شيء . وإنما الذي يؤثر في هو الظاهر وحده ! .. بيد أن كل شيء لايلبث أن يرتد إلى ذهني فيما بعد ، فأذكر المكان، والزمان ، والحال ، والنظرة ، والإشارة ، والظروف .. لايفوتني منها شيء . وعندئذ، أتبين مما قاله القوم أو فعلوه ما كانوا يفكرون فيه ، ونادرا ما أخطئ ! .. ولو أنني سيطرت على طاقتي الذهنية قليلا ، فيما بيني وبين نفسي،ففي وسع المرء أن يحدس ما كنت أصبح عليه من براعة في الحديث ، حيث يجب – من أجل الكلام في الموضوع – أن أفكر في ألف شيء في نفس الوقت والمكان. ولكن مجرد التفكير في التوفيق بين هذه الأشياء– التي أوقن من أنني لابد أن أنسى شيئا واحدا منها على الأقل– يكفي لكي يبث الخوف في نفسي ! بل إنني لاأفهم كيف يجد أي امرئ الجرأة على الكلام في جماعة ، حيث لاغنى له عن أن يطوف ببصره مستعرضا الحاضرين، مع كل كلمة .. وحيث لابد له من أن يلم بشخصياتهم وسيرهم ، حتى يستوثق من تجنبه ذكر أي شيء قد يجرح شعور أحد منهم . ومن هذه الناحية ، يمتاز الذين يعيشون في الدنيا(١) بميزة كبرى ، هي أنهم يكونون أكثر من سواهم دراية بما لاينبغي أن يصمتوا عنه ، وأشد اطمئنانا إلى ما يقولون .. ومع ذلك ، فكثيرا ما تفلت منهم هفوات، وهنات ، فما بالك بمن يسقط في وسطهم من بين السحب؟(٢) .. إنه ليستحيل عليه تقريبا أن يتكلم لدقيقة دون خوف من الزلل ! .. وهناك مضايقة أخرى في المسارة – أي عندما أتحدث مع شخص ما في خلوة– أجدها أنكى مما سبق: تلك هي ضرورة الكلام باستمرار. فإذا وجه إليك الحديث، كان عليك أن تجيب .. وإذا لم توجد كلمه تقال كان عليك أن تحيي الحديث من جديد . هذا الاضطرار الذي لايطاق ، هو حده الذي ينفرني من المجتمع ، ولست أجد ضيقا أفظع من الاضطرار إلى الحديث عفو الخاطر وباسترسال. ولا أدري ما إذا كان لهذا أي شأن من كراهيتي المميتة لكل قهر ، من أي نوع ، بيد أنه يكفيني أن أكون مضطرا إلى الكلام ، لكي أنطلق في لغو لامحيص منه.

---

(١) يقصد الذين يختلطون بالناس ويغشون المجتمعات. (٢) يقصد الذي يعيش بعيدا عن المجتمع ، في أحلامه الخاصة، ثم يقدر له أن يتكلم وسط الناس.

أما ما يفوق هذا شناعة فهو أنني بدلا من أن أستطيع أن أمسك لساني عندما لاأجد شيئا يقال، إذا بي أجد نفسي- في هذا الوقت بالذات - أكاد أجن شوقا إلى الكلام، لأرد الدين بأسرع ما أستطيع!.. فأبادر إلى إطلاق عبارات متلعثمة خالية من أية فكرة، وتشتد سعادتي إذا كانت لاتعني شيئا على الإطلاق. وإذ أحاول أن أغالب أو أن أخفي غبائي، فإنني نادرا ما أخفق في إظهاره! ومن الف مثال أستطيع ذكرها، أختار واحدا لايمت إلى أيام الصبا، وإنما إلى وقت كان خليقا بي أن أكون قد اكتسبت عنده يسرا في القول - إن كان هذا ممكنا - بعد أن عشت سنوات عديدة بين الناس، ففي ذات مساء كنت أجلس بين سيدتين عظيمتين ورجل يحق لي أن أذكر اسمه، وهو السيد الدوق "**دي جونتو**". ولم يكن ثمة سوانا في الحجرة، وقد رحت أجاهد في سبيل ذكر بضع كلمات - يعلم الله ماذا كانت - خلال حديث كان يدور بين أربعة أشخاص، كان بينهم ثلاثة في غير حاجة - بالتأكيد- إلى تعقيبي،. وأمرت ربة البيت بإحضار دواء كانت تتناوله مرتين يوما لعلاج معدتها. وإذ رأت السيدة الأخرى وجهها يتغضن - اشمئزازا من الدواء - قالت ضاحكة: "أهذا الدواء من لدن السيد "**ترونشان**"؟

فأجابتها الأولى بنفس اللهجة: "لا أظنه!".. وهنا عقب "**روسو**" الذكي في تأدب: "أظن أنه لايفوقه في شيء!" (١).

وبقي الجميع واجمين، فلم يفه أحد بأتفه كلمة أو بأضأل ابتسامة وبعد لحظة اتخذ الحديث اتجاها آخر.

وما كانت هذه الفلتة لتبدو- في أي مجلس آخر - سوى فكاهة، أما وقد وجهت إلى امرأة كانت من رقة الشعور بحيث لاتحب أن تجعل نفسها مادة للحديث، ولم تكن لدي - بكل تأكيد - أية رغبة في مس شعورها، فقد بدت شنيعة، وأعتقد أن الشاهدين- الرجل والمرأة- عانيا كثيرا لكي يكبحا الضحك. هذا مثال لفلتات الذكاء التي تمنعني من الرغبة في الكلام عندما لاأجد شيئا يقال.. ولن أنسى بسهولة هذا الحادث، لا لأنه - في ذاته - مما يعلق بالذاكرة، وإنما لأنه يجول بخاطري أنه كانت له عواقب تدفعه إلى ذاكرتي كثيرا.

وأعتقد أن هذا يكفي لبيان كيف أنني وإن لم أكن غبيا إلا أنني كثيرا ما ظن بي ذلك، حتى من جانب أناس لهم ما يمكنهم من الحكم الصحيح. ومما يضاعف سوء حظي أن ملامحي وعيني توحي بفكرة أفضل، وأن خيبة هذا الحدس تبدي هذا الغباء للغير بشكل أبشع!.. وهذا الإسهاب في شرح الفكرة، الذي تولد عن مناسبة خاصة، ليس خاليا من النفع بالنسبة لما سيأتي فيما بعد. فهو يتضمن ما يجلي غوامض كثير من الأمور الشاذة التي شوهدت مني، والتي تعزى إلى طباع وحشية غير اجتماعية، ليس لدي في الواقع شيء منها! فلقد كنت خليقا بأن أحب المجتمع كأي فرد آخر، لو لم أكن متأكدا من أن ظهوري فيه ليس في صالحي، فضلا عن أنني أبدي نفسي شخصا آخر غير ما أنا حقيقة؛ ومن ثم فإن الوضع الذي اتخذته وأنا أكتب أعيش في عزلة، هو الوضع الذي يناسبني تماما، وأينما أكون حاضرا لاسبيل إطلاقا إلى تقدير قيمتي، ولو تخمينا. وهذا ما جرى لمدام "**دوبان**"، برغم أنها كانت امرأة ذكية، وبرغم أنني كنت أعيش في دارها لسنوات عدة. ولقد صارحتني - هي نفسها- بذلك كثيرا منذ ذلك الحين. رمع ذلك فإن لهذه القاعدة استثناءات، سأعود إليها فيما بعد (٢).

(١) كان الدواء حبوبا لتليين المعدة. و،من هنا ندرك أنه لم يكن من اللياقة أن يتدخل رجل في حديث السيدتين اللتين لم تكونا سوى: مدام "دي لوكسمبورج" - وهي ربة البيت - ومدام "دي ميربوا"، اللتين سيرد ذكرهما في الكراسة العاشرة. (٢) سنشهد إحدى هذه الاستثناءات فيما سيذكره "روسو" في الكراسة الرابعة عن زيارته لمجلس الشيوخ في «برن» مع كبير الأساقفة.

أما وقد استقر مجال مواهبي عند هذه الحدود ، فقد تعين الوضع المناسب لي واتضح للمرة الثانية، ولم يبق من سؤال سوى: كيف أملأ مكاني؟.. وكانت الصعوبة تتمثل في أنني لم أستكمل دراستي، ولم أكن أعرف – كذلك– من اللاتينية ما يكفي لكي أصبح قسا . وكانت مدام "**دي فاران**" قد فكرت – في بعض الأوقات– في أن أتعلم في المعهد الديني ، وتحدثت إلى رئيسه، وكان راهبا لازاريا(١) يدعى السيد "**جــرو**"– طيبا ، ضئيل الجسم ، أوشك أن يفقد إبصار إحدى عينيه،كما كان هزيلا ، أشيب الشعر. وكان أعظم لا زاري عرفته ذكاء ، وأقلهم غطرسة .. وما هذا القول بكثير عليه في الحقيقة!

وكان يتردد أحيانا على دار "**ماما**" ، فكانت تحتفي به، وتداعبه ، وتعاكسه كذلك ، وتحمله أحيانا على أن يربط لها مشداتها "**الكورسيه**" ، وهي مهمة كان يقبل عليها راضيا! وبينما يكون منهمكا فيها تأخذ في الجري– في الغرفة– من جانب إلى آخر ، لتفعل شيئا هنا ، وشيئا هناك ، والسيد الرئيس يتبعها – مشدودا إلى الخيط –وهو يزمجر ولا ينفك يقول: " ولكن ، اثبتي ياسيدتي ! " .. وكان هذا موضوعا طريفا جديرا بالتصوير!

و تقبل السيد "**جــرو**" مشروع "**ماما**" بتحمس قلبي ، فقنع بأجر متواضع لإقامتي ، وتكفل بتعليمي ، ولم يشترط سوى موافقة الأسقف الذي لم يمنح هذه الموافقة فحسب ، وإنما رغب في دفع نفقات إقامتي ، كما سمح بأن أظل في زيي المدني إلى أن يقضى لي بالنجاح المنشود ، بعد امتحان!

*****

أي تحول هذا !.. وكنت مضطرا إلى الانصياع ، فذهبت إلى المعهد الديني وكأنني ذاهب إلى عقوبةاليمة! فيا للمعهد من مأوى حزين كئيب! لا سيما لمن بارح لتوه دار امرأة حبيبة .. ولم أحمل معي سوى كتاب واحد ، رجوت "**ماما**" أن تعيرنيه، وكان مصدر عزاء كبير لي . ولن يتصور أحد أي كتاب كان ذلك!.. لقد كان كتابا في الموسيقى ! .. فبين المواهب التي تعهدتها "**ماما**" في نفسها ، لم تكن الموسيقى منسية إذ كان لها صوت عذب ، وكانت تجيد الغناء. وتعزف – إلى حد ما – على "**البيــانو**" ، وقد تفضلت بتلقيني بعض دروس في الغناء ، وكان لابد لها من أن تبدأ من الأصول الأولى ؛ إذ إنني كنت لاأكاد أدري شيئا من موسيقى مزاميرنا.

وكانت ثمانية أو عشرة دروس على يدي امرأة– وهي دروس لم يكن سبيل إلى استمرارها دون ما يعكر جوها ويقطع استرسالها – أقل بكثير من أن تمكنني من السلم الموسيقي، أو من الإلمام بالعلامات الموسيقية . على أنني كنت من الشغف بهذا الفن بحيث رغبت في أن أحاول المران بنفسي . ولم يكن الكتاب الذي اصطحبته من الكتب السهلة – في ذاته – فقد تضمن أغاني "**كليرامبو**" . ومن الممكن تصور مدى إقبالي وعنادي، وعندما أقول إنني وفقت – دون دراية ولاتبديل– إلى أن أترجم وأغني ، دون خطأ اللحن الأول من أغنية "**ألفية واريثيز**" وكلماتها .. وإن كان هذا اللحن في الواقع – موزونا بحيث لايستلزم أكثر من إلقاء الشعر مع مراعاة المسافات والوحدة ، لكي يكتسب وقع اللحن!

وكان في المعهد "**لازاري**" لعين تعهدني ، فجعلني أكره اللغة اللاتينية التي أراد أن يلقنني إياها . وكان له شعر ناعم، أسود ينضح بالدهن ، ووجه كرغيف من خبز "**الزنجبيل**"(٢)، وصوت كصوت الجاموس ، ونظرة كنظرة البومة ، ولحية كذقن التيس! .. وكانت ابتسامته ساخرة ، وأطرافه مخلخلة

---

(١) من اتباع مذهب القديس "لازار" في الرهبنة. (٢)نوع من الخبز يخلط دقيقه بالزنجبيل.

كأطراف الدمية!.. ولقد نسيت اسمه البغيض ، ولكن وجهه المخيف ، ذا اللطف المتكلف ، ظل باقيا في ذاكرتي ، لا أكاد أذكره دون أن أرتجف ،. ولاأزال أتصور أنني ألقاه في الردهات ، رافعا في جلال قلنسوته المربعة المتسخة ، مشيرا لي بدخول حجرته ، التي كانت أبغض لدي من غرفة السجن!.. فتصور – على سبيل المقارنة– أستاذا كهذا لتلميذ راهب كان ينتمي إلى البلاط الملكي!

لو قدر لي أن أمكث شهرين تحت رحمة هذا الوحش فإني موقن من أن رأسي ما كان ليحتمل ذلك. ولكن السيد "**جرو**" الطيب لاحظ أنني كنت حزينا ، وأنني لم أكن أقبل على الأكل ، بل كنت ممعنا في الهزال ، فأدرك سر أساي – إذ لم يكن هذا بالأمر العسير– وأنقذني من براثن هذا الحيوان! وبتناقض آخر ، شديد الغرابة هو الآخر، أسلمني إلى ألطف الرجال: وكان راهبا شابا من "**فوسيني**"(١) ، يدعى السيد "**جاتييه**" ، كان موشكا على الفراغ من الدراسة في المعهد، وقد شاء– بدافع من الرغبة في إرضاء السيد "**جرو**" وبدافع من الإنسانية على ما أعتقد – أن يسلب دراساته الوقت الذي وهبه لتلقيني دروسي. والحق أنني أبدا ما رأيت أساريرأكثر تأثيرا في النفس من أسارير السيد "**جاتييه**"!.. فقد كان أشقر ، تميل لحيته إلى الحمرة ، وله الهيئة المألوفة لدى أهل إقليمه الذين يخفون تحت مظهرهم الثقيل ذكاء وافرا. على أن ما كان يميزه حقا هو روح لطيفة ، رحيمة ، مفعمة بالود.

وكان في عينيه الزرقاوين الواسعتين خليط من الرقة والحنان والأسى، تجعل من المستحيل على أي شخص أن يراه دون أن يميل إليه وكان من الممكن أن يقال– من نظرات هذا الشاب المسكين ومسلكه– إنه كان على علم بمصيره ، وإنه كان يشعر بأنه ولد ليكون شقيا!

ولم تكذب شخصيته مظهره ، فقد كان يتميز بالصبر وحب الإرضاء ، مما جعله يبدو أقرب إلى الاستذكار معي منه إلى التدريس لي!.. وكان هذا وحده أكثر من أن يكفي لأن يحملني على حبه.. ومع ذلك، فعلى الرغم من كل الوقت الذي منحنيه ، وعلى الرغم من كل التحمس القلبي الذي وجهه كل منا إلى دراساتنا ، ومع أنه سار على خير نهج فإنني لم أحظ من اجتهاده الجم إلا بتقدم بسيط! ومن الغريب أنني ، بما أوتيت من إدراك واسع، لم أتعلم شيئا من الأساتذة– ما عدا أبي والسيد "**لامبرسييه**". أما القليل الذي عرفته فوق ما علمنيه هذان ، فقد حصلته بنفسي ، كما سيتجلى فيما بعد . فإن روحي التي لاتصبر بل إن الخوف من عدم التعلم يحول دون أن أنتبه ، كما أنني ، خوفا من أن أجعل الشخص الذي يتحدث إلي يفقد صبره . أتظاهر بالفهم؛ ومن ثم يمضي قدما في حديثه ، دون أن أعي شيئا! فلا بد لعقلي من أن يحدد الوقت الذي يروق له للعمل ، ولا يستطيع أن يخضع للوقت الذي يحدده له الغير!

وحان وقت تنصيب معلمي "**شماسا**" حسب الطقوس الدينية المألوفة، فعاد إلى إقليمه، وحمل معه حسراتي،ومحبتي ، وعرفاني. وقد قدمت من أجله نذورا لم تتقبل بأكثر مما تقبلت به النذور التي قدمتها من أجل نفسي. ولقد علمت –بعد ذلك ببضع سنوات– أنه بينما كان نائبا لأبرشية، أنجب طفلا من فتاة كانت هي الوحيدة التي أحبها ، برغم قلبه المسرف في الرقة. وكانت هذه فضيحة شنيعة في أبرشية كانت تخضع لأنظمة شديدة. فإن القساوسة– نظرا لخضوعهم لنظم طيبة – ينبغي لهم ألا ينجبوا أطفالا إلا من نساء متزوجات!!

.. ومن ثم فإن القس الشاب سجن لانتهاكه قانون العفةهذا وفضح ، وجرد من رتبته. ولست أدري ما إذا كان قد استرد مركزه فيما بعد ، ولكن الشعور بسوء حظه نقش بخطوط عميقة على

---

(١) مقاطعة صغيرة في دوقية (سافوا).

قلبي، وقد عاودتني قصته عندما كتبت "**إميل**" فمزجت شخصيتي السيد "**جاتييه**" والسيد "**جايم**"، وجعلت من هذين القسين الفاضلين الشخصية الأصلية لأسقف "**سافوا**"، وإني لأغبط نفسي لأن الشخصية التي خلقتها لم تنل من قدر الشخصيتين الأصليتين!

وفي أثناء وجودي في المعهد الديني كان السيد "**دوبون**" قد اضطر إلى مبارحة "**أنيسي**".. فقد خطر للسيد "**كورفيزي**" وكيل الحكومة أن يستاء من غرامه بزوجته! وكان هذا أشبه بما جرى لكلب البستاني(١).. ذلك لأنه بالرغم من أن مدام "**كورفيزي**" كانت ذات جمال يهفو بالقلوب إلا أن زوجها – الوكيل – كان يعيش معها على شقاق، إذ إن الأهواء التي ورثها عن أهل الجبال النائية جعلت زوجته غير ذات نفع له، فكان يعاملها بوحشية أثارت مسألة الانفصال بينهما، وكان السيد "**كورفيزي**" رجلا شريرا، أسود كالفأر الجبلي، خطافا كالحدأة، وقد انتهى به استغلاله سلطاته إلى طرده من منصبه، ويقال إن أهل الريف يتشفون في أعدائهم بالأغاني، أما السيد "**دوبون**" فقد تشفى بمسرحية هزيلة، وقد أرسل هذه التمثيلية إلى مدام "**دي فاران**"، التي اطلعتني عليها فأعجبت بها، وتولدت لدي نزوة تأليف مسرحية أخرى، لأرى ما إذا كنت قد ظللت "**بهيما**" كما وصفني يوما! على أنني لم أحقق هذا المشروع إلا في "**شامبيري**"، حيث كتبت "**عاشق نفسه**"!

" ومن ثم فإنني عندما قلت في مقدمة هذه المسرحية إنني كتبتها في الثامنة عشرة من عمري، إنما كنت أكذب، إذ إنني تجاوزت عن بضع سنوات!.

*****

وفي حوالي ذلك الوقت، وقع حادث كان قليل الأهمية في حد ذاته ولكنه كان ذا عواقب بالنسبة لي، كما أنه أحدث ضجة في العالم عندما نسيته، فلقد كنت أحرص على التماس الإذن بالخروج من المعهد مرة في كل أسبوع، ولست بحاجة إلى أن أذكر كيف كنت أفيد من ذلك، وفي يوم من أيام الآحاد كنت لدى "ماما" عندما شب حريق فيإ حدى بنايات "**الرهبان السمر**"، وكان ملاصقا لدار مدام "**دي فاران**". وكان هذا المبنى – الذي أقيم فيه فرن الرهبان– مليئا بالوقود الجاف،فسرعان ما أصبح كله شعلة من النار، وأصبحت دار السيدة في خطر عظيم، وقد لفها اللهب الذي حملته إليها الريح.

وصار من الواجب نقل الأثاث بسرعة من الدار، وحمله إلى الحديقة التي كانت مواجهة لنوافذ حجرتي القديمة، حيث كان يجري خلفها الجدول الذي تحدثت عنه. وكنت من الاضطراب بحيث رحت ألقي من النافذة بدون وعي كل ما كان يقع تحت يدي، ولو كان حجرا كبيرا من أحجار الجدار كنت– في الأوقات الأخرى– لا أكاد أقوى على رفعه.. بل إنني أوشكت أن ألقي كذلك بمرآة كبيرة، لو لم يردني شخص ما عن ذلك! ولم يقبع الأسقف الطيب– الذي كان في زيارة "**ماما**" في ذلك اليوم – خاملا، بل إنه انتقل بها إلى الحديقة، حيث شرع يصلي معها، ومع كل من كانوا هناك.. حتى إذا وصلت إلى الحديقة بعد ذلك بقليل، وجدت الجميع جاثين على ركبهم، فحذوت حذوهم. وفي أثناء صلاة الرجل التقي، تغير اتجاه الريح فجأة، وفي اللحظة المناسبة، فإذا السنة اللهب التي كانت تحوط الدار والتي أخذت تسعى إلى النوافذ، تتجه إلى الجانب الآخر من الفناء، فلم يصب البيت بأي سوء!

---

(١) الظاهر أن "روسو" يشير بهذا إلى قصة كانت شائعة بين أبناء عصره.

وبعد ذلك بعامين- وكان السيد "**دي برنيكس**" ، الأسقف، قد توفي- شرع الرهبان الأنطونيون ، وهم زملاؤه السابقون في جمع الأنباء التي يمكن استغلالها في "تطويبه(١) . واستجابة لرجاء الأب "**بوديه**" أضفت إلى تلك الأنباء شهادة بالواقعةالتي ذكرتها ، والتي كنت فيها على صواب ، ولكنني أخطأت إذ قدمتها على معجزة! فلقد رأيت الأسقف وهو يصلي ، ورأيت الريح تتبدل أثناء صلاته ، وفي اللحظة المناسبة تماما .. وكان ينبغي أن أذكر هذا وأشهد به ، أما أي الأمرين كان سببا للآخر ، فهذا ما لم يكن ينبغي لي أن أشهد به ؛لأنني لم أكن أملك أن أعرفه، ومع ذلك فإنني- بقدر ما أستطيع أن أذكر آرائي يومئذ- كنت كاثوليكيا مخلصا؛ ومن ثم فقد كنت صادق الإيمان، ولكن حب الغرائب الخارقة- وهو طبيعي في فؤاد البشر- وتوقيري لهذا الراهب الوقور، والزهو المستتر بأنني ربما كنت قد ساهمت بنفسي في المعجزة، ساعدت على تضليلي ، أما الشيء المؤكد فهو أنه إذا كانت تلك المعجزة نتيجة للصلاة الحارة ، فقد كان من حقي أن أطالب لنفسي بنصيب فيها!

وعندما نشرت "**رسائل الجبل**" - بعد ذلك بأكثر من ثلاثين عاما- نقب السيد "**فريرون**" بطريقة ما عن هذه الشهادة، واستغلها في تعليقاته ، وجدير بي أن أعترف بأن هذا الكشف كان موفقا ، وقد بدا لي إذ ذاك أن إعلانه في تلك المناسبة كان أمرا سارا .

وكان مقدرا لي أن أكون طريد كل المهن . فمع أن السيد "**دي جاتييه**" رفع عن تقدمي في الدراسة تقريرا اعتبرته أقل ما كان بوسعه أن يقدمه، من حيث إساءته إلي إلا أنه رؤي أن تقدمي لم يكن متناسبا مع مجهوداتي ، وأن هذا لم يكن مشجعا على المضي في دراستي ؛ ومن ثم فإن الأسقف ورئيس المعهد فصلاني ورداني إلى مدام "**دي فاران**" كشخص لايصلح ولو لأن يكون مجرد قس ، وإن كان - فيما عدا ذلك- فتى طيبا ، وخلوا من أية رذيلة، كما قالا . وكان هذا هو السبب في أنها لم تنبذني ، برغم تعدد الأحكام المثبطة ضدي!

وأعدت إليها - مزهوا -كتابها الموسيقى الذي أفدت منه ،. وكان لحن "**ألفية وأريثيز**" هو كل ما تعلمت -تقريبا- في المعهد الديني . ولقد أوحى إليها ميلي الملحوظ إلى هذا الفن ، بأن تجعل مني موسيقيا! وكانت الفرصة مواتية، فقد كانت الموسيقى تعزف في دارها مرة في الأسبوع على الأقل. وكان رئيس فريق الكاتدرائية الموسيقي يدير هذه الحفلات الصغيرة، وقد اعتاد أن يتردد كثيرا على الدار.

وكان باريسيا يدعى السيد "**لوميتر**" ، بارعا في التلحين، كثير النشاط ، مرحا جدا ، لايزال شابا، على قسط كبير من الملاحة ، ونصيب قليل من الذكاء .. لكنه كان - في مجموعه- طيبا . وقد عرفتني به "ماما" فملت إليه ، كما أنه لم ينفر مني . وبحث أمر الأجر، وتم الاتفاق ، وبإيجاز، ذهبت إلى داره ، حيث قضيت أحب شتاء لدي ، إذ إن الدار لم تكن تبعد أكثر من عشرين ياردة عن منزل "ماما" فكان بوسعنا إن نكون إلى جانبها في أية لحظة وكثيرا ما تناولنا عشاءنا معها.

ولابد أنكم أدركتم أن الحياة في دار "**لوميتر**" - بما فيها من غناء دائم ، ومن صحبة الموسيقيين والأطفال المنشدين"**الكورس**" - قد راقت لي أكثر من حياة المعهد الديني مع رهبان القديس "لازار" . على أن هذه الحياة، وإن كانت أكثر حرية إلا أنها لم تكن أقل نظاما . فقد روضت على حب الاستقلال دون أن أنسى استغلاله البتة ، ففي ستة أشهر كاملة، لم أخرج مرة واحدة إلا لأذهب إلى بيت "ماما" أو إلى الكنيسة ، ومع ذلك فإنني لم أشعر بشوق إلى الخروج ، كانت تلك إحدى فترات

---

(١) التطويب في المسيحية هو أن يعلن البابا- أو البطريرك لدى الأرثوذكس - بأن شخصا قد حظي بالتمجيد في السماء ، فأصبح في عداد القديسين- إذا كان ميتا - أو اقترب من القداسة ، إذا كان على قيد الحياة.

حياتي التي عشت خلالها في أعظم دعة ، والتي أذكرها بأعظم اغتباط ، فمن بين الأوضاع المتباينة التي وجدت نفسي فيها – أوضاع امتازت بشعور من السكينة والدعة يجعلني– حين أذكرها . أتأثر بها وكأنني ما أزال فيها . فلست أذكر الأوقات والأماكن والأشخاص فحسب، وإنما أذكر كل الأشياء التي كانت تحيط بي ، وحرارة الجو ، وعبير الوسط ، ولونه ، وأي طابع محلي لايوجد إلا هناك ، بحيث تردني ذكراه الحية إلى هناك من جديد! .. مثال ذلك أن كل ما كان يتردد في دار رئيس الفريق الموسيقي ، وكل ما كان الفريق يترنم به ، وكل ما كان يحدث هناك ، وزي الشمامسة الجميل ، ومسوح القساوسة ، وتيجان المرتلين، ووجوه الموسيقيين، ونجار أعرج طاعن في السن كان يعزف على الكمان الكبير"**الكونترباس**"، وراهب صغير أشقر يعزف على الكمان العادي ، والرداء الكنسي المهلهل الذي كان السيد"**لوميتر**" يرتديه فوق لباسه المدني بعد أن ينزع عنه سيفه والقميص الاكليروسي البديع ، الرقيق النسيج ، الذي كان يسترب الرداء البالي عندما يسعى إلى فرقة المرتلين، والزهو الذي كنت أسير به– وأنا ممسك بصافرتي الصغيرة– لأتخذ مكاني مع العازفين على المنصة، لأشترك في ختام مقطوعة صغيرة لحنها السيد "**لوميتر**" خصيصا من أجلي.. ثم الغداء الطيب الذي كان ينتظرنا بعد ذلك، والشهية الملحوظة التي كنا نقبل بها عليه .. هذا التتابع الحافل، الذي أتمثله، قد فتنني– في ذكره– أكثر مما فتنني في الحقيقة مائة مرة!

ولقد احتفظت دائما بميل عاطفي للحن معين من "**كونديتور آلمي سيديرم**" يرافق شعرا من بحر الغمب(١) ، لأنني سمعته مرة – في يوم أحد الصوم الكبير– وأنا مستلق في فراشي ، وكان يرتل على درج الكاتدرائية قبيل انبثاق النهار ، وفقا لعادات تلك الكنيسة. ولقد كانت الآنسة "ميرسيريه"– وصيفة "ماما"– على دراية بقسط من الموسيقى . ولن أنسى البتة أرجوزة دينية صغيرة كان السيد "**لوميتر**" يحملني على أن اغنيها معها ، فكانت سيدتها تصغي إليها في طرب عظيم.

وقصارى القول إن الجميع ، حتى الخادم الطيبة "**بيرين**"–وهي فتاة ساذجة اعتاد الفتية المرتلون أن يثيروا غيظها– هؤلاء جميعا يمثلون للخاطر من بين ذكريات تلك الأيام الهنيئة البريئة ، التي كثيرا ما تتراءى لي لتطربني وتحزنني!

وعشت في "**انيسي**" زهاء عام دون ما لوم ولاتثريب ، فقد كان الناس كلهم راضين عني ، فإنني – مذ غادرت "**تورين**" لم أرتكب حماقة ، وما كان لي أن أرتكب ما دمت تحت بصر "ماما" ، فقد كانت ترشدني ، وكانت دائما تحسن إرشادي، وأصبح تعلقي بها هو عاطفتي المشبوبة الوحيدة، ومما يدل على أنها لم تكن عاطفة رعناء، أن قلبي كان يكون عقلي وإدراكي ، ومن الصحيح أن ثمة إحساسا واحدا كان يبتلع – كما ينبغي أن يقال– كل مقدراتي وكفاءاتي ، فجعل في غير استطاعتي أن أتعلم شيئا،حتى الموسيقى، بالرغم من أنني بذلت كل جهدي . على أنه لم يكن ذنبي!.. فقد كانت العزيمة الطيبة متوفرة على أتم وجه ، كما كانت المثابرة موجودة . ولكنني كنت شارد الذهن ، حالما .. فكنت أتنهد : ما الذي أملك أن أفعله ؟ لم يكن ينقص تقدمي شيء من الأشياء المتوقفة علي أنا ، ولم أكن أحتاج– لكي أرتكب حماقات جديدة– إلى غير موضوع أو شخص "**ملهم**" يوحي إلي بهذه الحماقات!.. ولقد ظهر هذا الموضوع ، إذ تولت المصادفة تدبير الأمور ، وعرف رأسي الغبي كيف يستغل ذلك، كما سترى مما يلي:

ففي إحدى أمسيات شهر شباط (فبراير) البارد، سمعنا طرقا على الباب الخارجي ، بينما كنا نحيط بالمدفأة،وحملت "**بيرين**" مصباحها ، وهبطت ففتحت الباب ، وإذا بشاب يدخل ، ويصعد

---

(١) بحر من الشعر الاعجمي تكون القافية فيه مؤلفة من كلمات ذات مقطعين.

معها ، ويقدم نفسه في غير كلفة ، ويوجه إلى السيد **"لوميتر"** تحية قصيرة ، لبقة ، ويعلن أنه موسيقي فرنسي دفعه سوء حالته المالية إلى أن يعرض خدماته على كنائس الأبراشيات ليحصل على ما يمكنه من مواصلة الانطلاق في طريقه .، وإزاء هذه الكلمات من "الموسيقي الفرنسي" ، خفق قلب **"لوميتر"** الطيب، فقد كان يتدله في حب بلده وفنه.

واحتفى بالمسافر الشاب ، وعرض عليه مأوى لليلته ، وهو ما كان يبدو في أمس الحاجة إليه، ومن ثم فقد قبله دون كثير كلفة ، وأخذت أتفحصه وهو يتدفأ ويسمر في انتظار العشاء.

كان قصير القامة ، عريض المنكبين، وكان ثمة عيب - لم أدر كنهه - في قوامه ، دون ما نقص معين أو تشويه محدد . كان - إذا صح التعبير- ذا ظهر محدودب ، مع استواء لوحي الكتفين ، كما أظن أنه كان يعرج قليلا في مشيته ،. وكان في ثوب أسود أبلاه الاستعمال المستمر أكثر مما أبلاه القدم، فتهلهل .. وقميص من نسيج ثمين ولكنه جد متسخ ، به زوائد ذات حواف دقيقة الوشي تزين صدره ، وطماقين(١) كان بوسعه أن يدس ساقيه معا في أي منهما! .. كما كان يتقي الصقيع بقبعة صغيرة يستطيع أن يدسها تحت إبطه ! .. ومع هذا الزي المضحك فإنه كان على شيء من النبل لم تكن هيئته تكذبه ، كانت طلعته رقيقة بشوشة ، وكان يتكلم بطلاقة ولباقة ، ولكن في تواضع جم.. كان كل شيء فيه ينم عن شاب ماجن - وإن كان طيب التربية- لم يكن يستجدي كالمتسولين، وإنما كالمجانين ! ولقد أنبأنا بأنه يدعى **"فينتور دي فيينيف"** ، وقد وفد من باريس، وضل الطريق.. وأنه نسي إلى حد ما ، دوره كموسيقي . وأضاف أنه كان ذاهبا إلى **"جرينوبل"** ليقابل قريبا له عضوا في البرلمان.

وأثناء العشاء دار الحديث حول الموسيقى ، فأجاد الكلام عنها . كان يعرف كبار العازفين جميعا، وكافة المؤلفين الذائعي الصيت ، وكل الممثلين ، وجميع الممثلات ، وحسان النساء طرا، والسادة العظماء بأسرهم! كان يبدو ملما بكل شيء يقال ، ولكن ما إن يثار موضوع ، حتى يحول عنه الانتباه ببعض الفكاهات التي تبعث على الضحك وعلى نسيان ما يقال! .. وكنا في يوم السبت ، ومن المقرر أن نعزف في الكاتدرائية في اليوم التالي، فاقترح عليه السيد **"لوميتر"** أن يشترك في الغناء هناك.. "عن طيب خاطر!" .. فسأله عن طبقة الصوت .. **"الطبقة العليا"**، ثم مضى يتحدث عن شيء آخر! .. وقبل الذهاب إلى الكنيسة ، قدم إليه دوره ليطلع عليه ، فلم يلق عليه نظرة، وأذهل تصرفه هذا **"لوميتر"** فهمس في أذني : "لسوف ترى أنه لا يعرف علامة احدة من العلامات الموسيقية!" فأجبت: شد ما أخشى أن يكون كذلك" . رحت أرقبه في قلق ، حتى إذا بدئ الغناء ، خفق قلبي في قوة كبيرة ، فقد كنت شديد الاهتمام به ، وسرعان ما تبينت ما طمأنني ، إذ إنه غنى قطعتيه بأداء صحيح وبكل ذوق سليم يمكن تصورهما ، وفوق ذلك، بصوت بالغ الجمال . أبدا لم ألق مثل هذه المفاجأة المستحبة! وبعد القداس، تلقى السيد **"فينتور"** التهاني ، جزافا من الكهنة والموسيقيين ، فكان يجيب عنها متفكها، ولكن في كثير من الكياسة دائما، وعانقه السيد**"لوميتر"** بحرارة، وكذلك فعلت أنا ، وقد أبصر أنني كنت مغتبطا ، فبدا أن هذا سره!

وإني لواثق من أن القارئ سيقرني على أنني وقد أولعت بالسيد **"باكل"** - الذي لم يكن برغم كل شيء سوى قروي جلف- كنت حريا بأن أشغف بالسيد **"فينتور"** الذي أوتي ثقافة وتربية ومواهب وذكاء وخبرة بالدنيا، والذي كان من الممكن أن يوصف بأنه ماجن مستحب! .. وكان هذا عين ما حدث لي ، وما أظن أنه كان حريا بأن يحدث لأي شاب آخر في مكاني ، بل إن سهولة حدوثه كانت

---

(١) الطماق وقاء يعلو الحذاء ويعض الساق ، وقد اشتهر باسمه الاعجمي "جيتر" أو "طزلك".

خليقة بأن تزداد كلما كان المرء أسلم رأيا في إدراك الكفاءة ، وكلما كان أشد استعدادا لأن يفتتن بها. فليس من شك في أن "فينتور" قد أوتي كفاءة نادرة في مثل سنه ، تلك هي عدم الاندفاع إلى الكشف عن كل ما اكتسب من معرفة وتجربة وخبرة . ومن الصحيح أنه كان يتشدق بأشياء كثيرة لم يكن على علم بها ، ولكنه لم يكن يقول شيئا عن الأشياء التي كان على إلمام طيب بها ، التي كانت كثيرة العدد.. وإنما كانت ينتظر حتى تحين مناسبة لعرضها ، فإذا ما حانت انتهزها دون تلهف واندفاع، فكان هذا يحدث أكبر الأثر . ولما كان يقف عقب كل موضوع ، فلا يحدث عما عداه؛ لذلك لم يكن من سبيل إلى التكهن بالوقت الذي يفرغ عنده من عرض كل ما كان لديه.. كان في حديثه مداعبا ، مرحا ، لاينضب له معين، ذا جاذبية خلابة.. يبتسم دائما ولايضحك أبدا ، ويتكلم بأرق لهجة عن أشد الموضوعات جفافا ، فيجعلها مستساغة!.. حتى أشد النساء حياء كن يذهلن لما يتحملنه منه، وكم شعرن بأن من الخليق بهن أن يظهرن له الغضب ، فلم يجدن القدرة على ذلك! .. ولم يكن ينشد من النساء سوى المومسات. ولست أعتقد أنه خلق ليكون ذا ثروة وجاه ، ولكنه خلق ليثير إيناسا ومرحا لا حد لهما في مجالس أولئك الذين أوتوا الجاه والثراء ! وكان من العسير أن يبقى محصورا في وسط الموسيقيين طويلا وهو الذي يملك مثل هذه المواهب المستحبة، في بلاد تقدرها وتحبها!

ولقد كان ميلي إلى السيد "فينتور" أكثر رشدا في أسبابه وأقل انحرافا على الصواب في نتائجه ، بل وأكثر حرارة وأطول بقاء من حبي للسيد "باكل" .. فلقد أحببت أن أراه ، وأن أسمعه ، وكان كل ما يفعله يبدو لي رائعا ، وكل ما يقوله يبدو لي آيات منزلة ، ولكن افتتاني به لم يذهب إلى الدرجة التي لاأطيق معها فراقه، فلقد كان لي في الجيرة وقاء عاصم من هذا الشطط (١) وإلى جانب ذلك شعرت بأن مبادئه ، وإن كانت جد صالحة له ، إلا أنها لم تكن تصلح لي ، فلقد كنت أهفو إلى نوع آخر من المتع لم تكن لديه أية فكرة عنه ، بل إنه كان حريا بأن يسخر مني من أجله! ومع ذلك فلقد وددت أن أربط هذا الود، بذاك الذي كان يسيطر علي ، فتحدثت عنه إلى "ماما" في وجد وحرارة ، كما أن "لوميتر" حدثها عنه في إطناب ، فرضيت بأن يحضر إلى دارها . ولكن هذا اللقاء لم يكن موفقا على الإطلاق. إذ إنه وجد "ماما" متحذلقة، بينما وجدته هي ماجنا ، وخشيت علي من مثل هذه المعرفة السيئة، فلم تكتف بأن حرمت علي إحضاره إلى الدار مرة أخرى ، بل أنها راحت تبين لي - بوضوح قوي - الأخطار التي أتعرض لها مع هذا الشاب ، حتى إنني ازددت تحفظا في اندفاعي نحوه ، ولحسن حظ أخلاقي وإدراكي ،لم نلبث أن افترقنا بعد قليل!

*****

كان للسيد "لوميتر" ما لأبناء فنه من ميول ، فكان يحب النبيذ على أنه كان يزهده إذا ما جلس إلى المائدة ، أما أثناء عكوفه على العمل في مكتبه فقد كان لابد له من أن يشرب . وكانت خادمه تعرف ذلك تماما، فكان إذا ما أعد ورقه للتأليف ، وحمل كمانه ، لحقت به قنينة الشراب والكأس بعد لحظة!.. وكانت تستبدل بها قنينة أخرى مليئة بين آن وآخر، فقد كان يكثر من النبيذ دون أن يثمل. وكان هذا في الحق شيئا يدعو للرثاء ، إذ إن "لوميتر" كان فتى طيبا بفطرته ، وطروبا، حتى إن "ماما" لم تكن تدعوه إلا بـ"قطي الصغير" !.. وكان -لسوء الحظ- مشغوفا بموهبته الموسيقية، فكان

---

(١) يقصد مدام "دي فاران"، إذ كان بيتها مجاوراً لدار السيد "لوميتر".

يسرف في العمل ، وبالتالي في الشراب . وقد أثر هذا على صحته ، ثم علي طباعه في النهاية ، فكان في بعض الأوقات كثير الهواجس سهل الاستثارة. وكان عاجزا عن أية خشونة أو غلظة ، عاجزا عن أن يقصر في منح كل إنسان حقه من الاحترام، فما قال يوما سبة ، ولو لصبي من المرتلين. وكذلك لم يكن أحد ليقصر في احترامه وتقديره ، وكان هذا عدلا!.. ولكن سوء حظه تمثل في أنه كان قليل الذكاء ، لايميز بين التصرفات ولا بين الشخصيات؛ ومن ثم فكثيرا ما كان يتوهم الإساءة لغير ما سبب!

ولقد فقد مجمع أساقفة "**جنيف**" القديم- الذي كان كثير من الأمراء والأساقفة يتشرفون بدخوله- بهاءه القديم ،في مهجره، ولكنه احتفظ بكرامته وكبريائه. فلا بد دائما – للانضمام إليه – من أن يكون المرء من السادة، أو من حاملي درجة الدكتوراة من "**السربون**" ، وإذا كان ثمة فخر مباح بعد ذاك المستمد من الكفاءة الشخصية ، فذاك هو الفخر المستمد من المولد ، هذا إلى جانب أن كل القساوسة الذين أوتوا رجالا مدنيين في خدمتهم ، كانوا يعاملونهم عادة بكثير من الترفع والتعالى. وهكذا كان رجال الكنيسة يعاملون "**لوميتر**" المسكين في كثير من الأحيان، لاسيما المرتل الذي كان يدعى السيد الأب "**دي فيدون**" ، والذي كان في كافة النواحي الأخرى موفور الأدب ولكنه شديد الزهو بنبل أصله ، فقد كان لايولي "**لوميتر**" دائما حقه من التقدير الذي تؤهله له مواهبه ولم يكن هذا ليحتمل راضيا الغض من شانه .، ولقد وقع بينهما في "**أسبوع الآلام**" – من ذلك العام- نزاع أشد احتداما من ذي قبل ، بسبب ترتيب الحضور في مادبة عشاء اعتاد الأسقف أن يقيمها لرجال الكنيسة ، وكان "**لوميتر**" يدعى إليها دواما .

فقد أبدى له المرتل بعض الازدراء الصريح ، ووجه له كلمات قاسية لم يستطع أن يتحملها ؛ومن ثم فقد عقد العزم لفوره على أن يفر في الليلة التالية، ولم يستطع شيء أن يثنيه ، برغم أن مدام "**دي فاران**" – التي ذهب إليها ليودعها – بذلت قصارى جهدها لتحوله عن عزمه . فما كان بوسعه أن ينزل عن لذة الثأر لنفسه من طغاته بأن يوقعهم في مأزق في عيد الفصح، وهو الوقت الذي كانت تمس فيه الحاجة إليه. على أن الحانه كانت أشد بواعث حيرته ، فقد أراد أن يحملها معه ، ولم تكن هذه بالمهمة السهلة؛ لأن الألحان كانت تملأ صندوقا كبيرا وعظيم الثقل ، بحيث لايمكن حمله تحت الذراع.

ولقد فعلت "ماما" ما كان ينبغي أن تفعله – وما كنت أنا الآخر أفعله لو أنني كنت في مكانها- فبعد كثير من الجهود غير المجدية لحمله علي البقاء ، رأت أنه قد صمم على الرحيل مهما يحدث ، فتحولت إلى التطوع لمساعدته في كل ما يمكن أن يعتمد عليها فيه، وإني لأجرؤ على القول بأن هذا كان واجبا عليها نحوه ، إذ كان "**لوميتر**" قد وقف نفسه- كما ينبغي أن يقال – لخدمتها . وكان رهن إشارتها تماما، سواء فيما يتعلق بفنه، أو فيما يحتاج إلى عنايته، وكان التحمس القلبي الذي اعتاد أن يبديه في أداء رغباتها ، يضاعف من قيمة حرصه على إرضائها ؛ ومن ثم فإنها – بما أبدته من رغبة في مساعدته – إنما كانت تؤدي لصديق ، في مناسبة حرجة ، ما يقابل كل ما فعله من أجلها في مناسبات كثيرة متفرقة- خلال ثلاث أو أربع سنوات – وإن كانت قد أوتيت نفسا لاتحتاج ، لكي تؤدي مثل هذه الواجبات ، إلى من يذكرها بأنها التزامات عليها. لذلك استدعتني ، وأمرتني بأن أرافق السيد "**لوميتر**" حتى "**ليون**" على الأقل ، وأن أظل ملازما له أطول وقت يكون فيه بحاجة إلي. ولقد اعترفت لي فيما بعد بأن الرغبة في إقصائي عن "**فينتور**" كانت ذات شأن كبير في هذا الإجراء .

وتشـاورت مع "**كلود آنيـه**" – خادمها الأمين– بصـدد نقل الصندوق ، فكان من رأيه أننا بدلا من أن نستأجر دابة لحمله من "**أنيسي**"– مما يعرضنا للافتضـاح– يجب أن نتولى نحن حمل الصندوق إذا ما جن الليل ، إلى مسافة معينة ، ثم نستأجر حمارا من إحدى القرى لنقله إلى "**سيسل**" ، حيث نصبح على أرض فرنسيـة فلا نكون معرضين لأي خطر ، وقد أخذنا بهـذه النصيحة، فرحلنا في الساعة السابعة من مساء اليوم ذاته ، واتخمت "**ماما**" كيس نقود "**القط الصغير**" المسكين ، بمبلغ لم يكن عديم النفع له ، بحجة دفع نفقاتي .

وحمل "**كلود آنيه**" والبستاني وإياي الصندوق – بقدر ما استطعنا– حتى أول قرية ، حيث أعفانا منه حمار.. وبلغنا "**سيسل**" في الليلة ذاتها.

واعتقد أنني أشرت من قبل إلى أن ثمة أوقاتا لاأشبه فيها نفسي في شيء، حتي لأبدو شخصا آخر ذا شخصية مخالفة لشخصيتي . وها كم مثالا لذلك : فإن السيد "**ريديليـه**"– راعي كنيسـة "**سيسل**" – كان من قساوسة كنيسة القديس "**بطرس**" ؛ ومن ثم كان يعرف "**لوميتر**" ، كما كان من الذين ينبـغي على هذا أن يتـوارى عنهم ولكنني رأيت نـقيض ذلك ، فنصحت بأن نـذهب فنقـدم نفسينا إليه بحجة ما ، نسأله مأوى لليلتنا ، وكأننا في "**سيسل**" بموافقة من "المجمع" !

واستساغ "**لوميتر**" هذه الفكرة التي تجعل ثاره ساخرا، لاذعا؛ ومن ثم سعينا متجلدين إلى دار السيد "**ريديليه**" الذي أحسن استقبالنا، وذكر له"**لوميتر**" أنه كان في طريقه إلى "**بيلاي**" بناء علي طلب من الأسقف ، ليدير موسيقاها في عيد الفصح وأنه يتوقع أن يعود بعد أيام قلائل. أما أنا فقد كان علي – لكي أدعم هذه الأكاذيب – أن أسكب مائة أكذوبة أخرى ، بشكل طبيعي ، حتى إن السيـد "**ريديليـه**" – إذ رآني فتى جميلا – أبدى لي الود وعانقني ألف مرة. وحظينا بحفاوة طيبة، وبمضجعين مريحين. ولم يدر السيد "**ريديليـه**" إلى أي حد رفع قدرنا ، وافترقنا كأحسن أصدقاء في العالم، بعد أن وعدناه بأن نمكث وقتا أطول في عودتنا . ولم نكد نقوى على الانتظار حتى نخلو إلى نفسينا لنطلق العنان لقهقهتنا.

وأصارحكم أني ما أزال أفعل الشيء ذاته كلما فكرت في تلك الحيلة ، فلست أتصور البتة حيلة ماكرة أكثر إحكاما ولا أسعد مصيرا منها . وقد كانت جديرة بأن تنعش نفسينا طيلة الرحلة، لولا أن "**لوميتر**"– الذي لم يكف عن الشراب وعن التنقل بين حانات الريف– أصيب مرتين أو ثلاثا بنوبات كادت تقضي عليه ، وكانت شديدة الشبه بالصرع ، وقد زج بي هذا في مآزق أفزعتني ، وحملتني على التفكير في الخروج من الأمر كله بقدر استطاعتي!

وذهبنا إلى "**بيـلاي**" لنقضي عيد الفصح ، كما قلنا للسيد"**ريديليـه**" ، ومع أن أحـدا لم يكن يتوقع حضورنا ، إلا أننا لقينا من رئيس موسيقى الكنيسة ترحيبا ، كما احتفى بنا الجميع بسرور بالغ. فقد كان للسيـد" **لوميتـر**" صيت ذائع في فنه، وكان يستحقه عن جدارة . ولقد تاه رئيس موسيقيي "**بيـلاي**" فخرا بعرض أبدع ألحانه عليه ، وسعى للحصول على تقريظ ناقد مثله ، فقد كان "**لوميتر**" خبيرا ، وكان إلى جانب ذلك منصفا دائما ، متحررا من الغيرة، بعيدا عن الرياء. كان أرفع مكانة من كل رؤساء فريق المرتلين الإقليمية ، وقد كانوا يدركون ذلك كل الإدراك ، حتى إنهم كانوا ينظرون إليه كرئيس لهم أكثر منه كزميل!

وبعد أن قضينا أربعة أو خمسة أيام– على خير حال– في "**بيلاي**" استأنفنا الرحيل ، ومضينا في طريقنا دون ما حوادث سوى تلك التي ذكرتها من قبل . وإذ بلغنا "**ليون**"، نزلنا في فندق "**نوترادام**

دي بيتييه" . وفيما كنا ننتظر وصول الصندوق – الذي استطعنا بفضل أكذوبة أخرى أن نرسله على مركب في نهر "**الرون**" بمعونة راعينا الطيب: السيد "**ريديليه**" – ذهب السيد "**لوميتر**" لزيارة معارفه، ومنهم الأب "كاتون"، (أحد الرهبان السمر، وسوف يرد ذكره فيما بعد)، والراهب "**دورتان**" ، كونت "**دي ليون**" . وقد تلقاه الاثنان في إكرام ولكنهما غدرا به فيما بعد، كما سيتبين القارئ في الحال. فلقد نفد حسن حظه في دار السيد "**ريديليه**"!

بعد يومين من وصولنا إلى "**ليون**" ، كنا نجتاز شارعا صغيرا ، بالقرب من فندقنا ، وإذا "**لوميتر**" يصاب بإحدى نوباته ، وكانت من العنف بدرجة أفزعتني ، فرحت أصيح وأصرخ مستنجدا ، وذكرت اسم الفندق ، راجيا نقله إلى هناك. وبينما التف الناس حوله ، متحمسين لمعونة رجل سقط في الطريق فاقد الوعي وقد أخذ الزبد يفور على فمه، وإذا به يمنى بهجر الصديق الوحيد الذي كان من حقه أن يعتمد عليه . إذ إنني انتهزت اللحظة التي لم يكن فيها أحد يفكر في أمري ، وتسللت حول ركن الشارع ، ثم اختفيت ، وإني لأحمد السماء إذ أدليت بهذا الاعتراف الأليم الثالث ، ولو كان لدي كثير من هذا النوع لهجرت هذا المؤلف الذي بدأته.

لقد بقيت آثار من كل الذي ذكرته حتى الآن، في الأماكن التي عشت فيها ، ولكن الذي سأورده في الكراسة التالية يكون مجهولا تماما.. إنها أعظم حماقات حياتي، وقد كان من حسن الحظ أنها لم تفض إلى نهايات أسوأ مما انتهت إليه.

ولكن رأسي كان قد فقد اتزانه ، ثم استرده من تلقاء ذاته، وإذ ذاك كففت عن الحماقات ، أو أنني لم أعد أرتكب منها سوى ما هو أكثر ملاءمة لطبيعتي ! وهذه الفترة من شبابي هي إحدى الفترات التي تضطرب ذكراها في رأسي ، إذ إنه لم يمر بي خلالها من الأحداث شيء مشوق لقلبي بدرجة تكفي لأن أحتفظ له بذكرى واضحة؛ ومن ثم فمن العسير ألا أرتكب بعض أخطاء أخلط فيها بين الأزمنة أو الأماكن ، أثناء مثل هذه الروحات والغدوات ، وفي خلال التطورات العديدة المتتابعة .. إنني أكتب معتمدا على ذاكرتي تماما، دون ما مذكرات ، ودون ما مواد تعينني على التذكر .. وفي حياتي أحداث لاتزال حاضرة وكأنها وقعت لتوها ، ولكن هناك كذلك ثغرات وفراغات لاأملك أن أملأها إلا بروايات مهوشة كتلك الذكريات المتبقية لها ؛ ومن ثم فإنني معرض للخطأ أحيانا، كما أنني قد أرتكب الخطأ ثانية – في مسائل غير مهمة– إلى أن يحين الوقت الذي أملك فيه عن نفسي معلومات أوثق . أما في كل ما له أهمية حقيقية من الموضوعات ، فإنني مطمئن إلى دقتي وأمانتي ، اللتين سأحرص عليهما دائما في كل شيء وللقارئ أن يثق بذلك.

*****

ما إن غادرت السيد "**لوميتر**"حتى استقر عزمي ، فكررت عائدا إلى "**أنيسي**" . وكنت قد شغلت بسبب غموض رحيلنا إلى درجة كبيرة من أجل سلامة إقامتنا. وقد صرفني هذا الانشغال – الذي استغرق كل اهتمامي– أياما عن التفكير في العودة. على أن الشعور بالسلامة لم يكد يعفيني من القلق، حتى عاد وجدي إلى سيطرته وسلطانه ، فلم يهف بقلبي أو يغريني شيء سوى أن أعود إلى "ماما" . كان صدق تعلقي بها ورقته قد اجتثا من فؤادي كل حماقات الطموح، ولم أعد أرى سعادة إلا في العيش معها، ولاسرت خطوة دون أن أشعر بأنني كنت أبتعد عن هنائي ؛ ومن ثم عدت إليها بأسرع ما كان ممكنا .وكان سفري متعجلا ، وذهني شاردا ، إلى درجة أنني وإن كنت أذكر بكثير من

السرور رحلاتي الأخرى، فلست أملك أتفه ذكرى لهذه الرحلة، اللهم إلا مغادرتي "ليون" ووصولي إلى "أنيسي" .. ومن ذا الذي يتصور أن تخبو هذه الأخيرة من ذهني! .. فعند وصولي لم أجد مدام "**دي فاران**" .. كانت قد رحلت إلى "**باريس**"!

ولم يقدر لي قط أن أعرف سر هذه الرحلة.. ولقد كانت هذه السيدة خليقة بأن تذكره لي ، لو أنني ألححت ، فهذا ما أثق به كل الثقة . ولكن أحدا لم يكن قط أقل مني فضولا إزاء أسرار الأصدقاء إذ إن قلبي لايفعم بغير الحاضر ، وهو يمتلئ به تماما ، فلا يبقى فيه ركن خال لأي شيء من الماضي، ما عدا المتع السالفة، التي تؤلف بعد ذلك لذتي الوحيدة! .. على أن الذي أتخيله- من القليل الذي أنبأتني به "**ماما**"- هو أن الثورة التي قامت في "**تورين**" بسبب نزول ملك "**سردينيا**" عن عرشه جعلتها في خوف من أن تغدو منسية ، فشاءت - بفضل حيل السيد "**دوبون**"- أن تسعى للحصول على نفس ما كان لها من امتيازات ، من بلاط "**فرنسا**" الذي كانت كثيرا ما تقول لي إنها تفضله على بلاط ملك "**سردينيا**" ، لأن المرء- في غمرة الشؤون الهامة الكثيرة التي يشغل بها ذلك البلاط الفرنسي- لايظل تحت رقابة صارمة .. وإذا كان الأمر كذلك فمن الغريب حقا أنها لم تقابل- عند عودتها - بوجوه عابسة، وأنها ظلت تستمتع بمعاشها باستمرار، ودون انقطاع. ولقد اعتقد كثير من الناس أنها كانت مكلفة بمهمة سرية: إما من قبل الأسقف - الذي كانت له بعض شؤون في البلاط الفرنسي- وإما من قبل شخصية أعظم سلطانا ، كانت تعرف كيف تضمن لها عودة سعيدة!. والمؤكد - إذا كان الأمر كذلك- أن اختيار مدام "دي فاران" كرسول ، لم يكن بعيدا عن الصواب ، فقد كانت تملك كل المؤهلات اللازمة لإنجاح أية مفاوضات لاسيما وأنها كانت لاتزال شابة.. وجميلة!

الكراسة الرابعة

٦- من سنة ١٧٣١ إلى سنة ١٧٣٢

وصلت فلم أجدها ، فتصور مدى دهشتي وأساي!.. إذ ذاك ، بدأ ندمي على التخلص من السيد "**لوميتر**" يتخذ شكلا محسوسا ، لم يلبث أن ازداد حدة عندما سمعت بما أصابه من نحس ، فإن الصندوق الموسيقي الذي كان يحتوي على كل ثروته.. هذا الصندوق الثمين الذي أنقذ بكثير من العناء ، انتزع منه عند وصوله إلى "**ليون**" ، بناء على أمر الكونت "**دورتان**" الذي كتب إليه مجمع القساوسة يطلعه على التهريب .. وعبثا طالب "**لوميتر**" بثروته ، بوسيلة معاشه ، بنتاج عمله طيلة العمر! وكانت ملكية الصندوق تستحق أن تكون موضوع نزاع قضائي على الأقل ، بيد أن شيئا من هذا لم يحدث ، فقد حسم الأمر في الحال- بحكم قانون الأقوى !- وبهذا فقد "**لوميتر**" المسكين ثمرة مواهبه .. جهد شبابه ومعين شيخوخته!

ولم يكن ينقص الضربة التي تلقيتها شيء كي تصبح مضنية ولكني كنت في سن ليس للأحزان فيها قبضة تذكر ، فسرعان ما ابتدعت لنفسي أسباب العزاء.. فرحت أتوقع أن أتلقى عما قريب أنباء من مدام"**دي فاران**" برغم أنني لم أكن أعرف عنوانها، كما كانت هي تجهل أنني رجعت .. أما بصدد التخلي عن السيد "**لوميتر**" فإنني بعد التأمل في هذا الأمر لم أجد فيه ذنبا بالغا ، فلقد كنت نافعا له في فراره ، وهذه هي الخدمةالوحيدة التي كانت تتوقف علي. . ولو أنني بقيت معه في "**فرنسا**" لما شفيته من علته ، ولما أنقذت صندوقه ، ولما فعلت سوى أن أضاعف نفقاته دون أن أملك له نفعا .. هكذا رأيت الأمر، إذ ذاك ، وإن كنت أراه اليوم على النقيض. فإن التصرف الخسيس لايكربنا عند ارتكابه وإنما يصبح مصدر هم لنا عندما نذكره بعد وقت طويل؛ لأن ذكراه لاتخمد قط!

وكان الدورالوحيد الذي استطعت أن أقوم به للحصول على أنباء "ماما" هو أن أنتظر ، وإلا فأين كنت أبحث عنها في "**باريس**"، وبأي نفقات كنت أقوم بالرحلة ؟ لم يكن ثمة مكان أكثر ضمانا من "**أنيسي**" لمعرفة مقرها ، إن عاجلا أو آجلا.

ومن ثم فقد مكثت بها ، ولكني أسأت التصرف إلى حد كبير؛ إذ إنني لم أذهب إطلاقا لزيارة الأسقف الذي كفلني من قبل- والذي كان بوسعه أن يكفلني من جديد – فإن راعيتي لم تعد على مقربة منه ، وقد خشيت اللوم منه على ذلك الهرب.

وكذلك لم أعد أذهب إلى المعهد الديني ، إذ إن السيد "**جرو**" لم يعد هناك.. ولم أر أحدا من معارفي ، وإن كنت قد تمنيت أن أذهب لزيارة زوجة وكيل الإدارة، لولا أنني لم أجرؤ قط!.. بل إنني ارتكبت ما هو أسوأ من كل هذا ، فقد سعيت إلى السيد"**فينتور**"، الذي لم أفكر فيه البتة منذ رحيلي ، برغم شغفي به، فوجدته متألقا مكرما في "**أنيسي**" بأسرها ، والنساء يتزاحمن عليه ! وقد أفقدني هذا التوفيق حجاي تماما ، فلم أعد أبصر سوى السيد "**فينتور**" ، بحيث أوشك أن ينسيني مدام "**دي فاران**" . ولكي أفيد من دروسه بمزيد من اليسر عرضت عليه أن يشركني معه في مسكنه ، فوافق وكان يسكن لدى إسكافي لطيف مهذار ، لم يكن يطلق على زوجته – بلهجته الريفية- سوى "**العاهرة**"، وهو اسم كانت أهلا له ! وكانت له معها مشاجرات اعتاد "**فينتور**" أن يسعى لإطالتها

وهو يتظاهر بالرغبة في أن يفعل العكس. إذ كان يوجه إليهما – بلهجة هادئة ، وبلكنته الإقليمية- كلمات تحدث أعظم أثر.. وكانت تلك مناظر تجعل المرء يقع مغشيا عليه لفرط الضحك!.. وهكذا كانت فترات الصباح تنقضي دون أن يفطن إليها المرء . فإذا كانت الساعة الثانية أو الثالثة ، تناولنا لقمة ، ثم يذهب "**فينتور**" إلى الأوساط التي كان يغشاها ، حيث يتناول عشاءه.. أما أنا فكنت أتمشى وحيدا ، مفكرا في براعته البالغة ، وأنا أعجب بمواهبه الفذة وأغبطه عليها ،لاعنا طالعي المنحوس الذي لم يكن يفضي بي إلى مثل هذه الحياة الهانئة ! إن حياتي بالذات كانت خليقة بأن تكون أكثر بهجة مما كانت مائة مرة، لو أنني كنت أقل غباء، لو عرفت كيف أستمتع بهذه الحياة على نحو أفضل !

ولم تكن مدام "**دي فاران**" قد صحبت معها سوى "**أنيه**"، بينما تركت "**ميرسيريه**" وصيفتها التي تحدثت عنها من قبل، والتي وجدتها تشغل مخدع سيدتها . وكانت الآنسة "**ميرسيريه**" فتاة تكبرني قليلا ، ليست بالجميلة ، ولكنها مقبولة الشكل .. فتاة طيبة من بنات "**فريبورجوا**" بريئة من الخبث، ما عرفت لها من عيب سوى أنها كانت–في بعض الأحيان– تعصى سيدتها ، فأخذت أكثر من زيارتها ، إذ إنها كانت من المعارف القدامى، وكان مرآها يذكرني بمن كانت أعز منها لدي ، وبمن أحببتها من أجلها. وكانت لها صديقات عديدات بينهن آنسة تدعى "**جيرو**" ، من بنات "**چنيڤ**" ، شاءت أن تهواني ، برغم نقائصي ، فكانت تلح دائما على "**ميرسيريه**" أن تصطحبني إلى دارها . وقد تركتها تفعل لأنني كنت أحبها – أعني "**ميرسيريه**"– ولأنني كنت أجد هناك فتيات أخريات أرتاح إلى رؤيتهن ، أما عن الآنسة "**جيرو**" – التي كانت تبدي لي كل ألوان المضايقات– فلم يكن لدى إنسان ما يفوق النفور الذي كنت أحسه نحوها .. كنت أجد عناء – إذا ما قربت من وجهي أنفها الأعجف الأسود الملوث بالسعوط – في أن أكبح نفسي عن البصق عليه ! بيد أنني تشبثت بالصبر، إذ كنت إلى جوارها أنعم كثيرا بالوجود وسط هؤلاء الفتيات اللائي كن يتبارين في الاحتفاء بي، إما بدافع التملق للآنسة "**جيرو**" أو التقرب إلي شخصيا ، ولم أكن أرى في كل هذا صداقة ،. ولقد تراءى لي فيما بعد أنه كان في وسعي أن أرى ما يزيد على الصداقة ، ولكن هذا لم يخطر ببالي، ولا أنا أوليته أي تفكير !

وإلى جانب ذلك فإن الحائكات والوصيفات وعاملات المتاجر لم يكن يستهوينني البتة، إنما كنت أصبو إلى الآنسات الراقيات!.. إن لكل امرئ أحلامه الخيالية ، وقد كانت تلك أحلامي دوما ، ولست أرى في ذلك ما رآه "**هوراس**".على أنه من المؤكد أن أبهة المكان والمنصب لم تكن هي التي تجتذبني ، وإنما كانت تفتنني بشرة مصونة بعناية ، ويدان جميلتان ، وزينة بديعة، وجو من الرقة والطهر يشمل الشخص بأكمله ، وذوق ضاف في الحركة والقول ، وثوب غال بديع الصنع، وحذاءان صغيران، وأشرطة و"**دانتيلا**" ، وشعر أنيق التصفيف .،. وقد اعتدت دائما أن أفضل من أوتيت كل هذا ، ولو كانت أقل الفتيات جمالا .. والواقع أنني أنا نفسي أرى في هذا التفضيل أمرا يدعو إلى الضحك، ولكن قلبي يهفو إليه على الرغم مني!

*****

حسنا !.. لقد سنحت لي هذه الميزات مرة أخرى، ولم يكن علي سوى أن أستغلها . لكم أحب أن أقع– من آن إلى آخر – على اللحظات البهيجة في شبابي! .. وما كان أحلاها لي ، وما كان

أقصرها وأندرها!.. ولقد استمتعت بها بأبخس الأثمان!.. آه إن مجرد تذكرها يثير من جديد في قلبي نشوة طاهرة أنا في مسيس الحاجة إليها لتجديد جرأتي ولدرء الهجوم عن بقية سني حياتي!

ففي ذات صباح بدا لي الفجر من الجمال بحيث إنني ارتديت ثيابي في عجلة ، وأسرعت إلى الخلاء لأشهد شروق الشمس ، واستمرأت هذه المتعة بكل فتنتها ، وكان ذلك في الأسبوع التالي لعيد القديس **"يوحنا"** ، والأرض في أبهى زينتها، وقد كساها العشب والزهور .. وكانت البلابل قد أوشكت على نهاية تغريدها ، فبدا أنها كانت تستعذب الإمعان في إطلاق أصواتها.. بل إن الطيور جميعا راحت تشدو مودعة الربيع، متغنية بمولد يوم بديع من أيام الصيف .. يوم من تلك الأيام الجميلة التي لم يعد المرء يراها في سني هذه ، والتي لايراها المرء إطلاقا في هذه البلاد الكئيبة التي أقيم فيها اليوم(١).

وابتعدت عن المدينة دون أن أشعر . واشتدت حرارة الشمس ، فرحت أسير تحت ظلال أشجار واد صغير على ضفة غدير ، ثم سمعت خلفي وقع حوافر جياد ، وصوت فتاتين بدا أنهما كانتا في محنة، وإن راحتا تقهقهان من أعماقهما . التفت ، فإذا نداء باسمي ينبعث ، فاقتربت.. ووجدت فتاتين من معارفي ، هما الآنسة **"دي جرافينرييه"**و الآنسة **"دي جالي"** ، اللتان لم تعرفا كيف تحملان جواديهما على عبور الغدير ، لأنهما لم تكونا فارستين ماهرتين . وكانت الآنسة **"دي جرافينرييه"** شابة من **"بيرن"** ذات ملاحة طاغية، وقد طردت من موطنها من جراء بعض الطيش الذي تتسم به سنها، فحذت حذو مدام **"دي فاران"**- التي كانت تتردد على دارها لماما- على أنها لم تكن ذات مورد للعيش، فلم تملك سوى أن تغتبط بأن تربط نفسها بالآنسة **"دي جالي"** التي شعرت بمودة نحوها، فاغرت أمها على السماح لهذه الرفيقة بأن تقيم معها ريثما تجد عملا. وكانت الآنسة **"دي جالي"** تصغر زميلتها بعام ، كما كانت تفوقها حسنا. كانت على قدر من الرقة والترفه لاقبل لي بوصفه ، وكانت في الوقت ذاته دقيقة القسمات ،بديعة القوام، أوتيت من الفتنة أكبر قسط يمكن أن تحظى به فتاة!.. وكانت كل منهما مشغوفة بالأخرى حبا ، ولم تكن طيبة نفسيهما إلا عاملا على تمكين هذا الود من أن يبقى طويلا، دون أن يقوى أي عاشق على تعكيره!

وقالتا لي إنهما كانتا تقصدان **"تون"** ، القصر العتيق الذي كانت تمتلكه السيدة **"جالي"** -والدة الفتاة- ثم طلبتا مساعدتي في حمل الجوادين على عبور الجدول ، الأمر الذي لم تقويا عليه . وهممت بأن أسوط الجوادين ، ولكن الفتاتين أشفقتا عليّ من الركلات ، وعلى نفسيهما من الوقوع.. لذلك عمدت إلى حيلة أخرى ، فأخذت بمقود جواد الآنسة **"دي جالي"** ، ثم جررته خلفي، وخضت الجدول الذي وصل ماؤه إلى ركبتي .. وإذ ذاك تبعنا الجواد الآخر دون عناء . وإذ تم ذلك هممت بأن أحيي الآنستين ثم أمضي في طريقي كأي أحمق لكنهما تبادلتا بضع كلمات بصوت خفيض ، ثم خاطبتني الآنسة **"دي جرافينرييه"** قائلة: "لا، لا.. ما هكذا يفلت المرء منا! لقد أصابك البلل وأنت تؤدي لنا خدمة ، فأصبح من واجبنا- نحو ضميرنا- أن نعني بك حتى تجف.. فخليق بك - إذا تكرمت - أن تأتي معنا، إذ إنك أسيرنا!" .

وخفق قلبي ، وتطلعت إلى الآنسة **"جالي"** ،فأضافت وهي تضحك لما بدا علي من ارتباك: " أجل، أجل.. أسير حرب! اركب خلفها ، فنحن مسؤولتان عنك!" .. فقلت محتجا: " ولكن ، يا آنسة.. إنني لم أحظ بشرف التعرف إلى أمك، فماذا ترينها قائلة إذا ما رأتني؟" .. وأجابت الآنسة "دي جرافينرييه" : " إن أمها ليست في "تون"، فقد جئنا وحدنا، وسنعود في المساء، وبوسعك أن تعود

---

(١) كان "روسو" وهو يكتب هذا الجزء من إعترافاته يعيش في "ووتون" بمقاطعة "سترافورد" بـ"إنجلترا" .

معنا!".

وما كان للكهرباء أن تحدث في كياني تأثيرا أسرع مما أحدثته هذه الكلمات.. فقفزت إلى صهوة جواد الآنسة "دي جرافينرييه" وأنا أرتجف غبطة. وكنت كلما اضطررت إلى أن أحيط خصرها بذراعي لأحفظ توازني، خفق قلبي بعنف لم تلبث أن لاحظته، فقالت: إن قلبها - هو الآخر - كان يخفق، لأنها كانت في خوف من الوقوع!.. وكان قولها - في مثل هذا الموقف - بمثابة دعوة لي كي أتحرى بنفسي صدقه، ولكني لم أجرؤ قط! .. ولقد ظلت ذراعاي - طيلة الرحلة - تحيطان بها إحاطة الحزام المشدود، ولكنه حزام لم يتزحزح عن موضعه لحظة!.. وكم من امرأة ممن يقرأن هذا، تحس من نفسها رغبة في أن تعرك أذني.. ولن تكون مخطئة في ذلك! وأطلق بهاء الرحلة وثرثرة الشابتين لساني، فلم نسكت حتى المساء. بل إننا لم نصمت لحظة طيلة وجودنا معا! ولقد استطاعتا أن تسريا عني الحرج، فإذا لساني لايقل نشاطا عن عيني، وإن اتخذ أسلوبا غير أسلوبهما، ولم يكن الحديث يتوتر قليلا إلا في بضع لحظات كنت أجد نفسي فيها على انفراد مع إحدى الشابتين، ولكن الغائبة كانت سرعان ما تعود، دون أن تسمح لنا بوقت نتحرى فيه سبب ارتباكنا!

وما إن بلغنا "**تون**"، وجفت ثيابي حتى تناولنا الفطور. وكان لابد بعد ذلك من الانصراف إلى المسألة المهمة: مسألة إعداد الغداء. فكانت الشابتان تتوقفان من حين إلى آخر - وهما عاكفتان على الطهو- لتقبلا أبناء حارسة المزرعة..

بينما كان غاسل الأطباق المسكين- أنا- يحملق فيهما ويكبح جماح نفسه! وأرسلتا إلى المدينة في طلب المؤن وكل ما يكفي لغداء شهي، ولا سيما الحلوى، ولكنهما نسيتا النبيذ لسوء الحظ! ولم يكن هذا النسيان بمستغرب من فتاتين لاتشربان الخمر قط، بيد أنني استأت إذ كنت أعول على معونته في استمداد الجرأة. ولقد استاءتا هما الأخريان كذلك، ولعل استياءهما كان لنفس السبب، وإن كنت لاأظن ذلك. وكان مرحهما العارم الفاتن هو البراءة ذاتها! وإلا فماذا كانتا تملكان أن تفعلاه بي فيما بينهما؟! .. ولقد أرسلتا في البحث عن نبيذ في كافة البقاع المجاورة، فلم يعثر على شيء منه البتة، إذ كان أهل تلك المقاطعة فقراء لايقربون الخمر، وإذ راحتا تعربان لي عن أسفهما قلت لهما إنه لاداعي لأن تتجشما هذا العناء وإنهما لم تكونا بحاجة إلى نبيذ لكي تسكراني!..

وكانت هذه هي المجاملة الوحيدة التي جرؤت على قولها طيلة النهار، على أنني أعتقد أن الماكرتين قد شهدتا بجلاء كاف أن هذه المجاملة كانت صادقة!

*****

وتناولنا غداءنا في مطبخ المزرعة، وقد جلست الصديقتان على مقعدين طويلين "دكتين" إلى جانبي المائدة، وضيفهما بينهما، على مقعد مخفض ذي ثلاث قوائم، ويا له من غداء! .. أية ذكرى طافحة بالمفاتن! ولماذا يسعى المرء وراء ملاه أخرى إذا كان بوسعه أن يحظى بمسرات في طهر هذه وصدقها، بأبخس الأثمان!؟ .. أبدا ما قدر للوجبات في منازل "**باريس**" الصغيرة أن تداني هذه الوجبة. ولست أقول هذا عن بهجتها فحسب، ولا عن طربها فحسب، بل أقوله عن نشوتها الحسية كذلك!

وعمدنا بعد الغداء إلى شيء من الاقتصاد، فبدلا من أن نحتسي القهوة التي تبقت من الإفطار، احتفظنا بها لنتناولها مع القشدة والفطائر التي أحضرتها الفتاتان معهما. ولكي نرضي شهيتنها،

ذهبنا إلى البستان لنتخذ من "**الكريز**" حلوى نختتم بها وجبتنا ، فتسلقت الشجرة ورحت ألقي للفتاتين بعناقيد من الثمار ، بينما كانتا ترداني إلي البذور "النويات" خلال الأغصان ، وحدث في إحدى المرات أن بسطت الآنسة "**جالي**"مريلتها ، وطوحت برأسها إلى الخلف ، وثبتت في مكانها فما كان مني إلا أن أحكمت الرماية وأنا ألقي بعنقود من الكريز، فهوى في صدرها!.. وانطلقت الضحكات!..

وقلت لنفسي: " ليت شفتي كانتا من الكريز!.. لكم أنا على استعداد لأن أرمي بهما إلى نفس المكان عن طيب خاطر!".

وهكذا انقضى النهار في مرح استرسلنا فيه بأقصى تحرر، مع التزام أقصى حدود الاحتشام على الدوام !.. فما من كلمة مبهمة تحتمل تأويلا، ولا ملحة "نكتة" شاردة.. ولم يكن هذا الاحتشام يثقل علينا البتة ، بل إنه كان ينساب من تلقاء نفسه، وكنا نصدر في أفعالنا وأقوالنا عن إيحاء قلوبنا!.. وقصارى القول إنه بلغ من حيائي- الذي قد يسميه الغير غباء!- أن أقصى مغازلة أفلتت مني هي أن قبلت يد الآنسة "**جالي**" مرة واحدة ! والحق أن الظروف أسبغت على هذه النعمة قيمة خاصة ، إذ كنا وحيدين، وكانت أنفاسي تنبعث في تهدج، كما كانت عيناها منكستين.. وبدلا من أن يجد فمي قولا إذا به يلتصق بيدها التي لم تلبث الفتاة أن سحبتها في رفق – بعد أن انطبعت عليها القبلة – وهي ترمقني بنظرة لم تنم عن أي انفعال.. ولست أدري ما كنت خليقا بأن أقوله للفتاة ، لولا أن أقبلت صديقتها على الغرفة، فلاحت لي – في تلك اللحظة – بالغة الدمامة!

وأخيرا ، فطنت الفتاتان إلى أنه لاينبغي التريث في العودة إلى المدينة حتى يهبط الليل. ولم يكن قد تبقى من النهار سوى الوقت الذي يمكننا من العودة ، فأسرعنا بالرحيل بنفس النظام الذي كنا عليه في المجيء ، ولو أنني وجدت جرأة ، لكنت قد غيرت هذا النظام ، إذ إن نظرة الآنسة "**جالي**" كانت قد أثارت فؤادي.. بيد أنني لم أجسر على أن أقول شيئا ، ولم يكن مما يليق بها أن تقترح هي هذا التغيير! ورحنا نقول – خلال انطلاقنا– إن اليوم قد انقضى سراعا ، ولكننا بدلا من أن نشكو من قصره، أجمعنا على أننا أوتينا معجزة إطالته بفضل أسباب اللهو التي عرفنا بها كيف نملؤه!

وفارقتهما عند البقعة التي التقطتاني عندها ، تقريبا.. ولكن ، بأية حسرة افترقنا! وبأي سرور رسمنا الخطة للقاء آخر !.. إن الاثنتي عشرة ساعة التي قضيناها معا بدت لنا قرونا لفرط الألفة! وإن الذكرى العذبة التي اقترنت بذلك اليوم لم تكبد الشابتين اللطيفتين شيئا ولكن الوحدة الحنون التي ربطت بين ثلاثتنا كانت تعادل في قيمتها متعا أكثر بهجة واحتداما.. متعا لم يكن لها بقاء في ظلال تلك الرابطة. فلقد تحاببنا في غير ما استخفاء ولا استحياء ، وكنا راغبين في أن نتحاب دائما بهذا الشكل ، وإن لسذاجة الخلق لنشوتها التي تعادل تماما أية نشوة أخرى لأنها لاتعرف راحة، ولاتفتأ تحتدم باستمرار!

أما بالنسبة لي فإني أدرك أن ذكرى مثل هذا اليوم أكثر تأثيرا في نفسي ، وفتنة لي، وترددا على فؤادي من ذكرى أية متعة تذوقتها في حياتي ! وما كنت أدري تماما ما الذي كنت أبتغيه من الفتاتين الساحرتين، ولكنهما أطربتاني معا كل الطرب .، ولست أقول إن قلبي كان خليقا بأن ينقسم بينهما قسمة عادلة ، لو قدر لي أن أسيطر على أموري ، فقد أحسست بشيء من الإيثار والتفضيل: كان يسعدني أن أحظى بالآنسة "**جوفينربييه**" عشيقة ، ولكنني لو خيرت لآثرت – فيما أعتقد – أن أتخذها صديقة حميمة ! وسواء كان هذا أو ذاك فقد بدا لي إذ فارقتهما أنني لم أعد أقوى على الحياة

بدونهما معا ، فمن كان منبئي بأنه لم يكن مكتوبا لي أن أراها في حياتي مرة أخرى ، وأن هذه كانت نهاية حبنا الذي لم يعمر سوى يوم واحد !

إن الذين يقرءون هذه السطور لن يتمالكوا أنفسهم من الضحك من مغامراتي الغرامية ، وملاحظة أن أكثرها تطورا كانت تنتهي – بعد كثير من التمهيدات – بقبلة على اليد!..

ولكن لاتغتروا يا قرائي ! فلعلني نعمت من تلك الغراميات – التي كانت تنتهي بهذه القبلة على اليد– بمتعة تفوق كل ما سيتاح لكم في غرامياتكم التي قد تبدأ بمثل هذه القبلة!

*****

وعاد "**فينتور**" إلى البيت بعد عودتي بقليل ، إذ كان قد تأخر كثيرا في الذهاب إلى مضجعه في الليلة السابقة.وفي هذه المرة، لم أشعر بسرور لرؤيته كمألوف عادتي ، كما أنني كتمت عنه النهج الذي قضيت عليه يومي ، فإن الآنستين كانتا قد تحدثتا إلي عنه في شيء من الازدراء ، وبدا لي أنهما استاءتا إذ علمتا أنني كنت في مثل هذه الرعاية السيئة ، فنال هذا من مكانته لدي ، لاسيما وأن كل ما كان يشغلني عن التفكير فيهما بدا لي غير مستحب ، على أن "**فينتور**" ما لبث أن ردني إلى نفسي وإليه، بأن أخذ يتكلم عن موقفي إذ غدا أحرج من أن يستمر. فمع أنني لم أكن أنفق غير القليل جدا إلا أن كيسي بدأ يفرغ، ولم يكن لي مورد .. ولم يكن ثمة نبأ عن "ماما" ، فلم أدر ماذا أفعل ، وشعرت بانقباض شديد إذ رأيت صديق الآنسة "**جالي**" يهبط إلى مستوى المتسولين!

وأنبأني "**فينتور**" بأنه قد تحدث عني إلى الضابط القضائي(١) . وأنه اعتزم أن يصطحبني لتناول العشاء عنده في اليوم التالي،وأن هذا الرجل كان في مركز يمكنه من أن يخدمني عن طريق أصدقائه.. فضلا عن أنه كان من خيرة من يحسن التعرف إليهم ، كان ذكيا وأديبا، ذا طباع جد ملائمة . وكان موهوبا ، يقدر المواهب لدى الغير ،. ثم أطلعني – وهو يمزج التوافه بالخطير من الأمور، جريا على عادته– على مقطع بديع من الشعر، وصل من "**باريس**" ، وكان يردد في لحن بإحدى أوبرات "**وريه**" ، ذاع في ذلك العهد . ولقد أعجب السيد "**سيمون**"– وهو اسم الضابط القضائي – به فأراد أن ينظم مقطعا آخر ، على نفس النغمة، ردا عليه.. طلب إلى "**فينتور**" أن ينظم مقطعا هو الآخر ، فتملكته نزوة أوحت إليه بأن يحملني على أن أنظم بدوري واحدا ، حتى تترى هذه المقاطع تباعا– حسب قوله – في اليوم التالي، كما كانت المحفات تتتابع في "القصة المضحكة"(٢).

وإذ عز علي النوم –في تلك الليلة– نظمت المقطع بقدر ما استطعت . وكانت لابأس به، إذ قدرنا أنه كان أول ما نظمت من الشعر ! بل إنه كان أفضل – أو على الأقل، أرق – مما كنت خليقا بأن أنظم في اليوم السابق ، إذ إن موضوعه دار حول موقف عاطفي كان قلبي قد تفتح له . أطلعت "**فينتور**" – في الصباح– على مقطعي الشعري، فرآه بديعا ، ودسه في جيبه دون أن ينبئني بما إذا كان هو قد نظم مقطعه .. وذهبنا نتناول العشاء في دار السيد "**سيمون**" الذي أحسن استقبالنا. وكان الحديث طليا، وما كان من الممكن غير ذلك ، وقد دار بين رجلين ذكيين واسعي الاطلاع.. أما أنا ، فقد قمت بدوري المعتاد إذ رحت أصغي وأنا ممسك لساني. ولم يقل أحد منهما شيئا عن أي مقطع شعري، وكذلك لم أقل أنا شيئا.. ولم يرد ذكر– على قدر ما عرفت– للمقطع الذي نظمته !

وبدا على السيد "**سيمون**" أنه ارتاح إلى مسلكي ، وكان هذا قصارى ما عرفه – تقريبا– عني في

---

(١) (OUGEMAGE) كان موظفاً ذا مركز مهم، يطبق العدالة بإسم الملك. (٢) منظر في الفصل السابع من (ROMAN COMIQUE) أروع مؤلفات "سكارون".

هذا اللقاء . وكان قد رآني من قبل عدة مرات بدار السيدة "**دي فاران**" ، دون أن يوليني اهتماما يذكر؛ ومن ثم فإنني أحسب معرفتي به منذ ذلك العشاء .. المعرفةالتي لم تكن ذات نفع للموضوع الذي كان يشغل بالي ، ولكني أفدت منها – فيما بعد– منافع أخرى ، تجعلني أذكر السيد "**سيمون**" بسرور . وما ينبغي أن أرجئ الحديث طويلا عن شكله الذي يستحيل على أي امرئ أن يكون فكرة عن الرجل ما لم أتحدث عنه لاسيما إذا راعينا ما كان للسيد "**سيمون**" من سلطة إدارية وروح طيبة كان يفخر بها . .

لم يؤت السيد الضابط القضائي– بالتأكيد– من الطول قدمين(١) وكانت ساقاه مستقيمتين ، نحيلتين ،وطويلتين في نفس الوقت ، وكانتا خليقتين بأن تبدياه طويلا، لو أنهما كانتا رأسيتين ، ولكنهما كانتا منفرجتين كساقي فرجار(برجل) مفتوح على سعته ، ! أما جسمه فلم يكن قصيرا فحسب ، وإنما كان نحيلا وضئيلا بدرجة لاسبيل إلى وصفها . ولابد أنه كان يبدو– إذا ما تجرد من ثيابه– كالجرادة! أما رأسه– الذي كان عادي الحجم ، وله وجه مليح التكوين، وقسمات نبيلة ، وعينان بديعتان– فقد كان يبدو كرأس زائف أقيم على أرومة تبقت من جذع شجرة! . . ولابد أنه كان يقتصد كثيرا من نفقات الكساء؛ إذ كانت قلنسوة الشعرالمستعار وحدها تكسوه تماما من رأسه إلى قدمه!

وكان له صوتان مختلفان تمام الاختلاف ، يختلطان معا باستمرار كلما تكلم، ويتباينان بشكل يبدو – في أول الأمر– طريفا ، ولكنه لايلبث أن يغدو كريها! وكان أحدهما جهوريا عميقا، وهو صوت رأسه إن جاز لي أن اقول هذا. أما الآخر فكان واضحا، حادا نفاذا، وكان صوت جسده ! وكان – إذا ما التزم الحذر – تكلم بتحفظ بالغ، ونظم تنفسه، فيستطيع أن يتكلم باستمرار بصوته العميق.. ولكنه لايكاد يتحمس قليلا ، ويتكلم بلهجة أكثر حدة ، حتى يشبه صوته صفيرا منبعثا من نغم عال . . وكان يجد عناء بالغا في العودة إلى الطبقة الخفيفة من الصوت!

ومع هذا المظهر الذي وصفته ، والذي لا مغالاة فيه إطلاقا، كان السيد "**سيمون**" مؤدبا. راوية للطرائف ، شديد العناية بلباسه إلى درجة الحذلقة. ولما كان راغبا في أن يبدو في أعظم مظاهره فقد كان يحلو له أن يعقد مقابلاته في الصباح وهو في السرير؛ لأن الذي كان يرى رأسا بديعا على الوسادة ، لم يكن يتصور أن هذا كل ما لديه من حسن ! وكان هذا يؤدي– في بعض الأوقات – إلى مناظر مضحكة، أعتقد أن "**أنيسي**" لاتزال تذكرها!

في ذات صباح بينما كان ينتظر في سريره –أو بالأحرى، على سريره– أصحاب الشكايات، وقد ارتدى قَلَنْسُوة بيضاء بديعة، مزدانة بزائدتين عريضتين من شريط وردي اللون وصل أحدُ الريفيين وطرق الباب، وكانت الخادم قد خرجت، فما إن سمع السيد "**سيمون**" الطرقات، حتى صاح مجيبا: "ادخل!" .. وهو إذا لَفَظَ الكلمة بشيء من القُوَّة انبعثت بصوته الحاد. ودخل الرجل فبحث عن مصدر هذا الصوت النِّسْوِي، وما إن رأى في السرير قلنسوة وشريطا حتى هم بالخروج ثانية، وهو يقدم "**للسيدة**" اعتذارات بالغة! فغضب السيد "**سيمون**"، ولم يزدد إلا صُراخا فتأكد الريفي من فكرته، ورأى أنه قد أهين، فاغرقه بالشتائم، وقال له –لها: "لستِ سوى فاجرة"، وإن السيد الضابط القضائي لا يَضْربُ بحياته المنزلية مثلا طيبا! .. واشتد بالسيد "**سَيمون**" الغضب، فلم يجد في متناول يده سوى الوعاء الذي يقضي فيه حاجته في المخدع، فاوشك أن يلقي به على رأس الرجل المسكين لولا أن وصلت مدبرة بيته!

---

(١) كتب "روسو" في مخطوطات الطبعة الأولى انّ طول "سيمون" كان قدمين ثم ضرب عليها بالقلم وكتب "ثلاث مخطوطات" ؟... ولكنّه لم يثبت هذا التعديل في النسخة الثانية من المخطوطات، وهي التي استخدمت في طبعة "جنيف".

وإذا كان هذا القَزْم الضئيل قد شوهتْ الطبيعةُ جسمه فإنه لقي تعويضا في الناحية العقلية التي كانت بطبيعتها مقبولة، والتي كان يُعْنىَ بتحسينها. ومع انه كان يُقَالُ عنه: إنه كان مستشارا قضائيا موفقا إلا انه لم يكن يحب مهنته. فالقى بنفسه في غِمَارِ الأدب، واستطاع أن يوفق. ولقد اكتسب -فوق كل شيء- تلك اللباقة السطحية، تلك الموهبة التي تبعث في المجتمع طرافة، لاسيما مع النساء!.. كان يعرف عن ظهر قلب دَقَائقَ المأثورات (١) وما إليها، وقد أُوتي فن إبرازها، وربطها بالمناسبات، وإحاطتها بجو غريب، وكَأنّ الذي حدث مثلا منذ ستين عاما حكاية وقعت بالأمس! وكان ملما بالموسيقى، يُحسن الغناء -بدرجة مقبولة- بصوته الآدمي. وقُصَارىَ القول إنه أوتي مواهب أجمل مما يحتاج إليه مستشار قضائي. وكان بحكم مجاملته لنساء "**أنيسي**" قد أصبح "موضة" بينهن، فكنَّ دائما يَسْحَبنه وراءهن وكانه "**نسناس**" صغيرا!.. حتى لقد راح يزعم انه كان محظوظا لدى النساء، فكان ذلك يُطربهن كثيرا. وكانت سيدة منهن -تدعى "**مدام ديباني**"- تقول: إن أقصى ما يشتهيه هو أن يقبل امرأة في ركبتها (٢)!

ولما كان مُطَّلعا على كتب الأدب الراقي، ومشغوفا بالحديث عنها فإن كلامه لم يكن ممتعا فحسب، وإنما كان مفيدا أيضا، وعندما اكتسبت -فيما بعد- ميلا إلى الدروس انميْتُ معرفتي به، فافدت من ذلك نفعا عظيما. وكنت أسعى في بعض الأحيان من "**شامبيري**" -حيث كنت إذ ذاك - لكي أزوره. وقد أذْكَى هو في هذا الميل وشجعه، وكان يقدم لي بعض الإرشادات في مطالعاتي، فكنت كثيرا ما أنتفع بها. ولسوء الحظ، كانت تَعْمُر هذا الجسد الواهن نفس مرهفةُ الحس، وقد قُدر له -بعد ذلك بسنوات- ان يرتكب ذنبا لا أدريه، مما أحزنه، فلم يلبث أن قَضَى نحبه. ويالها من خسارة! لقد كان -يقينا- رجلا طيبا، ضئيل الجسم، يبدأ المرء بالضحك منه، ثم ينتهي بأن يحبه!.. ومع أن حياته لم تكن مرتبطة بحياتي في شيء إلا أنني أخذت عنه بعض دروس نافعة، فرأيت -بدافع من العرفان- ان أخصه بحيز من ذكرياتي!

*****

وما إن انصرفت من لدن السيد "**سيمون**" حتى هرعت إلى الشارع الذي كانت الآنسة "**جالي**" (٣) تقيم فيه، ممنيا نفسي بأن أرى شخصا ما، داخلا أو خارجا، أو فاتحا إحدى النوافذ، على الأقل!.. ولكن شيئا ما لم يَلُحْ لي، ولا هِرَّة! بل إن البيت ظل -طِيلَة مُكثي هناك- مغلقا تماما، وكانه لم يعمر قط بسكان. وكان الشارع صغيرا ومقفرا، فكان وجود إنسان كفيلا بأن يستلفت الأنظار.. وبين الحين والحين، كان يَعْبُرُه مار، ما بين داخل أو خارج من البيوت المجاورة. وقلقت من أجل نفسي، فقد تراءى لي أنهم كانوا يحدسون سر وجودي هناك. وأمَّضتني هذه الفكرة.، فقد اعتدت دائما أن أقدم شرف وطمأنينة أولئك الأعزاء لدي على مسراتي الخاصة.

وأخيرا، مللت لعبة العاشق الإسباني(٤)، ولما لم يكن ثمة "**جيتار**" معي فقد اعتزمت الكتابة إلى الآنسة "**دي جرافينرييه**". وكنت افضل أن أكتب لصديقتها ولكني لم أكن أجْسُر، فضلا عن أنه كان من الأليق أن أبدأ بالتي كنت مدينا لها بمعرفة الأخرى، والتي كنت معها أكثر أُلْفَة ومودة. وما إن أتممت رسالتي حتى حملتها إلى الآنسة "**جيرو**" (٥) وفقا لما اتفقت عليه مع الآنستين عندما افترقنا،

---

(١) مجموعات الأقوال المأثورة عن بعض الشخصيات، والطرائف الصغيرة المرتبطة بهم. (٢) تعني انه لا يستطيع ان يصل إلى فمها أو يدها لقصر قامته! (٣) الآنسة "جالي" والآنسة "دي جرافينرييه" هما الفتاتان اللتان قضي روسو معهما يوما بهيجا في الريف. (٤) اعتاد العاشق في "إسبانيا" أن يقف على قارعة الطريق، بالقرب من دار الحبيبة ويمضي في العزف على "الجيتار" عسى أن تفطن إلى وجوده، فتنعم عليه بنظرة.

(٥) "جيرو" هي صديقة لوصيفة مدام "دي فاران" المدعوة "ميرسيريه"، وكانت "جيرو" قد اعلنت على روسو الحب، برغم نفوره الشديدة منها!

وكانتا هما اللتان اقترحتا هذه الطريقة للتراسل. ذلك أن الآنسة "**جيرو**" كانت تحترف تنجيد الأثاث، وقد عملت حينا في دار السيدة "**جالي**"؛ ومن ثم فقد كان دخول الدار مُباحا لها. والحق أن اختيار هذه الوسيطة لم يبد لي موفقا ولكني خَشِيتُ ألا تُرشح الفتاتان سواها إذا أنا أثرت أي اعتراض. كما أنني لم أجرؤ على القول: إنها كانت تعمل لحسابها الخاص.. وكنت أشعر بالضعة لمجرد أنها كانت تجرؤ على أن تظن نفسها -في نظري- منتمية إلى نفس جنس الآنستين! على أنني ارتضيت في النهاية هذه الوسيلة لنقل رسالتي؛ نظرا لعدم وجود سواها، فأقدمت عليها برغم كل النذر!

واكتشفت "**جيرو**" سري منذ الكلمة الأولى، فما كان هذا بالأمر العسير. وإذا كانت الرسالة الموجهة إلى فتاة شابة لا تَشي بحقيقة الأمر فإن ارْتبَاكي واضطرابي كانا كفيلين بأن يكشفا سري! وقد يخطر بالبال أن هذه المهمة لم تبعث في نفس الفتاة أي سرور ولكنها في الواقع تكفلت بها، وأدتها بأمانة.

وفي الصباح التالي هَرَعْتُ إليها، فوجدت الرد المنشود. وما كان أسرعني في الخروج من دارها، لأقرأه وأقبله دون حرج! وليست بي حاجة إلى أن أفيض في هذا ولكن الذي يحتاج إلى إسهاب هو مسلك الآنسة "**جيرو**"، فقد وجدت فيه من الرقة والاعتدال فوق ما كنت أتوقع. كانت من الحكمة بحيث رأت أنها -بسني عمرها السبع والثلاثين، وبعينيها الشبيهتين بعيني الأرنب، وبأنفها الملوث بالسعوط، وبصوتها الحاد الرفيع وبشرتها السوداء- لا يمكن أن تُبارِي فتاتين شابتين، مليئتين بالحسن، وفي كل أبهة الجمال.. ومن ثمّ لم تشأ أن تغدر بهما، كما لم تشأ أن تخدمهما.. بل إنها آثرت أن تفقدني على أن تساعدهما على الظفر بي.. (كما سيبدو فيما بعد).

٧- سنة ١٧٣٢

وكانت "**ميرسيريه**" قد بدأت تفكر -منذ فترة- في العودة إلى "**فريبور**"؛ إذ إنها لم تتلق أي نبأ من سيدتها، وما لبثت الآنسة "**جيرو**" أن حملتها على أن تُقَرر ذلك، بل إنها ذهبت إلى أبعد من هذا، فأدخلت في رَوْعِها أن من المستحسن أن يُرافِقَها أحدٌ إلى دار أبيها، ورشحتني لذلك(١) ورأت "**ميرسيريه**" الصغيرة -التي لم أكن بغيضا إليها- أن الفكرة صالحة، فإذا بهما تُحدثاني عنها، في نفس اليوم، وكأنها أمر مفروغ منه! ولما لم أجد ما يضيرني في البعد بهذه الطريقة فقد وافقت، وأنا أحسبُ أن الرحلةَ لن تعدو ثمانية أيام على الأكثر ولكن "**جيرو**" لم تحسب مثل هذا الحساب، وتولت تدبير كل شيء. واضطررتُ إلى أن أكشف حالتي المالية، فسرعان ما دُبرت لي الموارد إذ تكفلت "**ميرسيريه**" بنفقاتي،، وتعويضا عن الخسارة التي تكبدتها بذلك وافقت الفتاة -تحت إلحاحي- على أن تُرْسِلَ متاعها البسيط مقدما بينما نقطع نحن الرحلة على الأقدام، متمهلين.. وهذا ما حدث!

ولكم يُؤسفني أن أتحدث عن فتيات عديدات كُنَّ يُحْبِبْنَني.. على أنني لا أجد مبررا لأن أزهو بما خرجت به من كل هذه الغراميات.. ومن ثم أرى أن بوسعي أن أقول الحقَّ دون تَمْويه، فإن الآنسة "**ميرسيريه**" -التي كانت أصغر سنا وأقل دهاء من "**جيرو**"- لم تبد قط نشاطا كالذي كانت هذه تبديه لإغرائي، وإنما كانت تقلدُ لهجتي وصوتي وإلقائي، وتردد كلماتي، وتوليني من الاهتمام ما كان ينبغي أن أوليها إياه.. كما كنا نحرص دائما على أن نَنَام في حجرة واحدة؛ إذ كانت شديدةُ

(١) كانت هذه هي الحيلة التي لجأت إليها "جيرو" الماكرة كي تبعد "روسو" عن محبوبته، وعن المدينة كلها!

الخوف..! وهي ألفة نادرا ما تقف عند هذا الحد،في رحلة تجمع بين شاب في العشرين وفتاة في الخامسة والعشرين!.. ولكن هذا هو عيْن ما جرى،، في هذه المناسبة. فبالرغم من أن "**ميرسيريه**" لم تكن دميمة فإن سذاجتي لم تقف عند حد أنني لم أَعْمِدْ -خلال الرحلة بأسرها- إلى النُّطق بأتفه مغازلة فحسب، وإنما بلغت بي السذاجة أنني لم أفكر -مجرد تفكير- في شيء من هذا القبيل على الإطلاق!.. بل إنه لو خطرت لي هذه الفكرة لعجزت لغبائي عن أن أفيد منها! فما كنت لأتصور كيف تنام فتاة وشاب في فراش واحد.. وكنت إخَالُ أن الاستعداد لمثل هذا الأمر الرهيب يتطلب قرُونًا من الزمن!.. وإذا كانت "**ميرسيريه**" البائسة قد طمعت -حين تكفلت بنفقاتي- في جزاء من هذا القبيل فقد خاب حَدَسُهاَ؛ لأننا بلغنا "**فريبور**" بنفس الحال التي غادرنا بها "**انيسي**" تماما!

وعندما مررنا بـ"**جنيف**" لم أسع لزيارة أحد، ولكني أوشكت أن أُصاب بمرض من فرط انفعالي وأنا أعبر جسور المدينة. أبدا ما أقبلت على هذه المدينة، ولا وَلَجْتُ أبوابها دون أن أُحسَّ بقلبي يغُوص وقد أثقلته الانفعالات الطاغية!.. فبينما كانت صورة الحرية النبيلة تسمو بروحي كان التفكير في المساواة والاتحاد ورقة الخلق يؤثر في نفسي إلى الدرجة التي تَدْمعُ عندها عيناي، ويبعث في حسرة محتدمة على كوني قد حرمت كل هذه النعم!.. وكم كنت مخطئا! -ولكن، كم كان هذا الشعور طبيعيا، كذلك! -لقد كنت إخال أنني أرى كل هذه النعم في وطني؛ لأنني كنت أحملها في سُوَيْداء قلبي!

واضطررنا إلى أن نمر بمدينة "**لُيون**".. فهل كنت أجتازها دون أن أرى أبي الشيخ!؟ لو أنني فعلت لكنت خليقا بأن أموت -بعده- كَمدا!.. ومن ثم تركت "**ميرسيريه**" في الفندق وذهبت لأراه، برغم كل الاعتبارات، آه، ما كان أشد خطئي إذ أوجست من لقائه!.. فما إن اقتربت منه حتى تفتح قلبه لعاطفة الأبوة العارمة.. وكم بكى عندما تعانقنا!.. ولقد ظن -بادئ الأمر- أنني عدت إليه، فأنباته بقصتي وبخطتي.. وعارض في وهن، وراح يبصرني بالأخطار التي كنت أعرض نفسي لها، قائلا: إن أقصر النزوات والحماقات هي أفضلها!.. وعدا ذلك لم يُدَاخِلْه أي ميل إلى غَصْبي على البقاء، وأرى أنه كان في ذلك على حق، ولكن من المؤكد أنه لم يبذل كل ما كان في وسعه لاستبقائي، إما لأنه كان يرى -في تقديره- أن من واجبي ألا أعود إليه، وإما لأنه كان في حَيْرة.. ولعله لم يكن يدري ما الذي يفعله بي في مثل تلك السن التي بلغتها!.. ولقد علمت فيما بعد أنه كون لنفسه عن زميلتي في الرحلة فكرة كانت جدُّ ظالمة وجد بعيدة عن الحقيقة ولكنها -على أية حال- كانت طبيعية!.. وكانت زوجة أبي امرأة طيبة، على شيء من الدَّهاء والقول المعْسُول، فقد تظاهرت بالرغبة في استبقائي للعشاء.. ولكنني لم أمكث، وإن وعدتهما بأن أبقى معهما وقتا أطول عند عودتي، وعهدت إليهما بحُزْمةِ متاعي الصغيرة، التي كنت قد أرسلتها في مركب، والتي كنت حائرا فيما أفعله بها. وفي اليوم التالي رحلت مبكرا، وأنا جد مغتبط بأنني رأيت والدي، وأنني وجدت الجرأة على أن أؤدي واجبي!

*****

ووصلنا بسلام إلى "**فريبور**"، وكانت مُغَازَلَات الآنسة "**ميرسيريه**" قد خفت عندما اقتربت نهاية الرحلة. حتى إذا وصلنا لم تعد تبدي لي سوى الفتور، كما أن أباها -الذي لم يكن غارقا في الرخاء- لم يُولِني حفاوةً بالغة فاضْطُررتُ إلى أن أقضي ليلتي في أحد المشارب.. وزرتهما في اليوم

التالي، فَدَعَواني إلى العشاء، وقبلت الدعوة.. ثم افترقنا دونما دموع، وعدت في المساء إلى المبيت في المشرب. وفي اليوم التالي رحلت، دون أن أدري وجهة أقصدها!

وكانت تلك فرصة أخرى أرادتْ فيها العناية أن تمنحني ما كنت أبتغيه لكي أُنفِقَ أيامي في هَنَاء.. فلقد كانت "ميرسيريه" فتاةً جد طيبة، ولئن لم تكن بالذكية ولا بالجميلة، فإنها لم تكن -كذلك- بالدَّميمة، كما أنها كانت على شيء من النشاط وكثير من الرزانة، وكانت تَتَعرَّض أحيانا لنوبات قصيرة عابرة، تقضيها في بكاء، ولكن هذه النوبات لم تكن تُفْضِي قط إلى عواقب عاصفة. ولقد كانت الفتاة صادقة الميل نحوي، فكان بوسعي أن أتزوجها دون عناء، وأن أحترف مهنة أبيها(١) -إذ إن ميلي للموسيقى كان كفيلاً بأن يجعلني أحب هذه المهنة- وأن أستقر في "فريبور"، وهي بلدة صغيرة، قليلة الجمال،ولكنها تَضُمُّ قوما طيبين، وكنت بذلك سأحرمُ بلا شك متعا عظيمة، ولكني كنت خليقا بأن أعيش في سلام إلى آخر لحظة في حياتي. ولقد كنت جديرا بأن أعرف -أكثر من أي امرئ آخر- أنه لم يكن ثمة ما يبرر التردد لحظة واحدة إزاء صفقة كهذه!

وعلى أثر رحيلي من "فريبور" لم أرجع إلى "ليون"، وإنما اتجهت إلى "لوزان"؛ فقد شئت أن أتَملّى بمنظر البحيرة الجميلة التي تُشَاهَدُ هناك في أكثر أجزائها اتساعا. ولم تكن أغلب البواعث الخفية التي تقرر مسلكي، بواعث جامدة.. فإن المناظر التي تشاهد عن بعد نادرا ما كانت من القوة بحيث تحَفِزُني على العمل، كما أن المستقبل غير المضمون كان يجعلني أنظر دائما إلى المشروعات التي يتطلب تنفيذها أجلا طويلا نظرتي إلى حيل خادعة!.. وأنا بطبعي، أنغمس في الآمال كغيري طالما كانت لا تُكَبِّدني شيئا، أما إذا كانت تتطلب رعاية مستمرة فإنني لا أمضي وراءها.. وإن أقل متعة صغيرة تَعْرِضُ لي، وتكون في متناول يدي لأكثر إغراء لي من مباهج الفردوس.. على أنني أستثني من ذلك المتعة التي يعقبها ألم، فهي لا تُغْرِيني قط؛ لأنني لا أحب سوى المسرات النقية الخالصة، وهذه لا يحظى بها المرء إطلاقا عندما يعرف أنه إنما يهيئ نفسه للندم!

وكنت بُحاجة ماسة إلى بلوغ أي مكان.. فكان أقرب الأماكن هو أفضلها! ولما كنت قد ضَلَلْتُ طريقي فقد ألفيتني -ذات مساء- في "مودون"، حيث أنفقت القليل الذي كان قد تبقى معي ماعدا عشرة "كروتزرات"(٢) لم تلبث أن تبددت في الغداء، في اليوم التالي.. حتى إذا بلغت -في المساء- قرية صغيرة على مقربة من "لوزان"، دخلت أحد المشارب وليس في جيبي دَانِقٌ أدفعه لقاء مبيتي، بل إنني لم أكنْ أدري ما قد يكون من أمري! وكنت جد جائع فتجلدت وطلبت عشاء، كما لو كنت أملك أن أدفع ثمنه!.. ثم أويت إلى مضجعي دون أن أحمل هما، فاستغرقت في نوم هادئ. وبعد أن أفطرت -في الصباح التالي- وحاسبت مُضِيفِي ردت أن أترك له صديري رهنا، لقاء السبعة "باتزات"(٣)، التي بلغتها نفقاتي ولكن الرجل الطيب أبى، وقال: إنه -والحمد للسماء- لم يجرد أحدا قط من ثيابه، وإنه ما كان ليشرع في ذلك لقاء سبعة "باتزات"؛ ومن ثم فقد بات في وسعي أن أحتفظ بصديري، على أن أدفع له حقه متى استطعت. وقد تأثرت لطيبته، ولكن بدرجة أقل مما كان ينبغي، وأقل مما صرت أشعر كلما تذكرت الأمر بعد ذلك. وقد بَادرْتُ بإرسال المبلغ إليه فيما بعد، شاكرا، مع رجل ائْتَمَنْتهُ.. على أنني بعد خمس عشرة سنة، مررت بـ"لوزان"، في عودتي من "إيطاليا"، فشعرت بأسف صادق لكوني نسيت اسم المشرب واسم الرجل، وإلا لذهبت لرؤيته، ولَحَظِيتُ بسرور حقيقي وأنا أذكره بالخير الذي أَسْداهُ، وأثبت له أنه لم يضعه في غير موضعه!.. وكم من خدمات أكثر أهمية، بلا شك -ولكنها بذلت بكثير من التفضُّل والمن -بدت لي أقل استحقاقا

---

(١) يفهم من هذه العبارة أن أباها كان موسيقيا. (٢) "الكروتزر" عملة ألمانية ونمسوية قديمة. (٣) "الباتز" عملة ألمانية أخرى.

للعرفان من العمل الإنساني البسيط الذي بذله هذا الرجل الطيب في غير زَهْو!

وفيما كنت أقتربُ من "**لوزان**" رحت أتأمَّلُ الضيق الذي وجدتني فيه، والوسائل التي أستطيع بها أن أنتزع نفسي منه دون أن أطلع زوجة أبي على تعاستي!.. وأخذت أقيس نفسي -في سفري على الأقدام- بصديقي "**فنتور**" عندما وصل إلى "**أنيسي**" فإذا بهذه الفكرة تَبُثُّ الدفء في نفسي، حتى إنني اعتزمت أن أكون "**فنتور**" صغيرا في "**لوزان**" دون أن يجول بخاطري أنني لم أُوتَ لطفه ولا مواهبه.. وقررت أن أقوم بتدريس الموسيقى التي لم أكن على علم بها، وأن أزعم أنني وفدت من "**باريس**" -التي لم أزرها قط!- وبناء على هذا المشروع البديع شرعت في السؤال عن فندق صغير أستطيع أن أجد فيه مقرا مُريحا بأبخس النفقات؛ إذ لم تكن ثمة مدرسة للشمامسة أستطيع أن أعرض عليها معونتي، كما أنني لم أكن من الغَبَاءِ بحيث أندس وسط أهل الفن!.. ودلني البعض على شخص يدعى "**بيروتيه**" كان يؤجر غرفا في داره، وتجلى لي أن هذا الـ"**بيروتيه**" كان خير رجل في العالم، وقد أحسن استقبالي. وإذ رَوَيْتُ له أكاذيبي الصغيرة -كما دبرتها- وعدني بأن يذكرني لدى الناس، وأن يسعى ليأتيني ببعض التلاميذ. وقال لي: إنه لن يسألني أجرا إلا بعد أن أَكْتَسِبَ نقودا، وكان أجر المنزل خمسة دنانير بيضاء (١)، وهو أجر زهيد بالنسبة للمكان ولكنه كان باهظا بالنسبة لي. ولقد نصحني "**بيروتيه**" بأن أكون في البداية "نصف نزيل"، أي أن أستمتع بالإقامة، وبغداء يتألف من حساء دسم -لا أكثر- وبعشاء طيب في المساء.. فوافقت. كان هذا الـ"**بيروتيه**" المسكين يقدم لي كل هذه الميزات عن طِيبِ خاطر، وعن خير نية في الدنيا. ولم يكن يدخر وسعا كي يُساعدني!

ترى لماذا قُدر لي -وقد وجدت كل هؤلاء الناس الطيبين في صباي- ألا أجد منهم في كبري إلا القليلين؟.. أيكون نَوْعُهم قد انقرض؟.. لا، ولكن الطبقة التي أضطر إلى البحث عنهم فيها اليوم لم تعد عين الطبقة التي كنت أعثر عليهم فيها من قبل! ذلك لأن نداء الأحاسيس الفطرية يزداد ترددا وانْبِعَاثاً لدى الناس الذين لا يسمع التشدق بالعواطف العظمى بينهم إلا قليلا!.. أما بين أبناء الطبقات الراقية فإن المشاعر الفطرية تَخْتَنِقُ تماما، فلا يعلو سوى صوت المصلحة أو الغرور!

*****

وكتبت لأبي من "**لوزان**" فأرسل حزمة متاعي، وخَصَّني بنصائح رائعة، كان خليقا بي أن أفيدَ منها.. وكنت قد لاحظت أنني أصبحت أتعرض لفترات من الشرود لم أدر مَأتاهاً، بل كنت لا أشعر خلالها بنفسي -وهنا أيضا بادرة من البوادر التي تستحق الملاحظة!- ولكي تدركَ إلى أي مدى كنت أفقد رأيي، وإلى أي مدى "**فنترت**" نفسي -أي تشبَّهتْ بـ"**فنتور**"، إن صح هذا القول- يكفي أن نرى كم من الأعمال الجنونية كنت آتيها معا، وفي آن واحد!: فها قد غَدَوْتُ مدرسا للغناء دون أن أعرف كيف أَفُكُّ رموز أي لحن! إذ إن الشهور الستة التي قضيتها مع "**لوميتر**" لم تكن بالكافية، حتى إذا كنت قد أفدت منها! -ثم إنني كنت قد تعلمت على يدي أستاذ، وكان هذا كافيا لأن يجعلني لا أكترث بالدراسة(٢)!

وإذ صرِتُ باريسيا من "**جنيف**"، وكاثوليكيا في بلد "**بروتستانتي**" فقد رأيت أن علي أن أغير اسمي كما غيرتُ عقيدتي ووطني، إذ كنت أحاول دائما أن أُصْبح أقرب ما أكون إلى المثل العظيم

---

(١) (ECL) عملة قديمة من الفضة. (٢) لعله يقصد أن الفن لم يكن موهبة أصيلة في نفسه.

الذي اتخذته. وقد كان يسمى نفسه "**فنتور دي فيلنيف**"، لذلك قلبت اسم "**روسو**" إلى "**ووسور**"، أو "**فوسور**"، واسميت نفسي "**فوسور دي فيلنيف**"! ولقد كان "**فنتور**" على معرفة بالتلحين، وإن لم يقل شيئا عن ذلك.. أما أنا فبدون معرفة بالتلحين رحت أفتخر ببراعتي أمام العالمين.. وبدون أن أستطيع تمييز أبسط أغنية دارجة جعلت من نفسي ملحنا.. ولم يكن هذا كل ما في الأمر، فقد قُدِّمتُ إلى السيد "**دي تريتوران**" -وكان أستاذا في القانون أحب الموسيقى واعتاد أن يقيم حفلات موسيقية في داره- فشئتُ أن أعرض عليه "**عينة**" من براعتي، وعكفت على وضع لحن لإحدى حفلاته في جُرأة بالغة، وكأنني كنت أعرف كيف أؤدي المهمة!.. ووآظبَتُ على العمل خمسة عشر يوما في إعداد هذا اللحن الجميل، وفي نسخ صورته، وفي تقسيم أجزائه، وفي توزيعها باطمئنان بالغ، وكأن اللحن تحفة متناسقة. وأخيرا -الأمر الذي لا يكاد يُصدّق، ولكنه الحقيقة الخالصة- أردت أن أتوج هذا الإنتاج الراقي بشكل يليق به، فاضفت في النهاية أغنية بديعة كانت تَتَردَّد في الطرقات، ولعل الناس أجمعين لا يزالون يذكرونها، وهذا نصها:

"يا للفجور.. ويا للجحود.. ماذا؟!

هل غدرت حبيبتك "**كلاريس**" بأهلك؟!.. إلخ".

وكان "**فنتور**" قد لَقّنني هذا اللحن -الذي يُعْزفَ على أوتار الطبقة الثانية- مع كلمات أخرى بذيئة، تذكرتهُ بفضلها؛ ومن ثم أضفت في نهاية لحني هذا المقطع وأنغامه الخفيضة، وقدمت للجميع على أنها من ابتداعي، في اعتداد، وكأنني كنت أُخاطب قوما من سكان القمر!

واجتمعتْ الفرقةُ لعزف لحني فشرحت لكل فرد نوع الحركة، وطريقة الأداء، وعلامات تكرار الأجزاء، وانهمكت في ذلك كل الانهماك.. فقضى العازفون خمسا أو ست دقائق -بدت لي كخمسة أو ستة قرون!- في تنسيق أصواتهم وآلاتهم، حتى أصبحوا أخيرا على تمام الأُهْبَة، فوقعت الضربات الخمس أو الست إشارة الانتباه، على منضدة القيادة، بأنبوبة بديعة من الورق، فساد الصمت، وبدأت أوزع الوقت في عظمة وجد.. وبدأ العزف! -لا، فمنذ ظهور "**الأوبرا**" الفرنسية على قيد الحياة، لم تسمع مثل تلك "الضوضاء"!- ومهما يكن قد خَالَجَ القوم بصدد براعتي المزعومة فإن الأثر كان أسوأ من أي شيء توقعوه!.. وكتم الموسيقيون ضحكهم بينما فتح المستمعون عُيونَهُم عن آخرها، وكانوا على استعداد لأن يسدوا آذانهم، ولكنهم لم يعرفوا لذلك وسيلة. وعمد العازفون القُساة -رغبة في السخرية- إلى العزف بشدة كافية لأن تخرق طبلة أذن الأصم(١)!

وأوتيت من الجلَد ما يكفي لأن أَستَمِرَّ في دوري دون توقف، وإن راح عرقي يتصبب غزيرا في الواقع.. فقد منعني الحياء، فلم أجرؤ على الهرب بينما كان الجميع جالسين. وعلى سبيل العزاء، سمعت المساعدين المحيطين بي يتهامسون بعضهم في آذان بعض، أو -بالأحرى- في أذني.. فقال أحدهم: "ليس في هذا ما يطاق!".. وقال آخر: "يالها من موسيقى جنونية!".. وقال غيره: "ياللَّحنِ الشيطاني!"، مسكين أنت يا "**جان جاك**"، فما طمعت -في تلك اللحظة- في أن تَنْتَزِعَ أنغامك هذه يوما، وفي حضرة ملك فرنسا وحاشيته بأسرها، تمتمات الدهشة، وتصفيق الإعجاب.. وأن تتهامس النسوة الفاتنات، في المقصورات المحيطة بك: "يالها من نغمات ساحرة!.. أية موسيقى فاتنة!.. كل هذه الأنغام تنفذ إلي القلب!".

على أن الذي رَدَّ القوم إلى رضاهم هو ذاك المقطع الذي أضفته في النهاية.. فما إن عزفتُ بضع نغمات

---

(١) في الأصل: تخرق أذن أحد الخمسة عشر عشرينا.. كناية عن نزيل المستشفى الذي يحمل هذا الاسم "الخمسة عشر عشرينا" في باريس، والذي أنشئ في الأصل لياوي ٣٠٠ أعمى.

منه حتى سمعت القهقهات تتصاعد من كل جانب.. وأخذ كل امرئ يُهنِّئني بذوقي الجميل، ويؤكد لي أن هذا المقطع كفيل بأن يذيع اسمي، وأنني جدير بأن تُردِّدَ أنغامي في كل مكان، ولست بحاجة إلى أن أصف غمي، ولا إلى أن أعترف بأنني كنت أستحقه!

وفي اليوم التالي جاء أحدُ العازفين -وكان يُدْعى "**ليتولد**"- ليراني، وكان من الأمانة بحيث إنه لم يهنئني بنجاحي.. فإذا شعوري العميق بحماقتي، وبالخجل والندم واليأس من جَرَّاءِ الحال التي انحدرت إليها، واستحالة إبقاء قلبي مُغْلَقاً على هذه الآلام الجسيمة.. إذا شعوري هذا يحملني على أن أفتح قلبي له، وأن أطلق العنان لدموعي.. وبدلا من أن أكْتفي بأن أعترف له بجهلي أفضَيْتُ إليه بكل شيء، وسألته أن يكتمَ سري، فوعدني بذلك، وبر بوعده على النحو الذي يمكن تصوره.. فما إن حل مساء اليوم ذاته حتى كانت "**لوزان**" بأسرها قد عرفت حقيقتي!.. وكان أعجب ما في الأمر أن أحدا لم يطلعني على أنه قد عرفها، ولا "**بيروتيه**" الطيب، الذي لم يحجم، برغم ذلك كله، عن إيوائي وإطعامي!

وقدر لي أن أعيش ولكن في حزن غامر. وكان من جراء موقف كهذا أن "**لوزان**" لم تعد بالنسبة لي مقاما مستحبا، فلم يُقْبِلْ التلاميذ زرافات. بل إنني لم أظفر بتلميذة واحدة، ولا بأحد من أبناء المدينة.. كل الذين ظفرت بهم كانوا اثنين أو ثلاثة من الألمان الذين كانوا من الغباء بقدر ما كنت من الجهل، وكانوا يُضَايِقُونَني إلى درجة الموت، كما أنهم لم يصبحوا -على يدي- ولو عازفين غير منتظمين!.. ولم أُدْعَ إلاَّ إلى بيت واحد، كانت فيه فتاة صغيرة -كأنها الحية- أخذت تتلهى بإطلاعي على كثير من القطع الموسيقية التي كنت عاجزا عن قراءة "**نوتاتها**"، ثم كانت تنطلق في الغناء -بعد ذلك- أمام مدرس الموسيقى لتريه كيف يجب أن يُؤَدي اللحن!.. وكنت لا أكاد أستطيع أن أقرأ أي لحن من أول نظرة، حتى إنني -في الحفلة الباهرة التي تحدثت عنها- كنت عاجزا عن أن أتتبع العزف لحظة لأتبين ما إذا كان العازفون يُحْسِنُونَ توقيع ما كان تحت بصري، وما كنت قد ألفته بنفسي!، أم لا!

وفي غمرة هذا الهوان وجدتُ عزاءً في الأنباء التي كنت أتلقاها بين وقت وآخر من الصديقتين الفاتنتين.. فلقد اعتدت دائما أن أجد طاقة مرفهة عظيمة في الجنس الآخر، فليس ثمة ما يُواسِي أحزاني -في المصائب- أكثر من أنثى لطيفة تُعنَّىَ بي!.. على أن هذا التراسل لم يلبث أن انقطع بعد ذلك بقليل، ولم يُقدر له أن يستأنف قط.. غير أن ذلك كان في الواقع ذنبي، إذ إنني عندما غيرت محل إقامتي أغفلت أن أبعثَ إليهما بعنواني، ثم نسيتهما تماما؛ إذ كنت مضطرا -بحكم الضرورة- إلى أن أفكر في نفسي باستمرار!

*****

ولقد انقضى وقت طويل دون أن أتحدثَ عن "**ماما**" (١) المسكينة. على أن المرء يكون جد مخطئ إذا ظن أنني نَسِيتُها هي الأخرى فإنني لم أكف عن التفكير فيها، وعن الشوق إلى العثور عليها ثانية، لا لحاجتي المادية فحسب، وإنما لما هو أكثر من ذلك.. لحاجتي القلبية!.. كان تَعَلُّقي بها -برغم ما كان عليه من حرارة وحنان- لا يَحُولُ بيني وبين أن أحب غيرها، ولكن على غير شاكلةِ حبي لها! فإن النساء جميعا

(١) رأينا في الجزء الأول كيف أطلق "روسو" على راعيته الكريمة "مدام دي فاران" لقب "ماما".

كن -على السواء- مَدِينات بعاطفتي لمفاتنهن.. أما هي، فكانت لها مكانة فريدة، دونها مكانات الأخريات، فلم تكن مفاتنهن تعدو عليها.. بل لقد كان من المحتمل أن تهرم "**ماما**" وأن تصبح دميمة، وأنا مقيم على حبها، دون أن يقل شَغَفِي بها!.. كان قلبي قد نقل إلى شخصها كلَّ التمجيد الذي أستشعره من قبل نحو جمالها، فما كانت عواطفي نحوها لتتغير قط -مهما يكن التغيُّر الذي يتعرض مظهرها له- طالما ظلت في جوهرها هي بذاتها!.. وكنت أدركُ تماما أنني مدين لها بالفضل ولكني لم أفكر في ذلك قط، في الواقع.. بل كان ما فعلته ومالم تفعله من أجلي سواء عندي، إذ إنني لم أحببها عن شعور بالواجب أو بالمصلحة الذاتية، ولا عن خضوع وامتثال، وإنما أحببتها لأنني خُلِقْتُ كي أحبُّها!.. وكنت عندما أقع في هوى أية امرأة أخرى أشغل بها -كما ينبغي أن أعترف- فيقل تفكيري في "**ماما**" ولكنني كنت إذا ما عدتُ للتفكير فيها أفكر بنفس المتعة. وما شغلت بها قط -سواء كنت على حب أو لم أكن- دون أن أشعر بأنني لن أجد سعادة حقيقية قط في الحياة طالما كنت بعيدا عنها!

ومع أنني لم أسمع عنها منذ أمد طويل إلا أنني لم أعتقد قط بأنني فقدتها تماما، ولا خطر لي أن من الممكن أن تكون قد نسيتني،. وكنت أقول لنفسي: "إنها لن تلبث أن تعلم -طال الوقت أو قصر- بأنني شريد وحيد، فتبعثُ إلي بما يُطَمْئِنُني إلى أنها على قيد الحياة. ولسوف ألقاها ثانية، بكل تأكيد. وفي انتظار ذلك كان من بواعث البهجة أن أعيش في مَسْقَطِ رأسها، وأن أجتاز الطرقات التي سارت فيها من قبل، وأمر بالبيوت التي كانت تقيم فيها.. كل هذا بالحدْسِ والتخمين، فقد كان من نزواتي الحمقاء أنني كنت عاجزا عن أن أحمل نفسي على الاستعلام عنها، بل عن ذكر اسمها، مالم تكن ثمة ضرورة ماسة.. كان يبدو لي أنني بذكر اسمها أشِي بكل ما كانت تُلْهِمُني إياه من مشاعر، وأن فمي يفضح سر قلبي، وأنني أحرجها بطريقة ما! كذلك خُيل إلي أن تحرجي عن ذكر اسمها كان يمتزج بشعور ما كان يوحي إليّ بأن أحدا قد يذكرها أمامي بسوء! فقد كان الناس يُكثرون من الحديث عن الخطوةالتي اتخذتها، ويمَسُّون سلوكها بعض الشيء؛ لذلك آثرتُ ألا أسمع أي شيء يقال عنها -على الإطلاق- خوفا من أن يقال لي ما لا أتوق إلى سماعه!

ولما لم يكن تلاميذي يشغلونني كثيرا، وكان مسقط رأسها لا يبعد عن "**لــوزان**" بأكثر من أربعة فراسخ، فقد قضيت ثلاثة أيام أو أربعة أتمشى هناك، دون أن يفارقني أعذبُ شُعُورٍ عرفته. كان لمنظر بحيرة "**جنـيف**" وضفافها البديعة سحر يأسر عيني دائما، ولا قبل لي بوصفه.. سحر لم يكنَ ينْحَصِرُ في جمال المنظر فحسب بل كان يشتمل أيضا على شيء أكثر جاذبية، وأقدر على التأثير علي، والسيطرة على مشاعري. وفي جميع المرات التي كنت أقترب فيها من مقاطعة "**فـود**" كان يُخَامِرُني شعور ينطوي على ذكرى "**مدام دي فاران**" -التي ولدت هناك- وأبي، الذي عاش هناك، والآنسة "**دي فيلسون**" التي استمتعت بأولى ثمار حب صباي، وكثير من الرحلات البهيجة التي قمتُ بها في طفولتي.. وسبب آخر -فيما يبدو لي- كان أكثرَ إثارة، وأشدُّ غموضا، وأقوى سلطانا من كل هذه مجتمعة!.. كانت الرغبة المتأَجِّجَة في هذه الحياة الهانئة الوادعة -التي كانت تفر مني برغم أنني ولدت لها- تتجه دائما إلى مقاطعة "**فود**"، على مقربة من البحيرة، ووسط الريف الفَتَّان.. كنت أصبو إلى أن يكون لي بستان على شاطئ هذه

البحيرة دون سواها، وإلى أن يكون لي صديقٌ أمين، وامرأة لطيفة، وبقرة، وزورق صغير.. ولن أنعم بسعادة كاملة على الأرض إلا إذا تَحَقَّقَ لي كل هذا! وإني لأضحك من السذاجة التي كانت تحدو بي إلى زيارة هذه البلاد مرارا، لمجرد البحث عن هذه السعادة الخيالية! وكنت أُدْهَش دائما إذ كنت أجد سكانها -لا سيما النساء منهم- على النقيض مما كنت أنشد.. لكم كان يهولني هذا التناقض!.. أبدا لم يلح لي أن كلا من المقاطعة وأهلها قد خلق من أجل الآخر!

*****

وفي خلال الرحلة إلى "**فيفاي**"(١)، أطلقت نفسي -وأنا أتمشى على شاطئ البحيرة الجميلة- للشجون العذبة، فإذا بقلبي يندفع في شوق إلى آلاف من المفاتن البريئة، وأترَعْتُ نفسي بالانفعالات، فرحت أتنهد وأبكي كالطفل!.. كم من مرة توقفت لأبكي ماشاء لي البكاء!.. وكنت أجلس على حجر كبير، أتسلى بتأمل دموعي وهي تتساقط في الماء!

وفي "**فيفاي**" اقمتُ في "**لاكليه**". وفي خلال اليومين اللذين اقمتهما هناك دون أن أرى أحدا تملكني نحو هذه المدينة حُبٌّ ظَلَّ يلاحقني في كل رحلاتي، وحملني -في النهاية- على أن أُقيم فيها معبدا لأبطال خيالي القصصي. وإني لأقول -عن طيب خاطر- لأولئك الذين أوتوا ذوقا وحسا مرهفين: "اذهبوا إلى "**فيفاي**".. وَجُوسُوا خلال ريفها، وتأملوا المواقع، وتمشَّوْا على ضفاف البحيرة، وقولوا ما إذا كانت الطبيعة لم تَخْلق هذا البلد الجميل لـ"**جوليا**" و"**كلير**" و"**سان برو**"(٢).. ولكن، لا تتوقعوا أن تجدوهم هناك!".. على أني أعود الآن إلى قصتي:

ولما كنت كاثوليكيا، وقد اعترف بي كذلك فقد رحت أمارس جهارا، وبدون إِحْجَام، العقيدة التي اعتنقتها.. وكنت -في أيام الأحد ذات الجو المعتدل- أحضرُ الصلاة في "**اسين**"، على مبعدة فرسخين من "**لوزان**"، فكنت أقطع المسافة عادة في صحبة غيري من الكاثوليكيين، أذكر منهم بالذات شخصا كان يحترف التطريز الباريسي، وقد غاب عني اسمه. ولم يكن الرجل باريسيا على شاكلتي، وإنما كان باريسيا صميما، من "**باريس**". وكان تَقِياً مؤمنا، ذا فطرة طيبة كأبناء "**شامباني**"، وقد بلغ من حبه لوطنه أنه لم يسمح لنفسه البتة بالارتياب في أنني باريسي مثله خوفا من أن يُضَيِّع على نفسه فرصة الحديث عن "**باريس**". وكان لدى السيد "**دي كروزا**" -مساعد الحاكم- بستاني من "**باريس**" كذلك ولكنه كان أقل طيبة، وكان يرى أن من المساس بكرامة بلده أن يجرؤ أي إنسان على أن يَنْتَمِي إليها دون أن يكون له حق في هذا الشرف!.. لذلك راح يمطرني بالأسئلة، وهو يبتسمُ في خبث، بلهجة الواثق بأنه لن يلبث أن يَكْتَشفَ غلطة! ولقد سألني مرة عن أبرز معالم "**مارشيه نيف**"، فأجبته اعتباطا وتخبطا، كما يستطيع المرء أن يحدس. وجدير بي اليوم -وقد أقمت في "**باريس**" عشرين عاما- أن أكون على دراية بها، ومع ذلك، فلو أن أحدا وجه إلي سؤالا كهذا السؤال لما كان ارتباكي في الإجابة أقل منه يومئذ، ولاستنتج أي امرئ -من هذا الارتباك- أنني لم أقْطُنْ "**باريس**" قط! إلى هذا الحد يكون المرء معرضا للاعتماد على ظواهر خداعة، ولو صادف الحقيقة!

---

(١) مسقط رأس مدام "دي فاران". (٢) هؤلاء الثلاثة من أبطال قصة روسو الطويلة "هيلويز الجديدة".

وليس بوسعي أن أذكر تماما مدة إقامتي يومئذ في "**لوزان**"، فإنني لم أحمل من هذه المدينة ذكريات حَيَّة. كل ما أدريه هو أنني حين وجدتُ نفسي عاجزا عن كسب عيشي فيها نزحت منها إلى "**نيوشاتيل**" حيث قضيت الشتاء. ولقد كنت في هذه المدينة أكثر توفيقا؛ إذ كان لدي تلاميذ، كما أنني كسبت منها ما مكنني من الوفاء بديني لصديقي الطيب "**بيروتيه**"، الذي كان من النُّبل بحيث أرسل إلي –في الماضي– حزمة متاعي الصغيرة برغم أنني كنت مدينا له بمبلغ كبير!

ولقد تعلمتُ الموسيقى –دون قصد مني– خلال تدريسي إياها، وكانت حياتي على قدر لا بأس به من الدَّعة. كانت حياة تكفي لأن يقنع بها أي رجل عاقل ولكن قلبي القلق كان يصبو إلى شيء آخر.. وكنت في أيام الأحد والأيام الأخرى التي أخلو فيها من العمل أرتعُ في الريف والغابات المجاورة، دون أن أكف عن التَّجْوال، والتأمل، والتَّنهُّد. وكنت إذا ما خرجت من المدينة لا أعود إليها قبل المساء. وفي ذات يوم، كنت في "**بودري**" فولجت فندقا لأتناول الغداء، وإذا بي أرى رجلا طويل اللحية، ذا حُلة بنفسجية على النَّمط اليوناني، وقلنسوة من الفرو، وقد أوتي مظهرا ينم عن نبل. وكان يجد عَنَاءً –في أكثر الأحيان– في أن يجعل القوم يفهمون ما كان يبغي، إذ كان لا يكاد ينطق بغير لهجة ركيكة لا سبيل إلى تمييزها تقريبا، ولكنها كانت شديدةَ الشبه باللغة الإيطالية، ولا لغة غيرها. وفهمت كل ما كان يقول تقريبا، وكنت الوحيد الذي فهم. ولم يجد الرجل بوسعه أن يوضح ما يبغى إلا بتبادل الإشارات مع صاحب الفندق ومع أبناء المنطقة، فوَجَّهْتُ إليه بضع كلمات بالإيطالية، فهمها تماما، فنهض وعانقني في ابتهاج، وسرعان ما تعارفنا، ومنذ تلك اللحظة عملت مترجما له. وكان غداؤه شهيا، في حين أن غدائي كان أقل من المتوسط فدعاني إلى أن أشاركه طعامه، فلم أبد تمنعا يذكر. وبينما كنا نَشْرَبُ ونتكلم وثقنا من تآلفنا، فلم ينته الغداء حتى أصبحنا لا نطيق افتراقا!.. وروى لي أنه كان قَسًّا يونانيا، و"**ارشيمندريت**" لبيت المقدس، وقد أوفد لجمع اكتتابات من أوروبا لتجديد كنيسة المهد المقدس. وأطلعني علي شهادات بديعة من القيصرة والإمبراطور، كما كان لديه كثير غيرها من ملوك آخرين. وكان جد رَاضٍ عما جمع حتى ذلك الحين ولكنه كان قد صادف في ألمانيا صعوبات لا تخطر بالبال؛ إذ إنه لم يكن يفقه كلمة واحدة من الألمانية أو اللاتينية أو الفرنسية، فكان مضطرا إلى الاقتصار على لغته اليونانية، وعلى اللغة التركية، واللغة الفرنجية؟ مما لم يُسْعِفْهُ كثيرا في البلدان التي لم يكن ملما بألسنتها. لذلك عرض علي أن أصحبه فأكون له سكرتيرا ومترجما، وإلى جانب أن حلتي البنفسجية المتواضعة –التي كنت قد ابتعتها حديثا– لم تكن تنسجم مع مركزي الجديد، فإنني لم أُوتَ من أناقة المظهر سوى قسط بسيط، مما جعله يعتقد أن الظفر بي أمر غير عسير. ولم يكن في ذلك مخطئا، فسرعان ما تم اتفاقنا، إذ إنني لم أطلب شيئا، في حين أنه وعد بالكثير.. وبدون احتياط، ولا ضمان، ولا معرفة، أسلمته قيادي.. وهكذا رحلت من الغد في طريقي إلى بيت المقدس!

وبدأنا رحلتنا بمقاطعة "**فريبور**"، فلم يخرج منها بطَائِل، وبينما كنا نشرب ونتكلم، وثقنا من تآلفنا، فلم ينته الغداء حتى أصبحنا لا نطيق افتراقا!..

إذ إن كرامته الكنيسية لم تكن لِتَسْمَحْ له بأن يقوم بدور المتسول، ولا بجمع الاكتتابات من خاصة

القوم. على أننا عرضنا مهمته على مجلس الشيوخ فمنحه مبلغا صغيرا. ومن هناك يممنا شطر "**بيرن**"، وهبطنا في فندق "**أوفوكون**"، وكان في ذلك العهد نُزُلاً طيبا، يؤمه وسط طيب. وكانت المائدة حافلة، ومحفوفة بالعناية. وكان قد انقضى وقت طويل اضطررت فيه إلى النزول بالفنادق الرخيصة، ومن ثم فقد كان لزاما عليّ أن أهيئَ نفسي لتعويض ما فاتني، وكانت الفرصة سَانِحَةً، فاستغللتُها. ولقد كان السيد "**الأرشيمندريت**" نفسه رجلا طيب المعاشرة، مشغوفا بالمائدة، مرحا، يجيد الحديث مع من كانوا يفهمونه. ولم تكن تنقصه المعرفة، وكان يُجِيدُ عرض بلاغته اليونانية بكثير من البراعة. وحدث ذات يوم أنه أصاب أصبعه بجرح عميق، بينما كنا نكسر بندقا عقب الغداء، فلما انساب الدم دافقا، عرض أصبعه على الحضور وهو يقول ضاحكا: "ألا أبدوا إعجابكم يا سادة.. إنه دم "**بيلا سجي**!"(١).

ولم تكن خدماتي له قليلةَ النفْع في "**بيرن**" فلم أخرج منها بنتيجة سيئة كما كنت أخشى، وإنما كنت أكثر جُرأة وأبلغ حديثا مما لو كنت اعمل لنفسي!.. على أن الأمور لم تجر بالبساطة التي جرت بها في "فريبور"، بل كان لابد من مؤتمرات طويلة وعديدة من كبار رجال الدولة، كما أن فَحْصَ شهادات "**الأرشيمندريت**" لم يكن بالمسألة التي تتم في يوم واحد. وأخيرا، عندما تمت الإجراءات اللازمة، كان علينا أن نعرض الأمر على مجلس الشيوخ. فَذهَبْتُ مع "**الأرشيمندريت**" بوصفي مترجما له، فطُلِبَ إلي أن اتكلم، وكان هذا آخر ما توقعت، فما خطر ببالي أن ثمة ضرورة -بعد المحادثات الطويلة مع الأعضاء فرادي- إلى مخاطبة المجلس مجتمعا، وكأنما لم يدر من قبل أي حديث!.. فتصوروا ارتباكي!.. تصوروا رجلا خجولا مثلي، يُطَالَب بأن يتكلمَ لا أمام ملأ من الناس فحسب، وإنما أمام مجلس شيوخ (**بيرن**) بالذات.. وأن يتكلم ارتجالا، وليست أمامه مذكرة واحدة معدة.. كان هذا ما أوشك أن يقتلني!.. ومع ذلك فإنني لم أجبن، وإنما عَرضْتُ في وضوح وإيجاز مهمةَ "**الأرشيمندريت**،" وأطريت تقوى الأمراء الذين ساهموا في الاكتتاب الذي جاء لجمعه، ولكي أثير حمية مثل هؤلاء السادة الفخام قلت: إنه من غير المتوقع إزاء كرمهم المألوف أن يكونوا أقل من أولئك.. ثم حاولت أن أثبت لهم أن مثل هذا العمل الخيري يَهُمُّ المسيحيين جميعا، دون ما تمييز بين مذاهبهم.. وانتهيت بأن وعدت كل من يساهم فيه ببركات من السماء!

ولن أقول إن خطابي كان مؤثرا، بيد أنه صادف -بالتأكيد- هوى لدى المستمعين. وعند مغادرة الاجتماع تلقى "**الأرشمنيدريت**" تبرعا سخيا مشرفا، فضلا عن إطراءات لذكاء سكرتيره، نَعِمْتُ بمهمة ترجمتها إليه، وإن لم أجسر على أن أنقلها بنصها! وكانت هذه هي المرة الوحيدة في حياتي التي تكلمت فيها على الملأ وأمام صاحب سلطان، ولعلها أيضا المرة الأولى التي تكلمت فيها بلباقة وإجادة. فأي تحول في تصرفات نفس الرجل!.. لقد ذهبت أخيرا -منذ ثلاث سنوات- إلى "**ايفردون**" لأزور صديقي القديم السيد "**روجان**"، فاستقبلتُ وفدا جاء يشكرني إذ أهديت مكتبةَ البلدة بعض الكتب.. والسويسريون خطباء بارعون؛ ومن ثم انطلق هؤلاء السادة في الخطابة لي، ووجدتني مضطرا للرد، ولكني ارتبكت بدرجة كبيرة حين شرعت في ذلك، واضطربت أفكاري إلى درجة جعلتني أُوجِزُ كي لا أجعل نفسي موضع

---

(١) نسبة إلى "بيلاسجو"، وهو عنصر عريق كان ينتشر قديما على سواحل وفي جزر شرقي البحر الأبيض المتوسط وبحر إيجه، ويرتبط بالعنصر الإغريقي.

السخرية!.. وعلى الرغم من أنني خجول بطبيعتي، إلا أنني كنت جسُوراً في بعض الأحيان -في شبابي- ولكني لم أكن كذلك قط في كبري.. فكلما ازددت تعرفا على المجتمع، قلت قدرتي على أن أكيف نفسي وفقا لأساليبه في الحديث!

*****

وإذ غادرنا "**بيرن**" ذهبنا إلى "**سوليير**"؛ إذ ارتأى "**الأرشيمندريت**" أن يجتاز ألمانيا ثانية، عائدا عن طريق المجر أو بولندا، وهي رحلة بالغة الطول ولكنه لم يخش طولها؛ إذ كان كِيسُهُ خَليقاً بأن يمتلئ خلال الطريق بدلا من أن يفرغ!.. أما أنا، فكان سواء لدي أرحلت على جواد أو على قدمي، فما كنت لأبتغي أفضل من الترحال بهذا الشكل، طيلة العمر.. ولكن كان مكتوبا لي ألا أمضي في ترحالي بعيدا!

كان أول ما فعلناه عند وصولنا إلى "**سوليير**" هو الذهاب لتحية السيد سفير "**فرنسا**"، وكان هذا السفير -لسوء حظ أسقفي- هو "**المركيز دي بوناك**" الذي كان سفيرا لدى الباب العالي، والذي قدر له أن يكون على معرفة وافية بكل ما يتعلق بكنسية المهد المقدس. وقضى "**الأرشيمندريت**" ربع ساعة في المقابلة التي لم يُسمَح لي بحضورها، لأن السيد السفير كان يفهمُ لسان الفرنجة ويُعَادلني -على الأقل- في إتقان الحديث بالإيطالية. وعندما خرج صاحبي اليوناني، هممتُ بأن أتبعه، ولكني استوقفت، إذ حان دوري لمقابلة السفير، فقد تقدمت على أنني باريسي، ومن ثم تحت ولاية صاحب السعادة! وسألني السفير عمن أكون، ونَاشَدَني أن أقول الحقيقة، فوعدت بذلك، ورجوتُ بأن يأذن لي بأن أخلو إليه، فأذن لي، وصحبني إلى مكتبه، وأغلق الباب.. وإذ ذاك ارتميت على قدميه، وبررت بوعدي.. وما كنت خليقا بأن أضن بالكلام، ولو لم أعد بشيء، إذ كانت الرغبة المستمرة في أن أفضي بما في صدري تدفع قلبي إلى شفتي في أية لحظة.. وإذا كنت قد كشفتُ حقيقتي دون تحَفُّظ للموسيقي "**ليتولد**" فما كان من المحتمل أن ألجأ إلى التكتم أمام المركيز "**دي بوناك**"!

وبدا عليه الاقتناع بقصتي القصيرة، وبالصراحة التي فَضْفَضْتُ بها عن صدري، فأمسكَ بيدي وقادني إلى السيدة زوجة السفير، فقدمني إليها، وأوجز لها قصتي، فتلقتني السيدة "**دي بوناك**" في رفق، وقالت: إنني يجب ألا أُتْركَ مع ذلك الراهب اليوناني. ومن ثم تقرر أن أبقى في الدار حتى يريا ما يُمْكِنُ يفعل من أجلي. وَوَدِدْتُ أن أذهب فأودع "**أرشيمندريتي**" المسكين الذي كنت أشعرُ بميل نحوه، فلم يُؤذن لي، وإنما أُوفِد إليه من أنباه بأنني قد احتجزت.. وإن هي إلا ربع ساعة، حتى كانت حزمة متاعي الصغيرة قد وصلت. وعهد بي إلى السيد "**دي لامارتنيير**" -سكرتير السفارة- فقال وهو يرُيني الغرفة التي أعدت لي: "لقد شغل هذه الحجرة -في عهد "**كونت دي لوك**"- رجل مشهور كان له نفس اسمك(١)، وعليك وحدك أن تملأ مركزه من جميع الاعتبارات، حتى يقال: "**روسو**" الأول، و"**روسو**" الثاني!".. وما كان كان لهذا التشابه -الذي لم أعلق عليه أملا إذ ذاك- أن يَسْتَهْوِي مطامعي، لو قدر لي أن أطلع على المستقبل فأرى الثمن الذي كان مقدرا علي أن أدفعه من أجله يوما!

---

(١) كان الشخص المقصود هو "جان بابتيست روسو" (١٦٧١-١٧٤١). وكان شاعرا غنائيا فرنسيا.. وهناك "روسو" ثالث، هو "بيير روسو" (١٧٢٥-١٧٨٥) وكان كاتبا مسرحيا. وقد قيل بهذا الصدد: "ثلاثة مؤلفين يدعون باسم "روسو"، ذاع صيتهم من باريس إلى روما: "روسو" الباريسي كان عظيما، و"روسو" الجنيفي كان أحمق، و"روسو" التولوزي كان هباء!".

ولقد أثار قول السيد "**دي لامارتنيير**" فُضُولي، فقرأت مؤلفات ذلك الذي شغلت غرفته. وإزاء المجاملة التي وجهت إلي، واعتقادا مني بأنني أوتيت موهبة الشعر، نظمت أغنية في مدح السيدة "**دي بوناك**"، كمحاولة أولى، على أن هذه النزوة لم يطل أمدها.. ولقد اعتدت أن أنظم الشعر جزافا -بين وقت وآخر- فهو مِرَانٌ لا بأس به لتدريب المرء على الرشاقة في تكوين العبارات، ولتحسين الأسلوب النثري، ولكني لم أجد في الشعر الفرنسي قط جاذبية كافية لأن تجعلني أتفرغ له!

ورغب السيد "**دي لامارتنيير**" في أن يرى أسلوبي، فسألني أن أكتبَ عين القصة التي رويتها للسيد السفير، فكتبت له رسالة طويلة -سمعت أنها الآن في حَوْزَة السيد "**دي مارتان**"، الذي ظل زمنا طويلا ملحقا بالسفارة في عهد المركيز "**دي بوناك**"، والذي خَلَفَ السيد "**دي لامارتنيير**" في عهد تولي السيد "**دي كورتي**" السفارة! -ولقد رجوتُ السيد "**دي ماليشيرب**" أن يَسْعَى للحصول لي على نسخة من هذه الرسالة.. وإذا قدر لي أن اظفر بها بوساطته، أو بوساطة سواه فسوف توجد في المجموعة التي ستلحق باعترافاتي.

وأخذت الخبرة التي بدأت أَحْظَى بها تخفف من جموح مشروعاتي الخيالية شيئا فشيئا. فلم أقتصرْ -مثلا- على عدم الوقوع في هوى السيدة "**دي بوناك**" فحسب، بل إنني رأيت لتوي أنني لن أجد مجالا كبيرا للرقي في دار زوجها، إذ كان السيد "**دي لامارتنيير**" راسخا في منصبه، وكان السيد "**دي ماريان**" متربصا لِيَخْلُفهُ، مما كان لا يدع لي مجالا للأمل -مهما يكن الحظ- في أكثر من منصب مساعد السكرتير الذي لم يكن يستهويني كثيرا؛ ومن ثم فإنني حين استُشِرتُ فيما يطلب أن أفعل أبديت رغبة شديدة في الذهاب إلى "**باريس**". واستساغ السيد السفيرُ هذا الرأي الذي بدا خليقاً بأن يخلصه مني على الأقل!.. وقال السيد "**ديمرفييه**"، السكرتير المترجم للسفارة إن صديقه السيد "**جودار**" -وكان ضابطا سويسريا برتبة كولونيل، في خدمة فرنسا- كان يبحث عن شخص يعهد إليه برعاية ابن أخيه، الذي التحق بالخدمة وهو بعد صغير السن؛ ومن ثم فقد رأى أنني خليق بأن أروق له. وبناء على هذه الفكرة، التي قُبِلَت في تَسَرُّع، تقرر سفري.. فطار قلبي فرحا، إذ رأيت أمامي رحلة تنتهي بي إلى "**باريس**"!.. ومنحوني بعض خطابات للتوصية، ومائة فرنك للإنفاق على الرحلة، تصحبها نصائح طيبة.. ثم رحلت!

وقضيت في هذه الرحلة خمسة عشر يوما، أعدها بين الأيام السعيدة في حياتي. وكنت شابا، موفور الصحة، وكان معي مال كاف، وآمال وافرة، وقد انطلقتُ في الرحلة على قدمي. وكنت أسافر وحيدا، وقد يُعَجَبُ المرء -إن لم يكن قد ألمَّ بطباعي- إذ يراني أعتبر ذلك ميزة، فقد كانت تصوراتي الناعمة تؤنسني، ولم يكن بوسع الواقع أن يتمخض عن أروع من هذه التصورات التي كان يُوحِي إليّ بها خيالي المتأجج.. وهكذا كنت إذا عرض علي امرؤ مجلسا في عربة، أو اقترب مني شخص في الطريق، أعبس خشية أن يهدم الصرح الذي كنت أبنيه في خيالي أثناء سيري!.. على أن أفكاري كانت في هذه المرة "عسكرية" صرفة، فقد كنت موشكا أن أكونَ مرافقا لرجل عسكري، وأن أصبح عسكريا أنا الآخر، إذ كانت التدابير قد اتخذت لكي ألتحق بالمدرسة العسكرية. ورحت أتمثل نفسي في زي ضابط، وقد حَمَلْتُ ريشة بيضاء بديعة، فَأُفْعِمَ قلبي بهذه الفكرة الرفيعة. وكانت لدي بعض معلومات باهتة عن هندسة التحصينات، فقد

كان خالي مهندسا؛ ومن ثم فقد اعتبرتُ نفسي -بطريقة ما- عسكريا بالفطرة!.. وكان قِصَرُ نظري عقبة ولكنها عقبة لم تُزْعِجْني، فقد عولت على أن أعوض هذا العيب بالجلد والشجاعة. وكنت قد قرأت أن الماريشال "**شومبيرج**" كان قصير النظر، فلماذا لا يكون الماريشال "**روسو**" على شاكلته؟.. وهكذا رحت أتدفأ على حرارة هذه الأوهام حتى إنني لم أعد أرى سوى فرق من الجند، ومتاريس، وسلالَ الطَّوابي (١)، والمدفعيات، وشخصي وَسْطَ النار والدخان، أُصدر الأوامر في هدوء، وأنا أمسك بمنظار الميدان في يدي!.. ومع ذلك فإنني عندما كنت أجتاز المناطق الريفية الجميلة كنت أرى الأدغال والجداول؛ فيجعلني هذا المنظر الفتان أتنهد حَسْرَةً، وأشعر في غَمْرةِ ابتهاجي بالمجد أن قلبي لم يُخْلق لمثل هذا الضجيج، وسرعان ما كنت أتمثل نفسي وسط خرافي الحبيبة -دون أن أدري كيف انتقلت إليها- نابذا إلى الأبد أعمال مارس(٢)!

كم كَذَّبتْ مَشَارِفُ "**باريس**" الفكرة التي كانت لديّ عنها!.. كانت المناظر التي رأيتها تزين ظاهرَ مدينة "**تورين**"، وجمال طرقاتها، وتناسق صفوف بيوتها قد جعلتني أطمعُ في مزيد من ذلك كله في "**باريس**"، فكنتُ أتمثلها مدينة لها من الجمال بقدر ما لها من الاتساع، وقد أوتيت أبهى حسن.. لا يرى المرء فيها سوى شوارع رائعة، وقصور من مَرْمَر وذهب!.. فلما دخلتها عن طريق ضاحية "**سان مارسو**" لم أر سوى شوارع صغيرة قَذِرَة قميئة، وبيوت بشعة سوداء، وجو من الدنس والفقر، ومتسولين، وحوذيين، وتجار للثياب القديمة، ومُنَادِين يُعلنون عن العلاج بالبركة وعن القبعات القديمة!.. كل هذا صدمني منذ البداية، إلى درجة أن كُلَّ العظمة الحقيقية التي رأيتها في "**باريس**" -بعد ذلك- لم تَقْوَ على أن تقضي على هذا الأثر الأول؛ ومن ثم ظللت أكن دائما نُفُوراً خفيا من الإقامة في هذه العاصمة!.. وأستطيع أن أقول: إن المدة التي عشتها فيها -بعد ذلك- لم تَشغل بأكملها إلا في السعي وراء موارد تمكنني من العيش بعيدا عنها!

هكذا تكون ثِمَارُ الخيال البالغ النَّشاط، الذي يَتَمَادَى إلى ما وراء مبالغات البشر، والذي يطمع دائما في أن يرى أكثر مما يقال له!.. فكم امتدحت لي "**باريس**"، حتى إنني صَوَّرتُها لنفسي على غرار "**بابل**" القديمة، التي كان من المحتمل -لو قُدِّر لي أن أزورها- أن أجدَ فيها الكثير الذي لا يتفق مع الصورة التي أكون قد رسمتها لها في خيالي!.. ولقد حدث لي الشيء نفسه عندما زرت دار "**الأوبرا**"، التي سارعت إلى مشاهدتها في اليوم الذي أعقب وصولي.. ثم وقع لي الشيء ذَاتُه -فيما بعد- عندما زرت "**فرساي**"، ثم حين شهدت البحر للمرة الأولى. ولسوف يظل الأمر ذاته يراودني كلما رأيت شيئا أكون قد سمعت عنه إطنابا بالغا.. ذلك لأنه من المستحيل على البشر، ومن العسير على الطبيعة ذاتها، التفوق على خصب خيالي!

وخيل إلي -من الطريقة التي استقبلني بها كل أولئك الذين حملتُ إليهم رسائل التوصية -أن حظي قد اكتمل، وكان الشخص الذي تلقى أكبر قسط من التوصية، والذي استقبلني بأقل قسط من الحفاوة هو السيد "**دي سوربك**" الذي كان قد اعتزل العمل وعاش متفلسفا في ضاحية "**بانيو**"، حيث زُرْتهُ مرارا، وحيث لم يقدم لي كوب ماء قط!.. ولقد حَظِيتُ باستقبال أوفر من مدام "**دي مرفييه**" -زوجة أخ المترجم- ومن ابنهما، وكان ضابطا في الحرس. فإن الأم وابنها لم يتلقياني في حفاوة فحسب، بل إنهما

---

(١) أداة اسطوانية الشكل، مفتوحة الطرفين، كانت تملأ ترابا ويستعان بها في بناء الحصون، في ذلك العهد. (٢) آلة الحرب

دَعَواني إلى مائدتهما، فاستغللت هذه الدعوة مرارا أثناء إقامتي في "**باريس**". ولاح لي أن مدام "**دي مرفييه**" كانت حسناء يوما ما، فقد كان شعرها مايزال ذا سواد بديع، وكانت تنسقه في حلقات على جبينها، وفقا للنمط القديم. وكانت محتفظة بما لا يخبو حين تَخْبُوُ المفاتن الشخصية.. وأعني بذلك: عَقْلاً لا بأس به. وقد بدا أنها استساغت فكري، وأخذت تبذل كل ما في وسعها لمساعدتي، ولكن أحدا لم يؤازرها.. ومالبثت أن تبينتُ بجلاء الاهتمام العظيم الذي تولاها نَحْوي. على أن من واجبي إنصاف الفرنسيين، فإنهم لا يغالون في الاحتجاجات -كما يقال- بل إن ما يُبدونه منها يكون صادقاً على الدوام. على أن لهم في التظاهر بالاهتمام بك أسلوبا أكثر خِداعاً من زخرف القول! أما المجاملات الضَّخْمَة المأثورة عن السويسريين، فلا تجوزُ إلا على الحمقى! إن طباع الفرنسيين ليست بالغة الإغراء والفتنة إلا أنها بالغة البساطة.. وقد يلوح أنهم لا يقولون لك كل ما يودون أن يفعلوه، لكي يستطيعوا أن يُقدموا لك مفاجآت مستحبة. بل إنني لأذهب إلى القول بأنهم ليسوا كاذبين في مظاهرهم، فهم بطبيعتهم بَشُوشُون، عطوفون، محبون للخير.. بل إنهم -مهما يقال- أكثرُ صدقا في عواطفهم من أبناء أية أمة أخرى.. بيد أنهم نَزِقُونَ، سريعو الملل والتقلب. إنهم يشعرون في الواقع بالعواطف التي يُبدونها لك، ولكن هذه العواطف سرعان ما تذهب كما جاءت.. وهم حين يحدثونك ينصرفون إليك بجماع أنفسهم، ولكنهم ينسونك بمجرد أن تغيب عن أبصارهم.. فلا دَوَامَ لشيء في قلوبهم، بل أن كل شيء لديهم ابن لحظته!

ومن ثم فقد حَظِيتُ بكثير من المجاملات وقليل من النفع.. وظهر أن ذلك الكولونيل "**جودار**" -الذي أُوفدتُ لابن أخيه- كان شيخا وغْدا شحيحا، ما إن رأى ما كنت فيه من محنة حتى طمع في أن يظفر بخدماتي دون مقابل، برغم أنه كان يتقلب في الذهب!.. فلقد أرادني على أن أكون لابن أخيه بمثابة وصيف بدون أجر، أكثر مني رائدا ومربيا حقيقيا! ولما كنت مرافقا إياه باستمرار، ومعفى من الخدمة لذلك، فقد كان لزاما أن أعيش على مرتبي كطالب عسكري - أو بالأَحْرى كجندي - وكاد التَّعسُ لا يوافق على منحي حلة عسكرية، إذ كان يريد أن أقنع بحلة الخدَمة التي تقدمها الكتيبة للجندي العادي. ولقد حالت مدام "**دي مرفييه**" نفسها بيني وبين قبول هذه المتقرحات، إذ استنكرتْها.. وكذلك أبدى إبنها عين الشعور. ودار البَحْثُ عن عمل آخر لي، فلم يُسْفِرُ عن شيء. وبدأت في تلك الأثناء أحس بحاجة ماسة إلى المال، فما كانت الفرنكات المائة التي أنفقت منها على رحلتي لتكفيني فترة أطول، على أنّني - لحسن الحظ - تلقيت من لدن السيد السفير مِنْحَة صغيرة أخرى. كانت عظيمة النفع لي. وأعتقد أنّه ما كان ليتخلى عني لو أنّني كنت قد أُوتيتُ مزيداً من الصبر، ولكن التقاعس، والإنتظار، والإسترحام أمور مستحيلة بالنسبة لي.. فانصرفت عن هذه الأسرة ولم أعد أتردد عليها !

ولم أكن قد نسيت "**ماما**" المسكينة، ولكن كيف كان لي أن أعثر عليها ؟ أين كان لي أن أبْحثَ عنها؟... وكانت "**مدام دي مرفييه**" - التي عرفت قصتي - قد ساعدتني في هذا البحث فترة طويلة، دون جَدْوَى... وأخيراً، علمت أنّ مدام "**دي فاران**" قد غَادَرتْ "**باريس**" منذ شهرين، ولكن أحداً لم يدر هل ذهبت إلى "**سافوي**" أم إلى "**تورين**"، بل إنّ بعض الناس قالوا إنّها عادت إلى "**سويسرا**". وما كنت بحاجة إلى أن أُضيّعَ وقتاً في عقد العزم على الإنطلاق في أثرها، وأنا واثق بأنّ البحث عنها - أياً كان

مكانها – سيكون في الأقاليم أيسر من كل ما قدر لي أن أقوم به في "**باريس**" !

وقبل أن أرحل مَارَسْتُ براعتي الشعرية الجديدة في رسالة إلى الكولونيل "**جـــودار**"، نْلتُ منه فيـهـا بأقصى ما استطعت ! ولقد عرضت هذا الهذيان على مَدام "**دي مرفيـيـه**"، فبـدلاً من أن تلومني – كـمـا كان ينبغي أن تفعل – ضحكت كثيراً من سخرياتي، و كذلك فعل إبنها الذي لم يكن يحب السيد "**جـــودار**"، على ما أعتقد – وخليق بي أن أعترف بأنّه لم يكن أهلاً للحب ! – وهكذا الفيتني مَيأّلاً إلى إرسال القصيدة إليه، بعد أن وجدتُ تشجيعاً على ذلك، فحَزَمْتُ الصفحات، وكتبت عليها عنوانه. وإذ لم يكن في باريس خدمة داخلية للبريد – يومئذ – فقد وضعت الخطاب في جيبي، وأرسلته من "**أوكســيـر**" عندما مررت بها. ومازلت أضحك أحياناً عندما أُفكّرُ في الإمتعاضات التي لا بد أن يكون الكولونيل قد أبداها وهو يقرأ هذه القصيدة التي وصفته أدق وصف، والتي بدأت هكذا :

"أظننتَ أيها الكَهْلُ الآثم. أن نزوة حمقاء تُوحِي إلي بالشوق إلى تربية ابن أخيك ؟" !

ولقد كانت هذه القصيدة الصغيرة ركيكة في الواقع، بيد أنّها لم تكن تفْتَقِرُ إلى الطلاوة، كما كانت تنم عن استعداد طيب لفن "**الهجاءَ**".. على أنّها كانت الهجو الوحيد الذي انساب من قلمي، فإنّ قلبي لم يَحْوِ من الخبث ما يمكنني من استغلال مَوْهبة كهذه، وإن كنت أرى أنّ المرء يَستطيع أن يحكم – من بعض المجادلات القلمية التي أكتبها من وقت إلى آخر دفاعاً عن نفسي – أنّني لو كنت قد أوتيت رُوَح الصراع لعز على من يهاجمونني أن يضحكوا عَقِبَ النزال !

إنّ أكْثرَ ما آسف عليه من تفصيلات حياتي التي قدر لها أن تضيع من ذاكرتي، هو أنّني لم أكتب يوميات عن أسفاري. فما قُدّرَ لي قط أن أكون أكثر تفكيراً، وأكثر اسْتِمْراءً لوجودي وحياتي، وأكثر قرباً من حقيقتي – إذ جاز لي أن أقول هذا – مما كنت في تلك الرحلات التي كنت أقوم بها سَيْراً على قدمي، ففي المشي شيء ينعش نشاطي ويسمو بأفكاري. وأنا لا أكاد أفكر عندما أكون ساكناً، لا بُدَّ لجمسي من أن يكون في حركة حتى يَتَحرَّك عقلي. إنّ رؤية الريف، وتتابع المناظر الممتعة، والخلاء، والشهية المتفتحة والصحة الطيبة اللذين أكتسبهما بالمشي. والحياة الحرة في الفنادق الريفية... وغِيابُ كل ما يجعلني أُحسُّ بأنّني عالة على غيري، وكل ما يذكرني بمركَزي، وكل ما يفكرني بحَالي... كل هذا يطلق روحي من عِقَالِها، ويمنحني جُرأة بالغة في التفكير، ويلقي بي – كما ينبغي أن يقَال – في بحار الكائنات الشاسعة لكي أجمعها وأفرزها وأنسقها كما يحلو لي، دون ما حرج أو خوف !... كنت أتصرف في الطبيعة بأسرها، وكأنّني المسيطر عليها.. فكان قلبي في تنقله من شيء إلى شيء يَتَّحدُ مع تلك الأشياء التي تَروقُ له ويميزها عن سواها، ويحيط نفسه برؤَي فاتنة، وينتشي بأحاسيس عذبة. وإذا كنت – في سبيل تسجيل هذه الأحاسيس وإثباتها – أَسْتعْذِبُ وصفها في نفسي، فاية خُطوط قوية، وأية ألْوان بهيجة، وأية تعبيرَات متألقة أضيفها عليها!.. وقد يقال : إنّ هذه كلها قد وجدت في مؤلفاتي وإن كانت قد كتبت في سني أفولي... آه ! ليت أحداً قد رأى ما كتبت في صدر شبابي وما ألَّفْتُ في رحلاتي، وما أنشأت من أفكار لم أكتبها إطلاقا!.. وقد تقولون: لماذا لم تكتبها؟.. وأجيب أنا: ولماذا أكتبها؟.. لماذا أحرم نفسي السحر الواقعي للّذةَ، لكي أقول للغير إنني استمتعت بهذه اللذة؟.. وفيم يعنيني القراء، والجمهور،

والأرض بأسرها مادمت أُحَلِّق في السماء؟.. ثم، افتراني كنت أحمل -في رحلاتي- ورقا وأقلاما؟.. لو أنني كنت قد فكرت في كل هذا لما وَافَاني شيء مما كان جديرا بالتسجيل.. إنني لم أكن أتنبأ بموعد الأفكار، وإنما كانت تُوَاتِيني عندما تشاء هي وليس حين أشاء أنا!.. وكانت تمتنع عن موافاتي، أو تأتي زرَافات فَتَطْغَى علي بقوتها وعددها.. وما كانت عشرة مجلدات في اليوم بكافية لتدوينها! من أين لي الوقت الذي أكتبها فيه؟.. كنت إذا بلغت بلدا لا أفكر إلا في غداء شهي. وإذا بارحت بلدا لا أفكر إلا في سير سريع، فقد كنت أحس بان ثمة نَعِيماً جديدا على الأبواب، فلا أفكر إلا في السعي إليه!

وما شَعَرتُ بكل هذا يوما قدر ما شعرت في رحلة العودة التي أتحدثُ عنها.. ففي طريقي إلى "**باريس**"، كانت خواطري محدودة بما كنت ذاهبا لعمله هناك؛ إذ كنت قد انصرفت إلى الحياة العملية التي ظننت أنها كانت تنبسط أمامي، والتي كنتُ خَلِيقًا بأن أخُوضَهَا بكثير من الفخر ولكن هذه الحياة كانت غير تلك التي دعاني قلبي إليها، وقد آذت مخلوقات الواقع كائنات الخيال.. كان الكولونيل "**جودار**" وابن أخيه لا يَتَّسقَان مع بطل مثلي. أما الآن فقد تخلصت من هذه العقبات بفضل السماء، وأصبح في مقدوري أن أغوصَ وفق هواي في عالم الأوهام إذ لم يبق أمامي سوى هذا العالم!.. ولقد همت فيه تماما حتى إنني ضللت طريقي عدة مرات فعلا، ولكني كنت خليقا بأن أغتم لو أنني سلكت طريقا أكثر اتجاها إلى مقصدي. ذلك لأنني توهمت أني لن ألبث أن أجد نفسي على الأرض من جديد، لدى وصولي إلى "**ليون**" فَوَدِدْتُ ألا أبلغها أبدا!

وفي يوم من الأيام انحرفت عن طريقي عمدا؛ لأتأمل عن كثب مكانا تراءى لي جديرا بالإعجاب. وبلغ من ابتهاجي به أني أكثرت من الدوران حوله، حتى ضللت تماما في النهاية.. وبعد عدة ساعات من السير على غير هدى، وقد أنهكني التعب وبرح الجوع والعطش، دخلت لدى فلاح لم تكن داره جميلة المظهر ولكنها كانت الوحيدة التي رأيتها فيما حولي. وكنت إِخَالُ أن الأمر كما في "**جنيف**" أو في "**سويسرا**" عموما، حيث يَخِفُّ جميع السكان المَيْسوري الحال إلى إظهار كرمهم. وسألت هذا الفلاح أن يمنحني ما أتناوله غداء، عارضا عليه أن أدفع الثمن. فقدم لي لبنا خثرا وقطعة من خبز الشعير الخشن، قائلا: إن ذلك كان كل ما لديه. فشربت اللبن جذلا، وأكلت الخبز، بقشه و"**ردته**"! بيد أن هذا لم يكن قوتا كافيا لرد النشاط إلى رجل أنهكه التعب.. وأدرك الفلاح -الذي تفرس في عن كثب- صِدْقَ قصتي بما تجلى له من شهيتي، فصارحني بعد ذلك فورا بأنه استطاع أن يتبين أنني كنت شابا طيبا وأمينا (١)، وأنني لم آت كي أبتز منه مالا.. ثم فتح باب مخزن صغير -بالقرب من المطبخ- وهبط منه، وعاد بعد دقيقة برغيف بديع من خبز القمح المحَمَّص، وقطعة شهية من لحم مُقَدَّد، وإن توخى التقتير في حجمها، وزجاجة شراب انعش مرآها فؤادي أكثر من كل ما عداها!.. وأضاف إلى ذلك قطعة سميكة من العجَّة، فحظيت بغداء لم يحظ بمثله قط عابرُ سبيل!.. وعندما حان وقت الدفع عاود الرجل قلقه وخوفه، فَأَبَى أن يأخذ شيئا من نقودي، ورفضها في انزعاج غير عادي. والطريف في الأمر أنني لم أستطع أن أتصور ما كان يخيفه. وأخيرا، أطلق هذه الكلمات الرهيبة وهو يرتجف: "**محصلو العوائد**" و"**جرذان القبو**" (٢)!.. وأفهمني أنه كان يُخَبِّئ شرابه بسبب العوائد، وكان يخفي خبزه بسبب الضرائب "**العشور**"، وأنه يغدو رجلا ضائعا لو ارتاب هؤلاء في أنه لم يكن يَتَضوَّرُ جوعا!.. ولقد ترك كل ما قاله الرجل عن هذا الموضوع -الذي لم تكن لدي

(١) من الجلي أن ملامحي -في ذلك العهد- لم تكن قد شابهت بعد الملامح التي رسمت في صوري بعد ذلك. (٢) "جرذان القبو" لقب كان يطلق في ذلك العهد على مندوبي الحكومة الذين يتفقدون موارد المرء ويقدرون ما ينبغي عليه أن يدفع من مكوس وخراج.

أتفه فكرة عنه- أثرا لن يمحى، كان بمثابة "**بذرة**" الكراهية التي لا تَخْبُو، والتي راحت تذكو في قلبي -منذ ذلك الحين- ضد المظالم التي كانت تحيق بالشعب التَّعِس، وضد الطُّغَاة. كان هذا الرجل لا يجرؤ -برغم يسر حاله- على أن يأكل الخبز الذي كسبه بعرق جبينه، ولم يكن يملك أن يتفادى خرابه إلا بأن يبدي نفس الشقاء الذي كان يسيطرُ على من حوله!.. وغادرت داره وأنا مَوزعٌ بين السخط والتأثر، أرثي لحظ تلك البلدان الجميلة التي لم تسبغ الطبيعة هباتها عليها إلا لتجعلها فريسة لمحصِّلي الضرائب المتوحشين!

هذه هي الذكرى الواضحة الوحيدة التي تبقت لي من كل ما حدث خلال تلك الرحلة. ولست أذكر إلى جوارها سوى أنني حين اقتربت من "**ليون**" شَعَرْتُ بميل إلى أن أطيل طريقي كي أسعى إلى مشاهدة ضفاف "**الليني‍ون**"، فقد كان بين القَصَص التي قرأتها مع أبي، قصة لم أنسها، بل كثيرا ما عادَتْ إلى ذاكرتي.. تلك هي "**أستريه**"(١)!.. فسألتُ عن الطريق إلى "**فوريز**". وبينما كنت أتَجاذبُ أطراف الحديث مع صاحبة أحد الفنادق علمت أن تلك المنطقة كانت ذات موارد طيبة للعمال، وأن فيها كثيرا من المسابك، وأن القوم يُجيدُونَ صناعة الحديد. فهدأ هذا القول من جموح خيالي في الحال؛ إذ أدركت أن من غير الملائم أن أسعى للبحث عن أمثال "**ديانا**" و"**سيلفاندر**"(٢) بين قوم من الحدادين!.. ولابد أن المرأةَ الطيِّبةَ -التي شجعتني على هذا النحو- ظنتْني صانع أقفال مرتزق!

ولم يكن ذهابي إلى "**ليون**" دون ما غرض على الإطلاق، فما إن وصلت إليها حتى سعيُت إلى جهة "**شاسوت**" لزيارة الآنسة "**دي شاتيليه**"، صديقة مدام "**دي فاران**" التي كانت قد أعطتني رسالة لها عندما ذَهَبْتُ مع السيد "**لوميتر**".. ومن ثم فقد كان ثمة تعارف بيننا. وأنبأتني الآنسة "**دي شاتيليه**" بأن صَدِيقَتها "**مدام دي فاران**" كانت قد مرت -فعلا- بـ"**ليون**"، ولكنها تجْهَلُ ما إذا كانت قد واصلت رحلتها حتى "**بييمونت**".. بل إنها عند رحيلها لم تكن مستقرة الرأي على ما إذا كانت ستُعَرجُ على "**سافوا**" أم لا.. وأضافت الآنسة أنها على استعداد لأن تكتب في طلب الأنباء، إذا شئت، وأن خير ما ينبغي أن أفعله هو أن أنتظر في "**ليون**". وتقَبلتُ الاقتراح، ولكني لم أجرؤ على أن أقول للآنسة "**دي شاتيليه**" إنني كنت مَلْهُوفا على الجواب المرتقب، وإن كيسي الصغير الناضب لم يكن يتيح لي الانتظار طويلا! ولم يكن ما صدني عن المصارحة أنها أساءت استقبالي، فهي -على النقيض- قد أبدت لي كثيرا من المجاملات، وعاملتني في مساواة جردتني من الجرأة على أن أُخْفِي عنها حالي، وأن أهبط من مكانة الزَّمِيلِ المقبول، إلى مكانة المستجدي التعس!

ومع أنني التزم تسلسل الحوادث التي أوردتها في هذا الكتاب فإنني أعود بالذاكرة إلى رحلة أخرى إلى "**ليون**" قمت بها في عين تلك الفترة، وإن لم يكن بوسعي أن أحدد زمانها بالضبط، وقد وجدت نفسي خلالها في ضَائقة شديدة. وثمة حادث صغير -من العسير أن أرويه- لا يُتيحُ لي قط أن أنساه: فقد كنت ذات مساء أجلس في "**بيلكور**"، بعد عشاء جد خفيف، أفكر في وسيلة أنتزع بها نفسي من ضيقِي، وإذا برجل له مظهر أولئك المشتغلين بالحرير، الذين يدعون في "**ليون**" باسم "**القمَّاشين**".

ووجه إلي الخطاب، فرددت عليه. ولم نكد نسترسل في الحديث نحو ربع ساعة حتى عرض علي -بنفس الهدوء الذي كان يلازمه، وبدون أي تغير في لهجته- أن نَلْهُوَ معا في الريف. وانتظرت أن يبين نوع اللهو، ولكنه شرع -دون أن ينبس بكلمة أخرى- يصور لي مثلا لهذا اللهو (٣). وكنا

---

(١) قصة عن غرام الرعاة للروائي "أونوريه دورفيه" (١٥٦٨-١٦٢٥). (٢) عاشقان من الآلهة يرد ذكرهما في قصة "أستريه". (٣) يبدو أن هذه الرذيلة هي الاستمناء، أو "العادة السرية".

متلاصقين تقريبا، ولم تَشْتَدْ ظلمة الليل بعد بدرجة تحول دون رؤية العمل الذي تهيأ له. ولم يكن له مطمع في شخصي، فما من شيء ثَمَّ -على الأقل- عن هذا القصد، كما أن المكان لم يكن ملائما لذلك.. فهو لم يكن يبغي -كما قال لي- سوى أن يلهو، والهو أنا الآخر، كل منا على حدة. وقد بدا له هذا أمرا بسيطا، حتى إنه لم يَخْطُرْ بباله أنني قد لا أنظر إلى الأمر نظرته!.. ولقد جزعت لهذه القحَّة، حتى إنني نهضت مسرعا -دون أن أرد عليه- وهربت بأقصى ما أسعفتني ساقاي، وأنا أتوهم أن ذلك الشقي كان في أثري! وكنت من الاضطراب بحيث إنني بدلا من أن أقصد إلى مأواي عن طريق "**سان دومينيك**"، انطلقْتُ أعدو بجوار أرصفة الميناء، فلم أقف حتى كنت قد عبرت الجسر الخشبي، وأنا أَرْتجفُ وكأنني عَائِدٌ لتوي بعد ارتكاب جريمة!.. ولقد كنت فريسة لتلك الرذيلة من قبل، ولكن هذا الحادث أبرأني منها زمنا طويلا!

وقد صَادفْتُ -في أثناء الرحلة الثانية- مُغَامرة من نفس النوع تقريبا، ولكنها عرضتني لخطر عظيم. وإليك قصتها: كنت قد أحسست بأن مواردي أوشكت أن تنْضُبُ؛ فأخذت أقتصد في إنفاق المبلغ الضئيل المتبقي، بحيث أصبحت لا أتناولُ وجباتي في فندق إلا لماما.. ثم لم أعد أتناول منها شيئا هناك على الإطلاق، إذ كان بوسعي أن أحظى في المشرب، لقاء خمسة أو ستة "**سو**"، بشبع يفوق ما كنت أحظى به في الفندق لقاء ستة وعشرين!.. وإذ لم أعد أتناول طعامي في الفندق، لم أدر كيف كان لي أن أظل أَبيتُ هناك، إذ إنني خجلت من أن أشغل حجرة دون أن أتيح لصاحب الفندق مجالا كافيا للربح. وكان الفصل بديع الجو، لكن الحر اشتد في إحدى الأمسيات، فقررت أن أقْضِي الليل في الميدان العام. وما إن استلقيت على مقعد عريض هناك، حتى مر راهب، فرآني نائما على هذا النحو، وإذ ذاك اقترب فسألني عما إذا لم يكن لي مأوى، وأفضيت إليه بحالي، فبدأ عليه التأثر، وجلس إلى جواري، وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث. وكان حديثه مناسبا، إذ كان كل ما قاله يُوحِي إلي بخير فكرة عن الناس. ولما رآني أَنِسْتُ إليه قال لي: إنه لم يكن يملك مسكنا فخما واسعا، بل كان مسكنه يتألف من حجرة واحدة، ولكنه ما كان -يقينا- ليدعني أنام في الميدان العام. ولما كان الوقت متأخرا، ولا سبيل إلى البحث عن مَأْوىً لي، فقد عرض علي نصف سريره في تلك الليلة. وقبلت العرض، وقد خالجني الأمل في أن أكون قد عثرت على صديق قد يستطيع أن يكون ذَا نَفْعٍ لي. وذهبنا إلى مسكنه، فأشعل ضوءا تراءت حجرته لي على هديه مناسبة، برغم صغرها، وأخذ مضيفي يكرمني في أدب جم، ثم أخرج من وعاء زجاجي بعض الكريز الذي كان منقوعا في الشراب.. فأكل كل منا اثنتين، ثم أوينا إلى السرير.

وكانت لهذا الرجل نفس ميول صاحبي اليهودي الذي كان في دار الضيافة بالدير. ولكنه لم يبدها بمثل وحشية ذاك، إما لأنه أدرك أن بوسعي أن أصل بصوتي إلى الأسماع، فخشي أن يضطرني إلى الدفاع عن نفسي.. وإما لأنه كان في الواقع ضَعِيفَ التثبُّت من خططه، فلم يجرؤ على أن يقترح بصراحة تحقيقها، وإنما حاول اسْتِثَارةَ انفعالاتي دون أن يستثير شكوكي! ولما كنت قد تعلمت من التجربة الأولى، فإنني أدركت سراعا مقصده، فارتجفت.. ولم أكن أعرف في أي منزل ولا بين أي يَدَيْن كنت، فخشيت أن أدفع حياتي ثمنا لأية ضجة أحدثها!.. فتظاهرت بتجاهل ما كان يبغيه مني، ولكنني أبديت استياء شديدا من ملاطفاته، وإذ عَقَدْتُ العزم على ألا أتقبل أي تماد منه فقد تصرفت بحيث اضطررته إلى أن يكبح نفسه. ثم تحدثت إليه بكل ما أُوتيتُ من لطف وحزم..

وبدون إبداء أي ارتياب في شيء، اعتذرتُ له بتجربتي السابقة عن القلق الذي أبديته نحوه، ورحت أبالغ في رواية تلك التجربة بعبارات مُفْعَمَة بالاستبشاع والاشمئزاز، بحيث أثرتُ اشمئزازه -على ما أعتقد- ومن ثم عدل عن غايته القذرة تماما.. فقضينا ما تبقى من الليل في هدوء. بل إنه ذكر لي كثيرا من الأمور الطيبة الرقيقة، فما كان -بالتأكيد- خلوا من الميزات، برغم أنه كان وغدا كبيرا!

وفي الصباح لم يشأ السيد الراهب أن يَبْدُو مستاء، فتحدث عن تناول الإفطار، وسأل إحدى ابنتي صاحبة الدار -وكانت جميلة- أن تُحضِرَ لنا فطورا، فقالت له: أن لا وقت لديها لذلك. ووجه الرجاء إلى أختها، فلم تتفضل عليه برداً.. وظللنا ننتظر، ولا أثر لفطور!.. وأخيرا انتقلنا إلى حجرة الآنستين، فإذا بهما تستقبلان الراهب بنذر ضئيل من التلطف. ولم يكن لي أن أَطْمَعَ في استقبال أفضل: فإن كبرى الفتاتين دَاسَتْ -وهي تستدير- طرف قدمي بكعب حذائها المدبب وكانت في قدمي بثرة (**كاللو**) شديد الإيلام -اضطرتني من قبل إلى أن أقطع طرف حذائي- أما الفتاة الأخرى فقد جَذَبَتْ من خلفي فجأة مقعدا كنت أهم بالجلوس عليه.. بينما كانت أمهما تُلْقِي من النافذة بعض الماء الذي أغرق وجهي!.. وعلاوة على ذلك كن، أينما جلست، يقصينني للبحث عن شيء ما!.. أبدا لم ألق في حياتي مثل هذه "الحفاوة"!.. وكنت أرى في نظراتهن المهينة الساخرة سُخْطًا مكتوما، كنت من الغباء بحيث لم أفقهه. وفي ذهولي ودهشتي، أوشكت أن إِخَالُ أن الشيطان قد استولى عليهن جميعا، فبدأت أشعر بجزع شديد. وفي تلك الأثناء، أدرك الراهب -الذي كان يتظاهر بأنه لم يكن يرى أو يسمع- أن لا أمل في فُطُور، فقرر مبارحة الدار.. وأسرعت خلفه وأنا مغتبط بالإفلات من الشيطانات الثلاث!

وفي أثناء سَيْرنا عرض علي أن نَذْهَبَ فَنفطر في مقهى. وعلى الرغم من أنني كنت شديد الجوع، إلا أنني لم أقبل هذه الدعوة التي لم يُصِر عليها بعد ذلك، ومن ثم افترقنا بعد أن اجتزنا ثَلاَثَة شوارع أو أربعة. أما أنا فقد كنت مبتهجا إذ غاب عني مَنْظَرُ كل ما كان يمت إلى تلك الدار اللعينة.. وأما هو فكان مرتاحا -فيما أعتقد- إذ ابتعد بي عنها حتى لا يسهل علي أن أعرفها.. وإذ لم تكن قد عرضت لي من قبل أمثال هاتين المغامرتين، سواء في "**باريس**" أو سواها، فإنهما لم تخلفا في نفسي أثرا طيبا عن أهل "**ليون**"، بل ظللت دائما أعتبر هذه المدينة مثالا للمدينة الأوروبية التي يسودها أَفْظَعُ فساد!

ولا تساعد الظروف التي انحدرت إليها في تلك المدينة على الاحتفاظ عنها بذكريات طيبة. ولو كنت قد خُلِقْتُ على غِرَارِ سواي: لو أوتيت مثلا موهبة الاقتراض، أو أن أكون مدينا لفندقي لسهل علي أن أنتزع نفسي من الحرج ولكن مقدرتي على هذا الأمر كانت تعادل نُفُورِي منه؛ ولكي تتصوروا إلى أي مدى بلغ عجزي ونفوري يكفي أن تعرفوا أنني بعد أن قضيت حياتي كلها -تقريبا- في الفاقة، وكنت أوشك في كثير من الأحيان على ألا أجد القُوتَ،لم أتلق يوما من دائن مطالبة بنقود إلا أجبتها في اللَّحْظَةَ عينها. وما عَرَفْتُ الطريق إلى القروض قط بل كنت دائما أوثر العَنَاءَ على الديون المالية!

ولقد كان من العذاب حقا أن أهبط إلى درك قضاء الليل في الشارع، الأمر الذي حدث لي مرارا في "**ليون**"، فلقد آثرتُ أن أستغل الدراهم القليلة التي بقيت لي في دفع ثمن خُبْزِي بدلا من دفع أجرِ مأواي.. فقد كان خطرُ النوم في العراء أقل من خطر الموت جوعا!.. والعجيب في الأمر أنني لم أكن -في تلك الظروف القاسية- قلقا ولا حزينا! لم يكن لدي أدنى قلق بصدد المستقبل، بل رُحْتُ أنتظر -مطمئنا- الرد الذي كان لابد أن تتلقاه الآنسة "**دي شاتيليه**".. وكنت أنام في العَرَاءِ،

مستلقيا على الأرض، أو على مقعد عريض، مستغرقا في النُّعاس وكأنني في سرير من الورود!..
وأذكر -بوجه خاص- أنني أنفقت ليلة ممتعة خارج المدينة، على أرض طريق ممتدة إلى جانب نهر "**الرون**" أو "**الساؤن**" -فلست أذكر أي النهرين كان!- وكانت تحف بالجانب الآخر للطريق حدائق أقيمت على ارتفاع فوق مستوى الأرض. وكان الحر قائظا في نهار ذلك اليوم، ولكن الليل كان بديعا، وقد روى النَّدى الأعشاب الظامئة.. ولم تكن ثمة ريح إذ كانت الليلة ساكنة، وكان النسيم رقيقا، خلوا من الرطوبة.. وقد خلفت الشمس وراءها -بعد الغروب- أبخرة حمراء في السماء، أحال أنعكَاسُهَا الماء إلى لون الورد!.. وكانت أشجار الحدائق العالية عَامرة بالبلاَبل التي راحت تتَجَاوَبُ بالشدو، وأخذت أتمشَّى في نشوة مسلما حواسي وفؤادي لهذه المتعة الضَّافية، فلم تداخلني سوى حسرة -تمثلت في زفرة- لأنني كنت مضطرا إلى استمرار هذه المتعة وحدي.. واصلت السير إلى ساعة متأخرة من الليل، وأنا مُستَغرقٌ في تأملاتي الناعمة، دون أن أفطن إلى أن التعب قد أدركني.. ولكني انتبهت إلى ذلك أخيرا، فألقيت بنفسي -في اغتباط- على قاعدة "**كوة**" أو باب زائف نحت في جدار سياج الحدائق، وقد تَعانَقَتْ الأفنان مؤلفة شبه "سقف" فوق سريري.. كما جثم بلبل فوق رأسي مباشرة، وراح يغرد لي.. حتى نِمتُ.

وكان نُعاسي لطيفا، كما كان استيقاظي ألطف.. فقد كان الصباح رائعا، ووقعت عيناي -حين فتحتهما- على الماء والخضرة، وريف بديع!.. ونهضت من مرقدي، فَتَمطَّيْتُ، وإذ شعرت بالجوع انطلقت طروبا صوب المدينة، وقد عقدت العزم على أن أنفق على فطوري القطعتين الفضيتين اللتين بقيتا من نقودي!.. وكم كنت مبتهجا، حتى إنني أخذت أردد إحدى أغاني "**باتيستان**" التي كنت أحفظها عن ظهر قلب، كان عنوانها: "**حمام ثوميري**".. ألا فَلْتُباركُ السماء "**باتيستان**" الطيب وأغنيته، فقد أتاحا لي فطورا أفضل مما كنت أنْتوي، وغداء أكثر إمتاعا -وهما وجبتان لم تكونا في الحسبان قط!- فبينما كنت سائرا أغني -على خير حال- سمعت شخصا خلفي، فالتفت، وإذا بأحد "**الأنطونيين**" يَتْبُعني، وقد لاح أنه كان ينصت إلى غنائي في طرب. وبادرني بالحديث، فحيَّاني، وسألني عما إذا كنت على إلمام بالموسيقى، فأجبت: "بعض الشيء"، بلهجة توحي إليه بأنني كنت أعرف الكثير.. وتابع سؤالي، فرويت له شطرا من قصة حياتي، وإذ ذاك سألني عما إذا لم يكن قد سبق لي أن نسخت "**نوتات**" موسيقية، فقلت له: "كثيرا" -وكان هذا صدقا، إذ كان معظم ما تعلمته من الموسيقى عن طريق النسخ- فقال: "حسنا! تعال معي، ففي وسعي أن أشغلك بضعة أيام، لن يعوزك خلالها شيء.. على شريطة ألا تغادر الحجرة قط!".. ووافقت عن طيب خاطر، فتبعته!

وكان هذا الأنطواني يدعى السيد "**روليشون**"، وكان يحب الموسيقى ويحذقها ويغني في الحفلات الصغيرة التي كان يقيمها مع أصدقائه. ولم يكن في هذا سوى كل ما هو بريء وشريف، ولكن هوايته كانت تنحدر -كما اتضح لي- إلى تَهَوُّس كان مضطرا إلى التستر عليه بعض الشيء!.. وقادني إلى حجرة صغيرة نزلت بها، فوجدت فيها كثيرا من القطع الموسيقية التي نقلها هو، كما أعطاني سواها لكي أنقلها، وكانت من بينها الأغنية التي كنت أرددها، والتي كان مُزْمِعا أن يغنيها بعد أيام.. وقضيت وقت الطعام -فما كنت في أي يوم من أيام حياتي أكثر شهية ولا أفضل غذاء مما كنت خلال تلك الأيام!- وكان الرجل يحمل الطعام إلي بنفسه من المطبخ، ولابد أن طعام القوم كان طيبا شهيا، إذا صح أن ما كان يقدم لي كان من طعامهم العادي!.. ولقد كنت طِيلةَ عمري لا أجد في الأكل متعة، وجدير بي أن أعترف كذلك بأن هذه الوجبات جاءت في الوقتَ المناسب تماما، إذ

إنني كنت جافا كالخشب. ورحت أعمل بنفس الإقبال الذي كنت آكلُ به، وهو إقبال لم يكن بالقليل!.. على أنني، في الواقع، لم أكن دقيقا في عملي بقدر ما كنت سريعا. وقد حدث بعد ذلك ببضعة أيام أن قابلني السيد "**روليشون**" في الطريق فانبأني بأن منسوخاتي جعلت العزف الموسيقي مستحيلا، لأنها وجدت مليئة بالشَّطْب والتكرار والتحريف. ومن الواجب أن أعترف بأنني اخترت المهنة الوحيدة التي كنت أقل الناس استعدادا لها، لا لأن علاماتي الموسيقية لم تكن جميلة أو لأنني لم أكن دقيقا في النقل، وإنما لأن الملل من عمل جد طويل كان يشتت بالي إلى درجة أنني كنت أقضي في المحو وقتا أطول مما كنت أقضي في الكتابة، وإلى درجة أن مَنْسُوخاتي لم تكن صالحة للتنفيذ -بالعزف- مالم أُبدِ عناية فائقة بمراجعتها.. وهكذا أسأت إنجاز عملي، في الوقت الذي كنت أسعى فيه لأدائه على خير وجه.. وبدلا من أن أسرع إذا بي أتخبط! على أن هذا لم يمنع السيد "**روليشون**" من أن يُحْسِنَ معاملتي إلى النهاية، ومن أن يمنحني كذلك -عند انصرافي- دينارا لم أكن أستحقه البتة، وإن كان قد أنقذني من ضائقتي.. وإن هي إلا أيام قلائل، حتى تلقيت نبأ من "**ماما**" -التي كانت في "**شامبيري**"- مصحوبا بنقود، كي ألحق بها، الأمر الذي أسرعت إلى تحقيقه مسرورا. ومنذ ذلك الحين حتى اليوم كثيرا ما أوشكت مواردي المالية على النَّفاد، ولكنها لم تذهب في نُضُوبها قط إلى الدرجة التي اضطررت معها إلى الصوم. وإني لأذكر تلك الفترة من حياتي بقلب شديد الشعور بالعناية الإلهية، فلقد كانت تلك آخر مرة في حياتي أشعر فيها بالتعاسة والجوع!

ولقد مكثت في "**ليون**" سبعة أيام أو ثمانية، في انتظار بعض مهام كانت "**ماما**" قد عهدت بها إلى الآنسة "**دي شاتيليه**" وفي أثناء هذه الفترة كنت أكثر مثابرة على زيارة الآنسة من ذي قبل، فرحت أنعُم بالحديث إليها عن صديقتها، ولم أعد مثقل البال إلا بتلك الأفكار القاسية التي كانت تعاودني عن مركزي، وإلا بمحاولة إخفاء هذا المركز. ولم تكن الآنسة "**دي شاتيليه**" بالشابة، ولا بالجميلة، ولكنها لم تكن تَفْتَقِرُ إلى الملاحة، وكانت رقيقة الأعطاف، ودودا، كما كان ذكاؤها يُضْفي بهاء على هذا الود. ولقد أوتيت ذلك الشغف بالتأمل الخلقي الذي يقود إلى دراسة الشخصيات، وإليها أدين بأول حافز أصلي دفعني إلى هذا الاتجاه. وكانت مشغوفة بقصص "**ليساج**"، لا سيما قصة "**جيل بلا**" التي حَدَّثَتْني عنها وأعارتنيها، فقرأتها في استمتاع، ولكني لم أكن قد نضجت بعد بحيث أفقه هذا النوع من القراءة، إذ كنت أَنشُدُ القصص الحافلة بالأحاسيس الرفيعة. وهكذا قضيت وقتي إلى جوار مدفاة الآنسة "**دي شاتيليه**" في استمتاع وانتفاع، ومن المحقق أن الأحاديث الطريفة ذات الطابع الفكري - التي تصدر عن امرأة موهوبة- أصلح لتكوين الشاب من كل ما في الكتب من فلسفة مُتَحَذْلِقة!.. ولقد تعرفت -بين المقيمين في "**شاسوت**" وأصدقائهم- إلى فتاة في الرابعة عشرة من عمرها، تدعى الآنسة "**سير**"، لم أبد لها إذ ذاك اهتماما عظيما، ولكني شَغُفْتُ بها حبا بعد ذلك بثماني أو تسع سنوات.. وكنت على حق في تدلهي بها، فقد كانت فتاة ساحرة(١).

وفي غمرة انشغالي بتوقُّع رؤية "**ماما**" الطيبة -عما قريب- أهملت أوهامي قليلا، إذ عوضتني الهناءة الحقيقية التي كانت في انتظاري، عن السعي وراء الخيالات.. فإني لم أعثر على "**ماما**" مرة أخرى فحسب، وإنما وجدت في قربها، وبوساطتها، ظرفا مواتيا، إذ أشارت في رسالتها إلى أنها عثرت لي على عمل كانت تأمل أن يرُوقَ لي، كما أنه لم يكن ليقصيني عنها. ولقد أرهقت حدسي في التكهن بنوع ذلك العمل، بيد أنه كان لابد للمرء من أن يصبح نبيا حتى يُصيبَ الحدس!.. وكان لدي من المال ما يكفي لأن أقوم برحلة مريحة. وقد رغبت الآنسة "**دي شاتيليه**" في أن استأجر

(١) سيرد ذكرها في القسم الخاص بسنة ١٧٤١ من الكراسة السابعة

جوادا، ولكني لم أكن أملك أن أوافقها، وكنت على حق. ولولا ذلك لفقدت متعة آخر رحلة على الأقدام في حياتي -فلست أستطيع أن أصف النزهات التي كثيرا ما كنت أقوم بها في الضواحي المجاورة أثناء إقامتي في "**موتيير**"، بأنها رحلات على الأقدام!

ومن الأمور العجيبة أن خيالي لا يُحَلِّقُ قط راضيا إلا عندما تكون حالي غير مرضية، كما أنه -من ناحية أخرى- يغدو أقل ما يكون ابتساما عندما يبتسم كل ما حولي!.. فإن رأسي النكد لا يستطيع أن يتكيف مع الأشياء، فهو لا يقنع بتجميل الأمور، وإنما يَصْبُو إلى الخلق والابتداع.. كما أن الأشياء الحقيقية لا تبدو له إلا كما هي في الواقع، فهو إنما يجيدُ تَنْمِيقَ الأشياء الخيالية فحسب. وعلى هذا القياس، لابد لي من أن أكون في الشتاء، إذا شئت أن أصور الربيع! وإذا رغبت في وصف جمال مناظر الطبيعة، وجب أن أكون داخل الجدران.. ولقد قلت مائة مرة: إنه لو كان قد قدر لي يوما أن أُلقَى في غَيَاهِبِ سجن "**الباستيل**" لكنت قد رسمت أبدع صورة للحرية!

وعندما بارحت "**ليون**" لم أكن أرى أمامي سوى مستقبل باسم.. ولقد كنت سعيدا، وكان لي الحق في ذلك، بعد أن حرمت هذه السعادة وأنا أغادر "**باريس**".. ومع ذلك فإنني لم أنعم خلال هذه الرحلة بتلك الخواطر البهيجة التي كانت ترافقني في الرحلة الأخرى. كان قلبي جَذْلا، ولكن هذا كان غاية ما في الأمر. ورحت أقترب في اشتياق نحو تلك الصديقة الرائعة التي كنت أسعى لرؤيتها من جديد، وأتذوق مقدما حلاوة العيش بالقرب منها، ولكن في غير نَشْوةِ سكري، إذ كنت دواما أتوقع ذلك، فكأنما لم يكن فيما أنا مقبل عليه شيء جديد!..

ولقد خامرني القلق بصدد ما كنت مقدما على عمله، وكأنما كان في ذلك ما يدعو إلى الإشفاق.. وكانت أفكاري ساكنة وادعة، وليست "سماوية"، تُسْلِبُ الروح والعقل. وكانت الأشياء المادية تجتذب نظري، فكنت أولي مناظر الطبيعة اهتمامي.. كنت ألاحظ الأشجار والدور والجداول، وأحدث نفسي عند مُلْتقَيات الطرق، فقد كنت في خوف من أن أضل، ولكني لم أضل على الإطلاق.. وبإيجاز: لم أعد أحلق بين السحب، وإنما كنت دائما حيث كنت.. فلم أبعد قط عن الواقع!

وأنا في الحديث عن رحلاتي، تماما كما أنا في أدائها، لا أتعجل بلوغ غايتي.. وهكذا كان قلبي يخفق طربا وأنا أقترب من "**ماما**" العزيزة، ولكني لم أغذ السَّيْرَ إليها، فإنني أحب السير كما يروقُ لي، ولا أتوقف إلا حين يحلو لي.. فحياة التَّجْوالِ هي التي تلائمني، والسفر على الأقدام، في وقت بديع، وفي بلد جميل، دون ما تعجل، ونحو غاية مرغوبة، هو أكثر أساليب العيش طُراً ملاءمة لذوقي! وعدا ذلك، فإن ما أعنيه "بالبلد الجميل" أصبح معروفا: فما من بلاد مبسوطة الأديم بدت لعيني جميلة، مهما يكن جمالها.. بل لابد لي من سيول، وصخور، وأشجار صنوبر، وغابات سوداء، وجبال، وطرق مُنْحَدِرة أتسلقها أو أهبطها، ومَهَاوٍ من حولي تثير رعبي! ولقد أتيحت لي هذه المتعة، واستمرأتها في أروع سحرها، وأنا أقترب من "**شامبيري**".. فغير بعيد من جبل شديد الانحدار -يسمى "**با دي لاشيل**"- كان ثمة نُهَيرٌ يجري تحت طريق واسعة منحوتة في الصخر، عند البقعة المسماة "**شايي**". وكان نهيرا قصيرا، ينطلق جامحاً عبر مَهاوٍ سحيقة بدا أنه حفرها خلال آلاف السنين.. وكان ثمة سياج على حافة الطريق لتفادي النكبات، مما مكنني من أن أطل على الأعماق، وأن أحظى بالدوار وفق هَوَايَ!.. ذلك لأن من الأمور الطريفة في مزاجي أنني أميل إلى الأماكن السحيقة الانخفاض، التي يدور لها رأسي، وأنني أحب هذا الدوار كثيرا ما دمت مطمئنا إلى

سلامتي.. ومن ثم انحنيت في اطمئنان فوق السياج، ومددت أنفي في الفضاء، وظللت هكذا ساعات طويلة، أتأمل -بين وقت وآخر- الزبد والماء الأزرق الذي كنت أسمع هَديرهُ وسط صراخ الغربان وصيحات الطيور الجارحة التي كانت تحلق من صخرة إلى صخرة، ومن دَغْل إلى دغل على بعد مائة فرسخ تحتي.. وفي البقاع التي كانت الأرض تنبسط عندها في انحدار شديد، حيث لم تكن الأشجار من الكثافة بحيث تحول دون مروق الحصى، رحت أجمع أكبر ما استطعت حَمْلَه من الأحجار، ووضعتها على السِّياجِ، ثم أخذت أطوح بها واحدة بعد أخرى، مستعذبا رؤيتها وهي تمرق، ثم ترتطم فتتهشم إلى ألف قطعة، قبل أن تبلغ قاع الهاوية!

وإذ ازددت قربا من "**شامبيري**"، رأيت منظرا مشابها ولكنه من نوع مخالف: كانت الطريق تمتد عند أقدام صخرة كانت أبدع مسقط مائي شهدته في حياتي. وكان الجبل منحدرا إلى درجة تجعل الماء يندفع في الفضاء، ثم يهبط بعيدا في قوس كبير، بحيث يستطيع المرء أن يمر بين الماء والصخرة دون أن يبْتَلَّ أحيانا! ولكن كان من السهل أن يُخْدعَ الإنسان إذا لم يكن حذرا في حسابه. ذلك لأن الماء -عند انحداره من هذا الارتفاع الشاهق- ينشق ويسقط في رشاش.. فإذا ما اقترب المرء من هذه السحابة من الرذاذ، اخْضَلَّ بالماء في لحظة، دون أن يفطن -في بادئ الأمر- إلى أنه قد ابتل!

ووصلت أخيرا.. ورأيتها من جديد!.. ولم تكن وحيدة، فقد كان المدير العام للإقليم لديها في اللحظة التي دخلت فيها عليها. وبدون أن أتكلم، تناولتْ يدي وقدمتني إليه بذلك اللطف الذي كان يَفْتَح لها كل القلوب: "ها هو يا سيدي هذا الشاب المسكين، فتكرم برعايته طالما استحق الرعاية، ولن أشعر بعد ذلك بقلق من أجله، بقية حياته!".. ثم وجهت إليّ الخطاب قائلة: "إنك الآن يا بني في خدمة الملك.. اشْكُر السيد المدير، إذ هَيَّأ لك أسباب العيش!".. وفتحت عيني الواسعتين دون أن أقول شيئا، ودون أن أدري فيم ينبغي أن أفكر إذ إن طموحي المطرد النمو أدار رأسي، فتصورت نفسي للتو مديرا صغيرا!.. ومن المؤكد أن حظي لم يَرقَ إلى التألق الذي أَوحَتْ به إلى خيالي هذه البدَايةُ، بيد أنه كان يكفيني إذ ذاك أن أعيش فحسب، وقد كان مادبر لي أكثر مما رجوت.. وهاكم جلية الأمر:

خطر للملك "**فيكتور اماديه**" -على ضوء الحروب السابقة، وحالة الميراث الذي آل إليه عن آبائه- أن هذا الميراث لن يلبث أن يَفْلتَ منه يوما، ومن ثم فقد سعى إلى استنزاف موارده. ولما كان قد قرر -قبل ذلك بسنوات قلائل- أن يخضع الأشراف لضريبة العُشُور، فإنه أمر بإجراء تقدير عام لجميع الأراضي، لتعيين مساحتها وقيمتها، ليتسنى بعد ذلك فرض الضريبة العقارية، وإعادة تنسيقها بمزيد من المساواة. وكان هذا العمل قد بدأ في عهد الأب، واستؤنف في عهد الابن.. واستخدم لهذه المهمة مائتان أو ثلاثمائة شخص ممن يتولون مسح الأرض -وكانوا يدعون مهندسين- ومن الكتاب الذين أطلق عليهم لقب السكرتيرين. وقد حصلت لي "**ماما**" على منصب بين هؤلاء الآخرين. ومع أن المنصب لم يكن عظيم المورد إلا أنه كان يدر ما يكفي للعيش عن سعة في تلك المنطقة. وكان السيئ في الأمر أن هذا التعيين كان مُؤَقَّتا، ولكنه جعلني في وضع يمكنني من البحث عن منصب أفضل وارتقاب الحصول عليه. وكان من بصيرة "**ماما**" أن تعمدت الظفر لي برعاية خاصة من المدير، حتى أتمكن من الانتقال إلى منصب أرسخ مكانة، إذا ما حانت نهاية عملي في المنصب الأول.

ودخلتُ الخدمة عقب وصولي بأيام قلائل. ولم يكن في هذا العمل شيء من العناء، فسرعان ما خبرته. وهكذا قدر لي للمرة الأولى -بعد اربع أو خمس سنوات قضيتها في التجوال والطيش،

والعذاب، منذ بارحت "**جنيف**" –أن أبدأ في كسب عيشي بعمل مشرف!

ولقد تبدو هذه التفصيلات المسهبة عن باكورة صباي، أمورا صبيانية.. ولكنني غير مُسْتاءٍ لذلك، فعلى الرغم من أنني ولدت رجلا –لاعتبارات معينة– إلا أنني ظللت طفلا لأمد طويل، ولا أزال كذلك لاعتبارات كثيرة أخرى.. وأنا لم أعد بأن أقدم للرأي العام شخصية عظيمة، وإنما وعدت بأن أصف تلك الشخصية التي أوتيتها. ولابد –لكي تعرفوني في كبري– من أن تلموا إلماما كافيا بصباي، ذلك لأن الأشياء المادية –بوجه عام– أقل انطباعا في نفسي من ذكرياتها، كما أن جميع أفكاري تتخذ شكل صور خيالية.. في حين أن الأحداث الأولى التي طبعت نفسها على صفحة ذهني ظلت باقية، ولم تملك الأحداث التي انطبعت بعدها سوى أن تندمج فيها، بدلا من أن تَطْغَى عليها!.. وهناك مجموعة متعاقبة من العواطف والآراء التي تطغى على كل ما يأتي بعدها من عواطف وأفكار، ولابد من التعرف على الأولى لكي يتسنى الحكم على الأخيرة. وقد اعتدت –في جميع الأحوال– أن أُعْنَى بالأسباب الأولى حتى يكون ترابط النتائج وتسلسلها محسوسا.. وإني لأرجو أن أستطيع –إلى حدما– أن أعرض نفسي شفافة أمام عيني القارئ، ومن أجل هذا أسعى إلى أن أطلعه عليها تحت جميع الأضواء، وأن أعرضها من جميع النواحي، وأن أستيقن من أنه لن تغيب عن ملاحظته أية حركة من حركاتها، حتى يكون قادرا في النهاية على أن يحكم بنفسه على المبادئ التي انتهجتها.

وإذا كنت أُلقِي على نفسي مسؤولية النتيجة، وأقول للقارئ: "هذه هي شخصيتي"، فقد يخيل إليه أنني إذا لم أكن أخدعه هو فإنني –على الأقل– أخدع نفسي. أما عندما أكتفي بتفصيل كل ما جرى لي، وكل ما فعلت، وكل ما خطر ببالي، وكل ما خالجني من مشاعر فإنني لا أستطيع أن أُغرِّر به –بمحض رغبتي على الأقل– بل إنني لو أردت لما وجدت الأمر سهلا.. ومن ثم فإنني أترك له عبء تجميع هذه العناصر، وتقرير نوع المخلوق الذي تؤلفه، إذ يجبُ أن تكون النتيجة من صُنْعِه هو، حتى إذا أخطأ بعد ذلك، كان الخطأ كله من ذنبه. على أنه لا يكفي –من أجل هذه الغاية– أن تكون قصصي صادقة، وإنما يجب كذلك أن تكون دقيقة. وليس لي أن أحكم على أهمية الوقائع، وإنما يقتضيني الواجب أن أرويها جميعا، ثم أترك له مهمة فرزها. وهذا ما حرصت عليه –حتى الآن– بكلِ ما أوتيت من شجاعة، ولن أحيدَ عنه فيما يلي. غير أن ذكريات أوسط العمر، تكون دائما أقل تَألقاً من ذكريات باكورة الصبا. ولقد بدأت بأن اقتبست عن هذه أفضل قسط استطعت اقْتِبَاسَه. فإذا واتتني الذكريات الأخرى بنفس الوضوح فإن القراء الذين ملوا الأولى، ربما ازدادوا مللاً.. أما أنا –بالذات– فلن أكون مستاء من عملي، وليس لدي ما أخشاه في ه المشروع سوى أمر واحد: وليس هذا الأمر هو الإسراف في القول.، أو سرد الأكاذيب، وإنما هو ألا أقولَ كلَّ شيء، أو أن أُخفي الحقائق.

سلامتي.. ومن ثم انحنيت في اطمئنان فوق السياج، ومددت أنفي في الفضاء، وظللت هكذا ساعات طويلة، أتأمل -بين وقت وآخر- الزبد والماء الأزرق الذي كنت أسمع هَديرهُ وسط صراخ الغربان وصيحات الطيور الجارحة التي كانت تحلق من صخرة إلى صخرة، ومن دَغْل إلى دغل على بعد مائة فرسخ تحتي.. وفي البقاع التي كانت الأرض تنبسط عندها في انحدار شديد، حيث لم تكن الأشجار من الكثافة بحيث تحول دون مروق الحصى، رحت أجمع أكبر ما استطعت حَمْلَه من الأحجار، ووضعتها على السِّياج، ثم أخذت أطوح بها واحدة بعد أخرى، مستعذبا رؤيتها وهي تمرق، ثم ترتطم فتتهشم إلى ألف قطعة، قبل أن تبلغ قاع الهاوية!

وإذ ازددت قربا من "**شامبيري**"، رأيت منظرا مشابها ولكنه من نوع مخالف: كانت الطريق تمتد عند أقدام صخرة كانت أبدع مسقط مائي شهدته في حياتي. وكان الجبل منحدرا إلى درجة تجعل الماء يندفع في الفضاء، ثم يهبط بعيدا في قوس كبير، بحيث يستطيع المرء أن يمر بين الماء والصخرة دون أن يبتّل أحيانا! ولكن كان من السهل أن يُخْدعَ الإنسان إذا لم يكن حذرا في حسابه. ذلك لأن الماء -عند انحداره من هذا الارتفاع الشاهق- ينشق ويسقط في رشاش.. فإذا ما اقترب المرء من هذه السحابة من الرذاذ، اخْضَلَّ بالماء في لحظة، دون أن يفطن -في بادئ الأمر- إلى أنه قد ابتل!

ووصلت أخيرا.. ورأيتها من جديد!.. ولم تكن وحيدة، فقد كان المدير العام للإقليم لديها في اللحظة التي دخلت فيها عليها. وبدون أن أتكلم، تناولتْ يدي وقدمتني إليه بذلك اللطف الذي كان يَفْتَح لها كل القلوب: "ها هو يا سيدي هذا الشاب المسكين، فتكرم برعايته طالما استحق الرعاية، ولن أشعر بعد ذلك بقلق من أجله، بقية حياته!".. ثم وجهت إليّ الخطاب قائلة: "إنك الآن يا بني في خدمة الملك.. اشْكُر السيد المدير، إذ هَيَّأ لك أسباب العيش!".. وفتحت عيني الواسعتين دون أن أقول شيئا، ودون أن أدري فيم ينبغي أن أفكر إذ إن طموحي المطرد النمو أدار رأسي، فتصورت نفسي للتو مديرا صغيرا!.. ومن المؤكد أن حظي لم يَرقَ إلى التألق الذي أوحَتْ به إلى خيالي هذه البدَايةُ، بيد أنه كان يكفيني إذ ذاك أن أعيش فحسب، وقد كان مادبر لي أكثر مما رجوت.. وهاكم جلية الأمر:

خطر للملك "**فيكتور اماديه**" -على ضوء الحروب السابقة، وحالة الميراث الذي آل إليه عن آبائه- أن هذا الميراث لن يلبث أن يَفْلِتَ منه يوما، ومن ثم فقد سعى إلى استنزاف موارده. ولما كان قد قرر -قبل ذلك بسنوات قلائل- أن يخضع الأشراف لضريبة العُشُور، فإنه أمر بإجراء تقدير عام لجميع الأراضي، لتعيين مساحتها وقيمتها، ليتسنى بعد ذلك فرض الضريبة العقارية، وإعادة تنسيقها بمزيد من المساواة. وكان هذا العمل قد بدأ في عهد الأب، واستؤنف في عهد الابن.. واستخدم لهذه المهمة مائتان أو ثلاثمائة شخص ممن يتولون مسح الأرض -وكانوا يدعون مهندسين- ومن الكتاب الذين أطلق عليهم لقب السكرتيرين. وقد حصلت لي "**ماما**" على منصب بين هؤلاء الآخرين. ومع أن المنصب لم يكن عظيم المورد إلا أنه كان يدر ما يكفي للعيش عن سعة في تلك المنطقة. وكان السيئ في الأمر أن هذا التعيين كان مُؤَقَّتا، ولكنه جعلني في وضع يمكنني من البحث عن منصب أفضل وارتقاب الحصول عليه. وكان من بصيرة "**ماما**" أن تعمدت الظفر لي برعاية خاصة من المدير، حتى أتمكن من الانتقال إلى منصب أرسخ مكانة، إذا ما حانت نهاية عملي في المنصب الأول.

ودخلتُ الخدمة عقب وصولي بأيام قلائل،. ولم يكن في هذا العمل شيء من العناء، فسرعان ما خبرته. وهكذا قدر لي للمرة الأولى -بعد اربع أو خمس سنوات قضيتها في التجوال والطيش،

والعذاب، منذ بارحت "**جنيف**" -أن أبدأ في كسب عيشي بعمل مشرف!

ولقد تبدو هذه التفصيلات المسهبة عن باكورة صباي، أمورا صبيانية.. ولكني غير مُسْتاءٍ لذلك، فعلى الرغم من أنني ولدت رجلا -لاعتبارات معينة- إلا أنني ظللت طفلا لأمد طويل، ولا أزال كذلك لاعتبارات كثيرة أخرى.. وأنا لم أعد بأن أقدم للرأي العام شخصية عظيمة، وإنما وعدت بأن أصف تلك الشخصية التي أوتيتها. ولابد -لكي تعرفوني في كبري- من أن تلموا إلماما كافيا بصباي، ذلك لأن الأشياء المادية -بوجه عام- أقل انطباعا في نفسي من ذكرياتها، كما أن جميع أفكاري تتخذ شكل صور خيالية.. في حين أن الأحداث الأولى التي طبعت نفسها على صفحة ذهني ظلت باقية، ولم تملك الأحداث التي انطبعت بعدها سوى أن تندمج فيها، بدلا من أن تَطْغَى عليها!.. وهناك مجموعة متعاقبة من العواطف والآراء التي تطغى على كل ما يأتي بعدها من عواطف وأفكار، ولابد من التعرف على الأولى لكي يتسنى الحكم على الأخيرة. وقد اعتدت -في جميع الأحوال- أن أُعْنَى بالأسباب الأولى حتى يكون ترابط النتائج وتسلسلها محسوسا.. وإني لأرجو أن أستطيع -إلى حدما- أن أعرض نفسي شفافة أمام عيني القارئ، ومن أجل هذا أسعى إلى أن أطلعه عليها تحت جميع الأضواء، وأن أعرضها من جميع النواحي، وأن أستيقن من أنه لن تغيب عن ملاحظته أية حركة من حركاتها، حتى يكون قادرا في النهاية على أن يحكم بنفسه على المبادئ التي انتهجتها.

وإذا كنت أُلقِي على نفسي مسؤولية النتيجة، وأقول للقارئ: "هذه هي شخصيتي"، فقد يخيل إليه أنني إذا لم أكن أخدعه هو فإنني -على الأقل- أخدع نفسي. أما عندما أكتفي بتفصيل كل ما جرى لي، وكل ما فعلت، وكل ما خطر ببالي، وكل ما خالجني من مشاعر فإنني لا أستطيع أن أُغرِّر به -بمحض رغبتي على الأقل- بل إنني لو أردت لما وجدت الأمر سهلا.. ومن ثم فإنني أترك له عبء تجميع هذه العناصر، وتقرير نوع المخلوق الذي تؤلفه، إذ يجبُ أن تكون النتيجة من صُنْعِه هو، حتى إذا أخطأ بعد ذلك، كان الخطأ كله من ذنبه. على أنه لا يكفي -من أجل هذه الغاية- أن تكون قصصي صادقة، وإنما يجب كذلك أن تكون دقيقة. وليس لي أن أحكم على أهمية الوقائع، وإنما يقتضيني الواجب أن أرويها جميعا، ثم أترك له مهمة فرزها. وهذا ما حرصت عليه -حتى الآن- بكل ما أوتيت من شجاعة، ولن أحيدَ عنه فيما يلي. غير أن ذكريات أوسط العمر، تكون دائما أقل تألقاً من ذكريات باكورة الصبا. ولقد بدأت بأن اقتبست عن هذه أفضل قسط استطعت اقْتبَاسَه. فإذا واتتني الذكريات الأخرى بنفس الوضوح فإن القراء الذين ملوا الأولى، ربما ازدادوا مللا.. أما أنا -بالذات- فلن أكون مستاء من عملي، وليس لدي ما أخشاه في ه المشروع سوى أمر واحد: وليس هذا الأمر هو الإسراف في القول.، أو سرد الأكاذيب، وإنما هو ألا أقولَ كلَّ شيء، أو أن أُخفي الحقائق.

الكراسة الخامسة

(من سنة ١٧٣٢ إلى ١٧٣٦)

كان ذلك في سنة ١٧٣٢ -على ما يَبْدوُ لي- إذ وصلت إلى "**شامبيري**"، كما ذكرت، وبدأت عملي في مَسْحِ الأرض، في خدمة الملك. وكنت قد تجاوزت عامي العشرين، ودنوت من الحادي والعشرين. وكنت -من الناحية العقلية- وافي التكوين بالنسبة لسني، ولكن المقدرة على الحكم على الأمور لم تكن متوفرة لي، بل كنت في مسيس الحاجة إلى الأيدي التي وَقَعْتُ بينها، لأتعلم كيف أتصرف؛ ذلك لأن سنوات التجارب القليلة لم تَقْوَ على أن تُبَعِّدَني تماما من خيالاتي الشاعرية. وعلى الرغم من كل البأساء التي عانيتها فإنني لم أعرف عن الدنيا والناس إلا القليل، وكأني لم أدفع ثمن المعرفة!

وأقمت في داري، -أعني في دار "**ماما**"- ولكني لم أسترد قط الغرفة التي كانت لي في "**أنيسي**"، فلم تعد ثمة حديقة، ولا جدول، ولا مناظر.. بل كان البيت الذي شَغَلته مُعْتماً كئيبا، وكانت غرفتي أكثر غرف البيت ظُلْمة وكآبة: جدار بدلا من مناظر الطبيعة، وحارة مسدودة بدلا من الشارع، وقليل من الهواء، ونَزْر من ضوء النهار، ومساحة ضئيلة، وصراصير، وفئران، وأخشاب بالية تكسو الأرض.. كل هذه ما كانت لتجعلَ من الغرفة سكنا بهيجا، ولكني كنت في دارها -دار "**ماما**"- وبالقرب منها!.. ولما كنت بلا انقطاع في مكتبي أو في غرفتها فإني لم أنتبه كثيرا إلى بَشَاعَة غرفتي، إذ لم يكن لدي وقت للتفكير فيها. ولسوف يبدو عجيبا أن تقيم "**ماما**" في "**شامبيري**" خصِّيصاً لتسكن هذه الدار الوضيعة، ولكنها كانت حيلة ماهرة من جانبها، ينبغي ألا أغفل ذكرها: فلقد واجهتْ فكرة الرحيل إلى "**تورين**" وهي كارهة، إذ كانت تشعر -بعد الثورات التي كانت حديثة العهد، وبعد القلاقل التي كانت لا تزال تَلُمُّ بالبلاط- أن الوقت لم يكن ملائما لوجودها هناك. في حين أن شؤونها كانت تتطلب ظُهورُهَا، إذ كانت تخشى أن تغدو منسية أو ضحية للوشَايَات، لاسيما أنها كانت تعلم أن الكونت "**دي سان لوران**" -المدير العام للمالية- لم يكن يمَيلُ إليهَا. وكانت له في "**شامبيري**" دار عتيقة، رديئةَ البنيان، وفي موقع بلغ من سوئه أنها كانت تظل خاوية باستمرار، فاستأجرتها "**ماما**" واستقرَّتْ فيها!.. وكان هذا التصرف أكثر توفيقا من الرحيل إلى "**تورين**"، فلم يُقْطَعْ معاشها قط، بل أصبح الكونت "**دي سان لوران**" -منذ ذلك الحين- من أصدقائها!

والفَيْتُ إدارة بيتها تقْرُبُ مما كانت عليه من قبل، كما ظل وصيفها الوفي "**كلود آنيه**" معها دائما.. وهو -كما أظنني ذكرت- فلاح من "**موترو**"، اعتاد في طفولته أن يجمع الأعشاب في منطقة "**جورا**" لصناعة الشاي السويسري. فألحقته "**ماما**" بخدمتها من أجل عقاقيرها، إذ وَجَدتْ من الأصوب والأوفر أن يكون خادمها خبيرا بالأعشاب!.. وكان مشغوفا كل الشَّغَف بدراسة النباتات، فَحبَّذتْ هذا الميل إلى درجة أن أصبح الرجل خبيرا نباتيا بحق، ولولا أنه مات في شبابه لكان من المحتمل أن يُذاعَ اسمه في هذا العلم، بقدر ما يستحق أن يُخلَّدَ اسمه بين الشرفاء الأمناء. ولما كان جادا، بل ووقورا، كما أنني كنت أصغره فإنه غدا مني بمثابة المربِّي، مما عصمني من كثير من

الحماقات، إذ كان ذا أثر على نفسي، فلم أكن أَجْسُرُ على أن أنسى نفسي في حضرته! وكان له عين الأثر على نفس سيدته التي عرفت حسن إدراكه، واستقامته، وولاءه الذي لا يتزعزع نحوها، فجازته خير الجزاء.. ولقد كان "كلود آنيه" - بلا مراء- رجلا نادرا، بل إنه الوحيد الذي رأيته من نوعه على الإطلاق! كان متئدا، متزنا، مفكرا، حكيما في تصرفاته، هادئا في طباعه، موجزا مفيدا في أقواله. وكان في عواطفه عنف لم يكن يدعه يظهر البتة.. عنف كان يَنْهَشُ أحشاءه، ولكنه لم يدفعه أبدا إلى أن يرتكب في حياته سوى حماقة واحدة، ولكنها كانت رهيبة.. تلك هي أنه سَمَّ نفسه!.. وقد وقع هذا الحادث المحزن عقب وصولي بقليل، وكان خليقا بأن يطلعني على مدى المودة الوثيقة التي كانت بين هذا الفتى وسيدته، إذ إنني ما كنت لأحدسها إطلاقا لو لم تُنْبِئْنِي بها هي بنفسها!.. ويقينا أنه إذا كان الولاء، والتحمس، والوفاء، جديرا بجزاء من نوع تلك المودة، فقد كان "**آنيه**" أهلا لذلك، والذي يثبت أنه كان خليقا به أنه لم يسئ استغلال ثقة سيدته أبدا!.. وكان نادرا ما يتشادان، ودائما تنتهي مشاداتهما على خير، على أنه قدر لإحداها أن تنتهي بسوء، فلقد قالت السيدة لـ"**آنيه**" -في غضبها- كلمة مثيرة لم يَقْوَ على احتمالها، وفي تأثره وأساه، وقعت يده على زجاجة بها خلاصة دهن الأفيون، فتجرع محتوياتها، ثم استلقى في هدوء، مطمئنا إلى أنه لن يستيقظ قط!.. ولحسن الحظ أن مدام "**دي فاران**" راحت تَجُوسُ خلال دارها -وهي قلقة، منفعلة- فعثرت على الزجاجة الفارغة، وحَدَسَتْ الباقي، فأسرعت لنجدته، وهي تطلق صرخات اجتذبتني إليها.. فاعترفت لي بكل شيء وناشدتني المعونة، ونجحنا بعد كثير من العناء في حمله على تَقَيُّؤ الأفيون. وإذ شهدتُ هذا المنظر، عجبت لغبائي إذ لم يُسَاورني قط أَتَفُه ريب في الصلات التي أنبأتني هي بها!.. بيد أن "**كلود آنيه**" كان من التكتم بحيث إن من يفوقونني في جلاء البصيرة كانوا خليقين بأن يغتروا بمظهره! وكان الصُّلح بينهما بعد ذلك من نوع جعلني أتأثر -أنا نفسي- أشد التأثر. ومنذ ذلك الحين أَضفْتُ إلى التقدير احتراما نحوه، وأصبحت تلميذا له، إلى حد ما.. الأمر الذي لم أجد فيه عيبا!

*****

على أنني لم أَنْجُ من الألم إذ أدركت أن ثمة من استطاع أن يعيش مع "**ماما**" في مودة تفوق مودتي كثيرا. بل إنني فكرت يوما في أن أشتهي لنفسي مثل هذه المكانة، غير أنه كان من الشاق على نفسي أن أراها تمتلئ بشخص آخر!.. وكان هذا أمرا طبيعيا، ومع ذلك فإنني بدلا من أن أشعر بنُفُور من ذاك الذي سلبني إياها، وجدت أن وفائي للسيدة قد امتد -في الواقع- إليه هو الآخر! فقد كنت راغبا -قبل كل شيء- في سعادتها، ومادام هو ضروريا لهذه السعادة، فقد ارتضيت أن يكون هو الآخرُ سعيدا. أما هو، فإنه "غاص" تماما في وِجْهَات نظر مولاته، واستشعر صداقة صادقة نحو الصديق الذي اصطفته. وبدون أن يفرض عليّ السلطة التي كان مركزه يخوله إياها، فإنه مارس -بطريقة طبيعية- تلك السُّلْطَة التي كان ذكاؤه الفائق يتيحها له على ذكائي، بحيث لم أجرؤ البتة على عمل ما قد يبدو استهْجَانا له، كما أنه لم يكن يستهجن سوى ما هو سيئ. وهكذا عشنا في وحدة أسعدتنا جميعاً، ولم يكن ليقوى على تقويضها سوى الموت!.. ومن أدلة روعة شخصية تلك المرأة الحبيبة، أن كل الذين أحبوها كانوا يتحابون فيما بينهم.. فكانت الغيرة، بل والتنافس، يَخْضَعان للشعور المسيطر الذي كانت توحي به السيدة، وهكذا لم أر قط واحدا ممن كانوا يحيطون بها يُضْمِرُ

شرا لآخر! . . فليكف أولئك الذين يقرءون كتابي لحظة عن مطالعتهم، عند هذا المديح، فإذا وجدوا -وهم يتأملونه- امرأة أخرى يستطيعون أن يقولوا عنها الشيء ذاته فليتعلقوا بها لِيَضْمَنُوا الطمأنينة في حياتهم . . ولو كانت -عدا ذلك- آخر الغاويات!

وهنا تبدأ -منذ وصولي إلى "**شامبيري**"، حتى رحيلي إلى "**باريس**" في سنة ١٧٤١- فترة مداها ثماني أو تسع سنوات، سأروي خلالها من الحوادث التي تستحق الرواية عددا قليلا،؛ لأن حياتي كانت جد بسيطة وبهيجة. وكانت رَتَابَتُها هذه هي عين ما كانت تمس إليه حاجتي لكي استكمل تكوين شخصيتي التي حالت القلاقل المستمرة دون استقرارها. وفي هذه الفترة الغالية، تماسكت تربيتي- المتنوعة، غير المتتابعة -فجعلت مني الشخص الذي لم أكف بعد ذلك عن أن أكونه في غمار العواصف التي كانت تَتَرَبَّصُ بي، ولقد كان هذا التطور غير محسوس، كما كان بطيئا مصحوبا ببضعة أحداث جديرة بالذكر . . بل جديرة بالمراعاة والتنمية!

ففي بداية الأمر لم أُشْغَلْ بشيء سوى عملي، إذ إن قيود المكتب لم تكن تدعني افكر في شيء آخر. وكان الوقت القليل الذي اتحرر فيه ينقضي إلى جوار "**ماما**" الطيبة. ولما لم تكن لدي فسحة للقراءة، فإن شغفي بالاطلاع لم يعد يتملكني. حتى إذا أصبحت واجباتي نوعا من العادة المتواترة قل انشغال بالي بها، فعاودني التململ والقلق، واصبحت القراءة ضرورة -من جديد- وكانما كان هذا الميل يحتدم كلما عز إرضاؤه، فكان خليقا بأن يغدو ولعا جُنُونيا -كما حدث عندما كنت في كنف معلمي(١)- لو لم تتدخل بعض نوازع أخرى فتحول اهتمامي عنه.

ومع أن عملياتنا لم تكن تتطلب تَعمُّقا في الحساب إلا أنها كانت تحتاج إلى قدر منه كان كافيا لأن يُزْعِجَني في بعض الأحيان. ولكي أتغلب على هذه العقبة. ابتعت بعض كتب في علم الحساب، واستوعبتها جيدا، إذ كنت استذكرها وحدي. وقد تبينت أن الحساب التطبيقي أوسع نطاقا مما يتصور المرء، إذا ما كانت الدقة منشودة. فثمة عمليات بالغة الطول، كنت أرى المهندسين يخطئون أحيانا في سِيَاقِهَا. بيد أن التفكير المقترن بالمران يتيح سَوانحَ جلية، فلا يلبث المرء أن يهتدي إلى أساليب مُقْتَضَبَة يثير ابتكارها اعتداده بنفسه، كما أن دقتها تُرضي العقل، وتضفي سحرا على عمل لا ينطوي على حمد ولا عرفان. ولقد تعمقت في هذا الباب تعمقا موفقا إلى درجة أن أية معضلة قابلة لأن تحل بالأرقام وحدها لم تكن تُعْيِيني! . . حتى إنني الآن، وقد أخذ كل ما عرفته ينمحي من ذاكرتي يوما بعد يوم، أجد أن هذه المعرفة التي اكتسبتها لاتزال باقية -إلى حدما- بعد انصرافي عنها ثلاثين عاما! . . ولقد حدث منذ أيام، وفي خلال رحلة قمت بها إلى "**دافينبورت**"، أن عاونت أبناء مضيفي في درس الحساب، فكان سروري يفوق التصور، إذ حللت -دون ما خطأ- مسألة من أشد المسائل تَعَقُّدا. وكان يخيل إلي وأنا أسجل الأرقام أنني في "**شامبيري**" من جديد، وفي أيام شبابي الهانئة. فلقد ارتدت إلي تلك الأيام، على بعد الشُّقة بيني وبينها!

كذلك ولد تلوين خرائط مهندسينا الميل إلى الرسم في نفسي، فابتعت بعض الألوان، وشرعت أرسم الزهور والمناظر الطبيعية. ومما يُرْثَى له أنني اكتشفت أني لم أُوتَ سوى موهبة طفيفة في هذا الفن الذي كنت أميل إليه بكل جوارحي! . . وكنت خَلِيقاً بأن أقضي -بين أقلامي وفرشي- أشهرا باكملها، دون أن ابرح داري. وإذ أصبحت هذه الهواية تستأثر باهتمامي إلى درجة كبيرة، فقد رؤي انتزاعي من سيطرتها. وهكذا الحال دائما بالنسبة لكل الميول التي أشرع في الانصراف إليها بكل نفسي، إذ إنها تَتَضَاعفُ وتستحيل إلى شغف، فسرعان ما لا أعود أرى في الدنيا سوى المتعة التي

---

(١) يقصد الحفار الذي قضى فترة عنده يتعلم حرفة النقش على المعادن.

أستشعرها في مزاولتها. ولم تبرئني السن من هذا العيب، بل إنه لم يتضاءل مع مرور السنين، حتى إنني لأراني -وأنا أكتب هذا الآن- كمخرف كهل يهيم بدراسة أخرى لا نفع من ورائها، ولا يفقه فيها شيئا!.. دراسة يضطر أولئك الذين كرسوا لها حياتهم إبان شبابهم، إلى التخلي عنها في مثل السن التي أريد أن أشرع في ممارستها فيها!

*****

ولقد كانت هذه الهواية خليقة بأن تبدو أمرا طبيعيا في ذلك الوقت(١)، إذ كانت الفرصة سَانِحَةً، وكان ثمة ما يُغْريني بانتهازها. فإن الرضا الذي كنت أشهده في عيني "آنيسه" وهو يعود إلى الدار محملا بالنباتات الجديدة، جعلني -مرتين أو ثلاثا- على وشك أن أنصرف إلى جمع الأعشاب معه. وأكاد أوقن بأن هذه الهواية كانت قمينة بأن تستولي علي لو أنني خرجت معه مرة، ولعلني كنت قد أصبحت اليوم خبيرا كبيرا بالنباتات!.. فلست أعرفُ في الدنيا دراسة أكثر مُلاَءمَةً لميولي الطبيعية من دراسة النبات، وما الحياة التي أعيشها في الريف منذ عشر سنوات سوى دراسة مستمرة للأعشاب، دون ما هَدَفٍ -في الواقع- ودون ما تقدم.. على أنني لم أكن في ذلك العهد على بينة بشيء عن علم النبات،فشعرت بنوع من الازدراء -بل ومن النُّفور- لهذه الدراسة. ولم أر فيها سوى ما يراه كل الجهلة من أنها حرفة المهتم بصناعة العقاقير -فإن "ماما"، التي كانت تحبها، لم تكن تفيد منها إلا في هذه الصناعة، ولم تكن تبحث إلا عن النباتات العادية، لتستغلها في عقاقيرها- وهكذا كان علم النبات والكيمياء والتشريح تختلط في ذهني تحت اسم الطب، ولم تكن تصلح إلا لإمدادي بفكاهات ساخرة طيلة يومي، ولتجلب علي الصفعات بين وقت وآخر!

وإلى جانب ذلك أخذ ميل آخر مختلف عن هذا -بل على النقيض منه إلى حد كبير- ينمو في نفسي باطِّراد، وسرعان ما ابتلع كل ما عداه: وأعني بذلك الموسيقى. ولابد أنني خُلِقتُ لهذا الفن بالتأكيد، فقد بدأت أحبه منذ باكورة طفولتي وهو الوحيد الذي ظللت أحبه باستمرار في جميع الأوقات. والعجيب في الأمر أن الفن الذي خلقت من أجله، قد كَبَّدني تعلمه -برغم ذلك- عناء كبيرا، وكان تقدمي فيه من البطء بحيث إنني لم أجرؤ قط على الغناء باعتداد، بعد كل التدريب الذي مارسته في حياتي!.. أما الذي حبب إلي هذه الدراسة -في ذلك الحين بوجه خاص- فهو أنني كنت أستطيع أن أُواصِلَهاَ مع "ماما". فمع أن أذواقنا في النواحي الأخرى كانت جد مختلفة إلا أن الموسيقى كانت -بالنسبة لنا- رباطا يجمع بيننا، فكنت أحب دائما أن أفيد منه. وما كانت "ماما" لتأبى ذلك بل إنني كنت إذ ذاك أكاد أعَادِلُها تقدما في هذا الفن، فكان في وسعنا بعد محاولتين أو ثلاث أن نحلَّ رموز أي لحن. وكنت أحيانا إذا ما رأيتها مستغرقة أمام موقد، أقول لها: "ماما"، هَاكِ لحنا ساحرا لاثنين، يبدو لي أنه خليق بأن يجعل رائحة عقاقيرك تَنِمُّ عن احتراقها"!.. فكانت تقول لي: "آه!... قسما لأجعلنك تأكلها إذا أنت شغلتني عنها حتى تحترق!".. وبينما يدور الجدل، كنت أجرها إلى معزفها، فننسى نفسينا، حتى تحترق خُلاَصَةُ الابسنت أو العرعر(٢) بالفعل، فتُلَطِّخُ "ماما" بها وجهي.. وكم كان كل ذلك عذبا!

ومن هذا ترون أنني وإن كنت لم أُوتَ من الفراغ إلا وقتا قصيرا فقد كان لدي كثير من الأمور التي أنفق فيها هذا الوقت. على أنه كان ثمة -إلى جانب ذلك- ملهاة خليقة بأن تُعَادِلَ وحدها كل الملاهي الأخرى! وإليك قصتها: كنا نقيم في شبه سجن معتم خانق، حتى إننا كنا بحاجة إلى الخروج

---

(١) شغف "روسو" -وهو يكتب هذه الكراسة من اعترافاته- بفلاحة البساتين. (٢) الابسنت عقار مخدر، "والعرعر" نبات!

أحيانا لننشد الهواء في الريف. وأغرى "آنيـه" "مـامـا" بأن تستأجر بستانا في الضواحي لتربية النباتات، وكان يَلْحَقُ بهذا البستان بيت ريفي صغير بديع، جُهِّزَ بأثاث متواضع، وأقيم فيه سرير. وكثيرا ما كنا نتناول عشاءنا هناك كما كنت أنام فيه أحيانا.. ولقد أولعتُ -دون أن أفطن- بهذا "**المعـزل**" الصغير، فحملت إليه قليلا من الكتب وعددا من المطبوعات، وقضيت شطرا من وقتي في تزيينه، وفي إعداد مفاجأة مستحبة لـ"**ماما**" إذا ما خرجت للنزهة في ذلك المكان. وكنت أبتعدُ عنها أحيانا؛ لكي أشغل بها بَالِي، ولكي أفكر فيها بمزيد من الابتهاج. وكانت هذه نزوة أخرى لا يسعني أن أبررها أو أشرحها ولكنني أعترف بها؛ لأنها كانت حقيقة. وإني لأذكر أن مدام "**دي لوكسمبورج**" حدثتني مازحة -ذات مرة- عن رجل اعتاد أن يفارق عشيقته لكي يكتب إليها رسائل!.. وقد قلت لها: إنه كان من المحتمل أن أكون ذلك الرجل -وكان خليقا بي أن أُضيفَ أنني كنت أتصرفُ أحيانا مثله!- على أنني لم أكن أشعر قط، وأنا مع "**ماما**" بضرورة الابتعاد عنها كي أزداد حبا لها؛ لأنني كنت إذا ما خلوتُ إليها أشعرُ بطمأنينة كاملة كما لو كنتُ وحيدا!.. وهي حال لم أستشعرها البتة في حضور أي امرئ آخر -رجلا كان أو امرأة- مهما يكن تعلقي به!.. ولكنها كثيرا ما كانت تُحَاطُ بقوم لم أكن أنسجم معهم إطلاقا، فكان ينتابني شعور من الضيق والملل، يدفعني إلى ملاذي ذاك (١)، حيث كان بوسعي أن أهنأ بها كما كنت أبتغيها، دون أن أخشى أن يَتَعقَّبني الزائرون الثُّقلاء!

وعلى هذه الحال -التي كان وقتي فيها موزعا بين العمل واللهو والتعلم- نعمت بحياة مُفْعَمَة بأعذبَ دعة! على أن أوروبا لم تكن في مثل طمأنينتي، إذ كانت "**فرنسا**" والإمبراطور قد أعلنا الحرب لتوهما، وساهم ملك "**سردينيا**" في النزاع، فأخذ الجيش الفرنسي يتقدم عبر "**بييمونت**" ليغزُوُ أراضي "**ميلان**". ومرت فرقة منه خلال "**شامبيري**"، كان بين كتائبها كتيبة "**شامباني**"، التي كان قائدها الدوق "**دي لاترموبي**". وقد قدمت إليه، فكان مسرفا في وعوده -وإني لموقن من أنه لم يتذكرني البتة بعد ذلك!- وكان بستاننا الصغير يقوم في أقصى طرف الضاحية التي دخلها الجند؛ ومن ثم فقد كان بوسعي أن أنعم تماما بمتعة مشاهدتهم وهم يمرون، وكنت من التَّحمسِ لنجاح هذه الحرب كما لو كانت لي مصالح عظيمة مُهَدَّدةٌ بها!.. ولم يكن قد جال بخاطري حتى ذلك الحين أن أفكر في المسائل العامة فبدأت أقرأ الصحف للمرة الأولى، ولكن.. في تحيز لـ"**فرنسا**"(٢) كان يجعل قلبي يخفق طربا كلما أحرزت أقل نجاح بينما كانت إخفاقاتها تحزنني وكأنها قد ألمت بي أنا!.. ولو أن هذه الحماقة كانت عابرة لما وجدتها جديرة بأن أَتَحَدَّث عنها ولكنها تغلغلتْ في فؤادي دون ما سبب كَافٍ، حتى إنني حين قمت -في "**باريس**"- بدور عدو الطغاة المعتز بدعوته شعرت -رغما عن نفسي- بميل خفي إلى هذه الأمة التي وجدتها راسفة في الذلة، وإلى الحكومة التي كنت أتظاهر بالنقمة عليها. والطريف في الأمر أنني -لخجلي من شعور يناقض مبادئي- لم أجسُر على أن أفضي به لأي امرئ، ورحت أسخرُ من الفرنسيين في هزائمهم بينما كان قلبي يدمى من أجلهم، أكثر مما كانت تَدْمَى قلوبهم هم! ومن المؤكد أنني الرجل الوحيد الذي يعيش بين قوم أحسنوا معاملته وهام بحبهم ولكنه مع ذلك يظهر نحوهم، وهو بينهم، روح الازدراء! وهذا الميل من ناحيتي مجرد من الهوى، وهو من القوة، والبقاء، والمناعة بحيث إنني لم أستطع أن أبرئ نفسي من هذا الضعف، حتى بعد رحيلي عن "**فرنسا**،" عقب العاصفة التي تبارتْ حُكومَتُها وحُكَّامها وكتابُها في إثارتها ضدي، ومذ أصبح العرف المألوف هو إغراقي بما لا أستحق من سباب!.. نعم، إنني أحبهم برغم نفسي، وبرغم سوء معاملتهم إياي!

---

(١) يقصد البيت الريفي الملحق بالبستان. (٢) لم يكن "روسو" يعتبر "فرنسا" وطنه؛ فقد كان من رعايا "جنيف" بـ"سويسرا".

ولقد سعيت طويلا إلى تبين سبب هذا التحيز، فعجزتُ عن العثور عليه اللهم إلا في عين المناسبة التي أوَجْدتْهُ: فإن الميلَ المطرد إلى الأدب أولاني شغفا بالكتب الفرنسية ومؤلفيها وبلاد هؤلاء المؤلفين. وفي الوقت الذي مر فيه الجيش الفرنسي بـ"**شامبيري**"، كنت أقرأ كتاب "**برانتوم**" المسَمَّى "القادة العظام"، فكان رأسي مليئا بأمثال "**كليسون**" و"**بايار**"، و"**لوتريك**"، و"**كوليني**"، و"**مونمورنسي**"، و"**تريموبي**"، وكنت أحب ذرياتهم بوصفهم ورثة فضائلم وبسالتهم. ورحت إخالُ أنني ألمح في كل كتيبة مرت تلك العصابات السوداء الشهيرة، التي أَحْرَزْت تلك البطولات، من قبل، في "**بييمونت**". وموجز القول: إنني ربطت ماكنت أراه، بالأفكار التي كنت أقتبسها عن الكتب. وراحت مطالعاتي الدائبة– وكانت لاتزال مقصورة على مؤلفات الأدباء الفرنسيين –تغُذَيْ حبي لبلادهم، ثم حولت هذا الحب في النهاية إلى شغف أعمى لم يقو شيء على التغلب عليه! ولقد سنحت لي –فيما بعد– الفرصة كي ألاحظ في سياق رحلاتي أن هذا الأثر لم يكن قاصرا علي بالذات، وإنما كان يَتَعَدَّاني –بدرجة متفاوتة– إلى أفراد من جميع البلدان، وهم ذلك القسم من الأمة الذي يحب القراءة ويُقْبِلُ على الأدب، فكان هذا الشَّغَفُ يرجع على النفور العام الذي توحي به عجرفة أخلاق الفرنسيين!.. والملاحظ في هذا الصدد أن قصص أدبائهم أكثر استيلاء من رجالهم على قلوب النساء في جميع البلدان.. كما أن تحفهم التمثيلية تجتذب الشباب إلى مسارحهم، فإن شهرة مسارح "**باريس**" تجذب إليها زُرافَات من الأجانب، الذين يعودون إلى أوطانهم وهم من أشد المعجبين المتحمسين لها!.. وبالاختصار أقول: إن الذوق الرائع الذي يبين في أدب الفرنسيين يسبي عقول كل أولئك الذين أوتوا أي قدر من العقل. ولقد رأيت خلال تلك الحرب –التي انتهت أسوأ نهاية بالنسبة لهم– أن مؤلفيهم وفلاسفتهم قد صانوا شرف اسم "**فرنسا**" الذي لطخه محاربوها!

وقد كنتُ إذ ذاك فرنسيا متحَمِّسا، نَهِماً إلى الأنباء، فكنت أذهب مع حشد متسقطي الأخبار إلى ساحة السوق لننتظر البريد. وكنت –في غباء يفوق غَباْء الحمار في الأسطورة– أشغل نفسي كثيرا بمحاولة معرفة أي سيد سيكون لي شرفُ حمل سَرْجه وركابه، فلقد قيل في تلك الأثناء: إننا سنتبع "**فرنسا**"، وأن "**سافوا**" ستبادل بأراضي "**ميلان**". على أنه من الواجب الاعتراف بأنني كنت على حق في قلقي، فلو أن هذه الحرب انقلبت في غير صالح الحلفاء لتعرض معاش "**ماما**" لخطر كبير. غير أنني كنت مُفْعَماً بالثقة في أصدقائي الطيبين(١)، ولم تخب هذه الثقة –في هذه المرة– بفضل ملك "**سردينيا**"، الذي لم أفكر فيه إذ ذاك!

*****

وبينما كان الصِّراعُ دائرا في "**إيطاليا**" كان الغناء دائرا في "**فرنسا**"!.. فقد بدأت أوبرات "**رامو**" تُحدثُ ضجة، وترفع من شأن مؤلفاته النظرية التي كان غُمُوضُها قد جعلها في متناول نفر ضئيل من الناس. ولقد سمعت عفوا من مؤلفه "رسالة في التوافق" فلم أرتح حتى حصلتُ على هذا الكتاب. وبمصادفة أخرى، سقطت مريضا. وكان مرضي نوعا من الالتهاب، الذي كان عنيفا وقصيرا، ولكن نقاهتي كانت طويلة، فلم يكن بوسعي الخروج لمدة شهر. وفي خلال هذه الفترة عكفتُ على "رسالة في التوافق" التهمها، ولكنها كانت طويلة، محْشوةً بالإسْهَاب، سيئة العرض إلى درجة أنني شعرت بأن لابد لي من وقت طويل كي أدرسها وأستوعبها. وأرجأت جهودي، ورحت أجلو عيني

---

(١) يقصد الفرنسيين.

بالموسيقى. ولم تفارق ذهني اغاني "**بيرنييه**"، التي رحت أتدرب عليها. (فقد حفظت منها عن ظهر قلب أربعا أو خمسا، منها تلك التي كانت تُدْعَى "آلهة الحب النائمة"، التي لم أسمعها ثانية منذ ذلك الحين، والتي لا أزال احفظها كلها تقريبا. وكذلك "الحب الذي لدغته نحلة"، وهي أغنية جد بديعة من تأليف "كليرامبو" حفظتها في عين ذلك الوقت تقريبا.

واستكمالا لشغفي، وصل من (فال داوست) عازف أرغن شاب يُدْعىَ الأب "**باليـه**"، كان مُوسيقيا مَجيداً، ورجلا طيبا، وعازفا يجيد مصاحبة من يغني. وتعرفت إليه، فاصبحنا لا نفترق. وكان قد تتلمذ على راهب إيطالي بارع في العزف على الأرغن، فحدثني عن مبادئه في الموسيقى، وقارنتها بمبادئ "**رامـو**" -الذي كنت أُعجَبُ به- وملأت رأسي بالعزف الذي يصاحب الغناء، وبتناسق الأنغام وتوافقها. وكان لابد من ان اشحذ حساسية أذني لكل هذا، فاقترحت على "**ماما**" إقامة حفلة موسيقية في كل شهر، فوافقت. وإذا بي أستغرق في تلك الحفلات، فلم أَعُدْ أشغل بشيء آخر ليلا أونهارا.. والواقع أنني شُغِلْتُ شَطْرا كبيرا من وقتي في تنظيم الموسيقى، والحفلات الموسيقية، والأدوات، وتقسيم الأدوار، وما إلى ذلك!.. وكانت "**ماما**" تغني، كما أن الأب "**كاتون**" -الذي سبق ان تحدثت عنه، والذي سأتحدث عنه مرة أخرى- كان يغني هو الآخر. وكان أستاذ للرقص يدعى "**روش**" يعزف مع ابنه على "**الكمان**"، والسيد "**كانافا**" -وهو موسيقي "**بيمونتي**" كان موظفا في المساحة، وقد تزوج بعد ذلك واستقر في "**باريس**"- يعزف على الكمان الكبير بينما كان الأب "باليه" يصاحبهم على "**البيانو**"، كما كان لي شَرَفُ قيادة الموسيقى، دون أن أنسى العصا. وفي وسع المرء أن يتصور مدى جمال كل ذلك!.. ولئن لم تكن هذه الحفلات كتلك التي كانت تقام لدى السيد دي "**تريتوران**"، إلا أنها كانت تَقْربُ منها!

وأثارت الحفلاتُ الموسيقية الصغيرة التي أخذت تقيمها مدام "**دي فاران**" -وهي حديثةُ عهد بالإيمان، وكانت تعيشُ على بر الملك، كما كان يقال- تَذَمُّر عصبة الأتقياء ولكنها كانت مَلْهَاةً مستحبة لكثير من الشرفاء. ولكن هل يستطيع احد أن يحدس: من الذي كنت أضعه على رأس تلك المناسبات؟.. كان راهبا، ولكنه راهب موهوب، بل ومحبوب، أثرت بلاياه، فيما بعد، على نفسي تأثيرا قويا، ولاتزال ذكراه -التي ارتَبَطَتْ بذكرى أَجْمل أيامي- عزيزة لدي. ذلك هو الأب "**كاتون**" -أحد الرهبان الجبليين(١)- الذي عمل بالاشتراك مع الكونت "**دورتان**" على مصادرة موسيقى "**الهريرة**" المسكينة في "**ليون**"، ولم يكن هذا أبْدعَ ما في حياته. فقد تخرج في "**السوربون**"، وعاش ردحا طويلا في أرقى الأوساط الباريسية، وكان ذا حظوة خاصة لدى المركيز "**دانترمون**"، الذي كان سفيرا لـ"**سردينيا**" في ذلك العهد. وكان حَسَنَ البنيان، ممتلئ الجسم، بارز العينين، ذا شعر أسود كان يتجعد بطبيعته على جبينه، وذا أخلاق نبيله وصريحة ومتواضعة، في آن واحد!.. كان مظهره بسيطا وبديعا، دون ما شيء من النفاق أو السَّلاَطَةِالتي عرفت عن الرهبان، ودون ذلك الصَّلَفِ المألوف لدى نجوم المجتمع، وإن كان واحدا منهم.. لم يكن يبدي سوى اعتداد الرجل الشريف، الذي يحترم نفسه -دون أن يخجل من لباسه- ويشعر دائما بانه في الوسط المحترم إنما يكون في مكانه الطبيعي. ومع انه لم يكن جد متعلم بالدرجة التي تتفق مع "**الدكتوراه**" التي كان يحْمِلُها إلا أنه كان كامل العُدة والاستعداد لأن يكون من رجال المجتمع.. ولم يكن يَتلهَّفُ على أن يعرض معرفته، وإنما كان يستغلها في الفرص المناسبة، حتى لقد كان يظن أنه أُوتِيَ من المعرفة أكثر مما كان يمتلك!.. ولما كان قد عاش طويلا في المجتمع الراقي فإنه كان يُولِي المؤلفات المستحبة من الاهتمام أكثر مما كان يولي العلم

---

(١) سبق ان شرحنا مذهب الرهبان الجبليين في الجزء الأول، ونضيف أنهم من "الفرنسيسكان".

الجاف. وكان حاضر البديهة، يقرض الشعر، ويجيد الكلام، ويحذق الغناء، وقد وهب صوتا جميلا، كما كان يعزف على "**الأرغن**" و"**البيانو**". وكان هذا أكثر مما يكفي لأن يجعله منشودا ومرغوبا –وهكذا كان بالفعل!– بيد أن ذلك كله لم يحمله على أن يهمل واجبات منصبه إلا بقدر تافه، فلم يلبث أن اختير –برغم غيرة مزاحميه– نائبا لرئيس طائفته في إقليمه. وبمعنى آخر، كان من أرفع أفراد الطائفة شأنا!

ولقد تعَرفَ الأب "**كاتون**" إلى "**ماما**" لدى المركيز "**دانترمون**". وكان قد سمع عن حفلاتنا الموسيقية في أحاديث القوم، فاعرب عن رَغْبَةٍ في المساهمة فيها. وقد فَعَل، فاكسبها بهجة! وسرعان ما توثق ودنا بفضل ميلنا المشترك للموسيقى، إذ كان هذا الميل –لدى كل منا– ولعا متأجحا، وكان كل ما بيننا من فارق هو أنه كان موسيقيا موهوبا حقا، في حين أنني لم أكن سوى مُتطَفِّلٍ على الفن! وكنا نذهب فنعزف في غرفته، مع "**كانافا**" والأب "**باليه**"، كما كنا نعزف على أرغنه أحيانا في أيام الأعياد. وكثيرا ما كنا نتناول غداءنا على مائدته الصغيرة، فقد كان –وهذا أيضا من دواعي العجب بالنسبة لراهب– كريما، مغْدَاقاً، ذواقة للأطعمة في غير نهم. وكان في أيام حفلاتنا يتناول عشاءه في دار "**ماما**"، فكانت تلك المآدبُ كثيرة المرح والسرور، يقال فيها كل ما يخطر بالبال، وتُلْقَى فيها الأغاني الثنائية.. بينما أسترسل أنا على سجيتي، فاغدق الملح والطرائف. وكان الأب "**كاتون**" يبدو لطيفا، و"**ماما**" تستأثر بالإعجاب بينما يغدْو ُالأب "**باليه**" هدفا للضحك، بصوته الذي يشبه خوار الثور!.. أيتها اللحظات العذبة الحافلة بعبث الشباب لكم طَالَ بك البعاد!..

وبما أنني لن أعود إلى الكلام عن هذا الأب "**كاتون**" المسكين فإني أوجز هنا قصته المحزنة في كلمتين: فإن الرهبان الآخرين الذين كانوا يغارون منه –أو بالأحرى يحقدون عليه– إذ رأوا فيه كفاءة وخصالا حميدة، ليس فيها من فساد الرهبان شيء. أوسعوه كراهية لأنه لم يكن بغيضا مثلهم!.. فاجتمع رؤساؤهم عليه، وأوغروا ضده الرهبان الذين كانوا يحسدونه على مركزه، والذين لم يكونوا يَجْرُءوَن من قبل على التطلع إليه، ومناوأته.. فرَمُي َبألف إهانة، واقصي عن منصبه، وانتزعت منه حجرته التي كان قد أثثها بأناقة وبساطة معا، وحبسوه حيث لا أدري.. وأخيرا، أغرقه أولئك التعساء بوصمات لم تَقْوَ نفسه الشريفة الأبية –بحق– على احتمالها، وبعد أن كان بهجة أظرف المجالس، مات أسى على فراش حقير "**بوش**"، في ركن ما من "**زنزانة**" أو "**جب**"، ماسوفا عليه ومبكيا من جميع الأشراف الذين عرفوه، والذين لم يجدوا فيه أي عيب سوى أنه كان راهبا!

*****

وفي سياق هذه المعيشة، لم ألبث أن غَدَوْتُ –بعد أمد وجيز، غارقا في الموسيقى.. وألفيتني بعيدا عن التفكير في أي شيء آخر، ولم أعد أذهب إلى مكتبي إلا غَصْباً، فقد أصبح الإرهاقُ والجهد الدائب يُسبِّبَانِ لي عناء لا يطاق.. وانتهيت أخيرا إلى الرغبة في ترك منصبي، لأكرسَ نفسي بأكملها للموسيقى! وفي وسع المرء أن يتصور أن هذه الحماقة لم تقابل بغير معارضة، فإن ترك منصب شريف، ودخل ثابت، للجَرْيِ وراء تلاميذ غير مضمونين (١)، كان نَهْجاً خلوا من الحكمة، بحيث لم يكن يرضي "**ماما**".. بل إننا إذا افترضنا أن توفيقي المقبل بلغ ما كنت أتصوره من ضخامة فإن ذلك كان يحد من طموحي ويَحْصُرُه في نطاق متواضع، إذ يهبط بي طوال العمر إلى مركز الموسيقي (الموسيقار)!.. وأخذت تلك المرأة التي لم تكن ترسم سوى أبدع الخطط، والتي لم تعد تحكم علي

---

(١) كان يعتزم أن يتكسب عيشه من تدريس الموسيقى.

قط وفقا لرأي السيد "دوبــون"، اخذت تَرْمقُني في ألم وأنا أُشغل جديا بموهبة كانت تراها غير مربحة، وكثيرا ما كانت تردد لي ذلك المثل الريفي الذي قل ما يصدق في "باريس": "إن الذي يُتْقِنُ الغناء ويحذق الرقص، يتخذ لنفسه مهنة قل أن ترفع من قدره"!.. على أنها -من ناحية أخرى- كانت تراني منساقا لميل لا يقاوم، فإن ولعي بالموسيقى غدا جنونا، ومن ثم فقد حق لها أن تخشى أن يتأثر عملي من جراء انشغالي، فيؤدي إلى أن أحرم منصبي، وهو أمر كان من الخير أن أقدم عليه بنفسي(١).. ومرة أخرى بينت لها أن هذا المنصب لم يكن مقدرا له أن يدوم طويلا، وأنه لأبُدَّ لي من مهنة أكْتَسِبُ منها عيشي، وأن السعي إلى أن أكتسب بالمران حِذْقاً للفن الذي كان ميلي يدفعني إليه -والذي اختارته لي هي- أضمن من أن أضع نفسي تحت رحمة من يولونني حماهم، أو أن أحاول عملا جديدا قد يجانبني فيه التوفيق، وقد يدعني -في النهاية- بلا موارد لكسب عيشي، بعد أن أكون قد تجاوزت سن التعليم!.. وانتزعت أخيرا موافقتها، بالغضب واللَّجَاجة والملاينة أكثر مني بالحجج المقنعة!.. فهرعت لفوري مقدما استقالتي إلى السيد "كوتشيللي" -المدير العام للمساحة- في زَهْو وخيلاء، وكانني أقدمت على أكثر الأعمال بطولة.. وهكذا تركت منصبي طواعية، دون مادِاع، ولا عذر، ولا مبرر.. بل في اغتباط يفوق اغتباطي يوم ظفرت به قبل عامين!

هذه الخطوة -برغم أنها كانت حماقة مطلقة- أكسبتني في البلاد نوعا من الاعتبار الذي أفادني. وظن البعض أنني أستند إلى موارد لم أكن أمتلكها في حين أن غيرهم قدروا موْهِبَتي على ضوء تضحيتي -وهم يرونني أنصرفُ بكل نفسي إلى الموسيقى- واعتقدوا إزاء كل هذا الولع بالفن أنني لابد على معرفة فائقة به!.. ولما كان الأعور ملكا في مملكة العميان فقد أخذني القوم على أنني أستاذ بارع؛ لأنه لم يكن ثمة من المعلمين سوى الرديئين!.. وإلى جانب ذلك فإنني لم يكن يعُوْزِنُي حذق الغناء -إلى درجة لا بأس بها- كما كنت مفضلا بسبب سني وشكلي، فسرعان ما أصبح لي من التلميذات أكثر مما كان يلزمني لتعويضِ مرتبي كموظف كتابي!

ومن المؤكد أنه لم يكن بوسع امرئٍ أن ينتقل -في سبيل الاستمتاع بالحياة- من أمْرٍ إلى نقيضه، بأسرع مما انتقلت أنا!.. ففي المساحة كنت أمارس -ثماني ساعات في اليوم- أشَدَّ الأعمال كآبة، مع أناس كانوا هم الآخرون أشد الناس كآبة، حَبِيساً في مكتب مسمم بأنفاس وعرق كل هؤلاء الأجلاف الذين كان معظمهم بالغي القذارة، مشعثين -حتى إنني كنت أشعر بدوار وغثيان لفرط الانتباه والرائحة والجهد والضيق أحيانا! فإذا بي الآن، بدلا من ذلك، أجدني أَغُوصُ فجاة في المجتمع الراقي، وأصبح مَرْغُوباً ومنشودا في خير البيوت، أحظى بالحفاوة والملاطفة والإكرام في كل مكان، حيث ترتقب وصولي آنسات لطيفات أنيقات، ليستقبلنني في تلهف!.. لا أدري سوى الأشياء الفاتنة، ولا أَشُمُّ سوى الورد وزهر البرتقال، ولا أحاط إلا بالغناء والكلام والضحك واللهو.. ولا أغادر بيتا إلا لأجد كل هذا في بيت آخر!.. ولسوف يقرني القارئُ على أنه -وقد تساوت الميزات- لم يكن ثمة مجال للتردد في الاختيار. والحق أنني رَضِيتُ عن اختياري إلى درجة أنني لم أستشعر النَّدم قط.. حتى في هذه اللحظة، وأنا أزن أعمال حياتي بميزان العقل، بعد أن تحررت من البواعث النزقة التي كانت تحدوني إذ ذاك!

ولقد كانت هذه هي المرة الوحيدة -تقريبا- التي لم أُطِعْ فيها سوى ميولي، فلم يَخِبْ رجائي! ولقد أدت الحفاوة السلسة، والروح اللطيفة، والطباع السهلة التي أوتيها أهل تلك البلاد إلى جعل اتصالي بالدنيا أمرا مستحبا، وقد كان الميل الذي تملكني إذ ذاك نحو هذا كله، دليلا أثبت لي بجلاء

---

(١) أي إنّه كان من الخير أن يستقيل بدلاً من أن يقال!

انه إذا كان قد قدر لي الا احب العيش وسط الناس، فقد كان هذا ذَنْبَهُمْ أكثر مما هو ذنبي!

ومما يؤسف له ان اهل "**سافوا**" ليسوا اغنياء -أو لعله كان أمرا أجدر بالأسف ان يكونوا اغنياء!- ذلك أنهم، على ماهم عليه، خير من عرفت من الناس، وأحسنهم معاشرة. وإذا كانت في الدنيا مدينة صغيرة تتسنى فيها عذوبة الحياة، في وسط ملائم ومأمون فهذه المدينة هي "**شامبيري**".. فإن الأسرات العريقة في الإقليم، التي تتجمع في هذه المدينة، لم تُؤت إلا ما يكفيها للعيش، دون ما زيادة.. وهم بحكم الضرورة -نظرا لعجزهم عن الإغراق في طموحهم- يتبعون نصيحة "**سينياس**" (١)، فيكرسون شبابهم للخدمة العسكرية، ثم يعودون ليقضوا شيخوختهم في وطنهم بسلام. وبذلك يتقاسم الشرف والحكمة حَيَاتَهُم، أما نساؤهم فجميلات وجميلات بحق، إذ إنهن يمتلكن جميعا ما يجعل للجمال قيمة، بل وما يُغْني عنه. ومن العجيب أنني -وقد قُدِّر لي بحكم مهنتي أن أرى كثيرا من الشابات- لا أذكر أنني رأيت واحدة في "**شامبيري**" لم تكن فاتنة!. قد يقال: إنني كنت ميالا لأن أراهن فاتنات، وربما كان في هذا بعض الحق ولكنني لم أكن بحاجة إلى أن أُضِيفَ إليهن سحرا من خيالي. والحقيقة أنني لا أملك أن أفكر في تلميذاتي الشابات دون أن أطرب.. وكيف أذكر هنا أبدعهن حسنا، دون أن أتمثلهن معي في تلك الأيام الهانئة التي نعَمْنا بها!.. تلك اللحظات البريئة العذبة التي قضيناها معا؟!.. كانت أولاهن الآنسة "**دي ميلاريد**"، جارتي وأخت التلميذ السيد "**جايم**". وكانت سمراء طروبا، مليئة بنشاط ورشاقة ناعمين، ومجردة من كل نَزَق، وكانت -كمعظم لدأتها- تميل إلى النحافة، ولكن عينيها اللامعتين، وقوامها الأهيف، وخلقها الجذاب، لم تكن في حاجة إلى زينة كي تروق للإبصار. ولقد اعتدت أن أذهب إليها في الصباح فأجدها عادة في ثياب البيت، لا يزين رأسها سوى شعرها الذي رفعته في إهمال، وقد ازدان ببضع زهرات كانت تُوضَعُ عند وصولي، ثم ترفع عقب انصرافي ليتسنَّى تنسيق الشعر!.. ولست أخشى في الدنيا أكثر من شابة في ثياب البيت! -وتقل خَشْيَتِي هذه مائة مرة إذا كانت الفتاة في كامل ثيابها!- أما الآنسة "**مانتون**"، التي كنت أذهب إليها بعد الظهيرة، فكانت دائما في كامل ثيابها، وكانت هي الأخرى تُحْدِثُ في نفسي أثرا بالغ الرقة، ولكنه من نوع مختلف. كان شعرها أشقر مغبر اللون، وكانت بالغة الظرف، وبالغة الخجل، ناصعة البياض، ذات صوت صاف، واضح، موسيقي الرنين، ولكنها لم تكن تَجَسرُ على رفعه. وكانت ثمة ندبة على صدرها خلفها حرق نشأ عن ماء مغلي. ولم يكن الوشاح الحريري الأزرق ليستر هذه الندبة تماما، فكانت تجتذب انتباهي، الذي لم يعد -بعد زمن قصير- ينحصر في الندبة وحدها!

وهناك الآنسة "**دي شال**"، التي كانت هي الأخرى من جاراتي. وكانت فتاة ناضجة، وَافِيَة العود، عريضة المنكبين، تميل للبدانة. وكانت طيبة جدا. ومع أنها لم تكن جميلة إلا أنها جديرة بالذكرى لكرم خلقها، واعتدال طباعها، وطيبة سَجِيَّتها. أما أختها السيدة "**دي شارلي**" -أجمل امرأة في "**شامبيري**"- فكانت قد تجاوزت سن تعلم الموسيقى ولكنها أتاحتْ التعلم لابنتها التي كانت لاتزال صغيرة، والتي كان جمالها الناشئ يوحي بأنه سَيُضَارِعُ جمال أمها، ولولا أنها -لسوء الحظ- كانت ذات شعر ضارب إلى الحمرة. وكانت لي في "دير الزيارة" آنسة فرنسية صغيرة "غاب عني اسمها ولكنها جديرة بأن تحمل مكانا بين الأثيرات لدي". وكانت قد اكتسبت ما للراهبات من لهجة مُتَّئِدَة، متراخية.. وبهذه اللهجة المتراخية كانت تلقي ملحا طريفة، لا تبدو ملائمة لوقارها! وعدا ذلك كانت كسولا، لا تحب أن تَتَجشَّمُ عناء إظهار ذكائها -إذ كان ذلك صنيعا لا تبيحه لكل امرئ!.. ولم يخطر

---

(١) كان "سينياس" وزير "بروس" ملك "ابيروس" -إحدى جزر اليونان -وابن "أخيل" الذي قضى على طروادة ووضع خاتمة للحرب الطروادية.

لها أن توليني هذا الصنيع إلا بعد شهر أو اثنين من التدريس، فقد شاءت أن تجعلني أكثر مواظبة على موافاتها، إذ إنني ما استطعت قط أن أَحْملَ نفسي على الدقة في المواعيد، كنت أحب دروسي أثناء قيامي بإلقائها، ولكني لم أكن أحب أن أُقسَرَ على حضورها، ولا أن أكون مُقَيَّدا بموعد.. فقد كان التقيد والانصياع أمرين لا أطيقهما، بحيث كانا يحملاني على أن أكره السرور ذاته!.. ويقال إن في "تركيا"، لدى "**المحمديين**"، ينطلق في الطرقات عندما يُشْرِفُ النهار على الطلوع– رجل يدعو الأزواج إلى أن يؤدوا واجباتهم نحو زوجاتهم. وإني لخليق بأن أكون تركيا غير صالح في هذا الموعد(١).

كذلك كانت لي تلميذات من الطبقة الوسطى، ومنهن واحدة كانت سببا غير مباشر في تحولي في علاقاتي، أرى أن أتحدث عنه، مادمت ملزما بأن أروي كل شيء. كانت ابنة بدال "**بقال**"، تُدعى الآنسة "**لار**". وكانت نموذجا كاملا لتمثال إغريقي، حتى إنني كنت خليقا بأن أصفها بأنها أجمل فتاة رأيتها في حياتي لو قدر للجمال الصادق أن يُوجد بلا رُوحٍ ولا حياة!.. كان فتورها وبرودها وتجردها من الشعور، تبلغ فيها درجة لا يُصَدقُها العقل. وكان من المستحيل إرضاؤُها، كما كان من المستحيل إغضابها، على السواء. وإني لمقتنع بأنه لو قُدِّرَ لامرئ أن يحاول العبث بها لتركته يفعل، لا عن ميل، وإنما عن بلادة!.. وهكذا كانت أمها –التي لم تشأ لها أن تتعرض للخطر– لا تفارقها لحظة. ولقد حاولت بغاية جهدها أن توُقظ مشاعرها، إذ أتاحت لها دراسة الغناء، وجاءت لها بمدرس شاب كي يعلمها.. ولكن دون جدوى.. وبينما كان المدرس يَسْعَى لفتنة الابنة كانت الأم تسعى لفتنة المدرس، ولكن إحداهما لم تكن أكثر توفيقا من الأخرى!.. كانت السيدة "**لار**" تجمع إلى نصيبها الطبيعي من الحيوية، ما كان ينبغي لابنتها أن تحرزه! كانت امرأة ذات وجه صغير، يقظ، عابس، تناثرت فيه آثار الجدري، وكانت لها عينان صغيرتان، شديدتا التألق، يشوبهما شيء من الاحمرار –لأنها كانت منحرفة الصحة باستمرار– وكنت أجد عند وصولي، في كل صباح، قهوتي الممزوجة بالقشدة. ولم يفت الأم قط أن تستقبلني بقبلة تجيد طبعها على الفم، فكنت –بدافع من الفضول– أتمنى لو أردها إلى الابنة، لأتبينَ كيف تتلقاها!.. على أن كلَّ هذا كان يَتمُّ على صورة من البساطة وعدم التكلف، بحيث كانت المغازلات والقبلات تأخذُ مجراها كالمعتاد، إذا ما كان السيد "**لار**" موجودا!.. وكان رب الأسرة رجلا طيبا، وأبا حقيقيا لابنته، فما خدعته زوجته يوما، لأنها لم تكن بحاجة إلى ذلك(٢)!

وكنت أتلقى هذه المغازلات بغبائي المعهود، مُفَسِّراً إياها على أنها أمارات للود الصادق!.. على أنني كنت أتضايق أحيانا، لأن السيدة "**لار**" لم تكن تَغْفُل أداءها قط!.. وكنت إذا مررت خلال النهار بالحانوت دون أن أعرج عليه يخلق ذلك ضجيجا.. فكنت أَضْطَرُّ حين أكون في عجلة من أمري إلى أن أدور متخذا طريقا أخرى، لفرط يقيني بصعوبة خروجي من لدن السيدة كما دخلت!

وهكذا كانت السيدةُ "**لار**" شديدةَ الانشغال بي، بالقياس إلى عدم اهتمامي بها. ولقد أثرت في هذه الحفاوات كثيرا، حتى إنني تحدثت عنها إلى "**ماما**"، وكأنها أمر غير مستغرب. ولو كان فيها ما يُسْتَغْرَبَ لما كنت أقل حديثا عنها، فقد كان كتمان أي سر عن هذه السيدة أمرا غير ممكن. كان قلبي مفتوحا أمامها كما هو مفتوح أمام الله!.. لكنَّها لم تَتَلَقَّ الأمر بمثل ما تلقيته من بساطة، فقد رأت أن ما كنت أعتبره "مودة"، إنما كان في حقيقته "مغازلات"!.. وحَدَسَتْ أن السيدة "**لار**" رأت من الكرامة ألا تدعني غِراًّ كبيرا كما وجدتني، فسعت –بشتى الطرق– إلى أن تكشفَ لي غايتها!..

---

(١) من المفهوم أن هذه فرية من الفريات التي شاعت في أوروبا في فترة الحروب الصليبية. وقد كان كل مسلم يسمى تركيا. (٢) يقصد أنها لم تكن بحاجة إلى خداعه، إما لأنها كانت تمارس التقبيل أمامه، وإما لأنها كانت تعجز عن اجتذاب الرجال رغم مغازلاتها.

وكان لدى "**ماما**" من البواعث اللائقة بها، ما جعلها ترغب في أن تعصمني من الشَّراك التي كانت سني وشكلي يُعَرِّضَاني لها، فضلا عن انه لم يكن من الإنصاف ان تتولى امرأة أخرى تعليم تلميذها!

ثم نُصبَ في طريقي شَرَكٌ أخطر من المعتاد!.. وبرغم أنني استطعت أن انجو منه، فإن هذا الشرك نبه "**ماما**" إلى أن الأخطار التي كانت تهددني دون انقطاع، أصبحت تستوجب كل الاحتياطات التي رأت أن تتخذها!.. ذلك أن السيدة "**كونته مانتون**" -أم إحدى تلميذاتي- كانت امرأة واسعة الذكاء، عرفت بأنها أوتيت من الخبث مالا يقل عن ذكائها. وقد تسببت -كما كان يقال- في كثير من المنازعات، منها ما كان ذا عواقب مشؤومة على أسرة "**دانترمون**". وكانت "**ماما**" على علاقة بها تكفي لأن تُطْلِعَها على أخلاقها، فقد أولعت "**ماما**" -في براءة- بشخص كانت مدام "**دي مانتون**" قد بنت عليه آمالا، فاتهمتها بالعدوان على إيثار كان مُوَجّهاً إليها، برغم أن "**ماما**" لم تفعل.. بل إنها لم تسع إلى هذا الإيثار، ولم تتقبله!.. ولكن منذ ذلك الحين عمدت مدام "**مانتون**" إلى تدبير عدة مكائد لغريمتها، لم يُقدر لأية مَكيدَة منها أن تنجح. وسأَرْوي واحدة من أكثرها إثارة للضحك، على سبيل المثال: فقد كانتا مرة في الريف مع عدد من السادة -من الجيران- بينهم الشخص المذكور، الذي كانت مدام "**دي مانتون**" تعلق عليه آمالها. وفي أحد الأيام، قالت هذه لأحد السادة: إن مدام "**دي فاران**" لم تكن سوى امرأة متحذلقة، وإنها عديمة الذوق، لا تُحْسِنُ ارتداء ثيابها، وتحرص على أن تغطي عنقها كنساء الطبقة الوسطى. فقال السيد، الذي كان مولعا بالمزاح: "أما عن هذه النقطة الأخيرة، فإن لديها عُذْراً، إذ إنني أعرف أن لديها نُدْبَة كبيرة على شكل الفأر البشع، مطبوعة على صدرها، وهي شديدة الشبه بالفأر، حتى ليقال إنها تجري!".. والحب -كالبغضاء- يُوحِي بالتصديق، لذلك اعتزمت مدام "**دي مانتون**" أن تستغلَّ هذا الاكتشاف. وفي ذات يوم، بينما كانت "**ماما**" تلعب الورق مع الشخص الذي جَحَدَ إيثار السيدة، إذا بهذه تنتهز الفرصة فتتسلل إلى ما وراء غريمتها، ثم توشك أن تقلب مقعدها لتزيح وشاحها عن عنقها.. وبدلا من أن يرى السيد فأرا كبيرا، رأى شيئا على النقيض تماما، لم يكن نِسْيَانُه بأسهل من مشاهدته!.. وهذا مالم يكن في حُسْبَانِ السيدة!

وبرغم أني لم أكن بالشخصية التي تَشْغَلُ بال مدام "**دي مانتون**"، التي لم تكن تبغي حولها سوى اللامعين، فإنها أولتني بعض الاهتمام، لا من أجل شكلي -الذي لم يشغلها البتة بالتأكيد- وإنما من أجل ذكائي المزعوم، الذي كان من المحتمل أن يجعلني ذا نفع لها.. فلقد كانت مُحْتَدمة الميل للهجاء، وكانت تحب نظم الأغاني والأشعار في هَجْوِ الذين لا يروقون لها.. فلو أنها وجدت لدي كفاءة كافية لمعاونتها في نظم أشعارها، واستعدادا كافيا لكتابتها لكان في وسعنا -فيما بيننا- أن نُقيمَ "**شامبيري**" ونقعدها!.. وكان في الوسع طبعا الاهتداء إلى مصدر هذه الهجائيات، وإذ ذاك كانت السيدة "**مانتون**" كفيلة بأن تتنصل من المسألة بأن تضحي بي، فَيُلْقَى بي في السجن.. ولعلني كنت أمكث فيه بقية عمري، لأنني قمت بدور "**فيبوس**" (١) مع السيدات!

لكن شيئا من كل هذا لم يحدث -لحسن الحظ- فقد استبقتني مدام "**دي مانتون**" مرتين أو ثلاثا للغداء، لتستدرجني في الحديث، فألفت أنني لم أكن سوى أبله! وكنت -أنا نفسي- أشعر بذلك، وأتحسر له، وأغبط صديقي "**فينتور**" على مواهبه، في حين أنني كنت جديرا بأن أحمد غبائي إذ أنقذني من المخاطر! وهكذا ظللت -بالنسبة لمدام "**مانتون**"- المدرس الذي يُلقِّنُ ابنتها الموسيقى، لا

---

(١) فيبوس: من أسماء أبو للون إله التنبؤات والطب والشعر والموسيقى عند الرومان.. كما أنه كان إله النهار والشمس، ومنهما اشتق اسم "فيبوس". وهو ابن الإله "جوبيتر" رب الأرباب وأبوهم لدى الرومان.

أكثر.. ولكني عشت في أمان، وظللت مرغوبا في "**شامبيري**".. وهذا أفضل من أن أكون ذكيا –في نظرها– وأفعوانا في نظر بقية القوم!

*****

وإذ كان الأمر على هذه الشَّاكِلَة فقد رأت "**ماما**" –لانتزاعي من مخاطر شبابي– أن الوقت قد حان كي تعاملني كرجل، وهذا ما فعلَته.. ولكن، بأغرب طريقة فَذَّة خطرت لامرأة في ظروف مشابهة: فقد وجدتها أكثر جدية في مسلكها، وأكثر أدبا في قولها، مما عهدتها.. واستبدلت –للفور– بالمرح الماجن الذي اعتادت أن تمزجه بتعاليمها، لهجة متحفظة على الدوام، لم تكن مألوفة ولا قاسية، ولكنها كانت تشبه التَّمْهِيدَ لشرح ما!.. وبعد أن بحثت عبثا، في أطواء نفسي، عن سبب لهذا التحول، سألتها.. وكان هذا ما تنتظره، فإذا بها تقْتَرِحُ أن نخرج للنزهة في البستان الصغير في اليوم التالي، فذهبنا إليه منذ الصباح. وكانت قد اتخذت من الإجراءات ما يَكْفُلُ بقاءنا وحيدين طوال النهار الذي استغلته في إعدادي للنعم التي شاءت أن تُغْدِقَها علي.. لا بالمغازلات والإغواء –كما تفعل أية امرأة أخرى– وإنما بأحاديث مُفْعَمَة بالعاطفة والحكمة، قصدت بها إلى تعليمي أكثر مما قصدت إلى إغوائي، وكانت تنفذ إلى قلبي أكثر مما تنفذ إلى حسي! ومع ما كانت عليه هذه الأحاديث من بَهَاءٍ ونفع، وبالرغم من أنها لم تكن سوى أحاديث فاترة حزينة إلا أنني لم أولها كل ما كانت تستحق من انتباه، ولا نقشتها على ذاكرتي كما فعلت في كافة الأوقات الأخرى.. بل إن استهلالها –ذلك المسلك التمهيدي– بلبل فكري، فجعلني أحلم وأشرد –بالرغم مني– وهي تتكلم.. وغدوت أقل اهتماما بما كانت تقوله، مني بالبحث عما كانت تَبْغِي الوصول إليه!.. وما إن فهمت –وهو مالم يكن بالسهل علي– طرافة الفكرة التي لم تجل أبدا بخاطري، طيلة الوقت الذي عشته معها، حتى تملكتني الفكرة تماما، فلم أعد قادرا على التفكير فيما كانت تقوله لي "**ماما**".. لم أعد أفكر إلا فيها هي وحدها، دون أن أُنْصِتَ إليها!

إن الرغبة في حمل الشباب على الإصغاء لما يراد قوله لهم، بإطلاعهم مُقَدَّماً على غاية جد مشوقة لهم، أسلوب معكوس، وإن كان جد مألوف لدى المعلمين، حتى لقد عجزت –أنا نفسي– عن تحاشيه في كتابي "**إميل**". فإن الشاب إذ يُؤْخَذُ بالغاية التي يُوعَدُ بها، يُشغل بها وحدها، ويتخطى في تسرع أحاديثك التمهيدية، ليصل مسرعا منذ البداية إلى الغاية التي تسعى به إليها في بطء بالغ –حسبما يرى هو– أما إذا أُرِيد الاستحواذُ على أَنتِباهه فيجب الا يُمَكَّنَ من أن يَنفذ إلى الغاية مقدما، وهذا ما أساءت "**ماما**" تقديره. فبطريقة فذة تتمشى مع عقلها المنسق المنتظم، عمدت إلى احتياط لا طائل منه قط، إذ فرضت شروطا. ولكني لم أكد أتبين جزاء هذه الشروط، حتى أنصَرَفْتُ عن سماعها، وبادرت إلى الموافقة على كل شيء.. بل إنني لأشك في وجود رجل في الدنيا يقوى –مهما تكن أمانته وجلده– على المساومة في مثل هذه الحال، وفي وجود امرأة واحدة تقبل أن تَغْفِرَ له ذلك إذا فعله!.. وكنتيجة لطريقتها الفريدة وضعت "**ماما**" في هذا الاتفاق أشدَّ قُيُودٍ أدبية، ومنحتني ثمانية أيام أفكر خلالها.. وهي مهلة أكدت لها –كذبا وزورا– أنني لم أكن بحاجة إليها.. فالواقع أنه مما زاد من غرابة الموضوع، وبلغ بها ذروتها أنني كنت جد مُغْتَبِط بتقبل هذا المشروع، بقدر ما أذهلتني طرافته، وبقدر ما شعرت بانقلاب في أفكاري، كان يتطلب مني وقتا لتنظيمها!

ولقد يُخَيَّلُ أن هذه الأيام الثمانية بدت لي كثمانية قرون، ولكن الأمر كان على النقيض، فلقد

تمنيت لو أنها امتدت فعلا إلى هذا الأجل!.. ولست أدري كيف أصِفُ حالي، فقد كانت لَوْنًا من الجزع الممتزج بنفاد الصبر، إذ كنت خلالها جزعا مما كنت أتوق إليه، إلى درجة أنني فكرت جدّياً –في بعض الأوقات– في وسيلة مهذبة لتفادي الهناء الموعود!.. وتصور طباعي المتهورة النزقة، ودمي الفائر، وقلبي المنتشي بالحب، وصحتي الموفورة، وسني!.. ،وتذكر أنني في هذه الحال، وفي ظمئي إلى النساء، لم أكن قد مَسَسْتُ بعد واحدة منهن!.. ومن هنا فإن الخيالَ، والحاجة، والغرور، والفضول، تجمعت كلها لتُذْكي في نفسي رغبة نهمة متأججة في أن أكون رجلا، وفي أن أثبت أنني رجل!.. يضاف إلى ذلك –وهذا أمر يجب ألا يغفل– أن تعلقي الحنون، المحتدم، بـ"**ماما**" كان بعيدا عن التضاؤل، بل إنه راح يزداد اتقادا يوما بعد يوم حتى لم أعد أهْنأُ إلا بقربها، وحتى إنني لم أكن أُفارِقُها إلا لأفكر فيها، وحتى إن قلبي كان مترعا، لا بطيبتها ولطفها فحسب، وإنما بجنسها، وشكلها، وشخصها.. وبإيجاز: بها، بجميع الاعتبارات التي كانت تجعلها عزيزة علي!.. ولا يخطرن بالبال أنها كانت قد اكتهلت، أو بدت لي مكتهلة؛ لأنني كنت أصغرها بعشر أو اثنتي عشرة سنة، فالواقع أنها لم تتعرض إلا لتغيير بسيط، بل إنها –في نظري– لم تتغير البتة خلال السنوات الخمس أو الست التي كنت أغيب فيها في نوبات من النشوة، من سحر النظرة الأولى!.. كانت تَبْدوُ لي فاتنة دائما، وكان كل امرئ يعتبرها كذلك، في تلك الآونة.. كل ما هنالك أن قوامها وحده ازداد بدانة، بعض الشيء. عدا ذلك، فإنها احتفظت بنفس العين، ونفس البشرة، ونفس الصدر، ونفس الملامح، ونفس الشعْرِ الأشقرِ الجميل، ونفس المرح.. وبكل شيء، حتى صوتها، ذلك الصوت الشاب ذو الجَرْسِ الفِضّي، الذي كان له دائما تأثير كبير على نفسي، حتى إنني لا أستطيع –إلى اليوم– أن أسمع رنين صوت عذب لفتاة شابة، دون أن أتأثر به!

ومن الطبيعي أن الأمر الذي كان لي أن أخشاه خلال انتظار الظفر بامرأة حبيبة كهذه هو التَّعَجُّل وعدم المقدرة على ضبط شهواتي بدرجة كافية، فأصبح خيالي مسيطرا علي. ولسوف ترى أن مجرد التفكير في بعض الأفضال الطفيفة التي كانت ترتقبني بالقرب من الحبيبة –في سن متقدمة– كانت تلهب دمي إلى الدرجة التي يستحيل علي عندها أن أجتاز دون عناء الفارق القصير الذي كان يفصل بيني وبينها. فكيف كان يَتَسَنّى لي –وأنا في عنفوان الشباب– أن أشعر بشوق قليل إلى المتعة الأولى؟.. وكيف قدر لي أن أرقُبَ ساعة القرب، بألم أكثر مني بابتهاج؟.. كيف حدث أنني شعرت بنفور وخوف تقريبا، بدلا من أن أشْعُرَ بالمباهج التي كانت خليقة بأن تسكرني؟ لا شك في أنني لو كنت قد استطعت الفرار من هنائي –بطريقة مهذبة– لفعلتُ بكل قلبي.. ولقد وعدت بأن أروي عجائب في تاريخ تعلقي بها، وهذه –بلاشك– عجيبة لم تكن متوقعة إطلاقا!

ولا شك أن القارئ يرى –في استنكار– أنها وقد استسلمت لرجل غيري، قد حطت من قدرها في نظري وهي تشركني مع هذا الرجل، وأن الشعور بعدم التقدير لها خليق بأن يكون قد هدأ من سَوْرةِ تلك المشاعر التي ألهمتنيها.. ولكن القارئ يخطئ في هذا الظن، فإن هذا الإشراك كان قاسي الإيلام لي حقا.. وكان هذا راجعا إلى رقة مشاعري بطبيعتها، بقدر ما كان ناشئا عن أنني وجدت الأمر غير لائق بها ولا بي في الواقع. وبوسعي أن أقسم بأنني لم أكن مشغوفا بحبها يوما قدر ما شغفت عندما كنت قليل الرغبة في الظفر بها، فلقد كنت أعرف عن قلبها الطاهر، ومزاجها الجليدي ما يعصمني من أن أظن لحظة أن للذة الحسية دخلا في هذا الإقدام منها على أن تمنحني نَفْسَها!.. وإنما كنت مقتنعا –تمام الاقتناع– بأن مجرد الاهتمام بتجنيبي مَخَاطِرَ لم يكن من سبيل سوى هذا

لتفاديها، وبصوني من أجل نفسي وواجباتي فحسب، هو الذي جعلها تأخذ على عاتقها "واجبا" لم تكن تنظر إليه نظرة غيرها من النساء، كما سأبين فيما بعد. ولقد أشفقت عليها، كما أشفقت على نفسي، ووددت لو أقول لها: "لا يا "**ماما**"، لا ضرورة لهذا، سَأُرْدِعُ نفسي بدون هذا".. ولكني لم أجسر، أولا: لأن هذا لم يكن بالشيء الذي يقال، وثانيا: لأنني شعرت في قرارتي بأن هذا غير صحيح، وأنه ليست ثمة سوى امرأة واحدة تملك -في الواقع- أن تصونني عن بقية النساء، وأن تعصمني من الغوايات. وكنتُ -دون أن أشتهي الظفر بها- جد مسرور لأنها كانت تصدني عن اشتهاء الظفر بالأخريات، إلى درجة أنني رُحْتُ أعتبرُ كل ما يشغلني عنها لوناً من النحس والشقاء!

ولقد كانت ألفتنا الوثيقة، ومعاشرتنا البريئة، أبعد من أن توهن مشاعري نحو "**ماما**"، بل إنها عززتها، ولكنها -في الوقت ذاته- اتجهت بها اتجاها جديدا، فجعلتها أكثرُ وجْداً، وربما أكثر هَيأَماً، ولكنها كذلك أقل شهوة. وبحكم مناداتي إياها بـ"**ماما**"، وبحكم معاملتها بألفة الابن اعتدت أن اعتبر نفسي بمثابة ابنها! واعتقد أن هذا كان السبب الحقيقي في قِلَّة تعجلي للظفر بها، برغم أنها كانت جد حبيبة لدي. وإني لأذكر بجلاء أن أحاسيسي الأولى كانت أكثر شهوانية، دون أن تكون نشيطة مُحَفَّزَةٍ. فكنت في "**انيسي**" نشوان، ولكني لم أعد كذلك في "**شامبيري**". ومع أنني ظللت أحبها دائما بكل وجد ممكن إلا أنني ازددت حبا لها لذاتها، كما غدوت أقل حبا لها من أجل نفسي، أو أنني لم أعد -على الأقل- أسعى إلى هنائي بقدر ما كنت أسعى إلى اسْتِمْتَاعِي بقربها. كانت -بالنسبة لي- أكثر من أخت، وأكثر من أم، وأكثر من صديقة، بل وأكثر من عشيقة، ولهذا السبب بالذات، لم تكن عشيقة!.. وبإيجاز: كنت أحبها إلى درجة تجعلني لا أشتهيها.. وهذا أوضح مافي آرائي وأفكاري!

وحَانَ أخيراً اليوم الذي كان مرهوبا، أكثر منه مرغوبا!... ووعدت بكل شيء، فلم أنكث بوعودي. ولقد عزز قلبي عهودي دون أن يطمع في جزاء. ومع ذلك فإنني ظفرت بالجزاء.. ورأيتني للمرة الأولى في أحضان امرأة، وامرأة كنت أعشقها.. أفكنت سعيدا؟.. لا!.. لقد تذوقت اللذة، ولكن شعورا بأسى طاغ سَمَّمَ سحرها، فكنتُ وكأنني ارتكبت جريمة الزنا مع إحْدَى المحرمات.. ولقد بللت صدْرَهَا بدموعي مرتين أو ثلاثا، وأنا أضمها بين ذراعي في وجد.. أما هي، فلم تكن حزينة ولا مرحة، وإنما كانت حنونا وساكنة. ولما كانت على قدر ضئيل من الحس الشهواني، ولم تكن تنشد اللذة الحسية قط فإنها لم تشعر بالمتعة، ولا عانت الندم إطلاقا!

وإني لأكرر أن كل زلاتها ترتبت على أَخْطَائِهَا، وليس عن شهواتها قط.. كانت طيبة المنبت، وكان قلبها طاهرا، وكانت تحب الأمور الشريفة، كما كانت كل ميولها مستقيمة صالحة، وذوقها رقيقا.. ولقد نشأت على لُطْفِ الشَّمَائل، وهو ما كانت تحُبُّه دائما، وإن لم تتَبُّعهْ قط، لأنها بدلا من أن تنصت إلى قلبها -الذي كان يرشدها إلى الصواب- كانت تُصّغِي إلى عقلها الذي كان يخطئ في إرشادها!.. وعندما كانت المبادئ الزائفة تُضللها كانت المشاعر الصادقة تكذب هذه المبادئ دائما. ولكن "**ماما**" كانت -لسوء الحظ- تخدع نفَسْهَاَ بالفلسفة، وقد أدت المبادئ الخلقية التي استمدتها منها، إلى إفساد المبادئ التي كان قلبها يمليها عليها!

وكان السيد "**دي تافيل**" -عشيقها الأول- هو أستاذها في الفلسفة، وكانت المبادئ التي لقنها إياها هي تلك التي وجدها ضرورية لإغوائها! فلقد وجدها وفية لزوجها ولواجباتها، فَاترةً دائما، مفكرة، منيعة على الأحاسيس الشهوانية، فعمد إلى مهاجمتها بالسفسطة والمغالطات. وانتهى إلى

إقناعها بأن واجباتها -التي كانت مُتَشَبَّثةً بها- لغو من تعاليم الدين التي وضعت خصيصا لتسلية الأطفال، وأن الاتصال الجنسي -في حد ذاته- هو أقل التصرفات أهمية، وأن الوفاء الزوجي محض التزام ظاهري، كل قيمته الخلقية مجرد رأي!.. وأن راحة الأزواج هي الأصل الوحيد لواجبات النساء، ومن ثمَّ فإن الخيَانَاتِ المجهولَة -التي لا يكون لها أثر لدى من ترتكب ضدهم، لأنهم لا يدرون بها- لا أثر لها على الضمير كذلك!.. ومجمل القول أنه أقنعها بأن الأمر لا قيمة له في حد ذاته، وأنه لا يكون ذا شأن إلا إذا أُفْتضِحَ، وأن كل امرأة تبدو فاضلة إنما تدين بمظهرها الفاضل لهذا السبب وحده. وهكذا وصل الوغد إلى غايته، فأفسد عقل طفلة، ولكنه لم يقو على إفساد قلبها!.. ولقد عوقب على ذلك بأعتى ألوان الغيرة، إذ اعتقد أنها كانت تعامله كما علمها أن تعامل زوجها! ولست أدري ما إذا كان على خطأ في ذلك، فإن الراهب "بيريه" خلفه في علاقته بها. إنما الذي أدريه هو أن الطَّبْعَ الباردَ الذي أُوتيته هذه المرأة، والذي كان خليقا بأن يعصمها من هذا المسلك كان هو عين ما منعها -بعد ذلك- من أن تنبذه!.. فما قدر لها أن تدرك أن الناس تخلع أهمية على الشيء الذي لا قيمة له لديها، وما مجدت قط -باسم الفضيلة- زهدا لا يكبدها سوى جَهْدٍ بسيط!

على أنها لم تسئ قط استغلال هذه المبادئ الزائفة من أجل نفسها، وإنما استغلتها من أجل الغير، وكان ذلك من جراء نظرية تعادل تلك المبادئ زيفا، وإن تمشت مع ما فطر عليه قلبُ السيدة من طيبة. فلقد كانت تعتقد دائما أن لا شيء يربط أي رجل بامرأة سوى ظَفَرِه بأربه منها. ومع أنها لم تكن تحب أصدقاءها إلا بدافع من المودة فإن مودتها كانت من اللطف والرقة بحيث إنها كانت تَسْتَخْدِمُ كُلَّ وسيلة ممكنة لتوثق ارتباط هؤلاء الأصدقاء بها.. والغريب في الأمر أنها كانت توُفَّقُ في بلوغ غايتها باستمرار تقريبا. فقد كانت حبيبة حقا، حتى إن المرء كلما عظمت الألفة التي يعيش عليها معها ازداد اكتشافا لأسباب جديدة تدفعه إلى حبها. وهناك أمر آخر جدير بالملاحظة، هو أنها بعد ضعفها الأول، لم تكن تخلعُ أفضالها الناعمة قط إلا على البائسين. وكان اللامعون يفقدون -سدى- العناء الذي يتكبدونه للوصول إليها، ولكن.. إذا مابدأت تشعر بالإشفاق يوما على رجل فلابد من أن يكون هذا الرجل قليل الجدارة بالحب، إذا هي لم تَنْتَهِ إلى أن تحبه!.. وكانت إذا أقدمت على اخْتيارِ أشخاص يليقون بها، لا تصدر في اختيارها عن الميول الخسيسة التي لم تكن قط تقارب فؤادها النبيل، بل إنها لم تكن تصدر إلا عن خلقها المفرط الكرم، المفرط الرحمة، المفرط الحنان، المفرط الحساسية.. هذا الخلق الذي لم تكن تحكمه دائما بحكمة وبصيرة كافيتين!

وإذا كانت بعض المبادئ الزائفة قد غَرَّرتْ بها فكم من مبادئ رائعة اعْتَنَقَتْها، فلم تتخل عنها قط!.. وبكم من الفضائل كفرت عن نواحي ضعفها، إذا جاز للمرء أن يُطْلِقَ هذا الاسم على أخطاء لم يكن للإدراك فيها نصيب يذكرا.. بل إن هذا الرجل الذي غشها في ناحية أحسن تعليمها في ألف ناحية أخرى. ثم إن عواطفها -التي لم تكن متأججة مندفعة- كانت تُتيحُ لها أن تتبع دائما أضواء العقل، فكانت تسلك جادة الصواب عندما لا تُضَلّلها السفسطة.. كانت دوافعها حميدة، حتى في أغلاطها، وكانت آراؤها الزائفة كفيلة بأن تدفعها إلى الزلل، ولكنها لم تكن تقوى على الزلل عن رغبة وطواعية.. كانت تكره الرياء والكذب، وكانت منصفة، عادلة، شَفُوقا، منكرة لذاتها، وفية لوعدها ولأصدقائها ولواجباتها -التي كانت تعترف بأنها واجبات- عاجزة عن الانتقام والبغضاء، دون أن تكون لديها أقل فكرة عن أن في الصَّفْحَ أية ميزة أو فضيلة!.. وأخيرا، لو أننا عدنا إلى تلك الخصال التي لم يكن لها فيها عُذْر يذكر نجد أنها لم تكن تدرك كيف تقدر قيمة الأفضال الناعمة

التي كانت تخلعها على من يقع عليهم اختيارها، ولا كانت تتخذ منها مادة للاتجار أو المساومة.. كانت سخية في إغداق هذه الأفضال ولكنها أبدا لم تكن تبيعها، بالرغم من انها كانت في شغل دائما بموارد العيش.. وإني لأجرؤ على القول: إنه إذا كان سقراط قد استطاع أن يحترم "**أسباسيا**" (١) فإنه كان قمينا بان يحترم مدام "**دي فاران**"!

وإني لأعرف مقدما انني إذ أصِفُهَا بالشخصية الحكيمة، والطبيعة الباردة، سوف أتهم بالتناقض كالمعتاد، وبحق. ولكن من الجائز ان الطبيعة قد اخطأت، وان اجتماع هاتين الخلتين ما كان يجب ان يوجد. ولكنني لا اعرف سوى انه قد وجد فعلا!.. إن كل الذين عرفوا مدام "**دي فاران**" -ومنهم عدد كبير لايزال على قيد الحياة- يعلمون انها كانت كذلك. بل إنني لأجرؤ على ان اضيف انها لم تعرف سوى متعة واحدة من المتع الحقيقية في الحياة، وتلك هي "تَيْسِيرُ الاستمتاع بالحياة لأولئك الذين كانت تحبهم. ومن المباح لكل امرئ ان يُنَاقِش ما تقدَّم بحرية تامة، وان يثبت عن علم ودراية أنه غير صحيح. إن مهمتي هي ان أقول الحق، ولكن ليس ان أحمل الناس على تصديقه!

ولقد ألممتُ شيئا فشيئا بكل الذي قلته، خلال الأحاديث التي أعقبت اتحادنا(٢)، والتي كان لها وحدها الفضل في جعل هذا الاتحاد عذبا، ولقد كانت على حق إذ داخلها الأمل في ان يكون صنيعها ذا نفع لي، فقد أفدتُ منه في تعلمي فوائد كثيرة: فلقد كانت "**ماما**" -حتى ذلك الوقت- تتحدث إلي كما لو كنت طفلا، ولكنها بدات تُعَامِلُني كرجل، فحدثتني عن نفسها. وكان كل ما قالته لي مشوقا ومثيرا لاهتمامي، فتاثرت به إلى درجة أنني كنت -إذا ما استعدته لنفسي- أخرج من اعترافاتها بفوائد تفوق كل ما خرجت به من دروسها. ونحن عندما نشعر ان مُحَدِّثَنَا إنما يتحدث من فؤاده، تتفتح قلوبنا لتلقي اعترافاته.. ولن يقدر لكل ما لدى اي مدرس من علم، ان يصل إلى مَرْتَبَة الثرثرة العاطفية الناعمة التي تفيض من امراة ذكية ظفرت بولاء المرء وتعلقه!

ولقد هيأت لها ظُرُوفُ الألفة الوثيقة التي عشت فيها معها، فرصة تكوين رأي عني ينطوي على مزيد من التقدير عن ذي قبل.. كانت ترى أنني -على الرغم من خجلي وتقاعسي- أهل لأن أدرب على الحياة، وأنني لو ظهرت يوما في مستوى معين لتسنى أن أصبح في مركز يمكنني من أن أشق طريقي، وبهذه الفكرة، كَرَّسَتْ نفسها لا لتشكيل وعيي فحسب، وإنما لصوغ مظْهري وَمسْلَكِي كذلك، حتى تجعلني جديرا بالحب وبالتقدير معا. وإذا صح أن النجاح في الدنيا يقترن بالفضيلة -وهو مالا أؤمن به من ناحيتي- فإنني مقتنع على الأقل بانه لم تكن ثمة وسيلة تؤدي إلى مثل هذه الغاية سوى تلك التي اتخذتها "**ماما**" ورغبت في أن تلقنني إياها!.. فلقد كانت مدام "**دي فاران**" تفهمُ الجنس البشري، وتفهم -إلى درجة عالية- فن التَّعامل مع الناس دون خداع أو تهور، ودون غش أوإساءة ولكنها كانت تُلَقِّنُ هذا الفن بشخصيتها أكثر منها بدروسها، وكانت أكثر معرفة بممارسته منها بشرحه، وكنت أنا -دون رجال العالم طرا- أقلهم قابلية لأن أتعلمه!.. ومن ثم فقد كانت مُحَاولاتُها -في هذا الاتجاه- جهودا مضيعة، وكذلك كان حال كل ما تجشمته لتزودني بأساتذة للمبارزة والرقص. ومع أنني كنت لَدنَ العوُد، حسن القوام إلا أنني لم أتعلم قط كيف أرقص، ولو لدقيقة واحدة، فلقد اعتدت -بفضلِ البثور "**الكاللو**"- أن أسير على عقبي قدمي، وهي عادة لم يستطع "**روش**" أن يشفيني منها. وبالرغم من خفة مظهري فإنني لم أكن قادرا يوما على أن أقفز عبر حفرة عادية. وكانت حالي أنكى في مدرسة المبارزة. فقد ظللت- بعد ثلاثة أشهر من الدراسة-

---

(١) "أسباسيا": كانت عشيقة بريكليس السياسي الاثيني، في النصف الاول من القرن الخامس قبل الميلاد وقد كان صالونها ملتقى اللامعين من مشاهير أثينا. (٢) يقصد العلاقة الجنسية التي قامت بينه وبين مدام "دي فاران"

مضطرا إلى أن أَقْتَصِرَ على الصَّد والمراوغة، بعيدا عن أن أقوى على الهجوم.. كما أنني لم أوت قط رِسْغا لينة أو ذراعا ثابتة، بحيث تحتفظ بالشيش كلما حلا للأستاذ أن يطوح بها. أضف إلى ذلك أنني أوتيت نفورا قاتلا من هذه الرياضة، ومن المدرس الذي كان يحاول أن يعلمنيها. فما آمنت قط بأن من المستساغ الفخر بفن قتل أي إنسان!.. ولكي يُدْخِلَ المدرس عِلْمَهُ الواسعُ في ذهني اعتاد ألا يشرحه إلا بمقارنات مقتبسة عن الموسيقى، التي لم يكن يلم بشيء منها، فوجد أوجها لتشابه عجيب بين أبعاد الثلث والربع(١)، وبين المسافات الموسيقية التي تحمل الاسم ذاته. وكان إذا أراد أن يقوم بحركة خَادِعَة، دعاني إلى أن انتبه إلىDIESE (٢)، لأن النغمات الحادة كانت تسمى قديما FIENTES(٣).. وإذا أراد أن يطوح بشيشي من يدي قال ضاحكا إن هذه "وقفة".. وقصارى القول: إنني لم أر في حياتي متعالما(٤) لا يطاق أكثر من هذا المسكين، بريشته وصدارته الجلدية.

ومن ثم فإن تَقَدُّمي في تدريباتي كان بسيطا، حتى إنني لم ألبث أن هجرتها لمجرد كراهيتي لها ولكني أحرزت تفوقافي فن أكثر نفعا، هو: القناعة بحظي، وعدم الطمع في نصيب أشد بريقا، كنت قد بدأت أشعر أنني لم أخلق له!.. وإذ كنتُ منصرفا بكل نفسي إلى الرغبة في إتاحة حياة سعيدة لـ"ماما"، فإنني كنت أحس دائما بمزيد من الغِبْطَةِ في قُرْبها.. ولما كانت دروسي الموسيقية كثيرا ما تضطرني إلى البُعْدِ عنها لأهرع إلى المدينة فإني بدأت -برغم شغفي بالموسيقى- أشعر بضيق من هذه الدروس!

ولست أدري ما إذا كان "**كلود آنيه**" قد لاحظ تَوُثُّق علاقتنا، وعندي ما يحملني على الاعتقاد بأن هذا لم يَخْفَ عليه، لقد كان فتى شديد الذكاء، ولكنه كان شديد التكتم، لا يتحدث قط بما يناقض تفكيره، بيد أنه لم يكن يبوح بهذا التفكير دائما، ومع أنه لم يُبد أنفه بادرة عن علمه بالأمر إلا أنه أظهر هذا العلم بمسلكه.. وما كان هذا المسلك صادرا عن خسة نفس، وإنما عن اعتناق لمبادئ سيدته، مما لم يكن يملك معه أن يَسْتَهْجِنَ تصرفها وفقا لهذه المبادئ. ومع أنه كان أصغر منها سنا إلا أنه كان من النُّضُوج والوقار بحيث إنه نظر إلينا كما لو كنا طفلين جديرين بالإشفاق والتسامح، بينما رُحنا ننظر إليه كرجل محترم، نكن له تقديرا ومراعاة.. وما أدركت مدى العلاقة التي كانت بينه وبينها إلا بعد أن خَانَتْهُ. ولما كانت تعلم أنني لم أكن أفكر إلا بفكرها، ولا أَشْعُرُ إلا بشعورها، ولا أتنفسُ إلا عن طريقها، فقد أَطْلَعْتني على مدى حبها له، حتى أكن له نفس المحبة، وكانت أقل إسهابا في بيان ودها، منها في بيان تقديرها له، فقد كان هذا هو الشعور الذي أستطيع أن أشاركها إياه كل المشاركة. وكم من مرة هفت بقلبينا -أنا وهو- وجعلتنا نَتَعَانَقُ باكيين، إذ راحت تقول لنا إننا لازمان معا لإسعاد حياتها!.. ألا ليت اللائي يقرأن هذا لا يبتسمن في خبث!.. فإن طباع السيدة كانت تجعل هذه الضرورة أمرا لا مرية فيه.. كانت ضرورة نابعة عن فؤادها فحسب!

وهكذا قامت بين "ثلاثتنا" زَمَالَةٌ قد لا يكون لها مثيل على الأرض!.. كانت جميع أمانينا، وميولنا، وقلوبنا مشتركة، وما كان أي منها يتجاوز نطاق هذه الحلقة الصغيرة. وأصبح اعْتِيَاد العيش معا، والحياة في مَعْزِلٍ عن الدنيا، من القوة بحيث إن كل شيء كان ينقلب في أنظارنا إذا غاب واحد من ثلاثتنا عن المائدة، أو شاركنا الوجبات رابع!.. وبالرغم من الروابط الخاصة التي كانت بيننا فإن الخلوات بين أي اثنين منا لم تكن في حلاوة اجتماع ثلاثتنا.. وكان الذي حال دون أي توتر بيننا هو الثقة البالغة المتبادلة، والذي عصمنا من الملل هو أننا كنا جد مَشْغُولِين، إذ كانت "**ماما**" لا تنفك

(١) من مصطلحات أبعاد الخطوات في المبارزة. (٢) علامة من علامات الموسيقى ترفع العلاقة التي تليها بنسف مقام. (٣) المعنى اللغوي يخدع أو يغرز.. وفي الموسيقى نغم حاد.. (٤) المتعالم هو الذي يدعى العلم..

تبتكر المشروعات ولا تكفُّ عن العمل، ولا تسمح لأي منا بأن يركن إلى الخمول.. كما كان لدى كل منا من العمل الخاص ما يَكْفي لملء أوقاتنا. وفي رأيي أن البطالة ليست أقل من الوحدة إفسادا للجماعة!.. وليس أدعى لتضييق الأفق، ولا أكثر مدعاة للتفاهة، واللغو، والأحقاد، والمنغصات، والأكاذيب، من أن تمكث جماعة -إلى الأبد- بين جدران غرفة واحدة، متقابلين، وليس لديهم من عمل سوى الثرثرة باستمرار!.. فإنه إذا كان لدى كل امرئ ما يشغله فهو لن يتكلم إلا إذا كان لديه شيء يقال. أما إذا لم يكن لديه عمل فإنه لا يجد أمامه سوى الكلام بلا انقطاع، وهذا أدعى الأمور للضّجر وأخطرها!.. بل إني لأجرؤ على أن أذهب إلى أبعد من هذا، فأقول: إنه لابد -لجعل أية صحبة ملائمة حقا- من أن يقوم كل امرئ لا بعمل أي كان، فحسب، وإنما بعمل يتطلب قدرا من الاهتمام. فالحياكة مثلا ليست عملا، ومن ثم فإن مهمة تسلية امرأة تقوم بالحياكة تتطلب عناء يعادل ما تتطلبه تسلية امرأة تجلس مكتوفة اليدين. أما حين تطرز، فإن الأمر يختلف، إذ إن التطريز يشغلها بدرجة تكفي لملء فترات الصّمت. والمزعج المضحك، هو أن ترى في مكان ما مثلا اثني عشر أخرق ثقيل الدم، يقومون، ويجلسون، ويغدون، ويروحون، ويدورون على أعقابهم، ويحركون التحف -التي على رف المدفأة- مائتي مرة، ويعتصرون أمخاخهم ليبقوا على تيار الكلمات دافقا لا ينضب.. ما أبدعها من مهمة!.. مثل هؤلاء -أيا كانوا- يصبح بعضهم عِبْئاً على بعض، وعلى أنفسهم! ولقد اعْتَدْتُ -حين كنت في "**موتييـر**"- أن أذهب لصنع الأشرطة المجدولة في دور الجيران.. ولو أنني عدت إلى ذلك المجتمع لحملت في جيبي دائما "**البيبلوكة**" (١)، وللعبت بها طوال النهار، لأُشْغَل بها عن الكلام عندما لا يكون لدي ما يقال. ولو أن كل امرئ فعل ذلك، لأصبح الناس أقل شرا، ولأصبحت مجتمعاتهم أسلم، وأحب، على ما أعتقد! وقصارى القول: دع الماجنين يضحكون، ولكني أرى أن المذهب الخلقي الوحيد الذي في متناول القرن الحاضر، هو مذهب "**البيبلوكية**"!

وإلى جانب هذا، لم يكن لدينا وقت كَافٍ للتّحوُّط ضد السأم عندما نكون معا، فإن الزائرين المزعجين كانوا يسببون لنا من السأم ما يجعلنا لا نشعر بشيء منه إذا ما خلا بعضنا إلى بعض!.. ولم يكن الضيق -الذي اعتادوا أن يوحوا إلي به من قبل- قد تضاءل. وكل ما كان هناك من اختلاف هو أنني لم أعد أجد وقتا كافيا لأن أسلم نفسي إليه!.. ولم تكن "**ماما**" المسكينة قد فقدت شيئا من شَغَفَهَا القديمَ بالمشروعاتِ والخطط، بل إن الأمر كان على النقيض، فبازدياد إلحاح حاجاتها المعيشية أخذت تزداد إغراقا في المشروعات لسد هذه الحاجات.. وبقدر ما قلت مواردها الراهنة ازدادت تدبيرا لها في أوهامها بشأن المستقبل. ولم يزدها مرور السنين إلا إغراقا في هذا التّهَوُّسِ، وبقدر ما كانت تفقد من ميل إلى ملاذ الدنيا والشباب، أخذت تعوضه بميل إلى الأسرار والخطط. فلم يكن البيت ليخلو قط من المشعوذين، والصناع، والكيمياويين والمغامرين على اختلاف أنواعهم، الذين كانوا يبُعَثْرِونَ الثروات بالملايين، وينتهون إلى أن يصبحوا بحاجة إلى دينار!.. ولم يكن أي واحد منهم ليخرج من لدنها صفر اليدين، وقد كان من بواعث ذهولي أنها كانت قادرة -لوقت طويل- على مثل هذا الإسراف دون أن ترهق مواردها، أو تستنفد صبر دائنيها!

كان المشروع الذي شغلها أكثر من أي شيء آخر -في الوقت الذي أتحدث عنه- والذي لم يكن أبعد المشروعات التي صاغتها عن المعقول، هو إنشاء حديقة ملكية للنباتات في "**شامبيري**"، يُعَيَّنُ لها مديرا! وفي وسع المرء أن يفهم مقدما من الذي كان موعودا بهذا المنصب. فإن موقع هذه المدينة وسط جبال "**الألب**" كان جد مناسب للتجارب النباتية، ولما كانت "**ماما**" تحاول دائما أن تساعد كل

---

(١) البيبلوكة: لعبة تتألف من كرة منقوبة، تتصل بخيط دقيق بعصا صغيرة مدببة في أحد طرفيها، ومجوفة في الآخر.. ويمسك المرء بالطرف المدبب، ويطوح الكرة في الهواء محاولا إدخالها في الطرف المجوف. وقد شاع أخيرا نوع منها يتألف من كرة وكوب صغيرة من البلاستيك.

مشروع بآخر، فإنها قَرَنَتْ هذا المشروع بمشروع كلية للصيدلة، الأمر الذي بدا مفيدا -حقا- لمنطقة فقيرة في هذا الباب إلى درجة أن الصيادلة كانوا الأطباء الوحيدين فيها تقريبا! . . وكانت إقامة الطبيب الأول "جروسي" في "شامبيري" -بعد موت الملك "فيكتور"، تبدو لها ملائمة جدا للفكرة، أو لعلها هي التي أَوْحَتْ بها. ومهما يكن الأمر فإنها أقبلت على تملّقُ "جروسي" المذكور الذي لم يكن بالشخص السَّهْلِ المراس بل كان أكثر من عرفت في حياتي سخرية وقسوة، وسيحكم القارئ على ذلك من حادثين أو ثلاثة أذكرها كنماذج!

فلقد كان "جروسي" يتشاور يوما مع أطباء آخرين، استدعي أحدهم من "أنيسي" ليعالج مريضا. وجرؤ هذا الأخير -الذي لم يكن قد استكمل لياقته كطبيب- على أن يعارض رأي السيد الطبيب الأول "جروسي"، فكان رد هذا الأخير عليه، أن سأله عن موعد عودته من حيث أتى، وعن الطريق التي اعتزم أن يسلكها، والمركبة التي سوف يستقلها! وإذ أجاب الآخر عن كل هذه الأسئلة، سأل "مستجوبه" بدوره عما إذا كان يستطيع أن يؤدي له أية خدمة، فقال "جروسي": "لا، لا خِدْمَةَ هناك.. وإنما أريد أن أقف في نافذة على طريقك، لأستمتع برؤية حمار يركب جوادا"!

وكان "جروسي" بخيلا بقدر ما كان غنيا وصعب المراس. ولقد أراده أحد أصدقائه يوما على أن يقرضه نقودا، بضمانات طيبة، فقال له وهو يمسك بذراعه، وقد كَشَّرَ عن أنيابه: "يا صديقي.. إذا هبط القديس "بطرس" من السماء ليقترض مني عشر "بيستولات" (١)، وقدم لي المهد المقدس ضمانا لما أقرضته!".. وفي ذات يوم، دعي للغداء لدى السيد "الكونت بيكون"، حاكم "سافوا" -الذي كان شديد التدين- فوصل قبل الموعد، وكان صاحب السعادة منصرفا إلى تسبيحاته، فعرض عليه أن يتسلى بالتسبيح. وإذ لم يدر الطبيب بماذا يجيب، ابتسم ابتسامة رهيبة، وركع، ولكنه لم يكد يتلو اثنتين من التسبيحات الملائكية، حتى عجز عن الاحتمال، فنهض على حين غرة، وتناول عصاه، وانصرف بدون أن ينبس ببنت شفة! فهرع الكونت "بيكون" خلفه، وهو يصيح به: "يا سيد "جروسي"! يا سيد "جروسي"! امْكُثْ، فإن على السَّفُّودِ حَجَلاً بديعا" (٢). فالتفت إليه الآخر مجيبا: " يا سيدي الكونت لو أنك وهبتني ملاكا مشويا لما بقيت!".. هذا هو السيد الطبيب الأول "جروسي"، الذي تولته "ماما" وانتهت إلى ترويضه. ومع أنه كان جم المشاغل إلى أقصى حد، فقد اعتاد أن يتردد كثيرا جدا على دارها، وقد اصطفى "آنيه" فآثرهُ بوده، مُبْدِياً تقديره لعلمه، متحدثا عنه باحترام. والأمر الذي ما كان ليتوقعه أحد من دب شرس كهذا، أنه راح يعامل الوصيف باحترام كبير، ليمحو آثار الماضي! ذلك لأنه وإن كان "آنيه" لم يعد في مرتبة الخدم إلا أنه كان من المعروف أنه كان من قبل خادما، ولم يكن يعوزه شيء قدر مَسْلَك الطبيب الأول، واحترامه، كيما يعامله الناس بأسلوب ما كانوا ليأخذوه قط عن شخص آخر سوى "جروسي"!.. وكان "كلود آنيه" ببزِتِّه السوداء، وشعره المستعار الجيد التنسيق، ومَظْهَرِه الجاد الوقور، ومسلكه الرصين الحذر، وإلمامه الواسع بعلم النبات والطب، وتأييد رئيس الكلية له، خليقا بأن يجعله يأمل -بحق- في أن يشغل منصب مدير حديقة النباتات الملكية، لو قُدِّرَ للمشروع أن يتحقق! والواقع أن "جروسي" حَبَّذَ المشروع، واحتضنه، ولم يعد ينتظر لعرضه على البلاط الملكي، سوى اللحظة التي يسمح فيها استقرار السلم بالتفكير في الأشياء المفيدة، وتوفير بعض المال من أجلها.

ولكنَّ هذا المشروع -الذي كان من المحتمل أن يصرفني تَحْقِيقُهُ إلى التفرغ لعلم النبات، إذ كان يخيل إلي أنني خُلِقْتُ له- أخفق بسبب حادث من هذه الحوادث التي تقلب خير الخطط المتناسقة.

---

(١) عملة ذهبية قديمة، كانت قيمتها تتغير بتغير العصر والبلد الذي يصكها. (٢) السفود: المشواة. والحجل: نوع من الطيور.

وكان مقدرا علي أن أصبح تدريجا مثالا للإنسان البائس. ومن الممكن القول: إن العناية الإلهية -التي كانت تبتليني بتلك الاختبارات الضخمة- كانت تزِيحُ بيدها كل ما كان يمنعني من خوض تلك المحن. ففي إحدى الجولات التي كان "**آنيه**" يقوم بها إلى أعالي الجبال للبحث عن "**الجنبة**" -وهي نبات نادر لم يكن ينمو إلا على جبال الألب، وكان السيد "**جروسي**" بحاجة إليه- تعرض الفتى المسكين لحرارة أدت إلى إصابته بنوبة من داء الجنب (التهاب غشاء البلوري)، لم تقو "**الجنبة**" على إنقاذه منها، برغم ما كان يقال من أنها علاج لهذا الداء بالذات. وبالرغم من كل مهارة "**جروسي**"، الذي كان نطاسيًّا حاذقاً حقاً، وبالرغم من العناية التي لا حد لها والتي بذلناها -سَيِّدتُهُ الطَّيِّبَةُ وأنا- له، فإنه مات بين أيدينا، في اليوم الخامس، بعد أن عانى آلاما فظيعة في النزع الأخير، لم يجد خلالها سلوى سوى دعواتي التي رحت أبذلها في أسى وحماس بالغين، والتي كانت خليقة بأن تسري عنه لو أنه فهمها!.. وهكذا فقدت أوفى صديق حظيت به في حياتي.. رجلا جديرا بالتقدير، نادرا، تَوَلَّتْ الطَّبِيعَةُ تربيته وتعليمه، وكان -وهو في منصبه كخادم- يغذي قلبه بكل فضائل العظماء، ولعله لم يكن بحاجة- لكي يظهر الدنيا بأسرها على أنه من هؤلاء- إلا لعمر أطول، ومركز أفضل!

وفي اليوم التالي، كنت أتحدث عنه إلى "**ماما**" بأشَدّ وأصدق الأسى، عندما خطرت لي فجأة -وسط الكلام- أدنأ وأخبث فكرة: تلك هي أنني خليق بأن أرث ثيابه، ولا سيما بزة سوداء أنيقة كانت تستهويني!.. فكرت في هذا، فإذا بي أفصح عنه، إذ إن التفكير والقول كانا مترادفين عندي حين أكون بالقرب من "**ماما**". ولم يجعلها شيء أكثر شعورا بالخسارة التي منيت بها، قدر هذه الكلمة المتهورة البغيضة، فقد كان إنإكْبَارُ الذات ونُبْلِ النفس خَصْلَتَيْن امتاز بهما الراحل. وأشاحت عني المرأة المسكينة -دون أن تجيب بكلمة- وانخرطت في البكاء.. وما كان أعز دموعها وأغلاها! لقد أفصحت هذه الدموع عن معانيها، وانسابت إلى فؤادي، فغسلت عنه آخر آثار الأحاسيس الخسيسة، غير الكريمة.. فلم تدخله هذه الأحاسيس بعد ذلك!

ولقد أضرت هذه الخسارة بـ"**ماما**"، بقدر ما أحزنتها، فلم تكف شُؤونُها عن الانهيار منذ تلك اللحظة، إذ كان "**آنيه**" فتى دقيقا، منظما، عني بتنظيم دار سيدته. وكانت يقظته مهابة من الخدم، فإذا الإسراف يتضاءل.. حتى "**ماما**" نفسها كانت تخشى لومه، وتحد من نفقاتها. ولم تكن تكتفي بحبه، بل كانت ترغب في الاحتفاظ بتقديره، وكانت تخشى اللوم العادل الذي كان يجرؤ أحيانا على إبدائه، إذ كانت تسخو بمال غيرها لا بمالها فحسب!.. ولقد كنت أرى رأيه في هذا، بل وأعربت عنه فعلا، ولكنني لم أوت ما كان له من نفوذ عليها، فلم يكن لأقوالي ما كان لأقواله من تأثير لديها. ولما لم يعد له وجود اضطررت إلى أن أتخذ مكانه، وهو ما كنت قليل المقدرة عليه والميل إليه، فلم أُحْسِنْ ملء المركز، إذ إنني كنت قليل العناية، شديد الخجل، فتركت كل شيء يسير على هواه، وأنا أنحو على نفسي باللائمة، وبجانب هذا، فإنني لم أحظ بسلطانه، وإن حظيت بنفس الثقة التي كان ينعم بها. وكنت أرى الفوضى فأتحسر عليها، وأشكو منها، ولكن أحدا لم يكن يُصْغِي إلي. فقد كنت أصغر سنا وأكثر مرحا من أن أبدو عاقلا حكيما. وعندما كنت أسعى للتدخل والرقابة كانت "**ماما**" تقابلني بصَفَعَاتٍ بسيطة مُدَلِّلة، وتدعوني بمرشدها الصغير، وتضطرني إلى أن أعود للدور الذي كان يلائمني!

وكان الاقتناع العميق بالضائقة التي كان إسرافها المطلق كفيلا بأن يغرقها فيها -إن عاجلا أو آجلا- قد تَرَكَ أثرا في نفسي.. وقد اشتد هذا الأثر كثيرا حين أصبحت -كمشرف على شؤون الدار-

قادرا على أن أتبين بنفسي الفارق بين دخلها ونفقاتها، فقد كانت كَفَّةُ الأخيرة أرجح! -وإلى هذه الفترة أرجع تاريخ الميل الذي استشعرته منذ ذلك الحين إلى التقتير- وأنا لم أكن قط مسرفا في نزق، إلا في نوبات عابرة، ولكني حتى ذلك الحين لم أكن قد حملت هم ما إذا كانت ثمة نقود كثيرة أو قليلة.. فبدأت أهتم بهذا، وأُعْنَى بكيس نقودي.. وهكذا تحولت إلى البخل، نتيجة باعث رائع جدا، ذلك أن همي الأوحد انحصر -في الحقيقة- في: كيف أقتصد لـ"**ماما**" شيئا يقيها محنة الانهيار الذي كنت أراه مقبلا!؟ وكنت أخشى أن يحجز دائنوها على معاشها، أو أن ينقطع هذا المعاش نهائيا، فخيل إلي -لضيق عقلي- أن مدخراتي الضئيلة ستكون، إذ ذاك، عظيمة النفع لها! على أنه لادخار شيء ما، ولحفظه -قبل كل شيء- كان لابد من مكان لإخفائه فيه عنها، إذ لم يكن من المجدي لهذه الخطة أن تعرف "ماما" شيئا عن وُجُودِ مدخراتي القليلة، عندما تكون في أشد الحاجة إلى المال!.. ومن ثم رحت أبحث عن عدة مخابئ أودعتها بضع قطع من فئة "**اللوى**"، معتزما أن أضاعف الرصيد بين وقت وآخر، إلى أن تحين اللحظة التي كنت أعتزم أن أطرحه فيها عند قدميها! ولكني كنت من الارتباك في اختيار مخابئي بحيث إن "**ماما**" كانت دائما تَعْثُرُ عليها، وإذ ذاك كانت تشعرني بذلك، بأن تأخذ النقود التي أودعتها، وتضع بدلا منها مبلغا أكبر، من عملات أخرى مخالفة!.. وكنت أشعر من ذلك بخجل بالغ، فأضع كنزي الصغير في صندوق النفقات العامة، (فإنها لم تكن تغفل قط عن أن تنفقه على ثياب أو أشياء أخرى لي، كسيف ذي مقبض فضي، أو ساعة، أو أي شيء من هذا القبيل)!

وإذ أيقنت من أنني لن أُفْلِحَ في الادخار، وأن ما أدخره لن يكون -بعد ذلك- ذا نفع يذكر لها، شعرت أخيرا بأنه لم يَعد ثمة ما يُعْمَلُ إزاء النكبة التي كنت أخشاها، اللهم إلا إن أحصل على منصب يمكنني من أن أعولها بنفسي، بمجرد أن تكف عن إمدادي بالمال، وبمجرد أن تجد نفسها في فاقة!.. ووضعت خططي على أساس ميولي الخاصة -لسوء الحظ- فاصررت في غباء على أن أنشد نجاحا في الموسيقى، إذ أحسست بأنْغَامٍ وألحان تتصاعد في رأسي، فظننت أنني مستطيع -بمجرد أن أصبح في مركز يمكنني من استغلالها- أن أغدو شهيرا، وأن أصبح "**أورفيه**"(١) حديثا، لا تَخْفقُ أنغامه في اجتذاب فضة "**بيرو**"(٢) بأسرها!.. ولما كنت قد بدأت إذ ذاك أقرأ "**النوتة**" بإتقان كبير فإن المسألة أصبحت متمثلة في: كيف أستطيع أن أتعلم التلحين؟.. وكانت الصعوبة هي أن أعثر على من يعلمني؛ لأنني لم أكن آمل أن أتمكن من أن أعلم نفسي بمساعدة كتاب "**رامو**" -الذي كنت أعتز به- فحسب.. ولم يكن في "**سافوا**" -منذ رحيل "**لوميتر**"- امرؤ على دراية بأي شيء عن تناسق النغم!

وهنا يتراءى مظهر آخر من مظاهر التناقض التي تحفل بها حياتي، والتي كثيرا ما أفضت بي إلى أن أَحِيدَ عن غايتي، حتى وأنا أظن أنني أسير إليها صادقا: فإن "**فينتور**" كان قد تحدث إلي كثيرا عن الراهب "**بلانشار**"، أستاذه في التلحين.. وكان رجلا قديرا، عظيم الموهبة، كان إذ ذاك أستاذا للموسيقى في كاتدرائية "**بيزانسون**"، وهو يَشْغَلُ اليوم عين المنصب في كنيسة "**فرساي**". وقلت لنفسي: إنني خليق بالذهاب إلى "**بيزانسون**" لأتلقى دراسة على الأب "**بلانشار**"، وقد بدت لي هذه الفكرة معقولة، حتى إنني سعيت إلى أن أحمل "**ماما**" على أن تراها كذلك. فإذا بها تعمل على

---

(١) "أورفيه" هو "أورفيوس"، الشاعر والموسيقي الإغريقي الذي ورد ذكره في الأساطير على أنه ابن "أبو للو"، ويعزى إليه أنه أيقظ الربة "هاديس" من الموت بموسيقاه العذبة وأغانيه الساحرة. وقد استجابت له الآلهة على شريطة أن يسير أمام "هاديس" دون أن يلتفت خلفه لينظر إليها، ولكنه لم يستطع أن يحافظ على وعده، فعادت إلى موتها. وقد نسبت إليه عقيدة دينية تصوفية، من أهم معالمها الإيمان بحياة جديدة بعد الموت.

(٢) "بيرو" إحدى جمهوريات أمريكا الجنوبية، وقد اشتهرت بأنها غنية بمناجم الفضة وبعض المعادن الأخرى.

إعداد متاعي البسيط، وقد فعلت ذلك بالإسراف الذي كانت تلجأ إليه في كل شيء. وهكذا.. بينما كنت أهدف دائما إلى تَفَادِي إفلاسها، وإلى أن أصلح في المستقبل نتائج إسرافها، إذا بي أبدأ - في نفس اللحظة- بتكبيدها ثمانمائة فرنك!.. فعجَّلْتُبخرابها لكي أهيئ نفسي لعلاج حالها! ومهما تكن الحماقة التي انطوى عليها هذا التصرف فإن الوهم كان بأكمله راجعا إلي، وإليها هي الأخرى. فقد أقنع كل منا الآخر، فكنت من ناحيتي مقتنعا بأنني أقوم بعمل نافع من أجلها، وكانت هي مقتنعة بأنني أقوم بعمل نافع من أجل نفسي!

وكنت أُعَوِّلُ على أنني سأجد "**فينتور**" باقيا في "**أنيسي**"، فأحصل منه على خطاب إلى الأب "**بلانشار**". ولكنه لم يكن هناك، وكان علي أن أقنع -من الدراسة كلها- بقداس من أربعة أجزاء، من تلحينه، كان قد تركه لي. وبهذه الشفاعة ذهبت إلى "**بيزانسون**"، مارا بـ"**جنيف**" -حيث زُرْتُ أهلي- وبـ"**ليون**"، حيث زرت أبي الذي تلقاني كالمعتاد، وتكفل بأن يرسل في أثري حقيبتي لكنها لم تصل إلا بعدي، لأنني كنت مسافرا على جواد.. ووصلت إلى "**بيزانسون**"، فأحسن الأب "**بلانشار**" استقبالي، ووعدني بأن يزودني بدروسه، وقَدَّمَ إلي خدماته. وفيما نحن على أهبة البدء إذا بي أعلم من أبي بأن حقيبتي قد ضبطت وصودرت في "**روس**"، وهي نقطة للجمارك الفرنسية على الحدود السويسرية. وفي غمرة انزعاجي لهذا النبأ، انتفعتُ بالأصدقاء الذين اكتسبتهم في "**بيزانسون**" لمعرفة السبب الدأعِي لهذه المصادرة، إذ لم أتصور أيَّ مبرر لها، بحكم اطمئناني إلى أنني لم أكن أمتلك شيئا من المهربات. وأخيرا عرفت السبب، ولابد لي من ذكره لأنه أمر عجيب! ذلك أنني كنت قد التقيت في "**شامبييري**" بكهل من "**ليون**" يدعى "**ديفيفيييه**"، كان قد عمل في إدارة الجوازات، في عهد الوصاية، وقد وفد ليعمل في المساحة، لحاجته إلى عمل. وكان قد عاش في المجتمعات الراقية، وأوتي مواهب وقدرا من المعرفة، واللطف، والأدب، كما كان ملما بالموسيقى. ولما كنت أعمل في حجرة واحدة معه فإن كلا منا مال إلى إيثار الآخر، وسط الدببة المسعورة التي كانت تحيط بنا.. وكان له مراسلون في "**باريس**" يوافونه بتلك التفاهات الرخيصة، وتلك المطبوعات اليومية التي تنتشر دون أن يدري أحد كيف تنتشر، وتموت دون أن يدري أحد كيف تموت، ثم لا يعود أحد إلى التفكير فيها بعد أن تغيب عن الذكر. ولما كنت أصطحبه معي أحيانا لتناول الغداء لدى "**ماما**"، فإنه كان يعاملني بقدر كبير من الاحترام. ولكي يجعل نفسه حلو المعشر، كان يحاول أن يحملني على أن أُحِبَّ هذه الصحفَ التافهة التي كنت أنفر منها دائما إلى درجة أنني لم أقْرأْ من تلقاء نفسي شيئا منها في حياتي. ولسوء حظي أن إحدى هذه الوريقات اللعينة، ظلت في جيب صدر إحدى السترات الجديدة التي لم أكن قد ارتديتها سوى مرتين أو ثلاثا لكي لا يتعرض لها رجال الجمارك. وكانت تلك الوريقة تضم تحريفا "**يانسينيا**" (١) غثا لمشهد جميل لمسرحية راسين "**ميثريدات**".. ولم أكن قد قرأت من هذا التحريف سوى عشرة أبيات شعرية، ثم تركتها، ونسيتها في جيبي. وكان هذا ما أدى إلى مصادرة أمتعتي، فإن رجال الجمارك الذين أشرفوا على تفتيش حقيبتي بنوا على هذه الوريقة قضية كبيرة، زاعمين أنها اجتلبت من "**جنيف**" لتطبع وتوزع في "**فرنسا**"، وشنوا حملة من الطعن والقدح المبنيين على التقوى، ضد "أعداء الله والكنيسة". ومن المدح والثناء على أولئك الذين استطاعوا بيقظتهم وتقواهم أن يحولوا دون تنفيذ هذا المشروع الجهنمي!.. ولابد أنهم وجدوا أن أقمصتي كانت هي الأخرى تَنْضَحُ بالزندقة، إذ إنهم -استنادا إلى هذه الوريقة الرهيبة- صادروا كل

---

(١) اليانسينية مذهب ديني ابتدعه قس هولندي يدعى "كورنيليوس يانسين" في القرن السابع عشر، ونادى فيه بأن تعاليم القديس أو غسطين بشأن الغفران وحرية الإرادة والقدر تتعارض مع آراء رجال الدين المحدثين، لا سيما الجيزويت (اليسوعيين). وقد اشتد الصراع بين أتباع "يانسين" والجيزويت في فرنسا، ومن هذا ندرك الأهمية التي أضفاها موظفو الجمارك على القصيدة التي وجدت لدى "روسو".

شيء، فلم أتلق أبدا أي نبأ أو بيان عن حقيبتي البائسة! ولقد طلب الموظفون الذين كتبت إليهم أوسطهم في الأمر، معلومات وبيانات، وشهادات، ومذكرات، بلغ من كثرتها أنني بعد أن تخبطت ألف مرة في هذا التيه، اضطررت إلى التخلي عن كل شيء! وإني لنادم حقا على عدم الاحتفاظ بالدعوى التي وضعها موظفو "**روسو**"، فقد كانت خليقة بأن تبرز وأن تكون موضع امتياز بين الوثائق التي ستصحب هذا المؤلف.

وجعلتني هذه الخَسَارَةُ أبادر بالعودة إلى "**شامبيري**" دون أن أكون قد أبرمت شيئا مع الأب "**بلانشار**". وبعد أن وزنت كل الأمور، وتبينت أن النحس يلاحقني في كل مشروعاتي، عقدت العزم على أن أنصرف بكل جوارحي إلى "**ماما**" وحدها، وأن أشاركها حظها، وألا أعود إلى الاهتمام غير المجدي بمستقبل لم أكن أملك إزاءه شيئا. وقد تلقتني "**ماما**" وكأنني جَلَبْتُ إليها كنوزا، وزودت صوان ملابسي الصغير شيئا فشيئا، وسرعان ما تنوسي تقريبا سوء طالعي الذي كان فادحا سواء لي أو لها!

ومع أن هذا النحس قد هَدَأَ من حدة مشروعاتي الموسيقية إلا أنني لم أتخل قط عن أن أدرس كتاب "**رامو**" باستمرار، وانتهيت بفضل الجهد الشاق إلى أن أستوعبه، وإلى أن أقوم ببضع محاولات صغيرة في التلحين، شَجَّعَنِي نجاحها. وكان الكونت "**دي بيلجارد**" -ابن مركيز "**دانترمون**"- قد عاد من "**درسدن**" بعد موت الملك "**أوجيست**". وكان قد أقام ردحا طويلا في "**باريس**"، وأحب الموسيقى حبا جما، وشغف بمؤلفات "**رامو**" بوجه خاص. وكان أخوه الكونت "**دي نانجي**" يعزف على الكمان، والسيدة الكونته "**ديلاتور**" -شقيقتهما- تجيد الغناء بعض الشيء. فأدى كل هذا إلى أن أصبحت الموسيقى هي الهواية الشائعة في "**شامبيري**"، وأُنْشِئَ نوع من الفرقة الموسيقية العامة. وقد أرادوا في بادئ الأمر منحي إدارة هذه الفرقة، ولكن سَرْعَانَ ما تجلى أنها فوق طاقتي، فاتخذت تدبيرات أخرى. ولم أتخل عن تقديم بضع قطع صغيرة من تلحيني، بينها أغنية أصابت رضاء كثيرا. ولم تكن هذه الأغنية قطعة بديعة التلحين ولكنها كانت مليئة بألوان جديدة من الغناء، وبمؤثرات ما كان أحد يرتقبها مني. ولم يستطع هَؤُلاءُ السادةُ أن يُصدِّقُوا أنني -وقد كنت أسيء قراءة المقطوعات الموسيقية- كنت في وضع يمكنني من تأليف ألحان مقبولة، فلم يرتابوا قط في أنني انتحلت لنفسي فخر عمل سواي!.. ولكي يتحروا الأمر أقبل السيد "**دي نانجي**" ذات صباح ليبحث عني، ومعه إحدى أغاني "**كليرامبو**"، وقد عدل فيها -كما قال لي- لكي تلائم صوته، غير أنه كان من الضروري وضع أنغام أخرى للترنيم الثاني، إذ إن التعديل جعل من غير الممكن عَزْفَ الأنغام التي وضعها "**كليرامبو**" على الكمان الكبيرة. وأجبته بأن هذا عمل ضخم، لا يمكن أداؤه في التو، فظن أنني أبحث عن مهرب، وألح علي في أن أضع له -على الأقل- أنغام ترنيم إلقائي ففعلت. وقد أسأت في ذلك بلا شك؛ لأنه لابد لي، لكي أجيد أداء أي أمر، أن أكون على سجيتي وحريتي.. بيد أنني وضَعْتُ ما طُلِبَ مني وفقًا للقواعد على الأقل، ولما كان السيد حاضرا، فإنه لم يستطع أن يرتاب في أنني ملم بأصول التلحين. ومن ثم فإنني لم أفْقِدْ تلاميذي، ولكنني ازددت فُتُورا -بعض الشيء- نحو الموسيقى، إذ رأيت القوم قد ألفوا فرقة موسيقية وأهملوني في تأليفها!

*****

وحوالي ذلك الوقت، عقد الصلح وساد السلام، وعبر الجيش الفرنسي الجبال عائدا إلى بلاده..

وجاء عدد من الضباط لزيارة "**ماما**"، كان بينهم السيد الكونت "**لوتريك**" -قائد كتيبة "**أورليان**"، والمندوب المفوض في "**جنيف**" بعد ذلك، وإذ سَمِعَها تتحدث عني أبدى اهتماما كبيرا بي، ووعدني بأمور كثيرة، لم يتذكرها البتة إلا في العام الأخير من حياته، عندما لم أكن بحاجة إليه!.. كما مر بـ"**شامبيري**" -في الوقت ذاته- مركيز "**دي سنيكتير**" الشاب، الذي كان أبوه إذ ذاك سفيرا لدى "**تورين**"، فتناول الغداء في دار السيدة "**دي مانتون**"، وكنت أنا الآخر أتغدى هناك في ذلك اليوم. وبعد الغداء أثار المركيز ذكْرَ الموسيقى، وكان وَاسِعَ الدِّراية بها. وكانت أوبرا "**جيفته**" حَديثَةَ العهد إذ ذاك، فتكلم عنها، وجيء إليه بها، فإذا به يجعلني أرتجف، إذ اقترح أن نؤديها معا.. وما إن فتح الكتاب، حتى وقع بصره على هذه المقطوعة الشهيرة، التي يؤديها فريقان من المنشدين "**الكورس**":

"إن الأرض، والجحيم، بل والسماء ذاتها لترتجف جميعا أمام الرب"

وسألني: "كم دوَرْاً تريد أن تؤدي؟".. فأجبت: "سآخذ لنفسي هذه الأدوار الستة".. ولم أكن قد اعتدت بعد هذه النزوة الفرنسية، وإذا كنت قد أديت الأدوار -مُرْتبِكاً في بعض الأحيان- إلا أنني لم أدر إطلاقا كيف يملك رجل واحد أن يؤدي ستة أدوار -بل دورين- في وقت واحد! وما كبدني شيء من المشقة، في ممارسة الموسيقى، أكثر من القفز ببساطة من دور إلى آخر، موجها عيني إلى فصل بأكمله في آن واحد. ولابد أن السيد "**دي سنيكتير**" انساق -من جراء الطريقة التي أديت بها هذا المشروع- إلى الظن بأنني لم أكن على معرفة بالموسيقى. ولعله أراد أن يَتَحَرَّى صِحَّةَ ارتيابه، فاقترح علي أن أكتب "**نوتة**" أغنية كان يريد أن يقدمها إلى الآنسة "**دي مانتون**"، فلم أملك أن أرفض.. وراح يترنم بالأغنية وأنا أكتب ودون أن أسأله أن يكثر من التكرار. ثم قرأها بعد ذلك، فوجدها -كما كانت حقيقة- صحيحة التسجيل. وكان قد لاحظ ارتباكي، فطاب له أن يُطْنِبَ في امتداح توفيقي البسيط. والواقع أنني كنت على معرفة طيبة جدا بالموسيقى، ولم يكن ينقصني سوى سرعة الاستيعاب، من أول نظرة الْقَيْهاً، وهو الأمر الذي لم أملكه، والذي لا سبيل إلى اكتسابه في الموسيقى إلا بالمران الدائب.. ومهما يكن الأمر، فإنني تقبلت العناية الأمينة التي بذلها ليمحو -من أذهان الآخرين، ومن ذهني- الحياء الذي عانيته. ولقد وجدتني مُنْسَاقاً -عدة مرات بعد ذلك- إلى أن أذكره بهذه القصة، عندما كنت ألتقي به في عدة دور بـ"**باريس**"، بعد اثني عشر أو خمسة عشر عاما، لأريه أنني كنت أحتفظ بالذكرى. ولكنه كان قد فَقَدَ بصره منذ ذلك الحين، فَخَشِيتُ أن أجدد شجونه إذ أذكره بالنفع الذي كان يجنيه من هذا البصر فيما مضى، وأمسكت لساني!

*****

وأصل الآن إلى اللحظة التي بدأت تربط وجودي الماضي بوجودي الراهن، فإن بعض الصداقات التي امتدت منذ ذلك الوقت حتى وقتنا الحاضر، أصبحت جد غالية لدي. وإنها لتحملني كثيرا على أن أتحسر على ما كنت أَسْعَدُ به من خمول الذكر، حين كان أولئك الذين يعلنون أنهم أصدقائي، أصدقاء بالفعل، يحبونني لذاتي، بنية طيبة، لا عن زهو بأن يكونوا مرتبطين برجل نابه الذكر، أو عن رغبة خفية في أن يجدوا مزيدا من الفُرص للإساءة إليه!.. وإلى هذه الفترة أرجع معرفتي الأولى

بصديقي القديم "**جوفكور**" الذي ظل دائما صديقا لي، برغم جهود الآخرين لإبعاده عني.. ظل دائما؟.. لا، مع الأسف!.. فلقد قُدِّرَ لي أن أخسره. ولكنه لم يكف عن حبي إلا حين كف عن الحياة، ولم تنته صداقتنا إلا بانتهاء عمره. ولقد كان السيد "**دي جوفكور**" من أرق وأَحَبِّ الرجال الذين وجدوا على ظهر البسيطة، وما كان من الممكن لأحد أن يراه دون أن يحبه، ولا أن يعيش معه بدون أن يتعلق به في ولاء.. أبدا لم أر في حياتي مَلاَمحَ أكثر صراحة أو رقة.. ولا وجها أكثر وقارا، أو أكثر إظهارا للحس المرهف والذكاء، أو أكثر إيحاء بالثقة!.. ومهما يكن تحفظ المرء، فقد كان من المستحيل عليه أن يتمالك نفسه -منذ أول نظرة- من أن يصبح على ألفة معه، وكأنه عرفه منذ عشرين عاما!.. حتى أنا -الذي كان يجد مشقة في أن يكون على سَجِيَّتِه مع الأغراب- اطمأننت إليه منذ اللحظة الأولى. كان سلوكه، ولهجته، وأقواله، تتمشى مجتمعة مع ملامحه. وكان رنين صوته جليا، مليئا، واضح الجرس. كان صوتا عذبا، جهوريا، قويا رنانا، يملأ الأذن ويرن في الفؤاد. وما كان في الوسع أن يوجد مرح أكثر اعتدالا، وأكثر لطفا من مرحه.. ولا كياسة أصدق وأبسط من سذاجته، ولا مواهب أكثر تأصلا ونموا وإِرْهَافاً من مواهبه!.. أضف إلى هذا قلبا ودودا، مسرفا بعض الشيء في حبه للناس جميعا، وشخصية فعالة للخير دون تروٍ!.. وكان ميالا لخدمة الأصدقاء في حمية، أو لعله كان يسعى لاكتساب صداقة أولئك الذين يستطيع أن يَخْدِمَهُمْ، وهو يدرك أنه إنما يغدو أحذق أداء لشؤونه النزيهة، عندما يخدم بحرارة شؤون الغير!

وكان "**جوفكور**" ابن ساعاتي بسيط وكان -هو الآخر- ساعاتيا، ولكن شكله وكفاءته قاداه إلى جو آخر لم يتلكأ في أن يَنْفُذَ إليه، فقد تعرف إلى السيد "**ديلاكلوسير**" -مندوب "**فرنسا**" المقيم في "**جنيف**"- الذي أولاه وده، فأحرز له صلات تعارف أخرى في "**باريس**"، أجدت عليه نفعا، واستطاع بنفوذ أصحابها أن يظفر بحق إمداد "**فاليه**" بالملح، مما عاد عليه بدخل قَدْرُه عشرون ألف ليرة. وقد انتهت به ثروته -وهي جد كافية- إلى هذا الحد في علاقته بالرجال. أما من ناحية النساء، فقد كان يجد عناء. كان عليه أن يختار، وأن يفعل ما يشاء. وكان من أندر وأشرف ما امتاز به أنه في علاقاته بالأشخاص -من كافة الرتب والدرجات- كان مَحْبُوباً من الجميع، مَرْجُواً من الناس طرا، دون أن يتعرض لحسد أو بغضاء أي شخص. وإني لأعتقد أنه مات دون أن يرى في حياته عدوا واحدا!.. كم كان سعيدا!.. وكان يذهب في كل عام إلى حمامات "**ايكس**"، حيث يجتمع خيرة الناس من البلدان المجاورة. وإذ كان على ود مع عليه القوم في "**سافوا**"، فقد جاء من "**ايكس**" إلى "**شامبيري**" لزيارة الكونت "**دي بيلجارد**" وأبيه المركيز "**دانترمون**".. وفي دارهما عرفته "**ماما**" وعَرَّفَتْنِي به. وقد تجددت هذه المعرفة -التي لم يبد إذ ذاك أن من المقدر لها أن تنتهي إلى شيء. والتي انقطعت عدة سنوات، بعد ذلك- في مناسبة سأرويها، وأصبحت ودا وثيقا صادقا. وهذا كاف لأن يبرر حديثي عن صَدِيقٍ كنتُ وَثِيقَ الارتباط به. وحتى إذا لم يكن ثمة مصلحة شخصية في تذكره، فإنه كان رجلا حبيبا، ولد سعيدا، حتى إنني أعتقد دائما أن ذكراه جديرة بأن تَبْقَى لتكون فخرا للجنس البشري. ومن المحقق أنه كانت لهذا الرجل الساحر أخطاؤه كغيره من البشر، وكما سيتجلى فيما بعد. ولكن، لعله كان يغدو أقل استئثارا بالمحبة إذا لم تكن له أخطاء. فقد كان من الضروري -لجعله جَدِيراً بالاهتمام إلى أقصى ما كان ممكنا- أن يوجد في مسلكه ما يستحق الصفح والغفران!

وهناك علاقة أخرى تمت إلى ذلك العهد، ولم تفتر بعد، بل إنها لاتزال توعز إلي بالأمل في الهناء الدنيوي الذي يتعذر موته في قلب الإنسان. فلقد شغف السيد "**دي كونزييه**" -وهو سيد من أبناء

"**سافو**"، كان إذ ذاك شابا لطيفا- بتعلم الموسيقى، أو -بالأحرى- بالتعرف إلى ذلك الذي يَتَوَلّى تدريسها. ولقد أوتي السيد "**دي كونزييه**" ذكاء وميلا إلى الصداقات الجميلة، وكان يقرن هذا بلطف الخلق؛ مما جعله لين الجانب إلى حد كبير، مثلما كنت أنا الآخر -إلى حد كبير كذلك- بالنسبة لمن أجدهم على هذه الشاكلة. وسرعان ما توثقت صلتنا (١)، فإن بُذُورَ الأدب والفلسفة التي كانت قد بدأت تختمر في رأسي، والتي لم تكن ترتقب سوى شيء من الرعاية والتشجيع لتترعرع لتوها وجدت هذه الرعاية والتشجيع لدى السيد "**دي كونزاييه**"، إذ كان على قَدْرٍ من الميل إلى الموسيقى، فكان في هذا خير كبير لي، لأن ساعات الدرس راحت تنقضي في كافة الأشياء عدا التدريب على الألحان. وكنا نتناول الفطور معا، ونتجاذب الحديث، ونقرأ بعض المطبوعات الحديثة، ولا نَفُوُه بكلمة واحدة في الموسيقى. وكانت الرسائل المتبادلة بين "**فولتير**" وولي عهد "**بروسيا**" قد احَدَثَتْ ضجة في ذلك الحين، فكنا كثيرا ما نتكلم عن هذين الرجلين الشهيرين، اللذين ارتقى أحدهما العرش بعد ذلك بقليل، في حين كان الآخر مَوْضِعَ تشهير -بقدر ما هو الآن موضع تمجيد- مما كان يجعلنا نرثي في إخلاص لسوء الطالع الذي بدا أنه كان يلاحقه، والذي كثيرا ما يكون نَصيبَ ذَوِي المواهب العظيمة. وكان الأمير البروسي قد حظي بقسط من السعادة في شبابه، أما "**فولتير**" فكان يلوح وكأنه خلق لكي لا يسعد البتة. وكان الاهتمام الذي تولانا نحو كل منهما قد امتد إلى كل ما كان يتعلق به، فلم يكن يفوتنا شيء مما كتبه "**فولتير**". وقد ألهمتني المتعة التي حظيت بها من هذه المطالعات، بالرغبة في أن أتعلم الكتابة البليغة، وأن أحاول أن أقلد ما لهذا المؤلف من أسلوب بديع، كُنْتُ مفتونا به. ولقد ظهر بعد ذلك بقليل كتابه "**الرسائل الفلسفية**"، ومع أنه لم يكن أفضل مؤلفاته إلا أنه كان أعظم ما اجتذبني إلى الدرس، ومنذ ولد في هذا الميل لم يقدر له أن يَخْبُو أو يَفْتُر!

على أن الوقت لم يكن قد حان بعد كي أتفرغ للأدب تفرغا تاما، إذ كانت لاتزال لدي بقية من النُّزَقِ، والرغبة في الغُدُوِّ والرواح، التي كانت قد هدأت وإن لم تكن قد خمدت، والتي وجدت ما يغذيها في سياق العيش في بيت مدام "**دي فاران**".. فقد كانت الحياة هناك أكثر صَخَباً من أن تلائم مزاجي الانعزالي، إذ إن سيل الأغراب الذين كانوا يتدفقون عليها من كافة الأرجاء، واقتناعي بأنهم لم يكونوا يسعون إلا إلى التغْرِير بها -كل بطريقته- جعلا حياتي في البيت عذابا منتظما!.. فمنذ أن خلفت "**كلود آنيه**" في الظفر بثقة مولاته، رحت أتعقب عن كَثَبٍ تطور شؤونها، وأرى تدهورها الذي كان يزعجني. ولقد أطلعتها، وتوسلت إليها، وضغطت عليها، ورحت أناشدها مائة مرة، ولكن دون ما جدوى على الإطلاق!.. لقد ارتميت على قدميها، وعرضت عليها -باقوى ما وسعني- النكبة التي كانت تتهددها، ورحت أنصحها في إلحاح بأن تحد من نفقاتها، وأن تبدأ بتطبيق ذلك علي أنا، وأن تعاني قليلا الحرمان وهي بعد لا تزال شابة بدلا من أن تُضَاعِفَ ديونها ودائنيها باستمرار، مما يعرضها لمضايقاتهم وللفاقة أيام شيخوختها.. ومَسَّ صِدْقُ تحمسي عواطفها، فجارتني في شعوري، ووعدتني بأجمل ما في الدنيا من وعود. ولكن كل شيء كان يغدو منسيا، بمجرد أن يصل أحد الأفاقين! وبعد ألف دليل على عدم جدوى إرشاداتي، ما الذي تراه قد بقي لي -كي أفعله- سوى أن أغض بصري عن الشر الذي لم أكن أملك دفعه؟ لقد رحت أنأى عن البيت الذي عجزت عن حراسة

---

(١) قدر لي أن أراه بعد ذلك، وأن أجده قد تغير تغيرا شاملا. فيا للسيد "شوازيل" من ساحر قديرا.. فما قدر لأحد من معارفي القدامى أن ينجو من مقدرته على التبديل!

هذه الإضافة وجدت في الأصول الأولى المكتوبة بخط "روسو"، ولكن لا أثر لها في طبعة "جنيف".

بابه، وأخذت أقوم برحلات قصيرة إلى "**ليون**" و"**جنيف**"، شغلت بالي عن همي الكظيم، بينما كانت -في الوقت ذاته- تزيد من عبئه، نظرا لنفقاتي! .. وبوسعي أن أقسم بأنني كنت خَلِيقاً بأن أتحملَ باغتباط كل تضييق، لو أن "**ماما**" كانت تنتفع حقا من ذلك الاقتصاد.. ولكنني كنت مُوقنا من أن ما كنت أحرم نفسي منه، كان ينتقل إلى الأفاقين، ومن ثم فإنني كنت أسيء استغلال سخائها لكي أقاسمهم ما كانت تغدقه عليهم.. وكالكلب العائد من المذبح، كنت أستولي على قَضْمَةٍ من القطعة التي لم أستطع أن أنقذها من الكلاب الأخرى!

ولم تكن تعوزني الحجج لتبرير كل هذه الرحلات، وكانت "**ماما**" وحدها تُغَذِّيني بهذه الحجج، إذ كان لديها الكثير من الاتصالات، والمباحثات، والشؤون، والمهام التي تحتاج إلى شخص مَوثُوقٍ به. ولم يكن عليها سوى أن توفدني، كما أنني لم أكن أرجو سوى أن أذهب.. ولم تُخْفِقْ هذه الحال في تهيئة حياة مليئة بالترحال. ولقد هيأت لي هذه الرحلات فرص عقد صلات تعارف طيبة، كانت -فيما بعد- مستحبة ونافعة. ومن هذه الصلات التي عقدتها في "**ليون**" معرفتي بالسيد "**بريشون**" -وهي المعرفة التي ألوم نفسي لأنني لم أعمل على تنميتها بدرجة كافية، برغم ما كان السيد قد أبداه لي من طيبة وكرم- ثم تعرفي إلى "**باريسو**" الطيب، الذي سأتحدث عنه في حينه.. وفي "**جرينوبل**" تعرفت إلى السيدة "**دي ديبْبان**"، والسيدة حرم رئيس "**البـاردونانش**"(١)، وكانت امرأة جَمَّةَ الذكاءِ، على استعداد لأن تؤثرني بودها لو أنني أوتيت مزيدا من الفرص لزيارتها.. وفي "**جنيف**" تعرفت إلى السيد "**ديلا كلوسير**" -مندوب "**فرنسا**" المقيم- الذي حدثني في أحيان كثيرة عن أمي، التي كانت ماتزال تحتل مكانةً في فؤاده، برغم الموت والزمن.. كما تعرفت إلى السيدين "**باربيو**"، وكان الأب منهما -وقد اعتاد أن يناديني بابنه الأصغر- حُلْوَ المَعْشَرِ، ومن أجدر من عرفتهم بالاحترام. وقد قدر لهذين المواطنين أن ينحازا إلى فريقين متعارضين -أثناء اضطرابات الجمهورية- فكان الابن في صُفُوفِ "**البورجوازيين**"، بينما كان الأب في صفوف الطبقة الحاكمة. وعندما حمل كل من الفريقين السلاح ضد الآخر -في سنة ١٧٣٧- كنت في "**جنيف**"، فَقُدِّرَ لي أن أرى الأب والابن يخْرُجَانِ مسلحين من بيت واحد، أحدهما ليذهب إلى دار محافظة المدينة، والآخر ليذهب إلى مركز قيادته، وهما موقنان من أنهما لن يلبثا أن يجدا نفسيهما -بعد ساعتين- وجها لوجه، معرضين لأن يقتل كل منهما الآخر! .. ولقد تَرَكَ هذا المنظر الرهيب طابعا عميقا في نفسي، حتى إنني أقسمت ألا أشترك قط في أية حرب أهلية، وألا أذود بالسلاح عن الحرية -في داخل البلاد- سواء بنفسي أو بتحبيذي، إذا ما قدر لي أن أمارس حقوقي كمواطن. وإني لأشهد بأنني وفيت بهذا العهد في مناسبة عسيرة، ولسوف يتبين -أو هكذا أظن، على الأقل- أن هذا الاعتدال كان ذا فوائد جمة.

على أني لم أكن قد بلغت -بعد- هذا الفوران الأول للوطنية، الذي أثارته "**جنيف**" -بتسلحها- في فؤادي. وللمرء أن يحكم على مدى بعدي من ذلك على ضوء واقعة خطيرة أثرت علي، وقد نسيت أن أذكرها في مكانها، ويجب ألا أغفلها: ذلك أن خالي "**برنار**" كان قد انتقل منذ سنوات عديدة إلى "**كارولينا**"(٢) لإنشاء مدينة "**تشارلستون**"، التي وضع تصميمها. ومالبث أن مات بعد

---

(١) BARDONANCHE (٢) الظاهر أن "روسو" يقصد "كارولينا الجنوبية"، وهي إحدى ولايات أمريكا الشمالية القائمة على الساحل الجنوبي الأطلسي. وتعتبر "تشارلستون" من أكبر مدنها.

ذلك بقليل. كذلك مات ابن خالي المسكين، في خدمة ملك "**بروسيا**". وهكذا فقدت عمتي ابنها وزوجها في آن واحد تقريبا، فادى هذان المصابان إلى إذكاء ودها لأقرب قريب بَقِيَ لها، وهو أنا.. فكنت إذا ما ذهبت إلى "**جنيف**" أَنزِلُ لديها، وكنت أَتَسلَّى بأن أنبش الكتب والأوراق التي تركهَا خالي، واقلب صَفَحَاتِها. وقد وجدت كثيرا من الأشياء العجيبة، من بينها أوراق ما كان أحد ليحدس وجودها يقينا. وكانت عمتي –التي لم تعلق أهمية تذكر على تلك الأوراق– على استعداد لأن تدعني آخذها جميعا، لو انني شئت ذلك. على أنني قَنَعْتُ بكتابين أو ثلاثة، تحمل تعليقات وشَرْحاً بخط جدي "**برنار**" القس، ومنها مؤلفات "**روهو**" اليتيمة (١)، وقد طبعت في مجلد حجم "ربع القطع" (٢)، وملئت هَوَامِشُهَا بملاحظات رائعة، حببت إليّ العلوم الرياضية. ولقد بقي هذا الكتاب بين كتب مدام "**دي فاران**"، وإني لأشعر بالحزن دائما لأنني لم أحتفظ به. وقد أَضَفْتُ إلى هذه الكتب خمسا أو ستا من المذكرات المخطوطة، وواحدة مطبوعة هي المذكرة الشهيرة التي كتبها "**ميشيلي دوكريه**"، وكان رجلا عظيم العبقرية، عالما متنورا، ولكنه كثير الشَّطَطِ في آرائه، فلقي معاملة سيئة من حكام "**جنيف**". وقد مات مؤخرا في قلعة "**اربيرج**"، حيث ظل سجينا أعواما طويلة، لأنه –على ما قيل– اشترك في مؤامرة "**بيرن**"!

وكانت هذه المذكرة نَقْداً رصينا عادلا لتلك الخطة الكبيرة، والسخيفة، التي وضعت للتحصينات، والتي حقق جزءا منها في "**جنيف**"، وقد كانت أضحوكة كبرى لدى الخبراء الذين لم يدركوا ما كان للمجلس (٣) من غاية سرية من وراء تنفيذ هذا المشروع الهائل. ولما كان السيد "**ميشيلي**" قد أُقْصِيَ عن "هيئة التحصينات" لأنه عَابَ المشروع، فقد اعْتَقَدَ أن بوسعه كعضو من "المائتين" (٤) –وكمواطن كذلك– أن يعلن رأيه بمزيد من الإسهاب، وهذا ما فعله في مذكرته هذه،، التي أقدم –في غير حكمة– على طبعها، ولكنه لم ينشرها، لأنه لم يطبع منها سوى عدد محدود من النسخ، أرسله إلى "المائتين".. ولكن هذه النسخ صودرت جميعا في البريد، بأمر من المجلس الاستشاري الصغير (٥). ولقد وَجَدْتُ هذه المذكرة بين أوراق خالي، مع الرد الذي عُهِدَ إليه بوضعه، فأخذت كلا منهما. وكنت قد قمت بهذه الرحلة عقب انفصالي عن "**المساحة**" بقليل، ولما أزل على بعض الارتباط بالمستشار "**كوتشيللي**"، الذي كان رئيسا لها. وقد حدث –بعد وقت قصير– أن رجاني مدير الجمارك أن أقوم بدور الإشبين لطفله. وكانت السيدة "**دي كوتشيللي**" هي الإشبينة، فأدار هذا التكريم رأسي، وحاولت –وأنا مزهو بأن أغدو في مكانة جد قريبة من مكانة السيد المستشار– أن أقوم بعمل ذي قيمة، لأبدو جَدِيراً بمثل هذا الشرف العظيم.. وانسياقا وراء هذه الفكرة لم أر أفضل من أن أطلعه على مذكرتي المطبوعة التي ألفها السيد "**ميشيلي**"، والتي كانت –في الحقيقة– تحفة نادرة، كي أبرهن له على أنني أَنْتَمِيَ إلى علية القوم في "**جنيف**"، ممن كانوا يعرفون أسرار الدولة!.. على أنني –بدافع من شيء من الحذر، لم أكن أدري مأتاه –لم أطلعه قط على رد خالي عن المذكرة، ولعل ذلك كان راجعا إلى أن الرد كان بخط اليد، وأنه لم يكن ليليق بمقام المستشار

---

(١) أي التي لم تنشر إلا بعد موت مؤلفها. (٢) يكاد يعادل ضعف حجم "كتابي" و"مطبوعات كتابي" أو يزيد قليلا في العرض.

(٣) المجلس الذي كان يضم عددا من المستشارين، ويتولى حكم "جنيف". (٤) مجلس المائتين.. يظهر أنه كان مجلسا نيابيا يضم ذوي المواهب في "جنيف"، بمثابة مجلس للنواب. (٥) مجلس الشيوخ.

سوى كل مطبوع!.. بيد أنه شعر بقيمة كبرى للوثيقة التي كنت من الغباء بحيث ائتمنته عليها، فلم يقدر لي قط أن أسترجعها أو أن أراها ثانية.. حتى إذا أيقنت من عدم جدوى جهودي رأيت أن أستغل الأمر، وأن أحول السرقة إلى هدية!.. ولست أُرَتِّبُ إطلاقا في أنه قد أحسن استغلال هذه التحفة في بلاط "**تورين**" -فقد كانت طريفة أكثر مما كانت نافعة- وأنه عني، بطريقة أو بأخرى، بالحصول على مبلغ كبير من المال كان من الطبيعي أن يزعم أنه أنفقه في الحصول عليها!.. ولما كان من أقل أحداث المستقبل احتمالا وإمكانا -لحسن الحظ- أن يقدم ملك سردينيا يوما على حصار "**جنيف**"، وإن لم يكن هذا الأمر مستحيلا، فقد ظللت دائما ألوم غروري الأحمق الذي جعلني أَكْشِفُ مواطن الضعف في استحكامات المدينة لألد أعدائها!

*****

وقضيت عامين أو ثلاثة على هذه الحال، بين الموسيقى، والحكام، والمشروعات، والرحلات.. أنتقل دائما من أمر إلى آخر، وأَنشُدُ دائما الاستقرار دون أن أدري فيم أَسْتَقِرُّ، ولكنني كنت أتجه تدريجيا إلى الدراسة، وألتقي برجال الأدب، وأسمع الأحاديث الأدبية، وأجرؤ -في بعض الأحيان- على أن أَخُوضَها أنا الآخر، مقتبسا أساليب الكتب بدلا من أن أستوعب محتوياتها! وكنت أقوم بين آن وآخر، أثناء رحلاتي إلى "**جنيف**"، بزيارات عابرة لصديقي القديم السيد "**سيمون**"، الذي أذكى كثيرا تحمسي الوليد للأدب بتزويدي بأحدث الأنباء عن "دولته"، وهي أنباء كان يأْخُذُهاَ عن "**بايبه**" أو عن "**كولوميه**". كذلك كثيرا ما كنت ألتقي في "**شامبيري**" بواحد من "**اليعاقبة**" كان أستاذا لعلوم الطبيعة، وراهبا صالحا. ولقد نسيت اسمه، ولكنه كثيرا ما كان يَقُومُ بتجارب صغيرة أثارت اهتمامي للغاية، فوددت أن أَحْذُو حذوه فأصنع المداد العاطفي(١). وللوصول إلى هذه الغاية، ملأت زجاجة إلى ما فوق منتصفها بالجير الحي، وبمادة مركبة من الزرنيخ والكبريت والماء، ثم أحكمت سدادها. وبدأ التَّفاعل في الحال -تقريبا- وبعنف شديد، فأسرعت إلى الزجاجة لأزيل سدادتها، ولكنني لم أصل في الوقت المناسب، فإذا بها تقفز في وجهي وكأنها قنبلة.. وأَبتَلَعْتُ الزرنيخ والحديد والجير، فكدت أموت! وقد مكثت أكثر من ستة أسابيع وأنا أعمى، وأدركت من ذلك أنني يجب ألا أقحم نفسي في تجارب العلوم الطبيعية، دون إلمام بالعناصر المستخدمة!

وقد ألحقت هذه المغامرة ضَرَراً بصحتي، التي كانت في انحدار محسوس منذ فترة من الزمن. ولست أدري من أين جاءني هذا الانهيار، فقد كنتُ حَسَنَ البُنْيَانِ، ولم أكن أقدم على أي إفراط، من أي نوع ومع ذلك فإنني كنت أنهار بجلاء! ولقد كنت جيد التركيب، عريض الصدر، مما كان يتيح لرئتي فراغا كافيا كي تتحركا بسهولة.. ولكنني كنت -برغم ذلك- قصير الأنفاس، وكنت أشعر بضيق، وأرسل الزفرات دون إرادة مني. ولقد أُصِبْتُ باضطراب في القلب، وأخذت أبصق دما، واستولت علي الحمى البطيئة التي لم تفارقني تماما على الإطلاق.. فكيف يقع المرء في مثل هذه الحال

---

(١) نوع من المداد يعرف باسم (المداد السري) ولعل "روسو" أسماه المداد العاطفي؛ لأنه كان يستخدم في المراسلات الغرامية، فما إن يجف حتى تبدو الورقة وكأنها خالية من الكتابة، إلى أن تعرض لحرارة اللهب فيبرز ما تحتويه!

وهو في زهرة العمر، دون أن يكون ثمة أذى داخلي على الإطلاق، ودون أن يكون قد فعل ما يقضي على صحته؟

ويقال أحيانا: إن السَّيْفَ يُبْلِي القراب. وهذه هي قصتي، فإن شهواتي قد أحيتني، وشهواتي قد أماتتني!.. وقد يقال: أية شهوات؟.. كانت توافه.. كانت أكثر أمور الدنيا انطباعا بالطابع الصبياني، ولكنها كانت تثيرني كما كان خليقا أن يثيرني الاستيلاء على **"هيلين"**(١)، أو على عرش الكون!.. وكانت النساء في مقدمة هذه المثيرات! فكانت حواسي تحتفظ بهدوئها، إذا ما ظفرت بواحدة، ولكن قلبي لم يكن يعرف الهدوء قط! كانت مستلزمات الهوى تنهشني وأنا في غمرة اللذة. وكنت قد أوتيت أما حنونا، وصديقة حبيبة، غير أنه كان لابد لي من عشيقة. وكنت أتمثل العشيقة المنشودة في مكان **"ماما"**، وأصورها لنفسي في أَلْفِ صورة ووضع، لكي أموه على نفسي!.. ولو أنني تذكرت –وأنا أعانقها– أنني إنما كنت أضم **"ماما"** بين ذراعي، لما فترت حرارة عناقي، ولكن كافة شهواتي كانت خليقة بأن تخبو، وكنت أبكي وجدا، ولا أستمتع بلذة!.. لذة؟.. أفخلق هذا الحظ ليكون من نصيب الإنسان؟.. آه، لو أنه قدر لي يوما –بل مرة واحدة في حياتي– أن أتذوق كل لذاذات الحب في أوجِ تدفقها فإني أعتقد أن كياني الهش لم يكن ليقوى على الاحتمال.. كنت قمينا بأن أموت في مكاني!

وهكذا كنت أكتوي بالحب، دون ما هدف. ولعل هذه الحال هي أشد الحالات إرهاقا!.. وكنت قلقا معذبا لسوء حال شؤون **"ماما"** المسكينة، ولتصرفاتها غير الحكيمة، التي كان مآلها أن تَقُوْدَ إلى خرابها تماما، في وقت قصير. وكان خيالي القاسي –الذي يسبق المصائب دائما– يصور لي هذه المصيبة بالذات، دون انقطاع، وبكل مداها، وبكافة نتائجها!.. فرأيت نفسي –مقدما– مضطرا إلى أن أفترق –بحكم الفاقة– عن تلك التي كَرَّسْتُ لها حياتي، والتي لم يكن بوسعي أن أستمتع بهذه الحياة، بدونها!.. وهكذا كنت دواما مضطرب النفس.. كانت الشهوات والمخاوف تنهشني بالتناوب!

وكانت الموسيقى –بالنسبة لي– شَهْوَةً أخرى، أقل عتوا ولكنها لم تكن أقل إرهاقا، بفضل التحمس الذي ارتميت به في غَمْرَتِهَا، وبفضل الدراسة الدائبة لكتب **"رامو"** المبهمة، وبفضل إصراري العنيد على الرغبة في أن أحشو بها ذاكرتي التي كانت ترفضها دائما، وبفضل الجري المستمر(٢)، وبفضل تلك المجموعات الهائلة التي كنت أراكمها، وكثيرا ما كنت أقضي ليالي بأسرها في نسخها..

ولكن، لماذا أقتصر على الشهوات الدائمة، في حين أن كل النزوات التي كانت تمر بخاطري دون انقطاع: الأهواء العابرة التي لا تمكث سوى يوم واحد، كرحلة، أو حفلة موسيقية، أو مسرحية فكهة أحب أن أشهدها.. كل هذه الأشياء التي كانت أبعدما في الدنيا عن مَسَرَّاتي وعن أعمالي، أصبحت لدي بدورها بمثابة شهوات عديدة عنيفة، كانت في جيشانها المستهجن تسبب لي أصدق ألوان العذاب!.. بل إن قِرَآءَة مصائبِ **"كليفلاند"** الخيالية –وهي القراءة التي كنت أقبل عليها في نهم، والتي كثيرا ما كنت أعجز عن الاسترسال فيها– كانت تُثِيرُ أشجاني، فيما أعتقد، أكثر مما كانت تثيرها مصائبي!

---

(١) هيلين الطروادية: كانت أجمل نساء الإغريق، وقد تزوجت من "منيلاوس" ملك أسبرطة.. ولكن باريس –أمير طروادة– اختطفها، فشن أمراء اليونان حربا على طروادة دامت عشر سنوات، وانتهت برد هيلين إلى زوجها. (٢) يقصد التنقل والترحال باستمرار.

وكان ثمة شخص من أبناء "**جنيف**" يدعى السيد "**باجيريه**"، عمل فترة في خدمة "**بطرس الأكبر**" في البلاط الروسي. وقد كان من أعظم الأوغاد، ومن أشد الحمقى الذين رأيتهم في حياتي.. وكان دائما يفكر في مشروعات تماثله حماقة، فقد كان ينثر الملايين كالمطر، ولم تكن الأصفار تكبده شيئا(١).. وإذ جاء هذا الرجل إلى "**شامبيري**" من أجل بعض قضايا كانت معروضة على مجلس الشيوخ، فقد استولى على إرادة "**ماما**"، كما كان متوقعا. وفي مقابل كنوزه من الأصفار -التي كان يُغْدِقُها بسخاء- أخذ يبتز منها تلك الدنانير البائسة، قطعة بعد قطعة!.. ولم أحبه إطلاقا، وقد أدرك هو ذلك -فما كان الأمر يوما بالمهمة العسيرة(٢)- فلم يدع نوعا من الخسة لم يستخدمه كي يتقرب إلي.. وآلى على نفسه أن يغريني بتعلم الشطرنج، برغم أنه كان لا يحُذْقُهُ!.. ولقد حاولت ذلك، بالرغم من نفسي تقريبا. وبعد أن تعلمت الحركات في غير ما اكتراث بما إذا كانت صوابا أو خطأ، إذا بتقدمي يتزايد سريعا، حتى إنني استطعت قبل نهاية الجلسة الأولى أن أرد إليه الهزيمة التي كان قد أذاقنيها في البداية!.. ولم أقنع بذلك، فقد شغفت بالشطرنج، وابتعت طاقما، كما اشتريت "**الكالابروا**"(٣)، واحْتَبَسْتُ نفسي في غرفتي، ورحت أقضي الأيام والليالي في السعي لتعلم كل الحركات الافتتاحية عن ظهر قلب، وحشو رأسي بها طوعا أو كراهية، وأنا ألعب وحيدا، دون ما هوادة ولا نهاية!.. وبعد شهرين أو ثلاثة من هذا العمل الشاق، والجهود التي تفوق الخيال، ذهبت إلى المقهى وأنا واهن، شاحب، متلبد الذهن تقريبا. وقُمْتُ بتجربة، فلعبت مرة أخرى مع السيد "**باجيريه**".. وهزمني مرة، فاثنتين، فعشرين مرة، فقد اختلطت كثير من الترتيبات المختلفة في رأسي، كما كان خيالي بَالِغَ الوهن، حتى إنني لم أعد أرى أمامي سوى سحابة غائمة!.. وفي كل مرة حاولت فيها أن أتدرب لحفظ الحركات بمعونة كتاب "**فيليدور**" أو كتاب "**ستاما**"، كان يحدث لي عَيْنُ الشيء.. وبعد أن أنهك قواي، أجد نفسي أشد ضعفا من ذي قبل. وسواء كنت قد هجرت الشطرنج، أو أنني وجدت في لعبه متنفسا لي فإنني لم أحرز أبدا أي تقدم منذ تلك الجلسة الأولى، حتى إني لأجد نفسي دائما حيث انتهيت إذ ذاك، ولو أنني تدربت آلاف القُرُونِ لما انتهيت إلا إلى إعطاء "**باجيريه**" الدور، فحسب!.. وقد تقول: هكذا يستغل الوقت على أحسن وجه!.. والحق أن الوقت الذي أنفقته في ذلك لم يكن قليلا، وما كففت عن المحاولة الأولى إلا عندما لم تعد لدي طاقة على الاستمرار.. وعندما ظهرت خارج غرفتي، كُنْتُ أَبْدُو كشخص خارج من قبر. ولو أنني استمررت على النهج ذاته، لما ظللت "خارجاً من القبر" طويلا(٤)! وإن المرء ليقر بأن من العَسِيرِ -لاسيما في تحمس الشباب- أن يدع مثل هذا الرأس جسد صاحبه في صحة!

ولقد أثر تداعي صحتي على طبعي، كما هدأ من حمية خيالي. فما إن شعرت بضعفي حتى ازددت هُدُوءاً، وفقدت بعض شغفي بالأسفار. وإذ ازددت استقرارا تعرضت لا للملل وإنما للأسى والسوداء، فإذا التهوس يحل محل الشهوات والعواطف المشبوبة، وإذا ذبولي ينقلب حزنا واكتئابا، وأصبحت أبكي وأتنهد دون ما سبب،. وشعرت بأن الحياة تَفْلِتُ مني دون أن أكون قد تذوقتها،

---

(١) يقصد أن الرجل كان يدعي الثراء وهو لا يملك شيئا. (٢) يريد "روسو" بذلك أن عرفان عواطفه وما يجول بنفسه، لم يكن بالمهمة العسيرة على أي شخص. (٣) "الكالابروا" رسالة في الشطرنج، وضعها لاعب إيطالي ماهر كان يدعى "جيواكينو جريكو"، عاش في عهد لويس الرابع عشر. (٤) يقصد أنه كان خليقا بأن يلازم القبر.. أي يموت.

وأخذت أتحسر على الحال التي سأترك "ماما" البائسة فيها، وعلى الحال التي كنت أراها موشكة على التردي فيها.. وبوسعي أن أقول: إن فراقها وتركها في مَسْغَبَةٍ كان مصدر أَسَايَ الوحيد!.. وأخيرا، سقطت مريضا حقا، فراحت تعنى بي كما لم تعن أم بطفلها، وقد كان في هذا خير لها هي الأخرى؛ إذ حَوَّلَهَا عن المشروعات، وصرفها عن أصحاب المشروعات.. ما كان أعذب الموت لو أنه جاء إذ ذاك!.. وإذا لم أكن قد استمتعت بكثير من نعم الحياة فإنني لم أشعر إلا بقليل من محنها. وكانت روحي الوادعة خليقة بأن ترحل دون الشعور القاسي بظلم الناس.. الشعور الذي يُسَمِّمُ الحياة والموت!.. وكنت أجد العزاء في أنني كنت أحيا في النصف الأفضل من نفسي(١)، وهذا لا يكاد يعتبر موتا! ولولا القلق الذي كنت أستشعره إزاء حظها لقضيت نَحْبِي وكأنني أستسلم للنعاس.. بل إن هواجسي كانت ذات غاية رقيقة لطيفة، خَفَّفَتْ من مرارتها.. ولقد قلت لها يوما: "إن كل كياني بين يديك، فاسعديه!".. وحدث في مرتين أو ثلاث –عندما كنت في أسوأ حال– أن نهضت في الليل، وجررت نفسي إلى غرفتها؛ لكي أقدم لها نصائح بصدد تصرفاتها.. نصائح أجرؤ على القول بأنها كانت عادلة وحكيمة، ولكن اهتمامي بمصير "ماما" كان يغلب في هذه النصائح على كل شيء آخر.. وكأنما كانت الدموع غذائي ودوائي، فقد كنت أستمد قوة من تلك الدموع التي كنت أذرفها في قربها، وأنا معها، جالسا على سريرها، ممسكا بيديها بين يدي. وكانت الساعات تنصرم ونحن مستغرقان في هذه الأحاديث اللَّيلية، ثم أعود إلى غرفتي وأنا أحسن حالا مما كنت حين بارحتها، وقد اغتبطت واطمأننت للوعود التي عَاهَدَتْنِي عليها، والآمال التي بثتها في نفسي.. وإذ ذاك كنت أنام بقلب مطمئن، وبثقة في العناية الإلهية. إنني لأدعو الله –بعد أن تعرضت لكثير من الأسباب التي تَدْعُو إلى كراهية الحياة وبعد كثير من العواصف التي هزت حياتي وجعلتها مجرد عبء– أن يكون الموت الذي قدر له أن يختم هذه الحياة أقل قسوة مما كان في تلك اللحظة!

وبفضل العناية، والسَّهَر، والضَّنَى الذي يفوق التصور استطاعت "ماما" أن تنقذني، ومن المحقق أنها الشخص الوحيد الذي كان بوسعه إِنْقَاذِي. فقد كان إيماني ضعيفا بدواء الأطباء ولكنني أوتيت إيمانا عارما بدواء الأصدقاء الصادقين، ،والأشياء التي يتوقف عليها هناؤنا تفضل كثيرا كافة الأشياء الأخرى!.. وإذا كانت في الحياة عاطفة مستعذبة فإنما هي تلك التي استشعرناها إذ عاد كل منا إلى الآخر. ولم يزدد شغفنا المتبادل –فما كان من الممكن أن يزداد– ولكنه اتخذ مزيدا من الألفة، لا أدري كيف أشرحه.. وغدا في بساطته الضافية، أشد تأثيرا!.. وهكذا أصبحت بكل كياني صُنْعَ يَدَيْهَا. أصبحت ابنها تماما، بل وأكثر مما لو أنها كانت أمي حقا!.. ودون ما تفكير أو قَصْدٍ، لم نَعُدْ نفترق، بل بدأنا ندمج كيانينا في وجود مشترك، وداخلنا شعور مشترك بأن كلا منا لم يكن لازما للآخر فحسب، وإنما كان فيه الكفاية والغناء له عن سواه.. فعودنا نفسينا على الا نفكر في أي شيء غريب عنا، وعلى أن نَقْصِرَ سعادتنا وكل شهواتنا قصرا تاما على ذلك "الاقتناء" المتبادل(٢)، الذي أحسبه كان فريدا من نوعه بين البشر، والذي لم يكن –كما قلت– صادرا عن هوى فحسب، وإنما كان اقتناء أكثر واقعية من المألوف.. كان –دون ما استناد إلى الأحاسيس أو الجنس أو السن أو المظهر– يرتبط

---

(١) نصفه الأفضل هي مدام "دي فاران"! (٢) يقصد بالاقتناء المتبادل، العلاقة الجنسية الكاملة بينه وبين مدام "دي فاران".

بكل مقومات شخصية الفرد!

ترى كيف قدر لهذه المحنة ألا تجتلب السعادة إلى حياتنا حتى آخر أيام "**ماما**" وأيامي؟.. لم يكن هذا ذنبي، ولدي من الدليل ما يعزيني!.. كذلك لم يكن ذنبها هي، أو لم يكن بإرادتها، على الأقل!.. فلقد كُتِبَ للطبيعة التي لا تلين، أن تَفْرِضَ سلطانها(١) سريعا. على أن هذه النكسة المشؤومة لم تكن مفاجئة، بل كانت ثمة مهلة، والحمد للسماء!.. كانت ثمة فترة قصيرة، وغالية، لم تنته نتيجة ذنب مني، ولست ألوم نفسي أو أتهمها بإساءة استغلالها!

ذلك أنني -وإن كنت قد شفيت من مرضي الخطير- إلا أنني لم أَسْتَعِدْ قط قواي. فما عادت لصدري عافيته، وإنما لازمتني دائما بقية من الحمى، جعلتني في ذبول وكلل. فلم أعد أصبو إلى شيء سوى أن أنفق أيامي إلى جوار تلك التي كانت عزيزة لدي، وأن أعضدها في نواياها الطيبة، وأن أمكنها من أن تحس بما للحياة الهانئة من سحر حقيقي، وأن أجعل حياتها على هذه الشَّاكِلَة فيما يتوقف علي. بيد أنني رأيت -بل شعرت- أن العزلة المستمرة التي كانت تجمعنا في بيت مُعْتِمٍ كئيب لن تلبث أن تتسم هي الأخرى بطابع حزين. ولاح لنا علاج ذلك، وكأنه قفز من تلقاء نفسه، حين أوصتني "**ماما**" باللبن، ورغبت في أن أذهب إلى الريف لأتناوله هناك. ووافقتها على شريطة أن تذهب معي. وكان هذا كافيا لأن تعقد عزمها، ولم يبق سوى أن نختار المكان. ولم يكن البستان القائم في الضاحية، من الريف تماما.. إذ إنه -لوقوعه بين منازل وبساتين أخرى- لم يؤت فتنة المكان الريفي الملائم للاستجمام.. فضلا عن أننا -عقب موت "**آنيه**"- تخلينا عن البستان رغبة في الاقتصاد، إذ لم يعد يراودنا الشوق إلى نباتاته النادرة، كما أن ثمة اعتبارات أخرى حملتنا على أن نأسف على فقد هذا المنزل!

وانتهزت -إذ ذاك- فُرْصَةَ الشُّعُور بالملل الذي لمسته عندها نحو المدينة، فاقترحت عليها أن تهجرها نهائيا، وأن نستقر معا في عزلة مستحبة، في دار صغيرة على بعد كاف لأن يصد المتطفلين! ولقد كانت على استعداد لأن تفعل، وكان هذا الاقتراح -الذي ألهمني إياه ملاكها الحارس وملاكي- كفيلا بأن يضمن لنا -حقا- أياما سعيدة هادئة، حتى اللحظة التي يفرق فيها الموت بيننا، ولكن هذا لم يكن الحظ الذي قُدِّرَ لنا، فقد كُتِبَ على "**ماما**" أن تَبْتَلِيَ بكل بلايا الفاقة وسوء الحال -بعد أن قضت عمرها في الرخاء- حتى تغادر الدنيا وهي غير آسفة عليها.. أما أنا، فقد كتب على أن أعاني التعاسات -من كل نوع- كي أصبح يوما مثالا للمرء الذي لا يحدوه سوى حب الصالح العام والعدالة، بحيث يجرؤ -وهو غير مسلح بغير براءته وحدها- على أن يقول الحقيقة للناس جهارا، دون مؤازرة الأنصار، ودون أن يؤلف حزبا لحمايته!

ولقد عمل هاجس تعس على اسْتِبْقَاءِ "**ماما**"، فلم تجرؤ على أن تهجر بيتها الحقير، خوفا من أن تغضب مالكه. وقالت لي: "إن فكرة العزلة التي تقترحها بديعة، وإنها لتروق لي ولكن لابد من تدبير أسباب العيش، حتى في العزلة. وإني لأتعرض -بمبارحة سجني- لأن أفقد مَصْدَرَ عيشي، فإذا لم يَعُدْ

---

(١) يرمي "روسو" بهذا إلى أن حكم الطبيعة -ممثلا في الضعف الذي أصاب صحته- هو الذي فرض عليه وعلى مدام "دي فاران" ألا يستمرا في سعادتهما إلى نهاية عمريهما.

لدينا خبز في الغابات أصبح من المحتوم علينا أن نعود إلى المدينة بحثا عنه، ولكي نقلل من حاجتنا إلى العودة، يجب ألا نهجر المدينة نهائيا.. فلندفع هذا الإيجارَ البسيط للكونت "**دي سان لوران**" حتى يَدَعْ لي معاشي(١)، ولنبحث عن مأوى منعزل بعيد عن المدينة بدرجة تمكننا من العيش في دعة، وقريب منها بحيث نستطيع أن نعود إليها في الحال، إذا ما دعت الضرورة".. وهذا ما جرى، فبعد بحث قصير، استقر بنا المقام في "**شارميت**"، وهي ضيعة كان يمتلكها السيد "**دي كونزيه**"، على مشارف "**شامبيري**"، ولكنها منعزلة وغير مطروقة، حتى لكأنها تقع على مائة فرسخ منها.. فبين تلين مرتفعين، يمتد -شمالا وجنوبا- واد صغير، يجَرْي في أسفله جدول، تحف به الصخور والأشجار. وعلى أحد الجانبين -بطول هذا الوادي- بضعة بيوت متناثرة، تُنَاسِبُ كل المناسبة أي امرئ يَهْفُو إلى مأوى خلوي منعزل. وبعد أن تفرجنا على بيتين أو ثلاثة -من هذه البيوت- اخترنا في النهاية أبدعها، وكان ملكا لسيد في خدمة الحكومة يدعى السيد "**نواريه**". وكان البيت جد ملائم للسكنى، تقوم أمامه حديقة مرتفعة عن سطح الأرض، تعلوها كَرْمَةٌ، ويمتد تحتها بستان، وفي مواجهتها غابة من أشجار البلوط، ونبع قريب. وعلى مرتفع من الجبل، مروج لرعي الأنعام. ومجمل القول توفرت فيه كل مستلزمات الأسرة الريفية الصغيرة التي كنا نعتزم إيواءها هناك. وبقدر ما أستطيع أن أتذكر الأزمان والتواريخ، تسلمنا البيت حوالي نهاية صيف سنة ١٧٣٦. ولقد طَرِبْتُ في أول ليلة قَضَيْنَاهَا هناك، فقلت لصاحبتي العزيزة وأنا أعانقها وأغرقها بدموع الحب والابتهاج: "أواه، يا "**ماما**"!.. إن هذا المقر لهو وكر الهناء والبراءة.. فإذا لم نجدهما هنا -وكل منا مع الآخر- فليس لنا أن نرجو العُثُورَ عليهما في أي مكان!"(٢).

---

(١) ذكر "روسو" من قبل أن "سان لوران" كان مشرفا على الشؤون المالية لبلاط ملك سردينيا، وأن مدام دي فاران لم تطمئن إلى استمرار معاشها إلا بعد أن استأجرت منه ذلك البيت الحقير، فاكتسبت بذلك وده. (٢) في أوائل القرن التاسع عشر آل هذا البيت -الذي أقام فيه "روسو" ومدام "دي فاران"- إلى كاتب كانت له مؤلفات أدبية وعلمية، وقد أصدر في سنة ١٨١٧ كتيبا عن "شارميت"، سجل فيه كل صغيرة وكبيرة من أوصاف هذا البيت الذي اعتاد السياح أن يترددوا عليه. وقد ثبتت إلى جدار المنزل -بقرب مدخله- لوحة حجرية أمر بوضعها "هيراو سيشيل" في سنة ١٧٩٢ -عندما كان حاكما للمنطقة- وقد نقشت عليها أبيات شعرية للذكرى، هذا معناها:

"أيها المأوى الذي شغله جان جاك.. إنك لتذكرني بعبقريته، وبحبه للعزلة، وبتحمسه وحميته.. وبمصائبه وطيشه.. لقد جرؤ على أن يكرس حياته للمجد والحقيقة.. وكان دائما مضطهدا، إما بنفسه وإما بالحاسدين"!

الكراسة السادسة

سنة ١٧٣٦

"هاك كل ما كنت أتمنى: قطعة أرض غير شاسعة،

"وحديقة، ونبع ماء فياض بقرب الدار،

"وإلى جانب هذا.. غابة صغيرة.."

ولم أستطع قط أن أضيف إلى هذا:

"لقد حَبَتْنِي الآلهةُ.. بأكثرَ مما اشتَهَيْتُ" (١)

ولكن لا بأس، فما كنت بحاجة إلى أكثر من ذلك، بل إنني لم أكن بحاجة إلى أن أمتلك هذه الأشياء، وإنما كان يكفيني أن أستمتع بها!.. ولقد قلت -وشعرت، منذ أجل طويل، أن المالك والمنتفع كثيرا ما يكونان شخصين جد مختلفين، حتى إذا أقصينا الأزواج والعشاق عن المقارنة!

هنا يبدأ هناء حياتي القَصيرُ، وهنا أقبلت اللَّحَظَاتُ الوادعة -وإن كانت وجيزة- التي أباحت لي الحق في أن أقول: "إنني عشت"!.. أيتها اللحظاتُ الغاليةُ، التي آسىَ عليها كل الأسى.. ألا ابْدئي من جديد -من أجلي- سريانك الحبيب، وتتابعي في ذاكرتي أكثر بطئا مما كنت في فرارك في الواقع، إذا كان هذا ممكنا!.. كيف لي بأن أطيل -كما أشاء- هذا الحديث المؤثر، السَّاذَجَ، فأردد نفس الأقوال دائما، دون أن أبْعَثَ في نفوس قرائي -بتكرارها- سَأَماً اللهم إلا إذا سئمت أنا نفسي العود إلى ترديدها دون انقطاع!.. كذلك، ليت كل هذا يتألف من وقائع، ومن أعمال، ومن أقوال أستطيع أن أصفها وأن أردها إلى الحياة بطريقة ما، ولكن.. كيف لي أن أقول مالم يقل، ولم يفعل، ولم يطف بخاطر، ولكنه استمرأ، بل استشعر -ولست أملك أن أبين أي سبب آخر لهنائي سوى هذا الشعور البسيط؟.. كُنْتُ أستيقظ مع الشمس، وأنا سعيد.. فَأَتَمشَّى، وأنا سعيد.. وأرى "ماما"، وأنا سعيد.. وآفارقها، وأنا سعيد.. وأهيم في الغابات والربا، وأرتاد الوديان، وأقرأ، وأقعد عن العمل، وأُفْلِحُ الحديقة، وأَجْني الزهور، وأساعد في أعمال البيت.. والهناء يَتْبَعُني في كل مكان.. لم يكن ينحصر في شيء معين، وإنما كان يشيع في كل كياني، ولم يكن يُفَارِقُني لحظة واحدة!

ما من شيء جرى لي أثناء تلك الفترة الحبيبة، ولا من شيء فعلته أو قلته أو فكرت فيه إبانها إلا بَقِيَ فلم يتَسربْ من ذاكرتي. إن الأوقات التي سبقته، والأوقات التي لحقته، لا توافي ذهني إلا بين آن وآخر، فأذكرها دون تمييز، وفي تخبط.. ولكنني أذكر هذه الفترة بأسرها، وكأنها ماتزال باقية! إن

---

(١) هذه الأبيات من أشعار "هوراس"، وقد أوردها "روسو" باللاتينية، وعلق عليها بالسطر الذي قطع به تتابعها.

خيالي الذي كان يتطلع دائما إلى الأمام -في شبابي- والذي أصبح اليوم يلتفت إلى الوراء، يعوضني بهاتين الذكريين الفاتنتين عن الرجاء الذي فقدته إلى الأبد! فإنني لم أعد أرى في المستقبل ما يستهويني، بل إن رجعات الماضي وحدها هي التي تستطيع أن تَهْفُو بعواطفي.. وهذه الذكريات تمتاز -في الفترة التي أحدث عنها- بأنها بَالِغَةُ الحيوية والصِّدْقِ، حتى إنها كثيرا ما تجعلني أحيا سعيدا برغم بؤسي وسوء حظي!

وإني لأقدم من هذه الذكريات مثالا واحدا يمكن من الحكم على وضوحها وصدقها: ففي أول يوم ذهبنا فيه كي نبيت في "**شارميت**"، كانت "**ماما**" في مَحَفَّةٍ محمولة على الأكتاف بينما تبعتها على قدمي. وكان الطريق صاعدا، وهي ثقيلة الوزن -بعض الشيء- فخشيت أن تضاعف من إنهاك قوى الحمالين، ورغبت في أن تهبط في منتصف الطريق تقريبا، لتقطع ما تبقى منه على قدميها. وفيما كانت تسير رأيت شيئا أزرق في الحسك(١)، فقالت لي: ها هو القُضَاب(٢) لايزال مُزْهِراً!.. ولم أكن قد رأيت القُضَابَ قط، ومع ذلك فإنني لم أنحن لفحصه، وكنت قصير النظر بدرجة لا تمكنني من أن أتبين النباتات التي على الأرض، إذا كنت أقف منتصب القامة. واكتفيت بأن ألقيت نظرة على ذلك النبات، وأنا أمر به.. ولقد مرت ثلاثون سنة تقريبا، قبل أن أرى أيَّ قضاب -مرة أخرى- أو ألقي إليه بالا. وفي سنة ١٧٦٤، كنت في "**كريسييه**" مع صديقي السيد "**دي بييرو**"، فتسلقنا جبلا صغيرا تقوم على قمته استراحة "صالون" بديعة، تسمى بحق "**بيلفي**" -المنظر الجميل- وكنت قد بدأت إذ ذاك أهوى دراسة الأعشاب بعض الشيء. وفيما كنا نصعد، ونحن نتأمل الأدغال إذا بي أطلق صيحة جذلانة: "آه!.. ها هو ذا القُضَابَ!".. وكان ذلك حقا. ولاحظ "**دي بييرو**" فرحي، ولكنه جهل سببه. ولسوف يعرفه، إذ إنني أرجو أن يقرأ يوما ما كتبت هنا. وبوسع القارئ أن يحكم -من الأثر الذي أحدثته في نفسي مناسبة تافهة كهذه- على مدى التأثير الذي يحدثه كل ما يمت إلى تلك الفترة!

*****

على أن جَوَّ الريف لم يرد إليَّ صِحَّتِي السابقة إطلاقا، فلقد كنت ذابلا، وقد ازدادت حالي سوءا، ولم أعد أطيق اللبن، فلم يكن ثمة بد من التحول عنه. وكان الماء هو العلاج الشائع -إذ ذاك- لكل داء، فاقبلت على الماء في غير ماحكمة، حتى إنه كاد يَشْفِينِي، لا من عللي، وإنما من حياتي(٣)!.. ففي كل صباح، كنت أذهب -عندما أستيقظ- إلى النَّبع، حاملا وِعَاءً كبيرا. وهناك، كنت أَشْرَبُ على التعاقب -وأنا أتمشى- ما يعادل ملء زجاجتين. وتحولت نهائيا عن تناول الشراب في وجباتي. وكان الماء الذي اعتدت شربه عَسِرَ الهضم قليلا، شأن معظم مياه الجبال.. وموجز القول إنني ظللت على نهَجْي، حتى إنني -في أقل من شهرين- أتلفت تماما معدتي التي كنت أحتفظ بها حتى ذلك الوقت في خير حال! وإذ لم تعد تهضم، أدركت أنني لا ينبغي أن أرجو لها شفاء.. وفي ذلك الحين بالذات وقع لي حادث كان فرَيداً في نوعه وفي عواقبه التي لن تنتهي إلا بانتهاء حياتي!

ففي ذات صباح -لم أكن فيه أسوأ حالا من المعتاد- كنت أرفع مائدة صغيرة على قوائمها، وإذا بي أشعر باضطراب حاد -لايكاد يبدو له سبب- في جميع جسمي. ولست أجد له تشبيها أفضل من أنه كان مثل نوع من عاصفة هبت في دمي، وانتشرت لتوها في كل أَعْضَاءِ جسمي! وأخذت

---

(١) الأعشاب الشوكية التي تحف بالطريق. (٢) نوع من النبات البري. (٣) هذا هو نص تعبير "روسو". ومن الطريف أن كلمة "يشفي" -في العربية- تعني "يبرئ"، كما تعني "يهلك". وهو عين ما أراده "روسو"!

عروقي تنبض بقوة هائلة حتى إنني لم أشعر بنبضها فحسب، وإنما سمعته، لا سيما نبض الشرايين السباتية. وقد صحب ذلك ضوضاء هائلة في أذني، وكانت هذه الضوضاء مؤلفة من ثلاثة أو أربعة أنواع: طنين قوي مكتوم، وخرير واضح كأنه ينبعث من ماء جار، وصفير حاد جدا، ثم النبضات التي ذكرتها، والتي كان بوسعي أن أعد دقاتها دون أن أجس نبضي أو أمس جسمي بيدي! وكان هذا الصخب الداخلي من الضخامة بحيث إنه من إرهاف السمع الذي كان لدي قبل ذلك، وجعلني ثقيل السمع -لا أصم تماما- كما هو شأني منذ ذلك الحين!

وفي الوسع تقدير دهشتي وانزعاجي، فقد خيل إلي أنني أموت، ولزمت سريري، واسْتُدْعِيَ الطبيب فرويت له حالي وأنا أرتجف، إذ كنت أعتبرها بلا علاج! وأعتقد أنه شاركني هذا الرأي، ولكنه قام بما تحتمه عليه مهنته، وراح يسرد علي تعليلات طويلة لم أفقه منها شيئا البتة، ثم عمد -تمشيا مع نظريته الرفيعة الشأن- إلى إجراء "تجارب على كائنات حية"(١)، وهو العِلاَجُ التجريبي الذي طَابَ له أن يُجَرِّبَهَ معي، وكان جد اليم، ومشيرا، وقليل المفعول، حتى إنني سرعان ما تحولت عنه.. وبعد بضعة أسابيع، رأيت أنني لم أتحسن، ولا ازددت سوءا، فغادرت فراشي، واستأنفت حياتي العادية، مع استمرار نبض عروقي وطنين أذني اللذين لم يفارقاني دقيقة واحدة، منذ ذلك الحين.. أي منذ ثلاثين عاما!

وكنت حتى ذاك الوقت كَثِيـَر النوم، فإذا الحرمان التام من النوم -الذي رافق كل هذه الأعراض، والذي ظل يلازمها باستمرار حتى الآن- انتهى إلى إقناعي بانه لم يَبْقَ أمامي أَجَلٌ طويل في الحياة. وقد هدأ هذا الاقتناع من اهتمامي بالشفاء، فترة من الزمن. وإذ رأيت أن ليس بوسعي أن أطيل من حياتي فقد اعتزمت أن أفيد بأكبر شِطْرٍ ممكن مما تبقى لي من العمر. وهذا ما تَسَنَّى لي بفضل صنيع فذ أسدته لي الطبيعة، إذ أعفتني -في مثل هذه الحال المشؤومة- من الآلام التي يبدو أنها كانت قمينة بأن تنتابني. كنت أتضايق من هذه الضوضاء في أذني، ولكني لم أكن أعَانِي منها، كما أنها لم تكن مَصْحُوبَةً بأية مضايقات مستمرة أخرى، اللهم إلا الأرق في أثناء الليل، وبضيق دائم في التنفس، لم يكن ليرقى إلى درجة الربو، ولا كان يبدو محسوسا إلا عندما أحاول الجري، أو أرهق نفسي في العمل أكثر مما ينبغي قليلا.

هذا الحادث -الذي كان خليقا بان يقتل بدني- لم يقتل سوى شهواتي، وإني لأبارك السماء في كل يوم لهذا الأثر السعيد الذي أحدثه في نفسي. وأستطيع أن أقول: إنني لم أبدأ العيش إلا حين اعتبرت نفسي رجلا ميتا!.. وبينما رحت أقدر الأشياء -التي كنت مُزْمعا أن أتخلى عنها- بقيمتها الحقيقية، شرعت أشغل بالي بأمور أسمى وأنبل، وكأنما كنت أريد أن أَسْتَبِقَ الزمن إلى تلك الأمور التي كان ينبغي أن أبادر إلى أدائها، والتي كنت قد أهملتها -حتى ذاك الحين- إهمالا شنيعا. كنت كثيرا ما أَمْسَخُ الدين وفقا لهواي، ولكنني لم أكن قط بلا دين على الإطلاق. ولم يكن يكبدني شيئا أن أعود إلى هذا الموضوع الكئيب بالنسبة لكثير من الناس، ولكنه لطيف بالنسبة لامرئ ينشد فيه مادة للأمل والعزاء.. وكانت "ماما" -في هذا الصدد- أكثر نفعا لي من كل رجال الدين قاطبة!.. فلم تَغْفُلْ -وهي التي اعتادت أن تضع لكل شيء نهجا خاصا- عن أن تطبق هذا على الدين كذلك. وكان مَنْهَجُهَا يتألف من أفكار جد متباينة ومفككة: بعضها معقول للغاية، والأخرى طائشة جدا.. ومن مشاعر مرتبطة بشخصيتها، ومن أفكار قديمة نبعت من تربيتها. فالقاعدة أن المؤمنين يَتَمَثَّلُون الله على ضوء أنفسهم، فالطيبون يَتَمَثَّلُونه طيبا، والخبيثون يتمثلونه خبيثا.. والمؤمنون الحقودون

---

(١) IN ANIMAL VILI اصطلاح يطلق على التجارب العلمية التي تجرى عادة على الحيوانات.

والمتشائمون، لا يرون سوى الجحيم، لأنهم يبتغون النقمة للدنيا بأسرها.. أما النفوس المحبة والوادعة، فإنها لا تَخْشَى الجحيم إطلاقا!.. ومن المدهشات التي لم يُقَدَّرْ لي أن أتغلب عليها قط، أن رأيت "**فينيلون**" الطيب(١) يتحدث عن ذلك في مؤلفه "**تيليماك**"، وكأنه كان يؤمن به حق الإيمان!.. على أنني أرجو أن يكون قد لجأ -إذ ذاك- إلى الكذب.. إذ إنه لابد للمرء، بالرغم من كل اعتبار، من أن يكذب أحيانا، إذا ما كان أسقفا! -وهذه حقيقة يعرفها الجميع!- أما "**ماما**"، فلم تَكْذِبْ علي. كانت هذه النفس المنزهة عن الغرض، لا تقوى على أن تتصور إلها مُنْتَقِمًا دائم السخط، وما كانت لترى في الله سوى الرحمة والشفقة، في حين أن الأتقياء لا يرون فيه سوى القصاص والعقاب. وكثيرا ما كانت تقول لي: إنه ليس من العدالة في شيء أن يَنْشُدَ اللّهُ القِصَاصَ منا؛ لأنه لم يمنحنا ما يَلْزَم لكي نكون كما يَبْغِي؛ ومن ثم فإن القصاص يكون بمثابة مطالبتنا بأكثر مما منحنا!.. والغريب في الأمر، أنها -برغم عدم إيمانها بالجحيم- لم تتخل قط عن إيمانها بالمطهر(٢)، وقد تَأَتَّى هذا عن أنها لم تكن تدري ما تفعله بالنفوس الشريرة، فما كانت تملك أن تدمغها بالشر، ولا كانت تملك أن تسلكها في الصالحين ريثما تغدو صالحة فعلا.. ولابد في الواقع من الاعتراف -سواء في هذه الدنيا أو في الآخرة- بأن الأشرار مَصْدَرُ حيرةٍ دائما!

وهناك أمر غريب آخر، فمن الواضح أن نظرية الخطيئة الكبرى والتكفير، تَنْهَارُ بِفَضْلِ هذا النهج، حتى إن أساس المسيحية الشائعة ليهتز، وحتى إن الكاثوليكية لا تعود قادرة على أن تظل قائمة. ومع ذلك فقد كانت "**ماما**" كاثوليكية صالحة، أو كانت تجهر بذلك، ومن المؤكد أنها كانت تصدر في جهرها عن إيمان جد صحيح. وكان يبدو لها أن الناس اعتادوا أن يفسروا الكتاب المقدس في حرفية وتزمت أكثر مما ينبغي.. وكان يلوح لها أن كل ما يقرأ عن العذاب الأبدي يجب أن يُؤْخَذَ على أنه وعيد أو مجاز وكناية.. وكان موت المسيح يتراءى لها مثالا للخير القدسي، يرشد الناس إلى أن يُحِبُّوا الله وأن يتحابوا فيما بينهم على غراره!.. وموجز القول، إنها كانت وفية للديانة التي اعتنقتها، وقد تقبلت في إخلاص كل مقررات العقيدة.. غير أنه كان يبدو منها -إذا ما نوقشت في كل مادة على حدة- أن عقيدتها تَخْتَلِفُ تماما عن الكنيسة التي كانت تقر لها بالولاء دائما.. ولقد أوتيت -فوق ذلك- سذاجة قلب، وصراحة أكثر تأثيرا من أي رياء. وكثيرا ما كانت هذه الصَّرَاحَةُ تحير الناس، حتى الرَّاهِبِ الذي اعْتَادَ أن يتلقى اعترافاتها، والذي لم تكن تخفي عنه شيئا، فقد اعتادت أن تقول له: "إنني كاثوليكية صالحة، وأود أن أكون دائما كذلك.. وإني لأعتنق -بكل طاقة نفسي- مقررات أمنا الكنيسة المقدسة، على أنني لا أتحكم في إيماني، وإن كنت أتحكم في إرادتي، فأسيطر عليها دون ما تحفظ. وإني لراغبة في أن أؤمن كل الإيمان. فبماذا تطالبني فوق هذا؟".

وإني لأعتقد بأنها كانت خَلِيقَةً بأن تَتَّبِعَ القانون الخلقي المسيحي -ولو لم يكن يوجد ثمة قانون خلقي مسيحي- لأن مبادئه تتمشى تماما مع أخلاقها. وكانت تفعل كل ما يأمر به لكنها كانت قمينة بأن تفعله ولو لم تؤمر به!.. وكانت تحب أن تبدي طاعتها في الأمور غير المهمة: فمثلا لو كان أكل اللحوم مباحا -بل لو أنه كان مفروضا- في أيام الصوم، لَصَامَتْ عنه فيما بينها وبين الله، دون أية حاجة لمراعاة الاعتبارات التي تمليها الحكمة. ولكن هذه القواعد الخلقية كانت تَتَّبِعُ دائما مبادئ السيد "**دي تافيل**"(٣)، أو بالأحرى كانت "**ماما**" تدعي أنها لا ترى تناقضا بينها، فكانت على

---

(١) Fénelon, Télémaque (٢) المطهر في المعتقدات الدينية، هو الطريق الذي يفضي من النار إلى الجنة، ويقضي فيه البشر -عقب الموت مباشرة- مدة للتكفير عن خطاياهم، قبل أن يصبحوا أهلا لدخول الجنة! (٣) سبق لروسو أن ذكر أن المسيو دي "تافيل" قد أفسد معتقدات مدام "دي فاران"، في سبيل بلوغ مأربه منها فأرسى في نفسها الاعتقاد بأن إرضاء شهوات النفس لا يتعارض مع إرضاء الله والضمير!

استعداد لأن تُضَاجِعَ عشرين رجلا -في كل يوم- وهي مطمئنة الضمير، دون أن يكون لها هم سوى إرضاء الشهوة. وإني لأعرف أن كثيرات من المتدينات لسن أكثر منها ترددا في هذه الناحية، ولكن الفارق بينها وبينهن هو أنهن يَنْسَقْنَ إلى الغُوَايَة بفضل شَهَوَاتِهِنَّ، في حين أنها تنساق بفضل فلسفتها السفسطائية!.. ولقد كانت في أثناء أكثر الأحاديث العاطفية تأثيرا -بل وأجرؤ على أن أقول: أكثر الأحاديث التهذيبية عبرة- تنساق إلى هذا الموضوع، فلا تتغير هيأتها، ولا تتغير لهجتها، ولا يخطر ببالها أنها تُنَاقِضُ نفسها. بل إنها كانت تقطع تلك الأحاديث -إذا دعت الحاجة- لتتكلم في هذا الموضوع، ثم تعود إلى حديثها الأول بنفس الهدوء السابق.. وهكذا كانت صادقة في اقتناعها إلى درجة أن الأمر كله لم يكن يعدو أن يكون -في نظرها- مبدأ اجتماعيا يستطيع كل من أوتي إدراكا أن يؤوله أو يطبقه أو ينبذه، وفقا لنظرته إلى الموضوع، دون أقل تعرض للإساءة إلى الله!

ومع أنني -بالتأكيد- لم أكن أرى رأيها في هذا الموضوع إلا أنني أعترف بأنني لم أجرؤ على معارضتها، خجلا مني من أن أبدي من قلة اللطف والأدب ما كانت تتطلبه المعارضة. ولقد كان بوسعي أن أضع قاعدة للآخرين، وأن أحاول أن اسْتَثْنِيَ نفسي منها(١). ولكن طباع **"ماما"** لم تكن فيها الوقاية الكافية لها من أن تسيء استغلال مبادئها، كما أنني كنت أعرف أنها امرأة لا تميل إلى التقلب والتلون، وأن استباحة الاستثناء لنفسي كان معناه أن أدع لها فرصة إباحته لكل من يروق لها!.. على أنني أورد هذا التناقض هنا -بين ما أورد من تناقضات- بمحض المصادفة، برغم أنه كان دائما قليل الأثر في سلوكها، بل إنه لم يكن ذا أثر البتة، في ذلك الحين.. غير أنني وعدت بأن أَعْرِضَ مَبَادِئَها في صدق وإخلاص، وإني لراغب في أن أفي بوعدي.

ولأرجع ثانية إلى الحديث عن نفسي.. فما إن وجدت لدى **"ماما"** كل المبادئ التي كُنْتُ بحاجة إليها لأعزِّز نفسي ضد مخاوف الموت وما وراءه حتى أقبلت باطمئنان على هذا المصدر للثقة، وأصبحت أكثر تعلقا بها مني في أي وقت آخر، وكأنما كنت أود أن أنقل إليها الحياة التي كنت أحس بأنها توشك أن تهجرني!.. وترتبت على مضاعفة تعلقي بها، وعلى الاقتناع بأنه لم يبق أمامي في الحياة سوى أجل قصير، وعلى رضائي العميق بما كُتِبَ لي في المستقبل.. تَرَتَّبَتْ على كل هذا، حالة دائمة من الطمأنينة -بل ومن اللذة- خمدت فيها كافة الانفعالات التي تَنْأَى بالهواجس والآمال عنا، ولكنها -في الوقت ذاته- تركتني أنعم في سكينة، ودون َماهَمٍّ، بما تبقى في عمري من أيام!.. وكان ثمة عاملٌ أسهم في جعل هذه الحال أكثر عذوبة، ذلك هو السعي إلى تنمية ميل **"ماما"** إلى الريف، بكل وسائل اللهو والتسلية التي كان بوسعي توفيرها. وفيما كنت أحملها على أن تحب حديقتها، وساحة دَواجِنِها، وحماماتها، وبَقَرَاتِها، اكتسبت أنا الآخر ميلا نحو هذه جميعا، وإذا بهذه الشواغل البسيطة -التي كانت تملأ نهاري دون أن تعكر صفائي- تجديني تحسنا في صحتي يفوق ما أجدانيه اللبن وسائر الأدوية الأخرى التي استخدمت للمحافظة على كياني البائس، إلى أقصى ما كان ممكنا!

ووجدنا في قطف الثمار وجني الفواكه تسلية فيما تبقى من ذلك العام، فأخذنا نزداد شغفا بالحياة الريفية، وسط الناس الطيبين الذين كانوا يُحيطُونَ بنا. وشهدنا اقتراب الشتاء بأسف بالغ، فعدنا إلى المدينة وكأننا كنا نذهب إلى منفى.. لا سيما أنا، إذ كنت في ريب من أنني سأشهد الربيع مرة أخرى، فاعتقدت أنني ودعت **"شارميت"** إلى الأبد. ولم أبرحها دون أن أقبل الأرض والأشجار، ودون

---

(١) كان "روسو" لا يقر مدام "دي فاران" في فلسفتها السفسطائية التي لقنها إياها المسيو "دي تافيل". ولكن هذه الفلسفة بالذات، هي التي يسرت له أن يصبح عشيقا لمدام "دي فاران"، فلو أنه هدم هذه الفلسفة -ليمنع قيام مثل هذه العلاقة بين السيدة وغيره من الرجال- لتحتم عليه أن يبحث عن سبيل ليستثني نفسه، حتى لا يحرم حبها!

أن أرتد إليها عدة مرات كلما ابتعدت عنها! ولما كنت قد تخليت -منذ زمن طويل- عن تلميذاتي، وفقدت شغفي بملاهي المدينة ومجتمعاتها فإنني لم أعد أغادر البيت، ولم أعد أرى أحدا سوى "**ماما**" والسيد "**سالومون**" الذي أصْبح -منذ قليل- طبيبها وطبيبي.. وكان رجلا أمينا، ذكيا، "**كارتي**"(١) متحمسا. يحسن الحديث عن نظام العالم، وقد عادت علي أحَاديثهُ العذبة، المفيدة بُخير يفوق ما عادت علي به كل وصفاته الطبية. وما كنت لأطيق يوما ذلك الغباء وذاك التخبط الأحمق الذي تحفل به الأحاديث العادية، ولكن الأحَاديثَ النافعة الدَّسِمَةَ تبعث دائما في نفسي سرورا عارما، وما اعتدت أن أرفضها قط!.. وقد تولاني ميل شديد إلى أحاديث السيد "**سالومون**"، فقد لاح لي أنني كنت أَكْتَسِبُ معه -سلفا- تلك المعلومات الرفيعة التي كان مقدرا لروحي أن تكتسبها حين تتخلص من القُيُودِ التي كانت تثقلها. وقد امتد الميل الذي استشعرته نحوه إلى الموضوعات التي كان يعالجها، فشرعت أبحث عن الكتب التي تستطيع أن تُسَاعُدني على أن أحسن فهمه. وكانت الكتب التي تمزج التقوى بالعلوم هي أكثرها ملاءمة لي، لا سيما كتب "**الخطابة**" وكتب "**بور-رويال**"(٢) التي أَخذْتُ أطالعها، أو بالأحرى، التهمها. ووقع بين يدي منها كتاب للأب "**لامي**" عنوانه "**أحاديث عن العلوم**". وكان عبارة عن مقدمة للتعريف بالكتب التي تعالج العلوم. وقد قرأته وأعدت قراءته مائة مرة، وعقدت العزم على أن أجعله مرشدي. وألفيتني في النهاية أنجذب -بالرغم من حالتي الصحية- أو بالأحرى بفضلها، إلى الدراسة دون أن أَملكَ مقاومة. وبينما كنت أنظر إلى كل يوم وكأنه آخر أيامي رحت أدرس في تحمس عارم، وكأنني سأعيش دوما!.. ولقد قيل لي: إن هذا كان ضارا بي، ولكني أعتقد -من ناحيتي- أن هذا قد أفادني، لا ذِهْنيًّا فحسب، وإنما جسديا كذلك.. إذ إن هذا الشغل، الذي شغفت به، صار مستعذبا لدي، حتى إنني لم أعد أفكر في عللي، ومن ثم أصبحت أقل تأثرا بها. ومن الصحيح يقينا أن شيئا لم يوفر لي شفاء حقيقيا، ولكني -إذ لم أعد أشعر بألم حاد- تعودت الوهن، وعدم النوم، وأن أفكر بدلا من أن أعمل، و-أخيرا- أن أنظر إلى التداعي التدرجي البطيء، الذي ألم بكياني، وكأنه تَطَوُّر لا مناص منه، ولا يملك أن يُوقفَهُ سوى الموت!

ولم تصرفني هذه الفكرة عن كل هموم الحياة التي لا جدوى منها فحسب وإنما أعفتني أيضا من مضايقات الأدوية التي كنت -حتى ذلك الوقت- أضطر إلى تقبلها مرغما. فإن "**سالومون**" لم يلبث أن اقتنع بأن هذه العقاقير لم تكن تملك لي إنقاذا، فأعفاني من غَضَاضَتِهَا، وقنع بأن يُهَدِّئَ من شجن "**ماما**" المسكينة ببعض الوصفات غير الضارة التي تغر المريض وتحفظ على الطبيب سمعته! وتحولت عن نظام التغذية الضيق النطاق، فعدت إلى تناول الشراب وكل مستلزمات حياة الإنسان الموفور الصحة، بقدر ما كانت قواي تسمح. وكنت أُقْبِلُ على كل شيء في اعتدال ولكني لم أحرم نفسي من شيء البتة!.. بل إنني عدت إلى الخروج، واستأنفت زيارة معارفي، لا سيما السيد "**دي كونزييه**"، الذي كانت صحبته تروق لي كثيرا. وقصارى القول: إن ارتقاب الموت لم يعق ميلي للدرس، بل بدا أنه أذكاه، سواء كان ذلك راجعا إلى أنني رأيت أن من الجميل أن أدرس حتى ساعتي الأخيرة، أو كان راجعا إلى أن بقية من الأمل في الحياة كانت تكمن متوارية في قرارة قلبي!.. ورحت أسرع في جمع بعض المعرفة للعالم الآخر، وكأنما كنت أعتقد أنني لن أمتلك فيه من المعرفة سوى القدر الذي سأحمله إليه. وأصبحت ولوعا بحانوت كتبي يدعى السيد "**بوشار**"، اعتاد أن يتردد عليه عدد من رجال الأدب.. وعندما أصبح الربيع -الذي كنت أظنني لن أشهده ثانية- على

---

(١) أي من اتباع تعاليم "ديكارت". (٢) من كتب المدرسة اليانسينية.. وقد سبق أن أوردنا نبذة عنها في تعليق سابق.

الأبواب، جَمَعْتُ لنفسي عددا من الكتب لأحملها معي إلى "**شارميت**"، إذا كان لي حظ الرجوع إليها!

وأتيح لي هذا الحظ فاستغللته لصالحي.. وإن الاغْتِبَاطَ الذي شهدت به البراعم الأولى للربيع ليجل عن الوصف!.. كانت رؤية الربيع مرة أخرى، بمثابة البعث في الفردوس.. فما إن بدأت الثلوج في الذوبان حتى هجرنا وكرنا، ووصلنا إلى "**شارميت**" لنحظى هناك بأولى أنغام البلبل. ومنذ ذلك الحين لم أعد أفكر في الموت! ومن العجيب حقا أنني لم أصب قط بأمراض شديدة الوطأة في الريف. ولقد عانيت كثيرا من الآلام هناك، ولكنني لم ألزم السرير أبدا. وكثيرا ما كنت أقول، -عندما أشعر أنني أسوأ حالا من المعتاد-: "عندما ترونني موشكا على الموت احملوني إلى ظل بلوطة، وأعدكم بأن أعود إليكم مُعَافًى"!

ومع أنني كنت لاأزال ضعيفا إلا أنني عاودت أعمالي الريفية، ولكن بقدر يَتَنَاسَبُ مع قُوَايَ. وقد عانيت أسى حقيقيا لعدم استطاعتي أن أعنى بالحديقة وحدي.. بيد أنني كنت إذا هويت ست مرات بالمعول شعرت بأنني أفقد أنفاسي، وتَصَبَّبَ العرقُ مني، وشعرت بعجز عن الاستمرار.. وإذا انحنيت، كان خفقان قلبي يتضاعف، والدم يندفع إلى رأسي بقوة بالغة تضطرني إلى الاعتدال سريعا. وإذا اضطررت إلى أن أقتصر على أعمال أقل إرهاقا فقد تكفلت -بين ما اضْطَلَعْتُ به من مهام- بأعشاش الحمام، فشغفت بها جدا، حتى إنني كثيرا ما كنت أقضي عدة ساعات هناك دون أن أشعر بالملل لحظة.. والحمامة جد هيابة، وصعبة الترويض إلا أنني توصلت إلى أن أبث في حماماتي الثقة، حتى إنها راحت تتبعني في كل مكان، وتدعني أمسكها متى شئت!.. ولم أكن أظهر في الحديقة أو في ساحة الدار، دون أن تحط اثنتان أو ثلاث على ذراعي ورأسي في الحال!.. وبالرغم من الغِبْطَة التي كنت أستشعرها، فإن هذا الموكب لم يلبث أن غدا متعبا إلى درجة اضطررت معها إلى أن أنبذ هذه الألفة. ولقد اعتدت دائما أن أجد متعة فذة في استئناس الحيوان، لا سيما ما يكون منه خجولا وبريا نفورا. وكان يبدو لي من المطرب أن أوحي للحيوان بالثقة، وما خدعته قط، إذ كنت أود أن يحبني بانطلاق ودون قيد!

ولقد ذكرت أنني أَحْضَرتُ معي كُتُباً.. وقد انتفعت بها، ولكن بطريقة أقل تمكينا لي من التعلم، وأدعى إلى الحيرة وبلبلة الفكر. فإن الفكرة الخاطئة التي كانت لدي عن الأمور أغرتني بأنه لابد لقراءة كتاب قراءة مثمرة، من أن يحرز المرء كافة المعلومات الأولية التي يرتبط بها موضوع هذا الكتاب، دون أن يخطر ببالي أن المؤلف نفسه كثيرا مالا يكون محيطا بهذه المعلومات.. وأنه إنما يأخذها عن كتب أخرى، بقدر ما تدعو الحاجة. وبهذه الفكرة الدالة على غباء، رحت أتوقف عن القراءة في كل لحظة، مضطرا إلى أن ألهث باستمرار من كتاب إلى آخر.. وكنت أحيانا أَضْطَرُّ إلى أن أستنفد مكتبات بأسرها، قبل أن أصل إلى الصفحة العاشرة من الكتاب الذي أرجو أن أدرسه!.. ومع ذلك فإنني اتبعت هذا الأسلوبَ المجرد من الإدراك، في إسراف، حتى إنني بددت وقتا لا حد له، وأرهقت رأسي إلى درجة أنني لم أعد أَقْوَى على رؤية أو استيعاب شيء ما.. وفطنت -لحسن الحظ- إلى أنني كنت أسلك طريقا خاطئا، يقودني إلى تَيهٍ هائل، فعدلت عنه قبل أن أضل تماما!

ومهما تكن قلة ما لدى الإنسان من ميل حقيقي للعلوم فإن أول شيء يشعر به حين يُقْبِلَ على دراسة العلوم هو ترابطها الذي يجعلها تتقارب، وتتعاون، ويلقي كل منها الضوء على الآخر، بحيث لا يكون ثمة غنى لواحد منها عن الآخر. ومع أن الذكاء البشري لا يقوى على أن يسعها جميعا، بل

لابد له دائما من أن يتخذ واحدا منها كأساس إلا أن المرء كثيرا ما يجد نفسه في الظلام –لا سيما في العلم الذي اختاره– إذا هو لم يلُمَّ بفكرة عن العلوم الباقية.. ولقد شعرت بأن هذا الذي آليته على نفسي كان –في حد ذاته– شيئا طيبا ونافعا، وأنه ليس من حاجة إلا إلى تبديل الأسلوب. فأقبلت على "دائرة المعارف" أولا. وقسمتها وفقا لفروعها، ثم رأيت أن لابد لي من أن أفعل العكس تماما فأدرس هذه الفروع منفصلة، وأمضي في كل منها على حدة، إلى النقطة التي يلتقي عندها بسواه، فتتحد جميعا. وبهذا عدت إلى التقسيم المألوف، ولكنني عدت إليه وقد أصبحت رجلا يعرف ما ينبغي أن يفعل. وفي هذا عوضني التأمل عن المعرفة، وساعد التفكير الطبيعي للغاية، على إرشادي للصواب. وسواء كان مقدرا لي أن أعيش أو أن أموت، فقد رأيت أنني لم أوت وقتا أُضَيِّعُهُ. وعدم الإلمام بشيء –في سن تقرب من الخامسة والعشرين– مع الرغبة في التعلم، يتطلبُ الانْهِمَاكَ في الإفادة من الوقت. ومع أنني لم أكن أدري عند أية نقطة قد يحلو للحظ أو للموت أن يوقف تحمسي؛ إلا أنني كنت راغبا –مهما تكن الظروف– في أن ألم بفكرة عن كل شيء، لكي أتبين اتجاه كفاءاتي الطبيعية، أكثر مني لكي أحكم بنفسي على قيمة الجدارة القائمة على التثقف!

ووجدت في تنفيذ هذا المشروع فائدة أخرى لم أكن قد فكرت فيها، وهي توفير أطول وقت ممكن لاستغلاله في ذلك. ولابد أنني لم أخلق للدرس؛ لأن العُكُوفَ عليه طويلا يُضْجِرُنِي إلى درجة أنه من المستحيل علي أن أضطر نفسي إلى الانشغال بموضوع واحد لنصف ساعة بأكمله، لا سيما حين أكون منصرفا إلى متابعة سير تفكير شخص غيري (١)، في حين أنني أَقْوَى أحيانا على أن أستغرق في تفكيري الخاص أمدا أطول، بل وبتوفيق كبير!.. أما حين أتتبع تفكير مؤلف ما، لبضع صفحات أضطر إلى مطالعتها بإمعان واستيعاب، فإن عقلي يَشْرُدُ ويَتُوهُ بين السحاب!.. فإذا أصررت فإنني أرهق نفسي عبثا، وأصاب بدوار، ولا أعود أرى شيئا.. أما إذا تعاقبت موضوعات متباينة –ولو كان تعاقبها متواصلا دون إمهال– فإن الواحد منها يسري عني عَنَاءَ الذي سبقه، ومن ثم فإني أمضي فيها بيسر، دون أن أشعر بحاجة إلى أية مهلة للراحة أو التخفف. ولقد عمدت إلى الإفادة من هذه الملاحظة في الخطة التي أنتَهجْتُهَا للدرس، فرحت أمزج الموضوعات بشكل كان يجعلني أشغل بها طيلة اليوم دون أن أسأم البتة!.. ومن الصحيح أن المهام الريفية والمنزلية كانت تحدث تغييرا نافعا، ولكنني –في غمرة التحمس المطرد– لم ألبث أن وجدت الوسيلة لتوفير وقت للدرس –إلى جانب أداء هذه المهام– ولأن أشغل بأمرين في آن واحد، دون أن يخطُرَ لي أن هذا يقل من إتقاني لكل منهما!

على أنني أعمد إلى شيء من التحفظ، بشأن هذه التفصيلات الدقيقة التي تفتنني، والتي أثقل بها أحيانا على قارئي.. وهو تحفظ لا يحدسه القارئ إطلاقا إذا أنا لم أعن بتنبيهه إليه. فهنا –على سبيل المثال– أذكر في اسْتِعْذَابِ كافة المحاولات المتباينة التي قمت بها لتقسيم وقتي على نمط أتاح لي أن أجد فيه أكثر قدر ممكن من المتعة ومن الفائدة، في آن واحد. وبوسعي أن أقول: إن تلك الفترة، التي قضيتها في عزلة، وفي مرض مستمر كانت أقل فترات عمري تعرضا للْخُمُولِ والضيق. وقد انقضى شهران أو ثلاثة على هذا النسق، في تعرف اتجاه عقلي، وفي الاستمتاع –في أجمل فصول السنة، وفي البقعة التي أحالها هذا الفصل فاتنة– بسحر الحياة الذي أحسست بقيمته تماما: كسحر الزمالة العذبة، غير المقيدة –إذا صح أن نطلق هذا الاسم على معاشرة قامت على اتحاد كامل– أو سحر معرفة رائعة كنت أعتزم أن اكتسبها، ولكنني كنت أنتشي بها وكأنني حصلتها فعلا.. أو لعل نَشْوَتَها كانت أشد لأن لذة الدرس والتعلم كانت ذاتَ دخل كبير في سعادتي!

---

(١) كما يحدث حين يقرأ المرء كتابا للدرس، إذ يحاول أن يتفهم سير تفكير المؤلف، وأن يستوعب آراءه.

ومن الواجب التَّجَاوُزُ عن هذه المحاولات التي كانت بالنسبة لي مبعث لذة وابتهاج، ولكنها كانت أبسط من أن تشرح. فأنا أكرر أن السعادة الحقة لا تُوصَفُ، وإنما هي تحس.. وكلما عَزَّ وصفها كان الشعور بها أفضل وأجمل؛ إذ إنها ليستْ نتيجة مجموعة من الوقائع، وإنما هي حالة دائمة. إنني كثيرا ما أُكَرِّر نفسي ولكنني خليق بأن أزداد تكرارا لو أنني رويت الشيء الواحد بعدد المرات التي يخطر فيها ببالي! وعندما اتخذت حياتي -التي كانت كثيرة التغير- مجرى أكثر انتظاما فهاكم أقرب وصف ممكن لتوزيع أوقاتي:

كنت أستيقظ قبل مشرق الشمس في كل صباح، فأمرق خلال بستان مجاور، إلى طريق جد بديعة، فوق حقول الكروم التي كانت تمتد بطُول سفح الجبل حتى "**شامبيري**". وهناك -وأنا أتمشى- كنت أتلو صلاتيَ التي لم تكن تتألف من مجرد تحريك شفتي بتمتمة فارغة، وإنما كانت تَتَمثَّلُ في سمو صادق بالقلب إلى خالق هذه الطبيعة البديعة، التي كانت آياتُ جمالها تنبسط أمام عيني.. فما أحببت قط أداء الصلاة في الحجرة، فقد كانت الجدران وكل تلك الأشياء التي من صنع الإنسان تبدو لي دائما وكأنها تحول بيني وبين الله.. وإني لأحب أن أفكر فيه وأتأمل آياته بينما يكون فؤادي متطلعا إليه. وبوسعي أن أقول: إن صلاتي كانت خالصة، وكانت جديرة -لهذا السبب- بأن تستجاب. ولم أكن أسأل لنفسي -ولتلك التي كانت دعواتي لا تفرق بيني وبينها إطلاقا- سوى حياة بريئة، مطمئنة، خالية من الرذيلة(١)، ومن الألم، ومن الفاقة المدقعة، ومن موت الاستقامة.. وما إليها، في المستقبل. وعدا ذلك، كانت هذه العبادة تنصرف في معظمها إلى الإعجاب والتأمل، أكثر مما تنصرف إلى الدعاء والسؤال.. إذ إنني أدرك أن خَيْرَ وسيلة للحصول من مانح النعم الحقيقية على تلك النعم اللازمة لنا هي في العمل على أن نستحقها، أكثر مما هي في طلبها منه!.. وكنت أعود من نزهتي بعد دورة طويلة، وأنا مُنْصرِفُ البال إلى تأمل المناظر الريفية المحيطة بي، في سرور واستمتاع، فهي الوحيدة التي لا تملها العين والقلب أبدا. وكنت أرقب من بعدما إذا كان النهار قد بدأ عند "**ماما**"، فإذا ما أبصرت نَافذَتَها مفتوحة ارتجفت غبطة، وهرعت نحو الدار. أما إذا كانت النافذة مُغْلَقَةً فقد كنت أدلف إلى الحَديقة وأنتظر حتى تستيقظ، وأنا أتسلى باسترجاع ما درست في المساء السابق، أو العمل في الحديقة. وإذ يُفْتَحُ مصراعا النافذة، أبادر لأقبل "**ماما**" في فراشها، وهي ماتزال نصف نائمة، في كثير من الأحيان.. وكان هذا التقبيل طاهرا أكثر منه عاطفيا، يستمد من براءته -بالذات- سحرا لم يقترن قط بملاذ الحس!

وكنا نَفْطَرُ عادة على قهوة باللبن. وكانت هذه أكثر فترات النهار هدوءا وسكينة لنا، فكنا نسترسل في الحديث على سجيتنا. ولقد خلفت لي هذه الجلسات -التي كانت طويلة في العادة- ميلا قويا إلى الإفطار، وإني لأوثر الطريقة الإنجليزية أو السويسرية التي تعتبر الإفطار وجبة كاملة تَضُمُّ الأسرة بأكملها، -على الطريقة الفرنسية التي يفطر بمقتضاها كل امرئ في حجرته بمفرده، أو لا يفطر إطلاقا، في الغالب.

وبعد ساعة أو اثنتين -تمضيان في الحديث- كنت أخلو إلى كتبي حتى موعد الغداء. وكنت أبدأ بكتاب من كتب الفلسفة، مثل كتاب "**المنطق**" لـ"**بور-رويال**"، و"**المقالة**" لـ"**لوك**"، وكتب "**مالبرانش**"، و"**ليبينيتز**" و"**ديكارت**"، إلخ. وسَرْعَانَ ما كنت ألاحظ أن بين هؤلاء المؤلفين تناقضا دائما. فخطرت لي فكرة خيالية أوحت بالتقريب بينهم، مما أتعبني كثيرا وجلعني أبدد كثيرا من الوقت.. وكنت أربك ذهني دون أن أُحْرِزَ تقدما ما!.. وإذ طرحت عني -في النهاية- هذا الأسلوب

(١) من الغريب أن يصر "روسو" على أن العلاقة المشينة -مهما تكن مبرراتها- بينه وبين مدام "دي فاران"، لم تكن من الرذيلة في شيء!

كذلك انتهجت أسلوبا يفضله بدرجة لا حد لها، وإليه أعزو كل التقدم الذي استطعت أن أحرزه، بالرغم من نقص استعدادي.. فمن المؤكد أنني لم أوت قط استعدادا كبيرا للدرس.. ولقد آليت على نفسي -وأنا أقرأ لكل مؤلف- أن أستوعب كل أفكاره وأتتبعها دون أن أخلطها بآرائي، أو بآراء أي مؤلف آخر، ودون أن أجادلها. بل إنني كنت أقول لنفسي: "لنبدأ باختزان الآراء بدقة -صحيحة كانت أو خاطئة- ريثما يتوفر لعقلي من الغذاء ما يمكنه من المقارنة بينها والمفاضلة". وإني لأعلم أن هذا الأسلوب لا يخلو من العيوب ولكنه أَفْلَحَ في تمكيني من غَايتِيَ، وهي التعلم. وبعد بضع سنوات قضيتها في عدم التفكير إلا على غِرَارِ سواي، -دون ما تأمل بل وبدون تمحيص- ألفيت نفسي مالكا لمدخر من العلم كاف لإرضائي، ولتمكيني من أن أُفَكِّرَ دون معونة الغير!.. وعندما كانت الرحلات والشواغل تحرمني فرصة اللجوء إلى كتبي -في ذلك الحين- كنت أتسلى باسترجاع ما قرأت والمقارنة بين بعضه وبعض، فأزن كل شيء بميزان، وأُصْدِرُ -في بعض الأحيان- أحكاما على أساتذتي. ومع أنني بدأت أشحذ مقدرتي على النقد في سِنٍّ متأخرة إلا أنني لم أجد أنها قد تبددت، وعندما نشرت آرائي الخاصة لم أتهم أبدا بأنني عبد لأساتذتي، ولا بأنني "أحلف بكلمات أستاذ ما"(١)!

وانتقلت من هذه الدراسات إلى مبادئ الهندسة، التي لم أجاوزها كثيرا قط، إذ أصررت على أن أقهر ضعف ذاكرتي، بفضل الرجوع مائة مرة ومرة إلى حيث بدأت، والشروع باستمرار في تتبع خطواتي السابقة. ولم أَسْتَسِغْ تعاليم "**يوكليد**"(٢)، الذي كان يُعْنَىَ بتسلسل البراهين أكثر من عنايته بترابط الأفكار. وفضلت هندسة الأب "**لامي**"، الذي أصبح -منذ ذلك الحين- من أحب المؤلفين إلي، والذي أعدت قراءة مؤلفاته في اسْتِمْرَاءٍ.. وجاء الجبْر بعد ذلك، فكان الأب "لامي" هو الذي اتخذته مرشدا. حتى إذا تقدمت في دراستي، أقبلت على "علم الحساب" للأب "**رينو**"، ثم على كتابه "تحاليل تستند إلى بَرَاهِينَ"، الذي لم أفعل أكثر من أن مررت به مر الكرام. ولم أمض قط إلى الحد الذي أفهم عنده تطبيق الجبر على الهندسة، فما أحببت قط هذه الطريقة التي تجعلك تمضي في العملية الرياضية دون أن تدري ما الذي تفعله. وكان حل أية مسألة هندسية بالمعادلات الجبرية يبدو لي مثل عَزْفِ لحن بالاكتفاء بإدارة يد(٣)!

وعندما وجدت بالحساب -لأول مرة- أن مربع المعادلة الجبرية ذات الحدين يتألف من مربع كل حد من حديها، ومن ضعف حاصل ضرب كل منهما في الآخر(٤)، لم أشأ أن أُصَدِّقَ ذلك -برغم صحة عملية الضرب التي أجْرَيْتُهَا- إلا بعد أن سجلت العملية بالأرقام. وليس معنى هذا أنني لم أوت ميلا عظيما إلى الجبر، لأنه لا يعالج سويكميات مجردة (مبهمة)، ولكنني كنت -عند تطبيقه على المساحات والأبعاد- أحب أن أرى العملية ممثلة بسطور وخطوط، وبدون ذلك لم أكن أفهم منها شيئا!

*****

وجاءت اللغةُ اللاتينية، بعد ذلك. وكانت هذه أَشَقَّ دراساتي، فلم أُحْرِزْ فيها أبدا أي تقدم كبير. واتبعت في البداية أسلوب "**بور-رويال**" اللاتيني، ولكن دون ما ثمرة. فإن هذه الأشعار الاستروقوطية(٥) كانت تقبض قلبي، ولا تستطيع أن تلج أذني!.. ووجدتني أضل وسط أكداس

---

(١) مثل لاتيني شاع عن تلاميذ "فيثاغورس"، الذين كانوا يرددون آراء أستاذهم في إيمان أعمى! (٢) عالم يوناني عاش في الإسكندرية في القرن الثالث قبل ميلاد المسيح ووضع أصولا للعلوم الرياضية في ١٣ كتابا، خص الهندسة منها تسعة كتب. (٣) يشبه "روسو" حل المسائل الهندسية بالمعادلات الجبرية، بإدارة يد آلة موسيقية ذات زنبرك، فإذا بها تردد النغم دون أن يدري من أدارها شيئا من طريقة عملها! (٤) (أ+ب)=أ٢+٢اب+ب٢ (٥) كانت قبائل "الاستروقوط" البربرية هي المصدر الأول للغة اللاتينية.

القواعد، وما إن أستوعب قاعدة حتى أكون قد نسيت التي سبقتها!.. فليست دراسة الكلمات بالتي تليق بإنسان بلا ذاكرة، وما أصررت على هذه الدراسة إلا لكي أُغْصِبَ ذاكرتي على أن تقوى، فحسب!.. وكان لابد من أن أهجرها في النهاية، على أنني اسْتَوْعَبْتُ التركيب بالدرجة التي تكفي لأن أستطيع أن أقرأ أسلوب كاتب سلس، بمساعدة قاموس. وقد اتبعت هذا النَّهْجَ، فوجدتني أتقدم. وأقبلت على الترجمة، لاكتابة، وإنما في الذاكرة، واقتصرت على ذلك. وبفضل الزمن والمران أصبحت أقرأ بطلاقة كافية مؤلفات الكتاب اللاتينيين، ولكني لم أستطع قط أن أتكلم أو أكتب هذه اللغة.. وهذا ما حيرني كثيرا، حين ألفيتني -دون أن أدري كيف- مُدْرَجًا في عداد أهل الأدب. ومن العيوب الأخرى التي ترتبت على هذه الطريقة من طرق التعلم أنني لم أتعلم قط علم العروض، وكنت أقل إلماما بقواعد نَظْمِ الشعر. ومع أنني -في رغبتي أن أتذوق وقع اللغة شعرا ونثرا- بذلت جهودا كثيرة للإحاطة بها إلا أنني أوقن بأن تحقيق هذا -دون معونة أستاذ- أمر يقرب من المستحيل، وإذ استوعبت تركيب أسهل الأشعار جميعا، وهو السُّداسِي الوزن، تلمست صبرا كافيا لأن أزن كل شعر "**فيرجيل**"، مبينا القاعدة والكم، فإذا ما ارتبت فيما إذا كان أحد المقاطع طويلا أو قصيرا رجعت إلى كتاب "فيرجيل" لأسترشد به. ومن الواضح أن هذا جعلني أرتكب أَخْطَاءً كثيرةً بسبب التغير الذي تسمح به قواعد النظم.. على أنه إذا كان لتعلم المرء بنفسه فائدة فإن له -كذلك- عيوبا عظيمة، في مقدمتها العناء الذي يفوق التصور. وإني لأدرى بهذا من أي شخص، أيا كان!

وكنت أُفَارِقُ كتبي قبيل الظهر، فإذا لم يكن الغداء معدا فإنني كنت أسعى إلى زيارة صديقاتي الحمائم، أو للعمل في الحديقة، في انتظار موعد الغداء. وعندما أسمع النداء أهرع -وأنا جد مغتبط- وقد أُوتِيتُ شهية عظيمة. فمن الجدير بالملاحظة أن شهيتي لا تتخلى عني، مهما أكن مريضا. وكنا نتغدى في انشراح، ونحن نتبادل الحديث في شؤوننا حتى تَفْرُغَ "**ماما**" من الأكل. وكنا -إذا ما تحسن الجو- نذهب، مرتين أو ثلاثا في الأسبوع، إلى ما وراء الدار، لنتناول القهوة في مقصورة عليلة الجو، ظليلة، زينتها بحشيشة الدينار(١)، وكنا نَشْعُرُ بارتياح شديد إليها في القيظ. وهناك، كنا نقضي وقتا -ليس بالطويل-، في تَفَقّدِ خضرنا وزهُورنا، وفي أحاديث تتعلق بطريقة معيشتنا، كانت تجعلنا أقدر تذوقا لجمالها. وكانت لي أسرة أخرى، في أقصى الحديقة، تتألف من نحل. ولم يكن يفوتني قط أن أزورها، وكثيرا ما كانت "**ماما**" تصحبني. وكنت أهتم كثيرا بعملها، وأنعم للغاية برؤيتها في عودتها من جَنْيِ الزُّهور، وقد أثقلت سيقانها الدقيقة بأحمالها، بحيث كان يتعذر عليها المشي أحيانا. ولقد حملني الفضول -في الأيام الأولى- على أن أحاول التثبت مما كنت أرى، فلدغني النحل مرتين أو ثلاثا، ولكننا لم نلبث أن وثقنا تعارفنا حتى إنه كان يَدَعُنِي وشأني، مهما أقترب منه.. وكان يتجمع حولي -مهما تكن الخلايا مليئة، تأهبا للإفراز- فيحط على يدي ووجهي دون أن يلدغني قط!.. إن كل الحيوانات تُوجسُ عادة من الإنسان -وهي ليست مخطئة في ذلك- ولكنها ما إن تطمئن مرة إلى أنه لا يريد بها أذى حتى تصبح ثقتها به عظيمة إلى درجة أنه لا يسيء إلى هذه الثقة إلا إذا كان همجيا بربريا!

وكنت أعود إلى كتبي، بيد أن أعمالي -فيما بعد الظهر- كانت أقل جَدَارَةً بأن تحمل اسم "العمل والدراسة"، منها باسم "الراحة والتسلية". فما كنت لأطيق قط العمل المكتبي بعد غدائي؛ لأن كل عمل، في الأيام الحارة يكبدني عناء، بوجه عام. على أنني كنت أشغل نفسي بالقراءة دون الاستذكار، وبغير إرهاق، بل وبغير ضابط أو قاعدة. وكان الشيء الذي اعتدت أن أواظب عليه بدقة،

---

(١) نوع من النباتات.

هو التاريخ والجغرافيا. ولما كان هذان لا يتطلبان أي جُهْدٍ عَقْلِي فإنني كنت أمضي فيهما قدما بقدر ما كانت تسمح ذاكرتي القاصرة، وحاولت أن أدرس مؤلف الأب "بيتو"، وانغمست في غَيَاهِبِ علم التاريخ، ولكنني كنت لا أميل إلى الأجزاء الدقيقة منه التي لا قاع لها ولا شاطئ(١) وكنت أفضل عليها الأبعاد الدقيقة التوقيت، ومَسْرَىَ الأَجْرامِ السماوية. بل إنني كنت خَليقا بأن أُغْرمَ بعلم الفلك لو أنني أوتيت أدوات له، ولكنني كنت مضطرا إلى أن أقنع ببعض مبادئه التي تؤخذ عن الكتب، وببعض مشاهدات غير دقيقة -خلال منظار مقرب- كانت كافية لمعرفة المواقع العامة للأجرام فحسب، إذ إن نظري القصير لم يكن يَسْمَحُ لي بتمييز أي شيء بالعين المجردة، فما بالك بالكواكب؟.. وأذكر -في هذا الصدد- حادثا كثيرا ما يحملني تَذَكُّرهُ على الضحك: فقد ابتعت خريطة فلكية لأدرس عليها الطوالع، وثَبَّتُّهاً إلى إطار، وكنت في الليالي الصافية أذهب إلى الحديقة فأضع إطاري على أربع قوائم في ارتفاع قامتي تقريبا، بحيث تكون الخريطة مقلوبة. ولكي أضيئها دون أن تطفئ الريح شمعتي، كنت أضع هذه في دَلْوٍ على الأرض، بين القوائم الأربع، ثم أنظر -بالتناوب- إلى الخريطة بعيني، وإلى الكواكب بمنظاري، وأروح أُضْنِي نفسي بالتعرف على النجوم واستنتاج الطوالع. وأظنني قد قلت: إن حديقة السيد "**نواريه**" كانت مرتفعة عن مستوى الأرض، بحيث كان كل ما يجري يُشَاهَدُ من الطريق. وحدث -ذات مساء- أن كان بعض الفلاحين مارين في ساعة متأخرة، فرأوني في هيئة مضحكة، وقد انهمكت في عملي. وكان الضوء الواهن المنعكس على خريطتي -والذي لم يكونوا يرون مصدره، لأنه كان محجوبا عن أنظارهم بحواف الدلو- كما كانت هذه القوائم الأربع، والصفحة الورقية الكبيرة المكسوة بالأشكال والأرقام، والإطار، وحركة منظاري، الذي كانوا يرونه وهو يروح ويجئ.. كل هذه أوحت بفكرة السِّحْرِ، مما أفزعهم!.. ولم يكن لباسي صالحا لأن يُطَمْئِنُهُمْ، فقد كنت أرتدي قبعة ذات حافة عريضة، تعلو قلنسوتي "طاقيتي"، وقد أجبرتني "**ماما**" على ارتدائها، مما هيأ لأنظار أولئك الفلاحين صورة ساحر حقيقي! ولما كان الوقت يُنَاهِزُ منتصف الليل فإنهم لم يرتابوا إطلاقا في أنهم أمام اجتماع للسحرة! ولما كان فضولهم أقل من أن يزين لهم مشاهدة ما كان يجري فإنهم فروا وهم في فزع شديد، وأيقظوا جيرانهم ليرووا لهم ما رأوا!.. وانتشرت القصة بسرعة حتى إن كل امرئ في الجيرة كان يعرف -في اليوم التالي- أن اجتماع السحرة عقد في دار السيد "**نواريه**". ولست أدري ما كانت تؤدي إليه هذه الشائعة في النهاية لو لم يعمد أحد الفلاحين الذين شهدوا حركاتي السحرية، إلى أن يرفع شكاته -في اليوم ذاته- إلى اثنين من "**الجيزويت**"، اعتادا أن يَتَرَدَّداً علينا، فَسَفَّهَا الشَّكْوَى دون أن يعرفا جَلِيَّةَ الأمر. ثم ذكرا لنا القصة، فأدليت إليهما بالسبب، وضحكنا لذلك كثيرا. على أنه تقرر -خشية تكرار ذلك الحادث- أن أقوم بمشاهداتي الفلكية في المستقبل دون استعانة بضوء، مكتفيا بالرجوع إلى الخريطة داخل الدار. والذين قرءوا كتابي: "**رسائل الجبل**"، عن أعمالي السحرية في "**البندقية**"، رأوا -كما أرجو- أن السحر كان صنعتي ردحا طويلا!

هكذا كانت حياتي في "**شارميت**" عندما لم أكن مَشْغُولا بأية مهمة ريفية، فقد كانت هذه تَظْفَرُ بالأفضلية دائما، كما أنني كنت -في الأعمال التي لا تتجاوز طاقتي- أعمل كأي فلاح!.. على أنه من الصحيح أن ضَعْفِي البالغ لم يدع لي -إذ ذاك- من مقدرة في هذا المجال، اللهم إلا النية الطيبة.. هذا فضلا عن أنني كنت أَبْغِي أن أقوم بعملين في آن واحد؛ ولهذا السبب لم أتقن أيا منهما. إذ كنت قد وضعت نُصْبَ عيني أن أهيئ لنفسي -بالقوة- ذاكرة طيبة، فدأبت على محاولة

---

(١) يقصد أنها من العمق بحيث أنه كان يتخبط فيها دون أن يهتدي إلى غاية أو يفقه منها شيئا.

أن أحفظَ كثيرا من المعرفة عن ظَهْرِ قلْب. ومن أجل هذا كنت أحمل معي دائما كتابا أدرسه وأستذكره وأردده على نفسي وأنا منهمك في العمل، متحملا في ذلك عناء لا يصدقه العقل! ولست أدري كيف أن إصراري على هذه المحاولات غير المجدية وهذه المجهودات المستمرة لم ينته إلى أن أغدو -في النهاية- غَبِيًّا!.. كان لابد من أن أدرس ديوان الشاعر "**فيرجيل**" EGLOGUES وأن أكرر الدرس عشرين مرة، ومع ذلك فإنني لم أفقه منه كلمة واحدة! ولقد فقدت، أو فَكَكْتُ، عددا كبيرا من الكتب باعتيادي حملها معي في كل مكان، سواء كان ذلك في أَعْشَاش الحمام، أو في الحديقة، أو في البستان، أو في مزرعة الكروم. وكنت أثناء انشغالي بشيء أضع الكتاب في أسفل إحدى الأشجار، أو على السياج العشبي، ثم كنت أنسى أن آخذه ثانية.. وكثيرا ما كنت أجده -بعد خمسة عشر يوما- تالفا، أو يكون قَرَضَهُ النمل والقواقع. وأصبحت هذه اللهفة إلى التعلم تَهَوُّسا دفعني إلى ما يقرب من العَتَهْ والحماقة، حتى إنني -لانشغال بالي- كنت لا أنفك أتمتم وأغمغم!

ولقد أحالتني مؤلفات "**بور-رويال**" وكتاب "**الخطابة**" -اللذين كنت أقرؤهما بكثرة بالغة- إلى شخص نصف "**يانسيني**". وبالرغم من قوة إيماني، فإن "**لاهوت**" هذا المذهب القاسي كان يُزْعِجُني أحيانا.. وأخذت رهبة الجحيم -الذي لم أكن حتى ذلك الوقت أخافه كثيرا- تقض طمأنينتي شيئا فشيئا.. ولو لم ترفه "**ماما**" عن نفسي لقلب هذا المذهب الرهيب كل كياني!.. وقد بذل الراهبُ الذي اعتدت أن أُفْضِي إليه باعترافاتي -والذي كان يَتَلَقَّى اعترافاتها هي الأخرى- قصارى وسعه في أن يجعلني في حال ذهنية طيبة. وكان هذا الراهب من "**الجيزويت**"، ويدعى الأب "**هيميه**". وقد كان شيخا طيبا، حكيما، سأظل دائما أوقر ذكراه. ومع أنه كان "**جيزويتيا**" إلا أنه كان في سذاجة الطفل، وكانت أخلاقه وادعة أكثر منها متراخية، وهذا عين ما كنت في حاجة إليه، لأعيد إلى نفسي توازنها بعد الانطباعات الكئيبة التي أحدثتها "**اليانسينية**". وكان هذا الرجل الطيب وزميله -الأب "**كوبييه**"- يَفِدَانِ كثيرا لزيارتنا في "**شارميت**"، برغم أن الطريق كانت شديدة الوعورة، وأطول مما ينبغي بالنسبة لمن هم في سنهما. ولقد كانت زيارتهما ذات أثر طيب عظيم على نفسي، أسأل الله أن يُسْبِغَ على روحيهما جزاء مثله!.. إذ كانا طَاعِنَيْنِ في السن -في ذلك الوقت- بحيث إنني لا أظنهما على قيد الحياة اليوم. وكنت -أنا الآخر- أذهب لزيارتهما في "**شامبيري**"، فألفت دارهما تدريجا، وأصبحت مكتبتهما رهن إرادتي. وإن ذكرى هذه الفترة السعيدة لترتبط ارتباطا وثيقا بذكرى "**الجيزويتيين**" حتى إنني أحب كلا منهما من أجل الآخر. ومع أن مذهبهما كان يبدو لي -دائما- خَطِراً إلا أنني لم أستطع أن أجد قط ميلا إلى أن أُولِيهما كراهية صادقة!

ولكم أود أن أعرف ما إذا كان يَطُوفُ بقلوب الغير من الأفكار الصبيانية ما يطوف بقلبي أحيانا. ففي غمرة دراساتي، وفي سياق حياة بريئة إلى أقصى ما يُسْتَطَاعُ، وبالرغم من كل ما قيل لي فإن الخوف من الجحيم لايزال يزعجني أحيانا. وكنت أسائل نفسي: "في أي حال أنا؟،، وهل أدان لو أنني مت في هذه اللحظة؟".. وعلى هَدْي أساتذتي "**اليانسنيين**"، لم يكن ثَمَّةَ رَيْبٍ في الأمر.. ولكنني كنت أرى الحكم يختلف، على هدى ضميري!.. وإذ كنت دائما في خوف، أتخبط في هذا التَّذَبْذُبِ القاسي، فقد أخذت ألجأ -وأنا أبحث عن مخرج- إلى وسائل من أدعى الأمور للضحك، وكنت من أجلها على استعداد لأن أحبس أي إنسان أراه يأتيها!.. ففي ذات يوم أخذت -بطريقة آلية، وأنا أفكر في هذا الموضوع المقبض- أرمي جُذُوعَ الأشجار بالأحجار، بما كان لي من مقدرة على الرماية.. أعني دون أن أصيب أيا منها تقريبا!.. وفيما كنت في غمرة هذا العمل الطريف خطر لي أن

اتخذ منه لونا من الشعوذة كي أُطَامِنَ قلقي. فقلت لنفسي: "سارمي هذا الحجر نحو الشجرة المواجهة لي فإذا أصبت كانت الإصابة بشيرا بالنجاة، وإذا أخفقت فقد حاقت بي اللعنة"!.. وفيما كنت أقول هذا طوحت بالحجر، بيد مرتجفة، وبخفقان عنيف في القلب.. ولكنني بتوفيق بالغ، حتى إن الحجر أصاب الشجرة في منتصفها تماما، وهو أمر -إن شئتم الحق- لم يكن بالعسير، إذ إنني كنت قد عنيت باختيار شجرة غَليظَةِ الجِذْعِ جدا، وقريبة جدا. ومنذ ذلك الوقت لم يعد يخالجني شك في خلاصي!.. ولست أدري -وأنا أذكر هذا الحادث- أأضحك أم أتحسر على نفسي! إن لكم - أيها الكبار، الذين تضحكون ولا شك- أن تطربوا، ولكن.. لا تسخروا من ضعفي أو عبثي، فإني أقسم لكم إنني أشعر به تمام الشعور!

على أن هذه الاضطرابات، وهذه الدموع التي قد لا يمكن فصلها عن التقوى والإيمان لم تكن حالا دائمة. فقد كنت -بوجه عام- موفور الهدوء، وكان الأثر الذي خَلَّفَتْهُ فِكْرَةُ الموتِ المبكر في نفسي أقل انتماء إلى الحزن منه إلى الضعف والاستكانة الوادعة، التي كان لها سحرها الخاص.. ولقد عثرت بين أوراق قديمة على قطعة رثاء كنت قد وجهتها إلى نفسي، أهنئها فيها على موتي في سن يشعر عندها المرء بقدر كاف من الشجاعة على مواجهة الموت، دون أن أكون قد عانيت عللا قاسية -بدنية كانت أو عقلية- خلال حياتي!.. ولكم كنت مُصيبا!.. كان ثمة هَاجِس يُخيفني من الحياة خشية العذاب!.. لكأنما كنت أرى مقدما المصير الذي كان في انتظاري في أواخر أيامي!.. أبدا ما كنت قريبا من الحكمة بقدر ما كنت في تلك الفترة السعيدة!.. ففي بعدي عن الحسرة البالغة على الماضي، وفي تحرري من هواجس المستقبل كان الشعور الغالب على نفسي باستمرار هو شعور الاستمتاع بالحاضر. إن الأتقياء يؤتون -عادة- قدرا ضئيلا من شهوة متأججة، تجعلهم يتذوقون في استمراء تلك الملاذ البريئة المباحة لهم. ولكن الدنيويين يرون في ذلك جرما من جانب الأتقياء. ولست أدري لذلك سببا.. لا، بل أحسبني أعرف تماما.. فهم يحسدون الأتقياء على بهجة الملاذ الساذجة التي فقدوا هم طعمها!.. ولقد كان هذا الميل لدي، فوجدت من بواعث الغبطة أن أرضيه وأنا مطمئن الضمير.. وكان قلبي مايزال غضا، فأسلم نفسه إليه تماما، وفي فرح الطفل، أو بالأحرى -إذا كان لي أن أجرؤ على القول- في شبق الملاك!.. فقد كان لهذه المتع الوادعة، ما لمباهج الفردوس من سِحْرٍ جليل!.. كان تناول الغداء على الحشائش في "**مونتانيول**"، وتناول العشاء تحت الخَمَائِلِ، وجَني الفواكه، واقتطاف العنب، والأمسيات التي كانت تُقْضَى في انتزاع ألياف القنب مع رجالنا.. كل هذه كانت أعيادا حافلة وجدت "**ماما**" فيها عين ما كنت أنا أجد من سرور.

وكانت النزهات التي نقوم بها وحيدين، ذات فتنة أشد وأكثر، لأن القلب كان ينطلق متحررا. ولقد قمنا -فيما قمنا به منها- بنزهة تعتبر من المعالم في ذاكرتي: كان ذلك في يوم عيد للقديس "**لويس**"، الذي سُمِّيتْ "**ماما**" باسمه، وانطلقنا معا -وحيدين- في البكور، بعد قُدَّاس جاء أحد الرهبان "**الكرمليين**" ليلقيه علينا -في مطلع النهار- في كنيسة صغيرة مُلْحَقَة بالدار. وكنت قد اقترحتُ أن نتمشى في جانب الوادي المقابل للجانب الذي كنا فيه، ولم نكن قد زرناه قط. فأرسلنا زَادَنَا مُقَدَّما، إذ كانت النزهة تستغرق اليوم بطوله. ولم تكن "**ماما**" ثقيلة في سيرها، برغم أنها كانت بدينة، ممتلئة الجسم، فأخذنا نتنقل من هضبة إلى هضبة، ومن غابة إلى غابة، في الشمس حينا وفي الظل أحيانا، ونحن نستريح من آن إلى آخر، وقد غفلنا تماما عن سير الزمن. وكنا نتحدث عن نفسينا، وعن رابطتنا الوثيقة، وعن عذوبة نصيبنا في الحياة، رافعين -من أجل دوامه- دَعَوَات لم تستجب!..

وكان كل شيء يبدو وكأنه يُدَبَّرُ في الخفاء لجعل هذا النهار هنيئا. وكان ثمة مطر قد تساقط منذ فترة قريبة، فلا أثر لغبار.. كما كانت ثمة جداول جارية، ونسيم يداعب أوراق الشجر. وكان الهواء نقيا، والأفق خلْوا من السُّحُب، والسماء -كقلبينا- يسودها الصفاء!.. تناولنا غداءنا في دار أحد الفَلاحين، وقد تقاسمناه مع أسرته التي باركتنا وشكرتنا من صميم الأفئدة. ما أطيب أولئك الفقراء من أهل **"سافوا"**!

وبعد الغداء لذنا بالظل تحت الأشجار الوارفة، حيث رحت أتسلى بجمع بعض العيدان الخشبية الجافة لنعد قهوتنا، بينما كانت **"ماما"** تَتَلَهَّى بتفقد الأعشاب بين الأدغال. ورأت الزهور التي كنت قد جمعتها أثناء الطريق، فأخذت تُلْفِتُ نظري إلى ألف غريبة وعجيبة في تكوينها، مما لذ لي كثيرا، ومما كان خليقا بأن يجعلني أميل إلى علم النبات لولا أن أوان هذا الميل لم يكن قد حان ، فقد كنت منصرفا عنه إلى كثير من الدراسات الأخرى. وخَطَرَتْ لي فِكْرَةٌ حولتني عن الزهور والنباتات: فإن الجو الروحي الذي ألفيتني فيه، وكل ما قلنا وفعلنا في ذلك اليوم، وكل الأشياء التي خَلَبَتْ لُبِّي، ذكرتني بذلك الحلم الذي رأيته وأنا في كامل اليقظة في **"أنيسي"** قبل سبع أو ثماني سنوات، والذي رَوَيْتُهُ في مكانه(١). وكان الشبه من القوة بحيث إنني حين تذكرت الحلم اهتزت مشاعري تأثرا وانساب دمعي.. وفي نوبة من الانفعال العاطفي، عانقت تلك الحبيبة الغالية، وقلت لها في وَجْد: **"ماما"**، **"ماما"**.. لقد كنت موعودا بهذا اليوم منذ أجل طويل، ولست أرى ما يَفُوقُهُ!.. إن سعادتي -بفضلك- في أوجها، فليتها لا تتناقص بعد ذلك!.. ليتها تدوم طالما ظللت أنعم باستمرائها!.. ليتها لا تَنْقَضِي إلا مع انقضاء أجلي"!

وهكذا أخذت تنساب أيامي السعيدة.. بل الأيام التي كانت أكثر من سعيدة، حتى إنني -لعجزي عن أن أتبين ما قد يقوى على تَعْكِيرِهَا- كنت أتصور أنها لن تنتهي -في الواقع- إلا مع نهايتي!.. وليس معنى هذا أن نبع وساوسي كان قد نَضَبَ تماما، وإنما كان معناه انني رأيت هذه الوساوس تتخذ طريقا آخر مكنني من أن أوجه أحزاني وآلامي إلى أهداف نافعة، جلبت عليها دواء نَاجِعا!.. ولقد كانت **"ماما"** تُحِبُّ الريفَ بطبيعتها، فوجد هذا الميل مني ما يذكيه. وما لبثت أن انتقلت إليها -تدريجا- عدوى الشغف بالأعمال الريفية.. وكانت تحب تَقْوِيمَ الأرض(٢)، كما كانت لديها -فوق هذا- معرفة ومعلومات كانت تستغلها في هذا الصدد باستمتاع. ولم تَقْنَعْ بالأرض التي كانت تابعة للبيت الذي استولت عليه، بل إنها كانت تستأجر تارة حقلا، وتارة مَرْجا. وانتهت إلى أن ركزت روح ابتكار المشروع لديها في الأمور الزراعية، بدلا من أن تبقى عَاطِلَة في الدار. وبدأت تعمل لكي تصير -في القريب العاجل- مزارعة كبيرة!

ولم أكن أحب كثيرا أن أراها تتوسع في ذلك، فرحت أعارضها فيه قُصَارىَ ما استطعت، وأنا واثق تمام الثقة بأنها كانت دائما تغتر فتخطئ، وأن روحها المتحررة السخية كانت تحملها دائما على أن تُنْفِقَ أكثر مما يعود عليها من إنتاج. على أنني وجدت عزاء في التفكير في أن هذا الإنتاج لن يكون معدوما -على الأقل- وأنه قد يساعدها على العيش.. وبالنسبة إلى كافة المشروعات التي قدر لها أن تَرْسِمَهَا بدا لي هذا المشروع أقل إيقاعا للخراب بها. ومع أنني لم أر -مثلها- فيه موردا للربح إلا أنني رأيت فيه شاغلا يقيها باستمرار حيل المحتالين الخبيثة!

وبهذه الفكرة أصبحت أرغب كل الرغبة في أن أسترد قوتي وصحتي معا؛ حتى يَتَسَنَّى لي أن أَسْهَرَ على أعمالها، وأن أغدو رئيسا لعمالها، أو العامل الأول في خدمتها. ومن الطبيعي أن المران

---

(١) في الكراسة الثالثة.(٢) تقدير قيمتها وميزتها.

والرياضة اللَّذَيْن حَمَلَتْني هذه الرغبة على القيام بهما أصبحا ينتزعاني في كثير من الأحيان من كتبي، ويشغلاني عن حالي الصحية؛ مما كان خليقا بأن يسير بها نحو التحسن!

من سنة ١٧٣٧ إلى سنة ١٧٤١

عــاد "**بارييــو**" من إيطاليا في الشتاء التالي، وقد جلب لي معه بعض الكتب، منها كتابا الأب "**بانشـيـري**": "**بونتمبي**" و"**كارتلا بير ميوزيكا**"، اللذان حببا إلي دراسة تاريخ الموسيقى، والأبحاث النظرية في هذا الفن الجميل، وبَقِيَ "**بارييو**" معنا فترة من الزمن. ولما كنت قد بلغت سنَّ الرشد قبل ذلك ببضعة أشهر فقد اتفقنا على أن أذهب إلى "**جنيف**" في الربيع التالي؛ لأطالب بثروة أمي، أو لأطالب -على الأقل- بذلك النصيب الذي خَصَّني منها، ريثما نستبين ما ألم بأخي. ونفذت هذه الخطة كما اتفقنا، فذهبت إلى "**جنيف**" حيث لَحِقَ بي أبي، وكان قد ألف منذ فترة طويلة أن يزور المدينة دون أن يحتك به أحد بالرغم من أن الحكم الذي صدر عليه كان مايزال قائما. ولكن أبي كان مَوْضِعَ التَّقْدِيرِ لبسالته، والاحترام لأمانته، فتظاهر أولو الأمر بأنهم نسوا قضيته الصغيرة. وكان الحكام في شغل شاغل بالمشروع العظيم الذي بزغ فجره بعد ذلك بقليل؛ ولذلك أبوا أن يُثيروا ثائرة الطبقات الوسطى قبل الأوان، بأن يذكروهم بتحزبهم السابق في لحظة غير مواتية.

وخَشِيتُ أن تقوم في وجهي الصعوبات بسبب ارتدادي عن مذهبي، إلا أن شيئا من هذا لم يحدث، فقوانين "**جنيف**" في هذا الشأن ليست في صَرَامَة قوانين "**برن**"، حيث يفقد من يرتد عن دينه لا منزلته فحسب بل أملاكه أيضا. ولم يكن ثمة نزاع في حقي إلا أن الميراث نفسه -لسبب لا أدركه- تَضَاءَلَ إلى مبلغ تافه. ومع أن أخي كان -في غالب الظن- قد لَقِيَ ربَّه إلا أنه لم يكن ثمة دليل قانوني على هذا. لم يكن عندي من الأسانيد ما يكفي لأن أُطَالِبَ بنصيبه، فتركته عن طيب خاطر لأبي يستعين به على حياته، وقد كان له حق المنفعة مادام على قيد الحياة. وما إن تمت الإجراءات القانونية وتسلمت مالي حتى أنفقت شيئا منه في شراء بعض الكتب، وهرعت إلى "**ماما**" أضع الباقي تحت قدميها، وكان قلبي يَطْفَحُ بُشْرا أثناء الرحلة. وفي اللحظة التي وضعت فيها هذا المال في يدها كنت أسعد ألف مرة من اللحظة التي تسلمته فيها!.. وتقَبَّلَتْ هي المال قبول النفس السامية الرفيعة التي لا تجد من العسير عليها أن تأتي مثل هذا الفعل، فلا يدهشها أن يعاملها الغير نفس المعاملة.. وقد أنفقت المال كله تقريبا على شخصي، بنفس تلك البساطة التي اتَّسَمَتْ بها. ولو كان هذا المال قد جاء من مصدر آخر لأنفقته على نفس هذه الصورة!

ولم أكن في ذلك الوقت قد استعدت صحتي تماما بل -على العكس- كنت أذوي وأذبل بشكل واضح!.. كنت في شُحُوبِ الموتى وهُزَال الهيكل العظمي، وكانت ضربات عروقي فظيعة لا تحتمل، وازدادت نَبَضَاتُ قلبي، وكنت أُعَاني على الدوام عُسر التنفس.. وازددت ضعفا آخر الأمر حتى كنت لا أكاد أستطيع الحراك.. كنت لا أستطيع أن أغذ السير إلا وأشعر بالاختناق، ولا أنحني دون أن يصيبني الدوار، وتعذر علي رفع أصغر الأثقال، فاكرهت على البقاء ساكنا جامدا، وهو أكبر عذاب يُصيبُ رجلا في مثل قلقي وضَجَري. ولا شك في أن مرضي كان مرده "**الهستيريا**" إلى حد كبير، فكأني قد بليت بذلك المرض الذي لا يُصِيبُ إلا السعداء!.. فالدموع التي كثيرا ما كنت أذرفها دون سبب يدعو إلى البكاء.. وفرحتي وافتتاني بحفيف ورقة من أوراق الشجر، أو تَغْرِيدِ طائر طَرُوب..

ومزاجي المتقلب في حياة بلغت ذروة الهناء، كل هذه كانت دلائل على كَلاَل من تأثير السعادة يؤدي إلى حساسية مفرطة. ونحن لم نتزود للسعادة في هذا العالم إلا بالقليل، مما يقتضي أن يُعَانِي الروح أو الجسم.. إذا لم يعانيا معا.. وسعادة الواحد منهما تؤذي الآخر دائما تقريبا. وبينما كنت مستطيعا أن أنعم بحياتي في سعادة تامة فإن انْحِلالَ جِهَازِ جسمي كان يحول بيني وبين ذلك دون أن يستطيع أحد أن يدلني على موضع الداء مني. ويبدو أن جسمي قد استعاد فيما بعد قوته بالرغم من التداعي الذي أحسه في كبري وآلامي المبرحة الحقيقية التي أصبحت في الكبر أشد قوة وتبريحا. واليوم، -وأنا أكتب هذه السطور، وقد نال مني الضعف وبلغت الستين من عمري أو أكاد، وغلبتني الآلام من كل نوع على أمري- أشعر أن في كياني من الحياة والقوة على احتمال الألم أكثر مما كان لدي من الحياة والقوة على الاستمتاع -في مَيْعَة الصبا- في غمرة من أصدق آيات السعادة.

ورغبة في إذلال نفسي إذلالاً تاما شرعت -بعد أن قرأت شيئا من الفلسفة- في دراسة التشريح، وعرفت عدد الأعضاء المستقلة التي يتألف منها جهاز جسمي ووظائفها. وكنت أميل للشعور، عشرين مرة في اليوم، بأن الخلل قد دَبَّ في أعضائي جميعا، ولم يكن يُذْهِلْنِي قط أن أجدني في حالة احْتِضَار، وإنما كان يدهشني أنني مازلت قادرا على الحياة! وكنت أعتقد أنني مصاب بكل مرض أقرأ أوصافه، وإني لمقتنع بأنني لو لم أكن مريضا فقد جعلتني هذه الدراسة القاتلة كذلك.. فلقد كنت أجد في الأَعْرَاضِ التي تنتابني أعراض كل علة، فحسبتني مصابا بالعلل جميعا!.. وبذلك انتابني مرض، هو أقسى الأمراض جميعا، وكنت أظنني براء منه.. وأعني به الرغبة الملحة في أن أُشْفَى، وهي رغبة يَتعَذَّرُ على المرء أن يَفْلِتَ منها إذا ما بدأ في قراءة الكتب الطبية!.. وانتهيت بشيء من البحث والتأمل والمقارنة إلى أن أساس مرضي هو "ورم ليفي في القلب"!.. وقد لاح على "**سالومون**" نفسه أن الفكرة أذهلته، ولئن كان من الواجب أن تؤيدني هذه الافتراضات تأييدا معقولا في قراراتي السابقة إلا أن الحال لم تكن كذلك، فقد بذلت كل ما وَسِعَنِي من جُهْدِ عقلي لأكتشفَ طَرِيقَة علاج الورم الليفي الذي يصيب القلب.. وقد صح مني العزم على أن أتكفل بهذا العلاج الرائع. ولقد قيل للتعس "**آنيه**" في رحلته إلى "**مونبيلييه**" لزيارة حدائق النباتات ومسيو "**سوفاج**" -المعيد- بأن مسيو "**فيز**" قد شَفَى مريضا بهذا الورم الليفي، وكان هذا كافيا لأن يوحي إلي برغبة ملحة في أن أقصد مسيو "**فيز**" للاستشارة.. فقد أعاد الأمل في الشفاء إلى نفسي الشجاعة وزودني بالقوة على تَجَشُّمِ مَشَاق الرحلة، وكان المال الذي جئت به من "**جنيف**" عوني على ذلك. وشجعتني "**ماما**" على الذهاب، وهي أبعدُ الناس عن أن تُحَاول إثنائي عن عزمي.. وهكذا وجدتني في طريقي إلى "**مونبيلييه**"! وما كانت بي حاجة لأن أذهب إلى هذا المكان النائي سعيا وراء الطبيب الذي أنا في حاجة إليه!.. واستقللت عربة في "**جرينوبل**" -إذ كان ركوب الجياد يُتْعِبُني كثيرا- فوصلت إلى "**موران**" -بعد عربتي- خمس أو ست عربات غيرها، الواحدة في إثر الأخرى.. وكان معظم هذه العربات جزءا من موكب عروس زُفَّتْ حديثا اسمها السيدة "**دي كولمبييه**"، وكانت ترافقها سيدة أخرى هي السيدة "**دي لارناج**"، أصغر منها سنا، وإن لم تكن جذابة في ملامحها مثلما هي في ظرفها.. وكانت تنوي أن ترتحل من "**رومانس**" -وهي المدينة التي ستتوقفُ فيها السيدة "**دي كولومبييه**"- إلى مدينة "**سانت أنديول**" قرب "**سان أسبري**". ونظرا لما طُبِعْتُ عليه من خَجَل ذاع صيتُه فلا تحسبن أنني تعرفت بهاتين السيدتين الظريفتين وحاشيتهما بسهولة.. ولكنني كنت أسافر في نفس الطريق الذي يسافران فيه، وأنزل في الفنادق نفسها التي ينزلان فيها، فَخَشِيتُ أن يُقالَ

عني: إنني أبعث على السأم والملالة، وكنت مكرها أيضا على الجلوس معهم إلى مائدة واحدة.. فوجدت من المستحيل علي آخر الأمر أن أتجنب التعرف بهما، ففعلت هذا.. تعرفت بالسيدتين بأسرع مما كنت أريد!.. وبرغم أن كل هذه الضوضاء لم تكن لتناسب رجلا مريضا، وخاصة إذا كان في مثل مزاجي إلا أن حُب الاسْتِطْلاَعِ يجعل هذه المخلوقات الماكرات غاية في الإغراء حتى إنهن عندما يردن التعرف برجل يبدأن في امتلاك لبه، وهذا ما وقع لي!.. بيد أنه كان يُحيُط بالسيدة **"دي كولومبييه"** بعض الشبان المتانقين، إحاطة السوار بالمعصم، مما لم يُفْسِحْ لها الوقت للتعرف بي.. أضف إلى هذا أن الأمر لم يكن ليستحق منها التفاتا مادمنا كنا على وشك الافتراق. ولكن السيدة **"دي لارناج"**، ولم يكن ليحيط بها هذا القدر من المعجبين، كان لابد لها أن تَتَزَوَّدَ لرحلتها بما يلزم، وهكذا كانت السيدة **"دي لارناج"** هي التي أخذت على عَاتِقَها إذن أن تَغْزو قلبي.. ومنذ ذلك الحين وَدَاعا لـ**"چان چـاك"** المسكين –أو على الأصح وداعا للحمى والهستيريا والورم الليفي– وداعا لكل شيء وأنا في صحبتها، ماعدا بعض نبضات القلب التي بَقِيَتْ، والتي لم يبد منها أي مَيْلٍ لشفائي منها. وكان سوء حالتي الصحية هو أول موضوع تطرقنا إلى الحديث فيه. لقد كانتا تريان أنني مريض وتعلمان أنني ذاهب إلى **"مونبيلييه"**، ولابد أن مظهري وأخلاقي قد جعلت من الواضح أنني لست خَليعا.. ذلك أنه تبين لي، –مما تلا من الحوادث– أنهما لم تشتبها في أنني ذاهب إلى **"مونبيلييه"** لكي أعالج من نتائج الخلاعة، ومع أن سوء الصحة ليس مما يحبب النساء كثيرا في المرء فقد أثار سقمي اهتمام هاتين السيدتين، فكانتا تُرْسِلاَن إليّ في الصباح تسالان عن حالي وتَدْعُوانِي إلى تناول الشوكولاتة معهما، وتسألاني كيف قضيت ليلتي.. وذات مرة أجبت بأنني لا أدري، على ما أَلِفْتُ في عادتي الحميدة من الكلام دون تفكير، فحملهما هذا الرد على الاعتقاد بأنني مجنون، وشرعتا تفحصاني بدقة أكثر. ولم أصب من ذلك بضرر، وإن سمعت السيدة **"دي كولومبييه"** تقول مرة لصديقتها: "إنه لا خلاق له ولكنه ظريف"، وقد شجعتني هذه الكلمات كثيرا ودعتني إلى العمل بمقتضاها!

وازدادت علاقتنا تَوَثُّقاً، فاضْطُرِرْتُ إلى أن أتحدثَ عن نفسي، وأن **أُفْصِحَ** عمن أكون ومن أين أتيت. وقد سبب لي هذا شيئا من الحيرة والارتباك؛ لأنني أدركت بوضوح أن كلمة **"مرتد"** ستقضي على سُمعتي في الطبقة الراقية وبين السيدات المهَذَّبات، ولست أدري أية نزوة غريبة تلك التي تملكتني وجعلتني أقول إنني إنجليزي، ووصفت نفسي بأنني يعقوبي، وسميت نفسي **"دودنج"**، فأخذتا تدعواني بالمستر **"دودنج"**، وكان معنا شخص لعين هو **"المركيز ده تورنيان"**، وكان مريضا مثلي إلا أن كبر سنه وسُوءَ خُلُقه كانا ضغثا على إِبَّالة، وقد استبدَّتْ به رغبة في محادثة مستر **"دودنج"**، وحدثني عن الملك **"جَيَمس"** وعن مدعي العرش وبلاط سان جرمان القديم. وكنت على أحر من الجمر فإنني لم أكن أعرف شيئا عن كل هذا اللهم إلا القليل الذي قرأته في كتاب الكونت **"هاملتـون"** وفي الصحف ولكني أحسنت استخدام ما كان في جُعْبَتِي من معلومات ضئيلة حتى خرجت من ورطتي.. ولحسن الحظ لم يسألني أحد عن اللغة الإنجليزية التي لم أكن أفهم منها كلمة!

وكنا على أطيب ما تكون العلاقاتُ والود، ننظر إلى فراقنا نظرة أسف وحسرة، وكنا نسافر نهارا، وفي صباح يوم أحد وجدنا أنفسنا في **"سان مارسيلان"**، وأبدت السيدة **"دي لارناج"** رغبتها في حضور القداس، فصحبتها، مما كاد يفسد خطتي: فقد مارست طقوس القداس كما كنت أفعل دائما، واستنتجت هي من سلوكي المتواضع المتحفظ أنني من المتعبدين، فساءت فكرتها عني –كما اعترفت لي بعد ذلك بيومين!– وقد اقتضاني الأمرُ قدرا كبيرا من الكياسة كي أمحو هذه الفكرة

السيئة، أو بالأحرى أن السيدة "**دي لارنـــاج**" -وهي المرأة المحنَّكَةُ الخبيرة التي لا يدركها اليأس بسهولة- كانت على استعداد لأن تخاطر بالتودد إلي لترى كيف أنقذ نفسي.. وقد أسرفت في التودد حتى إنني، -وأنا الذي لا أغالي في تقدير مظهري الشخصي- اعتقدت أنها تسخر مني، وتملكتني هذه الفكرة حتى لم يبق ضرب من ضروب الطيش والرعونة لم أرتكبه!.. لقد كنت في ذلك أَسْوَأ من المركيز "**دي ليجز**" (١)، وكانت السيدة "**دي لارناج**" ثابتة العزم، فحاولت إغرائي كثيرا، وكانت تحادثني في رقة بالغة، حتى إن رجلا أحكمُ مني كان يجد من الصعب عليه أن يأخَذ هذا كلَّه مأخذَ الجد! وكلما ألحت في سعيها ازداد يقيني بفكرتي، والذي عذبني أكثر فأكثر أنني أصبحت جادا في ولعي بها، فقلت لها -ولنفسي- في تأوه: "آه! لو أن كل ما تقولينه كان صحيحا لكنت أسعد مخلوق!". وأعتقد أن بساطتي المجردة إنما خيبت ظنها، ولكنها لم تكن مستعدة للإقرار بالهزيمة!

وكنا قد تركنا السيدة دي "**كولومبيه**" وحاشيتها في "**رومانس**"، وتابعنا المسير في بطء ونحن في غاية السرور -السيدة دي "**لارناج**" والمركيز دي "**تورنيان**" وأنا- وكان المركيز -بالرغم من أنه رجل مريض كثير التأفف والتذمر- كيسا ظريفا، غير أنه لم يكن مما يَغْتَبِطُ له أن يرى غيره من الناس يتمتعون دون أن يستطيع هو تذوق المتعة مثلهم!.. ولم تعن السيدة دي "**لارناج**" إلا قليلا بإخفاء ميلها إلي، حتى إنه كان أسرع مني في ملاحظته، وكان يجب أن تزودني تهكماته الخبيثة على الأقل بالثقة التي لم أكن لأجرؤ على استخلاصها من تودد السيدة إلي لولا أنني ظننت -في روح من العناد، كنت أنا وحدي قادرا عليها- أنهما قد اتفقا على أن يَلْهُواَ على حسابي! وأدار هذه الفكرة السخيفة رأسي تماما آخر الأمر، وجعلتني ألعبُ دور الغِرِّ الأبله في موقف ربما أمرني فيه قلبي -وقد تملك الحب شغافه- بأن أتصرف تصرفا أفضل من هذا التصرف بكثير. ولست أدري كيف أن السيدة "**دي لارنـــاج**" لم يتملكها النفور من كآبتي بحيث كانت تنأى عني وهي تزدريني أشد الازدراء، وإنما كانت امرأة بارعة تفهم مَنْ تُعامِلُ مِنَ الناس، فرأت في وضوح أن مسلكي كان يتسم بالغباء أكثر مما يتسم بفتور الهمة!

وأفلحت المرأة آخر الأمر، وبشيء من المشقة، في البَوْحِ بما يكنُّهُ صدرها، وكنا قد بلغنا "**فالانس**" في موعد الغداء وبقينا بها -وفقا لعاداتنا الحميدة- بقية النهار، وحَطَطْنَا رحالنا خارج المدينة، في "**سان چاك**" -ولن أنسى هذا الفندق أو الغرفة التي كانت تنزل فيها السيدة "**دي لارناج**"!- وقد أرادت أن تقوم بنزهة بعد الغداء،وكانت تعلم أن المركيز ليس مُولَعا بالسير، وكان هدفها من ذلك أن تنفرد بي، وبيتت أن تنتفع بخلوتها معي أكبر انتفاع ممكن، ذلك أنه لم يبق ثمة وقت تُضَيعه، إن كان قد بقي شيء من الوقت تنتفع به.. وسرنا حول المدينة وعلى طول الخنادق، وعدت ألقي على مسامعها قصتي الطويلة عن أمراضي، فكانت تجيب عليها في رقة بالغة، وتضغط أحيانا بذراعي على قلبها، حتى إنه لم يكن يحول بيني وبين الاقتناع بأنها تجد في حديثها إلا غباوة كغباوتي!.. أما الأمر الذي لم يُحْسَبْ حِسَابُهُ فهو أن الحب كان قد نال مني منالا عظيما، فلقد سبق لي أن قلت: إن السيدة كانت ظريفة، وقد جعلها الحب فاتنة، وأعاد إليها كل بهائها في صدر شبابها، وكانت تصطنع في توددها من المكر والدهاء ما كان خليقا بأن يغري رجلا من أوسع الرجال خبرة وتجربة. وكنت قلقا مضطربا، وكثيرا ماهممت بأن أتجاوز معها حد الأدب لكن الخوف من إساءتها أو إغضابها بل والخوف الأكبر من أن أُصْبِحَ موضعا للسخرية والاستهزاء، وأن أزود المائدة بقصة تُرْوىَ عني، وأن

(١) شخصية في كوميديا "ماريفو"، أحب لأول مرة وكان في غاية الخجل من أن يبوح بحبه، في حين أن شخصية الكونتس كانت على النقيض من شخصيته تماما.

يهنئني المركيز العاتي –الذي لا يرحم– على بسالتي، كل ذلك عاقني وأثار غيظي من خجلي الأخرق وعدم استطاعتي التغلب عليه، في حين كنت أَنْحِي على نفسي باللائمة من جَرَّائه.. لقد كنت في عذاب أليم، وكنت قد نبذت كلامي الذي يغلب عليه الحياء، فقد شعرت بسخافته بعد أن قطعت من الطريق هذا الشوط الكبير. ولكني، وقد انتابتني الحيرة فلم أعرف كيف أتصرف أو ماذا أقول، لزمت الصمت وعلت وجهي الكآبة. ومُجْمَلُ القول: إنني فعلت كل ما من شأنه أن يصيبني بالمعاملة التي كنت أخشاها!.. على أن السيدة "**دي لارناج**" كانت لحسن الحظ رحيمة رؤوفا، فقطعت حبل السكون فجأة بوضع ذراعها حول رقبتي، ثم حدثني فمها –وقد أطبق على فمي– في لغة صريحة واضحة لم تدع لي مجالا لأي شك بعد ذلك. وما كانت الأزمة لتقع في لحظة أسعد من تلك اللحظة، فلقد أصبحت ظريفا، ومنحتني ثِقَتَهاَ، وهي التي حال افتقاري إليها دائما دون أن أكون طبيعيا. أما في هذه المرة، فقد كنت على سجيتي، ولم يحدث أن أجادت عيناي ومشاعري وقلبي، في الحديث، مثل هذه الإِجَادَة!.. كما لم يَحدث لي من قبل أن أصلحت أخطائي هكذا تماما.. وإذا كانت هذه المغامرة الصغيرة قد كَلَّفَتْ السيدة "**دي لارنــاج**" شيئا من الجهد والتعب، فعندي من الأسباب ما يحملني على الاعتقاد بأنها لم تندم عليها!

ولو أنني عشتُ مائة عام لما استطعت أن أفكر قط في هذه المرأة الفاتنة دون فيض من السرور يَطْغَى علي! وأنا أصفها بالفتنة، لأنها وإن لم تكن بالصغيرة أو الجميلة فإنها لم تكن أيضا بالعجوز ولا بالدميمة، ولم يكن في وجهها ما يحول دون أن يظهر ذكاؤها وظرفها في أبهى حُلَلِهِمَا. ونحن إذا قارناها مقارنة مستفيضة بغيرها من النساء لوجدنا أن أقل ما يتصف بالنضارة وجهها، وأعتقد أنها أفسدته بما كانت تَصْبغُهُ به من المسحوق الأحمر "**الــروج**".. وقد كانت ثمة أسباب لاستهانتها بفضيلتها، فقد كانت هذه خير وسيلة تؤكد بها مفاتنها. كان من الممكن أن تنظر إليها دون أن تحبها، ولكن ما كنت لتستطيع أن تمتلكها دون أن تعشقها، ويلوح لي أن هذا من شأنه أن يثبت أنها لم تكن تسرف دائما في حبها إسرافها فيه معي.. لقد كان توددها إلي مفاجئا حيا، حتى ليتعذر علي أن أجد عَذْراء تُبرره، سوى أن قلبها كان له في ذلك نصيب كنصيب حواسها. وفي الفترة الوجيزة اللذيذة التي قضيتها معها.، اجتمعت لي أسباب ذلك الاعتدال الذي أرغمتني عليه وفرضته علي فرضا، فإنها –برغم كونها شهوانية جَيَاشَةَ العاطفة– كانت تفكر في صحتي أكثر مما تفكر في متعتها!

ولم يفت المركيز ما كان بيننا من تفاهم! على أنه لم يكف عن المزاح معي، بل إنه على النَّقِيض كان يعاملني –أكثر من ذي قبل– معاملة العاشق البالغ الحياء، شهيد قسوة السيدة وصُدُودِهَا! ولم تكن تفلت منه كلمة أو ابتسامة أو نظرة تدعني أشتبه في أنه قد كشف أمرنا.. بحيث كان لي أن اعتقد أننا خدعناه، لولا أن السيدة "**دي لارناج**"، وكانت أكثر مني فطنة وحِذْقا، أخبرتني بأن الحال ليست كما وصفت، بل إنه كان رجلا شهما من أصحاب المروءة والنبل.. والواقع أنه ما من أحد كان يظهر ما أظهر من أدب، أو يتصرف في كياسة أكثر مما كان يتصرف هو دواما، حتى نحوي أنا –عدا تهكمه، وخاصة بعد نجاحي– ولعله كان يَعْزُو الفضل في ذلك إلي، واعتبرني شخصا غير ذلك الأحمق الذي كنت أَبْدُوهُ –وقد كان في ذلك مخطئا، كما مر بنا!– ومهما يكن من أمر فقد انتفعت بخطئه. ومن الحق أن أقول: إنني، وقد انقلبتْ كَفَّةُ الميزان، كنت أحتمل نكاته بصدر رحب وسماحة، بل كنت أجيبه عليها –والسعادة تغلب علي– فخورا بأن أكشف أمام السيدة "**دي لارناج**" تلك الفطنة التي وصفتني بها، بعد أن لم أعد الرجل الذي كُنْتُهِ!

ولقد كنا في الريف، وفي فصل تَشِيعُ فيه البهجةُ، واستمتعنا به غاية الاستمتاع بفضل المركيز، ولو أني كنت مستطيعا أن أستغني عن عنايته بنا، تلك العناية التي امتدت حتى شملت مخادعنا، فقد كان يرسل خادمه ليحجز لنا حجراتنا مقدما. وكان هذا الوغد -إما من تلقاء نفسه أو بناء على أوامر المركيز -يحجز لسيده دائما غرفة مجاورة لغرفة السيدة "**دي لارناج**"، في حين يُلْقِي بنا في الطرف الآخر من الفندق!.. على أن هذا لم يُسَبِّبْ لي من الحرج إلا القليل، بل أضاف إلي فتنة مقابلاتنا.. ودامت هذه الحياة البهجة السعيدة أربعة أو خمسة أيام، ثملتُ خلالها بأحلى اللذات! كانت لذة حية لا زيف فيها، ولم تَشُبْهَا أقل شائبة من الألم.. أول وآخر ما نعمت به من هذه المتع!.. ولا يسعني إلا القول بأنني مَدِين للسيدة "**دي لارناج**" بأنني لن أرحل عن هذا العالم دون أن أعرف طعم المتعة واللذة!

لم يكن شعوري نحوها هو الحب بمعناه، وإنما كان على الأقل مُجَاوبة رقيقة للحب الذي تُظْهِرُهُ لي.. وكانت هي ملحة في إشفاء غليلها من الصلة الجنسية، حلوة في ممارستها، بحيث جعلت فيها كل ما يكون في الهوى من فتنة وسحر، مجردين من ذلك الهذيان الذي يدير العقل ويفسد المتعة. إنني لم أشعر بالحب الصادق إلا مرة واحدة في حياتي، ولم يكن هذا معها، بل إنني لم أحبها كما أحببت ومازلت أحب مدام دي"**فاران**"، ولكن امتلاكها كان يُضْفِي علي من المتعة مايَفوُقُ متعتي مع الأخرى مائة مرة!.. لقد كانت متعتي مع "**ماما**" يشوبها دائما شعور بالحزن.. شعور دفين بالضيق، موضعه القلب. وهو شعور كنت أجد صعوبة في التغلب عليه، بحيث إنني بدلا من تهنئة نفسي على امتلاكها كنتَ أَنْحِي على نفسي باللائمة لإذلالها وتحقيرها!.. أما مع السيدة "**دي لارناج**" فقد كنت، على العكس، فخورا برجولتي وبسعادتي.. وأطلقتُ لنفسي ألعَنَانَ، في اطمئنان وفرح، لإشباع رغباتي. ولقد شاركتها الشعور الذي بعثته فيها، وكنت أمتلك زمام نفسي، وأنظر إلى فوزي نظرة الارتياح النفسي التي أنظر بها تماما إلى المتعة، وأستمد منها الوسيلة التي تعينني على مضاعفتها!

ولا أذكر متى تركنا المركيز -الذي كان من أهل المنطقة- غير أننا كنا وحدنا عندما بلغنا "**مونتيليمار**"، حيث أمرت السيدة "**دي لارناج**" خادمها بأن تَسْتَقِلَّ عربتي بينما ركبت أنا عربتها، وأستطيع أن أؤكد لكم أننا بهذه الطريقة لم نجد الرحلة شاقة. وإني لأجد من الصعب علي أن أصف المنطقة التي اجتزناها، وقد بقيتْ السيدة في "**مونتيليمار**" ثلاثة أيام، لبعْضِ شؤونها، على أنها لم تتركني خلالها إلا ربع ساعة قامت فيها بزيارة، عادت عليها بدعوات عاجلة ملحة. ولم تكن ميالة بأي حال من الأحوال لقبول هذه الدعوات، فزعمت أنها متوعكة المزاج، على أن هذا لم يحل بيننا وبين السير معا وحدنا -كل يوم- في أجمل بقعة من بقاع الريف، وفي ظل أجمل سماء في العالم.. واحسرتاه على تلك الأيام الثلاثة! لقد جَدَّ في حياتي من الأسباب مادعاني للندم عليها أحيانا! فما استمتعت قط بمثلها بعد ذلك!

*****

والحب أثناء السفر لا يمكن أن يدوم، وهكذا اضْطُرِرنا للافتراق.. وأعترف إن الوقت كان قد حان لذلك لا لأنني أُفْعِمَتُ وزَهِدت، أو لسبب من هذا القبيل، بل إني كنت أزداد ولعا بها يوما بعد يوم، غير أني بالرغم من حرصها، لم يبق لي -ما خلا صفاء النية- إلا القليل. وقبل أن نفترق أردت أن

أستمتع بذلك القليل، فَأذعنتْ هي لرغبتي، على سبيل الاحتياط من غادات "**مونبيلييه**". وتحايلنا على ما كان يعترينا من أسى بإعداد العدة للمقابلة مرة أخرى.. وكان قد تقرر أن أستمر في العلاج، الذي أفادني فائدة عُظْمَى، وأن أقضي الشتاء في "**سانت انديول**" تحت رعايتها، على أن أبقى خمسة أسابيع أو ستة فقط في "**مونبيلييه**"، حتى أُفْسِحَ لها الوقت لكي تعد الترتيبات التمهيدية الضرورية، منعا للفضيحة. وقد لقنتني التعليمات المفصلة عما كنت بحاجة إلى معرفته، وعما يجب أن أقول والكيفية التي يجب أن أتعرفَ بها عليها، وكان علينا في الوقت نفسه أن نتبادل الرسائل. وقد حدثتني طويلا في جد واهتمام عن وجوب العناية بصحتي، ونصحتني بأن أستشير بعض الأطباء الماهرين وأن أُعْنَى باتباع ما يشيرون به، وأخذت على عاتقها أن تجعلني أنفذ تعليماتهم، مهما كان من صَرَامَتِهَا، مادمت معها. وأعتقد أنها كانت تتحدث في صدق وإخلاص، إذ إنها كانت تحبني، وقد زودتني بالأدلة الكثيرة على ذلك التي يعتمد عليها أكثر من الاعتماد على هبتها نفسها لي!..
وقد أمكنها أن تحكم من طريقة سفري بأنني لم أكن أتمرغ في المال، ومع أنها هي أيضا لم تكن بالموسرة بأي حال من الأحوال إلا أنها كانت تريد أن تُقَاسِمَنِي ما في كيس نقودها، وكانت قد جاءت به مليئا من "**جرينوبل**".. وقد وجدت مشقة عظيمة في حملها على قبول اعتذاري، وتركتها أخيرا، تاركا في قلبها –فيما أعتقد– حبا صادقا لي!

وانتهت رحلتي بينما كنت أَستَعِيدُهَا في ذاكرتي منذ البداية، وكنت قانعا في تلك اللحظة كل القناعة بأن أجلس في عربةمريحة أحلم، في راحة ويسر، بالمتع التي كان من نصيبي أن أنعم بها، وبتلك التي وعدتني بها. لم أكن أفكر إلا في "**سانت انديول**" والحياة البهيجة التي كانت تنتظرني فيها، ولم أكن أرى إلا السيدة "**دي لارناج**" وبيئتها.. أما بقيةُ العالم فلم تكن بالنسبة لي شيئا مذكورا، حتى "**ماما**" نَسِيتُها، واستغرقت في التفكير في كافة التفاصيل التي ذَكَرَتْهَا لي السيدة "**دي لارناج**" حتى تُوحي إلي مقدما بفكرة عن منزلها وعن جيرانها وأصدقائها وطريقة حياتها. وكانت لها ابنة كثيرا ما حدثتني عنها في عبارات من الحب أسرفت فيها كل الإسراف، وكانت ابنتها هذه في السادسة عشرة من عمرها، رشيقة فاتنة ودودا. ووعدتني السيدة "**دي لارناج**" بانني ساكون ولا شك صاحبَ الحُظْوة الكبرى عندها. ولم أنس هذا الوعد، وقد استبد بي الفضول لكي أرى كيف تتصرف الآنسة "**دي لارناج**" نحو صديق أمها الحميم! كانت تلك هذ أحلامي من "**بون سان أسبري**" حتى "**ريمولان**".. ولقد قيل لي: أن أذهب وأشاهد "**بون دوجار**" "**جسر الحرس**". ولم يَفُتْنِي أن أفعل، فلقد كان الجسر هو الأثر الروماني الأول الذي شاهدته. وانتظرت أن أرى نُصْبا جديرا بالأيدي التي أقامته.. وللمرة الأولى والأخيرة في حياتي جاوزت الحقيقة ما كنت أتخيل: لم يكن يستطيع غير الرومان إقامة هذا الأثر الخالد!

لقد أثر في نفسي منظر هذا العمل البسيط، النبيل مع ذلك، أعظم تأثير.. ذلك أنه كان يقوم في قلب الصحراء، حيث السُّكُون والوَحْدَةُ يبرزان الأشياء إبرازا عظيما ويُثيرانِ شعورا بالإعجاب أقوى وأشد؛ إذ إن هذا الجسر المزعوم لم يكن إلا مجرى ماء فوقه قناطر، ومن الطبيعي أن يتساءل المرء أية قوة تلك التي نقلت هذه الأحجار الضخمة إلى هذا المكان النائي عن أي محجر من المحاجر، وتمثلت في أذرع الآلاف المؤلفة من الرجال في بقعة لا يقيم أحد منهم فيها!

واجتزتُ الطِّبَقَاتِ الثلاث التي كان يتألفُ منها هذا البناء البديع، وكنت أشعر داخلها باحترام كاد يمنعني من أن أَطَأَها بقدمي! وحملني صَدَى وقع قدمي تحت هذه الأقبية العظيمة على أن أتخيل أنني

أسمع الأصوات القوية لأولئك الذين أقاموا صرحها! شعرت أنني ضائع في وسط هذه العظمة كأنني الحشرة، وشعرت بالرغم من إحساسي بِضآلَتِي كان روحي قد سَمَتْ بطريقة ما، وقلت أُحَدِّثُ نفسي وأنا أتأوه: "لماذا لم أولد رومانيا؟"، وبقيت في ذلك المكان بضع ساعات في تأمل يذهل العقل، وعدت وأنا سارح الفكر، ولم يكن شرود الفكر ليوافق السيدة "**دي لارناج**"، وهي التي عنيت بأن تحذرني من فتيات "**مونبيلييه**"، لا من جسر الحرس.. لكن المرء لا يفكر في كل شيء!

وفي "**نيم**" ذهبت لأشاهد الملعب المدرج، إنه عمل أكثر روعة بكثير من جسر الحرس، إلا أن تأثيره علي كان أقل بكثير من تأثير الجسر.. فإما أن الجسر قد اسْتَنْفَدَ كل إعجابي، أو أن المدرج، وهو يقع في وسط المدينة، كان أقل من أن يثير إعجابي! لقد كانت تحيط بهذا الميدان البديع الفسيح الأرجاء مَنَازِلُ صغيرةٌ قبيحة، وامتلأت الحلبة بمنازل أخرى، أصغر وأقبح، حتى إن المنظر كله كان يبعث في النفس الشعور بالاضطراب وعدم التناسق، كما كان النفور يخمد المتعة والدهشة، وقد رأيت منذ ذلك الحين مَلْعَبَ "**فيرونا**" وهو أصغر بكثير وأقل مهابة وجلالا، ولكنهم احتفظوا به في أكبر قدر ممكن من النظافة والأناقة، ولهذا السبب وحده أثر في تأثيرا أبلغ وأقوى، ووقع من نفسي موقع القبول.. إن الفرنسيين لا يعنون بشيء ولا يحترمون النصب، وهم تواقون أشد التوق للقيام بأي عمل، ولكنهم لا يعرفون كيف يتمونه أو كيف يحفظونه سليما إذا ما انتهوا منه!

لقد تبدلتْ حالي كثيرا، واسْتَيْقَظَتْ أحاسيسي –وكانت قد تنبهت إلى العمل– حتى بقيت يوما أكمله في فندق "**بون دي لونيل**" لأنعم مع الزائرين الآخرين بطيب الجو الذي شاع فيه، وكان هذا الفندق –إذ ذاك– أشهر فندق في أوروبا، كما كان جديرا بما اكتسب من صيت، فقد عرف أصْحَابُهُ كيف يستغلُّون موقعه البديع، فزودوه بوفرة من أطايب المأكولات. لقد كان من الغريب حقا أن تجد في دار نائية منعزلة –وفي وسط الريف– مائدة زودت بسمك البحر وسمك النهر ولحوم الصيد البديعة ومجموعة من الأشربة المنتقاة، تقدم لك في أدب وكياسة لا تجدهما إلا في بيوت العظماء والموسرين.. وكل هذا بخمسة وثلاثين "**سو**" لشخص!.. إلا أن "**جسر دي لونيل**" لم يبق في هذا المستوى طويلا، إذ إنه تمادى في استغلال سمعته، حتى فقدها بأسرها في النهاية!

ولقد نسيت أثناء رحلتي أنني كنت مريضا، فلم أتذكر ذلك إلا عندما بلغت "**مونبيلييه**". ولقد كان من المحقق أنني شَفِيتُ من نوبات الهيستيريا التي كانت تنتابني، إلا أن كل عللي الأخرى بقيت. ومع أن اعتيادي إياها جعلني أقل إحساسا بها، إلا أنها كانت تكفي لأن تحمل أي إنسان على الاعتقاد –إذا ما تعرض لنوباتها فجاة– بأنه على باب القبر.. كانت هذه العلل –في الواقع– أكثر بعثا للانزعاج منها إثارة للألم، وكانت تُسَبِّبُ من عذاب العقل أكثر مما تسبب من عذاب الجسم، وهي التي كانت تعلن عن تَدْمِيره فيما يلوح. ومن ثم فإنني كنت –حين أُشْغَلُ بالانفعالات العنيفة– لا أفكر في حالتي الصحية. ولكن عللي لم تكن خيالية، فكنت أعود إلى الإحساس بها مرة أخرى عندما يعاودني هدوئي، وبدأت عندئذ أفكر تفكيرا جديا في نصيحة السيدة "**دي لارناج**"، وفي هدفي من رحلتي، فاستشرت أشهر الأطباء وعلى الأخص السيد "**فيز**".

وزيادة في الحَيْطَة، نزلت عند طبيب. كان إيرلنديا اسمه "**فيتز موريس**"، وكان ينزل عنده عدد عظيم من طلبة الطب. ومما جعل منزله أكثر مدعاة لراحة المريض المقيم، أنه كان يقنع بأجر معقول لقاء المأكل والمسكن، ولا يَتَقَاضَى شيئا من نزلائه في مقابل الرعاية الطبية.. وقد أخذ على عاتقه أن ينفذ تعليمات السيد "**فيز**"، وأن يعنى بصحتي. أما فيما يتعلق بالغذاء فقد كان يوفي ما عليه وفاء يدعو

للإعجاب، فلم يكن بين النزلاء من يُعَاني عُسْرَ الهضم. ومع أنني لم أكن ممن يأبهون بالحرمان من الطعام، إلا أن الفرص التي تهيئ لي المقارنة كانت في متناول يدي، حتى إنني لم أتمالك في بعض الأحيان من أن أتبين -فيما بيني وبين نفسي- أن السيد دي **"تورنيان"** كان موردا للأغذية أفضل من السيد **"فيتز موريس"**، وعلى كل حال فلم نكن نشكو الجوع تماما!.. وكان الطلبة الشبان غاية في المرح، وقد أفادني حقا هذا الأسلوب من أساليب الحياة، وحال دون إصابتي بما كان ينتابني قبلا من الاكتئاب. وكنت أقضي الصباح في تناول الأدوية، وخاصة بعض المياه -التي أعتقد أنها كانت تأتي من **"فالس"**، وإن لم أكن واثقا بذلك- وفي الكتابة إلى السيدة **"دي لارناج"**. ذلك أن الرسائل ظَلَّتْ مستمرة، وقد آلى **"روسو"** على نفسه أن يأتي بخطابات صديقه **"دودنج"**.

وكنت أنْطَلِقُ -عند الظهر- في جولة إلى **"كانورج"** مع أحد زملائنا الشبان الذين كانوا ينزلون معنا. وقد كانوا جميعا على خلق عظيم. وكنا نجتمع بعد ذلك لتناول الغداء، فإذا ما فرغنا منه، كان معظمنا يُشْغَلُ بمسالة مهمة حتى المساء.. تلك هي أننا كنا ننطلق إلى خارج المدينة، لنلعب دورين أو ثلاثة من لعبة الكرة والصولجان، ولنتناول شاي الأصيل. ولم أكن أشترك في اللعب معهم، إذ لم تتوفر لي القوةُ أو الْبَرَاعَةُ في اللعب، ولكني كنت أراهن على النتيجة.. وهكذا كنت أتبع لاعبينا وكراتهم عبر الطرق الوعرة الصخرية، وأنا مهتم برهاني، فأنعم برياضة صحية ممتعة، كانت تناسبني إلى أقصى حد. وكنا نتناول الشاي في مقصف خارج المدينة، وَغنِيٌّ عن البيان أن هذه الوجبات كانت مليئة بالمرح، ولكني أضيف إلى هذا أنها كانت محتشمة، بالرغم من أن فتيات المقصف كن جميلات!.. وكان رئيس الفريق هو السيد **"فيتز موريس"** نفسه، فقد كان لاعبا عظيما. وأَسْتَطِيعُ أن أقرر -بالرغم من سُوء سُمْعَةِ الطلبة- أنني وجدت بين هؤلاء الشبان من الأدب والحِشْمَةِ مالا يسهل العثور عليه بين عدد مساو لهم من الرجال الناضجين.. كانوا أميل للضوضاء منهم للفسق، وللمرح منهم للخلاعة. ولما كان من السهل علي أن أعتاد أي سبيل من سبل الحياة -عندما يكون ذلك باختياري- فإنني لم أعد أتمنى أكثر من استمرار هذه الحال.

وكان بين الطلبة عدد من **"الأيرلنديين"** حاولت أن أتعلم منهم بضع كلمات إنجليزية تأهبا لذهابي إلى **"سانت انديول"**، فقد كانت السيدة **"دي لارناج"** تَسْتَحِثُّنِي في كل بريد، وكنت على استعداد لكي أذعن إلى رغبتها. وكان من الواضح أن أطبائي -وقد غاب عنهم علتي- اعتبروا ألا وُجُود لها إلا في مُخَيِّلَتِي. وبناء على هذا فإنهم كانوا يعالجونني بأعشابهم الصينية ومياههم واللبن الخثر.. والأطباء كالفلاسفة، ولكنهم يختلفون جد الاختلاف عن علماء أصول الدين، إذ إنهم لا يُقِرُّونَ بأن شيئا ما صحيح إلا إذا كان في استطاعتهم أن يعللوه، كما أنهم يجعلون من إدراكهم مقياسا لكل ما هو ممكن!.. ولم يكن هؤلاء السادة يدركون شيئا عن علتي، ولذلك لم أك مريضا البتة، في رأيهم!. فإن الأطباء يعرفون كل شيء طبعا!.. وكنت أرى أنهم إنما يحاولون خداعي وحملي على إنفاق مالي، ولما كنت أعتقد أن نائبتهم في **"سانت انديول"** ستفعل عين ما كانوا يفعلون -ولكن بطريقة أظرف- فقد صَحَّ عَزْمِي على أن أُفضِّلَهَا عليهم!.. وما إن قر رأيي على هذا القرار الحكيم حتى رحلت عن **"مونبلييه"**، فغادرتها في أواخر شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، بعد أن أقمت فيها ستة أسابيع أو شهرين، وبعد أن أنفقت فيها اثني عشر **"لوى"** (١)، دون أن يعودَ ذلك بأي نفع على صحتي أو على إدراكي، اللهم عدا منهج في التشريح بدأته تحت إرشاد السيد **"فيتز موريس"**، واضطررت أن أكف عن تلقيه نظرا للرائحة النتنة التي كانت تتصاعد من الجثث المشرحة، فقد وجدت أن من المستحيل علي أن أتحملها!

---

(١) اللوى عملة ذهبية كانت قيمتها ٢٠ فرنكاً.

وشعرت أنني غير مستريح للقرار الذي اتخذته، فشرعت أفكر فيه وأنا أواصل رحلتي صَوْبَ "**بون سان اسبري**" وكان الطريق يؤدي إلى "**شامبيري**" كما كان يؤدي إلى "**سانت انديول**"، فأثارت -ذكرى "**ماما**" ورسائلها -ولو أنها لم تكن تكتب كثيرا كما كانت السيدة "**دي لارناج**" تفعل -لَوَاعِجَ الحسرة في فؤادي من جديد، بعد أن كنت قد أخمدتها في الشطر الأول من رحلتي.. وكانت في عودتها قوية عنيفة، حتى إنها رجَحَتْ على حب المتعة، فلم أجد مناصا من الاستماع إلى صوت العقل وحده. ولعلني كنت في دور الأفاق -الذي عدت إلى الشروع في أدائه- أقل توفيقا وحظا مما كنت في المرة الأولى. ذلك لأن الأمر -في هذه المرة- لم يكن يتطلب سوى أن يوجد في بلدة "**سانت انديول**" بأسرها، شخص واحد، سبق له أن زار "**إنجلترا**"، وعرف "**الإنجليز**"، وتمكن من لغتهم، حتى يُفْتَضَحَ أمري!.. وكان من المحتمل ألا أروق لأسرة السيدة "**دي لارناج**"، فتعاملني بقليل من الكياسة. إذ كانت ابنتها -التي كنت أفكر فيها، بالرغم مني، أكثر مما كان ينبغي- تسبب لي قلقا لم يفارقني.. وكنت أرتجف لمجرد احتمال أنني قد أقع في هواها!.. وكان هذا الخوف يؤلف نصف العوامل التي كانت تحملني على العدول.. وكنت أقول لنفسي: أتراني -في مقابل أفضال الأم- أسعى لإفساد الابنة وللدخول معها في علاقة بغيضة، تصيب الأسرة بِالتَّصَدُّعِ والعار والفضيحة والجحيم معا؟

كانت هذه الفكرة تُوقِعُ الرعبَ في نفسي، ومن ثم فقد صممت تصميما جازما على أن أقاوم هذه النفس وأهزمها، إذا أنا شعرت بمثل هذه الرغبة الدنيئة. ولكن.. لماذا أعرِّض نفسي لصراع كهذا؟.. أَيَّةُ حال تعسة من العيش تلك التي تدعوني إلى أن أحيا مع الأم -التي كنت أوقن من أنني سَئِمْتُها- بينما يضطرم قلبي بحب الابنة، دون أن أجرؤ على أن أكشف لها قلبي؟.. وأية ضرورة تدعو إلى السعي نحو حال كهذه، أتعرض فيها للبلايا والإهانات والندم، في سبيل متع حظيت مقدما بأعظمها فتنة؟.. ذلك أنه كان من المحقق أن أهوائي كانت قد فَقَدَتْ حدتها الأولى.. كان الميل للمتعة مايزال قويا، ولكن العاطفة المتأججة كانت قد ولت. وقد خالطت ذلك أفكار تتصل بموقفي، وواجباتي، وتلك الأم المفرطة الطيبة والكرم، التي تورطت في ديون -فوق التي كانت تثقل عاتقها- في سبيل نفقاتي الطائشة، والتي أَنْفَقَتْ كل ما كانت تملك من أجلي، أنا الذي كنت أَخْدَعُهَا بخسة.. ولقد اشتد هذا التأنيب وثقل على ضميري حتى انقلبت الكفة آخر الأمر، فما إن اقتربت من "**سان أسبري**" حتى قررت أن أسرع باجتياز "**سان انديول**" دون أن أتوقف فيها. ونفذت هذا القرار ببسالة، وإن كنت لا أنكر أنني زفرت بعض زفرات. بيد أنني في رضائي عن نفسي كنت أتذوق -للمرة الأولى في حياتي- لذة القدرة على أن أقول: "من حقي أن أشيد بذكر نفسي، فإنني أعرف كيف أقدم واجبي على متعتي"!

وهذا هو الالتزام الحقيقي الأول، الذي خرجت به من دراستي، إذ إنها علمتني أن أفكر، وأن أقارن.. وبعد مبادئ الطهر والعفة -التي انتهجتها منذ عهد قريب- وبعد قواعد الحكمة والفضيلة التي ارتضيتها لنفسي، والتي كنت فخورا كل الفخر باتباعها وجدتني أشعر بالخزي من أن أكون متساهلا مع نفسي، ومن أن أخالف قواعدي المقررة بهذه السرعة، وهذه القوة، وطغى هذا الشعور علي، فانتصر على المتعة، وربما كان للاعتزاز بالنفس نصيب -في قراري- يعادل نصيب الفضيلة سواء بسواء. ولكن إذا لم يكن هذا الاعتزاز هو الفضيلة ذاتها فإن آثاره كانت تشابه آثار الفضيلة إلى درجة أن المرء يخطئ في التفريق بينهما!

ومن الآثار الطيبة للأفعال الصالحة أنها تسمو بالروح وتميل بها إلى الإتيان بشيء أفضل، ذلك أن الضَّعْفَ البشريَّ بلغ مبلغا عظيما، حتى لينبغي لنا أن نسلك في عداد الأفعال الصالحة الامتناع عن الشر الذي تُغْرِينَا نفوسنا على ارتكابه.. وما إن اتخذت قراري حتى أصبحت رجلا آخر، أو -على الأصح- أصبحت الرجل الذي كنته من قبل.. الرجل الذي حملته نشوة هذه التجربة على أن يختفي. فواصلت رحلتي وقد انطوى صدري على أطيب المشاعر وأفضل القرارات، مُنْتَوِيا التكفير عن خطئي، وعدم التفكير إلا في تنظيم سلوكي في المستقبل على أساس من قوانين الفضيلة، مكرسا نفسي دون قيد أو شرط لخدمة أبر الأمهات، منذرا لها إخلاصا يعادل حبي لها، منصتا لنداء واجبي وحده، ولكن واأسفاه!..

كان إخلاصي في العودة إلى الفضيلة يبدو وكأنه يُخَبِّئُ لي مصيرا آخر. بيد أن مصيري الحقيقي كان قد كتب في لَوْحِ القدر، وبدأ يتحقق فعلا. وفي اللحظة التي لم يكن فيها قلبي -الزاخرُ بحب كل ما هو طاهر وشريف- يرى أمامه سوى البراءة والسعادة، كنت أقترب من اللحظة القاتلة التي قُدِّرَ لها أن تجر وراءها تلك السلسلة الطويلة من الكوارث التي حلت بي!

كان تعجل الوصول قد جعلني أسرع في سفري أكثر مما كنت أنتوي، وكنت قد أرسلت خطابا إلى "**ماما**" من "**فالانس**" أخبرها فيه باليوم والساعة اللذين توقعت أن أصل فيهما. ولما كنت قد استبقت موعدي بنصف يوم، فقد قضيت ذلك الوقت في "**شاباريان**" لكي أَصِلَ في اللحظة التي عيَّنتها بالضبط، وكنت أَتُوقُ إلى أن أستمتع غاية الاستمتاع بمرآها ثانية، ففضلت أن أؤجل وصولي قليلا حتى أضيف إلى ذلك متعة الشعور بأن ثمة من ينتظره. وكان حليف هذا الإجراء النجاح دائما، فقد كنت أَجِدُ القوم يحتفلون بوصولي -في كل مرة- وكأنه يومُ عيد صغير. وهذا ما توقعته في هذه المناسبة، وكانت تلك العناية -التي كانت تهفو بالقلب والمشاعر- جديرة بالتعب الذي كان يبذل في سبيل الظفر بها!

ووصلت في اللحظة التي عينتُها تماما. ومذ كنت على مسافة بعيدة من غايتي، رحت أُنْعِمُ النظر في الطريق، علني أراها.. "**ماما**"!.. وراح قلبي يَخْفِقُ في عنف أخذ يُطَّرِد بازدياد اقترابي. ووصلت وأنا ألهثُ، إذ إنني كنت قد تركت عربتي في المدينة.. ولم أر أحدا في الفناء أو عند الباب أو مطلا من النافذة فبدأ القلق يُسَاوِرُني خشية أن يكون قد وقع حادث.. ودخلت فإذا كل شيء هادئ، وبعض العمال يأكلون في المطبخ، ولم تكن ثمة أمارات تنم عن أن القوم ينتظرونني. وبدت الدهشة على الخادم لرؤياي إذ إنها كانت تجهل أمر قدومي. وصعدت الدرج.. وأخيرا رأيتها.. تلك الأم العزيزة، التي اجتمع لها في قلبي كل ما في الحب من رقة وقوة وإخلاص. وهرعت إليها، فَأَلْقَيْتُ نفسي عند قدميها. وقالت لي وهي تُعانِقُني: "آه إذن فقد عُدت أيها الصغير!.. أكانت رحلتك ممتعة؟.. كيف حالك؟". وأذهلني هذا الاستقبَالُ بعض الشيء، فسألتها عما إذا كانت قد تلقت خطابي. وأجابتني بـ"نعم"، فقلت: "ما كنت أعتقد هذا". وانتهى الحديث عند هذا الحد، فقد كان معها شاب تذكرتُ أنني رأيته في المنزل قبل رحيلي، ولكنه بدا -في هذه المرة- وكأن المقام قد اسْتَقَرَّ به هناك، وكان ذلك هو الواقع فعلا. ومجمل القول إنني وجدت من حَلَّ محلي!

وكان الشاب من منطقة "**فو**"، وكان أبوه -واسمه "**فنتزنريد**" -أمين حصن "**شييون**"، أو كبير ضباطه كما كان يدعو نفسه. أما الابن فقد كان عاملا يصنع الشَّعر المستعار، وكان يطوف بالبلاد ممارسا مهنته، عندما قدم نفسه إلى السيدة دي "**فاران**" فأَحْسَنَتْ استقباله، كما كانت تفعل مع

عابري الطريق جميعا، لا سيما أولئك الذين يكونون قادمين من مسقط رأسها. وكان الشابُ ذا شعر أشقر غزير حائل اللون، وجسم بديع التكوين، ووجه سمين، وعقل في ثقل جسمه!.. فقد كان يتحدث كالمغرور المتحذلق، وهو يخلط بين اللهجات، ويمزج الأحاديث التي تتطلبها مهنته بقصة طويلة -عن مغامراته وفتوحاته الغرامية- لم يكن يضمنها، -فيما زعم- سوى نصف من ضاجعهن من المركيزات!.. وكان يدعي أنه ما صفف شعر حسناء إلا وَزيَّنَ رأس زوجها أيضا!.. كان مغرورا أَخْرق جاهلا وقحا، أما ماعدا هذا فقد كان من أحسن الشبان في العالم!.. ذلك هو البديل الذي حل محلي أثناء غيابي والرفيق الذي قدموه إلي بعد عودتي! وإذا كانت الأرواح التي تنطلق من القيود الدنيوية تظل ترى -خلال أضواء الأبدية- ما يجري بين أهل الأرض فاغفر لي -إذن- أيها الطيف الحبيب الأثير، أنني لا أَغُضُّ الطرف عن أخطائك ولا عن أخطائي، بل إنني أكشف عنها جميعا أمام القارئ، وعلى قدم المساواة!.. لسوف أكون -ولابد لي من أن أكون- صادقا نحوك صدقي نحو نفسي، ولن يصيبك من ذلك قط إلا ما يقل كثيرا عما يصيبني أنا!.. آه! كم يُكَفِّرُ خُلُقُكَ الوديع الرقيق، وطيبة قلبك -التي لا ينضب معينها- وصراحتك، وكل صفاتك الباعثة على الإعجاب.. كم تكفر هذه عن نقاط ضعفك إذا ما ذكرت تلك الهفوات التي يمكن أن توصف بأنها من أخطاء عقلك وحده!.. لقد أخطأت ولكنك كنت براء من الرذيلة ولقد استحق مسلكك اللوم، ولكن قلبك ظل نقيا دائما.

ولقد أظهر القادمُ الحديثُ غيرة وحمية وعناية بتنفيذ الشؤون الصغيرة العديدة التي كانت "**ماما**" تحتاج إليها، ونصبَ نفسه رئيسا على عمالها.. وكان كثيرَ الضَّجيج، بقدر ما كنت شديد الهدوء!.. كان القوم يرونه ويسمعونه في كل مكان في وقت واحد: عند المحراث، وفي مخزن الدريس، وفي مخزن الخشب، وفي الإسطبل، وفي ساحة المزرعة. وكانت فلاحة البساتين هي الشيء الوحيد الذي أهمله، إذ إنها كانت هادئة جدا، لا تهيئ الفرصة لإحداث ضوضاء. كان يفرح أشد الفرح بوَسْق عربة وقيادتها، ونَشْرِ الخشب أو تكسيره.. فما كنت كنت تراه إلا والفأس والبلطة في يده، وهو يعدو ويدفع ما أمامه ويصيح بكل ما فيه من قوة.. ولست أدري كم من عمل الرجال قام به، ولكن الذي أدريه أنه كان يُحْدثُ من الضوضاء قدر ما يحدثه عشرة رجال أو اثنا عشر. وكانت كل هذه الضوضاء والحركة تخدع "**ماما**" المسكينة، فقد حَسِبَتْ أنها وجدت في هذا الشاب كنزا يعاونُها في شؤونها، وأرادت أن تحمله على التعلق بها فاستخدمت في ذلك كل السبل التي اعتقدت أن من الممكن أن تأتي بالنتيجة المرجوة.. ولم تنس ذلك السَّبيلَ الذي كانت تُعَوِّلُ عليه أكثر من سواه!

ولابد أن القارئ قد استَشَفَّ شيئا عن قلبي، وعن مشاعره الصادقة الثابتة، لا سيما تلك التي حدت بي إلى العودة إلى "**ماما**" إذ ذاك، ولكن يا للانقلاب المفاجئ الكامل في كياني كله!.. فليضع القارئ نفسه في موضعي ليستطيع الحكم!... لقد رأيت كل ذلك المستقبل السعيد -الذي تخيلته لنفسي- يَتَلاَشَى في لحظة، وتبددت أحلامُ السعادة التي كنتُ أعتز بها اعتزازا.. ووجدتني للمرة الأولى وحيدا، أنا الذي ألفت منذ صباي ألا أرى لنفسي وجودا إلا في وجود "**ماما**"!.. كانت تلك اللحظة فظيعة، ولكن اللحظات التي تلتها كانت قاتمة كئيبة.. كنت ماأزالُ شابا ولكن ذلك الشعور العذب بالمتعة والأمل -الذي يبعث الحياة في الشباب- كان قد هَجَرَني إلى الأبد. ومنذ ذلك الحين مات في أعماقي الحسُّ المرهف -نصف ميتة- ولم أعد أرى أمامي إلا أطلالا حزينة لحياة تافهة، فإذا ما أذكى شهواتي -بين الحين والحين- طيف من سعادة، فإن هذه السعادة لا تبدو لي حقيقية.. بل إنني

كنت أوقن بأن ظفري بها لن يجعلني سعيدا حقا!

ولقد كنت غاية في السَّذاجة، كما كانت ثقتي بـ"ماما" جد عارمة، حتى إنني لم أحدس قط السبب الحقيقي للهجة الألفة التي كان القادم الجديد يتحدث بها، والتي اعتبرتها من نتائج طبيعة "ماما" السهلة الهينة التي تجتَذبُ الناس جميعا إليها.. وما كنت لأحدس الأمر لو لم تُبحْ به هي نفسها، فقد بادرت إلى الاعتراف في صراحة كان من المحتمل أن تُذْكِي سَخَطِي لو أن قلبي كان يتسع لمزيد من السخط.. ذلك أنها كانت ترى الأمر بسيطا، فقد عابت علي إهمالي أثناء وجودي في البيت، وتذرعت ضدي بغيابي المتكرر، وكأنما كانت طبيعتها تقتضيها ملء الفراغ بأسرع ما يمكن، فقلت لها وقلبي يتمزق حزنا: "واها يا "ماما".. ما هذا الذي تجرئين على أن تحدثيني به؟.. ياله من جزاء على إخلاص كذلك الذي آثرتك به!.. هل أنقَذْت حياتي هكذا مرارا، لغير ما داع إلا لتحرميني ذلك الذي جعلها عزيزة عندي؟.. إن هذا سَيُوردُني مَوْرِدَ التَّهْلُكَة، ولكنك ستأسفين على فقدي!". فردت -في هدوء كان خليقا بأن يدفعني إلى الجنون- بأنني طفل، وأن الناس لا يموتون من مثل هذه الأمور، وأنني لم أفقد شيئا، وأننا خليقان بأن نكون صديقين حميمين -بكل ما للصداقة من معنى- ووَثيقِي الصلة في كل أمر من الأمور، وأن حبها العميق لي لن يقل ولن ينتهي إلا بانتهاء حياتها!...

ومجمل القول: إنها جعلتني أدرك أن جميع مزاياي باقية على ما كانت عليه، وإنني لن أجد أي نقص فيها بالرغم من أن ثمة من أصبح يُشاركُني إياها. ولم يظهر قط حبي لها - في صفائه وصدقه وقوته- ولا ظهرت روحي -في إخلاصها واستقامتها- مثلما ظهرتا على هذه الصورة الواضحة، في تلك اللحظة، فقد أَلْقَيْتُ بنفسي عند قدميها، وذرفت الدموع مدرارا، وأمسكت بركبتيها، وهتفت بها وأنا شارد الفكر: "كلا يا "ماما"!.. إنني أحبك حبا أعمق من أن يَسْمَحَ لي بإذلالك، وامتلاكُكِ أغلى عندي من أن أستطيع مشاركة آخر فيه.. إن الندم الذي شعرت به عندما وهبتني نفسك -لأول مرة- قد ازداد بازدياد حبي، ولن أستطيع أن أحتمل هذا الندم بنفس الثمن. لسوف أظل دائما أعشقك. وأبقى جديرا بحبك طالما ظلت حاجتي إلى احترامك أكثر من حاجتي إلى امتلاكك. إنني أَكِلُ أمر نفسك إلى نفسك، وأضحي في سبيل اتحاد قلبينا بكل متعي!.. وخير عندي أن أَمُوتَ ألف مرة من أن أسعى إلى إذلال من أحب!".

ولقد ظَلَلْتُ أمينا على هذا القرار في ثبات وحزم أجرؤ على القول بأنهما جديرانٌ بالشعور الذي دفعني إلى هذا القرار. ومنذ تلك اللحظة كنت أنظر إلى تلك الأم العزيزة بعيني الابن البار!.. ولابد لي من أن أضيف إلى هذا أن قراري، وإن لم يكن قد صادف موافقة منها شخصيا -كما تبينَ لي جليا- إلا أنها لم تحاول قَط أن تُثْنِيني عن عَزْمِي بتلك الاقتراحات المغرية، ولا الملاطفة، ولا بِسُبُلِ الغواية التي تجيد النساء استخدامها دون أن تصبن أنفسهن بالجروح، والتي نادرا ما يمنين فيها بالفشل!

*****

ووجدتني مكرها على أن أسعى إلى مصير مستقل عن "ماما"..واستعصى علي التفكير فَسَرْعَانَ ما ارتميتُ في أحضان نقيضه تماما، إذ سعيت إلى البحث عن المصير المنشود عندها هي نفسها.. واستغرقت في البحث عنه عندها، حتى أفلحتُ في نسيان نفسي أو كدت، واستوعبتْ مشاعري الرغبةُ الملحة في أن أراها سعيدة مهما كان الثمن.. ولقد كان من العبث لها أن تُفَضِّلَ سعادتها على سعادتي، فلقد كنت أرى سعادتي في أغوارِ سعادتها بالرغم منها!

وهكذا بدأت تنمو مع مصائبي تلك الفضائل التي كانت بذورها قد غُرِسَتْ في أعماق قلبي، والتي هذَّبَتْهَا الدراسة، ولم تكن تنتظرها إلا الشدة حتى تؤتي ثمارها. وكانت النتيجةُ الأولى لإنكار الذات والتجرد عن الغرض أن زال من قلبي كل شعور بالحقد والحسد نحو ذلك الذي حل محلي، بل إنني -على العكس من ذلك- كنت أريد في إخلاص صادق أن أُصْبِحَ وثيق الصلة بهذا الشاب، وأن أَصُوغَ خُلُقَهُ، وأعلمه وأشعره بسعادته، وأجعله جديرا بها إذا أمكن. وبالاختصار أن أفعل له ما سبق لـ"**أنيه**" أن فعله من أجلي في ظروف مماثلة!.. إلا أن طبيعتينا لم تكونا متماثلتين. ومع أنني كنت أرق حاشية وأوسع علما من "**آنيه**" إلا أنني لم أوت قلة مُبَالاته أو ثباته أو قوة خلقه، التي كانت تبعث على الاحترام، والتي كان لابد منها لضمان النجاح، زد على ذلك أنني لم أكن أجد في هذا الشاب الصفات التي وجدها "**آنيه**" في، وأعني: دَمَاثَةَ الخُلُقِ والحب والعرفان بالجميل.. وأهم من هذا كله، الإدراك بأنني أحتاج لرعايته، والرغبة الملحة في الانتفاع بهذه الرعاية.

كانت تُعوزُهُ كل هذه الصفات. وكان هذا الذي أردت أن ألقنه العلم لا يعتبرني أكثر من مُتَحَذْلِق يبعث على السأم والضجر، ولا يحسن من الأمور سوى الثرثرة. وكان -من ناحيةأخرى- يعجب بنفسه بوصفه شخصا له شأنه في المنزل. فكان يغالي في تقدير الخدمات التي يحسب أنه كان يؤديها بالضوضاء التي كان يحدثها. وكان يرى أن فؤوسه ومعاوله أنفع كثيرا من كل كتبي القديمة!.. ولقد كان مصيبا بعض الشيء ولكنه -اعتمادا على هذا- كان يزهو ويَسْتَكْبِرُ في صورة تدعو المرء إلى الإغراق في الضحك. وكان يحاول أن يمثل مع الفلاحين دور سَيِّد من سادة الريف، فما لبث أن أخذ يعاملني نفس المعاملة بل أنه راح يُعَامِلُ "**ماما**" كذلك!.. وإذ بدا له أن الاسم "**فتزونريد**" لم يكن فيه ما يميزه، هجره واتخذ له اسم السيد دي"**كورتيل**"، وهو الاسم الذي عُرِفَ به فيما بعد في "**شامبيري**" وفي "**موريين**" حيث تزوج!

ومجمل القول إن هذا الشخص البارع لم يلبث أن أصبح كل شيء في المنزل بينما أصبحت أنا.. لا شيء!.. ولو أن سوء الطالع ساقني إلى إغضابه فإن "**ماما**" هي التي كانت تَتَلَقَّى اللوم بدلا مني؛ ولهذا السبب فإن خوفي من تعريضها إلى سلوكه الفظ كان يدعو إلى أن أجيبه إلى كل رغباته وعندما كان يُقْبِلُ على تكسير الأخشاب -وهو عمل كان يفخر به كل الفخر- كنت أقف متفرجا عاطلا، ومعجبا صامتا بقوته وجلده على العمل! على أن سَجَايَاهُ لم تكن في مجموعها بالسجايا القبيحة.. لقد كان يحب "**ماما**" لأنه ما من أحد كان يستطيع أن يمسك نفسه عن حبها. ثم إنه لم يظهر لي شيئا من النُّفُور أو الكراهية، وكان في اللحظات التي يستولي فيها السكون عليه ينصت إلينا هادئا، ثم يعترف في صراحة بأنه لم يكن إلا أَحْمَقَ.. ولا يلبث -بعد ذلك مباشرة- أن يرتكب حماقات جديدة. زد على ذلك أن إدراكه كان محدودا، كما كان ذَوْقُهُ وضيعا، حتى لقد كان يتعذر على المرء مجادلته، أو الشعور بالراحة معه. ولم يقنع بالظفر بأشد النساء فتنة وسحرا، بل إنه جمع -على سبيل التَّغْيير- بينها وبين وصيفة عجوز حمراء الشعر خلا فمها من الأسنان، وكانت "**ماما**" تحتمل خدماتها -التي تثير في النفس الاشمئزاز- في صَبْر وأناة، وإن كانت تضيق بها كل الضيق! وإذ شاهدت هذا اللؤم الجديد بلغ مني الحقد والغيظ مبلغهما. على أنني لاحظت شيئا آخر -في الوقت ذاته- كان أشد تأثيرا في نفسي، ودفعني إلى اليأس أكثر من أي أمر آخر وقع حتى ذلك اليوم. وكان هذا الشيء هو فُتُورٌ في مسلك "**ماما**" نحوي، أخذ يزيد رويدا رويدا!

ذلك أن الحِرمَان الذي فرضتُهُ على نفسي والذي تظاهرت هي بالموافقة عليه إنما هو أحد تلك

الأمور التي لا تغتفرها النساء قط –وإن تظاهرن بقبولها!– لا بسبب ما حُرِمْنَ هن منه، وإنما بسبب الشعور بعدم الاكتراث الذي ينطوي عليه الأمر. ولو أنك أخذت –على سبيل المثال– أوفر النساء عقلا، وأكثرهن فلسفة وأقلهن شبقا لوجدت أن الجريمة الوحيدة التي لا تَغْفِرُهَا هذه المرأة للرجل قط –ولو كان اهتمامها به عدا ذلك أضال ما يكون– هي أن يكون بوسعه أن يستمتع بها ولكنه لا يفعل!.. وليكن مفهوما أن هذه القاعدة بلا استثناء، إذ إن العاطفة –مهما تكن طبيعية وقوية– لا تَلْبَثُ أن تتغير لدى المرأة بسبب الحرمان الذي لا بَاعث له سوى الفضيلة والحب والتقدير.. ومنذ ذلك الحين لم أعد أجد لدى "ماما" تلك الصلة الوثيقة التي تربط بين قلبين، والتي كانت تُفْعِمُ قلبي دائما بأحلى المتع. ولم تعد تَبُوحُ لي بأسرارها اللهم إلا أن تشكو من ذلك الدخيل. أما عندما يكونان معا على صفاء فإنني لم أكن أحظى بأسرارها.. ولم تلبث –آخر الأمر– أن انتهجت نحوي مسلكا باعد بيني وبينها تدريجا، ومع أن حضوري ظل مبعث سرور لها إلا أنه لم يعد ضرورة لا غنى لها عنها حتى لقد كنت أقضي أياما بطولها دون أن أراها، فما كانت لتفطن إلى ذلك!

*****

وَوَجَدْتُني –دون أن أفطن– مَعْزُولا وحيدا في هذا المنزل الذي كنت فيه قبل ذلك بمثابة "الروح"!.. والذي أصبحت أحيا فيه حياة مزدوجة كما ينبغي أن يقال.. فألفت تدريجا أن أغض الطرف عن كل ما كان يقع في هذا المنزل، بل إنني أخذت أعتزل أولئك الذين كانوا يقيمون فيه ولكي أجنب نفسي العذاب المتصل رحت أَحْتَبِسُ نفسي مع كُتُبِي، أو أذهب فأبكي وأتأوه ما شاء لي الهوى وسط الغابات. وسرعان ما أَصْبَحَتْ تلك الحياة فوق ما يطيقه إنسان، وشعرت بأن الوجود الشخصي مع البعد القلبي بالنسبة لامرأة كنت أعزها كل هذا الإعزاز كان يَهِيجُ شُجُوني.. وأن الكف عن رؤيتها أقل قسوة! ولذلك قررت أن أهجر المنزل.. ولقد قلت لها هذا، فإذا بها تُحبذهُ بدلا من أن تعارضه!.. وكانت لها صديقة في "**جرينوبل**" –تُدْعَى السيدة "**ديبيان**"– كان زوجها صديقا للسيد "**دي مابلي**"، محافظ مدينة "**ليون**". ولقد اقترح السيد "**ديبيان**" أن أتولى تعليم أولاد السيد "**دي مابلي**"، فقبلت، ورحلت إلى "**ليون**" دون أن أُسَبِّبَ لنفسي –بل دون أن أشعر تقريبا– بأقل أسف على فراق كان مجرد التفكير فيه –فيما مضى– يبعث فينا آلاما كنزعات الموت!

وكانت لدي المعرفة الضرورية –تقريبا– لكي أكون مربيا، وأعتقد أنني أوتيتُ موهبة لذلك. وقد اتسع لي الوقت –في السنة التي قضيتها بمنزل السيدة "**دي مابلي**"– كي أكشف عن حقيقة نفسي، فإذا ما فُطِرْتُ عليه من سماحة ورقة كفيل بأن يجعلني أهلا لهذه المهنة لولا ما كان يشوبه من حدة الطبع.. فقد كنت كالملاكِ الكَرِيم، طالما سارت الأمور على مايرام، وطالما كنت أرى تعبي وعنايتي –اللذين لم أكن أقتصد فيهما– يُؤتيان ثمارا ولكنني كنت أغدو شيطانا إذا ما انقلبت الأمور. وعندما كان يستعصي على تلميذي فهمي كنت أَهْذِي كالمجنون، فإذا بدت منهما أمارات تَنمُّ عن خُبْث وعصيان فإنني كنت أتمنى لو استطعت أن أقتلهما!... وما كان هذا المسلك ليكفل لهما العلم أو الأدب.. وكانا غلامين يختلف طبع كل منهما عن الآخر كل الاختلاف: أحدهما في الثامنة أو التاسعة من العمر، ويدعى "**سانت ماري**"، له وجه جميل، وعقل متفتح. وكان نشيطا، طائشا، لعوبا، ماكرا.. إلا أن مكره كان يتسم دائما بالمرح!.. أما الأصغر –واسمه "**كونديللاك**"– فقد كان غَبِيا أو يكاد، تافها كسولا، أوتي عناد البغل.. وكان عاجزا عن أن يتعلم شيئا!

ولقد أكرهت على تقسيم عملي بين الاثنين، كما هو واضح للقارئ، ولعلني كنت مستطيعا بشيء من الصبر والهدوء أن أوفق في عملي ولكني كنت خلواً منهما، ومن ثم فإنني لم أحرز مع تلميذي أي تقدم، وكانت النتيجة غاية في السوء.. وما كنت لأفتقر إلى المثابرة، وإنما كان يعوزني الأتزَانُ والكياسة بوجه خاص.. إذ إنني لم أكن أعرف من الأساليب التي تُسْتَخْدمُ مع الأطفال إلا ثلاثة، كانت كلها دائما عَقِيمَة عديمة الجدوى، وكثيرا ما كانت تعود عليهم بأبلغ الضرر.. وهذه السبل الثلاث هي :العاطفة، والمجادلة، والغضب. ولقد تأثرت ذات مرة من "**سانت ماري**" تأثرا ذرفت معه الدموع، وحاولت أن أثير فيه عَاطفة مماثلة، كأنما كان في وسع الطفل أن يتأثر تأثرا صحيحا!.. وفي مناسبة أخرى أرْهَقَتُ نفسي في مجادلته، وكأنه كان قادرا على أن يفهمني، ولما كان يلجأ في بعض الأحيان إلى جدال غاية في المكر والدهاء فقد اعتقدت أنه لابد ذكي مادام يعرف كيف يجادل!.. أما "**كونديلاك**" الصغير، فقد كان أشَدَّ جَلْبا للضيق والضجر، إذ إنه لم يكن يفهم شيئا، ولا يجيب عن أي سؤال، ولا يتأثر بأي مؤثر!.. كان عنيدا لا يتزحزحْ عن موقفه، ولم يكن موفقا في شيء اللهم إلا في إثارة غضبي. وإذ ذاك، كان يَغْدوُ هو العاقل وأنا الطفل!

لقد تَبَيَّنْتُ كل أخطائي، وكنت أدركها تمام الإدراك إذ إنني درست أخلاق تلميذي وأفلحت في سَبر غَورهما. ولا أعتقد أن حيلهما انطلت علي مرة، ولكن ما جَدوى تبين الشر إذا كنت لا أعرف كيف أُعَالجُهُ؟.. ومع أنني كنت استشف كل شيء إلا أنني لم أكن أمنع شيئا، ولم أفلح في شيء.. كان كل ما أفعله هو عين ما كان ينبغي لي ألا أفعله!

ولم يكتب لي -فيما يتصل بأمر نفسي- من النجاح أكثر مما كتب لي فيما يتعلق بتلميذي، وكانت السيدة "**ديبان**" قد أوصت بي السيدة "**دي مابلي**"، وطلبت منها أن تُهَذّبَ عاداتي وأن تَطْبَعْني بطابع يتفق والمجتمع الراقي، فجهدت السيدة في ذلك بعض الجهد، وأرادت أن تُعَلّمَني كيف أُشَرّفُ البيت الذي أنزل فيه بيد أنني أبديت من الارتباك والخجل بل والغباء ماأَثْبط منها ودعاها إلى اليأس مني. ولكن هذا لم يمنعني من الوقوع في حبها بطريقتي المعهودة، وقد عَمِلْتُ على أن تلاحظ هذا، وإن لم أجرؤ أبدا على البوح لها بحبي، ولم يكن من طبيعتها أن تتودد قط إلى رجل، ومن ثم فقد ذهبت غَمَزَاتي ونظراتي وتأوهاتي أدراج الرياح، وسرعان ما سئمتها، إذ رأيت أنها لم تكن تؤدي إلى شيء!

وكنت أثناء إقامتي مع "**ماما**" قد فقدت تماما الرغبة في السرقات الصغيرة إذ إنني حين رأيت أن كل شيء قد بات ملك يدي، لم أعُدْ أجد ما يَدْعُو إلى السرقة! فضلا عن أن المبادئ السامية التي انتهجتها كانت كفيلة بأن تجعل مني في المستقبل شخصا ساميا لا يأتي أمثال هذه الصغائر، وهذا ما صرت إليه -يقينا- منذ ذلك الحين.. بيد أن هذا لم يكن راجعا إلى أنني استأصلت الداء من جذوره وإنما كان مرده إلى أنني تعلمت التغلب على ما كان ينتابني من إغراء. وكان الخوف كثيرا ما يتملكني من أن أوغل في السرقة -كما كنت أفعل في طفولتي- إذا عَاوَدتني الرغبة وتَهيَّأت لي الفُرْصَةُ. وقد تبدى لي الدليل على ذلك في دار السيد "**دي مابلي**". فبالرغم من كثرة الأشياء الصغيرة التي كانت تُحيطُ بي، والتي كانت في متناول يدي إلا أنني لم أولها نظرة واحدة.. غير أن رغبة قوية تملكتني في الحصول على شراب أبيض بسيط المفعول اسمه شراب "**أربو**"، كان لذيذ الطعم، وقد طاب لي كثيرا بعد أن تناولت منه بضع كؤوس على المائدة.. وكان كثيفا بعض الشيء، وقد زهوت بمهارتي في تنقية الشراب، فعهد إلي بهذا النوع بالذات، فقمت بتنقيته، ولكني أفسدته أثناء ذلك. على أن

الفسادَ لم يَلْحَقْ إلا مظهره، فظل لذيذ الطعم، وكنت أنتهز الفرصة لآخذ بعض الزجاجات بين الحين والحين أتجرعها عندما يحلو لي، ولكنني -لسوء الحظ- لم أك أقوى على أن أشرب دون أن أقرن الشراب بالأكل، فما حيلتي في الحصول على الخبز؟.. كان من المستحيل علي أن أحتفظ بشيء منه. ولو أنني أرسَلْتُ الخدم لشرائه لانفضح أمري، ولكان ذلك -في الوقت نفسه- إهانة، أو شبه إهانة، لرب البيت، كذلك كنت أخشى أن اشتريه بنفسي، فكيف يستطيع سيد "مُهَذَّبٌ" -والسيف إلى جانبه- دخول مخبز وشراء رغيف من الخبز؟.. وأخيرا تذكرت الملجأ الأخير الذي لجأ إليه أمير كبير قيل له: إن الفلاحين لم يكونوا يجدون الخبز فأجاب بقوله: "إذن دعوهم يأكلون الفطائر!".. ولكن، يا لَلْمَشَقَّة التي كابدتها في الحصول على الفطائر!.. كنت أخرج وحدي في طلبها، فأجتازُ المدينة بأكملها في بعض الأحيان من طرف إلى طرف، وأمر بثلاثين محلا من محلات الفطائر، قبل أن أَدْخُلَ أحدها. وكان من الضروري ألا يكون في المحل غير شخص واحد، وأن تكون سمات هذا الشخص بشوشا جدا، قبل أن يستقر رأيي على المغامرة.. وما إن كنت أفوز بكعكتي الصغيرة العزيزة، وأحكم غلق باب غرفتي علي حتى كنت آتي بزجاجة شرابي من قَاعٍ صوان بغرفتي.. وياللنشوات الصغيرة اللذيذة التي نَعِمْتُ بها وحدي وأنا أقرأ بضع صفحات من رواية!.. فقد كنت أُحِبُّ دائما أن أقرأ وأنا أتناول طعامي إذا كنت وحيدا فإن القراءة أثناء الطعام كانت دائما الهواية التي تعوضني عن سمير أخلو إليه. وكنت التهمُ صفحة ثم أزدرد لقمة، وكان كتابي كان يتناول الطعام معي!

وأنا لم أكن أبدا فاسقا أو سكِّيرا بل الواقع أنني لم أَثْمَلْ في حياتي قط!.. وهكذا تَوالَت سرقاتي الصغيرة، التي لم تك تخلو تماما من الحرص والحذر، بيد أنها لم تلبث أن اكْتُشِفَتْ، إذ فَضَحَتْ الزجاجات أمري. ولم توجه إلي أية ملاحظةإلا أن القبو لم يعد موكولا إلي، وقد تصرف السيد "**دي مابلي**" في هذا كله تصرفا كريما معقولا، فقد كان رجلا شهما، يُخْفي تحت ستار من الخشونة الملائمة لمنصبه نزعة رقيقة حقا، وطيبة قلب نادرة!.. كان ذكيا عادلا، بل إنه كان لطيفا، وهو أمر لا تنتظره من ضابط من ضباط البوليس الراكب. وقد قدرُت له تسامحه فأصبحت أكثر تعلقا به، وحملني هذا على أن أَمْكُثَ في منزله فَتْرة أطول مما كان ينبغي لي، ولكنني وقد كرهت آخر الأمر مهنة لم أكن أصلح لها -بعد أن زَجَجْتُ بنفسي في موقف كله تعب، ولم يكن فيه ما يسر. وبعد سنة من التجربة لم أقتصد فيها شيئا من جَهْدِي- قررت أن أترك تلميذيّ وأنا مقتنع بأنني لن أفلح في تنشئتهما تنشئة صحيحة. وكان السيد دي "**مابلي**" يرى هذا جيدا كما كنت أراه على أنني لا أعتقد أنه كان يقدم على فصلي -من تلقاء نفسه- لو لم أكفه مؤونة العناء.. ومن المحقق أن هذا التساهل المفرط -في حال كهذه- ليس مما أقره!

ومما زاد في عدم احتمالي لمركزي أنني كنت أقارنه على الدوام بذلك المركز الذي خَلَفْتُهُ ورائي: ذكرى "**شارميت**" الغالية، وذكرى حديقتي وأشجاري، ونبعي، وبستاني -وفوق هذا وذاك- ذكرى تلك التي أشعر أنني خلقت من أجلها، والتي كانت حياة كل شيء وروحه. وعندما كانت تُعاودني ذكرى متعنا وحياتنا البريئة كان قلبي يرزح تحت شعور من الضيق والاختناق يَسْلُبُني الشجاعة والقدرة على أن أفعل أي شيء! وقد راودتني -مائة مرة- رغبة عنيفة في الانطلاق لفوري على قدمي، والعودة إلى السيدة دي "**فاران**".. كنت على استعداد لأن أموت لفوري راضيا لو قُدِّرَ لي أن أراها مرة أخرى!

ولم أستطع -آخر الأمر- أن أقاومَ هذه الذكريات الرقيقة -التي كانت تُنادِيني إليها- مهما يكن

الثمن، فقلت لنفسي: إنني لم اتذرعْ بما يكفي من الصبر والكرم والود، وإنني لو كنت قد أجهدت نفسي أكثر مما فعلت لظللت أعيش معها في علاقة من الصداقة الخالصة، وقد وَضَعْتُ أجمل المشروعات في العالم وتحرقت شوقا إلى تنفيذها!

*****

وهكذا تَركتُ ذات يوم كل شيء ونبذتُ كل شيء، ثم شرعت في رحلتي أنهب الأرض نهبا، فوصلت إلى الدار بعد استخدام جميع وسائل المواصلات التي تَوفَّرت لي في صدر شبابي.. وَوَجَدْتُني عند قدميها مرة أخرى! أواه! لقد كنت أَمُوتُ مغتبطا، لو انني وجدت -عند عودتي- في استقبالها إياي، أو في عينيها، أو في عناقها، أو -أخيرا- في قلبها، رُبْعَ ذلك الذي كنت أجده من قبل، والذي كانت نفسي مفعمة به في عودتي!

واحسرتاه على ما يُصادفُ البشر من خدع قاتلة!.. لقد تلقتني "**ماما**" بذلك القلب الطيب الذي لا يموتُ إلا بموتها، ولكني بَحَثْتُ عَبَثا عن الماضي الذي وَلّى إلى غير عودة. وما إن مَكَثْتُ معها نصف ساعة حتى شعرت بأن سعادتي السابقة قد زالت إلى الأبد، ووجدتني في نفس المركز المحزن الذي اضطررت إلى الهرب منه دون أن أستطيع توجيه اللوم إلى إنسان!.. ذلك أن "**كورتيل**" لم يكن في قرارة نفسه فتى شريرا، وقد لاح عليه السرور -لاالضيق- لمرآي ولكن كيف أستطيع أن أحتمل وجودي كشخص زائد عن الحاجة، عند تلك التي كنت لها كل شيء، والتي لن تكف عن أن تكون لي كل شيء؟.. كيف أستطيع أن أعيش غريبا في منزل كنت أشعر أنني ابنه؟.. بل إن رؤية الأشياء التي شهدت هنائي الماضي كانت تزيد المفارقة إيلاما.. وكنت خليقا بأن اغدو اقل الما في اي جو آخر للمعيشة فإن شعوري بأنني كنت أذكر دون انقطاع كل تلك الذكريات الحلوة كان يهيج في صدري الإحساس بفداحة ما فقدت.. وإذ راحت الحسرات -التي لم يكن من ورائها طائل -تنهش قلبي، واستبدت بي أشد الوان الكآبة سوادا أخذت الوذ بالوحدة في غير أوقات الطعام، وانفردت بكتبي، وسعيت إلى أن أجد فيها بعض التسلية النافعة!

وشعرتُ بأن الخَطَر -الذي كنت أخشاه طويلا- بات وشيك الوقوع، فأخذت أُجهدُ عقلي من جديد محاولا أن أجد من نفسي وسيلة للتحصن ضده إذا ما نضبت موارد "**ماما**".. فلقد كنت أدير شؤونها المنزلية على أساس الا تزدادَ الأمورَ سوءا أما بعد أن تركتها فقد تغير كل شيء.. كان مدبرُ ماليتها مسرفا، يريد أن يختال بجواد أصيل وعربة.. وكان مُولعا بتمثيل دور النبيل أمام الجيران، كما أنه كان -في كل ذلك- يؤدي عملا لا يعرف عنه شيئا. وكان معاش "**ماما**" مستنفدا مقدما. إذ كانت الدُّفَعَاتُ التي تواتيها منه -كل ثلاثة أشهر- مرهونة، وكانت متأخرة في دفع الإيجار، وقد تراكمت عليها الديونُ، وتوقعت أن يحجَزَ على معاشها، أو أن يقطع عنها نهائيا.. ومجمل القول إنني لم أر أمامي إلا الخراب والكوارث، وبدت لي تلك اللحظة وشيكة، حتى لقد تجسم أمام ناظري كل ما تنطوي عليه من فظائع!

وكانت غرفتي العزيزة الصغيرة هي مَلْهاَتِي الوحيدة، وبعد أن بحثت طويلا عن أدوية لعلاج قلقي العقلي فكرت في أن أبحث عن علاج للمتاعب التي كنت أتنبأ بها، وعدت إلى أفكاري القديمة، وبدأت فجأة أبني القصور في "**إسبانيا**"، محاولا أن انقذ "**ماما**" المسكينة من النهاية القاسية التي كنت أراها على وشك التردي فيها!.. لكنني لم أكن أشعر أنني على علم كاف، ولا كنت أعتقد

أنني موهوب إلى حد يكفي لأن يَلمع نجمي بين رجال الأدب، أو أن أجمع ثروة بهذه الوسيلة.. والهمتني فكرة جديدة -خطرت لي- بالثقة التي عجزت عنها مواهبي المتوسطة.. ذلك أنني لم أكن قد أَقْلَعْتُ عن دراسة الموسيقى عندما كففت عن تدريسها، بل إنني -على النقيض من ذلك- كنت قد درست نظرياتها دراسة تكفيني لأن أعتبر نفسي عالما في هذه الناحية من الفن. وبينما كنت أَسْتَرْجِعُ الصُّعُوبة التي صادفتني في تعلم قراءة "**النوتة**"، والصعوبة الكبرى التي كنت لاأزال الاقيها في الغناء بمجرد النظر إلى "**النوتة**"، اخذت افكر في أن هذه المشقة قد تكون راجعة إلى طبيعة الأمر وليس إلى عجزي وقصوري، لاسيما أنني كنت أعلم انه ليس من السهل على أي إنسان أن يتعلم الموسيقى. وعندما فحصت ترتيب العلامات الموسيقية وجدت أنها كثيرا ما تنم عن سوء ابتكار.. وكنت قد فكرت طويلا في التعبير عن السلَّم الموسيقي بالأرقام، وذلك لتفادي رسم الخطوط والعلامات المدرجة عند الرغبة في كتابة أبسط النغمات. ولم تكن تَعُوقُني سوى صعوبات تتصل بالطَّبقات والزمن وقيم "**النوتة**".

وقد عَاوَدتني هذه الفكرة من جديد فلما أَنْعَمْتُ النظر فيها وجدت أن هذه الصعوبات ليست مما يتعذر التغلب عليه.. وافلحت في تنفيذ فكرتي فاستطعت آخر الأمر أن اكتب أيَّ موسيقى -مهما يكن شأنها- باكثر ما يمكن من الدقة.. بل إن بوسعي أن اقول: باكبر قدر من البساطة. واعتبرت نفسي -منذ تلك اللحظة- من أصحاب الثراء!.. ولم أعد افكر -وأنا شديد الشوق إلى أن تقتسم معي ثروتي، تلك المرأة التي كنت مدينا لها بكل شيء- إلا في الارتحال إلى "**باريس**"، موقنا من انني سَأَحْدِثُ انقلابا بمجرد عرض مشروعي على المحفل "**الأكاديمية**"!.. وكنت قد حملت معي -من "**ليون**"- قليلا من المال، كما انني بعت كتبي. وهكذا لم يمض أسبوع حتى أصبح قراري معدا للتنفيذ، فرحلت أخيرا عن "**سافوا**"، حاملا معي مشروعي الموسيقي، وأنا مفعم بالأفكار الرائعة التي الهمنيها هذا المشروع، كما رحلت من قبل عن "**تورين**" مصطحبا نافورتي الصغيرة!

تلك كانت أخطاء شبابي وعُيُوبُه، سَرَدْتُ قصتها بإخلاص صادق يرضي قلبي. وإذا قُدِّر لى -فيما بعد- أن أمجد السنوات التالية من عمري، -سنوات النضج- بأية فضيلة من الفضائل فلن أكون -في ذلك- إلا منتهجا عين الصراحة التي اتبعتها من قبل، فهذه هي نيتي وغايتي!

على أنه من الواجب أن أتوقف هنا.. إن الزمن كفيل بأن يدفع كثيرا من الأستار والأحجبة. وإذا قدر لمذكراتي أن تنتقل إلى الأجيال المقبلة فقد تفهم هذه الأجيال يوما ما كان ينبغي أن أقول!.. وإذ ذاك سيتبين السر في إخلادي إلى الصمت!

الكراسة السابعة

سنة ١٧٤١

بعد عامين من الصَّمت والصبر أعود إلى القلم بالرغم مما كنت قد اعتزمت. فامسك أيها القارئ حكمك على الأسباب التي تضطرني إلى ذلك فلن يكون بوسعك أن تحكم إلا بعد أن تقرأ ما أنا قائل!

لقد تبين أن شبابي الوادع مضى ينساب في حياة معتدلة، كثيرة الرفق، دون ما ضَائقات بالغة، ولا فترات رخاء عارم.. وكان هذا الاعتدال -إلى حد كبير- نتاج طبيعتي التي جمعت بين التَّوثُّب والضعف، ومن ثم فهي أقل اندفاعا إلى الإقدام منها إلى التأثر بالمُثَبِّطَات.. وإنها لتخرج من تَقَاعُدها بفورات ولكنها لا تلبث أن تعود بتقاعس واستمراء.. كما أنها تحملني دائما -بعيدا عن الفضائل الكبرى، وأكثر بعداً عن الرذائل الكبرى- إلى حياة الخمول والدعة التي كنت أظنني قد خلقت لها، دون أن تمكنني إطلاقا من تحقيق أي شيء عظيم، سواء كان طيبا أو خبيثا!

ألا ما أعظم اختلاف الصورة التي سارسمها عاجلا!.. فإن القدر الذي ظل خلال ثلاثين عاما يحابي مُيُولي، راحَ يُعَارضها ثلاثين عاما أخرى، وسيتجلى كيف أن هذا التعارض المستمر بين مركزي وميولي، قد خلق عيوبا جسيمة، وتعاسات لم يسمع لها مثيل، وكل الفضائل -ماعدا القوة- التي تجعل من البلايا أعمالا مجيدة!

لقد كُتب الجزءُ الأولُ بأسره من اعترافاتي، من الذاكرة.. ولابد أنني ارتكبت كثيرا من الأخطاء فيه، أما وأنا مضطر إلى كتابة الجزء الثاني من الذاكرة -كذلك- فمن المحتمل أني سارتكب مزيدا من الأخطاء!.. فإن الذكريات الناعمة التي تَبَقَّتْ لي عن أعوامي الجميلة التي انقضت في هدوء وبراءة قد تركت ألف أثر فاتن أحبُّ أن أستَرجعه دون ما توان!.. ولسوف يتجلى عاجلا مدى اختلاف هذه الأعوام عن بقية عمري. إن استعادة ذكراها لهي لونٌ من المرارة المتجددة. وبدلا من أن أضاعف مرارات حالي الراهنة بتلك الذكريات الباعثة على الأسى فإنني أقصيها إلى أبعد ما أستطيع، وكثيرا ما أنجح في ذلك إلى درجة أنني لا أقوى على العثور عليها عند الحاجة. وإن هذه المقدرة على نِسْيَان الهموم بسهولة لعزاء أسبغته السماءُ علي، وسط تلك الهموم التي راق للقدر أن يهيلها يوما على رأسي. فإن ذاكرتي التي تستعيد بمقدرة فَذَّةَ ما يستحب من الأمور، هي العامل المرجح السعيد الذي يغالب خيالي الفظيع الذي لا يجعلني أرى سوى القاسي من أحداث المستقبل!

إن كل الأوراق التي جمعتها كي تعينني على التذكر، وكي أهتدي بها في هذا المشروع قد انتقلت إلى أيد أخرى ولن يقدر لها أن تعود إلى يدي.. ومن ثم فلست أملك مرشدا أمينا أستطيع أن أعتمد عليه اللهم إلا واحدا يَتمثَّلُ في سلسلة الأحاسيس التي كانت تنم عن تتابع نمو كياني وعن الأحداث المتعاقبة التي كانت إما سببا وإما نتيجة لتلك الأحاسيس والمشاعر.. إنني لأنسى مصائبي بسهولة، ولكني لا أستطيع أن أنسى أَخْطَائِي، كما أنني أقل نسيانا لمشاعري الطيبة؛ فإن ذكراها أعز لدي من أن تمحى عن صفحة قلبي إلى الأبد. ولقد أستطيعُ أن أحذف شيئا من الوقائع أو أن أحرفها، وقد أرتكب أخطاء في التواريخ، ولكن من المتعذر أن يختلط علي الأمر -أو أن أخطئ- إزاء ما

حَمَلَتْني عَوَاطِفِي على فعله. وهذا هو الموضوع الرئيسي هنا. فإن الغرض الحقيقي لاعترافاتي هو أن أكشف بدقة عن دخيلة نفسي في جميع مواقف حياتي.. فإني إنما وعدت بان أروي قصة نفسي. ولكي أكتبها بأمانة لا أراني بحاجة إلى مذكرات أخرى، إذ يكفيني أن أعود للغوص في أعماقي، كدأبي حتى الآن!

على أن ثمة فترة تتألف من ست أو سبع سنوات، أملك -لحسن الحظ- مَعْلُومات وثيقة عنها، ممثلة في مجموعة منسوخة من خطابات معينة، استقرت النسخ الأصلية لها في حوزة السيد "**دي بيـــــرو**". وهذه المجموعة -التي تنتهي في سنة ١٧٦٠- تشمل جميع الفترة التي مكثتها في "**الصومعة**" -"**الأرميتاج**"- ونزاعي الكبير مع من كانوا يزعمون أنهم أصدقائي.. وإنها لفترة من حياتي جديرة بالذكر؛ فهي منبع كل البلايا الأخرى. أما بالنسبة للخطابات الأصلية الأقرب عهدا، والتي بقيت في حوزتي -وهي قليلة العدد جدا- فإنني لن أنسخها وأضيفها إلى هذه المجموعة التي قدر لها أن تكون أَضْخَمَ من أن أرجو أن أوفق في إخفائها عن عُيون رُقَبَائي(١)، وإنما سأسلكها في سياق هذا المؤلف نفسه، عندما يبدو لي أنها كفيلة بان تلقي أضواء على الوقائع، سواء لصالحي أو ضدي. ذلك أنني لا أخشى قط أن ينسى القارئ أنني أكتب اعترافاتي، وأن يظن أنني أكتب تَقْرِيظا أو مبررا لما تَخَلَّل حياتي.. وإنما يجدر به الا يتوقع أن أمسك عن ذكر الحقيقة إذا كانت في صفي وصالحي.

وعدا ذلك فليس لهذا القسم الثاني من صفة يشترك فيها مع القسم الأول سوى هذه الحقيقة، وليس له من ميزة عليه إلا بقدر أهمية الأمور التي يتضمنها. وعدا ذلك فلن يخفق هذا القسم في أن يكون مغايرا لسَابِقه من كافة الاعتبارات(٢). فلقد كتبت الأول بلذة وسرور وارتياح، في "**ووتون**" أو في قصر "**تراي**"، وكانت لكل الذكريات التي تَوَارَدت على خاطري مباهج جديدة. ولقد رحت أسترجعها دون انقطاع، وباستمتاع متجدد، فاستطعت أن أراجع وأنقح ما أوردته من أوصاف -دون ما ملل أو ضيق- حتى أصبحت راضيا عنها. أما اليوم، فإن ذاكرتي وعقلي الكَلِيلَين يكادان يجعلاني عاجزا عن كل عمل، ولست أُشْغَل بُهذا القسم إلا مُكرها، والأسى يعتصر قلبي.. إنه لا يمثل -بالنسبة إلي- سوى محَن وخيَانات وغدر وذكريات تحزن النفس وتمزقها.. إنني لأنزل للدنيا عن كل شيء كي أواري في ليل الزمان ما أنا موشك أن أقوله.. وإني إذ أضطر إلى الكلام -بالرغم مني- أعمد كذلك إلى الاستخفاء، وإلى التحايل، وإلى محاولة الخداع، وأنحدر إلى تصرفات أنا أبعد الناس عن أن أكون قد خلقت لممارستها!

إن للسقف الذي أوجد تحته عُيُونا، وللجدران المحيطة بي آذانا. وإنني -إذ يَحُفُّ بي جواسيس ورُقباءٌ أشرار ويقظون، وإذ يتوزعني القلق والهم- لأسطر على الورق في عجلة بضع كلمات مفككة لا أكاد أجد وقتا لمراجعتها. فما بالكم بتصحيحها!.. إنني أدرك أن أعدائي لايزالون -برغم الحواجز الهائلة التي تُقام حولي دون انقطاع- في خوف دائم من أن تجد الحقيقة منفذا تتسرب منه. فكيف يتسنى لي أن أدفع بها إلى النور؟.. لسوف أحاول، وأنا قليل الرجاء في النجاح. فمن ذا الذي يقول:

---

(١) العبارة التي ذكرها "روسو" هي: اخفائها عن أعين "أرجوساتي اليقظة".. وارجوساتي هي جمع "أرجوس" وهو تعبير مجازي. فإن "ارجوس" اسم يطلق في أساطير اليونان على عملاق ذي مائة عين، اقامته الربة "هيرا" -عندما تولتها الغيرة- ليراقب "يو" معشوقة الإلة "زيوس"، التي كانت قد مسخت على شكل بقرة! (٢) التعبير الذي أورده "روسو" هو: "لن يخفق في أن يكون اقل شأنا".. وهو ما لا أحسبه يقصده. فالواقع أن هذا الجزء من اعترافاته -وهو الذي يشمل الكراسات من ٧إلى ١٢- يضم أحداثا ومعلومات على قدر كبير من القيمة قد يفوق قدر ما ورد في القسم الأول. وإنما اختار "روسو" هذا الوصف لأنه كان -عندما كتب هذا القسم- ضحية لانفعالات نفسية قاسية. أوحت إليه بأن أعز أصدقائه. الذين آووه في إنجلترا- حيث كتب الكراسات الست الأولى- قد تآمروا عليه مع ملك بروسيا، فغادر بلادهم، وظل يتنقل وهو متنكر، لا يكاد يأمن إلى استقرار. ومن هنا ندرك سر التشاؤم والأسى والشك والقنوط التي تطبع حديثه هذا.

إن في هذا مادة لصور مستحبة، ولإضفاء ألوان جذابة على هذه الصور؟.. إنني لهذا أنذر المقبلين على قراءة هذا، بأن ليس ثمة شيء -في سياق هذا الحديث- يستطيع أن يقيهم السأم، اللهم سوى الرغبة في اسْتِكْمَالِ التَّعرف على إنسان، وسوى الحب الصادق للحق والصدق!

*****

تركتموني -في القسم الأول- وأنا راحل محسور إلى "**باريس**"، مخلفا قلبي في "**شارميت**"، حيث أقمتُ آخر قلعة لي في "**إسبانيا**"(١)، معتزما أن أعود إلى هناك يوما فاطرح عند قدمي "**ماما**" -إذ تكون قد ارتدَّت إلى نفسها وَسجيَّتها- ما أكون قد أحرزت من كنوز، ومطمئنا إلى طريقتي الموسيقية بوصفها ثروة محققة أكيدة!

وتخلفت بعض الوقت في "**ليون**" لأزور معارفي، ولأحصل على بعض التَّوصيات التي أفيدُ منها في "**باريس**"، ولأبيع كُتُبي الهندسية التي كنت قد حملتها معي، ولقد رحب بي الجميع، فاظهر السيد والسيدة "**دي مابلي**" اغتباطا لرؤيتي، ودعواني للغداء عدة مرات، وتعرفت لديهما بالراهب "**دي مابلي**"، كما كنت قد تعرفت من قبل بالراهب "**دي كونديللاك**"، وكان الاثنان قد أقبلا لزيارة شقيقهما. ولقد أعطاني الراهب "**دي مابلي**" خطابات تقدمه إلى أناس في "**باريس**"، منها واحد للسيد "**دي فونتنيل**"، وآخر للكونت "**دي كايلوس**". وقد أتاحت لي الرسالتان معرفة شخصيتين لطيفتين جدا، لا سيما السيد الأول الذي لم يكف حتى موته عن أن يُؤْثِرُني بوده، وعن أن يمنحني -في الأحاديث التي كانت تدور في خلواتنا- نصائح كان خليقا بي أن أحسن الإفادة منها.

وزرت السيد "**بورد**" الذي كنت قد تعرفت به منذ وقت طويل، والذي كثيرا ما ساعدني بقلب كبير وبأعظم سرور صادق. ولقد ألفيته في هذه المناسبة على حاله التي عهدتها. فقد كان هو الذي باع كتبي، كما أعطاني من لديه -أو حصل لي من الغير- على خطابات توصية طيبة. وزرت السيد وكيل الحكومة، فقد كنت مدينا له بمعرفة السيد "**دي بورد**"، كما أدين له بالتَّعرف إلى الدوق "**دي ريشيليو**"، الذي مر بـ"**ليون**" في ذلك الوقت، فقدمني السيد "**بالو**" إليه. وقد أحسن السيد "**ريشيليو**" استقبالي، ودعاني إلى أن أزوره في "**باريس**" -وهذا ما فعلته عدة مرات- ولكن.. دون أن يكون لهذه الشخصية الرفيعة -التي سأتكلم عنها كثيرا فيما بعد- أي نفع لي!

كذلك زُرْتُ الموسيقي "**دافيد**" الذي أولاني عونه في ضائقتي في إحدي رحلاتي السابقة، إذ أعارني -أو منحني- قلنسوة وزوجا من الجوارب، لم أردها إليه قط، ولا هو سألني أن أردها أبدا، برغم أننا تقابلنا كثيرا منذ ذلك الحين. على أنني لم ألبث أن قدمت إليه -فيما بعد- هدية تعادل تلك الأشياء تقريبا. وبوسعي أن أتحدث عن نفسي بأشياء أفضل من هذا لو أنني كنت بِصَدَدِ ما كان ينبغي عمله، لا ما عملته فعلا.. وهما حالان ليستا سواء لسوء الحظ!

كذلك رأيت النبيل السَّخي "**بيريشون**"، فلم أفتقد سخاءه المعهود، فقد مَنَحنَي عين الهدية التي كان قد قدمها من قبل إلى "**برنار**" اللطيف إذ دفع أجر مقعدي في عربة البريد السريعة.. وزرت الجراح "**باريسو**"، أحسن وأفضل الناس عملا. كما قابلت عزيزته "**جودفروا**" التي كان على علاقة مستمرة بها منذ عشر سنوات، والتي كانت كل مؤهلاتها تقريبا تتمثل في لطف الخلق وطيبة القلب، والتي لم يكن في وسع المرء أن يراها لأول مرة دون أن يوليها حسن اهتمامه، ولا أن يفارقها دون ما إشفَاق وتأثر، إذ إنها كانت في آخر أطوار السُّلِّ الذي لم تلبث أن ماتت به بعد ذلك بقليل. وليس

---

(١) اصطلاح يقابل: "بناء القصور في الهواء" عندنا.

أقدر على كشف الميول الحقيقية لأي إنسان، من أخلاق أولئك الذين يتعلق بهم(١).. وقد كان بوسع أي امرئ رأى "**جودفروا**" اللطيفة أن يدرك شخصية "**باريسو**" الطيب.

إنني مدين لكل هؤلاء الكرام. ولقد أغفلتهم جميعا -فيما بعد- لا عن جُحُود، وبالتأكيد، وإنما نتيجة ذلك الكسل العتيد الذي كثيرا ما يُظْهِرُني بمظهر الجاحد!.. بينما الواقع أن ذكرى خدماتهم لم تبرح فؤادي قط، كما أن إظهارهم على عرفاني ما كان ليكبدني ما تكبدنيه المثابرة على ذكره. ولقد كانت المواظبة على التراسل أمرا فوق طاقتي دائما، فإني ما إن أبدأ في الشعور بتكاسلي فيها حتى يحملُني الخجل والحيرة في طريقة إصلاح عيبي على مضاعفة هذا العيب، فإذا بي أكُفّ عن الكتابة بالمرة! ومن ثم فقد لذت بالصمت إزاء هؤلاء حتى بدا أنني نسيتهم. ومع ذلك فإن "**باريسـو**" و"**بيريشون**" لم يُلْقِياً بالا، فكنت أجدهما دائما كما عهدتهما. أما في حالة السيد "**بورد**"، فلن يلبث أن يتبدى كيف أن الانتقام للشعور بالإهمال، حل -بعد عشرين عاما- محل الحب الصادق والذكاء البديع!

وما ينبغي لي أن أنسى -قبل مبارحة "**ليون**"- شخصية لطيفة زرتها في اغتباط لم أشعر قط بمثله- وقد تركت في فؤادي ذكريات جد رقيقة. تلك هي الآنسة "**سير**"، التي تحدثت عنها في القسم الأول(٢)، والتي جَدَّدْتُ تعارفي بها عندما كنت في دار السيد "**دي مابلي**". ولما كان لدي متسع من الوقت، -في هذه الرحلة- فقد رأيتها كثيرا، ومال إليها قلبي في وجد قويّ. ولدي من الاعتبارات ما يحملني على أن أظن أن قلبها لم يكن على النقيض بيد أنها أولتني من الثقة ما بدد كل إغراء بأن أُسيء استغلالها. ولم تكن تملك شيئا، ولا كنت أنا أملك أكثر منها، وكان مركزانا جد متشابهين إلى درجة لا تغري بأن نتحد، لا سيما وأنني كنت -بالآراء التي كانت تَتَمَلَّكَني- بعيدا كل البعد عن التفكير في الزواج. ولقد أنبأتني بأن تاجرا شابا، -يدعى السيد "**جنيف**"- كان يبدو راغبا في أن يرتبط بها. وقد التقيت به عندها مرة أو اثنتين، فتراءى لي أنه شاب أمين شريف، وكان معروفا بذلك. وإذ خُيِّل إلي أنها كانت تحبه تمنيت أن يتزوجها -وهو ما فعله فيما بعد- فأسرعت بالرحيل كي لا أعكر صفو عواطفهما البريئة، مُزْجيا لسعادة هذه الشابة الفاتنة دعوات لم يقدر لها أن تستجاب على هذه الأرض إلا لأجل قصير.. واأسفاه!.. جد قصيرا.. فقد علمت فيما بعد أنها ماتت بعد عامين أو ثلاثة من زواجها! ولما كنت قد شُغِلْتُ طِيلَة رحلتي بحسرات عاطفية فقد أحسست -ولاأزال أحس في كثير من الأحيان، كلما فكرت في ذلك- بأنه إذا كانت التضحيات التي يقدم عليها المرء في سبيل الواجب والفضيلة تكبده ثمنا غاليا إلا أنه لا يلبث أن يتلقى الجزاء ممثلا في الذكريات الناعمة التي تخلفها له تلك التضحيات في قرارة فؤاده!

وإذا كنت قد رأيت "**باريس**" -في رحلتي السابقة- من ناحية لا تجعلها أهلا للإعجاب فإنني رأيت -في هذه الرحلة- جانبها اللامع. على أن هذا لم يكن الشأن بالنسبة لسُكْنَايَ، فقد ذهبت -حسب إرشاد السيد "**بورد**"- للإقامة في نُزُلِ "**سان كنتان**"، بشارع "**ديه كورديبه**"، على مقربة من "**السـوربون**".. وكان شارعا وضيعا، ونزلا وضيعا، وحجرة وضيعة.. ومع ذلك فقد اعتاد هذا النزل

---

(١) أردف "روسو" -في هامش مؤلفه- معلقا على هذا بقوله: "مالم يكن قد خدع في اختياره من البداية، أو مالم تكن شخصية المرأة التي تعلق بها قد تغيرت – بعد ذلك بتأثير مجموعة من الظروف غير العادية، فإن من المستحيل أن تكون هذه القاعدة مطلقة. ولو أريد إقرار هذه القاعدة دون تعديل لجاز الحكم على "سقراط" بشخصية زوجته "كسانتيت"، أو "ديون" بشخصية صديقه "كاليبوس".. وهذا خليق بأن يكون أبعد الأحكام عن الإنصاف، وأكثرها خطلا. وفوق هذا لا ينبغي أن تطبق هذه القاعدة هنا على زوجتي تطبيقا يسيء إليها. فهي بالتأكيد أضيق عقلا وأسهل انسياقا للخداع مما كنت أتصور، ولكنها ذات خلق طاهر، رائع، خال من أي خبث، جدير بكل تقديري، وهذا ما سيظل يحظى به ما حييت". (٢) الكراسة الرابعة. وقد كتب لها "روسو" يوما أروع خطاب غرامي في كل مخلفاته الأدبية!

أن يأوي رجالا محترمين، من أمثال "**جريسيه**"، و"**بورد**"، والراهبين الشقيقين "**دي مابلي**"، و"**كونديللاك**"، وكثيرين غيرهم -وإن لم أعثر فيه، لسوء الحظ، علي واحد منهم- غير أني التقيت بشاب يدعى السيد "**دي بونفون**"، كان ريفيا أعرج، محاميا، يحرص على انتقاء ألفاظه. وقد تعرفت عن طريقه إلى السيد "**روجان**" الذي أصبح الآن أقدم أصدقائي. وعن طريقه تعرفت إلى الفليسوف "**ديديرو**"، الذي سأكثر من الحديث عنه فيما بعد.

*****

ولقد وصَلْتُ إلى "**باريس**" في خريف سنة ١٧٤١، وكل مواردي خمسة عشر "**لوي**"، ومسرحيتي الهزلية "**نارسيس**"، ومشروعي الموسيقي. ولما لم يكن لدي وَقْتٌ أُضيعه في محاولة تدبير إنفاقها على خير وجه، فقد أسرعت إلى استغلال خطابات التوصية التي كنت أحملها. وأي شاب يصل إلى "**باريس**" مزودا بشَكْل وسيم، ومعلنا عن نفسه بمواهبه قمينٌ بأن يتأكد دائما من أنه سيجد تَرْحيبا. وقد كنت كذلك، فمكنني هذا من أن أحظى بنعم كثيرة، وإن كانت لم تساعدني ماديا بدرجة تذكر. ومن كافة الأشخاص الذين حملت إليهم التوصيات لم يثبت سوى ثلاثة أنهم نافعون لي، وهم: السيد "**داميسان**" -وكان سيدا من "**سافوا**"، كان إذ ذاك من الفرسان، وأَحْسَبُه كان ذا حُظوة لدى الأميرة "**دي كارينيان**" ثم السيد "**دي بوز**"، سكرتير ديوان الخطوط وحارس الأوسمة بديوان الملك.. وأخيرا الأب "**كاستيل**" الجيزويتي، مخترع "**الكلافيسان**"(١) البصري. وكانت خطابات التوصية للآخرين منهم صادرة من الراهب "**دي مابلي**".

ولقد تكَفلٌ السيد "**داميسان**" بما كانت تمس إليه حاجتي إذ عرفني إلى اثنين، أحدهما: السيد "**دي جاسك**"، رئيس برلمان "**بوردو**"(٢)، الذي كان يَحْذِقُ العزف على الكمان حذقا بالغا.. وثانيهما: الراهب "**دي ليون**"، الذي كان يقيم إذ ذاك في السوربون، وكان راهبا شابا، مَوْفُوَر اللُّطف، مات في زهرة عمره، بعد أن تَألَّقَ في المجتمع لبضع سنوات تحت اسم "**الشيفاليه روهان**"(٣). وكان كل منهما مشغوفا بتعلم التلحين، فرحت أدرسه لهما بضعة أشهر، مما أنعش مواردي المالية الناضبة. ولقد أولاني الأب "**ليون**" وده، ورغب في أن يتخذني سكرتيرا له، ولكنه لم يكن غنيا، فلم يكن بوسعه أن يدفع لي مرتبا يتجاوز ثمانمائة فرنك.. فرفضت منصبه وأنا آسف، إذ لم يكن مرتبه يكفي لنفقات سكناي وتَغْذِيَتي ومستلزمات معيشتي.

أما السيد "**بوز**"، فقد اسْتَقْبَلَني استقبالا طيبا جدا. وكان عالما، ومشغوفا بالمعرفة ولكنه كان متغطرسا بعض الشيء. وكانت السيدة "**دي بوز**" خَلِيقة بأن تكون ابنته، لا زوجته! وكانت لامعة الذكاء ذات مهابة. وقد تناولت الغداء في دارهما بضع مرات، وما كان أحد ليشعر بمثل ما كنت أشعر به من خجل وارتباك في محضرها، فقد كان مَسلكُها غير المتكلف يُحْرِجُني ويجعل مسلكي أدعى إلى الضحك.. فإذا قدمت لي طبقا كنت أدفع "**شوكتي**" فالتقط -في تواضع- قطعة صغيرة مما

---

(١) الكلافيسان آلة موسيقية، و"الكلافيسان البصري" آلة ذات مفاتيح تتصل -إلى جانب الأوتار- بمكعبات ملونة. فإذا عزف عليها- كما يعزف على الآلة الموسيقية -تتابعت الألوان تتابع الأنغام، بحيث تتمشى الألوان الأساسية السبعة الأولى، مع الأنغام السبعة الأولى في الموسيقى. وكانت غاية المخترع، أن يحدث المؤثرات النغمية بالألوان! (٢) في الأصل: الرئيس ذو القلنسوة المخملية السوداء المستديرة! (٣) بحثنا عن سيرة "الشيفاليه دي روهان"، فلم نجد من يحمل لقب "شيفالييه" -أي فارس- وينطبق عليه ما ذكره "روسو" عن التالق وقصر العمر، سوى "الشيفالييه لويس دي روهان"، الذي اشترك في مؤامرة ضد الملك لويس الرابع عشر، واعدم. ولكن هذا عاش بين سنتي ١٦٣٥ و١٦٧٤، أي قبل مولد "روسو". و"روهان" الوحيد الذي عاصره "روسو" هو الأمير إدوار دي روهان -الذي عاش بين سنتي ١٧٣٤ و١٨٠٣- وكان كارديناﻻ، ولكنه لم يكن "شيفالييه". ولعل الأمر التبس على "روسو".

تقدمه لي، بطريقة كانت تجعلها ترد إلى خادمها الطبق الذي كانت قد أعدته لي، وهي تدير وجهها لكي لا أراها وهي تضحك!.. ومع ذلك، فما كان يُسَاوِرها أي ريب في صلاحية رأس هذا الريفي الشاب، ولم يَفُتْهَا أن ترى فيه بعض الذكاء. ولقد قدمني السيد **"دي بوز"** إلى صديقه السيد **"دي ريومور"**، الذي اعتاد أن يحضر إلى داره لتناول الغداء في أيام الجمعة، وهي أيام انعقاد اجتماعات محفل العلوم. ولقد حدثه السيد **"دي بوز"** عن مشروعي، وعن الرغبة التي كانت لدي في أن أَضَعَهُ تحت اختبار المحفل، فَتَكَفَّلَ السيد **"دي ريومور"** بالاقتراح، فلم يَلْبَث أن حظي بالقبول!

وفي اليوم المحدد لمناقشة المشروع تولى السيد **"دي ريومور"** تقديمي والتعريف بي. وفي اليوم ذاته -٢٢ آب (أغسطس) سنة ١٧٤٢- تشرفت بأن قرأت على المحفل المذكرة التي أعددتها لذلك. ومع أن هذا المحفل الجليل كان عظيم المهابة والرهبة -يقينا- فإنني كنت أمامه أقل ارتباكا مني أمام السيدة **"دي بوز"**، واستطعت أن أؤدي القراءة وأن أُجيب عن الأسئلة بنجاح. فاستقبلت الرسالة بتقدير، وجلبت لي التهانئ، مما أدهشني أكثر مما سَرَّني.. فما كنت لأتصور أن أي امرئ لا ينتمي إلى المحفل -أيا كان- يبدو لأعضائه ذا إدراك سليم! وكانت اللجنة التي تَوَلَّت مناقشتي تتكون من السادة دي **"ميران"**، و**"هيلو"**، و**"دي فوشي"**. وكان ثلاثتهم من الأكفاء دون ما ريب.. ولكن لم يكن بينهم واحد يلم بالموسيقى إلماما كافيا -على الأقل- لأن يجعله في وضع يمكنه من الحكم على مَشْرُوعي!

سنة ١٧٤٢

وفي خلال مناقشاتي مع هؤلاء السادة تبينت -في شك أكثر مني في دهشة- أن العلماء وإن كانوا أقل من سواهم تحاملا، في بعض الأحيان، إلا أنهم أكثر تَشَبُّثا بما يكون لديهم من آراء، وكأنهم يجدون في ذلك لونا من التعويض. فبقدر ما كانت معارضة هؤلاء السادة واهية، وخاطئة في الغالب، ومع أنني كنت أردها بحجج قاطعة -برغم تهيبي، كما ينبغي أن أعترف، وبرغم سوء تعبيري- إلا أنني لم أوفق مرة واحدة إلى أن أحْمِلَهُمْ على أن يفهموا قولي وأن يقتنعوا به. وكنت أُبْهَتُ دائما للسهولة التي كانوا يخطئونني بها -مستخدمين في ذلك بعض العبارات الرنانة- دون أن يكونوا قد فهموا شيئا.. ولقد أكتَشَفواْ -حيث لا أدري- أن راهبا يدعى الأب **"سوهيتي"**، كان قد تَصَوَّرَ فكرة كتابة السلم الموسيقي بالأرقام. وكان هذا كافيا لأن يَزْعُمُوا أن طريقتي لم تكن جديدة. وقد يكون الأمر كذلك، إذ إنني وإن لم أسمع قط بالأب **"سوهيتي"**، ومع أن طريقته في كتابة النغمات الرئيسية السبع في الترانيم الكنسية دون أي تفكير في الثمانيات، لا تستحق -في أي اعتبار- أن تقاس بابتكاري البَسِيط الملائم لكتابة جميع أنواع الموسيقى الممكن تصورها، في غير مشقة، بوساطة الأرقام: من طبقات، ووقفات، وثمانيات، ومسافات وتوقيت، وتقييم.. وكلها أشياء لم تخطر لـ**"سوهيتي"** "ببال إطلاقا.. بالرغم من كل هذا، فقد كان من الصحيح تماما أن يُقال إنه -فيما يتعلق بالتعبير الأولي عن النغمات الرئيسية السبع -كان أول مبتكر في هذا المضمار. ولكنهم (١) لم يَكْتَفُوا بأن يُعْزُوا إلى هذا الابتكار البدائي أهمية أكثر مما كان يستحقها، وإنما أبوا أن يقفوا عند هذا، وبمجرد أن حاولوا أن يتكلموا عن المبادئ الأساسية للطريقة لم يقولوا سوى لغو.

كانت الميزة الكبرى لطريقتي، هي الاستغناء عن التبديل والطبقات، بحيث يمكن كتابة أية قطعة

---

(١) يقصد "روسو" أعضاء المحفل الذين تولوا مناقشته.

ونقلها حسب الرغبة، ومهما تكن الطبقة المنشودة، بوساطة التبديل المقترح في حرف ابتدائي واحد عند بداية اللحن. ولكن هؤلاء السادة كانوا قد سمعوا بعض مدعي الموسيقى في باريس يقولون: إن طريقة العزف بتبديل الطبقات غير ذات قيمة. ومن هنا، قلبوا أبرز ميزات طريقتي إلى اعتراض ضدها يَتَعَذَّر التغلب عليه، وانتهوا إلى تقرير أن طريقتي صالحة للأداء الصوتي، وغير صالحة للأداء الآلي، بدلا من أن يقرروا -كما كان ينبغي- أنها صالحة للأداء الصوتي، وأكثر صلاحية للأداء الآلي. وبناء على تقريرهم، مَنَحَني المحفَلُ شهادة مليئة بالإطراء البديع للغاية، يتبدى خلال سطورها أنه -في الواقع- لم ير أن طريقتي جَديدة ولا نافعة!.. ولم أشعر قط بأن من الواجب أن أزين بمثل هذه الوثيقة مؤلفي الذي سميته "رسالة في الموسيقى الحديثة"، ولجأت فيه إلى تحكيم الرأي العام!

ومن حقي -في هذه المناسبة- أن ألفت النظر إلى أن المعرفة الممتازة بالشيء -على شريطة أن تكون شاملة عميقة- أفضل من كافَّة الأضواء التي تُلقيها الثقافةُ والعلومُ، في تمكين المرء من إصابة الحكم، إذا لم تكن هذه الأضواء مقترنة بدراسة خاصة للموضوع المعروض على بساط البحث. وكان الاعتِراضُ القويُّ الوحيد الذي وجه إلى طريقتي موجها من "**رامو**". وما إن شرحت له ردي حتى تبين ضعفه، فقال: "إن علاماتك صالحة جدا، من حيث إنها تحدد القيم الموسيقية ببساطة ووضوح، كما أنها تعين المسافات بدقة، وتبين دائما النغم المفرد في حالة ازدواج النغم، وهي أمور لا تيسرها طريقة النوتة العادية.. ولَكنَّ علاماتك غير صالحة من حيث إنها تَتَطَلَّبُ جهدا ذهنيا لا يتناسب دائما مع سرعة الأداء". واستطرد قائلا: "إن وضع علاماتنا الموسيقية يتجلى للعين دون حاجة إلى الاستعانة بهذا الجهد الذهني. فإذا ارتبط نغمان -أحدهما مرتفع جدا، والآخر منخفض جدا- بسلسلة من الأنغام الوسيطة فإن بوسعي أن أرى -من أول نظرة- التطرق التدريجي من أحد النغمين إلى الآخر.. أما حسب طريقتك فلابد لي -للتأكد من هذا التسلسل- من أن أورد كل أرقامك متعاقبة- الواحد بعد الآخر؛ ومن ثم فإن النظرة الشاملة لا تمدك بشيء"!

ولاح لي أنه اعتِرَاضٌ مُفحِمٌ فأقررتُ لتوي بِقُوَّته، في حين أنه بسيط ومدهش!.. فهو اعتراض لا تُوحي به سوى الخبرة الواسعة بالفن؛ ومن ثم فلا عجب في أنه لم يخطر ببال أحد من أعضاء المحفل، ولكن هذه هي حَالُ هؤلاء العلماء الكبار جميعا، فهم يعرفون كل الأشياء، بيد أن إلمامهم بكل شيء -على حدة- قليل، بحيث لا ينبغي للواحد منهم أن يقضي برأي إلا فيما يتعلق بالفرع الذي اختصه بدراسته!

وقد أتاَحتْ لي زياراتي المتعددةُ لأعضاء لجنة مناقشة رسالتي، ولغيرهم من أعضاء المحفل فرص التَّعرف إلى جميع أولئك الذين كانوا في طَلِيَعةِ المبرزين في ميدان الأدب في "**باريس**" ومن ثم فإنني كنت على معرفة قائمة بهم عندما وجدتني -فيما بعد- مدرجا بَغْتَة في سِلْكِهم. أما في الفترة التي أتحدث عنها فقد كنت -لفرط استغراقي في طريقتي الموسيقية- مصرا على أنَ أحدث بها انقلابا في هذا الفن، وأن أحرز بهذا شُهرة ترتبط دائما في ميادين الفن الجميل -في "**باريس**"- بالثراء!.. ولهذا احتَبَستُ نفسي في غرفتي وعكفت على العمل شهرين أو ثلاثة في حمية لا سبيل إلى وصفها، لأشرح -في مؤلف أقدمه للرأي العام- المذكرة التي قرأتها على المحفل. وكانت العَقَبَةُ تتمثل في العثور على ناشر يتكفل بمؤلفي نظرا لأن الرموز الجديدة كانت تتطلب بعض نفقات، في حين أن الناشرين لا يبُعثِرُون دراهمهم على رؤوس المبتدئين، مع أنني كنت أرى أن من الإنصاف أن يَعودُ علي مؤلفي بالخبز الذي التهمته وأنا أكتبه!

وعثر لي "**بونفون**" على "كايو" -الأب- الذي عَقَدَ معي اتفاقا على أن نقتسم الربح، بغض النظر عن "الامتياز" (١) الذي كان علي أن أتكفل بَدفْعِ نفقاته وحدي. وقد أساء "كايو" -المذكور- تدبير الأمر، بحيث إن النقود التي دفعتها لأحصل على الامتياز ذهبت أدراج الرياح، ولم أخرُج بدرهم واحد من هذه الطبعة، التي كانت -في الواقع- ضئيلة الرواج، بالرغم من أن الراهب "**ديفونتين**" وعد بالعمل على ترويجها، كما أن غَيْرهُ من الصحفيين تَحدَّثوا عنها حديثا طيبا!

ولقد كانت العقبةُ الكُبرى في تجربة طريقتي، هي أن أحدا لم يكن ليَرضى بأن يُضَيِّعَ الوقت الذي يتطلبه تعلمها، إذا هي لم تصبح الطَّريقَةَ السائدة في الموسيقى. وقد قلت ردا على ذلك: إن المران على أسلوبي في العلاقات الموسيقية يجعل الأفكار من الوضوح بحيث إن الذي يشرع في تعلم العلامات الموسيقية العادية، يستطيع أن يقتصد من الوقت الذي يستغرقه تعلمها، إذا هو بدأ بطريقتي. ولإقامة الدليل العملي، قدمت دروسا فيها -بالمجان- لشابة أمريكية تدعى الآنسة "**دي رولان**"، كان السيد "**روجان**" قد عرفني بها. فإذا بها تُصْبِحُ -خلال ثلاثة أشهر- قادرة على أن تقرأ على "**نوتتي**" أي نوع من الموسيقى، وأن تُغني بمجرد النظر إلى "**النوتة**" -بإتقان يفوق إتقاني أنا- كل قطعة غير بالغة الصعوبة. وكان هذا التوفيق رائعا، ولكنه ظل مجهولا. فقد كان أي امرئ سواي خليقا بأن يملأ الصحف به، أما أنا، فبالرغم من أنني أوتيت المقدرة على اكتشاف الأشياء المفيدة، إلا أنني لم أعمد قط إلى إبراز قيمتها!

وهكذا تَحطَّمَت "**نافورتي الصغيرة**" مرة أخرى(٢). ولكنني في هذه المرة الثانية، كُنت في الثلاثين من عمري، وكنت قد وَجَدْتُ نفسي في طرق "**باريس**" المعَبَّدة، حيث لا يستطيع المرء أن يعيش بلا مَوَارِدَ. ولن يدهش القرار الذي انتهى بي إلى هذه النهاية سوى أولئك الذين لم يقرءوا بإمعان الجزء الأول من هذه المذكرات!.. ذلك أنني كنت قد بذلت مجهودا كبيرا، وإن لم يكن مثمرا، فكنت بحاجة إلى استجمام. وبدلا من أن استسلم للقنوط أسلمتُ نفسي لخمولي المعهود، وللعناية الإلهية، ولكي أدع لهذه العناية وقتا كي تقوم فيه بدورها، فقد أقبلت على إنفاق بضع قطع مالية من فئة "**لوى**" -كانت قد بقيت معي- في غير ما تعجل!.. ودَبَّرْتُ نَفَقَات مُتَعي البريئة بحيث لا أتخلى عنها، فلم أعُد أذهب إلى المَقهى سوى مرة في كل يومين، وإلى المسرح مرتين في الأسبوع. أما النفقات اللازمة لصحبة الفتيات فإنني لم أكن بحَاجَة إلى الحدّ منها؛ لأنني لم أنفق "**سو**" واحد على هذه الناحية، في حياتي، اللهم إلا في مناسبة واحدة.

ولقد كانت السكينة، واللذة، والثقة التي استسلمت بها لهذه الحياة الخاملة المنعزلة – بالرغم من أنني لم أكن امتلك موارد تمكنني من أن أستمر فيها ثلاثة أشهر – من الصفات الفذة في حياتي، ومن الظواهر العجيبة في طباعي!.. كانت الحاجة البالغة إلى أن أجد من يعنى بي، هي عين الشيء الذي جردني من الجراة على أن أظهر بين الناس.. كما أن الضرورة التي كانت تدعوني إلى زيارة الناس، جعلت الزيارات أمرا لا أطيقه، حتى إنني كففت عن زيارة أعضاء المحفل أنفسهم وغيرهم من رجال الأدب، الذين قد تعرفت إليهم. وأصبح "**ماريفو**" والراهب دي "**مابلي**" و"**فونتنيل**" هم الوحيدون – تقريبا – الذين ظللت أزور دورهم في بعض الأحايين. كذلك أطلعت أولهم على مسرحيتي الهزلية "**نارسيس**" فراقت له، وتكرم بأن أدخل عليها بعض التنقيح!.. وكان "**ديدرو**" يصغرهم كثيرا في السن، فقد كان يقاربني عمرا. وكان مولعا بالموسيقى، ملما بنظرياتها، ومن ثم فإننا كنا نتحدث

---

(١) نظام يقابل "حق النشر" بقصر حق طبع كتاب معين، على مؤلف او ناشر معين. (٢) يشبه "روسو" مشروعه الموسيقي، بالنافورة الصغيرة التي بنى عليها آمالا عندما بارح "تورين"، والتي أورد قصتها في الكراسة الثالثة.

عنها، كما أنه كان يحدثني عن مشروعاته الأدبية، فخلق هذا بيننا رابطة من الود القوي دامت خمس عشرة سنة، وكان من المحتمل أن تدوم زمنا أطول، لو أنني لم أدفع دفعا - لسوء الحظ - إلى مهنته ذاتها.. وكان هو صاحب الذنب في ذلك!

ولن يمكن تصور الطريقة التي استغللت فيها هذه الفترة القصيرة، الثمينة، التي سبقت اضطراري إلى أن أتسول قوتي!.. فلقد حفظت عن ظهر قلب أجزاء من الشعر كنت قد درستها قبل ذلك مائة مرة ونسيتها. واعتدت أن أتمشى كل صباح - في حوالي الساعة العاشرة - في حدائق "**لوكسمبورج**"، حاملا "**فيرجيل**" أو "**روسو**" في جيبي (١)، وأروح أردد في ذهني - حتى موعد الغداء - أحد الأناشيد القدسية، أو أحد أناشيد الرعاة، دون أن يثبط من عزيمتي أنني كنت واثقا بأنني لن ألبث - إذ أردد الجزء الذي اخترته ليومي - أن أنسى الجزء الذي حفظته بالأمس... وتذكرت أن الأسرى الأثينيين - بعد هزيمة "**نيسياس**" في "**سيراكيوز**" - (٢) كانوا يستمدون قوتهم من ترديد أشعار "**هوميروس**". ولقد كان الدرس الذي استخلصته من هذه، كي أعد نفسي للفاقة، هو أن أرو ض ذاكرتي البديعة على حفظ جميع الأشعار عن ظهر قلب!

*****

وكانت لدي طريقة مبتكرة مكينة أخرى في الشطرنج، الذي كنت أكرس له بانتظام فترة ما بعد الظهر - من الأيام التي لم أكن أذهب فيها إلى المسرح - في مقهى "موجي".

وقد تعرفت هناك إلى السيد دي "**فيليدور**"، وإلى جميع لاعبي الشطرنج الكبار في ذلك العهد، دون أن أحرز مزيدا من التقدم في اللعب. على أنني لم أكن أرتاب في أنني لن ألبث أن أغدوا في النهاية أقوى منهم جميعا، وكان هذا - في رأيي - كافيا لأن يمدني بمورد للعيش. وكنت كلما استهوتني فكرة طائشة جديدة، رحت أتدبرها بنفس الطريقة دائما.. كنت أقول لنفسي: "إن الذي يبرز في شيء، يطمئن دائما إلى أنه منشود. فلنبرز إذن في أي شيء، وإذ ذاك أغدو مرغوبا.. إن الفرص سانحة، وعلى كفاءتي يتوقف ما بقي من الأمر!".. ولم يكن هذا التفكير الصبياني وليد سفسطتي، وإنما كان نتاج كسلي. فقد كنت في جزعي من الجهود الضخمة السريعة التي كانت خليقة بأن ترهقني، أسعى إلى أن أزين كسلي لنفسي، وإلى أن أداري خجلي من نفسي بحجج ملائمة!

وهكذا مكثت ساكنا إلى أن انتهت نقودي. وأعتقد أنني كنت على استعداد لأن أقبع حتى آخر "**سو**" لدي، دون أي قلق، لو لم يوقظني الأب "**كاستيل**" - الذي كنت أذهب لزيارته أحيانا، وأنا في طريقي إلى المقهى- من سباتي. ولقد كان الأب "**كاستيل**" مخبولا، ولكنه كان - برغم هذا - رجلا طيبا. وقد غاظه أن رآني أبدد وقتي وإمكانياتي بهذا الشكل، دون أن أفعل شيئا. فقال لي: "مادام الموسيقيون، ومادام العلماء، يأبون أن يغنوا بطريقتك، فعدل من أوتارك، وجرب النساء، ولعلك تكون - في هذه الناحية - أكثر توفيقا!...

لقد تحدثت عنك إلى السيدة دي "**بوزينفال**"، فاذهب لزيارتها، واذكر أنك قادم من لدني!.. إنها امرأة طيبة، يسرها أن ترى شخصا من موطن زوجها وابنها (٣) ولسوف تلتقي في دارها بابنتها السيدة دي "**بروجلي**"، وهي امرأة ذكية.. وهناك السيدة "**دوبان**"، وهي الأخرى ممن حدثتهن

---

(١) يقصد ديواني الشاعرين "فيرجيل" و"جان باتيست روسو". (٢) كان "نيسياس" من أشهر القادة الإغريق الذين برزوا في حروب البلوبونيز، وقد هزم وهلك في حملة "صقلية" في سنة ٤١٣ قبل الميلاد. (٣) كانت البارونة دي "بوزنيفال" بولندية متزوجة من فرنسي.

عنك، فاحمل إليها مؤلفك، لأنها تتوق إلى رؤيته، وسوف تحسن استقبالك!.. إن المرء لا يستطيع أن يبرم عملا في "**باريس**" إلا بوساطة النساء، فهن كالمنحنيات، التي يكون الحكماء بمثابة الخطوط التقاربية (١) لها.. فالفريقان يتقاربان باستمرار، ولكنهما لا يتماسان أبداً!".

وبعد أن أرجأت هاتين المهمتين المتعبتين من يوم إلى آخر، استجمعت أخيرا شجاعتي، وذهبت لزيارة السيدة "**بوزينفال**"، فأكرمت وفادتي، وإذ دخلت السيدة دي "**بروجلي**" الغرفة، بادرتها قائلة: "ها هو ذا، يابنتي، السيد "**روسو**" الذي حدثنا عنه الأب "**كاستيل**"!" فاطرت السيدة دي "**بروجلي**" مؤلفي، وقادتني إلى معزفها، لتريني أنها كانت معنية به. ووجدت أن الساعة قد شارفت الواحدة، فأردت الانصراف، غير أن السيدة دي "**بوزينفال**" قالت لي: "إنك على مسافة بعيدة من مسكنك، فامكث، وتناول غداءك هنا". ولم أكن بحاجة إلى إلحاح.. وبعد ربع ساعة، أدركت أن المائدة التي دعتني إليها كانت مائدة الخدم!.. فقد كانت السيدة دي "**بوزينفال**" طيبة، ولكنها كانت ضيقة الأفق، شديدة الاعتداد بعراقة أصلها البولندي، وليست لديها فكرة تذكر عن الاحترام الواجب للمواهب. وقد حكمت علي – في هذه المناسبة – بمسلكي أكثر منها بملبسي الذي كان – برغم بساطته المتناهية – لائقا كل اللياقة، ولا ينم قط عن رجل يؤاكل الخدم..

لاسيما وأنني كنت قد نسيت الطريق إلى مائدة الخدم من زمن طويل، ولم أكن راغبا في أن أتعلمها من جديد (٢)..

وقلت للسيدة دي "**بوزينفال**" – دون أن أبدي غضبي – إنني تذكرت أنه لابد لي من العودة إلى مسكني لمهمة بسيطة. فاقتربت مدام دي "**بروجلي**" من أمها، وهمست في أذنها ببضع كلمات كان لها تأثير سريع، إذ نهضت مدام دي "**بوزينفال**" لتستبقيني قائلة: "إنني أقصد أن يكون تشريفك إيانا بالغداء.. معنا!". ورأيت أن التشبث بالكرامة عمل أخرق، فمكثت. وإلى جانب ذلك، كان لطف السيدة "بروجلي" قد ملك قلبي، وجعلني أرتاح إليها، فكنت جد مغتبط بتناول الغداء معها. وداخلني الأمل في أنها لن تندم – إذا ما عرفتني جيدا – على أنها أولتني هذا الكرم. ولقد تناول الغداء هناك أيضا، السيد رئيس "**لاموانيون**"، وهو من أعظم أصدقاء الأسرة، وكان – كالسيدة دي "**بروجلي**" – يألف اللهجة الباريسية الموجزة، التي تتألف من كلمات صغيرة، كلها كنايات بسيطة رفيعة.. ولم يكن لـ"**جان جاك**" البائس مجال للتالق في هذا المضمار!.. وكنت من حسن الإدراك بحيث إنني لم أشأ أن أتظرف بالرغم من "**منيرفا**" (٣)، فامسكت لساني!..

ما كان أسعدني لو أنني كنت دائما بهذه الحكمة؟.. لقد كنت بهذا جديرا بالا أتردى في الدرك الذي أجدني اليوم فيه!

ولقد استأت لما بدوت عليه من ثقل الفهم، ولعجزي عن أن أبرر – في نظر السيدة دي "**بروجلي**" – ما فعلته هي من أجلي.

لذلك لجأت – بعد الغداء – إلى موردي المعهود. فقد كانت في جيبي رسالة شعرية، كتبتها إلى "**بريسو**" أثناء مقامي في "**ليون**"، ولم تكن الحرارة تعوز هذه القصاصة، فعمدت إلى قراءتها، واستطعت أن أحمل ثلاثتهم على البكاء. ولقد خيل إلي – سواء عن غرور، أو عن صدق في تأويلاتي – أنني رأيت عيني السيدة دي "**بروجلي**" تقولان بنظراتها لأمها: "ما رأيك يا ماما؟!..

---

(١) الخط التقاربي – أو التقريبي – في الهندسة، هو خط مستقيم يطابق المنحنى تطابقا لا نهائيا.. أي أنهما يتقاربان دائما دون أن يتماسا!

(٢) يعني "روسو" أنه كان قد نسي معاشرة الخدم وارتفع فوق مستواهم ولعلنا نذكر – مما جاء في الجزء الأول – أنه عمل خادما فترة من الزمن.

(٣) "مينرفا" ربة الذكاء والحرب والفنون لدى الرومان. ويشير "روسو" بهذا التعبير إلى أنه لم يشأ أن يدعي ما كان بعيدا عن أن يسعفه فيه ذكاؤه.

أفكنت على خطأ إذ قلت لك: إن هذا الرجل كان أكثر جدارة بأن يتناول غداءه معنا منه مع وصيفاتك؟" .. وكنت حتى تلك اللحظة مثقل القلب، ولكنني شعرت بالرضا بعد أن ثارت لنفسي على هذا النحو. ولقد تمادت السيدة دي "**بروجلي**" قليلا في الرأي الطيب الذي داخلها نحوي، معتقدة أنني لن ألبث أن أثير ضجة في "**باريس**"، وأن أغدو ذا حظوة لدى النساء. ولكي ترشدني في هذا المجال الذي كنت غير خبير به، أعطتني "مذكرات الكونت..."، قائلة: "إن هذا الكتاب مرشد ستحتاج إليه في المجتمع، وستحسن صنعا إذا أنت استعنت به بين وقت وآخر!" .

ولقد احتفظت لأكثر من عشرين عاما، بهذه النسخة، معترفا بفضل اليد التي جاءتني عن طريقها، وإن كنت كثيرا ما أضحك للرأي الذي لاح أن هذه السيدة قد ارتأته عن مؤهلاتي للظرف والملاطفة.. ومنذ اللحظة التي طالعت فيها هذا الكتاب، رغبت في أن أخطب ود صاحبه. وقد حققت الأحداث هذه الرغبة، فإذا هو الصديق الصادق الوحيد لي بين رجال الأدب (١).

وجرؤت – منذ ذلك الحين – على أن أطمئن إلى أن السيدة البارونة دي "**بوزينفال**"، والسيدة المركيزة دي "**بروجلي**" – وقد اهتمتا بأمري – لن تدعاني طويلا بلا مصدر للعيش. ولم أخطئ الحدس!.. فلنتكلم الآن عن دخولي دار السيدة "دوبان"، الذي كانت عواقبه أطول مدى وأجلا!

*****

كانت السيدة "**دوبان**" – كما هو معروف – ابنة "**صمويل برنار**"، والسيدة "**فونتين**".. وكن ثلاث أخوات، من الممكن أن يدعين بالحسان الثلاث: السيدة "**ديلا توش**" – التي فرت إلى "**إنجلترا**" مع دوق "**كينجستون**" – والسيدة "**دارني**"، عشيقة السيد الأمير دي "**كونتي**"، بل – بالأحرى – صديقته، الصديقة الوحيدة المخلصة، وكانت امرأة جديرة بأن تعشق؛ للطف وطيبة شخصيتها الفاتنة، بقدر ما هو لذكائها المستحب، والمرح الذي لم يكن يفارق طباعها.. وأخيرا، السيدة "**دوبان**"، أجمل الثلاث، والوحيدة منهن التي لم يكن ثمة عوج يعاب عليها في مسلكها!.. وكانت جزاء كرم ضيافة السيد "**دوبان**"، إذ إن أمها منحته إياها، مع منصب "الملتزم العام" (٢) وثروة ضخمة، عرفانا لحسن حفاوته بها في إقليمه!

وكانت – عندما رأيتها لأول مرة – لا تزال من أجمل نساء "**باريس**". وقد استقبلتني في غرفة زينتها، وكانت ذراعاها عاريتين، وشعرها مهوشا، وثوبها مهدلا.. وكان مثل هذا الاستقبال الأول جديدا علي، فلم يحتمله رأسي البائس، واضطربت، وارتبكت.. وموجز القول أنني شغفت هوى بمدام "**دوبان**"!

ولم يلح أن اضطرابي قد أحدث أثرا سيئا، إذا إنها لم تبد ما ينم عن أنها لاحظته. وفي استقبالها للكتاب ولمؤلفه، راحت تحدثني عن مشروعي الحديث الملمة به.. وغنت، وصاحبت غنائها بالعزف، واستبقتني للغداء، وأجلستني إلى جانبها حول المائدة. وما كان يدير رأسي أكثر من هذا، فإذا بي أغدو مجنونا بها!.. وسمحت لي بأن أتردد عليها، فاستغللت – بل أسأت استغلال – هذا السماح، إذ أصبحت أذهب إلى دارها في كافة الأيام تقريبا، وأتناول الغداء هناك مرتين أو ثلاثا في الأسبوع، وكنت أموت شوقا إلى مصارحتها بحبي، ولكنني لم أجسر على ذلك، فقد ضاعفت من خجلي

---

(١) عقب "روسو" – في هامش مذكراته – على هذا بقوله: "هكذا ظللت أعتقد طويلا، وعن اقتناع راسخ، حتى إنني عهدت إليه – منذ عودتي إلى "باريس" باعترافاتي. إذ إن "جان جاك" الحذر المستريب، لم يؤمن قط بوجود الغدر والخداع، إلا بعد أن وجد نفسه ضحية لهما". (٢) الملتزم العام: هو الموكل بتحصيل الضرائب.

الطبيعي عدة أسباب.. كان دخول أي بيت من بيوت الأثرياء المرفهين، بمثابة باب مفتوح للحظ، فلم أشأ – في موقفي إذ ذاك – أن أتعرض لإغلاق هذا الباب. ثم إن السيدة "**دوبان**" كانت – برغم لطفها – رصينة وباردة، فلم أجد في مسلكها شيئا مشجعا يثير جرأتي. وكانت دارها متألقة كأية دار أخرى في "**باريس**"، في ذلك الحين، وملتقى جماعات لم يكن ينقصها سوى أن يقل عددها بعض الشيء؛ لكي تغدو نخبة من كل نوع من علية القوم. فلقد كانت السيدة تحب أن ترى جميع المتألقين: من عظماء، وأدباء، ونساء جميلات.. وما كان ليرى عندها سوى الدوقات، والسفراء، وذوي الأشرطة الزرقاء (١).. ومن الممكن اعتبار السيدة الأميرة دي "**روهان**"، والسيدة الكونتة دي "**فوركالكييه**"، والسيدة دي "**ميربوا**"، والسيدة دي "**بريتوليه**"، والليدي "**هيرفي**"، بين صديقاتها!..

كما أن السيد دي "**فونتنيل**"، والراهب دي "**سان بيير**"، والراهب "**ساليبه**"، والسيد دي "**فورمو**"، والسيد "**دي بيرني**"، والسيد دي "**بوفون**"، والسيد دي "**فولتير**"، كانوا من أفراد ندوتها ومن رواد مائدتها. وبما أن مسلكها المتحفظ لم يجذب إليها عددا كبيرا من الشباب، فقد كانت الجماعة التي اعتادت الاجتماع في دارها، صفوة مختارة وبالتالي أكثر وقارا!.. وما كان لـ"**جان جاك**" البائس أن يزين لنفسه فكرة أن يتألق كثيرا وسط كل هؤلاء؛ لذلك فإنني لم أجسر على أن أفضي للسيدة بعواطفي، ولكني لم أعد أطيق صمتا، فجرؤت على الكتابة. وقد احتفظت بالخطاب يومين، دون أن تذكر لي شيئا عنه. وفي اليوم الثالث، ردته مع بضع كلمات تأنيب، ولكن الكلمات ماتت على شفتي، وخبا وجدي الفجائي مع أملي. وبعد هذا الإعلان الكتابي لحبي، واصلت العيش بقربها كذي قبل، دون أن أحدثها عن شيء من عواطفي، ولو بنظرات عيني!

ولقد ظننت أن حماقتي أصبحت منسية، ولكني كنت مخطئا!.. وكان السيد دي "**فرانكويي**"، نجل السيد "**دوبان**"، وابن زوج السيدة "**دوبان**" (٢)، يقارب السيدة في السن، ويقاربني. وكان لامع الذكاء، مليح الهيئة، يحسن الظهور بمظاهر العظمة. ويقال إنه كان مقربا إلى السيدة "**دوبان**"، لا لشيء إلا لأنها زوجته من امرأة شديدة الدمامة، ولكنها ضافية اللطف، وعاشت معهما في وئام تام، وكان السيد دي "**فرانكويي**" يحب المواهب ويتكفل بمساعدة أصحابها، ومن ثم فإن الموسيقى – التي كان يلم بها إلماما عظيما – كانت وسيلة ورباطا بيننا؛ ولهذا اعتدت أن ألقاه كثيرا، فتعلقت به.

وقد أوعز إليّ – فجأة – بأن السيدة "**دوبان**" أصبحت ترى أن زياراتي أكثر مما كان ينبغي، ورجاني أن أكف عنها..! ولعل هذه الإشارة كانت في محلها، لو أنها صدرت عندما أعادت السيدة الخطاب إليّ. أما وقد صدرت بعد ثمانية أيام – أو عشرة – ودون أي سبب آخر، فقد لاحت لي غير ذات موضوع. ومما زاد الموقف غرابة، أن هذا لم يضعف الحفاوة – التي كنت أقابل بها في دار السيد والسيدة دي "**فرانكويي**" – عن ذي قبل! على أنني خففت من ترددي عليهما، وكنت موشكا أن أقطع زياراتي تماما، لولا أن السيدة "**دوبان**" – مدفوعة بنزوة لم أتبين إذ ذاك حقيقتها – سألتني أن أعنى، لثمانية أيام أو عشرة، بابنها الذي كان إذ ذاك قد فقد مربيه السابق، وكان من المنتظر أن يبقى وحيدا ريثما يصل المربي الجديد.

ولقد قضيت هذه الأيام الثمانية في عذاب، لم يكن ليجعله محتملا سوى لذة إرضاء السيدة "**دوبان**"!.. إذ كان "**شينونسو**" المسكين (٣) قد أصيب بخبل كاد أن يجر الخزي على الأسرة،

---

(١) لقب يطلق على فرسان الطيف المقدس. على أن من المحتمل أن يكون "روسو" قد استعمله هنا بمعنى: المبرزين من القوم. (٢) أي أنه كان ثمرة زواج سابق للسيد "دوبان". ويلاحظ أن "دي" قبل الاسم، معناه أن صاحبه يحمل لقبا، وهذا يبرر عدم حمل "فرانكويي" لاسم "دوبان".
(٣) "شينونسو" هو اسم ابن مدام "دوبان".

وكان سببا في موته بعد ذلك، في جزيرة "**بوربون**". ولقد كنت – أثناء وجودي بجواره – أحول بينه وبين أن يؤذي نفسه أو يؤذي غيره. وما كانت هذه المهمة بالسهلة، كما أنني لم أكن لأتولاها ثمانية أيام أخرى، ولو منحتني السيدة "**دوبان**" نفسها في مقابل ذلك!

*****

وأولاني السيد دي "**فرانكويي**" صداقته، فعملت معه، وبدأنا نتلقى سويا منهجا في الكيمياء لدى "**رويل**". ولكي أكون على مقربة منه، تركت نزلي – بـ"**سان كينتان**" – وانتقلت للإقامة في "ساحة التنس" بشارع "**فرديليه**"، الذي كان يفضي إلى شارع "**بلاتيير**"، حيث يقيم السيد "دوبان". وهناك، نشأ عن إصابتي ببرد أهملته، أن وقعت فريسة التهاب رئوي كدت أموت منه. وكثيرا ما كنت أصاب في شبابي بتلك الأمراض الالتهابية: التهابات البلورة (ذات الجنب)، والتهابات اللوزتين – التي كنت ضحية سهلة لها بوجه خاص – وغيرها، مما لا أراني بحاجة إلى تسجيله هنا، وكانت جميعا تدفعني إلى حيث أرى الموت عن كثب كاف لأن آلف شكله!.. وسنح لي الوقت – أثناء نقاهتي – للتفكير في حالي، وللرثاء لجبني، وضعفي، وكسلي الذي كان – برغم ما كنت أكتوي به من نار – يتركني أذبل في خمول ذهني على أبواب الفاقة!

وكنت في اليوم السابق لوقوعي في المرض، قد ذهبت لمشاهدة "أوبرا" لـ"**روبيه**" كانت تمثل إذ ذاك، وقد غاب عني اسمها. وبالرغم من أن تعنتي في الحكم على مواهب سواي جعلني دائما لا أطمئن إلى مواهبي، فإنني لم أستطع أن أكبح نفسي عن ملاحظة أن الموسيقى كانت باردة، فاقدة الحرارة، خلوا من الابتكار والتجديد. وكنت أجرؤ – في بعض الأحيان – على أن أقول لنفسي: "يخيل إليّ أن بوسعي أن أصنع خيرا من هذا".. بيد أن الفكرة – الباعثة على التهيب – التي داخلتني عن تلحين "الأوبرا"، والأهمية التي كنت أسمع الإخصائيين يخلعونها على مثل هذا العمل، ثبطت عزيمتي في الحال، وجعلتني أتضرج خجلا لجرأتي على التفكير في ذلك!..

ثم، أين لي بمن يرضى بأن يزودني بالأقوال اللازمة لأية "أوبرا"، وأن يتجشم عناء تنسيقها وفقا لهواي؟.. ولقد عاودتني هذه الأفكار عن الموسيقى والأوبرا، أثناء مرضي، فرحت إبان هذياني أنظم الأغاني والثنائيات والأناشيد الجماعية.. وأوقن أنني نظمت قطعتين أو ثلاثا لفوري – وعفو الخاطر – ربما كانت جديرة بإعجاب الأساتذة، لو أنهم سمعوها تؤدى.. ولو تسنى تسجيل أحلام امرئ محموم، فأية أشياء جليلة وعظيمة قد يتيسر استخلاصها أحيانا من هذا الهذيان!

ولقد ظلت موضوعات الموسيقى والأوبرا هذه، تشغلني أثناء نقاهتي، ولكن في توارد أكثر هدوءا. وبدافع من التفكير في ذلك – بل وبالرغم من نفسي – اعتزمت أن أرضي نفسي، وأن أحاول وضع "أوبرا"، بكلامها وموسيقاها، دون معونة من أحد. ولم تكن هذه أول محاولة لي، إذ كنت قد ألفت في "**شامبيري**" أوبرا ومأساة – أوبرا تراجيدي – بعنوان "ايفيس وأنا كساريت"، وكنت من حسن الإدراك بحيث رميت بها في النار!.. كما نظمت في "**ليون**" أخرى بعنوان "اكتشاف الدنيا الجديدة"، لم ألبث بعد أن قرأتها على السيد "**بورد**"، والراهب دي "**مابلي**"، والراهب "**تروبليه**" وغيرهم، أن انتهيت بها إلى عين المصير، بالرغم من أنني كنت قد كتبت موسيقى المطلع والفصل الأول، وعندما اطلع "**دافيد**" على الموسيقى، أنبأني بأنها كانت تحتوي على مقاطع تليق

"**بيونوتشيني**" . (١)

وفي هذه المرة، أتحت لنفسي وقتا للتفكير في مشروعي، قبل أن أمد يدي إلى العمل. ورسمت لفكرة مسرحية بطولية راقصة "بالية" ثلاثة موضوعات مختلفة، في ثلاثة فصول مستقلة، لكل منها لون من الموسيقى مغاير لما للآخرين.

ونسجت كل منهما حول غراميات أحد الشعراء، ثم أسميتها "عرائس الشعر اللطاف" (٢) . . وكان الفصل الأول يدور حول "**تاس**" (٣)، وقد صيغت موسيقاه في أسلوب قوي، أما الفصل الثاني، فكان عن "**أوفيد**" ، وكانت موسيقاه رقيقة، في حين أطلقت على الفصل الثالث اسم "أنا كريون" ، وقد روعي فيه أن يفوح بأنفاس الإطراء والمديح! . . وجربت براعتي – في البداية – في الفصل الأول، فعكفت عليه بحماس مكنني – للمرة الأولى – من أن أتذوق لذائذ توقد القريحة في التلحين! . .

وفي ذات مساء كنت أهم بدخول دار "الأوبرا" ، وإذ بي أجدني نهبا للأفكار، وإذا بها تطغى عليّ فرددت نقودي إلى جيبي، وأسرعت إلى غرفتي وأغلقتها على نفسي، وارتميت على السرير، بعد أن أحكمت ستائر النافذة لأحول دون تسرب ضوء النهار . . وهناك، أسلمت نفسي تماما للإلهامات الشعرية والموسيقية، فوضعت بسرعة، وفي سبع ساعات أو ثمان ، أروع قسم من الفصل! . . وبوسعي أن أقول إن حبي للأميرة دي "**فيراري**" – إذ إنني كنت "**تاس**" إذ ذاك – ومشاعري النبيلة المترفعة إزاء أخيها الظالم، أتاحت لي – لليلة واحدة – من المتع ما كان يفوق مائة مرة، كل ما كنت خليقا بأن أجده بين ذراعي الأميرة نفسها (٤) . . ولم يبق في رأسي – في الصباح – سوى قسط بسيط مما نظمته ولحنته، ولكن هذا الجزء – الذي شوهه الإجهاد والنعاس تقريبا – لم يخفق في أن يكشف عن قوة المقطوعات التي تبقت كالأطلال!

وفي هذه المرة، لم أمض بعيدا في هذا المشروع كثيرا؛ نظرا لانصرافي إلى الشؤون الأخرى. ولم تكن السيدة دي "**بوزينفال**" ، والسيدة دي "**بروجلي**" – اللتان ظللت أزورهما من وقت لآخر – قد نسيتاني تماما في غمرة تعلقي بأسرة "**دوبان**" . فقد حدث أن عين السيد الكونت دي "**مونتيجي**" – الذي كان ضابطا في الحرس – سفيرا في "**فيينا**" . وكان مدينا بسفارته إلى "**بارجاك**" (٥) الذي كان قد ثابر على مصاحبته. كما أن أخاه – الشيفالييه دي "**مونتيجي**" – كان "فارس الكم" للسيد ولي العهد (٦) . وقد كان على معرفة بهاتين السيدتين (٧)، وبالراهب "**الاري**" – عضو المحفل الفرنسي – الذي كنت أزوره، في بعض الأحيان، كذلك. وإذ علمت السيدة دي "**بروجلي**" بأن السفير كان يبحث عن سكرتير، رشحتني لديه. وشرعنا نبحث الأمر، فطلبت خمسين "**لوي**" كمرتب، وهو مبلغ كان قليلا بالنسبة لمنصب يتطلب الحرص على المظهر. ولكنه لم يشأ أن يدفع سوى مائة "**بيستول**" (٨) كما كان علي أن أتكفل بنفقات سفري، وكان هذا اقتراحا يدعو للضحك، ومن ثم فلم يقدر لنا أن نتفق، وفاز السيد دي "**فرانكويي**" – الذي بذل قصارى وسعه ليحول بيني وبين

---

(١) اشتهر بهذا الاسم ثلاثة من الموسيقيين الإيطاليين، كانوا أبا وابنيه، وقد أقام أصغر الابنين ردحا في "إنجلترا" ، وكان أكثر الثلاثة شهرة.
(٢)Les Muses Galantes (٣) "تاس" : هو الشاعر الإيطالي "توركاتو تاسو" ، ويعتبر من أعظم أصحاب ملاحم البطولة. وقد عاش في القرن السادس عشر. ولهذا اختار "روسو" طابع القوة للفصل الذي نسجه حوله. أما "أوفيد" ، فكان شاعرا "لاتينيا" ، اقترن اسمه بالحب والهوى، برغم ما قاساه في حياته من شجون ومتاعب، حتى إنه مات منفيا. أما "أنا كريون" ، فكان شاعرا غنائيا تفوح أغانيه بتمجيد اللهو والطعام واللذة.
(٤)كانت الأميرة أجمل نساء عصرها، وقد تصور "روسو" أنه "تاس" الذي تدله في هواها، وثار على مظالم أخيها (٥) كان "بارجاك" هو الخادم الخاص "للكردينال دي فلوري" ، الذي كان واسع النفوذ لدى الملك. (٦) فرسان الكم: طائفة من النبلاء كانوا يجمعون بين التدين والبطولة، وكانوا يتولون رعاية الأمراء الفرنسيين حتى يتموا تعلمهم. (٧) السيدة دي "بوزينفال" وابنتها. (٨) كان "اللوي" إذ ذاك ٢٤ فرنكاً، و"البيستول" ١٠ فقط .

الرحيل – بمآربه، فمكثت بينما رحل السيد دي "**مونتيجي**" مصطحبا معه سكرتيرا آخر يدعى السيد "**فولو**"، كانت وزارة الخارجية هي التي رشحته له. ولكنهما لم يكادا يبلغان "**فينا**"، حتى اختلفا وتشاجرا. وإذ رأى "**فولو**" أنه سيضطر إلى العمل مع رجل مجنون، هجره هناك، ولم يعد لدى السيد دي "**مونتيجي**" سوى راهب شاب يدعى دي "**بيني**"، كان كاتبا تحت إرشاد السكرتير، ولم يكن في مركز يؤهله لأن يملأ المنصب؛ ومن ثم اضطر السفير إلي أن يلجأ إلي مرة أخرى.

وقد أفهمني أخوه "**الشيفاليه**" – الذي كان موفور الذكاء – أن ثمة امتيازات معينة تتصل بمنصب السكرتير، وبهذا أفلح في أن يغريني بقبول الألف فرنك (١).. كما تسلمت عشرين "لوي" لنفقات رحلتي.. فبادرت إلى السفر!

من سنة ١٧٤٣

إلى سنة ١٧٤٤

وعند "**ليون**"، تمنيت أن أتخذ طريق "**مون سيني**"؛ لأزور "**ماما**" المسكينة، زيارة عابرة. بيد أنني انحدرت مع نهر "**الرون**"، ثم انتقلت بالبحر إلى "**طولون**". وكان ذلك بسبب الحرب، وبداعي الاقتصاد؛ وللحصول – كذلك – على جواز للسفر من السيد دي "**ميربوا**"، الذي كان يشرف على الإقليم إذ ذاك، والذي كنت موفدا إليه بتوصية. وإذ لم يكن بوسع السيد دي "**مونتيجي**" أن يستغني عني، فقد راح يكتب لي الرسائل تلو الرسائل، متعجلا سفري. ولكن حادثا عاقني.

كان الطاعون يتفشى إذ ذاك في "**مسينا**". وكان الأسطول البريطاني يرسو هناك، فزار المركب التي كنت عليها، وقد عرضنا ذلك عند وصولنا إلى "**جنوا**" – بعد رحلة طويلة شاقة – إلى أن نحتجز تحت المراقبة الصحية ثمانية وعشرين يوما.

وترك لنا الخيار بين البقاء على سطح المركب، أو في المعزل الصحي، الذي أنذرنا بأننا لن نجد فيه شيئا، اللهم إلا الجدران الأربعة، إذ لم يكن الوقت قد اتسع لتأثيثه. واختار الجميع البقاء في السفينة، ولكن الحر المرهق، وضيق المكان، وتعذر التريض على القدمين، والحشرات، جعلتني أفضل المعزل. فاقتدت إلى مبنى كبير ذي طابقين. وكان عاريا تماما، فلم أعثر فيه على نافذة، ولا منضدة ولا سرير، ولا مقعد.. بل ولا كرسي منخفض بلا مسند لأجلس عليه، ولا حزمة من القش أرقد عليها.. وأحضروا إليّ معطفي، والحقيبة الصغيرة التي تضم ثياب النوم، وحقيبتي الكبيرتين، ثم أغلقت دوني أبواب، ذات أقفال هائلة.. وبقيت هناك، حرا في أن أتجول وفق هواي، من حجرة إلى أخرى، ومن طابق إلى آخر، دون أن ألتقي في كل مكان بغير العزلة، والتجرد من الأثاث!

ولم يحملني كل هذا على أن أندم لاختياري المعزل دون المركب، بل رحت أدبر أموري – كما لو كنت "**روبنصن**" (٢) جديدا – للأيام الثمانية والعشرين، وكأنني كنت مقبلا على الإقامة طيلة العمر، وكنت أتسلى – في البداية – باصطياد القمل الذي التقطته على المركب. فلما أصبحت نظيفا في النهاية، بفضل تغيير الثياب الداخلية والخارجية، تحولت إلى تأثيث الحجرة التي اخترتها، فصنعت حشية بديعة من ستراتي وأقمصتي، وملاءات من عدة مناشف، خطت بعضها إلى بعض، وغطاء من إزاري المنزلي "الروب دي شامبر"، ووسادة من معطفي الذي لفقته، واتخذت مقعدا من إحدى

---

(١) يبدو أنه يقصد قيمة المرتب السنوي. (٢) يقصد "روبنصن كروزو".

حقيبتي بعد أن وضعتها على أحد جانبيها العريضين، ومنضدة من الحقيبة الأخرى بعد أن أقمتها على أحد جانبيها الضيقين، وأخرجت ورقا ومحبرة، ونسقت حوالي اثني عشر كتابا كنت أمتلكها، لتكون مكتبة. وقصارى القول إنني هيأت مقامي تهييئاً طيبا حتى إنني كنت في ذلك المعزل العاري أنعم بإقامة تعدل إقامتي في مسكني بساحة التنس في شارع "**ديلا فيرديليه**"، فيما عدا الستائر والنوافذ!.. وكانت وجباتي تقدم في كثير من مظاهر الأبهة، إذ كان يرافقها جنديان شهرا حربتيهما في طرفي بندقيتيهما. وكان دهليز السلم بمثابة قاعة مائدتي، كما كانت عرصة السلم بمثابة مائدة، فإذا ما أعد الغداء، دق الذين أحضروه ناقوسا – أثناء انسحابهم – لتنبيهي إلى أنه قد آن لي أن أجلس إلى المائدة.

وعندما كنت أنصرف عن القراءة أو لكتابة، أو استكمال تأثيث حجرتي – بين الوجبات – كنت أتمشى في مقبرة البروتستانت، التي كانت بمثابة ساحة لمسكني، أو أصعد إلى برج يطل على الميناء، حيث يتسنى لي رؤية السفن في دخولها وخروجها. وقضيت على هذا النسق أربعة عشر يوما، وكنت قمينا بأن أقضي الأيام العشرين بأسرها دون أن أضجر لحظة، لولا السيد دي "**جونفيي**" – المبعوث الفرنسي – الذي كنت قد تمكنت من أن أرسل إليه خطابا معبقا بالخل، ومعطرا، وشبه محترق.. فقد أنقص مدة احتجازي ثمانية أيام، قضيتها في داره، حيث أعترف بأنني وجدت من راحة المقام ما لم أجده في معزلي.. وقد أبدى لي عطفا قويا، كما أن سكرتيره "ديبون" كان شابا طيبا، اصطحبني إلى بيوت عديدة – سواء في "**جنوا**" أو في الريف – حيث كانت التسرية موفورة. وقد وثقت معه روابط المعرفة والتراسل، التي ظللنا نرعاها ردحا طويلا من الزمن. وما لبثت أن استأنفت رحيلي – راضيا مرتاحا – مخترقا سهل "**لمباردي**". وزرت "**ميلان**"، و"**فيرونا**"، و"**بريسيا**"، و"**بادو**"، ثم وصلت في النهاية إلى "**البندقية**"، حيث كان السفير في انتظاري، وهو نافد الصبر!

*****

ووجدت أكداسا من الرسائل – سواء من البلاط الملكي أو من السفراء الآخرين – لم يكن في وسع السفير أن يقرأ ما كتب منها بالشفرة، برغم أنه كان يملك كافة مفاتيح الشفرة اللازمة لذلك. ولما لم أكن قد عملت قط في منصب من هذا النوع، ولا رأيت في حياتي شفرة حكومية، فقد خشيت – في البداية – أن أرتبك، ولكنني تبينت أنه لم يكن ثمة ما هو أسهل من ذلك.. وفي أقل من أسبوع، كنت قد حللت رموز الرسائل جميعا، إذ إنها لم تكن – في الواقع – تستحق عناء. فقد كانت السفارة القائمة في البندقية قليلة العمل دائما، فضلا عن أن مثل هذا الرجل – السيد دي "**مونتيجي**" – لم يكن ممن يعهد إليهم بأية مفاوضات. ولقد كان في حيرة بالغة إلى أن وصلت، فما كان ليعرف كيف يملي رسائله، ولا كيف يكتب بخط مقروء. ومن ثم فإني كنت عظيم النفع له، وقد شعر بذلك، فأحسن معاملتي. وكان ثمة باعث آخر حمله على ذلك، فقد تولى أعمال السفارة – بعد رحيل سلفه السيد "دي "**فرولاي**"، الذي اختبل عقله – القنصل الفرنسي، الذي كان يدعى السيد "**لوبلون**"، ثم واصل إدارتها منذ وصول السيد دي "**مونتيجي**" ريثما يدربه على نظام العمل. ولقد جنح السيد دي "**مونتيجي**" – في غيرته من أن سواه كان يؤدي عمله، برغم أنه كان عاجزا عن أدائه بنفسه – إلى كراهية القنصل، فما إن قدر لي إن أصل، حتى جرده من مهام سكرتير السفارة،

ليكلها إليّ. ولما كانت هذه المهام غير منفصلة عن لقب "سكرتير السفارة" . فقد دعاني إلى أن أحمل هذا اللقب. وما أوفد – طيلة بقائي معه – أحدا سواي بهذه الصفة إلى مجلس الشيوخ أو إلى مندوبيه (١). والواقع أنه كان من الطبيعي أن يفضل أن يكون في منصب سكرتير السفارة رجل تابع له، عن أن يكل هذا المنصب إلى القنصل، أو موظف كتابي معين بمعرفة البلاط.

ولقد أدى هذا إلى أن أصبح مركزي جد ملائم، ومنع أفراد بطانته، الذين كانوا من الإيطاليين – كما كان أتباعه ومعظم خدمه – من أن ينازعوني الأولوية في داره. وقد استغللت بنجاح ما كان لهذا المركز من سلطان، في صون حقوقه الدبلوماسية، وأعني بذلك حصانة مقره ضد المحاولات التي بذلت مرارا عديدة لانتهاكها، والتي كان موظفوه – من أبناء البندقية – لا يحفلون بمقاومتها. ومن ثم فإنني لم أسمح قط للخارجين على القانون باللجوء إلى هذا المقر، بالرغم من أنني كنت خليقا بأن أجني من وراء ذلك نفعا كبيرا، ما كان صاحب السعادة ليتورع عن مقاسمتي إياه!.. بل إنه جرؤ على أن يستبيح لنفسه حقوق السكرتارية التي يطلق عليها اسم "أعمال الديوان" . ومع أن الحرب كانت قائمة، إلا أن هذا لم يعف من إصدار عدد لا بأس به من جوازات السفر، وكان يدفع عن كل جواز منها، "**سيكان**" (٢) للسكرتير الذي ينجزه ويصدق عليه. وقد اعتاد كل من سبقوني أن يتقاضوا هذا "**السيكان**" من الفرنسيين، ومن الأجانب على السواء. بيد أنني وجدت هذا الإجراء غير عادل، ومع أنني لم أكن فرنسيا، فإنني ألغيته بالنسبة للفرنسيين، وإن رحت أتقاضى حقي – في غير تساهل – من كل من عداهم. فلما أرسل لي المركيز "**سكوتي**" – شقيق الشخص الذي كانت له الحظوة لدى ملكة "**إسبانيا**" – يطلب يوما جوازا، دون أن يرسل لي "**السيكان**"، فطالبته به، وهو اجتراء لم ينسه قط ذلك الإيطالي المفطور على الانتقام. ومنذ أن أصبح هذا الإصلاح الذي أدخلته على رسوم الجوازات معروفا، لم يعد يتقدم للحصول على جوازات سوى جحافل من منتحلي الجنسية الفرنسية، الذين يزعمون – في رطانة محتملة – أن هذا من إقليم "**بروفانس**"، والآخر من "**بيكار**"، والثالث من "**بيرجندي**". ولما كنت قد أوتيت سمعا مرهفا، فإنني لم أكن أخدع قط، وما أظن أن إيطاليا واحدا استطاع أن يسلبني "**سيكاني**"، أو أن فرنسيا واحدا دفعه لي. وكنت من الغباء بحيث أنبأت السيد دي "**مونتيجي**" – الذي لم يكن يعلم شيئا عن أي شيء! – بما فعلت. فإذا كلمة "**سيكان**" تجعله يفتح أذنيه، وبدون أن يبدي لي رأيا بصدد إلغاء الرسم للفرنسيين، طلب أن أسوي معه الحساب بشأن الآخرين، واعدا إياي بمنافع في مقابل ذلك!..

ورفضت اقتراحه عن احتقار؛ لضعته أكثر مني عن تأثر من أجل مصلحتي، وألح عليّ، فإذا بغضبي يحتدم، وقلت في تحمس شديد: "لا يا سيدي.. إن لسعادتك أن تحتفظ بما هو حق لك، ودع لي ما هو حقي، فلن أنزل عن "**سو**" واحد منه!" . وإذ رأى أنه لم يكسب شيئا بهذه الوسيلة، عمد إلى وسيلة أخرى، ولم يخجل من أن يقول إنني ما دمت أحصل على مكاسب من أعمال ديوانه، فمن العدل أن أتحمل نفقات هذا الديوان. ولم أشأ أن أجادل في هذا الأمر، ومن ذلك الحين أخذت ابتاع من مالي المداد، والورق، وشمع الأختام، وشمع الإضاءة، والأشرطة، وما إلى ذلك.. حتى خاتم الدولة الذي أصلحته، دون أن يدفع من نفقات إصلاحه شيئا..! ولم يحل دون أن أعين جزءا صغيرا من إيراد عملية الجوازات للراهب دي "**بيني**"، الذي كان شابا طيبا، والذي كان أبعد من أن يطلب لنفسه

---

(١) كان من عادة مجلس شيوخ جمهورية البندقية – في ذلك الحين – أن يتباحث مع سفراء الدول الأجنبية، عن طريق مندوبين يوفدهم إليهم، ومبعوثين يوفدهم السفراء إليه. وقد كان مجلس الشيوخ – في بعض نظم الحكم – ذا سلطة تنفيذية. وهكذا كان في البندقية. (٢) السيكان: عملة تتراوح قيمتها ٩ و ١٢ فرنكا.

شيئا من هذا القبيل. وإذا كان قد تلطف نحوي، فإنني لم أكن أقل كرما نحوه، ومن ثم فقد عشنا معا في وئام على الدوام.

✽✽✽✽✽

ولقد وجدت عملي - إذ مارسته - أقل إرهاقا مما توقعت بالنسبة لرجل عديم الخبرة، قدر له أن يعمل مع سفير لم يكن يفوقه في شيء، بل إنه كان بجهله وعناده يعرقل - وكأنما كان يسر بهذه العرقلة - كل ما كان يلهمنيه الإدراك السليم وبعض أضواء المعرفة لأتقن خدمته وخدمة الملك!.. وكان أكثر أعماله انطواء على إدراكي، هو ارتباطه بالمركيز دي "**ماري**"، سفير "**إسبانيا**"، الذي كان بارعا، أريبا، وكان بوسعه أن يقوده من أنفه إلى حيث شاء، لولا أنه - نظرا لارتباط مصالح التاجين - كان يمحضه عادة خير النصح، فكان الآخر يضيع نفع هذا النصح، إذ كان دائما يدس عليه بعض آرائه الخاصة عند التنفيذ!.. وكان الشيء الوحيد الذي اشتركا في عمله، هو إغراء البندقيين بالتزام الحياد. وكان هؤلاء لا يكفون عن ادعاء الأمانة في صون الحياد، مع أنهم كانوا يمدون الجنود النمسويين - علانية - بالذخائر، بل وبالمجندين الذين كانوا يزعمون أنهم هاربون من قواتهم.. أما السيد دي "**مونتيجي**" - الذي أعتقد أنه كان يبغي إرضاء الجمهورية (١) - فلم يكن يتوانى، بالرغم من بياناتي عن أن يحملني على أن أؤكد في كل رسائله أنها لم تكن تنتهك الحياد إطلاقا. وكان عناد هذا الرجل المسكين وغباؤه يضطرانني إلى أن أكتب وأرتكب - في كل لحظة - سخافات كنت مجبرا على أن أكون الوسيط فيها، مادامت هذه رغبته، ولكنها كانت - في بعض الأحيان - تجعل أداء واجباتي أمرا لا يطاق.. بل أمرا غير ميسور عمليا!.. مثال ذلك: أنه كان يصر إصرارا مطلقا على أن يكون الشطر الأكبر من رسائله إلى الملك، ورسائله إلى الوزير مكتوبا بالشفرة، برغم أن أيا من هذه أو من تلك لم يكن يشتمل على شيء ما يجعل مثل هذه الحيطة لازمة!.. ولقد أوضحت له أنه لم يكن ثمة وقت كاف بين يوم الجمعة - الذي كانت رسائل البلاط تصل فيه - ويوم السبت - الذي كانت رسائلنا تصدر فيه - لكتابة هذه بالشفرة، ولكتابة الكمية الكبيرة من الرسائل التي كان عليّ أن أعدها ليحملها البريد في اليوم ذاته. فابتكر لذلك خطة بديعة، تلك هي أن أعد - في يوم الخميس - ردود الرسائل التي يكون مقدرا لها أن تصل في اليوم التالي!.. ولقد تراءت له هذه الفكرة موفقة - بالرغم مما وسعني أن أقوله عن استحالة، بل وسخف، تنفيذها - حتى إنه حتم اتباعها، فلم أكن أخفق قط، طيلة المدة التي مكثتها معه بعد ذلك - في أن أحمل إليه في صباح يوم الخميس، مسودة مصوغة من الكلمات القلائل التي كان يلقيها في مناسبات عابرة خلال الأسبوع، والتي كنت أسجلها في مفكرتي، ومن بعض البيانات والأخبار البسيطة التي كنت التقطها من هنا وهناك؛ لأتزود بها في هذه المهمة العجيبة!.. أقول إنني لم أخفق قط في أن أقدم إليه في صباح يوم الخميس مسودة للرسائل التي ينبغي تصديرها في يوم السبت، فيما عدا بعض إضافات، أو تعديلات كنت أؤديها في عجلة، على ضوء الرسائل التي تصل في يوم الجمعة، والتي كانت رسائلنا تعتبر ردا لها!

وكانت له نزوة أخرى، غاية في الطرافة، أضفت على مراسلاته صبغة مضحكة لا سبيل إلى وصفها: تلك هي إرسال كل نبأ إلى مصدره، بدلا من تركه يأخذ مجراه العادي.. فكان يرسل الأنباء الواردة عن البلاد إلى السيد "**اميلو**" (٢)، وتلك الواردة عن "**باريس**" إلى السيد دي "**موريبا**"،

---

(١) حكومة جمهورية البندقية. (٢) كان السيد "اميلو" وزيرا للخارجية، وكان البلاط هو مقر منصبه.

وتلك المتعلقة بـ"**السويد**" إلى السيد "**دافرينكور**"، وتلك الخاصة بـ"**بطرسبورج**" إلى السيد "**ديلاشيتاردي**".. بل إنه كان يرسل إلى كل منهم أحيانا الأنباء الواردة منه هو بالذات، والتي كنت أجري تعديلات طفيفة عليها!.. ولما كان قد اعتاد أن يلقي نظرة على الرسائل الموجهة إلى البلاط وحدها - دون بقية ما كنت أحمله إليه ليوقعه - فإنه كان يوقع الرسائل الموجهة إلى السفراء الآخرين دون أن يقرأها مما جعلني أكثر مقدرة على أن أصوغ هذه الأخيرة وفقا لمزاجي، أو - على الأقل - أن أبدل من الأنباء، فلا أوجه لكل منهم عين الأنباء التي سبق أن أرسلها!

.. بيد أنه كان من المستحيل علي أن أصوغ الرسائل الهامة في أسلوب معقول، بل إنني كنت أعتبر نفسي سعيدا، إذا لم يخطر بباله أن يدخل عليها بضعة أسطر متعجلة من وحي أفكاره. فقد كان هذا يضطرني إلى العودة إلى نسخ الرسالة التي زانها بهذه السخافة الجديدة. السخافة التي كان لابد من تكريمها بنسخها - بسرعة - بالشفرة، إذ إنه لم يكن يوقع الرسالة بدونها!.. ولقد راودني الإغراء عشرين مرة - مراعاة لسمعته - بأن أنقل بالشفرة شيئا غير الذي قاله، ولكنني كنت أدرك أنه ليس ثمة ما يبيح لي إطلاقا مثل هذا الانحراف عن الأمانة، فكنت أدعه يهذي على مسؤوليته، قانعا بأن أصارحه برأيي، وبأن أؤدي الواجب المفروض علي نحوه!

✽✽✽✽✽

وهذا ما حرصت على أن أفعله دائما بأمانة، وجلد، وحمية كانت تستحق جزاء غير ذلك الذي تلقيته في النهاية.. كان قد حان لكي أكون - ولو لمرة واحدة - كما هيأتني السماء التي أنعمت عليّ بفطرة طيبة، وكما أهلتني التربية التي تلقيتها على أيدي أفضل النساء تلك التي أتحتها لنفسي.. وهذا ما حدث فعلا!. فقد كنت وحيدا، بلا أصدقاء ولا ناصحين، وبلا تجربة، في بلد أجنبي، وفي خدمة أمة أجنبية، وفي وسط ثلة من الأنذال الذين كانوا يستحثونني على أن أحذو حذوهم في سبيل مصلحتهم، ومن أجل التخلص من عار وجود مثل صالح بينهم.. على أنني بدلا من أن أفعل أي شيء من هذا القبيل، أخلصت الخدمة لـ"**فرنسا**" - التي لم أكن مدينا لها بأي واجب - وكنت أكثر إخلاصا في خدمة السفير في كل مكان موكولا إليّ، كما ينبغي أن يقال بحق!.. وإذ لم يكن ما يؤخذ عليّ في منصب كهذا، جد مكشوف للأنظار المتطلعة، فقد استحققت وظفرت بتقدير حكومة الجمهورية (١)، وتقدير السفراء الذين كنا نتبادل معهم الرسائل، وحب كل الفرنسيين المقيمين في "**البندقية**". ولم يشذ عن ذلك القنصل الذي خلفته - للأسف - في المهام التي كنت أدرك أنها من حقه، والتي جلبت عليّ من المتاعب أكثر مما جلبت من السرور!

وإذ انصاع السيد دي "**مونتيجي**" دون تحفظ للمركيز دي "**ماري**" - الذي لم يكن ليهتم بتفصيلات واجبات السفير الفرنسي - أهمل هذه الواجبات إلى درجة أنه لم يكن من المحتمل أن يدرك الفرنسيون - الذين كانوا في "**البندقية**" - أن لـ"**فرنسا**" سفيرا مقيما في المدينة، لولاي أنا!.. ولما كانوا دائما يطردون دون ما استماع إلى شكواهم - كلما نشدوا حمايته - فإنهم أصبحوا يزدرونه، ولم ير واحد منهم قط في معيته، أو على مائدته، التي لم يكن - في الواقع - يدعوهم إليها إطلاقا.

وكنت كثيرا ما آخذ على عاتقي أداء ما كان ينبغي على رئيسي أن يؤديه، وأؤدي للفرنسيين - الذين كانوا يلجئون إليه أو إليّ أنا - كل ما كان في طوقي من خدمات. ولقد كنت خليقا بأن أفعل

---

(١) حكومة جمهورية البندقية.

فوق ما كنت افعل، لو انني كنت في اي بلد آخر.. ولكنني لم اكن املك – بحكم منصبي – ان اقابل اي شخص من ذوي النفوذ، فكنت كثيرا ما اضطر إلى ان الجأ إلى القنصل.. وكان لدى القنصل من دواعي الحذر – نظرا لاستقراره مع اسرته في البلد – ما كان يمنعه من ان يفعل كل ما كان يهوى.. على انني كنت اجسر احيانا – عندما اراه صامتا لا يجرؤ على الكلام – على الإقدام على تصرفات خطرة، قدر لي التوفيق في كثير منها. وإني لأذكر مغامرة منها، لا تزال ذكراها تحملني على الضحك وما اظنه يخطر ببال احد، ان رواد المسرح بـ"**باريس**" مدينون لي بـ"**كورالين**" واختها "**كايي**"، وإن لم يكن ثمة ما هو اصدق من هذا. فلقد تعاقد "**فيرونيز**" – ابوهما – على الانضمام وابنتيه إلى الفرقة الإيطالية. وبعد ان تسلم الفي فرنك لنفقات الرحلة، لم يسافر وإنما انضم ببساطة إلى مسرح "**سان لوك**" (١) بـ"**البندقية**"، حيث اجتذبت "**كورالين**" – برغم انها كانت لاتزال طفلة – كثيرا من الناس. فكتب السيد الدوق دي "**جيفر**" الأمين الأول للديوان الملكي – إلى السفير مطالبا بالأب وابنتيه، وسلمني السيد دي "**مونتيجي**" الخطاب، وكانت كل التعليمات التي زودني بها، هي: "انظر هذا الأمر".

فذهبت إلى السيد "**لوبلون**"، ورجوته ان يخاطب السيد الذي كان يمتلك مسرح "**سان لوك**"، والذي كان من اعضاء مجلس الشيوخ – ويدعى، على ما اظن، "**جستنياني**" – فيقنعه بأن يسرح "**فيرونيز**"، الذي كان متعاقدا لخدمة الملك. ولم يكن "**لوبلون**" متحمسا للمهمة، فأساء اداءها، وتعلل "**جستنياني**" بمختلف الحجج، فلم يسرح "**فيرونيز**". واغتظت.. وكنا في "**الكرنفال**"، فاستقللت زورقا وقد تقنعت، وذهبت إلى قصر "**جستنياني**". وبهت كل من رآني في جندولي وأنا في ثيابي الرسمية، إذ إن "**البندقية**" لم تر شبيها لهذا العمل من قبل. ودخلت القصر، واوحيت بأن يعلن السيد بمقدمي على انني "السيدة ذات القناع"، وما إن دخلت عليه، حتى ازحت قناعي، واعلنت اسمي، فامتقع وجه عضو الشيوخ، وجمد مشدوها. وإذ ذاك قلت له في لهجة ابناء **البندقية**: "سيدي، يؤسفني ان ازعج سعادتك بزيارتي، ولكن في مسرح "**سان لوك**" – التابع لك – رجلا يدعى "**فيرونيز**"، تعاقد على خدمة الملك، وقد طالبت به دون جدوى؛ لذلك جئت اطالب به باسم صاحب الجلالة!". واحدث هذا القول – على إيجازه – اثرا. فلم اكد انصرف، حتى هرع صاحبنا إلى محققي الدولة القضائيين، الذين اوضحوا الموقف، ففصل "**فيرونيز**" في اليوم ذاته. وكان ان اوفدت إلى هذا من انذروه بأنه إذا لم يرحل في خلال اسبوع، فسوف اعمل على إلقاء القبض عليه.. ومن ثم رحل!

*****

وفي مناسبة اخرى، انقذت ربان سفينة تجارية من مازق، بجهودي وحدها، ودون معونة اي شخص تقريبا.

وكان الربان من ابناء "**مارسيليا**"، ويدعى "**أوليفييه**"، وقد نسيت اسم السفينة، فقد تشاجر ملاحوه مع "**الاسكلافونيين**" (٢) الذين كانوا في خدمة الجمهورية. وكان من جراء الشغب الذي ارتكب ان احتجزت السفينة، وفرضت عليها تحفظات بلغ من قسوتها ان احدا – سوى الربان – لم يكن يملك ان يصعد إليها او يغادرها دون إذن.

---

(١) اضاف روسو إلى هذا قوله: "لست واثقا من انه لم يكن مسرح "سان صمويل"، فإن الاسماء الصحيحة تغيب عن ذاكرتي تماما". (٢) ابناء بلاد الكربات.

ولجأ الربان إلى السفير، الذي صرفه في جفاء، فلجأ إلى القنصل، ولكنه قال له إن مسألته لم تكن مسألة تجارية، وأنه لا يملك التدخل. وإذ لم يدر الرجل ما يفعله بعد ذلك، جاءني فأوضحت للسيد دي "**مونتيجي**" أن عليه أن يسمح لي بأن أرفع مذكرة إلى مجلس الشيوخ. ولست أذكر ما إذا كان قد أذن لي، ولا ما إذا كنت قد قدمت المذكرة، وإنما أذكر تماما أن المساعي التي بذلتها لم تنته إلى شيء، وظل التحفظ قائما، فلجأت إلى عمل حازم قدر له النجاح، إذ أوردت بيانا عن هذه المسألة في رسالة إلى السيد دي "**موريبا**"، وإن لقيت عناء كبيرا في إقناع السيد دي "**مونتيجي**" بأن يجيز هذا البيان. وكنت أعرف أن رسائلنا كانت تفتح في "**البندقية**" - برغم أنها لم تكن تستحق هذا العناء - إذ كنت أملك الدليل على ذلك، فمثلا في الفقرات التي اعتدت أن أجدها منقولة بالنص في الصحيفة الرسمية.. وهو لون من عدم الأمانة، حاولت عبثا أن أحمل السفير على أن يحتج عليه. وكانت غايتي من الحديث عن هذا الحادث المكدر في الرسالة، هي أن أستغل فضول سلطات البندقية، لكي أرهبهم وأحملهم على أن يطلقوا سراح السفينة.. فإن الربان كان مسوقا إلى الإفلاس قبل أن يصدر رد البلاط على هذه المسألة، لو أنه اضطر لانتظار هذا الرد. بل إنني أقدمت على إجراء آخر، إذ زرت السفينة لأستجوب الملاحين، واصطحبت الراهب "**باتيريل**" - كاتم أسرار القنصل - الذي لم يأت إلا كارها.

فقد كان هؤلاء المساكين جميعا يخشون أن يغضبوا مجلس الشيوخ. ولما لم يكن بوسعنا أن نصعد إلى سطح السفينة؛ بسبب الحظر المفروض، فقد بقيت في جندولي، وقمت بالتحقيق من هناك، موجها أسئلتي بصوت مرتفع، وإلى كل الملاحين تباعا، وقد صغت هذه الأسئلة بحيث تستدعي إجابات في صالحهم. ولقد حاولت أن أحمل "**باتيزيل**" على أن يسألهم وأن يعد التقرير بنفسه، وهو أمر كان من مهامه - في الواقع - أكثر مما كان من مهامي، ولكنه لم يشأ أن يوافق على ذلك إطلاقا، ولم ينبس بكلمة واحدة، بل إنه كاد يأبى أن يوقع التقرير بعد أن وقعته أنا.. على أن هذه الخطة - المنطوية على شيء من الجرأة - كانت موفقة للغاية، فأفرج عن السفينة قبل أن يصل جواب الوزير بوقت طويل. وأراد الربان أن يقدم لي هدية، فقلت له وأنا أدق كتفه، دون أن أبدي استياء: كابتن "**أوليفييه**"، أتظن أن رجلا لا يتقاضى من الفرنسيين رسم الجوازات - وهو حق مقرر له - يرضى أن يتقاضى ثمن حماية الملك؟".. ورغب الربان في أن أتناول الغداء معه على سطح السفينة - على الأقل - فقبلت مصطحبا سكرتير السفارة "**الإسبانية**"، المدعو "**كاريو**" - وكان رجلا ذكيا بالغ اللطف، غدا بعد ذلك سكرتيرا للسفارة "**الإسبانية**" في "**باريس**"، وقائما بالأعمال فيها.. وقد كنت مرتبطا معه بروابط من الود، تماثل تلك التي كانت بين سفيرينا!

ولقد كنت خليقا بأن أغدو سعيدا، لو أنني عرفت - إذ رحت أفعل كل ما وسعني من خير، في أتم تجرد من المصلحة الذاتية - كيف أدخل قدرا كافيا من النظام والانتباه على كل هذه المسائل الدقيقة؛ حتى لا أغدو مستغفلا، فأخدم الغير على حساب مصالحي!.. ولكن أتفه الأخطاء في منصب - كذاك الذي كنت أشغله - لا تمر دون تبعات، ومن ثم فقد كنت أستنزف كل انتباهي في الجهد لتفادي أية أخطاء مضادة لعملي.

*****

ولقد كنت - في كل ما يتعلق بواجبي الرئيسي منظما إلى أقصى درجات النظام، ودقيقا إلى أقصى درجات الدقة.

وفيما عدا بضعة أخطاء اضطرني التعجل المفرط إلى ارتكابها في صوغ الشفرة – وقد اشتكى منها معاونو السيد "**اميلو**" ذات مرة – لم يأخذ علي السفير، أو أي امرىء سواه، إهمالا في أداء أي واجب من واجباتي، وهو أمر كان جديرا بالملاحظة بالنسبة لرجل شديد الإهمال، وشديد التهور مثلي.. بيد أنني كنت أغفل وأهمل في تصرفي في المسائل الخاصة التي كنت آخذها على عاتقي – أحيانا – فكان حب الإنصاف يجعلني أتحمل دائما اللوم من تلقاء نفسي، قبل أن يفكر أي امرئ في أن يشكو منه!.. ولن أذكر – في هذا المجال – سوى حادث واحد، كان له أثر في رحيلي عن "**البندقية**"، وقدر لي أن أشعر بآثاره – بعد ذلك – في "**باريس**"!

ذلك أن طاهينا – وكان يدعى "**روسيلو**" – أحضر من "**فرنسا**" سندا قديما بمائتي فرنك، كان أحد صناع الشعر المستعار – من أصدقائه – قد تسلمه من نبيل بندقي يدعى "**جانيتو ناني**"، في مقابل قلنسوات من الشعر المستعار.

وأحضر لي "**روسيلو**" هذا السند، ورجاني أن أحاول عمل أي شيء بصدده، بالإجراءات السليمة. وكنت أعرف – كما كان يعرف هو الآخر – أن العادة التي كانت متبعة لدى نبلاء "**البندقية**"، هي ألا يدفعوا قط أية ديون تحملوهافي الخارج ماداموا قد عادوا إلى وطنهم. فإذا بذل أي سعي لقسرهم على الدفع، أرهقوا الدائن التعس بالإرجاء الطويل المتكرر، وبالنفقات، حتى تثبط عزيمته، ولا يلبث أن يعدل – في النهاية – عن المطالبة، أو يقبل أية تسوية ضئيلة!. ورجوت السيد "**لوبلون**" أن يتحدث إلى "**جانيتو**" فاعترف هذا بالورقة، ولكنه أبى أن يدفع قيمتها. وبعد كفاح طويل، وعده بأن يدفع ثلاثة "سيكانات". فلما حمل إليه "**لوبلون**" السند، لم تكن السيكانات الثلاثة حاضرة، فلم يكن ثمة بد من الانتظار.. وفي خلال هذه المهلة، دب الخلاف بيني وبين السفير، فخرجت من خدمته. وقد تركت أوراق السفارة في أتم نظام، ولكن سند "**روسيلو**" لم يوجد بينها قط. وأكد لي السيد "**لوبلون**" أنه كان قد رده إليّ، وكنت أعرف أنه من النبل بحيث لا يرقى إليه الشك، ولكنني عجزت عن تذكر ما جرى لهذا السند.

ولما كان "**جانيتو**" قد أقر بالدين، فقد رجوت السيد "**لوبلون**" أن يحاول الحصول منه على السيكانات الثلاثة في مقابل إيصال، أو أن يستدرجه إلى تجديد السند بنسخة أخرى منه، ولكن "**جانيتو**" رفض الأمرين، إذ علم بضياع السند.. فعرضت على "**روسيلو**" السيكانات الثلاثة – من جيبي الخاص – كسداد للسند، ولكنه أبى أن يأخذها، وأخبرني بأن أسوي الأمر مع الدائن الباريسي، الذي أعطاني عنوانه. ولكن صانع الشعر المستعار، طالب بسنده أو بدينه كاملا، إذ علم بما حدث. فما الذي كنت أضن به – في سورة غيظي – في مقابل العثور على هذا السند اللعين؟!.. ودفعت المائتي فرنك من مالي، في وقت كنت فيه في أشد الضيق المالي. وهكذا كان ضياع الوثيقة سببا في حصول الدائن على دينه كاملا، في حين أنه لو كان قد تسنى – لسوء حظه – العثور على السند، لوجد عناء في انتزاع العشرة "**ايكو**" (١) الموعودة من صاحب السعادة "**جانيتو ناني**"!

ولقد جعلتني المقدرة – التي استشعرتها في نفسي – على أداء عملي، مفعما بالميل إليه.. وفيما عدا صحبتي لصديقي "**كاريو**"، وللفاضل "**التونا**" – الذي لن ألبث أن أتحدث عنه – وفيما عدا بعض ألوان الترويح البريئة – التي تمثلت في التردد على ساحة "**سان مارك**"، وعلى المسرح – وبعض زيارات كنا نقوم بها سويا في أغلب الأحيان.. فيما عدا ذلك، كانت واجباتي هي الأسباب الوحيدة للتسلية والمتعة. ومع أن عملي لم يكن شاقا أكثر مما ينبغي، لا سيما إزاء العون الذي كنت ألقاه من الراهب دي "**بيني**"، إلا أن

---

(١) العشرة أيكو تعادل في قيمتها السيكانات الثلاثة.

مراسلاتنا كانت كثيرة جدا، كما أننا في فترة حرب؛ ومن ثم فلم تكن تعوزني الشواغل، بل كنت أقضي شطرا كبيرا من النهار في العمل - في كافة الأيام - كما أنني كنت أعمل، في أيام البريد، إلى منتصف الليل أحيانا. وكنت أكرس بقية الوقت لدراسة المهنة التي شرعت في ممارستها، والتي كنت - على ضوء البداية الناجحة - أعول كثيرا على أن أبلغ فيها منصبا طيبا فيما بعد.. والواقع أنه لم تكن ثمة سوى فكرة واحدة عني لدى الجميع، ابتداء من السفير الذي كان راضيا عن خدماتي رضاء تاما، فلم يشك منها قط.. وما جاء كل الغضب - الذي ثار فيما بعد - إلا عن أنني حين وجدت شكاياتي لا تلقى أذنا سامعة، طلبت إعفائي من العمل. وكان كل سفراء الملك ووزرائه - الذين كنا على تراسل معهم - يهنئونه على كفاءة سكرتيره، وهو ما كان يجب أن يثير اعتزازه، ولكنه أحدث أثرا عكسيا في رأسه سيئ التفكير. وكانت بين هذه التهاني واحدة بالذات، تلقاها في ظرف حرج، فلم يغتفرها لي قط. وهي جديرة بأن أتكبد عناء شرحها.

وذلك أنه كان قليل المقدرة على مقاومة ما يضايقه، حتى إنه في يوم السبت ذاته - وهو يوم إرسال كل الرسائل تقريبا - لم يكن ليقوى على الصبر عن الخروج ريثما ينتهي العمل، وإنما كان يطلب - باستمرار متعجلا - رسائل الملك والوزراء، ليوقعها في عجلة، ثم يهرع إلى حيث لم أكن أدري، تاركا معظم الرسائل الأخرى بدون توقيع، مما كان يضطرني - عندما لا تكون هناك سوى أخبار عادية - إلى أن أصوغها في قالب نشرات الأخبار.. أما حين تكون هناك مسائل متعلقة بخدمة الملك، فقد كانت الضرورة تدعو إلى توقيع الرسائل، فكنت أتولى توقيعها بنفسي. وقد فعلت ذلك بصدد رسالة هامة كنا قد تسلمناها من السيد "**فانسان**"، القائم بأعمال الملك في "**فيينا**". وكان ذلك في الوقت الذي سار فيه الأمير "**لوبكوفيتش**"، زاحفا على "**نابولي**"، والذي قام فيه الكونت دي "**جـاج**" بتقهقره الذي لا ينسى، والذي كان أروع عمل عسكري في القرن كله، وكان حديث "**أوروبا**". وكان النبأ الذي بلغنا، هو أن رجلا - أرسل إلينا السيد "**فانسان**" أوصافه - كان قد غادر "**فيينا**"، معتزما المرور بـ"**البندقية**"، قاصدا - متخفيا - "**بروتسي**"؛ ليعمل على إثارة الناس عند اقتراب "**النمسويين**". ونظرا لغياب السيد دي "**مونتيجي**" - الذي لم يكن ليهتم بشيء - فإنني أرسلت إلى السيد المركيز "**ديلوبيتال**" هذا النبأ الذي كان في وقته المناسب، حتى ليحتمل أن يكون آل "**بوربون**" مدينين إلى "**جان جاك**" المغبون بفضل الإبقاء على مملكة "**نابولي**"!

وإذ شكر المركيز "**دبلوبيتال**" زميله - كما كان ينبغي - امتدح له سكرتيره (١) والخدمات التي أداها للقضية المشتركة، فإذا الكونت دي "**مونتيجي**" - الذي كان جديرا بأن يلوم نفسه على إهماله في هذه المسألة - يخال أنه يلمح لوما خلال هذه التهنئة، فحدثني عنها في استياء. وكنت قد أقدمت على أن أفعل مع الكونت دي "**كاستيلان**" - السفير الفرنسي في "**القسطنطينية**" - ما فعلته مع المركيز "**دبلوبيتال**"، وإن كان النبأ أقل أهمية. وإذ لم تكن ثمة وسيلة لإرسال البريد إلى "**القسطنطينية**" سوى الرسل الذين اعتاد مجلس الشيوخ أن يوفدهم من وقت إلى آخر إلى "**بايله**" (٢)، فقد كان السفير الفرنسي ينبأ بمواعيد رحيل هؤلاء الرسل، ليتمكن من الكتابة إلى زميله إذا رأى داعيا لذلك. وكان هذا الإخطار يصدر قبل الرحيل بيوم أو اثنين، ولكن السيد دي "**مونتيجي**" لم يكن يلقى اعتبارا كافيا، ومن ثم فقد كانوا يكتفون بإخطاره قبل رحيل البريد بساعة أو اثنتين، لمجرد مراعاة الشكليات!..

وكان هذا يضطرني - في كثير من المرات - إلى أن أعد الرسالة في غياب السفير. وكان السيد

(١) "جاك جاك روسو" نفسه. (٢) "البايل": لقب سفير "البندقية" في "القسطنطينية".

"**كاستيلان**" يذكرني – في رده – بعبارة التكريم، وكذلك كان السيد دي "**جونفيي**" – في "**جنوا**" – يفعل، فكان كل تعبير عن حسن رأيهما في شخصي، سببا لخلافات جديدة..

*****

وأعترف بأنني لم أحاول أن أتحاشى فرصة التعريف بنفسي ولكنني لم أكن أسعى إلى ذلك في غير المناسبات اللائقة.

وكان يبدو لي أن الإنصاف يبيح لي – إذ أحسن الخدمة – أن أطمع في الجزاء الطبيعي للخدمات الطيبة، ألا وهو التقدير من أولئك الذين كانوا يملكون تقديرها، ومنح الجزاء عنها.

ولست أملك أن أقول ما إذا كانت دقتي في أداء مهامي كانت – في نظر السفير – سببا مشروعا للشكوى والاحتجاج، ولكن الذي أملك أن أقوله هو أن هذه الشكوى كانت هي الشكوى الوحيدة التي اعتاد أن يرددها إلى يوم فراقنا!

وكانت داره – التي لم يكن يحسن إدارتها إطلاقا – مليئة بالسفلة: كان الفرنسيون يلقون هناك أسوأ معاملة، بينما كانت "**للإيطاليين**" المكانة العليا.. وحتى فيما بين هؤلاء، كان الموظفون الصالحون الذين ألحقوا منذ وقت طويل بخدمة السفارة يطردون في غير ما إنصاف، وكان من هؤلاء المستشار الأول للسفير، الذي شغل المركز نفسه في عهد سلفه الكونت دي "**فرولاي**"، والذي كان يدعى – على ما أعتقد – الكونت "**بياتي**"، أو ما يقرب من هذا الاسم.. أما المستشار الثاني – وكان السيد دي "**مونتيجي**" هو الذي اختاره بنفسه – فكان شقيا من "**مانتوي**"، يدعى "**دومينيك فيتالي**"، وقد عهد إليه السفير بشؤون داره، فاستطاع بالتملق وبالشح الخسيس أن يكتسب ثقته، ويغدو أثيرا له، مما أضر بمن كان قد ظل بالدار من أمناء قلائل، وبالسكرتير الذي كان على رأسهم.. وعين الرجل الشريف أمينا له وكان يثير دائما قلق اللئام. وقد كان هذا وحده كافيا لأن يجعل هذا الرجل يكرهني، بيد أن كراهيته كانت ترجع – كذلك – إلى سبب آخر ضاعف منها إلى حد كبير. ولابد لي من أن أعلن هذا السبب، ولكم أن تدينوني إذا كنت مخطئا!

ذلك أنه كان للسفير – وفقا لتقليد راسخ منذ أمد طويل – مقصورة في كل من المسارح الخمسة. وكان يعين – على مائدة الغداء،في كل يوم –المسرح الذي يعتزم الذهاب إليه، فكنت أنا الذي يليه في الاختيار، على أن يأخذ المستشارون المقصورات الأخرى. وكنت آخذ – عند انصرافي – مفتاح المقصورة التي اخترتها. ففي ذات يوم، لم يكن "**فيتالي**" – الذي كان يحتفظ بالمفاتيح – موجودا، فعهدت إلى ساع كان في خدمتي، بأن يحضر لي مفتاحي في دار عينتها له. ولكن "**فيتالي**" لم يرسل المفتاح، بل قال إنه قد تصرف في شأنه. ومما زاد من غيظي، أن الساعي أدلى بهذا النبأ أمام الملأ. فلما كان المساء حاول "**فيتالي**" أن يتقدم ببضع كلمات يعتذر بها، ولكنني لم أنصت إليه، بل قلت له: "تعال غدا أيها السيد، فقلها في نفس الساعة، وفي نفس الدار التي تلقيت أنا الإهانة فيها، وأمام الناس الذين شهدوها.. وإلا، فسوف أطالب بعد غد – ومهما يكن ما يحدث – بأن يغادر أحدنا هذه السفارة!". وأفحمته لهجتي الحاسمة، فجاء إلى الدار في الساعة المحددة، واعتذر علانية، في صغار يليق به ولكنه راح يرسم خطته على مهل.

وبينما كان يبدي لي احتراما بالغا، راح يعمل على شاكلة "**الإيطاليين**" (١) ومع أنه لم يستطع

(١) يقصد الدس في الخفاء، والنميمة وما إليهما من أساليب.

أن يحمل السفير على فصلي، إلا أنه اضطرني إلى أن أستقيل من تلقاء نفسي!

ومن المحقق أن مثل هذا الوغد لم يكن أهلا لأن يعرفني، ولكنه عرف ما كان يخدم أغراضه.. عرف أنني كنت من الطيبة واللين بحيث أحتمل المظالم غير المقصودة، وأنني من الكبرياء بحيث لا أحتمل الإهانات المتعمدة، وأنني أحب التواضع والوقار في المناسبات الملائمة، وأنني لم أكن أقل حرصا على ما ينبغي لي من تكريم، مني على أداء ما هو واجب عليّ منه للغير.. وهذا ما استغله ووفق بفضله إلى مضايقتي. فقد قلب السفارة رأسا على عقب، وأزال منها ما كنت قد بذلته لصون الأصول، وترتيب المراكز، والدقة، والنظام. والبيت إذا خلا من امرأة، احتاج إلى قواعد للنظام أقسى بقليل مما يحتاج إليه سواه، في سبيل التمكين للاحتشام من أن يسوده مقترنا بالكرامة والوقار. أما هذا الرجل، فإنه سرعان ما جعل من دارنا مباءة للخلاعة والفجور، ووكرا للأنذال والفاسقين. وخلع منصب المستشار الثاني (١) على قواد (٢) مثله، كان يمتلك دارا للدعارة في "**كروادي مالت**" - صليب "**مالطة**" - فكان هذان اللئيمان في وئام تام، وعلى وقاحة تعادل فجورهما!.. فلم يعد في الدار ركن واحد يليق برجل شريف، فيما عدا غرفة السفير وحدها.. بل إن هذه أيضا لم تكن كما ينبغي!

ولما كان صاحب السعادة قد اعتاد ألا يتناول عشاء قط، فقد كانت تمد لنا - المستشارين وأنا - مائدة خاصة في المساء، يجلس إليها الراهب دي "**بيني**" والسعاة كذلك. وكان المرء حريا بأن يلقى في أحقر المطاعم خدمة أكرم، وأدوات للمائدة أنظف، وطعاما أحسن مما كان يقدم إلينا إذ ذاك!.. فما كنا لنحظى بغير شمعة واحدة صغيرة سوداء، وصحاف من القصدير، وشوكات من الحديد. ولقد كنت خليقا بأن أتحمل ما كان يدور في السر، لولا أنني حرمت من جندولي، فأصبحت الوحيد - بين سكرتيري السفراء - الذي يضطر إلى أن يستأجر جندولا، أو أن يسير على قدميه. ولم يكن يرافقني - إذا ما أوفدت إلى مجلس الشيوخ - سوى خدم صاحب السعادة السفير (٣). وإلى جانب هذا، كان كل ما يحدث في السفارة لا يخفى على أهل المدينة، فقد كان كل موظفي السفير يرفعون عقائرهم بتلك الأنباء. وكان "**دومينيك**" - السبب الأوحد في كل هذا - هو أكثرهم إمعانا في رفع صوته!..

فقد كان يعلم أن المعاملة غير الكريمة التي كنا نلقاها، إنما كانت تمسني أكثر مما تمس سواي. وكنت الوحيد - من موظفي الدار - الذي يتورع عن الكلام خارجها، ولكنني كنت أرفع صوتي بالشكوى للسفير.. لا مما كان يجري فحسب، بل منه هو نفسه كذلك، إذ كان - بفضل التحريض الخفي من مستشاره الخبيث - يوجه إليّ في كل يوم إهانة جديدة. ولما كنت مضطرا إلى الإنفاق عن سعة لكي أظهر في مستوى أقراني، وفي مظهر يليق بمنصبي، فإنني لم أستطع أن أدخر "سو" واحدا من مخصصاتي، وكنت إذا ما طلبت من السفير نقودا، راح يحدثني عن تقديره وثقته، وكان هذا كافيا لأن يملأ جيبي، ولأن يمدني بكل حاجاتي!

*****

وانتهى هذان الشقيان (٤) إلى أن عبثا برأس سيدهما الذي لم يكن سليم التفكير أصلا، فقاده إلى الإفلاس عن طريق استدراجه باستمرار إلى شراء سلع زائفة كانا يقنعانه بأنها تحف أثرية. كما

---

(١) إذ إنه خلف الكونت "بياتي" في منصب الأمين الأول. (٢) في الأصل الفرنسي... Maq . (٣) كان المألوف أن يرافق سكرتير السفارة إذا ما أوفد نائبا عن السفير، حاجب رفيع الدرجة ومستشار. (٤) المستشاران الإيطاليان.

حملاه على أن يستأجر قصرا – في "**برينتا**" – بأجر يعادل ضعف قيمته، واقتسما الفرق مع المالك. وكانت الغرف مبطنة بالقيشاني، ومزدانة بأعمدة وأركان من أجمل أنواع الرخام، وفقا للطراز الذي كان شائعا في البلاد. ولقد عمد السيد "**مونتيجي**" إلى تغطية كل هذه الزخارف، بألواح من خشب الصنوبر، متعللا بحجة عجيبة، هي أن هذا هو الذي كان متبعا في الدور الباريسية!.. ولحجة أخرى كهذه، كان هو السفير الوحيد – في "**البندقية**" – الذي جرد سعاة سفارته من السيوف، وخدمه الخصوصيين من العصي.. هكذا كان الرجل الذي راح يكرهني، لمجرد أنني كنت أخدمه بأمانة. ولعله كان صادرا في ذلك عن تفكير مشابه لنفس التفكير الذي حمله على التصرفات السالفة الذكر!

ولقد كنت أحتمل صابرا تصرفاته المهينة، وقسوته، وسوء معاملته، طالما ظللت أراها صادرة عن الطباع التي جبل عليها، دون أن أحسبها صادرة عن كراهية. ولكنني لم أكد أتبين أن الخطة كانت مرسومة لحرماني من الاعتبار الذي كنت أستحقه بفضل خدماتي الصادقة، حتى عقدت العزم على أن أستقيل من منصبي. وكان أول دليل تلقيته على سوء نيته، هو ذاك الذي حدث بمناسبة مأدبة كان عليه أن يقيمها للسيد الدوق دي "**موديني**" وأسرته، عندما حلوا بـ"**البندقية**".

فقد أنبأني بأنه لن يكون لي محل في تلك المأدبة. فأجبته مستاء – ولكن في غير غضب – بأنني قد اعتدت أن أحظى بشرف تناول الغداء على مائدة السفير يوميا، فإذا أبدى السيد الدوق دي "**موديني**" – عند مجيئه – أنني يجب أن أغيب عن المائدة، فمن اللائق بكرامة صاحب السعادة "السفير"، ومن الواجب عليّ، ألا أنصاع لهذه الرغبة. فقال في حدة: "ماذا؟!.. أيطالب سكرتيري – وهو لم يبلغ مرتبة المستشار – أن يتناول الغداء مع عاهل، في حين أن مستشاري لن يحضرا المأدبة؟!". فأجبت: "أجل ياسيدي، فإن المنصب الذي شرفتني سعادتك به، يرفع مقامي – طالما كنت أشغله – إلى درجة تجعل لي الأولوية حتى على مستشاريك، أو أولئك الذين يقال عنهم إنهم مستشاروك، ومن ثم فإن لي حق الحضور في مناسبات ليس لهم أن يحضروها. وأنت لا تجهل أن التقاليد الرسمية، والعرف المتبع من زمن أبعد من أن يذكر، تحتم علي – في اليوم الذي تحضر فيه التشريفات الرسمية – أن أتبعك في ثياب التشريفة، وأن أحظى بحضور مأدب قصر "**سان مارك**" معك. ولست أدري كيف لا يجوز للشخص الذي يجلس في مأدبة عامة مع "الدوج" (١) ومجلس شيوخ "**البندقية**"، أن يجلس مع السيد الدوق "**موديني**" بالذات، إلى مائدة واحدة؟!". ومع أن حجتي كانت فوق كل رد، إلا أن السفير لم يسلم بها. غير أننا لم نجد فرصة لتجديد النزاع. إذ إن السيد الدوق دي "**موديني**" لم يأت للغداء على مائدته قط!

*****

ومنذ ذلك الحين لم يكف السفير عن مضايقتي، وعن امتهان حقوقي، مغتصبا الامتيازات البسيطة التي تتعلق بمنصبي، فكان يجردني منها ليخلعها على عزيزه "**فيتالي**".

وإني لواثق بأنه لو استطاع أن يجرؤ على إيفاده – بدلا مني – إلى مجلس الشيوخ، لفعل. وكان يستخدم الراهب دي "**بيني**" عادة، لكتابة خطاباته الخاصة في حجرة مكتبه، فعهد إليه بأن يكتب إلى السيد دي "**موريبا**" تقريرا عن مسألة الربان "**أوليفييه**"، لم يذكرني فيه البتة، مع أنني كنت الوحيد الذي تدخل في المسألة.. بل إنه أنكر علي شرف التحقيق الرسمي الذي قمت به – والذي

(١) لقد كان يطلق على رئيس الدولة في البندقية.

أرسل إلى السيد دي "**موريبا**" نسخة منه – وعزاه إلى "**باتيزيل**"، الذي لم ينبس ببنت شفة، فلقد أراد أن يغيظني وأن يرضي صاحب الحظوة لديه، دون أن يستغني عني برغم ذلك، إذ شعر بأنه لم يكن ليعثر على خليفة لي، بنفس السهولة التي عثر بها على خليفة للسيد دي "**فولو**" – سلفي – الذي كان قد أشاع في الخارج فكرة صحيحة عنه!.. ولم يكن له غنى عن سكرتير يعرف اللغة الإيطالية، نظرا لمراسلاته مع مجلس الشيوخ.. لم يكن في غنى عن سكرتير قادر على أن يكتب كل رسائله، ويدير كل أموره، دون تدخل منه.. سكرتير يجمع بين المقدرة على أن يخدمه بأمانة، والهوان الذي يجعله يروق للسيدين المستشارين المدللين!.. ومن ثم فقد أراد أن يستبقيني وأن يكيدني في آن واحد، بأن يمسكني بعيدا عن وطني، وعن وطنه، دون ما نقود تمكنني من العودة. ولعله كان جديرا بأن ينجح لو أنه سعى إلى ذلك بمزيد من الحكمة. ولكن "**فيتالي**" كان يرى آراء أخرى، وكان يبغي حملي على الرحيل، وقد وفق في غايته. فما إن تبينت أنني كنت أبدد جهودي، وأن السفير كان ينظر إلى خدماتي وكأنها جرائم، بدلا من أن يحمدها لي.. وأنني لم يعد لي أن أطمع – طالما ظللت معه – في غير المضايقات في الداخل، وعدم الإنصاف في الخارج.. وأن الأذى الذي كان يحاول أن يلحقه بي قد يفوق في الضرر ما قد أكسبه من رضائه إذا أنا بقيت في خدمته، نظرا لما كان قد اجتلبه على نفسه من سخط عام.. ما إن تبينت كل هذا، حتى قررت أن أستأذنه في أن يعفيني من العمل، مفسحا له الوقت كي يحصل لنفسه على سكرتير. على أنه ظل سادرا في مسلكه، دون أن يجيب بنعم أو لا. فلما رأيت أن الأمور لم تتحسن، وأنه لم يتجه إلى البحث عن سكرتير آخر، كتبت إلى أخيه، مفصلا كافة البواعث، راجيا إياه أن يحمل أخاه على تسريحي، مضيفا إلى ذلك أنني لن أمكث في منصبي على أية حال!..

وانتظرت طويلا، دون أن أتلقى جوابا. وكنت قد بدأت أشعر بحيرة بالغة، عندما تسلم السفير – أخيرا – رسالة من أخيه.

ولابد أنها كانت شديدة اللهجة، إذ إنني لم أره – برغم أنه كان عرضة لأعنف نوبات الغضب – في مثل الهياج الذي رأيته فيه إذ ذاك. وبعد سيل من السباب المقذع، لم يعد يدري ما يقول، فاتهمني بأنني بعت أسرار الشفرة. وأخذت أضحك، ثم سألته في لهجة ساخرة عما إذا كان يظن أن في "**البندقية**" بأسرها مغفلا واحدا يرضى بأن يدفع "**ايكو**" واحدا من أجلها. وجعله هذا الجواب يستشيط حنقا، فهم بأن يدعو أتباعه لكي يلقوا بي من النافذة، كما قال. وكنت حتى تلك اللحظة محتفظا بهدوئي، ولكني إزاء هذا التهديد – وجدت أن الغضب والعزة قد تملكاني بدوري، فاندفعت إلى الباب، وبعد أن دفعت المزلاج الذي يوصده من الداخل، عدت إليه وقلت في لهجة رهيبة: "لا ياسيدي الكونت، لن يتدخل أتباعك في هذه المسألة، فتكرم بتسويتها فيما بيننا!". وهدأ تصرفي ومظهري من سورته في الحال، وتجلت الدهشة والروع على أساريره. فلما رأيته قد تخلى عن هياجه، ودعته بكلمات موجزة، ثم ذهبت – دون أن أنتظر منه جوابا – ففتحت الباب، وخرجت، فاجتزت الحجرة الملحقة بمكتبه في ثبات، وسط أتباعه الذين نهضوا كعادتهم، والذين أعتقد أنهم كانوا أكثر استعدادا لمناصرتي منهم لمناصرته. وبدون أن أعود إلى غرفتي. هبطت السلم، وغادرت القصر، فلم أدخله بعد ذلك قط!

*****

وذهبت لفوري إلى السيد "**لوبلون**"، لأنبئه بما حدث، فلم يبد دهشه كثيرة، إذ كان يعرف الرجل، وإنما استبقاني للغداء. وكان هذا الغداء - برغم التعجل في إعداده - بهيجا، وقد حضره كل الفرنسيين ذوي المكانة، الذين كانوا في "**البندقية**".

ولم يكن بينهم فرد واحد في صف السفير، فقد روى القنصل حكايتي على الجماعة، وما إن ألموا بها حتى صاحوا جميعا في وقت واحد، ولكن في غير صالح صاحب السعادة. ولم يكن هذا قد سوى حسابي، ولا أعطاني "**سو**" واحدا. ولما كانت كل مواردي لا تتجاوز بضع قطع من فئة "**اللوي**"، فقد وجدتني في حيرة من أمر سفري. وإذا بكل الجيوب تتفتح لي، فأخذت عشرين "سيكان" من السيد "**لوبلون**"، ومثلها من السيد دي "**سان سير**"، الذي كنت وثيق الصلة به، وكان يلي القنصل في المكانة من قلبي. ثم شكرت الباقين، وبقيت - إلى أن قدر لي الرحيل - مقيما لدى رئيس ديوان القنصلية؛ لكي أثبت للرأي العام أن الأمة لم تكن مشتركة في مظالم السفير. ولقد أهاج هذا أن رآني موضع تكريم في محنتي، بينما كان هو - برغم مركزه كسفير - منبوذا، ففقد عقله تماما، وأخذ يتصرف كالمخبول. وبلغ من غفلته أن قدم إلى مجلس الشيوخ مذكرة لاعتقالي. فلما أنبأني بذلك الراهب دي "**بيني**"، قررت أن أبقى أسبوعين آخرين، بدلا من أن أبادر إلى الرحيل في اليوم التالي، كما كنت أعتزم. وقد درس تصرفي فلقي إقرارا، كما غدوت موضع تقدير عام. ولم تتنازل الرئاسة حتى بالرد على مذكرة السفير الرعناء، كما أنبأتني - عن طريق القنصل - بأن لي أن أبقى في "**البندقية**" ما شئت، دون أن أزعج نفسي بتصرفات رجل أحمق!. ومن ثم واصلت زياراتي لأصدقائي، وذهبت لأودع السفير " **الإسباني**" -الذي أحسن استقبالي - والكونت دي "**فينوكييتي**"، وزير "**نابلي**"، الذي لم أجده، فكتبت إليه وإذا به يرد بخطاب من ألطف الخطابات. وما لبثت أن رحلت - في النهاية - غير مخلف ورائي أية ديون، برغم ضائقتي، سوى القرضين اللذين ذكرتهما من قبل، وسوى خمسين "**ايكو**" كنت مدينا بها لتاجر يدعى "**موراندي**"، وقد تكفل "**كاريو**" بدفعها إليه، وإن لم أردها إليه قط، بالرغم من أننا تقابلنا كثيرا بعد ذلك الحين. أما القرضان اللذان تحدثت عنهما، فقد سددتهما كاملين بمجرد أن تيسر لي ذلك.

*****

ولا يجوز أن نترك "**البندقية**" دون كلمة عن ملاهي هذه المدينة الشهيرة، أو على الأقل - عن القسط الضئيل منها، الذي قدر لي أن أنعم به أثناء مقامي هناك. ولقد رويت كيف أنني - في شبابي - كنت مقلا في السعي إلى ملذات هذه المرحلة من السن، أو - على الأقل - المتع التي توصف بأنها ملذات.

ولم أغير من مسلكي هذا في "**البندقية**"، ولكن مشاغلي - التي كانت كفيلة بأن تمنعني من أي تغير - جعلت أسباب التسلية البسيطة، التي كنت أستبيحها، أكثر إمتاعا. وكانت أولى هذه الأسباب وألطفها هي مصاحبة الأكفاء من الناس: السادة "**لوبلون**"، ودي "**سان سير**"، و"**كاريو**"، و"**ألتونا**"، وسيد "**فورلاني**" (١) نسيت - لشدة أسفي - اسمه، ولكني لا أستطيع أن أذكر لطفه دون أن تتأثر نفسي. ولقد أوتي - دون كل من عرفت من الرجال - أقرب القلوب شبها بقلبي. ولقد ارتبطنا كذلك باثنين أو ثلاثة من الإنجليز، واسعي الذكاء والمعرفة، مشغوفين مثلنا بالموسيقى. وكانت

---

(١) الفورلان اسم يطلق على أبناء منطقة "فريول"، التي يقع جزء منها - الآن - في "النمسا"، وجزء آخر في "إيطاليا". وهناك رقصة باسم "فورلان".

لهؤلاء السادة جميعا زوجات، أو صديقات، أو عشيقات. وكن جميعا - تقريبا - نساء موهوبات، تعزف الموسيقى ويدور الرقص في بيوتهن. وكان لعب الميسر يدور هناك أيضا، ولكن في القليل النادر، إذ إن ميولنا النزاعة، ومواهبنا، وشغفنا بالمسرح، جعلت هذه التسلية - الميسر - عقيمة، فالمقامرة ليست تسلية إلا لأولئك الذين يستبد بهم الضجر!.. وكنت قد حملت معي من "**باريس**"، التحامل الذي خلقه الشعور القومي ضد الموسيقى الإيطالية، ولكنني كنت قد أوتيت من الطبيعة ذلك الإدراك المرهف الذي لا يمكن لمثل هذا التحامل أن يصمد أمامها. فسرعان ما سرى إلى نفسي ذلك الشغف الذي توحيه الموسيقى الإيطالية إلى أولئك الذين يملكون القدرة على الحكم الصحيح بصددها. وإذ سمعت "**الباركارول**" (١) تبينت أنني لم أسمع قبل ذلك غناء!..

وسرعان ما أولعت بالأوبرا ولعا جنونيا، حتى إنني كنت حين أضيق بالثرثرة، والأكل واللعب في المقصورات - في الوقت الذي لم أكن أهفو فيه إلا إلى الإنصات - أتسلل في كثير من الأحيان من رفاقي؛ لأذهب إلى ناحية أخرى من الدار. وهناك كنت أجلس وحيدا في مقصورة مغلقة، وأسلم نفسي للذة الاستمتاع بالأداء، برغم طوله، دون أن يزعجني شيء، حتى نهاية السهرة. وفي ذات يوم، استسلمت للنوم - في مسرح "**سان كريزوستوم**" - فاستغرقت فيه بدرجة لم أنعم بها قط في فراشي، ولم تقو الألحان الصاخبة، الرائعة، على إيقاظي، ولكن.. من لي بمن يصف الشعور العذب الذي أحدثه في نفسي النغم الناعم والغناء الملائكي اللذان أيقظاني!.. وأية يقظة، وأي استغراق، وأية نشوة تلك التي استشعرتها حين فتحت أذني وعيني في آن واحد!.. كانت أول فكرة واتتني هي أنني كنت في الفردوس!.. كانت تلك المقطوعة الرائعة، التي لا أزال أذكرها، والتي لن أنساها ما حييت، تبدأ هكذا:

"استحوذت علي الجميلة.. التي أثارت أعماقي (٢). ورغبت في أن أحصل على لحن هذه القطعة، وقد ظفرت به، واحتفظت به زمنا طويلا، ولكنه لم يكن على الورق في روعته التي كان بها في ذاكرتي.. كانت الأنغام واحدة، ومع ذلك فإن اللحن لم يكن واحدا.. لم يكن من سبيل إلى أداء اللحن بالروعة السماوية التي كان يتردد بها في رأسي، والتي كان يؤدى بها في الواقع عندما أيقظني!

أما الموسيقى التي تعتبر - في رأيي - أسمى من موسيقى الأوبرا، والتي لا مثيل لها في "**إيطاليا**" أو في بقية العالم، فهي موسيقى "**الأسكوله**".. و"**الأسكوله**" بيوت خيرية أنشئت لتعليم الفتيات الصغيرات اللائي لا موارد لهن، واللائي تعهدهن الجمهورية بعد ذلك، إما للزواج، وإما للالتحاق بالأديرة.

وللموسيقى المكانة الأولى بين المواهب التي تنمى في هؤلاء الفتيات الصغيرات. ففي يوم الأحد من كل أسبوع، وفي كنيسة كل من هذه "**الأسكولات**" الأربع، تؤدى خلال قداسات الغروب مقطوعات (٣) يشترك فيها عدد كبير من المنشدات وعدد كبير من العازفات، ويقوم بتأليفها وتلحينها وإدارة أدائها أكبر الموسيقيين الإيطاليين.. وهي تؤدى في المقصورات ذات الحواجز المصنوعة من الخشب المتشابك (المعشق كجدران المنابر). ويقتصر أداؤها على الفتيات اللائي لا تبلغ أكبر واحدة منهن العشرين من عمرها.. وليس بوسعي أن أتصور شيئا ألذ، وأعذب، وأكثر تأثيرا في النفس من هذه الموسيقى. فإن دسامة الفن، وعذوبة الغناء، وجمال الأصوات، ودقة الأداء.. كل ما في هذه الحفلات الموسيقية البهيجة، يساهم في خلق انطباع لا ينسب قطعا إلى "جودة الأسلوب"،

---

(١) اغاني نوتية الجندول. (٢) Conservami la bella che si m'mccebde il con. (٣) المقطوعات المقصودة "MOtets" وهي مقطوعات موسيقية غنائية دينية، تنظم من التعاليم اللاتينية الخاصة بالطقوس الدينية.

ولكنني أرتاب في أن ثمة قلبا بشريا في مناعة منه!.. ولم يتخل "**كاريو**" وإياي قط عن حضور هذه القداسات في كنيسة "**المنديكتاني**"، ولم نكن الوحيدين في ذلك، فقد كانت الكنيسة دائما تغص بالهواة.. بل إن ممثلي الأوبرا أنفسهم كانوا يذهبون لينموا ذوقهم الغنائي مسترشدين بهذه النماذج الرائعة. وكان الشيء الذي يدفعني إلى القنوط، يتمثل في تلك الجدران الخشبية اللعينة، التي لم تكن تسمح بمرور شيء سوى الأصوات، والتي كانت تحجب عني الملائكة اللائي قد أوتين – ولابد – جمالا يليق بهذه الأصوات!.. ولم يكن لي من حديث إلا عن هذا الموضوع، وقد تحدثت فيه يوما، في دار السيد "**لوبلون**"، فقال: ":إذا كنت شديد الشوق إلى أن ترى هؤلاء الفتيات الصغيرات، فمن السهل إرضاء شوقك. فإنني من المشرفين على المؤسسة، وكم أود أن أدعوك إلى وجبة خفيفة (١) معهن!".

ولم أتركه يرتاح حتى بر بوعده. وإذ دخلت القاعة التي ضمت هؤلاء الجميلات اللائي طال شوقي إليهن. استشعرت رجفة عاشقة لم أعهدها من قبل. وقدم السيد "**لوبلون**" إلي هؤلاء المغنيات الشهيرات، اللائي كانت أسماؤهن وأصواتهن هي كل ما عرفته عنهن: "تعالي يا"**صوفي**"!".. إنها بشعة الخلقة!.. "تعالي يا"**كاتينا**"!".. إنها ذات عين واحدة!.. "تعالي يا "**بتينا!**".. كان الجدري يشوه وجهها!.. لم تكد توجد بينهن واحدة تخلو من عيب ظاهر.. وضحك القاسي من المفاجأة العنيفة التي صادفتني.. على أنه كانت بينهن اثنتان أو ثلاث يبدون مقبولات الشكل!.. ولم يكن يتقن الغناء إلا مجتمعات "في كورس"، فتولاني الأسى. وفي أثناء الوجبة الخفيفة، رحنا نداعبهن فإذا المرح يفيض بهن، وإذا الدمامة لا تخلو من بعض آيات البهاء التي تبينت وجودها فيهن.

فقلت لنفسي: ما كن ليقوين على مثل هذا الغناء الرائع، ما لم يكن قد أوتين أرواحا سامية.. وكن كذلك فعلا. وأخيرا، تغير رأيي فيهن إلى درجة أنني انصرفت وأنا شبه متيم بهؤلاء الدميمات!.. وجرؤت – في عناء – على العودة إلى حضور قداسهن، وقد تبينت ما طمأنني. وقد ظللت أجد غناءهن عذبا، وأرى أن أصواتهن كانت تضفي على وجوههن بهاء، حتى إنني كنت أصر – ما دمت أسمع غناءهن – على أن أتصورهن جميلات، بالرغم مما كانت تصر عليه عيناي!

والموسيقى – في "**إيطاليا**" – لا تكاد تتكلف شيئا يذكر، ومن ثم فإن حرمان النفس منها – إذا كان لدى المرء ميل إليها – لا يكاد يستحق العناء الذي يبذل في سبيل ذلك. وقد استأجرت معزفا، وكنت في مقابل "**ايكو**" واحد، أستقدم إلى داري أربعة أو خمسة من عازفي الموسيقى الغنائية، أتدرب معهم – مرة في الأسبوع – على عزف القطع التي تكون قد استأثرت بأعظم قدر من إعجابي في "الأوبرا". وكنت أجرب كذلك عزف بعض الألحان الغنائية التي ضمتها "عرائس الشعر اللطاف" (٢) ولقد سألني أستاذ الموسيقى الإيقاعية في "**سان جان كريسوستوم**" قطعتين منهما – إما لأنه أعجب بهما حقا، وإما لأنه أراد أن يتملقني – فسرني أن أسمعهما تؤديان على أيدي فرقته الرائعة، وأن تؤدي رقصاتهما الصغيرة "**بتينا**".. وهي فتاة جميلة، لطيفة كان يرعاها "**إسباني**" من أصدقائها، يدعى "**فاجواجا**"، كثيرا ما قضينا السهرات في داره.

*****

أما عن النساء، فليس لرجل أن يعرض عنهن في مدينة كـ"**البندقية**"!.. وقد يقال لي: "أليس لديك ما تعترف به في هذا الصدد؟".. بلى فإن لدي ما يقال فعلا، وإنني لمقدم على هذا الاعتراف

---

(١) Gouter "تصبيرة" أو وجبة خفيفة بين الغداء والعشاء. (٢) "الأوبرا" التي كان "روسو" قد ألفها في "باريس".

بنفس الصراحة التي فإن لدي اتبعتها في كل اعترافاتي الأخرى.. ولقد كنت دائما أنفر من البغايا، بيد أنه لم يكن لدي سواهن في "**البندقية**"؛ إذ كان محرما عليّ و"**لوج**" معظم البيوت في المدينة، من جراء منصبي. ولقد كانت فتيات السيد "**لوبلون**" جد لطيفات، ولكن التقرب إليهن كان أمرا عسيرا، كما أن احترامي لأبيهن وأمهن كان أعظم من أن يسول لي مجرد التفكير في اشتهائهن!

ولقد كنت خليقا بأن أميل كل الميل إلى شابة تدعى الآنسة دي "**كاتاليو**"، كانت ابنة مندوب ملك "**بروسيا**". ولكن "**كاريو**" كان يهواها، حتى إنه كان يسعى إلى الزواج منها.. ولقد كان ميسور الحال، في حين أنني لم أكن أملك شيئا.. كان مرتبه مائة "**لوي**"، أما أنا فلم أكن أتقاضى سوى مائة "**بيستول**". وبغض النظر عن أنني ما كنت لأستبيح أن أسطو على صيد صديقي، فإنني كنت أدرك أن ليس لرجل خالي الوفاض أن يقدم على التقرب إلى الحسان، أينما يكن.. ولو كن في "**البندقية**"!.. ولم أكن قد فقدت عادتي المشؤومة، وأعني بها استبدال الحاجات التي أصبو إليها. ولما كنت جد مشغول إلى درجة لا تدع لي سبيلا إلى الشعور الملح بالحاجات التي يخلقها الجو المحيط بي، فإنني عشت في هذه المدينة عاما تقريبا، وأنا محتفظ بما كان لي - في "**باريس**" - من طهر وحكمة.. كما تركتها بعد ثمانية عشر شهرا، دون أن أقرب الجنس اللطيف فيما عدا مرتين، وبسبب المناسبتين غير العاديتين اللتين سأذكرهما فيما يلي:

ولقد أتاح لي أولهما السيد الشريف "**فيتالي**" (١)، بعد انقضاء فترة على الاعتذار الذي أجبرته على أن يقدمه لي في أكمل صيغة رسمية. فقد دار الحديث حول المائدة عن ملاهي "**البندقية**"، فأخذ السادة يعتبون علي عدم اكتراثي بأشد هذه الملاهي حرارة، ويطنبون في إطراء رقة الغواني البندقيات، قائلين أن ليس في العالم من يضارعهن. وقال "**دومينيك**" إنني خليق بأن أتعرف إلى أبدعهن طرا، وأنه يرجو أن يقدمني إليها، وأنني سأطرب لمعرفتها. وانطلقت أضحك لهذا الاقتراح المحرج، فإذا بالكونت "**بياتي**" - وكان كهلا وقورا - يقول في صراحة لم أكن أتوقعها من إيطالي، إنه يؤمن بأنني أعقل من أن أدع عدوي يقودني إلى دار غانية. والواقع أنني لم أستشعر ميلا، ولا تأثرت بإغراء، ولكنني انتهيت بالرغم من ذلك - وبدافع من إحدى النزوات المتناقضة التي لم أكن أملك أن أفهمها - إلى أن تركت عدوي يقودني، على النقيض من إملاء ميولي، وقلبي، وعقلي، بل وإرادتي.. كنت منساقا لمجرد الضعف والخجل من إبداء عدم الثقة به، ولقد كانت "**البادوانا**" (٢) التي ذهبا إليها ذات وجه لا بأس بحسنه، بل إنه كان جميلا، ولكن جماله لم يكن من الطراز الذي يروق لي.

وتركني "**دومينيك**" في دارها، فأرسلت في طلب بعض المثلجات "آيس كريم"، وسألتها أن تغني لي، ثم تهيأت - بعد نصف ساعة - للانصراف، تاركا على المنضدة "**دوكا**" (٣)، ولكنها في عزة نفس غريبة - أبت إطلاقا أن تقبل المبلغ دون أن تكون قد أدت ما يقابله.. وفي غباء - لا يقل غرابة - أرضيت عزة نفسها!.. وعدت إلى القصر وأنا موقن من أنني أصبت بمرض خبيث، حتى إن أول ما فعلت هو أن أرسلت في طلب طبيب، لأطلب منه بعض الأدوية. وليس ثمة ما يعادل الغم الذي عانيته طوال ثلاثة أشهر، دون ما علة حقيقية، ودون ظهور أية علامة تبرزه. فما كنت لأتصور أن من الممكن مغادرة أحضان غانية دون ما ضرر!.. بل إن الطبيب نفسه تجشم كل عناء يمكن تصوره، لكي يطمئنني، فلم يوفق إلا إلى إقناعي بأنني كنت مخلوقا على نمط خاص، لا يجعلني أصاب بالعدوى بسهولة. ومع أنني قد أكون أقل من أي رجل آخر تعرضا لهذا الخطر، إلا أن عدم تأثر صحتي ألبتة من هذه الناحية بالذات، يبدو لي دليلا على أن الطبيب كان مصيبا!.. على أن هذا الرأي لم يجعلني

---

(١) واضح أن "روسو" يسخر من "فيتالي" إذ يصفه بأنه شريف. (٢) الغانية. (٣) عملة ذهبية كانت قيمتها تتراوح بين ١٠ و١٢ فرنكا.

متهورا قط، وإذا كنت قد أوتيت فعلا هذه الميزة الطبيعية، فإن في وسعي أن أقول: إنني لم أسيء استغلالها!

*****

أما مغامرتي الأخرى، فمع أنها كانت مع غانية كذلك، إلا أنها كانت من نوع جد مختلف، سواء في أصلها أو في نتائجها.

فلقد ذكرت أن الكابتن "**أوليفييه**" - الربان - قد دعاني إلى الغداء على ظهر سفينة، وأنني اصطحبت سكرتير السفارة "**الإسبانية**". وكنت أتوقع أن تحيينا المدافع، فإذا البحارة يستقبلوننا مصطفين، ولكن قطعة واحدة من الذخيرة لم تطلق، مما غاظني كثيرا، بسبب "**كاريو**"، الذي رأيته مستاء. والواقع أن التحية بطلقات المدافع - على السفن التجارية - كانت تؤدى لأناس لا يعادلوننا مقاما بالتأكيد، كما أنني كنت إخالني جديرا بشيء من التمييز من الربان. ولم أستطع أن أخفي ما كان بنفسي، فقد كان ذلك أمرا مستحيلا دائما. ومع أن الغداء كان بديعا، وقد أدار "**أوليفييه**" الأنخاب في إكرام رائع، فإنني بدأت المأدبة وأنا منحرف المزاج؛ ومن ثم فقد أكلت قليلا وتكلمت أقل!

وعند احتساء النخب الأول، توقعت تصفيقا على الأقل، ولكن شيئا من هذا لم يحدث.. وضحك "**كاريو**" - الذي قرأ ما في خاطري - إذ رآني أغمغم كالطفل. وفي ثلث الغداء، رأيت جندولا يقترب، وإذا الربان يقول لي: "لعمري!.. خذ حذرك ياسيدي فها هو ذا العدو!" فسألته عم كان يعني، وإذ ذاك أجاب بدعابة. ورسا الجندول بجوار السفينة، فرأيت فتاة باهرة الجمال، بالغة الرشاقة، في ثياب مغرية، تغادره.. وفي ثلاث قفزات كانت في الغرفة. ورأيتها تستقر إلى جواري، قبل أن أفطن إلى أن ثمة مكانا قد أعد لها!.. وكانت فاتنة بقدر ما كانت رشيقة.. سمراء في العشرين من عمرها، على الأكثر!.. ولم تكن تتكلم بغير اللغة الإيطالية، وكانت لهجتها وحدها كافية لأن تدير رأسي. وفيما كانت تأكل وتتكلم، أخذت ترمقني، ثم تفرست في لحظة، وما لبثت أن صاحت: "ياللعذراء الطيبة!.. آه! ما أطول الوقت الذي انقضى يا عزيزي "**بريمون**" دون أن أراك!".. وارتمت في أحضاني، والصقت فمها بفمي، واحتضنتني حتى كادت تزهق أنفاسي!..

وراحت عيناها الواسعتان السوداوان - على غرار العيون الشرقية - ترميان قلبي بشواظ من لهب. ومع أن المفاجأة أحدثت شيئا من الاضطراب في البداية، إلا أن غريزتي الشهوية سرعان ما تملكتني - بالرغم من الحضور - إلى درجة أن الفاتنة نفسها اضطرت إلى أن تكبح جماحي، إذ إنني ثملت، أو بالأحرى جننت!.. فلما رأتني قد بلغت الدرجة التي كانت ترجوها، خففت من عناقها، ولكنها لم تخفف من فورة عواطفها.. حتى إذا راق لها أن تبدي لنا السبب الحقيقي أو الزائف لهذا النزق قالت: لنا إنني كنت أشبه السيد دي "**بريمون**"، مدير جمرك "**توسكاني**"، إلى درجة يصعب معها التمييز بيننا.. وإنها كانت - ولا تزال - متيمة بهذا السيد دي "**بريمون**"، وإنها كانت قد هجرته لحماقتها.. وأنها قد اختارتني بديلا عنه، فشاءت أن تهواني؛ لأن هذا كان يروق لها، وأن من الواجب - للسبب ذاته! - أن أحبها، طالما ظل هذا يلائمها، فإذا ما هجرتني فجأة، وجب أن أحتملها صابرا، كما كان يفعل عزيزها "**بريمون**"!.. واستولت علي كما لو أنني كنت ملك يمينها، فعهدت إلي بقفازيها، ومروحتها، وحزامها، وقلنسوتها.. وراحت تأمرني بأن أذهب إلى وأدت هذه العلاقة إلى أن أصبحت

كل الملاهي الأخرى نفايات عقيمة، فلم أعد أغادر مسكني إلا لأذهب إلى "**تيريز**"، وبات مسكنها مقري تقريبا. ولقد صارت هذه الحياة المنعزلة عظيمة النفع لعملي، حتى إن "الأوبرا" التي كنت عاكفا على تاليفها، اكتملت – كلاما وموسيقى – في أقل من ثلاثة أشهر.

ولم تبق سوى بعض ألحان تكميلية، وبعض ألحان لتصحب المناظر. وقد ضايقني هذا كثيرا، فعرضت على "**فيليدور**" أن يتولاه في مقابل نصيب من الربح، فجاء مرتين، وأضاف بعض الحشو إلى الفصل الخاص بالشاعر "**أوفيد**"، ولكنه لم يستطع أن ينصرف إلى هذا العمل – الذي كان يتطلب مثابرة – في مقابل ربح بعيد وغير مضمون؛ ومن ثم فإنه لم يعد، وأكملت عملي بنفسي.

وإذا اكتملت "**أوبراي**"، آن لي أن أحصل من ورائها على بعض الدخل، وكان هذا – في حد ذاته – "أوبرا" أخرى، أشد عناء!.. فليس من سبيل إلى بلوغ غاية في "**باريس**" إذا كان المرء يعيش في عزلة. ولقد فكرت في أن أستعين بالسيد "**ديلابوبلينيير**"، الذي قدمني إليه "**جوفكور**" في داره، عند عودتي من "**جنيف**". وكان السيد "**ديلابوبلينيير**" هو نصير (١) "**رامو**"، إذ كانت السيدة "**ديلا بوبلينيير**" تلميذته هذا المتواضعة، المتفانية في الطاعة؛ ومن ثم فقد كان "**رامو**" هو المطر والصحو (٢) في هذا المنزل، كما ينبغي أن يقال!.. ولقد ظننت أنه قد يغتبط بأن يساند عملا من ابتكار أحد تلاميذه، فرغبت في أن أريه مؤلفي، ولكنه أبى أن يراه، قائلا إنه لم يكن يستطيع أن يقرأ مقطوعات، إذ إن هذا كان يتعبه كل التعب. وعقب "**لابوبلينيير**" على ذلك بأن في الوسع حمله على الإصغاء، وعرض أن يجمع موسيقيين لأداء بعض القطع، ولم أكن أرجو أفضل من هذا.. ووافق "**رامو**" وهو يزمجر، ودون أن يكف عن أن يردد أن الألحان التي يضعها رجل لم ينشأ في جو موسيقي، وإنما تعلم الموسيقى بنفسه دون ما عون، لابد وأن تكون شيئا بديعا!...

وأسرعت أنسخ أدوار خمس أو ست من أحسن المقطوعات، وتهيأ لي اثنا عشر من العازفين، بينما تولى الغناء "**ألبرت**"، و"**بيرا**"، والآنسة "**بوردونيه**". وما إن بدأ لحن الافتتاح، حتى رمى "**رامو**" – بإطنابه في المديح – إلى الإيحاء بأن اللحن ما كان ليمكن أن يكون من تاليفي. ولم يدع مقطوعة تمر دون أن يبدي أمارات التبرم، ونفاد الصبر. ولكنه لم يلبث أن عجز عن تمالك نفسه عند سماع أغنية بصوت "**كونترتينور**" – كان أداؤها قويا محكما، والموسيقى المصاحبة لها رائعة – فخاطبني في خشونة ذهل لها الجميع مستنكرين، وأعلن أن جزءا مما سمع كان من عمل رجل أفنى في الفن عمره، في حين أن الباقي من عمل جاهل لم يكن على إلمام بالموسيقى ذاتها!.. ومن الصحيح أن مؤلفي كان غير متناسق، وعلى غير قاعدة،؛ ومن ثم فقد كان رفيع القيمة في بعض أجزائه، وعقيما في بعض آخر، شأن العمل الذي يقوم به كل امرئ لا يرقى بنفسه إلا بمعونة بعض ومضات من العبقرية، دون ما سند من العلم. وزعم "**رامو**" أنه لم يكن يرى في شخصي سوى سارق صغير، لم يؤت أية موهبة ولا أي ذوق!.. ولكن العازفين، ورب الدار – بوجه خاص – لم يشاركوه رأيه. ولقد سمع السيد دي "**رشيليو**" – الذي كان يكثر إذ ذاك من زيارة رب الدار، والسيدة دي "**بوبلينيير**"، كما هو معروف – بحديث مؤلفي، فرغب في أن يسمع "الأوبرا" بأكملها، معتزما أن يعمل على عرضها في البلاط إذا راقت له. ومن ثم مثلت "الأوبرا" – بكامل ما كانت تتطلب من مغنين وموسيقيين – على نفقة الملك، في دار السيد "**بونيفال**"، الموكل بالحفلات الملكية. وقام "**فرانكير**" بالإخراج.. ولقد كانت النتيجة مدهشة، حتى إن السيد الدوق دي "**ريشيليو**" لم يكف عن الصياح والتصفيق. وفي نهاية

---

(١) النصير المقصود هنا، هو الرجل ذو الجاه والمال، الذي يرعى أديبا أو فنانا ويبذل له يد العون. (٢) تعبير فرنسي معناه أن يكون الشخص ذا حظوة ومكانة، بحيث يغضب أهل البيت لغضبه ويسرون لسروره. ويقابله في التعبير الدارج عندنا ما يقال من أن شخصا هو "الكل في الكل".

أغنية جماعية – في الفصل الخاص بـ"**تاس**" – نهض وجاءني فصافحني قائلا: "هذا هو اللحن الذي يشجي، ياسيد "**روسو**"!.. ما سمعت قط أجمل منه، وإني لأود أن أقدم هذه التحفة في "**فرساي**!". ولم تنبس السيدة دي "**بوبلينيير**" – التي كانت حاضرة – بكلمة واحدة. أما "**رامو**"، فبالرغم من أنه دعي، إلا أنه لم يشأ أن يحضر.

وفي اليوم التالي، استقبلتني السيدة "**بوبلينيير**" – في غرفة زينتها – استقبالا شديد الجفوة، وتعمدت أن تحط أمامي من شأن مؤلفي، وقالت لي: إنه بالرغم من أن بعض الوميض الزائف قد بهر السيد دي "**ريشيليو**"، إلا أنه قد ثاب إلى نفسه، ونصحتني بألا أعول كثيرا على أوبراي!.. وأقبل السيد الدوق بعد قليل، فتحدث إلي بلهجة تخالف ذلك تماما، إذ أطرى مواهبي، وبدا مصرا على أن يعمل على عرض مؤلفي على مشهد من الملك. وقال: ليس هناك ما لا يمكن إجازته في البلاط، سوى الفصل الخاص بـ"**تاس**"، فعليك أن تكتب فصلا غيره!". وكانت هذه العبارة وحدها حافزا دفعني إلى أن أذهب إلى داري، فأحتبس نفسي. وفي غضون ثلاثة أسابيع، استطعت أن أضع فصلا يحل محل فصل "**تاس**"، وكان موضوعه "**هيسيود**" (١) يتلقى الإلهام من إحدى عرائس خياله".

واهتديت إلى طريقة خفية مكنتني من أن أدس في هذا الفصل قسطا من تاريخ مواهبي وقصة الغيرة التي راق لـ"**رامو**" أن يكرم بها هذه المواهب. ولقد كان في هذا الفصل الجديد سمو أقل جبروتا، وأكثر تمسكا وإحكاما مما كان في الفصل الذي كان يدور حول "**تاس**". وكذلك كانت الموسيقى أروع وأرقى، ولو أن الفصلين الآخرين كانا معادلين لهذا، لقدر للأوبرا أن تعرض بنجاح. بيد أن مشروعا آخر عرض لي – فيما كنت أقوم بصقل الفصل وتنقيحه – فارجات أداء هذه المسرحية!

من سنة ١٧٤٥ إلى سنة ١٧٤٧

أقيمت في "**فرساي**" – في الشتاء الذي أعقب معركة "**دي فونتينو**" – حفلات كثيرة، كان بينها عدة أوبرات عرضت في مسرح الـ"**بيتيت إيكوري**". وكان بين هذه مسرحية "**فولتير**"، التي كانت تحمل اسم "**أميرة نافار**"، والتي نظم "**رامو**" موسيقاها. وقد عدلت وبدل اسمها إلى "أعياد رامير". وقد تطلب تغيير الموضوع عدة تحويرات في الأغاني والرقصات التي كانت في "الدراما" السابقة، سواء من حيث التركيب الشعري، أو التركيب الموسيقي. واستدعى هذا البحث عن شخص يؤدي هذه الغاية المزدوجة، إذ إن "**فولتير**" كان – إذ ذاك – في "**اللورين**"، وكذلك كان "**رامو**". وكانا منهمكين معا في أوبرا "معبد المجد" (٢)، فلم يكن في وسعهما أن يعنيا بالتحويرات المنشودة. ومن ثم فإن السيد دي "**ريشيليو**" تذكرني، وعرض علي أن أقوم بالمهمة.. ولكي أحسن تبين ما ينبغي عمله، أرسل إلي كلا من الشعر والموسيقى على حدة. ولم أشأ – قبل كل شيء – أن أمس ألفاظ المسرحية دون موافقة المؤلف، فكتبت إليه في هذا الصدد، رسالة جد أمينة ومحترمة – في الوقت ذاته – وفقا لما كان يتطلبه الظرف. وها هو ذا رده، الذي يوجد الأصل الخطي له، في ملف الأوراق "أ"، رقم (١):

"١٥ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٧٤٥

"إنك لتجمع ياسيدي بين موهبتين كانتا – حتى اليوم – منفصلتين دائما. وهما سببان كافيان

---

(١) "هيسيود": كان شاعرا إغريقيا تناول الحياة بالبحث والتحليل، محاولا أن يضع دستورا أخلاقيا يكفل المحبة والسلام. وقد قدم "كتابي" – في العدد ٥٥ – سيرته وملخصا لأعظم رسالاته: "الأيام والأعمال".

(٢) Temple de Gloire.

لحملي على أن أقدرك وأن أسعى إلى أن أحبك. وإنني لفي هم من أجلك، إذ تستخدم هاتين الموهبتين في عمل غير جدير بهما كل الجدارة. فمنذ بضعة أشهر، طلب إلي السيد الدوق دي "**ريشيليو**" - طلبا جازما - أن أعد، في لمح البصر، مسودة صغيرة غير دقيقة، لبضعة مناظر تافهة وناقصة، تتمشى مع أغان ورقصات لا تلائمها إطلاقا. وقد صدعت برغبته بحذافيرها، ورحت أعمل في سرعة فائقة، ودون ما إجادة. ثم أرسلت هذه المسودة التعسة إلى السيد الدوق دي "**ريشيليو**"، وأنا موقن من أنه لن يستخدمها، ومن أنني لن أضطر إلى تصحيحها. ولحسن الحظ أنها بين يديك، فلك أن تفعل بها كل ما تشاء، إذ إنني قد أقصيتها تماما عن ذهني. ولست أشك في أنك ستفتح كل الأخطاء. التي لابد من أن تكون قد أفلتت مني في تعجل تأليف التصميم البسيط، وأنك قد ملأت كل نقص!

"وإني لأذكر أن من السهوات التي تنم عن طيش، أنني نسيت أن أوضح في هذه المناظر - التي تربط بين الأغاني والرقصات - كيف تنتقل الأميرة فجأة من سجن إلى حديقة أو قصر. وإذ لم يكن الشخص الذي أقام الحفلات لتكريمها ساحرا، وإنما كان سيدا إسبانيا، لذلك يبدو لي أنه لا ينبغي أن ندع للسحر مجالا. فأرجو أن تتكرم ياسيدي بإعادة النظر في هذا الجزء، الذي لا أحتفظ له بأكثر من فكرة مهتزة. وانظر ما إذا كان من الضروري أن تفتح أبواب السجن، وأن تنقل أميرتنا من هذا السجن إلى قصر جميل مذهب ومصقول، يعد من أجلها.. إنني لأعرف تمام المعرفة أن الأمر كله معاب للغاية، وأنه ليس مما يليق بأي كائن مفكر أن يحمل هذه التفاهات على محمل الجد، ولكن.. بما أن علينا ألا نسبب من الأشياء إلا أقل ما يستطاع، فمن الواجب أن نبذل من العقل قدر المستطاع ولو كان ذلك في أوبرا غنائية راقصة رديئة.

"إنني أدع لك وللسيد "**بالو**" كل شيء، وأعتقد أنني لن ألبث أن أتشرف بأن أقدم لك آيات شكري عما قريب، وبأن أؤكد لك ياسيدي، إلى أي مدى يشرفني أن أكون... إلخ".

ولا يعجبن المرء لما في هذا الخطاب من أدب جم - إذا قيس بخطابات "**فولتير**" نصف المهذبة التي كتبها لي بعد ذلك الحين - فقد كان يظنني ذا مكانة كبيرة لدى السيد "**دي ريشيليو**"، فحمله الرياء المرن على أن يبدي كثيرا من الاعتبار للوافد الجديد على البلاط، ريثما يزداد معرفة بمدى مكانته!

*****

وإذ حصلت من السيد دي "**فولتير**" هذا السلطان، وأعفيت من كل اعتبار لـ"**راموا**" - الذي لم يكن له من هدف سوى الإساءة إلي - فإنني عكفت على العمل - ولم ينقض شهران حتى كانت مهمتي قد أنجزت. ولم يكن الشعر سوى مهمة بسيطة، إذ كان همي الأوحد هو أن أتفادى أن يكون تباين الأسلوب ملحوظا، ومن حقي أن أعتقد أنني قد وفقت. أما مهمتي - في الناحية الموسيقية - فقد تطلبت مزيدا من الوقت والجهد، فضلا عن أنني اضطررت إلى أن أؤلف عدة قطع للمقدمات، منها اللحن الافتتاحي، وكل ألحان الإلقاء الغنائي (١) التي تكلفت بها فوجدتها بالغة الصعوبة، إذ كنت مضطرا إلى أن أربط نغمات سيمفونية وصوتية متباينة الطبقات، بقليل من السطور - في كثير من الأحيان - وبواسطة أنغام سريعة جدا، ذلك لأنني عقدت عزمي على ألا أغير أو أعدل لحنا واحدا، حتى لا يتهمني "**رامو**" بإفساد ألحانه الأصلية. ولقد وفقت في هذا الإلقاء الغنائي. فكانت النبرات واضحة، مليئة بالقوة، رائعة في تناسق نغماتها، بوجه خاص. ولقد أدى التفكير في هذين العملين العظيمين اللذين حظيت بشرف الاشتراك معهما - على هذا النحو - إلى رفع روحي المعنوية،

---

(١) العبارات التي تلقى بالغناء، دون أن تكون شعرا موزونا.

وبوسعي أن أقول إنني في هذا العمل الذي لم يكن لي من ورائه حمد ولا مجد، والذي لم يكن مقدورا للرأي العام ذاته أن يعلم بفضلي فيه – حافظت دائما على مثلي ومستواي!

ولقد أجريت التجارب على المسرحية – بالشكل الذي نقحتها إليه – في مسرح "الأوبرا" الكبير. ووجدتني الوحيد الحاضر من المؤلفين الثلاثة. فقد كان "**فولتير**" متغيبا، في حين أن "**رامو**" لم يحضر، أو لعله تعمد أن يتوارى. وكانت كلمات المناجاة (١) الأولى مفعمة بالأسى وهذا مطلعها:

"ألا أيها الموت تعال، فاختم تعاسات حياتي!".

وكنت مضطرا إلى أن أضع موسيقى تتمشى معها، ومع ذلك فإن هذه الفاتحة هي التي خصتها السيدة "**ديلا بوبلينيير**" بنقدها، إذ اتهمتني – في تحامل – بأنني وضعت لحنا جنائزيا. وبدأ السيد "**دي ريشيليو**" بأن يسأل – في إنصاف – عمن كتب كلمات المناجاة، فاطلعته على المخطوط الذي كان قد أرسله إلي، والذي أثبت أنها من وضع "**فولتير**". فقال: "إن المخطئ – في هذه الحال – هو "**فولتير**" وحده". وظل كل ما فعلت معرضا – خلال التجربة – لاستهجان السيدة "**ديلا بوبلينيير**"، ولإنصاف السيد "**دي ريشيليو**". على أنني ما لبثت أن تبينت أن التحامل كان شديد الوطأة، فقد أشير علي بتنقيح عدة أشياء في مؤلفي، كان لابد من استشارة السيد "**رامو**" بشأنها. وأكربني أن تكون هذه هي النتيجة، بدلا من الإطراء الذي كنت أرتقبه، والذي كنت جديرا به يقينا. فعدت إلى بيتي بقلب مثقل.. وسقطت مريضا، وقد هدني الإعياء، وراح الأسى ينهشني.. وظللت ستة أسابيع لا أقوى على الخروج!

وأرسل "**راموا**" – الذي وكلت إليه التعديلات التي أشارت إليها السيدة "**ديلا بوبلينييرا**" – يطلب إلي افتتاحية "أوبراي" الكبرى، ليضعها في مكان تلك التي وضعتها. وفطنت – لحسن الحظ – إلى الحيلة، فرفضت. ولم يكن قد بقي على موعد تقديم المسرحية الأخرى أكثر من خمسة أيام أو ستة، فلم يكن لديه وقت لتأليف افتتاحية، واضطر إلى أن يترك تلك التي كنت قد وضعتها من قبل.. وكانت على النسق الإيطالي، ومن نوع كان جديدا تمام الجدة على "**فرنسا**"، في ذلك الوقت. ومع ذلك فإنه لقي استساغة، وسمعت من السيد "**دي فالماليت**" – رئيس ديوان الملك، وزوج ابنة السيد "**موسار**"، وكان قريبا وصديقا لي – أن هواة الفن أبدوا كل الرضا عن مؤلفي، وأن الرأي العام لم يستطع أن يفرق بينه وبين إنتاج "**راموا**". غير أن هذا اتخذ من الإجراءات – بالتواطؤ مع السيدة "**ديلا بوبلينيير**" – ما يحول دون معرفته أنني قد ساهمت في تلك القطعة. فعلى الكتب (٢) التي توزع على النظارة، والتي تثبت فيها دائما أسماء المؤلفين، ولم يذكر سوى اسم "**فولتير**". وآثر "**رامو**" إغفال اسمه على أن يرى اسمي مقترنا به!

وما إن تمكنت من مغادرة داري، حتى رغبت في زيارة السيد "**دي ريشيليو**". ولكن الفرصة كانت قد فاتتني، إذ إنه كان قد رحل إلى "دنكرك"، حيث كان عليه أن يشرف على رحيل الحملة التي كانت موجهة إلى "**ايقوسيا**" "**أسكتلندا**". ولما عاد، قلت لنفسي – لأبرر كسلي – إن المناسبة قد انقضت. وبما أنني لم أعد أراه منذ ذلك الحين، فقد أضعت على نفسي التكريم الذي كان مؤلفي يستحقه.. التكريم الذي كان جديرا بأن يدره علي. ومن ثم فإن وقتي، وعملي، وحزني، ومرضي،

---

(١) المونولوج: وهو الحديث الفردي الذي يلقيه المرء لنفسه. (٢) يقصد الكتاب الذي يشتمل على برنامج الحفلة وموجز التمثيلية. ومما يذكر أن هذا الكتاب لم يحمل اسم مؤلف الحوار، ولا مؤلف الموسيقى.

وإنما أورد فقط اسم "لافال" مؤلف "الباليه". وقد عرضت التمثيلية في "فرساي" في ٢٢ ديسمبر سنة ١٧٤٥، أي بعد سبعة أيام فقط من اليوم الذي كتب فيه "فولتير" رسالته. وقد ذكر "روسو" – في الفقرة السابقة – أن "راموا" طلب افتتاحية "عرائس أحلام الشعراء" قبل هذا العرض بخمسة أيام، فكأنه أنجز التعديلات في حوالي يومين!

والنقود التي كلفتنيها.. كل هذا تكبدته دون أن يعود علي بـ"**سو**" واحد، بل ودون أي تعويض. ومع ذلك فقد اعتدت دائما أن أرى أن السيد "**دي ريشيليو**" كان ميالا بطبعه نحوي، وكان يحسن الظن بمواهبي، ولكن نحسي والسيدة "**ديلا بوبلينيير**" حالا دون كل نتيجة لحسن طويته!

وما استطعت قط أن أفهم سر كراهية هذه المرأة التي كنت أغصب نفسي على إرضائها، والتي اعتدت أن أثابر على أن أبدي لها مجاملتي. ولقد شرح لي "**جوفكور**" الأسباب، فقال: "هناك – أولا – صداقتها لـ"**رامو**"، الذي كان يحظى علنا برعايتها، والذي لم يكن يحتمل أية منافسة.. وفوق ذلك، كان ثمة ذنب جوهري يعيبك في نظرها، ولن تغتفره لك أبدا.. ذلك هو أنك "**جنيفي**!".. وهنا بين لي أن الراهب "**هوبير**" – الذي وفد هو الآخر من "**جنيف**"، والذي كان صديقا صدوقا للسيد "**ديلا بوبلينيير**" – كان قد بذل قصارى وسعه ليصده عن الزواج من هذه المرأة ،التي كان يعرفها تمام المعرفة، والتي حرصت – بعد الزواج – على أن تولي كل جنيفي كراهية لا سبيل إلى مغالبتها. وأردف "**جوفكور**" قائلا:

"ومع أن "**لابلوبلينيير**" يكن لك ودا – أنا موقن منه – إلا أنه ليس لك أن تعتمد على مؤازرته، فهو مدله في هوى زوجته، وهي تكرهك.. وإنها لخبيثة ماكرة.. ولن يكون لك شأن في هذا المنزل".

وأدركت ما كان يرمي إليه!

❊❊❊❊❊

ولقد أدى لي "**جوفكور**" هذا خدمة أخرى – حوالي ذلك الوقت – كنت في حاجة ماسة إليها. فلقد فقدت أبي الفاضل، وقد قارب الستين من عمره. ولم أشعر بقسوة هذا المصاب كما كنت خليقا بأن أحس بها في الماضي، عندما لم تكن الضائقات تشغل بالي بمثل ما كانت تشغله في هذه الآونة. إذ إنني لم أحاول قط – خلال حياته – أن أطالب ببقية تركة أمي التي كان يحصل دخلها البسيط. أما بعد موته، فلم يداخلني تردد بهذا الشأن، ولكن عدم توفر دليل قضائي على وفاة أخي، كان عقبة أخذ "**جوفكور**" على عاتقه عبء إزاحتها، وقد أزاحها فعلا بفضل مساعي المحامي "**دي لولم**". ولما كنت في حاجة ملحة إلى هذا المورد الضئيل، وكانت المسألة محوطة بالريب، فقد رحت أنتظر نبأ حاسما في صبر نافد وتلهف. وفي ذات مساء، وجدت، إذ عدت إلى مسكني – الرسالة التي كان منتظرا أن تشتمل على هذا النبأ، فتناولتها لأفضها، وأنا أرتجف في لهفة خجلت منها في سريرتي، وقلت لنفسي في ازدراء:

"وبعد ؟!.. أينساق "**جان جاك**" لسلطان المصلحة الخاصة والفضول إلى هذه الدرجة؟".. ووضعت لفوري الرسالة على رف المدفأة، ثم خلعت ثيابي، وأويت إلى فراشي في هدوء، فحظيت بنوم يفوق ما اعتدت.. ثم صحوت في اليوم التالي متأخرا، دون أن أعود إلى التفكير في الرسالة. وفيما كنت أرتدي ثيابي، لمحتها ففضضتها في غير تعجل، ووجدت فيها حوالة مالية – ولكن بوسعي أن أقسم إن أقواها جميعا كانت تلك التي نبهتني إلى انتصاري على نفسي. وأستطيع أن أذكر عشرين من أمثال هذه المناسبة في حياتي، ولكني لا أجد وقتا لكي أروي كل شيء. ولقد أرسلت قسطا بسيطا من هذه النقود إلى "**ماما**" وأنا أبكي حسرة على الأوقات السعيدة، التي كانت كل رسائلها توحي بضيقها. ولقد أرسلت لي أكواما من الوصفات والأسرار التي كانت تزعم أن بوسعي أن أجمع بها ثروة لي ولها.

ولقد كان مجرد التفكير في فاقتها يعصر قلبي، ويضيق أفق عقلي. وكان القليل - الذي اعتدت أن أرسله إليها - يقع في أيدي الأنذال الذين كانوا يحيطون بها، دون أن تنتفع بشيء منه. فجعلني هذا أكره أن أشرك هؤلاء التعساء فيما كانت تمس إليه حاجتي، لاسيما بعد المحاولات غير المجدية التي بذلتها لانتزاع "**ماما**" من قبضاتهم، مما سيرد ذكره فيما بعد.

وانساب الوقت، وانسابت النقود معه. وكنا اثنين، بل أربعة.. بل إننا كنا سبعة أو ثمانية، كما يحسن أن يقال.

ذلك لأنه بالرغم من أن "**تيريز**" كانت زاهدة في أية مصلحة شخصية، إلى درجة لا يكاد يكون لها مثيل، إلا أن أمها لم تكن على شاكلتها. فما إن رأت أحوالها تتحسن قليلا - بفضل رعايتي - حتى استدعت كل أسرتها لتشاطرها الغنيمة. فإذا بالأخوات، والأبناء، والبنات، والأحفاد يفدون جميعا، ماعدا ابنتها الكبرى، التي كانت متزوجة من مدير عربات النقل في "**أنجير**".. وأصبح كل ما أفعله من أجل "**تيريز**"، يتحول بفضل أمها إلى هؤلاء النهمين. ولما لم أكن جشعا، ولا كنت مستذلا لشهوة مستعرة، فإنني لم أرتكب أية حماقات. بل إنني في اغتباطي بأن أعول "**تيريز**" - في حياة لا بأس بها، خالية من الترف، ولكنها في وقاء من الحاجة - أقررتها على أن تسلم أمها كل ما كان بوسعها أن تكسبه من عملها. ولم أكن أقتصر على ذلك.. ولكنني استسلمت للقدر الذي كان يتعقبني.. ففي الوقت الذي كانت فيه "**ماما**" ضحية لأنذالها، كانت "**تيريز**" ضحية لأسرتها، ولم يكن بوسعي أن أقدم أي عون يعود بالنفع على تلك التي كانت أقصد نفعها في الحالتين. ولقد كان من العجيب أن صغرى بنات السيدة "**لوفاسير**" - وهي الوحيدة التي لم تحظ بصداق من أهلها - هي الوحيدة التي راحت تعول أباها وأمها.. وأن هذه المسكينة -، بعد أن ظلت طويلا تتلقى الصفعات من إخوتها وأخواتها، بل ومن أبناء هؤلاء - أصبحت فريسة لنهبهم، دون أن تملك لسرقاتهم دفعا يفوق ما كانت تملك من مقاومة لصفعاتهم من قبل. ولم يكن بين أبناء أخوتها سوى واحدة فقط، تدعى "**جوتون ليدوك**"، كانت على قدر من اللطف ورقة الطبع، برغم ما كان يفسدها من قدوة الآخرين ودروسهم.

ولما كنت كثيرا ما أراهم مجتمعين، فقد أصبحت أطلق عليهم ما يطلقه بعضهم على بعض من ألقاب، فأنا أنادي ابنة الأخ بـ يا ابنة أخي، والعمة بـ يا عمتي. وأصبح الفريقان يناديانني بـ يا عمي.. ومن هنا نشأ اسم "العمة" الذي أنادي به "**تيريز**" باستمرار، والذي يردده أصدقائي في بعض الأحيان، على سبيل المداعبة!

*****

ومن المعقول أنني لم أضيع لحظة واحدة - في مثل هذا الموقف - دون أن أحاول أن أنتزع نفسي منه، وإذ حدست أن السيد دي "**ريشيليو**" قد نسيني، ولم أعد آمل في شيء من ناحية البلاط، بذلت بضع محاولات لقبول تقديم أوبراي في "**باريس**". ولكنني صادفت عقبات كان تذليلها يتطلب وقتا، في حين أن حاجتي كانت تزداد شدة يوما بعد يوم. ولقد أشير علي بأن أقدم تمثيليتي الهزلية الصغيرة "**نارسيس**" على مسرح الإيطاليين "**أوزيتاليان**". فقبلت التمثيلية، وظفرت بالتردد على المسرح دون مقابل، مما سرني كثيرا. ولكن هذا كان غاية ما في الأمر إذ إنني لم أوفق قط إلى أن أحملهم على إخراج المسرحية. حتى إذا ضقت بمداهنة الممثلين الفكاهيين، انصرفت عنهم. ولجأت

في النهاية إلى الحيلة الأخيرة التي بقيت لي، والتي كان يجب أن تكون الوحيدة الجديرة بأن تتبع. ففيما كنت أتردد على دار السيد "**ديلا بونلينيير**"، ظللت بعيدا عن دار السيد "**دوبان**". ومع أن ربتي الدارين كانتا على بعض صلات القربى، إلا أنهما لم تكونا على وئام، ولم تتزاورا قط.

بل لم تكن بين الدارين أية صلة، وإنما كان "**ثييريو**" هو الوحيد الذي اعتاد أن يتردد على هذه وتلك. وقد وكل إليه أمر السعي إلى حملي على العودة إلى دار السيد "**دوبان**".

وكان السيد "**فرانكويي**" ماضيا – في تلك الأثناء – في دراسة التاريخ الطبيعي، والكيمياء، وقد أعد لنفسه غرفة للدراسة. وأظنه كان يطمع في عضوية محفل العلوم، وكان يرغب – في سبيل ذلك – في أن يضع كتابا، وقد خطر له أنني أستطيع أن أكون ذا نفع في هذا الصدد. وكان للسيدة "**دوبان**" – من ناحيتها – رأي مشابه في شخصي، كما أنها كانت تفكر في أن تؤلف كتابا. ومن ثم فقد ودا أن يستأجراني لأكون أشبه بسكرتير يتقاسمانه. وكان هذا هو الهدف من مساعي "**ثييريو**".

فطلبت – كعربون – أن يستخدم السيد "**دي فرانكويي**" نفوذه ونفوذ "**جيليو**" من أجل تجربة إخراج تمثيليتي في الأوبرا، فوافق. وأجريت عدة تجارب لإخراج "عرائس الشعر اللطاف" في "المخزن" (١) في بادىء الأمر، ثم انتقلت التجارب إلى المسرح الكبير. وحضر التجربة الكبرى كثير من الناس، وحظيت كثير من المقطوعات بتصفيق شديد. على أنني شعرت أثناء الأداء الموسيقي – الذي أساء "**ريبيل**" الإشراف عليه – بأن هذه التمثيلية لن تلقى قبولا، بل إنها لن تكون معدة للعرض دون تعديلات كبيرة، وعلى هذا فإنني سحبتها دون ما إيضاح، ودون أن أعرض نفسي لسماع رفضها. ولكنني رأيت بجلاء، ومن عدة بوادر، أن التمثيلية ما كانت ستجاز، ولو كانت في أكمل حال. ذلك لأن السيد "**دي فرانكويي**" كان قد وعد حقا بأن يهيئ السبيل لتجربتها، ولكنه لم يعد بأن يضمن قبولها. وقد بر بوعده تماما. ولقد كان يخيل إليّ دائما – في هذه المناسبة وفي كثير غيرها – بأنه ومدام "**دوبان**" لم يكونا حريصين على أن يدعاني اكتسب شهرة محققة في المجتمع؛ ولعل ذلك كان راجعا إلى خوفهما من أن يظن – عندما تظهر مؤلفاتهما – أنهما قد شحذا مواهبهما على محك مواهبي. ومع ذلك، فإن السيدة "**دوبان**" كانت دائما مقتصدة في رأيها عن كفاءتي؛ ومن ثم فإنها لم تستخدمني قط إلا لأكتب ما كانت تمليه عليّ، أو لأقوم لها بأبحاث بحتة، ومن ثم فإن هذا الظن – فيما يتعلق بها – قد يكون جائرا!

من سنة ١٧٤٧ إلى سنة ١٧٤٩

أدى هذا الفشل الأخير إلى تثبيط عزيمتي تماما، فهجرت كل أمل في الرقي والمجد، ولم أعد أفكر في مواهبي الحقيقية أو الموهومة، التي لم تعد عليّ بطائل، بل كرست وقتي وجهدي لكسب قوتي وقوت "**تيريزي**"، بالشكل الذي راق لهذين اللذين تكفلا بتمكيني من ذلك. ومن ثم فإنني تفرغت تماما للسيدة "**دوبان**" والسيد "**دي فرانكويي**". ولم يدفعني هذا إلى سعة من العيش موفورة.. فإن المرتب الذي تقاضيته في العامين الأولين – وكان ثمانمائة أو تسعمائة فرنك سنويا – كان لا يكاد يوفر لي حاجاتي الأولية. إذ إنني كنت مضطرا إلى الإقامة على مقربة منهما، في حجرة مؤثثة، بحي من الأحياء التي تتطلب نفقات كثيرة، كما كنت أدفع إيجار مسكن آخر، في الطرف الأقصى لـ"**باريس**"، عند نهاية شارع "**سان جاك**"، حيث كنت أذهب لتناول العشاء في كل مساء تقريبا، مهما تكن حال الطقس.

---

(١) القسم الذي كانت تحفظ فيه المناظر المسرحية وثياب التمثيل.

وسرعان ما ألفت عملي الجديد، بل إنني بدأت أميل إليه فاهتممت بالكيمياء، وتلقيت دروسا عدة مع السيد "**دي فرانكويي**"، لدى السيد "**رويل**". ورحنا نسود أكداسا من الورق بما كنا نكتبه في هذا العلم، سواء عن صواب أو عن خطأ، برغم أننا لم نكد نلم بمبادئه الأولية!. ولقد ذهبنا - في سنة ١٧٤٧ - لقضاء الخريف في "**تورين**"، في "**شاتو دي شينونسو**"، القصر الملكي القائم على نهر "**الشير**"، والذي شيده "**هنري الثاني**" من أجل "**ديانا دي بواتيير**".. التي لا تزال الحروف الأولى من اسمها ترى منقوشة هناك. وكان هذا القصر قد آل إلى السيد "**دوبان**"، بوصفه المشرف العام على الأراضي الزراعية للملك.

ولقد استمتعنا كثيرا بالإقامة في هذا المكان البديع، وازددنا سمنة، حتى إنني أصبحت بدينا كالرهبان!.. ونعمنا بقدر كبير من الموسيقى، كما أنني ألفت عدة ثلاثيات غنائية (١)، زاخرة بالقوة وبالتناسق النغمي، وسوف أتحدث عنها في "الملحق" إذا قدر لي أن أكتبه. كذلك كنا نقوم بتمثيل بعض المسرحيات الفكهة، واستطعت - في خمسة عشر يوما - أن أؤلف واحدة، من ثلاثة فصول، أسميتها "الخطبة المتهورة" (٢)، وهي موجودة بين أوراقي، ولا تمتاز بغير مرحها المفرط. ووضعت هناك بعض مؤلفات صغيرة أخرى، منها قصيدة بعنوان "**درب سيلفيا**" (٣)، عن درب في المتنزه الذي كان يمتد على ضفاف نهر "**الشير**". على أن هذا لم يصرفني عن دراساتي الكيمياوية، ولا عن العمل الذي كنت أؤديه للسيدة "**دوبان**".

وبينما كنت أزداد سمنة في "**شينونسو**"، كانت "**تيريزي**" المسكينة تتضخم في "**باريس**" بشكل آخر، حتى إذا عدت، وجدت "المؤلف" الذي كنت بدأته، قد تقدم بدرجة لم أكن أتصورها (٤). وقد دفع بي هذا - نظرا لموقفي - إلى حيرة بالغة، لولا أن زملاء المائدة أمدوني بالحيلة الوحيدة التي كان بوسعها أن تخرجني من المأزق. وهي من البيانات الدقيقة التي لا أملك أن أبوح بها في بساطة، لأني قد أضطر - إذا أقدمت على أي إيضاح - إلى أن ألتمس لنفسي المعاذير، أو إلى أن أدين نفسي، وما أراني راغبا في أن أفعل هذا أو ذاك!

ففي أثناء إقامة "**التونا**" في "**باريس**"، اعتدنا أن نتناول وجباتنا على مقربة من مسكننا، بدلا من أن نأكل في أحد المطاعم. فكنا نتردد على السيدة "**لاسيل**"، بالقرب من ممر "الأوبرا".. وكانت زوجة حائك، تقدم أطعمة غير شهية، ولكن مائدتها كانت قبلة الطاعمين، نظرا لمن كانوا يجتمعون حولها من رفاق طيبين موثوق بهم. فما كان لأي مجهول أن يلج المكان، بل كان لابد من أن يقدمه واحد ممن اعتادوا تناول الطعام هناك. وكان "**الكوماندور دي جرافيل**" ممن استقروا هناك. وهو شيخ ماجن، موفور الظرف والذكاء، ولكنه بذيء اللسان.. وقد اجتذب حوله ثلة من الشباب الطائش الذكي، تألفت من ضباط من فرق الحرس، والفرسان.. وكان "**الكوماندور دي تونان**" حامي كل فتيات الأوبرا، وقد اعتاد أن يحمل إلى المكان - في كل يوم - كافة أنباء هذا الوسط العابث.. أما السيدان "**دوبليسي**" - وكان "**بكباشي**" محالا إلى الاستيداع، وشيخا طيبا حكيما - و"**أنسيليه**" (٥) - وكان من ضباط الفرسان - فقد فرضا قدرا من النظام على هؤلاء الشبان. كذلك كان يتردد على

---

(١) قطع غنائية يشترك في أدائها ثلاثة أشخاص. (٢) I'Engagement Téméraire. (٣) لم يلبث القصر أن آل إلى مالك هدم هذا الدرب الذي أذاع "روسو" شهرته، والذي كان يجتذب زوار "فرنسا" من الأجانب. (٤) من المفهوم أنه يعني أن علاقته بـ"تيريز" أثمرت جنينا. (٥) عقب "روسو" على هذا بقوله: "إلى هذا الأنسيليه أهديت تمثيلية فكهة صغيرة من تأليفي، بعنوان "أسرى الحرب"، وضعتها بعد النكبات التي نزلت بالفرنسيين في "بافاريا" و"بوهيميا"، ولم أجرؤ إطلاقا على أن أعترف بها، أو أن أعرفها. وكان ذلك لسبب واحد، هو أن الملك، و"فرنسا"، والفرنسيين، لم يحظوا - فيما أحسب - بأفضل ولا أصدق من الإطراء الذي اشتملت عليه هذه التمثيلية. ولما كنت جمهوريا وناقدا صريحا للحكومة، فإنني لم أجسر على أن أعترف بأنني مادح أمة كانت كل مبادئها متعارضة مع مبادئي. وإذ كنت أشد أسى لمصائب "فرنسا" من الفرنسيين أنفسهم، فقد خشيت أن تؤخذ على محمل الملق والجبن، أمارات الحب الصادق، الذي ذكرت - في الجزء الأول من اعترافاتي - عهده وسببه، والذي كنت أستحيي من إبدائه!" وقد ورد ذكر ذلك في الكراسة الخامسة".

المكان تجار، وماليون، ومتعهدون بتوريد الأغذية. ولكنهم كانوا مؤدبين، أمناء، من المبرزين في حرفهم ومهنهم. وكان السيد **"دي بيس"** والسيد **"دي فوركاد"** بين هؤلاء الذين نسيت أسماءهم. وقصارى القول إن المرء كان يرى هناك أناسا محترمين من جميع الأنواع فيما عدا الرهبان وذوي الأوشحة (١) الذين لم يقع عليهم بصري هناك إطلاقا، فقد كان ثمة اتفاق على عدم تقديم أحد منهم. وكانت هذه المائدة، على ازدحامها، جد مرحة في غير صخب، كثيرة الثرثرة في غير بذاءات. فما كان القائد "الكوماندور" الشيخ لينسى البتة - بكل قصصه الماجنة - الأدب الذي ألفه في البلاط، فلم تكن تخرج من فمه إطلاقا أية كلمة بذيئة لا تغتفرها له النساء. وكانت لهجته دستورا للمائدة كلها، فكان كل أولئك الشبان يروون مغامراتهم الغرامية في كثير من التحرر والكياسة. ولم تكن قصص الغانيات لتغيب عن المائدة، إذ كان ثمة مورد لها جد قريب، فقد كان الممر الذي يفضي إلى دار السيدة **"لاسيل"**، يؤدي كذلك إلى حانوت السيدة **"دوشات"**، وهي تاجرة أزياء ذائعة الصيت، كانت تستخدم - إذ ذاك - فتيات موفورات الجمال، اعتاد السادة أصحابنا أن يسعوا إلى مجاذبتهن الحديث، بعد الغداء. وكان بوسعي أن أتسلى كما كان يفعل الآخرون، لو أنني كنت أكثر جرأة مما أنا. إذ إنني لم أكن بحاجة إلى أكثر من أن ألج الحانوت، كما كانوا يفعلون، ولكنني لم أجسر. أما السيدة **"لاسيل"**، فقد ظللت أذهب لتناول الطعام لديها في كثير من الأحيان، عقب رحيل **"التونا"**. وهناك، سمعت فيضا من الحكايات المسلية - كما اقتبست تدريجيا المبادئ التي ألفيتها مستتبة هناك - دون المقاييس الخلقية، والحمد للسماء!.. فمن أشراف أوذوا، إلى أزواج خدعوا، إلى نساء استخفتهن الغواية، إلى أطفال ولدوا في الخفاء.. كل هذه كانت موضوعات عادية مألوفة هناك. وكان ذلك الذي يساهم أكثر من سواه، في زيادة عدد سكان ملجأ اللقطاء، هو أكثر الناس نصيبا من الإعجاب. ولقد أصابتني عدوى هذا كله، فصغت طريقة تفكيري على نسق تلك التي رأيتها سائدة بين قوم ظرفاء، ومفرطي الأدب بوجه عام!.. وقلت لنفسي: "مادام هذا هو العرف السائد في البلاد، فللمرء أن يتبعه إذا ما أقام فيها"!.. وهذه هي الحيلة التي كنت أنشدها. فاعتزمت - في اغتباط - أن أنتهجها، دون أية هواجس من ناحيتي أو تردد.. وكل ما كان علي أن أتغلب عليه، هو مخاوف **"تيريز"**، التي كابدت - في حملها على انتهاج الوسيلة الوحيدة لإنقاذ شرفها - كل ما في الدنيا من عناء!..

ولقد انضمت لي أمها، التي كانت تخشى التورط في طفل جديد. وانصاعت **"تيريز"** في النهاية، فاختيرت مولدة "داية" حكيمة، مأمونة، تدعى الآنسة **"جوان"** - كانت تقيم عند **"رأس سان أوستاش"** - لنعهد إليها بهذه الوديعة. فلما آن الأوان، نقلت **"تيريز"** - بمعرفة أمها - إلى دار الآنسة **"جوان"**، لتضع حملها، وذهبت إلى هناك عدة مرات لأزورها، وحملت إليها رمزا مزدوجا نقش على بطاقتين، لتوضع إحداهما في ثياب الطفل، على أن تودعه القابلة "الداية" إدارة ملجأ اللقطاء، بالطريقة المعهودة.. وفي العام التالي، تكررت المضايقة، وتكرر العلاج، فيما عدا الرمز الذي أغفل!.. ولم يعد ثمة تفكير في الأمر - من ناحيتي - لا ولم يكن ثمة انصياع يفوق انصياع الأم، التي أطاعت وهي تتنهد. ولسوف تبدو تباعا كل التغيرات التي أدت هذه الطريقة إلى فرضها على أسلوبي في التفكير، وعلى مصيري كذلك. أما الآن، فلنلزم هذه المرحلة الأولى، إذ إن معقباتها - التي كانت من القسوة بقدر ما كانت متوارية غير ظاهرة - لن تلبث أن تضطرني إلى العودة إليها كثيرا.

---

(١) يقصد المحامين.

ولسوف أذكر هنا واقعة أول تعارف بيني وبين السيدة "**ديبيناي**"، التي كثيرا ما سيتردد اسمها في هذه المذكرات. كان اسمها الآنسة "**ديسكلافيل**"، ثم تزوجت من السيد "**ديبيناي**"، نجل السيد "**دي لاليف دي بيلجراد**"، الذي كان مديرا عاما للأراضي الزراعية.. ولقد كان الزوج موسيقيا، على شاكلة السيد "**دي فرانكويي**". كذلك كانت هي الأخرى موسيقية، وقد خلق الولع بهذا الفن ودا عظيما بين هؤلاء الأشخاص الثلاثة. وقدمني السيد "**دي فرانكويي**" إلى السيدة "**ديبيناي**"، فكنت أتناول العشاء معها في بعض الأحيان. وكانت لطيفة، ذكية، موهوبة، خليقة بأن ينشد المرء ودها حقا.

على أنها أوتيت صديقة - تدعى الآنسة "**ديت**" - كانت تعتبر خبيثة، وكانت تعاشر "**الشيفاليه دي فالوري**"، الذي لم يكن حسن السمعة، وأعتقد أن صحبة هذين الشخصين قد أساءت إلى السيدة "**ديبيناي**"، التي حبتها الطبيعة بسجية غلابة، وصفات رائعة، تخفف من أن تتوازن مع نزواتها.

ولقد أوحى إليها السيد "**دي فرانكويي**" قسطا من الود الذي كان يكنه نحوي، وصارحني بصلاته بها، ولهذا السبب فإنني ما كنت لأتحدث عن هذه الصلات هنا، لولا أنها أصبحت معروفة إلى درجة أنها لم تعد خافية على السيد "**ديبيناي**"!..

كذلك آثرني السيد "**دي فرانكويي**" باعترافات عجيبة من هذه السيدة، لم تذكرها لي بنفسها إطلاقا، ولم يخطر ببالها ألبتة أنني كنت على علم بها. فإنني لم أفتح فمي - ولن أفتحه - بالحديث في هذا الموضوع، إليها أو إلى أي امرئ آخر (١).

ولقد أدت كل هذه الاعترافات - من كل من الطرفين - إلى الزج بي في موقف جد حرج، لاسيما إزاء السيدة دي "**فرانكويي**"، التي كانت تعرفني خير معرفة، فلم تفقد ثقتها بي، بالرغم من توثق صلاتي بغريمتها. ولقد عمدت - بقدر ما كان بوسعي - إلى مواساة هذه السيدة البائسة، التي لم يبادلها زوجها - دون ما شك - ما كانت توليه من حب. وكنت أصغي إلى هؤلاء الثلاثة، كل على حدة، وأصون أسرارهم بأقصى وفاء، دون أن يقدر قط لأي من ثلاثتهم أن ينتزع مني شيئا من أسرار الاثنين الآخرين، ودون أن أخفي عن كل من المرأتين ودي لغريمتها!..

ولقد حاولت السيدة "**دي فرانكويي**" أن تفيد مني في أمور كثيرة، فقوبلت برفض بات.. كما أن السيدة "**ديبيناي**" أرادت أن تحملني - ذات مرة - رسالة إلى "**فرانكويي**"، فلم تقابل برفض مشابه فحسب، بل إنني صارحتها بجلاء تام، بأنها لم تكن بحاجة إلى أكثر من أن تعرض علي مثل هذا الأمر - مرة ثانية - إذا شاءت أن تقصيني عن دارها إلى الأبد!.. ومن الواجب أن أنصف السيدة "**ديبيناي**"، فإنها كانت أبعد من أن تبدي استياء من مسلكي، بل إنها تحدثت عنه إلى "**فرانكويي**" بأبلغ تقدير، ولم يقل ترحيبها بي بعده، عما اعتادت أن تستقبلني به قبله. وهكذا استطعت أن أمضي موفقا وسط العلاقات العاصفة بين هؤلاء الأشخاص الثلاثة الذين كنت أعتمد عليهم في معاشي - إلى حد ما - والذين كنت أكن لهم صادق الميل.. واستطعت أن أحتفظ - إلى النهاية - بودهم، وتقديرهم، وثقتهم، إذ رحت أتصرف في رفق ومجاملة، يرافقهما - دائما - استقامة وحزم. وبالرغم من غبائي وحماقتي، فإن السيدة "**ديبيناي**" كانت تميل إلى أن تصطحبني إلى الحفلات اللاهية التي كانت تقام في "**لاشيفريت**"، في قصر على نهر "سان دنيس"، من أملاك السيد "**دي**

---

(١) لم تعد اعترافات السيد دي "فرانكويي" لـ"روسو" سرا خافيا على أحد.

فإن المذكرات التي نشرت باسم "ديبيناي" تبين لنا أنها أصيبت بعدوى مرض خبيث، من زوجها.. وأنها نقلت هذا المرض إلى عشيقها، الذي قدر له أن يموت به!

بيلجراد". وكان ثمة مسرح هناك، كثيرا ما أخرجت عليه مسرحيات. وقد عهد إلي بأحد الأدوار، فظللت أستذكره ستة أشهر – دون انقطاع – ومع ذلك فإنني لم أستغن عمن راح يهمس إلي بعباراته من البداية إلى النهاية، أثناء التمثيل!.. وبعد هذه التجربة، لم يعرض علي أي دورا!

وفي تعرفي بالسيدة "**ديبيناي**"، حظيت كذلك بمعرفة الآنسة "**دي بيلجراد**"، التي لم تلبث أن أصبحت كونتة "**هودينو**". وكانت أول مرة رأيتها فيها، في اليوم السابق على زواجها. وقد حدثتني طويلا (١)، بتلك الألفة الساحرة التي فطرت عليها. وألفيتها مفرطة في اللطف، ولكنني كنت أبعد من أن أرى أنه كان مقدرا لهذه الشابة أن تشكل هدف حياتي يوما، وأن تجرني – عن براءة ودون إدراك أو قصد – إلى الحضيض الذي أعيش فيه اليوم!

ومع أنني لم أتحدث عن "**ديدرو**" منذ عودتي من "**البندقية**"، ولا عن صديقي السيد "**روجان**"، إلا أنني لم أهمل أيا منهما، بل إن روابط الود أخذت تزداد توثقا بيني وبين الأول – بوجه خاص – يوما بعد يوم. وكما أنني أوتيت "**تيريز**"، فقد أوتي هو "**نانيت**"، وكانت هذه ناحية أخرى من نواحي التقارب بيننا. ولكن الفارق كان في أن "**تيريزي**"، وإن ماثلت "**نانيته**" في حسن الشكل، إلا أنها كانت أرق مزاجا، وألطف شخصية منها، وقد خلقت لترتبط برجل محترم.. أما فتاته فكانت سليطة، "زفرة" اللسان، لا تبدي أمام أنظار الغير ما يخفي سوء التربية. ولقد تزوجها – ومع ذلك – وكان هذا عملا طيبا منه، إذ كان قد وعدها بالزواج. أما أنا، فلم أكن بحاجة إلى أن أحذو حذوه، إذ إنني لم أبذل مثل هذا الوعد إطلاقا!

ولقد اتصلت كذلك بالراهب "**دي كونديلاك**"، الذي لم يكن أفضل مني حالا في الأدب، ولكنه كان مهيئا لأن يصير إلى ما أصبح اليوم عليه، ولعلني كنت أول من أبصر كفاءته، وقدره حق قدره. ولاح أنه كذلك ارتاح إلي، وعندما احتبست نفسي في غرفتي بشارع "**جان سان دنيس**" – على مقربة من "الأوبرا" – لأضع الفصل الذي ضمنته أوابري عن "**هيسيود**"، اعتاد أن يفد في بعض الأحيان، فيتناول الغداء معي، وحيدين، وكنا نتقاسم النفقات. ولقد كان يعمل – في ذاك – في كتابه: "رسالة في أصل المعرفة البشرية"، الذي كان أول مؤلفاته.

فلما فرغ منه، تمثلت الحيرة في العثور على ناشر يتكفل بنشره. إذ إن أصحاب المكتبات الباريسية يعاملون كل مبتدئ في صلف وجفاء. وكان علم ما وراء الطبيعة غير شائع – إذ ذاك – ومن ثم فإنه لم يكن موردا لموضوع جذاب. ولقد تحدثت إلى "**ديدرو**" عن "**كونديلاك**" ومؤلفه، وحملته على أن يتعرف إليه. ولقد خلقا لكي يتوافقا، فسرعان ما تآلفا. وأغرى "**ديدرو**" الناشر "**دوران**" على أن يقبل مخطوط الراهب، فتسلم هذا العالم الكبير بما وراء الطبيعة، في مقابل كتابه الأول، مائة "**ايكو**"، وكان في هذا إيثار له وتكريم ما كان من المحتمل أن يلقاهما لولاي!.. ولما كنا نحن الثلاثة (٢) نقيم في أحياء متباعدة جدا؛ فإننا كنا نجتمع مرة في الأسبوع، في "**الباليه رويال**". فنذهب لتناول الغداء معا في فندق "**البانييه فلوري**". لابد أن هذه المأدبة الصغيرة الأسبوعية كانت محببة إلى "**ديدرو**" كثيرا، إذ إنه لم يتخلف عنها قط، وهو الذي كان يخفق دائما في أن يذكر مواعيده الأخرى. ولقد رسمت – في تلك اللقاءات – خطة نشرة دورية تسمى "الساخر" (٣)، على أن نكتبها بالتعاقب، "**ديدرو**" وأنا. ولقد وضعت الخطوط الأولى للعدد الأول، فأدى هذا إلى أن أتعرف إلى "**داليمبير**"، الذي حدثه "**ديدرو**" عن النشرة. غير أن أحداثا – لم تكن منظورة – اعترضت

---

(١) استعمل "روسو" هذا تعبيرا غير شائع في الفرنسية، لذلك استعملنا في الترجمة "حدثتني" بدلا من "تحدثت إلي أو معي"! (٢) الراهب و"ديدرو" و"روسو". (٣) Le Persi Fleur.

طريقنا، فظل المشروع عند هذا الحد. وكان هذان المؤلفان (١) قد اضطلعا بوضع "قاموس محيط"، قصد به – في البداية – أن يكون نظيرا مترجما لموسوعة "**تشامبرز**"، وقريب الشبه من "قاموس جيمس الطبي" الذي كان "**ديدرو**" قد فرغ من ترجمته. ولقد رغب "**ديدرو**" في أن يشركني في بعض أجزاء مشروعه الثاني، فاقترح علي أن اضطلع بالقسم الموسيقي. وقد قبلت، وأديت مهمتي في عجلة، وفي غير إجادة، خلال الأشهر الثلاثة التي حددها لي، كما حددها لكافة المؤلفين، الذين قدر لهم أن يشتركوا في هذا المشروع. على أنني كنت الوحيد الذي كان قد أكمل عمله في الموعد المعين، فأسلمته مخطوطي، الذي كنت قد عهدت بنسخه إلى أحد وصفاء السيد دي "**فرانكويي**"، ويدعى "**ديبيون**"، فكتبه بخط حسن، ودفعت له في مقابل ذلك – من جيبي الخاص – عشر قطع من فئة "**الايكو**"، لم يقدر لي قط أن أستردها. إذ إن "**ديدرو**" كان قد وعدني – باسم الناشرين – بقسط من الأرباح، ولم يعد إلى محادثتي بشأنه مرة أخرى، ولا فاتحته أنا بصدده!

ولقد تعطل مشروع "الموسوعة" بسبب سجنه. واجتلب عليه كتابه "أفكار فلسفية" بعض مضايقات لم تؤد إلى نتيجة ما. ولكن الأمر اختلف بالنسبة إلى كتابه "رسالة عن العميان"، الذي لم يشتمل على ما يستحق النقد فيما عدا بعض مسائل شخصية رأت السيدة "**دوبريه دي سان مارو**" والسيد "**ريومير**" أن فيها ما يمسهما، ومن ثم فقد سجن "**ديدرو**" – من أجلها – في سجن "**فانسين**".. ولن يصف شيء مدى الشدائد التي أحدثتها في نفسي محنة صديقي. فإذا بخيالي المكتئب – الذي اعتاد دائما أن يضخم المحن – يجمح في انزعاجه، إذ خيل إلي أن "**ديدرو**" قد يمكث هناك طيلة عمره، فكدت أجن لذلك، وكتبت إلى السيدة "**دي بومبادور**"، أناشدها إطلاق سراحه، أو العمل على أن أحبس معه. ولم أتلق ردا ما عن خطابي، إذ إنه كان جد بعيد عن المعقول، فلم يحدث أثرا. ولست أدعي لنفسي فخر أن يكون خطابي قد ساهم فيما حدث بعد ذلك، من تخفيف متاعب السجن على "**ديدرو**" المسكين. على أنه لو كان قد قدر لهذا الحبس أن يستمر فترة أخرى بنفس القسوة، فلست أشك في أنني كنت أموت كمدا وقنوطا، تحت أسوار ذلك السجن اللعين.. وحتى إذا كان خطابي قد أحدث مفعولا يسيرا، فإنني لم أوله أهمية تذكر، حتى إنني لم أتحدث عنه إلا لنفر قليل من الناس.. ولم أتحدث عنه إلى "**ديدرو**" نفسه البتة!

---

(١) "ديدرو" و"داليمبير".

الكراسة الثامنة

سنة ١٧٤٩

خليق بي أن أقف قليلا إذ انتهت الكراسة السابقة. فمع الكراسة، تبدأ أصول السلسلة الطويلة من المحن، التي ألمت بي.

لم يفتني – أثناء ترددي على دارين من ألمع دور "**باريس**" – أن أعقد بعض صلات التعارف، برغم قلة لياقتي. فتعرفت – فيمن تعرفت إليهم لدى السيدة "**دوبان**" – إلى الأمير الشاب وريث إمارة "**ساكس جوتا**"، وإلى مربية البارون "**دي تون**"، كما تعرفت لدى السيد "**ديلا بوبلينيير**" إلى السيد "**دي سيجاي**"، صديق البارون "**دي تون**"، وكان معروفا في عالم الأدب بالنسخة البديعة التي كانت لديه من ديوان "**روسو**" (١). ولقد دعانا البارون – أقصد دعا السيد "**سيجاي**" وإياي – إلى قضاء يوم أو اثنين في "**فونتناي – سو – بو**"، حيث كان الأمير يمتلك دارا، فذهبنا.. وفيما كنا نمر بـ"**فانسين**"، شعرت بقلبي يتمزق، إذ رأيت السجن. ولمح البارون آثار ذلك على وجهي. وعند العشاء، تحدث الأمير عن سجن "**ديدرو**"، فعمد البارون – ليحملني على الكلام – إلى اتهام السجين بالنزق.. وهو عين ما بدر مني في غلطتي إذ انبريت للدفاع عنه!..

ولقد اغتفر لي هذا الاندفاع، باعتباري رجلا انساق لعاطفته نحو صديق تعس، واتخذ الحديث وجهة أخرى. وكان ثمة اثنان من الألمان الملحقين بخدمة الأمير، أحدهما يدعى "**كلبفيل**"، وهو رجل جم الذكاء، كان في ذلك الحين قسا، راعيا للأمير، وغدا فيما بعد مربيا له، خلفا للبارون.. أما الآخر، فكان شابا يدعى السيد "**جريم**"، كان يتكفل بالقراءة للأمير، ريثما يتسنى له الحصول على منصب آخر. وكان تواضع ملبسه ينم عن شدة حاجته إلى ذلك.

ومنذ تلك الليلة، بدأت بيني وبين "**كلبفيل**" رابطة. لم تلبث أن تطورت إلى صداقة. أما صلتي بالسيد "**جريم**"، فلم تصل إلى هذا الحد بمثل هذه السرعة، إذ إنه لم يكن يحاول أن يظهر، بل كان بعيدا كل البعد عن حب الظهور، الذي خلعه عليه الثراء فيما بعد.. ولقد دار الحديث عند الغداء – في اليوم التالي – عن الموسيقى، فأجاد الخوض فيه. وقد ابتهجت حين علمت أنه يحسن المصاحبة على المعزف، فقضينا اليوم في موسيقى، على معزف الأمير، ومنذ ذلك الحين بدأت تلك الصداقة التي كانت جد لطيفة في أولها، وجد نكدة في آخرها، والتي ساكثر من الحديث عنها فيما بعد.

وإذ عدنا إلى "**باريس**"، علمت بالنبأ المفرح.. بأن "**ديدرو**" قد غادر "الزنزانة"، وأنه منح قلعة ومتنزه "**فانسين**" كسجن له – اعتمادا على وعد شرف منه – وسمح له بأن يستقبل أصدقاءه. ولكم شق علي ألا أستطيع أن أهرع إليه في التو!.. فلقد تأخرت يومين أو ثلاثة، لدى السيدة "**دوبان**"، بسبب واجبات لم يكن ثمة مفر منها.. وبعد ثلاثة أو أربعة قرون من التلهف، طرت لأرتمي بين ذراعي صديقي!.. ويالها من لحظة جلت عن الوصف!.. ولم أجده وحيدا، بل كان معه "**داليمبير**" وأمين صندوق كنيسة "**سانت شابيل**".. وإذ دخلت، لم أر في المكان سواه، ولم أفعل سوى أن قفزت، وصرخت.. والصقت وجهي بوجهه، وضممته بشدة دون كلام، سوى كلام دموعي وعبراتي.. كنت أختنق شوقا وطربا!.. وكانت أولى حركاته أن تخلص من عناقي، وأستدار نحو

---

(١) الشاعر "جان بابتيست روسو".

رجل الكنيسة قائلا: "أترى ياسيدي كيف يحبني أصدقائي؟" .. وإذ كنت غارقا في انفعالاتي، فإنني لم أر من هذا المسلك سوى جانبه الطيب، ولكنني إذ أفكر فيه أحيانا – بعد ذلك – أرى أن هذا لم يكن خليقا بأن يكون أول ما يخطر ببالي لو أنني كنت في موقف "**ديدرو**"!

ووجدته متأثرا بسجنه أشد التأثر، فلقد تركت "الزنزانة" طابعا فظيعا على نفسه، ومع أنه ارتاح إلى المقام في القلعة، وغدا حرا في التجول في متنزه لم تكن تحيط به أسوار، إلا أنه كان محتاجا إلى صحبة أصدقائه؛ كي لا يستسلم للأفكار السوداء. ولما كنت الشخص الذي يعطف أشد العطف على آلامه – يقينا – فقد رأيت أنني ولابد – كذلك – الشخص الذي تسري عنه رؤيته، أكثر من أي شيء آخر. وبالرغم من وجود بعض الشواغل العاجلة الملحة، فقد رحت أتردد عليه بعد ذلك – مرة كل يومين – وحيدا، أو مع زوجته، لأقضي معه فترة الأصيل.

*****

وجاء الصيف في ذلك العام – ١٧٤٩ – شديد الحر. وكان ثمة فرسخان بين "**باريس**" و"**فانسين**". ولما لم أكن في سعة تمكنني من استئجار عربة، فقد اعتدت أن انطلق في الساعة الثانية – من بعد الظهر – على قدمي، إذا ما كنت وحيدا.. وكنت أغذ السير لأصل في أقرب وقت.. وكانت الأشجار القائمة على طول الطريق، غير وارفة الأفنان، على ما هو مألوف في تلك المنطقة، فلم تكن تضفي علي شيئا من الظل تقريبا، وكثيرا ما كنت أرتمي على الأرض، وقد أرهقني الحر والتعب، وعجزت عن المضي.. ولكي أخفف من سرعة انطلاقي، عمدت إلى اصطحاب أحد الكتب خلال الرحلة. وفي ذات يوم، اصطحبت كتاب "تقويم **فرنسا**". وفيما كنت أقرأ إبان سيري، صادفت السؤال الذي طرحه المحفل العلمي لـ"**ديجون**"، ليكون موضوع مباراة (١) العام التالي: "هل ساعد تقدم العلوم والفنون على إفساد الأخلاق أو على تطهيرها؟".

وما إن قرأت هذه الكلمات، حتى تمثلت كونا آخر، وغدوت إنسانا آخر. ومع أنني أحتفظ بذكرى حية للأثر الذي أحدثه السؤال في نفسي، إلا أن تفصيلات الواقعة غابت عن بالي مذ أودعتها إحدى رسائلي الأربع إلى السيد "**دي ماليزيرب**". وهذه إحدى الظواهر العجيبة التي تتصف بها ذاكرتي، والتي تستحق الذكر. فهي حين تسعفني لا تمضي في ذلك إلا طالما كنت معتمدا عليها. وما إن أسكب ما استودعتها إياه على الورق، حتى تتخلى عني.. وإذا ما كتبت شيئا مرة، فإني لا أعود أذكره إطلاقا!.. وترافقني هذه الظاهرة، حتى في الموسيقى. فقد كنت أعرف كثيرا من الأغاني عن ظهر قلب، قبل أن أدرسها. ولكني لم أكد أحذق الغناء من "النوتة"، حتى عجزت عن استبقاء أية أغنية في ذاكرتي، وما أراني أستطيع اليوم أن أردد أغنية واحدة بأكملها، من كل الأغاني التي كنت أحبها!

والذي أذكره بجلاء – في هذه المناسبة – هو أنني عندما بلغت "**فانسين**" كنت في حال من الانفعال تشبه بحرا من الحمى. ولاحظ "**ديدرو**" ذلك، فأفضيت إليه بالسبب، وقرأت عليه "مناجاة **فابريشيوس**" (٢)، التي كتبتها بالقلم الرصاص، تحت إحدى أشجار البلوط. فشجعني على أن أنشر آرائي، وأن أشترك في المباراة. وقد كان هذا!.. ومنذ تلك اللحظة غدوت من الضائعين. فلقد كان ما بقي من عمري ومن تعاساتي نتيجة لامناص منها لهذه اللحظة من لحظات الاختبال والضلال (٣)!

---

(١) كانت مباراة سنوية يعقدها المحفل العلمي بـ"ديجون"، لأحسن رسالة تكتب في الموضوع الذي يطرحه للمسابقة. (٢) Prosopopée de Fabricius.. وكان "فابريشيوس" قنصلا من حكام الرومان، وقد عرف بانتهاج البساطة في مبادئه الخلقية، وبالوفاء، والنزاهة، والتجرد من المصلحة الذاتية. واتخذ اسمه رمزا للرجل الذي يظل فقيرا سليم الذمة مهما يرتفع في مناصب الحكم. (٣) أضاف "روسو" – في رسالة إلى "ماليزيرب" تفصيلات بديعية لهذه المناسبة، إذ قال: وشعرت بدوار طاغ يستولي على رأسي، يشبه نشوة السكران.. وبخفقان عنيف.. فلم أعد أتمالك أنفاسي وأنا أسير، ومن ثم ارتميت على إحدى أشجار الطريق، وقضيت نصف ساعة في هذا الانفعال، فلما أفقت تبينت أن صدر صدارتي كان مخضلا بالدموع، دون أن أكون قد شعرت بأنني ذرفتها".

وتسامت مشاعري إلى مستوى افكاري، بسرعة تفوق التصور. فإذا بكل أهوائي التافهة تختنق في فورة الحقيقة، والحرية، والفضيلة.. وأدعى من هذا إلى الدهشة، أن هذه الفورة ظلت محتدمة في فؤادي طيلة أربع أو خمس سنوات أخرى، بدرجة لعلها لم تساور قلب أي بشر آخر!

وأقبلت على العمل في إعداد هذا المقال، بطريقة جد عجيبة، اعتدت دائما أن أنتهجها في كل مؤلفاتي الأخرى تقريبا. فقد خصصتها بالساعات التي لم يكن النوم يواتيني فيها بالليل.

وكنت أستغرق في التفكير، وأنا في فراشي مغمض العينين، وأروح أقلب عباراتي في رأسي، وأعاود تقليبها في عناء لا يمكن تصوره، حتى إذا انتهيت إلى الرضاء عنها، أودعتها ذاكرتي إلى أن أستطيع تسطيرها على الورق. ولكن الوقت الذي كان يستغرقه نهوضي وارتداء ثيابي، كان يضيعها عليّ.. فإذا ما عكفت على ورقي، لم يوافني شيء مما نظمته في بالي تقريبا.

ورأيت أن أستخدم السيدة "**لوفاسير**" كسكرتيرة، فأسكنتها مع ابنتها وزوجها على مقربة مني، وكانت هي التي تأتي في كل صباح لتوقد ناري. وتؤدي الخدمات البسيطة التي أحتاج إليها، اقتصادا لأجر الخادم، وعند وصولها، كنت أملي عليها من سريري ما أعددته في الليل. وقد أدى هذا النظام – الذي اتبعته زمنا طويلا – إلى إنقاذ كثير مما كان معرضا للنسيان!.. حتى إذا فرغت من المقال، عرضته على "**ديدرو**"، الذي أبدى ارتياحا إليه، وأشار إلى بعض تعديلات. على أن هذا العمل الأدبي المليء بالحرارة والقوة، كان يفتقد المنطق والترتيب افتقادا تاما، فهو – دون كل ما انساب من قلبي – أضعفها في الحجة، وأفقرها إلى التناسب والتناسق. على أن فن الكتابة لا يستوعب دفعة واحدة، مهما تكن المواهب التي فطر المرء عليها!

وأرسلت هذا المقال، دون أن أتحدث عنه إلى أحد، اللهم إلا "**جريم**" – فيما أظن – إذ كنت قد بدأت أرتبط وإياه بأعظم ود، منذ التحق بخدمة الكونت دي "**فريز**". وكان لديه معزف اتخذناه ملتقى يجمعنا، فكنت أقضي مع "**جريم**" حوله كل لحظات فراغي، نغني الألحان الإيطالية، وأغاني ملاحي الجندول، دون انقطاع أو ملل من الصباح حتى المساء، أو – بالأحرى – من المساء إلى الصباح. وعندما كنت لا أوجد في دار السيدة "**دوبان**"، فقد كان من المحقق أن أوجد لدى السيد "**جريم**"، أو معه – على الأقل – سواء في نزهة أو في مسرح. وكنت قد كففت عن الذهاب إلى مسرح "**الكوميدي ايتاليين**" – الذي كنت أستمتع بحق دخوله بالمجان، والذي لم يكن "**جريم**" يحبه – وأصبحت أتردد معه على "الكوميدي فرانسيز"، الذي كان مولعا به. وقصارى القول أن جاذبية قوية ربطتني بهذا الشاب، حتى إنني أصبحت لا أطيق بعدا عنه، وحتى إن العمة المسكينة (١) غدت موضع إهمال مني!.. اقصد أنني أقللت من زيارتي إياها، إذ إن عاطفتي لم تهن لحظة واحدة خلال حياتي!

ولقد أدت استحالة تقسيم وقت فراغي الضئيل بين ميولي، إلى أن تجددت لدي، بقوة لا قبل لي بها، الرغبة – التي ساورتني منذ وقت طويل – في أن يكون لي ول"**تيريز**" مسكن واحد. ولكن العقبة التي تمثلت في عدد أفراد أسرتها، وفي الحاجة إلى المال لشراء الأثاث – بوجه خاص – جعلتني أعدل حتى ذلك الحين. ثم سنحت لي فرصة المحاولة، فانتهزتها.. ذلك أن السيد "**دي فرانكويي**" والسيدة "**دوبان**" شعرا تماما بأن مبلغا يتراوح بين ثمانمائة وتسعمائة فرنك في العام، مبلغ غير كاف، فرفعا من تلقاء نفسيهما مرتبي السنوي إلى خمسين "**لوي**". وفضلا عن هذا، فإن السيدة "**دوبان**" لم تكد تسمع بأنني كنت أسعى إلى تأثيث مسكن خاص لي، حتى ساعدتني ببعض نفحات من

(١) ذكر "روسو" أن هذا اللقب أطلقه أصدقاؤه على "تيريز".

أجل هذا الغرض. وبالإضافة إلى الأثاث الذي كان لدى "**تيريز**" من قبل، لممنا شملنا، واستأجرنا مسكنا صغيرا في مبنى "**اللانجدوك**"، بشارع "**جرينيل سانت أونوريه**"، لدى قوم طيبي السمعة جدا، ودبرنا معيشتنا قدر المستطاع، وأقمنا هناك في أمان وارتياح سبع سنوات.. إلى أن نزحت إلى "**الأرميتاج**".

*****

كان والد "**تيريز**" كهلا طيبا، مفرط الدعة، يخاف من زوجته كل الخوف؛ من ثم فقد أطلق عليها لقب "الملازم **كريمينيل**" (١) الذي خلعه "**جريم**" بعد ذلك - على سبيل الدعابة - على ابنتها. ولم تكن السيدة "**لوفاسير**" تفتقر إلى حضور البديهة، وأقصد في أدب الخطاب، بل إنها كانت تفخر بأدبها، وبسلوكها اللائق بالمجتمع الراقي، بيد أنها كانت ذات رياء غريب لم أكن أطيقه. وكانت تقدم لابنتها من النصح أسواه، وقد حاولت أن تحملها على أن تخدعني وتمكر بي!.. وكانت تداهن أصدقائي - كلا على حدة - وتحاول أن تتقرب إلى الواحد منهم على حساب الآخر، أو على حسابي أنا!.. وفيما عدا ذلك فإنها كانت أما طيبة؛ لأنها وجدت أن مصلحتها في أن تكون كذلك. وكانت تتستر على أخطاء ابنتها، لأنها كانت تفيد من وراء ذلك.. هذه المرأة التي أغرقتها بعنايتي ورعايتي، وبالهدايا الصغيرة، والتي كنت أتوق من قلبي إلى أن أحمل نفسي على حبها، كانت - بسبب استحالة نجاحي في هذا الصدد - السبب الأول للتعب الذي كنت أعانيه في مسكني الصغير. وفيما عدا هذا، فإن بوسعي أن أقول: إنني تذوقت - خلال هذه السنوات الست أو السبع - أكمل هناءعائلي يسمح به الضعف البشري!

كان قلب "**تيريزي**" قلب ملاك، وقد عززت حياتنا المشتركة حبنا، فأخذنا نزداد إحساسا - يوما بعد يوم - بأن كلا منا خلق للآخر. ولو قدر لمتعنا أن توصف، لكانت ببساطتها داعية للضحك، سواء في ذلك نزهاتنا خارج المدينة وحيدين، حيث كنت أنفق - بعظمة - ثمانية أو عشرة "**سو**" في إحدى الحانات.. أو عشاؤنا البسيط في النافذة، وقد جلسنا متقابلين على مقعدين صغيرين، فوق صندوق كان يشغل عرض فراغ النافذة.. فكانت هذه تستخدم - بهذا الوضع - كمائدة، وكنا نستنشق الهواء الطلق، ونشاهد ما حولنا، والمارة.. ومع أننا كنا في الطابق الرابع. إلا أنه كان في وسعنا أن نطل على الطريق، ونحن نتناول الطعام، ترى من ذا الذي يستطيع أن يصف، بل من ذا الذي يستطيع أن يشعر بمفاتن هذه الوجبات التي كانت تتألف - في مجموعها - من ربع رغيف من الخبز الخشن، وبعض الكريز، وقطعة صغيرة من الجبن، ونصف "**سيتييه**" (٢) من الشراب كنا نشربه معا؟.. أيتها الصداقة، والثقة، والألفة، وراحة البال.. ما ألذ مذاقك!. لقد كنا نمكث أحيانا في جلستنا هذه إلى منتصف الليل، دون أن نفكر في شيء ودون أن نفطن إلى الوقت ما لم تنبهنا الأم العجوز إليه!

.. ولكن لندع هذه التفصيلات التي قد تبدو عقيمة، أو مضحكة، فلقد اعتدت أن أشعر - وأن أصرح - دائما بأن الهناءة الحقة لا توصف!

ولقد حظيت - في نفس تلك الفترة تقريبا - بمتعة أخرى، كانت أكثر خشونة من هذه.. وكانت آخر متعة من نوعها أندم عليها. فلقد ذكرت أن "**كلبفيل**" - القس - كان لطيفا، ولم تكن علاقاتي

---

(١) Lieutenant Criminl كان قاضيا في "الشاتيل"، وهو الاسم الذي يطلق على دار للقضاء في "باريس"، تضم اثنتين من أقدم المحاكم، إحداهما مدنية والأخرى جنائية. (٢) نصف "السيتييه" يعادل جزءا على ١٦ من الجالون.

به تقل توثقا عن علاقتي بـ"**جريم**"، حتى أصبحنا متآلفين. وكانا يتناولان الطعام أحيانا على مائدتي. وكانت هذه الوجبات تتجاوز حدود البساطة بعض الشيء، كما كانت تزيدها مرحا فكاهات "**كلبفيل**"، ونكاته المهذبة، والمداعبات الجرمانية من "**جريم**"، الذي لم يكن بعد قد طلق العبث.. ولم تكن الشهوة تتسلط على مآدبنا الصغيرة، بل كان المرح يملأ مكانها. وقد شعرنا بارتياح إلى اجتماعاتنا، فلم نعد نطيق افتراقا. وكان "**كلبفيل**" قد أثث مسكنا لفتاة صغيرة، لم تكف عن أن تهب نفسها لكل الناس؛ لأنه لم يكن قادرا على أن يكفلها وحده!.. وفي ذات مساء، كنا نلج أحد المقاهي، وإذا بنا نجد "**كلبفيل**" خارجا منه، في طريقه إليها ليتناول العشاء معها. فداعبناه ببعض الفكاهات، التي انتقم لنفسه منها بلباقة، إذ اضطرنا إلى أن نشاركه نفس العشاء، ثم راح يسخر منا بدوره. وبدت لي الفتاة المسكينة حلوة السجايا، مفرطة الدعة، غير مدربة على مهنتها التي كانت تبصرها بها – بقدر الإمكان – عجوز ماكرة كانت برفقتها. واستخفنا الحديث والشراب إلى درجة نسينا معها أنفسنا. ولم يشأ "**كلبفيل**" الطيب أن ينتقص من كرمه، فتعاقب ثلاثتنا على غرفة مجاورة مع الفتاة، التي لم تدر أكان لها أن تضحك أم أن تبكي!.. ولقد اعتاد "**جريم**" دائما أن يؤكد أنه لم يمسسها، وأنه ما طال المكث معها إلا ليستعذب إطالة انتظارنا، ونفاد صبرنا. وإذا كان قد تعفف عنها، فمن غير المحتمل أن ذلك كان عن توجس من الفتاة، إذ إنه – قبل التحاقه بخدمة الكونت "**دي فيريز**"، وإقامته في داره – أقام لدى فتيات من غانيات حي "**سان روش**" بالذات.

وخرجت من شارع "**ديه موانو**" – حيث كانت الفتاة تقيم – وأنا أشد استحياء من القديس "**بريو**"، حين بارح المنزل الذي أسكر فيه. ولقد كنت أتمثل قصتي بجلاء، وأنا أكتب قصته!.. ولاحظت "**تيريز**" أن في الأمر شيئا، لاسيما وانني كنت مرتبكا، وكنت أبدو ساخطا على نفسي. وقد تخففت من العبء، بأن اعترفت لها بصراحة وإيجاز. وكم أحسنت صنعا، إذ إن "**جريم**" جاءها – في الصباح التالي – متشفيا، وروى لها ذنبي في مبالغة. ومنذ ذلك الحين، لم يكف قط عن أن يذكرها به في خبث وإغاظة. وكان هذا أشنع ذنوبه، فقد كان من حقي – إذ ائتمنته على سري طواعية، وفي غير تحفظ – أن أتوقع منه الا يحملني على أن أندم يوما على هذه الثقة.

أبدا لم أشعر بطيبة قلب "**تيريزي**"، كما شعرت بها في هذه المناسبة، فقد أبدت من الذهول والاستنكار لتصرف "**جريم**"، أكثر مما أبدت من الاستياء لعدم وفائي، فلم أتجشم أكثر من أن تقبلت منها عتابا رقيقا، مؤثرا، لم ألمح خلاله أي أثر لسخط أو ضغينة!.. لقد كانت سذاجة عقل هذه الفتاة الرائعة، تعادل طيبة قلبها، وهذا جل ما يقال!.. على أن ثمة مثالا لذلك، جديرا بالذكر، يحضرني الآن.. فلقد ذكرت لها أن "**كلبفيل**" كان قسا، وراعيا لأمير "**ساكس – جوثا**". وكان القس – في رأيها – رجلا ممتازا، حتى إنها في تخبطها بين الأفكار المتباينة، أخذت "**كلبفيل**" على انه "**البابا**". ومن ثم فقد ظننتها اختبلت، حين أنبأتني – ذات مرة – عند عودتي إلى المنزل، بأن "**البابا**" قد حضر لزيارتي. واستدرجتها حتى أوضحت، ثم انطلقت بأسرع ما وسعني لأروي هذه القصة لـ"**جريم**" و"**كلبفيل**"، الذي لصق به اسم "**البابا**".. كما أطلقنا على غانية شارع "**ديه موانو**"، اسم "**الماما جان**" (١)!.. وكان هذا مثار ضحك عز علينا أن نخمده، حتى كدنا نختنق!.. إن أولئك الذين جعلوني أقول – في خطاب حلا لهم أن ينسبوه إليّ – إنني لم أضحك في حياتي سوى مرتين، لم يعرفوا شيئا عني في هذه الفترة، أو في أيام صباي، وإلا ما خطرت لهم هذه الفكرة إطلاقا!

---

(١) Papesse.. لم نجد ترجمة لهذه الكلمة خيرا من "الماما"!

من سنة ١٧٥٠

إلى سنة ١٧٥٢

علمت في العام التالي – سنة ١٧٥٠ – أن مقالي فاز بالجائزة في "**ديجون**"، وكنت قد كففت عن التفكير فيه. فأيقظ هذا النبأ – من جديد – كل الأفكار التي كانت قد أوحت إلي به، وبث فيها قوة جديدة، وأدى إلى أن تحركت – للمرة الأولى – رواسب البطولة والفضيلة التي كان أبي، ووطني، و"**بلورتارخ**" قد أودعوها قلبي في طفولتي. فلم أعد أجد ما هو أعظم وأجمل من أن أكون حرا وفاضلا، وأن أرتفع بنفسي فوق اعتبارات الحظ والرأي العام، وأن أكون مستقلا بذاتي. ومع أن الحياء الزائف، والخوف من الرأي العام منعاني – بادئ الأمر – من أن أمضي وفقا لهذه المبادئ، ومن أن أخرج فجأة، وعلانية، على عادات وعرف القرن الذي أعيش فيه.. إلا أنني منذ ذاك الحين عقدت عزمي، ولم أرجئ تنفيذ ما انتويت لأمد أطول مما كان يتطلبه هذا الانقلاب كي يغدو موفقا.

وفيما كنت أرسم فلسفتي عن واجبات الإنسان، وقع حادث جعلني أفضل التفكير في واجباتي الشخصية. فقد كانت "**تيريز**" حبلى للمرة الثالثة.. وفي أمانة تامة بيني وبين نفسي، وفي اعتزاز مفرط، صدف بي عن الرغبة في أن تكون أعمالي مكذبة لمبادئي، شرعت أدرس مصير أولادي وعلاقتي بأمهم، على ضوء قوانين الطبيعة، والعدالة، والعقل، والدين.. الدين القدسي، الأزلي، كما أراده خالقه، لا كما شوهه البشر في تظاهرهم بالرغبة في تطهيره، ولا كما حوله الناس – بقوانينهم الموضوعة – إلى مجرد عقيدة قوامها الكلمات.. فإن فرض المستحيل لا يبهظ الناس ما داموا يتغافلون عن تنفيذه!

ولو أنني كنت مخطئا في استنتاجاتي، لما كان ثمة ما هو أدعى للدهشة من الطمأنينة، التي أقبلت بها عليها.. ولو أنني كنت من أولئك الناس ذوي المنبت الوضيع، وذوي الآذان المغلقة دون صوت الطبيعة الرقيق، وذوي النفوس التي لا ينبت فيها أي إحساس صادق بالعدالة والإنسانية، لكان جمود قلبي ميسور الإدراك. ولكن ما أوتيت من حرارة القلب، وإرهاف الحس، وسهولة التعلق بالناس، وهذا السلطان الذي كانت تفرضه علي علاقاتي بهم، وهذه اللوعات القاسية التي كنت أعانيها إذا ما اضطررت إلى قطع العلاقات.. وهذه النية الطيبة التي فطرت عليها نحو أقراني، وحبي المتأجج لكل ما هو عظيم، وما هو صادق، وما هو جميل، وما هو عدل.. وهذا الجزع من السوء بكل أنواعه، وهذا العجز عن الكراهية والحقد، بل وعن تمنيهما.. وهذا الحنان، وهذا الشعور الناعم الوثاب الذي أحس به حين أرى كل ما هو فاضل وكريم ولطيف.. أفليس من الممكن لكل هذه الصفات أن تتآلف في قلب واحد، مع الحرمان الذي يدوس – في غير ما تورع – أعذب الالتزامات وأحلاها؟.. لا!.. إنني لأشعر وأجاهر بأن هذا مستحيل، فإن "**جان جاك**" لم يكن قط عديم الشعور، ناكرا لصلات الرحم، ولا كان أبا جاحدا، لحظة واحدة في حياته!.. ومن المحتمل أن أكون قد أخطأت، ولكني لم أكن قط قاسي القلب.. ولو أنني شئت أن أفضي بحججي، لتكلمت أكثر مما ينبغي. وبما أنها كانت من القوة بحيث أغوتني، فإنني أخشى أن تغوي كثيرين غيري، ولست أبغي أن أعرض الشبان – الذين قد يقرأون حديثي – لأن ينساقوا إلى الإساءة لأنفسهم بفضل هذا الخطأ. ومن ثم فسأكتفي بأن أقول إن غلطتي كانت على هذا النسق: إنني إذ أسلمت أولادي إلى الدولة لتربيهم؛ لعجزي عن تنشئتهم بنفسي، وإذ قضيت عليهم أن يصبحوا عمالا أو مزارعين، بدلا من أيصبحوا مغامرين وطلاب ثروة، كنت أظنني أؤدي تصرفا يليق بأب مواطن صالح،

وكنت أتمثل نفسي عضوا في جمهورية "**أفلاطون**". ولقد أشعرتني حسرات قلبي – في أكثر من مرة، فيما بعد – أنني كنت مخطئا، ولكن عقلي كان أبعد من أن يوحي إليّ بنفس الرأي، ومن ثم فإنني كثيرا ما باركت السماء لأنها صانتهم مما لقيه أبوهم في حياته، ومن الحظ الذي كان يتهددهم إذا ما اضطررت إلى التخلي عنهم. ولو أنني أسلمتهم إلى السيدة "**ديبيناي**". أو السيدة "**دي لوكسمبورج**"، اللتين رغبتا – فيما بعد – في أن تكفلاهم، سواء بدافع من الصداقة، أو من الكرم، أو من أي حافز آخر.. لو أنني فعلت ذلك، فهل تراهم كانوا يغدون أكثر سعادة، أو ينشئون رجالا أمناء محترمين، على الأقل؟..

لست أدري، ولكنني واثق بأنهم كانوا خليقين بأن ينشئوا على كراهية أبويهم، وربما على الغدر بهما!.. ومن ثم فقد كان من الأفضل مائة مرة، أنهم لم يعرفوا أبويهم!

وهكذا أسلم ابني الثالث إلى ملجأ اللقطاء، كما كان شأن الطفلين السابقين.. وكذلك كان شأن الطفلين التاليين، إذ إنني أوتيت خمسة. ولقد بدا لي هذا الإجراء ملائما، حكيما، مشروعا، إلى درجة أنني إذا كنت لم أفخر به علانية، فإنما كنت أصدر في ذلك عن شيء من مراعاة خاطر أمهم.. على أنني أنبأت به كل أولئك الذين كنت قد أطلعتهم على علاقتي بها.. قلته لـ"**ديدرو**"، ولـ"**جريم**"، كما ذكرته – فيما بعد – للسيدة "**ديبيناي**"، ثم للسيدة "**دي لوكسمبورج**" بعد ذلك.. ولقد فعلت ذلك صراحة، وبمطلق الحرية، دون أي اضطرار، وكان بوسعي أن أخفي الأمر بسهولة عن الناس أجمعين.. إذ إن الآنسة "**جوان**" (١) كانت أمينة، كتومة جدا، وكان بوسعي أن أطمئن إليها كل الاطمئنان. وكان الوحيد من أصدقائي، الذي كنت أجد مصلحة في أن أكشف له سري، هو الطبيب "**ثييري**"، الذي عني بعمتي المسكينة، في إحدى مرات الوضع، عندما ساءت حالها. ومجمل القول إنني لم أحط تصرفي بشيء من الغموض، لا لأنني لم أتعلم قط أن أكتم شيئا عن أصدقائي فحسب، وإنما لأنني لم أكن أرى – في الواقع – أي ضير في ذلك. إذ إنني – إذا قدرنا كافة الاعتبارات – قد اخترت لأولادي الخير، أو ما آمنت بأنه الخير. بل إنني كنت أتمنى – ولا أزال – لو أنني نشأت وتربيت على شاكلتهم!

*****

وفي الوقت الذي كنت أسجل فيه اعترافاتي هذه، كانت السيدة "**لوفاسيير**" تحذو حذوي – من ناحيتها – بيد أنها كانت تعرض آراء أقل تشويقا. وكنت قد قدمتها – هي وابنتها – إلى السيدة "**دوبان**" التي أولتهما ألف آية من آيات الطيبة، بدافع من صداقتها لي. ولقد أطلعتها الأم على سر ابنتها. فما كان من السيدة "**دوبان**" الطيبة، السخية، التي لم تطلع قط على مدى حرصي على أن أوفر لهما كل أسباب العيش – برغم تواضع مواردي – إلا كفلت للابنة معاشا سخيا كتمت عني هذه سره، بأمر من أمها، طيلة مقامي في "**باريس**"، فلم تعترف لي به إلا في "**الأرميتاج**"، وبعد أن كشفت لي عن عدة أمور أخرى كانت تخفيها في صدرها. ولقد كنت أجهل أن للسيدة "**دوبان**" علما بشيء، إذ إنها لم تبد إطلاقا أية إشارة.. كما أنني أجهل ما إذا كانت السيدة "**دي شينونسو**" – زوجة ابنها – على علم بالأمر هي الأخرى. على أن السيدة "**دي فرانكويي**" – زوجة ابن زوجها – أحاطت به، ولم تستطع أن تمسك لسانها، فتحدثت إلي عنه في العام التالي، بعد أن كنت قد تركت دار الأسرة. وقد حملني هذا على أن أكتب لها – عن هذا الموضوع – رسالة توجد في أوراقي، وقد عرضت فيها من حججي، ما كان بوسعي أن أذكره دون أن أقحم السيدة "**لوفاسير**" وأسرتها، إذ إن

---

(١) الآنسة "جوان" هي القابلة أو المولدة التي كانت تعنى بـ"تيريز" عند الوضع، وتتكفل بتسليم الأطفال إلى ملجأ اللقطاء.

معظم الحجج والأسباب الحاسمة كانت منبعثة من ناحيتهم، وقد تكتمتها (١).

إنني لأطمئن إلى كتمان السيدة "**دوبان**" للأمر، وإلى مودة السيدة "**دي شينونسو**"، وكذلك كنت مطمئنا من ناحية السيدة "**دي فرانكويي**"، لا سيما وأنها توفيت قبل أن يشيع سري مدويا، بوقت طويل. ومن ثم فإنه ما كان ليتفشى إلا على السنة أولئك الذين أفضيت إليهم به بالذات!.. والواقع أن هذا لم يحدث إلا بعد أن تقطعت بيني وبينهم الصلات. وبهذا وحده يمكن الحكم عليهم في الواقع، دون رغبة مني في أن أعفي نفسي من اللوم الذي أستحقه، بل إنني لأوثر أن آخذ الذنب على عاتقي، على أن أقضي عليهم بما يستحقه خبثهم. إن ذنبي لعظيم، ولكنه لا يعدو أن يكون خطأ.. فلقد أهملت واجباتي، بيد أن الرغبة في الإيذاء لم تداخل فؤادي أبدا، ولن يقدر لمشاعر الأب أن تتحدث بإقناع عن أطفال لم يرهم إطلاقا.. ولكن خيانة ثقة الصداقة، وانتهاك حرمة أقدس المعاهدات، ونشر الأسرار التي سكبت في صدورنا، والحط عمدا من قدر الصديق المخدوع الذي ما يزال يحترمنا وهو ينأى بجانبه عنا.. هذه كلها ليست أخطاء، ولكنها خسة نفس وسخيمة!

لقد وعدت بأن أقدم اعترافاتي، لا تبريرات تصرفاتي؛ ومن ثم فإنني أقف – في هذا الموضوع – عند هذا الحد. ومن واجبي أن أكون صادقا، وللقارئ أن يكون عادلا. ولن أطالبه قط بأكثر من هذا.

*****

وأدى زواج السيد "**دي شينونسو**" إلى أن أصبحت أكثر ارتياحا إلى دار أمه، بفضل مزايا الزوجة الجديدة وعقلها. فقد كانت شابة مفرطة اللطف، بدا أنها آثرتني من بين الكتبة الذين كانوا في خدمة السيد "**دوبان**".. وكانت الابنة الوحيدة للسيدة "**فيكونتة دي بروشيشوار**"، الصديقة الحميمة للكونت "**دي فرييز**"، وبالتالي لـ"**جريم**" الذي كان ملحقا بخدمته. على أنني كنت الشخص الذي قدمه إلى ابنته وأدخله دارها! (٢) ولكن طباعهما لم تتفق، ومن ثم فإن هذه الصلة لم تدم طويلا. أما "**جريم**" – الذي لم يكن يضع عينيه، منذ ذلك الحين، إلا على كل ما فيه نفع مؤزر – فقد آثر الأم، التي كانت من نجوم المجتمع الراقي، على الابنة التي كانت تنشد أصدقاء تثق بهم، وترتاح إليهم، ولا يكون لهم شأن بأية مؤامرة أو دسيسة، ولا يسعون إلى غاية بين العظماء!.. وإذ لم تجد السيدة "**دوبان**" في السيدة "**دي شينونسو**" كل ما كانت ترجوه من لين، أحالت دارها إلى مكان كئيب بالنسبة للشابة. فآثرت السيدة "**دي شينونسو**" – التي كانت معتزة بميزاتها، وربما بمنبتها أيضا – أن تنبذ ملاهي المجتمع، وأن تبقى وحيدة – تقريبا – في مخدعها، على أن تحتمل نيرا لم تكن تحس بأنه يلائمها!

ولقد أدى هذا الاعتزال إلى مضاعفة تعلقي بها، مدفوعا بذلك الميل الطبيعي الذي كان يجتذبني إلى التعساء. ولقد وجدت فيها عقلا مفكرا يميل إلى ما وراء الطبيعة، وإن كان في بعض الأحيان ينحو إلى السفسطة. وكان حديثها جد جذاب لي. إذ إنه كان بعيدا عن أن يكون حديث شابة تركت مدرسة الدير من عهد قريب، ومع عمقه هذا، فإنها لم تكن قد بلغت العشرين من عمرها!.. وكانت بشرتها بيضاء ناصعة تبهر الأبصار، كما أن قوامها كان خليقا بأن يبدو مهيبا وجميلا، لو أنها أقامت عودها مستويا. أما شعرها فقد اختلطت شقرته بسمرة باهتة، في جمال نادر. مما كان يذكرني بـ"**ماما**" البائسة في أوج شبابها، فكان يهيج فؤادي. بيد أن المبادئ القويمة التي كنت قد رسمتها لنفسي – من عهد قريب – وآليت أن أتبعها مهما تكبدت، جعلتني في أمان منها، ومن مفاتنها!..

---

(١) سترد هذه "الأسباب الحاسمة" في الكراسة التاسعة. (٢) يقصد "روسو" أن العروس كانت ابنة الكونت "دي فرييز" من علاقته "بالفيكونتة دي روشيشوار"، ولكنها تنسب "للفيكونت"، ومن ثم فإنها كانت تجهل اباها الحقيقي، الذي قدم إليها كصديق!

ولقد اعتدت – طيلة فصل الصيف باكمله – ان اقضي معها ثلاث أو أربع ساعات في عزلة، ألقنها الحساب في درس جدي، واضايقها بارقامي التي لا تنتهي، دون أن أقول لها كلمة غزل واحدة، ودون أن أرمقها بنظرة!.. ولو أن هذا حدث بعد خمس أو ست سنوات من تلك الفترة، لما كنت قمينا بأن أكون عاقلا أو غبيا إلى هذا الحد.. ولكن القدر كان قد كتب علي الا أحب حبا حقيقيا سوى مرة واحدة في حياتي، وأن تكون أول وآخر زفرات قلبي على امرأة غير هذه!

ولقد كنت دائما – مذ أقمت في دار السيدة "**دوبان**" – راضيا بنصيبي، لا أبدي أية رغبة في أن يتحسن. ولقد جاءت الزيادة التي أضافتها السيدة إلى مرتبي – بالاشتراك مع السيد "**دي فرانكويي**" – صادرة عن محض إرادتهما وحدهما فحسب.. وفي هذا العام، فكر السيد "**فرانكويي**" – الذي كانت صداقته لي تزداد يوما بعد يوم – في أن يضعني في مركز أعلى قدرا، وأكثر ثباتا. ولقد كان محصلا عاما لمالية "**فرنسا**"، وإذا كان السيد "**دودوييه**" – أمين خزانته – مكتهلا وغنيا، وراغبا في أن يعتزل العمل، فقد عرض علي السيد دي "**فرانكويي**" هذا المنصب.. ولكي أعد نفسي لتوليه، ترددت لبضعة أسابيع على دار السيد "**دودوييه**" لأتلقى عنه الإرشادات الضرورية. وسواء كنت لم أوت موهبة لهذا العمل، أو أن "**دودوييه**" – الذي بدا لي راغبا في أن يعهد بهذا المنصب إلى خليفة آخر – لم يكن يلقنني أصول المهنة عن طيب خاطر، فإنني رحت ألم بالمعلومات التي كنت محتاجا إليها، في بطء وسوء استيعاب.. ولم ينفذ إلى رأسي قط نظام الحسابات التي كانت معقدة عن قصد ونية مبيتة. على أنني وإن لم أستوعب دقائق المهنة، لم أتوان قط عن أن أمضي مهرعا نحو المقدرة على ممارسة مهام الإدارة. بل إنني شرعت فيها، فتوليت السجلات والخزانة، وصرفت وتسلمت نقودا، وأصدرت إيصالات. ومع أن ما لدي من ميل أقل من أن يؤهلني لهذه المهنة، إلا أن تقدم سني جعلني حكيما، فعقدت العزم على أن أتغلب على نفوري من أن أنصرف بكل نفسي إلى وظيفتي. ولكن سوء الحظ شاء – في الوقت الذي بدأت آلف عملي فيه – أن يقوم السيد "**دي فرانكويي**" برحلة قصيرة، ظللت خلالها الموكل الوحيد بخزانته، التي لم يكن يودعها – في ذلك الوقت – سوى مبلغ يتراوح بين خمسة وعشرين ألفا وثلاثين ألفا من الفرنكات. فإذا القلق وانشغال البال، اللذان سببتهما هذه الأمانة، يقنعانني بأنني لم أخلق لأكون صرافا.

ولست أرتاب في أن اللهفة التي رحت أرتقب بها عودة السيد "**دي فرانكويي**" قد ساهمت في المرض الذي وقعت فريسته عقب هذه العودة.

ولقد قلت في الجزء الأول من اعترافاتي إنني كنت موشكا على الموت عندما ولدت. وكان ثمة عيب في تكوين المثانة، أدى إلى احتباس البول بصفة شبه مستمرة، خلال سني عمري الأولى، فكانت عمتي "**سوزان**" – التي تولت العناية بي – تلقى عناء لا يمكن تصوره، كي تصون حياتي. على أنها أفلحت في ذلك، واستطاعت بنيتي القوية أن تتغلب في النهاية، فتحسنت صحتي كثيرا خلال صباي.. وماعدا نوبة الضعف والهزال التي ذكرتها من قبل، وماعدا كثرة احتياجي إلى التبول، الأمر الذي كان أقل ارتفاع في الحرارة يجعله عملية متعبة.. فيما عدا ذلك فإنني بلغت الثلاثين من عمري، دون أن أحس بما كان في جسمي من عيب سابق.

وأصابتني أولى العلل عند وصولي إلى "**البندقية**". فإن عناء الرحلة، والحر الشديد الذي عانيته، جلبا علي رغبة مستمرة في التبول، وأوجاعا في الكليتين، لازمتني حتى مقدم الشتاء.

ولقد أيقنت بعد زيارتي للغانية أنني ميت، ولكنني – مع ذلك – لم أعان أقل تعب.. وبعد أن أرهقت نفسي بالوهم – أكثر مني بآلام جسدية – بسبب "**جوليتا**"، إذا بصحتي خير مما كانت في

أي يوم. وظللت هكذا إلى ما بعد سجن "**ديدرو**"، إذ إن اشتداد سخونة دمي – خلال رحلاتي إلى "**فانسين**" في الحر القائظ الذي كان سائدا إذ ذاك – أدى إلى ألم عنيف في الكليتين، لم أستعد – مذ واتاني – صحتي الأولى!

وفي الفترة التي أتحدث عنها، أدى إسرافي في إرهاق نفسي بالعمل البغيض في تلك الخزانة اللعينة، إلى أن اضمحلت صحتي أكثر من ذي قبل، ومكثت في فراشي خمسة أسابيع أو ستة، في أشد اغتمام يمكن تصوره. وأوفدت السيدة "**دوبان**" لعيادتي "**موران**"، الذي كان ذائع الصيت، والذي سبب لي – برغم مهارته ورقة لمساته – أوجاعا لا تخطر ببال، ولم يستطع قط أن يصل إلى موطن علتي، فنصحني بأن ألجأ إلى "**داران**"، الذي استطاع بمجساته – وكانت أكثر مرونة – أن يخفف عني بعض الأوجاع. على أن "**موران**" – حين أنبأ السيدة "**دوبان**" بحالي – صارحها بأنني لن أكون على قيد الحياة بعد ستة أشهر. وحملني هذا الحديث – الذي نمى إلي – على أن أفكر جديا في حالي، وفي حماقة التضحية براحة جسمي وبالي في الأيام القلائل التي تبقت لي في الحياة، لأغدو مستعبدا لوظيفة لم أكن أشعر نحوها بأي ميل!.. ومن ناحية أخرى، كيف كان لي أن أوفق بين المبادىء القاسية التي اتخذتها لنفسي،، وبين منصب لم يكن يتسق معها إلا قليلا؟.. ألم يكن من المجافاة للذوق أن أدعو – وأنا المحصل العام للمالية – إلى التجرد من المصلحة الذاتية، وإلى الفقر؟

واشتد تخمر هذه الآراء في رأسي باشتداد الحمى، وراحت تتماسك بقوة، حتى إن شيئا لم يقو – منذ ذاك الحين – على تبديدها، فوطدت عزمي – خلال فترة نقاهتي – على تنفيذ ما استقر عليه رأيي خلال اشتداد الحمى!.. ونبذت إلى الأبد كل مشروع للإثراء والرفعة، معتزما أن أقضي في الاستقلال والفقر، الفترة القصيرة التي تبقت لي في الحياة، فاستخدمت كل قوى روحي في تحطيم أغلال الرأي العام، وفي أن أقدم بشجاعة على ما أراه خيرا، دون أن أحفل البتة برأي الناس.

وكانت العقبات التي اضطررت لمغالبتها، والجهود التي بذلتها للانتصار عليها، فوق كل تصور. وقد وفقت بقدر المستطاع، بل وأكثر مما كنت أرجو، ولو أنني نجحت في أن أدفع عني ربقة الصداقة، بقدر توفيقي في التحرر من ربقة الرأي العام، لبلغت غاية مأربي، بل لعلها كانت أعظم الغايات التي خطرت لمخلوق فان، وأدعاها – على الأقل – للفضيلة.. على أنني – إذا رحت أتخبط تحت أقدام الأحكام الخرقاء التي تصدر عن قطيع الأدعياء الذين يسمون العظماء، والذين يسمون الحكماء – أسلم نفسي وأنقاد كالطفل لأولئك الذين كانوا يسمون أنفسهم أصدقاء، والذين كانوا يغارون من أن يروني أشق وحدي طريقا جديدة. وأنا أبدو جد منهمك في إسعاد نفسي، فلم يعودوا يفكرون – في الواقع – إلا في أن يجعلوني مشارا للضحك، وشرعوا في العمل على تحقيري؛ لكي يصلوا من وراء ذلك إلى تشويه سمعتي!.. كان تغير شخصيتي، الذي بدأ في هذه الفترة – وليست شهرتي الأدبية – هو الذي أثار غيرتهم مني.. ولكنهم لم يستطيعوا أن يغفروا لي أن ضربت بمسلكي مثالا بدا أنه ضايقهم!.. لقد فطرت على الود، فكانت طباعي السلسة الوديعة تغذي هذا الود دون عناء. ولقد كنت محبوبا من كل أولئك الذين عرفوني، طالما كنت أعيش مجهولا لدى الرأي العام، فلم يكن لي عدو واحد.. على أن اسمي لم يكد يلمع، حتى أصبحت بلا أصدقاء!.. وكانت هذه نكبة كبرى، ولكن الأكبر منها أنني كنت محاطا بقوم كانوا يسمون أنفسهم أصدقاء، في حين أنهم لم يكونوا يستغلون الامتيازات التي يتيحها هذا الاسم، إلا لكي يجروني إلى الهلاك!.. ولسوف تنكشف في سياق هذه المذكرات، تلك المؤامرة البشعة. على أنني سأكتفي – في الوقت الحاضر – بأن أشير إلى أصلها، وسيتبدى عما قريب كيف تشكلت أولى حلقاتها!

كان لابد لي، في الاستقلال الذي أردت أن أحيا فيه، من أن أحصل على القوت. وصور لي خيالي وسيلة جد سهلة، هي نسخ الموسيقى مقابل كذا للصفحة. ولو أن عملا أكثر ثباتا من هذا كان يؤدي إلى الغاية ذاتها، لأقدمت عليه.

ولكن هذه المهنة كانت توائم ميولي، كما أنها كانت الوحيدة الكفيلة بأن تهيئ لي قوتي من يوم إلى آخر، دون أن تقتضيني خضوعا أو تبعية لأحد. ومن ثم قنعت بها.. واعتقادا مني بأنني لم أعد بحاجة إلى أن أعول هم المستقبل، خنقت صوت غروري، وانقلبت من صراف لأحد رجال المال، إلى ناسخ موسيقي!.. وظننت أنني قد كسبت كثيرا بهذا الاختيار، فلم يداخلني ندم يذكر، حتى إنني لم أتخل عن هذه المهنة إلا بحكم الظروف القاهرة، لأعود فأحترفها بمجرد أن وسعني ذلك.

ولقد أدى نجاح مقالي الأول، إلى زيادة تيسير تحقيق هذا القرار. وقد تكفل "**ديدرو**" بطبع المقال بعد فوزه بالجائزة. وقد كتب لي – وأنا طريح الفراش – رسالة أعلنني فيها بنشر المقال ونتيجة ذلك. فقال: "لقد حظي بكل إطراء.. وما كان لمثل هذا النجاح مثيل من قبل". ولقد منحني هذا التحبيذ – الذي أولاه الرأي العام عن رضا لكاتب مغمور – أول اطمئنان حقيقي إلى كفاءتي التي كنت في ريب منها قبل ذلك، برغم مشاعري الداخلية. وتبينت النفع العظيم الذي كان بوسعي أن أظفر به من هذه الكفاءة، بالنسبة إلى القرار الذي كنت أهم بتنفيذه، وقدرت أن ناسخا على قسط من الشهرة الأدبية، لن يعاني الحاجة إلى العمل إطلاقا!

وما إن استقر رأيي وتوطد عزمي، حتى كتبت إلى السيد "**دي فرانكويي**" أنبئه بذلك، وأشكر له – وللسيدة "**دوبان**" كذلك – كل أنعمهما، سائلا إياهما أن يعهدا إلي بما يرغبان في نسخه. ولم يفقه "**فرانكويي**" من هذه الرسالة شيئا، بل ظن أنني مازلت في فترة اشتداد الحمى، فهرع إلى داري، ولكنه لم يستطع أن يزعزعني عنه.. وذهب فأنبأ السيدة "**دوبان**" والناس كلهم بأنني قد اختبلت، فتركته يقول ما شاء، ومضيت في طريقي. وبدأت إصلاح ملابسي بنفسي، فتخليت عن الزوائد المطرزة بالقصب، وعن الجوارب البيضاء، وارتديت قلنسوة مستديرة من الشعر المستعار، وطرحت عني سيفي، وبعت ساعتي، وهتفت لنفسي في غبطة تفوق التصور: "الحمد للسماء، فلن تعود بي حاجة إلى تعرف كم الساعة!". وتكرم السيد "**فرانكويي**" بالتريث فترة طويلة، قبل أن يتصرف بشأن خزانته، حتى إذا رأى – في النهاية – أنني مصر على قراري، عين السيد "**دالبيار**"، الذي كان قبل ذلك مربيا ومعلما لـ"شينونسو" في صغره، والذي كان معروفا في ميدان فلاحة البساتين بكتابه عن "الزهور **الباريسية**" (١).

ومما خفف من عنت انقلابي التقشفي، أنني لم أطبق الزهد – في البداية – على ملابسي الداخلية المتبقية مما كان لدي في "**البندقية**" فقد كانت جميلة ووفيرة، وكنت مولعا بها بوجه خاص. وبفضل اضطراري إلى أن أتخذها مظهرا للنظافة، إذا بي أجعلها موضع بذخ وترف، الأمر الذي لم يلبث أن أبهظني.

ولقد تكرم علي شخص ما فخلصني من هذه الربقة. ففي أمسية عيد الميلاد، وبينما كانت الخادمات في قداس الغروب، بينما كنت في "حفلة موسيقية روحية" (٢) اغتصب باب غرفة في أعلى الدار، كان غسيلنا منشورا فيها بعد غسله.. وسرقت الثياب جميعها، وكان بينها اثنان وأربعون قميصا لي من أبدع الأقمشة، كانت تؤلف الشطر الأكبر من ثيابي الداخلية. ومما ذكره

---

(١) اضاف "روسو" إلى هذا قوله: "لست اشك إطلاق في ان "فرانكويي" وخلصاءه يرددون رواية مناقضة لهذه، ولكني أستشهد بما قاله "فرانكويي" – إذ ذاك – وما ظل يردده للملأ وقتا طويلا بعد ذلك، إلى ان تكونت المؤامرة. ولابد ان ذوي الإدراك السليم والأم الطيبة، لا يزالون يذكرون قوله". (٢) وهي حفلات لا تعزف فيها سوى الموسيقى الدينية، كنوع من الرياضة الروحية.

الجيران شوهد رجل يغادر الدار – في تلك الفترة – حاملا بعض اللفائف. ولقد ارتابت "**تيــريز**" وإياي في أخيها، الذي عرف بأنه امرؤ سوء.. وراحت الأم تدفع هذا الاشتباه بحمية، ولكنه تأكد بادلة كثيرة عززته لدينا، بالرغم من استنكارها إياه. ولم أجسر على القيام بتحقيق دقيق، خشية أن أكتشف أكثر مما كنت أحب. على أن الأخ لم يظهر بعد ذلك في داري، وما لبث أن اختفى تماما. ولقد رثيت لسوء طالع "**تيــريز**" وطالعي، لارتباطنا بأسرة على هذه الشاكلة، ورحت أناشدها أكثر من ذي قبل، أن تطرح عنها عبئا خطيرا كهذا. ولقد أبرأني هذا الحادث من ولعي بالثياب الداخلية الجميلة، ولم أعد أقتني بعد ذلك سوى ثياب من أقمشة عادية، تتمشى مع بقية ملابسي.

وإذ استكملت انقلابي الإصلاحي بهذا الشكل، لم يعد لي من هم سوى أن أدعمه وأعززه، بالعمل على أن أجتث من قلبي كل ما كان عرضة للتأثر بآراء الناس.. وكل ما كان بوسعه أن يحولني – بدافع من الخوف أو من اللوم – عن كل ما كان في حد ذاته طيبا ومعقولا. وإلى جانب الضجة التي أحدثها مقالي، أثار قراري ضجة هو الآخر، وجلب علي عملا مكنني من أن ابدأ مهنتي الجديدة بتوفيق لا بأس به. على أن عدة أسباب عاقتني عن أن انجح في هذه المهنة بالقدر الذي كنت قمينا بأن أحصل عليه في ظروف أخرى. وكان أول هذه الأسباب صحتي السيئة. فإن مرضي الأخير خلف معقبات منعتني من أن أستعيد حالي الصحية السابقة، وإني لأعتقد بأن الأطباء الذين أسلمت نفسي إلى رعايتهم، ألحقوا بي من الضرر فوق ما ألحقه المرض. فلقد سعيت بالتوالي إلى "**موران**"، فـ"**داران**"، فـ"**هيلفيتيوس**"، فـ"**مالوان**"، فـ"**تييري**".. وكانوا جميعا من الأساتذة، وكلهم من أصدقائي، وقد عالجني كل منهم على طريقته دون أن يخفف عني شيئا، بل إنهم أضعفوني كثيرا. وكنت كلما حملت نفسي على اتباع إرشاداتهم، ازددت شحوبا، وهزالا، وضعفا. وأخذ خيالي – الذي أزعجوه – يقيس حالي بمدى مفعول عقاقيرهم، فلم يعد يصور لي سوى سلسلة متتابعة من الآلام، التي تسبق الموت، ومن احتباس البول، والحصباء، وأحجار القبر!.. كانت كل ألوان العلاج التي تخفف عن الغير – من مياه طبية، وحمامات، وحجامة – لا تزيد أوجاعي إلا استفحالا. وإذ وجدت أن مجسات "**داران**" – وهي الوحيدة التي أدت إلى بعض النتائج، وجعلتني أعتقد أن لا سبيل لي إلى الحياة بدونها – لم تكن تهيئ لي، برغم ذلك، سوى تسكين مؤقت للأوجاع، فقد بادرت إلى إنفاق مبلغ جسيم في اقتناء كمية هائلة من المجسات، تكفيني طيلة العمر، ولو فارق "**داران**" الحياة!.. ولابد أنني أنفقت خمسين "**لوي**" على الأقل، خلال السنوات الثماني أو العشر التي استخدمت فيها هذه المجسات دون انقطاع!.. ومن اليسير تبين أن علاجا باهظ النفقات، مؤلما مزعجا كهذا، كان يشغلني عن العمل، وأن المرء إذا ما كان مشرفا على الموت، لا يشعر برغبة ملهوفة في كسب خبزه اليومي!

*****

وكانت الشواغل الأدبية ملهاة أخرى، لا تقل عن سابقتها عدوانا على عملي اليومي. فما هو أن نشر مقالي، حتى انقض علي حماة الأدب، وكأنهم عصبة جمعت صفوفها. وغاظني أن أجد مثل هذا العدد من "السادة **جس**" الصغار (١)، يحاولون أن يفرضوا سلطانهم وإن لم يكونوا على دراية بالأمر، فقد امتشقت قلمي، وعالجت فريقا منهم بطريقة لم تدع ضحكات في صفوفهم!.. وكان أول المتهاوين تحت طعنات قلمي، سيد من "**نانسي**" يدعى السيد "**جوتييه**"، فقد أهين بغلظة في رسالة

(١) السيد "جس" إحدى شخصيات مسرحية "موليير" "طبيب الغرام" وقد استعار "روسو" هذا الاسم ليرمز إلى المتحامل الذي تعميه المصلحة الشخصية عن الحق".

إلـى "**جـريم**" . أما الثاني، فكان الملك "**ستانيسلاس**" (١) نفسه، الذي لم يتورع عن أن يخوض المعركة ضدي. وقد اضطرني الشرف الذي أضفاه عليّ، إلى أن أبدل لهجتي في الرد عليه، فاتخذت لهجة أكثر وقارا، وإن لم تكن أقل شدة.

ففندت رسالته تماما، دون أن أغض من احترام المؤلف. ولقد عرفت أن "**جيزويتيا**" يدعى الأب "**مـينو**" كان ذا يد في الموضوع، فاعتمدت على فطنتي في التفرقة بين عمل الأمير وعمل الراهب، وانقضضت دون إشفاق على كل العبارات الجيزويتية، فكشفت – في طريقي – عن خطأ تاريخي كنت أعتقد أنه لا يصدر إلا عن قلم قداسته. وهذا المقال – الذي كان أقل من سواه إثارة للضجيج لسبب ما – يعتبر في حد ذاته فريدا في نوعه. فقد انتهزت فيه الفرصة لأبين للرأي العام كيف أن في وسع فرد معين أن يذود عن قضية الحق، ضد عاهل ذي سلطان. وكان من العسير أن أتخذ لهجة أبية ومحترمة – في الوقت ذاته – تفوق تلك التي اتخذتها في ردي عليه. وكنت مجدودا إذ قدر لي أن أنازل غريما كان قلبي مفعما نحوه بتقدير كنت أملك أن أبديه له دون ما تملق. ولقد ظن أصدقائي – الذين انزعجوا من أجلي – أنهم لن يلبثوا أن يروني في "**الباستيل**"، ولكن الخوف من ذلك لم يداخلني لحظة واحدة... وكنت محقا. فقد قال هذا الأمير الطيب، بعد أن اطلع على ردي: "لقد تلقيت جزائي، ولن أزج بنفسي في الأمر بعد ذلك". ومن ذلك الحين، تلقيت منه الكثير من أمارات التقدير والكرم – التي سأضطر إلى ذكر بعضها – وانتشر مقالي في "**فرنسا**" وأوربا في هدوء، دون أن يجد امرؤ فيه منفذا إلى لوم!

وصادفت – بعد ذلك بقليل – غريما آخر لم أكن أتوقعه هو السيد "**بورد**" الذي كنت أعرفه في "**ليـون**"، والذي أولاني – قبل عشر سنوات – كثيرا من الود، وأدى لي عدة خدمات، ولم أكن قد نسيته، ولكني كنت قد تغافلت عنه تكاسلا، كما أنني لم أكن قد أرسلت إليه مؤلفاتي، إذ أعوزتني الفرصة المواتية لأبعث بها إليه – وكنت في ذلك مخطئا. ولقد هاجمني – ولكن في أدب وأمانة – فرددت عليه بنفس اللهجة. وعاد إلى الهجوم بإصرار، فأفسح بذلك المجال إلى رد مفحم، لم ينبس بعده بكلمة (٢)، ولكنه صار أشد أعدائي، وانتهز وقت محنتي ليوجه إلي شتائم مقذعة، كما رحل إلى "**لندن**" خصيصا لكي يسعى إلى إيذائي!

ولقد شغلتني هذه المجادلات القلمية كل الشغل، إذ بددت كثيرا من الوقت الذي كان يتطلبه عملي في النسخ، وعاقت تقدمي في طلب الحقيقة، وحدت من الكسب الذي كان يدخل جيبي. وكان "**بيسو**" – ناشر مؤلفاتي في ذلك الحين – لا يمنحني دائما سوى مبالغ زهيدة جدا في مقابل كتيباتي، وكثيرا ما كان لا يدفع شيئا البتة. ومن أمثلة ذلك أنني لم أتلق درهما واحدا عن رسالتي الأولى، إذ أعطاه "**ديدرو**" إياها دون مقابل. وكان لابد من أن أنتظر طويلا. وأن أنتزع منه القليل – الذي كان يجود به – "**سو**" إثر "**سو**". وفي الوقت ذاته، لم تكن سوقي في النسخ رائجة، فقد كنت مشغولا بمهنتين، وهذه هي الوسيلة لكي أسيء أداء كل منهما!.. ولقد تعارضت هاتان المهنتان في ناحية أخرى، وقد تمثل هذا التعارض في تباين أسلوب الحياة الذي كانت كل منهما تضطرني إلى انتهاجه.. ذلك أن نجاح مؤلفاتي الأولى، جعلني قبلة الأنظار. إذ أثارت المكانة التي احتللتها فضول الناس، وولد الرغبة في معرفة هذا الرجل الغريب الأطوار، الذي لم يكن يخطب ود أحد، ولا يحفل إلا بأن يعيش على سجيته طليقا، سعيدا.. وكانت هذه الرغبة كافية لأن تجعل الحياة التي كنت

---

(١) الملك "ستانيسلاس" الأول"، ملك "بولندا" وقد عاش سنة ١٦٧٧ إلى سنة ١٧٦٦، وخلفه "ستانيسلاس" الثاني، آخر ملوك "بولندا"، وقد عاش بين سنتي ١٧٢٢ و ١٧٩٨، والغالب أن "روسو" قصد أولهما. (٢) يبدو أن الذاكرة خانت "روسو" هنا، إذ إنه لم يوجه إلى "بورد" سوى رد واحد، بشأن مقاله: "في فوائد العلوم" لم يرد إطلاقا على مقال كان لنفس الكاتب في الموضوع ذاته.

أنشدها مستحيلة، إذ لم تعد حجرتي تخلو من أناس كانوا يفدون ليسلبوني وقتي بمختلف الحجج. وعمدت النساء إلى ألف حيلة لاستدراجي إلى موائدهن.. وكنت كلما جافيت الناس ازدادوا إصرارا على ملاحقتي.. ولم أعد أقوى على صدهم جميعا، ففي الوقت الذي جلبت فيه على نفسي ألف عدو – بسبب الرفض – كانت رغبتي في مجاملة الغير تستعبدني، ولم أعد أحظى من يومي بساعة واحدة لنفسي، مهما أحاول!

*****

وأدركت إذ ذاك أن العيش في فقر وحرية، ليس دائما بالسهولة التي يتصورها المرء. فلقد شئت أن أعيش على مهنتي، ولكن الجمهور لم يشأ!.. وكانوا يبتكرون ألف وسيلة تافهة، لتعويضي عن الوقت الذي كان يضيع عليّ، فإذا الهدايا – من بشخصه (١). ولم أعرف عبودية أكثر قسوة وإذلالا من هذا، ولا رأيت له علاجا سوى أن أرفض جميع الهدايا، كبيرها وصغيرها، دون ما استثناء لإرضاء أحد!.. ولم يؤد كل هذا إلا إلى اجتذاب واهبي الهدايا، الذين كانوا يطمعون في أن يحظوا بفخر التغلب على صدودي، وأن يدينوني بفضلهم بالرغم مني. وكم من امرىء كان يضن عليّ بـ"ايكو" واحد – لو أنني طلبته – ولكنه راح يضايقني بعطاياه دون انقطاع، وهو يتهمني بالغطرسة والكبر، ليثأر لنفسه من رفضي!

ولابد أن القارىء قد حدس أن القرار الذي كنت قد اتخذته، والنهج الذي رغبت في انتهاجه، لم يصادفا هوى لدى السيدة "**لوفاسير**". ولم يفلح كل ما كان لدى ابنتها من تجرد من النفع الذاتي، في أن يمنع هذه الابنة من أن تنساق لتوجيهات أمها؛ ومن ثم فإن "**الدادتين**" (٢) – كما اعتاد "**جوفكور**" أن يسميهما – لم تكونا حازمتين دائما مثلي في رفض الهدايا، من ناحيتهما، ومع أن كثيرا من الأشياء توارى عني، الا أنني رأيت ما كان كافيا لأن يقنعني بأنني لم أر كل شيء!.. وقد عذبني هذا، لا خشية أن أتهم بالتواطؤ معهما – وهو ما تنبأت بأنني ملاقيه عما قريب – وإنما بسبب الفكرة القاسية التي أوحى بها عجزي من أن أكون صاحب السلطان في بيتي، وعلى نفسي!

ولقد رجوت، وتوسلت، وغضبت.. دون جدوى!.. ولقد صورتني الأم في صورة المتذمر، الأبدي التأنيب والتوبيخ، ورمتني بأنني مشاكس شرس.. وكانت لا تفتأ تتهامس مع أصدقائي.. كان كل شيء في بيتي محوطا بالغموض والأسرار، ولكني – اتقاء للتعرض للعواصف دون انقطاع – لم أعد أجرؤ على الاستفسار عما كان يجري. ولقد كان التخلص من هذا الإزعاج يتطلب حزما لم أكن أملكه، إذ إنني كنت أعرف كيف أصيح، ولكنني كنت لا أدري كيف أقرن الصياح بالعمل.. فتركت أصيح، وظل كل شيء ماضيا في مجراه؟

هذه المزعجات المستمرة، وهذه المضايقات اليومية التي كنت فريسة لها، جعلت – في النهاية – مسكني ومقامي في "**باريس**" من أبغض الأمور. وكنت إذا ما سمحت لي صحتي بالخروج، وإذا لم أنسق إلى هنا أو إلى هناك تحت إغراء معارفي، أتمشى وحيدا، وأنا أحلم بخطتي العظيمة في الحياة.

وكنت أسطر بعض الخواطر، مستعينا بمفكرة بيضاء وقلم من الرصاص اعتدت أن أحتفظ بهما في جيبي. وهكذا دفعت بي المضايقات الخفية لحال اخترتها لنفسي، إلى مهنة الأدب نهائيا، فقد رحت

---

(١) بوليشينيل: شخصية وردت في خرافات "نابولي" القديمة، يرتدي صاحبها قبعة ذات قرنين، وقد تضخم جسمه من أمام ومن خلف، وله أنف كمنقار الدجاجة، وصوت أجش حاد ينطلق في خفة (أخف).. وهو رجل شرس، صاخب، عربيد، مشاكس. (٢) الواقع أن التعبير الدارج "دادة" أدق من مربية في أداء المعنى.

ألوذ بها فرارا من تلك المضايقات. وهذا هو السر في أنني بثثت كل مؤلفاتي الأولى، المرارة والضيق اللذين دفعاني إلى أن أشغل نفسي بكتابتها.

وهناك عامل آخر ساهم في ذلك.. فإنني حين اقحمت - بالرغم مني - في المجتمع، دون أن أوتى طباعه. أو أن أكون على استعداد لأن اكتسبها، قررت أن أتخذ لنفسي طباعا خاصة تغنيني. وإذ كانت حماقتي وحيائي الممض - اللذين عجزت عن مغالبتهما - صادرين أصلا عن الخوف من أن تعوزني آداب اللياقة، فقد رأيت - لكي أشجع نفسي - أن أدوس تلك الآداب تحت قدمي. وأحالني الحياء إلى هجاء مقذع لاذع، وحرصت على أن أزدري آداب اللياقة التي لم أتعلم كيف أمارسها. ومن الصحيح أن هذه الغلطة تمشت مع مبادئي الجديدة، فإذا بها تكتسب سموا في عقلي، وتتخذ مظهر الجرأة المنبثقة عن الفضيلة.. وأستطيع أن أذهب إلى القول بأنها بهذا الشكل الجليل، استطاعت أن تصمد خيرا - ولأمد أطول - مما كان مرتقبا، بطبيعة الحال، لجهد مناقض لسجيتي إلى هذا الحد، ومع ذلك فإنني كنت أسيء دائما الاحتفاظ بشخصيتي، فيما بيني وبين نفسي - بوجه خاص - بالرغم مما ذاع عني في المجتمع من نفور من البشر، أوحى به مظهري الخارجي وبعض الكلمات التي تنم عن ذلك!.. وإذ راح أصدقائي ومعارفي يقدرون هذا الدب الوحشي وكأنه حمل، وإذ راحوا يحدون من سخرياتهم فيقصرونها على الحقائق القاسية، العامة، فإنني لم أكن أملك قط أن أقول كلمة واحدة، لأي امرئ كان!

*****

وأدت قصة "خراف القرية" إلى تألقي في المجتمع، فلم يعد في "**باريس**" رجل مرموق فوق ما كنت أنا. ويرتبط تاريخ هذه القصة - التي تمثل فترة من حياتي - بعلاقات كنت قد أنشأتها في ذلك الحين. وهذه تفصيلات أرى واجبا عليّ أن أتناولها، لكي تفهم القصة حق الفهم.

كان لدي عدد كبير جدا من المعارف، بيد أنني لم أصطف منهم سوى صديقين، هما "**ديدرو**" و"**جريم**". ونظرا لما أوتيت من رغبة في أن أجمع كل أولئك الأعزاء لدي، فإن صداقتي الوثيقة لكل منهما، لم تدع مناصا من أن يصبح كل منهما صديقا حميما للآخر، إذ إنني جمعتهما معا، فإذا بهما ينسجمان، وسرعان ما غدا كل منهما أوثق صلة بالآخر منه بي أنا. وكان لـ"**ديدرو**" معارف لا حصر لهم، أما "**جريم**"، فقد كان يشتهي المعارف، إذ كان أجنبيا وحديث عهد بالبلاد. ولم أكن أطمع في أكثر من أن أوفر له هؤلاء المعارف. فأتحت له صداقة "**ديدرو**"، وصداقة "**جوفكور**".. واصطحبته إلى دار السيدة دي "**شينونسو**"، ودار السيدة "**ديبيناي**"، ودار البارون "**دولباخ**"، الذي وجدتني مرتبطا به على الرغم مني تقريبا!.. وغدا كل أصدقائي أصدقاء له. وكان هذا الأمر غاية في السهولة، ولكن أحدا من أصدقائه لم يصبح يوما صديقا لي!.. وإليكم ما كان يحول دون ذلك:

لما كان "**جريم**" يقيم في بيت الكونت دي "**فرييز**"، فإنه كان يدعونا إلى الغداء هناك أحيانا. ولكنني لم أتلق قط أي دليل على الود أو اللطف من الكونت دي "**فرييز**"، أو الكونت دي "**شومبيرج**" - قريبه الذي كان وثيق الألفة بـ"**جريم**" - أو من أي شخص آخر، ذكرا كان أو أنثى، ممن كانت لـ"**جريم**" بهم علاقة، عن طريق هذين السيدتين. وكان الوحيد المستثنى منهم، هو الراهب "**راينال**" الذي أثبت أنه صديق لي، وإن كان صديقا له، والذي اعتاد أن يقدم كيس نقوده لي - إذا

دعت الحاجة – في كرم مألوف. على أنني كنت أعرف الراهب "**راينال**" قبل أن يعرفه "**جريم**" نفسه بوقت طويل، وكنت أميل إليه دائما، عقب تصرف مفعم بالرقة واللياقة أسداه إليّ في مناسبة طفيفة القيمة، ولكني لم أنسها البتة.

كان هذا الأب "**راينال**" صديقا حميما بالتأكيد. ولقد تسنى لي الدليل على ذلك، حوالي الوقت الذي أنا بصدده تقريبا، وفي أمر يتعلق بـ"**جريم**" ذاته، إذ كان على علاقة وثيقة به. فلقد ظل "**جريم**" بعض الوقت على صداقة خالصة بالآنسة "**فـيل**"، ثم إذا به فجأة يغدو عاشقا مدلها في هواها، وأن ينتزعها من "**كاهوساك**". ولكن الحسناء طردت هذا المتيم الجديد، وهي تفخر بوفائها، فحمل الشاب الأمر محملا أليما، حتى إنه فكر في الموت. وما لبث أن وقع بغتة فريسة لأغرب مرض سمع به امرؤ. فقد راح يقضي نهاره وليله في غيبوبة، تظل خلالها عيناه مفتوحتين، ونبضه منتظما، ولكن.. بلا كلام، ولا طعام، ولا حركة.. وكان يبدو أحيانا ما ينم عن أنه كان يسمع، بيد أنه لم يكن يجيب إطلاقا، ولو بالإشارة!

وكان – إلى جانب ذلك – غير منفعل، ولا متألم، ولا محموم.. وكان يبقى على هذه الحال، وكأنه ميت!. وتشاطرت والراهب "**راينال**" رعايته، فكان الراهب – نظرا لتفوقه علي في متانة البنيان وقوة البدن – يسهر الليالي، بينما كنت أعني به في النهار. وكنا لا نفارقه إطلاقا، فلا يبرحه أي منا حتى يصل الآخر. وجزع الكونت دي "**فرييز**"، فأحضر له "**سيناك**" الذي قال – بعد أن فحصه فحصا دقيقا – ألا علة هناك، ولم يصف له دواء. وكان إشفاقي على صديقي قد حملني على أن أراقب بإمعان محيا الطبيب، فلمحته يبتسم وهو يغادر المكان.

ومع ذلك فإن المريض ظل أياما عديدة دون حراك، ودون أن يتناول حساء، أو أي شيء، اللهم إلا بعض الكريز المحفوظ، الذي كنت أضعه على لسانه بين آن وآخر، والذي كان يزدرده في لهفة. وفي ذات صباح بديع، استيقظ "**جريم**"، وارتدى ثيابه، واستأنف حياته العادية، دون أن يحدثني قط، أو يحدث الراهب – فيما علمت – أو يحدث أي مخلوق عن هذه الغيبوبة العجيبة، ولا عن العناية التي أوليناه إياها طيلة استمرارها!

ولم يمر هذا الحادث دون ضجة، فقد كان من الموضوعات العجيبة حقا، أن تؤدي قسوة إحدى غانيات الأوبرا، إلى أن يموت رجل لفرط اليأس!.. وأذاعت هذه العاطفة الرائعة صيت "**جـريم**" في المجتمع، حتى لقد اشتهر بأنه معجزة الحب، والصداقة، والوفاء، في كافة الاعتبارات. وجعلته هذه الفكرة مرموقا، ومكرما لدى المجتمع الراقي. وبهذا تباعد عني، أنا الذي لم أكن بالنسبة له أكثر من تكأة أو أداة!..

ورأيت أنه على وشك أن يغدو غريبا عني، فأحزنني ذلك، إذ إن كل المشاعر المضطرمة التي كان يتظاهر بها، كانت عين المشاعر التي خالجتني نحوه، دون أن أتظاهر بها. ولقد كنت مغتبطا لنجاحه في المجتمع، ولكنني لم أكن أحب له أن ينسى أصدقاءه في غمرة النجاح. ولقد قلت له يوما: "إنك لتهملني يا"**جـريم**"، وإني لأغفر لك ذلك. فإذا ما انتهى مفعول النشوة الأولى لهذا النجاح المدوي، وشرعت تتبين أنه فارغ، فإني آمل أن تعود إليّ، ولسوف تجدني دواما كما عهدتني. أما في الآونة الحاضرة، فلا تضايق نفسك، فسوف أدعك تفعل ما يحلو لك، وسوف أنتظرك". وقال لي إنني كنت على حق ودبر خطته على هذا النسق، وانطلق في طريقه إلى نهاية الشوط، حتى إنني لم أعد أراه إلا مع الأصدقاء المشتركين لكلينا!

وكانت دار البارون "**دولباخ**" هي ملتقانا الرئيسي. قبل أن يرتبط بمدام "**ديبيناي**" ارتباطا وثيقا. وكان البارون المذكور ابنا لرجل عصامي وقد أوتي ثروة عظيمة جدا، فاستغلها استغلالا نبيلا، وفتح داره لأهل الأدب والفضل، واستطاع بتنوره ومعرفته أن يملأ مكانه بينهم. وإذ كان على علاقة بـ"**ديدرو**" منذ أمد طويل، فقد سعى عن طريقه إلى التعرف بي، قبل أن يغدو اسمي معروفا. وصدني نفور طبيعي عن أن أستجيب لتقربه فترة طويلة. وقد سألني عن السبب ذات يوم، فقلت له: "إنك واسع الثراء". ولكنه ألح في طلب ودي، واستطاع أن يتغلب على توجسي في النهاية. لقد كانت نكبتي الكبرى دائما، هي عجزي عن مقاومة الإطراء واللطف، وما وجدتني يوما أتخلى عن هذه الشيمة!

*****

ومن حالات التعارف التي تحولت إلى صداقة بمجرد أن وجدت من حقي أن أنشدها، معرفتي بالسيد "**ديكلو**". ولقد انقضت عدة سنوات مذ رأيته – للمرة الأولى – في "**لاشيفريت**"، لدى السيدة "**ديبيناي**"، التي كان على صلات طيبة بها. ولم نحظ بأكثر من أن تناولنا الغداء معا، ثم رحل في اليوم ذاته.

ولكننا وجدنا الفرصة لتبادل الحديث فترة بعد الغداء. وكانت السيدة "**ديبيناي**" قد حدثته عني وعن أوبراي "عرائس الشعر اللطاف". وكان "**ديكلو**" ذا مواهب عظيمة، أسمى من أن تجعله يصدف عن حب الموهوبين، ومن ثم فقد مال إليّ، ودعاني إلى زيارته. وبالرغم من ميلي القديم (١)، الذي عززته المعرفة، فإن حيائي وكسلي ظلا يعوقانني، حتى لم يبق ثمة ما يقربني إليه سوى لطفه، وحفاوته. على أنني تشجعت بنجاحي الأول (٢) وبما بلغني من إطرائه هذا النجاح، فقمت بزيارته، وجاء لزيارتي، وهكذا بدأت بيننا روابط ستظل تجعلني أعتز به دائما، وإليها – وإلى شهادة قلبي الصادق – أدين بمعرفة أن الاستقامة والوفاء، قد تقترن أحيانا بالثقافة الأدبية!

ولقد كانت كثير من علاقاتي – التي تقل متانة عما ذكرت، والتي أتجاوز عن ذكراها هنا – نتيجة مرات نجاحي الأولى، وقد دامت إلى أن قدر لفضول أصحابها أن يرتوي. فلقد كانت نفسي تتكشف على حقيقتها سريعا، فلا يعود ثمة جديد يرى فيها بعد اليوم الأول للتعارف!.. على أن من النساء اللائي سعين إلى التعرف بي في تلك الآونة، امرأة صارت أقوى صلة بي من سواها. تلك هي السيدة المركيزة دي "**كريكي**"، ابنة أخ السيد "**لوبايبي دي فرولاي**"، الذي كان سفيرا لـ"**فرنسا**" في "**مالطة**" وكان أخوها سلفا للسيد دي "**مونتيجي**"في السفارة الفرنسية في "**البندقية:**"، وزرته عقب عودتي من تلك المدينة.. ولقد كتبت السيدة دي "**كريكي**" إلي، فذهبت لزيارتها.. واستقبلتني في مودة، وتناولت الغداء لديها بضع مرات، وقابلت لديها كثيرا من الأدباء.. منهم السيد "**سوران**" – مؤلف "**سبارتاكوس**" و"**بارنيفلت**" وغيرهما – الذي أصبح من ذلك الحين الد أعدائي، لغير ما سبب أستطيع أن أتصوره، سوى أنني أحمل اسم رجل كان أبوه قد اضطهده بخسة وظلم.

ويرى من هذا، أنني – كناسخ كان ينبغي أن يشغل بمهنته من الصباح إلى المساء – كنت أصادف كثيرا من الشواغل التي كانت تعوق عملي اليومي عن أن يكون جد مربح، وكانت تمنعني من أن أعني العناية الواجبة بما كان مصدرا لرزقي. وكنت أضيع أكثر من نصف الوقت المتبقي لي، في محو أو كشط الأخطاء التي كنت أرتكبها فيما أنسخ، أو في إعادة كتابته من جديد. وقد أدى هذه

---

(١) ميله إلى كل من يبدي له اللطف والإطراء. (٢) نجاح "رسالة في فوائد العلوم الحديثة".

الانزعاج إلى أن أصبحت لا أطيق "**باريس**" يوما بعد يوم، وإلى حملي على أن أنشد الريف برغبة قوية. فذهبت عدة مرات لأقضي أياما في "**ماركوسي**"، التي كانت مدام "**لوفاسير**" على معرفة بأسقفها.. وقد استطعنا أن ندبر الأمر بحيث إنه لم يجد أي ضير في مقامنا في داره.. ولقد ذهب معنا "**جريم**" مرة إلى هناك (١). وكان الأسقف ذا صوت رخيم، كما كان يجيد الغناء، ومع أنه لم يكن ملما بالموسيقى، إلا أنه كان يستطيع أن يحفظ دوره بدقة؛ .ومن ثم فقد قضينا الوقت في ترديد الأغاني الثلاثة التي كنت قد وضعتها في "**شينونسو**"، كما لحنت أغنيتين أو ثلاثا جديدة، وضع "**جريم**" والأسقف كلماتها بقدر ما وسعهما. ولست أملك أن أمنع نفسي عن التحسر على تلك الأغاني الثلاثية التي وضعت في لحظات مفعمة بالغبطة الخالصة، والتي تركتها في "**فوتون**" ومعها جميع قطعي الموسيقية. ولعل الآنسة "**دافنبورت**" قد اتخذت منها أشرطة ورقية، للف شعرها.. على أنها كانت جديرة بأن تصان، فقد كانت - في الغالب - دقيقة الوزن.

وحدث بعد إحدى هذه الرحلات القصيرة - وقد اغتبطت لرؤية "العمة" منشرحة مسرورة، كما كنت أنا الآخر مبتهجا - أن كتبت إلى الأسقف خطابا شعريا، نظمته في عجلة وفي غير عناية.. وسيوجد بين أوراقي.

*****

وكان لي - في مكان أكثر قربا من "**باريس**" - ملاذ آخر يلائم مزاجي.. تلك هي دار السيد "**موسار**"، مواطني، وقريبي، وصديقي، الذي أعد لنفسه مأوى فاتنا في "**باسي**"، قضيت فيه كثيرا من اللحظات الوادعة. وكان السيد "**موسار**" تاجر مجوهرات، وكان رجلا سليم الذوق، جمع من حرفته ثروة طيبة، وزوج ابنته الوحيدة من السيد دي "**فالماليت**" - ابن صراف ومدير فندق الملك - ثم استقر رأيه الحكيم على أن يهجر في أيام شيخوخته التجارة والعمل، لينعم بالراحة والاستجمام فترة من الزمن، بين هموم الحياة ونهاية الأجل.

وكان "**موسار**" الطيب فيلسوفا عمليا حقا، فكان يعيش بلا هموم، في دار بديعة ابتناها لنفسه، وفي حديقة غناء زرعها بيديه. وفيما كان يحفر قنوات أحواض هذه الحديقة، عثر على قواقع متحجرة، ووجدها بكميات كبيرة إلى درجة أن خياله المتوثب لم يعد يرى في الطبيعة سوى قواقع، حتى انتهى أخيرا إلى الإيمان الجازم بأن الكون لم يكن غير قواقع!.. وأصبح لا يفكر دائما إلا في هذا الأمر، وفي اكتشافه الفذ، حتى أهاجته هذه الأفكار، وأوشكت - في النهاية - أن تتخذ في رأسه شكل نظرية - أعني خبلا - لولا أن الموت تدخل في الأمر - لحسن حظ عقله، ولسوء حظ أصدقائه الذين كانوا يعتزون به، ويجدون في داره أبدع مأوى - فانتزعه من بينهم، متوسلا بأغرب وأقسى مرض.. ذلك هو تورم في معدته، كان دائم التضخم، وكان يحرمه من الأكل، دون أن يتبدى سببه برغم طول العهد به، ثم انتهى بموته جوعا، بعد سنوات عديدة من العذاب!.. ولست أملك أن أسترجع نهاية عمر هذا الرجل، دون أن ينقبض فؤادي. فقد ظل يستقبلنا - "**لينييب**" وأنا - بسرور عارم.. وكنا الصديقين الوحيدين اللذين لم يحملهما منظر الآلام التي كان يعانيها، على أن ينأيا عنه إلى آخر ساعة في حياته.. وإني لأذكر أنه لم يكن إذ ذاك ليقوى على التهام الطعام - الذي اعتاد أن يأمر بتقديمه إلينا - إلا بعينيه، ولا كان يطيق ابتلاع بضع قطرات من الشاي الخفيف، إلا ليلفظها في اللحظة التالية!.. ولكن كم من أوقات - قبل تلك الآلام

---

(١) اضاف "روسو" إلى هذا، الاستدراك التالي: "لما كنت قد أغفلت هنا ذكر حادث تافه، ولكنه جدير بالذكر، وقع لي مع "جريم" المذكور ذات صباح، وقد اعتزمنا تناول الغداء عند عين "سان فاندريل"، فإنني لن أعود إلى هذا الحادث. ولكنني حين فكرت فيه - فيما بعد - استنتجت أن "جريم" كان يبيت النية في قرارة قلبه - منذ ذلك الحين - على المؤامرة التي نفذها فيما بعد بنجاح رائع"!

– قضيتها في داره مسرورا، مع النخبة التي اصطفاها من الأصدقاء!.. وإني لأضع على رأس هؤلاء الراهب "**بريفو**" (١)، وكان شخصا لطيفا، سلسا، يستلهم قلبه ما كان يكتب من أشياء جديرة بالخلود، ولا يبدي – سواء في مظهره، أو في معشره – شيئا من ذلك الجو القاتم الذي فرضه على مؤلفاته.. والطبيب "**بروكوب**"، وكان "**يعسوب**" صغيرا (٢)، ذا حظوة لدى النساء، و"**بولانجيه**" المؤلف المزعوم للتمثيلية الموسيقية الهزلية "الاستبداد الشرقي"، وقد عمد فيما أعتقد – إلى التوسع في نظريات "**موسار**" عن مدى عمر الدنيا.. أما بين النساء، فاذكر السيدة "**دنيس**" ابنة أخت "**فولتير**"، التي كانت – إذ ذاك – طيبة ساذجة، ولم تكن قد زعمت لنفسها شيئا من توقد الفكر.. والسيدة "**فانلو**" التي لم تكن جميلة حقا، ولكنها كانت فاتنة، وكانت في غنائها كالملاك.. والسيدة "**فالمليت**" التي كانت تحذق الغناء هي الأخرى، والتي كانت – برغم هزالها – بالغة اللطف لو أنها خففت من تظاهرها باللطف!!.. هؤلاء كانوا صفوة رواد ندوة السيد "**موسار**" – تقريبا – وقد كانت صحبتهم خليقة بأن تلذ لي، لولا أن نظرياته عن القواقع كانت ألذ، حتى لأذهب إلى القول بأنني عكفت لستة أشهر على العمل في مكتبه، في دراسة هذه النظرية، باغتباط لم يكن يقل عن اغتباطه!

وكان يلح – من زمن طويل قبل ذاك – بأن مياه "**باسي**" كانت كفيلة بأن تصلح حالي الصحية، وكان يصر على أن أتردد على داره لكي أتناولها. وقد انصعت أخيرا له؛ لكي أنتزع نفسي – بعض الوقت – من ضجيج المدينة، فقضيت في "**باسي**" ثمانية أيام أو عشرة، أفدت منها كل الفائدة، بفضل إقامتي في الريف، أكثر مما هو بفضل تناول تلك المياه. وكان "**موسار**" يهوى العزف على الكمان الكبيرة، ويشغف بالموسيقى الإيطالية. وفي ذات مساء، أطلنا الحديث – قبل أن نأوي إلى مخادعنا – في هذا المجال، وتكلمنا بوجه خاص عن "أوبرا **بوفا**"، التي رآها كل منا على حدة – في "**إيطاليا**" – والتي أعجب بها كل منا إعجابا بالغا.. ولم أنم في تلك الليلة، فشرعت أفكر في وسيلة تمكنني من أن أتيح مثل هذا النوع من "الدراما" لـ"**فرنسا**"، إذا لم يكن شبه بين "غراميات راجوند" وهذا النوع (٣). وفي الصباح التالي، نظمت على عجل بعض نماذج من الشعر، تتمشى مع هذه الفكرة – أثناء ما كنت أتريض وأتناول المياه – ونسقتها مع الألحان التي توافدت على رأسي خلال ذلك. وسطرت جميع هذه الأغاني، في "صالون" ذي قبة، فوق الحديقة. ثم لم أتورع عن أن أعرضها – أثناء تناول الشاي – على "**موسار**" والآنسة "**دوفيرنيوا**" مديرة داره، التي كانت بالغة الطيبة واللطف حقا. وكانت القطع الثلاث التي نظمتها في عجلة، تؤلف الأغنية الفردية الأولى، وهي: "فقدت خادمي" و"عراف القرية"، و"الحب يخشى على نفسه".. ثم الثنائي الأخير: "أبدا لن أخطبك، يا"**كولان**"، إلخ! ولم أكن أعول كثيرا على أن هذه المحاولة تستحق عناء المضي فيها. ولولا الاستحسان والتشجيع اللذين لقيتهما من كل منهما، لكنت خليقا بأن ألقي قصاصتي إلى النار، ولا أعود إلى التفكيرفيها، كما فعلت من قبل بقطع أخرى كانت تماثل هذه، على الأقل!.. ومن ثم فقد وجدتني متحمسا، حتى إن "الدراما" اكتملت خلال ستة أيام، فيما عدا بضعة سطور.. كما أنني وضعت أفكار الموسيقى كلها، فلم يعد أمامي ما أفعله في "**باريس**"، سوى أن أضيف بعض مقطوعات إلقائية، وأن أملأ بعض الحواشي. وقد فرغت بسرعة من كل هذه، فلم تنقض ثلاثة أسابيع، حتى كانت المناظر قد نسجت، وأصبحت مهياة للعرض. ولم يكن ثمة ما ينقصها سوى موسيقى الانتقال من منظر إلى آخر، وقد قدر لها ألا توضع إلا بعد ذلك بوقت طويل.

---

(١) اشتهر باسم "الأب بريفو" واسمه الأصلي "بريفو ديكسيل" وهو مؤلف قصة "مانون ليسكو" الخالدة وقد ولد في سنة ١٦٩٧ ومات في سنة ١٨٦٣ . (٢) يعسوب: شخصية أسطورية إغريقية، وإن كان "هيرودوت" يقول إنه شخصية حقيقية، وقد عاش في "مصر" واشتهر بالرحلات والأدب. (٣) كوميدية موسيقية عرضت في "الأوبرا" الباريسية في سنة ١٧٤٢ .

سنة ١٧٥٢

أثارني وضع هذا العمل الأدبي الفني، حتى لقد تملكني شوق عارم إلى سماعه، وحتى إنني كنت على استعداد لأن أنزل عن كل شيء، في سبيل أن أراه معروضا أمامي – بالشكل الذي كنت أتمثله في خيالي – في غرفة موصدة، كما فعلت "**لولي**" – فيما يقال – إذ شهدت يوما مسرحية "**ارميد**" تمثل أمامها وحدها. ولما لم يكن من الميسور لي أن أنعم بهذه المتعة الا برفقة الجمهور، فقد كان من الضروري، لكي تمثل هذه الأوبرا، من أن تلقى قبولا في دار "الأوبرا". ولكنها – لسوء الحظ – كانت من نمط جديد كل الجدة، لم تألفه آذان الجمهور، كما أن فشل "عرائس الشعر اللطاف" جعلني أتوقع المصير ذاته للعراف (١)، إذا أنا قدمتها باسمي. وقد ساعدني "**ديكلو**" على الخروج من هذا المأزق. إذ تكفل بأن يسعى إلى إجراء تجارب على المسرحية، دون أن يكشف عن اسم المؤلف. ولكي لا أنم عن نفسي، فإنني لم أحضر التجربة، وظل كل امرئ – حتى "الكمانان الصغيران" (٢)، اللذان توليا الإخراج – يجهلان اسم المؤلف، إلى أن شهد الاستحسان العام بروعة المسرحية. ولقد فتن كل من سمعها حتى إن جميع الأوساط لم تتحدث إلا عنها في اليوم التالي. ولقد شهد السيد "**كوري**" – مدير حفلات البلاط – التجربة، فطلب المسرحية لتعرض **في** البلاط، ولكن "**ديكلو**" – الذي كان يعرف نواياه فخشي أن يكون سلطاني على المسرحية في البلاط أقل منه في "**باريس**" – رفض أن يسلمه إياها، فعاد "**كوري**" يطلبها بحكم منصبه. واحتدم الجدال بينهما، حتى لقد تطور ذات يوم – وهما في "الأوبرا" – فأوشكا أن يخرجا ليتبارزا، لولا أن حيل بينهما.

ورؤي الاتصال بي بشأنها، ولكني تركت البت في ذلك إلى السيد "**ديكلو**"، فكان لابد من الرجوع إليه. وتوسط السيد الدوق "**دومون**" في الأمر، فرأى "**ديكلو**" – في النهاية – أن من الواجب النزول عند رغبة صاحب السلطة، وقدمت المسرحية لتمثل في "**فونتينبلو**". وكان الجزء الذي أوليته أعظم اهتمام، والذي نأيت فيه كثيرا عن النهج المألوف، هو الإلقاء الغنائي.

فقد نسق الإلقاء – في أوبراي – بطريقة جديدة تماما، بحيث يتمشى النغم مع إلقاء الكلمات. ولكنهم لم يجسروا على أن يستبقوا هذا التجديد، إذ خيف من أن يصدم الآذان التي ألفت الرتابة. ومن ثم فإنني وافقت على أن يضع "**فرانكويي**" و"**جيليوت**" ألحانا جديدة للإلقاء، ولكنني رفضت أن تكون لي يد في ذلك.

وإذ تم إعداد كل شيء، وحدد يوم العرض، اقترح علي أن أرحل إلى "**فونتينبلو**" لأحضر التجربة الأخيرة، على الأقل. فذهبت مع الآنسة "**فيل**"، و"**جريم**"، والراهب "**راينال**" – على ما أظن – في إحدى العربات الملكية. ولم يكن ثمة بأس بالتجربة، بل إنني كنت أكثر رضا عنها مما توقعت. وكانت الفرقة الموسيقية قوية، كثيرة النفر، مؤلفة من موسيقيي "الأوبرا" والفرقة الملكية. وقام "**جيليوت**" بدور "**كولان**". والآنسة "**فيل**" بدور "**كوليت**"، و"**كوفيتييه**" بدور العراف. وكان المنشدون من "الأوبرا". ولم أدل بغير ملاحظات قليلة، فقد تولى "**جيليوت**" الإخراج، فلم أشأ أن أفرض سلطانا على ما فعل. وبالرغم من مظهري الروماني، فإنني كنت في حياء التلميذ إذا ألفى نفسه وسط كل هؤلاء القوم!

وفي اليوم التالي – وهو يوم العرض – ذهبت لأتناول الفطور في مقهى "**الجران كومون**"، فإذا به

(١) أطلق "روسو" على هذه "الأوبرا" اسم عراف القرية". (٢) لقد اشتهر به "ريبيل" و"فرانكور" اللذان كانا يتوليان الإخراج الموسيقي، وقيادة الفرقة الموسيقية في "الأوبرا". وقد سميا بذلك، لأنهما اعتادا في صباهما أن يطوفا بالبيوت، وهما يعزفان على "الكمان".

زاخر بالناس، وإذا الحديث يدور حول تجربة الليلة السابقة، وتعذر الدخول إلى المسرح. وقال ضابط من الحضور، إنه دخل بلا عناء، وأسهب في وصف ما حدث داخل المسرح، كما وصف المؤلف، وروى ما قاله وما فعله. والذي أذهلني في حديثه الطويل – الذي ألقاه في بساطة واعتداد – أنه لم يضم كلمة واحدة من الحقيقة!

.. بل لقد تجلى لي تماما، ان هذا الذي تكلم عن التجربة بلهجة العالم، لم يكن حاضرا البتة فقد كان هذا المؤلف – الذي قال إنه رآه كما صوره – حاضرا أمام عينيه، فلم يتعرف عليه!..

وكان أغرب ما في هذه الواقعة، هو الأثر الذي أحدثته في نفسي. فلقد كان ذلك الرجل كبير السن، ولم يكن يلوح عليه غرور الخيلاء، ولا الزهو، سواء في مظهره، أو لهجته. بل إن سيماه كانت تنم عن أنه رجل فاضل، كما كان وسام "**صليب سان لوي**" – على صدره – يوحي بانه ضابط قديم. ولقد استأثر باهتمامي بالرغم مني، وبرغم قحته في الكذب. وفيما كان يمضي في أكاذيبه، راح وجهي يتضرج خجلا، وأخذت أغض بصري وأتململ في مجلسي. وكنت أسال نفسي أحيانا: أليس من الجائز أن يكون قد آمن بكذبه حتى غدا يظنه حقيقة؟!..

وأخيرا، اسرعت بإفراغ قدح "الشيكولاتة" دون أن انبس ببنت شفة، وأنا أرتجف خشية أن يتعرف علي أحد فيخجله، ومررت بمجلسه وأنا منكس راسي، وغادرت المقهى باسرع ما استطعت، بينما كان القوم ماضين في الحديث عما كان يصفه. ونفذت إلى الطريق وأنا أسبح في العرق. ولو أن أحدا عرفني وذكر اسمي قبل خروجي، فإني أوقن بأنني كنت خليقا بأن أبدي من الخجل والارتباك ما يبديه أي مذنب، لمجرد الشعور بالصغار الذي كان الرجل جديرا بأن يشعر به إذا ما افتضحت أكاذيبه!

*****

وهانذا أصل إلى تلك اللحظات الحرجة في حياتي، فإن من العسير أن أقتصر على مجرد الرواية، لأنه من المستحيل تقريبا ألا تتأثر الرواية بشيء من النقد أو التبرير. على أنني سأحاول أن أروي كيف تصرفت، وعن أية بواعث صدرت تصرفاتي، دون أن أضيف ما ينم عن إطراء أو عن لوم.

ففي ذلك اليوم المقصود، بدوت في نفس الزي المهمل الذي ألفته، وقد نمت لحيتي، وبدا شعري المستعار غير منسق. وبهذا المظهر الذي نبا عن اللياقة، والذي كنت أعتبره دليلا على الشجاعة، دخلت القاعة التي كان من المنتظر أن يفد عليها الملك، والملكة والأسرة الملكية والحاشية بأسرها، بعد قليل.

وتقدمت لأحتل مكاني في المقصورة التي قادني إليها السيد دي "**كوري**".. وكانت هي مقصورته، مقصورة واسعة.. في مواجهة مقصورة أخرى، أصغر منها حجما، وأكثر ارتفاعا، جلس فيها الملك والسيدة دي "**بومبادور**". ولم يداخلني شك في أنني أجلست كذلك؛ لكي أبدو واضحا، إذ كنت الرجل الوحيد أمام مقصورة الملك، وقد أحاطت بي السيدات. وعندما أوقدت أضواء المسرح، وجدتني – في ملابسي تلك – وسط قوم في أوج الأناقة، فبدأت أشعر بضيق وحرج. وسألت نفسي عما إذا كنت في المكان اللائق، وعما إذا كنت في الثياب اللائقة.

وبعد لحظات من الحرج، أجبت نفسي عن هذا التساؤل في جرأة لعلها انبعثت عن استحالة التراجع، أكثر مما انبعثت عن قوة حجتي: "أجل"!.. وقلت لنفسي: "إنني في المكان اللائق بي، مادمت قد جئت لأشهد تمثيل مسرحيتي.. وإذا كنت في ثيابي المعتادة، ولست أفضل أو أقل مما

ألفت، فما ذلك إلا لأنني دعيت، ولأنني ألفت هذه الأوبرا لهذا الغرض فحسب، ولأنه - فوق كل شيء - ليس هناك من يفوقني جدارة باستمراء ثمار جهدي ومواهبي، ولو أنني عدت إلى الخضوع للرأي العام في أمر واحد، فسرعان ما سأصبح عبدا للرأي العام - في كل شيء - من جديد. أما إذا شئت أن أثبت على نهجي، فمن الواجب ألا أخجل - أينما أكون - من أن أرتدي ما يتلاءم مع ظروف الحياة التي اخترتها لنفسي. إن مظهري الخارجي بسيط وغير متأنق، ولكنه ليس قذرا، ولا مستهجنا. وكذلك اللحية - في حد ذاتها - ما دامت الطبيعة هي التي تخلعها علينا.. بل إنها مظهر من مظاهر الزينة أحيانا، كما تتم تطورات مستحدثات الأناقة. وقد يراني الناس مضحكا، أو سفيها.. حسنا، وفيم يهمني هذا؟.. يجب أن أتعلم كيف أعرض عن ضحك الناس أو عن نقدهم، ما دمت لا أستحقهما"!

*****

"وشعرت بعد هذه المناجاة القصيرة بالثقة تعاودني، إلى درجة كانت كافية لأن تجعلني جريئا.. وهو ما كنت بحاجة إليه. على أنني لم أر في الفضول الذي تعرضت له، سوى مظهر للأدب والحفاوة، سواء كان مرد ذلك الرأي إلى تأثير وجود العاهل، أو إلى التصرف الطبيعي الذي أبداه أولئك الذين أحاطت بي قلوبهم.. وشعرت بالتأثر، حتى إنني بدأت أحس بالقلق - من جديد - على نفسي وعلى مصير مسرحيتي، خشية أن أقضي على ما ربما كان لدى القوم من آراء سابقة - في صالحي - كان يبدو لي أنه لم يكن ينقصها سوى التصفيق.

وكنت قد تذرعت ضد سخريتهم، ولكن عطفهم - الذي لم أكن أتوقعه - طغى عليّ كل الطغيان، حتى إنني رحت أرتجف كالطفل، عندما ابتدأ التمثيل!

وسرعان ما تبينت أن ليس ثمة مبرر للقلق.. كان أداء المسرحية جد سيئ من ناحية الممثلين، ولكن الغناء كان جيدا، والموسيقى حسنة الأداء. ومنذ المشهد الأول - الذي كان مؤثرا في بساطته حقا - سمعت في المقصورات تمتمة اندهاش، واستحسانا لم يسمع من قبل في مثل هذا النوع من التمثيليات.

وما لبث التحمس المطرد أن بلغ ذروته، حتى إنه تفشى في جميع النظارة، وإن ضوعف أثره بفضل هذا الأثر ذاته، كما ينبغي أن يقال بأسلوب "**مونتسكيو**". وقد بلغ هذا الأثر أوجه في المشهد الذي دار بين الشخصين الصغيرين الساذجين. ومن المعتاد ألا يصفق أحد قط، في حضور الملك، وقد ساعد هذا على سماع كل شيء بوضوح، مما أفاد التمثيلية والمؤلف.

وسمعت حولي همسات نساء كن يلحن لي في جمال الملائكة، وهن يقلن بعضهن لبعض: "هذا فاتن.. هذا خلاب!.. ما من نغم هنا إلا وينبثق من القلب!". وهزتني لذة التأثير على كل هؤلاء القوم الراقين، حتى انطلقت دموعي، فلم أستطع أن أكبحها في الأغنية الثنائية الأولى، إذ لاحظت أنني لم أكن الوحيد الذي بكى!.. ومرت بي لحظة، رجعت فيها إلى نفسي، إذ تذكرت الحفلة الموسيقية التي أقيمت بدار السيد دي "**تريتوران**". وأحدثت هذه الذكرى في نفسي شعورا كشعور العبد الرقيق الذي كان يرفع التاج فوق رؤوس المظفرين (١)، ولكن هذا الشعور كان قصير الأجل، إذ إنني سرعان ما استسلمت تماما - ودون أي تحفظ - لنشوة مذاق مجدي. ومع ذلك فإنني أوقن بأن الشهوة الجنسية كانت - في تلك اللحظة - أكثر أثرا من غرور المؤلف في هذه النشوة!.. فمن المؤكد

(١) عادة كانت متبعة في مواكب النصر لدى الرومان.

أنه لو لم يكن ثمة غير الرجال حضور، لما تأججت في نفسي الرغبة الملحة في أن أتلقى بشفتي الدموع العذبة التي تسببت في انسيابها!.. ولقد شهدت تمثيليات أثارت من نوبات الإعجاب ما كان أشد مما رأيت في هذه الليلة، ولكني لم أشهد قط نشوة في مثل تدفق، وفي مثل بهاء، وفي مثل تأثير هذه التي استولت تماما على النظارة، لا سيما وقد كانت هذه أولى المرات التي تعرض فيها المسرحية، ولا سيما وأنها كانت تعرض في البلاط الملكي. ولابد أن الذين شهدوها إذ ذاك، لا يزالون يذكرونها، فقد كان تأثيرها فذا!

وفي الليلة ذاتها، أوفد السيد الدوق "**دومون**"، من أنبأني بأن أكون موجودا في القصر، في الساعة الحادية عشرة من الصباح التالي، وبأنه سيقدمني إلى الملك. وأضاف السيد دي "**كوري**" – الذي حمل إلي الرسالة – أنه من المعتقد أن ثمة اقتراحا بمنحي معاشا، وأن الملك أراد أن يعلنني بذلك بنفسه!

فهل مما يصدق أن الليلة، التي أعقبت يوما بهذا الإشراق، كانت ليلة هم وحيرة؟.. كانت أولى أفكاري، بعد هذه الخواطر السالفة، تتمثل في حاجة ملحة إلى الخروج (١)، كبدتني في المساء ذاته عناء كبيرا أثناء التمثيل، وكان من الممكن أن تعذبني في اليوم التالي، عندما أكون في بهو الملك أو في جناحه، أنتظر بين كل أولئك العظماء مرور الملك! كان هذا الداء هو السبب الرئيسي الذي حملني على تجنب الاجتماعات، والذي منعني من الاطمئنان إلى البقاء في غرفة مغلقة لدى السيدات. وكان مجرد التفكير في الموقف الذي قد تقحمني فيه هذه الضرورة، كافيا لأن يحرجني، إلى درجة تسلمني إلى الإغماء، إن لم يكن إلى فضيحة كنت خليقا بأن أوثر عليها الموت. ولا يدرك الجزع من التعرض لخطر كهذا، سوى أولئك الذين عرفوا مثل هذه الحال!

ورحت – بعد ذلك – أتصور نفسي ماثلا أمام الملك، وأنا أقدم إليه، فينزل ويقف ليحدثني.. وهنا لابد من سرعة الخاطر، وحضور البديهة للإجابة. أفكان حيائي اللعين – الذي اعتاد أن يضايقني أمام أقل المغمورين – ليهجرني أمام ملك "**فرنسا**"؟.. وهل يدعني أحسن اختيار ما ينبغي أن يقال، في التو؟.. وددت لو أستطيع – دون أن أتخلى عن المظهر واللهجة القاسيين اللذين اعتدت الظهور بهما – أن أبدي إدراكي للشرف المتاح لي من مثل هذا العاهل؟.. كان لابد لي من أن ألف بعض الحقائق الجليلة والنافعة، في غلالة من الثناء الجميل البارع!.. ولكي أتمكن من أن أعد – مقدما – جوابا موفقا، كان لابد لي من أن أعرف بالدقة، ما يمكن أن يقوله لي الملك.. وكنت واثقا – بعد ذلك – بأنني لن أستطيع أن أستحضر في وجوده ما أكون قد أعددته!.. فماذا يكون شأني، في هذه اللحظة أمام أعين الحاشية كلها، إذا أفلتت مني، في غمرة اضطرابي، بعض سخافاتي العادية؟.. لقد روعني هذا الخطر، وأزعجني، وجعلني أرتجف وأنا أعقد العزم على ألا أعرض نفسي له، مهما تكن العواقب؟

ومن الصحيح أنني فقدت المعاش الذي عرض عليّ بصفة غير رسمية، ولكني – في الوقت ذاته – نجوت من الجور الذي كان مقدرا أن يفرضه عليّ.. ألا وداعا للحقيقة، وللحرية، وللشجاعة!.. كيف كنت أجرؤ – بعد ذلك – على أن أتكلم بحرية ونزاهة؟.. لم يكن لدي سوى أن أتملق، أو أن أصمت، لو أنني قبلت هذا المعاش، ثم، من ذا الذي كان يضمن دفعه إليّ؟.. وأية خطوات كان عليّ أن أتخذها، وأي أناس كنت مضطرا إلى أن أداهن؟.. كان الاحتفاظ بهذا المعاش خليقا بأن يكبدني أكثر مما يكبدني الاستغناء عنه من حرص، وأكثر من الكثير من المضايقات؛ ومن ثم فقد اقتنعت بأنني

---

(١) يقصد الخروج لقضاء حاجة. ولعلنا نذكر أنه كان يتعرض لنوبات يكثر فيها من التبول.

إذ أرفضه إنما اتخذ قرارا ينطبق أشد الانطباق على مبادئي، وأضحي بالمظهر في مقابل الواقع. ولقد أفضيت إلى "**جريم**" بعزمي، فلم يعارضني. أما بالنسبة للآخرين، فقد تعللت بصحتي، ورحلت في نفس الصباح!

*****

وأثار رحيلي ضجة، وعيب علي بوجه عام. فما كانت حججي لتلقى تقديرا لدى الناس جميعا، وسرعان ما اتهمت بالصلف، مما أرضى – للتو – غيرة أولئك الذين شعروا بأنهم ما كانوا ليتصرفوا كما تصرفت!.. وفي اليوم التالي، كتب إلي "**جيلوت**" خطابا فصل فيه نجاح تمثيليتي، والشغف الذي أبداه الملك نفسه بها. وقال: إن جلالته لم يكف طيلة النهار عن الغناء، بأنكر صوت في مملكته، مرددا: "لقد فقدت خادمي، لقد أضعت كل هنائي!".. وأردف أن "العراف" ستعرض مرة ثانية بعد أسبوعين، مما سيعزز أمام عيون الجمهور كله النجاح الباهر الذي كلل العرض الأول!

وفيما كنت ألج دار السيدة "**ديبيناي**" – في الساعة التاسعة مساء، بعد يومين – حيث كنت مزمعا أن أتناول العشاء، رأيت مركبة تعترض طريقي إلى الباب. وأشار إليّ شخص في المركبة بأن أصعد إليها، فصعدت، وإذا بهذا الشخص هو "**ديدرو**". وحدثني عن المعاش في حرارة ما كنت أتوقعها من فيلسوف في مثل هذا الموضوع. ولم ير جريمة في ألا أكون راغبا في أن أقدم إلى الملك، ولكنه رأى أن عدم اكتراثي للمعاش جريمة منكرة.. وقال لي إنني إذا كنت لا أهتم بالمعاش من أجل نفسي، فليس من حقي أن أكون كذلك من أجل السيدة "**لوفاسير**" وابنتها، فإن من واجبي ألا أحرمهما من أية وسيلة ممكنة وشريفة لتيسير أسباب العيش لهما.. وبما أنه لم يكن من الممكن أن يقال – برغم كل شيء – إنني رفضت هذا المعاش، فقد أصر على أن من الجدير بي أن أطلبه، وأن أحصل عليه بأي ثمن، ما دامت ثمة نية لمنحي إياه.. ومع أنني تأثرت لتحمسه، إلا أنني لم أستطع أن أقر مبادئه. فدار بيننا جدال محتدم حول الموضوع، كان أول جدال دار بيننا. ولقد كانت كل خلافاتنا – التي أعقبت ذلك – من نفس النوع، إذ كان يملي عليّ ما كان يزعم أن من الجدير بي أن أفعله، في حين أنني كنت أرفض في حزم، لأنني لم أكن أؤمن بأنه واجب عليّ!

وكان الوقت متأخرا عندما افترقنا، فرغبت في أن أصطحبه للعشاء لدى السيدة "**ديبيناي**"، ولكنه لم يكن راغبا البتة.. فبالرغم من أن الجهود التي كانت الرغبة في الجمع بين أولئك الذين أحبهم، تدفعني إلى بذلها من وقت إلى آخر، فإنني لم أفلح في إغرائه على زيارتها.. بل إنني ذهبت إلى أبعد من هذا، إذ صحبت السيدة إلى بابه، فرفض أن يفتحه لنا!.. كان يعزف دائما عن لقائها، ولم يكن يتكلم عنها قط، إلا في ازدراء بالغ.. وما تآلف الاثنان إلا بعد خلافي مع كل منهما، وإذ ذاك، بدأ يتكلم عنها باحترام!

ومنذ ذلك الحين، لاح أن "**ديدرو**" و"**جريم**" كانا يحاولان أن يؤلبا "**الدادتين**" عليّ وأن يفهماهما أنهما إذا لم تكونا في رخاء، فإنما كان مرد ذلك إلى سوء نيتي، وأنهما لن تصيبا مني أي خير قط!.. ولقد حاولا أن يحملاهما على هجري، ووعداهما بأن يحصلا لهما بفضل السيدة "**ديبيناي**" على رخصة لبيع الملح، وحانوت لبيع التبغ، وما لست أدريه كذلك!.. بل إنهما رغبا في أن يستدرجا "**ديكلو**"، كما استدرجا "**دولباخ**"، إلى محالفتهما، ولكن الأول راح يرفض باستمرار. وكانت لدي إذ ذاك بعض ظنون عن هذا التدبير، ولكنني لم أحط به بجلاء إلا بعد ذلك بزمن طويل. وكثيرا ما

أكون على حق إذ أرثي لذلك التحمس الأعمى المتهور من جانب أصدقائي الذين كانوا يسعون إلى الحط من شأني – وأنا معلول، وفي أشد حالات العزلة الكئيبة – ظنا منهم أنهم إنما كانوا يبذلون قصاراهم لإسعادي، بالوسائل التي كانت خير ما يؤدي إلى إتعاسي، في الواقع.

سنة ١٧٥٣

مثلت مسرحية "العراف" في "**باريس**"، في عيد المرافع "**الكرنفال**" التالي، أي في سنة ١٧٥٣. وكنت قد وجدت وقتا كافيا – في تلك الأثناء – لوضع لحن الافتتاح، والألحان التي تتخلل المشاهد. وكان لابد لهذه الألحان – كما وضعت وكتبت – من أن تشيع حركة في التمثيلية، من أولها لآخرها، وأن تجعل منها في مجموعها – في رأيي – لوحات جد مستحبة، ولكنني حين عرضت الفكرة على "الأوبرا" لم ألق مستمعا واحدا، فاضطررت إلى أن أنسج سلسلة من الأغاني والرقصات، بالطريقة المعتادة. وكانت النتيجة أن هذه الألحان وإن لم تضر بتأثير المشاهد، إلا أنها لم تلق سوى نجاح متوسط برغم أنها كانت زاخرة بالأفكار البديعة. ولقد حذفت الألحان الإلقائية التي وضعها "**جيلوت**"، وأحللت محلها ألحانا من وضعي، هي تلك التي كانت موجودة في الأصل. فإذا بها قد اكتسبت شيئا من الصبغة الفرنسية – كما أعترف – وأقصد بذلك الطريقة التي كان يلقيها بها الممثلون – إلا أنها لم تؤذ سمع أحد، بل إنها كانت ناجحة من الناحية الموسيقية، كما اعتبرت كذلك – من ناحية النظم – حتى لدى الجمهور.

وأهديت التمثيلية إلى السيد "**ديكلو**" الذي رعاها، وأعلنت أن هذا سيظل الإهداء الوحيد. على أنني كتبت إهداء لشخص آخر – بموافقة السيد "**ديكلو**" – ومع ذلك فإنه ولابد قد وجد أن هذا الاستثناء قد زاده هو تكريما!

ولدي عن هذه التمثيلية حكايات كثيرة، ولكن ثمة أمورا أكثر أهمية لا تدع ضرورة ذكرها وقتا أنفقه في تلك. على أنني قد أعود إليها يوما، في "الملحق". وإن كنت – مع ذلك – لن أغفل واقعة معينة قد يكون لها أثر في كل ما أعقب ذلك من أحداث. فلقد اطلعت ذات يوم، في مكتب البارون "**دولباخ**"، على موسيقاه. وبعد أن شهدت كثيرا من القطع، قال لي وهو يريني مجموعة من الألحان، على المعزف: "هاك قطع لحنت من أجلي خصيصا، وهي مليئة بالذوق، صالحة، وليس هناك من عرف بها أو رآها سواي. فخليق بك أن تختار واحدة منها تدسها في الألحان التي تتخلل مشاهدك!".. ولما كان ذهني زاخرا بموضوعات الألحان و"سيمفونيات" تفوق ما كان بوسعي أن أفيد؛ منه، فإنني لم أبد كثير احتفال بألحانه. على أنه راح يلح علي بحرارة اضطررت معها إلى أن أنتقي إحدى أغاني الرعاة، فاختصرتها وحورتها إلى قطعة ثلاثية تليق بالمشهد الذي يلج فيه رفاق "**كوليت**" (١) المسرح. وحدث بعد بضعة أشهر – و"العراف" ماتزال تعرض – أن ولجت يوما غرفة "**جريم**"، وإذا بنفر من الناس يحيطون بمعزفه، وإذا به هو ينهض عن المعزف في تعجل، بمجرد وصولي.

واتجه بصري – بحركة آلية – حامل "النوتة" الموسيقية، فرأيت مجموعة البارون "دولباخ" بالذات مفتوحة عند القطعة التي ألح علي في أن آخذها، مؤكدا أنها لن تخرج من يديه قط!

وبعد ذلك ببعض الوقت، رأيت المجموعة ذاتها مفتوحة، على معزف السيد "**ديبيناي**"، في يوم دعت فيه بعض الأصدقاء إلى ندوة موسيقية في دارها، وما كنت أنا لأقول عنه شيئا، لو لم يشع بعد

(١) بطلة أوبرا "عراف القرية".

قليل، أنني لم أكن مؤلف "عراف القرية". ونظرا لأنني لم أكن يوما عازفا ماهرا، فإني أوقن أنه كان من المحتمل أن يقال إنني لم أكن أعرف شيئا عن الموسيقى، لولا "قاموس الموسيقى" الذي كنت قد وضعته (١).

*****

ولقد حدث قبل إخراج "عراف القرية" بفترة من الزمن، أن وصل إلى "**باريس**" بعض الممثلين الهزليين "**الإيطاليين**"، فدعوا إلى التمثيل في "الأوبرا" دون أن يخطر ببال ما كان مقدرا أن يترتب على ذلك. وإذ كانوا سيئي التمثيل، وكانت الفرقة الموسيقية إذ ذاك من الجهل بحيث قضت – غير حافلة – على لذة القطع التي كانت تعزفها، فإنهم ألحقوا بفن الأوبرا الفرنسية ضررا لم يتسن قط إصلاحه. ذلك لأن الفارق بين هذين النوعين من الموسيقى (٢)، اللذين كانا يسمعان في الدار ذاتها، في يوم واحد، فتح الآذان الفرنسية، فلم تعد تطيق بطء الموسيقى التي اعتادتها، بعد الوضوح والنشاط اللذين امتازت بهما الموسيقى الإيطالية. فما كاد المهرجون الإيطاليون ينتهون من عرضهم، حتى كان الناس يبادرون إلى الانصراف.

فرؤي أن من الضروري تغيير نظام العرض، وإرجاء الممثلين الهزليين إلى النهاية. فعرضت "**ايجليه**"، و"**بيجماليون**" و"**الجن**" (٣)، ولكن أيا منها لم تستطع أن تستوي على ساقيها. ولم تصمد للمقارنة سوى "عراف القرية"، إذ قوبلت باستحسان فاق "الوصيفة" (٤) "**الإيطالية**" ذاتها. وكان ذهني مليئا – عندما وضعت المشهد الذي بين فصلي تمثيليتي – بالحان المسرحية الإيطالية، فاستعرت بعض افكار منها. غير أنني كنت أبعد من أن أتوقع أن أنتقد في هذه الناحية. ولو أنني كنت ممن يسطون على إنتاج الغير، فكم من سرقات كان يجب أن تتكشف، وكم كان هناك من المشوقين إلى أن يعنوا بإبرازها! ولكن شيئا من هذا لم يحدث، وقد ضاعت هباء كل المحاولات التي بذلت للعثور في إنتاجي الموسيقي على أتفه أثر من موسيقى سواي. كما أن كل الأغاني كانت تبدو – إذا ما قورنت بالأغاني الأصلية التي كان يزعم أنني أخذتها عنها – جديدة، جدة الطابع الموسيقي الذي ابتدعته. ولو أن "**موندوفيل**" أو "**رامو**" تعرض لمثل هذا الفحص والمقارنة لخرج منه مهلهلا!

ولقد اكتسب الممثلون الهزليون للموسيقى "**الإيطالية**" مستمعين جد متحمسين، فإذا "**باريس**" بأسرها تنقسم إلى فريقين، راحا يتجادلان في عنف، وكأنهما بصدد مسألة متعلقة بالدولة أو بالدين.

وكان أقواهما نفوذا، وأكثرهما عددا، يتألف من العظماء، والأغنياء، والنساء، ويتشبث بالموسيقى "**الفرنسية**".. أما الآخر – وهو أكثرهما حمية ونشاطا وتحمسا – فكان يتألف من فنانين حقيقيين، ومن أكفاء ونوابغ. وكانت عصبة تجتمع في دار "الأوبرا"، تحت مقصورة الملكة، بينما كان الفريق الآخر يملأ بقية الصالة، ولكنه كان يتخذ مكان اجتماعه الرئيسي، تحت مقصورة الملك. ومن هنا جاء اسما الحزبين الذين اشتهرا في ذلك الحين: "ركن الملك"، و"ركن الملكة".

وأدى الخلاف – إذ احتدم – إلى إصدار منشورات. فإذا شاء "ركن الملك" أن يهزأ، سخر منه "النبي الصغير"، وإذا أقحم نفسه في جدال، أفحمته "رسالة في الموسيقى **الفرنسية**".. وكانت هاتان النشرتان هما الوحيدتان اللتان كتب لهما البقاء في هذه المعركة، أما النشرات الباقية فقد ماتت.. وكان "**جريم**" يحرر الأولى، وأنا أحرر الأخرى!

---

(١) ما كنت لاحدس على الإطلاق، ان هذا سيقال فيما بعد، برغم وجود "القاموس"! (٢) موسيقى الأوبرا الفرنسية، وموسيقى الأوبرا الإيطالية. (٣) Egé, pysmalion, Lesylphe. (٤) Serva Padrona. وهي إحدى التمثيليات التي كانت الفرقة الإيطالية تعرضها.

بيد أن "النبي الصغير" ظلت تنسب إلي طويلا – في إصرار – برغم إنكاري، وكانت تحرر بأسلوب فكه، ولا تجشم محررها أقل عناء.. في حين أن "رسالة في الموسيقى" كانت تميل إلى الجد، وقد أثارت ضدي الأمة بأسرها؛ إذ خيل إليها أنها – ممثلة في موسيقاها – قد أهينت!.. وأن وصف الأثر الذي أحدثته هذه النشرة – والذي يفوق ما يصدقه العقل – لجدير بقلم "**تاسيتوس**" (١).. وكانت تلك فترة الصراع الأكبر بين البرلمان ورجال الكهنوت.. وكان البرلمان قد أوقف عن الاجتماع، وبلغت فورة السخط ذروتها، وأخذ كل شيء ينذر بانفجار وشيك!.. وما إن ظهرت النشرة، حتى انصرفت الخواطر لتوها عن المعارك الأخرى ولم يعد ثمة تفكير في غير الخطر المحدق بالموسيقى "**الفرنسية**"، ولا عاد ثمة هياج إلا ضدي أنا.. بل إنه كان من الشدة بدرجة أن الأمة لم تفق منه أبدا. ففي البلاط، لم تعد ثمة موازنة إلا بين "**الباستيل**" والنفي، وكان من المحتمل التعجيل بأمر القبض علي، لو لم يفلح السيد "**دي فوييه**" في إيضاح ما في هذا من تصرف أخرق . وقد يظن القارئ أنني أهرف، حين يقرأ أن من المحتمل أن هذه النشرة حالت دون قيام ثورة في الدولة. ومع ذلك فإن هذه الحقيقة واقعة، لعل "**باريس**" بأسرها تشهد بها حتى اليوم، إذ لم يمض بعد على هذه الواقعة العجيبة خمسة عشر عاما (٢).

*****

وإذا كانت حريتي لم تصادر، فإنني لم أعف من أدنى الإهانات، بل إن حياتي أصبحت في خطر. فأعدت فرقة موسيقى "الأوبرا" مؤامرة شريفةلاغتيالي أثناء مغادرتي المسرح. وقد نمت إلي، فلم تزدني إلا ترددا على الأوبرا"، ولم أعرف إلا بعد ذلك بوقت طويل، أن السيد "**انسيلو**" – الضابط في فرقة الفرسان – الذي كان يكن لي مودة، قد أفسد مفعول هذه المؤامرة، إذ دبر حمايتي – عند مبارحتي الأوبرا – دون أن أشعر. وكان أول استغلال لنظام إشراف البلدية على دار الأوبرا، هو حرماني من الدخول، وأن يحدث ذلك بأشد الأساليب المهينة.. أي بمنعي علنا من الدخول بدون "تذكرة"، بطريقة اضطرتني إلى ابتياع "تذكرة" في الشرفة العليا للدار (٣)؛ لكي أتفادى عار الرجوع دون دخول، في ذلك اليوم. وكان الظلم صارخا جدا، إذ إن الثمن الوحيد الذي تقاضيته عن أوبراي، عندما نزلت لهم عنها، هو حق الدخول – دون مقابل – طيلة العمر. ذلك لأن هذا وإن كان حقا اعتاد أن يحظى به كل المؤلفين – ومن ثم فقد كان استحقاقي إياه مضاعفا – إلا أنني حرصت على اشتراطه، بحضور السيد "**ديكلو**". ومن الصحيح أنني تلقيت – عن طريق خزانة الأوبرا – خمسين "**لوي**" كمكافأة شرفية لم أطلبها.. وفضلا عن أن هذا المبلغ لم يكن يعادل ما كنت أستحقه وفقا للوائح، فإن دفعه لم يكن ذا صلة ألبتة بحق الدخول دون مقابل، الذي طالبت به رسميا، والذي كان أمرا مستقلا تماما عن الموضوع!

ولقد جمع هذا التصرف بين عدم المساواة والفظاظة الجائرة، حتى إن الجمهور – الذي كان في أوج عداوته لي – لم يحجم عن إبداء استنكاره جهارا بالإجماع، وصاح كثيرون – ممن كانوا يسبونني في الليلة السالفة – بأعلى أصواتهم في دار "الأوبرا"، بأن من العار أن يحرم من حق الدخول – وبهذا الأسلوب – مؤلف يستحقه عن جدارة، بل وله أن يصحب معه شخصين بالمجان، وهكذا المثل الإيطالي القائل: "يعرف الصديق في المحنة".

ولم يكن لدي إزاء هذا سوى قرار واحد، هو أن أسترد تمثيليتي؛ مادمت قد حرمت الجزاء المتفق

---

(١) "كورنيليوس تاسيتوس"، كاتب ومحام ذاع صيته في التاريخ الروماني وقد عاش فيما بين سنتي ٥٥ و ١٢٠ بعد الميلاد وله مؤلفات تاريخية عديدة. (٢) كتب "روسو" هذا الجزء حوالي سنة ١٧٦٨ . (٣) أدنى الدرجات في المسرح.. "أعلى التياترو".

عليه. ومن ثم كتبت إلى السيد "**دارجنسون**"، الذي كان يتولى إدارة "الأوبرا"، وأرفقت رسالتي بمذكرة لم أكن قد تلقيت عنها ردا، فظلت المذكرة - وكذلك الرسالة - دون جواب، ودون رسالة. ولقد ظل صمت هذا الرجل الظالم راسخا في فؤادي، ولم يساعد على تنمية التقدير الضئيل الذي كنت دائما أحسه نحو شخصيته ونحو مواهبه. وهكذا احتفظت "الأوبرا" بتمثيليتي وسلبتني الجزاء الذي كنت قد نزلت في مقابله عن حقوقي فيها. وعندما يحدث هذا العمل من الضعيف نحو القوي، فإنه يعتبر سرقة.. إما إذا حدث من القوي نحو الضعيف فهو ليس سوى انتفاع بما للغير وحسب!

أما الكسب المالي الذي دره هذا العمل الفني، فمع أنه لم يرق إلى ربع ما كان يدره على أي مؤلف سواي، إلا أنه كان - بالنسبة إليّ - من الضخامة بحيث إنه كان كافيا لأن يمكنني من العيش عليه سنوات عدة، وأن يعوضني عن عملي في النسخ، إذ إن هذا العمل كان كاسدا على الدوام. فلقد نلت مائة "لوي" من الملك، وخمسين من السيدة دي "**بومبادور**" - عن عرض التمثيلية في "البيل في"، حيث قامت هي نفسها بدور "**كولان**" وخمسين من "الأوبرا"، وخمسمائة من "**بيسو**" مقابل نشرها.. أي أن هذا العمل الثانوي، الذي لم يكلفني سوى عمل خمسة أسابيع أو ستة، در علي من النقود - برغم سوء حظي وبرغم غبائي - ما يعادل مادره علي كتابي "**إميل**"، الذي استغرق مني عشرين عاما في التفكير، وثلاثة في التأليف!.. على هذه التمثيلية.. وقد تمثل هذا الثمن في المضايقات التي لا نهاية لها، والتي ترتبت عليها. إذ كانت هذه التمثيلية بذرة الأحقاد الخفية الناشئة عن الغيرة، والتي لم تتكشف إلا بعد ذلك بوقت طويل!.. ولم أعد - منذ نجاحها - أجد من "**جريم**" و"**ديدرو**"، أو من أي من الأدباء الذين كنت أعرفهم - ماعدا القليل - الحفاوة، والصراحة، وحسن المعاشرة التي كنت إخالني قد عثرت عليها لديهم من قبل. وأصبحت لا أكاد أظهر في دار البارون، حتى يكف الحديث عن أن يكون عاما.. ويتجمع القوم في فرق صغيرة، ويدور التهامس، بينما أظل وحيدا لا أجد من أبادله الحديث.. ولقد تحملت طويلا هذا الانفضاض عني، ولما كنت أرى أن السيدة "**دولباخ**" - التي كانت لطيفة وحفية - قد ظلت تكرم وفادتي باستمرار، فإنني رحت أتقبل جفوة زوجها، بقدر ما كانت هذه الجفوة محتملة. ولكنه في أحد الأيام تحرش بي دون داع، ودون مبرر، وفي غلظة بالغة، في حضور "**ديدرو**"، الذي لم ينبس بكلمة.. وفي حضور "**مارجنسي**"، الذي كثيرا ما أعرب لي - منذ ذلك الحين - عن إعجابه بالهدوء والاعتدال اللذين اتسمت بهما إجاباتي.. وانتهى الأمر إلى أن طردت من منزله بفضل هذه المعاملة المهينة، فخرجت منه وقد عقدت العزم على ألا أعود إليه إطلاقا. على أن هذا لم يمنعني من أن أتحدث بأمانة واحترام عنه وعن منزله، في حين أنه لم يذكرني دائما إلا بعبارات حاقدة، جارحة، فما وصفني مرة إلا بـ"خادم المدرسة" الصغير، دون أن يملك - برغم ذلك - أن يعين إساءة واحدة، أيا كان نوعها، بدرت مني نحوه، أو نحو أي امرئ كان يهتم بأمره. وهكذا انتهى إلى أن حقق تنبؤاتي وهواجسي!.. أما أنا، فاعتقد أن أصدقائي المذكورين كانوا على استعداد لأن يغفروا لي تأليف الكتب - وإن تكن كتبا رائعة - لأن هذا المجد لم يكن غريبا عنهم. بيد أنهم لم يكونوا يغتفرون لي أن وضعت أوبرا، ولا أن لقي هذا العمل الأدبي الفني نجاحا باهرا؛ لأن أحدا منهم لم يكن في وضع يمكنه من أن ينهج عين هذا النهج، ولا أن يطمع في عين ما نلت من تقدير وتكريم!.. كان "**ديكلو**" وحده هو الذي سما فوق الغيرة، بل إنه بدا أكثر مودة لي، واصطحبني إلى دار الآنسة "**كينول**"، حيث لقيت رعاية، وأنسا، وملاطفة، بقدر ما

افتقدت في دار السيد "**دولباخ**"!

*****

وبينما كانت "العراف" تمثل في "الأوبرا" كان مؤلفها موضوع مناقشة في "الكوميدي فرانسيز"، ولكنه كان اقل حظا من تمثيليته.. ذلك أنني إذ عجزت – خلال سبع أو ثماني سنوات – عن عرض "**نارسيس**" في مسرح "**الإيطاليين**" "**أوزيتاليان**"، بغضت هذا المسرح الذي كان ممثلوه يسيئون أداء المسرحيات "**الفرنسية**". ومن ثم فقد كان حريا بي أن أكون أشد رغبة في أن تعرض تمثيليتي في المسرح "**الفرنسي**" – الكوميدي "**فرانسيز**" – مني في أن تعرض لدى "**الإيطاليين**." وافضيت برغبتي إلى "**لانو**" الممثل الفكاهي، الذي كنت قد تعرفت إليه، والذي كان معروفا – كذلك – بأنه رجل فاضل ذو نفوذ.

ولقد أعجب بتمثيليتي الفكهة "**نارسيس**"، واخذ على عاتقه أن يعمل على إخراجها دون إعلان اسم مؤلفها. وحصل لي – في الوقت ذاته – على ترخيص بالدخول، دون مقابل، سررت به كل السرور، إذ كنت دواما أوثر المسرح الفرنسي على المسرحين الآخرين "الأوبرا، **والإيطالي**". واستقبلت التمثيلية باستحسان، برغم أنها قدمت دون ذكر المؤلف.. بيد أن لدي ما يحملني على أن أعتقد أن الممثلين، وكثيرين غيرهم، لم يكونوا يجهلونه. ولقد قامت الآنستان "**جوسان**" و"**جرانفال**" بدوري العاشقتين. ومع أن الأداء أسفر عن نقص في البراعة، إلا أنه – بوجه عام – لا يمكن أن يوصف بأنه سيئ تماما. على أنني دهشت – وتأثرت – لما تبدى من استغراق الجمهور، إذ راح يصغي في صبر وهدوء، من أول التمثيلية إلى آخرها، بل وسمح بعرضها مرة ثانية، دون أن يبدي أية بادرة تنم عن ملل!

أما أنا، فقد بلغ من ضجري – في العرض الأول – أنني لم أستطع المكث إلى النهاية. فتركت المسرح، وذهبت إلى مقهى "**دي بروكوب**"، حيث وجدت "**بواسي**" وبعض الآخرين، الذين يحتمل أن يكونوا قد ضجروا مثلي. وهناك، أعلنت فشلي بصوت عال، معترفا في شجاعة وتواضع بأنني مؤلف التمثيلية، ومتحدثا عنها بما كان الجميع يرونه فيها. ولقد لقي هذا الاعتراف العلني من مؤلف تمثيلية رديئة ساقطة، إعجابا قويا، حتى إنه بدا لي أقل ما يكون إيلاما!.. كذلك وجدت جزاء لعواطفي الصادقة في الجراة التي أقدمت بها على اعترافي. وأعتقد أنني – في هذه المناسبة – لقيت في الكلام زهوا يفوق ما كنت خليقا بان أجده من حياء زائف لو أنني لذت بالصمت!.. على أنني – إذ تبينت أن لا شك هناك في أن التمثيلية قد تروق كمادة للمطالعة، وإن كان التمثيل قد شوهها – عملت على طبعها، وبدأت في المقدمة – التي كانت من خير ما كتبت – أكشف عن مبادئي في صراحة تفوق قليلا كل ما فعلت من قبل.

وسرعان ما سنحت لي فرصة الإقدام – في غير ما تحفظ – على عرض هذه المبادئ في مؤلف أدبي عظيم الأهمية. فقد حدث ذلك العام "١٧٥٣" – على ما أظن – أن اتخذ محفل "**ديجون**" من موضوع "منشأ عدم المساواة بين البشر" مادة لبرنامج مسابقته. وهزني هذا الموضوع العظيم، وأذهلني أن جرؤ المحفل على عرضه للمباراة. على أنه إذا كان قد أوتي هذه الشجاعة، فقد رأيت أن بوسعي أن أوتى الشجاعة على الخوض فيه.. وشرعت في ذلك..

*****

ولكي أفكر في هذا الموضوع العظيم، وأنا مرتاح الخاطر، قمت برحلة إلى "**سان جيرمين**"، حيث قضيت سبعة أيام أو ثمانية، مع "**تيريز**" ومضيفتنا – التي كانت امرأة طيبة – وإحدى صديقاتها. وإني لأحسب هذه النزهة بين أحب ما قمت به من نزهات في حياتي.. وكان الجو جميلا، وقد اضطلعت هاتان المرأتان الطيبتان بالمطالب والنفقات. وراحت "**تيريز**" تتسلى بصحبتهما. أما أنا، فقد خلوت من الشواغل، ورحت أشاطرهن ابتهاجهن في أوقات الوجبات، متخففا من كل هم. وكنت أقضي بقية النهار موغلا في الغابة، حيث أخذت أبحث، وحيث وجدت صورة العصور الأولى، فرحت أتعقب التاريخ خلالها في جرأة، مهونا من شأن أكاذيب البشر التافهة.. وتجاسرت على أن أكتشف طبيعتهم، وأتعقب سير الزمن، والأشياء التي شوهت هذه الطبيعة.. وبالمقارنة بين الإنسان – كما صنعه الإنسان – والإنسان كما صنعته الطبيعة، كشفت له – في كماله المزعوم – عن المصدر الحقيقي لمصائبه وشقائه.

وارتفعت روحي – وقد انتشت بهذه التأملات السامية – إلى مقربة من مقام الربوبية، فأطللت من هناك على أقراني من أبناء البشر، وهم يسيرون عميانا في طريق الأباطيل والأوهام، وطريق أخطائهم، ومحنهم، وجرائمهم.. ورحت أصيح بصوت واهن ما كانوا ليستطيعوا أن يسمعوه: "أيها الحمقى، الذين لا يكفون عن الشكوى من الطبيعة، ألا اعلموا أن كل مساوئكم إنما تنبثق منكم!".

وكانت نتيجة هذه التأملات: "حديث في عدم المساواة"، وهو مقال صادف هوى من نفس "**ديدرو**"، فاق كل ما صادفته كتاباتي الأخرى، وقد أولاني نصيحة بشأنه، كانت أنفع النصائح (١)، ولكنها لم تجد في "أوروبا" كلها من القراء من أدركها سوى قليلين، ولم يشأ واحد من هؤلاء أن يتكلم عنها!..

وكان المقال قد كتب من أجل المسابقة، فأرسلته وأنا واثق – سلفا – بأنه لن يفوز بنجاح، إذ كنت أعرف عن يقين أن جوائز المحافل لم تخلق للأعمال الأدبية التي من هذا النوع!

وأدت هذه النزهة وهذا الشاغل إلى تحسن مزاجي وصحتي. إذ كنت منذ عدة سنوات معذبا باحتباس البول، وقد استسلمت نهائيا للأطباء، فاستنزفوا قواي – دون أن يخففوا علتي – وهدموا بنيتي. ولكني عندما عدت من "**سان جيرمين**" وجدت مزيدا من القوى، وشعرت بكثير من التحسن.

وتبعت هذه البادرة، فعقدت العزم على أن أشفى، أو أن أموت دون معونة الأطباء أو العقاقير. وودعتهم إلى الأبد. وشرعت أعيش ليومي، أستريح عندما أعجز عن المشي، وأسير بمجرد أن أملك القدرة على السير. وكانت الحياة في "**باريس**"، بين قوم أدعياء محبين للمظاهر، لا تروق لي.. كان تعصب الأدباء وتحزبهم، ومنازعاتهم المخزية، وافتقارهم إلى النقاء الذي يتجلى في كتبهم، والمظهر المترفع الذي يخدعون به المجتمع.. كل هذه كانت بغيضة إلى نفسي!.. وما أقل ما وجدت من رفق وسلامة قلب وصراحة في الاتصال بالناس، ولا سيما أصدقائي!

حتى لقد عافت نفسي هذه الحياة الصاخبة، وأخذت أتوق – في رغبة صادقة – إلى الإقامة في

---

(١) علق "روسو" على هذا، بقوله: "لم يكن لدي – في الوقت الذي كتبت فيه هذا – أي حدس عن مؤامرة "ديدرو" و"جريم" الكبرى، وإلا لكنت قد رأيت بسهولة كيف استغل الأول ثقتي؛ لكي يخلع على كتاباتي هذا الأسلوب الجاف، وهذا الجو القاتم اللذين لم يستمرا بعد أن توقف عن توجيهي.. فالجزء الخاص بالفيلسوف الذي سد أذنيه – خلال إحدى نقاط الجدل – حتى يكتسب صلابة دون أنات رجل في محنة، من أسلوب "ديدرو". وقد أمدني بكثير غير هذا الجزء، ويفوقه شدة، حتى إنني لم أقو على حمل نفسي على استعماله. على أنني عزوت تلك الروح القاتمة إلى ما جرى له في "زنزانة" "فانسين". وأن هذه الروح لتبدو مرة أخرى، وبنسبة كبيرة، في مؤلفه "كليرفال". بيد أنه لم يخطر ببالي إطلاقا أن أرتاب في أن هذا كان ينطوي على أدنى نية خبيثة"!

الريف. ولما لم أجد أي أمل في أن تمكنني مهنتي من الاستقرارهناك، رحت أسارع إلى قضاء بضع الساعات - التي كنت أستطيع أن افرغ فيها من العمل - هناك. واعتدت، لعدة أشهر، أن أخرج للرياضة وحيدا - عقب الغداء في بداية الأمر - في غابة "**بولونيا**"؛ لأدير في فكري موضوعات لمؤلفاتي المقبلة. ولم أكن أعود قبل هبوط الليل!

من سنة ١٧٥٤

إلى سنة ١٧٥٦

رأى - "**جوفكور**" - الذي كانت علاقاتي به في أوج توثقها إذ ذاك - أن لابد له من الرحيل إلى "**جنيف**" بحكم عمله، فعرض عليّ أن أرافقه في هذه الرحلة. ووافقت على ذلك.

وإذ لم أكن بصحة جيدة أستغني معها عن عناية "**السدادة**" (١)، فقد قرر أن تكون معنا في الرحلة، وأن تتولى أمها حراسة البيت. وأعددنا عدتنا على أن نرحل نحن الثلاثة معا، في أول حزيران (يونيو) سنة ١٧٥٤.

وجدير بي أن أنظر إلى هذه الرحلة على أنها فترة التجربة الأولى التي صادفتني خلال سني عمري الاثنتين والأربعين - إذ ذاك - والتي نبهتني إلى تلك الفطرة المفعمة بالثقة التي فطرت عليها، والتي اعتدت دائما أن أسلم نفسي إليها دون ما تحفظ ولا حرج. وكانت لدينا مركبة متوسطة، راحت تقطع بنا الرحلة على مسافات جد قصيرة، دون أن تستبدل جواديها. وكنت كثيرا ما أهبط وأسير على قدمي. ولم نكد نقطع نصف طريقنا، حتى أبدت "**تيريز**" أعظم نفور من أن تبقى وحيدة في العربة مع "**جوفكور**"، فما إن رغبت في الهبوط - بالرغم من رجائها - حتى هبطت هي الأخرى وسارت. وظللت الومها وقتا طويلا على هذه النزوة، بل ورحت أعارضها بشدة، حتى رأت نفسها مضطرة - في النهاية - إلى أن تصارحني بالسبب.. وخيل إليّ أنني أحلم.. وهويت من حالق، عندما سمعت أن صديقي السيد دي "**جوفكور**"، المسن الذي جاوز الستين، والمصاب بالنقرس، والمنهار البنيان، والذي هدته حياة اللهو والعبث.. صديقي هذا كان يبذل غاية جهده، مذ بدأنا الرحلة؛ ليفسد امرأة لم تعد شابة ولا جميلة، امرأة كانت لصديقه.. وكان يسعى إلى ذلك بأحط الوسائل، وبأدعاها إلى الخجل، حتى لقد قدم إليها كيس نقوده.. وحتى لقد حاول أن يثير نزواتها بأن راح يقرأ عليها كتابا فاحشا، وبأن أخذ يريها الصور الفاضحة التي امتلأ بها الكتاب!.. ولقد القت "تيريز" بالكتاب الخبيث - مرة - من العربة، وهي في غمرة السخط. وقالت إن الرجل في أول يوم في الرحلة، انتهز فرصة إيوائي إلى الفراش قبل العشاء - إذ كنت أعاني صداعا شديدا - واستنفد الوقت كله - وقد كان خلاله وحيدا معها - في محاولات وتصرفات أكثر لياقة بالحيوان المهتاج، أو بالجدي، منها برجل محترم، ائتمنته على نفسي وعلى رفيقتي!

يا للمفاجأة!.. ويا له من ألم في الفؤاد جديد عليّ!.. أيقدر لي، أنا الذي كان يؤمن حتى ذاك الوقت بأن الصداقة لا تنفصل عن كل المشاعر المستحبة والنبيلة التي تكسبها بهاءها - أن أجد نفسي لأول مرة في حياتي، أقرن هذه الصداقة بالازدراء، وأسحب ثقتي وتقديري من رجل كنت أحبه،

---

(١) يقصد "تيريز".

وكنت أعتقد أنني محبوب منه؟!.. لقد أخفى التعس مسلكه المعيب عني، ولكي أتجنب إحراج "**تيريز**"؛ ألفيتني مضطرا إلى أن أخفي عنه استيائي، وإلى أن أدفن في قرارة فؤادي مشاعر ما كان له أن يعلم بها إطلاقا!.. فيا وهم الصداقة الوادع القدسي، لقد كان "**جوفكور**" أول من رفع نقابك لعيني، وكم من أيد قاسية قد حالت – منذ ذلك الحين – دون هبوط هذا النقاب على وجهك ثانية!

وتركت "**جوفكور**" في "**ليون**"؛ لأتخذ طريقي خلال إقليم "**سافوا**"، إذ لم أقو على أن أمر – من جديد – على مقربة من "**ماما**" دون أن أراها. ولقد رأيتها.. ولكن، يا إلهي!.. في أية حال؟ بل في أي هوان؟!.. ما الذي تبقى لها من صفاتها الأولى؟.. أفهذه هي السيدة دي "**فاران**" بعينها، التي كانت متالقة، والتي أوفدني إليها أسقف "**بونفير**"؟.. لشد ما حزن قلبي!.. ولم أر لها من مخرج سوى أن تترك إقليمها.

ورحت ألحف عليها في حرارة، ودون جدوى، مرددا ما ألححت عليها به عدة مرات في خطاباتي، ضارعا إليها أن تأتي فتعيش معي في سكينة، وتسمح لي بأن أكرس أيامي وأيام "**تيريز**" من أجل أن نحيل أيامها سعيدة. ولكنها أبت أن تصغي إليّ متشبثة بمعاشها الذي لم تسحب منه شيئا، منذ أمد طويل، برغم أنه كان يدفع بانتظام. ووهبتها – مرة أخرى – قسطا طفيفا من نقودي، يقل عما كان ينبغي أن أعطيها، وأقل مما كان يجب أن أقدم، لو لم أكن موقنا تمام اليقين من أنها لن تفيد منه بـ"**سو**" واحد!

ولقد قامت – أثناء مكثي بـ"**جنيف**" – برحلة في "**شابليه**"، فجاءت لزيارتي في "**جرانج كانال**". وكان يعوزها المال كي تواصل الرحلة، ولم أكن أحمل معي ما كان لازما لها، فأرسلته إليها بعد ساعة، بوساطة "**تيريز**". يا للمسكينة "**ماما**"!.. فلأذكر دليلا واحدا جديدا، على طيبة قلبها: ذلك أنه لم يكن قد تبقى لها من حليها، سوى خاتم صغير، فخلعته عن أصبعها لتضعه حول أصبع "**تيريز**"، التي نقلته في التو إلى أصبع "**ماما**" من جديد، وهي تقبل تلك اليد النبيلة وترويها بدموعها!

.. آه! كانت تلك هي اللحظة المواتية لكي أسدد ديني!.. كان خليقا بي أن أهجر الكل لأتبعها، وأن ألازمها حتى ساعتها الأخيرة، وأن أقاسمها حظها، مهما يكن!.. ولكنني لم أفعل شيئا من هذا القبيل، فقد شعرت – وقد شغلت عنها بغيرها – أن الرابطة التي كانت تشد كلا منا إلى الآخر قد تفككت، إذ كان ينقصها الرجاء في أن أستطيع أن أحيل علاقتي بـ"**ماما**" إلى شيء نافع لها!.. ولقد بكيت حسرة عليها، ولكنني لم أتبعها.. وليس بين بواعث تأنيب الضمير التي صادفتني في حياتي، ما هو أشد ولا أبقى من هذا الباعث!.. وإني لأستحق ألوان العقاب الفظيعة التي لم تكف عن تعذيبي منذ ذلك الحين.. فليتها تكفر عن جحودي!.. الجحود الذي تبدى في مسلكي فعلا، ولكنه مزق قلبي في عنف ما كان ليحدث لو أن هذا القلب كان قلبا جاحدا يوما!

*****

كنت قبل رحيلي من "**باريس**" قد شرعت في صوغ إهداء "حديث في عدم المساواة"، وقد فرغت منها في "**شامبيري**"، وسجلت تاريخ ذلك اليوم مقرونا باسم المكان، إذ رأيت أن من الأفضل ألا أقرن التاريخ باسم "**باريس**" أو "**جنيف**"، كي أتفادى كل المضايقات. وإذ وصلت إلى "**جنيف**"، أسلمت نفسي لتحمسي، وهيامي بالنظام الجمهوري.. هذا التحمس المستهام الذي قادني إلى هناك، والذي

ازداد بالاستقبال الذي حظيت به. وفي غمرة المآدب والمجاملات التي أحاطتني بها كل الأوساط، استسلمت بكل كياني إلى الغيرة الوطنية، وقد أخجلني أن أحرم من حقوقي كمواطن؛ بسبب اعتناقي دينا يخالف دين آبائي (١)، فقررت أن أعود إلى هذا الأخير علانية. ورأيت أن الإنجيل واحد لجميع المسيحيين، وأن لب العقيدة، ما اختلف إلا باختلاف أولئك الذين أقحموا أنفسهم في تفسير ما كانوا عاجزين عن فهمه. ولقد كان من حق الحاكم الفرد – في كل بلد – أن يعين أسلوب العبادة، وأن يبت في مسألة العقيدة المعقدة.. ومن ثم فإن واجب الرعية أن يقروا العقيدة، وأن يمارسوا أسلوب العبادة اللذين نص عليهما القانون. وكان طول اختلاطي بأهل البحث والدراسة أبعد من أن يزعزع إيماني، بل إنه عززه، لاسيما وإنني كنت أنفر من المنازعات والتعصب. ولقد أدت دراسة الإنسان والكون – في كل مكان – إلى اطلاعي على القضايا الرئيسية والعقلية التي توجهها. ولقد علمتني قراءة التوراة – لاسيما الإنجيل الذي انصرفت إليه عدة سنوات – كيف أزدري التفسيرات الجوفاء الحمقاء، التي خلعها على تعاليم "**عيسى**" المسيح أناس ليسوا أهلا لإدراكها على الإطلاق!.. ومجمل القول إن الفلسفة إذ قربتني من جوهر الدين، صرفتني عن هذا الركام من قواعد الإيمان الزائفة، التي حجبت عن الناس هذا الجوهر!

وكما كنت أومن بأن صاحب العقل المدرك، ليس بحاجة إلى طريقتين يختار بينهما في الوصول إلى المسيحية، فإنني كنت أومن كذلك بأن كل ما هو قاعدة ونظام – في كل دولة – إنما يدخل في نطاق التشريع والقانون. ومن هذا المبدأ المعقول، الاجتماعي، السلمي – الذي جر علي ما جر من اضطهادات قاسية – انسابت هذه النتيجة: إذا شئت أن أصبح مواطنا، فإن من واجبي أن أكون بروتستانتيا، وأن أعود إلى دين وطني. وعقدت عزمي على ذلك، بل إنني استشرت في ذلك راعي الأبرشية التي كنت أقيم فيها، والتي كانت خارج المدينة.. ولم أكن أرجو سوى ألا أضطر إلى أن أمثل أمام مجمع الكرادلة. ومع أن المراسم الكنسية كانت حاسمة في هذا الصدد، إلا أنه رؤي التجاوز عنها إكراما لي، فعينت لجنة من خمسة أو ستة أعضاء، لتتلقى إقراري بعقيدتي، في جلسة خاصة. ولسوء الطالع، شاء القس "**بردريو**" – وكان شخصا لطيفا، لينا، ربطتني به روابط من الود – أن يلح عليّ بأن من دواعي الغبطة أن ألقي كلمة في هذا الاجتماع الصغير. وأزعجني توقع هذه الكلمة، إلى درجة أنني – بعد دراسة شغلت بها ليل نهار لثلاثة أسابيع – أعددت خطابا قصيرا.. وارتبكت عندما حانت لحظة إلقائه، حتى إنني عجزت عن أن أنطق بكلمة واحدة منه.. وتصرفت كأغبى تلاميذ المدارس!.. وتولى أعضاء اللجنة عني الحديث، ورحت أجيب في عي بـ"لا" و "نعم"، ثم قبلت في الطائفة، ورددت إلي حقوقي كمواطن.. وكذلك أدرج اسمي في قائمة "الحرس الوطني" الذي كان يتقاضى موارده من أبناء المدينة والطبقة المتوسطة فحسب (٢)، ودعيت إلى اجتماع غير عادي للمجلس العام، لتلقي اليمين من "**السنديك**" "**موسار**" (٣).

ولقد تأثرت للعواطف الطيبة التي أبداها لي المجلس ومجمع الكرادلة – في هذه المناسبة – وللإجراءات الكريمة الحفية التي صدرت من جميع المستشارين، والقساوسة، والمواطنين، حتى إنني – بدافع من الرجاوات الملحة من "**ديلوك**" الطبيب، ومن "**ميلي**" الصادق بوجه خاص – لم أعد أفكر في العودة إلى "**باريس**" إلا لكي أتخلص من مسكني، وأسوي أعمالي البسيطة، وأجد عملا للسيدة "**لوفاسير**" وزوجها – يقيهما العوز – ثم أعود مع "**تيريز**" فنستقر في "**جنيف**" بقية حياتي.

---

(١) كان "روسو" قد تحول عن الكاثوليكية إلى البروتستانتية في صباه. (٢) ذكر "روسو" أنه كان يقيم خارج المدينة، فكان ضمه إلى الحرس نوعا من التكريم له. (٣) "السنديك" هنا لقب كان يطلق على رئيس الهيئة.

وإذ استقر رأيي على هذا القرار، أرجأت كل الشواغل الهامة، لكي أهنأ بأصدقائي إلى أن يحين وقت الرحيل إلى "**باريس**". وكانت أكثر ألوان التسلية إرضاء لي، هي الطواف حول البحيرة في قارب مع "**ديلوك**" الأب، وزوجة ابنه، و"**تيريزي**". وقضينا سبعة أيام في هذه الجولة، في أبدع طقس عرفته. وقد احتفظت بالذكريات الحارة للمواقع التي أطربتني – عند الطرف الأقصى للبحيرة – وأوردت بعض أوصافها في "**هيلويز** الجديدة" عندما كتبتها بعد سنوات!

وكانت الصلات الرئيسية التي عقدتها في "**جنيف**" – عدا صلتي بـ"**ديلوك**" الذي تحدثت عنه – هي صداقتي للقس "**فيرن**"، الذي كنت قد عرفته في "**باريس**" من قبل، والذي كانت لدي عنه فكرة طيبة تفوق ما تبدى منه فيما بعد.. وصداقتي للسيد "**بردريو**"، الذي كان – في ذلك الحين – راعي "**أبرشية**" ريفية، وأصبح اليوم أستاذا للأدب، والذي ساظل دائما أتحسر على صحبته المفعمة باللطف والدعة، وإن كان هو قد رأى أن فصم هذه المعرفة، كان عملا سليما.. وهناك السيد "**جالابير**"، الذي كان أستاذا لعلم الطبيعة – إذ ذاك – ثم أصبح مستشارا و"**سنديك**"، وقد قرأت عليه رسالتي عن عدم المساواة – بعد أن تجاوزت عن المقدمة والإهداء – فبدا عليه أنه طرب لها.. والأستاذ "**لولان**"، الذي ظللت على تراسل معه حتى وفاته، والذي ذهب في ثقته بي إلى درجة أن عهد إلي بأن أبتاع بعض الكتب للمكتبة العامة.. والأستاذ "**فيرنيه**"، الذي أدار لي ظهره – ككل الناس – بعد أن أريته الأدلة على ود وصداقة كانا خليقين بأن يمسا قلبه، إذا كان لقلب رجل من رجال الدين أن يتأثر بشيء!.. و"**شابوي**"، الكاتب الذي خلف "**جوفكور**" في العمل، والذي رغب في أن يخلفه في الصداقة، وسرعان ما خلفه فعلا.. و"**ميرسيه دي ميزيبر**"، وقد كان صديقا قديما لأبي، كما أثبت أنه كذلك بالنسبة لي، ولكنه – بعد أن كان قد استحق تقدير وطنه من قبل، ثم أصبح مؤلفا مسرحيا، ومرشحا لمجلس المائتين – تحول عن آرائه، وعرض نفسه للسخرية حتى وافته منيته.. على أن التعارف الذي وضعت فيه أكبر أملي، هو تعارفي مع "**مولتو**".. وكان شابا توحي مواهبه وذكاؤه المتأجج بمستقبل عظيم له. وقد اعتدت دائما أن أشعر بعطف عليه، برغم أن مسلكه نحوي كثيرا ما يثير الريب، وبرغم أنه كان على علاقات ودية بألد أعدائي.. على أنني – برغم كل هذا – لا أستطيع أن أصد نفسي عن التطلع إليه كشخص يرجى أن يكون يوما هو الذائد عن مذكراتي، والمنتقم لي، بوصفي صديقه!

*****

وفي غمرة هذه المتع والمرفهات، لم أفقد ميلي إلى النزهات، التي كنت أنطلق فيها وحيدا على قدمي، فلم أكف عن ممارستها.. وكم من نزهات طويلة تمشيت خلالها على ضفاف البحيرة، لم يكن يمكث خلالها في رأسي – الذي اعتاد العمل – شيء من الهواجس. وكنت أقلب في ذهني أثناءها المشروع الذي كنت قد رسمته من قبل، لكتابي: "المذاهب السياسية"، الذي لن ألبث أن أتحدث عنه.. كذلك كنت أفكر في كتابة "تاريخ **فاليه**" (١).. ومأساة شعرية لم يجردني موضوعها – الذي لم يكن سوى حياة "**لو كريس**" (٢) – من الأمل في خنق الضحكات، وإن كنت قد جرؤت على أن أقدم هذه المرأة التعسة على المسرح مرة أخرى، وفي وقت لم يكن من المحتمل فيه أن تعود حياتها إلى المسرح الفرنسي. كذلك حاولت أن أعالج موضوع "**تاسيتوس**" (٣)، وترجمت الكتاب

---

(١) إقليم "الفالية" في الأراضي "السويسرية"، في الوادي الأعلى لنهر الرون. (٢) امرأة رومانية، قتلت نفسها يأسا وكمدا عندما اغتصبها ابن حاكم "روما" المستبد، فادت مأساتها إلى قيام النظام الجمهوري في "روما" سنة ٥١٠ قبل الميلاد. (٣) "تاسيتوس" كاتب روماني أوردنا سيرته في صفحة ١٧٥ من هذا الجزء و"التواريخ" من أشهر مؤلفاته.

الأول من "التواريخ" .. ولسوف توجد هذه الترجمة بين أوراقي.

وبعد أربعة أشهر من الإقامة في "**جنيف**"، عدت إلى "**باريس**" في شهر تشرين الأول (أكتوبر)، متحاشيا المرور بـ"**ليون**"؛ حتى لا ألتقي في طريقي بـ"**جوفكور**". ولما كنت قد قررت – في تدبيراتي – ألا أعود إلى "**جنيف**" إلا في الربيع التالي، فقد عاودت في الشتاء عاداتي وأعمالي، التي كان أهمها مراجعة النسخ التجريبية "البروفات" لرسالتي "حديث في عدم المساواة"، التي كانت تطبع في "**هولندا**"، لدى الناشر "**ريي**" الذي كنت قد تعرفت إليه في "**جنيف**". ذلك لأنه لما كان إهداء هذا الكتاب معقودا للنظام الجمهوري، وكان مثل هذا الإهداء لا يروق للمجلس (١)، فقد انتظرت حتى أرى وقعه في "**جنيف**" قبل أن أعود إليها. ولم يكن هذا الوقع في صالحي، بل إن ذاك الإهداء – الذي لم توح به سوى أنقى العواطف الوطنية – خلق لي في المجلس أعداء، كما جلب علي غيرة بعض المواطنين. فقد كتب لي السيد "**شويه**" – "**السنديك**" الأكبر، في ذلك الحين – رسالة مهذبة ولكنها فاترة، ستوجد في أوراقي، في الملف "أ" رقم "٣". وتلقيت من بعض الخاصة – وبينهم "**ديلوك**" و"**جالابير**" – تهاني قليلة، كانت هي غاية ما جوزيت به، فلم أجد واحدا من أبناء "**جنيف**" يشكر لي صادقا تلك الحمية المنبعثة من القلب، والتي تبدو ملموسة في الكتاب. ولقد صدم هذا الفتور كل من لاحظوه. وأذكر أنني كنت أتناول الغداء – ذات يوم – في دار السيدة "**دوبان**"، في "**كليشي**"، بصحبة "**كروميلان**" – وزير الجمهورية (٢) – والسيد دي "**ميران**"، فقال هذا في صراحة مسموعة، إن المجلس كان مدينا لي بمكافأة وبتكريم عام، من أجل هذا الكتاب، وإنه إنما يخزي نفسه إذا قصر في هذا. ولم يجرؤ "**كروميلان**" – الذي كان ضئيل الجسم، أسود القلب، دنيء المكر – أن يرد على ذلك في حضوري، ولكنه لوى فمه في حركة بشعة أضحكت السيد "**دوبان**"!.. وكانت الفائدة الوحيدة التي عادت علي من هذا المؤلف – إلى جانب أنني أرضيت به فؤادي – هي لقب "المواطن" الذي خلعه علي أصدقائي، ثم حذا الجمهور حذوهم، وما لبثت أن فقدته عقب ذلك؛ لفرط استحقاقي إياه! على أن هذا النجاح الخابي ما كان ليحولني عن تحقيق أوبتي إلى "**جنيف**"، لو لم تتغلب على ذلك بواعث كانت ذات نفوذ قوي على فؤادي. فإن السيد "**ديبيناي**" كان راغبا في أن يضيف إلى قصر "**لاشيفريت**" جناحا كان ينقصه، فانفق في سبيل إنجاز ذلك، مبالغ جسيمة. وفيما كنت ذاهبا – ذات يوم – مع السيدة "**ديبيناي**"، لمشاهدة عملية البناء، مضينا في سيرنا إلى ما بعد الموقع بحوالي ربع فرسخ، أي إلى مقربة من خزان مياه المتنزهات الملحقة بالقصر، في متاخمة غابة "**مونمورنسي**"، حيث كان ثمة مبنى صغير رشيق، أقيم ليكون مطبخا خلويا، وقد ألحق به كوخ مهدم، يدعى "**ليرميتاج**" (٣).

وكان هذا الموقع المنعزل، الملائم بي، قد ملك عليّ حواسي عندما رأيته للمرة الأولى، قبل رحلتي إلى "**جينف**". وفي إعجابي به، انبعثت مني هذه الكلمات: "آه!.. يا له من مقام بهيج ياسيدتي!.. ها هو ذا ملاذ كأنما خلق لي!".. ولم تكترث السيدة "**ديبيناي**" لقولي كثيرا، في ذلك الحين. ولكنني – في زيارتي الثانية – دهشت عندما وجدت في مكان الطلل القديم، منزلا صغيرا، يكاد يكون جديدا بأكمله، وقد قسم تقسيما بديعا، وأصبح جد مهيأ ليكون مقاما لأسرة تضم ثلاثة أفراد!.. ذلك أن السيدة "**ديبيناي**" عملت على إنشاء هذا المبنى في صمت، وبنفقات جد ضئيلة، مستخدمة في ذلك بعض العمال الذين كانوا يشتغلون في القصر، وبعض المواد التي كانت متوفرة

(١) مجلس المائتين، الذي بمثابة الهيئة النيابية لجمهورية "جنيف". (٢) الوزير المفوض لجمهورية "جنيف" في "باريس". (٣) L'Ermitage. أي صومعة الناسك.

هناك!

وعندما رأت دهشتي، قالت: "ها هوذا ملجؤك يادبي، فقد اخترته بنفسك، وقد أنالتك إياه الصداقة، عسى أن يضع خاتمة لتفكيرك الجائر في البعد عني!" . وما أعتقد أنني شعرت يوما بتأثر أشد، ولا أعذب مما شعرت به. إذ ذاك!.. وغسلت بدموعي يد صديقتي الكريمة. وإذا لم أكن قد تخليت تماما عن عزمي في تلك اللحظة، فإن هذا العزم قد تصدع على الأقل!.. وأصبحت السيدة "**ديبيناي**" – التي أبت أن تنهزم أمام رغبتي في الاستقرار في "**جنيف**" – شديدة الإلحاح، واستعانت بكثير من الوسائل المتباينة، وبكثير من الأشخاص؛ لكي تتغلب علي.. بل إنها ذهبت في ذلك إلى حد أن عينت السيدة "**لوفاسير**" وابنتها في خدمتها.. وبهذا انتصرت في النهاية على إصراري. وإذ تنحيت عن فكرة الاستقرار في وطني، قررت، ووعدت بأن أقيم في "**ليرميتاج**" . وبينما كان المبنى يجف (١)، تكفلت السيدة "**ديبيناي**" بأمر الأثاث. ومن ثم فإن المكان كان معدا تماما للسكنى في الربيع التالي.

*****

وكان من الأشياء التي ساعدت كثيرا على أن أبت في الأمر، استقرار المقام بـ"**فولتير**"، على مقربة من "**جنيف**" . فقد أدركت أن هذا الرجل كان موشكا أن يحدث انقلابا هناك، وإنني خليق بأن أجد في وطني عين النقائص، والمظاهر، والأخلاق التي كانت تنفرني من "**باريس**"، ومن ثم فلابد من النضال دون انقطاع، ولن يبقى لي من خيار في مسلكي سوى أن أكون أحد اثنين: إما متحذلقا متغطرسا لا يطاق، أو مواطنا رديئا جبانا!.. ولقد أدى الخطاب الذي كتبه لي "**فولتير**" عن كتابي الأخير، إلى أن أشير إلى هواجسي في ردي، فكان الأثر الذي أحدثته إشارتي معززا لرأيي. ومنذ ذلك الحين، اعتبرت "**جنيف**" في حكم الضائعة، ولم أكن مخطئا في حدسي. ولعله كان من الخليق بي أن أتحدى العاصفة، لو أنني شعرت بمقدرة على ذلك، ولكن.. ما الذي كنت أملك أن أفعله – وأنا وحيد، خجول، عيي – ضد رجل متكبر، غني، يستند إلى مؤازرة الكبار، ويجيد الكلام البراق، وقد صار معبود النساء والشباب؟.. لقد خشيت أن أعرض شجاعتي للخطر، دون جدوى، فلم أنصت إلا إلى فطرتي المسالمة، وإلى حبي للطمأنينة والخمول.. فهو إذا كان قد خدعني إذ ذاك، فإنه لايزال يخدعني اليوم، في هذا المضمار، عينه!.. ولو أنني آثرت المقام في "**جنيف**"، لجنبت نفسي كثيرا من المحن والتعاسات، ولكنني – بكل ما أوتيت من حمية، ومن غيرة وطنية – أشك في أنني كنت مستطيعا أن أقوم بعمل عظيم، أو نافع، لبلادي.

وكان "**ترونشان**" قد استقر في "**جنيف**" حوالي ذلك الوقت، فما لبث أن جاء إلى "**باريس**" بعد قليل، ليقوم بدور الدجال (٢)، وليتسلل إلى بعض كنوزها. وما إن وصل، حتى قام بزيارة "**الشيفالييه جوكور**".. وكانت السيدة "**ديبيناي**" تواقة إلى أن تستشيره شخصيا، ولكن الوصول إليه – خلال صفوف الجماهير – لم يكن ميسورا. وهرعت إليّ، فأقنعت "**ترونشان**" بأن يذهب لزيارتها، وإذا بهما يعقدان روابط صداقة عززاها – فيما بعد – على حسابي أنا!.. هكذا كان نصيبي دائما، فما جمعت بين صديقين – كنت أعرف كلا منهما على حدة – إلا واتحدا، دون توان، ضدي. ومع أنهم في المؤامرة – التي دخلها آل "**ترونشان**" من ذلك الحين، لكي ينحطا ببلادهما إلى درك

(١) كانت العادة – في ذلك العهد – أن يترك المبنى خاليا عقب الفراغ من بنائه، ريثما يجف اللبن والملاط المستخدمان في إنشائه. (٢) تيودور ترونشان": الطبيب "السويسري"، الذي ولد في "جنيف" سنة ١٧٠٩، ومات سنة ١٧٨١ .

العبودية – كانوا يشعرون بمقت نحوي، إلا أن الطبيب ظل طويلا يبدي لي آيات حسن النية. بل إنه ذهب إلى درجة أن كتب لي، بعد عودته إلى "**جنيف**" عارضا علي منصبا فخريا يضعني على رأس المكتبة العامة هناك. ولكن رأيي كان قد استقر، فلم يزعزع هذا العرض عزمي.

وعدت – في هذه الفترة – أتردد على دار السيد "**دولباخ**".. وكانت مناسبة ذلك أن الموت عدا على زوجته – كما عدا على السيدة "**فرانكويي**" – إبان إقامتي في "**جنيف**". وقد حدثني "**ديدرو**" – إذ أشار إلى ذلك في خطاباته – عن الحزن العميق الذي نزل بالزوج، فحرك الأسى فؤادي، وتحسرت – في نفسي – على هذه المرأة الطيبة، وكتبت إلى السيد "**دولباخ**".

إذ إن هذا الحادث المحزن جعلني أنسى كل أخطائه، وما إن عدت من "**جنيف**"، وكان هو الآخر قد عاد من جولة قام بها في "**فرنسا**" ليسري عنه الأسى، حتى ذهبت لزيارته مع "**جريم**" وأصدقاء آخرين، وواصلت زيارته – بعد ذلك – إلى أن رحلت إلى "**ليرميتاج**". وعندما شاع في الوسط المحيط به، أن السيدة "**ديبيناي**" – التي لم يكن قد تعرف إليها بعد – كانت تعد لي مسكنا، انهالت علي السخريات كالمطر، وقيل إنني عاجز عن أن أعيش بدون تملق وإطراء المدينة، وبدون متعها وملاهيها، وإنني لن أطيق البقاء في عزلة، ولو لخمسة عشر يوما!.. ولما كنت أدرك حقيقة مشاعري، فقد تركتهم يقولون ما حلا لهم، ومضيت في طريقي. ومع ذلك، فإن "**دولباخ**" ساعدني على أن أعثر على مأوى للشيخ " الطيب **لوفاسير**" (١) الذي كان قد تجاوز الثمانين من عمره، والذي كانت زوجته تشعر بأنه عبء ثقيل يبهظها، فكانت لا تكف عن أن ترجوني أن أريحها منه!..

وقد وضع في ملجأ للفقراء، حيث عجل كبر سنه، وحزنه لبعده عن أسرته، بإرساله إلى القبر، بمجرد أن حل بالمكان تقريبا!.. ولم تأس زوجته وأطفاله عليه كثيرا، ولكن "**تيريز**" – التي كانت مشغوفة بحبه – لم تجد قط عزاء لمصابها فيه، ولم تصفح عن نفسها قط إذ تركته – وهو على شفا نهاية أجله – يقضي أيامه الأخيرة بعيدا عنها!

*****

وتلقيت في هذه الفترة تقريبا، زيارة لم أكن أرتقبها قط، وإن كان صاحبها من أقدم المعارف. وأعني به صديقي "**فينتور**"، الذي فاجأني ذات صباح لطيف، عندما كان آخر شخص يخطر ببالي. وكان معه زميل.. وكم لاح لي أنه تغيرا!.. فبدلا من أخلاقه الكريمة السالفة، لم أجد فيه سوى مظهر مفسود منحل، منعني من أن أكاشفه بدخيلتي.. أو لعل عيني لم تعودا كما عهدتهما، أو أن الإفراط في العبث قد أطفأ ذكاءه، أو أن كل تألقه السابق كان يعتمد على إشراقة الصبا، التي لم يعد محتفظا بها!.. ولقد عاملته في غير اكتراث تقريبا، وافترقنا في فتور. ولكنه لم يكد ينصرف، حتى أهاجت ذكرى ألفتنا القديمة.. ذكريات صباي، تلك الذكريات التي كانت في رونقها، وفي بهائها، وفي كمالها، مقصورة على هذه المرأة الملائكية التي لم تكن – اليوم – أقل تغيرا منه.. وطرائف وأقاصيص تلك الأوقات الهانئة.. وذلك اليوم الشاعري الذي قضيته في "**تون**"، في براءة وطرب بين تلكما الفتاتين الفاتنتين اللتين كان كل ما أنعمتا به عليّ، مجرد قبلة على اليد، ولكنها خلفت – مع ذلك –

---

(١) عقب "روسو" على هذا بقوله: "هذه إحدى الحيل التي تخدعني بها ذاكرتي. فقد علمت لتوي – وبعد كتابة هذا بأمد طويل – خلال حديث مع زوجتي عن أبيها الطيب، أن الذي ساعد على إنزاله بالملجأ، لم يكن السيد "دولباخ"، وإنما كان السيد دي "شينونسو"، الذي كان إذ ذاك من أعضاء لجنة "فندق الله". وقد نسيته تماما، وذكرت السيد "دولباخ" في مكانه، إلى درجة أنني كنت على استعداد لأن أقسم أنه الذي قام بالخدمة".. والفندق الذي يعنيه "روسو" هنا من أقدم ملاجيء "باريس".

حسرة ناعمة دائمة!..

وإذا كل النشوات البهيجة التي أسكرت قلبي الشاب، والتي شعرت بها إذ ذاك في أقوى صورها، والتي كنت أظنها قد ولت إلى الأبد.. كل هذه الذكريات العاطفية الناعمة، جعلتني أبكي شبابي الذي أدبر بمباهجه، والذي ضاع عليّ!.. آه! كم كنت جديرا بأن أبكي عودة هذه الذكريات – العودة المتأخرة، الحزينة – لو أنني تنبأت بالأسى الذي كان مرتقبا أن تكبدنيه!

وقبل أن أغادر "**باريس**"، وفي أثناء الشتاء الذي سبق اعتكافي، حظيت بمتعة صادفت هوى من قلبي، وأقبلت على تذوقها بكل نقائها. ذلك أن "**باليسو**" – وكان عضوا في محفل "**نانسي**"، أذاعت صيته بضع تمثيليات وضعها – كان قد ظفر بعرض إحدى هذه التمثيليات في "**لونيفيل**". على مشهد من ملك "**بولندا**". وكان من الجلي أنه أراد أن ينشد الحظوة، إذ دس في تمثيليته شخصية رجل جرؤ على أن يناجز الملك بقلمه. ولكن "**ستانيسلاس**" كان رجلا كريما، لا يميل إلى الهجو، وقد استنكر أن يجرؤ أحد على تصوير الشخصيات بهذا الشكل في محضره. فكتب السيد الكونت دي "**تريسان**" – بأمر من الملك – إلى "**داليمبير**" وإلي أنا، فأنبأني بأن نية صاحب الجلالة قد اتجهت إلى تحقيق إقصاء السيد "**باليسو**"، عن المحفل. على أنني رجوت السيد "**تريسان**" مخلصا – في ردي – بأن يشفع لدى ملك "**بولندا**" للحصول على عفو عن "**باليسو**". وصدر العفو فعلا. وإذ كتب لي السيد دي "**تريسان**" ليخبرني – باسم الملك – بذلك، أضاف أن هذا الحادث سيثبت في سجلات المحفل، فرددت بأن هذا سيكون بمثابة توقيع عقاب دائم، أكثر مما هو عفو. وأخيرا، حصلت – بعد عناء ورجاء – على وعد بأن تظل المسألة كلها بعيدة عن السجلات، وألا يبقى أي أثر منها بصفة رسمية. وقد صحب الوعد إقرارات تقدير من جانب الملك، ومن جانب السيد دي "**تريسان**"، مما أثار زهوي إلى حد كبير. وشعرت في هذه المناسبة بأن تقدير أولئك الذين هم جديرون بالتقدير، يبعث في النفس شعورا أعذب وأسمى من شعور الخيلاء والغرور!... وقد ضممت خطابات السيد دي "**تريسان**" ورودوي إلى أوراقي، وستوجد أصولها في ملف "أ"، تحت أرقام ٩ و ١٠ و ١١ .

إنني لأشعر كل الشعور، بأنه إذا قدر لهذه المذكرات أن ترى الضوء يوما، أنني أخلد بنفسي هنا ذكرى واقعة كنت أرغب في أن أمحو آثارها، ولكنني أثبت كثيرا غيرها، على الرغم مني. فإن الهدف الأكبر لمشروعي هذا، يتمثل دائما أمام عيني. فإن الواجب الذي لا محيص عنه، والذي يتطلب أن أحقق هذا الهدف بأكمل صورة، لا تدع لي سبيلا للنكوص، من أجل اعتبارات واهية تعمل على أن تعوقني عن غايتي. إنني في موقفي الفذ الفريد، أدين للحقيقة بما لا أدين لسواها بأكثر منه. فلكي أعرف القراء بنفسي، لابد لي أن أعرف كل نواحي هذه النفس، طيبها ورديئها. إن اعترافاتي مرتبطة – بالضرورة – باعترافات كثير من الناس، وإني لأبوح بهذه وتلك لنفس الصراحة، في كل ما يتعلق بي، دون أن أجد ما يقتضي أن أعامل أي امرئ غيري بما لا أعامل به نفسي، ولست أتمنى سوى أن أوتى مزيدا من الصراحة يفوق ما أبديت.

إنني أصبو إلى أن أكون دائما منصفا وصادقا، فأقول عن الغير كل خير ما استطعت إلى ذلك سبيلا، ولا أذكر من الشر إلا ما يتعلق بي، وبقدر ما أكون مضطرا إلى ذكره.

فمن ذا الذي يجد من حقه أن يطالبني – وأنا في هذا الموقف الذي أقحمت فيه – بمزيد؟.. إن اعترافاتي لم تكتب إطلاقا لكي تظهر في حياتي، ولا في حياة الأشخاص الذين تتناولهم. ولو كان لي السلطان على مصيري، ومصير هذا المخطوط، لما رأى النور إلا بعد موتي وموت هؤلاء الأشخاص بوقت

طويل ولكن الجهود التي يبذلها الشانئون ذوو النفوذ – مدفوعين بجزعهم منها – لكي يمحوا كل أثر لهذا المخطوط، يضطرني إلى أن ابذل كل ما يسمح لي به اشد القوانين، واقسى الوان العدالة، في سبيل صون هذه الآثار. ولو كان مقدرا لذكرياتي أن تموت معي، حتى لا أمس أي أحد، لتحملت أي ظلم جائر وعابر، يترتب على ذلك. أما وقد قدر لاسمي أن يعيش – أخيرا – فإن من واجبي أن أحاول أن أسلم الأجيال معه ذكريات الرجل التعس الذي كان يحمله.. كي أبديه على ما كان عليه في الواقع والحقيقة، وليس كما عمل أعداؤه الظالمون دائبين على أن يصوروه!

الكراسة التاسعة

سنة ١٧٥٦

لم يسمح لي التلهف على سكنى "**ليرميتاج**" بأن أنتظر حتى يعود فصل الطقس البديع، فما إن تم إعداد مسكني حتى أسرعت إلى الإقامة فيه، وسط السخريات المدوية من ثلة "**دولباخ**"، الذين راحوا يتنبأون علانية بانني لن أستطيع أن أحتمل العزلة ثلاثة أشهر، وأنهم لن يلبثوا أن يروني عائدا لأعترف بإخفاقي، ولأعيش مثلهم في "**باريس**". أما أنا - وقد قضيت خمس عشرة سنة بعيدا عن بيئتي - فإنني إذ رأيت نفسي وشيك العودة إليها، لم أبد أي اكتراث مطلقا لمزاحهم الساخر. فإنني منذ أن ألقيت - على الرغم مني - في المجتمع، لم أكف عن التحسر على "**شارميت**"، وعلى الحياة الناعمة التي حظيت بها هناك.. كنت أحس أنني خلقت للإقامة في الريف، فكان من المستحيل أن أهنأ بالعيش في غيره.. في "**البندقية**": في غمرة الشؤون العامة، وفي منصب خاص بنوع من التمثيل الدبلوماسي، وفي آمالي الطامحة ومشروعاتي للرقي.. في "**باريس**": في دوامة المجتمع الراقي، وفي الملاذ الحسية التي تكتنف حفلات العشاء، وفي حفلات المسرح اللامعة، وفي سحب المجد الزائف الذي حف بي.. في كل هذه وتلك، كانت ذكريات أدغالي، وجداولي، وتجوالي على القدمين، حاضرة أبدا لتشغل بالي وتبعث الأسى في نفسي، وتنتزع مني التنهدات والحنين والحسرة!

كل الأعمال التي كان في طوقي أن أجعل نفسي في ربقتها، وكل المشروعات الطامحة التي راحت تنمي حميتي باطراد، ولم يكن لها من غاية سوى أن أبلغ يوما تلك البحبوحة الريفية الهانئة، التي رحت أهنئ نفسي - في تلك اللحظة - على أنني أحرزتها.. فإنني وإن لم أحظ بالاستقلال الكريم - الذي كنت أعتبره وحده الكفيل بأن يقودني إلى هذه الهناءة - إلا أنني رأيت أن بوسعي، نظرا لوضعي الخاص، أن أستغني عنه، وأن أصل إلى نفس النهاية بطريق أخرى جد مختلفة. على أنني لم أكن أملك دخلا ما، وإن كنت أمتلك اسما ومواهب.. وكنت معتدلا، وقد حرمت نفسي من معظم الحاجات الباهظة النفقات.. تلك التي كانت منشودة لدى الناس عامة. وإلى جانب ذلك، فبالرغم من كسلي، إلا أنني كنت مجدا عندما أشاء، ولم يكن كسلي راجعا إلى أنني عاطل خمول، بقدر ما كان خلة الرجل المستقل الذي لا يحب أن يعمل إلا عندما يروق له العمل. ولم يكن احترافي نسخ القطع الموسيقية رائجا، ولا مربحا، ولكنه كان مصدر رزق مضمون، وقد حبذ المجتمع شجاعتي إذ أقدمت على اختياره. فقد كان لي دائما أن أطمئن إلى عمل، وأن أطمئن إلى رزق كاف لعيشي إذا أنا عملت جادا. وكانت الفرنكات الألفان التي تبقت من أرباحي من "عراف القرية" ومن مؤلفاتي الأخرى، بمثابة رصيد يقيني الضيق. كما أن المؤلفات العديدة التي كانت تحت الإعداد، كانت تبشر - دو ن ما تطفل على الناشرين - بموارد كافية لأن تمكنني من العمل على سجيتي، دون ما إرهاق لنفسي، بل ودون أن أجور على أوقات الفراغ المخصصة للتريض والتجوال. وكانت أسرتي الصغيرة، مؤلفة من ثلاثة أشخاص شغل كل منهم بما هو نافع، ولم تكن إعالتها مبهظة. وقصارى القول إن مواردي - بالنسبة لحاجاتي ورغباتي - كانت قادرة بحق على أن تتيح لي السعادة الدائمة في الحياة التي اختارتها ميولي.

ولقد كان بوسعي أن أرتمي تماما في أحضان الجانب الأكثر إدرارا للربح، وبدلا من أن أذل قلمي للنسخ، كان بوسعي أن أكرسه تكريسا تاما للكتابة التي كانت - في الاعتكاف الذي اخترته، والذي شعرت بأنني قادر على مواصلته - كفيلة بأن تمكنني من أن أعيش في سعة، بل في بذخ، لو أنني وافقت على أن أجمع بين حيل المؤلف، والعناية بنشر كتب جيدة. بيد أنني كنت أشعر بأن الكتابة من أجل كسب العيش، لن تلبث أن تخنق نبوغي، وأن تقتل موهبتي التي كانت في قلبي أكثر مما كانت في قلمي، والتي لم تنبعث إلا من أسلوب في التفكير راق، أشم، هو وحده القادر على تغذية تلك الموهبة.. فما من شيء قوي، ولا من شيء عظيم يمكن أن ينساب من قلم أجير مرتش!

إن الحاجة - وربما الجشع - كانت كفيلة بأن تدفعني إلى أن أتعجل أكثر من أن أتقن. ولولا أن الرغبة في النجاح زجت بي إلى الدسائس، لكان من المحتمل أن تجعلني أناضل لأقول ما قد يطيب للناس، وليس ما هو صادق ونافع!.. وبدلا من المؤلف المبرز، الذي كان بوسعي أن أغدوه، فإنني ما كنت لأصبح سوى مسود للورق!.. لا، لا!.. لقد كنت أشعر دائما أن مكانة المؤلف لا يمكن أن تصبح مرموقة ومحترمة، إلا إذا كان التأليف بعيدا عن أن يكون حرفة.. إذ إنه من الصعب، كل الصعب، أن يفكر الإنسان تفكيرا نبيلا ساميا. إذا ما كان مضطرا إلى ألا يفكر إلا طلبا للزرق!.. ولكي يكون الكاتب قادرا، ولكي يجسر على أن ينطلق بالحقائق الجليلة، ينبغي ألا يعول على النجاح ويركن إليه. ولقد دفعت بكتبي إلى الناس بضمير مطمئن إلى أنني إنما تكلمت من أجل الصالح العام، غير حافل بأي شيء آخر. فإذا رفض الكتاب، فيا تعسا لأولئك الذين لم يشاءوا أن يفيدوا منه. أما أنا، فما كنت بحاجة إلى رضاهم وقبولهم لكي أعيش، فإن مهنتي كانت كفيلة بأن تعولني، إذا لم تلق كتبي مشتريا.. وهذا بالذات هو الذي جعلها تباع وتروج!

*****

وفي التاسع من نيسان (أبريل) سنة ١٧٥٦، غادرت المدينة فلم أعد إلى سكنى المدن قط، إذ إنني لا أعتبر من السكنى في شيء، تلك الفترات الوجيزة التي قضيتها - فيما بعد - سواء في "**باريس**" أو في "**لندن**" أو غيرهما من المدن. فقد كانت مجرد إقامة عابرة، أو إقامة بالرغم مني دائما!.. ولقد أقلت السيدة "**ديبيناي**" ثلاثتنا في عربتها، وتولى خادمها الريفي أمر متاعي البسيط، واستقر بي المقام في بيتي الجديد، في اليوم ذاته. ووجدت معزلي الصغير مهيأ ذا أثاث بسيط، ولكنه كاف وينم عن ذوق!.. كانت اليد التي عنيت بإعداد هذا الأثاث قد أضفت عليه - في نظري - قيمة تفوق كل تقدير، وقد لذ لي أن أكون ضيف صديقتي، في بيت من اختياري، شيدته هي خصيصا لي!

ومع أن الطقس كان باردا، بل كان ثمة جليد، فإن الأرض كانت قد بدأت تخضوضر، وكانت زهور النرجس، وورود الربيع قد ظهرت، وشرعت البراعم تتفتح على الأشجار.. وقد امتازت ليلة وصولي بأول شدو للبلبل في أعقاب الشتاء، وقد انبعث من غابة كانت تتاخم البيت، فكأنما كان البلبل ذاته عند نافذتي!.. وبعد نعاس خفيف، استيقظت وقد نسيت تبدل مسكني، فخلت أنني لا أزال في شارع "**جرينيل**"، لولا أن شدو البلبل نبهني، فهتفت في نشوتي: "ها قد تحققت كل أماني أخيرا!".. وكان أول ما فكرت فيه هو أن أسلم نفسي لمفعول الأشياء الريفية التي كانت تحيط بي. وبدلا من أن أشرع في تنسيق مسكني، فإنني شرعت في إعداد نفسي لنزهاتي، فلم يبق ثمة درب، ولا شجرة ضخمة، ولا غيضة (مجموعة من الشجر)، ولا بقعة منعزلة حول مسكني، إلا وتفقدتها في اليوم

التالي.. وكنت كلما ازددت تعرفا بهذا المعزل الفاتن، ازددت إحساسا بأنه ما خلق إلا لي!.. كانت هذه البقعة البعيدة عن العمران - وإن لم تكن موحشة - تنقلني في الخيال إلى آخر أطراف المعمورة.. كانت قد أوتيت تلك المفاتن التي تملك القلوب، والتي لا يجدها المرء قط على مقربة من المدن.

وما قدر لامرئ انتقل إلى هناك فجأة، أن يصدق أنه كان لا يبعد عن "**باريس**" بأكثر من أربعة فراسخ!

وبعد بضعة أيام من الاستسلام لنشوتي الريفية، فكرت في تنسيق أوراقي، وتنظيم مهامي، فخصصت فترة الصباح للنسخ - كما اعتدت أن أفعل دائما - وفترة ما بعد الغداء للتريض والتجوال، مزودا بكراسة بيضاء صغيرة وقلم من الرصاص، إذ إنني لم أستطع أن أكتب أو أن أفكر على سجيتي إطلاقا، إلا في الهواء الطلق والفضاء، ولم أجد بنفسي ميلا إلى أن أغير أسلوبي، بل إنني قدرت أن غابة "**مونمورنسي**" - التي كانت تكاد تصل إلى بابي - لن تلبث أن تغدو مكتبي، ومكان عملي!..

وكانت لدي عدة مؤلفات بدأتها من قبل، فعمدت إلى مراجعتها.. كنت مبدعا كل الإبداع في مشروعاتي، ولكن تنفيذها كان يسير ببطء، في ضوضاء المدينة. وقد توقعت أن أمضي فيها بمزيد من العجلة، إذا ما تحققت من كل ما اعتاد أن يشغلني عن العمل.. واعتقد أنني قد حققت هذا التوقع تماما.. وبالنسبة لرجل كثير المرض، كثير التردد على قصر "**لاشيفريت**" و"**ايبيناي**" و"**اوبون**" وقصر "**مونمورنسي**"، كثير التشاغل عن عمله في داره؛ بفضل الفضوليين المتعطلين، دائم الانشغال بالنسخ نصف نهاره.. إذا قدر كل هذا، وأحصيت المؤلفات التي أنجزتها خلال السنوات الست - التي قضيتها في "**ليرميتاج**" و"**مونمورنسي**" - لتجلى، فيما أوقن، أنني إذا كنت قد بددت وقتي خلال هذه الحقبة من الزمن، فإن تبديده لم يكن في خمول، على الأقل!

وبين الأعمال الأدبية المتباينة - التي كانت على الرف - كان المؤلف الذي أطلت التفكير فيه، والذي أقبلت عليه بأعظم قدر من الشغف، والذي وددت أن أعمل فيه طول عمري، والذي أعتقد أنه ختم شهرتي.. ذلك هو كتابي في "المذاهب السياسية".

إذ كانت قد انقضت ثلاث عشرة - أو أربع عشرة - سنة، مذ خطرت لي فكرته، عندما كنت مقيما في "**البندقية**"، حيث أتيحت لي الفرصة كي أشهد عيوب نظام الحكم فيها، برغم ما كان له من صيت. ومن ذلك الحين، اتسعت آرائي بفضل الدراسات التاريخية لقواعد الأخلاق، فقدر لي أن أرى أن كل شيء كان يتصل اتصالا جوهريا بالاعتبارات السياسية، وأنه ما من شعب يملك - مهما يكن تقدمه - أن يصبح في حال غير التي تعده لها طبيعة نظام الحكم فيه. ومن ثم فإن المسألة الكبرى - مسألة خير نظام ممكن للحكم - انكمشت في نظري إلى ما يأتي: ما كنه نظام الحكم الصالح لتكوين الشعب الذي يكون أفضل صفاتا، وأكثر تنورا، وأوسع حكمة.. وبالإيجاز الشعب الذي يكون "أحسن" شعب، بأوسع معاني كلمة "أحسن"؟.. ولاح لي أن هذا السؤال كان وثيق الارتباط بسؤال آخر، قريب الشبه منه، وإن لم يكن مثله تماما. ذلك هو: ما هي الحكومة التي تحرص - بطبيعتها - دائما، على أن تكون وثيقة القرب من القانون؟.. ومن هنا خطر لي سؤال آخر: ما هو القانون؟... وتبعته سلسلة من الأسئلة لها عين القيمة. ورأيت أن هذا كله يفضي إلى حقائق عظيمة، ذات نفع بالنسبة لرفاهية الجنس البشري، ولاسيما رفاهية وطني، حيث لم أجد - خلال الرحلة التي قمت بها إلى هناك - دراية بالقانون وبالحرية صحيحة، ولا واضحة بالقدر الذي كان يرضيني. ولقد آمنت بأن الإيعاز بهذه الدراية - بطريق غير مباشر - هو أسلم وسيلة ملائمة لكرامة هؤلاء القوم، وخير شفيع لي كي يغفروا لي أن استطعت أن أمد بصري إلى أعلى وأبعد مما بلغته أبصارهم!

ومع أنني كنت قد عكفت – خمس سنوات أو ست – على وضع هذا المؤلف، إلا أنني لم أكن قد قطعت فيه شوطا يذكر، فإن الكتب التي من هذا القبيل، تتطلب تأملا، وفراغا، وطمأنينة. فضلا عن أنني كنت أعمل فيه في الخفاء – كما يقال – دون أن أفاتح أحدا – ولا "**ديدرو**" نفسه – بما اعتزمت. فقد كنت أخشى ألا يبدو ملائما كل الملاءمة لروح العصر، وللبلد الذي كنت أكتبه فيه، وأن جزع أصدقائي قد يعرقل جهودي في تنفيذه (١). ولم أكن بعد واثقا بأنه سيتم في وقت مناسب، وبحيث يتسنى ظهوره إبان حياتي.. وكنت راغبا في أن أتمكن دون أي تقييد – من أن أهب موضوعي كل ما كان يتطلبه. ولما كنت خلوا من التحامل المغرض، وغير راغب قط في الجنوح إليهما – فإنني كنت مطمئنا إلى أنني سأظل دائما بمنأى عن اللوم.. لقد وددت أن أستخدم – أكمل استخدام، دون ريب – حق التفكير، هذا الحق الذي أوتيته بحكم وجودي.. ولكني في حرصي دائما على احترام نظام الحكم الذي كنت أعيش في ظلاله. وعلى عدم الخروج على القانون إطلاقا، وعلى التزام الحذر حتى لا أنتهك حق الغير.. في كل حرصي هذا، لم أكن راغبا – في الوقت ذاته – في أن أفرط، بدافع من الخوف، في إماتة هذا الحق.. حقي في التفكير! بل إنني لأذهب إلى الاعتراف بأنني وجدت وضعي في "**فرنسا**" – كأجنبي يعيش فيها – مواتيا لكي أقول الحق في جرأة.. فقد كنت أدرك تماما أنني ما دمت لا أطبع شيئا في الدولة، دون ما إذن – وهو ما كنت أعتزمه – فلن أكون مسؤولا أمام أي أحد في "**فرنسا**" عن مبادئي – وعن الترويج لها في أي مكان آخر!.. ولقد كان من المحتمل أن أكون أقل حرية في "**جنيف**"، أو في أي مكان آخر طبعت فيه كتبي، إذ كان للسلطات حق الاعتراض على محتوياتها. ولقد كان لهذا الاعتبار أثر كبير في حملي على أن أنصاع لإلحاح السيدة "**ديبيناي**"، فاهجر ما كنت قد انتويته من الإقامة في "**جنيف**". فقد شعرت – كما ذكرت في "**إميل**" – بأن المرء إذا أراد أن يؤلف كتبا في الصالح الحقيقي لوطنه، فليس له أن يؤلفها في هذا الوطن، اللهم إلا أن يكون موهوبا في التآمر والدس والخداع!

ومما زادني سعادة، أنني اقتنعت بأن حكومة "**فرنسا**"، ستعتبر أن من الكرامة أن تدعني في سلام، إن لم تحمني، ولو أنها لم تكن تنظر إلي بعين راضية!.. ولقد كان هذا – فيما بدا لي – نهجا سياسيا بسيطا، وصريحا إذ إنه يرمي إلى التسامح إزاء ما لا سبيل هناك إلى منعه.. فلو أنني حملت على مغادرة "**فرنسا**" – وهو ما لكل الحكومات الحق في أن تقدم عليه – لظلت كتبي ماضية في الصدور، ولكن بتحفظ أقل.. أما إذا تركت دون إزعاج فإنني – كمؤلف – ساعتبر رهينة وضمانا لكتبي، كما أن هذا كفيل بأن يمحو الآراء الخاطئة التي كانت متغلغلة في بقية أوروبا، إذ يكسب السلطات الفرنسية شهرة احترام حقوق الأمم عن سعة أفق، ورقي تفكير!

والذين يحكمون – على ضوء النتيجة – بأن ثقتي قد غررت بي، ربما كانوا هم المخدوعون. ففي العاصفة التي هبت عليّ، كانت كتبي خير حجة في جانبي، لولا أن شخصي هو الذي كان مقصودا.. فإن أحدا لم يول المؤلف كثير اهتمام، ولكنهم كانوا يتوقون إلى القضاء على "**چان چاك**" نفسه.. وكان أسوأ ما جرته كتاباتي، هو التكريم الذي كان من المحتمل أن يولوني إياه. ولكن.. يجب ألا نقفز إلى المستقبل، ولندعه إلى حينه!.. ولست أدري ما إذا كان هذا اللغز – فهو لا يزال لغزا في

---

(١) عقب "روسو" على هذا بقوله: "كانت حكمة "ديكلو" المتزمتة هي التي أوحت إلي بهذا الخوف. أما "ديدرو"، فلست أدري كيف كانت اجتماعاتي به تتجه دائما إلى جعلي أكثر سخرية وهجوا وإقذاعا مما كنت بطبيعتي.

وهذا بالذات هو الذي ردني عن أن أستشيره في مشروع كنت راغبا في ألا استخدم فيه سوى قوة المنطق والمحاجة فقط، دون أتفه أثر لتعنت أو تعصب.

ومن الممكن الحكم على الأسلوب الذي انتهجته في هذا المؤلف، على ضوء أسلوبي في "العقد الاجتماعي" الذي أخذته عنه".

نظري إلى اليوم – سيلقى ما يوضحه في نظر قرائي، فيما بعد.

وإنما الذي أدريه هو أنه إذا كانت آرائي التي جاهرت بها، جديرة بأن تجلب عليّ المعاملة التي قاسيتها، لما توانيت عن التعجيل بأن أصبح فريسة لها؛ ذلك لأن ما ظهر من كتبي – التي بسطت فيها هذه المبادئ بكل جرأة، إن لم أقل بكل شجاعة (١) – كان قد أحدث أثره، على ما بدا، قبل أن آوي إلى "**ليرميتاج**"، دون أن يخطر ببال أحد أن يناجزني الحرب، أو – على الأقل – أن يعوق نشر المؤلف في "**فرنسا**"، حيث كان يباع في علانية لا تقل عن التي كان يباع بها في "**هولندا**". ولقد ظهرت "**هيلويز الجديدة**" – بعد ذلك – بنفس السهولة، وبنفس التحبيذ، كما ينبغي أن يقال. ومن الأمور التي تبدو أبعد من أن تصدق، أن العقيدة التي بشرت بها في "**هيلويز**" هذه، كانت عين تلك التي بشرت بها في "أسقف **سافوا**"... وكل ما أقدمت على قوله في "العقد الاجتماعي"، كان قد قيل في "حديث في عدم المساواة".. وكل ما جاهرت به في "**إميل**"، ظهر قبل ذلك في "**جولي**".. ولكن هذه العبارات المدوية، لم تثر سخطا قبل ذلك ضد الكتابين الأولين (٢)، ومن ثم فما كان من المعقول أن تكون هي التي أثارت سخطا ضد الكتاب الأخير(٣).

*****

وهناك مشروع كتاب آخر، من نفس النوع تقريبا، ولكن فكرته واتتني متأخرة عن أفكار تلك الكتب، وقد شغلت بالي في ذلك الحين.. "مختارات من أعمال الأب **دي سان بيير**"، الذي لم أملك الحديث عنه من قبل، إذ شغلني عن ذلك سياق السرد. فلقد أوحى إلي بالفكرة الراهب دي "**مابلي**" – عقب عودتي من "**جنيف**".. ولم يعرضها عليّ مباشرة، وإنما وسط في الأمر السيدة "**دوبان**"، التي كانت مهتمة – إلى حد ما – بإقناعي بالاضطلاع بالمشروع!.. فقد كانت إحدى ثلاث أو أربع من حسان "**باريس**"، تهافتن على الراهب الشيخ "**سان بيير**". وإذا لم تكن قد ظفرت بالإيثار منه، فإنها – على الأقل – قد تقاسمته مع السيدة "**ديجويون**". ولقد احتفظت لذكرى الراهب الطيب باحترام وعطف كانا مصدر فخر لها وله، ومن ثم فإن كبرياءها كانت خليقة بأن تجد ما يرضيها إذ ترى مؤلفات صديقها الميت الحي، تبعث على يدي سكرتيرها. ومع أن هذه المؤلفات لم تخل من موضوعات بديعة، إلا أنها كانت معروضة بأسوأ تعبير، إلى درجة تجعل من العسير على القارئ أن يحتمل قراءتها. ومما كان يبعث على الدهشة، أن الراهب كان يعتبر قراءه مجرد "أطفال كبار"، ولكنه – مع ذلك – كان يخاطبهم باعتبارهم رجالا.. فضلا عن أنه لم يتجشم أي عناء في حملهم على الإنصات إليه.

من أجل هذا عرض علي الاضطلاع بهذه المهمة التي كانت نافعة – في حد ذاتها – كما كانت مناسبة لرجل مجد في النسخ والتعديل، ولكنه كسول في التأليف، ألفى أن المجهود الذي يبذل في التفكير مرهق، فكان يؤثر – فيما يوافق هواه – أن ينقح ويحسن أفكار سواه، على أن يبتدع أفكارا جديدة من لدنه!.. وإلى جانب ذلك، فإنني لم أقصر دوري على مجرد تفكيري في بعض الأحيان، وكنت مطلق اليد في أن أصوغ عملي بالشكل الذي يمكن كثيرا من الحقائق الهامة من أن تظهر في مسوح الراهب "**سان بيير**"، دون ما تعرض للخطر الذي قد يحدق بها إذا ما ظهرت في ثيابي أنا. وفضلا عن كل هذا، فإن المهمة لم تكن باليسيرة.. لم تكن تتطلب أقل من القراءة، ثم الاستيعاب

---

(١) يقصد كتابه: "حديث في عدم المساواة في الظروف والأحوال". (٢) يقصد كتابيه: "أميل" "حديث في عدم المساواة". (٣) قصد "العقد الاجتماعي".

والتفكير، ثم اختيار مادة من اثنين وعشرين مجلدا مهوشة، مضطربة التنسق، مليئة بالحشر، والإطناب، والتكرار، والآراء الضحلة أو الخاطئة.. وكان لابد من التنقيب بينها حتى يمكن العثور على طائفة من الآراء الجليلة الدسمة، التي كانت تشجع على احتمال المهمة الوعرة!.. بل إنني كنت موشكا – في كثير من الأحيان – على أن انفض يدي منها، لو انني استطعت أن أنسحب في تصرف كريم.. ولكنني عندما تقبلت مخطوطات الراهب – التي أعطانيها ابن أخيه الكونت دي "**سان بيير**"، بإيعاز من "**سان لامبير**" – أصبحت مرتبطا بشكل ما، بأن أستعملها.. وأصبح الواجب يقتضيني إما أن أردها، وإما أن أجعل لها قيمة. وبهذه النية الأخيرة حملتها إلى "**ليرميتاج**"، فكانت أول عمل اعتزمت أن أكرس له وقت فراغي!

ورحت أفكر – إذ ذاك أيضا – في مشروع كتاب ثالث، كنت مدينا بفكرته إلى بعض ملاحظات أخذتها على نفسي، ومما زاد من شعوري بالرغبة في الإقدام عليه، أنني وجدت من الأسباب ما جعلني أصبو إلى أن أنتج كتابا ذا نفع حقيقي للجنس البشري، بل كتابا يكون أنفع ما قدم إلى البشر، إذا ما قدر للتنفيذ أن يطابق الخطة التي رسمتها مطابقة ناجحة. فلقد لوحظ أن الغالبية من الناس كثيرا ما يكونون – في سياق حياتهم – على غير ما هم عليه أصلا، وكأنهم يتحولون إلى أناس مختلفين تمام الاختلاف. ولم أكن أبغي بإصدار كتاب في ذلك، أن أقر شيئا معروفا كل المعرفة، بل كان لدي غرض جديد تمام الجدة، وذو أهمية بالغة.. ذلك هو أن أبحث عن أسباب هذه التطورات والتغيرات – التي تطرأ على الناس في حياتهم – وأن أقتصر على ما يكون منها متوقفا علينا نحن أنفسنا، وأن أبين كيف يتسنى أن نتحكم فيها بأنفسنا، لكي نصبح أفضل وأكثر ثقة بأنفسنا، واطمئنانا إليها!.. ذلك لأنه لا جدال في أن الرجل الشريف يعاني في مقاومة الشهوات التي اكتمل تكوينها – والتي ينبغي عليه أن يقاومها – عناء أشد مما لو أنه كبح أو غير أو عدل هذه الشهوات ذاتها من منبعها، لو قدر له أن يتعقبها إلى هذا المنبع. فالرجل يقاوم الغواية مرة لأنه قوي، ولكنه – في مرة أخرى – يستسلم لأنه ضعيف.. ولو أنه كان على ما كان عليه من قبل، لما استسلم.

وفيما كنت أفحص نفسي، وأبحث في النفوس الأخرى عما يمكن لهذا التباين من الحدوث، تبينت أنه إنما يعتمد – إلى حد كبير – على ما تكون أشياء خارجية قد أحدثته – من قبل – من انطباعات داخلية، وأننا في تغيرنا المستمر – بفعل حواسنا، وأجهزتنا البدنية – إنما نكشف، دون أن نفطن عن أثر ذلك التغير في أنفسنا،وفي آرائنا، وفي مشاعرنا، وفي أعمالنا ذاتها!.. وكانت المشاهدات العديدة والمدهشة – التي جمعتها – تعلو على كل طعن.. وقد بدت لي في أصولها الطبيعية صالحة لأن تؤلف نظاما خارجيا للسلوك، يتغير بتغير الظروف، ويمكن من وضع العقل أو صونه في حال تكون خير الأحوال ملاءمة للفضيلة!.. فكم من أخطاء يمكن إنقاذ العقل منها، وكم من رذائل يتسنى خنقها في مهدها، إذا تيسرت معرفة التحكم في النظام الحيواني، بحيث يتلاءم مع النظام الخلقي الذي كثيرا ما يتعرض للاضطراب!.. إن أحوال الجو، والفصول، والأصوات، والألوان، والظلام، والنور، والعناصر، والمواد، والضجة، والصمت، والحركة والسكون.. كل هذه تعمل وتؤثر على جسمنا وعلى عقلنا بالتوالي.. كلها تمدنا بألف فرصة، تكاد تكون مضمونة، للتحكم – منذ البداية – في المشاعر التي نتركها تتحكم فينا!

هكذا كانت الفكرة الأصلية، التي كنت قد سطرتها على الورق، والتي توقعت منها نتيجة عظيمة النفع لذوي المنبت السليم، الذين يتحدون ضعفهم، في سبيل حبهم الصادق للفضيلة.. حتى لقد

بدا لي أن من الميسور أن أجعل من هذه الفكرة كتابا مشوقا من حيث القراءة، كما هو من حيث الكتابة!.. ومع ذلك، فإنني لم أحرز سوى تقدم ضئيل في هذا المؤلف - الذي جعلت له عنوانا: "المبادىء الخلقية الحسية، أو مادية الحكيم" (١) - فقد حالت شواغل، لن تلبث أن تتكشف، دون أن أعكف عليه.. ولن يلبث أن يتضح كذلك، أن هذه كانت خاتمة مشروعي، الذي كان أقرب إلى نفسي من كل ما يبدو!

*****

وكنت - إلى جانب كل هذا - قد فكرت منذ زمن، في نظام للتربية كانت السيدة دي "**شينونسو**" قد رجتني أن أشتغل به، في غمرة إشفاقها على ابنها من النظام الذي وضعه زوجها لتربيته!.. ولقد استوجب سلطان الصداقة أن أنصرف إلى هذا الهدف أكثر من سواه، برغم أنه لم يكن - في حد ذاته - مما يصادف هوى من نفسي. ومن ثم فإن هذا المشروع هو الوحيد - بين كل المشروعات - التي ذكرتها من قبل - الذي أنجزته. ولقد كانت الغاية التي وضعتها نصب عيني - وأنا أعمل فيه - جديرة كما يتراءى لي، بأن تتيح للمؤلف جزاء آخر غير الذي أتاحه. ولكن.. لنتجنب الحديث هنا عن هذا الموضوع المحزن، قبل أن يحين أوانه.. فسوف أضطر اضطرارا إلى الحديث عنه فيما بعد!

ولقد أمدتنى هذه المشروعات المتباينة بموضوعات للتأمل والتفكير في نزهاتي اليومية. إذ إنني - وأعتقد أنني ذكرت هذا من قبل - لا أستطيع التفكير إلا وأنا أتمشى، فما إن أقف، حتى أكف عن التفكير، فليس في وسع عقلي أن يتحرك إلا مع قدمي. على أنني اتخذت الحيطة، فوفرت لنفسي عملا أؤديه داخل البيت في الأيام المطيرة. ذلك هو "قاموس الموسيقى"، الذي كانت مواده وأصوله مبعثرة، ناقصة، مشتتة بحال تجعل من الضروري إعادة كتابة السفر كله، من أوله إلى آخره تقريبا. ولقد ابتعت بعض الكتب التي كنت بحاجة إليها من أجل ذلك، وقضيت شهرين في السعي إلى الحصول على كثير من الكتب الأخرى، التي استعيرت لي من "مكتبة الملك"، والتي أبيح لي أن أصحب بعضها معي إلى "**ليرميتاج**". هذه كانت المواد التي تهيئ لي العمل في البيت، عندما لا يسمح الطقس لي بالخروج، أو عندما أسأم النسخ والنقل. ولقد وافقني هذا التدبير إلى درجة أنني واظبت عليه في "**ليرميتاج**"، وفي قصر "**مونمورنسي**" على السواء، ثم في "**موتيير**" بعد ذلك، حيث أكملت هذا المؤلف، بينما كنت ماضيا في مؤلفات غيره. وقد اعتدت دائما أن أجد في تغيير الأعمال مادة للترويح حقاً

وتبعت في دقة بالغة - ولفترة من الزمن - النظام الذي ذكرته، فوجدته صالحا للغاية، ولكن الفصل الجميل "الربيع" لم يلبث أن زاد من تردد السيدة "**ديبيناي**" على ضيعة "**ايبيناي**" أو ضيعة "**لاشيفريت**"، فوجدت من الشواغل - التي لم تكن تكبدني من قبل شيئا، ولكني لم أحسب لها في تدبيري حسابا - ما عطل كثيرا من مشروعاتي الأخرى. فلقد قلت - من قبل - إن للسيدة "**ديبيناي**" خصالا بالغة اللطف، إذ كانت تحب أصدقاءها حبا خالصا، وتخدمهم بكثير من الشهامة، ولا تضن عليهم بوقت ولا بمال، ومن ثم فإنها كانت تستحق - عن جدارة - أن تجازى عن ذلك برعاية خاصة. ولقد كنت - حتى ذلك الحين - أؤدي هذا الواجب، دون أن أفكر في أنه واجب، ولكنني لم ألبث أن فهمت - في النهاية - أنني مغلول بسلسلة لم يكن يحول دون شعوري بوطأتها

---

(١) LaMorale Sensetive, ou le Materialisme du Sage

سوى الصداقة وحدها!.. ولقد ضاعفت من هذا العبء بنفوري من المجتمعات الحافلة، إذ تكرمت السيدة "**ديبيناي**" فعرضت اقتراحا بدا ملائما بالنسبة لي، وأكثر ملاءمة بالنسبة لها، ذلك هو أن تحيطني علما بالأوقات التي تكون فيها على انفراد، أو على وشك الانفراد. ولقد وافقت على ذلك، دون أن أفطن إلى ما كنت أقيد به نفسي. وترتب على ذلك أنني لم أعد أؤدي لها زيارات في الوقت المناسب لي، ولكن في الوقت المناسب لها هي، وأنني لم أطمئن يوما إلى أن نهاري رهن رغبتي. ولقد أفسد هذا القيد - إلى حد كبير - ما كانت توفره لي زياراتي لها - فيما مضى - من متعة.. وتبينت أن الحرية - التي طالما وعدتني بها - لم تمنح لي إلا بشرط ألا أحظى بها إطلاقا!.. ولقد رغبت - في مرة أو مرتين - في أن أجربها، فإذا بكثير من الرسائل، وكثير من المذكرات، وكثير من أمارات الخوف تنهال من السيدة "**ديبيناي**" معربة عن قلقها على صحتي.. حتى تبينت تماما ألا شفيع لي في عدم الإسراع إليها لدى أول بادرة تنم عن رغباتها، إلا بأن ألزم فراشي تماما!

وكنت مضطرا إلى أن أخضع لهذه الربقة، فانصعت في تساهل يفوق ما كان ينتظر من عدو لدود لكل ما يحد من الحرية.. وقد ساعد الوفاء الصادق - الذي كنت أكنه للسيدة - على الحيلولة، إلى حد كبير، دون أن أشعر بالأغلال التي كانت ترتبط بهذا الموقف. ولقد استطاعت السيدة "**ديبيناي**" أن تملأ بهذه الطريقة الفراغ - الذي خلفه غياب الثلة التي كانت تحيط بها - إلى حد ما. ولقد كانت التسلية التي ظفرت بها من نوع لا يلذ لها كثيرا، ولكنها كانت أفضل من العزلة التامة، التي لم تكن تطيقها. على أنها أصبحت أقدر على ملء الفراغ بسهولة، عندما شرعت تجرب قلمها في الأدب، ودخلت رأسها نزوة كتابة قصص، ورسائل، وفكاهيات، وحكايات، وما إلى هذه التفاهات، كيفما اتفق لها!.. على أن الكتابة لم تكن أعظم ما لذ لها بل إن أكثر ما طاب لها هو قراءة ما كانت تكتب.. فإذا هي سودت صحيفتين أو ثلاثا، كان من الضروري لها أن تطمئن إلى وجود اثنين أو ثلاثة ينصتون إلى هذا العمل الضخم، ويحبذونه. ونادرا ما كنت أحظى بشرف أن أكون واحدا من هؤلاء الصفوة المختارة، اللهم إلا إذا أشفع لي مستمع آخر!..

ذلك لأنني - كنت وحدي - لا أكاد أساوي شيئا يذكر، لا في ندوة السيدة "**ديبيناي**" فحسب، وإنما في ندوة السيد "**دولباخ**"، وحيثما كان "**جريم**" نجما متألقا.. وكان هذا التجاهل التام لقدري يلائمني تمام الملاءمة، اللهم إلا عندما أكون مع السيدة وحيدين، إذ إنني لم أكن أعرف أي مسلك أتخذ.. ذلك لأنني لم أكن أجرؤ على الحديث في الأدب إذ لم أكن أعتبر كفئا لإبداء الرأي فيه - ولا في آداب السلوك، والمجاملة، والإيناس، لأنني كنت مفرط الخجل، وكنت أخشى الظهور بمظهر مضحك أمام غانية عجوز، أكثر من خشيتي الموت!.. فضلا عن أن هذه الفكرة لم تخطر ببالي إطلاقا عندما كنت برفقة السيدة "**ديبيناي**"، ولا كان من الممكن أن تخطر مرة واحدة في حياتي، ولو قدر أن أعيش طيلة عمري بصحبتها.. وما كان ذلك لأنني كنت أضمر نفورا شخصيا منها، بل لعلني - على النقيض - كنت أحبها كل الحب كصديقة، وكنت قادرا على أن أحبها كعشيقة!.. كان يروق لي أن أراها، وأن أجاذبها الحديث. ومع أن حديثها كان طليا - إذا ما كانت في جماعة - إلا أنه كان ممضا في الجلسات الخاصة.. أما حديثي أنا، فلم يكن لبقا سيالا، ولم يكن ذا عون كبير في إيناسها.. وكنت حين أخجل من الصمت فترة طويلة، أرهق نفسي في سبيل بعث الحياة في الجلسة. ومع أن هذا كثيرا ما كان يتعبني، إلا أنه أبدا ما ضايقني!.. كنت أبدي لها آيات الغزل عن طيب خاطر، وأمنحها بعض قبلات أخوية صغيرة، لم يكن يلوح لي أنها ذات إثارة حسية لها.. وكان هذا غاية ما

في الأمر!..

فلقد كانت مفرطة النحول، شديدة البياض، ذات صدر مبسوط كراحتي!.. وكان هذا العيب وحده، كافيا لأن يطفئ كل حرارة في كياني، فما قدر لقلبي ولا لحسي يوما أن يريا أية أنوثة في امرأة بلا نهدين.. وقد كانت ثمة أسباب أخرى - لا جدوى من ذكرها - تجعلني أنسى الناحية الجنسية دائما، إذا ما كنت بالقرب من السيدة "**ديبنياي**"!!

*****

أما وقد رضت عقلي على قبول تبعية لا غنى عنها، فإنني أسلمت نفسي لها، دون ما مقاومة فالفيتها - في العام الأول، على الأقل - أقل عبئا مما كنت أتوقع. وكانت من عادة السيدة "**دبيبيناي**" أن تقضي الصيف بأسره - تقريبا - في الريف. ولكنها لم تقض هناك، في هذا العام، سوى شطر منه.. إما لأن أعمالها، كانت تتطلب وجودها في "**باريس**"، وإما لأن غياب "**جريم**"، جعل الإقامة في "**لاشفريت**" أقل ملاءمة لها عن ذي قبل. ولقد كنت أستغل الفترات التي لم تكن تقضيها هناك، أو التي كانت تستضيف خلالها كثيرا من الناس؛ لأنعم بعزلتي مع "**تيريزي**" الطيبة وأمها، على نمط يجعلني أعرف لهذه الفترات قدرها. ومع أنني كنت قد اعتدت - لبضع سنوات - أن أتردد على الريف كثيرا، إلا أنني لم أكن أستمتع بهذه الرحلات، إذ إنها كانت دائما في صحبة أشخاص محبين للمظاهر، وكانت دائما ما تفقد بهجتها بتأثير الشعور بالتقيد والحرج، وإن كانت قد أذكت في نفسي الميل إلى المتع الريفية.. وكنت كلما لمحت هذه المتع عن كثب، ازددت شعورا بحرماني منها. كنت قد سئمت - كل السأم - "صالونات" **باريس**، ونافورات الماء، والبساتين، وحدائق الزهور. وكان أصحابها أشد بعثا للملل.. كنت ضجرا من التطريز، والمعزف، وحبك الصوف، والانحناءات، والمجاملات الحمقاء، والعواطف الضحلة، ورواة القصص التافهين، ومآدب العشاء الكبيرة، حتى أصبحت إذا ما لمحت - بنظرة من ركن عيني - شجرة من أشجار الصنوبر، أو عشبا من الأعشاب الشوكية، أو سياج مزرعة، أو مخزنا للغلال، أو مرجا.. وحتى أصبحت إذا ما شممت - وأنا أمر بمزرعة - عبير "العجة" المتوبلة بالأعشاب الشذية.. وحتى أصبحت إذا ما سمعت عن بعد أصوات الماعز الرفيعة.. أصبحت أتمنى إزاء هذا كله، أن يذهب كل الطلاء الأحمر، والمساحيق، والعطور، إلى الشيطان!.. وكنت أتحسر على الغداء الذي تعده الزوجة المتفرغة لبيتها في الريف، والنبيذ المحلي.. وكنت أود - من قلبي - أن ألكم السيد الطاهي، والسيد رئيس السقاة، اللذين كانا يضطراني إلى أن أتناول الغداء في موعد عشائي المعتاد، وأن أتناول العشاء في الساعة التي اعتدت أن أنام فيها.. وكنت أود - فوق كل شيء - أن أصفع السادة خدم الموائد، الذين كانوا يلتهمون بأعينهم اللقم التي آكلها، ويبيعونني - إذا لم أشأ أن أموت ظمأ - نبيذ مخدومهم المعتق، بما يفوق عشرة أمثال ما أدفعه من أجله في أرقى حانة!

ولكن.. هانذا أخيرا في داري، في مأوى منعزل مستحب، حر في أن أقضي أيامي في حياة مستقلة، متشابهة، آمنة، كنت أشعر أنني إنما خلقت لأنعم بها!.. وقبل أن أذكر الأثر الذي أحدثه هذا الوضع - الجديد عليّ - في فؤادي، يروق لي أن ألخص الميول الخفية لهذا القلب، حتى يتسنى الإلمام بجلاء بأسباب هذه التطورات الجديدة.

لقد اعتدت دائما أن أعتبر يوم اتحادي مع "**تيـريز**" هو التاريخ الذي أصبحت فيه حريصا على مبادئ الخلق. فلقد كنت بحاجة إلى ود وثيق، مذ انفصم في قسوة ذلك الود الذي كنت مكتفيا به.. إن الظمأ إلى الهناء لا يمكن أن يرتوي في قلب الإنسان!.. ولقد كانت "**مـامـا**" تسعى إلى الشيخوخة، وتنحدر إلى الهوان، وكان من الواضح لي أنها لن تسعد ثانية على الأرض، فلم يبق لي سوى أن أبحث عن سعادة لنفسي، ما دمت قد فقدت كل أمل في أن أقاسمها سعادتها!.. رحت أطفو من فكرة إلى فكرة، ومن خطة إلى خطة، بعض الوقت. وكانت رحلتي إلى "**البندقـيـة**" خليقة بأن تزج بي في الشؤون العامة، لو أن الرجل الذي قدر لي أن أرتبط به، كان على شيء من الإدراك السليم. وأنا ممن يسهل هبوط عزيمتهم، لا سيما في المشروعات الشاقة، البطيئة. لذلك فإن ضعف نجاح هذا العمل "الشؤون العامة" نفرني من أمثاله. ولما كنت – وفقا لمبدئي القديم – أنظر إلى الأهداف البعيدة، على أنها أحابيل للحمقى، فقد وطنت العزم على أن أعيش – بعد ذلك – دون أية خطة مرسومة، إذ إنني لم أعد أرى شيئا في الحياة كان قادرا على أن يغريني على أن أتعب نفسي!

وفي هذه الفترة بالذات، بدأ تعارفنا، فلاح لي أن لطف شخصية هذه الفتاة الطيبة، يتمشى مع طبيعة شخصيتي، حتى إنني ارتبطت بها بعاطفة لم يقو الزمن، ولا الزلات على إضعافها، ولم يؤد أي شيء – كان يحتمل أن يفصمها – إلا إلى توثيقها. ولسوف تتبدى قوى هذه الرابطة فيما يلي، عندما أكشف عن الجراح والآلام التي خلفتها في قلبي – في أوج تعاستي – دون أن تبدر مني شكوى واحدة، حتى الوقت الذي أكتب فيه هذه السطور!

وعندما يعرف أنني – بعد أن فعلت كل شيء، وبعد أن جابهت كل عناء لأتفادى فراقها، وبعد أن عشت معها خمسا وعشرين سنة برغم سجية البشر – أقدمت في النهاية على الزواج منها في شيخوختي، دون أن يكون لديها أي توقع، أو أي رجاء، ودون أن أرتبط معها بخطوبة أو بوعد.. عندما يعرف هذا، يسهل على المرء أن يصدق أن الحب الجامح، الذي عبث برأسي منذ اليوم الأول، قد قادني تدريجا إلى آخر حماقاتي.. ولسوف يزداد المرء اقتناعا بهذا، إذا ما عرف الأسباب الخاصة، والقوية، والتي كانت خليقة بأن تمنعني من أن أقدم على شيء كهذا.. فماذا يظن إذن، إذا أنا أعلنت – بكل ما لابد أن يكون قد عرف في خلقي من صدق – أنني منذ اللحظة الأولى التي رأيتها فيها، حتى يومنا هذا، لم أشعر نحوها بأضأل قبس من الحب، وأنني لم أعد أكثر اشتهاء لمضاجعتها، مني لمضاجعة السيدة دي "**فاران**"، وأن الرغبات الحسية التي كنت أشبعها لديها، لم تكن – في نظري – سوى استجابة للنوزاع الجنسية، دون أن يكون لها أية علاقة بالفرد؟

.. قد يعتقد القارئ أنني إذ أوتيت بنية تختلف عن بنية سواي من الرجال، كنت عاجزا عن أن أشعر بالحب، لا سيما وأنه لم يدخل قط بين المشاعر التي ربطتني بتلكما المرأتين، اللتين كانتا أعز النساء لدي. ولكن، صبرا ياقارئي!.. إن اللحظة المشؤومة تقترب، وستجد أنك مخدوع أكثر مما تخال!

*****

إنني أكرر حديثي، وإني لأدرك ذلك، ولكنه أمر لابد منه. لقد كانت أولى، وأعظم، وأقوى، وأعتى حاجاتي جميعا، تنحصر بأكملها في فؤادي.. تلك هي الحاجة إلى زمالة أشد ما تكون ألفة وقربى وتوثقا.. ومن أجل هذا الغرض – بوجه خاص – كنت محتاجا إلى امرأة أكثر مني إلى رجل..

إلى صديقة، أكثر مني إلى صديق. وكانت هذه الحاجة من التفرد بحيث إن أوثق العلاقات الجسدية ما كانت لترضيها.. كنت أتوق إلى روحين في جسد واحد، وقد ظللت – بدون ذلك – أشعر بالفراغ دائما!

ولقد ظننت أن اللحظة التي لا أعود أشعر فيها بذلك، قد حانت.. فإن هذه الشابة اللطيفة، كانت كفيلة – بفضل ألف من الصفات الرائعة، بل وبفضل مظهرها الشخصي الذي كان خلوا من أي افتعال، أو إغواء – بأن تستوعب كل كياني في كيانها، لو أنني استطعت أن استوعب كيانها في كياني، كما كنت آمل!

ولم يكن لدي ما أخشاه من ناحية الرجال – فقد كنت موقنا من أنني الرجل الوحيد الذي أحبته "تيريز" حبا صادقا – وكانت شهواتها من الفتور بدرجة أنها نادرا ما كانت تشعر بحاجة إلى رجال غيري، حتى عندما كففت عن أن أكون رجلها في هذا المجال!.. ولم تكن لي أسرة، في حين أنها كانت ذات أسرة، ولم تكن هذه الأسرة – التي كان أفرادها جميعا من صنف يخالف في الخلق صنفها – بالتي أستطيع أن أعتبرها كأسرتي.. وكان هذا أول أسباب شقائي!.. ما الذي كنت أتردد في أن أجود به، لكي أضع نفسي من أمها موضع الابن؟..

لقد حاولت ما وسعتني الحيلة، دون أن أوفق إطلاقا!..

كان من العبث أن أحاول أن أوحد كل مصالحنا، فقد كان هذا مستحيلا.. إذ كانت الأم لا تنفك تخلق مصالح تختلف عن مصالحي، ثم تضعها في وجه هذه، بل وضد مصالح ابنتها برغم أن الصنفين لم يكونا مختلفين!.. ولقد أصبحت، وأولادها الآخرون، وأحفادها ديدانا ظامئة إلى الدماء، وكان أبسط ضرر ألحقوه بـ"تيريز"، هو أنهم راحوا يسرقونها. إذ كانت الفتاة المسكينة قد تعودت أن تنصاع – حتى لبنات أخواتها – فتركت نفسها نهبا ومطية، دون أن تنبس ببنت شفة.. ولقد آلمني أن أرى أنه لم يكن بوسعي أن أفعل شيئا لمساعدتها، برغم أنني كنت أعتصر مواردي ونصائحي في هذا السبيل!.. ولقد حاولت أن أقصيها عن أمها، ولكنها كانت تعارض هذا دائما، فاحترمت معارضتها، وازددت تقديرا لها، بيد أن هذا لم يحل دون أن يكون رفضها ضارا بمصالحها ومصالحي. كانت مطبوعة على الوفاء لأمها ولبقية أسرتها، ومن ثم فقد كانت ملكا لهم، أكثر مما كانت ملكا لي، بل وأكثر ما كانت ملكا لنفسها!

والآن.. تعال نعيش مع "روسو:" في العالم

الذي كان يعيش فيه

منذ قرنين كاملين:

ولم يكن جشعهم مؤديا إلى إفلاسها، بقدر ما كان نصحهم مؤذيا لها!.. وقصارى القول إنها إذا ما لم تكن جارية لهم بمعنى الكلمة – والفضل في ذلك لحبها لي ولنفسها المفطورة على الطيبة – فإنها كانت من الخضوع لهم بدرجة تمنع – إلى حد كبير – أثر المبادئ الطيبة التي سعيت إلى أن أبثها فيها.

هذا هو السر في أن فراغ قلبي لم يلق في علاقة خالصة متبادلة كهذه – أودعتها كل ما في هذا من عاطفة – ما يملؤه تماما، وكان الأطفال كفيلين بملء هذا الخواء.. وقد رزقنا بهم، ولكن إنجابهم زاد الأمر سوءا. فلقد كنت أرتجف لمجرد التفكير في تسليمهم إلى هذه الأسرة سيئة النشأة؛ لتكفل لهم نشأة أسوأ!.. كان ما لتربية اللقطاء – في الملجأ – من احتمالات سيئة، أهون من ذلك بكثير!.. وهذا التبرير للقرار الذي اتخذته، كان الوحيد الذي لم أجرؤ على ذكره للسيدة "**دي فرانكويي**"، برغم أنه أقوى بكثير من تلك التي سقتها في خطابي إليها. فقد آثرت أن أبقى في غير منجاة من لوم ثقيل الوطأة؛ لكي أعول أسرة امرأة كنت أحبها. ولكن من الممكن – على ضوء أخلاق أخيها التعس، إن لم نقل على أضواء أخرى – الحكم بما إذا كان واجبي إذ ذاك أن أعرض أبنائي لأن يتلقوا تربية كتربيته!

وإذا لم أستطع أن أستمتع تمام الاستمتاع بهذه الصحبة الوثيقة التي كنت أشعر بحاجة إليها، فقد سعيت إلى معززات وإن لم تملأ فراغ قلبي، إلا أنها جعلتني أقل شعورا به؛ وإذ كنت أفتقد صديقا يؤثرني بكل وده ونفسه فقد وجدتني بحاجة إلى أصدقاء أوتوا من التحريض والتحفيز ما يطغى على تراخي وكسلي؛ ومن ثم فقد رحت أنمي وأعزز علاقاتي بـ"**ديدرو**" والراهب "**دي كونديللاك**"، وأقبلت على علاقات جديدة – ولكنها أكثر توثقا.. بـ"**جريم**"، وما لبثت أن وجدتني في النهاية – بفضل تلك "الرسالة" التعسة التي رويت قصتها من قبل – مرتميا، دون ما تفكير، بين أحضان الأدب، الذي كنت أظنني قد هجرته إلى الأبد!

ولقد أفضى بي ارتيادي الأول للأدب – خلال طريق جديدة – إلى عالم فكري آخر، لم أكن أملك أن أتأمل بساطته وإيجازه السامي، دونما تحمس!.. وسرعان ما أصبحت بفضل انهماكي لا أرى في معارف فلاسفتنا سوى خطأ وحماقة، ولا أرى في نظامنا الاجتماعي سوى ظلم وتعاسة، وفي انسياقي لضلال الغرور الأرعن خيل إليَّ أنني إنما خلقت لكي أبدد جميع هذه الأباطيل؛ وإذ رأيت أنه لابد لي من أن أجعل تصرفي يتمشى مع مبادئي – إذا شئت أن يكون رأيي مسموعا – فإنني انتهجت المسلك الأوحد الذي لم يتح لي أن أستمر فيه، والذي لم يغتفر لي أصدقائي المزعومون أن جعلت نفسي مثالا وقدوة فيه، والذي جعلني في البداية – أضحوكة، وكان خليقا بأن يجعلني – في النهاية – موضع الاحترام لو أنه تسنى لي أن أثابر عليه!

*****

ولقد كنت حتى ذلك الحين طيبا؛ فاصبحت من تلك اللحظة فاضلا، أو نشوان بالفضيلة على الأقل!.. وقد بدأت هذه النشوة في رأسي ولكنها سرت إلى قلبي، وعلى أطلال الغرور المقوض نبتت أنبل كبرياء.. ولم أكن متظاهرا بشيء بل إنني غدوت كما كنت أبدو حقا، وفي خلال السنوات الأربع - على الأقل - التي دامها هذا الفوران في أقصى قوته - لم أعجز عن أن أعتنق - بيني وبين السماء - كل جليل وجميل يمكن أن ينتاب قلب بشر، ومن هنا نبعت بلاغتي المفاجئة.. ومن هنا تولد ذلك اللهب السماوي الصادق الذي ألهبني وانتشر في كتبي الأولى، والذي لم يكن - إبان أربعين عاما - قد فقد شرارة واحدة؛ لأنه لم يكن قد استعر بعد خلالها!

ولقد تغيرت تغيرا حقيقيا، حتى إن أصدقائي ومعارفي لم يعودوا يعرفونني. لم أعد ذلك الرجل الخجول، الذي كان حييا أكثر منه متواضعا، والذي لم يكن يجرؤ على أن يظهر نفسه، ولا على أن يتكلم، والذي كانت الكلمة الماجنة تربكه، والنظرة الصادرة من أية امرأة تبعث حمرة الخجل في وجهه!.. وفي جرأة، وفخر، وإقدام، رحت أحمل في كل مكان اعتدادا كان وطيدا بقدر ما كان بسيطا، وكان مقره في أعماقي، وليس في مظهري... وكان من جراء الازدراء التي ألهمتنيه تأملاتي العميقة - نحو أخلاق ومبادئ وأوهام عصري - أن أصبحت أبعد من أن أتأثر بسخريات أصحاب الأخلاق والمبادىء. فكنت أسحق ملحهم ونكاتهم الصغيرة بحكمي وأمثالي، كما أسحق حشرة بين أصابعي. فيا له من انقلاب!.. لقد راحت "**باريس**" بأسرها تردد السخريات الوخازة اللاذعة التي أخذت تنبعث من رجل لم يكن قبل عامين - ولا بعد عشرة أعوام - يعرف كيف يهتدي إلى ما ينبغي عليه أن يقوله، ولا الكلمة التي يجدر به أن يستعملها!.. إن أي فرد يسعى إلى العثور على أشد الحالات مناقضة لطبيعتي لن يعثر إلا على حالي هذه، وإذا هو رغب في أن يذكر فترة واحدة من الفترات القصار التي تخللت حياتي - وكنت فيها على غير ما أنا بفطرتي - فلن يعثر على بغيته إلا في هذا الزمن الذي أتحدث عنه.. ولكنها فترة لم تدم ستة أيام، أو ستة أسابيع، وإنما دامت ست سنوات، ولعلها كانت قمينة بأن تدوم حتى الآن لولا الظروف الخاصة التي أدت إلى انتهائها، والتي ردتني إلى فطرتي التي حاولت أن أنتشل نفسي منها!

وبدا هذا التغير بمجرد أن بارحت "**باريس**"، ولم تعد مناظر الرذائل، في هذه المدينة الكبيرة، تغذي الاستنكار الذي كانت تبعثه في نفسي. ذلك أنني؛ إذ أصبحت لا أرى الناس كففت عن ازدرائهم، وإذ لم أعد أرى أهل الخبث كففت عن بغضهم. فإن قلبي المفطور على العزوف عن الكراهية، لم يعد يملك سوى الرثاء لتعسهم؛ إذ إنه لم يكن قادرا على أن يتبين فيه مكرهم، وسرعان ما أخمد هذا الاتجاه - الأكثر لطفا.. ولكنه أقل سموا من اتجاهي السابق - حدة الاندفاع الذي ظل يجتاحني طويلا.. وعدت - دون أن يفطن أحد، بل ودون أن أفطن أنا نفسي تقريبا - خجولا، مجاملا، هيابا.. عدت - بإيجاز - "**جان جاك**" الذي كنته من قبل تماما!

ولو أن الانقلاب لم يؤد إلا إلى ردي إلى حالي الطبيعية - فلم يتجاوز ذلك - لكان الأمر خيرا.. ولكنه - لسوء الحظ - ذهب إلى أبعد من ذلك، وحملني مسرعا إلى النقيض، ومنذ ذلك الحين لم تعد نفسي - في اضطرابها - تستقر في نطاق الطمأنينة، ولامكنها التذبذب المتجدد باستمراره من أن ترين هناك وتبقى. فلنخض دقائق هذا الانقلاب الثاني..

فقد كانت فترة رهيبة، مشؤومة، في مصير لا مثيل له بين البشر!

*****

لما كنا مجرد ثلاثة أفراد في مأوانا المنعزل (١)، فقد كان من الطبيعي أن يؤدي الفراغ والوحدة إلي توثيق تآلفنا. وهذا ما حدث بيني وبين "**تيريز**"؛ فرحنا نقضي – تحت الأشجار الوارفة الظلال – ساعات عذبة، ننعم خلالها بعزلة لم أتذوق من قبل مثل حلاوتها! ولاح لي أن "**تيريز**" هي الأخرى كانت أكثر استمتاعا بخلواتنا منها في أي وقت مضى، ففتحت لي قلبها دونما تحفظ، وأطلعتني على أمور – عن أمها وأسرتها – أوتيت المقدرة على أن تكتمها عني زمنا طويلا. فقد اعتادت وأمها أن يتلقيا من السيدة "**دوبان**"هدايا كثيرة كنت أنا المقصود بها، لكن العجوز الماكرة آثرت بها نفسها وأبناءها الآخرين – لتفادي غضبي – دون أن تدع شيئا لـ"**تيريز**"، ومع تحذيرها – أشد تحذير – من أن تقول لي شيئا عنها.. وهو أمر كانت الفتاة المسكينة تنفذه في طاعة تفوق التصور!

ومما أدهشني – أكثر من أي شيء آخر – أن تبينت أنه إلى جانب الأحاديث المتكتمة – التي أكثر "**ديدرو**" و"**جريم**" من عقدها مع الأم وابنتها ليصرفاهما عني، والتي لم تفلح بفضل مقاومة "**تيريز**" – فإن الاثنين راحا يعقدان كثيرا من الاجتماعات السرية مع الأم، دون أن تدري الابنة شيئا مما كان يدبر بينهم.. كان كل ما علمته هو أن الهدايا الصغيرة كانت تلعب دورا في الموضوع، وأنه كانت ثمة جيئات وروحات، كانوا يحاولون التستر عليها، وكانت هي تجهل الباعث عليها جهلا تاما!.. وعندما رحلنا عن "**باريس**"، كان قد انقضى وقت طويل، اعتادت خلاله السيدة "**لوفاسير**" زيارة "**جريم**" مرتين أو ثلاثا في الشهر، حيث كانت تقضي بضع ساعات في أحاديث كان الحرص على تكتمها يدعو إلى إقصاء خادم "**جريم**" عن المعسكر في كل مرة!

وقدرت أن الباعث لم يكن سوى ذلك المشروع الذي حاول "**ديدرو**" و"**جريم**" أن يستدرجا الابنة إليه، حين وعدا بأن يحصلا لها ولأمها – بمعونة السيدة "**ديبيناي**" – على تصريح بالاتجار بالملح، أو حانوت لبيع التبغ.. وبإيجاز عندما لوحا لهما بفرص الكسب. ولقد أوحت إليَّ هاتان المرأتان بأنني لم أكن في وضع يمكنني من أن أفعل من أجلهما شيئا، بل ولم أكن أملك – بسببهما – أن أفعل شيئا لنفسي، ولما كنت لم أر في كل هذا سوى نوايا حسنة فإنني لم أحمل لأحد ضغينة، على الإطلاق، ولم يشرني سوى الغموض، لا سيما من جانب العجوز التي راحت – فوق كل هذا – تزداد رياء ودهاء نحوي، يوما بعد يوم، دون أن يمنعها ذلك من أن تلوم ابنتها باستمرار – وفي الخفاء – على أنها كانت مسرفة في حبها إياي، وأنها كانت تصارحني بكل شيء، وأنها لم تكن سوى غبية لن تلبث أن تتبين أنها كانت ضحية غفلتها!

لقد أوتيت هذه المرأة أعلى درجات البراعة في اصطياد عصفورين بحجر واحد، وفي أن تخفي عن أحد المتواطئين معها ما تلقته من الآخر، وأن تخفي عني أنا ما تسلمته من الجميع!.. وكان بوسعي أن أغفر لها جشعها ولكني لا أستطيع أن أغفر لها رياءها. أي شيء كان يجوز لها إخفاؤه عني.. عني أنا، الذي كانت تدرك تماما أن سعادته تكاد تعتمد كل الاعتماد على سعادة ابنتها وسعادتها هي؟.. إن ما بذلته لابنتها، إنما كنت أبذله لنفسي.. أما ما فعلته من أجلها هي، فقد كان جديرا بالعرفان منها.. كان حريا بها أن تعترف بالفضل لابنتها، على الأقل، وأن تحبني إكراما لحبها لابنتها التي كانت تحبني!.. لقد انتشلتها من البؤس الكامل وكانت تستمد قوتها مني، وكانت مدينة لي بكل تلك المعارف التي عرفت كل المعرفة كيف تفيد منها!.. ولقد ظلت "**تيريز**" وقتا طويلا تعولها بما كانت تكسبه من عملها، وأصبحت تغذيها من خبزي!.. كانت مدينة بكل هذا لابنتها دون أن تفعل لهذه الابنة شيئا!.. وكانت بناتها الأخريات – اللائي منحتهن "**تيريز**" مهورا "دوطات"

---

(١) "ليرميتاج".. الكوخ النائي الذي أفردته له السيدة "ديبيناي".

استنفدت كل ما لها - أبعد من أن يساعدنها بل إنهن رحن يلتهمن مواردها ومواردي.. وتبينت أنه كان حريا بالسيدة "**لوفاسير**" - في مثل هذا الموقف - أن تتطلع إليَّ كصديقها الأوحد، وكأصدق من يذود عنها ويكفلها، وبدلا من أن تكتم عني الأمور التي كانت من ذات شؤوني، وبدلا من أن تتآمر ضدي في عقر داري، كان عليها أن تطلعني - في إخلاص - على كل ما كان خليقا بأن يهمني، إذا ما علمت به قبلي. فبأية عين كان بوسعي - إذن - أن أرى مسلكها الغادر، الغامض؟.. وما الذي كان ينبغي أن أظنه - فوق كل شيء - عن المشاعر التي تذرعت بها لدى ابنتها؟.. أي جحود هائل كان جحودها عندما سعت إلى أن توسوس إليها؟

كل هذه الخواطر ألبت فؤادي - في النهاية - ضد هذه المرأة، حتى إنني لم أعد أنظر إليها دون احتقار.. على أنني لم أكف قط عن أن أعامل أم شريكة حياتي باحترام، وأن أبدي لها - في كل شيء - ما يبديه الابن من اعتبار وتقدير.. بيد أنني لم أكن - في الحق - لأحب أن أمكث معها وقتا طويلا، ولم يكن بوسعي أن أغصب نفسي على ما لا تحب!

وهنا أيضا كانت إحدى تلك اللحظات القصيرة التي مرت بحياتي، والتي رأيت فيها السعادة جد دانية، دون أن أقوى على نيلها، ودون أن يكون لي ذنب في فواتها!.. ولو أن هذه المرأة كانت طيبة الشخصية لظل ثلاثتنا سعداء حتى نهاية أعمارنا.. ولكان آخر من يبقى منا على قيد الحياة وحيدا جديرا بالرثاء. ولكنكم سترون - بدلا من ذلك - تطور الأمور، وستحكمون بأنفسكم: أكان بوسعي أن أغير حال هذه المرأة؟

ذلك أن السيدة "**لوفاسير**" - حين رأت أنني وطدت مكانتي في فؤاد ابنتها، وأنها فقدت الفتاة - راحت تناضل لاستعادتها، وبدلا من أن تتقرب مني عن طريقها أخذت تسعى إلى إيغار صدري عليها، وكان من الوسائل التي استخدمتها أن استدعت أسرتها إلى معاونتها، وكنت قد رجوت "**تيريز**" بألا تستقدم أحدا إلى "**ليرميتاج**"، فوعدتني بذلك.. غير أنهم كانوا يستدعون في غيابي، ودون استشارتي، وكانت "**تيريز**" تحمل على أن تعد بألا تقول لي شيئا، وما إن تمت الخطوة الأولى حتى غدا كل شيء سهلا. فإن المرء إذا أخفى - مرة - عمن يحب أمرا، فإنه لا يلبث أن يكتم عنه كل شيء، دون تورع. فما كنت أذهب إلى "**لاشيفريت**" (١)، حتى كان "**ليرميتاج**" يزخر بأناس يقبلون على الاستمتاع بالمقام هناك في استمراء، والأم دائما ما تكون قوية السلطان على الابنة التي فطرت على الطيبة.. ومع ذلك فإن العجوز لم تستطع - برغم كل جهودها - أن تغري "**تيريز**" على أن تأخذ بآرائها، أو أن تستدرجها إلى التآمر ضدي، أما عن نفسها فإنها كانت قد وطنت عزمها - دون انتكاس - على وضع خاص: فكانت تنظر - من ناحية - إلى ابنتها وإليّ أنا كشخصين تستطيع أن تقيم في دارهما فحسب.. وكانت تنظر - من ناحية أخرى - إلى "**ديدرو**"، و"**جريم**"، و"**دلباخ**"، والسيدة "**ديبيناي**" كأشخاص يعدون بأمور كثيرة، ويمنحون بعض أشياء.. وما خطر لها قط أنها كانت تخطئ إذ تسير في ركاب زوجة ناظر عام للزراعة، و"**بارون**". ولو أنني كنت دقيق النظر لرأيت - منذ ذلك الحين - أني إنما كنت أغذي أفعى في أحضاني. بيد أن ثقتي العمياء - التي لم يغيرها شيء حتى الآن - كانت لا تدع لي سبيلا إلى أن أحدس أن هناك من يبغي الشر بمن هو جدير منه بالحب!.. وفي الوقت الذي كنت أرى فيه ألف دسيسة تحيط بي فلم أكن أملك أن أشكو إلا من جور أولئك الذين كنت أدعوهم أصدقاء لي، والذين كانوا يسعون إلى أن يجعلوني - بالرغم مني - سعيدا على نسقهم. لا على النسق الذي كان يحلو لي!

---

(١) "لاشيفريت" الضيعة التي كان بها قصر آل "ديبيناي"، والتي كان "ليرميتاج" في أقصى الغابات الملحقة بها.

ومـع أن "**تيــريز**" أبت أن تنحاز إلى أمها في تآمرها إلا أنها أبقت على سرها، وكان باعثها على ذلك خليقا بالتقدير، ولن أقطع بما إذا كانت قد أحسنت أو أنها أساءت!.. وعندما يكون بين امرأتين سر فإنهما تشغفان بالثرثرة معا، وقد قرب هذا بين "**تيــريز**" وأمها، وأصبح مسلك "**تيــريز**" - إذ وزعت ولاءها - يشعرني - في بعض الأحيان - بالوحدة؛ لأنني لم أعد أعتبر ما كان بيننا نحن الثلاثة صحبة ومعاشرة، وفي تلك الفترة، اشتد شعوري بالخطأ الذي ارتكبته، في بداية رابطتنا، إذ إنني لم أستغل اللين الذي كان حبها يوحي به إليها لكي أزينها بمواهب ومعرفة كانت كفيلة بأن تقرب بيننا في معتكفنا، وبأن تملأ وقتها ووقتي على خير وجه، دون أن تدعنا نشعر بفوات الوقت في عزلتنا، وليس معنى هذا أن الحديث بيننا كان مجديا، ولا أنها أبدت بادرة تمت عن ملل خلال نزهاتنا، وإنما معناه أنه لم يكن لدينا عدد من الآراء المشتركة يكفي لكي يكون موردا مدخرا.. ولم يكن بوسعنا أن نتكلم بلا انقطاع عن مشروعاتنا، التي اقتصرت - منذ ذلك الحين - على لهونا، وكانت الأشياء المحيطة بنا توحي إلينا بخواطر كانت فوق إدراك "**تيريز**".

ولم تكن علاقة كعلاقتنا - دامت اثنتي عشرة سنة - بحاجة إلى كلام؛ إذ أصبح كل منا يعرف الآخر إلى درجة لم يعد يجد معها سبيلا إلى مزيد؛ ومن ثم فإن المورد الوحيد الذي تبقى للحديث بيننا، تمثل في الثرثرة غير المجدية، والنصائح، والنكات الركيكة!.. ولا يشعر المرء بقيمة العيش مع شخص يعرف كيف يفكر، قدر ما يشعر في العزلة، بوجه خاص. أما أنا، فلم أكن بحاجة إلى هذه الميزة كي أهنأ بصحبة "**تيريز**". بيد أن "**تيــريز**" كانت بحاجة إليها، كي تجد دائما ما يسرها في صحبتي.

وكان أسوأ ما في الأمر أننا كنا مضطرين إلى أن نعقد لقاءاتنا الخاصة في الخفاء؛ إذ إن أمها أصبحت تضايقني وتضطرني إلى أن أتحين الفرص لتلك الخلوات.. كنت مقيد الحرية في داري، بأوجز تعبير، وكان جو الحب يفسد جو الصداقة؛ ومن ثم فإننا كنا نمارس علاقة بدنية، دون أن نعيش في محبة قلبية!

وما إن خيل لي أنني لاحظت على "**تيــريز**" أنها كانت تتعلل أحيانا للتهرب من النزهات التي كنت أعرض عليها أن تشاركنيها على الأقدام حتى كففت عن أن أقترحها عليها، دون أن أطلعها على أي استياء من أنها لم تكن تلقى فيها من المسرة ما كنت ألقى؛ ذلك لأن السرور شيء لا يتوقف على الإرادة، ولقد كنت واثقا من ولاء قلبها، فكان في هذا الكفاية لي.. وطالما كانت مسراتي هي عين مسراتها فإنني كنت أقبل على الاستمتاع بها معها.. أما حين لا يكون الأمر كذلك فكنت أوثر رضاها على رضائي!

وهكذا قدر لي، وأنا نصف مخدوع بآمالي، وقد رحت أمارس حياة تتفق ومزاجي، في بقعة منعزلة اخترتها لنفسي، ومع شخص كنت أعزه.. وهكذا قدر لي أن أشعر - برغم كل هذا - بأنني وحيد!.. كان ما ينقصني يحول دون تذوقي لما أوتيت، فقد اعتدت - فيما يتعلق بالسعادة والسرور - أن أنال كل شيء، أو لا أنال شيئا على الإطلاق!.. ولسوف يتجلى - فيما بعد - السر في أن هذا الإيضاح بدا لي لازما. أما الآن. فإنني أمضي في رواية قصتي.

*****

كنت أؤمن بانني امتلك كنزا حقيقيا: تمثل في المخطوطات التي دفع بها إليَّ الكونت "**دي سـان بيير**". فلما فحصتها، تبينت انها لم تكن اكثر من مجموعة من مؤلفات عمه - التي نشرت من قبل - وقد نقحت وصححت بيده، واضيفت إليها بضع قطع صغيرة أخرى لم تر الضوء من قبل، ومما كتبه في الموضوعات الخلقية تاكدت لي فكرة كانت قد أوحت لي بها بعض رسائل منه أطلعتني عليها السيدة "**دي كريكي**"، ومؤداها انه أوتي من العقل فوق ما كنت اتصور. بيد أنني حين تعمقت في فحص مؤلفاته السياسية وجدت انها لم تكشف لي إلا عن آراء سطحية، ومشروعات نافعة ولكنها ليست عملية بفضل الرأي الذي لم يقدر للمؤلف أن يتخلص منه.. الرأي القائل بأن البشر يهتدون في أعمالهم بمعارفهم وليس بعواطفهم!.. كانت الفكرة العظيمة التي داخلته بصدد ألوان المعرفة الحديثة، جعلته يعتنق هذا المبدأ الزائف عن إمكان وصول العقل إلى درجة الكمال.. المبدأ الذي قامت عليه كل النظريات التي اقترحها، والمنبع الذي فاضت منه كل سفسطاته السياسية. إن هذا الرجل الفذ - الذي كان مفخرة عصره وجنسه - قد يكون الأوحد - منذ وجود العنصر البشري - الذي لم يشغف في حياته بغير العقل. ولكنه - مع ذلك - كان يتخبط من خطأ إلى آخر في آرائه ونظرياته؛ رغبة منه في أن يجعل كل الناس على نسقه، بدلا من أن يأخذهم على علاتهم، وعلى ما هم عليه، وما سيظلون عليه!. ومن ثم فهو لم يكن يشقى إلا من أجل كائنات وهمية، وهو يخال أنه يعمل من أجل معاصريه!

وإذ تبينت كل هذا ألفيتني في حيرة من أمر القالب الذي أصوغ فيه عملي. فلو أنني أبقيت على آراء المؤلف لما اديت شيئا نافعا، ولو أنني عدلتها كما كان ينبغي لجاء عملي منافيا للأمانة؛ إذ إن تسلمي المخطوطات كان إلزاما لي بأن أكون أمينا إزاء مؤلفها، وانتهيت أخيرا إلى الرأي الذي بدا لي أكثر ملاءمة ولياقة، وأعظم حكمة ونفعا.. وذلك بأن أعرض آراء المؤلف وآرائي كلا على حدة؛ وبذلك أخوض نظرياته، وأوضحها، وأوسع نطاقها دون أن أضن بشيء لكي تنال حظها من التقدير!

ومن ثم فقد كان لابد لعملي من أن يتألف من جزءين منفصلين تمام الانفصال: أحدهما: يخصص لشرح مختلف غايات المؤلف على النسق الذي ذكرته.. أما الثاني: - الذي لم يكن ليظهر إلا بعد أن يحدث الأول مفعوله - فكان عليّ أن أعرض فيه حكمي على تلك الغايات ذاتها.. مما كان خليقا بأن يبينها - في بعض الأوقات - كقصيدة من نظم شخص مبغض للبشرية!..

وكان لابد من أن يتوج هذا الكتاب كله بإيراد حياة المؤلف، وكنت قد جمعت لذلك كمية لا بأس بها من المواد التي رحت أزين لنفسي أنني لن أشوهها إذ أستخدمها، وكنت قد التقيت بالأب "**دي سـان - بيـيـر**" مرتين أو ثلاثا - في شيخوخته - فكان التبجيل الذي أكنه لذكراه ضمانا يطمئنني إلى أن السيد الكونت لن يستاء من الطريقة التي عاملت بها قريبه في مجموعها!

وأجريت محاولتي الأولى على "السلام الدائم"، وهي الأبحاث التي تضمنتها المجموعة وأكثرها نصيبا من العناية. وقبل أن أستغرق في أفكاري تجلت فقرات كل ما كتبه الراهب - في هذا الموضوع البديع - بحذافيره، دون أن أضيق قط بما كان يتخلل حديثه من إطالة وتكرار، ولقد اطلع الرأي العام على هذه الرسالة المستخلصة؛ ومن ثم فليس لدي ما أقوله عنها. أما الحكم الذي ارتأيته بصددها فلم يطبع قط، ولست أدري إن كان سيطبع يوما ولكنه كتب في ذات الوقت الذي أعدت فيه كتابة الرسالة، وانتقلت من ذلك إلى نظرية "**البوليسينودي**"، أو تعدد المجالس.. وهي الرسالة التي وضعها في عهد الوصاية على العرش؛ ليروج للنظام الحكومي الذي اختاره الوصي، والذي أدى إلى إقصاء

الراهب "**سان - بيير**" عن المحفل الفرنسي "**الأكاديمي فرانسيز**" - من جراء بعض رسالات كتبت ضد النظام الحكومي السالف الذكر الذي أحنق الدوقة "**دو مين**"، والكاردينال "**دي بولينياك**"، وقد اتممت هذا العمل كما فعلت بسابقه، سواء الرسالة أو الحكم ولكنني توقفت عند هذا الحد، دونما رغبة في مواصلة هذا المشروع، الذي ما كان ينبغي أن أبدأه!

وكان الخاطر الذي أوحى إليَّ بنبذه قد وافاني من تلقاء ذاته، وكان من المدهش أنه لم يخطر لي قبل ذلك. فإن معظم كتابات الراهب كانت في مجموعها - أو كانت تشتمل على - ملاحظات نافذة لبعض نواحي نظام الحكم في "**فرنسا**"، وكان بعضها من الصراحة والتحرر بدرجة يعتبر معها الراهب مجدودا لأنه أفلت من العقاب الذي كانت خليقة بأن تجره عليه، على أنه كان يعتبر في الأوساط الوزارية - طيلة الوقت - كواحد من المبشرين، أكثر منه كسياسي حقيقي؛ ومن ثم فقد ترك يقول كل ما كان يحلو له؛ لأنه كان من الجلي أن أحدا لم يكن يصغي إليه. غير أن الأمر كان يختلف إذا ما حملت أنا انتقاداته إلى الأسماع.. ولقد كان فرنسيا، ولم أكن أنا كذلك، فإذا كررت انتقاداته - ولو باسمه - لتعرضت لأن أسأل عنها سؤالا عسيرا صارما - ولكن دونما ظلم - عما كنت أقحم نفسي فيه.

وقبل أن أوغل في ذلك فطنت - لحسن الحظ - إلى المأخذ الذي كنت أتيحه ضد نفسي، وتراجعت مسرعا؛ فلقد كنت أدرك أنني - إذ أعيش وحيدا وسط رجال، ورجال كلهم أقوى مني - لن أقوى قط، ومهما تكن وسائلي على أن أقي نفسي أي أذى يحلو لهم أن يوقعوه بي، ولم يكن ثمة في وسعي - إزاء ذلك - سوى أمر واحد: هو أن أجعل من المستحيل عليهم - إذا هم راموا إيذائي - أن يفعلوا ذلك ظلما، وهذا المبدأ - الذي جعلني أهجر الأب "**سان بيير**" - كثيرا ما حملني على أن أطرح عني كثيرا من المشروعات التي أعتز بها، والذين يبادرون دائما إلى أن يجعلوا من المحنة جريمة كانوا خليقين بأن يدهشوا، إذا عرفوا كل ما تجشمت في حياتي؛ لكي لا يقال لي - عن صدق - في أوقات محني: "لقد استحققتها تماما!".

وتركني نبذ هذا العمل حائرا - بعض الوقت - بشأن ما أتولاه بعد، وكانت هذه الفترة من البطالة مضيعة لي؛ إذ جعلتني أحول أفكاري إلى نفسي، نظرا لعدم وجود ما يشغلني. فلم تعد لدي مشروعات للمستقبل تروق لخيالي، كما أنه لم يكن من الميسور أن أدبر شيئا من هذه المشروعات؛ لأن وضعي الراهن كان هو عين الوضع الذي جمع كل رغباتي.. ومن ثم فإنني لم أذكر في مشروعات جديدة، ومع ذلك فقد ظللت أشعر بفراغ، ومما زاد هذه الحال قسوة أنني لم أكن أجد ما يفضلها؛ إذ كنت قد أوقفت أرق عواطفي على امرأة راقت لفؤادي، وقد بادلتني هذه العواطف؛ فعشت معها على سجيتي، وفق ما حلا لي، كما ينبغي أن يقال، ومع ذلك فإن ضيقا خفيا ظل يستولي على فؤادي لا يبرحه في قربها ولا في بعدها، وكنت أشعر - وأنا ضجيعها - أنها مازالت غير خالصة لي.. وكان مجرد التفكير في أنني لم أكن لها كل من لها يجعلها تبدو لي شيئا لا يذكر تقريبا!

وكان لي أصدقاء من الجنسين، ارتبطت بهم بأخلص الود، وبأكمل التقدير، وكنت مطمئنا إلى أنهم يكنون لي - مقابلها - أصدق المشاعر، فلم يخطر ببالي قط - ولو مرة واحدة - أن أرتاب في إخلاصهم ومع ذلك فقد كانت هذه الصداقة مبعث عذاب - لا نعيم لي - نظرا لعنادهم، بل ولإلحاحهم في معارضة كل ميولي وأهوائي وطريقة حياتي، إلى درجة أنه كان يكفيني أن أبدي رغبة في شيء لا يهم سواي وحدي، ولا يتوقف عليهم، حتى أراهم يتآزرون - في الحال - لإقناعي

بالتخلي عنه. هذا الإصرارعلى السيطرة على كل أهوائي الذي كان يزيده جورا أنني لم أكن بمناى عن محاولة السيطرة على أهوائهم – فحسب بل إنني لم أعن قط بتعرف هذه الأهواء – لم يلبث أن أصبح مرهقا لي إلى درجة قاسية، حتى إنني لم أعد – في النهاية – أتسلم رسالة منهم إلا وشعرت وأنا أفضها – بشيء من الخوف كانت مطالعة الرسالة لا تلبث أن تبرره!.. ولقد تبينت – بالنظر إلى أنهم كانوا يصغرونني سنا، وكانوا في أشد الحاجة إلى الدروس التي يخصوني بها – إن معاملتهم لي كانت أقرب ما تكون إلى معاملة الكبار لطفل صغير، وكنت أقول لهم: "أحبوني كما أحبكم، وماعدا ذلك، فلا تتدخلوا في شؤوني مادمت لا أتدخل في شؤونكم، وهذا جل ما أسألكم إياه!". وإذا كانوا قد أولوني أحد المطلبين فمن المؤكد أنه لم يكن المطلب الأخير!

ولقد كان لي مسكن ناء، في عزلة فاتنة، وكنت سيد داري وربها، وكان بوسعي أن أعيش هناك على هواي، دون أن يفرض عليَّ مخلوق سيطرته. ولكن هذه السكنى فرضت عليَّ واجبا كان أداؤه يحلو لي لولا أنه كان محتوما عليَّ. فلم تكن حريتي بأسرها سوى أمر موقوت بل إنها كانت خاضعة لسلطان يفوق مجرد الأوامر.. وكنت مضطرا إلى قبول هذا الوضع باختياري.. لم أكن أملك صباحا واحدا أستطيع أن أقول فيه لنفسي، وأنا أستيقظ: "سأستغل هذا اليوم كما يحلو لي". فإلى جانب أنني كنت رهنا لتدبيرات السيدة "**ديبيناي**" كنت رهنا كذلك لإزعاج أكبر.. إزعاج الجمهور والوافدين؛ إذ إن المسافة التي كانت تفصلني عن "**باريس**"، لم تحل دون أن يأتي إليَّ يوميا زرافات من المتبطلين، الذين كانوا لا يعرفون كيف يفيدون من وقتهم، اللهم إلا أن يبددوا وقتي دون أي اكتراث!.. وكنت أفاجأ بهجومهم دون رحمة، وأنا أبعد ما أكون عن توقعهم.. ونادرا ما رسمت خطة بديعة لنهاري دون أن أراها رأسا على عقب؛ من جراء وصول وافد!

وقصارى القول إنني – كنت في غمرة النعم التي كنت أشد ما أكون شوقا إليها – لم أحظ قط بالسرور الخالص.. فرحت أرتد وثبا إلى أيام صباي الصافية، وكنت أهتف لنفسي أحيانا، وأنا أتنهد: "آه!.. لست هنا في "**شارميت**"!" (١).

*****

وأفضت بي ذكريات المراحل المتباينة من حياتي إلى التفكير فيما انتهيت إليه، ورأيتني وقد بلغت أعتاب الشيخوخة، فريسة لشرور اليمة، واعتقدت أنني كنت أقترب من نهاية حياتي العملية، دون أن أكون قد نعمت في أوجها بشيء من تلك المتع التي كان القلب يصبو إليها، ودون أن أكون قد أفسحت المجال لتلك المشاعر المتوقدة التي كنت أشعر بأن قلبي كان يدخرها.. ودون أن أكون قد استمرأت، بل دون أن أكون قد تذوقت – على الأقل – تلك اللذة المسكرة التي كنت أحس بها في أعماقي، في عنفوانها، والتي كان افتقادها الهدف والمجال يجعلها دائما مكبوحة، عاجزة عن أن تنطلق بكل قواها اللهم إلا خلال زفراتي!

فكيف قدر لرجل حبته الطبيعة بروح واسعة الآفاق، وكانت الحياة لديه هي الحب.. كيف قدر لي أن أعجز – حتى ذلك الحين – عن العثور على صديق يكون لي كل نفسه.. صديق صادق، وأنا الذي كنت أشعر أنني خلقت لكي أكون كذلك!..

كيف قدر لي، وقد أوتيت مشاعر متاججة، وقلبا مفعما بالحب، الا أكتوي مرة واحدة – على الأقل – بلهب هذا الحب، من أجل شخص معين؟.. ورأيت نفسي أقترب من أعتاب الشيخوخة،

---

(١) "شارميت": بقعة في الريف السويسري، قضى فيها "روسو" فترة النقاهة التي قدر له بعدها أن يفترق عن السيدة "دي فاران".

والحاجة إلى الحب تفري فؤادي، دون أن أملك قط لها إرضاء أو إشباعا.. رأيتني أوشك أن أموت دون أن أكون قد نعمت بالحياة!

هذه الخواطر الحزينة – وإن كانت ناعمة مفعمة بالحنان – حملتني على أن أرتد بأفكاري إلى نفسي في حسرة لم تخل من لذة!.. قد لاح لي أن القدر كان مدينا لي بشيء لم يستطع أن يمنحنيه. فلماذا خلقت إذن بميزات ومواهب طيبة إذا كان قد قدر لي أن أتركها إلى النهاية دون أن أستغلها؟.. كان الشعور بقيمة الميزات الكامنة في نفسي يوحي إليَّ بالشعور بالغبن، ولكنه كان – في الوقت ذاته – يعوضني بما يخفف من وطأته، يحملني على أن أذرف الدمع الذي كنت أرتاح إلى أن أتركه ينساب!

*****

وافتني هذه الخواطر في أجمل فصول السنة.. في شهر حزيران (يونيو)، وفي البساتين الرطبة، بين شدو البلابل وخرير الجداول.. لقد تكالبت جميعا على دفعي إلى أحضان هذا النعيم المغري الذي خلقت له.. ولكنها دفعتني في حالة ذهنية قاسية، صعبة، تولدت عن المشاعر التي ظلت تتفاعل طويلا في نفسي، فكانت كفيلة بأن تسلمني إلى هذا الوضع إلى الأبد!.. ووجدتني – لشقوتي – أميل إلى تذكر مائدة العشاء في قصر "**تون**" (١)، والتقائي بتلكما الفتاتين الساحرتين (٢)، في فصل من العام كهذا الذي كنت فيه – في هذه المرحلة – وفي بقعة قريبة الشبه من هذه التي كنت فيها في الآونة التي أتحدث عنها.. ولقد اجتلبت لي هذه الذكرى – التي زادها فتنة ما كان فيها من ريح البراءة – ذكريات أخرى من نوعها، وما لبثت أن رأيت الأشخاص والأشياء التي أيقظت مشاعري في صباي تتجمع حولي: الآنسة "**جالي**"، والآنسة "**دي جرافينيرييه**"، والآنسة "**دي بريي**"، والسيدة "**بازيل**"، والسيدة "**دي لارناج**"، وتلميذاتي الحسان.. حتى "**جولييتا**" اللاذعة، التي لم يستطع قلبي أن يسلوها!.. وألفيتني محوطا بسرب من الحوريات – من معارفي القديمات – اللائي لم يكن الشوق المتأجج نحوهن بالشعور الجديد لديَّ.. وفار دمي وسخن، ودار رأسي بالرغم من شعري الذي دب إليه الشيب، وإذا بالمواطن الجنيفي الجاد الوقور، وإذا بـ"**چان چاك**" المتقشف الذي أشرف على الخامسة والأربعين من عمره يرتد فجأة هائما وراء الحب.. ومع أن النشوة التي تملكتني كانت مباغتة وجامحة إلا أنها كانت قوية وثابتة، فلم يكن من سبيل إلى شفائي منها إلا عن طريق نوبة الشقاء الفظيعة – غير المرتقبة – التي أسلمتني إليها هذه النشوة ذاتها!

بيد أن هذه النشوة لم تصل – برغم ما ذهبت إليه – إلى الحد الذي يجعلني أنسى سني ومركزي، فأخدع نفسي بأن لدي القدرة على أن أوحي الحب إلى الحسان، مرة أخرى.. أو إلى الدرجة التي تجعلني أحاول أن أفرج عن هذا اللهب المتأجج، وإن كان غير مثمر، اللهب الذي كنت أشعر – منذ طفولتي – بقلبي يحترق فيه عبثا!.. بل إنني ما كنت آمل في ذلك، ولا كنت أشتهيه، فقد أدركت أن زمن الهوى قد ولى، وكنت من الشعور بالسخرية التي تنهال على العشاق إذا ما غووا في كبرهم بحيث إنني كنت أربأ بنفسي أن أتعرض لها.. وما كنت بالرجل الذي ينقلب مغرورا معتدا بنفسه في سني التداعي، بعد أن كنت مقسطا في سني ازدهاري!.. ثم إنني – كمحب للسلام – كنت أخشى العواصف المنزلية، وكنت أحب "**تيريز**" في إخلاص بالغ يجعلني أربأ بأن أعرضها للوعة رؤيتي منساقا إلى سواها بمشاعر أشد احتداما من تلك التي كانت تثيرها في نفسي؟

---

(١) ورد ذكر هذه المناسبة في الجزء الأول صفحة ١٥٤ . (٢) روى "روسو" قصة هذا اللقاء في الصفحات من ٢١٦ إلى ٢٢١ من الجزء الأول.

فما الذي تراني فعلت في هذه المناسبة؟

لابد أن يكون قارئي قد حدس تصرفي لو أنه قد تتبعني - حتى الآن - في شيء من الانتباه!

ذلك أن استحالة اقتناص المخلوقات الحقيقية طوحت بي إلى عالم الأوهام والخيالات.. وعندما عز عليّ أن أرى في الوجود من هم أهل لصبابتي، وحتى أغذي هذه الصبابة من عالم مثالي، سرعان ما عمره خيالي الخصب بأناس ممن يميل إليهم فؤادي!.. أبدا ما لقي هذا المنبع مني مثل هذا الترحيب، وأبدا ما كان يوما مثمرا إلى هذا الحد!.. ورحت في نوبات الهيام أسكر بجرعات دسمة من أبهج المشاعر التي دبت يوما في قلب إنسان!

وتناسيت العنصر البشري تماما؛ فجعلت لنفسي مجتمعات من مخلوقات اتسمت بالكمال.. مخلوقات سماوية في فضائلها وجمالها.. أصدقاء أمناء، موفوري الحنان والوفاء، لا سبيل إلى مثلهم في العالم الدنيوي، وشغفت بالتحليق في هذه الآفاق بين الأطياف الفاتنة التي كانت تحف بي، حتى إنني أصبحت أنفق الساعات بل الأيام في ذلك - دون حساب - وأنسى كل شيء آخر؛ فما إن ألتهم لقمة من طعام في عجلة حتى أتحرق لهفة إلى الفرار، لكي أهرع إلى الأحراش ثانية. فإذا قدر لي - وقد تأهبت للانتقال إلى عالمي السحري - أن أرى تعسا من أهل الأرض يفيد فإنني كنت أعجز عن أن أتلطف أو أن أكتم غيظي، وكنت - إذ أفقد سيطرتي على نفسي - أستقبلهم في جفاء يكاد أن يوصف بالعنف غير المهذب، ولم يؤد هذا إلا إلى زيادة اشتهاري بأنني مبغض للبشر، في حين أنه كان خليقا بأن يكسبني شهرة مناقضة لذلك لو أتيح للناس أن يقرءوا قلبي حق القراءة!

*****

وفي أوج نشوتي الكبرى، وجدتني أجذب كما تشد الطائرة الورقية بالخيط؛ لأرد إلى مكاني الطبيعي بفضل نوبة حادة من نوبات دائي. فاستخدمت العلاج الأوحد الذي كان يسري عني ألا وهو المجسات (١)، الأمر الذي أوقف غرامياتي الملائكية!.. ذلك لأنه إلى جانب أن المرء لا يميل إلى الهوى وهو يعاني الألم فإن خيالي - الذي اعتاد أن يذكو في الريف وتحت الأشجار - يذوي ويحتضر داخل الحجرات، وتحت ألواح السقوف الخشبية، ولكم كنت أتحسر إذ أذكر أن ليس لجنيات الغاب (٢) وجود، فلا مراء في أنني كنت خليقا بأن أوقف عليها عواطفي!

وضاعف من أساي أن حدثت في تلك الفترة ذاتها متاعب منزلية أخرى: فلقد كانت السيدة "**لوفاسير**" ماضية في بذل قصارى جهدها لتؤلب ابنتها عليَّ في الوقت الذي كانت تؤثرني فيه بأبدع المجاملات.. ولقد تلقيت رسائل من جيراني القدامى أنبئت فيها بأن العجوز الداهية كانت قد تورطت - دون علمي - في ديون عديدة باسم "**تيريز**" وبعلمها.. ولكن هذه لم تذكر لي شيئا عنها ولم أستأ لاضطراري إلى دفع هذه الديون بقدر ما استأت لأنها ظلت مكتومة عني!.. كيف تسنى لمن لم أكتم عنها سرا أن تخفي عني مثل هذا السر؟.. وهل للمرء أن يخفي أمرا عن أولئك الذين يحبهم؟.

وكانت عصبة "**دولباخ**" قد بدأت تخشى جديا - إذ رأتني لا أزور "**باريس**" - أن أكون قد استطبت الإقامة في الريف، وأنني قد أكون من الحماقة - في رأيهم - بحيث أبقى هناك؛ ومن ثم بدأت المشاغبات التي أريد بها حملي - بأسلوب غير مباشر - على العودة إلى المدينة، وبدأ "**ديدرو**" - الذي لم يشأ أن يكشف عن دوره سريعا - بأن صرف عني "**ديلييير**" الذي كنت قد عرفته به،

---

(١) روى "روسو" حديث مرضه وعلاجه (٢) "الدرياد".. جنيات الغاب، فقد ورد في أساطير الاغريق ذكر غابة كانت تتقمص كل شجرة فيها حورية، أو جنية فاتنة.

والذي تلقى ما شاء "**ديدرو**" أن يوحي به **إليه** من إيعازات، فنقلها إليَّ دون أن يدري الغرض الحقيقي الذي كان مقصودا بها!

ولاح كأنما أجمع كل شيء على انتزاعي من أوهامي الناعمة، الطائشة!.. وقبل أن أفيق من نوبة المرض تلقيت نسخة من قصيدة خراب "**برشلونة**" التي ظننت أنها أرسلت إليَّ من لدن المؤلف (١)، فالزمني هذا بأن أكتب إليه، وبأن أتحدث عن قصيدته.. وهذا ما فعلته في خطاب طبع بعد ذلك دون أن أستشار في أمر نشره، كما سيرد فيما يلي:

فلقد ذهلت؛ إذ رأيت هذا المسكين يتخبط في حيرته - كما ينبغي أن يقال - إزاء الثروة والمجد، فيحمل في مرارة على محن الحياة وتعاساتها ويخلص إلى أن كل ما في الحياة شر وسوء؛ فتولتني رغبة رعناء في أن أرده إلى رشده، وأن أثبت له أن كل ما في الحياة خير وطيب. فالواقع أن "**فولتير**" - وإن بدا دائما مؤمنا بالله - لم يؤمن قط بغير الشيطان!.. إذ إن إلهه المزعوم لم يكن سوى كائن شرير، لا يجد لذة - في رأي "**فولتير**" - إلا في الأذى، وإذا كان سخف هذا الرأي واضحا إلا أنه مثير لصدوره - بوجه خاص - من رجل أثقل بالخيرات من كل نوع، فإذا به يسعى - من أحضان هنائه - لبث القنوط في نفوس أقرانه، بأن يصور لهم كل النكبات - التي كان هو بمنجى عنها - في صورة بشعة قاسية!.. ولما كنت أحق منه بأن أعدد مساوي الحياة الإنسانية وأن أزنها فقد استعرضتها في غير تحيز، وأثبت له أن الحكمة الإلهية براء من كل هذه المساوي، وأن هذه إنما تدين بأصولها إلى سوء استخدام الإنسان لمواهبه، أكثر منها إلى الطبيعة ذاتها، ولقد عاملته في هذا الخطاب بكل اعتبار، وكل مراعاة، وكل تلطف.. بل إني لأذهب إلى القول بأنني عاملته بكل احترام ممكن، ولما كنت أعرف مدى سهولة اهتياج حبه لنفسه فإنني لم أبعث بهذه الرسالة إليه شخصيا، وإنما أرسلتها إلى الدكتور "**ترونشان**" - طبيبه وصديقه - وخولته مطلق السلطان في أن يسلمها إليه أو أن يكتمها عنه، وفقا لما يراه مناسبا.. وقدم "**ترونشان**" الرسالة، فرد عليَّ "**فولتير**" ببضعة سطور أبدى فيها أنه كان مريضا، وساهرا على مريض؛ ومن ثم فإنه رأى أن يرجئ رده إلى وقت آخر.. ولم يقل شيئا في الموضوع؛ وإذ أرسل لي "**ترونشان**" هذا الخطاب أرفقه بآخر منه، أعرب فيه عن قلة تقدير للشخص الذي عهد به إليه!

ولم أقدم على نشر هذين الخطابين بل ولا على إطلاع أحد عليهما، فما أحببت قط عرض مثل هذه الأنواع من الانتصارات الصغيرة، بيد أن أصولها موجودة في أضابيري (الملف "أ" رقما ٢٠ و ٢١)، ولقد نشر "**فولتير**" - بعد ذلك - الرد الذي وعدني به، والذي لم يرسله إليّ قط.

وما هذا الرد سوى قصة "**كانديد**"، التي لا أملك أن أتحدث عنها؛ لأنني لم أقرأها!

*****

كانت كل هذه الشواغل خليقة بأن تبرئني تماما من غرامياتي.. ولعلها كانت وسيلة أرسلتها السماء إليَّ لتحول دون معقباتها المشؤومة. ولكن نجمي المنحوس كان في صعود، فما إن شرعت في الخروج ثانية - بعد شفائي - حتى عاد رأسي وقلبي وقدمي إلى عين الدروب السالفة وأقول "عين" في نطاق ضيق، وإذ إن آرائي كانت - في هذه المرة - أقل سموا وجموحا، فظلت على الأرض. ولكنها أحسنت اختيار نخبة من كل ما أمكنها العثور عليه من الأشياء المستحبة، فلم تكد هذه النخبة تقل في وهميتها عن العالم الوهمي الذي هجرته!

---

(١) كانت من قصائد "فولتير".

فلقد رسمت لنفسي الحب، والصداقة – وهما معبودا قلبي – في أبدع الأشكال الخلابة، وطاب لي أن أزينهما بكل ما كنت أعجب به دائما من مفاتن الجنس، ولقد ملت إلى تصورهما صديقتين، وليسا صديقين؛ لأن مثل هذا المثال من الصداقة – وإن كان نادرا – إلا أنه أكثر ملاءمة ولطفا في الوقت ذاته!..

وخلعت عليهما شخصيتين متجانستين وإن كانتا مختلفتين، ووجهين ليسا بالغي الكمال ولكنهما يلائمان مزاجي، يشعان رحمة وإحساسا، وجعلت إحداهما سمراء، والأخرى ناصعة البياض.. إحداهما كثيرة الحركة والمرح، والأخرى رقيقة هادئة.. إحداهما عاقلة حكيمة، والأخرى ضعيفة ولكنه ضعف يهفو بالأفئدة إلى الدرجة التي تمكن الفضيلة من الكسب بفضله!.. ووهبت إحداهما حبيبا كانت الأخرى صديقته الحنون.. بل وأكثر من ذلك. ولكنني لم أدع مجالا لتزاحم، أو خصام، أو غيرة؛ لأنه من العسير عليَّ أن أتصور المشاعر المؤلمة، ولم أشأ أن أشوه الصورة الفاتنة بشيء يحط من قدر الطبيعة؛ وإذ شغفت بالنموذجين الفاتنين تمثلتني – قدر الإمكان – العاشق والصديق.. بيد أنني جعلته مليحا وشابا، وخلعت عليه – فوق ذلك ما كنت أراه في نفسي من فضائل وعيوب.

ولكي أضع هاتين الشخصيتين في وسط يلائمهما رحت أستعرض – تباعا – أجمل البقاع التي رأيتها خلال أسفاري. ولكني لم أهتد إلى أحراش ذات بهجة كافية، ولا بلد كاف لتحريك العواطف، وفق ما كان يروق لي، ولقد كانت وديان "**تيسالي**" خليقة بأن ترضيني لو أنني كنت قد رأيتها. ولكن خيالي كان قد تعب من الابتكار، فرغب في بقعة حقيقية تصلح لأن تكون أساسا، ولأن توحي إليَّ بصورة عن حقيقة أولئك الذين كنت أزمع أن أسكنهم هذا المكان، ولقد فكرت طويلا في جزر "**بوروما**" (١) التي كان منظرها الساحر قد أطربني ولكني وجدت فيها من الوشي والزينة المصطنعة أكثر مما كنت أبغي لشخصياتي، ومع ذلك فقد كان لابد من بحيرة؛ فانتهيت إلى اختيار تلك التي لم يكن قلبي يكف عن التحويم حولها، واستقررت على ذلك الجزء من الشاطئ الذي كانت أمانيّ قد أقامت عليه مقامي منذ أمد بعيد، في السعادة الوهمية التي جعلني حظي أقتصر عليها.. فلقد ظل مسقط رأس "**ماما**" المسكينة ينطوي على سحر خاص بالنسبة لي، وأدى تباين المواقع، وتنوعها، وروعة، وجلال المنظر في مجموعها.. هذه الصفات التي تبهر الحواس، وتهز القلب، وتسمو بالروح، أدت إلى أن أقر الرأي، وأن أوطد مقام شخصياتي الشابة الحبيبة في "**فيفاي**".. كان هذا جماع ما تصورته إذ ذاك، أما الباقي فلم يضف إليه إلا فيما بعد.

ولقد قصرت نفسي على هذا المشروع المبهم المعالم زمنا طويلا؛ لأنه كان كافيا لأن يملأ خيالي بأطياف مستحبة، وفؤادي بعواطف كان يحب أت يتغذى عليها، ولم تلبث هذه التصورات أن اكتسبت – بحكم تكرر ترددها عليّ – قدرا كبيرا من الثبات؛ فوطدت نفسها في عقلي تحت شكل محدد؛ وإذ ذاك خطر لي أن أعبر على الورق عن بعض المواقف التي كانت توحي إليَّ بها، فاسترجعت كل مشاعر شبابي؛ لأتيح المجال – إلى مدى معين – للرغبة في الحب.. تلك الرغبة التي لم أستطع قط أن أشبعها، والتي كنت أشعر بأنها تلتهمني!

والقيت على الورق – في البداية – بضعة حروف متناثرة دون تسلسل أو ترابط، وكنت كلما حاولت أن أضم بعضها إلى بعض أجد نفسي في حيرة شديدة، الأمر الذي لا يكاد أن يبدو معقولا، وإن كان هو الحقيقة عينها – برغم ذلك – هو أن الجزءين الأولين كتبا بأسرهما – تقريبا – بهذه الطريقة دون أن يكون لدي خطة مكتملة التكوين بل ودون أن أتوقع أن أنساق يوما إلى أن أجعل

---

(١) في بحيرة "ماجيوري".

منهما عملا أدبيا منسقا؛ ومن ثم فسوف يرى أن هذين الجزءين المؤلفين - بعد وقت طويل - من مواد لم تكن مهيأة للمكان الذي وضعه فيه، مليئان بحشو من كلام مسهب ولكنه مقل في معناه، مما لا يوجد في الأجزاء الأخرى.

*****

وفي عنفوان تخيلاتي زارتني السيدة "**دوديتو**"، فكانت هذه أول زيارة تؤديها لي في حياتها، ولكنها - لسوء الطالع - لم تكن الأخيرة، كما سيبدو فيما بعد.. وكانت الكونتة "**دوديتو**" ابنة المرحوم السيد "**دي بليجارد**"، الناظر العام للزراعة، وأخت السيدة "**ديبيناي**" والسيدين "**دي لاليف**" و"**ديلا بريس**"، اللذين صارا من مقدمي السفراء (١)، ولقد ذكرت من قبل كيف تعرفت إليها قبل زواجها. ولكني لم أرها بعده إلا في الحفلات التي كانت تقام في "**لاشيفريت**"، وفي ضيافة أخت زوجها، السيدة "**ديبيناي**"؛ وإذ قدر لي أن أقضي عدة أيام معها، سواء في "**لاشيفريت**" أو في "**ايبيناي**"، فإنني لم أجدها مفرطة اللطف فحسب بل إنني خلت أنني رأيت منها ميلا نحوي، وكانت جد مشغوفة بالتريض معي على الأقدام، وقد كان كل منا قديرا على المشي، ولم يكن الحديث يفتر بيننا. بيد أنني لم أزرها قط في "**باريس**" بالرغم من أنها دعتني بل وألحفت عليّ في ذلك، ولقد زاد من اهتمامي بها علاقاتها مع السيد "**دي سان - لامبير**"، الذي كانت عرى الصداقة قد بدأت تتوثق بيني وبينه.. ومن أجل إبلاغي أنباء هذا الصديق كان مجيئها إلى "**ليرميتاج**".

ولقد بدت هذه الزيارة - إلى حد ما - كفاتحة قصة غرامية؛ ذلك لأنها ضلت الطريق - أثناء قدومها - إذ انحرف سائق عربتها عن الطريق عن منحنى فيها، وأراد أن يقتضب المسافة بأن يسعى في خط مستقيم بين الطاحون القائمة في "**كليرفو**" و"**ليرميتاج**". ولكن العربة غاصت في الوحل في قاع الوادي الصغير؛ فقررت السيدة أن تبرحها وأن تقطع ما بقي من الرحلة على قدميها. ولكن حذاءيها الرقيقين لم يلبثا أن ابتلا، ثم غاصت هي في الوحل، ولقي خدمها أشد العناء في تخليصها.. وقدر لها أن تصل أخيرا إلى "**ليرميتاج**"، وقد ارتدت حذاءي رجل، وسط رنين الضحكات التي مزجت بها ضحكاتي حين شهدت منظر الوصول!.. وكانت السيدة مضطرة إلى أن تغير جميع ثيابها. وقد تولت "**تيريز**" هذه المهمة بينما أقنعتها أنا بأن تطرح عنها كبرياءها، وأن تشاركنا وجبة "تصبيرة" ريفية، لم تلبث أن استمرأتها.

وكان الوقت قد فات، فلم تمكث سوى برهة وجيزة. بيد أن اللقاء كان مرحا، وقد راق لها، وبدا عليها الميل إلى أن تأتي مرة أخرى. ومع ذلك فإنها لم تحقق ذلك إلا في العام التالي. ولكن، واأسفاه.. إن هذا الإرجاء لم يعصمني في شيء!

*****

وقضيت خريف تلك السنة في عمل لا يخطر ببال أحد.. ذلك هو حراسة فواكه السيد "**ديبيناي**". فلقد كان خزان المياه التي تروي بساتين "**لاشيفريت**" يقوم عند مبنى "**ليرميتاج**"، وكانت ثمة حديقة محوطة بأسوار حجرية، وقد زرعت فيها أشجار متباينة، كانت تمد السيد "**ديبيناي**" بفواكه تفوق في كميتها إنتاج الحديقة الملحقة بمطابخ "**لاشيفريت**" برغم أن ثلاثة أرباعها

---

(١) مقدمو السفراء، كانوا موظفين يتولون تقديم السفراء والأمراء الأجانب عند زيارتهم الملك أو رئيس الدولة.

كان يسرق؛ ولكي لا أكون ضيفا عديم النفع، فإنني تكفلت بشؤون الحديقة، وبالإشراف على البستاني، وسار كل شيء على ما يرام، حتى حان موسم الفاكهة، فإذا بها تختفي تباعا – كلما نضجت – دون أن أدري ما كان يحل بها، وأكد لي البستاني أن جرذان الحقل التهمتها جميعا؛ ومن ثم فقد أعلنت الحرب على الجرذان حتى قضيت على كثير منها. ومع ذلك فقد ظلت الفاكهة في اختفاء، وأحكمت الرقابة حتى اكتشفت أخيرا أن البستاني نفسه كان الجرذ الأكبر.. فلقد كان يقيم في "**مونمورنسي**"، وكان يفد مع زوجته وأولاده في جنح الليل، فيحملون الكميات التي يكون قد أعدها – في النهار – من الفاكهة؛ ليعرضها الرجل للبيع في سوق "**باريس**" جهارا، وكأنه أوتي بستانا ملك يمينه!.. وكان هذا التعس الذي أغرقته بخيراتي، والذي كست "**تيريز**" أولاده، والذي أصبحت أعول أباه تقريبا، بعد أن كان يتسول.. هذا التعس كان يسرقنا نحن أيضا، بسهولة وقحة؛ وإذ لم يكن بيننا نحن الثلاثة من أوتي يقظة كافية لأن توقفه عند حده.. ولقد استطاع – في ليلة واحدة – أن يفرغ قبو مسكني؛ فإذا بي لا أعثر فيه على شيء في الصباح التالي!

ولقد كنت احتمل أعماله، عندما كان يبدو أنه يقصر نشاطه عليَّ وحدي.. أما وقد رغبت في تحمل مسؤولية الفاكهة فإنني اضطررت إلى أن أفضح السارق، ورجتني السيدة "**ديبيناي**" أن أنقده أجره، وأسرحه من الخدمة، وأبحث عن سواه. ففعلت.. ولما راح هذا الشقي يحوم حول "**ليرميتاج**" كل ليلة، متسلحا بقضيب حديدي ضخم، كان يبدو كالهراوة، ومتبوعا بأنذال آخرين من صنفه فقد رأيت لكي أطمئن "**الدادتين**" (١) اللتين أفزعهما هذا الرجل إلى أقصى حد أن أدعو خليفته لأن ينام في "**ليرميتاج**" كل ليلة. ولكن هذا لم يهدئ من روعهما؛ فطلبت من السيدة "**ديبيناي**" بندقية احتفظت بها في غرفة البستاني، مع تنبيهه إلى عدم استعمالها إلا عند الحاجة – عندما تبدر محاولة لاقتحام الباب أو تسور الحديقة – وألا يطلق في هذه الحال سوى البارود لمجرد إرهاب اللصوص، ولا مراء في أن هذا كان أقل احتياط يتخذ من أجل السلامة العامة لرجل معلول، يقضي الشتاء وسط الغابات وحيدا مع امرأتين رعديدتين، وحصلت أخيرا على كلب صغير ليستخدم في الحراسة.

وإذ جاء "**ديلبير**" لزيارتي في تلك الفترة، فقد رويت له قصتي، وضحكت معه من استعدادي العسكري. فلما عاد إلى "**باريس**" رغب في أن يضحك "**ديدرو**" بدوره.. ومن هنا علمت عصبة "**دولباخ**" أنني كنت أعتزم جادا أن أقضي الشتاء في "**ليرميتاج**"، فاسخطهم هذا الإصرار على عزمي؛ إذ لم يكن بوسعهم أن يتصوروه وعملوا • ريثما يرسمون بعض الحيل لكي يعكروا إقامتي (٢) – إلي الوقيعة، عن طريق "**ديدرو**"، بيني وبين "**ديلبير**"، الذي اعتبر احتياطيا – في البداية – مجرد أمر طبيعي، ولكنه لم يلبث أن انتهى إلى أنه أمر مناقض لمبادئي، وأسوأ من أن يستحق السخرية فحسب.. وصارحني بذلك في خطابات أغرقني فيها بنكات لاذعة، بلغ من لذعها أنها كانت تمس كرامتي لو أن مزاجي كان ميالا إلى هذا الاتجاه، ولكنني كنت مغرقا – إذ ذاك – في المشاعر الرقيقة، اللطيفة، فلم أشك في أي شيء آخر، واعتبرت سخرياته اللاذعة مجرد مداعبات للإضحاك، كما اعتبرت "**ديلبير**" مجرد ماجن، في حين أن أي امرىء غيري كان خليقا بأن يعتبره مخبولا! (٣).

---

(١) "الدادتان" هو الاسم الذي أطلقه أصدقاء "روسو" على "تيريز" وأمها. (٢) عقب "روسو" على هذه النقطة – بعد الفراغ من كتابة اعترافاته – بقوله: "إنني – في لحظتي هذه – أعجب من غبائي إذ لم أبصر – عندما كنت أكتب هذه السطور – أن الاستياء الذي استشعرته عصبة "دولباخ" – حين تبينت أنني كنت مزمع الإقامة في الريف – لم يكن راجعا إلا إلى أنهم لم يعودوا يجدون السيدة "لوفاسير" في متناول يدهم؛ لترشدهم في خططهم بأن تحدد لهم الأماكن والمواعيد، وهذه الفكرة – التي لم تتولني إلا أخيرا جدا – توضح تماما غرابة مسلكهم الذي يبدو غير واضح تحت أية افتراضات أخرى".. ولم يوجد هذا التعقيب في أية طبعة سابقة على سنة ١٨٠١ مما ينم عن أن هذه الفكرة واتته عندما لم تعد النسخة الثانية من المخطوطات في حوزته. (٣) أضاف "روسو" إلى هذه العبارة: "ومن ثم فإن الذين حرضوه، أضاعوا جهدهم سدى في هذه المناسبة. فقضيت الشتاء في هدوء بالغ!".

وبفضل اليقظة والعناية، افلحت تماما في حماية الحديقة التي درت ثلاثة أمثال ما درته من الفاكهة في العام السابق، برغم أن المحصول كان فاشلا – تقريبا – في هذه السنة. بل إنني رافقت الشحنات التي أرسلتها إلى "لاشيفريت" و"ايبيناي"، وحملت بنفسي بعض السلال، وإني لأذكر أنني و"**العمة**" (١) حملنا في إحدى المرات سلة بلغ من ثقلها أننا اضطررنا – لكي نتفادى التداعي تحت وطأة الحمل – إلى أن نستريح كل اثنتي عشرة خطوة.. ووصلنا – في النهاية – مبللين بالعرق!

سنة ١٧٥٧

عندما شرع فصل الطقس السيئ في إلزامي مسكني وددت أن أعاود مهامي التي تؤدى في البيت، ولكنني لم أجد إلى ذلك سبيلا؛ لأنني لم أعد أرى في كل مكان سوى الصديقتين الفاتنتين (٢)، وصديقهما، وما يحيط بهما، والبلد الذي يقيمان فيه، والأشياء التي خلقها خيالي أو هذبها من أجلهما، ولم أعد ملك نفسي لحظة واحدة، فإن هذا الحلم لم يعد يفارقني، وبعد جهود كثيرة – غير مجدية – لإقصاء هذه الرؤى الخيالية عني وجدتني أنساق لغوايتها، فلا أشغل منذ ذلك الحين إلا بمحاولة توفير شيء من النظام وشيء من التتابع فيها – لكي أجعل منها نوعا من القصص الخيالي.

وكان أعظم ما حيرني هو ذلك الخجل الذي ساورني؛ إذ شعرت بأنني أناقض نفسي صراحة وفي جرأة. أفبعد المبادىء الصارمة التي أرسيتها بكل هذا الضجيج، وبعد الآراء التقشفية التي رحت أبشر بها بكل هذه القوة، وبعد الحملات اللاذعة التي حملتها على الكتب الناعمة التي كانت تفوح بالحب والميوعة.. أفبعد كل هذا يكون ثمة ما هو أبعد عن الارتقاب، وأدعى للدهشة والاستنكار من أن أرى فجأة وقد انضويت – بمحض إرادتي – بين مؤلفي تلك الكتب التي انتقدتها بكل هذه القسوة؟!.. لقد أحسست بهذا التذبذب في عنفوان قوته، فرحت ألوم نفسي، وأستحيي منها، وأسخط عليها.. ولكن كل هذا لم يكن كافيا لأن يردني إلى حجاي.

وكان عليّ – في انصياعي التام – أن أخوض كل المخاطر، وأن أتهيأ لمواجهة ما يقال.. وأن أعد ذهني لكل شيء اللهم إلا أن أتعرض لأن أقرر – فيما بعد – ما إذا كنت أنشر كتابي على الناس أو لا أنشره؛ إذ إنني لم أكن أعتقد أنني قد أنشره!

وإذ انتهيت إلى هذا الرأي؛ ألقيت بكل نفسي في غمرة تصوراتي، وبفضل تقليبها في ذهني مرارا رسمت في النهاية مشروع الخطة التي شاهد الرأي العام الكتاب يخرجه بمقتضاها، ومن المحقق أن هذا كان خير ما يستمد من نزواتي.. فإن حب الخير – الذي لم يغادر قلبي البتة – حول هذه النزوات تحويلا طبيعيا نحو أهداف نافعة، كان من الممكن أن تغدو مثمرة وذات نفع خلقي. لقد كانت مناظري المستوحاة من الحب خليقة بأن تفقد بهاءها لو أعوزتها صبغة البراءة اللطيفة. إن الفتاة الضعيفة تكون موضع إشفاق، قد يجعله الحب مادة مشوقة لا تفتر متعتها في كثير من الأحيان. ولكن من ذا الذي يطيق – دون استنكار – منظر الآداب والأخلاق في إطار حديث؟.. أي شيء أدعى للتقزز من غرور الزوجة الخائنة، التي تدوس كل واجباتها تحت قدميها جهارا، ثم تزعم – برغم ذلك – أن زوجها خليق بأن يتقبل في عرفان عميق ما تمنحه من صنيع؛ إذ تتكرم فلا تدع نفسها تباغت وهي تمارس الخيانة؟!.. ليس للمخلوقات المثالية الكاملة وجود؛ ومن ثم فإن الدروس التي توحي بها جد بعيدة عن أن نستسيغها. أما إذا قدر لشابة، منحتها الطبيعة قلبا يزخر بالشرف بقدر ما هو مفعم

---

(١) العمة: لقب اعتاد "روسو" أن يطلقه على "تيريز". (٢) يقصد الشخصيتين اللتين ابتدعهما خياله.

بالحنان، أن تدع الحب يغلبها وهي فتاة عذراء، ثم تجد من نفسها القوة على أن تهزمه بدورها - وقد غدت امرأة ثيبا - لتغدو عفيفة من جديد..! إن الذي يقول لك إن هذه الصورة في مجموعها فاضحة، وغير مفيدة لكاذب ومنافق، فلا تصغ إليه، مهما يكن!

وكان لديّ إلى جانب الأخلاق والأمانة الزوجية - اللذين يرتبطان ارتباطا جوهريا بكل نظام اجتماعي - هدف أعمق وأكثر تواريا.. ذلك هو التوافق، والوئام العام.. وهو هدف أعظم من سابقه، وربما كان - في حد ذاته - أكثر قيمة وأهمية.. بل إنه كان كذلك في تلك الآونة حقا.. ولم تكن العاصفة التي أثارتها "الموسوعة" (١) قد خمدت بل إنها كانت - في هذه الفترة - في أوج احتدامها. فقد انطلق كل من الفريقين (٢) يهاجم الآخر في سعار جامح، وكأنهما قطيعان من ذئاب مسعورة، تأهب كل منهما لأن يمزق الآخر في هياجه.. لا فريقان من مسيحيين (٣) وفلاسفة تواقين لتبادل المعرفة والإقناع، كي يهدي كل منهما الآخر إلى طريق الحقيقة!.. بل إنه لمن الجائز أن يقال: إن كلا من الفريقين لم يكن ينقصه سوى قادة عاملين ذوي شهرة؛ كي ينقلب النزاع إلى حرب أهلية!.. ويعلم الله ما كان يترتب على حرب أهلية دينية، كانت أقسى ألوان التعصب تكمن في قرارة كل من الجانبين!

*****

ولما كنت بفطرتي عدوا لكل تحزب؛ فإنني أفضيت إلى كل من الجانبين بالحقائق المريرة التي أبوا أن ينصتوا إليها، وأنطت بنفسي مهمة أخرى تراءت لي - في سذاجتي - جديرة بالإعجاب. تلك هي أن أخفف من العداء المتبادل بين الفريقين، وأن أقوض أباطيلهما ونعراتهما، وأبين لكل كفاءة - الآخر وفضائله وجدارته بالتقدير العام وباحترام الجنس البشري بأسره (٤) ولقد ظفر هذا المشروع غير المعقول - الذي قادني إلى عين الخطأ الذي أخذته على الأب "**سان بيير**" - بالنجاح الذي كان يستحقه.. إذ إنه لم يقرب بين الفريقين، وإنما ألبهما معا ضدي!.. وإلى أن تكشفت لي حماقتي أقبلت عليها بكل حماس جدير بالحافز الذي ألهمنيها، كما ينبغي أن يقال، فرسمت شخصيتي "**فولمار**" و"**جولي**"، وأنا في نشوة حملتني على أن آمل في أن أجعلهما معا خليقين بالحب، وأن يتسنى ذلك عن طريق حب كل منهما للآخر!

وإذ ارتحت إلى رسم الهيكل البدائي لمشروعي؛ عدت إلى المواقف التي كنت قد عينتها للتوسع والتفصيل؛ فأدى النظام الذي رتبتها بمقتضاه إلى الجزءين الأولين من كتاب "**جولي**" الذي كتبته وفرغت من نسخه خلال شهور الشتاء - في غبطة لا سبيل إلى وصفها - مستعملا أبدع ورق مذهب الحواف، ومستخدما مسحوقا أزرق وفضيا لتجفيف مداد الكتابة، وشريطا أزرق لا مثيل له لربط صفحات كراساتي، وموجز القول إنني لم أضن بكل شيء أنيق وبديع على فتاتي الفاتنتين اللتين عشقتهما وكأنني "**بيجماليون**" آخر (٥). فكنت في كل مساء، أقرأ - إلى جانب مدفأتي - هذين الجزءين وأرددهما على سمع "**الدادتين**". فكانت الابنة تذرف معي الدمع حنانا، دون أن تنبس ببنت شفة أما الأم التي لم تجد فيما كنت أقرأ أية مجاملات - فإنها لم تفقه شيئا، فكانت تمكث ساكنة، مكتفية بأن تردد لي دائما في لحظات الصمت: "هذا بديع جدا ياسيدي"!

---

(١) أورد "روسو" ذكر "دائرة المعارف" أو "الموسوعة" (٢) يقصد أنصار المشروع ومعارضيه. (٣) يستعمل "روسو" كلمة "المسيحيين" هنا بمعنى المتمدينين، المتنورين. (٤) كان تنفيذ هذه المهمة يتمثل في إنتاج كتاب هو محور حديثه في هذه الفقرات.. وهو كتاب "جولي". (٥) "بيجماليون": ملك زعمت الأساطير الإغريقية أنه صنع تمثالا من عاج للمرأة - كما كان يراها - فإذا به يتدله في هوى التمثال، حتى بثت "أفروديت" الحياة في العاج؛ فانقلب التمثال أنثى تزوجها الملك الفنان.

وأقلق السيدة "**ديبيناي**" أن تعلم أنني كنت وحيدا – في الشتاء – وسط الغابات، وفي منزل منعزل، فراحت تكثر من إيفاد من يتسقطون أنبائي، وما تلقيت قط مثل هذه الشواهد الصادقة على مودتها لي، كما أن مشاعري لم تكن يوما أكثر حرارة مما كانت في مقابلة ودها، وإني لأذنب إذا أغفلت أن أذكر من هذه الشواهد أنها أرسلت إليّ صورتها، وسألتني أن آذن لها بالحصول على صورتي – بريشة "**لاتور**" – ثم عرضتها في قاعة جلوسها "صالونها" . كذلك ينبغي ألا أغفل لفتة أخرى من لفتاتها قد تبدو مضحكة ولكنها من معالم تاريخ شخصيتي، وذلك بفضل الأثر الذي أحدثته في نفسي. ففي ذات يوم، وقد اشتد تكاثف الصقيع، فضضت حزمة أرسلتها هي لي، وضمنتها عدة أشياء تكفلت بإعدادها لي، فوجدت بينها "جونلة" داخلية قصيرة، من "الفانيلا" الإنجليزية، ذكرت أنها اعتادت أن ترتديها، وأعربت عن رغبتها في أن أصنع منها صدارة، وكان أسلوب رسالتها ساحرا مليئا بالحنان والسذاجة، وبدا لي هذا الدليل على العناية – الذي كان يفوق كل ما تمليه الصداقة – بالغ الحنان، حتى لكأنها قد تعرت لكي تكسوني، وحتى إنني – في جيشان عواطفي – قبلت الرسالة و"الجونلة" عشرين مرة، وأنا أبكي! وظنت "**تيريز**" أنني قد اختبلت!.. ومن العجيب حقا أن شيئا من دلائل الود – التي أسبغتها عليَّ السيدة "**ديبيناي**" – لم يؤثر في نفسي قدر ما أثر هذا الدليل الذي ما اعتدت أن أتذكره دون أن تخفق مشاعري، حتى بعد القطيعة التي ضربت بيننا، وقد احتفظت برسالتها القصيرة أمدا طويلا، وكنت خليقا بأن أظل محتفظا بها لولا أنها لقيت مصيرها مع رسائلي الأخرى التي تمت إلى هذه الفترة (١).

ومع أن احتباس البول لم يدع لي نصيبا يذكر من الراحة في ذلك الشتاء، ومن أنني كنت أضطر – لفترة من الزمن – إلى استخدام المجسات.. مع ذلك فإن هذا الفصل كان أمتع الفصول التي قضيتها – منذ وصولي إلى "**فرنسا**" – وأكثرها هدوءا!.. ففي خلال الشهور الأربعة أو الخمسة التي ساعد سوء الطقس على زيادة اعتكافي وعزلتي عن الزائرين، استمرت هذه الحياة المستقلة، المسترسلة، البسيطة، كما لم استمرئها من قبل.. ولم يزدها الاستمراء – في نظري – إلا قيمة.. ولم يكن لي من أي أنيس سوى "**الدادتين**" – في عالم الحقيقة – وابنتي جنسهما، في عالم الفكر، وفي القرار الذي أوتيت من حسن الإدراك ما مكنني من اتخاذه، دون أن أحفل بصيحات أصدقائي.. الذين أغضبهم أن رأوني أفلت من تسلطهم (٢).. ولكم حمدت السماء عندما سمعت عن محاولة معتوه (٣) وحين حدثني "**ديلير**" والسيدة "**ديبيناي**" – في خطاباتهما – عن الاضطرابات والقلاقل التي سادت "**باريس**"؛ إذ كنت بمنأى عن مناظر الإرهاب والجريمة التي لم يكن لها من أثر سوى تغذية وشحذ المزاج الصفراوي الذي كان مرأى الاضطرابات العامة يثيره في نفسي.. في حين أنني لم أكن أرى نفسي – في هذه الفترة – محوطا بغير أطياف باسمة، وادعة، فكان فؤادي غير منساق لغير الأحاسيس المستحبة اللطيفة. إنني لأسجل هنا – في انتشاء – سير تلك اللحظات الوادعة التي كانت آخر ما أتيح لي أن أنعم به. فإن الربيع الذي أعقب هذا الشتاء الهادئ شهد تفتح بذور المصائب التي بقي عليَّ أن أصفها، والتي لن يقدر لامرىء أن يرى – خلال نسيجها – فترة تشبه هذه التي كنت

---

(١) نشرت هذه الرسالة في مذكرات السيدة "ديبيناي" وقد جاء بها: "أرسل إلى ناسكي هذه الأشياء للسيدتين "لوفاسير"، ولما كان الرسول الذي أستخدمه جديدا؛ فهاك بيان ما أرسلت معه".. وفي نهاية الأشياء قالت:

"وقطعة من "الفانيلا" الحريرية جد صالحة لها "أي السيدة "لوفاسير" لتصنع منها صدارة مناسبة لها، أو لك أنت، وعم صباح ياملك الدببة"!

.. ومن الواضح أن هذه الرسالة لا تستحق كل هذا الإسهاب الذي ذكرها به "روسو"، ولكن إيرادها في سياق ذكرياته – على هذا النحو – يدل على مدى تقديره لما كان أصدقاؤه يؤثرونه به من كرم وعطف، وعلى أن ما لقيه من بعض هؤلاء الأصدقاء لم يحمله على أن يجحد أفضالهم في أوقات الصفا! (٢) يقصد قرار النزوح عن "باريس" والاعتكاف في الريف. (٣) محاولة اغتيال الملك لويس الخامس عشر، في ٤ يناير سنة ١٧٥٧.

أستطيع أن أجد فيها متنفسا!

*****

ومع ذلك أراني أتذكر أنني – خلال هذه الفترة المطمئنة بل وفي أعماق عزلتي – لم أبق بمنجى تام من عصبة "**دولباخ**". فقد أثار "**ديدرو**" بعض مضايقات لي، وما لم أكن موغلا في الخطأ فإنني أظن أن "أبناء السفاح" – وهي القضية التي سأتحدث عنها توا – ظهرت في هذا الشتاء.

ولست بحاجة إلى أن أذكر عددا جد ضئيل من الوثائق التي يمكن الاستناد إليها فيما يتعلق بهذه الفترة.. بل إن الوثائق التي تركت لي منها، غير دقيقة التواريخ إلى حد كبير. فإن "**ديدرو**" لم يكن يثبت التاريخ على رسالة قط، وكذلك لم تكن السيدة "**ديبيناي**" والسيدة "**دوديتو**" تؤرخان خطاباتهما بغير ذكر اسم اليوم، وكان "**ديليير**" يحذو حذوهما في أكثر الأحيان. فلما أردت أن أرتب هذه الرسائل كان عليٌ أن أتحسس طريقي في الظلام لأحدس تواريخ لا يمكن الجزم بصحتها، ولا أملك أن أركن إليها؛ ومن ثم فإنني – إذ أعجز عن إثبات بداية هذه الفتن والخلافات بدقة – أوثر أن أروي فيما بعد – في قسم منفصل – كل ما أستطيع أن أذكره عنها.

ولقد ضاعفت عودة الربيع من شطحاتي العاطفية؛ فإذا بي في نوباتي الولهانة أصوغ – للجزءين الأخيرين من "**جولي**" – عدة خطابات تطفح بالنشوة التي كنت فيها وأنا أكتبها، وأستطيع أن أذكر الرسالة التي دارت حول جنة الوثنيين، والرسالة التي وصفت النزهة على ضفاف البحيرة، وهما اللتان – إذا صح ما أذكر – تختمان الجزء الرابع. فإذا قدر لأحد أن يقرأ هاتين الرسالتين دون أن يشعر بقلبه يلين ويذوب في نفس المشاعر التي أملتها عليٌ فخير له أن يغلق الكتاب؛ لأنه غير قدير على أن يعرف للأشياء العاطفية قيمتها!

وفي تلك الآونة بالذات، تلقيت زيارة ثانية – لم تكن مرتقبة – من السيدة "**دوديتو**". فلقد وفدت على "**أوبون**" – في وسط وادي "**مونمورنسي**" – في غياب زوجها الذي كان ضابطا في الشرطة، وعشيقها الذي كان كذلك في السلك العسكري.

وكانت قد اتخذت لإقامتها هناك بيتا بديعا للغاية، ومن هذا البيت جاءت في نزهة ثانية إلى "**ليرميتاج**"، وقد قامت بهذه الرحلة على صهوة جواد، وفي زي الرجال، ومع أنني لا أميل إلى مثل هذا الخلط في الأزياء إلا أنني أعجبت بما كان في تنكرها هذا من جو شاعري، خيالي، وكان شعوري في هذه المرة هو.. الحب! وإذ كانت هذه هي المرة الأولى – والوحيدة – في حياتي بأسرها، وقد تركت معقباتها أثرا على ذاكرتي طبع بقوة لا تجعله ينمحي، فلابد من أن أخوض هذه المسألة بشيء من التفصيل.

كانت السيدة الكونتيسة "**دوديتو**" تقترب من عامها الثلاثين، ولم تكن جميلة على الإطلاق؛ فقد ترك الجدري آثاره على وجهها، وكانت بشرتها تفتقد النعومة، كما أنها كانت قصيرة النظر، ذات عينين مستديرتين أكثر مما ينبغي.. بيد أنها أوتيت مع كل هذا إشراقة الشباب، وكانت قسماتها – التي جمعت بين الحيوية والرقة – جذابة، وكانت تمتلك فيضا من شعر أسود رائع، مجعد بطبيعته، ومنسدل حتى ركبتيها.. أما قوامها فكان صغيرا لطيفا، وكانت تودع كل حركاتها خفرا وبهاء في وقت واحد، وكان ذكاؤها عاديا ومقبولا للغاية، وقد اقترن فيه المرح وخلو البال والسذاجة أهنأ اقتران. فكانت تنساب في سيل من الدعابات الفاتنة التي لم تكن تتكلفها البتة، والتي كانت تنطلق بالرغم

منها أحيانا، وكانت على كثير من المواهب المستحبة، فكانت تتقن العزف على "البيانو"، وتجيد الرقص، وتقرض أشعارا بديعة للغاية. أما أخلاقها فكانت ملائكية، باطنها رقة النفس، وظاهرها الحكمة والقوة والجمع بين كل الفضائل.. وكانت – فوق كل هذا – أهلا للثقة في المعاشرة، وذات وفاء في الصحبة، إلى درجة أن أعداءها أنفسهم لم يكونوا بحاجة إلى أن يتستروا منها، وأقصد بأعدائها أولئك الذين، أو بالأحرى أولئك اللائي كن يكرهنها. أما من ناحيتها هي، فقد كانت ذات قلب لا يقوى على أن يكره أحدا، وأعتقد أن هذا التشابه في الطباع، قد ساعد كثيرا على إذكاء وجدي نحوها!

وما سمعتها قط – في الخلوات التي كانت تمتاز بأوثق مظاهر الود – تتحدث بسوء عن الغائبين بل ولا عن أخت زوجها!..

وما كانت تملك أن تخفي ما بفكرها عن أي مخلوق، ولا أن تكبح شيئا من مشاعرها، حتى إنني لأميل إلى الاعتقاد بأنها كانت تتحدث عن عشيقها إلى زوجها بنفس الصراحة التي كانت تتحدث بها عنه إلى أصدقائها ومعارفها وكل الناس على السواء!.. وأخيرا، فإن الذي يثبت – دون مراء – نقاء وإخلاص فطرتها الرائعة هو: أنها كانت تتعرض لأعجب نوبات شرود الذهن، ولأكثر نوبات السهو مدعاة للضحك، وكثيرا ما كانت هذه النوبات تفتقد الحكمة – بالنسبة لها هي بالذات – ولكنها لم تكن لتمس قط أي إنسان بما يجرح كرامته!

وكانت قد زفت – وهي بعد صغيرة، وبالرغم عنها – إلى الكونت "**دوديتو**" الذي كان ذا جاه، وكان عسكريا شهما ولكنه كان مقامرا، شرسا، يعوزه اللطف؛ فلم تحبه هي قط.. وإنما وجدت في السيد "**دي سان لامبير**" كل ما كان لدى زوجها من خصال طيبة، إلى جانب صفات أخرى أكثر ملاءمة.. فمن ذكاء، إلى فضائل، إلى مواهب، ولو جاز للمرء أن يغفر شيئا من طباع ذلك العهد فإنما الجدير بالغفران حقا هي العلاقة التي لا تزداد مع الزمن إلا صفاء، ولا تزيدها آثارها إلا تكريما وتمجيدا، ولا يدعمها سوى الاحترام والتقدير المتبادلين (١)!

وعلى قدر ما يخيل إليّ كانت قد صدرت في زيارتها لي عن قليل من ميلها الخاص، وكثير من الرغبة في إرضاء "**سان – لامبير**". فقد كان يستحثها على ذلك، وكان على صواب؛ إذ أعتقد أن الصداقة التي بدأت تقوم بيننا كانت خليقة بأن تجعل هذه الصحبة ملائمة مستحبة لثلاثتنا، وكانت تعلم أنني مطلع على علاقتهما؛ ومن ثم فإن في استطاعتها أن تتحدث إليّ عنه دون حرج كانت كفيلة بأن تجعلها ترتاح إلى صحبتي؛ ومن ثم جاءت.. واستقبلتها.. وكنت نشوان بحب غير ذي هدف منظور، فإذا النشوة تسحر عيني، وإذا الهدف يتركز عليها هي. فرأيت "**جـولي**" – التي ابتدعتها – في السيدة "**دوديتو**".. ولم أعد – بعد قليل – أرى سوى السيدة **دوديتو** فقط، وقد اكتست بكل أسباب الكمال التي كنت أزين بها معبودة قلبي!.. ولكي تسكرني تماما، راحت تحدثني عن "**سان – لامبير**" في وجد مشبوب.. فيالسلطان الهوى المضيع!.. لقد استولت عليّ – إذ كنت أسمعها، وإذ كنت أشعر بالقرب منها – قشعريرة عذبة لم أعهدها قط في قرب أي شخص!..

---

(١) توفيت هذه السيدة وهي في الثالثة والثمانين من عمرها، وقد ظلت إلى آخر حياتها محتفظة بطيبة نفسها، واحترام عواطفها وخيالها، وميلها إلى اللهو والمسرات الذهنية، وكانت ذات براعة في قرض الشعر، وقد قالت في قصيدة ودعت بها عشيقها "سان – لامبير"، قبل رحيله للخدمة العسكرية:

"الحبيب الذي أعبده.. وقد تأهب لفراقي
"بقيت له لحظة.. فأراد أن يستغلها".
"يالها من متعة باطلة.. يشتهي اقتناصها.
"وما أشد الضنى.. ليصبح المرء لذة!".

وراحت تتكلم، وأنا نهب للانفعالات.. ووهمت أنني لم أكن مهتما بغير مشاعرها، فإذا بي أحس بمشاعر على شاكلتها.. ورحت أجرع – في دفعات كبيرة – الكاس المسمومة التي لم أعد أتذوق فيها سوى الحلاوة العذبة!.. وفي النهاية، بعثت في نفسي نحوها – دون أن أفطن، ودون أن تفطن هي – كل ما عبرت عنه من مشاعرها نحو حبيبها. واحسرتاه!.. كان الوقت المناسب قد فات، وكان من القسوة أن أحترق بوجد مشبوب – لم يكن في عنفه بأقل منه في تعاسته وشقوته – نحو امرأة كان قلبها مليئا بحب آخر!

وبالرغم من الانفعالات الغريبة التي خامرتني في قربها فإنني لم أفطن – في البداية – إلى ما أصابني.. ولم يكن ذلك إلا بعد رحيلها، وعندما أردت أن أفكر في "**جولي**" فإذا بي أبهت؛ إذ وجدت أنني لم أعد أقوى على التفكير في غير السيدة "**دوديتو**"؛ وإذ ذاك انجابت الحجب عن عيني، وأحسست بسوء حظي؛ فرحت أئن وأتأوه.. ولكنني لم أحدس ما كان هناك من نتائج!

ولقد ترددت طويلا بصدد الطريقة التي أنتهجها في تصرفي نحوها، وكأنما كان الحب الحقيقي قد خلف من العقل ما يكفي لكي أتخير لنفسي المسلك!.. ولم أكن قد انتهيت إلى قرار عندما جاءت مرة أخرى؛ ففاجأتني على غير استعداد.

وفي هذه المرة أيقنت من موقفي، فإذا الحياء – قرين السوء – يعقل لساني؛ فرحت أرتجف أمامها، دون أن أجرؤ على أن أفتح فمي، أو أن أرفع عيني.. كنت في اضطراب لا سبيل إلى وصفه، حتى لقد كان من المستحيل ألا تكون قد أبصرته، واعتزمت أن أصارحها، وأن أدعها تحدس السبب.. فقد كنت بهذا كأنني أبوح لها بصراحة تامة!

ولو أنني كنت شابا ومليحا، وكانت السيدة "**دوديتو**" قد أبدت ضعفا– من جراء هذا – لأقدمت هنا على لوم مسلكها.

ولكن شيئا من هذا لم يكن، ولم أكن أملك سوى أن أطري مسلكها وأعجب به!.. وكان الرأي الذي اتخذته يجمع بين الكرم والحكمة. فما كان بوسعها أن تنأى عني فجأة، دون أن تذكر السبب لـ"**سان لامبير**"، الذي أوصاها – بنفسه – بأن تزورني.. ومعنى هذا، تعريض صديقين للقطيعة، وقد يترتب عليه فضيحة كانت راغبة في تفاديها!. وكانت تكن لي كل تقدير، وكل خير. ولقد رثت لخبلي، وراحت تلتمس له المعاذير – في غير تملق ولا رياء – وحاولت أن تبرئني منه.. ولقد كان يسرها – كل السرور – أن تتمكن من الإبقاء – لنفسها ولحبيبها – على صديق كانت تقدره حق قدره، ولم تحدثني عن شيء بمثل الاغتباط الذي راحت تحدثني به عن الود ولطف المعاشرة اللذين نستطيع أن نوثقهما بيننا، نحن الثلاثة، عندما أعود إلى رشدي.. على أنها لم تقتصر تماما على هذه المواساة الودية، ولم تعفني – عند الحاجة – من تأنيبات كانت أقسى مما كنت أستحق!

*****

ولم أكن أقل منها قسوة في تأنيب نفسي!.. فما إن أصبحت وحيدا حتى عدت إلى نفسي، وإذا بي أكثر هدوءا، بعد أن بحت بما كنت أكتم.. فإن الحب إذا ما عرف لتلك التي أوحت به يغدو أكثر احتمالا!.. ولابد أن الشدة التي رحت ألوم بها نفسي على الحب الذي استشعرته كانت كفيلة بأن تبرئني منه، لو أن هذا كان ميسورا!.. أية حوافز قوية لم أستنجد بها لخنق هذا الحب؟!.. إن قوانيني الخلقية، وأحاسيسي، ومبادئي، وحيائي، وخيانة العهد، والإجرام، وإساءة استغلال الوديعة التي

ائتمنت عليها بحكم الصداقة، والسخرية التي كان يستوجبها تحرقي – في مثل هذه السن – بأشد الصبابات جموحا، نحو هدف لم يردعني انشغال قلبه، ولا سمح لي بأي رجاء.. صبابة كانت – فوق كل هذا – بعيدة عن أن تمتاز بما يكفل لها الدوام، بل إنها راحت تتجاوز حد الاحتمال يوما بعد يوم.. كل هذه الأمور والاعتبارات فكرت فيها!

من ذا الذي يصدق أن الاعتبار الأخير الذي كان كفيلا بأن يرجح كفة الاعتبارات الأخرى، كان هو الذي أوهن قوتها جميعا؟!.. فلقد قلت لنفسي: "أية هواجس أحفل بها إزاء نزوة حمقاء، لا يتعذب بها سواي؟".. أفانا مغازل شاب يحق للسيدة "**دوديتو**" أن تخشاني؟.. ألن يقال – على ضوء ما كانت توحيه إليّ نزعات الغرور – أن تظرفي، ومسلكي، ومظهري قد أغويتها؟.. إذن، فاحبب ما شاء لك الهوى، يا "**چان چاك**" البائس.. أحبب وأنت مرتاح الضمير، ولا تخش أن يزعج زفراتك "**سان – لامبير**"!

ولقد أصبح من الواضح أنني لم أكن يوما مقداما على نشدان النفع الذاتي، واستغلال الفرص حتى في صباي، وكان هذا المذهب في التفكير يتسق مع اتجاه ذهني؛ فكان يمتدح صبابتي ويزينها؛ مما سهل عليّ الاستسلام لها في غير تحفظ، بل والضحك من الهواجس الوقحة التي خلت – عن غرور، وليس عن تعقل – أنني أوحيت بها!.. فياله من درس جليل للنفوس الشريفة، التي لا تهاجمها الرذيلة جهارا قط ولكنها تتحايل على مباغتتها، وهي تتوارى دائما وراء ستار من الزهد.. أو من الفضيلة غالبا!

كنت مذنبا دون ندم ولكنني سرعان ما أصبحت مذنبا دون حد.. وأناشدكم أن تروا كيف سارت صبابتي في أعقاب طبيعتي، لتجرني في النهاية إلى الهاوية!.. لقد اتخذت هذه الصبابة – في البداية – مظهر التواضع؛ لكي تطمئنني.. ثم دفعت هذا التواضع إلى أن انقلب تحديا؛ لكي تحفزني!.. ومع أن السيدة "**دوديتو**" لم تكف عن تذكيري بواجبي، وعن محاولة ردي إلى حجاي.. ومع أنها لم ترض لحظة عن حماقتي إلا أنها – ظلت عدا ذلك – تعاملني بأعظم قدر من اللطف، وراحت تبدي نحوي أرق مظاهر الود، وإني لأعترف بأن هذا الود ما كان ليكفيني لو أنني آمنت بأنه كان صادقا، غير أنني ألفيته أشد تحمسا من أن يكون صادقا؛ فمضيت قدما في الإيعاز إلى نفسي بأن الحب – الذي لم يعد منذ ذلك الحين ملائما لسني ولا لشكلي – قد حقرني في نظر السيدة "**دوديتو**"، وأن هذه الشابة النزقة لم تكن تبغي سوى أن تتخذ مني ومن عواطفي – التي لم تكن تلائم سني – مادة للتسلية، وأنها قد صارحت "**سان – لامبير**" بذلك، فإذا استنكاره لعدم وفائي يحمله على أن يرى فيّ ما كانت تراه حبيبته، وإذا بينهما اتفاق للعبث بي والضحك مني!.. هذا الوهم الذي حملني – عندما كنت في السادسة والعشرين من عمري – على أن أتمادى مع السيدة "**دي لارناج**" – دون أن أكون على تعارف بها – لم يكن مما يغتفر في سن الخامسة والأربعين، ومع السيدة "**دوديتو**" لو أنني تجاهلت أنها وحبيبها كانا أكرم من أن ينغمسا في مثل هذه الملهاة القاسية!

وواصلت السيدة "**دوديتو**" أداء زيارات لي لم أكن لأتوانى عن ردها؛ فلقد كانت مثلي، تحب التريض على الأقدام؛ فكنا نقوم بنزهات طويلة في منطقة من الريف فاتنة، وبما أنني قنعت بأن أحب، وبأن أجرؤ على الإفضاء بحبي فقد كان خليقا بي أن أغتبط بأنني في أهنأ وضع لو لم يفسد تهوري كل فتنة. ذلك أنها لم تفهم – في البداية – شيئا من النزق الذي كنت أتقبل به ملاطفاتها، ولكن قلبي العاجز دواما عن أن يتعلم كيف يخفي ما بداخله لم يدعها طويلا في جهل بما كان يساورني،

ولقد حاولت أن تحمل شكوكي ومخاوفي على محمل الدعابة ولكنها أخفقت في هذه المحاولة التي لم تؤد إلا إلى نوبات من الغضب المحتدم؛ ومن ثم فإنها غيرت مسلكها، ومع أن رقتها الناعمة لم تتزعزع إلا أنها راحت توجه إليَّ من التأنيب ما كان يخترم قلبي.. وأطلعتني – في مقابل مخاوفي الظالمة – على قلق رحت أعيبه.. وطالبتها بدليل على أنها لم تكن تهزأ بي فلم تجد من وسيلة – لكي تطمئنني – سوى عين الشيء الذي كنت أنشده!.. ورحت ألح!.. وكان الموضوع دقيقا، شائكا!.. ومن العجيب – بل لعله من المصادفات الفذة – أن تتمكن امرأة جرؤت على التمادي إلى حد المساومة من أن تخرج من المأزق بسلام.. فإنها لم تأب عليَّ شيئا مما يستطيع أرق الود أن يكفله.. ولكنها لم تمنحني شيئا مما كان يحتمل أن يرديها في حمأة الخيانة!.. وقدر لي أن أرى– في ذلة وهوان – أن النيران التي كان أتفه صنيع من ناحيتها يؤججها في فؤادي لم تشعل في قلبها أضأل شرارة!

ولقد قلت – في مكان ما (١) –: إن على المرء ألا يتيح للشهوات شيئا على الإطلاق إذا هو رغب في أن ينكر عليها بعض الأشياء!.. ولتبين مدى إخفاق هذا الرأي في قصتي مع السيدة "**دوديتو**"، ومدى حكمتها هي وسداد رأيها في الاعتماد على نفسها يجب أن أصف بإسهاب خلواتنا الطويلة، العديدة، وأن أبين كل ما كان يصحبها من انفعالات وفورات خلال الشهور الأربعة التي قضيناها معا في ود لا يكاد يكون له مثيل بين صديقين من جنسين مختلفين، اقتصرا على حدود معينة لم يتجاوزاها البتة. آه!.. إذا كنت قد تأخرت طويلا قبل أن أشعر بالحب الحقيقي، فما أفدح الثمن الذي دفعه قلبي وحواسي!.. ويا للانفعالات التي لابد للمرء من أن يستشعرها بالقرب من شخص حبيب، يحبنا، إذا قدر للهوى الذي لا يلقى جزاء أن يوحي بنظير له!

ولكنني أخطىء إذ أقول "حبا بدون جزاء"؛ فإن حبي كان يحظى بمقابل إلى حد ما.. كان حبا متعادلا لدى الطرفين وإن لم يكن متبادلا بينهما.. كان كلانا نشوان بالهوى: هواها لحبيبها، وهواي لها!.. وكانت زفراتنا ودموعنا المتسربة تختلط معا، وكانت نجوانا، واعترافاتنا، ومشاعرنا مترابطة أوثق ترابط حتى لقد كان من المستحيل ألا تتحد عند أمر من الأمور!.. ومع ذلك فإن السيدة "**دوديتو**" لم تكن تنسى نفسها لحظة واحدة، في غمرة النشوة الخطرة.. أما أنا فأعترف – بل أقسم – إنني إذا كنت قد حاولت في بعض الأحيان، أن أحملها على الخيانة، مدفوعا بمشاعري الشهوية إلا أنني لم أكن أصدر في ذلك عن شهوة حقيقية قط!.. كان استعار وجدي يبقي هذا الوجد في نطاقه، من تلقاء ذاته!.. ذلك؛ لأن واجب إنكار الذات بهر روحي، كما أن رواء الفضائل جميعها زاد معبود قلبي بهاء في عيني، فكان في تدنيس طيفه القدسي قضاء مبرما عليه، ولقد كنت خليقا بأن ارتكب هذا الجرم؛ إذ إنه ارتكب في فؤادي مائة مرة، ولكن.. كيف كنت أجرؤ على أن أهين حبيبتي "**صوفي**"؟!.. أفكان هذا من المحتمل يوما؟!.. لا، لا! هكذا رحت أؤكد لها – في نفسي وفؤادي – مائة مرة.. ولو أنني ملكت يوما أن أرضي نفسي، ولو أن الحبيبة أسلمتني نفسها طواعية، وعن طيب خاطر لكان جديرا بي أن أرفض السعادة بهذا الثمن. لقد كنت أحبها حبا أقوى من أن أطمع في وصالها!

*****

إن المسافة بين "**ليرميتاج**" و"**أوبون**" تقرب من فرسخ، وقد قدر لي أحيانا – في رحلاتي العديدة

(١) ورد هذا القول في الجزء الثالث من كتابه "هيلويز الجديدة" في سياق الرسالة الثامنة عشرة..

إلى "**أوبون**" – أن أقضي ليلي هناك، وفي إحدى الليالي – بعد أن تناولنا العشاء على انفراد – شرعنا في التريض في الحديقة، في غمرة ضوء كان ثمة حرش واسع النطاق، سعينا فيه إلى روضة جميلة يزينها مسقط مائي – كنت أنا صاحب الفكرة في إقامته – وكانت السيدة "**دوديتو**" هي التي تولت إنشاءه.. يا له من تذكار خالد للبراءة والغبطة!.. وفي هذه الروضة جلست وإياها على أريكة من الحشائش، تحت خميلة محملة بالزهور.. وبحثت – في سبيل التعبير عن مشاعر قلبي – عن لغة تليق بهذه المشاعر، وكانت هذه أول مرة – بل المرة الوحيدة في حياتي – التي سموت فيها عاليا بمشاعري إذا جاز إطلاق هذا الوصف على الفتنة الوادعة، المغرية، التي يوحي بها إلى قلب الرجل أرق ألوان الحب وأقواها. يا للدموع النشوى التي سكبتها على ركبتيها!.. ويا للدموع التي استدرتها إياها على الرغم منها!.. وأخيرا صاحت في انفعال لا إرادي: "لا!.. لم يوجد بين الرجال عاشق بهذه الدرجة قط.. وأبدا لم يحب عاشق بهذا الوجد!.. ولكن صديقك "**سان – لامبير**" يسمع إلينا، وما كان لقلبي أن يحب مرتين!".. ولم أخرج عن الصوت إلا بالزفرات، واحتضنتها.. وأي عناق!

ولكن هذا كان جل ما في الأمر!.. وكانت قد قضت ستة أشهر وحيدة، أعني بمنأى عن عشيقها وعن زوجها.. وكنت قد ظللت – لثلاثة أشهر – أراها في كل يوم تقريبا، وكان الحب ثالثنا على الدوام!. ولقد تعيشنا على انفراد.. وكنا وحيدين في خميلة، تحت ضوء القمر الزاهي.. وبعد ساعتين من أرق وأبدع حديث، غادرت – في منتصف الليل – هذه الخميلة، وأحضان صديقها(١).. وهي لم تمس بدنس، لاتزال طاهرة الجسد والقلب، كما أقبلت في البداية..

الا تدبر كل هذه الظروف يا قارئي فلن أضيف مزيدا قط!

ومن ذا الذي لا يستطيع أن يتصور أن أحاسيسي تركتني دون إزعاج – في هذه المناسبة – كما اعتادت أن تفعل من قبل إزاء "**تيريز**" و"**ماما**". ولقد قلت من قبل إن ما خامرني في هذه المرة، هو الحب.. الحب في جماع قواه وفي عنفوان جيشانه!.. ولن أصف هياجي، ولا ارتجافي، ولا خفقان فؤادي، ولا اختلاجاتي المتشنجة، ولا ضعف القلب الذي كنت أستشعره باستمرار، فمن الميسور إدراكها من التأثر الذي كان طيفها وحده يحدثه في نفسي!

فقد ذكرت أن "**ليرميتاج**" كان بعيدا عن "**أوبون**"، وكنت أمر في طريقي بتلال "**انديللي**" البديعة، وفيما كنت أسير إلى "**أوبون**" رحت أحلم بتلك التي كنت أسعى إلى زيارتها، وباللقاء الناعم، وبالقبلة التي تنتظرني عند وصولي. هذه القبلة الوحيدة، هذه القبلة الخطرة، ألهبت دمي – حتى قبل أن أتلقاها – بدرجة جعلتني أشعر بالدوار، وبأن ستارا قد هبط على بصري فاعماني.. واهتزت ركبتاي فلم تعودا تقويان على حملي.. ووجدتني مضطرا إلى التوقف عن السير، بل وإلى الجلوس.. فبإن كل كياني اضطرب، دونما مبرر واضح.. وكدت أروح في إغماءة!.. وإذ فطنت إلى الخطر؛ رحت أحاول – حين عاودت السير ثانية – أن أشغل بالي بتفكير آخر.. على أنني لم أكد أقطع عشرين خطوة حتى عاودتني نفس الرؤى وما ترتب عليها في هجوم لم أجد في هدفي دونما ضرر لو لم أجاهد كي أطيقها!

ووصلت إلى "**أوبون**" واهن القوى، مرهقا، منهوكا، لا أكاد أستوي معتدل القامة، وما إن رأيتها – أي السيدة "**دوديتو**" – حتى ارتدت إليّ، قواي، ولم أعد أشعر بالقرب منها إلا بتدفق قوى لا تنضب، ولا نفع لها أبدا!.. وكان في طريقي، وعلى مشرف من "**أوبون**" طريق مرصوفة لا بأس بها يطلق عليها اسم "**مونت أوليمب**" اعتدنا أن نلتقي عندها أحيانا، وقد أقبل كل من ناحيته، وكنت

---

(١) يقصد نفسه طبعا!.. ولا تزال الروضة، والخميلة، والمسقط المائي والدار ذاتها باقية في "أوبون"..

الأسبق إلى الوصول؛ فكان عليَّ أن أنتظر ولكن ما أغلى ما كان هذا الانتظار يكبدنيه!.. ولكي أشغل بالي؛ حاولت أن أكتب بقلمي الرصاص بعض مذكرات كانت جديرة بأن تكتب بأطهر ما لدي من دم.. وما قدر لي قط أن أتم واحدة تكون مقروءة، وعندما كانت هي تجد إحداها في الكوة التي اتفقنا على إيداع الرسائل فيها لم تكن تطالع فيها سوى الحال الذهنية المتداعية التي كنت فيه عند كتابتها.. ولقد أدت هذه الحال – لا سيما بقاؤها طيلة ثلاثة أشهر من الانفعال والكبت – إلى إرهاقي، حتى إنني لم أبل منها لعدة سنوات، وانتهت بأن خلفت لي هبوطا سأحمله معي، أو يحملني معه إلى القبر، وكانت هذه هي الغبطة الغرامية الوحيدة للرجل الذي أوتي أشد الأمزجة – التي أنجبتها الطبيعة – تأججا، وأعظمها تهيبا وخجلا، في آن واحد.. كما كانت هذه آخر الأيام الجميلة التي احتسبتها على الأرض.. فمنذ ذلك الحين بدأ نسيج محن حياتي ومصائبها... النسيج الطويل الذي سيرى أنه غير متقطع!

*****

ولقد تبدى – خلال مجرى حياتي بأسره – أن قلبي شفاف كالبلور، فلم يتعلم أن يكتم قط – لدقيقة واحدة – أية عاطفة على شيء من الاحتدام لاذت به؛ ومن ثم ففي الوسع إدراك المدى الذي كان في طاقتي أن أذهب إليه في كتمان حبي للسيدة "**دوديتو**".. كان ودنا جليا لكل عين، فلم نحطه بشيء من الكتمان ولا الغموض؛ إذ إن طبيعته لم تكن من نوع يحتاج إلى ذلك.. وكما كانت السيدة "**دوديتو**" تكن لي أرق ود – دون أن تجد أي حرج أو تثريب – فإنني كنت أحس نحوها بتقدير ما كان سواي ليدرك – مدى عدالته وصحته؛ ومن ثم فإننا كنا في طمأنينتنا الغرور نتيح فرصا للنيل منا أكثر مما كنا نفعل لو أننا كنا مذنبين. هي بصراحتها، وتشتت بالها، وعدم اكتراثها بالتفكير. وأنا بصدق عاطفتي، وتهيبي وخجلي، وغروري، ونفاد صبري، وفوراتي العاطفية.. فكنا نذهب معا إلى "**لاشيفريت**"، أو نلتقي هناك على موعد – في كثير من الأحيان – أو دون موعد – في بعض الأحيان – وكنا نواصل هناك ما ألفنا من حياة، فنتمشى معا وحيدين يوميا – ونحن نتبادل الحديث عن هوانا، وواجباتنا، وصديقنا، وخططنا البريئة – في المتنزه المواجه لجناح السيدة "**ديبيناي**"، وتحت نوافذها التي كانت ترقبنا منها، وترانا بعيني قلبها بغِل دافق من نبع الغضب للكرامة؛ إذ كانت تخال في ألفتنا إهمالا لها وازدراء بها!

ولقد أوتيت النساء براعة في إخفاء غضبهن، لا سيما إذا كان هذا الغضب عارما، قويا.. وقد أحرزت السيدة "**ديبيناي**" – التي كانت واسعة العقل والحيلة – برغم عنفها، قدرا كبيرا من هذه البراعة؛ لذلك فقد راحت تتظاهر بأنها لم تكن ترى شيئا أو ترتاب في شيء، وبينما أخذت تضاعف اهتمامها بي ورعايتها إياي – إلى حد المضايقة – راحت تحير أخت زوجها بخشونة مسلكها، وجفاء معاملتها، وتعريضاتها المهينة التي بدا أنها كانت تحاول أن توحي بها إليَّ، وتبثها في نفسي أنا الآخر، ومن السهل إدراك أنها لم توفق ولكنني كنت حائرا معذبا. كنت نهبا لمشاعر متعارضة، ففي الوقت الذي كان فيه عطف السيدة "**ديبيناي**" ولطفها يؤثران في نفسي كنت أجد عناء في كبح سخطي؛ إذ أرى تضاؤل احترامها للسيدة "**دوديتو**"، ولقد استطاعت الأخيرة أن تحتمل ذلك دون تذمر – بل ودون ضغينة – بفضل ما أوتيته من طباع ملائكية. كما أنها كثيرا ما كانت شاردة البال، لا تكاد تحس ما حولها حتى إنها لم تكن تلاحظ ما كان يجري!

وكنت مستغرقا في وجدي حتى إنني لم أكن أبصر سوى "**صــوفي**" - وقد كان هذا من أسماء "**دوديتــو**" - فلم أفطن إلى شيء، بل ولا إلى أنني أصبحت حديث أهل القصر جميعا والزائرين!.. وقد كان البارون "**دولباخ**" - الذي لم يزر "**لاشيفريت**" من قبل على ما أعلم - بين هؤلاء الأخيرين.

ولو أنني كنت من التريث بالدرجة التي صرت إليها فيما بعد لشككت كل الشك في أن السيدة "**ديبــيناي**" دبرت عمدا هذه الزيارة؛ لتتيح له فرصة الاستمتاع بمشاهدة المناظر المسلية مناظر المواطن العاشق!

على أنني كنت من الغباء بحيث لم أر ما كان واضحا متألقا لكل مخلوق، ومع ذلك فإن غبائي كله لم يحل بيني وبين أن أرى أن "**البــارون**" كان أكثر اغتباطا وانشراحا من عادته، وبدلا من أن يتجهم في وجهي أغرقني بسيل من الدعابات التي لم أفقه منها شيئا، وحملقت إليه - دون أن أجيب - واضطرت السيدة "**ديبيناي**" إلى أن تمسك جنبيها لتحد من ضحكها، ولكني لم أستطع أن أدري شيئا من حقيقة أمرهما!.. ولما لم يكن مزاحهما قد تجاوز الحدود؛ لذلك فقد كان خير ما أفعله - لو أنني فهمت كنهه - هو أن أدلي فيه بدلوي ولكن الواقع هو أنه كان من السهل أن يلمح المرء في عيني "**البــارون**" - خلال مرحه الساخر - وميضا من طرب مغيظ، كان من المحتمل أن يثير قلقي لو أنني انتبهت إليه إذ ذاك كما انتبهت فيما بعد، حين استرجعته في ذهني.

وحدث أن ذهبت لزيارة السيدة "**دوديتــو**" فــي "**أوبــون**" - يوما - عقب عودتها من إحدى رحلاتها إلى "**باريس**"؛ فوجدتها واجمة، ولاحظت أنها كانت تبكي قبل وصولي، واضطررت إلى أن أتمالك نفسي؛ إذ كانت السيدة "**دوبلينفــي**" - "أخت زوجها" - حاضرة ولكنني ما كدت أخلو إليها لحظة حتى أفضيت إليها بقلقي؛ فقالت وهي تتنهد: "آه!.. لشد ما أخشى أن تجردني نزواتك من كل طمأنينة وراحة بال، طيلة ما تبقى من حياتي!.. لقد نقل إلى "**سان - لامبير**" أمرنا، بأسلوب محرف، وإنه لينصفني ولكنه مستاء.. والأنكى من هذا أنه لا يصارحني بكل شيء.. على أنني - لحسن الحظ - لم أتكتم أمر صداقتنا التي نشأت تحت رعايته.. فقد كانت خطاباتي - كقلبي - مليئة به، ولم أخف عنه شيئا سوى حبك الأرعن الذي كنت آمل أن أبرئك منه، والذي أستطيع أن أتبين أنه يراه جرما من ناحيتي، وإن لم يذكر لي ذلك. لقد أساء إلينا شخص ما، وظلمني، ولكن.. لا بأس، وعلينا أن نفصم تعارفنا، أو ليكن مسلكك كما ينبغي ويليق؛ فلست راغبة في أن أكتم شيئا - بعد الآن - عن حبيبي!".

وكانت هذه هي أول لحظة أدركت فيها عار رؤية نفسي مهينا؛ إذ فطنت إلى إساءتي إزاء شابة أحسست بأنها كانت محقة في لومها، وكان خليقا بي أن أكون راعيا لها وناصحا، وكان السخط الذي بعثه هذا في نفسي كفيلا بأن يجعلني من القوة بحيث أستطيع أن أغالب ضعفي، لولا أن الإشفاق الحنون - الذي أثارته في نفسي ضحية هذا الضعف - طغى على قلبي. فواأسفاه!.. أفكانت هذه لحظة أملك فيها أن أبث في قلبي صلابة، وهو زاخر بالدموع التي كانت تنساب إليه من كل ناحية؟!.. وما لبث هذا الحنان أن انقلب إلى غضب على وشاة السوء الذين لم يروا من شعور خاطىء، - ولكنه غير إرادي - سوى جانبه الآثم.. دون أن يعتقدوا - بل دون أن يحدسوا - ما كان لهذا القلب الذي نبض به من إخلاص شريف!

*****

ولم نبق طويلا في ريب من اليد التي وجهت هذه الصفعة! كنا نعرف- معا - أن السيدة "**ديبيناي**" كانت تكاتب "**سان - لامبير**". ولم تكن هذه هي العاصفة الأولى التي أثارتها ضد السيدة "**دوديتو**" فلقد بذلت محاولات لا عداد لها؛ لتنتزع "**سان - لامبير**" منها، وكان ما أحرزته بعض هذه المحاولات - في الماضي - يحمل السيدة "**دوديتو**" على أن ترتجف فرقا مما يخبئه لها المستقبل!.. وإلى جانب ذلك، كان "**جريم**" - الذي أعتقد أنه تبع السيد "**دي كاستري**" في رحيله مع الجيش - في "**ويستفاليا**"، وكذلك كان "**سان - لامبير**" وكانا يتزاوران أحيانا!.. وكان "**جريم**" قد حاول التقرب إلى السيدة "**دوديتو**" ولكن محاولاته أخفقت، وقد أغضبه هذا إلى الدرجة التي جعلته يكف عن زيارتها؛ ومن هنا يمكن للمرء أن يتصور - على ضوء ما اشتهر به من اتضاع - مدى "برود الدم" الذي تلقى به ما زعم من أن السيدة "**دوديتو**" آثرت عليه رجلا يكبره سنا، لا سيما وأنه لم يكن يتكلم عن هذا الرجل - من عرف طريقه إلى الأوساط الراقية - إلا باعتباره شخصا ينعم برعايته وعطفه"!

وغدت وساوسي من ناحية السيدة "**ديبيناي**" أمورا مؤكدة عندما سمعت ما حدث في بيتي. فقد اعتادت "**تيريز**" أن تتردد على "**لاشيفريت**" - في الفترات التي كنت أقضيها هناك - لتحمل لي خطاباتي، أو لتؤدي لي بعض أشياء كانت صحتي المعتلة تتطلبها، ولقد حدث أن سألتها السيدة "**ديبيناي**" عم إذا كانت السيدة "**دوديتو**" تكاتبني فلما أنبأتها بأننا نتبادل الرسائل راحت تلح عليها لتسلمها رسائل السيدة "**دوديتو**"، مؤكدة لها أنها ستحكم إغلاق هذه الرسائل ثانية بمهارة لا تنم عن أنها فضت!.. ولقد عمدت "**تيريز**" - دون أن تكشف عن مدى استنكارها لهذا الطلب، ودون أن تنبئني به - إلى اتخاذ أقصى أسباب الحيطة؛ لتخفي ما كانت تحمله إليّ من رسائل.. وكان إجراء حكيما؛ إذ إن السيدة "**ديبيناي**" قد أقامت عليها رقابة كلما جاءت، وكانت تتربص بها حتى تمر بها، وقد ذهبت في جرأتها إلى حد تفتيش مريلتها!

بل إنها فعلت ما هو أكثر من هذا: فقد دعت نفسها والسيد "**دي مارجينسي**" يوما إلى الغداء في "**ليرميتاج**"، وكانت هذه أول مرة تفعل فيها ذلك منذ سكنته، واستغلت اللحظة التي كنت أتمشى فيها مع "**مارجينسي**" فذهبت مع الأم والابنة إلى غرفة مكتبي، وسألتهما أن تطلعاها على رسائل السيدة "**دوديتو**"، ولو أن الأم كانت تعرف مكان هذه الرسائل لكان من المحقق أن تسلمها إليها ولكن الابنة وحدها - لحسن الحظ - هي التي كانت تعرف المكان، وقد زعمت أنني لا أحتفظ بشيء منها!.. وكانت في هذا كاذبة، دون نزاع.. ولكنه أشرف، وأخلص، وأكرم خداع!.. وإذ رأت السيدة "**ديبيناي**" أنها لن تستطيع أن تغريها راحت تحاول أن تستنهض غيرتها بأن أخذت تلومها على طيبة قلبها، وعدم بصيرتها، ومضت تقول لها: "كيف تغفلين عن تبين أن علاقتهما آثمة؟.. إذا كنت - برغم كل الذي تستطيعين أن تبصريه بعينيك - لا تزالين بحاجة إلى مزيد من الأدلة فعاوني فيما كان يجب أن تفعليه أنت للحصول على ذلك.. إنك تقولين إنه يمزق رسائل السيدة "**دوديتو**" بمجرد أن يطلع عليها، حسنا!.. إذن فاجمعي القصاصات بعناية، وأسلمينيها، وسوف ألصقها بعضها إلى بعض!".

هكذا كانت الدروس التي لقنتها صديقتي لرفيقتي!

*****

ولقد كانت "تيريز" من الحكمة بحيث إنها لم تذكر لي شيئا عن هذه المحاولات زمنا طويلا ولكنها حين رأت ورطتي – في النهاية – شعرت أن من واجبها أن تفضي إليَّ بكل شيء؛ حتى أصبح على بصيرة بأولئك الذين كان عليَّ أن أنازلهم، فأتخذ من الخطوات ما يكفل حمايتي من الغدر الذي كان مدبرا لي!

وكان سخطي وغضبي يفوقان كل وصف. بدلا من أن أخفي ما بنفسي عن السيدة "ديبنياي" – كما كانت هي تفعل معي – وأقابل دسائسها بمثلها فإنني انسقت للتهور، دون أن أكبح نفسي، وأقدمت – بتسرعي المعهود – على القطيعة علانية، ومن الممكن قياس اندفاعي وعدم فطنتي بالرسائل التالية التي تبين بوضوح كاف كيف تصرف كل منا في هذه المناسبة:

رسالة من السيدة "ديبيناي" (الملف ١ - رقم ٤٤)

"ما السبب في أنني لا أراك، يا صديقي العزيز؟.. إنني قلقة بصددك. لقد وعدتني مخلصا بأن تعكف على المجيء والذهاب، بين هنا و"ليرميتاج"؛ وعلى هذا فقد تركتك تفعل ما يحلو لك. ولكن، لا.. لقد تركت أسبوعا ينقضي دون أن تبر بوعدك، ولولا أنني نبئت بأنك بخير لظننتك مريضا!

"لقد ارتقبتك بالأمس، أو في اليوم السابق عليه ولكنني لم أر لك أثرا. فيالله!.. ما شأنك، وماذا جرى لك؟.. ليس ثمة ما يشغلك، وليس ثمة ما يزعجك. فإنني أطمئن نفسي إلى أنك ما كنت لتتوانى عن المجيء لتفضي إليَّ بما يهمك لو كان الأمر كذلك!.. إذن، فلابد أنك مريض!.. إنني أرجوك أن تسري عني قلقي فورا!.. وداعا ياصديقي العزيز، ولعل هذه الـ"وداعا"، تواتيني بـ"صباح الخير" منك!".

الرد

"صباح الأربعاء

"ليس بوسعي أن أقول لك شيئا، بل إنني أتريث ريثما أستكمل معلوماتي، وهذا ما سوف يتحقق عاجلا، أو آجلا، وإلى أن يتم ذلك ثقي من أن البراءة المتهمة، ستلقى مدافعا أوتي من الحماس ما يكفي لأن يتيح للواشين – أيا كانوا – ما يدعوهم للندم والحسرة!".

الرسالة الثانية من السيدة نفسها (الملف ١ – رقم ٤٥).

"أتعرف أن خطابك يثير ذعري؟.. ما الذي يرمي إليه؟.. لقد أعدت قراءته خمسا وعشرين مرة، والحق أنني لم أفقه منه شيئا. كل ما أراه هو أنك قلق معذب، وأنك تنتظر إلى أن يزول عنك ذلك، قبل أن تكلمني في الأمر. أفهذا ما تعاهدنا عليه ياصديقي العزيز؟.. فما الذي جرى – إذن – لهذه الصداقة، ولهذه الثقة؟ وكيف تراني فقدتها؟ هل غضبتك ضدي، أو هي من أجلي؟.. مهما يكن الأمر، فإني أناشدك أن تأتي الليلة، وتذكر أنك وعدتني – ولم تنقض بعد ثمانية أيام – بألا تكتم في قلبك شيئا، وبأن تفاتحني في التو. إنني أتشبث بهذه الثقة، ياصديقي العزيز..

"مهلا! لقد فرغت من قراءة خطابك مرة أخرى فلم أكن أفضل حظا في فهمه من ذي قبل، ولكنه يجعلني أرتجف. لكم يبدو لي أنك مهتاج بدرجة قاسية، فارجو أن تهدأ. اما وانا أجهل موضوع همومك، فإني لا أدري ماذا أقول، اللهم إلا أنني ساظل اضارعك شقاء، إلى أن يقدر لي أن أراك!..

فإذا لم تكن هنا في الساعة السادسة من هذا المساء فسأنطلق غدا إلى "**ليرميتاج**"، مهما تكن حال الطقس، ومهما تكن حالي أنا؛ إذ إنني لن أستطيع مضيا في تحمل هذا القلق!

"فعم صباحا، ياصديقي العزيز الطيب.. وكيفما يكن الأمر، فإنني أجازف بأن أدعوك - دون أن أدري ما إذا كنت بحاجة إلى هذا النصح أو إنك لست بحاجة - إلى أن تحاول الحيطة وإيقاف التقدم الذي يحرزه الانزعاج والقلق، في العزلة. فإن الذبابة لا تلبث أن تصبح وحشا هائلا.. وقد جربت هذا، كثيرا!".

الرد

"مساء هذا الأربعاء

"ليس بوسعي أن أزورك، ولا أن أتقبل زيارتك، طالما ظل القلق الذي أستشعره. إن الثقة التي تتكلمين عنها لم تعد قائمة، ولن يسهل عليك أن تسترديها!.. إنني لا أرى تلهفك الراهن، سوى الرغبة في أن تستخلصي من اعترافات الغير نفعا يخدم وجهات نظرك ولكن قلبي - الذي يبادر إلى الارتماء في أحضان أي قلب يتفتح له - يغلق أبوابه في وجه المكر والحيلة. إنني أعرف ما وراء الصعوبة التي تلقينها في تفهم رسالتي. أفتعتقدينني من الغفلة بحيث أظن أنك لم تفهميها؟. لا ولكنني سأعرف كيف أقهر دهاءك بالصراحة!.. وسأفصح عن نفسي بمزيد من الجلاء؛ لكي يتسنى لك أن تصبحي أكثر فهما لي.

"هناك عاشقان وثيقا الترابط، وأهل لأن يتحابا، يحتلان من نفسي مكانة عزيزة، وأحسبك لن تدركي من أعني إلا إذا ذكرت لك اسميهما، وأرى أن هناك من حاول التفرقة بينهما وأنني الشخص الذي استخدم لإثارة غيرة أحدهما، ولم يكن الاختيار جد بارع بيد أنه لاح ملائما للغرض الخبيث.. وأنت التي أرتاب في أنها مدبرة هذا الخبث، وأرجو أن يزداد هذا اتضاحا!

"وهكذا - على ما عرف - تتعرض المرأة - التي أجلها فوق كل من عداها - لمعرفة تقسيم قلبها وشخصها بين عاشقين، كما أتعرض أنا لعار أن أكون أحد هذين الشخصين الضعيفي النفس!.. لو أنني عرفت أنك كنت تقدمين على مثل هذا الظن بها وبي - للحظة واحدة من العمر - لأبغضتك حتى الموت. ولكني لا أتهمك إلا بانك قلت، وليس بانك ظننت وفكرت!.. ولست أفهم - في مثل هذه الحال - من من الثلاثة كنت تشتهين إيذاءه. ولكنك خليقة - إذا كنت تحبين طمأنينة النفس - بأن تخشي النحس الذي يجلبه عليك النجاح!..

إنني لم أكتم عنك - ولا عنها - وكل ما أراه من سوء في بعض روابط معينة، ولكني أرجو أن تنتهي هذه الروابط بوسيلة شريفة تعادل المشاعر التي تالفت منها في الأصل، وأن ينقلب حب غير مشروع، إلى صداقة أبدية، أفأنا الذي لم أوقع يوما بمخلوق أذى أستخدم كوسيلة بريئة لإيذاء أصدقائي؟.. لا، لن أصفح عنك أبدا. بل إنني لخليق بأن أصبح عدوك الذي لا سبيل إلى استرضائه،

ولن أحترم في ذلك سوى أسرارك وحدك؛ لأنني لن أكون يوما رجلا بلا عهد ولا ولاء!

"إنني لا أتصور أن تدوم الحيرة - التي أعانيها - طويلا، ولن ألبث أن أتبين ما إذا كنت مخطئا؛ وإذ ذاك فقد يكون من واجبي أن أصلح غلطة كبرى، ولن يكون في حياتي ما أقدم عليه بطيب خاطر يفوق ما سأفعل به ذلك!.. ولكن، أتعرفين كيف سأكفر عن أخطائي في الفترة القصيرة التي سأظل أقضيها على مقربة منك؟.. لسوف يكون ذلك بأن أفعل ما لا قبل لغيري بفعله.. بأن أقول لك بصراحة ما يراه الناس فيك، وبأن أطلعك على الثغرات التي يحتم عليك رتقها في نسيج سمعتك، وبالرغم من كل من يحيطون بك من مدعي الصداقة فإنك عندما ترينني أرحل ستودعين الصدق؛ إذ إنك لن تجدي بعدي من يقوله لك".

الرسالة الثالثة من السيدة "ديبيناي" (الملف ١ رقم ٤٦)

"لم أفهم رسالتك التي تلقيتها في هذا الصباح، ولست أقول هذا إلا أنه كذلك، وإني لأنتظر رسالة هذا المساء، فلا تخش ألا أجيب عنها قط، وإنما أنا جد تواقة إلى أن أنساها، ومع أنك تثير إشفاقي إلا أنني لا أملك دفعا للمرارة التي ملأت بها نفسي. أن استخدم المكر والدهاء معك؟!.. أأنا أتهم بأسود الشناعات؟!

"وداعا، وإني لأندم على أنك كنت هنا.. وداعا، فلست أدري ماذا أقول.. وداعا، ولن أتوق إلا إلى أن أصفح عنك. ولك أن تأتي عندما يحلو لك، وسوف تستقبل بأفضل ما لا تؤهلك له شكوكك، وليس عليك سوى أن تريح نفسك من عناء الانشغال بسمعتي، فليس في الأمر ما يهمني. إن مسلكي طيب، وهذا يكفيني..

"عدا هذا فإنني أجهل تماما ما جرى للشخصين اللذين يحتلان من نفسي أنا الأخرى، المكانة العزيزة التي يحتلانها من نفسك (١).

*****

ولقد خلصتني هذه الرسالة الأخيرة من حيرة أليمة، ولكنها ألقت بي إلى أخرى لم تكن تقل عنها، ومع أن هذه الرسائل وردودها تبودلت بسرعة بالغة في بحر يوم واحد، إلا أن هذه الفترة كانت كافية؛ لكي أقطع استرسال نوبات غضبي، ولكي أفكر في ضخامة اندفاعي غير الحكيم، ولم تكن السيدة "**دودويتو**" قد أوصتني بشيء قدر ما أوصتني بأن ألتزم الهدوء، وأن أترك لها عبء تخليص نفسها بنفسها من هذه المسألة، وبأن أتفادى كل قطيعة وكل ضجة، لا سيما في تلك الفترة بالذات، ومع ذلك فهأنذا أذكيت - بإهاناتي البالغة الصراحة والمقذعة الفظاعة - نار السخط في قلب امرأة لم تكن إذ ذاك ترجو سوى ذلك، وما كان لي - بطبيعة الحال - أن أنتظر من ناحيتها سوى رد بالغ الكبرياء، والازدراء، والإهانة، إلى درجة لا أملك معها - إلا بأقصى ذلة مهينة - أن أحجم عن مغادرة بيتها في الحال. على أن دهاءها كان - لحسن الحظ - يفوق غضبي؛ فتفادت بلهجة جوابها أن تسف في تحقيري إلى هذا الحد. غير أنه لم يكن ثمة بد من أن أغادر البيت، أو أن أذهب لزيارتها على

---

(١) في النص الذي ورد في "مذكرات مدام "ديبيناي" ذكرت العبارة الأخيرة، على النسق التالي: "أنني أحلك - متى شئت - مما ذكرت بشأن أسراري، حتى لا أجشمك عناء صيانتها، فإنك لتعرف - أكثر من أي شخص آخر - أن ليس لدي إلا كل ما يشرفني الإفضاء به". وقد أرسلت نسخة من هذا النص إلى "جريم".

الفور.. لم يكن ثمة مفر من اختيار أحد الأمرين! وقد استقر رأيي على الأخير منهما، وأنا في حيرة شديدة من المسلك الذي كان ينبغي أن أنتهجه في الإيضاح الذي توقعت أن أطالب به. فكيف كان بوسعي أن أخلص نفسي بدون أن أقحم السيدة "**دوديتو**" أو "**تيريز**"؟.. إذ ويل لتلك التي ساضطر إلى أن أفضي باسمها!.. ما من شيء في انتقام امرأة حقود، بارعة في المكائد إلا أثار مخاوفي على تلك التي قد تقع النقمة على رأسها، وما قصرت رسائلي على مجرد "شكوك" إلا لتفادي هذه النقمة، إذ إنني بذلك تلافيت أن أضطر إلى تقديم أدلة، ومن الصحيح أن هذا جعل فوراتي أبعد من أن تغتفر؛ إذ ما كان أي شك مجرد ليبيح لي أن أعامل امرأة صديقة، كما عاملت السيدة "**ديبيناي**". ولكن.. هنا بالذات، تبدأ المحاولة الكبيرة والنبيلة، التي حققتها بجدارة؛ إذ كفرت عن أخطائي ومواطن ضعفي المستترة بأن تحملت ذنوبا أشد وأقسى، لم أكن مرتكبها، ولا كنت يوما جديرا بوزرها.

على أنني لم أضطر إلى تحمل الهجوم الذي كنت أخشاه بل كان كل نصيبي منه هو الخوف الذي راودني. فما إن اقتربت من السيدة "**ديبيناي**" حتى ألقت بذراعيها حول عنقي، وانفجرت باكية، ومس قلبي هذا الاستقبال غير المرتقب، من صديقة قديمة؛ فتأثرت كل التأثر، وبكيت كثيرا أنا الآخر!..

وقلت لها بضع كلمات، لم يكن لها من معنى.. وقالت لي بضع كلمات مثلها، كانت أبعد من أن تكون ذات معنى.. وكان هذا غاية الأمر! ثم أعدت المائدة، فجلسنا إليها معا. وهناك، وفي انتظار أن أدعى للإيضاح - الذي ظننت أنه لم يرجأ إلا ريثما نفرغ من العشاء - كنت في أسوأ حال؛ إذ إنني أنصاع دائما لأقل اضطراب يتملكني، حتى إنني لأعجز عن أن أخفيه عن أقل الناس ملاحظة وفطنة، ولقد كان ارتباكي كفيلا بأن يلهمها الشجاعة بيد أنها لم تجرؤ على الإقدام؛ ومن ثم لم يكن هناك إيضاح بعد العشاء يفوق ما كان قبله!.. لا ولا كان ثمة في غد.. بل إن خلواتنا الصامتة، لم تملأ إلا بأمور غير ذات بال، أو ببضع محاولات مؤدبة من جانبي، حاولت بها أن أشرح موقفي، وأن أوعز بأنني لم أكن أملك أن أقول شيئا عن الأساس الذي قامت عليه شكوكي، وأن أؤكد - بكل إخلاص وصدق - أن حياتي بأسرها ستنفق في إصلاح ما كان في هذه الشكوك من غبن، لو أنني تثبت من أنها لم تقم على أساس ما!

ولم تبد السيدة "**ديبيناي**" أقل فضولا إلى معرفة كنه هذه الشكوك تماما، ولا كيف واتتني. بل اقتصر الصلح بيننا - سواء من ناحيتها أو من ناحيتي - على العناق الذي ضمنا حين التقينا، ولما كانت هي الوحيدة التي مستها الإساءة - من الناحية الشكلية على الأقل - فقد لاح أن لا داعي يدعوني إلى أن أسعى إلى إيضاح لم تكن تنشده هي نفسها؛ ومن ثم عدت إلى بيتي كما بارحته!.. عدا ذلك، ظلت علاقتي بها على ما كانت عليه من قبل، وسرعان ما نسيت النزاع نسيانا شبه تام، واعتقدت - في غباء - أنها قد نسيته هي الأخرى؛ لأنها لم تعد تبدي ما يدل على أنها ظلت تتذكره!

*****

ولم يكن هذا - كما سيبدو سراعا - هو الكرب الوحيد الذي جره عليّ ضعفي، ولكنني تعرضت لكروب غيره لم تكن أقل إزعاجا، ولكنني لم أكن مجتلبها حقا، وما كان لها من داع سوى الرغبة في

انتزاعي من عزلتي (١)، ولقد واتتني هذه المضايقات من "**ديدرو**" وعصبة "**دولباخ**". فإن "**ديدرو**" لم يكف يوما – منذ استقراري في "**ليرميتاج**" – عن التحرش بي، سواء بنفسه، أو عن طريق "**ديليير**"، وسرعان ما تبينت من دعابات هذا بشأن نزهاتي في الغابة، مدى الغبطة التي خلعوا بها عليّ الناسك ثوب الراعي العاشق ولكن هذا لم يكن محور المآخذ التي آخذت بها "**ديدرو**" بل كانت ثمة أسباب أشد وأعظم!

ذلك أنه عقب نشر "ابن السفاح"، أرسل لي نسخة من الكتاب قرأتها بالاهتمام والشوق اللذين يوليهما المرء عادة مؤلفا من إنتاج صديق له، وإذ طالعت الحوار الشعري الذي ألحق به دهشت، بل وحزنت؛ إذ وجدت فيه – إلى جانب عدة تليمحات كريمة، ولكنها تحتمل، وقد وجهها ضد أولئك الذين يعيشون في عزلة – هذه العبارة الخشنة، المريرة، التي لم يكن لها مجال في السياق: "لا يلزم العزلة سوى أهل الخبث"!

وهذه العبارة مبهمة، وتحتمل تأويلين، كما يبدو لي. أحدهما صادق كل الصدق، والآخر زائف كل الزيف؛ إذ إن من المستحيل على إنسان يعيش – ويرغب في أن يعيش – في عزلة أن يبغي إيذاء أحد؛ وبالتالي فمن المستحيل أن يكون خبيثا. ومن ثم فقد كانت العبارة – في حد ذاتها – تتطلب إيضاحا.. وهي أكثر تطلبا له، لصدورها من مؤلف كان له – عندما طبعت هذه العبارة – صديق يلوذ بالعزلة، وبدا لي أنه من المستنكر، ومن المجافاة للأمانة أن يكون "**ديدرو**" قد نسي – عند نشرها – هذا الصديق المعتكف.. أو – إذا كان قد تذكره – ألا يكون قد أردف – في تعميمه الرأي، على الأقل – ما كان ينبغي عليه من استثناء كريم وعادل، لا بالنسبة لهذا الصديق فحسب، وإنما بالنسبة إلى كثير من الحكماء ذوي المكانة، الذين كانوا ينشدون في العزلة – في جميع الأزمان – الهدوء والسلام، والذين سمح مؤلف لنفسه – لأول مرة منذ خلق الدنيا – بأن يجعل منهم – على كثرتهم – أشرارا بلا استثناء، وبجرة قلم!

كنت أحب "**ديدرو**" من قلبي، وكنت أقدره صادقا، وكنت مطمئنا تمامَ الطمأنينة إلى عين العواطف من ناحيته. ولكني ضقت بعناده – الذي لم يكن يلين – في معارضتي في أذواقي، وميولي، وأسلوب معيشتي وفي كل ما كان يعنيني وحدي، بوجه خاص.. وأثارني مرأى رجل يصغرني ويسعى بكل حيلة إلى أن يسيطر عليّ كما لو كنت طفلا.. ونفرني منه سهولة إزجائه الوعود، وإهماله الوفاء بها.. وغاظني منه كثرة المواعيد المعقودة وتخليه عنها، وشغفه بعقد مواعيد جديدة لكي ينكث بها مرة أخرى.. ومللت انتظاره عبثا ثلاث أو أربع مرات في الشهر في أيام كان يحددها هو، لكي أنتهي إلى تناول العشاء وحيدا في المساء، بعد أن أكون قد سرت إلى "**سان دنيس**" عسى أن ألتقي به في الطريق، وبعد أن أكون قد ارتقبته طوال النهار.. كان قلبي متخما بمثل هذه العيوب المتراكمة، وكان العيب الأخير منها يبدو لي أشدها، كما أنه كان أكثرها جرحا لكرامتي، ولقد كتبت إليه شاكيا ولكن.. في حنان ولطف جعلاني أغرق ورقتي بالدموع، وكان خطابي مؤثرا إلى درجة كانت خليقة بأن تستدر دموعه. ولكن أحدا ما كان ليحدس رده على ذلك الخطاب.. وها هو بنصه (الملف ١ – رقم ٣٣):

"إنني لجد مغتبط؛ لأن كتابي راق لك.. إنك لا تقرني على رأيي بشأن النساك المعتزلين، فحدث عنهم ولا حرج، ما شاء لك الحديث، فلسوف تظل الوحيد في العالم، الذي أفكر فيه في هذا المجال..

---

(١) أردف "روسو" معقبا بقوله: "واعنى بذلك، الرغبة في انتزاع المرأة العجوز من هذه العزلة، إذ كانت الحاجة ماسة إليها في تدبير المؤامرة. ومن المدهش أن ثقتي الحمقاء في الغير، ظلت – إبان هذه العاصفة الطويلة الأجل – تحول بيني وبين أن أفهم أنها هي – ولست أنا – التي كانت مرتجاة العودة إلى باريس".. ويقصد بالمرأة العجوز هنا، السيدة "لوفاسير"، أم "تيريز".

ومع ذلك فلا يزال لدي الكثير مما أستطيع أن أقوله بهذا الصدد، لو كان في الوسع الكلام دون إغضابك.

إن امرأة في الثمانين من عمرها.. إلخ. لقد أنبأني بعضهم بعبارة من خطاب كتبه ابن السيدة "**ديبيناي**"، ولابد أنه آلمك كثيرا، وإلا فإنني لم ألم كل الإلمام بدخيلة نفسك".

ولابد لي من أن أوضح العبارتين الأخيرتين من هذا الخطاب: ففي بداية مكثي في "**ليرميتاج**" لم تبد السيدة "**لوفاسير**" ارتياحا، ووجدت أن المكان كان منعزلا أكثر مما ينبغي، وقد رددت ملاحظاتها في هذا الصدد على مسمعي، فعرضت أن أردها إلى "**باريس**"، إذا كانت تفضل ذلك، وأن أدفع لها أجر سكناها هناك، وأن أعنى بحاجاتها كما أنها كانت ماضية في الإقامة معي.. بيد أنها رفضت اقتراحي، وأعلنت أنها جد راضية عن "**ليرميتاج**"، وأن جو الريف كان مفيدا لها، وقد تبدى أن هذا كان صحيحا؛ إذ إنها ارتدت إلى الشباب، كما ينبغي أن يقال، وأصبحت أفضل حالا مما كانت في "**باريس**". بل إن ابنتها أكدت لي أنها كانت – في قرارة نفسها – مستاءة لمبارحتنا "**ليرميتاج**"، الذي كان مقاما فاتنا حقا، وأنها كانت مشغوفة بما كان يشغلها من توافه الحديقة وفواكهها، وأنها إنما قالت ما قالت بإيعاز من الغير؛ لتحاول إغرائي على العودة إلى "**باريس**"!

وإذ أخفقت تلك المحاولة، سعوا إلى أن يحصلوا بإثارة الريب على ما لم تؤد إليه المجاملة، فراحوا يعلنون أن من الجرم أن أستبقي العجوز هناك بعيدا عن الخدمات التي قد تحتاج إليها في مثل سنها، دون أن يفطنوا إلى أنها وكثيراً من المكتهلين، الذين يطيل طقس الريف الرائع من حياتها – كانوا يستطيعون الحصول على تلك الخدمات في "**مونمورنسي**"، التي كانت جد قريبة من مسكني.. وكأنما لم يكن ثمة كهول إلا في "**باريس**"، ولم يكن في وسع الطاعنين في السن أن يعيشوا في أي مكان آخر!.. ولقد كانت السيدة "**لوفاسير**" – التي كانت أكولا، عظيمة النهم – عرضة لالتهابات المرارة، ولنوبات قاسية من الإسهال، كانت تلازمها أياما، ولا تلبث أن تشفى من تلقاء ذاتها، ولم تكن العجوز تتناول شيئا حين كانت في "**باريس**" – وإنما كانت تترك الطبيعة تتخذ مجراها. وكذلك كانت تفعل في "**ليرميتاج**"؛ إذ أدركت أنها لا تملك سبيلا خيرا من هذه!

ولكن الراغبين في إثارة المتاعب، لم يعبئوا بهذا، فما دام لم يكن ثمة أطباء ولا صيادلية في الريف فإن استبقاء العجوز هناك، كان يعني الرغبة في موتها. برغم أنها كانت هناك في صحة طيبة!.. وكان خليقا بـ"**ديدرو**" أن يحدد السن التي لا يجوز بعدها السماح للمسنين بالبقاء بعيدا عن "**باريس**"، والتي يكون استبقاؤهم بعدها قتلا مع الإصرار!.. ولقد كان هذا أحد الذنبين الشنيعين اللذين لم يشأ من أجلهما أن يستثنيني من رأيه!.. "لا يلزم العزلة سوى أهل الخبث"!

وكان هذا تفسير تعجبه المؤثر، والـ"إلى آخره" التي تكرم بإضافتها، حين قال: "أن امرأة في الثمانين من عمرها.. إلخ!

*****

وخطر لي أنني لن أجد ردا على هذا اللوم أفضل من أن أرجع إلى السيدة "**لوفاسير**" نفسها. فسألتها أن تكتب إلى السيدة "**ديبيناي**" معبرة عن شعورها الطبيعي إزاء الأمر؛ ولكي أتركها تسترسل على سجيتها، لم أسألها أن تطلعني على خطابها.. بل إنني أطلعتها على الخطاب التالي،

الذي كنت قد كتبته إلى السيدة "**ديبيناي**"، بشأن رد - كنت قد اعتزمت أن أجيب به عن خطاب أعنف من السابق، ورد من "**ديدرو**" - ولكنها منعتني من إرسال هذا الرد.

"يوم الخميس

"إن السيدة "**لوفاسير**" تعتزم أن تكتب إليك، أيتها الصديقة الطيبة.. فلقد رجوتها أن تروي لك بصراحة ما يدور بخلدها؛ ولكي تكون على سجيتها تماما، فقد أخبرتها بأنني لا أريد أن أرى خطابها، كما أنني أناشدك ألا تذكري لي شيئا عن محتوياته.

"إنني لم أرسل خطابي (١) ما دمت تعارضين في ذلك، ولكن شعوري بأنني طعنت طعنة بالغة، يجعل من الصغار، بل ومن الغش الذي لا أسمح به لنفسي أنني أرضى بان أكون مخطئا.. ولا مراء في أن "**الإنجيل**" يدعو المرء الذي يصفع على أحد خديه، أن يدير الخد الآخر، ولكنه لا يدعوه إلى أن يطلب الصفح. أفتذكرين ذلك الرجل الذي يهتف - في المسرحية الفكهة - وهو ينهال بعصاه ضربا: "ها هو ذا دور الفيلسوف"؟!

"لا تخدعي نفسك إذ ترين أن بوسعك أن تمنعيه من المجيء متعللة بسوء الطقس هنا، في الآونة الحاضرة.. فإن حنقه سيهبه ما تأباه عليه الصداقة من وقت وقوة.. وستكون هذه هي أول مرة في حياته، يفد فيها في ذات اليوم الذي يضربه موعدا! ولسوف يبذل قصارى جهده، لكي يأتي فيردد بلسانه ما كاله لي في خطاباته من إهانات، ولسوف أتحملها ببالغ الصبر، ولسوف يعود إلى "**باريس**"، وهو مريض؛ ومن ثم أغدو أنا - كالمعتاد - شخصا بغيضا كل البغض. فماذا أفعل؟.. لا مفر من الاحتمال!

"ولكن.. ألست تعجبين بحكمة شخص رغب في أن يجيء فيصحبني إلى "**سان دنيس**" في مركبة؛ لنتناول الغداء هناك، ثم يقلني - في العودة - في مركبة.. ثم لا تلبث ثروته أن تعجز - بعد ثمانية أيام - (الملف أ - الرسالة رقم ٣٤) - عن أن تمكنه من أن يفد على "**ليرميتاج**" إلا سائرا على قدميه؟.. ليس من المستحيل في شيء - إذا تكلمنا بأسلوبه - أن تكون هذه هي سمة الإخلاص وحسن النية، ولكن لابد له - في هذه الحال - من أن يطرأ على موارده تغير خارجي خلال ثمانية أيام!

"إنني أشاطرك أساك من أجل مرض السيدة والدتك، ولكنك ترين أن آلامك تعادل آلامي. فإن رؤية الأشخاص الذين نحبهم مرضى، أقل إيلاما للنفس من الغبن والقسوة.

"فوداعا ياصديقتي الطيبة، وستكون هذه آخر مرة أتحدث فيها إليك عن هذه المسألة التعسة.. إنك تحدثينني عن الذهاب إلى "**باريس**" في هدوء أعصاب كفيل بأن يطربني، لو أنه حدث في ظروف أخرى!".

وأنبأت "**ديدرو**" بما فعلت مع السيدة "**لوفاسير**"، نزولا عند رأي السيدة "**ديبيناي**" نفسها، وقد اختارت السيدة "**لوفاسير**" البقاء في "**ليرميتاج**" - وهو ما كان في وسع أي امرىء أن يحدسه - لأنها كانت جد مرتاحة إلى المقام فيه، حيث كانت تجد دائما أنيسا، وحيث كانت تحيا حياة تروق لها؛ ومن ثم فإن "**ديدرو**" لم يعد يدري بأي ذنب يتهمني، فجعل من هذا الاحتياط الذي اتخذته (٢) ذنبا، كما اتخذ من استمرار بقاء السيدة "**لوفاسير**" في "**ليرميتاج**" ذنبا آخر، بالرغم من أن هذا البقاء كان بمحض اختيارها وقد ظلت حرة في أن تعود إلى "**باريس**" لتقيم متمتعة بنفس ما كانت تتمتع به في بيتي من مساعدة.

---

(١) يقصد الرد على الخطاب القاسي الذي تلقاه من "ديدرو". (٢) الاحتياط الذي تمثل في أنه ترك مدام "لوفاسير" تكتب ما تشاء، دون أن يطلع على خطابها.

هذا هو بيان اللوم الأول، الذي ورد في رسالة "**ديدرو**" رقم ٣ . أما إيضاح اللوم الثاني، ففي سياق خطابه رقم ٣٤ :

"لابد أن "**الأديب**" (١) قد كتب إليك عن أن ثمة عشرين شريدا تعسا على الأسوار، يموتون بردا وجوعا، ويرتقبون المليم الذي اعتدت أن تمنحهم إياه. هذه عينة من ثرثرتنا البسيطة.. ولو أنك استمعت إلى بقيتها لوجدت فيها ما يروقك، كهذه!".

وها هو ذا ردي على هذا الجدل البغيض، الذي بدا وكان "**ديدرو**" كان مزهوا به: "أعتقد أنني رددت على "**الأديب**" - أقصد ابن ناظر الزراعة العام - بأنني لا أشفق على الفقراء الذين رآهم على الأسوار يرتقبون مليمي، وأن من الواضح أنه قد عوضهم عما فقدوا، وأنني قد عينته بديلا عني، وأنه ليس لفقراء "**باريس**" أن يشتكوا من هذا التغيير، وأنني لا أجد من السهل العثور على بديل آخر يصلح لفقراء "**مونمورنسي**"، الذين هم أشد حاجة!.. فهنا شيخ طيب، ومحترم، قضى حياته في العمل، ولم يعد اليوم يقوم عليه، فهو يموت جوعا إبان شيخوخته، وإن ضميري ليشعر بارتياح إزاء قطعتي "**السو**" اللتين أمنحه إياهما في يوم الاثنين من كل أسبوع، يفوق ذاك الارتياح الذي يستشعره إذا أنا وزعت مائة مليم على صعاليك الأسوار. إنكم لتلهون - يامعشر الفلاسفة - حين تنظرون إلى جميع سكان المدن، بحسبانهم الوحيدين الذين يطالبكم الواجب بأن تشغلوا بأمرهم.. إنما يتعلم المرء حب الإنسانية وخدمتها في الريف، ولا يتعلم في المدن سوى ازدرائها!".

*****

هكذا كانت الوساوس العجيبة، التي استند إليها رجل ذكي، منساقا لنزوة حمقاء حملته على أن يجعل - جادا - من بعادي عن "**باريس**" ذنبا وجرما، وعلى أن يحاول أن يبرهن لي بحالي إن لا سبيل إلى الإقامة خارج العاصمة إلا إذا كان المرء خبيثا، ولست أدري اليوم كيف كنت من البلاهة بحيث رددت عليه، واستأت منه، بدلا من أن يكون جوابي الأوحد، هو أن أضحك ساخرا؟!.. على أن قرارات السيدة "**ديبيناي**" والضجة التي أثارتها عصبة "**دولباخ**"، استولت على أذهان الناس وغرتهم، حتى لقد اعتبرت - بوجه عام - مخطئا في هذه المسألة.. وحتى إن السيدة "**دوديتو**" نفسها - وهي من أشد المعجبات بـ"**ديدرو**" - رغبت في أن أذهب إلى زيارته في "**باريس**"، وأن أؤدي - كل المقدمات لصلح لم يدم طويلا بالرغم من أنه كان مخلصا وكان من ناحيتي..

وكانت الحجة الموفقة التي استغلتها السيدة "**دوديتو**" للتأثير على قلبي هي أن "**ديدرو**" كان - في هذه اللحظة - تعسا شقيا. فإلى جانب العاصفة التي ثارت ضد "الموسوعة"، كان عليه أن يحتمل عاصفة أخرى أشد عنفا، أثارها الكتاب. فبالرغم من المقدمة الصغيرة التي مهد لها به، اتهم "**ديدرو**" بأنه قد نقله بأكمله عن "**جولدوني**"، ولقد كان "**ديدرو**" أكثر تأثرا وارتباكا بالنقد من "**فولتير**" ولقد ذهبت السيدة "**دي جرافييني**" في دهائها إلى حد أنها أذاعت شائعة بأنني انتهزت هذه الفرصة لكي أقطع ما كان بيني وبينه؛ لذلك فقد رأيت أن من الإنصات والكرم أن أظهر نقيض ذلك على الملأ؛ فذهبت لأقضي يومين في داره، وإن لم أقضهما في صحبته وحده!.. وكانت هذه هي رحلتي الثانية إلى "**باريس**"، منذ استقر بي المقام في "**ليرميتاج**". فقد قمت بالرحلة الأولى؛ لأبادر بأن أكون إلى جوار "**جوفكور**" الذي أصيب بنوبة فالج، لم يقدر له أن يشفى منها تماما، وقد ظللت طيلة مرضه ملازما فراشه حتى تجاوز الخطر!

---

(١) لقب أطلقه "جريم" على ابن السيدة "ديبيناي"، من قبيل الدعابة.

وأحسن "**ديدرو**" استقبالي.. فما أقدر عناق الأصدقاء على محو الأخطاء!.. وأية سخيمة يمكن أن تظل في القلب بعد ذلك؟.. وتبادلنا بعض الإيضاحات، كما كان ثمة داع لها، ما دامت الإساءات متبادلة. ففي مثل هذه الحال، لا يكون ثمة ما ينبغي فعله سوى.. النسيان، لا خصوصا أنه لم تكن ثمة دسائس خفية – فيما كنت أعلم على الأقل – كما كانت الحال مع السيدة "**ديبيناي**"، ولقد أطلعني على مشروع كتابه. "**أب الأسرة**"، فقلت له: "هذا خير دفاع عن "**ابن السفاح**"!.. فالزم الصمت، وامض في هذا المؤلف بعناية، ثم طوح به فجاة في وجوه أعدائك، فإنه الرد الوحيد". ولقد فعل ذلك، ووجد أنها خطة موفقة!

ولقد أرسلت إليه الجزءين الأولين من "**جولي**" – قبل ذلك بستة أشهر – أسأله رأيه فيهما، ولم يكن قد قرأهما بعد؛ فطالعنا شطرا منهما معا، وقد وجد أنهما "**قرطسة**" (١)، وكان هذا هو التعبير الذي استخدمه، قاصدا أن الجزءين كانا مليئين بالكلام المنمق، وبالتكرار والإطالة، وكنت قد شعرت بذلك، من تلقاء نفسي، ولكن ما أوردته فيهما كان هذيان الحمى (٢) ولم أكن راجعته أو صححته. على أن الأجزاء الأخيرة ليست على هذا الغرار، لاسيما الرابع والسادس، فإنهما تحفة في البلاغة.

وفي اليوم التالي لوصولي رغب – في إصرار – في أن يصطحبني لتناول العشاء لدى السيد "**دولباخ**" راغبا في أن أفسخ الاتفاق الخاص بأصول كتاب "**الكيمياء**"؛ لأنني كنت أربأ بنفسي أن أكون على التزام نحو هذا الرجل (٣). ولقد انتصر "**ديدرو**" على طول الخط، وأقسم على أن السيد "**دولباخ**" كان يكن لي أخلص الود، وأن الواجب يقتضيني أن أغفر له مسلكه الذي يتخذه مع الناس كافة، والذي يعاني منه أصدقاؤه أكثر مما يعاني سواهم، وصور لي أن رفض إنتاج هذا الكتاب، بعد أن قبلته منذ عامين، إهانة لصاحب العرض، لا يستحق أن يجازى بها. بل إن هذا الرفض قد يساء تأويله؛ فيحمل على محمل اللوم لأنه مكث هذا الأمد الطويل دون أن يحقق الاتفاق، واستطرد قائلا: "إنني أرى "**دولباخ**" في كل يوم، وأعرف حال نفسه أكثر مما تعرفها أنت، وإذا لم يكن ثمة مجال لك كي ترضى عن هذا العمل، أفتظن أن صديقك يقدم على نصحك بأن تحط من قدر نفسك؟". وفي إيجاز، سمحت لنفسي بأن أسلم له – بكل ما عرف عني من ضعف – وذهبنا معا لتناول العشاء مع "**البارون**"، الذي استقبلني على مألوف عادته. ولكن زوجته تلقتني بفتور بل وبجفاء غير كريم (٤) حتى كنت أنكر فيها "**كارولين**" اللطيفة، التي أظهرت لي – قبل زواجها – كثيرا من آيات النية الطيبة. وكنت قد لاحظت – قبل ذلك بزمن طويل – أنني لم أعد زائرا مرموقا مذ أصبح "**جريم**" ضيفا مستمرا في قصر "**اين**".

*****

وبينما كنت في "**باريس**" وفد "**سان – لامبير**" في إجازة من الجيش، ولما لم أكن قد علمت بذلك؛ فإنني لم أره إلا بعد عودتي إلى الريف، في "**لاشيفريت**" أولا، ثم في "**ليرميتاج**"، حيث

---

(١) قرطسة: مشتقة من قرطاس، هو الورق.. وهو يقصد هنا، ان المادة كانت حشوا، او مجرد تسويد ورق. (٢) كتب "روسو" الجزءين الأولين من "جولي"، وقد انتابه الحنين إلى الحب، فراح يوحي إليه بأحلام محمومة، على ما أورد من قبل. (٣) يقصد "دولباخ". ويلاحظ ان "روسو" لم يذكر شيئا من قبل عن "أصول كتاب في الكيمياء، ولا عن "الاتفاق" الذي تم بشان ذلك؛ ومن ثم فإن إيراد الأمر على هذه الصورة، يبدو محوطا بالغموض، ولسنا نجد فيما كتب شيئا يلقي مزيدا من الضوء على المسالة. (٤) ذكر "روسو" في الكراسة الثامنة نبأ موت السيدة "دولباخ". ومن ثم يحسن ان نذكر هنا أن البارون "دولباخ" كان ما يزال في مقتبل الشباب عندما ترمل؛ فتزوج ثانية، وكانت زوجته الجديدة هي "كارولين – سو" آن د – اين"، وهي أخت زوجته المتوفاة، وقد حصل على إذن بذلك من "روما"، ومن هنا نفهم ان قصر "اين" – الذي ذكر بعد ذلك – كان من أملاك الزوجة.

اقبل مع السيدة "**دوديتو**"، واستضافا نفسيهما للغداء، ومن الميسور تصور مدى الاغتباط الذي استقبلتهما به!.. ولكني كنت أكثر اغتباطا بمشاهدة انسجامهما البديع، وسعدت بدوري، إذ اطمأننت إلى أنني لم أعكر صفو هنائهما، وبوسعي أن أقسم على أنني ما كنت – طيلة وجدي الطائش بل وفي تلك الآونة بالذات – لأتمنى أن آخذ السيدة "**دوديتو**" من "**سان – لامبير**"، ولو استطعت إلى ذلك سبيلا.. بل إنني ما كنت لأشعر بمجرد الرغبة في ذلك!.. فلقد وجدتها جديرة بحب "**سان لامبير**"، مدلهة في هواه، حتى إنني لم أكد أتصور أنها تستطيع أن تهيم بي بهذا القدر، وكان كل ما طمعت فيه – في بُحْران الوجد – هو أن تدعني أحبها من ناحيتي، دونما رغبة مني في أن أعكر صفو رابطتهما!.. وقصارى القول إنني – برغم عنف الصبابة التي كانت تلتهمني بنيرانها – وجدت متعة في أن أكون موضع ثقة هذه السيدة، لا تقل عن المتعة التي كنت خليقا بأن استشعرها إذا كنت هدف حبها، ولم أنظر إلى عاشقها لحظة على أنه غريم أو مزاحم، وإنما ظللت – على الدوام – أنظر إليه كصديق، ولقد يقال إن هذا لم يكن بعد غراما حقيقيا فليكن!.. لقد كان أكثر من الغرام!

أما "**سان – لامبير**"، فقد كان تصرفه تصرف الرجل الكريم، الرزين، ولما كنت المذنب الوحيد، فإنني كذلك كنت الجدير بالعقاب، وكان عقابي مشوبا بالتسامح. فقد عاملني "**سان – لامبير**" في خشونة، ولكن في ود، واستطعت أن ألمح أنني قد فقدت بعض تقديره، ولكني لم أفقد شيئا البتة من صداقته؛ فتعزيت بذلك موقنا من أن استعادة الأولى أسهل بكثير من استعادة الثانية.. ومدركا أنه كان أعقل وأحكم من أن ينقم على ضعف لا إرادي، وطارىء، ومنبعث عن عيب طبيعي، وإذا كانت ثمة أخطاء من ناحيتي – في كل ما جرى – فإنها كانت طفيفة. أفأنا الذي سعى إلى عشيقته؟.. ألم يكن هو الذي أرسلها إليَّ؟.. ألم تكن هي التي جاءتني؟ فهل كان بوسعي أن أمتنع عن استقبالها؟.. ما الذي كنت أملك أن أفعله؟.. إنهما هما سر البلوى، ولم يكن من معذب سواي!

ولو أن "**سان – لامبير**" كان في مكاني لفعل عين ما فعلت بل ربما أسوأ مما فعلت!.. ذلك لأن السيدة "**دوديتو**" – برغم وفائها، وبرغم جدارتها بالاحترام – كانت امرأة!.. ولقد كان هو كثير التغيب؛ فكانت الفرص موفورة، والمغريات شديدة، وكان من الشاق حقا أن تذود دائما عن نفسها ضد أي عاشق أكثر جراة، بعين التوفيق الذي صدتني به، ويقينا أنه كان من الكثير – الذي ينبغي أن يذكر لنا، هي وأنا – أن استطعنا في ظروف كهذه أن نضع حدودا، لم نسمح لنفسينا قط بتخطيها!

ومع أنني من أستطيع أن أستخلص من أعماق قلبي شهادة كريمة في صالحي إلا أن المظاهر كانت ضدي، حتى إن الشعور بالخجل الطاغي – الذي كان يتسلط عليَّ دواما – خلع علي، في حضور "**سان – لامبير**" مظهر المذنب، فأكثر هو من استغلاله لإذلالي، وكان ثمة حادث واحد يوضح هذا الموقف المتبادل. فلقد قرأت عليه – عقب الغداء – الرسالة التي كنت قد كتبتها لـ"**فولتير**"، قبل عام، والذي سمع بأمرها، وإذا به يستسلم للنعاس بينما كنت أقرؤها، وبعد أن كنت فخورا، إذا بي أغدو غبيا، فلا أجرؤ على أن أقطع القراءة؛ ومن ثم فقد استرسلت فيها بينما استرسل هو في الغطيط!.. وهكذا أذللت نفسي.. وهكذا كان ثأره لنفسه.. غير أن كرم نفسه لم يكن يخوله أن يمارس هذه الأساليب إلا فيما بيننا نحن الثلاثة!

*****

وبعد أن رحل "**سان - لامبير**" ثانية، ألفيت السيدة "**دوديتو**" قد تغيرت إزائي تغيرا شديدا، وقد ذهلت لهذا وكأنه لم يكن خليقا بي أن أتوقعه، وتأثرت به أكثر مما كان ينبغي؛ مما سبب لي كثيرا من الآلام والتباريح. وكأنما كل شيء مما توقعت أن يبرئني، كان يزيد من تغلغل السهم في قلبي.. ذلك السهم الذي أصبحت - في النهاية - أوثر أن أكسره عن أن أنزعه!

وعقدت العزم على أن أقهر نفسي تماما، وألا أدع شيئا إلا فعلته لكي أحول صبابتي الرعناء إلى صداقة طاهرة، باقية؛ وعلى ضوء هذه الغاية رسمت أروع الخطط في الحياة، ولم يكن يعوزني في تنفيذها سوى معونة السيدة "**دوديتو**". فلما حاولت أن أحدثها عنها وجدتها شاردة البال، مضطربة الخاطر؛ فشعرت بأنها لم تعد تحس بأية لذة في صحبتي! وتبينت بجلاء أن شيئا ما قد جرى، وأنها لم تكن راغبة في أن تنبئني به، وما قدر لي قط أن أعرفه، ولقد عذبني أقسى العذاب هذا التغير الذي عجزت عن أن أصل إلى إيضاح له، وسألتني أن أرد إليها خطاباتها؛ فرددتها جميعا بأمانة جرح كرامتي أن السيدة ارتابت فيها لحظة!.. وكان هذا الارتياب طعنة أخرى أصابتني، كما لابد أن تكون قد أدركت، وقد أنصفتني وعوضتني ولكنها لم تفعل ذلك فورا. فقد أدركت أن فحص حزمة الرسائل التي أسلمتها إياها، جعلها تفطن إلى ظلمها. بل إنني استطعت أن أرى أنها قد أنبت نفسها على ذلك؛ فوجدت في ذلك شيئا من التعويض.

وما كان لها أن تأخذ رسائلها دون أن تعيد إليَّ رسائلي.. وقالت لي إنها أحرقتها، فجرؤت بدوري على أن أرتاب في ذلك، كما ينبغي أن أعترف. لا. إن المرء لا يلقي بمثل هذه الخطابات إلى النار. لقد وجدت مثل هذه الخطابات محترقة في قصة "**جولي**"، فيا لله!.. ما الذي قيل عن ذلك؟.. لا، لا.. إن المرأة التي أوتيت القدرة على توقد كل هذا الوجد، لا يمكن أن تواتيها الشجاعة قط على أن تحرق أدلة وجوده. ولكنني مع ذلك لم أكن أخشى أن تسيء استغلالها، فما كنت لأومن بأنها قادرة على ذلك. كما أنني كنت قد اتخذت التدابير للحيلولة دون ذلك!.. ذلك أن الخوف الأحمق - والمحتدم في الوقت ذاته - من أن أتعرض للسخرية حملني على أن أبدأ هذه المكاتبات بصيغة تجعل رسائلي في مأمن من أن تذاع، ولقد ذهبت في ذلك إلى حد الإسراف في الألفة التي كنت قد انتهجتها في نشوتي، فرحت أخاطبها بصيغة المفرد، ولكني حرصت في ذلك على ألا تجرح هذه الألفة كرامتها. ومع أنها شكت مرارا من ذلك، إلا أنها لم توفق إلى حملي على العدول.. ولم تؤد شكاواها إلا إلى إيقاظ هواجسي، فضلا عن أنني لم أستطع أن أحمل نفسي على التراجع، ولو أن هذه الرسائل كانت موجودة، وقدر لها يوما أن ترى الضوء لعرف الناس كيف أحببت! (١).

ولقد أدى الألم الذي أحدثه فتور السيدة "**دوديتو**"، واليقين من أنني كنت أستحقه إلى أن أنهج منهجا عجيبا؛ إذ **شكوت** منه إلى "**سان - لامبير**" نفسه!.. وفي انتظار نتيجة خطابي بهذا الصدد، أغرقت نفسي في الشواغل التي لم يكن ثمة بد من أن أسارع بالبحث عنها. فلقد أقيمت في "**لاشيفريت**" بعض حفلات، وضعت الموسيقى التي عزفت فيها، وحفز نشاطي على ذلك، تلك المتعة التي تمثلتها؛ إذ أرفع من قدر نفسي في عيني السيدة "**دوديتو**"، بعرض الموهبة التي كانت تغرم بها، وساعد ظرف آخر على إذكاء نشاطي وهو: رغبتي في أن أظهر للملأ أن مؤلف "عراف القرية" كان على دراية بالموسيقى؛ إذ كنت قد لاحظت من فترة طويلة أن ثمة من كان يعمل في الخفاء على ذر

---

(١) رغبت السيدة "بروتان" التي كانت تقيم على مقربة من "أوبون" في أن تعرف حقيقة مصير هذه الرسائل؛ فسألت السيدة "دوديتو" يوما عن الأمر؛ فأجابتها هذه بأنها قد أحرقتها فعلا ما عدا رسالة واحدة، لم تؤت الشجاعة على حرقها؛ لأنها كانت قطعة من البلاغة والغرام المشبوب.. وقد أسلمتها إلى السيد دي "سان - لامبير". هذا ما ذكره السيد "دي موسيه" - في كتيب له بعنوان: "حكايات للتعقيب على مذكرات السيدة "ديبيناي" - عن شهادة السيدة الفيكونتة "داللارا"، التي عاشت في ود وثيق مع السيدة "دوديتو" زهاء ثلاثة عشر عاما.

الريب حول ذلك، فيما يختص بالتأليف الموسيقي على الأقل!.. ولقد كان أول ظهوري في "**باريس**"، والاختبارات التي تعرضت لها في مناسبات مختلفة في داري السيدة "**دوبان**" والسيدة "**ديلابوبلينير**"، والقدر الذي ألفته من الموسيقى خلال أربع عشرة سنة – وسط أعظم أهل الفن شهرة، وتحت أبصارهم – ثم أوبرا "**عرائس الشعر اللطاف**"، بل وأوبرا "**العراف**"، وأغنية كتبتها للآنسة "**فيل**" وغنتها بنفسها في حفلات "**الموسيقى الروحية**"، والمناقشات العديدة التي دارت بيني وبين كبار الأساتذة عن هذا الفن الجميل... كل هذه البراهين كانت جديرة بأن تمنع، أو بأن تبدد أية شكوك من هذا القبيل. ولكنها – مع ذلك – كانت موجودة، حتى في "**لاشيفريت**"، فقد رأيت أن السيد "**ديبيناي**" لم يكن بمنجى منها!.. وبدون أن أظهر أنني كنت أفطن إلى ذلك عكفت على تلحين أنشودة من أجله؛ لتدشين كنيسة "**لاشيفريت**"، وسألته أن يمدني بالكلمات التي ينتقيها لها بنفسه. فعهد إلى "**دي ليتان**" – مربي ابنه – بأن يكتبها، وقد ألف "**دي ليتان**" بضعة أبيات تناسب المقام، وبعد ثمانية أيام من موافاتي بها، كانت الأنشودة معدة.

وفي هذه المرة، كان الغيظ هو ملهمي، فلم تخرج من بين يدي يوما موسيقى أجزل من هذه!.. وقد بدأت أبياتها بهذه الكلمات اللاتينية: Ecce sedes hic Tonantis (١).

وكانت روعة المقدمة الموسيقية، تتمثل في مجاراة الكلمات، فكانت الأنشودة بأسرها من البهاء بحيث بُهِتَ كل امرئ إعجابا!.. وكنت قد وضعت اللحن لفرقة موسيقية كبيرة، وقد حشد "**ديبيناي**" خير العازفين، وتولت السيدة "**برونا**" – وهي مغنية إيطاليا – إلقاء الأنشودة، وكان العزف رائعا في مصاحبتها. وقد نجحت الأنشودة نجاحا باهرا، حتى إنها ألقيت بعد ذلك في حفلات "**الموسيقى الروحية**"، حيث لقيت نفس الإعجاب مرتين، وبالرغم من الدسائس الخفية ومن سوء الإخراج!.. كذلك اقترحت – بمناسبة عيد ميلاد السيد "**ديبيناي**" – قطعة غنائية نصفها تمثيل عادي، ونصفها تمثيل صامت بالإيماء، وقد تولت السيدة "**ديبيناي**" تأليف الكلام، وتوليت أنا تأليف الموسيقى، ولقد سمع "**جريم**" – عند وصوله – بانتصاراتي الموسيقية، ولم تنقض ساعة حتى لم يعد ثمة حديث عنها، ولكن لم يعد ثمة ريب – على الأقل – في أنني كنت أعرف التلحين وأحذقه!

*****

وما إن استقر "**جريم**" في "**لاشيفريت**" – حيث كنت لا أشعر بكثير من الانشراح – حتى أفلح في أن يجعل بقائي هناك أمرا لا يطاق، وذلك بتصرفات لم أرها تبدو من أحد قط قبل ذلك، ولا كانت تخطر لي على بال. ففي اليوم السابق على وصوله، نقلت من أفضل غرف الضيوف – وهي التي كانت تجاور مخدع السيد "**ديبيناي**" – ليحتلها "**جريم**" بينما أفردت لي غرفة أخرى، في أقصى أطراف الدار، وقد قلت للسيدة "**ديبيناي**" ضاحكا: "ألا انظري كيف يطرد الوافدون الجدد النزلاء القدامى!" فبدا عليها الارتباك!.. وقد فهمت السر في ذلك بجلاء، في ذلك المساء حين علمت أن ثمة بابا خفيا بين مخدعها والمخدع الذي فارقته، وأنها لم تكن قد رأت جدوى من إطلاعي عليها ولم تكن علاقاتها بـ"**جريم**" سرا على أحد، سواء في قصرها، أو في المجتمع بل ولا على زوجها نفسه!.. ومع ذلك فإنها بدلا من أن تأتمنني عليها أصرت على إنكارها، برغم أنني كنت الأمين على أسرار تفوقها قيمة، وكانت هي تدرك أن هذه الأسرار بمأمن لدي، ولقد أدركت أن التحفظ كان راجعا إلى

---

(١) أضاف "روسو" إلى هذا تعقيبا فيه: علمت فيما بعد أن هذه الكلمات كانت من نظم "دي سانتوبي"، وأن السيد "دي ليتان" نسبها إلى نفسه!

"**جـريم**" الذي لم يكن راغبا في أن تكون في حوزتي أية أسرار تمسه برغم أنه كان مستودع أسراري جميعا!

وشفعت له عواطفي القديمة – التي لم تكن قد خمدت – وكفاءته الحقة، بيد أنها لم تستطع أن تصمد أمام العناية التي راح يبذلها لكي يهدمها!.. فقد كان سلوكه إزائي، شبيها بسلوك الكونت "**دي توفيير**" (١)، حتى إنه لم يكد يتكرم برد تحيتي حينما استقبلني، لا ولم يوجه إليَّ كلمة واحدة، وسرعان ما أعفاني من أن أخاطبه؛ إذ لم يحاول أن يوجه إليَّ ما أجيب عنه البتة، وكان يتقدمني في أي مكان، دون أن يحاول قط أن يحفل بي، ولقد كان بوسعي أن أتجاوز عن هذا لولا أنه أبدى حرصا على جرح كرامتي، ويكفي أن أسوق واقعة واحدة من ألف؛ ليتسنى الحكم على ذلك: ففي ذات مساء، شعرت السيدة "**ديبيناي**" بتوعك بسيط؛ فطلبت إلى الخدم أن يحملوا إليها بعض الطعام في مخدعها بالطابق العلوي، حيث اعتزمت أن تتناول العشاء إلى جانب المدفأة، ودعتني إلى الصعود معها إلى المخدع؛ فلبيت. وما لبث "**جريم**" أن أقبل بعد ذلك.

وكانت المائدة الصغيرة قد أعدت، بحيث لا تضم سوى شخصين، وأحضر الطعام؛ فاتخذت السيدة "**ديبيناي**" مجلسها إلى أحد جانبي المدفأة، واستولى السيد "**جريم**" على مقعد وثير، فاستقر فيه، إلى الجانب الآخر، وجر المائدة فجعلها بينهما، ونشر المنشفة، وشرع في الأكل دون أن ينبس ببنت شفة لي!.. وتضرج وجه السيدة "**ديبيناي**" خجلا؛ ولكي تحمله على أن يعتذر عن تصرفه النابي عرضت عليّ مكانها، ولم يقل "**جريم**" شيئا ولا هو تطلع نحوي، ولما لم يكن لي من سبيل كي أقترب من المدفأة؛ فقد قررت أن أذرع الحجرة ريثما يحضرون لي أدوات للمائدة.. وتركني أتناول عشائي في طرف المائدة بعيدا عن النار، دون أن يبدي أتفه اعتذار لي وقد كنت أكبره سنا، وكنت معلولا، وكنت صديقا قديما للأسرة وقد قدمته بنفسي إليها؛ فكان خليقا به أن يكرمني لذلك، لاسيما وهو الأثير لدى السيدة!.. وكانت كل تصرفاته معي تشبه كثيرا هذا النموذج. فقد كان يعاملني وكأنني أقل منه شأنا حقا، وكان يعتبرني كما لو أنني لم أكن شيئا يذكر! وكان من العسير عليَّ أن أعرف فيه "**خادم المدرسة**" الذي التحق بخدمة الأمير "**ساكس – جوتا**"، والذي كان يرى في احتفائي به شرفا وتكريما!.. ووجدت عناء أشد في أن أوفق بين هذا الصمت العميق، وهذا الترفع المهين، وبين تلك الصداقة اللطيفة التي كان يتظاهر بأنه يكنها لي، أمام أولئك الذين كان يعرف أنهم إياها فعلا!.. ومن الصحيح أنه لم يكن بيدي شيء اللهم إلا ليرثي لحالي – التي لم أكن أشكو منها على الإطلاق! – ويشفق على حظي المحزن – الذي كنت قريرا به! – ولينعى عليَّ أنني كنت أرفض في فظاظة اللفتات الكريمة، التي كان يعلن أنه مشوق إلى إظهارها نحوي!.. وبفضل هذا الدهاء استطاع أن يحمل القوم على أن يعجبوا بعطفه الكريم، وعلى أن يعتبوا على نفوري الجاحد.. كما استطاع أن يوهم الناس أجمعين دون أن يفطنوا – بألا يتصوروا أن تقوم بين راع شهم مثله، وتعس شقي مثلي روابط الإحسان من أحد الطرفين، وروابط الالتزام والامتنان من الطرف الآخر.. دون أن يخطر ببالهم – ولو على قبيل الاحتمال – أن هذه الروابط قد تكون صداقة بين ندين متكافئين!

وعبثا حاولت – من ناحيتي – أن أتبين أي اعتبار يخضعني لأي التزام إزاء هذا الراعي الجديد. فلقد أقرضته نقودا، ولكنه لم يقرضني شيئا البتة.. ولقد سهرت عليه في مرضه، ولم يكد هو يعودني في مرات سقامي.. ولقد عرفته بكل أصدقائي ولكنه لم يعرفني يوما بواحد من أصدقائه.. ولقد أطريته بكل جهدي أما هو.. إذا كان قد أطراني يوما، فإنما فعل في أضيق نطاق من العلانية،

---

(١) شخصية في إحدى المسرحيات الفكهة، هي مسرحية "المظفرون" من تأليف "ديتوش". وقد ظهرت في سنة ١٧٣٢.

وبطريقة أخرى!.. وما أدى لي يوما – بل ولم يعرض استعداده لأداء – خدمة من أي نوع. فكيف إذن كان الراعي الذي غمرني بعطفه؟.. وكيف كنت الأثير المعتمد على رعايته؟.. لقد كان هذا – وما يزال – فوق إدراكي!

ومن الصحيح – إلى حد ما، كثر أو قل هذا الحد – أنه كان شرسا مع كل الناس، ولكنه لم يذهب في شراسته إلى درجة الضراوة مع سواي.. وإني لأذكر أن "**سان – لامبير**" أوشك – ذات مرة – أن يطوح بطبق الطعام إلى رأس "**جريم**"، إذ تجرأ على أن يكذبه جهارا على المائدة، قائلا في قحة: "هذا غير صحيح!". وكان يقرن لهجته الساخرة – بطبيعتها – بعجرفة الشخص الحديث العهد بالنعمة.. بل إنه أصبح موضع استهجان، بفضل سفاهته!.. فقد أغراه اختلاطه بكبار القوم على أن يتراءى بمظاهر لم تكن لتؤخذ على أنها معقولة، حتى بين هؤلاء القوم!

ولم يكن ينادي خادمه إلا بكلمة "أيه!"، وكان السيد الجليل الشان قد أوتي عددا كبيرا من الخدم فهو لا يدري أيهم المنوب بخدمته!.. وإذا منحه عطاء، كان يلقي به على الأرض بدلا من أن يدسه في يده، وقصارى القول إنه كان ينسى أن الخادم إنسان، فكان يوسعه ازدراء وقسوة – في كل مناسبة – بدرجة تثير النفس، حتى إن الفتى – وكان من خيرة الخدم، وقد نزلت له عنه السيدة "**ديبيناي**" – لم يلبث أن ترك خدمته دونما شكوى، سوى عدم احتماله هذه المعاملة!.. فكان على شاكلة "**لافلير**" في مسرحية "**المظفرون**" الفكهة!

ولقد كان بليد الذهن بقدر ما كان مغرورا، وكان يخال أنه – بعينيه الكبيرتين، ووجهه المترهل – ذو حظوة عظيمة لدى السيدات، فإن عددا من أفراد الجنس اللطيف اعتبرنه – بعد تمثيلية الآنسة "**فيل**" الخرافية (١) – رجلا ذا عواطف مشبوبة.

وقد أذاع ذلك صيته في المجتمع، وأكسبه ميلا إلى أناقة النساء، فراح يتجمل، وأصبحت زينته عملية خطيرة، وكان الناس جميعا يعرفون أنه يستخدم المساحيق والمعاجين.. أما أنا فلم أكن أعتقد ذلك، ولكنني لم ألبث أن بدأت أصدقه، لا لجمال بشرته، ولا لمجرد أنني كنت أجد أواني المعاجين على مائدة زينته، وإنما لأنني وجدته – إذ ولجت مخدعه ذات صباح – منهمكا في تنظيف أظفاره بفرجون صغير صنع لهذه الغاية!.. وهي عملية واصل أداءها أمامي مزهوا، وحدست أن الرجل الذي يقضي ساعتين من كل صباح في تنظيف أظفاره، لا يضن ببضع دقائق لكي يملأ تجاعيد جلده بالمعاجين!.. لقد أطلق عليه "**جوفكور**" الطبيب – الذي لم يكن غبيا – اسم "**تيران الأبيض**"، على سبيل الدعابة والهزء!

*****

ولم تكن كل هذه سوى سفاسف مضحكة ولكنها كانت تخالف أخلاقي، وقد انتهت بأن حملتني على الشك في أخلاقه، فإنني لا أكاد أصدق أن رجلا استولت على رأسه النزوات، يملك لقلبه قيادا في الطريق السوي، ولقد كان يفخر بحساسية روحه وعنفوان مشاعره أكثر مما يفخر بأي شيء آخر. فكيف يتفق هذا مع تلك العيوب التي لا تلصق بغير ذوي العقول الصغيرة؟.. وكيف تسمح له الانطلاقات الحية المتواصلة، التي تحلق بها مشاعر القلب الحساس – خارج نطاق هذا القلب – أن يشغل باله بأمور تافهة تتعلق بشخصه الضئيل؟.. آه، يا إلهي!.. إن الذي يشعر أن فؤاده يكتوي بهذه النار السماوية يسعى عادة إلى أن ينفثها خارجه، وإلى أن يكشف دخيلة نفسه.. إنه

---

(١) كان "جريم" قد أحب الآنسة "فيل" – دون أن تبادله هي الحب – فانتابته غيبوبة عجيبة..

يتلهف إلى أن يعرض قلبه على أسارير وجهه، ولا يفكر قط في أية معاجين، أو أية زينة لهذا الوجه!

ولقد تذكرت خلاصة فلسفته الخلقية، كما أنبأتني بها السيدة "**ديبيناي**" التي كانت قد انتهجتها، وهذه الخلاصة تضم مبدأ واحدا: ذلك هو أن الواجب الأوحد للإنسان هو أن يسير وراء نوازع قلبه، في كل شيء!.. ولقد أمدني هذا القانون الخلقي - حين سمعت به - بمادة بغيضة للتفكير، برغم أنني لم أعتبره - في ذلك الوقت - أكثر من فكاهة.. على أنني سرعان ما تبينت أن هذا المبدأ كان قاعدة تصرفات الرجل فعلا، ولم أزد - فيما بعد - إلا تثبتا من ذلك، وإن جاء الدليل على حسابي أنا!.. كان ذلك هو المذهب الباطني، الذي كثيرا ما حدثني عنه "**ديدرو**"، وإن لم يعمد قط إلى الإيضاح والشرح.

وتذكرت كذلك الإنذارات العديدة التي تلقيتها - قبل ذلك بسنوات - لتنبيهي إلى أن ذاك الرجل كان غشاشا، وأنه كان يعبث بالمشاعر دون أن تكون لديه عواطف ما، بوجه خاص. واستعرضت عدة وقائع صغيرة، كان السيد "**دي فرانكويي**" والسيدة "**دي شينونسو**" قد ذكراها لي بهذا الصدد.. فما كان أي منهما ليوليه اعتبارا، ولابد أنهما كانا على دراية طيبة به؛ إذ إن السيدة "**دي شينونسو**"، كانت ابنة السيد "**دي روشيشوار**" الصديقة الحميمة للراحل الكونت "**دي فريز**".. كما أن السيد "**دي فرانكويي**" - الذي كان وثيق الصلة بالفيكونت "**دي بولينياك**" في تلك الفترة - كان كثير التردد على القصر الملكي، في عين الوقت الذي سمح لـ"**جريم**" فيه بدخوله، ولقد عرفت "**باريس**" بأسرها نبأ اليأس الذي استولى عليه عقب وفاة الكونت "**دي فريز**"، وكان همه الأكبر هو الاحتفاظ بالصيت الذي اكتسبه، بعد المعاملة القاسية التي لقيها من الآنسة "**فيل**"، والتي كان من الخليق بي أن أكون أقدر الناس على كشف زيف الضجة التي ترتبت عليها لو أنني كنت أقل عمى وغفلة!.. كان لابد من جره إلى قصر "**دي كاستري**"، حيث أدى دوره بمهارة مصطنعا أقوى وجد فتاك، وكان في كل صباح يسعى إلى الحديقة؛ ليبكي ما شاء له البكاء، ممسكا أمام عينيه بمنديل مبتل بالدموع، طالما كان على مشهد من القصر، وما إن يعرج مع انحناءة الطريق - إلى شارع ضيق - حتى يدس المنديل في جيبه بعد أن يخرج من هذا كتابا، على ما رآه أشخاص لم يكن لديه أي ظن عن أنهم كانوا يشاهدونه!

لقد رُؤِي - وهو يفعل ذلك - أكثر من مرة، سرعان ما أصبح النبأ مشاعا في "**باريس**" ولكنه لم يلبث أن راح منسيا.. حتى أنا نسيته، ولكن مسألة تخصني عادت تذكرني به.

فلقد كنت طريح الفراش، على أعتاب الموت، في المسكن الذي كنت أتخذه في شارع "**دي جرينيل**" بينما كان هو في الريف، وفي ذات يوم، أقبل ليعودني، وهو لاهث الأنفاس، وقال إنه قد وصل لتوه من ريفه، وإن هي إلا دقيقة، حتى علمت أنه وصل في اليوم السابق، وأنه شوهد في المسرح، في اليوم ذاته!

ولقد عاودتني ألف من هذه الوقائع الصغيرة، ولكن أشد ما أذهلني، تمثل في شيء دهشت لأنني لم أفطن إليه من قبل. ذلك أنني كنت قد قدمت "**جريم**" إلى جميع أصدقائي، دون استثناء، فلم يلبثوا أن أصبحوا جميعا أصدقاء له، وكنت لا أكاد أنفصل عنه حتى لقد بات من المتعذر أن أواصل التردد على بيت لم يكن له هو حق دخوله، ولم يرفض زيارته سوى السيدة "**دي كريكي**"، ومن ذلك الحين انقطعت عن زيارتها انقطاعا يكاد يكون تاما.. ولقد تعرف "**جريم**" - من ناحيته - على أصدقاء آخرين، سواء كان قد اتصل بهم بنفسه، أو عن طريق الكونت "**دي فريز**"، ولم يقدر لأحد

من أصدقائه جميعا أن يغدو صديقا لي. كما أنه لم يفه بكلمة واحدة لحملي على التعرف بهم، على الاقل.. وما أظهر لي واحد من كل أولئك الذين كنت ألتقي بهم في مسكنه أحيانا أية نية حسنة.. ولا الكونت "**دي فريز**" الذي كان "**جريم**" يقيم لديه – والذي كان يسرني أن أوثق الصلات معه – ولا الكونت "**دي شومبيرج**"، قريبه الذي كانت العلاقة بينه وبين "**جريم**" تفوق الود الوثيق!

وهناك ما يفوق ذلك.. فإن أصدقائي الأصليين، الذين جعلت منهم أصدقاء له – والذين كانوا على صلات وثيقة معي قبل هذا التعارف – لم يلبثوا أن تغيروا نحوي بعده.. أبدا لم يقدم لي أحدا من أصدقائه، وإن كنت قد قدمت إليه كل أصدقائي.. ومع ذلك فإنه انتهى إلى أن حرمني منهم جميعا. فإذا كانت هذه هي نتائج الصداقة فما هي نتائج البغضاء؟

ولقد حذرني "**ديدرو**" مرات عدة – منذ البداية – من أن "**جريم**" الذي أوليته كل هذه الثقة، لم يكن صديقا لي، وما لبث أن بدل لهجته عندما كف عن أن يكون صديقا لي، هو الآخر!

*****

ولم تتطلب الطريقة التي تصرفت في أولادي بمقتضاها، معونة من أحد، ومع ذلك فقد أطلعت عليها أصدقائي لمجرد إطلاعهم؛ حتى لا أبدو في أعينهم أفضل مما كنت، وكان هؤلاء الأصدقاء ثلاثة فحسب: "**ديدرو**"، و"**جريم**"، والسيدة "**ديبيناي**"، ولقد كان "**ديكلو**" – وهو أجدر أصدقائي بثقتي – الوحيد الذي لم أنبئه، ومع ذلك فإنه عرف بالأمر.. ممن؟.. لست أدري. ومن المتعذر احتمال أن تكون السيدة "**ديبيناي**" هي المذنبة بخيانة الثقة – في هذه المرة – لأنها كانت تعلم خير العلم أنني إذا حذوت حذوها – لو أنني كنت قادرا على مثل هذا العمل – لثأرت لنفسي بقسوة!.. ويبقى بعد ذلك "**جريم**" و"**ديدرو**" اللذان كانا – في ذلك الوقت – وثيقي الارتباط في كثير من الأمور، لا سيما ما يكون منها ضدي.. ومن ثم فهناك أكثر من مجرد الاحتمال بأنهما المذنبان معا!..

وأراهن على أن "**ديكلو**" – الذي لم أكاشفه بسري، والذي لم يكن مضطرا لذلك إلى الصمت – كان هو الوحيد الذي لم يشي بهذا السر!

ولقد بذل "**جريم**" و"**ديدرو**" – في محاولتهما لإقصاء "**المربيتين**" عني – جهدا لاستدراج "**ديكلو**" إلى المساهمة في خططهما ولكنه كان يرفض دائما في ازدراء، ولم يحدث إلا فيما بعد أن علمت منه كل ما جرى بينه وبينهما بهذا الصدد. ولكنني كنت إذ ذاك قد عرفت من "**تيريز**" ما كان كافيا لأن أبصر في المسألة كلها غاية خفية، وأنهما كانا مشوقين إلى أن يتخلصا مني، دون أفطن – على الأقل – إن لم يكن بالرغم مني.. أو أنهما – على الأرجح – كانا يبغيان أن يستغلا هاتين المرأتين كأداتين في خطة سرية، ولقد كان في كل ذلك شيء غير شريف، حقا، وهذا ما تدل عليه معارضة "**ديلكو**"، دون نزاع، فليبر من يشاء في هذا صداقة أو ودا!

لقد كانت هذه الصداقة المزعومة خطرة على حياتي الداخلية، كما كان شأنها على حياتي الخارجية. فإن الأحاديث الطويلة، والعديدة، مع السيدة "**لوفاسير**" – لعدة سنوات قبل ذلك – قد بدلت من مشاعر هذه المرأة نحوي بدرجة ملموسة.. ومن المحقق أن هذا التبدل لم يكن في صالحي.

فماذا كان موضوع الحديث – إذن – خلال هذه الخطوات العجيبة؟.. وما السر في هذا الغموض العميق؟.. وهل كان حديث هذه المرأة العجوز مستحبا إلى درجة اعتباره نعمة، أو مهما إلى درجة تدعو إلى فرض مثل هذا الغموض حوله؟..

لقد بدت لي هذه الاجتماعات مضحكة، خلال السنوات الثلاث أو الأربع التي دامتها، ولكني عندما تدبرتها بدأت أعجب منها، وكان هذا الشعور بالعجب كفيلا بأن ينتهي إلى عدم الارتياح، لو أنني عرفت – إذ ذاك – ما كانت هذه المرأة تتآمر عليه ضدي.

وعلى قدر ما كان "**جـريم**" يتظاهر به من تحمس من أجلي – كان يطنطن به المجتمع، وكان من العسير أن يتفق مع المسلك الذي راح يسلكه نحوي بالذات – فإنني لم أكسب شيئا من هذا التحمس، من أية ناحية.. بل إن الإشفاق الذي كان يتظاهر به نحوي أدى إلى الحط من قدري أكثر مما أدى إلى نفعي، بل إنه – بقدر ما كان يملك – قد جردني من أرباح المهنة التي اخترتها لنفسي؛ إذ راح يعلن أنني لم أكن أتقن النسخ، وأقر أنه كان صادقا في قوله غير أنه لم يكن مما يليق به أن يقوله، وقد أيقنت أنه لم يكن مازحا؛ إذ إنه استخدم ناسخا غيري، ولم يدع لي عميلا كان يستطيع إليه وصولا، حتى ليجوز أن يقال إن غايته كانت تتمثل في أن يجعلني عالة عليه وعلى اهتمامه بأن يكفلني وذلك بأن يستنفد مواردي؛ حتى أنحدر إلى مثل هذه الحال!

أما وقد ألمت بكل هذا فقد بادر عقلي إلى فرض الصمت على آرائي السابقة في "**جـريم**"، وهي الآراء التي كنت قد ظللت أرددها – لصالحه – حتى ذاك الحين، ورأيت أن أخلاقه كانت جد مثيرة للشبهات، على الأقل. أما وده وصداقته، فقد قطعت بأنهما زائغتان؛ وإذ عقدت العزم – بناء على ذلك – ألا أراه ثانية، فقد بادرت إلى إنباء السيدة "**ديبيناي**" بذلك، وعززت قراري بعدة مبررات لا سبيل إلى ردها، وإن كنت قد نسيتها الآن!

ولقد عارضت السيدة "**ديبيناي**" هذا العزم بشدة، دون أن تدري تماما ما ترد به على الحجج التي أقرت رأيي، ولم تكن قد شاورته في الأمر بعد، ولكنها بدلا من أن تفصح عن موقفها شفويا إليّ أرسلت – في اليوم التالي – خطابا صيغ ببراعة اشتركا فيها معا، وقد التمست لـ"**جـريم**" فيه العذر – دون خوض في تفصيلات أي شيء – استنادا إلى طباعه المنطوية، واعتبرته جرما أن أتهمه بخيانة صديقه، وحضتني على أن أصلح ما بيننا، ولقد زعزع خطابها عزمي!.. وفي حديث دار بيننا بعد ذلك – وجدتها خلاله أحسن استعدادا منها في المرة الأولى – ارتضيت أن أنهزم، وملت إلى الاعتقاد بأنني ربما كنت قد أسأت الحكم، وأنني – في هذه الحال – قد أخطأت فعلا في حق صديق، أشنع خطأ، مما كان يلزمني بإصلاح ذات البين. وبالإيجاز، فعلت في هذه المرة، ما فعلته عدة مرات من قبل إزاء "**ديـدرو**" والبارون "**دولبـاخ**".. وأقدمت طواعية – من ناحية – وبدافع من ضعفي، من ناحية أخرى، على كل هذه المساعي، التي كان عليّ أن أفعلها: فذهبت – "**كـجـورج داندان**" آخر (١) – لزيارة "**جـريم**"؛ كي أعتذر له عن الإهانات التي ارتكبها هو ضدي؛ إذ كنت منساقا دائما للاعتقاد الخاطيء، الذي عرضني طيلة عمري لألف صغار وضعة أمام أصدقائي المزعومين.. الاعتقاد بأنه ما من بغضاء تصل في قوتها إلى درجة يستعصي معها على اللطف وحسن التصرف أن يغلباها.. في حين أن الأمر على النقيض، فإن كراهية الخبثاء إنما تقوى وتشتد بفضل استحالة العثور على ما يبررها، كما أن شعورهم بذنوبهم لا يؤدي إلا إلى زيادة حقدهم على ضحيتهم!

وعندي – بدون خروج عن سياق قصتي – دليل جد قوي على هذه النظرية، يتمثل في تصرف "**جـريم**" و"**ترونشـان**" اللذين صارا الد عدوين لي، عن ميل، وعن لذة، وعن نزوة، دون أن يملكا قط أن يذكرا واقعة واحدة – من أي نوع كانت – أكون قد آذيت بها أيا منهما.. وكان هياجهما –

---

(١) "جورج داندان" إحدى شخصيات مسرحية "موليير" الفكهة "الزواج الخجول"؛ وقد كان "داندان" فلاحا تزوج من امرأة من بنات الأسرات العريقة ذات الجاه.

كهياج النمر – يزداد يوما بعد يوم؛ نظرا للسهولة التي كانا يستمرئانه بها!

*****

ولقد توقعت أن يستحي "جريم" من تنازلي، ومن مساعي للصلح؛ فيتلقاني بذراعين مفتوحتين، وبأرق العواطف. ولكنه – في الواقع – استقبلني وكأنه إمبراطور روماني.. في ترفع لا مثيل له، ولم أكن على استعداد إطلاقا لهذا الاستقبال؛ وإذ ارتبكت لاضطراري إلى أن أؤدي دورا كهذا لا يلائمني، أوضحت غرض زيارتي في بضع كلمات مترددة، وقبل أن يتقبلني في جنة رضاه، راح يلقي – في كثير من التعاظم – حديثا طويلا، كان قد أعده من قبل وضمنه عددا من سجاياه النادرة، لا سيما في مضمار الصداقة، وأسهب فترة في ذكر أمر أثر في نفسي كثيرا في البداية: ذلك هو أن الناس كانت ترى فيه دائما حرصه على الاحتفاظ بأصدقائه، وفيما كان يتكلم رحت أقول لنفسي: إن من القسوة – من ناحيتي – أن أكون المستثنى الوحيد من هذه القاعدة، ولقد أكثر من العودة إلى هذا الأمر، في تكلف بالغ، حتى إنه جعلني – في النهاية – أرى أنه إذا لم يكن منساقا في هذا لغير أحاسيس قلبه لكان أقل تأثرا بهذا الأمر الذي انطلق في شرحه مسهبا.. وأنه كان يستغله كحيلة نافعة يصل بوساطتها إلى الغاية التي يقصدها من آرائه هذه!.. ولقد كنت – حتى ذلك الحين – على مثل هذه الحال: فلقد اعتدت دائما أن أحتفظ بأصدقائي، وما فقدت – منذ طفولتي – واحدا منهم اللهم إلا بالموت، ومع ذلك فإنني لم أجعل من هذا الاحتفاظ شاغلا أطيل التفكير فيه.. ولا جعلت منه مبدأ أضعه لنفسي.

وإذا كانت هذه ميزة متوفرة لدى كل منا فلماذا يزهو بها هو وحده، اللهم إلا إذا كان قد فكر فعلا في أن يجردني منها؟.. ولقد عمد – بعد ذلك إلى الحط من قدري، بأن راح يبرهن على أن الأصدقاء المشتركين بيننا يفضلونه عليَّ أنا!.. وكنت أكثر منه علما بهذا التفضيل، ولكن المهم في الأمر، هو: بأي ثمن ظفر به؟.. أفكان ذلك لأنه أوتي مواهب أو براعة تفوق مواهبي أو براعتي.. أو لأنه كان يرقى بنفسه، أو لأنه كان يسعى إلى الحط من قدري؟.. وأخيرا، وبعد أن أرضى نفسه بأن أقام بيني وبينه من الفوارق ما يكفي لأن يجعل للعفو الذي كان يوشك أن يمنحه قيمة منحني قبلة صلح، في عناق واهن، كذلك الذي يتكرم به الملك على من ينصبهم فرسانا.. وهويت من المكان العالي.. ووجدتني مشدوها، لا أدري ما ينبغي أن أقول، بل إنني لم أعثر على كلمة واحدة.. لقد كانت المقابلة كلها تبدو كتأنيب يوجهه أستاذ إلى تلميذ وهو يعفيه من عقوبة الضرب!.. وما فكرت في ذلك قط إلا شعرت بمدى خداع الحكم الذي يقوم على المظاهر – والذي يضفي عليه السوقة أهمية وقيمة – وبكثرة ما تكون الجرأة والكبرياء من حظ المذنب.. والحياء والارتباك من حظ البريء.

واصطلحنا!.. كان هذا عزاء – على الأقل – لقلبي الذي كان كل خلاف يدفع به إلى اللواعج القاتلة!.. ومن الصواب أن يحدس المرء أن مثل هذا الصلح لم يبدل من أخلاق "جريم" وتصرفاته.. وكل ما أدى إليه هو تجريدي من حق الشكوى من هذه التصرفات!.. ومن ثم فقد عولت على أن أتحمل كل شيء، دون أن أفضفض بشيء ما!

*****

هذه الهموم الكثيرة التي تعاقبت ضرباتها، واحدة بعد أخرى، طوحت بي إلى حال من الضنى لم تدع في كياني جهدا ليمكنني من أن أستعيد السيطرة على نفسي.. وإذ لم أكن قد تلقيت أي رد من "**سان - لامبير**"، وقد أصبحت موضع إهمال لدى السيدة "**دوديتو**"، ولم أعد أجرؤ على أن أبوح بما في قلبي لإنسان ما؛ فقد بدأ الخوف يراودني من أن أكون قد ضيعت حياتي ضحية للأوهام؛ إذ جعلت من الصداقة معبودا لقلبي!.. وكان الدليل على هذا قائما؛ إذ لم يكن قد بقي لي - من كل أصدقائي - سوى رجلين، ظلا محتفظين بتقديري، وكان قلبي يركن إليهما ويأمنهما: "**ديلكو**" - الذي حرمت من رؤيته منذ اعتكافي في "**ليرميتاج**" - و"**سان لامبير**"

ووقر في نفسي أنني لن أستطيع أن أصلح من أخطائي نحو هذا الأخير، إلا بأن أفتح له مغاليق قلبي دون تحفظ.. فعزمت على أن أعترف له اعترافا كاملا، بكل ما لا يحرج عشيقته، ولم يخطر لي ببال، أن هذا الاختيار، كان أحبولة أخرى نصبها لي هواي؛ ليقربني من السيدة.. ولكن من المحقق أنني كنت على استعداد لأن ألقي بنفسي بين ذراعي عشيقها دونما تحفظ، وأن أنصاع لإرشاده انصياعا تاما، وأن أمضي في صراحتي إلى أبعد مدى أستطيع الوصول إليه!

وكنت على استعداد لأن أكتب إليه رسالة ثانية، وأنا موقن من أنه سيجيب عنها عندما علمت بالسبب المحزن الذي دعاه إلى الصمت إزاء الرسالة الأولى: ذلك أنه لم يتحمل إرهاق الحملة، وقد أخبرتني السيدة "**ديبيناي**" بأنه أصيب بنوبة فالج، كما أن السيدة "**دوديتو**" - التي انتهى بها الغم إلى أن مرضت هي الأخرى، والتي لم تكن في حال تمكنها من الكتابة إليَّ في الحال - أرسلت إليَّ كلمة، بعد يومين أو ثلاثة، من "**باريس**" - حيث كانت في ذلك الحين - وقالت إن "**سان - لامبير**" رغب في أن ينقل إلى "**أكس لاشابيل**"؛ ليستشفي بمياهها، ولن أقول إن هذا النبأ المحزن أسقمني كما أسقمها، ولكنني أرتاب في أن الأسى الذي بعثه في نفسي كان أقل إيلاما من لوعتها ودموعها!.. فإن الاغتمام الذي نشأ عن معرفة أنه كان في حال كهذه تضاعف من جراء الخوف من أن يكون القلق النفسي (١) قد ساهم في ذلك، مما كان له في نفسي أثر قلق كل ما جرى لي شخصيا، وتولاني شعور قاس بأنني - في تقديري الخاص لنفسي - كنت أفتقد القوة المنشودة لكي أحتمل مثل هذا الأسى!

على أن هذا الصديق الكريم، لم يدعني طويلا، في مثل هذا الهم - لحسن الحظ - إذ إنه لم ينسني، بالرغم من مرضه، وما لبثت أن علمت منه شخصيا أنني كنت قد أسأت الحكم على مشاعره وحاله!

ولكن الوقت قد حان؛ لكي أنتقل إلى الانقلاب الكبير - والمفاجئ - الذي طرأ على مصيري.. إلى النكبة التي شطرت حياتي شطرين متباينين، والتي أدت - من جراء سبب جد تافه - إلى عواقب فظيعة!

*****

ذلك أن السيدة "**ديبيناي**" أرسلت - ذات يوم - تستدعيني، على غير توقع البتة. فلما ولجت مخدعها لمحت في عينيها، وفي أساريرها كلها ما يوحي بأنها كانت مضطربة، الأمر الذي زاد من دهشتي؛ إذ إنه لم يكن مألوفا، فما كان في الدنيا من يحذق السيطرة على أساريره وحركاته مثلها!..

---

(١) القلق النفسي الذي نشأ عن غضب "سان - لامبير" من علاقة "روسو" بعشيقته.

وقالت لي: "إنني راحلة إلى **"جنيف"** ياصديقي، فإن صدري في حالة سيئة، وصحتي في انهيار يجعلني أهمل كل شيء؛ إذ لابد لي من الذهاب كي أزور **"ترونشان"** واستشيره".. ولقد أدى هذا القرار - الذي اتخذ بغتة، وفي بداية الفصل السيئ (١) - إلى مضاعفة دهشتي.. فهي لم تشر بكلمة واحدة إلى هذا الأمر، عندما فارقتها قبل ذلك بست وثلاثين ساعة!.. وسألتها عمن تعتزم اصطحابه، فقالت: إنها كانت راغبة في أن تصطحب ابنها والسيد **"دي ليبنان"**، ثم أضافت في غير اكتراث: "وأنت يا **"دبي"**.. الا تأتي أنت الآخر؟". ولما كنت موقنا من أنها لم تكن جادة في حديثها - إذ كانت تعلم أنني في مثل تلك الآونة من السنة، التي كنا مقبلين عليها، أكون في حال لا تكاد تسمح لي بمبارحة مخدعي - فقد رحت أتفكه ساخرا من رفقة معلول لمعلول آخر!.. وما كانت هي نفسها تعني ما عرضت؛ ومن ثم فإن الأمر انتهى عند هذا الحد، ولم نعد نتحدث إلا عن الاستعداد للرحلة، وهو الأمر الذي انهمكت فيه بكل همة، وعقدت العزم على أن تسافر بعد خمسة عشر يوما.

ولم أكن بحاجة إلى كثير من بعد النظر؛ لكي أدرك أن ثمة دافعا خفيا على هذه الرحلة، كتم عني. وهذا السر - الذي لم يكن سرا على أحد سواي في البيت كله - لم يلبث أن تكشف في اليوم ذاته بوساطة **"تيريز"**. فقد أنبأها به كبير الخدم؛ إذ سمعه من وصيفة السيدة!.. ومع أنني بعيد عن أي التزام - نحو السيدة **"ديبيناي"** - يضطرني إلى كتمان هذا السر؛ لأنني لم أعرفه منها إلا أنه وثيق الارتباط بأولئك الذين نمي إليَّ عن طريقهم؛ ومن ثم فليس في وسعي أن أبوح به. على أن هذه الأسرار - التي لم تخرج، ولن تخرج، من فمي، أو على قلمي - لم تلبث أن غدت معروفة لدى كثير من الناس فلم يكن في الوسع أن تظل مجهولة لدى أحد من المحيطين بالسيدة **"ديبيناي"** (٢).

ولقد كان خليقا بي - عندما ألممت بحقيقة الدافع على هذه الرحلة - أن أتبين أن ثمة إيعازا خفيا من عدو لي حاول أن يجعل مني مرافقا للسيدة **"ديبيناي"**. ولكنها لم تلح عليَّ البتة كي أرافقها؛ ومن ثم فإنني ظللت أعتبر المحاولة أمرا غير جدّي.. ولم أفعل أكثر من أن ضحكت من الشكل الذي كنت أوشك أن أظهر فيه، لو أنني كنت من الغباء بحيث اضطلعت بالمهمة. وبجانب هذا، فإنها كسبت برفضي كثيرا؛ إذ مكنها هذا من أن تغري زوجها بمصاحبتها!

وبعد أيام قلائل، تسلمت الرسالة التالية من **"ديدرو"**. وكانت هذه الرسالة مطوية طيتين، بحيث يستطيع أي امرىء أن يقرأ محتوياتها، وكان العنوان يحمل اسمي مردفا بهذه العبارة: "عن طريق السيدة **"ديبيناي"**، وعهد بها إلى السيد **"دي ليبنان"**، أستاذ الابن ومستودع الأم!

رسالة من "ديدرو"

(الملف ١ - رقم ٥٢)

"لقد خلقت لكي أحبك ولكي أؤلمك. لقد علمت أن السيدة **"ديبيناي"** راحلة إلى **"جينف"**،

---

(١) يقصد فصل الشتاء.   (٢) كان الدافع السري للرحلة - كما غدا معروفا - هو أن السيدة "ديبيناي" حملت؛ نتيجة علاقتها بالسيد "جريم"، ولقد كان من العجيب حقا أن تصحب معها - في رحلة كهذه - ابنها والمربي الذي كان يعني به. بل الأنكى من هذا، أن زوجها نفسه رافقها حتى "جنيف"!.. وكان الأعجب أنها اختارت "جنيف" بالذات لتضع حملها الآثم؛ ذلك لأنها ما كانت لتجد التستر المنشود هناك؛ إذ كان مجرد وجودها يجتذب الأنظار إليها.. على أن هذه المتناقضات جميعا، كانت في حد ذاتها أدلة على دهاء هذه المرأة!

بقي دور "روسو" في هذه الواقعة. فلقد كانت الدعوة التي وجهت إليه - دون اكتراث - حيلة أخرى، قصد بها إرضاء غرور السيدة "ديبيناي"، بظهور فيلسوف مثله في ركابها.. كما أن "جريم" وعشيقته استغلاها في إظهاره بمظهر الجاحد بفضل السيدة التي منحته مسكنا وأولته ودها!

ولم أسمع بأنك مرافق إياها. فإذا كنت راضيا عن السيدة "ديبيناي"، يا صديقي، فمن الواجب أن ترحل معها.. أما إذا كنت مستاء منها فمن الواجب أن تكون أسرع مبادرة إلى الرحيل. أفأنت ترزح - أكثر مما ينبغي - بأثقل التزامات أبهظتك بها؟.. إذن، فهناك فرصة لكي تؤدي بعضا منها، ولكي تتخفف من أعبائك. فهل ستجد فرصة أخرى في حياتك لإظهار عرفانك بجمائلها؟.. إنها ذاهبة إلى بلدة ستكون فيها كمن هبطت من أطواء السحاب. وإنها لمريضة، وستكون بحاجة إلي تسرية وترويح.. أتقول الشتاء ؟!.. ألا انظر ياصديقي!.. إن حجة صحتك قد تكون أقوى مما يخطر ببالي، ولكن، هل تراك اليوم أسوأ حالا مما كنت منذ شهور.. ومما ستكون في مطلع الربيع؟.. هل ستكون الرحلة مريحة لك - بعد ثلاثة أشهر - أكثر مما هي اليوم؟.. إنني أصارحك - فيما يتعلق بي - بأنني إذا لم أحتمل العربة، لاعتمدت على عصاي، وتبعتها!

"ثم، ألا تخشى أن يسيء الناس تأويل مسلكك؟.. لسوف تتهم بالجحود، أو بأن لديك حافزا خفيا، وإني لأدرك تماما أنك ستجد قلبك يشهد دائما لضميرك، مهما يكن ما تفعل.. ولكن، هل تكفيك هذه الشهادة في حد ذاتها، وهل من المباح أن تهمل شهادة الغير، إلى حد ما؟

"وعدا ذلك، ياصديقي، أكتب هذا الخطاب وفاء لواجب التزم به نحوك ونحو نفسي. فإذا لم يرق لك، فطوح به إلى النار، ولا تفكر فيه بعد ذلك، وكأنني لم أكتبه قط.

"وإني لأحييك، وأحبك، وأقبلك".

وتولتني انتفاضة الغضب، واستبد بي الذهول؛ إذ قرأت هذه الرسالة التي وجدت عناء في أن أتمها. ولكن ذلك لم يلهني عن أن ألاحظ اللهجة التي اصطنعها "ديدرو" ليبدو مسرفا في اللطف، وفي الترفق، وفي الإخلاص، عما اعتاد في رسائله الأخرى، دون أن يضن عليّ بلقب "الصديق"، وتبينت الطريق غير المباشرة التي جاءتني هذه الرسالة خلالها.. فقد كان العنوان، والأسلوب، والطريقة التي وصلت بها تنم عن مداورة سيئة الغرض؛ ذلك لأننا اعتدنا أن نتكاتب عادة، عن طريق البريد، أو عن طريق حامل الرسائل في "مورنمورنسي". وقد كانت هذه هي المرة الأولى، والوحيدة، التي نهج فيها هذا النهج!

*****

وعندما سمحت أولى نوبات الغضب للكرامة بالكتابة بادرت إلى تحرير الجواب التالي، الذي حملته لفوري، من "ليرميتاج" - حيث كنت إذ ذاك - إلى "لاشيفريت"؛ لأطلع عليه السيدة "ديبيناي"؛ إذ رغبت - في غضبي الأعمى - أن أقرأه عليها بنفسي، كما أطلعها على رسالة "ديدرو":

"يا صديقي العزيز، إنك لا تستطيع أن تعرف مدى التزاماتي نحو السيدة "ديبيناي"، ولا المدى الذي تذهب إليه هذه الالتزامات في ربطي إليها، ولا ما إذا كانت السيدة بحاجة حقا إلى شخصي - في رحلتها - ولا ما إذا كانت راغبة في أن أرافقها، ولا ما إذا كان هذا في إمكاني، ولا الأسباب التي قد تكون لديّ لأمتنع عن مرافقتها.. ولست آبى أن أناقش هذه النقاط معك. وإلى أن يتم ذلك أحب أن تقر معي أن إملاءك عليّ - بهذا الاعتداد - ما ينبغي عليّ عمله، دون أن تكون في وضع يمكنك من الجزم، لهو - يافيلسوفي العزيز - عين اللغو!

"وأسوأ ما في الأمر أنني أرى أن هذا ليس رأيك، ولا هو صادر عنك. هذا، بغض النظر عن أنني

غير مستعد لأن أدع نفسي منساقا لطرف ثالث أو رابع تحت اسمك.. وإني لأجد في هذه التصرفات غير المباشرة مداورة لا تتمشى مع صراحتك، ويحسن بك أن تتجنبها في المستقبل، لصالح كل منا!

"أراك تخشى أن يساء تأويل مسلكي، ولكني أتحدى قلبا كقلبك أن يجرؤ على إساءة الظن بي. أما الآخرون فلعلهم يتحدثون عني بخير، لو أنني شابهتهم. فلعل الله يصونني من أن أكسب رضاهم!.. ودع اللئام يتجسسون عليَّ، ويؤولون مسلكي كما يحلو لهم. فإن **"روسو"**، ليس بالذي يخشاهم، كما أن **"ديدرو"** ليس بالذي ينصت إليهم!

"إنك تريدني أن أطوح برسالتك إلى النار، إذا لم ترق لي، وألا فكر فيها بعد الآن. أفتظن أن من السهل نسيان ما يفد منك؟.. إنك تسترخص دموعي، ياصديقي العزيز، بالآلام التي تسببها لي، كما تسترخص حياتي وصحتي، بالهموم التي تثيرها. فإذا استطعت أن تصحح هذا فستظل صداقتك دائما من أعذب ما أنعم به، ولسوف يقل ما أعانيه من رسالتك!".

وإذ ولجت مخدع السيدة **"ديبيناي"**؛ وجدت **"جريم"** معها مما أطربني. فقرأت عليهما - بصوت عال، واضح - الرسالتين، في هدوء نفس ما كنت لأؤمن بأنني قادر عليه حتى إذا فرغت أضفت بضع ملاحظات لم تنم عما وراء ذلك الهدوء، ورأيت أن هذه الجرأة غير المتوقعة، من رجل كان شديد الخور والتردد عادة، قد أدهشتهما وأذهلتهما معا. فلم يجيبا بكلمة واحدة، ورأيت - فوق ذلك - أن الرجل المتعجرف قد غض بصره، ولم يقو على أن يصمد أمام شرر نظراتي ولكنه في اللحظة ذاتها، عاهد نفسه - في أعماق قلبه - على القضاء عليَّ، وإني لموقن من أنه والسيد **"ديبيناي"** قد أجمعا على ذلك قبل أن يفترقا!

وحدث في حوالي تلك الآونة أن تلقيت - عن طريق السيدة **"دودويتو"** - رسالة من **"سان - لامبير"** (الملف ١ - رقم ٥٧).

وكان قد أرسلها من **"ولفينبوتيل"** قبيل مصابه بأيام قلائل، ردا على رسالتي، ولكنها تأخرت طويلا في الطريق، وقد أتاح لي هذا الجواب شيئا من العزاء كنت في أشد الحاجة إليه في تلك الآونة؛ لما زخر به من دلائل التقدير والصداقة، مما بث في نفسي القوة والجرأة لكي أكون أهلا لذلك، ولقد رحت - منذ تلك اللحظة - أؤدي واجبي ولكن من المحقق أنني كنت موشكا على أن أضل، دون رجعة، لو أن **"سان - لامبير"** ظهر بمظهر أقل حكمة وكرما وإخلاصا!

*****

وأصبح الجو رديئا، وشرع الناس في مغادرة الريف، وأنبأتني السيدة **"دوديتو"** باليوم الذي اعتزمت فيه أن تأتي لتودع وادينا، وضربت لي موعدا للقاء في **"أوبون"**، وشاءت المصادفة أن يكون ذلك اليوم هو اليوم الذي حدد لرحيل السيدة **"ديبيناي"** عن **"لاشيفريت"** إلى **"باريس"**؛ لكي تستكمل استعدادها النهائي لرحلتها، ولقد سافرت في الصباح - لحسن الحظ - فانفسح أمامي الوقت بعد رحيلها؛ كي أذهب فأتناول الغداء مع أخت زوجها، وكنت أحمل رسالة **"سان - لامبير"** في جيبي، فرحت أقرؤها مرارا أثناء سيري، وإذا بها بمثابة درع وقائي من ضعفي، وعاهدت نفسي - وصنت عهدي هذا - على ألا أرى في السيدة **"دوديتو"** سوى صديقة لي، وعشيقة صديق لي!

وقضيت معها أربع ساعات أو خمسا، في خلوة ناعمة، وادعة، مستحبة للغاية.. حتى بالنسبة لنوبات الحمى اللاهبة التي كنت أكتوي بها في قربها حتى ذاك الحين!.. ولما كانت تعلم عن يقين أن

قلبي لم يتحول فقد أدركت الجهود التي رحت أبذلها لأسيطر على نفسي، فازدادت تقديرا لي، وسرني أن رأيت أن صداقتها لي لم تخب أو تفتر، ولقد أنبأتني بقرب عودة "**سان - لامبير**" الذي لم يعد في صحة تمكنه من احتمال عناء الحرب برغم أنه كان قد شفي تقريبا من مرضه؛ ومن ثم فقد رأى أن يترك الخدمة العسكرية؛ لكي يعيش معها في سلام، ورحنا نرسم خطة بديعة، لصحبة وثيقة تضم ثلاثتنا، وقد كان لنا أمل أن يؤدي تنفيذ هذه الخطة إلى نتائج باقية؛ إذ رأينا أنها كانت تقوم على أساس من جميع المشاعر التي تربط بين القلوب المستقيمة، الصالحة، الحساسة.. وكنا نجمع في نفوسنا الثلاث من المواهب والمعرفة، ما لا يدع لنا حاجة إلى أي غريب عنا.. فواحسرتاه!.. لم أكن - وأنا استسلم للرجاء في حياة بمثل هذه العذوبة.. لأفكر قط فيما كان يخبئه لي المستقبل!

وما لبثنا أن تحدثنا في موقفي الراهن إزاء السيدة "**ديبيناي**"؛ فاطلعتها على رسالة "**ديدرو**"، وعلى ردي، وفصلت لها كل ما جرى في هذا الشأن، وأفضيت إليها بعزمي على أن أفارق "**ليرميتاج**"؛ فعارضته بشدة، وبحجج ذات أثر غلاب على قلبي، وأوضحت لي كم أنها كانت تتمنى لو أنني قمت بالرحلة إلى "**جنيف**"، فقد تنبأت بأنها لن تلبث أن تقحم في هذا الرفض الذي صدر مني، وأن رسالة "**ديدرو**" تكاد تعلن هذا مقدما. بيد أنها لم تتشبث بهذه المسألة؛ إذ كانت تعلم قوة الدواعي والأسباب التي حملتني على الرفض، كما كنت أعلمها تماما ولكنها استحلفتني أن أتفادى كل ضجة، مهما يكن الثمن الذي يكبدنيه ذلك، وأن ألطف من آثار رفضي بحجج مقبولة تبدد أي شك ظالم بأن لها يدا في الأمر، وقلت لها إن المهمة التي تفرضها عليَّ لم تكن بالبسيطة الهينة، غير أنني قد آليت على نفسي أن أكفر عن أخطائي، وأن أقدم سمعتها على سمعتي، في كل ما يسمح لي الشرف باحتماله، وأن يلبث أن يتجلى ما إذا كنت قد وفيت بهذا التعهد.

وبوسعي أن أقسم بأن هواي التعس وإن لم يفقد شيئا من عنفوانه، إلا أنني لم أشغف يوما بـ"**صوفي**" الحبيبة كما كنت مشغوفا في ذلك اليوم بيد أن رسالة "**سان - لامبير**"، وشعوري بالواجب، ونفوري من الخيانة تركت أثرا طاغياعلى نفسي طيلة هذا اللقاء، حتى إن شهواتي فارقتني وخلفتني معها في سلام، بل حتى إنني لم أجد ما يغريني على أن أقبل يدها!.. فلما حان الفراق قبلتني بمرآى من خدامها، وكانت هذه القبلة - التي خالفت ما كنت أسترقه منها أحيانا، تحت الأشجار - برهاناً أكد لي أنني قد غدوت مسيطرا على نفسي، وأكاد أوقن بأنه لو أتيح لقلبي الوقت لكي يعزز نفسه في هدوء لكانت ثلاثة أشهر أكثر من الكفاية لشفائه تماما!

*****

وهنا انتهت علاقاتي الشخصية بالسيدة "**دوديتو**".. العلاقات التي يستطيع أي امرئ أن يحكم عليها من المظاهر، وفقا لطبيعة فؤاده، وإن كان من المحتمل أن الوجد الذي أذكته في قلبي هذه المرأة الرقيقة، هو أقوى وجد شعر به أي رجل على الإطلاق، وسيبقى دائما ممجدا مكرما لدى السماء ولدينا بفضل التضحيات الفذة، والأليمة، التي قدمناها - كلانا - في سبيل الواجب، والشرف، والحب، والصداقة!.. لقد كان كل منا يكبر الآخر إكبارا أسمى من أن يسمح لنا بأن تخزي نفسينا أو نستذلهما!.. وكان لابد لنا من أن نغدو غير جديرين بأي تقدير أو احترام البتة، إذا شئنا أن ننزل عن أي من هذه القيم العليا.. بل إن احتدام مشاعرنا - الذي كان كفيلا بأن يجعلنا آثمين - كان هو الذي حال بيننا وبين أن نغدو كذلك!

وهكذا ودعت هاتين المرأتين معا، في يوم واحد، بعد صداقة طويلة لإحداهما، وحب عميق للأخرى.. ودعتهما، وقد قدر لي ألا أرى واحدة منهما بعد ذلك قط، بقية حياتي.. وألا أرى الثانية إلا مرتين فحسب، وفي مناسبتين سأوردهما فيما بعد.

ووجدتني بعد رحيلهما في حيرة بالغة إزاء الوفاء بمثل هذه الالتزامات العديدة، الملحة، المتناقضة، التي ترتبت على حماقتي وعدم حكمتي، ولو أنني كنت في وضعي العادي، بعد اقتراح تلك الرحلة إلى "**جنيف**" ورفضي إياها لما كان عليَّ سوى أن أمكث قريرا مطمئنا، ولما كان ثمة ما يقال، بعد الذي قيل بهذا الصدد ولكنني بغبائي جعلت منه مسألة لم يكن من الميسور أن تبقى على وضعها، ولم أكن أملك أن أتفادى أي اضطرار إلى تفسير مسلكي بشأنها، إلا بمبارحة "**ليرميتاج**".. وهو الأمر الذي وعدت السيدة "**دوديتو**" بألا أفعله.. ولو لفترة من الزمن، على الأقل. فضلا عن أنها كانت قد استحلفتني أن أبرز رفضي لدى أصدقائي المزعومين، بحيث لا تقحم هي في هذا الرفض، ومع ذلك فإنني لم أكن أملك أن أعلن السبب الحقيقي دون مساس بالسيدة "**ديبيناي**"، التي كنت مدينا لها ببعض العرفان – دون أدنى شك – بعد كل الذي فعلته من أجلي.

وإذ تدبرت كل هذا مليا وجدتني أواجه اختيارا عسيرا، ولكنه لازم، لا مفر منه: ذلك هو أن أغض من قدر السيدة "**ديبيناي**"، أو قدر السيدة "**دوديتو**"، أو قدر نفسي، واخترت الوضع الأخير.. واخترته بشمم، وعن طيب خاطر، ودون تذمر بل وفي كرم كفيل بأن يمحو الذنوب التي انحدرت بي إلى هذا الدرك، ولقد أدت هذه التضحية – التي يحتمل أن يكون أعدائي قد توقعوها، والتي عرفوا كيف يستغلونها – إلى القضاء على سمعتي، وجردتني – بفضل جهودهم– من تقدير الجمهور إياي، ولكنها ردت إليَّ تقديري نفسي، وسرت عني في محني وضائقاتي! وليست هذه هي المرة الأخيرة، التي أقدم فيها على تضحيات مماثلة – كما سيتجلى فيما بعد – ولا هي آخر مرة يستغلون فيها التضحية للنيل مني!

وكان "**جريم**" هو الوحيد الذي بدا أنه لم يشترك في هذه المسألة، وقد رأيت أن أتوجه إليه؛ فكتبت إليه رسالة طويلةأوضحت فيها سخف الرغبة في النظر إلى اشتراكي في رحلة "**جنيف**" كواجب مفروض عليَّ، وعدم جدواها، وكيف أنني كنت خليقا بأن أكون مصدر متاعب للسيدة "**ديبيناي**" خلالها، والمضايقات التي كان من المحتمل أن تترتب عليها؛ ولم أستطع أن أقاوم الإغراء الذي راودني نحو إطلاعه – في هذه الرسالة – على أنني كنت على علم بسبب الرحلة، وذكرت أنه كان من بواعث عجبي أن يزعم أحد أن الواجب كان يدعوني إلى القيام بهذه الرحلة في الوقت الذي أعفي هو فيه منها بل ولم يذكر اسمه بصددها.

هذا الخطاب الذي عجزت فيه عن أن أذكر حججي بجلاء؛ ومن ثم فقد اضطررت إلى المداورة والمراوغة.. هذا الخطاب كان كفيلا بأن يظهرني للرأي العام بمظهر الموغل في الذنوب، بيد أنه كان نموذجا للرزانة والحكمة لأولئك الذين كانوا على شاكلة "**جريم**" ملمين بالحقائق التي لم أذكرها، والتي كانت تبرر مسلكي أكمل تبرير. بل إنني لم أحجم عن أن أورد زعما كان في غير صالحي أكثر مما كان في صالحي، وذلك بأن نسبت رأي "**ديدرو**" إلى أصدقائي الآخرين؛ لأوحي بأن السيدة "**دوديتو**" كانت تعتنق نفس الرأي – وهو الواقع فعلا – وإن تحاشيت أن أذكر أنها قد عدلت عن رأيها هذا أمام حججي، وما كنت لأستطيع أن أدفع عنها شبهة التواطؤ معي بأفضل من أن أبدو – في تلك المناسبة – على استياء منها.

واختتم هذا الخطاب بعرض للثقة كان كفيلا بان يحرك عواطف أي إنسان آخر.. فبينما ناشدت "**جريم**" أن يتأمل حججي جيدا، وأن ينبئني – بعد ذلك – برأيه، أوحيت إليه أنني سآخذ بهذا الرأي، مهما يكن، وقد كان هذا عين ما انتويت – في الواقع – حتى لو أنه أشار بوجوب سفري. ذلك؛ لأنه لما كان السيد "**ديبيناي**" قد اضطلع بعبء مرافقة زوجته فإن مرافقتي إياها كانت خليقة بأن تتخذ مظهرا مخالفا لما كانت ستتخذه من قبل؛ إذ كنت إذ ذاك قد سئلت أن أقوم بهذا الواجب، ولم يكن للسيد "**ديبيناي**" أي ذكر إلا بعد أن رفضت!

*****

وتأخر رد "**جريم**" بعض الوقت، فلما جاء إذا به رد غريب، أنقله هنا (الملف أ – رقم ٥٩):

"لقد أرجئ رحيل السيدة "**ديبيناي**"؛ فإن ابنها مريض، وقد اضطرت إلى الانتظار إلى أن يعافى. سأفكر في خطابك، فامكث هادئا في "**ليرميتاج**"، وساطلعك على رأيي في حينه، ولما كان من المحقق أنها لن ترحل قبل بضعة أيام فليس ثمة داع للعجلة، وفي هذه الأثناء في وسعك أن تعرض عليها مرافقتك إياها، إذا رأيت ذلك مناسبا، وإن كان يلوح لي أن هذا لن يغير من الأمر؛ ذلك لأنني لا أرى أي شك – وأنا لا أقل عنك علما بوضعك – في أنها ستقابل عرضك بما ينبغي، ويبدو لي أن كل ما يمكن كسبه بذلك هو أنك ستستطيع أن تقول لأولئك الذين يهيبون بك أن ترحل أنك إذا لم ترحل فلن يكون ذلك راجعا إلى تقصير منك في عرض خدماتك.

"وما عدا هذا لا أستطيع أن أفهم السر في أنك ترى أن من الضرورة اللازمة أن يكون الفيلسوف هو البوق الذي ينقل إليك صوت الناس أجمعين، ولا السر في أنك تتصور أن كل أصدقائك يرون ضرورة سفرك، لمجرد أنه نصحك بالسفر!.. ولو أنك كتبت إلى السيدة "**ديبيناي**" فإن ردها قد ينفعك في الرد على هؤلاء الأصدقاء، مادمت تقيم كل هذا الوزن للإجابة عليهم!

"وداعا.. تحياتي للسيدة "**لوفاسير**" ولـ"**كريمنيل**" (١).

وبهت دهشة أذ قرأت هذا الخطاب، ورحت أبحث في قلق عما قد يكون وراء معناه الظاهري، ولكن بحثي ذهب سدى. فيا للعجب!.. أبدلا من أن يرد عليَّ رسالتي ببساطة، يستمهلني كي يفكر فيها، وكأنما الوقت الذي استغرقه لم يكن كافيا؟!.. بل إنه ليطلعني على الموقف المعلق الذي يرغب في أن يستبقيني فيه وكأنه يفكر في مشكلة عويصة مستعصية الحل، أو كأنه يرى أن يحرمني كل وسيلة للوصول إلى معرفة إحساسه، إلى أن تحين اللحظة التي يراها للكشف عن هذا الإحساس. فما الذي يعنيه هذا الاحتياط، وهذا الإرجاء، وهذا التكتم، إذن؟.. أفعلى هذا المنوال يرد المرء على الثقة؟.. أفيبدو هذا تصرفا مستقيما، شريفا؟.. عبثا بحثت عن تأويل موات يبرر هذا التصرف فإنني لم أجد!

ومهما تكن نيته فإن مركزه كان يجعل تحقيقها سهلا عليه، إذا كانت موجهة ضدي.. في حين أنه كان من المستحيل عليَّ أن أضع أية عقبة في طريقه؛ فلقد كان ذا حظوة في دار أمير كبير، وكان كثير الأصدقاء في المجتمع، وكان بوسعه – كنجم لامع، مسموع الكلمة في الأوساط التي كنا معروفين لديها معا – أن ينفذ غاياته وفق هواه، بدهائه المألوف.. في حين أنني – وحيدا في "**ليرميتاج**"، بعيدا عن الجميع. بدون ناصح، وبلا اتصال بالعالم الخارجي – لم أكن أملك أن أفعل شيئا، اللهم إلا

---

(١) أطلق "جريم" هذا اللقب على "تيريز"

أن أنتظر، وأمكث صامتا، وكان كل ما فعلته هو أن كتبت إلى السيدة "**ديبيناي**" – بصدد مرض ابنها – خطابا مهذبا بقدر ما استطعت، دون أن أنساق فيه إلى شرك عرض استعدادي لمرافقتها في رحلتها.

وبعد انتظار طويل في القلق الشديد الوطأة الذي القاني فيه هذا الرجل الفظيع سمعت – بعد ثمانية أيام أو عشرة – أن السيدة "**ديبيناي**" قد سافرت، وتلقيت منه خطابا ثانيا لم يشتمل على أكثر من سبعة أسطر أو ثمانية، ولم أتم قراءتها حتى آخرها؛ إذ إنها أعلنت قطيعة بيننا، ولكن في عبارات بدت سخيفة حمقاء؛ لفرط تلهفه على أن يجعلها جارحة. فلقد حرم عليَّ أن أظهر في محضره، وكأنه يحرم علي دخول إقطاعياته. ولم يكن ينقص خطابه – لكي يبدو مضحكا – سوى أن يقرأ في هدوء وبأعصاب باردة، وبدون أن أنقل صورة منه (١)، بل وبدون أن أقرأه حتى نهايته، رددته إليه في الحال، مع التعقيب التالي:

"إنني آبى عادة أن أنساق لشكوكي الصائبة؛ ولهذا تأخرت كثيرا في أن أعرفك على حقيقتك.

"هاك إذن الخطاب الذي استبحت الوقت للتفكير فيه، فإنني أرده إليك؛ لأنه ليس لي، وفي وسعك أن تعرض خطابي على الملأ كله، وأن تحقد عليَّ علانية وجهارا، فهذا بهتان في غير صالحك!".

وكان السماح له بعرض خطابي السابق تعقيبا على فقرة وردت في رسالته، ويمكن منها الحكم على المكر العميق الذي لجأ إليه في هذه القضية بأسرها.

فلقد ذكرت أن خطابي كان كفيلا بأن يلقي عليَّ بعض التثريب في أنظار أولئك الذين لم يكونوا مطلعين على حقائق الأمور. وقد تبين "**جريم**" هذا باغتباط، ولكن كيف كان بوسعه أن يستغله دون أن يكشف موقفه"؟.. ذلك لأنه كان معرضا – إذا ما عرض خطابي على أحد – لأن يتهم بإساءة استغلال ثقة صديقه.

ولكي يخرج من هذا الحرج؛ خطر له أن يقطع الصلة معي بأشد الطرق استثارة لشعوري، وإيحاء لي بأنه قد أولاني صنيعا؛ إذ لم يطلع أحدا على خطابي، وكان من المؤكد أنني – في سورة الغضب – خليق بأن أرفض أمانته هذه، فأسمح له بأن يعرض خطابي على الدنيا بأسرها.. وهذا عين ما كان يبتغيه تماما، وقد سار كل شيء وفقا لما دبر، ولقد أذاع الخطاب في "**باريس**" كلها، مع تعليقات من عنده، لم تكن – مع ذلك – موفقة بالدرجة التي كان يرجوها. فقد رؤي أن سماحي له بأن يعرض خطابي – الذي عرف كيف ينتزعه مني – لم يكن ليعفيه من اللوم لما أظهره من تسرع في استغلال كلمتي للعمل على إيذائي، وأخذ الناس يتساءلون باستمرار عن أية ذنوب ارتكبتها نحوه شخصيا تبرر كل هذا الحقد الأهوج. ثم انتهوا – أخيرا – إلى أنه إذا كانت لي أخطاء تضطره إلى القطيعة فإن للصداقة – ولو فصمت – حقوقا كان لزاما عليه أن يحترمها!

على أن "**باريس**" متقلبة، لسوء الحظ، فلا تلبث هذه الملاحظات – وليدة وقتها – أن تتوارى في زوايا النسيان".. إذ إن المنكوب يلقى إهمالا مادام غائبا، والمجدود يتغلب مادام حاضرا.. وتستمر لعبة الدس والكيد. الخبيث، وتتجدد، ولا تلبث نتائجها التي تبعث حية – كلما ماتت – أن تمحو كل ما سبقها!

---

(١) ورد هذا الخطاب في مذكرات السيدة "ديبيناي"، ولم يكن مؤلفا من سبعة أسطر أو ثمانية بل إنه استغرق صفحة ونصف صفحة من الكتاب ويلاحظ ان ذكر القطيعة لم يرد إلا في آخره، في حين ان "روسو" ذكر أنه لم يقرأه حتى نهايته. على انه ذكر للسيدة "دودیتو" – في رسالة بتاريخ ٨ نوفمبر سنة ١٧٥٧ – أنه تلقى من "جريم" خطابا أثار اشمئزازه، حتى إنه رده إليه "خشية قراءته مرة ثانية".. وهناك أحد احتمالين: إنه إما يكون "روسو" قد بالغ في وصفه للخطاب، وإما أن ما نشر في مذكرات السيدة "ديبيناي" كان خطابا أعد؛ لتبرير مسلك "جريم"، وليس الخطاب الأصلي.

على هذا النحو أماط هذا الرجل - الذي ظل يخدعني طويلا - لثامه، وقد اطمأن إلى أنه لم يعد بحاجة إليه، في الوضع الذي ساق إليه الأمور. على أنني كففت عن التفكير في هذا التعس بعد أن تخلصت من الخوف من أن أكون ظالما نحوه، وتركته لضميره. وبعد ثمانية أيام من تسلم ذلك الخطاب تلقيت من السيدة "**ديبيناي**" ردها على خطابي السابق، محررا في "**جنيف**" (الملف ب - رقم ١٠)، وتبينت من اللهجة التي لجأت إليها - للمرة الأولى في حياتها - أن كلا منهما كان يعول علي نجاح تدابيرهما، وأنهما كانا يعملان متفقين ومتعاونين، وأنهما كانا ينظران إليَّ كرجل ضائع، لا معين له ولا نصير؛ ومن ثم فقد آليا على نفسيهما ألا يدخرا جهدا في سبيل الاستمتاع بسحقي نهائيا!

والواقع أن ظروفي كانت في أسوأ حال: فلقد رأيت أصدقائي يهجرونني دون أن أعرف كيف، ولا لماذا.. فـ"**ديدرو**"، الذي كان يفخر بأنه باق لي، وباق وحده، والذي وعدني منذ ثلاثة أشهر بأن يزورني لم يأت قط، وكان الشتاء قد بدأ يفرض أثره محسوسا؛ فبدأت معه عللي المألوفة، وكان كياني - برغم متانة تكوينه - قد ناء تحت تضارب كل هذه العواطف المتناقضة. كنت في حالة إعياء لم تذر لي طاقة ولا جلدا على الاحتمال. ولو أن معاملاتي، بل لو أن تأييدات "**ديدرو**" والسيدة "**دوديتو**" سمحت لي بمبارحة "**ليرميتاج**" فورا فإنني لم أكن أدري إلى أين أذهب، ولا كيف أجر نفسي إلى هناك؛ ومن ثم فقد بقيت خامل الذهن، خامد الحراك، دون أن أقوى على التفكير أو العمل. كان مجرد التفكير في أن أتخذ خطوة، أو أكتب رسالة، أو أفوه بكلمة، كفيلا بأن يجعلني أرتجف!

ومع ذلك فإنني لم أقو على أن أدع رسالة السيدة "**ديبيناي**" بلا جواب، وإلا كان ذلك اعترافا بأنني كنت أستحق المعاملة التي أثقلتني وصديقها بها، وقررت أن أصارحها بمشاعري ونواياي، دون أن أرتاب لحظة في أنها ستبادر إلى إقراري على هذه المشاعر والنوايا، بفضل الشعور الإنساني، والكرم، والطيبة، والأحاسيس الطيبة التي خيل إليَّ أنني أراها لديها!.. وهاك خطابي:

"**ليرميتاج**": ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٧٥٧.

"لو قدر لامرئ أن يموت حزنا لما كنت أنا الآن على قيد الحياة. ولكنني عقدت عزمي أخيرا. لقد انفصمت عرى الصداقة بيننا ياسيدتي، ولكن لهذه التي لم يعد لها بقاء حقوقا أعرف كيف أحترمها. فإني لم أنس قط أفضالك عليَّ، وبوسعك أن تطمئني من ناحيتي إلى كل عرفان يستطيع أن يدين به امرؤ إلى شخص لم يعد ملزما بأن يحبه وأي تفسير آخر لن يكون مجديا، وإني لأركن إلى ضميري، ولك أن ترجعي إلى ضميرك.

"لقد كنت أعتزم مغادرة "**ليرميتاج**"، وكان من الواجب أن أفعل. ولكن رؤي أن أبقى حتى يحين الربيع، وما دامت هذه هي رغبة أصدقائي فسوف أبقى إلى الربيع، لو أنك وافقت على ذلك".

وبعد أن كتبت هذا الخطاب وأرسلته لم أعد أفكر إلا في البقاء هادئا في "**ليرميتاج**"، وفي العناية بصحتي، ومحاولة استرداد عافيتي، واتخاذ التدابير لمغادرة الدار في الربيع، دونما ضجة، ودونما إعلان للقطيعة، ولكن هذا لم يكن عين ما أعده السيد "**جريم**"، والسيدة "**ديبيناي**"، كما سيظهر بعد لحظة.

*****

وحظيت بعد أيام بالزيارة التي أسرف "**ديدرو**" في وعوده بأن يؤديها لي، بقدر ما أسرف في أن يبر بتلك الوعود، وما كان أداؤها ليجد وقتا أكثر ملاءمة من تلك الآونة. فقد كان "**ديدرو**" أقدم أصدقائي، وكان الوحيد الذي بقي لي منهم؛ ومن ثم ففي الوسع إدراك مدى السرور الذي تولاني إذ رأيته في هذه الظروف. فلقد كان قلبي مترعا، فأفرغته في قلبه، وأوضحت له كثيرا من الوقائع التي كتمت عنه، أو التي موهت عليه، أو زيفت له، وأنبأته بما كان يحق لي أن أطلعه عليه، من كل ما جرى، ولم أحاول أن أكتم عنه ما كان هو على علم واف به.. لم أحاول أن أكتم عنه أن حبا غير موفق - بقدر ما كان أرعن - استغل كأداة للقضاء عليَّ، ولكنني لم أبح قط بأن السيدة "**دوديتو**" كانت على علم بهذا الحب، أو أنني كاشفتها به يوما، على الأقل!

وحدثته عن المناورات غير الكريمة التي قامت بها السيدة "**ديبيناي**" للاستيلاء على الخطابات البريئة التي كانت أخت زوجها قد كتبتها لي. فلقد رغبت في أن يعرف كل هذه التفصيلات، من شفاه المرأتين اللتين حاولت السيدة أن تغريهما بذلك، وقد أدلت إليه "**تيريز**" بوصف دقيق لكل شيء. ولكن.. ما الذي أصابني، فعندما حان دور الأم، وسمعتها تعلن وتتشبث بأنها لم تكن على علم بشيء من هذا إطلاقا؟!. هكذا كان قولها الذي لم تتحول عنه البتة، ولم يكن قد انقضى بعد أربعة أيام، مذ رددت على سمعي كل التفصيلات، التي راحت تناقضها في وجود صديقي!

ولاح لي مسلكها حاسما؛ فشعرت إذ ذاك شعورا قويا، بمدى غفلتي إذ بقيت امرأة كهذه على مقربة مني، ولم أنطلق أكيل لها السباب بل إنني لم أكد أقوى على أن أقول لها بضع كلمات أعبر بها عن استهجاني، وأحسست بمدى ما كنت أدين به للابنة التي كانت باستقامتها المنيعة ترسم صورة قوية، تناقض تماما مع ما أبدت الأم من خسة مهينة. على أن رأيي استقر - منذ تلك اللحظة - بشأن العجوز، ولم أنتظر إلا ريثما حانت اللحظة المناسبة لتحقيقه.

ولقد جاءت هذه اللحظة بأسرع مما كنت أتوقع. ففي العاشر من كانون الأول (ديسمبر)، تسلمت ردا من السيدة "ديبيناي"، هذه محتوياته (الملف "ب" - رقم ١١):

"**جنيف**": **أول كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٧٥٧**.

"لم أعد أملك - بعد أن أتحت لك كل دليل ممكن على الصداقة والعطف، خلال عدة سنوات- سوى أن أرثي لك، إنك شقي، وإني لأرجو أن يكون ضميرك في طمأنينة ضميري، فقد يكون هذا ضروريا لطمأنينة حياتك!

"وما دمت قد رغبت في مبارحة "**ليرميتاج**"، وكان خليقا بك أن تفعل فإنني أعجب من أصدقائك إذ منعوك. أما أنا، فلست أستشير أصدقائي فيما يتعلق بواجباتي، وليس لديَّ مزيد أقوله فيما يتعلق بواجباتك"!

كان إنذارا - غير متوقع، ولكنه واضح - بالطرد، فلم يدع لي لحظة واحدة كي أفكر أو أزن.. كان لابد لي من أن أبرح "**ليرميتاج**": فورا، ومهما تكن حال الطقس، أو حالي الصحية - حتى لو اضطرني ذلك إلى أن أبيت في الغابات، وعلى الصقيع الذي كان يكسو الأرض - ومهما يكن في وسع السيدة "**دوديتو**" أن تقوله أو تفعله إزاء ذلك؛ إذ إنني لم أكن على استعداد لأن أهين نفسي بالرغم من أنني كنت على استعداد لأن أرضي هذه السيدة!

*****

ووجدتني في أشد حيرة عرضت لي في عمري كله ولكنني كنت قد عقدت العزم،، وأقسمت على ألا أبيت في "**ليرميتاج**" في اليوم الثامن، مهما يكن الأمر. وعكفت على نقل أمتعتي الخاصة، وقد فضلت أن أدعها في العراء، على ألا أرد المفاتيح في اليوم الثامن، فقد كنت تواقا – قبل كل شيء – إلى أن أفرغ من الأمر، قبل أن يستطيع أحد أن يكتب إلى "**جنيف**".

وأن يتلقى ردا منها.. وأوتيت إقداما ما شعرت به من قبل يوما، فإذا كل قواي ارتدت إليَّ.. ردها إليَّ الشمم والإباء اللذان لم تحسب لهما السيدة "**ديبنياي**" حسابا!

وساعد الحظ هذه العزيمة الجريئة، فإذا السيد "**متى**" – المندوب انقضائي (١) للسيد الأمير "**دي كونديه**" – يسمع بورطتي، فيعرض عليَّ بيتا صغيرا كان يقتنيه في حديقة داره في "**مون لوي**" بـ"**مونمورنسي**"، وقبلت العرض في تأثر وعرفان.. وتمت الصفقة، فأسرعت إلى شراء بعض أثاث أضمه إلى ما كان عندي؛ لآوي إليه مع "**تيريز**".. ونقلت متاعي على عربة، في كثير من العناء، وبنفقات باهظة وبرغم الجليد والصقيع، فقد تم انتقالي في يومين.. حتى إذا كان الخامس عشر من كانون الأول (ديسمبر) رددت مفاتيح "**ليرميتاج**"، بعد أن دفعت أجر البستاني؛ إذ لم أستطع أن أدفع أجر المسكن!

أما السيدة "**لوفاسير**"، فقد صارحتها بأن عليها أن تفارقنا، وحاولت ابنتها أن تثنيني ولكني أبيت أن ألين، وعملت على سفرها إلى "**باريس**"، في عربة البريد، مع كافة متاعها وما كانت تشترك مع ابنتها في امتلاكه من أثاث. كما أنني منحتها بعض المال، وتعهدت بأن أدفع لها نفقات إقامتها لدى أبنائها أو سواهم، وأن أتكفل بمطالب معيشتها بقدر ما يسعني، وألا أدعها قط في عوز طالما كنت أجد قوتي!

وأخيرا، كتبت إلى السيدة "**ديبيناي**" الرسالة التالية، في اليوم الذي أعقب غداة وصولي إلى "**مون لوي**":

"**مونمورسي**": ١٧ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٧٥٧.

ما كان ثمة ما هو أبسط، ولا ما هو ألزم من أن أخلي منزلك، ياسيدتي، ما دمت لا تقرين بقائي فيه؛ وبناء على رفضك الإذن لي بأن أمكث في "**ليرميتاج**" بقية الشتاء، بادرت إلى مبارحته في الخامس عشر من كانون الأول (ديسمبر). لقد كان مقدرا لي أن أدخله بالرغم مني، وأن أخرج منه كذلك!.. وإني لأشكر لك الإقامة التي أتحتها لي هناك، وقد كنت خليقا بأن أكون أكثر شكرا لك، لو أن الثمن الذي دفعته كان أقل فداحة.

"هذا، وإنك لعلى صواب إذ ترينني شقيا؛ فليس في الدنيا من يعلم خير منك إلى أي مدى يجب أن أكون كذلك!.. وإذا كان من سوء الحظ أن يغتر المرء في اختيار أصدقائه، فليس أقل قسوة من ذلك، أن يضار من جراء خطأ لطيف كهذا!" (٢).

هذه هي القصة الأمينة لإقامتي في "**ليرميتاج**"، وللأسباب التي اضطرتني إلى مغادرته، وما كنت أملك أن أقتضب هذه القصة بل كان من المهم أن أعرضها بأعظم قدر من الدقة، إذ إن حياتي في هذه الفترة كانت ذات أثر – على ما بعدها – سيبقى إلى آخر يوم في حياتي!

---

(١) المحامي الذي يتولى المسائل والقضايا المتعلقة بالحكومة أو الهيئات الإدارية. (٢) ورد نص هذا الخطاب في مذكرات السيدة "ديبيناي"، متضمنا – في نهايته – هذه العبارة: "لقد تقاضى البستاني أجره حتى أول يناير".

ولم ترد هذه العبارة في أية طبعة من "الاعترافات"، والظاهر أن "روسو" أغفلها خطأ، في حين أن رد السيدة "ديبيناي" لا يفهم بدونها.

الكراسة العاشرة

سنة ١٧٥٨

لم تلبث الطاقة غير العادية – التي أمدني بها هياج عابر، كي أبرح "**ليرميتاج**" – أن فارقتني بمجرد أن صرت خارج هذا البيت. فما إن استقر بي المقام في المسكن الجديد حتى عاودتني نوبات شديدة، متتابعة، من احتباس البول، امتزجت بالمضايقات الجديدة التي ترتبت على هبوط في القلب، كان يعذبني منذ أمد، دون أن أعلم أنه كان هبوطا!..

وسرعان ما غدوت فريسة لنوبات أشد قسوة، فجاء الطبيب "**ثييري**"– صديقي القديم – ليعودني، وبصرني بحالي، وتجمعت حولي المسابر، والمجسات، والضمادات، وكافة المعدات التي تستلزمها علل الشيخوخة، ما جعلني أشعر شعورا قاسيا، بأن المرء لا يستطيع أن يحتفظ بشباب القلب – دونما عناء – إذا كان الجسد قد باعد بينه وبين الشباب!

ولم يردني الفصل الجميل (الربيع) إلى عافيتي، فقضيت عام ١٧٥٨ في حال من الوهن، أوحت إليَّ بأنني كنت مشرفا على نهاية حياتي العملية. بل إنني أبصرت النهاية تقترب في شيء من التعجل؛ وإذ كنت قد برئت من أوهام الصداقة، وافترقت عن كل من كانوا يحببون الحياة إليَّ فإنني لم أعد أرى في هذه الحياة ما يجعلها مستحبة، ولم أعد أبصر فيها سوى شرور ونوائب كانت تحول بيني وبين كل المتع الذاتية. ولكم كنت أتوق إلى اللحظة التي أنطلق فيها متحررا، بعيدا عن منال أعدائي!

ولكن.. لنعد إلى سياق الحوادث ثانية.

*****

بدا أن مقامي في "**مونمورنسي**" قد ساء السيدة "**ديبيناي**"، ولعلها لم تكن تتوقعه. فإن أساي، وقسوة ذلك الفصل من السنة، والوحدة المنبوذة التي ألفيتني فيها.. كل هذه جعلتها و"**جريم**" يعتقدان أن بوسعهما – إذا واصلا دفعي إلى أقصى حد – أن يضطراني إلى أن أصرخ طالبا النجدة، وأن يهويا بي إلى آخر درك في الهوان، بغية أن أبقي في المأوى الذي كانت الكرامة تتطلب مني أن أفارقه، ولقد بدلت مسكني فجأة، فلم يجدا من الوقت ما كان يكفي لأن يتوقعا هذه الضربة؛ ومن ثم فلم يبق لهما من خيار سوى أن يضاعفا الاندفاع في المغامرة، أو ينفضا أيديهما منها.. وبالتالي، أن يقضيا عليَّ قضاء مبرما، أو أن يستردانى!

واتخذ "**جريم**" الرأي الأول، ولكني أعتقد أن السيدة "**ديبيناي**" كانت تفضل الثاني، أو أن هذا هو ما ملت إلى الأخذ به، على ضوء ردها على خطابي؛ إذ خففت كثيرا من اللهجة التي اتخذتها في رسائلها السابقة، ولاحت كأنها تفتح الباب للصلح، ولقد كان تأخر هذا الخطاب – الذي اضطررت إلى انتظاره شهرا كاملا – دليلا كافيا على الحيرة التي ألفت نفسها فيها – وهي تحاول أن تسبغ عليه أسلوبا ملائما – وعلى الخواطر والهواجس التي سبقته. فما كان في وسعها أن تمضي فيه إلى أبعد مما مضت، دون أن تكشف نفسها. ولكن المرء لا يجد – بعد خطاباتها السابقة، وبعد خروجي المباغت من دارها – مدعاة للعجب من العناية التي بذلتها في ذلك الخطاب، ومن حرصها على الا تدع كلمة

جافية واحدة تتسلل إليه. وإني لأنقله بأكمله؛ ليتسنى الحكم على ضوئه (الملف ب – رقم ٢٣):
"**جنيف**": ١٧ كانون الثاني (يناير) سنة ١٧٥٨ .

"لم اتسلم خطابك المؤرخ ١٧ كانون الأول (ديسمبر)، سوى بالأمس يا سيدي. فقد أرسل إليَّ في حقيبة ملأى بأشياء مختلفة، ظلت طيلة هذه المدة في الطريق، ولن أرد إلا عن العبارة الأخيرة أما الخطاب فلست أفهمه تماما.. وإذا كنا بصدد تبادل الإيضاح، فإني أوثر أن أحمل كل ما حدث على محمل سوء التفاهم!

"وأعود إلى العبارة الأخيرة.. فلعلك تذكر ياسيدي أننا اتفقنا على أن يتلقى بستاني "**ليرميتاج**" أجره عن طريقك؛ رغبة في إشعاره بأنه موكول إليك، ولتفادي مشاحنات كتلك المشاحنات السخيفة، الوقحة، والتي صدرت من سلفه.

والدليل على ذلك أن أجره الربع الأول من السنة أسلم إليك، وانني اتفقت وإياك – قبيل رحيلي ببضعة أيام – على أن تتقاضى ما سبق أن دفعت له، وإني لأدرك أنك أثرت خلافا بشأن هذا – في البداية – ولكني كنت قد رجوتك أن تؤدى تلك المدفوعات سلفا، فكان من أبسط الأمور أن أردها إليك، وقد اتفقنا على ذلك. ولكن "**كاهوية**" أنبأني بأنك رفضت قبول هذه النقود، ولابد أن ثمة لبسا في الأمر، ولقد أمرت بأن تؤدى إليك، من جديد، ولست أرى مبررا لرغبتك في أن تدفع أجر بستاني في خدمتي، بالرغم من اتفاقنا، وبالرغم من أن هذا الأجر يرجع إلى فترة سبقت سكناك "**ليرميتاج**"؟

"لذلك فإني واثقة يا سيدي بأنك تتذكر كل هذا الذي تشرفت بقوله لك، لن تأبى أن تسترد النقود التي تكرمت بدفعها عني".

ولم أشأ – بعد كل الذي جرى – أن أطمئن إلى السيدة "**ديبيناي**" أو أثق بها، ولا رغبت البتة في أن أجدد صلاتي بها؛ ومن ثم فإنني لم أرد على الخطاب إطلاقا، فانتهت مكاتباتنا عند هذا الحد(١)؛ وإذ تبينت عزمي، حذت حذوي، وانغمست في خطط "**جريم**" وعصبة "**دولباخ**"، وضمت جهودها إلى جهودهم للقضاء عليَّ، وبينما كان هؤلاء يعملون في "**باريس**"، راحت هي تعمل في "**جنيف**"، وقد انضم إليها "**جريم**" هناك، بعد ذلك، فأتم ما كانت قد بدأته، ولقد ساعدهما "**ترونشان**" – الذي استطاعا أن يكسباه في صفهما – بكل قواه، وصار أعنف من راحوا يضطدونني، دون أن يكون لديه – ولا لدي "**جريم**" ما يؤاخذوني عليه، وراح ثلاثتهم يعملون معا، فبذروا في "**جنيف**" ما شوهد نباته يترعرع في "**باريس**" بعد ذلك بأربع سنوات

*****

وكان الأمر أكثر مشقة عليهم في "**باريس**"؛ حيث كنت معروفا، وحيث كانت القلوب أقل ميلا للبغضاء، فهي لذلك لا تتلقى الإيحاءات بسهولة؛ ولكي يوجهوا ضرباتهم بمزيد من المهارة والحيلة شرعوا في ترويج زعمهم بانني كنت الأسبق إلى التحول عنهم. (انظر خطاب **ديلير** – الملف ب، رقم ٣). ومن هنا راحوا – وهم يتظاهرون بأنهم لا يزالون أصدقاء لي – يبذرون بذور الاتهامات

(١) تكذب مذكرات السيدة "ديبيناي" هذا القول، فقد ورد فيها رد من "روسو" وصفته السيدة بأنه "أكثر قحة من جميع خطاباته الأخرى". ويبدو أن "روسو" نسي ذلك، إذ إنه كتب اعترافاته بعد عشر سنوات من تلك الفترة.

الخبيثة، على شكل شكايات من الأخطاء والمظالم التي حاقت بهم على يدي صديقهم، ولقد أدى هذا إلى أن مستمعيهم تخلوا عن حذرهم، فاصبحوا أكثر ميلا إلى الإصغاء إلى لومهم، وانتشرت اتهامات الخيانة والجحود في تكتم وحذر، وقد كانت - لنفسي هذا السبب - أشد فعلا بالنفوس، وكنت أعلم أنهم وصموني بأبشع الفظائع، دون أن يستطيعوا قط أن يعرفوا - فيما بينهم - مم كانت هذه الفظائع تتألف!.. كل الذي استطعت أن أخرج به من الشائعات العامة، هو أن هذه الفظائع انحصرت في أربعة ذنوب جوهرية: "أولا" اعتكافي في الريف، و"ثانيا" حبي السيدة "**دوديتو**"، و"ثالثا" رفضي مرافقة السيدة "**ديبيناي**" إلى "**جنيف**"، و"رابعا" نزوحي عن "**ليرميتاج**"، وإذا كانوا قد أضافوا سخافات أخرى فلابد أنهم اتخذوا أبلغ حيطة، حتى إنه غدا من المستحيل عليَّ تماما أن أعلم موضوعها.

وإلى هذه الفترة بالذات، أعتقد أن بوسعي أن أرجع تاريخ تكوين حملة منظمة، لم يلبث أن انضوى تحت لوائها أولئك الذين تخلوا عني بنجاح وتقدم سريعين، إلى درجة أنها كانت خليقة بأن تبدو رائعة في نظر من لا يدري مدى السهولة التي يستطيع بها كل ما هو يساعد شرور البشر أن يحظى بالتأييد، ولا بد لي الآن من أن أشرح - في أوجز ما يسعني - ماهو واضح لنظري من هذه الحملة الخفية العميقة الأصول.

ذلك أنني احتفظت ببساطة ميولي الأصلية، حتى بعد أن طبق اسمي آفاق "**أوروبا**"، وغدوت مشهورا، ولقد أدى مقتي القتال لكل ما يسمى حزبا، وعصبة، وشيعة، إلى بقائي حرا، مستقلا، دونما قيود سوى ميول فؤادي، وكنت وحيدا، غريبا، منطويا، بلا نصير ولا أسرة فلم أعتمد إلا على مبادئي وواجباتي، وسلكت في جلد طرق الاستقامة، فما تملقت ولا تزلفت إنسانا على حساب العدالة والحقيقة، وفضلا عن ذلك فإنني لذت - منذ عامين - بالعزلة، دون أن أتسقط الأنباء، وبدون أي اتصال بشؤون العالم. فما كنت أحاط باي شيء، ولا كنت أهفو إلى أنباء شيء ما.. وكنت أعيش على أربعة فراسخ من "**باريس**"، وكأنني - بفضل عدم اكتراثي - أعيش في جزيرة "**تينيان**"، تفصلني عن هذه العاصمة بحار!

أما "**جريم**" و"**ديدرو**"، و"**دولباخ**" فكانوا - على النقيض - في وسط الدوامة، يعيشون في مجتمع أرقى الطبقات، يتقاسمون فيما بينهم جميع آفاق الفكر تقريبا، فكان العظماء، وذوو العقول النابهة، وأهل الأدب، والمحامون، والنساء ينصتون جميعا إليهم، إذا ما أجمعوا على حديث، ومن السهل تبين النفع الذي يضيفه مثل هذا الوضع على ثلاثة رجال اجتمعوا على رابع مثل وضعي!.. ومن الصحيح أن "**ديدرو**" و"**دولباخ**" لم يكونا - أو أنني لا أعتقد، على الأقل، أنهما كانا - ممن يدبرون الدسائس البالغة الخبث والشر؛ إذ إن واحدا منهما لم يكن ذا خبث وشر، في حين أن الآخر لم يكن ذا دهاء ومكر"(١).. على أن هذا السبب بالذات، هو الذي جعل العصبة وثيقة الترابط. فكان "**جريم**" يرسم وحده الخطة في رأسه، فلا يُطلع الاثنين الآخرين على أكثر مما يراه ضروريا لتمكينهما من المساهمة في تحقيق تلك الخطة، وكان استعلاؤه عليهما يجعل تعاونهما ميسورا، بحيث تتناسب النتيجة مع مواهبه الرفيعة!

*****

---

(١) اضاف "روسو" إلى هذه العبارة تعقيبا جاء فيه: "واصبحت الآن ملكا لهم، وفقا لاتفاق جديد، عقد بيننا اخيرا".

وبهذه المواهب الفائقة عمد "**جريم**" – وقد أدرك النفع الذي يستطيع أن يستمده من وضع كل منا – إلى وضع مشروع لقلب سمعتي رأسا على عقب، ولإضفاء سمعة مناقضة لها تماما على اسمي، دون أن يقحم نفسه.. وذلك بأن يبدأ بإحاطتي بصرح من الغموض والإبهام، تعذر عليَّ أن أخترق حجبه لألقي النور على مناوراته، ولأكتشف أمره!

ولقد كان هذا المشروع شاقا؛ إذ كان على "**جريم**" أن يموه ما فيه من ظلم، في أنظار أولئك الذين كان عليه أن يستعين بهم.. كان عليه أن يغرر بالأمناء، وكان عليه أن يقصي عني كل الناس، فلا يدع لي صديقا واحدا، صغيرا كان ذلك الصديق أو كبيرا! فماذا عساي أقول؟.. كان لابد له من ألا يدع كلمة واحدة عن الحقيقة تنفذ إليَّ.. ولو أن رجلا كريما واحدا جاءني، وقال لي: "إنك تؤدي دور الرجل الفاضل، ومع ذلك، فانظر كيف تعامل، وكيف يحكم القوم على أعمالك. فماذا لديك من قول؟".. كانت الحقيقة خليقة إذ ذاك بأن تنتصر، فيبوء "**جريم**" بالخذلان!.. ولقد كان يدرك هذا، ولكنه دنس قلبه، ولم يقدر الناس حق قدرهم.. إنني لحزين من أجل الكرامة الإنسانية، التي قدرها بمثل هذه الدقة!

وإذ سار في هذه الدروب المتوارية تحت الأرض، كان لابد له من أن يبطيء؛ كي يطمئن إلى مواقع قدميه؛ ومن ثم ظل اثني عشر عاما وهو يتابع خطته، ومع ذلك فما يزال لديه أشق ما يجب أن يفعله.. ذلك هو أن يغرر بالرأي العام بأسره!.. إن هناك عيونا ظلت تراقبه عن كثب أقرب مما يظن.. وإنه لخائف من هذا، فهو لا يجرؤ بعد على أن يكشف مؤامرته في وضح النهار (١). ولكنه اهتدى إلى أقل الطرق صعوبة، لكي يدخل السلطان بين عناصر المؤامرة، فيقضي هذا السلطان عليَّ. وإذ استند على هذه الدعامة راح يتقدم وهو أكثر طمأنينة، وأذناب السلطان لا يولون الاستقامة والعدل كثير تفكير، في العادة.. وهم أقل اكتراثا بالصراحة؛ ومن ثم فإنه لم يعد يخشى فطنة وأمانة بعض الخيرين إطلاقا!.. على أنه كان من الضروري له – بوجه خاص – أن أكون محاطا بظلمات دامسة، وأن تظل مؤامرته متوارية عن بصري على الدوام، وكانت حيلته الكبرى هي أن يبدو للأنظار أنه كان يحابيني ويعطف عليَّ – في الوقت الذي كان يحط من من قدري، في الواقع – وأن يخلع على غدره مظهر الكرم والشهامة!

*****

ولقد شعرت بأولى نتائج هذه الحملة عن طريق الاتهامات المستترة التي راحت عصبة "**دولباخ**" تشيعها، دون أن يتسنى لي أن أعلم – بل ولا أن أخمن – ما كانت تتألف منه هذه الاتهامات، ولقد ذكر لي "**ديلير**" في رسائله أنني رميت بعض الشناعات.. وذكر لي "**ديدرو**" الشيء ذاته، في غموض وإبهام، فلما حاولت استيضاح كل منهما؛ إذا بكل شيء ينحصر في الاتهامات الرئيسية السالفة الذكر.

وشعرت بفتور يسرى تدريجا في رسائل السيدة "**دوديتو**"، فلم أستطع أن أعزو هذا الفتور إلى "**سان – لامبير**" الذي ظل يكتب لي بعين الود المعهود، والذي أخذ يزورني بعد عودته. كذلك لم أستطع أن ألقي اللوم على نفسي؛ إذ إننا كنا قد افترقنا وكل منا راض عن الآخر، ولم يحدث – منذ ذلك الحين – شيء من ناحيتي، اللهم إلا رحيلي عن "**ليرميتاج**"، وهو أمر شعرت هي نفسها

(١) وهنا أضاف "روسو" التعقيب التالي: "ولقد اتخذ – منذ كتابه هذا – خطوته الكبرى، بأكمل نجاح، وبأكبر توفيق يجل على الأفهام، وإني لاعتقد أن "ترونشان" هو الذي أمده بالتشجيع والوسيلة".

بضرورته، ومن ثم فإنني لم أعرف كيف أؤول هذا الفتور - الذي لم تجهر به وإن أحسه قلبي - فشعرت بقلق شامل، وكنت أدرك أنها اعتادت أن تداهن زوجة أخيها و"**جريم**"، نظرا لعلاقتهما بـ"**سان - لامبير**"، فخشيت مناوراتهما وألاعيبهما. ونكأ هذا القلق الملتاع جراحي، وأحال رسائلي عاصفة، حتى إنها لم تلبث أن أصبحت تعافها!.. كنت ألمح ألف شيء قاس، دون أن أميز شيئا بوضوح. كنت في وضع هو أبعد الأوضاع عن أن يطيقه رجل كان من اليسير أن يتقد خياله.. ولو أنني كنت في عزلة تامة، ولو إنني كنت لا أعرف شيئا على الإطلاق لكنت خليقا بأن أكون أكثر هدوءا، ولكن فؤادي كان ما يزال متشبثا بالعواطف التي أتاحت لأعدائي ألف مأخذ ضدي، ولم تؤد الأشعة الواهنة التي كانت تنفذ إلى عزلتي إلا إلى أن أرى المعميات التي كان القوم يخفونها عني، أشد حلكة وسوادا من ذي قبل!

وكنت خليقا - دونما شك - بأن أتداعى تحت هذا العذاب الذي كان أقسى وأثقل من أن تحتمله فطرتي الصريحة، التي كانت تجعل من المستحيل تماما أن أخفي مشاعري، وكانت - في الوقت ذاته - تجعلني خائفا كل الخوف من تلك الأشياء التي كانت تخفى عني. على أن أمورا أخرى، لم تلبث - لحسن الحظ - أن عرضت لي، وكانت مشوقة لقلبي بدرجة كافية لكي تولد تحولا سليما، نأى به من تلك الأمور التي كانت تشغله، على الرغم منه!

*****

وكان "**ديدرو**" قد حدثني - أثناء زيارته الأخيرة لـ"**ليرميتاج**" - عن مقال كتبه "**دالمبير**" عن "**جنيف**" في "**الموسوعة**"، وقال لي: إن هذا المقال - الذي أقره بعض ذوي المكانة العليا من أهل "**جنيف**" - كان يرمي إلى إنشاء مسرح في "**جنيف**"، وأن الخطوات اللازمة قد اتخذت، وأن الأمد لن يطول حتى يكون هذا الإنشاء قد تم، ولما كان "**ديدرو**" قد حبذ المشروع، ولم يداخله شك في نجاحه، كما كان لديَّ كثير من الأمور التي أردت أن أبحثها معه فإنني لم أشأ أن أمضي في جدل حول هذا الموضوع، ولم أقل شيئا، ولكنني شعرت باستنكار لكل هذه الدسائس التي كانت تحاك لإفساد موطني، فانتظرت بصبر نافد ظهور الجزء الذي ضم المقال - من "**الموسوعة**" - لكي أتبين ما إذا كانت ثمة وسيلة للرد عليه بطريقة تعرقل هذه الحيلة المشؤومة!

وتلقيت الجزء عقب استقراري في "**مون - لوي**" بوقت قصير، فوجدت أن المقال قد كتب بكثير من الدهاء والحذق، وأنه كان أهلا للقلم الذي سطره. على أن ذلك لم يصرفني عن الاهتمام بالرد عليه، وبالرغم من الخور الذي كان يعتريني، وبالرغم من شجني وآلامي، ومن قسوة الطقس، وما اتسم به مسكني الجديد - الذي لم يكن مقامي فيه قد استقر تماما - من عدم توفر أسباب الراحة، فقد عكفت على العمل بتحمس قهر كل شيء.

وفي شتاء قاس إلى درجة ليست بالبسيطة، وفي شهر شباط (فبراير)، وفي الظروف التي وصفتها آنفا، رحت أقضي ساعتين من الصباح، ومثلهما من المساء، في شرفة مكشوفة، عند طرف الحديقة التي كان بيتي يقوم فيها، وكانت هذه الشرفة - التي كانت تقع في نهاية درب محاط بسياج - تطل على وادي "**مونمورنسي**" وبركة الأسماك، وتكشف لي على البعد، بقدر ما كان يسمح لي البصر، قصر "**سان جراسيان**" الجليل المنظر، برغم بساطة بنيانه.. القصر الذي اعتكف فيه "**كاتبنا**" الفاضل.. وفي هذه البقعة - التي كانت في تلك الفترة قارسة البرد، والتي كانت بلا وقاء من الريح

والصقيع، وبلا أية نار سوى قلبي – نظمت، في ثلاثة أسابيع، خطابي إلى "**دالمبير**" حول المسارح! وكان ذلك أول موضوع أكملته – إذ لم أكن أتممت سوى النصف من "**جولي**" فوجدت فيه سحر العمل. كانت الغيرة على الفضيلة هي معبودي حتى ذلك الحين، ولكن الحنان والرقة حلا محلها في روحي، في هذه المناسبة!

كانت المظالم التي لم أكن – بالنسبة لها – أكثر من متفرج، قد أهاجتني، أما التي كنت هدفها فقد أحزنتني، ولم يكن ذلك الحزن – المجرد من كل حزن ومرارة – سوى شجن قلب مفرط الحب والحنان.. قلب اغتر فيمن كان يؤمن بأنهم على شاكلته؛ فاضطر إلى أن ينطوي على نفسه!.. كان قلبي قد أفعم بما حدث لي أخيرا، وكان ما يزال يهتز بانفعالات عديدة عنيفة، فراح يمزج إحساسه بآلامه، بالأفكار التي تولدت عن تفكيري في الموضوع، فإذا آثار هذا المزج تنعكس على ما كتبت، وإذا بي – دون أن أفطن – أصف فيه حقيقة موقفي الواقعي.. رسمت فيه "**جـريم**"، والسيدة "**ديبيناي**"، والسيدة "**دوديتو**"، و"**سان – لامبير**"، ونفسي. وكنت أذرف – وأنا أكتب كل هذا – دموعا عذبة!.. فو الهفتاه!.. إن المرء ليلمس في المقال أن الحب – هذا الحب الجبار الذي كنت أحاول أن أشفى منه – لم يكن قد فارق قلبي بعد!.. ولقد كان يمتزج بكل هذا؛ شعور بالإشفاق على نفسي؛ إذ شعرت بأنني أموت، وكنت أؤمن بأنني أودع الرأي العام للمرة الأخيرة!.. وبدلا من أخاف الموت رحت أرقب اقترابه بغبطة، ولكنني كنت أحس بالحسرة؛ لأنني كنت أفارق أبناء جلدتي دون أن يكونوا قد شعروا بقيمتي وقدري.. دون أن يدروا كم كنت جديرا بأن أحظى بالحب منهم، لو أنهم كانوا أكثر معرفة بي مما هم!.. وهذه هي الأسباب الدفينة للهجة الغريبة التي سادت هذا المقال، والتي تبدو جد مناقضة للهجة مؤلفي الذي سبقه (١).

ونقحت المقال وأعدت نسخه، وأوشكت أن أدفعه إلى الطباعة، وإذا بي أتلقى رسالة من السيدة "**دوديتـو**" – بعد طول صمت – وإذا بهذه الرسالة تغرقني في هم جديد، لعله أقسى ما كنت قد خبرت من هموم، حتى ذاك الحين. فلقد أنبأتني السيدة في هذه الرسالة (الملف ب – رقم ٣٤) بأن هيامي بها بات معروفا في "**باريس**" بأسرها، وإنني قد أفضيت به إلى قوم أذاعوه، وأن هذه الضجة قد ترامت إلى أذني عشيقها، وكادت تكلفه حياته، وأنه في النهاية – قد أنصفها، فعاد الوئام بينهما.. ولكنها كانت مضطرة – من أجله، ومن أجل نفسها والحرص على سمعتها كذلك – إلى أن تقطع كل علاقة بي!.. وأكدت لي أن كلا منهما لن يكف – بعد ذلك – عن أن يهتم بأمري، وأن يدافع عني أمام الملأ.. وأنها ستبعث – بين الحين والحين – في طلب إخباري!

*****

وهتفت في نفسي: "حتى أنت يا "**ديدرو**"!.. أيها الصديق غير الجدير بالود!". ومع ذلك فإنني لم أكن أملك – بعد – أن أبت في أمره؛ إذ كان ضعفي معروفا لدى أناس آخرين، وكان من المحتمل أن يكونوا قد وشوا به، ولقد طاب لي أن استسلم للشك.. ولكنني لم ألبث أن وجدتني عاجزا عن ذلك؛ إذ إن "**سان – لامبير**" أقدم – بعد ذلك بقليل – على تصرف يليق بكرم نفسه. فقدر – وهو العارف بحقيقة نفسي – الحال التي كنت فيها، وقد غدر بي فريق من أصدقائي، وهجرني الباقون، فأقبل يزورني بنفسه!.. ولم يكن لديه متسع من الوقت في المرة الأولى، فأقبل مرة ثانية. ولكنني لم

---

(١) حديث في عدم المساواة.

أكن - لسوء الحظ - في البيت؛ إذ إنني لم أكن أتوقع مجيئه، ودار بينه وبين "**تيريز**" - التي كانت في البيت - حديث استغرق حوالي ساعتين، قال كل منهما للآخر - في سياقه - كثيرا من الأمور، التي كان من الضروري لكل منا أن يعلم بها.. ولقد كانت دهشتي حين علمت أن أحدا لم يكن يرتاب في أنني عاشرت السيدة "**ديبيناي**"، كما كان "**جريم**" يعاشرها في ذلك الحين، تعادل دهشته حين عرف أن هذا النبأ كاذب!.. فلقد كان "**سان - لامبير**" يحظى من نقمة السيدة بمثل ما كنت أحظى!.. وكانت جميع الأضواء التي انبثقت عن هذا الحديث كافية لأن تخنق في نفسي كل أسى داخلها لفصم عرى الود مع هذه السيدة، إلى غير رجعة!

ولقد أوضح "**سان - لامبير**" لـ"**تيريز**" - فيما يتعلق بالسيدة "**دوديتو**" - كثيرا من الظروف التي لم تكن معروفة لدى "**تيريز**" بل ولا لدى السيدة "**دوديتو**" نفسها!.. فما كان يعرفها سواي أنا وحدي، وما أفضيت بها إلا إلى "**ديدرو**" وحده، وتحت اسم الصداقة، فإذا به يختار "**سان لامبير**" - بالذات؛ ليبوح له بها!.. وكان هذا الأمر الأخير هو العامل الحاسم لديَّ؛ فعقدت العزم على أن أقاطع "**ديدرو**" إلى الأبد، ولم يعد يشغلني بصدد ذلك سوى تخير الأسلوب الذي أحقق به القطيعة. فلقد تبينت أن المقاطعة المتكتمة، كانت لا تلبث أن تنقلب ضدي؛ إذ إنها كانت تترك قناع الصداقة مسدلا على وجوه أفظع أعدائي!

إن قواعد السلوك الطيب التي قامت في الدنيا على هذا الأساس تبدو كما لو كانت من إملاء روح الخداع والغدر. فإن التظاهر بصداقة امرئ ما - عندما تكون هذه الصداقة قد انتهت - لا يعني سوى الاحتفاظ بوسائل إيذاء ذلك المرء، بالتمويه على ذوي النفوس الشريفة!.. واسترجعت في ذهني أن "**مونتسكيو**" الجليل، بادر - حين قاطع الأب "**دي تورنمين**" - إلى إعلان القطيعة مدوية، إذ قال للناس أجمعين: "لا تنصتوا إلى الأب "**تورنمين**"، ولا لي، إذا تكلم كل منا على الآخر؛ فإننا لم نعد صديقين!". ولقد قوبل هذا المسلك بإعجاب بالغ، وأكبر الناس جميعا صراحته وكرم نفسه، واعتزمت أن أنتهج هذا المسلك مع "**ديدرو**"، ولكن، كيف كان يتسنى لي أن أعلن من معزلي هذه القطيعة المشروعة، لاسيما إذا شئت أن أتجنب الفضائح؟.. وقررت أن أضمن مقالي فقرة من "**الكتاب المقدس**" من "**سفر ابن سيراخ**" تعبر عن هذه القطيعة - بل وعن موضوعها - بوضوح كاف، لكل من كان يعنيه الأمر، دون أن تعني شيئا لبقية الناس، وفوق ذلك فإنني عنيت بالا أشير - في المقال - إلى ذلك الصديق الذي نبذته، إلا بالأسلوب الكريم الذي ينبغي على المرء دائما نحو أية صداقة باقية، وفي الوسع تبين ذلك في المقال ذاته.

*****

ليس في هذه الدنيا سوى حظ، وسوء حظ، ولا وسط بينهما، ويبدو أن كل عمل ينطوي على شجاعة وجراة، لابد وأن ينقلب - عند الخصومة - إلى ذنب وجريمة؛ ذلك لأن المسلك الذي اجتلب لـ"**مونتسكيو**" الإعجاب، لم يجلب عليَّ أنا سوى اللوم والتقريع!.. فما إن طبع مقالي وحصلت على نسخ منه حتى أرسلت واحدة إلى "**سان - لامبير**"، الذي كان قد كتب إليَّ - في اليوم السابق مباشرة - رسالة باسم السيدة "**دوديتو**" واسمه، زخرت بأرق آيات الود (الملف "ب" - رقم ٣٧)، وهاكم الخطاب الذي كتبه لي، وهو يرد النسخة التي أرسلتها إليه (الملف "ب" - رقم ٣٨):

"**أوبون**" : ١٠ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٧٥٨ .

"لم أستطع حقا - يا سيدي - أن أتقبل الهدية التي أرسلتها إليَّ. فعندما بلغت من مقدمتك الفقرة التي ذكرت فيها "**ديدرو**"، وأوردت فقرة من "**سفر الجامعة**" - (وقد أخطأ هنا، فهي من "**سفر ابن سيراخ**" - وقع الكتاب من يدي؛ فلقد بدا لي - بعد الحديث الذي دار بيننا إبان هذا الصيف - أنك كنت مقتنعا ببراءة "**ديدرو**" من المخالفات المزعومة التي رميته بها.

"ومن الجائز أن يكون قد أخطأ في حقك، فلست أدري.. ولكن الذي أدريه هو أن هذه الأخطاء لا تعطيك الحق في أن توجه إليه إهانة علنية. فأنت لا تجهل الاضطهادات التي يعانيها، وهأنتذا تضم صوت صديق قديم إلى صرخات الحاسدين!.. ولست أكتمك ياسيدي، مدى ما تثيرني هذه القسوة الفظيعة!... إنني لا أعاشر "**ديدرو**"، ولكني أجله وأكرمه، وأشعر بحدة الألم الذي تسببه لرجل لم تأخذ عليه - فيما بيننا، على الأقل - ما يستحق اللوم، اللهم إلا قدرا ضئيلا من الضعف.

"إننا لنختلف كثيرا يا سيدي - من ناحية المبدأ - بحيث لن يتسنى لنا أن نكون على اتفاق يوما. فانس وجودي، ولن يكون هذا بالأمر العسير عليك؛ فإنني لم أفعل قط من الخير - أو الشر - للرجال ما يظل في الأذهان أمدا طويلا، وأعاهدك ياسيدي - من ناحيتي - على أن أنسى شخصك، وألا أذكر في نفسي سوى مواهبك".

ولم يكن شعوري بالألم، أقل من شعوري بالشمم والغضب للكرامة من جراء هذا الخطاب، وفي فورة شقائي، وقد استرددت عزة نفسي، رددت عليه بالرسالة التالية:

"**مونمورنسي**" : ١١ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٧٥٨ .

"سيدي: ما إن قرأت خطابك حتى شرفتك بالدهشة منه، ولقد كنت من الحماقة بحيث تأثرت به، ولكني وجدته غير جدير بالرد!

"إنني غير راغب في مواصلة نسخ القطع الموسيقية للسيدة "**دوديتو**"، وإذا لم يرق لها أن تحتفظ بما لديها منها ففي وسعها أن تردها إليَّ، وسأعيد لها نقودها. أما إذا استبقتها فلها أن ترسل - في أي وقت شاءت - في طلب ما بقي من أوراقها ونقودها، وإنني لأرجوها - في الوقت ذاته - أن ترد إليَّ ما يكون لديها من أوراقي.

"وداعا يا سيدي.. ".

والشجاعة في المحن، تلقي الروع في القلوب الهيابة، ولكنها تشرح القلوب الكريمة، ويبدو أن هذه الرسالة قد ردت "**سان - لامبير**" إلى حجاه فندم على ما فعل. ولكنه كان من الإسراف في الكبرياء بحيث تعذر عليه أن يقر بذلك صراحة؛ فلاذ بالصمت، ولعله كان يعد العدة ليجعل الضربة - التي وجهها إليَّ - مميتة!.. وإن هي إلا خمسة عشر يوما حتى تلقيت من السيد "**ديبيناي**" الرسالة التالية (الملف "ب" الرسالة رقم ١٠):

"هذا الخميس: ٢٦ .

"تلقيت ياسيدي، الكتاب الذي تكرمت بإرساله، وإنني لأقرؤه بغبطة بالغة، وهذا هو الإحساس الذي اعتاد أن يداخلني دائما، وأنا أقرأ كل المؤلفات التي نفثها قلمك. فتقبل جزيل شكري، ولقد كنت أود أن أقدمه لك شخصيا، لو أن شؤوني سمحت لي بأن أقيم وقتا على مقربة من مقامك،

ولكنني قل أن نزلت بـ"**لاشيفريت**" في هذا العام.

"إن السيد والسيدة "**دوبان**" قادمان لتناول الغداء عندي، يوم الأحد القادم. كما أتوقع أن يكون بين الحضور السيدان "**دي سان - لامبير**"، و"**دي فرانكوبي**"، والسيدة "**دوديتو**"، ولسوف يكون من دواعي غبطتي حقا أن تكون بيننا ياسيدي.

إن كل الذين سيكونون في داري، يرغبون في وجودك، وسوف يغتبطون بأن يشاطروني متعة قضاء بعض اليوم معك.

"وإنه ليشرفني أن أكون، مع أكمل التقدير.. إلخ".

وأخذ قلبي يدق بعنف مروع، من جراء هذا الخطاب؛ ذلك لأن فكرة الظهور أمام السيدة "**دوديتو**" - بعد أن كنا حديث "**باريس**" عاما بأكمله - جعلتني أرتجف، ولا أكاد أجد الجرأة الكافية على أن أواجه هذا الاختبار. ومع ذلك فقد كان "**سان - لامبير**" راغبا في ذلك، وقد تكلم "**ديبيناي**" نيابة عن كل ضيوفه، ولم يكن بينهم من أغتبط بلقائه؛ ومن ثم فإني انتهيت إلى أني لن أكون - من كافة الاعتبارات - متطفلا، إذا قبلت دعوة إلى الغداء، كنت مدعوا إليها من كافة الضيوف، ولهذا فإنني وعدت بالحضور، وكان يوم الأحد سيئ الطقس فأرسل السيد "**ديبيناي**" عربته لتقلني. فذهبت!

*****

وأثار وصولي عاصفة من المشاعر الطيبة، فما قدر لي يوما أن أحظى باستقبال يفوق هذا مودة وحفاوة.. حتى ليمكن القول بأن القوم كانوا يشعرون بمدى حاجتي إلى ما يشرح صدري، ولا تدري سوى القلوب الفرنسية مثل هذه الألوان من العواطف. على أنني وجدت أناسا أكثر مما كنت أتوقع، بينهم الكونت "**دي دوديتو**" - الذي لم أكن قد تعرفت عليه قط - وأخته السيدة "**دي بلينفيي**" التي كنت أرجو أن أعفى من مقابلتها، وكانت قد وفدت على "**أوبون**" مرات عديدة في العام السابق، وكانت زوجة أخيها تتركها تحرق الإرم غيظا عندما كنا ننطلق في نزهاتنا الخلوية وحيدين؛ ومن ثم فقد تولاها نحوي نفور راحت ترضيه - أثناء المادبة - على هوادة.. فمن الممكن حدسه، إن وجود الكونت "**دوديتو**" و"**سان - لامبير**" لم يكن مبعث طرب لي، وإن الرجل الذي تتولاه الحيرة والحرج - في مثل هذه المناسبات - لا يستطيع أن يتالق فيها بسهولة.. أبدا ما عانيت مثل ما عانيت إذ ذاك، ولا اكفهر محياي كما اكفهر في هذه المناسبة، ولا تعرضت لحملات لم تكن متوقعة كتلك التي تعرضت إليها من هذه السيدة.

وعندما غادرنا المائدة أخيرا ابتعدت عن هذه المرأة السليطة وسرني أن رأيت "**سان - لامبير**" والسيدة "**دوديتو**" يسعيان نحوي فظللنا شطرا من فترة ما بعد الظهر، نتجاذب الحديث في مسائل لم تكن ذات بال، في الواقع، ولكنها أتاحت لنا عين الألفة التي كانت بيننا قبل طيشي، ولم يغفل قلبي قط هذا الود، ولو أن "**سان - لامبير**" استطاع أن يطلع على دخيلتي لاطمأن إلى ذلك يقينا، وبوسعي أن أقسم أنه بالرغم من أن مرأى السيدة "**دوديتو**" - عند وصولي - قد أثار ضربات قلبي في عنف بالغ، حتى أوشكت أن أفقد وعيي، إلا أنني لم أكن أفكر فيها - عندما انصرفت - إذ شغلت عنها بـ"**سان - لامبير**"!

وبالرغم من السخريات الخبيثة – التي صدرت عن السيدة "**دي بلينفيي**" – إلا أن هذه المأدبة شرحت صدري، فرحت أهنىء نفسي بحرارة على أنني لم أرفض الدعوة. فلقد تبينت هناك أن دسائس "**جريم**" وعصبة "**دولباخ**" لم تشتت أصدقائي القدامى عني (١)، وليس هذا جل ما تبينت بل إن مشاعر السيدة "**دوديتو**" و"**سان – لامبير**" لم تتحول كما كنت أتوقع.. واستطعت أن أفهم – أخيرا أن البعاد الذي حجب السيدة "**دوديتو**" عني، كان مرده إلى الغيرة، أكثر مما كان إلى نقص في تقديرها إياي، ولقد وجدت في هذا عزاء وتسرية!.. ذلك لأن اطمئناني إلى أنني لم أكن موضع احتقار لدى أولئك الذين كنت أعتز بهم كان يمكنني من أن أفرض سيطرتي على قلبي بكثير من القوة والتوفيق، وإذا كنت لم أوفق إلى أن أخمد تماما – في هذا القلب – هوى آثما ومنحوسا، فإنني استطعت أن أسيطر على هذا الهوى وأن أرمضه، على الأقل، فلم يدفعني – منذ ذلك الحين – إلى أن أرتكب خطأ واحدا. وما تزال أعمال النسخ – التي أغرتني السيدة "**دوويتو**" باستئنافها لحسابها – ومؤلفاتي، التي واصلت إرسالها إليها عند ظهورها.. ما تزال هذه وتلك، تأتيني منها – بين الحين والحين – برسائل ومذكرات، قد لا تكون ذات قيمة، ولكنها باعثة على الرضا.. بل إنها ذهبت إلى أبعد من ذلك – كما سيتبين فيما بعد – وأن المسلك المتبادل بين ثلاثتنا – بعد أن انقطع اتصالنا – ليقوم مثالا على الطريقة التي يفترق بها أهل الشرف عندما يصبح من المستحب ألا يلتقوا!

وهناك نفع آخر أفدته من هذه المأدبة: ذلك هو أنها صارت حديث "**باريس**"، واتخذت كدليل قاطع يدحض الشائعة التي كان أعدائي قد روجوا لها في كل مكان، عن أنني كنت على أشد الخصام مع أولئك الذين حضروها جميعا، لا سيما السيد "**ديبيناي**" بالذات!.. وكنت قد كتبت له – عند مبارحة "**ليرميتاج**" – رسالة شكر مهذبة، أجاب عنها بأدب مماثل، ولم تنقطع المجاملات المتبادلة، سواء بيني وبينه، أو بيني وبين السيد "**دي لاليف**" – شقيقه – الذي كان يفد إلى "**مونمورنسي**" لزيارتي، ويبعث إليّ بصوره، وما عدا زوجتي شقيقي السيدة "**دوديتو**" لم أكن يوما على علاقة سيئة بأحد من الأسرة.

*****

ولقد حظي مقالي الموجه إلى "**دالمبير**" بنجاح عظيم، ولقد كان هذا شأن مؤلفاتي جميعا، ولكن هذا المقال بالذات، كان أحبها إلي في نفسي؛ إذ إنه نبه الرأي العام إلى عدم الثقة بتخرصات عصبة "**دولباخ**". فعندما انتقلت إلى "**ليرميتاج**"، تنبئوا – باعتدادهم المأثور– بأنني لن أستطيع البقاء هناك لأكثر من ثلاثة أشهر. حتى إذا رأوني أمكث هناك عشرين شهرا، ثم أظل – بعد أن اضطررت إلى مبارحته – في الريف، راحوا يتشدقون بأن هذا لم يكن سوى مجرد عناد محض، وأنني قد ضقت – إلى حد الموت بعزلتي، ولكن الغرور والكبرياء كانا يغريان قلبي، ويجعلاني أوثر الموت هناك – ضحية العناد – على أن أرجع عن رأيي وأعود إلى "**باريس**". ولكن رسالتي إلى "**دالمبير**" جاءت عبقة بأنفاس روح وادعة، في غير اصطناع، ولو أنني كنت أعاني النكد في عزلتي لبدا هذا ملموسا في لهجتي، كما كان يبدو جليا في جميع ما كنت قد كتبت إبان إقامتي في "**باريس**".. ولكن هذه الروح اختفت في أول مؤلف وضعته في الريف، وقد كانت هذه الظاهرة برهانا قاطعا لدى القادرين على الملاحظة؛ إذ رأوا – في مقالي – أنني عدت إلى طبيعتي.

ومع ذلك، فإن هذا المقال – المفعم باللطف – قد جلب لي عدوا جديدا في عالم الأدب، من جراء

---

(١) عقب "روسو" على هذا بقوله: "ولقد كان هذا ما ظللت أؤمن به – بسذاجة قلبي – حتى كتابة الاعترافات".

غفلتي وسوء طالعي المعهود! . ذلك أنني كنت قد تعرفت – لدى السيد "**ديلا بوبلينيير**" على "**مارمونتيل**"، ثم توثق هذا التعارف لدى "**البارون**"، وكان "**مارمونتيل**" يتولى – إذ ذاك – تحرير صحيفة "**ميركور دي فرانس**"، ولما كنت أربأ بنفسي أن أرسل مؤلفاتي إلى أولئك الذين يكتبون للصحف، ومع ذلك فقد كنت راغبا في أن أرسل هذا المؤلف بالذات إلى "**مارمونتيل**" دون أن أشعره بأنه موجه إليه كمحرر، أو لكي يتحدث عنه في صحيفته، فقد كتبت على النسخة التي أرسلتها إليه أنها غير موجهة إلى "**محرر الميركور**"، وإنما إلى "السيد **مارمونتيل**"، وظننت أنني بذلك كنت أقدم له مجاملة لطيفة، ولكنه – كما بدا – رأى فيها إهانة بالغة، فأصبح عدوا لا تهدأ لخصامه سورة، وكتب ضد مقالي مقالا مؤدبا، ولكن أسلوبه لم يخل من غل ملموس، ومن ذلك الحين لم يدع فرصة تمر دون أن يطعنني في المجتمع، أو يسيء إليّ – في مؤلفاتي – إساءة غير مباشرة.. إلى هذا الحد يتعذر ترويض أنانية أهل الأدب، وإلى هذا الحد يجب أن يكون المرء على حذر فيما يوجهه إليهم من مجاملات، فلا يدع أي شيء يمكن أن يؤول على غير معناه!

سنة ١٧٥٩

أما وقد غدوت مطمئنا، من كل جانب، فقد رحت أستغل فراغي وحريتي في استئناف أعمالي الأدبية بمزيد من الانتظام. فأتممت – في ذلك الشتاء – "**جولي**"، وأرسلتها إلى "**ريه**" الذي أتم طباعتها في العام التالي. غير أن انصرافي إلى العمل، لم يلبث أن اضطرب من جراء حادث تافه، ولكنه مكدر. فقد علمت أن الاستعداد كان يجري في "الأوبرا" لعرض "**عراف القرية**" من جديد، وغاظني أن وجدت أولئك القوم يتصرفون في إنتاجي دون اكتراث بي، فعدت إلى المذكرة التي كنت قد أرسلتها – يوما – إلى السيد "**دارجنسون**" ولم أتلق عنها جوابا، فنقحتها، وأرسلتها عن طريق السيد "**سيلون**"، مع خطاب تكرم بأن يعنى بتسليمه إلى السيد الكونت "**دي سان – فلورنتان**"، الذي كان قد خلف السيد "**دارجنسون**" في إدارة "الأوبرا"، ولقد تحدث "**ديكلو**" – إذ أنبأته بما فعلت – إلى "الكمانين الصغيرين" بهذا الشأن، فعرضا عليه أن يعيدا إليّ، لا أوبراي، وإنما التصريح بدخول الدار دون مقابل، وهو ما لم يكن ذا نفع لي؛ وإذ رأيت أنه لا أمل لي في أي إنصاف، فقد تخليت عن المسألة كلها، وواصل المشرفون على إدارة "الأوبرا" استغلال "**عراف القرية**" وفق هواهم – وكأنها ملك خاص لهم – ويجنون منها الأرباح، دون أن يعنوا بالرد على احتجاجاتي، أو ينصتوا إليها، مع أن هذه "الأوبرا" ملك لي وحدي، دون منازع (١).

ومنذ نفضت عن نفسي ربقة الطغاة الذين أوسعوني جورا، رحت أعيش حياة سهلة، مسترسلة، وادعة وقد حرمت من فتنة علاقتين من أقوى العلاقات العاطفية، وتحررت من أغلالهما الثقيلة، ولفرط مقتي للأصدقاء "الحماة" الذين كانوا يظهرون رعايتهم لي، لمجرد الرغبة في أن يوجهوا مصيري وفق هواهم، وأن يجعلوني – على الرغم مني – أسير أفضالهم المزعومة، عقدت العزم، على أن أقصر علاقاتي – في المستقبل – على مجرد حسن النية والود الخالص، الذي يضفي على الحياة بهجة – دون أن يفرض أية قيود على الحرية التامة – والذي يقوم على أساس المساواة الكاملة!.. ولقد كان لديّ من هذا النوع من العلاقات قدر كاف لأن يمكنني من أن أتذوق متع الجماعة والإيناس، دون أن أكون

---

(١) أضاف "روسو" إلى هذه الفقرة التعقيب التالي: "أعترف بأن كل ما استطعت – منذ كتابة هذا المؤلف – أن أتبينه خلال المعميات الغامضة. التي تحيط بي، يجعلني أخشى ألا أكون قد عرفت "ديدرو" حق المعرفة"!

مضطرا إلى أن أعتمد عليها اعتمادا يحد من استقلالي، وما إن جربت هذا الأسلوب من أساليب الحياة حتى شعرت بأنه أنسبها لسني، ولأقضي الأيام الباقية من عمري في سلام ، بعيدا عن الأنواء، والخلافات، والمضايقات، التي كدت أغرق في حمأتها، في الفترة الأخيرة.

*****

وكنت خلال إقامتي في "**ليرميتاج**"، ومنذ أن استقر بي المقام في "**مونمورنسي**" قد عقدت صلات تعارف مستحبة، في المنطقة لم تكن تفرض عليَّ أية التزامات، وعلى رأس هؤلاء المعارف "**لويزو دي موليون**" الشاب، الذي كان ما يزال في بداية عمله كمحام، وعلى جهل بالمركز الذي كان موشكا أن يشغله، ولم تكن لديْ من الهواجس مثل ما تولاه، فرحت أبين له الحياة العملية الموفقة، التي ينعم بها اليوم، وتنبأت له بأنه إذا حرص أشد الحرص على تخير قضاياه، وإذا هو تشبث دائما بالدفاع عن الحق والفضيلة فإن هذه المشاعر السامية لن تلبث أن تصقل نبوغه، وتجعله في مصاف كبار المحامين والخطباء، ولقد تبع نصحي، وإنه ليحظى اليوم بالنتيجة، ولقد كان دفاعه عن السيد "**دي بورت**"، خليقا بأن يعادل ما كان يصدر عن الخطيب الإغريقي "**ديموستين**"!.. وكان يفد لقضاء عطلته من كل عام، في "**سان - بريس**" - على أربعة فراسخ من "**ليرميتاج**" - في ضيعة آل "**موليون**" التي كانت تمتلكها أمه، والتي عاش فيها من قبل "**بوسيويه**" العظيم، وهي ضيعة أدى تعاقب أمثال هؤلاء الملاك عليها إلى تعذر بقاء أسرة إقطاعية على أرضها!

وكان لي في القرية ذاتها - "**سان - بريس**" - صديق آخر هو الكتبي "**جيران**".. وكان رجلا موهوبا، مطلعا، لطيفا، وفي أرقى مصاف أبناء مهنته، ولقد تعرفت بفضله إلى "**جان نياولم**"، وكان صديقا له من باعة الكتب، على تراسل مستمر معه، وهو الذي نشر كتابي "**إميل**"، فيما بعد.

وعلى مسافة أدنى من "**سان - بريس**"،تعرفت إلى راعي كنيسة "**جورسلي**" - السيد "**مالتور**" - الذي كان يصلح لأن يكون وزيرا ومن رجال الحكم منه لأن يكون "**حوريا**" لكنيسة إحدى القرى.. أو كان جديرا - على الأقل - بأبرشية يديرها، إذا قدر للمواهب أن تحدد مراكز الرجال!.. ولقد كان يوما سكرتيرا للكونت "**دولوك**"، وعرف "**جان بابتيست روسو**" معرفة وثيقة، وكان مفعم النفس بالتقدير لذكرى هذا الشاعر الجليل - الذي قدر له أن يقصى عن موطنه - بقدر ما كان مليء القلب بالمقت لذلك الوغد "**سوراني**" الذي كان سببا في القضاء على ذلك الشاعر.. وكان "**الخوري**" يعرف عددا من النوادر الطريفة عن كل منهما، لم يذكرها "**سيجاي**" في سيرة الشاعر، التي لم تنشر بعد، ولقد أكد لي السيد "**مالتور**" أن الكونت "**دولوك**" لم يجد يوما سبيلا إلى الشكوى منه، بل إنه ظل يكن له صداقة حارة إلى آخر أيام حياته، ولقد منح السيد "**دي فانتميل**" الخوري منصبه المريح - بعد وفاة مخدومه السابق - ليعيش في عزلة هادئة. وقد روي لي أنه استخدم - قبل ذلك - في كثير من الأعمال، ظل - رغم تقدم سنه - يحتفظ بذكريات واضحة لها، وكان يحدثني عنها بلهجة تنم عن حكمة وحصافة، وكان حديثه مفيدا بقدر ما كان مسليا، لا يوحي إلى المرء قط بعقلية "**خوري**" القرية، وكان يجمع بين دراية الرجل الخبير بالدنيا، وشوق الطالب الراغب في التعليم، ولقد كانت صحبته هي أحب صحبة إلى بعض المقيمين في المنطقة من جيراني، ولقد فارقته وفي نفسي أبلغ الأسف لذلك.

وتعرفت في "**مونمورنسي**" إلى أعضاء هيئة الوعظ، ومنهم الأب "**بيرتييه**" الذي كان أستاذا في العلوم الطبيعية، والذي توثقت صلتي به – برغم لمحة من الاختيال بعلمه في خلقه – لما لمسته فيه من طيبة. على أنني وجدت عناء في محاولة التوفيق بين سذاجته المسرفة، وبين تحايله على أن يزج بنفسه في كل مكان.. في دور العظماء، وبين النساء، ولدى الأتقياء، وفي أوساط الفلاسفة. كان يعرف كيف يرضي أهواء جميع الناس!.. ولقد وجدت متعة بالغة في صحبته، ورحت أتحدث عنه إلى كل إنسان، ومن الجلي ان كل ما كنت أقوله عنه، قد نمى إليه؛ فقد شكرني ذات يوم، مبتسما، لأنني كنت أعتبره رجلا طيبا، ولمحت في ابتسامته لونا من اللؤم بدل سحنته – في نظري – تبديلا تاما، ولا تزال هذه الابتسامة تتمثل في ذاكرتي أحيانا، منذ ذاك الحين، ولست أملك أن أصورها بأكثر من انها ابتسامة "**بانورج**" وهو يبتاع أغنام "**داندينو**". ولقد بدأ تعارفنا عقب وصولي إلى "**ليرميتاج**" بوقت قصير، ثم أخذ يكثر من التردد على الدار لزيارتي بعد ذلك.

وكنت قد استقررت في مقامي في "**مونمورنسي**"، عندما رحل الأب "**بيرتييه**" إلى "**باريس**"، ليقيم فيها، وهناك أخذ يلتقي بالسيدة "**لوفاسير**" في كثير من الأحيان وقد كتب لي ذات يوم – كان فيه أبعد الناس عن ذهني – يطلعني، على لسان هذه المرأة، على أن "**جريم**" عرض عليها أن يعولها، ويستأذنني باسمها في قبول هذا العرض، وعلمت أن "**جريم**" عرض عليها معاشا قدره ثلاثمائة ليبرة، على شريطة أن تذهب لتقيم في "**دوبيي**"، بين "**لاشيفريت**" و"**مونمورنسي**"، ولست بحاجة إلى أن أذكر وقع هذا النبأ على نفسي.. لقد أثار دهشة تفوق ما لو علمت أن "**جريم**" أوتي دخلا قدره مائة ألف ليبرة، أو أنه أنشأ علاقة غير شريفة مع هذه المرأة!.. وكأنه لم يعتبره إجراما مني أن أصطحب هذه المرأة إلى ذات الريف الذي يميل الآن إلى إعادتها إليه.. أو كأن السن رجعت بها القهقرى منذ أثار هذا الاتهام!

وأدركت أن العجوز الماكرة ما كتبت تسألني الإذن – وهي التي لم تكن تتورع عن أن تغض البصر عنه إذا ما رفضت – إلا لكي تتفادى أن تفقد ما كنت أمنحها إياه من ناحيتي، ومع أن هذا التطوع للخير – من جانب "**جريم**" – بدا غير عادي في عيني إلا أنه لم يشغلني إذ ذاك، بقدر ما شغلني فيما بعد. على أنه لو قدر لي حينذاك أن أعرف كل ما عرفت بعده لما أحجمت عن أن أعلنها بموافقتي – كما فعلت إذ ذاك – ما لم أكن على استعداد لأن أعوضها عما عرضه عليها "**جريم**"!

ومنذ ذلك الحين أبرأني الأب "**بيرتييه**" من الاغترار بطبيعة الأمر الذي بدا له عجبا، حين صارحته به في غباء!

*****

كان هذا الأب "**بيرتييه**" بالذات، على معرفة برجلين، كانا بدوريهما ينشدان التعرف إليّ، دون أن أدري لذلك داعيا؛ إذ لم يكن ثمة تقارب يذكر – في الواقع – بين ميولهما وميولي. ذانك هما ابنا "**ميلشيسيديك**" اللذان لم يقدر لأحد أن يعرف وطنهما، ولا أسرتهما، بل – وربما – لقبهما الحقيقي، وكانا من "**اليانسيين**" (١) وقد أخذهما القوم على أنهما راهبان مستخفيان، ولعل ذلك كان راجعا إلى عادتهما التي كانت تعرضهما للسخرية.. عادة حمل سيفين طويلين، كانا يتشبثان بهما، وكانت السرية الضافية التي راحا يسبغانها على كل تصرفاتهما، تكسبهما مظهر زعماء

(١) "اليانسيين" اتباع مذهب ديني، ورد شرحه في الجزء الاول من "الاعترافات".

الأحزاب أو الشيع، ولم أشك قط في أنهما هما اللذان كانا يصدران "**الجازيت اكليسيا ستيك**"، الصحيفة الدينية.

وكان أحدهما فارع القامة، بشوشا، متملقا، يدعى السيد "**فيرو**".. أما الآخر، فكان قلة في الجسم، ربعة القوام، ساخرا، كثير الجدل فيما لا طائل منه، ويدعى السيد "**مينار**"، وكان كل منهما ينادي الآخر بيا "ابن **العم**"، وكانا يقيمان في "**باريس**" مع "**داليمبير**"، في بيت مربيته، وقد اتخذا في "**مومورنسي**" بيتا صغيرا، راحا يقضيان فيه فصل الصيف من كل عام، وكانا يدبران شؤون بيتهما بنفسيهما، دون خدم ولا حشم، وكانا يتناوبان أسبوعيا الذهاب إلى السوق، والطهو، وكنس البيت. وفيما ذلك، كانا يعيشان ناعمين، وكنت أتناول الطعام علي مائدتهما، ويتناولانه على مائدتي، في بعض الأحيان، ولست أدري السر في أنهما كانا يشغلان بي، في حين أنني لم أكن أحفل بهما إلا لأنهما كانا يهويان الشطرنج.. ولكي أظفر بمباراة صغيرة، متواضعة، كنت أحتمل أربع ساعات مضجرة، ولما كانا يسعيان إلى أن يدسا أنفيهما في كل شيء فإن "**تيريز**" أطلقت عليهما اسم "**الثرثارين**"، وقد لصق بهما هذا الاسم في "**مونمورنسي**".

هؤلاء مع السيد "**متى**" – صاحب بيتي، الذي كان رجلا وقورا – كانوا أهم معارفي في الريف، وكنت ما أزال أحتفظ بعدد كاف في "**باريس**"؛ لكي أنسى الحياة هناك – كلما طاب لي ذلك – خارج نطاق وسط الأدباء، حيث لم أكن أعول على صديق سوى "**ديكلو**" وحده!.. فقد كان "**ديليير**" ما يزال جد صغير السن بالنسبة لي، ومع انه لم يلبث إذ عرفت عن كثب الدساسين ضدي من العصبة الفلسفية – ان نأى بنفسه تماما عن هذا الوسط، أو هكذا ظننته، على الأقل.. ولم أكن قد استطعت بعد أن أنسى سهولة مبادرته إلى جعل نفسه بوقا لكل أولئك المتآمرين!

وكنت ما أزال أحتفظ – في المكانة الأولى – بصديقي القديم المحترم السيد "**روجان**"، وهو من أصدقاء الأيام الطيبة، الذين لا أدين بمعرفتهم لكتاباتي، وإنما لشخصي؛ ولهذا السبب استطعت أن أحتفظ به دواما، وكان من أصدقائي أيضا، مواطني الشيخ الطيب "**لينييب**"، وابنته السيدة "**لامبير**"، التي كانت إذ ذاك أرملة، وهناك – كذلك – شاب من "**جنيف**" يدعى "**كوانديه**"، كان فتى طيبا – كما بدا لي – مجتهدا، خدوما، ذا حمية.. بيد أنه كان جاهلا، متواكلا، شرها، نفعيا، وقد جاء – منذ البداية – لزيارتي في "**ليرميتاج**"، وبدون دعوة – اللهم إلا من نفسه – استقر في بيتي، بالرغم مني، وكان على ميل للرسم، وعلى معرفة بأهل الفن، وقد أفدت منه في رسوم "**جولي**"، فآلى على نفسه أن يشرف على الرسوم واللوحات "**الكليشيهات**"، وقد أدى هذه المهمة خير أداء.

وكان لديَّ – فوق ذلك – بيت السيد "**دوبان**" الذي غدا أقل بهاء، مما كان في أنضر أيام السيدة "**دوبان**" (أيام شبابها) والذي ظل من خيرة الدور الباريسية بفضل مواهب سادته وخلالهم، وبفضل الصفوة التي كانت تتردد عليه، ولما كنت قد اعتدت أن أفضلهم على من عداهم طرا، ولم أهجرهم إلا لكي أعيش طليقا فإنهم لم يكفوا قط عن أن يرمقوني بعين الود، وكنت واثقا من حفاوة السيدة "**دوبان**" بي في جميع الأوقات. بل إنني أستطيع اعتبارها من جاراتي في الريف – كذلك – منذ أقاموا دارا في "**كليشي**"، اعتدت أن أقضي فيهما يوما أو يومين – في بعض الأحيان – وكنت خليقا بأن أكثر من التردد عليها، لو أن السيدة "**دوبان**" والسيدة "**شينونسو**" كانتا تعيشان على مزيد من الوئام. ولكن تعذر توزيع اهتمام المرء بين امرأتين لا تنسجمان معا، جعلني أضيق كثيرا بـ"**كليشي**".

ولما كنت مرتبطا بالسيدة "**شينونسو**" بود أكثر يسرا وأشد ألفة فإنني كنت أحظى بمتعة رؤيتها - وأنا أكثر ارتياحا - في "**دوبي**"، التي كانت جد قريبة من مسكني، حيث كانت قد استأجرت دارا صغيرة.. كما كنت أسعد برؤيتها في داري، حيث اعتادت أن تأتي لزيارتي في كثير من الأحيان.

كذلك كان بين معارفي في "**باريس**" السيدة "**دي كريكي**"، التي أوغلت في التعبد والتدين، وكفت عن لقاء "**داليمبير**" و"**مار مونتيل**" ومن على شاكلتهما، ومعظم أهل الأدب، اللهم إلا الأب "**تروبليه**" - على ما أعتقد - الذي كان في ذلك الحين شبه مراء متملق، حتى إنها لم تلبث أن ضاقت به. أما أنا، فكانت تنشد صحبتي، ولم تفقد ودها نحوي، بل ظلت دائما على تراسل معي، وقد أرسلت لي بعض دجاج "**لومان**" السمين كهدية في رأس السنة. كما كانت تعتزم أن تفد لزيارتي في العام التالي عندما أفسدت عليها خطتها رحلة قامت بها السيدة "**دي لوكسمبورج**" في الوقت ذاته، وإني لأحتفظ لها في نفسي بمكانة خاصة، ولسوف تظل ذات مقام في ذاكرتي على الدوام.

*****

وكان لديَّ صديق، جدير بأن أجعله في مقدمة الجميع اللهم إلا "**روجان**". ذلك هو زميلي وصديقي القديم "**كاريو**"، الذي أصبح السكرتير الأسمى للسفارة الإسبانية في "**البندقية**"، ثم في "**السويد**"، حيث عينه بلاط بلاده قائما بالأعمال، ثم عين سكرتير أصليا لسفارة بلاده في "**باريس**". ففاجأني بزيارة في "**مونمورنسي**"، في وقت كنت فيه أبعد ما أكون عن أن أتوقعه، وكان يتقلد وساما إسبانيا - نسيت اسمه - ذا صليب بديع مرصع بالأحجار الكريمة، وكان مضطرا إلى أن يضيف إلى اسمه - في وثائق النسب - حرفا آخر، فأصبح يحمل اسم "**الشيفالييه دي كاريون**". ولقد وجدته على ما عهدته عليه دائما: عين القلب الرائع، والعقل الذي يزداد لطفا وسحرا يوما بعد يوم.. وكنت خليقا بأن أعاود الفتى معه، كما كنا من قبل، لو لم يدخل "**كوانديه**" بيننا - كعهده - فينتهز بعدي عن "**باريس**"؛ ليتسلل - باسمي - إلى مكاني منه، ويغدو موضع ثقته، ويسلبني رده في تحمسه لخدمتي!

وتعيد ذكرى - "**كاريون**" إلى ذهني ذكر أحد جيراني في الريف، كنت خليقا بأن أذنب أشنع ذنب لو أنني أغفلت الحديث عنه لاسيما أنني مسوق إلى أن أعترف بخطأ لا يغتفر نحوه. ذلك هو السيد الكريم "**لوبلون**"، الذي أدى لي كثيرا من الخدمات في "**البندقية**"، والذي جاء في رحلة إلى "**فرنسا**" - مع أسرته - فاستأجر دارا ريفية في "**لابريش**"، التي لم تكن تبعد كثيرا عن "**مونمورنسي**"، وما إن عرفت أنه جاري حتى خفق قلبي طربا، ورأيت أن أزوره بدافع من سروري، أكثر مما كان ذلك بدافع من الواجب، وذهبت لذلك في اليوم التالي مباشرة، وإذا بي ألتقي بأناس كانوا قادمين لزيارتي. فاضطررت إلى العودة معهم. وبعد يومين، سعيت إليه مرة ثانية، فوجدته يتناول غداءه في "**باريس**" مع أسرته (١). وذهبت مرة ثانية، فإذا به في داره، وسمعت أصوات نساء، ورأيت لدى الباب عربة أزعجتني؛ إذ كنت أود أن أقابله - دون دخيل ولو في المرة الأولى، على الأقل، لأتكلم معه عن علاقاتنا القديمة. وموجز القول، إنني رحت أرجىء زيارتي يوما بعد آخر، حتى منعني حيائي من التقصير - طيلة هذه المدة - في تحقيق هذا الواجب، من أن أؤديه إطلاقا. فكان

(١) أضاف "روسو" إلى هذه العبارة، التعقيب التالي: "كنت عند كتابة هذا، مفعما بثقتي القديمة العمياء، أبعد ما أكون عن أن أرتاب في السبب الحقيقي لهذه الرحلة إلى "باريس"، وفي نتائجها".

إقدامي على الانتظار طويلا، سببا في ألا أجرؤ – في النهاية – على أن أظهر نفسي، ولقد أدى هذا الإهمال – الذي لم يكن السيد "**لوبلون**" يملك سوى أن يستنكره، عن حق – إلى أن جعل تخاذلي يبدو جحودا، ومع ذلك فإنني لم أشعر في قرارة فؤادي – بأي تثريب.. ذلك لأنني لو كنت قادرا على أن أتيح للسيد "**لوبلون**" أي سرور حقيقي – وإن لم يكن على علم به – فإنه ما كان ليجدني في يقيني، متكاسلا. ولكن الخمول، والإهمال، والتهاون في أداء الواجبات التافهة، كثيرا ما كانت أبلغ إساءة إليَّ، بل من أعظم الرذائل. كانت أبشع أخطائي تتمثل في التغاضي، فنادرا ما كنت أفعل ما لم يكن ينبغي أن أفعله، وأندر من ذلك – لسوء الحظ – أنني لم أكن أفعل ما يجب فعله!

*****

وما دمت قد عدت إلى المعارف الذين ظفرت بهم في "**البندقية**"، فخليق بي ألا أنسى علاقة تتصل بهم، وقد دامت أمدا أطول من بقية العلاقات، وأقصد علاقتي بالسيد "**دي جونفيي**"، الذي ظل – منذ عودته من "**جنوا**" – يواصل إبداء كثير من الود نحوي، وكان شديد الشغف بلقائي، وبالحديث عن المسائل والشؤون الإيطالية، وعن حماقات السيد "**دي مونتيجي**"، التي عرف – من ناحيته – بعض نوادرها، عن طريق وزارة الخارجية، التي كانت له بها كثير من الصلات. ولكم سررت؛ إذ التقيت في داره بزميلي القديم "**دوبون**"، الذي كان قد حصل على منصب في إقليمه، وكانت شؤونه تحمله إلى "**باريس**" من آن إلى آخر.

ولقد أخذ السيد "**جونفيي**" يزداد إلحاحا في لقائي، شيئا فشيئا، حتى أصبح مصدر إزعاج لي.. ولما كنا نقيم في حيين متباعدين، فقد بات يثير ضجة بيننا، إذا انقضى أسبوع كامل دون أن أذهب فأتناول الغداء لديه وكان إذا ذهب إلى ضيعة "**جونفيي**"، يسعى دواما إلى اصطحابي، ولكنني بعد أن قضيت هناك ثمانية أيام – ذات مرة – شعرت بأنها لا تكاد تنصرم، لم أعد أجد رغبة في العودة إليها، ولقد كان السيد "**جونفيي**" رجلا كريما، شهما – بكل تأكيد – كما كان لطيفا في نواح خاصة، ولكنه كان محدود الذكاء... وكان جميلا، مزهوا بشكله إلى حد ما، وباعثا على الضجر.. وكانت لديه مجموعة جد فريدة في نوعها، بل لعلها كانت وحيدة في العالم، فكان جد مشغول بها، وكان يشغل بها ضيوفه الذين كانوا يجدونها – أحيانا – أقل تشويقا مما كان يجدها هو تلك كانت مجموعة كاملة من أغاني البلاط الملكي، والأغاني الباريسية – منذ أكثر من خمسين عاما – توجد بينها كثير من الطرائف، التي كان من المستحيل على الباحث أن يعثر عليها في أي مكان آخر.. وإنها لذكريات في تاريخ "**فرنسا**"، نادرا ما تخطر بالبال لدى كافة الأمم الأخرى!

وفي ذات يوم – وقد كنا في أوج وئامنا – استقبلني استقبالا باردا، جليديا، لا يماثل مسلكه العادي، حتى إنني بعد أن أتحت له فرصة ليشرح هذا المسلك – بل وسألته إيضاحا – فلم يفعل،، خرجت من داره وقد قر عزمي على ألا أضع قدمي فيها مرة أخرى؛ إذ إنني لا أشاهد ثانية – على الإطلاق – حيث أكون قد حظيت باستقبال سيئ مرة.. ولم يكن هنا "**ديدرو**" يشفع للسيد "**دي جونفيي**"، ولقد أرهقت عقلي عبثا. كي أتبين أي ذنب يحتمل أن أكون قد ارتكبته نحوه؛ إذ إنني لم أستطع أن أتذكر شيئا، وكنت موقنا من أنني لم أتحدث قط عنه أو عمن يمت إليه، إلا باحترام كبير؛ إذ إنني كنت صادقا في ودي له، وبجانب أنني لم أكن أملك ما أقوله عنه سوى كل خير، فقد كان من أكثر مبادئي صلابة، ألا أتحدث عن البيوت التي أزورها، إلا في إجلال وأمانة.

وأخيرا، وبعد تخبط، انتهيت إلى الحدس التالي : ففي آخر مرة التقينا فيها، دعاني إلى العشاء في مسكن فتيات من معارفه، مع اثنين أو ثلاثة من موظفي وزارة الخارجية، وكانوا رجالا متزنين، لا يبدو عليهم قط أي فجور أو خلاعة.. وبوسعي أن أقسم على أنني – من ناحيتي – قضيت الأمسية في خواطر حزينة من أجل النصيب التعس الذي أوتيته هؤلاء الفتيات المسكينات، ولم أساهم في نفقات العشاء؛ لأن السيد "دي **"جونفيي"** كان صاحب الدعوة.. كما أنني لم أهب الفتيات شيئا؛ لأنني لم أتح لهن فرصة التكسب مني، كما فعلت في واقعة **"البادوانا"**. وبعد ثلاثة أيام أو أربعة – لم أزر فيها الفتيات مرة أخرى – ذهبت لتناول الغداء في دار السيد **"دي جونفيي"**، الذي لم أكن قد رأيته منذ تلك المناسبة، فإذا به يستقبلني على النحو الذي ذكرته، ولما لم أستطع أن أتصور سببا سوى احتمال وقوع سوء تفاهم لأمر ما يتصل بذلك العشاء؛ وإذ تبينت أنه غير راغب في أن يشرح مسلكه، فقد انقطعت عن زيارته، ولكنني ظللت أرسل إليه مؤلفاتي، فكان يبعث إليَّ – أحيانا – بتحياته.

وفي ذات مساء، قابلته في غرفة الاستراحة بمسرح "الكوميدي"، فإذا به يعتب عليَّ في لطف أنني لم أعد أزوره، ولكن هذا لم يحملني على العودة إليه، وهكذا، بدا الأمر – في هذه الحالة – مجرد إحجام أكثر منه قطيعة!.. على أنني لم أره قط بعد ذلك، ولا سمعت عنه مزيدا بعد ذلك الوقت. وقد تكون الفرصة جد متأخرة – بعد أن انفصمت صلتنا لعدة سنوات – لكي نجدد صداقتنا، وهذا هو السبب في أنني لم أذكر هنا السيد **"دي جونفيي"**، بين الأصدقاء الذين ظللت أحتفظ بهم في **"باريس"**، برغم أنني ترددت على داره فترة طويلة.

*****

على أنني لن أضخم القائمة بأسماء معارف آخرين أقل ألفة، أو أسماء أولئك الذين قل توثق أُلفتِي بهم تدريجا، لتغيبي عنهم، ولو أنني ما أزال أراهم في الريف أحيانا، سواء في داري أو في دور جيراني، ومنهم – على سبيل المثال – الراهبان **"دي كوندييلاك"** و**"دي مابلي"**، والسادة **"دي ميران"**، و**"دي لاليف"**، و**"دي بواجيلو"**، و**"واتيليه"**، و**"أنسيليه"** وغيرهم ممن يطول سرد أسمائهم. كذلك أورد في ذكر عابر، السيد **"دي مارجينسي"**، الأمين الخاص للملك، والعضو القديم في ندوة **"دولباخ"**، والذي لم يلبث أن هجرها كما هجرتها أنا، وقد كان صديقا حميما للسيدة **"ديبيناي"**، ولم يلبث أن انفصل عنها كما انفصلت أنا.. ثم أذكر صديقه **"ديماهي"**، مؤلف المسرحية الفكهة: **"السفيه"**، الذي اكتسب شهرة، ولكنه لم يلبث أن غاب عن الأذهان والأسماع. ولقد كان الأول – **"دي مارجينسي"** – جارا لي في الريف؛ إذ كانت ضيعة **"دي مارجينسي"** قريبة من **"مونمورنسي"**، وكنا على تعارف قديم، ولكن الجوار، وبعض التشابه في تجاربنا في الحياة، قربا بيننا!.. أما الثاني، فلم يلبث أن مات بعد تعرفنا بقليل، وكان ذا كفاءة وذكاء، ولكنه كان يشبه بطل مسرحيته الفكهة، في بعض النواحي، إذ كان ماجنا – بعض الشيء – مع النساء، ولم يحظ بكثير من الأسف أو الحزن عند موته!

على أنني لا أستطيع أن أغفل علاقة جديدة بالمراسلة – في تلك الآونة – كان لها من الأثر عليَّ ما تبقى من حياتي، ما لا يدعني أتجاوز ذكر منشئها، وأقصد بهذا السيد **"دي لاموانيون دي ماليزيرب"** أول رئيس لمجلس المعونة، الذي كان – إذ ذاك – رقيبا على الكتب المطبوعة، وقد أدى مهمته بكثير من الحصافة وسعة الأفق واللين، فكان مصدر ارتياح كبير لرجال الأدب، ولم أكن قد

زرته قط في "**باريس**"، ولكنني كنت ألقى منه كثيرا من التيسيرات الجديرة بالتقدير، فيما يتعلق بالرقابة.. وقد علمت أنه في أكثر من مناسبة، كان يؤنب - في قسوة - أولئك الذين اعتادوا أن يكتبوا ضدي، ولقد وقعت على أدلة جديدة على كرمه وأفضاله، بالنسبة لنشر "**جولي**". فإن إرسال "بروفات" مؤلف ضخم كهذا من "**أمستردام**" - حيث كان يطبع - كانت باهظة؛ ومن ثم فإنه سمح بأن ترد باسمه هو؛ إذ كانت المراسلات الموجهة إليه معفاة من رسوم البريد. فكانت "البروفات" ترسل باسمه، فيبعث بها إليَّ دون نفقات كذلك، بفضل والده السيد حامل الأختام، وعندما تم طبع الكتاب رفض بيعه في المملكة إلا بعد طبعة دبر أمرها، بحيث يؤول ربحها إليَّ وحدي، بالرغم مني.. ولما كان هذا الربح يعتبر - من جانبي - سرقة وجورا على حقوق الناشر "**ريه**"، الذي كنت قد بعته أصول كتابي، فإنني لم أرفض فحسب قبول هذه الهدية - التي دبرت لي بدون إذنه، وإن كان قد أقرها في كرم النفس - بل إنني رغبت في أن أقتسم معه المائة "بيستول" التي تجمعت منها، والتي أبى أن يقبل منها شيئا، ولقد ضايقتني هذه المائة "بيستول"؛ إذ لم يكن السيد "**دي ماليزيرب**" قد شاورني في أمرها، ولم يمهد لديَّ حتى أكون على علم إذ أرى مؤلفي يستغل استغلالا بغيضا، فيمنع بيع الطبعة الجيدة، ريثما تستنفد نسخ الطبعة الرديئة! (١)

ولقد اعتدت أن أنظر دائما إلى السيد "**دي ماليزيرب**" كرجل أجمعت الشواهد على استقامته. فما حملني شيء مما حدث على أن أرتاب في أمانته لحظة واحدة، ولكنه كان ضعيفا بقدر ما كان شريفا؛ ومن ثم فإنه كان يسبب المضايقات أحيانا، لأولئك الذين كان يشغل بأمورهم، رغبة منه في حمايتهم، وفي سبيل هذا لم يكتف بأن أمر بحذف أكثر من مائة صفحة من طبعة "**باريس**"، بل إنه عدا على النسخة التي أرسلها إلى السيدة "**دي بومبادور**" - من الطبعة الجيدة - بطريقة جديرة بأن تسمى انتهاكا للأمانة. فلقد قيل في سياق ذلك الكتاب، إن زوجة الفحام أجدر بالاحترام من عشيقة أمير، وإني لأقسم على أن هذه العبارة قد عرضت لي في سياق التأليف، دون أن يقصد بها أحد، وقد تبينت - عندما أعدت قراءة الكتاب - أن الخواطر قد تتجه إلى شخص بالذات.

غير أنني لم أشأ أن أحذف هذه العبارة، جريا على مبدئي الصلب المتعنت، من عدم حذف أي شيء مراعاة لأي تأويل قد يحمل على محمله، مادام ضميري شاهدا على أنني لم أكن أقصد به ذلك التأويل عندما كتبته!.. واكتفيت بأن أبدلت كلمة "**ملك**" - التي كنت قد كتبتها في بادىء الأمر - بكلمة "**أمير**"!

ولم يرض هذا التعديل السيد "**دي ماليزيرب**" - على ما بدا - فحذف العبارة تماما في طبعة جديدة للصفحة في ورقة مستقلة، ألصقها في عناية تامة على الصفحة الأصلية، في النسخة الموجهة إلى السيدة "**دي بومبادور**". على أنها لم تجهل هذه الحيلة من حيل التعمية، فقد وجدت بعض نفوس "طيبة!" أطلعتها عليها. أما أنا، فلم أعلم بها إلا بعد زمن طويل، عندما شرعت أحس آثارها!

أو ليس هذا - بدوره - أصل كراهية مستترة، ولكنها مريرة، من سيدة أخرى كانت في وضع مشابه (٢)، وإن لم أعرف عنه شيئا، بل ولا كنت قد عرفتها هي عندما كتبت هذه الفقرة؟.. ولقد تم تعارفي بها عندما نشر الكتاب؛ فشعرت بكثير من القلق وعدم الارتياح، وأعربت عن ذلك لـ"**الشيفالييه دي لورنزي**"، الذي ضحك ساخرا، وأكد لي أن هذه السيدة لم تمس بما يجرح كرامتها في شيء، بل إنها لم تنتبه إلى الأمر. ولقد صدقت قوله، ولعلني كنت متلهفا بعض الشيء عليه،

---

(١) الطبعة الجيدة هي التي طبعت في "امستردام"، أما الرديئة فهي التي دبر "دي ماليزيرب" إصدارها في "باريس" لمصلحة "روسو". (٢) يقصد الكونتيسة "دي بوفلير"، التي كانت عشيقة الأمير "دي كونتي"!

فاستعدت طمأنينتي في وقت لم يكن من الملائم لي أن أطمئن فيه!

وتلقيت مع مقدم الشتاء، دليلا، جديدا على كرم السيد "**دي ماليزيرب**"، قدرته كل التقدير، وإن لم أر من الحكمة أن أنتفع به. فلقد كان ثمة منصب خال في صحيفة العلماء "**جورنال ديه سافان**"، وقد كتب لي "**مارجينسي**" يعرض هذا المنصب عليّ وكأنه كان يفعل ذلك بدافع من نفسه، بيد أنه كان من اليسير عليّ أن أرى من أسلوب خطابه (الملف "جـ" - رقم ٣٣) يعمل بأوامر من سلطة فوقه.. بل إنه أوحى إليّ بنفسه في خطاب تال (الملف "جـ" - رقم ٤٧) أنه كان مكلفا بأن يعرض عليّ المنصب، وكان العمل بسيطا، يتألف من قطعتين تستخلصان شهريا من كتب ترسل إليّ؛ ومن ثم فلن أكون بحاجة قط إلى أن أذهب إلى "**باريس**" ولو في زيارة للمسؤول، أقدم فيها شكري. ولقد مهد لي هذا المنصب سبيل دخول مجتمع أدباء الطبقة الأولى، السادة: "**ميران**"، و"**كليرو**"، و"**دي جيينى**"، والراهب "**بارثليمي**"، وقد كنت على تعارف سابق بالأولين، فتطلعت في غبطة إلى التعرف بالأخيرين.

وفوق كل ذلك، كان لي أن أتقاضى عن هذا العمل غير المرهق - الذي كان من السهل عليّ أداؤه - مكافأة قدرها ثمانمائة فرنك، مخصصة لهذا المنصب.. وفكرت بضع ساعات، قبل أن أنتهي إلى قرار، وبوسعي أن أقسم بأن ترددي ما كان راجعا إلا إلى الخوف من إغضاب "**مارجينسي**"، وعدم إرضاء السيد "**دي ماليزيرب**". على أن الضيق - الذي لم أقو على مقاومته - من عدم تمكني من العمل في الوقت الذي يحلو لي، واضطراري إلى أن أكون مقيدا بمواعيد معينة، ثم تأكدي من عدم إجادتي للأعمال التي أكون مجبرا على أدائها.. كل هذه تحالفت وتغلبت - في النهاية - على كل اعتبار آخر، وحملتني على أن أقرر رفض منصب لم أكن مهيأ له!.. فلقد كنت أعرف أن نبوغي لم يكن يأتي إلا عن نوع معين من الاهتمام المشبوب بالموضوعات التي أرى علاجها، وأنه لم يكن ثمة ما هو أقوى - على إذكاء عبقريتي - من حب كل ما هو عظيم، وكل ما هو صادق وحقيقي، وكل ما هو جميل! فما قيمة الموضوعات التي كان عليّ أن أستخلصها من أغلب الكتب.. بل ما قيمة هذه الكتب ذاتها لديّ؟.. كان عدم اكتراثي بكل هذا كفيلا بأن يجمد قلمي، وأن يبلد ذهني!.. لقد ظنوا أن بوسعي أن أكتب بحكم المهنة فحسب - ككل الأدباء الآخرين - في حين أنني لم أكن قط أملك أن أكتب إلا عن إيحاء وإلهام؛ ويقينا أن هذا لم يكن بالمادة اللازمة لصحيفة العلماء؛ ومن ثم فإنني كتبت إلى "**مارجينسي**" رسالة شكرته فيها، وشرحت له - في أكثر ما وسعني من أدب - أسباب رفضي بالتفصيل؛ حتى لا يكون له - أو للسيد "**دي ماليزرب**" - أن يظن أن لسوء الطبع، أو للغرور أثرا في هذا الرفض، ولقد أقرني كلاهما على ما ذهبت إليه، دون أن يؤثر ذلك على ودهما لي.. وظل الأمر سرا مصونا، فلم يتح للرأي العام أن يعرف أتفه شيء عنه!

*****

والواقع أن هذا العرض لم يأتني في لحظة مناسبة لكي أوافق عليه؛ إذ إنني كنت قد اعتزمت - منذ فترة - أن أهجر الأدب هجرانا تاما بل أهجر مهنة التأليف؛ فإن كل الذي جرى جعلني أشمئز تماما من أهل الأدب، وقد ثبت لديّ أنه كان من المستحيل أن أمضي في هذه المهنة بالذات، دون أن أتصل بهم، ولم يكن اشمئزازي من أهل المجتمع بأقل من ذلك.. بل إنني كنت قد برمت بالاختلاط الذي أقدمت عليه في الحياة عامة، سواء من ناحيتي أو من ناحية المجتمع.. فإنني لم أكن مهيأ لذلك، وعلى

ضوء التجارب المتواصلة شعرت أكثر من ذي قبل بأن كل العلاقات القائمة على غير تكافؤ أو مساواة، تكون مضرة دائما بالجانب الضعيف فيها، ولقد كانت معيشتي مع قوم ذوي ثراء، يمتون إلى طبقة أخرى غير التي اخترتها، دون أن أعيش على نمطهم، ومع ذلك فإنني كنت مضطرا إلى أن أقلدهم في كثير من الأمور.. وكانت النفقات النثرية - التي لا تعد شيئا مذكورا لديهم - عبئا مرهقا، بقدر ما كانت ضرورة لازمة!.. فإذا ما ذهب رجل لزيارة بيت في الريف، اضطلع بخدمته - سواء على المائدة، أو في مخدعه- خادمه الخاص.. فهو يرسله وراء حاجاته، دون أن يتصل اتصالا مباشرا بخدم البيت، بل وربما دون أن يقع عليهم بصره، فلا شيء بينه وبينهم اللهم إلا أنه يمنحهم هبة كلما طاب له ذلك.. أما أنا، فقد كنت وحيدا، بلا خادم خاص؛ ومن ثم فإنني كنت تحت رحمة خدم البيت الذي أزوره، وكان من الضرورات الماسة لي أن أكسب ودهم، إذا شئت ألا أعاني كثيرا من المضايقات.. ولما كنت أعامل كسيدهم، على قدم المساواة، فقد كان لزاما عليَّ أن أعامل الخدم كما يعاملهم السيد، بل وأن أبدي لهم أكثر مما يبدي أي امرئ آخر؛ لأنني كنت - في الواقع - أكثر من سواي حاجة إلى خدماتهم!

ولم تكن هذه بالمسألة الجسيمة، في الدور التي لم يكن يوجد بها سوى نفر قليل من الخدم.. ولكن الدور التي كنت أزورها، كانت تضم أعدادا كبيرة. منهم، كلهم أنذال مسعورون، شديدو اليقظة.. لمصالحهم الخاصة!. وكان الأنذال يعرفون كيف يدبرون خططهم، بحيث أحتاج إلى خدمات كل واحد منهم بدوره!

وكل نساء "**باريس**" - اللائي أوتين ذكاء فائقا - لا يصبن إطلاقا في آرائهن بهذا الصدد، ومن ثم فقد استنزفن مواردي، في رغبتهن في الإبقاء على هذه الموارد، فإذا كنت ذاهبا لتناول العشاء في دار لإحداهن - على مسافة قليلة من بيتي - أمرت السيدة بإعداد جيادها لتقلني مركبتها في عودتي، بدلا من أن تدعني أطلب مركبة بالأجر.. وكانت تغبط؛ لأنها توفر علي بذلك الأربعة والعشرين "**سو**"، أجر العربة. دون أن يخطر ببالها شيء من "**الإيكو**" الذي كنت أهبه خادم العربة والحوذي. ولو أن سيدة كتبت إليَّ من "**باريس**"، وشاءت أن تبعث برسالتها إلى "**ليرميتاج**" أو "**مونمورنسي**"، فإنها إشفاقا عليَّ من أن أدفع الأربعة "**سو**" - التي كان يكلفنيها خطابها (١) - كانت ترسله مع واحد من خدمها، فيأتي به سيرا على قدميه، وهو مبلل بعرقه.. وكنت أضطر إلى أن أمنحه غداء، وأهبه "**أيكو**" لاشك أنه كان أهلا لاكتسابه!.. أما إذا هي دعتني لقضاء ثمانية أيام - أو خمسة عشر - معها، في الريف، فإنها كانت تقول لنفسها: "لسوف يكون هذا توفيرا لبعض نفقات المسكين، على أية حال!.. فهو لن يتكبد شيئا من نفقات قوته، أثناء مقامه هنا"!.. وكانت تنسى أنني لم أكن أقوم بأي عمل - في تلك الفترة - وإنني أظل مسؤولا عن دفع إيجار مسكني، ونفقات من فيه، والغسيل، والكساء.. وإنني كنت أدفع - في سبيل قص شعري وإزالة لحيتي - ضعف ما اعتدت أن أدفع.. وأن إقامتي في دارها، كانت تكبدني فوق ما اعتدت أن أنفق في داري!

ومع أنني اقتضبت المنح البسيطة التي كنت أهبها لخدم البيوت التي اعتدت أن أترك عليها كثيرا إلا أنها ظلت ترهق مواردي، وأعتقد أنني أنفقت ما يزيد على خمسة وعشرين "**إيكو**"، في دار السيدة "**دوديتو**" - في "**أوبون**" - حيث لم أنم أكثر من أربع أو خمس مرات.. وأكثر من مائة "بيستول" في "**ايبيناي**" و"**لاشيفريت**"، خلال السنوات الخمس أو الست التي أعتدت فيها أن أكون ضيفا مترددا على القصرين..

---

(١) كان المرسل إليه هو المسؤول عن نفقات البريد إذ ذاك.

ذلك أن النفقات من الأمور التي لا مفر منها لرجل في مثل حالي، لا يعرف كيف يؤدي لنفسه شيئا، ولا كيف يستعمل ذكاءه في إنجاز شيء، ولا يستطيع – كذلك أن يطيق رؤية وصيف يزمجر ويؤدي مهامه وهو ساخط.. بل إنني في دار السيدة **"دوبان"** – حيث كنت في مكانة أي فرد من أفراد الأسرة، وحيث أديت الف خدمة للخدم – لم أحظ منهم يوما بشيء، ما لم تكن نقودي واسطة بيننا؛ ومن ثم فإنني لم ألبث أن اضطررت إلى أن أتخلى نهائيا عن هذه المنح الضئيلة، التي لم يعد مركزي يسمح لي بإنفاقها.. وإذ ذاك فقط، شعرت – أكثر من ذي قبل – بمضار الاختلاط بمن ينتمون إلى غير طبقة المرء!

أضف إلى هذا أنني لو استمرأت هذه الحياة لشعرت بعزاء عن هذه النفقات الباهظة، إذ إنها تكون – إذ ذاك – ثمنا لمسراتي. ولكن الإفلاس الذي لا يأتي بغير المضايقة، أمر يفوق كل احتمال، ولقد اشتد شعوري بوطأة هذا المسلك من مسالك الحياة، حتى إنني انتهزت فرصة تلك الفترة من التحرر، التي كنت أحظى بها – إذ ذاك – فعقدت العزم على أن أجعلها دائمة، بأن أنبذ – نبذا تاما – المجتمع الراقي، وتأليف الكتب، وكل صلة بالأدب، وأن أعتكف – ما بقي لي من أيام في الحياة – في ذلك النطاق الضيق، الوادع، الهادئ، الذي كنت أشعر بأنني خلقت من أجله!

ولقد أدت أرباح الكتاب الذي ضمنته مقالي "رسالة إلى **"داليمبير"**"، وكتاب **"هيلويز"** الجديدة" إلى زيادة لا بأس بها، في مواردي التي كانت قد اعتصرت في **"ليرميتاج"**. فقد رأيت أمامي حوالي ألف **"إيكو"**، وكنت قد تقدمت كثيرا في تأليف كتاب **"إميل"**، الذي قصرت عليه اهتمامي بعد أن فرغت من **"هيلويز"**، وكان دخله جديرا بأن يضاعف هذا المبلغ على الأقل؛ ومن ثم فقد فكرت في مشروع لاستثمار هذا الرصيد بطريقة تجلب عليَّ إيرادا صغيرا يكفي– إذا ضم إلى ما تدره عليَّ أعمال النسخ – لأن يوفر معاشي دونما حاجة إلى المضي في الكتابة. كذلك كان لدي كتابان مؤجلان، أولهما "المذاهب السياسية".. ولقد درست حال هذا الكتاب، فوجدت أنه ما يزال يتطلب عدة سنوات من العمل، ولم تكن لدي جرأة على المضي فيه، وأن أنتظر إلى أن يتم، قبل أن أنفذ ما اعتزمت. ومن ثم فإنني عدلت عنه، وقررت أن أستخلص منه ما يسعني استخلاصه، ثم أحرق ما يزيد.. وإذ انهمكت في هذا العمل بكل قوة، دون أن أقطع استرسالي في **"إميل"**، قدر لي أن أضع – في أقل من عامين – العبارات الأخيرة لكتاب **"العقد الاجتماعي"**! (١).

وبقي **"قاموس الموسيقى"** – أو **"الموسوعة الموسيقية"** – وكان العمل فيها مجرد جهد آلي، يمكن القيام به في أي وقت، ولم أقدم عليه إلا طلبا للنقود فحسب، وقد احتفظت لنفسي بحق نبذه، أو إتمامه متى شئت، وفقا لما إذا كانت مواردي الأخرى توحي بأن دخله ضروري، أو أنه فائض عن الحاجة. أما كتاب **"الأخلاق في الشؤون الحسية"** – الذي كنت قد وضعت خطوطه الأولى – فقد نبذته نهائيا!

وأخيرا وكنت أعول على مشروع، إذا ما قدر لي أن أستغني عن أعمال النسخ.. ذلك هو أن أوغل في الابتعاد عن **"باريس"**، حيث كان سيل الزائرين يجعل نفقات معيشتي فادحة، ويحرمني من الوقت لزيارتها.. ولكي أدفع عني في عزلتي شعور الملل – الذي يقال إنه يعدو على المؤلف، إذا هو ألقى قلما جانبا – احتفظت لنفسي بعمل كفيل بأن يملأ الفراغ في وحدتي، دون أن يستدرجني إلى الانسياق لإغراء نشر أي جديد، خلال ما تبقى من عمري. فما كنت أدري أية نزوة تملكت **"ريه"**، فراح – منذ زمن طويل – يستحثني على كتابة ذكريات حياتي، ومع أن هذه الذكريات لم تكن –

---

(١) قدم "كتابي" ملخصا لكتاب "إميل" في عدده الرابع، وملخصا لكتاب "العقد الاجتماعي" في العدد ٣٢ .

حتى ذاك الحين – مشوقة – من حديث الأحداث – إلا أنني شعرت بأن من الممكن أن أجعلها مشوقة، بفضل الروح التي أتناول بها الموضوع؛ ومن ثم صممت على أن أجعلها عملا فريدا في نوعه بأن أكتبها بصدق لا مثيل له، حتى يتسنى – ولو مرة واحدة – أن يرى الناس رجلا على حقيقته، كما يرى هو دخيلة نفسه!

ولقد اعتدت دائما أن أسخر من سذاجة "**مونتاني**" التي غررت به، فجعلته يعنى عناية فائقة بألا ينسب إلى نفسه إلا كل مستحب، في حين أنه كان يتظاهر بالاعتراف بعيوبه.. أما أنا – الذي اعتدت أن أعتقد دائما أنني، من كافة الاعتبارات، خير الرجال – فقد شعرت بأنه ما من قلب بشري – مهما يكن نقيا – إلا ويطوي بين جوانحه عيبا ذميما، ولقد كنت أدرك أنني صورت للناس في صورة تخالف تماما صورتي الحقيقية، بل وتبدو في بعض الأحيان مشوهة، حتى إنني – برغم السوء الذي لا أبتغي إخفاءه قط – لن أبوء إلا بالكسب، إذا أطلعت الناس على حقيقة نفسي!.. وإلى جانب هذا، فما كان من الميسور أن أكشف نفسي، دون أن أكشف الآخرين على حقيقتهم؛ ومن ثم فإنه لم يكن في الوسع نشر هذا المؤلف إلا بعد وفاتي، ووفاة كثيرين غيري، ولقد زادني هذا قوة على الإقدام على تسجيل اعترافاتي، التي لن يقدر لي أن أخجل منها أمام إنسان؛ ولهذا فقد عولت على أن أخصص أوقات فراغي للمضي في تنفيذ هذا المشروع، وبدأت أجمع الرسائل والأوراق التي قد ترشد ذاكرتي أو تعينها، والأسف يملأ نفسي حسرة على كل ما كنت قد مزقته، أو أحرقته، أو أضعته حتى ذلك الوقت!

*****

ولقد كان لمشروع الاعتكاف التام – وهو من أحكم المشروعات التي خطرت لي – أثر قوي على ذهني، وكنت قد شرعت في تنفيذه عندما ألقت بي السماء – التي كانت تعد لي مصيرا آخر – في دوامة جديدة!

ذلك أن إقليم "**مونمورنسي**"، الميراث العريق الفخم – الذي كانت تتوارثه الأسرة، صاحبة هذا الاسم – لم يعد ملكا لهذه الأسرة، مذ صودر، وكان قد آل – بزواج أخت الدوق "**هنري**" – إلى أسرة "**كونديه**"، التي أبدلت اسم "**مونمورنسي**" باسم "**انجيان**"، ولم يكن لهذه الدوقية من قصر سوى حصن قديم، تحفظ فيه الوثائق، ويتلقى فيه السادة أمارات الولاء. على أن ثمة بيتا معينا يرى في "**مونمورنسي**" – أو "**انجيان**" – شيده "**كروازيه**" – الملقب بالفقير – ويضارع في فخامته أعظم القصور، حتى ليستحق أن يسمى قصرا.. إن المنظر المهيب لهذا المبنى البديع، والمرتفع الذي يقوم عليه، والمنظر الذي يشرف عليه، والذي قد لا يكون له شبيه في العالم، وقاعة الاستقبال الرحبة فيه، التي ازدانت برسوم يد حاذقة، وحدائقه التي غرسها "**لونوستر**" الذائع الصيت.. كل هذه تؤلف وحدة شاملة، ذات جلال باهر، يمثل – في الوقت ذاته – بساطة لا أدري مبعثها، ولكنها توحي بإعجاب باق!

ولقد اعتاد السيد المارشال دوق "**دي لوكسمبورج**" – الذي كان يشغل هذا البيت في ذلك الحين – أن يفد في كل عام مرتين إلى هذا الإقليم الذي كان آباؤه وأجداده سادة له فيما مضى، فيقضي خمسة أسابيع أو ستة، كأي ساكن عادي، ولكن في أبهة لا تقل رواء عما للبيت من روعة عريقة!..

وفي أول رحلة جاء فيها، بعد أن استقر بي المقام في "**مونمورنسي**"، أوفد إليَّ وصيفا يحمل تحيات السيد المارشال والسيدة زوجته، ودعوة إلى تناول العشاء معهما، عندما يروق لي ذلك!

وما من مرة جاءا فيها وأهملا إرسال التحيات ذاتها، والدعوة عينها، وقد ذكرني هذا بالسيدة "**دي بوزينفال**" حين همت أن ترسلني لتناول الغداء مع الخدم. ولقد تغير الزمن، ولكنني بقيت على حالي، ولم أكن راغبا البتة في أن أرسل لتناول الغداء في قاعة الخدم، كما أنني لم أكن أحفل كثيرا بموائد العظماء، وقد كنت أوثر لو أنهم تركوني في حالي، دون أن يكرموني، ودون أن يحقروني؛ ومن ثم فقد رددت في أدب واحترام على مجاملات السيد والسيدة "**دي لوكسمبورج**"، غير أنني لم أقبل قط دعوتهما. فإن صحتي المعتلة- فضلا عن خجلي وتهيبي الطبيعيين - كانت تجعلني أقشعر لمجرد التفكير في أن أظهر في جمع من أعضاء البلاط الملكي.. بل إنني لم أذهب إلى القصر في زيارة للشكر والتحية، برغم أنني أدركت كل الإدراك، أن هذا ما كان ينبغي مني، وأن كل هذا الإلحاح لم يكن صادرا عن كرم وتلطف بقدر ما كان صادرا عن فضول!

على أنهما واصلا مجاملاتهما، بل وراحا يضاعفانها، وكانت السيدة كونتة "**دي بوفلير**" - التي كانت وثيقة الصلة بالسيدة المارشالة - قد جاءت إلى "**مونمورنسي**"، فأرسلت تسأل عني، وعما إذا كان لها أن تزورني، وأجبت كما كان ينبغي من أن أجيب، ولكني لم أحرك ساكنا، وفي خلال رحلة عيد الفصح من السنة التالية - ١٧٥٩ - زارني مرارا الشيفالييه "**دي لورنزي**" الذي كان ينتمي إلى حاشية السيد الأمير "**دي كونتي**"، وإلى ندوة السيدة "**دي لوكسمبورج**"، ولقد توثقت المعرفة بيننا، فراح يلح عليَّ بالذهاب إلى القصر. ولكني أبيت!

وأخيرا، وفي أصيل ذات يوم، رأيت السيد المارشال "**دي لوكسمبورج**"، وكان آخر من توقعت رؤيته.. وكان يقترب وفي معيته خمسة أشخاص أو ستة، ولم يبق لي من وسيلة للتهرب، وما كنت أملك أن أتحاشاه. كما أنني لم أكن أملك أن أتفادى رد زيارته، وتقديم آيات احترامي للسيدة المارشالة - التي أغرقتني بما حمله إليَّ من مظاهر تفضلها - وإلا اعتبرت متغطرسا سيئ التربية.

وهكذا بدأت - تحت أنحس الطوالع - علاقة لم يكن بوسعي أن أتهرب منها أطول مما فعلت.. وإن كانت شعورا عميق الجذور، قد أوحى إليَّ بالتوجس مما أقحمت عليه!

*****

كنت في خوف بالغ من السيدة "**دي لوكسمبورج**"؛ فلقد كنت أعلم أنها لطيفة مليحة، وقد رأيتها مرارا في المسرح، وفي دار السيدة "**دوبان**"، قبل عشر أو اثنتي عشرة سنة، حين كانت تلقب بدوقة "**دي بوفلير**"، وهي بعد تتلألأ في طلائع أضواء جمالها. ولكنها عرفت بالخبث وسوء السيرة، وكانت هذه السمعة لسيدة - في مثل مكانتها العظيمة - تثير ارتعادي!

وما إن رأيتها حتى وقعت أسيرها؛ فقد ألفيتها ساحرة.. أوتيت ذلك السحر الذي لا يعدو عليه الزمن، والذي خلق لكي يفتك بفؤادي!.. وكنت أتوقع أن أجد حديثها ساخرا، مليئا بالتوريات ولكنه لم يكن كذلك، بل كان أفضل من ذلك بكثير. ذلك لأن حديث السيدة "**دي لوكسمبورج**" لا يتألق بالذكاء، ولا يكشف عن سمو الروح، كما أنه لا ينم عن رقة مهذبة بمعنى الكلمة، ولكنه مفعم بالفكاهة التي لا تؤذي إطلاقا، ولكنها تبهج السامع دائما!.. وكانت مجاملاتها وعباراتها المتملقة تعبث بالنفوس، بقدر ما هي بسيطة، توحي بأنها إنما كانت تتساقط من بين شفتيها دون

تفكير منها، وكأنها فورات قلب مترع!.. وخيل إليّ أنني لمحت - خلال زيارتي الأولى - أنها استطابت مجلسي، برغم انطوائي، وثقل عباراتي.. ولقد كانت كل سيدات البلاط يحذقن إحداث هذا الأثر - سواء كن في ذلك صادقات، أو مصطنعات - عندما يحلو لهن ولكنهن جميعا لم يكن يحذقن إحداثه بالطريقة الفاتنة التي كانت تجيدها السيدة "**دي لوكسمبورج**"، فلا يقوى المرء على أن يرتاب في صدقه!

ولقد كان من المحتمل أن تصل ثقتي بها إلى الكمال منذ اليوم الأول - كما صارت بعد ذلك بوقت قصير - لولا أن السيدة الدوقة "**دي مونمورنسي**"، زوجة ابنها، كانت على شيء من الحقد، وكانت - فيما أعتقد - شابة رعناء، مشاكسة، عقدت عزمها على أن تهاجمني، حتى تجعلني - وسط مجاملات حماتها ومغازلاتها - أعتقد أنهما إنما كانتا تسخران مني!

ولعلني كنت خليقا بأن أجد ارتياحها، نظرا لهذا التوجس الذي داخلني نحو السيدتين لولا أن الكرم البالغ الدافق من السيد المارشال أقنعني بأن ودهما كان صادقا، ولم يكن ثمة ما هو أدعى للعجب - إذا ما نظرنا إلى طبيعتي الخجول - من مبادرتي إلى أخذ السيد المارشال بكلمته، من حيث المساواة التي أرادني على أن أكون عليها معه.. ليس أعجب من هذا سوى مبادرته إلى احترام رغبتي في الاستقلال التام الذي أردت أن أعيش فيه؛ ومن ثم فإنه والسيدة "**دي لوكسمبورج**" لم يبديا أي قلق - ولو للحظة واحدة - بصدد مواردي وأسباب عيشي، اقتناعا منهما بأنني كنت على صواب في أن أكون قانعا بمركزي، غير راغب في أي تغيير!.. فمع أنني لم أكن أملك أن أرتاب في الاهتمام العطوف الذي كانا يبديانه نحوي إلا أنهما لم يعرضا قط أن يسعيا لإيجاد منصب لي، أو أن يساعداني بنفوذهما، اللهم إلا مرة واحدة، عندما أبدت السيدة "**دي لوكسمبورج**" رغبة في أن أدخل المحفل الفرنسي، "**الأكاديمية فرانسيز**".. ولقد أشرت إلى أن عقيدتي الدينية تقوم دون ذلك، فقالت إن هذه لم تكن عقبة تذكر، وإلا فإنها تتكفل بإزاحتها، إذا كانت كذلك!.. وأجبت بأنه برغم الشرف الذي يضفيه عليّ انتمائي إلى مثل هذه الهيئة الموقرة فإنني - بعد رفضي دعوة السيدة "**دي تريستان**"، وملك "**بولندا**"، بطريقة ما، أن أنضم إلى محفل "**نانسي**" - لا أستطيع أن أقبل عضوية أي محفل آخر، وأنا مرتاح الضمير. ولم تحاول السيدة "**دي لوكسمبورج**" أن تمضي في الإلحاح، ولا دار أي حديث في هذا الصدد، بعد ذلك!

هذه البساطة في الصلات مع مثل هؤلاء السادة العظماء، الذين كان في وسعهم أن يضفوا عليّ المآثر - إذ كان السيد "**دي لوكسمبورج**" صديقا شخصيا للملك عن جدارة - تتناقض تماما، وبشكل عجيب، مع الاهتمام المستمر - الذي لم يكن أقل مضايقة مما هو اصطناعيا ورياء - الذي كان يبديه أولئك الأصدقاء الذين هجرتهم، والذين كانوا يتظاهرون برعايتي، ويسعون إلى استذلالي، أكثر مما كانوا يسعون إلى خدمتي!

وعندما زارني السيد المارشال في "**مون - لوي**" استقبلته وحاشيته في غرفتي الوحيدة، وأنا محرج.. لا لأنني كنت مضطرا إلى أن أدعوه إلى الجلوس وسط صحافيّ القذرة وأوانيّ المهشمة؛ وإنما لأن أرض الحجرة كانت متداعية، متساقطة، وقد خشيت أن يؤدي ثقل مرافقيه إلى انهيارها. وما خشيت على نفسي من الخطر، وإنما خشيت على هذا السيد الجليل مما كان تواضعه يعرضه له، فعملت على التعجيل بإبعاده عن الحجرة؛ إذ اقتدته - برغم الجو الذي كان شديد البرد - إلى شرفتي التي كانت في مهب الرياح، ولم تكن بها مدفأة ما!.. وما إن صرنا هناك حتى أطلعته على السبب

الذي اقتدته من أجله إلى المكان، فرواه بدوره إلى السيدة المارشالة، وألحفا معا في حملي على الإقامة في القصر – ريثما يتم إصلاح أرض الحجرة – أو في مبنى ملحق بالقصر، وسط المتنزه، يطلق عليه اسم "**القصر الصغير**"، إن شئت.

*****

وهذا المسكن الفاتن جدير بالحديث.. ذلك أن متنزه، أو حديقة "**مونمورنسي**" لم تكن في مستوى واحد، كحديقة "**لاشيفريت**"، فهي تل غير مستو، تتناثر فيه المرتفعات والمنخفضات، التي استغلها الفنان الماهر؛ ليخلق سلسلة من المتنوعات: من أحراش، ومياه، وزخارف، ومناظر متباينة، وليضاعف – كما ينبغي أن يقال – المساحة المحدودة، في نظر الرائي، ويتوج هذا المتنزه شرفة يعلوها القصر.. أما في طرفه الأدنى، فإنه يؤلف مضيقا لا يلبث أن ينفتح ويتسع، في اتجاه الوادي، وتمتد في زاويته صفحة شاسعة من الماء. وبين بساتين البرتقال – التي ملأت المساحة التي يتسع عندها المضيق – والماء، وفي وسط كثبان تزينها الأحراش والأشجار، يقوم "**القصر الصغير**" الذي أشرت إليه!

ولقد كان هذا المبنى، والأراضي المحيطة به، ملك لـ"**لوبرون**" الشهير (١)، من قبل، وقد جعل من إنشاء هذا المبنى وتزيينه ملهاة له، وأقبل على ذلك بأفخم فنون العمارة والزخرفة، اللذين برز هذا الرسام العظيم فيهما، ولقد أعيد بناء هذا القصر فيما بعد، ولكن التصميمات التي وضعها صاحبه الأول، روعيت عند التجديد، وهو قصر صغير، وبسيط، ولكنه أنيق، ولما كان يقوم بين خزان ري بستان البرتقال، وبين المساحة المائية الشاسعة، فقد كان معرضا للرطوبة؛ ومن ثم فقد كان يخترقه في وسط، رواق مكشوف (منور)، بين طبقتين من الأعمدة، فكان الهواء الجاري في المبنى كله، يتخفف من رطوبته في ذلك الرواق، وعندما ينظر المرء إلى المبنى من عل – من زاوية الجانب المقابل – يراه محوطا تماما بالماء، فكأنه جزيرة مسحورة، أو كأنه أبدع جزر "**بوروميه**" الثلاث – جزيرة "**إيسولابيلا**" – في بحيرة "**ماجيوري**".

في هذا المبنى المنعزل، ترك لي حق اختيار أحد الأجنحة الأربعة الكاملة، التي كان يضمها، فضلا عن الطابق الأرضي، الذي كان يتألف من قاعة للرقص، وأخرى للبلياردو، ومطبخ. وقد اخترت أصغر الأجنحة وأبسطها، وهو الذي كان يعلو المطبخ، الذي سمح لي باستخدامه، وكان الجناح بديعا، نظيفا ذا أثاث يشيع فيه اللونان الأزرق والأبيض، وفي هذه العزلة العميقة، البهيجة – وسط الغابات والمياه، وعلى شقشقة الطيور من كل نوع، محوطا بعبير زهور البرتقال – وضعت الجزء الخامس من "**إميل**"، وأنا شبه ثمل.. ومن ثم فإن اللون الجديد الذي يبدو فيه الشطر الأكبر منه، يرجع في الواقع إلى الأثر الفعال الذي عكسه الوسط الذي كنت أكتبه فيه!

لكم كنت أهرع ملهوفا – عند بزوغ الشمس، في الصباح – كي أتنسم الهواء العبق في الرواق!.. وما أحلى القهوة الممزوجة باللبن، التي كنت أتناولها مع "**تيريز**" هناك!.. وكانت قطتي وكلبي يؤنساننا، وكانت هذه الصحبة وحدها كافية لإيناسي طيلة حياتي، فما كنت معها لأشعر بلحظة من الملل!.. كنت في جنة أرضية، وقد عشت هناك في حال من السذاجة والبراءة، ورحت أنعم بالسعادة!

ولقد أبدى لي السيد والسيدة "**دي لوكسمبورج**"، خلال الزيارة التي قاما بها في شهر تموز (يوليو)، كثيرا من ألوان الرعاية، وعاملاني في كرم بالغ، حتى إنني – وقد كنت أعيش في رحابهما،

---

(١) رسام فرنسي مشهور، ولد سنة ١٦١٩، ومات في ١٦٩٠.

مغمورا بمجاملاتهما – لم أكن أملك ما أجازيهما به، سوى أن أكثر من ترددي عليهما؛ فاصبحت لا أكاد أفارقهما إطلاقا: إذ كنت أذهب في الصباح؛ لأقدم تحياتي إلى السيدة المارشالة.. وبعد أن أتناول غدائي هناك كنت أتمشى، إبان الأصيل، مع السيد المارشال.. ولكنني لم أكن أمكث للعشاء؛ إذ كانا يدعوان إلى مائدتهما دائما عددا من علية القوم، فضلا عن أنهما كانا يتناولان العشاء في ساعة متأخرة بالنسبة لي.. وإلى ذلك الوقت، كان كل شيء يمضي مواتيا، وما كان ليقع شيء من الضرر، وإنني عرفت كيف أدع الأمور تجري في أعنتها. ولكنني لم أكن يوما بقادر على أن أنهج منهجا وسطا في علاقاتي الودية، ولا استطعت يوما أن أكتفي بأن أؤدي واجباتي نحو المجتمع، وإنما كنت دائما أنشد أحد أمرين : إما كل شيء، أو لاشيء!.. وما إن أظفر بكل شيء، وأرى نفسي مكرما مدللا لدى قوم من ذوي الجاه حتى اتجاوز الحدود، فتتملكني نحوهم صداقة لا تباح عادة إلا بين الأنداد المتعادلين، وكنت أكشف عنها بالألفة المتحررة من الكلفة، في حين أنهم لم يكونوا – من ناحيتهم – يتخلون عن آداب اللياقة التي نشئوا عليها وتعودوها، ومع ذلك فإنني لم أشعر يوما بأنني متحرر على سجيتي، مع السيدة المارشالة! ومع أنني لم أكن مطمئنا كل الاطمئنان إلى شخصيتها، إلا أنني لم أكن أخشاها بقدر ما كنت أخشى عقلها.. وهذا وحده ما كان يكبح جماحي.

فلقد كنت أعرف أن إرضاءها في الحديث صعب، وكان من حقها أن تكون كذلك؛ إذ كنت أدرك أن النساء – وسيدات الطبقة الرفيعة منهن، بوجه خاص – كن لا يشتهين من الحديث سوى التسلية والترويح، وأنهن يؤثرن التجريح على الإملال!..

وقد حدست – من ملاحظات السيدة "**دي لوكسمبورج**" على أحاديث الذين كانوا ينصرفون من لدنها – ما كان قد خامرها ولابد بصدد أحاديثي السخيفة؛ ومن ثم فإنني فكرت في حيلة لأعفي نفسي من حرج الحديث إليها.. تلك هي أن أقرأ عليها!.. وكانت قد سمعت عن "**جولي**"، وعرفت أنها طبعت، فأبدت شوقا إلى رؤية هذا الكتاب؛ وإذ ذاك عرضت عليها أن أقرأه لها فوافقت.

وأصبحت أذهب إليها في الساعة العاشرة من كل صباح، ولا يلبث أن يأتي السيد "**لوكسمبورج**"، ويغلق الباب. وأروح أقرأ إلى جوار فراشها. وقد قسمت جلسات القراءة تقسيما دقيقا، بحيث تدوم طيلة بقائها، لو أنها لم تقطع حبل إقامتها؛ إذ أدى خسران معركة كبرى إلى استياء الملك فاضطر السيد "**دي لوكسمبورج**" إلى المبادرة بالعودة إلى البلاط، ولقد فاق نجاح هذه الحيلة كل ما توقعت؛ إذ استولى على السيدة "**دي لوكسمبورج**" شغف طاغ بـ"**جولي**" وبمؤلفها. فاصبحت لا تتكلم إلا عني، ولا تفكر إلا فيّ طيلة اليوم، وتعانقني عشر مرات في النهار، وأصرت على أن أجلس باستمرار إلى مائدتها، وكانت – إذا حاول واحد من كبار السادة أن يحتل مكاني – تخبرهم أن ذاك مقعدي، وتحملهم على الجلوس في أماكن أخرى!

ومن السهل تصور الأثر الذي خلفته هذه التصرفات الساحرة، في نفسي، أنا الذي كانت تستعبدني أبسط مظاهر العاطفة؛ فإذا بي أغدو شديد التعلق بها، بقدر ما كانت هي تبدي لي من ميل، وكان المصدر الأوحد لخوفي – حين فطنت إلى هذا الهيام – هو شعوري بأنني لم أكن مستملحا إلى الدرجة التي تستبقيه حيا؛ ومن ثم فإنه قد ينقلب إلى كراهية.. ولقد كان هذا الخوف – لسوء حظي – قائما على أسس سليمة جدا!

*****

ولابد أن ثمة تعارضا كان قائما بين اتجاه عقلها واتجاه عقلي.. فبغض النظر عن كثير من الهذيان الأحمق الذي كان يفلت مني في كل لحظة من لحظات أحاديثنا، بل وبغض النظر عن خطاباتي.. كانت ثمة أشياء تكدرها، حتى في خير أوقات صفائي معها، دون أن يقدر لي أن أحدس سببها، ولن أذكر هنا سوى مثال واحد، وإن كنت أستطيع أن أذكر عشرين!.. فلقد عرفت أنني كنت أعد للسيدة "**دوديتو**" نسخة من "**هيلويز**" تكلفت كل صفحة منها مبلغا كبيرا؛ فرغبت في أن أعد لها نسخة على الأسس ذاتها، ووعدتها بأن أفعل؛ ومن ثم وضعتها في قائمة عملائي، وكتبت لها بضعة سطور رقيقة وصريحة، أو هكذا كانت نيتي، على الأقل، وإذا بي أتلقى الرد التالي، الذي أدهشني كل الدهشة (الملف "جـ" رقم ٤٣):

"**فرساي**": هذا الثلاثاء.

"إني لمغتبطة، وإني لراضية.. ولقد أدخل خطابك على نفسي سرورا لا حد له، وإني لأبادر إلى أن أعلنك بذلك، وإلى أن أشكرك من أجله.

"هاك نص تعبيرك في خطابك: "بالرغم من أنك عميلة جد طيبة حقا فإنني أجد بعض صعوبة في قبول نقودك، والأحرى أن يكون عليَّ أن أدفع ثمن المتعة التي سأحظى بها إذ أعمل من أجلك". ولن أذكر هذا الموضوع مرة أخرى!

"يؤسفني ويقلقني أنك لا تحدثني قط عن صحتك، فليس ثمة ما يهمني أكثر منها. إنني أحبك من كل قلبي.. وإنه - كما أؤكد لك - لأمر محزن حقا أن أطلعك على هذا؛ إذ إنني كنت أؤثر أن أحظى بغبطة قوله لك بلساني!

"إن السيد "**دي لوكسمبورج**" يحبك، ويقبلك من كل فؤاده!".

وما إن استلمت هذا الخطاب حتى سارعت إلى الإجابة عنه - قبل أن أفحصه فحصا مليا - لأحتج ضد التأويل غير اللائق، وبعد أن عكفت عدة أيام على هذا الفحص، في قلق يسهل تصور مداه، ودون أن أفقه شيئا من الأمر، وجدتني في النهاية أكتب ردي النهائي بهذا الصدد:

"**مونمورنسي**": ٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٧٥٩.

"فحصت الفقرة التي ترجمت إليها خطابي، مائة مرة ومرة، منذ رسالتي الأخيرة، ولقد تأملتها من حيث معناها الطبيعي الصحيح، وتدبرتها على ضوء كل معنى يمكن أن تحمله، وإني لأعترف - ياسيدتي المارشالة - بأنني لم أعد أدري ما إذا كنت أنا الذي يدين لك بالاعتذارات، أو أنه يجدر بك أن تكوني أنت المدينة بها لي".

ولقد انقضت الآن عشر سنوات مذ كتبت هذه الرسائل. وكم من مرة فكرت فيها، منذ ذلك الحين.. وما أزال - حتى في يومي هذا - في غباء من هذا الموضوع، حتى إنني لم أستطع أن أفهم ما الذي يحتمل أن تكون قد وجدته في الفقرة.. ولن أقول إنها وجدت شيئا ماسا، ولكنه من المحتمل أن يكون مكدرا.

أما عن النسخة المخطوطة من "**هيلويز**"، التي رغبت السيدة "**دي لوكسمبورج**" في أن تقتنيها فخليق بي أن أذكر هنا ما كنت قد عزمت على أن أفعله؛ لكي أضفي عليها امتيازا خاصا، دون بقية النسخ جميعا. ذلك أنني كنت قد كتبت مغامرات اللورد "**إدوارد**" مستقلة، وكنت قد ظللت طويلا مترددا، لا أقطع بما إذا كنت أضمها - سواء كاملة، أو بعض فقرات منها - إلى هذا الكتاب، الذي

كانت تلوح أنها غير متمشية معها، ولقد قررت في النهاية أن أحذفها كلها؛ لأن عدم اتساقها مع أسلوب بقية الكتاب كان كفيلا بأن يفسد بساطته المؤثرة. ثم وجدت سببا أقوى، عندما تعرفت إلى السيدة "**دي لوكسمبورج**". فلقد كانت في تلك المغامرات مركيزة رومانية ذات شخصية بالغة التهتك، وكان من الممكن أن يحاول بعض من كانوا لا يعيرون السيدة المارشالة إلا بسمعتها أن يربطوا بين صفاتها وبعض صفات تلك المركيزة، بالرغم من أنه لم تكن ثمة علاقة بين الاثنتين؛ لذلك غبطت نفسي على القدر الذي اتخذته، وآليت أن أتشبث به. ولكنني في رغبتي العارمة في أن أزيد من قيمة نسخة السيدة "**دي لوكسمبورج**" بشيء لم تتضمنه النسخ الأخرى.. ألم يكن يحسن بي أن أتذكر هذه المغامرات المشؤومة، وأن أرسم خطة لكي أستخلص شيئا منها أضيفه إلى النسخة؟.. كان مشروعا أخرق، لا يمكن للمرء أن يعزو الاندفاع إليه إلا إلى القدر الذي كان يجرني إلى هلاكي.

Quos Volt Perdere Jupiter, Lementat (١)

ولقد كنت من الحماقة بحيث أعددت هذا الاقتباس بكثير من العناية، وبكثير من الجهد، وأرسلتها إليها وكأنها أجمل شيء في الدنيا. وأخبرتها – في الوقت ذاته بأنني قد أحرقت النسخة الأصلية، وهو ما كنت قد فعلته حقا؛ ومن ثم فإنها الوحيدة التي كانت تمتلك هذه القطعة ولن يقدر لإنسان سواها أن يراها إلا إذا أطلعته هي عليها، ولكن هذا العمل كان أبعد من أن يثبت لها حكمتي وحصافتي – كما كنت أتوقع – إذ إنه لم يوح إليها بالفكرة التي كانت قد خطرت لي، عن الشبه بين بطلة المؤلف وبينها، وهو ما لابد قد آذى شعورها. على أن غبائي كان من الإفراط بحيث إني لم أستشعر أي شك في أنها خليقة بأن تبهر بما فعلت.. ولم تمتدح لي عملي بالتحمس الذي كنت أتوقعه، بل إنها – لدهشتي البالغة – لم تتحدث إليَّ قط عن المخطوط الذي أرسلته إليها، وما حدست الأمر – لفرط ما كنت مغتبطا بتصرفي – إلا بعد أمد طويل، وبسبب ظواهر أخرى، كانت مترتبة على ذلك!

*****

أما نسختها المخطوطة من الكتاب الأصلي – "**هليويز**" – فقد واتتني فكرة أخرى بصددها، كانت أكثر حكمة من سابقتها، ولكنها كانت – في أثرها البعيد – تكاد تعادلها إساءة إليَّ. فلكم يساهم كل شيء في مساعدة القدر، عندما يدفع بإنسان إلى الشقاء!.. فلقد كانت فكرتي هي أن أزين هذه النسخة المخطوطة بصورة من لوحات "**جولي**"، التي تصادف أن كانت صفحاتها من عين حجم صفحات المخطوط. فطلبت هذه الرسوم من "**كوانديه**"؛ إذ إنها كانت ملكا لي بكل حق مشروع فضلا عن أنني كنت قد تركت له ما درته هذه الرسوم من ربح؛ إذ إنها كانت قد لقيت رواجا عظيما. على أن "**كوانديه**" كان أكثر خبثا، مما كنت أنا عكس الخبث!.. وقد أدى إلحاحي في طلب هذه الرسوم إلى أن يحدس الغرض الذي كنت أريدها من أجله. ثم أغراني بأن أدعها معه، زاعما أنه سينقحها وما لبث – في النهاية – أن قدمها إلى السيدة بنفسه!

Eg, Versicuios Feci. Tulit Alter Honores (٢)

ولقد أدى هذا إلى دخوله قصر "**دي لوكسمبورج**"، وحظوته بمكانة معينة، وكان – منذ استقراري في القصر الصغير – يكثر من زيارتي، ويختار الصباح دائما موعدا لهذه الزيارة، لاسيما

---

(١) بيت من الشعر القديم، اعتاد كتاب القرن السادس عشر – في "فرنسا" – أن يدسوه في كتاباتهم، ومعناه أن الإله "جوبتير" يطيش – أو يمحو – عقل أولئك الذين يقضي عليهم بالهلاك. (٢) من شعر "فيرجيل": "أنا أنظم الشعور وغيري يجني المجد"!

عندما كان يتصادف وجود السيد والسيدة "**دي لوكسمبورج**" في "**مونمورنسي**"، وكان هذا يؤدي إلى ألا أذهب إلى القصر إطلاقا لكني أقضي معه سحابة الصباح، وكنت الام على هذا التغيب، فأذكر السبب، فأقابل بإلحاح في دعوة السيد "**كوانديه**" إلى القصر.. وقد فعلت، وكان هذا عين ما ابتغاه الوغد!.. وهكذا كان للأفضال الكريمة العارمة، التي كانت تغدق عليَّ، أثرها الكبير في أن الكاتب الأجير لدى السيد "**ثيلوسون**" والذي كان يدعى أحيانا إلى مائدة مخدومه- عندما لا يكون ثمة ضيف آخر يؤنس السيد – وجد نفسه فجأة على مائدة أحد قادة "**فرنسا**" العظام، مع الأمراء، والسيدات الدوقات، وكل أصحاب المكانة العليا في البلاط الملكي!

ولن أنسى البتة أنه كان مضطرا إلى العودة إلى "**باريس**" مبكرا – ذات يوم – فقال السيد المارشال للحضور، عقب الغداء: "تعالوا نسر على الطريق المفضية إلى "**سان – دنيس**"، لنرافق السيد "**كوانديه**"، ولم يقو الفتى البائس على الاحتمال فدار رأسه لهذا الكرم. أما أنا، فقد اهتز قلبي، حتى إنني لم أقو على أن أنبس بكلمة واحدة، وسرت وراء القوم، وأنا أبكي كالطفل، وأموت لهفة على أن أقبل مواقع قدمي هذا المارشال الطيب.. على أن استئناف قصة ذلك الكتاب المنسوخ، جعلني أسبق الزمن إلى هذه الواقعة، فلنعد إلى الأحداث وفقا لنظام ورودها، بقدر ما تسمح لي ذاكرتي.

*****

لم يكد العمل في البيت الصغير في "**مون – لوي**" يفرغ، حتى فرشته بأثاث مناسب وبسيط، وعدت إلى الإقامة فيه، غير قادر على أن أنبذ ذلك القانون الذي وضعته لنفسي إذ غادرت "**ليرميتاج**"، وأعني به أن يكون مقامي دائما في مسكن أمتلكه. على أنني – مع ذلك – لم أستطع أن أقطع بالتخلي عن مسكني في "**القصر الصغير**"؛ ومن ثم فقد ظللت محتفظا بمفتاحه، وكنت كثيرا ما أنام هناك – لفرط ولعي بالفطور البديع في الرواق – كما كنت أقضي فيه يومين أو ثلاثة، في بعض الأحيان، وكأنه بيت خلوي للترويح عن النفس، ولعلني كنت أحظى – في تلك الفترة – بمسكن أكثر راحة ولياقة مما كان يحظى به أي فرد عادي في "**أوروبا**". ذلك لأن صاحب الدار التي كنت أسكنها – السيد "**متى**"، الذي كان خير رجل في الدنيا – ترك لي الإشراف الكلي على عمليات الإصلاح في "**مون- لوي**"، وأصر على أن أستخدم عماله وفق ما كنت أهوى دون أي تدخل فيه، وقد وجدت ما مكنني من أن أجعل من غرفة واحدة في الطابق الأول جناحا كاملا مؤلفا من حجرة للنوم، وحجرة أخرى ملحقة بها، وخزانة كبيرة للثياب، وفي الطابق الأرضي، كان ثمة المطبخ وحجرة "**تيريز**". أما الشرفة فقد تحولت إلى حجرة للمكتب، بعد إقامة حاجز زجاجي، وإدخال مدفأة عليها. ولقد رحت أتسلى – كلما كنت هناك – بزخرفة الشرفة الخارجية، التي كانت تقبع تحت ظلال صفين من أشجار الزيزفون الصغير. فغرست صفين آخرين؛ لأقيم أيكة دائمة، وعملت على إقامة بضع أرائك حجرية هناك، وأحطتها بالشجيرات ذات الزهر الأبيض، وباللبلاب، وزهر الجبل، وأقمت سياجا بديعا من الزهور موازيا لصفي الأشجار.. ولما كانت هذه الأيكة أكثر ارتفاعا من شرفة القصر – وكان المنظر الذي تشرف عليه لا يقل عن ذاك الذي تشرف عليه الأخرى، وقد عمرها عدد من الطيور التي استألفتها واستأنستها – فإنني جعلت منها حجرة استقبال إذا ما وفد عليَّ ضيوف،

كالسيد والسيدة "**دي لوكسمبورج**"، والسيد الدوق **دي فيلروي**"، والسيد الأمير "**دي تينجري**"، والسيد المركيز "دار **منتيير**"، والسيدة الدوقة "**دي مونمورنسي**"، والسيدة الدوقة "**دي بوفلير**"، والسيدة الكونتة "**دي فالينتينوا**"، والسيدة الكونتة "**بوفلير**" وغيرهم ممن كانوا في مكانتهم، والذين كانوا يتفضلون بتجشمون عناء صعود طريق متعبة، من القصر إلى "**مون - لوي**"، وقد كنت مدينا بالحظوة بكل هذه الزيارات إلى السيد والسيدة "**دي لوكسمبورج**" وقد كنت ألمس هذا، فكان قلبي يطفر بالعرفان بأفضالهما، ولقد حدث في إحدى نوبات التأثر العاطفي، أن قلت للسيد "**دي لوكسمبورج**": "آه، يا سيدي المارشال!.. لقد كنت أكره العظماء قبل أن أعرفك، وأنا الآن أكثر كراهية لهم، منذ جعلتني أشعر كم يسهل عليهم أن يجعلوا أنفسهم موضع حب وإعجاب!".

وعدا ذلك فإنني أسائل كل أولئك الذين عرفوني أثناء هذه المدة هل كانوا قد لاحظوا أن هذه اللمحة من الذكاء قد بهرتني لحظة، وهل كان دخان هذا البخور قد صعد في رأسي، وعم إذا كانوا قد رأوني أقل تمشيا مع طباعي، وأقل بساطة في مسلكي، وأقل تلطفا مع الناس، وأقل ألفة مع جيراني، وأقل استعدادا لمعونة كل امرئ عندما يكون ذلك في مكنتي، دون أن أتعرض للضر الذي يترتب على السخافات والسفاهات التي لا حصر لها، والتي كثيرا ما تنطلق في غير حكمة فتورثني الحرج دون انقطاع؟..

وإذا كان قلبي قد اعتاد أن يجتذبني نحو قصر "**مونمورنسي**"؛ نظرا لصادق تعلقي بصاحبيه فإنه كان لا يلبث أن يردني بنفس الطريقة التي أمكنتني؛ لأتذوق حلاوة هذه الحياة المسترسلة البسيطة التي لم يكن لي من سبيل إلى السعادة خارج نطاقها، ولقد اتصلت روابط الصداقة بين "**تيريز**" وابنة واحد من جيراني، كان يعمل في البناء - ويدعى "**بيلو**" - فحذوت حذوها مع الأب.. وكنت أتناول الغداء في القصر، في الظهيرة - وأنا كاره بعض الشيء - رغبة في إرضاء السيدة المارشالة، وكنت أعود في المساء؛ لأتناول العشاء مع "**بيلو**" الجليل وأسرته، في بيته أحيانا، وفي بيتي أحيانا أخرى.

وإلى جانب هذين البيتين، سرعان ما وجدت ثالثا في قصر "**دي لوكسمبورج**" بـ"**باريس**"؛ إذ راح صاحباه يلحان عليَّ في إخلاص كي أزورهما في بعض الأحيان، حتى إنني استجبت لهما، برغم نفوري من "**باريس**"، التي لم أذهب إليها - عقب اعتكافي في "**ليرميتاج**" - إلا في المناسبتين اللتين ذكرتهما من قبل.. وحتى إذ ذاك، ما كنت أذهب إلا في أيام محدودة من قبل، لمجرد تناول العشاء، ثم أعود في الصباح التالي، وكنت أدخل القصر وأغادره خلال الحديقة المتصلة بالطريق المؤدية من الريف، بشكل أستطيع معه أن أقول - بكل صدق - إنني لم أضع قدما على أرض "**باريس**" المرصوفة!

*****

وفي غمرة هذا الرخاء العابر، راحت النكبة - التي حددت نهايته - تتجمع على البعد. فلقد عقدت - عقب عودتي للإقامة في "**مون - لوي**" تعارفا جديدا، بالرغم مني، كالمعهود.. تعارفا يعتبر بداية مرحلة في تاريخي، ولسوف يبدو - فيما يلي - ما إذا كان هذا التعارف طيبا أو سيئا.

أما الطرف الآخر فيه فكانت السيدة المركيزة "**دي فيرديلان**"، جارتي التي كان زوجها قد ابتاع

منزلا ريفيا في "**سواسي**"، على مقربة من "**مونمورنسي**" ولقد كانت الآنسة "**دارس**" ابنة للكونت "**دارس**" الذي كان رجلا ذا مكانة، ولكنه كان فقيرا.. ثم تزوجت من السيد "**دي فيرديلان**"، وكان كهلا، قبيح الشكل، أصم، جاف الخلق، قاسي الطبع، غيورا، مشوه الخلقة بالندوب، أعور.. ولكنه كان - عدا ذلك - رجلا طيبا، إذا ما عرف المرء كيف يفهمه.. وكان يمتلك ما بين خمسة عشر ألفا وعشرين ألفا من الليبرات دخلا سنويا، من أجله زفت الفتاة إليه!.. وكان هذا الرجل العجيب يتوعد، ويصرخ، ويزمجر، ويغري، يُبكي امرأته طيلة النهار، ولكنه ينتهي دائما بأن ينفذ ما ابتغت هي، بعد أن يكون قد أحنقها.. فلقد كانت تعرف كيف تجعله يعتقد انه هو - وليس هي - الذي كان يبتغي ذلك الشيء المنشود!

ولقد كان السيد "**دي مارجينسي**" - الذي تحدثت عنه من قبل - صديقا للسيدة، وأصبح صديقا لزوجها كذلك، وقد أسكنهما - منذ بضع سنوات - بالأجر، في قصره القائم في "**مارجنيسي**"، على مقربة من "**أوبون**" و"**أرديي**" وهناك، كانا يقيمان في فترة هيامي بالسيدة "**دوديتو**"، ولقد تعرفت كل من السيدة "**دي فيرديلان**" وهذه الأخيرة عن طريق صديقتهما المشتركة، السيدة "**دوبييتير**"، ولما كانت حديقة قصر "**مارجينسي**" تقع على الطريق التي اعتادت السيدة "**دوديتو**" أن تسلكها - في رياضتها المحببة إليها - إلى "**مونت أوليمب**" فإن السيدة "**دي فيرديلان**" أسلمتها مفتاحها؛ لتستطيع أن تمر خلال الحديقة، وبفضل هذا المفتاح كنت أسعى إليها في كثير من الأحيان، ولكنني لم أكن مولعا باللقاءات غير المرتقبة، وكنت إذا قابلتنا السيدة "**دي فيرديلان**" مصادفة أتركهما دون أن أنبس بكلمة، وأمضي في سيري، وما كان هذا المسلك غير اللبق ليعطيها فكرة طيبة عني. ومع ذلك فإنها سعت إلى صحبتي عندما كانت في "**سواسي**"!

ولقد وفدت على "**مون - لوي**" عدة مرات لتقابلني، دون أن تجدني في البيت. فلما لم أرد زياراتها رأت أن ترسل إليّ بعض أصص الزهور؛ لأزين بها أيكتي لكي تضطرني إلى أن أزورها، ووجدتني مسوقا إلى الذهاب إليها وشكرها، وكان في هذا ما يكفي لأن يتم التعارف!

ولقد كانت هذه العلاقة عاصفة في بدايتها، شأن كل علاقة كنت أعقدها بالرغم مني.. بل إنها لم تكن يوما هادئة، في الواقع. فإن اتجاه عقل السيدة "**فيرديلان**" كان مخالفا أكثر مما ينبغي لاتجاه عقلي، وكانت تطلق ألفاظ السوء والسخرية المتوارية بكثير من البساطة حتى إنها كانت تتطلب من المرء انتباها مستمرا - ومرهقا بالنسبة لي - لكي يدرك متى كان يحلو لها أن تهزأ به!.. وتحضرني إحدى نوادر عبثها وسفاهتها، التي تكفي للحكم عليها. فلقد حدث أن عين أخوها قائدا لسفينة حربية "**فرقاطة**" كانت في طريقها ضد "**الإنجليز**"، وقدر لي أن أتحدث عن طريقة تسليح هذه "**الفرقاطة**"، دون أن أمس سرعتها بنقد، وإذا بها تقول، بدون أن تغير لهجتها: "أجل.. إن المرء لا يأخذ من المدافع إلا القدر اللازم لهزيمته"!..

ونادرا ما سمعتها تقول خبرا عن أي من أصدقائها الغائبين، اللهم إلا إذا دست خلاله شيئا ضدهم، وكانت تسخر ممن لا تجد فيه سوءا، ولم تستثن من ذلك صديقها "**مارجينسي**"!

ومن الأمور التي وجدت أنها لا تطاق منها ذلك الإزعاج المستمر الذي كان يتمثل في رسائلها الصغيرة، وهداياها البسيطة، وقصاصاتها التي كنت أضطر إلى أن أعتصر مخي لكي أجيب عنها، والتي كانت تسبب لي حرجا متجددا، سواء لكي أشكر، أو لكي أرفض!.. ومع ذلك فإنني لم ألبث أن تعلقت بها، بحكم رؤيتي إياها باستمرار. فقد كانت - مثلي - لها شجونها، وكان تبادلنا

الفـضـفـضـة، يتـيـح لنا خلوات طريفـة. فليس أقـوى على ربط القـلوب من لذة المشـاركـة في إراقـة الدموع!.. فكان كل منا ينشد الآخر؛ لكي نتبادل التسرية والتعزية، وهذه الحاجة بالذات، كثيرا ما جعلتني أغفل عن أمور كثيرة، وكنت قد خشنت كثيرا في صراحتي معها فكان لزاما عليَّ - بعد أن أبديت أضال الاحترام لشخصيتها، في بعض الأحيان - أن أخشى عن حق، ألا يكون بوسعها أن تصفح عني، وهاكم مثالا للخطابات التي كنت أكتبها أحيانا إليها، والتي يجدر - ونحن بصددها - أن أذكر أنها لم تكن تبدي في ردودها عنها أية بادرة من بوادر الغضب:

"**مونمورنسي**": ٥ تشرن الثاني (نوفمبر) سنة ١٧٦٠.

"تقولين لي، ياسيدتي، إنك لم تحسني الإفصاح عن نفسك، حتى تجعليني ألمس أنني أسأت الإفصاح عن نفسي، وتحدثينني عن غبائك المزعوم؛ لتنبهيني إلى غبائي، وتتشدقين بأنك طيبة وكأنك تخشين أن تؤخذي بكلمتك، كما أنك تبدين الأعذار؛ لتشعريني بأنني مدين بشيء منها إليك.

"أجل، ياسيدتي، إني لأدرك هذا تماما، فأنا الذي كنت غبيا، ساذجا، وأسوأ من هذا، إن أمكن!.. أنا الذي أسأت اختيار عباراتي، دون أن أرعى رضاء سيدة فرنسية، تبدي كثيرا من الاهتمام إلى الأقوال، وتحسن الحديث، مثلك. ولكن.. لاحظي أنني أخذت هذه العبارات على محملها العادي في اللغة، دون أن أعرف أو أحدس شيئا من التأويلات التي تعلق بها أحيانا، في الأوساط الباريسية الفاضلة. فإذا كانت ثمة تعبيرات تحتمل تأويلات - في بعض الأحيان - فإنني أحاول بمسلكي أن أحدد معناها.. إلخ".

وكانت بقية الرسالة بالأسلوب ذاته. فتأمل ردها (الملف "د" - رقم ٤١)، واحكم على مدى الهدوء، الذي يكاد يفوق التصور، والذي أوتيه قلب امرأة، لم تجد ما يستثير سخطا من خطاب كهذا سوى ما أوردته في ردها، وما أبدته بمسلكها!.. ولم يبطئ "**كواندیه**" - بما عرف عنه من انتهاز للفرص، وجرأة تذهب إلى درجة القحة، وتربص بأصدقائي - في أن يتقدم إلى السيدة "**دي فيرديلان**" باسمي، وسرعان ما أصبح أوثق صلة مني بها، دون أن أدري.. لقد كان هذا "**الكواندیه**" مخلوقا عجيبا، لا مثيل له!.. كان يتقدم باسمي إلى جميع معارفي، فيوطد مكانه في دورهم، ويأكل على موائدهم دون كلفة! وكان في وفائه المتحمس لي لا يتحدث عني إليهم إلا والدموع في عينيه، ولكنه إذا ما زارني، تمسك بأشد ألوان التكتم عن هذه العلاقات، وعن كل شيء كان يشعرني أنه يثير اهتمامي.. وبدلا من أن يذكر لي ما سمعه، أو قاله، أو رآه - مما يهمني - كان يلزم الإصغاء إليَّ بل ويوجه إليَّ الأسئلة! وما عرف يوما شيئا عن "**باريس**" إلا ما كنت أنبئه به.. وقصارى القول إنه لم يكن ليحدثني عن أي امرئ، في حين كان كل امرئ يحدثني عنه، وما كان مغلقا، غامضا، إلا مع صديقه.. أنا!.

ولكن، لندع "**كوندايه**" والسيدة "**دي فيرديلان**" في الوقت الحاضر، فلن نلبث أن نعود إليهما فيما بعد!

*****

حدث بعد عودتي إلى سكني "**مون - لوي**" بوقت قصير، أن أقبل الرسام "**لاتور**" لزيارتي،

وحمل إليَّ صورة رسمها لي بالطباشير "**الباستيل**"، وكان قد عرضها بضع سنوات – قبل ذلك – في صالة العرض وكان يرغب في أن يقدمها هدية لي، ولكني أبيت أن أقبلها. غير أن السيدة "**ديبيناي**" – التي أهدتني صورتها، وودت أن تأخذ هذا الرسم – قد حملتني على أن أعدها بأن أطلبه، فإذا "**لاتـــور**" يستغرق بعض الوقت في تنقيحه، وفي تلك الأثناء حدثت القطيعة بيني وبين السيدة "**ديبيناي**"، فرددت إليها صورتها، ولم أعد أفكر في أن أهديها صورتي؛ ومن ثم فإنني علقت هذه في غرفتي في "**القصر الصغير**". ولقد رآها السيد "**دي لوكسمبورج**" هناك، فاعجب بها؛ ومن ثم فإنني عرضتها عليه، فتقبلها.. وأرسلتها إليه!

ولقد أدرك والسيدة "**دي لوكسمبورج**" أنني خليق بأن أسر إذا ما حصلت على صورتيهما، فعهدا إلى فنان ماهر بأن يرسمهما في صورتين دقيقتين، زين بهما صندوقا للحلوى صنع من البللور الصخري، على قاعدة من الذهب، وقدماه إليَّ بطريقة لبقة، طربت لها، وما رضيت السيدة "**دي لوكسمبورج**" قط عن حرصي على أن أجعل صورتها في الجانب الأعلى من الصندوق.. وكانت كثيرا ما تعتب علي، أنني كنت أكثر حبا للسيد "**دي لوكسمبورج**" مني لها، وما دفعت هذا عن نفسي يوما لأنه كان حقيقة؛ ومن ثم فقد شاءت أن تريني في لباقة – ولكن في وضوح كاف – بإصرارها على مكان صورتها، أنها لم تنس هذا الإيثار مني لزوجها!

ولقد ارتكبت – حوالي هذه الآونة بالذات – حماقة لم تساعد على احتفاظي بودها ومجاملاتها. فمع أنني لم أكن على تعارف بالسيد "**دي سيلويت**" – المراقب العام للمالية – وكنت غير ميال إليه إلا أنني كنت أعتنق فكرة جد طيبة عن كفاءته الإدارية. فلما بدأت قبضته تشتد على رجال المال، رأيت أنه لم يشرع في هذه الخطة، في لحظة مواتية. ومع ذلك فإنني رجوت له كل توفيق؛ لذلك فقد بادرت دون ترو – حين بلغني أنه أقيل من منصبه – إلى كتابة الرسالة التالية إليه.. وهي رسالة لا أحاول – في الواقع – أن أبررها:

"**مونمورنسي**": ٢ كانون الول (ديسمبر) سنة ١٧٥٩.

"تكرم يا سيدي فتقبل احترام رجل معتزل، غير معروف لديك، ولكنه يقدر فيك مواهبك، ويحترمك لكفاءتك الإدارية، وقد كرمك بأن أيقن بأن هذه الإدارة لن تبقى في يديك طويلا. إنك جرؤت على أن تواجه صيحات جامعي المال؛ إذ رأيت أن ليس في وسعك إنقاذ االدولة إلا على حساب رأس المال الذي أودى بها إلى الدمار، ولقد غبطتك على منصبك؛ إذ رأيتك تسحق هؤلاء الأنذال.. وإني اليوم لأكبرك؛ إذ أراك تغادره دون أن تكذب نفسك..! فاهنأ بنفسك ياسيدي، فقد أجداك موقفك شرفا ستظل تنعم به، دون منازع، أمدا طويلا.. إن ترهات الأوغاد لمجد للرجل المستقيم"!

سنة ١٧٦٠

ولقد حدثتني السيدة "**دي لوكسمبورج**" عن هذا الخطاب – وكانت تعلم أنني كتبته عندما أقبلت في عطلة عيد الفصح، فاطلعتها عليه.. ورغبت في الحصول على نسخة منه، فأعطيتها بغيتها، ولكني كنت أجهل – إذ قدمتها إليها – أنها كانت من "جامعي المال" الذين كانوا يهتمون بالمضاربات خارج "البورصة"، والذين عملوا على إقالة "**سيلويت**".

ومن الجدير أن يقال: إنني بدوت وكأنني كنت أستنهض عامدا بغضاء سيدة لطيفة وذات نفوذ، كنت - في الواقع - أزداد تعلقا بها يوما بعد يوم، وكنت بعيدا كل البعد عن أن أرغب في أن أجر على نفسي سخطها، بالرغم من أنني كنت - بتصرفاتي الرعناء المتكررة - أفعل كل ما يتطلبه ذلك، وأعتقد أن لا حاجة بي إلى أن أذكر أن إلى هذه السيدة بالذات، تعزى قصة الدواء الملين للمعدة الذي وصفه السيد "**ترونشان**"، والذي تحدثت عنه في الجزء الأول من اعترافاتي (١) . . أما السيدة الأخرى، التي كانت معها، فهي السيدة "**دي ميربوا**"، وما ذكرت لي أي منهما هذا الموضوع مرة أخرى، ولا أبدت أية بادرة توحي بأنها تذكره، ولكن افتراض أن تكون السيدة "**دي لوكسمبورج**" قد نسيته حقا، أمر عسير، وإن لم يقدر للمرء أن يعرف الحوادث التي أعقبته. أما أنا، فقد كنت أحاول أن أطمئن نفسي من أمر حماقاتي متوسلا لذلك بأنني لم أكن أصدر في أي من هذه الحماقات عن قصد الإيذاء، وكأنما كان من المحتمل أن تغفر امرأة أمورا من هذا القبيل، ولو كانت على أتم يقين من أنها لم تكن متعمدة!

ومع ذلك، فالبرغم مما كان يلوح عليها من أنها لم تكن ترى شيئا، أو تحس بشيء، وبالرغم من أنني لم أستشعر أي تضاؤل في شعورها، ولا تغير في تصرفاتها إلا أن هاجسا خفيا - لم يكن منبعثا إلا عن أساس مكين - راح يوحي إليَّ دون انقطاع، بأن النفور لن يلبث أن يعقب هذا الهيام. أفكان لي أن أتوقع من سيدة عظيمة القدر - إلى هذا الحد - ثباتا ووفاء يكون بمأمن من غبائي وضعف حيلتي؟ . . إنني لم أكن أعرف أن أخفي عنها شيئا، حتى هذا الهاجس الذي راح يقض راحة بالي، ولم يزدني إلا جفاء وانطواء، وهذا ما يمكن رؤيته في الخطاب التالي الذي انطوى على نبوءة عجيبة.

تنبيه: هذا الخطاب الذي لم تحمل مسودته تاريخا، كتب في شهرتشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٧٦٠، على أكثر تقدير.

"ما أقسى أفضالك! . . لماذا تعكرين طمأنينة شخص وحيد معتزل، نبذ ملاذ الحياة لكي يستشعر مزيدا من الملل منها؟ . .

لقد قضيت أيامي أبحث عبثا عن علاقات ودية ثابتة، ولقد عجزت عن أن أوطد شيئا منها، في الأوساط التي كنت أملك إليها وصولا . . أفكان عليَّ أن أبحث عنها في أوساطك أنت؟

"ليس للطموح ولا للمصلحة الذاتية إغراء لديَّ، فأنا مغرور بعض الشيء، هياب بعض الشيء، وبوسعي أن أقاوم كل شيء، في العواطف! . . فلماذا تهاجماني معا في ضعف يجب أن أتغلب عليه، مادام تدفق القلوب الحساسة لن يقوى على أن يقربني منكما، نظرا للبون الذي يفصل بيننا؟

"أفيكون العرفان كافيا لقلب لا يعرف رياء، ولا يشعر بأنه قادر إلا على الصداقة؟ . . الصداقة يا سيدتي المارشالة! . . آه . . هنا مصدر تعاستي! . . من الجميل منك، ومن السيد المارشال، أن تستخدما هذه الكلمة، ولكنني أحمق إذ أصدق أنكما تعنيانها! . . إنكما تلهوان لتسريا عن نفسيكما، أما أنا فمتعلق بوفاء، فإذا نهاية اللهو تعدني لحسرات جديدة! . . لكم أكره كل القابكما، ولكم أرثي لكما إذ تحملانها! . . إنكما لتبدوان - في نظري - جديرين بأن تتذوقا كل مفاتن الحياة الخاصة، المغمورة! . . لم لا تقيمان في "**كلاران**"؟ . . إنني لأتوق إلى أن أنشد هناك هناء حياتي، إما قصر "**مونمورنسي**"، وإما قصر "**لوكسمبورج**"!؟ . . أفهناك تنبغي رؤية "**جان جاك**"؟ . . أفهناك ينبغي لواحد من أصدقاء المساواة أن يروي عواطف قلب حساس، يخشى - إذ يدفع بهذا الشكل ثمن

---

(١) ذكرت القصة في الكراسة الثالثة .

التقدير الذي أبدي إليه – أن يعطي أكثر مما يتسلم؟

"إنكما طيبان وحكيمان كذلك، وإني لأدري ذلك، وقد رأيته. وإني لآسف على أنني لم أستطع أن أصدقه قبل الآن. على أنني إذ أقدر الطبقة التي تنتميان إليها، والأسلوب الذي تعيشان عليه، أرى أن لا شيء يستطيع أن يترك طابعا باقيا في نفسيكما؛ ومن ثم فإن أشياء كثيرة تتعاقب لديكما، فيمحو كل منهما الآخر، ولا يقدر لأحد أن يبقى دائما!".

"لسوف تنسيني ياسيدتي، بعد أن جعلتني أعجز ما أكون عن أن احذو حذوك فانسى أنا الآخر. لقد خلقت لكي تجعلي مني إنسانا شقيا، دون أن يكون لك العذر".

*****

وما قرنت اسم السيد "**دي لوكسمبورج**" باسمها إلا لأخفف من جفوة الرسالة، وما عدا ذلك، فقد كنت واثقا به، فلم أشعر بالقلق لحظة إزاء دوام صداقته، وما قدر لشيء من الهواجس التي راودتني بشأن زوجته، أن يمتد إليه!.. أبدا ما شعرت بأقل تزعزع في ثقتي بشخصيته، التي كنت أعرف أنها ضعيفة ، ولكنها أهل للثقة، فما كنت أخشى فتورا من ناحيته، إلا بقدر ما كنت أترقب منه إقداما بطوليا!.. كانت بساطة وألفة علاقاتنا تبين كيف كان كل منا يركن إلى الآخر، وقد كنا معا على صفاء، ولسوف أظل ما حييت أمجد ذكرى هذا السيد الفاضل وأعتز بها.. مهما تكن المحاولات التي بذلت كي تباعد بينه وبيني فسأبقى مطمئنا إلى انه مات وهو صديق لي.. كما لو كنت قد تلقيت آخر أنفاسه!

ولقد انتهت مطالعات "**جولي**" في زيارتها الثانية لـ"**مونمورنسي**"، في سنة ١٧٦٠ . وكان عليَّ أن أنتقل إلى "**إميل**" لكي أبقى مع السيدة "**دي لوكسمبورج**"، ولكن هذا الانتقال لم يكن موفقا؛ إما لأن الموضوع لم يرق لها، وإما لأنها كانت قد ملت كل هذه المطالعات. ومع ذلك فإنها رغبت – وهي تلومني على أن تركت نفسي لتغرير الناشرين بي – في أن أترك لها طبع الكتاب ونشره؛ حتى تستطيع أن تعقد صفقة أفضل. ووافقت على اقتراحها، مشترطا الا يطبع الكتاب في "**فرنسا**".

وهذا ما قام بيننا خلاف طويل حوله. فقد كنت أرى أن من المستحيل الحصول عليّ إذن بطبعه في المملكة، وأن ليس من الحكمة طلب هذا الإذن.. وما كنت – في الوقت ذاته – لأقبل أن يطبع في "**فرنسا**" بغير ذلك. أما هي، فكانت ترى أن هذا ليس بالأمر العسير – من ناحية الرقابة – تحت النظام الذي انتهجته الحكومة، وقد وجدت الوسيلة التي جعلت بها السيد "**دي ماليزيرب**" يقرها على آرائها، فكتب إليَّ رسالة طويلة؛ لكي أقر بأن كتاب "**عودة أسقف سافوا إلى الإيمان**" هو عين ما يجب أن يقابل بالتحبيذ من كل الجنس البشري في كافة الأرجاء، بل وفي البلاط الملكي في تلك الظروف!.. وعجبت إذ وجدت هذا الموظف المسؤول الذي كان بطبيعته رعديدا، قد تساهل في هذه المسألة إلى هذا الحد!

ولما كانت مجرد الموافقة منه كافية لإجازة طبع الكتاب قانونا، فإنني لم أعد أملك أي اعتراض. على أنني – بسبب نذر خفي غريب هجس في نفسي – ظللت أصر على أن يطبع الكتاب في "**هولندا**"، وبوساطة المكتبي "**نياولم**"، الذي لم أكتف بأن أرشدت إليه، بل إنني كتبت إليه استشيره، ووافقت على أن تكون الطبعة لحساب ناشر "**فرنسي**"، أي أن يتم إعدادها في "**هولندا**"،

وتباع في "**باريس**"، أو في أي مكان آخر، فما كان البيع ليعنيني في شيء وهذه هي عين النقاط التي اتفقت عليها مع السيدة "**دي لوكسمبورج**"، والتي أسلمتها المخطوط بعد إبرامه.

❁❁❁❁❁

وكانت قد أحضرت معها – في هذه الرحلة – ابنة أختها، الآنسة "**دي بوفليير**"، وهي الآن السيدة دوقة "**دي لوزون**"، وكان اسمها "**إميلي**"، ولقد كانت فتاة فتانة، وكان وجهها، ورقتها، وخفرها، تجمل براءة العذارى الحقيقية. فما كان ثمة ما هو ألطف ولا أدعى للاهتمام من وجهها، ولا كان هناك ما هو أكثر طهرا من المشاعر التي كانت تثيرها في النفس!.. ولا غرو، فقد كانت طفلة، لم تتجاوز العام الحادي عشر من عمرها؛ وإذ وجدتها السيدة المارشالة بالغة الحياء راحت تبذل قصارى وسعها لتخرجها من هذا الخجل؛ فسمحت لي مرارا بأن أقبلها، الأمر الذي أقدمت عليه بحيائي المعهود، وبدلا من المداعبات اللطيفة التي كان أي امرىء آخر خليقا بأن يقولها – إذا ما كان في موضعي – ظللت صامتا، عييا.. فلم أدر من كان أكثرنا حياء: الصغيرة المسكينة أم أنا؟..

وفي ذات يوم صادفتها وحيدة على سلم "**القصر الصغير**"، وكانت قد أقبلت لتزور "**تيريز**"، حيث كانت مربيتها في زيارتها؛ وإذا لم أدر ما ينبغي أن أقوله لها سألتها أن تمنحني قبلة، فلم تأبها عليَّ، بكل ما في قلبها من براءة وطهر، لاسيما أنها كانت قد منحتني قبلة أخرى في صباح اليوم ذاته، بأمر من خالة أمها، وفي حضورها.

وفي اليوم التالي، صادفت – وأنا أقر "**إميل**" على السيدة المارشالة – فقرة حرمت فيها، بحجة قوية، عين الشيء الذي كنت قد فعلته – أنا نفسي – في اليوم السابق، ووجدت السيدة أن ما ذهبت إليه – في تلك الفترة – كان صوابا، وأبدت بعض ملاحظات معقولة، جعلتني أتضرج خجلا. لكم ألعن غبائي الذي يفوق التصور، والذي كثيرا ما جعلني أبدو خبيثا، آثما، في حين أنني لم أكن أكثر من أحمق، سريع الارتباك!.. ولقد كانت حماقتي من ذلك النوع الذي يؤخذ على أنه عذر زائف، من رجل عرف عنه أنه ذكي!.. إن بوسعي أن أقسم على أن تلك القبلة كانت خالية من كل ما يستحق اللوم، وأن قلب الآنسة "**إميلي**" وعواطفها، لم تكن – في هذه الناحية – أطهر من قلبي وعواطفي أنا!.. بل إن بوسعي كذلك أن أقسم إنني لو كنت قد استطعت – في تلك اللحظة – أن أتحاشى لقاء الصبية لفعلت؛ إذ إنني – بالرغم من سروري لمرآها – كنت في حيرة بالغة، لا أكاد أجد شيئا مناسبا أقوله لها وأنا أمر بها.

ترى كيف يتسنى لطفلة أن تبعث الارتباك لدى رجل لم يستطع سلطان الملوك أن يرهبه؟.. أي قرار يتخذ؟.. وكيف يتصرف إذا هو تجرد فجأة من حضور ذهنه؟.. إنني إذا غصبت نفسي على الحديث إلى من أقابلهم من الناس فلست أقول سوى هذيان لا يفهم.. وإذا أنا لم أقل شيئا اتهمت بأنني أنفر من البشر، وبأنني حيوان وحشي، وبأني دب!.. لقد كان الغباء الكامل أحب إليَّ من هذه الحال، ولكن المواهب التي كانت تعوزني في صحبة الناس، هي التي جعلت تلك التي أملك، أداة لدماري!

وفي نهاية مقام السيدة "**دي لوكسمبورج**" – في هذه الزيارة – قامت بعمل طيب، كان لي فيه نصيب. فقد حدث أن أهان "**ديدرو**" – في تهور بالغ – السيدة الأميرة "**دي روبيك**"، وكانت من

بنات السيد "**دي لوكسمبورج**"، ولقد انتقم لها الأديب الذي يتمتع برعايتها، "**باليسو**"، بمسرحيته الهزلية "**الفلاسفة**" التي تعرضت أنا فيها للسخرية، كما عومل فيها "**ديدرو**" بقسوة عنيفة، وما كان المؤلف أكثر إشفاقا عليَّ منه على "**ديدرو**"، مراعاة لالتزامات كانت تفرض عليه ذلك نحوي، بقدر ما كان ذلك لخوفه من أن يغضب والد السيدة التي كانت ترعاه، فقد كان يعرف أن السيد "**دي لوكسمبورج**" كان حفيا بي، ودودا نحوي!..

ولقد أرسل إليَّ "**دوشين**" الكتبي - الذي لم أكن قد تعرفت إليه إذ ذاك - نسخة من المسرحية عندما طبعت فحدست أنه ما فعل ذلك إلا بإيعاز من "**باليسو**"، الذي ربما خال أنني قد أبتهج لمرآى رجل- فصمت عرى الصلات معه - يمرغ في التراب. ولكنه أخطأ في هذا خطأ مفرطا، فمع أنني كنت قد قطعت ما بيني وبين "**ديدرو**" - الذي كنت أؤمن بانه ضعيف، وغير أمين على الأسرار - أكثر منه خبيثا - إلا أنني احتفظت له في قلبي بشعور من الولاء، بل ومن الإكبار والاحترام، نظرا لصداقتنا القديمة، من ناحيته، كما كانت من ناحيتي.

على أن الأمر يختلف بالنسبة إلى "**جريم**" الذي كان غشاشا خادعا، والذي لم يحبني إطلاقا، بل وما كان بقادر على الحب، والذي تحول في الخفاء فاصبح أقذع الشانئين لي، دون أي مبرر اللهم إلا الرغبة في إرضاء غيرته الحاقدة!.. وما كان هذا بالشخص ذي القيمة لديّ، أما الآخر، فسيظل دائما صديقي القديم، ومن ثم فقد تحركت في فؤادي أرق المشاعر، عندما رأيت تلك المسرحية البغيضة، ولم أقو على المضي في قراءتها، بل إنني رددتها "إلى "**دوشين**" ولما اتمها، وأرفقت بها الرسالة التالية:

"**مونمورنسي**": ٢١ مايو سنة ١٧٦٠

"ما إن تصفحت المسرحية التي أرسلتها إليَّ، يا سيدي حتى اشمأززت إذ وجدتني موضع إطراء، وإني لأرفض هذه الهدية البشعة، وإني لأعتقد أنك بإرسالها إليَّ، لم تكن تبغي الإساءة، ولكنك تجهل أو أنك قد نسيت أنني قد تشرفت بان أكون صديق رجل جدير بكل احترام، ولم يكن يستحق أن يذم وأن يفترى عليه، في هذه المسبة المطبوعة".

*****

ولقد أطلع "**دوشين**" "**ديدرو**" على هذه الرسالة فبدلا من أن يتاثر بها، إذا هو يستاء منها. فما كان لأنانيته أن تغتفر لي التصرف الكريم الذي يكسبني تفوقا عليه، وقد سمعت أن زوجته راحت تحمل عليَّ في كل مكان، في حقد لم يحزني إلا قليلا؛ إذ كنت أعرف أن الناس جميعا كانوا يعرفون أنها سليطة!

ولقد وجد "**ديدرو**" بدوره، منتقما له في شخص الراهب "**موريليه**" الذي وضع كتيبا ضد "**باليسو**"، ولقد قلد فيه "**النبي الصغير**" وأسماه "**الرؤيا**"، ولقد أقدم - في تهور- على إهانة السيدة "**دي روبيك**" في كتيبه هذا، فعمل أصدقاؤها على إلقائه في سجن "**الباستيل**".. أما هي، فلم تكن بطبيعتها شديدة الحقد، كما أنها كانت على شفا الموت إذ ذاك؛ ومن ثم فلست أعتقد أنها كانت ذات يد في هذا الانتقام.

ولقد كتب إليَّ "**داليمبير**" - الذي كان وثيق الصلة بالراهب "**موريليه**" - وسألني أن أرجو

السيدة "**دي لوكسمبورج**" بأن تشفع له كي يسترد حريته، واعداً بأن يطريها في "الموسوعة"، كرمز لامتنانه. وقد اختفى هذا الخطاب مع عدد آخر من الخطابات، في قصر "**دي لوكسمبورج**" عندما كانت أوراقي مودعة هناك. وها هو ذا ردي:

"لم أكن أرتقب خطابك ياسيدي، حتى أشهد السيدة، المارشالة "**دي لوكسمبورج**" على الألم الذي يكبدنيه سجن الراهب "**موريليه**". فهي تعرف الاهتمام الذي لديَّ نحو هذه المسألة، ولسوف تعرف كذلك الاهتمام الذي تبديه نحوها وسيكفيها ذلك لكي تهتم بالأمر بنفسها، وتعرف أنه رجل كفء.

"وفوق ذلك، فبالرغم من أنها والسيد المارشال يشرفاني بكرم هو عزاء حياتي، وبالرغم من أن اسم صديقك (١) يعتبر - لديها - توصية في صالح الراهب "**موريليه**" إلا أنني أجهل إلى أي مدى يلائمها أن يستغلا، في هذه المناسبة، ما لمكانتهما من نفوذ، وما لشخصيهما من اعتبار، ولست أميل إلى الاعتقاد بأن العمل الانتقامي - في هذا الموضوع - ذو علاقة بالسيدة الأميرة "**دي روبيك**" بالقدر الذي يلوح في ظنك. بل لو أن الأمر كان كذلك حقا فخليق ألا نفترض أن لذة الانتقام للنفس، وقف على الفلاسفة وحدهم، وأنهم إذا اختاروا أن يكونوا نساء كان على النساء أن يصبحن فلاسفة!

"ولسوف أوفيك بما ستقوله لي السيدة "**دي لوكسمبورج**" عندما أطلعها على رسالتك. وفي الانتظار أعتقد أنني من المعرفة بها بالدرجة التي تمكنني من أن أطمئنك مقدما بأنها إذا استطابت أن تساهم في إطلاق سراح الراهب "**موريليه**" فإنها - يقينا - تأبى أن تقبل رمز الامتنان الذي تعد بأن تؤثرها به في "الموسوعة"، بالرغم من أنها قد تشعر بأن في هذا العمل تكريما لها.. لأنها لا تبذل الخير طمعا في الثناء، وإنما لترضي قلبها الطيب فحسب".

ولم أدخر شيئا في استثارة حماسة السيدة "**دي لوكسمبورج**" وعطفها في سبيل السجين البائس، واستطعت أن أوفق في ذلك فقد قامت برحلة إلى "**فرساي**"، خصيصا لتقابل السيد الكونت "**دي سان - فلورنتان**"، وقد أدت هذه الرحلة إلى تقصير أمد إقامتها في "**مونمورنسي**"، التي اضطر السيدة المارشال إلى مبارحتها - في الوقت ذاته - ليذهب إلى "**روان**"، حيث أوفده الملك كحاكم لـ"**نورماندي**"، من جراء بعض حركات من البرلمان أُريدَ إحباطها، وها هو ذا الخطاب الذي كتبته لي السيدة "**دي لوكسمبورج**"، غداة اليوم التالي لرحيلها:

(الملف "د" - رقم ٢٣).

"**فرساي**": يوم الأربعاء.

"سافر السيد "**دي لوكسمبورج**" في الساعة السادسة من صباح أمس، ولست أدري ما إذا كنت سألحق به. إنني في انتظار أنبائه؛ لأنه هو نفسه لا يدري كم من الوقت سيقضيه هناك.

"لقد قابلت السيد "**دي سان - فلورنتان**" الذي وجدت عنده أشد الميل إلى مساعدة الراهب "**موريليه**"، بيد أنه يلقى - في ذلك - عقبات، يرجو أن يذللها وينتصر عليها في أول مرة يحظى فيها بلقاء الملك، وسيكون ذلك في الأسبوع المقبل.

ولقد سألته صنيعا آخر ذلك هو ألا ينفي الراهب؛ لأن هذا كان موضع دراسة، وكان من المراد إقصاؤه إلى "**نانسي**".

---

(١) يقصد "روسو" - بهذا التعبير - نفسه.

"هذا هو، يا سيدي، ما استطعت أن أصل إليه، ولكني أعدك بألا أدع للسيد "**دي ســـان - فلورنتان**" سبيلا إلى الراحة إلا بعد أن تنتهي المسألة وفق ما تشتهي.

"والآن، تعال أقل لك أي حزن أعانيه لفراقك بهذه العجلة، ولكني أعلل نفسي بأنك لا ترتاب في ذلك!

"إنني أحبك من كل قلبي، وطيلة حياتي".

وبعد بضعة أيام تلقيت هذه الرسالة القصيرة من "**داليمبير**"، فبعثت في نفسي فرحة صادقة:

"غـادر الراهب "**الباستيل**" بفضل عنايتك، يافيلسوفي العزيز، ولن تكون لسجنه معقبات بعد ذلك. ولقد سافر إلى الريف، وهو يبعث - كما أبعث أنا أيضا - إليك ألف شكر وتحية. ولك تقديري وودي".

كذلك كتب لي الراهب - بعد بضعة أيام - رسالة شكر (الملف "د" رقم ٢٩)، لم يبد لي فيها أثر من شعور قلبي، بل لقد لاح فيها أنه كان يهون - إلى حد ما - من قيمة الخدمة التي أديتها له، وبعد زمن قصير تبينت أنه و"**داليمبير**" قد جفياني - ولن أقول قد اقتلعاني ليحلا محلي - في الحظوة لدى السيدة "**دي لوكسمبورج**"، وانني فقدت من تقديرها، بقدر ما كسبها. على أنني جد بعيد عن أن أرتاب في أن الراهب "**موريليه**" قد ساهم في الحط من قدري، فإني أجله عن ذلك. أما السيد "**داليمبير**"، فليس لدي ما أقوله عنه هنا، وسأتكلم عنه فيما بعد.

*****

وكانت لديَّ - في ذلك الوقت بالذات - مسألة أخرى. أدت إلى آخر خطاب كتبته إلى السيد "**فولتير**".. وكان خطابا أطلق من جرائه الصرخات مدوية، معلنا أنه إهانة له منكرة، ولكنه لم يطلع مخلوقا عليه قط. ولسوف أورده هنا.

ذلك أن الراهب "**تروبليه**" - الذي كنت على معرفة بسيطة به، والذي لم أره إلا نادرا - كتب إليَّ في ١٣ يونيه سنة ١٧٦٠، (الملف "د" - رقم ١١)، لينبئني بأن السيد "**فورمي**" - صديقه ومراسله - قد طبع في يومياته رسالتي إلى السيد "**دي فولتير**"، عن نكبة "**لشبونة**". وقد أراد الراهب "**تروبليه**" أن يعرف كيف تسنى هذا النشر، وسألني - بدهائه الجيزويتي - رأيي في إعادة نشر هذه الرسالة، دون أن يريد مصارحتي برأيه هو!

ولما كنت أكره أصحاب المكر كراهية تامة، فإنني شكرته - بقدر ما كان يستحق - ولكن في شيء من الجفاء، ولقد لاحظ ذلك، ولكنه لم يردعه عن أن يحاول استدراجي من جديد، في رسالتين أو ثلاث، حتى تبين كل ما كان يريد أن يعرفه. ولقد أدركت تماما - مهما يكن ما يقوله "**تروبليه**" - أن "**فورمي**" لم يكن قد وجد رسالتي إلى السيد "**دي فولتير**" منشورة، وإنه إنما نشرها بنفسه لأول مرة، وعرفت أنه كاذب لا يخجل، اعتاد - بصراحة - أن يكسب دخلا من وراء مؤلفات غيره، وإن لم يكن قد جرؤ بعد على الوقاحة المذهلة، وأعني بها حذف اسم المؤلف من كتاب سبق نشره؛ ليضع هو اسمه عليه، ويبيعه لمنفعته الخاصة (١).

ولكن، كيف تسنى لذلك الخطاب أن يصل إلى يديه؟.. هذه هي المسألة، التي لم تكن

---

(١) أضاف "روسو": "وبهذه الطريقة سطا على "إميل" فيما بعد".

مستعصية الحل، وإن كنت من السذاجة بحيث حرت في أمرها. فبالرغم من أن "**فولتير**" كان قد نال تكريما ضافيا في هذا الخطاب إلا أنه كان على حق في أن يشكو - بالرغم من مسلكه النابي - لو أنني كنت قد نشرت الخطاب بدون موافقته؛ ومن ثم فقد رأيت أن أكتب إليه بهذا الشأن، وهاكم هذا الخطاب الثاني الذي لم يرد عليه إطلاقا، والذي تظاهر بالهياج - حتى الجنون- من جرائه، كي ينطلق في فظاعته بكثير من التحرر.

"**مونمورنسي**" : ١٧ يونيه سنة ١٧٦٠ .

"ما ظننت قط ياسيدي، أني سأجد نفسي على تكاتب معك ثانية. ولكني - إذ علمت أن الخطاب الذي كتبته إليك في سنة ١٧٥٦ - قد طبع في "**برلين**" وجدت من الواجب أن أطلعك على تصرفي في هذا الصدد، وأني لأؤدى هذا الواجب بصدق وبساطة.

"إن هذا الخطاب؛ إذ وجه إليك حقا لم يكن مقدرا له أن يطبع، وما أفضيت بمحتوياته - بقيود اشترطتها - إلا لثلاثة أشخاص، لم يكن حقوق الصداقة لتبيح لي أو عليهم شيئا من هذا القبيل، كما أن حقوق الصداقة هذه بالذات، لا تسمح لهم أن يسيئوا استغلال الأمانة، بأن ينتهكوا عهودهم.. هؤلاء الأشخاص الثلاثة هم: السيدة "**دي شينونسو**" - زوجة ابن السيدة "**دوبان**" - والسيدة الكونتة "**دودويتو**"، والماني يدعى "**جريم**" ولقد كانت السيدة "**دي شينونسي**" تواقة إلى أن يطبع هذا الخطاب، وسألتني أن أوافق على ذلك، وقد قلت لها: إن هذا يتوقف على موافقتك أنت، وقد سألتك ذلك بنفسها فأجبت أنت بالرفض، ولم تثر المسألة بعد ذلك.

"على أن السيد الراهب "**تروبليه**"، الذي لا تربطني به صلة ما كتب إليّ بدافع من عناية مفعمة بالكرم، فذكر أنه تلقى صفحات من يوميات السيد "**فورمي**" وإذا به يقرأ فيها ذاك الخطاب بالذات، مع كلمة قال فيها المحرر - تحت تاريخ ٢٣ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٧٥٩ -: إنه وجد الخطاب قبل بضعة أسابيع، في مكتبات "**برلين**"، وإنه لما كان من النشرات التي سرعان ما تختفي دون أي رجاء في عودتها فقد رأى أن من واجبه أن يفرد له مكانا من يومياته!

"هذا ياسيدي، كل ما عرفته عن الأمر، ومن المحقق جدا، أن هذا الخطاب لم يتسلل إلى سمع أحد - في "**باريس**" - أو لسانه حتى الآن، ومن المؤكد كذلك أن النسخة التي وقعت في يدي السيد "**فورمي**" - سواء كانت مخطوطة أو مطبوعة - لا يمكن أن تصل إليه إلا من طريقك أنت، وهو الأمر غير المحتمل. أو من طريق واحد من الأشخاص الثلاثة الذين ذكرت أسماءهم.. وأخيرا، من المؤكد جدا، أن أيا من السيدتين لا يمكن أن تقدم على مثل هذه الخيانة للأمانة، وليس بوسعي - من معزلي - أن أصل إلى مزيد من المعرفة في هذا الصدد ولكنك على تراسل مع كثيرين ومن السهل عليك - من طريقهم وبمعونتهم - أن تتعقب المسألة حتى مصدرها الأصلي، إذا رأيت أنها تستحق العناء، وأن تعرف حقيقة الواقعة.

"ولقد ذكر لي السيد الراهب "**تروبليه**" - في رسالته هذه - أنه يحتفظ بتلك الورقة من اليوميات، وأنه لن يعيرها لأحد بدون رضائي قط، وهذا ما لن يصدر مني قط!.. غير أن هذه النسخة قد لا تكون الوحيدة في "**باريس**" ورجائي هو ألا يطبع هذا الخطاب هناك، وسأبذل قصارى وسعي من أجل ذلك. على أنني إذا عجزت عن الحيلولة دون طبعه، ونمى إليّ النبأ - في الوقت المناسب - فقد أستطيع أن أتمسك بحق الأسبقية؛ وإذ ذاك فلن أتردد في نشره بنفسي، وهذا - كما يبدو لي - مجرد تصرف طبيعي عادل.

"أما ردك عن الخطاب ذاته، فإنني لم أبح به لمخلوق، ولك أن تطمئن إلى أنه لن ينشر إطلاقا دون إذنك، وهو ما لن أكون من الاستهانة بالسر بحيث أسالك إياه؛ لأنني أعلم تمام العلم أن ما يكتبه إنسان لإنسان آخر، ليس مما ينشر على الملأ. أما إذا شئت أن تكتب ردا موجها إليّ، بغرض النشر، فإني أعدك بأن ألحقه بأمانة برسالتي، دون أن أعقب عليه بكلمة واحدة.

"إنني لا أحبك إطلاقا يا سيدي، ولكنك وجهت إليّ من الإساءات، ما لا أملك سوى أن أشعر بأبلغ الملام بسببها.. أنا تلميذك، وأشد المعجبين تحمسا لك!.. لقد أضعت "**جنيف**" جزاء لها ما لقيته منها من إيواء.. ولقد نفرت مني أبناء وطني، في مقابل الثناء الذي أضفيته عليك لديهم أنك أنت الذي جعلت حياتي في وطني ومسقط رأسي أمرا لا أطيقه!.. إنك أنت الذي ستضطرني إلى أن أموت على أرض أجنبية – محروما من كل ما يتاح للمحتضرين من تسرية ومواساة – وألا ألقى من التكريم أكثر من أن ألقى في حمأة.. بينما ترافقك في وطني كل آيات التكريم التي يحق لإنسان أن يطمع فيها!.. إنني – بإيجاز – أكرهك، وما دمت رغبت في هذا!.. ولكني أكرهك كرجل لا يزال خليقا بأن يحبك، إذا كنت ترغب في ذلك. إن العاطفة الوحيدة التي تبقى – من كل الأحاسيس التي يزخر بها قلبي نحوك – لهي عاطفة الإعجاب الذي لا يمكن للمرء أن يأباه على عبقريتك البديعة، والحب لما تكتب، وإذا كنت لا أقوى على أن أكرم فيك سوى مواهبك فليس هذا ذنبي، ولن يعوزني قط الاحترام الواجب نحو هذه المواهب، ولا السلوك الذي تتطلبه.

"**وداعا يا سيدي**"

تنبيه: يلاحظ أن هذا الخطاب وإن كتب منذ حوالي سبع سنوات إلا أنني لم أتحدث عنه إلى نفس حية، ولا أطلعت عليه أحدا، وكذلك كان شأن الخطابين اللذين اضطرني السيد "**هيوم**" إلى أن أكتبهما له في الصيف الماضي، حتى أثار الضجة – التي يعرفها كل امرىء – بشأنهما. إن السوء الذي اضطر إلى أن أقوله لأعدائي، إنما أوجهه إليهم فيما بيننا. أما الخير – إذا وجد شيء منه – فإني أقوله علانية وبقلب سليم.

وفي غمرة هذه المشاحنات الأدبية الطفيفة، التي لم تزدني إلا إصرارا على عزمي، قدر لي أن أتلقى أعظم تكريم أسدته إليّ مهنة الأدب.. التكريم الذي كنت أشد اعتزازا به مني بأي شيء آخر. وقد تمثل هذا التكريم في تنازل السيد الأمير "**دي كونتي**" بزيارتي مرتين، إحداهما في "**القصر الصغير**"، والأخرى في "**مون – لوي**"، ولقد اختار في كل من المرتين – على السواء – للفترة التي لم تكن فيها السيدة "**دي لوكسمبورج**". في "**مونمورنسي**"؛ حتى يكون أكثر إظهارا؛ لأنه إنما كان قادما من أجلي، وما ارتبت يوما في أنني إنما كنت مدينا بأولى مكارم هذا الأمير، إلى السيدة "**دي لوكسمبورج**"، وإلى السيدة "**دي بوفلير**". غير أنني لا أرتاب كذلك في أنني مدين بالعطف الذي لم يكف قط – منذ ذلك الحين – عن أن يشرفني به، إلى مشاعري الخاصة، وإلى نفسي.

تنبيه: لاحظوا إصرار هذه التقية العمياء، الغبية على البقاء في غمرة كل الإساءات التي كانت كفيلة بأن تجعلني أسيء الظن بها. ولكنها لم تختف إلا بعد عودتي إلى "**باريس**" في سنة ١٧٧٠.

ولما كان مسكني في "**مون – لوي**" جد صغير، وموقع الأيكة جميل، فقد أخذت الأمير إليها؛ إذا به – لكي يتوج أفضاله – يرغب في أن يشرفني بأن يلعب دورا في الشطرنج معي، وكنت أعرف أن بوسعه أن يهزم الشيفالييه "**لورينزي**" الذي كان أمهر مني لعبا. على أنني كسبت الدورين اللذين

لعبتهما، بالرغم من إشارات وغمزات الشيفاليه وأولئك الذين كانوا حضورا، فقد تظاهرت بأنني لم أكن أراها، وعندما انتهينا قلت له في لهجة جادة، مفعمة بالاحترام: "مولاي، إنني أوقر سمعك في خشوع يفوق أي تورع عن كسبك في الشطرنج دائما" . . فشعر هذا الأمير العظيم – النابه، المطلع، الذي كان أهلا لأن يأبى التملق، أو هكذا ظننت، على الأقل – أنني الوحيد بين الحضور، الذي عامله كإنسان، ولديَّ كل ما يجعلني أعتقد أنه شعر بامتنان حقيقي نحوي لذلك!

ولو أنني علمت عنه أنه استاء مني لما أنبت نفسي على أنني لم أرض بأن أخدعه في شيء، ولست أجد – يقينا – ما يحملني على أن ألوم نفسي على أنني أسأت – في قلبي – تقبل أفضاله، وإن كنت قد فعلت ذلك أحيانا حقا، في حين أنه كان يبدي رقة لا حد لها في مسلكه نحوي، ولقد أرسل إليَّ بعد أيام قلائل سلة مليئة بطيور القنص؛ فتقبلتها بقبول سليم، وما لبث – بعد ذلك بفترة – أن أرسل إليَّ سلة أخرى، مصحوبة برقعة من أحد حراس صيده، كتبت بإملاء منه؛ ليخبرني بأن محتويات السلة من الطيور التي أصيبت بيد صاحب السمو نفسه، ولقد تقبلتها ولكنني كتبت إلى السيدة "**دي بوفليير**"، أنبئها بأنني لن أتقبل مزيدا من هذه الهدايا، وقد جلب عليَّ هذا الخطاب لوما عاما، كنت أستحقه؛ فإن رفض هدايا الصيد من أمير من الأسرة المالكة، يبدي – إلى جانب ذلك – في إهدائها كل لطف، إنما ينم عن فظاظة من شخص سيئ النشأة، ينسى نفسه، أكثر مما ينم عن شعور مرهف من رجل ذي كرامة وكبرياء، يرغب في أن يحتفظ باستقلاله. وما قرأت قط هذا الخطاب إلا تضرج وجهي خجلا منه، وإلا أنبت نفسي على كتابته.

على أنني لم أقدم على كتابة اعترافاتي؛ لكي أسكت متكتما حماقاتي، وإن الواقعة الراهنة لتملؤني اشمئزازا من نفسي، إلى درجة تفوق كل ما يمكن أن يغريني على تكتمها!

وإذا كنت لم أضف إلى ذلك حماقة جديدة بأن أغدو منافسا له فإنني كنت جد قريب من أن أفعل هذا؛ إذ إن السيدة "**دي بوفليير**"، كانت – في ذلك الوقت – ماتزال عشيقته، ولم أكن أعرف شيئا عن ذلك، وكانت تفد لزيارتي كثيرا، في صحبة الشيفالييه "**دي لورينزي**"، وكانت جميلة ، ما تزال في شبابها، وكانت تعجب بالفكر الروماني، في حين أنني كنت دائما مولعا بالخيال الشاعري، وكان في هذا تشابه كاف. ولقد كدت أفضح نفسي، وأعتقد أنها لمحت ذلك، وكذلك لاحظه الشيفالييه"، فقد حدثني بصدده – على الأقل – بطريقة لم ترم إلى تثبيط عاطفتي!

ولكنني كنت في هذه المرة حكيما، وكان الزمن يستدعي ذلك؛ إذ إنني كنت في الخمسين من عمري، ولما كنت مفعم النفس بالنصيحة التي أسداها إليَّ الشيب في رسالتي إلى "**داليمبير**" فقد خجلت من ألا أفيد منها، وإلى جانب ذلك فإنني – بعد أن علمت كل ما لم أكن أعلم من قبل – كنت خليقا بأن أكون قد فقدت صوابي تماما، لو أنني جرؤت على أن أصبو إلى منافسة غريم في مثل تلك المكانة الرفيعة.

وأخيرا فإنني على ما يبدو لم أكن قد شفيت تماما من هوى السيدة "**دوديتو**"، فكنت أحس بأنه ما من شيء بعد هذا الهوى يمكن أن يحتل محله من قلبي، وودعت الحب ما بقي من عمري.

لقد تلقيت – قبيل اللحظة التي أكتب فيها هذه السطور – ملاطفات خطرة، من شابة لها أغراض لديَّ، وقد كانت ملاطفاتها مصحوبة بنظرات زاخرة بالمعاني، ولكن . . إذا كانت تتظاهر بنسيان سني عمري الخمسين فإن من واجبي أن أذكرها! . . وبعد أن انتزعت نفسي من فخها، لم يعد يساورني أي خوف من الوقوع، بل إنني لأشعر بأن في وسعي أن أثق بنفسي – في هذا الصدد – بقية عمري!

ولقد لاحظت السيدة "**دي بوفليير**" الانفعال الذي بعثه وجودها في نفسي، وكان بوسعها أن تلاحظ كذلك أنني قد انتصرت عليه. إنني لست من الطيش، ولا من الغرور، بحيث أعتقد أنني – في هذه السن – أثير في نفسها أي ميل نحوي، ولكني – على ضوء بعض عبارات استخدمتها في حديثها إلى "**تيريز**" – أعتقد أنني أثرت نوعا من الشعور الفضولي في نفسها. فإذا صح هذا، وإذا لم تكن قد صفحت عني لأنني لم أرض هذا الفضول فجدير بي أن أقر بأنني خلقت لأكون ضحية عيوبي وضعفي مادام الحب المظفر مصدر تعاسة لي، والحب المهزوم مصدر تعاسة أكبر!

*****

هنا تنتهي مجموعة الرسائل التي كانت بمثابة دليل لي في هذين الجزءين، ومنذ الآن، لن يكون لي سوى أن أقفو آثار ذكرياتي لكنها – في هذه المرحلة قاسية – ماتزال باقية، كما أن طابعها ما يزال قويا، حتى إنني أراني عاجزا – رغم ضياعها في بحر التعاسات البالغة – عن أن أنسى دقائق أول غرق منيت به سفينتي، بالرغم من أن ما بعده، لا يوفر لي سوى ذكريات مرتبكة، غير واضحة المعالم.

وهكذا أستطيع السير في كراستي التالية وأنا ماأزال كثير الاطمئنان إلى مواقع قدمي..

فإذا اشتط بي النأي فلن يكون هذا مدعاة لأي عجب!

الكراسة الحادية عشرة

سنة ١٧٦١

ومع أن قصة "**جولي**" -التي استغرقت طباعتها أمدا طويلا- لم تكن قد ظهرت بعد حتى نهاية سنة ١٧٦٠، إلا أنها كانت قد شرعت تثير ضجة كبرى. فإن السيدة "**دي لوكسمبورج**" راحت تتحدث عنها في البلاط، كما أن السيدة "**دوديتو**" كانت تتحدث عنها في "**باريس**". بل إن هذه الأخيرة استأذنتني، باسم "**سان-لامبير**" -في قراءة القصة- من النسخة المخطوطة -على ملك "**بولندا**"، الذي فتن بها. وعمد "**ديكلو**"- الذي كنت قد سمحت بقراءاتها عليه - إلى الحديث عنها في المجمع "الأكاديمية". فكانت "**باريس**" بأسرها تتحرق شوقا في انتظار هذه القصة، وحوصرت متاجر الكتب في شارع "**سان چاك**" و"**باليه رويال**" بالناس الذين كانوا يتساءلون عن أنبائها!

وظهرت أخيرا، فكان نجاحها الخارق متمشيا مع الشوق الذي كانت ترتقب به!(١).

وتحدثت السيدة زوجة ولي العهد -التي كانت من أوائل من اطلعوا عليها- إلى السيدة "**دي لوكسمبورج**" عنها، فوصفتها بأنها مؤلف يسلب الألباب. ولقد انقسمت الآراء بين أهل الأدب. أما لدى الجمهور، فلم يكن ثمة سوى رأي واحد..

وافتتنت النساء -بوجه خاص- بالكتاب وبالمؤلف، إلى حد أنه لم يكن بينهن من لم يكن في وسعي أن أغزو قلوبهن، لو أنني شئت، سوى القليلات.. حتى في الأوساط الراقية!.. ولدي على ذلك أدلة لا أبغي نشرها ولكنها تؤيد قولي، دون ما حاجة إلى ذلك. ومن العجيب أن هذا الكتاب كان أكثر نجاحا في "**فرنسا**" منه في بقية "**أوروبا**"، بالرغم من أن الفرنسيين -رجالا ونساء- لم يجدوا مني معاملة طيبة جدا فيه. ولقد كانت ضآلة نجاحه في "**سويسرا**"، وعظم نجاحه في "**باريس**"، مناقضين لكل ما توقعت. فهل كانت الصداقة، والحب، والفضيلة، أكثر سلطانا في "**باريس**" منها في أي مكان آخر؟!.. لا، بلا شك، وإنما كان لايزال يغلب عليها ذلك الشعور العارم، الذي ينتشي به القلب، عندما تصور له الأحاسيس النقية، الناعمة، الفاضلة.. والذي يحدونا إلى أن نعتز بما لدى الغير من هذه الأحاسيس التي لم يعد لدينا منها شيء!.. إن الفساد يشيع اليوم في كل مكان، فلا وجود لأخلاق، ولا لفضيلة في "**أوروبا**". فإذا قدر أن يكون ثمة حب باق لها، فإن "**باريس**" هي المكان الذي يجب أن نبحث عنه فيه(٢).

وفي غمرة هذه الأباطيل والترهات العاطفية، كان لابد من الإلمام بتحليل القلب البشري تحليلا صحيحا، حتى لا يخلط المرء الأحاسيس الفطرية الصادقة بها. كان لابد -للشعور بالعواطف القلبية المرهفة التي اشتمل عليها هذا الكتاب- من رقة ولباقة لا تتوفران إلا بالاتصال بالمجتمع الراقي، إذا جاز لي أن أقول هذا. وإني لأشبه الجزء الرابع من هذا المؤلف بكتاب "**أميرة كليف**"، دون ما تورع.. وأؤكد أن هذين الكتابين ما كانت قيمتهما لتتجلى، لو أن قراءتهما اقتصرت على الأقاليم وحدها. لذلك فلا عجب من أن أعظم نجاح ظفرت به "**جولي**" كان في البلاط الملكي. فقد أثارت هناك أهواء عارمة -ولكنها مستترة- كانت خليقة بأن تحظى بالإعجاب، لأن أفراد الحاشية كانوا على دراسة ومران

---

(١) عقب "روسو" على هذا بقوله: "كانت النسخة تؤجر للقراءة باثني عشر "سو" في الساعة، في الايام الاولى لظهور الكتاب. (٢) اضاف "روسو" في هامش كتابه: "كتبت هذا في سنة ١٧٦٩".

بأن يستشفوا ما وراءها. على أنه لابد من الإشارة هنا إلى مفارقة ظاهرة: تلك هي أن مطالعة هذا النوع من المؤلفات، لا يلائم -يقينا- أولئك الأذكياء الذين لا يتجه ذكاؤهم إلا إلى المكر، والذين لم يؤتوا من الألمعية إلا ما يمكنهم من أن يكتشفوا السوء.. والذين لا يبصرون شيئا على الإطلاق، حيث لا يتبدى للأبصار سوى كل ما هو طيب وحسن!.. فلو أن "**جولي**" نشرت في بلد معين يخطر ببالي -مثلا- لما أقبل أحد على قراءتها حتى نهايتها، ولماتت في يوم مولدها!

ولقد جمعت معظم الرسائل التي كتبت إلي عن هذا المؤلف، في حزمة عهدت بها إلى السيدة "**دي نادياك**"(١). فإذا قدر لهذه المجموعة أن ترى النور، فإنها ستكشف عن كثير من الغرائب، وعن تناقض في الرأي، يبين ما يلقاه المرء إذا ما تعرض لمسألة تهم الرأي العام. على أن أقل ما فطن إليه القوم، هو عين الميزة التي ستجعل هذا المؤلف فريدا في نوعه دائما، ميزة بساطة الموضوع، وتسلسل السياق، الذي اقتصر على ثلاثة أشخاص، وتتابع في ستة مجلدات دون ما استعانة بأحداث، أو مغامرات خيالية، أو شوائب من أي نوع، سواء فيما يتعلق بأبطال القصة أو بتصرفاتهم!.. وكان "**ديدرو**" قد أطرى "**ريتشاردسن**" (٢) كثيرا، للتنوع الهائل الذي تجلى في مواقف قصته، ولتعدد الشخصيات التي قدمها وليس من شك في أن "ريتشاردسن" كان موفقا إذ خلع على تلك الشخصيات كل الصفات المميزة. على أنه عمد -فيما يتعلق بصددها- إلى ما هو شائع لدى القصصيين غير الناضجين، الذين يتسترون على تفاهة أفكارهم بزحمة الشخصيات والوقائع. إذ إن من السهل استثارة الاهتمام، بتقديم سيل لا انقطاع له من الأحداث العجيبة والوجوه المستحدثة، التي تتوالى وكأنها أطياف مصباح سحري.. ولكن استبقاء هذا الاهتمام على الدوام، بنفس الأشياء، ودون ما وقائع غريبة مدهشة، أمر بالغ المشقة!.. وعندما تتساوى جميع الاعتبارات، نجد أن بساطة الموضوع تضاعف من جمال الكتاب.. ومن هنا نرى أن قصص "**ريتشاردسن**"، وإن تفوقت في كثير من الاعتبارات، إلا أنها لا تقاس، من هذه الناحية، بقصتي. وإذا كانت هذه قد ماتت -وإني لأدرك هذا، وأعرف السبب- إلا أنها لن تلبث أن تبعث من جديد!

وما كنت أخشى سوى أن يكون تطور القصة مملا، بحكم بساطته، وأن أكون قد عجزت عن توفير قدر كاف من الاهتمام، يظل مستمرا حتى نهايتها، ولكني لم ألبث أن اطمأننت، بفضل واقعة هزت مشاعري، أكثر مما هزتها جميع التهاني والمديح التي اجتلبها علي هذا الكتاب:

ذلك أن القصة ظهرت في بداية أعياد المرافع "**الكرنفال**". فحملها أحد الباعة المتجولين إلى السيدة الأميرة "**دي تالمون**"(٣)، في أحد الأيام التي أقيمت بها الحفلات الراقصة بدار "**الأوبرا**". وبعد أن تناولت السيدة العشاء، ارتدت ثيابها تأهبا للذهاب إلى الحفلة. حتى إذا اضطرت إلى الانتظار ساعة، عمدت إلى قراءة القصة الجديدة، وعند منتصف الليل، أمرت بأن تشد الجياد إلى عربتها، ثم واصلت القراءة. وأقبل من أعلنها بأن العربة معدة، ولكنها لم تجب. وإذ رأى خدمها أنها قد نسيت نفسها، أقبلوا ينبهونها إلى أن الساعة بلغت الثانية صباحا. فقالت وهي مسترسلة في القراءة: "لا داعي بعد للعجلة!". وبعد فترة، تبينت أن ساعتها كانت قد توقفت عن العمل، فدقت الجرس لتستعلم عن الوقت، فقيل لها: إن الساعة كانت الرابعة. فقالت: "إذن فالوقت جد متأخر، ولا سبيل إلى الذهاب

---

(١) كانت السيدة "دي نادياك" رئيسة لدير "جومير فونتان"، الذي كان يضم يتيمات مدينة "روان"، والذي كان يقع على مقربة من قصر "شاتو دي تير" -قلعة مدينة صور- حيث نزل "روس" فترة من الزمن. ومما يذكر، أن روسو كتب قطعة من الموسيقى الدينية. بوحي من هذه السيدة، ولا تزال النسخة الخطية لهذه القطعة مودعة في المكتبة الملكية. بالمتحف الفرنسي. (٢) "ريتشارد سن" مؤلف "أميرة كليف" التي يقيسها روسو بقصته "جولي". (٣) استدرك "روسو" في هامش كتابه قائلا: "لم تكن هي، وإنما كانت سيدة أخرى، لا أعرف اسمها. بيد أنني تأكدت من الواقعة ذاتها".

إلى المرقص، فاطلقوا الجياد!". وخلعت ثيابها، ثم قضت بقية الليل في القراءة!

ومذ رويت لي هذه الواقعة، أصبحت مشوقا دائما إلى رؤية السيدة **"دي تالمون"**، لا لكي أعرف منها -بالذات- أن الواقعة صحيحة، فحسب، وإنما لأنني لم أكن أظن قط أن من الممكن أن يشعر أي شخص بمثل هذا الاهتمام المحتدم نحو **"جولي"**، دون أن يكون قد أوتي الحاسة السادسة.. حاسة الإدراك الخلقي والأدبي التي لم تحظ بها سوى قلوب قلائل، والتي لا سبيل بدونها إلى فهم قلبي!

ولقد كان الأمر الذي جعل النساء يؤثرنني بهذه الدرجة، هو الاعتقاد الذي داخلهن بأنني أودعت الكتاب سيرتي الحقيقية، وأنني بالذات، كنت بطل هذه القصة. ولقد طغى من تغلغل هذا الاعتقاد، أن كتبت السيدة **"دي بولينياك"** إلى السيدة **"دي فورديلان"**، لترجوني أن أسمح لها بأن ترى صورة **"جولي"**. فلقد اقتنع الناس جميعا بأن من المستحيل التعبير عن الأحاسيس بهذا الإبداع، دون أن أكون قد شعرت بها.. ولا وصف فورات الحب بهذا الأسلوب المتأجج، مالم تكن منبعثة من الفؤاد مباشرة. ولقد كان الناس على حق في ذلك، فمن المحقق أنني كتبت هذه القصة وأنا في أشد حالات الجوى استعارا.. على أن من الخطأ الظن بأنه لابد من مادة واقعية لإحداث هذا اللهيب.. كما أن من أبعد الأمور عن الإدراك، تصور مدى الوجد الذي كانت تذكيه في فؤادي مخلوقات خيالية موهومة، ففيما عدا بعض ذكريات قلائل من الصبا، ومن السيدة **"دوديتو"**، لم يكن الشوق -الذي كابدته ووصفته- قائما إلا نحو أطياف الخيال السابحة في الهواء.

ولم أشأ أن أعزز أو أن أهدم خطأ كان في صالحي. ومن الميسور للمرء أن يتبين من المقدمة التي صغتها على شكل حوار، والتي طبعتها على حدة، كيف تركت الرأي العام في شك إزاء هذه النقطة. وقد يقول المتزمتون: إن الواجب كان يقتضيني أن أعلن الحقيقة بجلاء تام. على أنني -من ناحيتي- لا أرى التزاما كان يحدوني إلى أن أفعل ذلك، وأعتقد أنني كنت خليقا بأن أبدو غبيا، أكثر مني صريحا، لو أنني أقدمت على هذا البيان، دون ما ضرورة تدعو إليه!

*****

وظهر في ذلك الوقت -تقريبا- "السلام الدائم"، الذي كنت قد عهدت، في العام السابق، بمخطوطه إلى شخص -يدعى السيد **"دي باستيد"**- كان رئيس تحرير صحيفة تدعى **"لوموند"**، أي العالم، وقد رغب في أن ينشر كل مخطوطاتي في هذه الصحيفة، رضيت أم لم أرض!.. ولقد كان من معارف السيد **"ديكلو"**، فراح يلح علي باسمه في أن أساعده على ملء صفحات **"لوموند"**. وكان قد سمع عن **"جولي"**، فأراد أن أنشرها في صحيفته، كما ود لو أنشر فيها **"أميل"**. وكان خليقا بأن يرغب في أن أنشر فيها **"العقد الاجتماعي"** لو أنه حدس وجوده. فلما ضقت بإلحاحه -في النهاية- قررت أن أنزل له عما خرجت به من "السلام الدائم" في مقابل اثني عشر **"لوي"**. وكان الاتفاق بيننا على أن ينشره في صحيفته، ولكنه لم يكد يستولي على المخطوط، حتى رأى أن يطبعه في كتاب مستقل، بعد حذف فقرات منه اقتطعها الرقيب. ترى ما الذي كان خليقا بأن يحدث، لو أنني كنت قد أضفت إلى المخطوط آرائي وتعليقاتي على الكتاب الأصلي؟ إنني لحسن الحظ لم أتحدث عنها إلى السيد **"دي باستيد"**، ومن ثم فإنها لم تدخل ضمن صفقتنا!.. ولا تزال هذه الآراء بين أوراقي، مسجلة بخط اليد. وإذا قدر لها أن تظهر، فسوف يتجلى كم كانت فكاهات **"فولتير"** وآراؤه المعتدة، في هذا الموضوع، خليقة بأن تضحكني.. أنا الذي أدرك تمام الإدراك مدى ذكاء هذا

المسكين، فيما يتعلق بالأمور السياسية التي جرؤ على أن يقحم نفسه فيها!

وفي غمرة نجاحي لدى الرأي العام، والحظوة التي نلتها لدى السيدات، رحت أشعر بأنني كنت أفقد مكانتي في قصر "**دي لوكسمبورج**"، لا لدى السيد المارشال -الذي كان يبدو أنه راح يضاعف بره بي، وصداقته لي، يوما بعد يوم- وإنما لدى السيدة المارشالة.. فإن مخدعها لم يعد يفتح كثيرا في وجهي، بعد أن لم يعد لدي ما أقرؤه عليها. ومع أنني كنت أتردد على القصر بانتظام بالغ خلال زياراتهما "**لمونمورنسي**" -إلا أنني أصبحت نادرا ما أراها، في غير أوقات اجتماعنا حول المائدة. بل إن المقعد المجاور لها، لم يعد قاصرا علي وحدي، كما كان العهد من قبل!.. وإذ لم تعد السيدة تعرضه علي، وأصبحت تقسط في الحديث إلي، ولم يعد لدي -أنا الآخر- الكثير مما يقال لها، فإنني ارتحت كثيرا إلى اتخاذ مكان آخر حول المائدة، كنت أشعر فيه بالحرية، لا سيما في المساء، إذ وجدتني أتعود -دون أن أفطن- الجلوس على مقربة من السيد المارشال.

وبمناسبة "المساء"، أتذكر أنني قلت: إنني لم أكن أتناول العشاء في القصر. وقد كان هذا صحيحا، في بداية التعارف. على أنه لما كان السيد "**دي لوكسمبورج**" قد اعتاد ألا يتناول غداء قط، بل ولا حتى أن يظهر حول مائدة الغداء، فقد ترتب على ذلك أنني لم أتناول الطعام معه قط، برغم انقضاء شهور عديدة على تعارفنا، كنت فيها قد ألفت التردد على الدار. وكان من الكرم بحيث أشار إلى ذلك، مما دعاني إلى أن أقرر الذهاب لتناول العشاء هناك، في بعض الأحيان التي لا يكون فيها ثمة ضيوف عديدون. وكنت أستمتع بذلك كثيرا، إذ إننا كنا قد اعتدنا -تقريبا- تناول الغداء في الهواء الطلق، و"دون ما كلفة" -كما يقال- في حين أن العشاء كان يستغرق وقتا طويلا، لأن الضيوف كانوا ينشدون فيه فرصة الراحة بعد نزهة طويلة على الأقدام.. وكان الطعام جد شهي، لأن السيد "**دي لوكسمبورج**" كان أكولا.. كما كانت المائدة مستحبة، لأن السيدة "**دي لوكسمبورج**" كانت تقترح الأنخاب، في كثير من الجلال واللطف الساحرين. وبدون هذا الإيضاح يتعذر إدراك الفقرة التي وردت في ختام إحدى رسائل السيد "**دي لوكسمبورج**" (الملف "جـ"-رقم ٣٦)، إذ قال السيد: إنه كان يتذكر نزهاتنا بكثير من السرور، لاسيما حين كنا نعود إلى القصر في المساء، فلا نجد أثرا لعجلات العربات في ساحة القصر. ذلك لأنه لما كانت الرمال -التي يكتسي بها الفناء- لا تسوى إلا في الصباح، فإنني كنت أستطيع أن أحدس من عدد الخطوط التي تخلفها عليها العجلات، عدد الضيوف الذين وصلوا في فترة الأصيل!

*****

ولقد أترعت تلك السنة (١٦٧١) كأس المحن التي حاقت بهذا السيد الكريم مذ كان لي شرف التعرف إليه، وكأنما كانت الشرور التي راح القدر يعدها لي، مسوقة لأن تبدأ بالرجل الذي شعرت نحوه بأصدق الود، والذي كان جديرا بكل ولاء.. ففي العام الأول لتعارفنا، فقد أخته: السيدة الدوقة "**دي فيلروي**". وفي العام الثاني، فقد أخته السيدة الأميرة "**دي روبيك**".. وفي الثالث، فجع في ابنه الأوحد -الدوق "**دي مونمورنسي**"- وفي حفيده الكونت "**دي لوكسمبورج**"، الوريث الأوحد والأخير للأسرة ولقبها. ولقد تحمل السيد المارشال كل هذه النكبات بجلد باد -في الظاهر- ولكن قلبه ظل -في الخفاء- داميا، ما تبقى من حياته، وراحت صحته تضمحل، وكانت ميتة ابنه -المفجعة، غير المتوقعة- جديرة بأن تكون أشد تأثيرا عليه من كل شيء، إذ إنها حدثت في عين

اللحظة التي كان الملك قد منح فيها ابنه -ووعد بأن يمنح حفيده- الحق في أن يخلفه في قيادة الحرس الخاص. وقدر عليه أن يتعذب برؤية حياة هذا الطفل -حفيده- الذي تركزت فيه كل هذه الآمال، تذوي رويدا أمام عينيه؛ من جراء ما كان لأمه من ثقة عمياء بالطبيب الذي تسبب في وفاته.. فقد مات الطفل لفرط حاجته إلى الغذاء، إذ إنه لم يكن يتغذى على غير العقاقير!

واحسرتاه!.. ليتهم أخذوا برأيي، فلو أنهم فعلوا لظل الجد والحفيد على قيد الحياة!.. فكم قلت وكم كتبت للسيد المارشال.. وكم جلوت الرأي للسيدة "**دي مونمورنسي**"، بصدد نظام التغذية، الذي كان يتجاوز حدود التقشف، والذي كانت تتبعه نحو ابنها، بسبب ثقتها بالطبيب!.. ومع أن السيدة "**دي لوكسمبورج**" كانت تشاطرني الرأي، إلا أنها لم تشأ أن تتدخل في سلطة الأم، كما أن السيد "**دي لوكسمبورج**" كان لطيفا، لينا، فلم يشأ أن يعارضها!.. وكانت السيدة "**دي مونمورنسي**" تكن للطبيب "**بوردو**" ثقة انتهت بأن راح ابنها ضحية لها!.. لشد ما كان الصغير المسكين يغتبط كلما استطاع أن يحصل على إذن بالحضور إلى "**مون-لوي**" مع السيدة "**دي بوفليير**"، إذ كان يطلب إلى "**تيريز**" بعض الطعام فيودع أمعاءه الخاوية شيئا من الغذاء!.. لكم كنت أرثي -في دخيلتي- لتعاسات العظمة، كلما رأيت هذا الوريث الأوحد لمثل هذه الثروة الواسعة، ومثل هذا الاسم الرفيع، ومثل هذه الألقاب والرتب الكثيرة، -يلتهم في نهم المتسول كسرة صغيرة، متواضعة، من الخبز!.. على أن الطبيب انتصر على كل ما قلت وفعلت.. ومات الصغير جوعا!

وهذه الثقة في الدجالين وأدعياء الطب -التي أهلكت الحفيد- هي ذاتها التي حفرت قبر الجد، فضلا عن أنه كان من ضعف العقل، بحيث راح يحاول أن يخفي على نفسه علل الشيخوخة. فلقد كان السيد "**دي لوكسمبورج**" يعاني -بين آن وآخر- آلاما في الأصبع الكبرى لقدمه. وقد تعرض -أثناء وجوده في "**مونمورنسي**"- لنوبة حرمته النوم، وجعلته شبه محموم. وإذ جرؤت على أن ألفظ كلمة "**النقرس**"، انهالت السيدة "**دي لوكسمبورج**" علي تأنيبا، فقد أعلن وصيف السيد المارشال وجراحه أن مرضه لم يكن من "**النقرس**" في شيء، وراحا يسبغان على العضو الموجوع بلسما، وهدأ الألم -لسوء الحظ- فلما أخذ يعود بعد ذلك، كانوا يلجئون، دون ما تردد، إلى عين الدواء الذي أحدث الراحة وسرى الوجع من قبل.. وباضمحلال صحة السيد المارشال، أخذت آلامه تزداد، فكانت العقاقير تزداد معها!.. وعندما تبينت السيدة "**دي لوكسمبورج**" -في النهاية- أن "**النقرس**" هو الذي كان مصدر الآلام، عارضت هذا العلاج الأخرق. فراحوا يكتمون عنها -بعد ذلك- حاله، حتى مات السيد "**دي لوكسمبورج**" بعد سنوات قلائل، بفضل خطئه، ومن جراء إصراره على أن يعالج نفسه بنفسه، وفق هواه. ولكن.. ليس لنا أن نمعن في استباق المصائب، فكم لدي من حديث أريد أن أرويه قبل ذلك!

*****

ولقد كان من النحس العجيب حقا، أن كل شيء كنت أقوله أو أفعله، بدا وكأنه مسوق إلى أن يسوء السيدة "**دي لوكسمبورج**"، ولو كنت في أشد الشوق إلى أن أحتفظ برضاها!.. ولم تكن الآلام التي احتملها السيد "**دي لوكسمبورج**" -من الصدمات التي تعاقبت عليه- تزيدني إلا تعلقا

به، وبالتالي، بالسيدة "**دي لوكسمبورج**"، إذ كانا يبدوان دواما صادقي الاتحاد إلى درجة أن العواطف التي تخالج المرء نحو أحدهما، كانت تمتد بطبيعة الوضع إلى الآخر! .. ولقد راحت الشيخوخة تثقل كاهل السيد المارشال. كان حضوره المتواصل في البلاط الملكي، والواجبات التي يتطلبها ذلك، ورحلات الصيد المتتابعة، والإرهاق الذي كان يترتب على الخدمة خلال فصل الصيد، كل هذه كانت تتطلب قوة الشباب، ولم أكن أرى ثمة وسيلة تمكنه من القوة التي يتطلبها منصبه وإذا لم يكن ثمةبد من أن توزع رتبه على الغير، وأن ينطفئ بريق اسمه بعد موته -لعدم وجود وريث له- فلم يكن هناك ما يدعوه إلى أن يستمر في حياة عملية مرهقة، كانت الغاية الرئيسية منها هي أن يستبقي لأبنائه ما كان له من حظوة لدى العاهل!

وفي أحد الأيام، كنا نحن الثلاثة معا، ولا غريب بيننا، وقد راح السيد المارشال يشكو من متاعب واجباته في البلاط، بروح الرجل الذي ثبطت المصائب عزيمته. فجرؤت على أن أحدثه عن التقاعد، وأزجيت إليه النصيحة التي قدمها "**سينياس**" إلى "**بيروس**"(١). فتنهد ولم يجب برأي قاطع. ولكن السيدة "**دي لوكسمبورج**" راحت -في أول لحظة رأتني فيها على حدة- تلومني في عنف على نصيحتي التي أزعجتها.. على ما بدا لي. وأضافت إلى ذلك إشارة لم ألبث أن شعرت بعدالتها، ولم تلبث أن حولتني عن فكرة العودة ثانية إلى هذا الموضوع.. تلك هي أن اعتياد العيش في البلاط الملكي طويلا، أصبح ضرورة لا غنى عنها. بل إنه كان -حتى في تلك الظروف- ملهاة تصرف بال السيد "**دي لوكسمبورج**" عن همومه، وأن اعتزال البلاط -الذي نصحته به- لن يكون مبعث راحة واستجمام له، بقدر ما يكون إقصاء ونفيا! .. ولن يلبث الخمول، والملل، والحزن أن يضعا لحياته نهاية! .. ومع أنها رأت ولابد أنها قد أقنعتني، ومع أنها كانت تستطيع أن تركن إلى الوعد الذي قطعته لها، والذي ظللت أصونه، فقد لاح لي أنها لم تطمئن يوما من هذه الناحية. وإني لأذكر أن اختلائي بالسيد المارشال أصبح -منذ ذلك الحين- نادرا، وكانت خلواتنا تتعرض باستمرار لما يقطع علينا حبلها!

وفي الوقت الذي تعاونت فيه بلاهاتي ونحسي على الإساءةإلي -لدى السيدة- لم يكن هناك من يشفع لي لديها، ممن كانت تؤثرهم بمقابلاتها ومودتها.. لا سيما الراهب "**دي بوفلير**" الذي أوتي أكثر قسط من الذكاء يتاح لشاب في سنه، والذي لم يكن يميل إلي البتة! .. ولم يقتصر أمره على أنه كان الوحيد -في حاشية السيدة المارشالة- الذي لم يكن يبدي أتفه احتفاء بي، على الإطلاق، بل إنني لاحظت -في كل زيارة يؤديها إلى "**مونمورنسي**"- أنني كنت أفقد شيئا من حظوتي لدى السيدة. على أنه من المحقق أن من الصحيح أن مجرد وجوده كان كافيا لأن يؤدي إلى ذلك، دون أي تعمد من ناحيته.. فإن سخافاتي كانت تبدو معتمة، ثقيلة، إلى جانب لمحاته المتسمة بالجلال، وبسمو الروح. ولقد كانت زياراته لـ"**مونمورنسي**" نادرة، خلال العامين الأولين، وكنت بفضل تسامح السيدة المارشالة، قادرا على أن أحتفظ بمكانتي، ولكنه لم يكد يزداد انتظاما في زياراته، حتى وجدتني مقصيا عن هذه المكانة، دون ما أمل في استعادتها!

ولقد كنت على استعداد لأن أنطوي تحت جناحه، وأن أتخذ الوضع الذي يحمله على مصادقتي، لولا أن حرج موقفي -الذي جعل من رضاه عني ضرورة لازمة لي- كان هو عين السبب الذي منعني من أن أكسب هذا الرضا وإذا كل ما رحت أبذل في هذا الصدد، يطيش فيؤدي إلى القضاء على ما

---

(١) كان "بيروس" ملكا على "ابيبرس" بين سنتي ٣١٨ و٢٧٢ قبل الميلاد، وقد غزا "إيطاليا" قبل وفاته بثماني سنوات، ومع أنه هزم الرومان مرتين، إلا أنه تكبد خسائر جسيمة، وكتب عليه أن ينكسر في النهاية وأن يعود إلى بلاده اليونانية، أما "سينياس" فكان وزيره ومستشاره، وكان الملك يقول إنه بحكمته اكسبه من المدن مالم تكسبه إياها الجيوش. على أن الوزير كان يعارض جموح الملك في مطامعه، وقد حاول أن يثنيه عن غزو "إيطاليا" بحديث سجله التاريخ مثالا للنصح البليغ. وهو الذي أشار إليه "روسو".

كان لي من حظوة لدى السيدة "**المارشالة**"، دون أن يجديني أي نفع في التقرب إليه!.. وكان في وسعه أن يوفق في كل شيء، بفضل ذكائه، بيد أن عجزه التام عن الاستمرار في الدأب، وميله إلى النزق واللهو، لم يمكناه من أن يكتسب سوى حذق غير مكتمل في كل عمل. ولقد أتيح له –على سبيل التعويض– أن يؤدي كثيرا من هذه الأعمال، فكان هذا –في حد ذاته– هو كل ما يلزمه لكي يلمع في المجتمع الراقي، الذي كان يصبو إلى التألق فيه!.. كان يحسن نظم القصائد الصغيرة، ويتقن كتابة الرسائل القصيرة، ويعزف الموسيقى ببعض المهارة، ويرسم هونا ما بالطباشير الملونة. وقد أبدى رغبة في أن يرسم لوحة للسيدة "**دي لوكسمبورج**"، فجاءت اللوحة بشعة، وقالت السيدة إنها لم تكن تشبهها في شيء، وقد كانت محقة تماما في ذلك. ولقد سألني الراهب الغادر رأيي، فإذا بي –كأي غبي كذاب– أزعم أن اللوحة كانت تشبهها. وكنت بذلك أرجو أن أتملق الراهب، ولكنني لم أتملق السيدة المارشالة، فسجلتها ضدي في قائمة الأخطاء، بينما راح الراهب يضحك مني، بعد أن نجحت خدعته!.. ولقد تعلمت –بفضل نتيجة هذه المحاولة، التي جاءت متأخرة، في الملق والمداهنة– ألا أقدم مختارا على الرياء والتملق، بالرغم من منيرفا(١)!

*****

لقد كانت ميزتي التي فطرت عليها، هي أن أقول للناس حقائق مفيدة، –ولكنها جافة قاسية– في كثير من التحمس والشجاعة. وكان خليقا بي أن أظل على ذلك.. إنني لم أخلق قط لكي أطري –ولن أقول: أتملق– الغير. ولقد كان سوء توجيه الإطراء الذي حاولت أن أزجيه، أكثر إيذاء لي من أقسى لوم قدر لي أن أصدره. وإني لأذكر هنا مثالا بلغ من فظاعته أن عواقبه لم تغير مجرى حياتي فحسب، بل إنها ربما أثرت على سمعتي كذلك، عبر الأجيال!

فلقد اعتاد السيد "**دي شوازيل**"(٢) أن يفد إلى القصر لتناول العشاء، في بعض الأحيان، خلال فترات إقامة السيد والسيدة "**دي لوكسمبورج**" في "**مونمورنسي**". وأقبل ذات يوم، وأنا أغادر القصر. فدار الحديث عني، وروى له السيد "**دي لوكسمبورج**" قصتي في "**البندقية**" مع السيد "**دي مونتيجي**". فقال السيد "**دي شوازيل**": إنه كان من الخسارة حقا أن هجرت العمل الديبلوماسي، وإنني إذا رغبت في العودة إلى هذا العمل، فلن يجد ما يسره أكثر من أن يستخدمني. وأبلغني السيد "**دي لوكسمبورج**" بالأمر، فتأثرت به أكثر مما ينبغي، إذ إنني لم أعتد أن ألقى من الوزراء أية مجاملة. وليس بوسعي أن أجزم بأنني لم أكن على استعداد لأن أجعل من نفسي أحمق، مرة أخرى –بالرغم من قراراتي السابقة– لو أن صحتي كانت تتيح لي أن أفكر في الأمر.

إن الطموح لم يعتد أن يتملكني، إلا في الفترات الموجزة التي كانت كل الشهوات الأخرى تفارقني خلالها. ولكن فترة واحدة من هذه الفترات، كانت كفيلة بأن تذكي عواطفي مرة أخرى. ومن ثم فإن هذه النية الكريمة من السيد "**دي شوازيل**"، ملكت علي شعوري، ودعمت التقدير الذي كانت بعض أعماله الوزارية قد حملتني على أن أكنه له. فقد كان "حلف الأسرة" بالذات، يبدو –في نظري– دليلا على أن الرجل كان سياسيا من ساسة الصف الأول(٣).

---

(١) بالرغم من منيرفا": مثل اصطلح عليه، في الحديث عمن يصر على عمل لم يؤت موهبة تمكنه من إتقانه، وكان يطلق أصلا على الشاعر الذي يمارس النظم وإن لم يؤت ملكة الشعر. (٢) الدوق "اتيين –فرانسوا دي شوازيل"، كان وزيرا للخارجية في عهد "لويس الخامس عشر"، وأبدى براعة في إصلاح النتائج السيئة التي ترتبت على حرب السنوات السبع. وتدين له فرنسا بكثير من الأفضال العسكرية، والدبلوماسية. وقد عاش بين عامي ١٧١٩ و١٧٨٥. (٣) حلف الأسرة: معاهدة تحالف عسكري، أبرمت في سنة ١٧٦١، بين الأسرتين الملكيتين في فرنسا وأسبانيا، وكانتا تنتميان معا إلى آل بوربون.

وقد ازددت تقديرا له عندما قارنت أعماله بأعمال من سبقوه في المنصب، دون أن أستثني منهم السيدة "**دي بومبادور**" التي كنت أعتبرها بمثابة "رئيس للوزراء"!.. وعندما كان يشاع أن واحدا من هذين الاثنين يناجز الآخر العداء، فأعتقد أنني كنت أدعو بالنصر لفرنسا، عندما كنت أدعو بالنصر للسيد "**دي شوازيل**" .

ذلك لأنني كنت أستشعر دائما نفورا من السيدة "**دي بومبادور**"، حتى عندما رأيتها –قبل أن يرتفع نجمها– لدى السيدة "**ديلابولينيير**"، وكانت إذ ذاك ماتزال تحمل اسم السيدة "**ديتوال**" . ومنذ ذلك الحين، أحنقني منها صمتها إزاء موضوع "**ديدرو**"(١)، ومسلكها نحوي، سواء فيما يتعلق بتمثيليتي "**أعياد رامير**"(٢) أو "**عرائس الشعر اللطاف**"(٣) أو أوبرا "**عراف القرية**"(٤) التي لم تعد علي بأي دخل أو نفع يتناسب مع نجاحها. ففي كل هذه المناسبات، كنت أجد السيدة "**دي بومبادور**" قليلة الحرص على أن ترضيني. على أن هذا لم يمنع الشيفالييه "**دي لورنزي**" من أن يقترح علي أن أؤلف شيئا في مديح هذه السيدة، في تلك الآونة، موحيا إلي بأن هذا قد يجديني نفعا. ولقد أثار هذا الاقتراح استنكاري، لاسيما إذ رأيت بجلاء أنه لم يكن صادرا عنه شخصيا.. وقد أدركت تماما أن هذا الرجل، الذي لم يكن ذا قيمة –في حد ذاته– لم يكن ليفكر أو يعمل قط، إلا بإيعاز من سواه. ولم أوت قط من القدرة ما يمكنني من كبح نفسي لكي أخفي عنه ازدرائي لاقتراحه.. أو لكي أخفي عن أي امرئ آخر عدم ميلي إلى الحظوة الموعودة. ولقد أدركت هي ذلك، وإني لموقن من ذلك.. كل هذه الاعتبارات وحدت بين مصلحتي الذاتية، وميولي الطبيعية، في الأدعيات التي كنت أرجو فيها النجاح للسيد "**دي شوازيل**".. وكنت قد شعرت –قبل ذلك– بتحبيذ لمقدراته ومواهبه، التي كانت كل ما أعرفه عنه.. كما إنني كنت مفعما بالعرفان لما أبداه نحوي من نوايا طيبة، جاهلا –في عزلتي– بأذواقه ومسالكه في الحياة، ومن ثم فقد رحت أتطلع إليه كأنه المنتقم للجمهور ولي!.. ولما كنت –في ذلك الحين– منصرفا إلى وضع الخطوط النهائية في مؤلفي "العقد الاجتماعي"، فإنني وضعت في فقرة واحدة رأيي في الوزارات السابقة، وفي هذه الوزارة أوشكت أن تطغى عليها. ولقد أغفلت –في هذه المناسبة– أكثر مبادئي رسوخا في نفسي، ولم يخطر ببالي أن المرء إذا أراد أن يتحمس في المديح، وفي اللوم، في مقال واحد –دون أن يورد أسماء ما– فمن الواجب أن يقصر المديح على أولئك الذين يقصدهم به، بأسلوب لا يجعل مجالا لأشد النفوس أنانية، لأن تسيء فهمه. ولقد كنت من الحماقة بحيث ظننتني في مأمن من هذا، فلم يخطر ببالي قط أن من الممكن تأويل ما قصدت إليه. ولسوف يتجلى فيما بعد ما إذا كنت قد أصبت!

ومن مظاهر سوء طالعي، أنني كنت دائما على اتصال ببعض الكاتبات من النساء. وقد خلت أنني لن ألبث أن أتفادى ذلك، بعلاقاتي بسيدات الطبقة الراقية على الأقل. ولكن شيئا من هذا لم يحدث، بل إن حظي ظل يلاحقني. ومع أن السيدة "**دي لوكسمبورج**" لم تتعرض قط لهذه النزوة –فيما كنت أعرف –إلا أن السيدة الكونتة "**دي بوفليير**" كانت مصابة بها. فقد كتبت مأساة –تمثيلية نثرية– قرئت في البداية، ثم أديرت على حاشية السيد الأمير "**دي كونتي**" فقوبلت بإطراء. ولكن السيدة لم تقنع بكل هذا الإطراء، فشاءت أن تستشيرني أنا الآخر، لتحظى بالثناء مني. وقد

---

(١) كان "ديدرو" قد سجن، وكتب "روسو" إلى السيدة: "دي بومادور" كي تعمل على إطلاق سراحه. (٢) أوبرا كان "فولتير" قد وضع كلماتها، كما وضع "رامو" ألحانها، ثم عهد الدوق "ريشيلو" إلى "روسو" بأن يعيد كتابة الكلام والموسيقى مع تنقيحهما. (٣) أوبرا كان قد شرع في تاليفها في أول عهده بالإقامة في "باريس"، وعرضت في حفلة حضرها ريشيليو. (٤) أوبرا من تاليف "روسو"، عرضت على مسرح القصر الملكي بحضور الملك.

منحتها هذا الثناء، ولكن في عبارات معتدلة، بقدر ما كان المؤلف يستحق. وفوق ذلك، فقد رأيت أن من واجبي أن أطلعها على أن تمثيليتها -التي كانت بعنوان "**العبد الكريم**"- شديدة الشبه جدا بمسرحية إنجليزية لم تكن معروفة على نطاق واسع، ولكنها ترجمت إلى الفرنسية، وكانت تحمل اسم "**أورونوكو**". ولقد شكرت لي السيدة "**دي بوفلير**" رأيي، وأكدت لي لفورها أن لا علاقة البتة لمسرحيتها بالمسرحية الأخرى. ولم أبح قط بهذه السرقة الأدبية لمخلوق من البشر سواها، وما صارحتها -هي- إلا أداء لواجب ألقيته على عاتقي. بيد أن هذا لم يصدني عن أن أكثر من التفكير -منذ ذلك الحين- في الطريقةالتي أدى بها "**جيل بلا**" واجبه نحو الأسقف الواعظ، وما ترتب على ذلك.(١).

*****

وإلى جانب الراهب "**دي بوفلير**" -الذي لم يحبني قط- والسيدة "**دي بوفلير**"، التي ارتكبت نحوها أخطاء لا تغتفرها امرأة، ولا كاتبة، فإن بقية أصدقاء السيدة "**المارشالة**" كانوا دائما قليلي الميل إلى أن يكونوا أصدقاء لي. وكان منهم السيد دي "**هينو**" رئيس البرلمان، الذي لم يعفه انضمامه إلى زمرة المؤلفين من عيوبهم.. والسيدة "**دوديفان**"، والآنسة "**دي ليسبيناس**"، اللتان كانتا على صلة وثيقة بـ"**فولتير**"، وعلى صداقة حميمة بـ"**دالمبير**"، الذي انتهت ثانيتهما إلى الإقامة معه.. بكل شرف وصلاح طبعا، فيجب الا يؤول هذا على أي محمل آخر!.. ولقد بدأت بشعور قوي نحو السيدة "**دوديفان**"، التي أثار ضياع بصرها إشفاقي. ولكن منهجها في المعيشة كان يناقض منهجي تماما، حتى إن ساعة استيقاظ أحدنا من النوم، كانت هي ساعة هجوع الآخر تقريبا.. وكان شغفها الجامح بالطرائف الفكرية البسيطة، والأهمية التي كانت تضفيها -سواء بالحق أو بالباطل- على كل خلاف كان يظهر، والعنف الغاشم الذي كانت تطلق به تعليقاتها في لهجة خطابية، ومغالاتها في التعصب لكل شيء، أو ضد كل شيء -مما لم يكن يسمح لها بأن تتكلم في موضوع إلا بانفعال- وتحيزها الذي كان يفوق المعقول، وعنادها الذي لا يلين، وتحمسها غير الحكيم الذي كان يحملها عليه التعنت لآرائها المستوحاة من العاطفة.. كل هذه لم تلبث أن حولتني عن الاهتمام الذي كنت على استعداد لأن أوليها إياه!.. فأهملتها. ولقد لاحظت ذلك، فكان هذا كافيا لأن يثير سخطها، ومع أنني شعرت بمدى ما ينبغي أن يخشاه المرء من امرأة لها هذه الشخصية، إلا أنني كنت أوثر أن أعرض نفسي لسعار حقدها، على أن أعرضها لودها!

وكأنما لم يكف أن يكون لي أصدقاء قليلون في حاشية السيدة "**دي لوكسمبورج**"، فإذا لي أعداء في أسرتها.. ومع أن هؤلاء الأعداء انحصروا في واحد، إلا أنه كان -في الموقف الذي أصبحت أجد نفسي فيه- يعادل مائة. ومن المحقق أن هذا الشخص لم يكن أخاها، السيد الدوق "**دي فليروي**"، الذي لم يكتف بأن زارني في داري، بل دعاني عدة مرات إلى ضيعة "**فيلروي**".. ولما كنت قد أجبت دعوته بكل احترام وأدب، فإنه أخذ هذا الجواب على محمل القبول، ودبر مع السيد والسيدة "**دي لوكسمبورج**" رحلة تستغرق حوالي خمسة عشر يوما، كان علي أن أرافقهم فيها. وكانت التدابير التي تتطلبها صحتي، لا تسمح لي بأن أنتقل من داري دون ما تعرض للضرر، فرجوت السيد "**دي لوكسمبورج**" بأن يتكرم بالاعتذار عني. ويرى من جوابه "الملف "**د**"- رقم ٣" أنه أدى

---

(١) قصة "جيل بلا" من أكمل المؤلفات الخلقية، وقد وضعها "لوساج" في سنة ١٧١٥، وجعل بطلها يعيش مثالا للأخلاق، برغم ما كانت الحياة تطوح به إليه من أحداث. والحادث الذي أشار إليه "روسو"، دار بين "جيل بلا" و"أسقف غرناطة"، وقد رسم فيه "لوساج" صورة رائعة للكتاب الذين يتظاهرون بالتحمس الشديد للحقيقة، ولكنهم لا يفون لها فيما بينهم وبين أنفسهم!

ذلك أبدع أداء ممكن، ولم يبد لي السيد الدوق "**دي فيلروي**" عطفا يقل عما عهدت منه. ولكن ابن أخيه، ووريثه -المركيز "**دي فيلروي**" الشاب- لم يشاطر ما شرفني به من عواطف كريمة.. وأعترف أنني -بدوري- لم أوله ما كنت أولي عمه من احترام. وكانت مظاهره المتعجرفة الفاسدة تجعله -في نظري- لا يطاق فإذا فتوري نحوه لا يجلب علي سوى بغضائه.

وفي ذات مساء، ذهب إلى درجة أن سبني على المائدة، فأسأت تلقي الإهانة، لأنني غبي، ولست حاضر البديهة، بل إن الغضب يسلبني القدر الذي أوتيته من الذكاء، بدلا من أن يرهفه ويشحذه. وكان لدي كلب تلقيته هدية -وهو بعد صغير- عقب وصولي إلى "**ليرميتاج**" مباشرة، وأطلقت عليه اسم "**دوق**". ومع أن هذا الكلب لم يكن جميلا، إلا أنه كان من سلالة نادرة، وقد جعلته صديقي وصاحبي، وكان -يقينا- أكثر استحقاقا لهذا الوصف من معظم أولئك الذين استحلوه لأنفسهم، فلم يلبث أن غدا محبوبا في قصر "**مونمورنسي**" بفضل طبيعته اللطيفة المستملحة، وبفضل تعلق كل منا بالآخر، بيد أنني في لحظة من لحظات الضعف الأحمق، غيرت اسمه إلى "**تركي**"، وكأنما لم تكن هناك مئات من الكلاب تدعى "**مركيز**"، دون أن يشعر أي "مركيز" بإهانة في ذلك. ولقد راح المركيز "**دي فيلروي**" -الذي علم بهذا التغيير في الاسم- يلح علي، حتى اضطرني إلى أن أروي ما فعلت، في حضور القوم.. ولم تكن الإهانة التي نشأت عن اسم "**دوق**" -في القصة- ممثلة في إطلاقه على كلب، وإنما في أنني لم ألبث أن حرمته منه. وكان أسوأ ما في الأمر، هو أن كثيرا من الأدواق(١) كانوا حضورا، وكان السيد "**دي لوكسمبورج**" دوقا، وكذلك كان ابنه. وكان المركيز "**دي فيلروي**" مرشحا لأن يصبح دوقا -وإنه لكذلك الآن- فراح يلهو في قسوة بالحرج الذي دفعني إليه، وبالأثر الذي أحدثه. ولقد تأكدت -في اليوم التالي- بأن عمته قد أنبته في عنف على ذلك. ومن الممكن تصور مدى ما كان هذا التقريع كفيلا بأن يصلح علاقاتي به كثيرا، لو أننا افترضناه صادقا!

ولم يكن لي من مدافع ضد هذا كله -سواء في قصر "**لوكسمبورج**" أو في القلعة- سوى الشيفالييه "**دي لورنزي**". الذي كان يجاهر بأنه صديقي. ولكنه كان مايزال صديقا لـ"دالمبير"، أكثر مما كان لي، فقد راح -تحت رعايته- يلقى حظوة لدى النساء، بزعم أنه عالم هندسي كبير. وكان إلى جانب ذلك، المدلل صاحب الحظوة -أو بالأحرى القط الوادع- للسيدة الكونتة "**دي بوفليير**" التي كانت هي الأخرى صديقة حميمة لـ"**دالمبير**".. فما كان للشيفالييه "**دي لورنزي**" من وجود ولا كان بوسعه أن يفكر، إلا بقربها. وهكذا كان كل من يتصلون بالسيدة "**دي لوكسمبورج**" يبدون وكأنهم يعملون معا على إيذائي في رأيها، في الوقت الذي كنت فيه بعيدا عن أن أجد مقاومة خارجية تصلح من نزقي، وتستبقي لي رضاء السيدة. ومع ذلك فإنها -إلى جانب تكرمها بأن تتعهد كتاب "**إميل**"- أبدت لي دليلا جديدا على كرمها وعطفها، مما حملني على أن أعتقد بأنها كانت ماتزال تحتفظ لي -بل وستظل دائما تحتفظ لي- بالصداقة التي كثيرا ما وعدتني بأن تؤثرني بها إلى نهاية عمري، حتى وإن كانت قد بدأت تسأمني!

وما إن خطر لي أن بوسعي أن أطمئن إلى هذا الشعور من ناحيتها، حتى شرعت أسري عن فؤادي، بأن أعترف لها بكل أخطائي نحوها. إذ كان مبدئي الوطيد، يحملني على أن أبين نفسي لأصدقائي على حقيقتها، لا أسوأ ولا أطيب. فاطلعتها على علاقاتي بـ"**تيريز**"، وبنتائجها جميعا، دون أن أغفل الطريقة التي تخلصت بها من أطفالي. وتلقت اعترافاتي في تلطف، بل في تلطف بالغ،

---

(١) يفضل المترجم أن يجمع "دوق" على "أدواق"، تمييزا له عن "دوقات"، وهي جمع "دوقة".

وأعفتني من اللوم الذي كنت أستحقه.. وكان أكثر ما أثر في نفسي -بوجه خاص- ذلك الكرم الذي أغدقته على "**تيريز**"، فكانت تمنحها هدايا صغيرة، وتستدعيها، وتشجعها على أن تزورها، وتتلقاها بكثير من الحنان واللطف.. وكثيرا ما كانت تقبلها أمام الجميع. ولقد استخف الفتاة المسكينة الفرح والعرفان اللذان كنت أشاطرها إياهما يقينا.. بل إن الكرم الذي كان السيد والسيدة دي "**لوكسمبورج**" يغمراني به خلالها، أكثر تأثيرا في نفسي من ذلك الذي كانا يظهرانه نحوي مباشرة.

*****

ظلت الأمور على هذا الوضع فترة طويلة، ولكن السيدة "المارشالة" لم تلبث -في النهاية- أن أمعنت في تفضلها، فاعربت عن رغبتها في أن تسترد أطفالي وتكفلهم(١). وكانت قد عرفت أنني قد وضعت رمزا في ثياب الطفل الأكبر، فسألتني النسخة الثانية لهذا الرمز، فقدمتها إليها. واستخدمت في هذا البحث وصيفها الخاص وموضع ثقتها "**لاروش**"، الذي قام بتحريات لم تؤد إلى طائل، فلم يتمكن من العثور على شيء، بالرغم من أنه لم يكن قد انقضى على إيداع الطفل أكثر من اثنتي عشرة أو أربع عشرة سنة، ولو أن سجلات ملجأ اللقطاء كانت منظمة، أو لو أن التحريات كانت دقيقة، لما عز العثور على الرمز. ومهما يكن من الأمر، فإنني كنت أقل استياء لهذا الفشل، مما كان ينبغي علي لو أنني كنت قد تتبعت آثار الطفل منذ مولده. ولو أن طفلا قدم إلي -على هدي البيانات التي قدمتها- على أنه ابني، لكان الشك فيما إذا كان هو ابني حقا، أو أنه أبدل بطفل آخر، خليقا بأن يبعث هواجس تضني فؤادي، ولما نعمت بالإحساس الطبيعي الصادق، في أكمل آيات سحره.. فلابد -لاستبقاء هذا الشعور وسحره- من توفر الألفة والاعتياد منذ مولد الطفل، على الأقل، ولكن البعاد الطويل لطفل لم يعرفه المرء بعد، يوهن شعور الأبوة والأمومة، ولا يلبث أن يقضي عليه تماما في النهاية. فلا سبيل هناك ألبتة إلى أن يحظى طفل كفلته مربية، بحب يضارع ما يحظى به طفل نشأ تحت بصر المرء.. وقد يخفف هذا الخاطر من التبعات التي ترتبت على أخطائي، ولكنه يضاعف من وطأة أصلها ومنبعها!

وقد يكون من المفيد أن نلاحظ أن "**لاروش**" هذا، بالذات، قد تعرف -عن طريق "**تيريز**"- بالسيدة "**لوفاسير**"، التي ظل "**جريم**" يكفلها في "**دويي**"، على مقربة من "**لاشيفريت**"، وعلى مسافة جد قصيرة من "**مونمورنسي**". فلما غادرت هذه المنطقة، استعنت بـ"**لاروش**" في مواصلة إرسال النقود التي لم أكف يوما عن إمدادها بها. وأعتقد أنه كثيرا ما كان يحمل إليها هدايا من السيدة "**المارشالة**"، ومن ثم فإنها لم تكن تستحق أي عطف أو رثاء، برغم أنها ظلت دائمة الشكوى. أما "**جريم**"، فإنني طبعت على ألا أحب الكلام عمن أرى أن من واجبي أن أكرههم، ومن ثم فإنني لم أتحدث عنه إطلاقا إلى السيدة دي "**لوكسمبورج**"، اللهم إلا في الحالات التي كنت أضطر فيها إلى ذلك اضطرارا. على أنها ذكرت اسمه مرارا، دون أن تنبئني بما كان من رأيها فيه، بل ودون أن تدعني أستشف ما إذا كان هذا الرجل من معارفها، أو لم يكن. ولما كان التحفظ من أولئك الذين أحبهم، أو الذين درجوا على الصراحة التامة معي، أمرا لا يلائم مزاجي -لا سيما حين يكون في أمور تخصهم- لذلك فإنني كثيرا ما فكرت، منذ ذلك الحين، في أمر هذا التحفظ الذي أبدته السيدة لي.. على أن هذا التفكير لم يكن يراودني، إلا عندما تجعله الأحداث أمرا طبيعيا!

---

(١) كان "روسو" قد أنجب خمسة من "تيريز" سفاحا: وأودعهم مع اللقطاء.

وإذ مكثت فترة طويلة، دون أن أسمع أي حديث عن "**إميل**" -بعد أن وكلت أمر الكتاب إلى السيدة دي "**لوكسمبورج**"- علمت في النهاية، أن الصفقة قد أبرمت في "**باريس**"، مع الناشر "**دوشين**"، ثم أبرمت بوساطته مع "**نياولم**" في "**امستردام**". وقد أرسلت السيدة دي"**لوكسمبورج**" إلي نسختي العقدين -مع "**دوشين**"- كي أوقعهما. وتبينت أنهما كتبتا بنفس الخط الذي كانت تكتب به رسائل السيد دي "**ماليزيرب**"، إذ إنه لم يكن يكتبها بيده.

وحملني تأكدي من أن الاتفاق قد عقد تحت بصر هذا السيد وبموافقته، إلى أن أوقع وأنا مطمئن. وإذ ذاك أعطاني "**دوشين**" عن نسخته من المخطوطات ستة آلاف فرنك -هي نصف الحساب- ومائة أو مائتي نسخة من الكتاب المطبوع، على ما أظن. وما إن وقعت نسختي العقد حتى أرسلتهما إلى السيدة دي "**لوكسمبورج**" -وفقا لرغبتها- فاعطت إحداهما إلى "**دوشين**"، واستبقت الأخرى، بدلا من أن ترسلها لي، فلم أرها بعد ذلك!

ومع أن تعرفي إلى السيد والسيدة دي"**لوكسمبورج**" أدخل شيئا من التعديل على شروعي في الاعتزال، إلا أنه لم يصرفني تماما عن هذه الخطة، بل إنني ظللت أشعر -حتى في أوج حظوتي لدى السيدة "**المارشالة**"- بأنني ما كنت لأحتمل، أو أطيق الأشخاص المحيطين بالسيد "**المارشال**" وبها، لولا صدق تعلقي بهما. وكانت كل حيرتي تتمثل في محاولة التوفيق بين هذا التعلق وبين، نوع الحياة الأكثر ملاءمة لذوقي وأقل إيذاء لصحتي. فقد كان الإرهاق المستمر، والعشاء المتأخر يجعلان صحتي غير مستقرة على حال، برغم كل العناية التي كانت تبذل لتجنب تعريضي لأي ضرر. إذ كان السيد "**المارشال**" وزوجته يبديان كل اهتمام بهذه الناحية، شأنهما بأية ناحية أخرى. ففي كل مساء -مثلا- لم يكن السيد "**المارشال**" ليغفل أن يصحبني بعد العشاء، شئت أو لم أشأ، لأحذو حذوه في الإيواء إلى الفراش مبكرا. ولم يكف عن ذلك إلا قبيل نكبتي بأمد وجيز، ولسبب لم أدر به!

بل إنني قبل أن ألمح فتور السيدة "**المارشالة**"، رغبت في أن أحقق مشروعي القديم، حتى لا أعرض نفسي لهذا الفتور، ولكن الوسائل أعوزتني لهذا التحقيق، فكنت مضطرا إلى أن أنتظر حتى يتم إبرام الاتفاق الخاص بكتاب "**إميل**".. وفي خلال هذا الانتظار، وضعت الخطوط الأخيرة في كتاب "العقد الاجتماعي"، ثم أرسلته إلى "**ريي**"، محددا ثمن المخطوط بألف فرنك، فأعطاني هذا المبلغ. وربما كان من المستحسن ألا أغفل هنا واقعة صغيرة تتعلق بالمخطوط المذكور. فلقد أرسلته في غلاف محكم الأختام إلى "**ديفوازان**"، وكان كاهنا من بلاد "**الفود**"(١)، وقسا تابعا لسفارة "هولندا"، وقد اعتاد أن يفد أحيانا لزيارتي. فتكفل بحمل المخطوط إلى "**ريي**" الذي كان على اتصال به. ولقد كان المخطوط مكتوبا بخط جد رفيع ودقيق، فكان من الصغر بحيث إنه لم يملأ جيبه. ومع ذلك، فقد حدث -بينما كان يجتاز الحدود- أن وقعت الحزمة، بطريقة لا أدريها، في أيدي موظفي الجمارك، الذين فضوها وفحصوها، ثم ردوها إليه في الحال، عندما طالب بها باسم السفير. وقد أتاح له هذا الحادث فرصة الاطلاع على المخطوط، كما أنباني في سذاجة!.. ولقد أطنب -في الوقت ذاته- في إطراء المؤلف، دون ما كلمة لوم أو انتقاد، محتفظا لنفسه -بلا ريب- بحق القيام بدور المنتقم للمسيحية عندما قدر للكتاب أن يظهر!.. ولقد استخلص المخطوط وأرسله إلى "**ريي**". هذه -في الواقع- هي القصة التي أوردها في الرسالة التي أنباني فيها بالأمر، وهذا كل ما قدر لي أن أعرفه عن الواقعة.

وإلى جانب هذين الكتابين -"**إميل**" و"**العقد الاجتماعي**"، -وكذلك "**الموسوعة الموسيقية**"

---

(١) بلاد "الفود": المقاطعات السويسرية التي يتكلم أهلها الفرنسية.

التي كنت أعمل فيها من وقت إلى آخر، كانت لدي مؤلفات أخرى أقل أهمية، وكلها معدة للنشر، فاعتزمت أن أنشرها متفرقة، أو مع مجموعة عامة تشمل مؤلفاتي، إذا قدر لي أن أصدر واحدة. وكان أهم هذه المؤلفات- التي لايزال أغلبها مخطوطات كتبها "**روبييرو**" - "**رسالة في منشأ اللغات**"، كنت قد قرأتها على السيد "**دي ماليزيرب**" و"**الشيفالييه**" "**لورنزي**" الذي استحسنها. ولقد حسبت ما تدره علي هذه المؤلفات جميعا -بعد تغطية كافة النفقات- بما بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف من الفرنكات، على الأقل.. وهو مبلغ قررت أن أستثمره ليدر ريعا مدى الحياة، لصالحي ولصالح "**تيريز**". على أن نذهب بعد ذلك -كما ذكرت لها- لنقيم معا في أعماق أحد الأقاليم الريفية، حيث لا أزعج الرأي العام بنفسي، ولا أشغل نفسي بشيء اللهم إلا أن أختم أيامي في سلام، مواصلا عمل الخير قدر وسعي، في الوسط المحيط بي.. ومستأنفا كتابة الذكريات التي كنت أفكر فيها، على مهل!

هكذا كان المشروع الذي يسر لي تحقيقه كرم "**ريي**".. هذا الكرم الذي ينبغي ألا أمر به مر الصامتين. فإن هذا الناشر، الذي سمعت عنه الكثير من السوء، في "**باريس**"، كان الوحيد -بين كل أولئك الذين كانت لي بهم علاقات- الذي كنت أجد منه ما يرضيني دائما(١). ومن المحقق أننا كنا نختلف أحيانا بشأن نشر كتبي، إذ إنه كان متلكئا، بينما كنت أنا متعجلا. ولكنني كنت أجده جد أمين، ودقيق في المسائل المادية والإجراءات التي تتعلق بها، بالرغم من أنني لم أعقد معه قط اتفاقا رسميا. وهو -كذلك- الوحيد الذي أقر صراحة بأنه أفاد من معاملاته معي، وكثيرا، ما أنبأني بأنه مدين لي بثروته، وعرض علي أن يشركني فيها. ولما كان عاجزا عن أن يطلعني مباشرة على عرفانه، فقد رغب في أن يشهدني عليه بما يبديه لخليلتي، فرصد لها معاشا سنويا قدره ثلاثمائة فرنك مدى حياتها، وأثبت في عقد التسجيل أن هذا المبلغ كان عرفانا منه بالفوائد التي أتحتها له. لقد سوى هذه المسألة معي في غير ضجة، ولا إعلان، ولا من، ولو لم أكن أنا أول من تحدث عنها إلى الناس أجمعين، لما علم أحد عنها شيئا!.. فلقد تأثرت بهذا الإجراء، إلى درجة أنني منذ ذاك الحين أصبحت مرتبطا بـ"**ريي**" بود صادق. ولقد رغب -بعد ذلك بوقت وجيز- في أن أكون أبا روحيا -"**أشبينا**"- لأحد أطفاله، فوافقت. وكان من دواعي أساي، أنني -في الحال التي انحدرت إليها- كنت محروما من كل فرصة تمكنني من أن أجعل وفائي ذا نفع لابنتي الروحية ولأهلها. ترى كيف تسنى لي -وأنا الممتن إلى هذه الدرجة لما أبداه هذا الناشر من كرم متواضع- أن أكون أقل امتنانا للعواطف الصارخة، التي كان كثير من علية القوم يبدونها وهم يملئون الكون بالطنطنة بالخير الذي يقولون: إنهم رغبوا في إسدائه إلي، والذي لم أشعر به البتة؟.. أفكان الذنب في ذلك ذنبهم، أم تراه كان ذنبي؟.. أفكان الأمر مجرد زهو باطل منهم، أم أنه كان جحودا مني؟.. ألا زن الأمر -أيها القارئ العاقل- واحكم.. أما أنا، فسوف ألوذ بالصمت!

ولقد كان هذا المعاش موردا كبيرا لـ"**تيريز**"، وعزاء عظيما لي. وفيما عدا هذا العزاء، كنت أبعد من أن أطمع في أن أحصل منه -ولا من جميع الهدايا التي كانت تقدم إليها- أي نفع مباشر لي شخصيا. فكانت هي المتصرفة الوحيدة في الجميع، على الدوام، وعندما كنت أحتفظ لها بمالها، كنت أقدم لها عنه حسابا أمينا، دون أن أضع فلسا واحدا منه في نفقاتنا المشتركة، حتى عندما يقدر لها أن تكون أكثر مني ثروة. وكنت أقول لها: "إن مالي لنا معا، أما مالك فإنه لك وحدك!". وما

---

(١) عقب "روسو" على هذا بقوله: "عندما كتبت هذا، كنت بعيدا عن أن أتصوره، أو أتبين أو أحدس أعمال الغش التي اكتشفت -فيما بعد- حدوثها في طبع مؤلفاتي والتي اضطر إلى الاعتراف بها".

كففت قط عن أن أتبع معها هذا المبدأ الذي كثيرا ما كنت أردده على مسمعها. أما أولئك الذين أوتوا من الخسة ما أباح لهم أن يتهموني بأنني كنت أتقبل بيديها، ما كنت أرفضه بيدي، فليسوا يحكمون على قلبي إلا بما كانت عليه قلوبهم -دون شك- وإنهم ليسيؤون فهمي كل الإساءة. ولقد كنت على استعداد لأن أشاطرها -عن طيب نفس- الخبز الذي تكسبه بعرقها، ولكني ما كنت قط لأشاطرها ما تتلقاه إحسانا!.. وإنني لألجأ إلى شهادتها في هذه المسألة، سواء الآن أم فيما بعد، عندما يقدر لها أن تعيش بعدي، وفقا لسنن الطبيعة! على أنها -لسوء الحظ- قليلة الإلمام بالشؤون الاقتصادية، من كافة الاعتبارات، قليلة الحرص على المال، مسرفة.. لا عن غرور أو نهم، وإنما عن إهمال فذ، عجيب!.. وليس في هذه الدنيا من أوتي الكمال، فإذا لم يكن ثمة بد من أن يكون لصفاتها الرائعة، ما يقابلها في كفة التناقض، فإنني أوثر أن تكون لها عيوب، على أن تكون لها رذائل.. وإن كانت هذه العيوب أكثر إساءة إلينا معا من الرذائل، في بعض الأحيان!.. إن الجهود التي بذلتها من أجلها -كما فعلت من قبل، من أجل "**ماما**" -كي أجمع لها بعض المدخرات التي تصبح يوما موردا لعيشها، تفوق كل تصور.. بيد أنها كانت دائما جهودا مضيعة. فإن أيا منهما -سواء هي أو "**ماما**"- لم تحاول يوما أن تعمل لمصلحتها، فكان كل شيء لا يلبث -برغم كل جهودي- أن يضيع بمجرد أن يأتي!.. ومع البساطة التي كانت "**تيريز**" تنتهجها، فإن المعاش الذي رصده لها "**ريي**" لم يكن قط كافيا لحاجاتها، كما أنني لم أكن أستبقي شيئا من دخلي في كل عام. فكلانا لم يخلق ليصبح غنيا، في أي يوم من الأيام، ولست أعتبر هذا من مساوئ حظنا، إطلاقا!

*****

وطبع "**العقد الاجتماعي**" دون ما كثير إرجاء، فكان على النقيض من "**إميل**" الذي كنت مضطرا إلى انتظار نشره، قبل أن أنفذ مشروع اعتكافي. وكان "**دوشين**" يبعث إلي -من وقت إلى آخر- بنماذج من الحروف لأختار منها.. وكلما اخترت، أرسل لي نماذج أخرى غيرها، بدلا من أن يشرع في الطبع، فلما استقر رأينا في النهاية على الشكل وحجم الحروف، وبعد أن أرسل لي عدة صفحات مطبوعة، أدخلت عليها بعض تعديلات طفيفة، أعاد الطبع من جديد.. فوجدنا أننا -بعد ستة أشهر- أقل تقدما مما كنا في أول يوم. وبينما كانت هذه التجارب تجري، اكتشفت أن الكتاب كان يطبع في "**فرنسا**"، كما كان يطبع في "**هولندا**"، طبعتين مستقلتين!.. فما الذي كنت أملك أن أفعله؟.. إنني لم أعد مالك مخطوط كتابي. وكنت بعيدا كل البعد عن أن تكون لي أية يد في الطبعة الفرنسية، بل إنني كنت دائما أعارض في إصدارها، ولكن.. لما كان طبعها جاريا على قدم وساق، بالرغم مني، وما دام من الممكن استخدامها كمثال للطبعة الأخرى، فإنني وجدت من المستحسن أن ألقي نظرة على التجارب "**البروفات**"، حتى لا يحرف كتابي أو يشوه. ثم إن المؤلف كان يطبع بموافقة تامة من رقيب المطبوعات، فهو الذي كان يوجه المشروع -بطريقة ما- وكثيرا ما كتب إلي، بل إنه جاء لزيارتي بصددها في مناسبة معينة، سأتكلم عنها حالا!

وبينما كان "**دوشين**" يتقدم بخطى سلحفائية، كان "**نياولم**" -الذي تعمد أن يعوقه- يتقدم بخطى أكثر بطئا، إذ إن الصفحات لم تكن ترسل إليه بالانتظام الذي كانت تطبع به. وقد خامره الظن في أنه لاحظ سوء نية من جانب "**دوشين**"، أعني "**دي جاي**" الذي كان يمثله. وإذ رأى أن الاتفاق لم يكن ينفذ، كتب إلي خطابات إثر خطابات، مليئة بالشكايات والتظلمات، التي كنت أقل مقدرة

على علاجها مني على علاج المشكلات التي كانت تتعلق بمصلحتي. ولقد كان صديقه "**جيران**" -الذي يكثر جدا من زياراتي في ذلك الحين- لا يفتأ يتحدث إلي عن هذا الكتاب، ولكن في كثير من التحفظ المسرف.. كان يعرف، ولا يعرف، أن الكتاب كان يطبع في "**فرنسا**".. وكان يعرف، ولا يعرف، أن الرقيب كان مهتما به بنفسه.. وكان يشفق علي من الحرج الذي سببه لي هذا الكتاب، بينما كان -في الوقت ذاته- يتهمني بالخرق، دون أن ينبئني قط بما هناك من خرق.. وكان يراوغ ويداور ويماري دون انقطاع.. كان يبدو وكأنه يتكلم ليستدرجني إلى الكلام. وكانت طمأنينتي -خلال تلك الفترة- مكتملة إلى درجة أنني كنت أضحك من اللهجة المتحفظة والغامضة التي كان ينتهجها في هذه المسألة، واعتبرها عادة نشأت عنده من الاتصال المستمر بالإدارات الوزارية والقضائية. وكنت متأكدا من أن كل الاعتبارات الخاصة بهذا الكتاب كانت كما ينبغي لها أن تكون، ومقتنعا كل الاقتناع بأن الكتاب لم يحز رضاء ورعاية الرقيب فحسب، وإنما كان يستحق رضاء الوزير نفسه، وقد ظفر به، ومن ثم فقد رحت أهنئ نفسي على حسن تصرفي، وأضحك من ضعف قلوب أصدقائي، الذين كانوا يبدون القلق من أجلي. ولقد كان "**ديكلو**" من هؤلاء القلقين، وأعترف أن ثقتي باستقامته وحصافته كانت خليقة بأن تنذرني بالخطر، لو أنني كنت أقل اطمئنانا إلى فائدة مؤلفي، وإلى شرف من كانوا يرعونه. وقد زارني، موفدا من السيد "**بـاي**"، أثناء طبع "**إميل**"، فحدثني عنه. وقرأت عليه إعلان أسقف "**سافوا**" لإيمانه، فانصت في إعجاب بالغ، وفي اغتباط عظيم، على مالاح لي. فلما فرغت من القراءة، قال لي: "عجبا، أيها المواطن!.. أفهذا جزء من كتاب يطبع في "**باريس**"؟". فقلت له: "أجل.. وقد تقرر طبعه في "**اللوفر**" بامر من الملك". فقال لي: "إنني مقتنع بذلك، ولكن.. هل لك في أن ترضيني بالا تذكر لأي امرئ أنك قرأت علي هذا الجزء؟!".. وكان هذا الأسلوب الشاذ في التعبير عما بنفسه، خليقا بأن يدهشني، ولكنه لم يرهبني. فقد كنت اعرف أن "**ديكلو**" كان كثير الالتقاء بالسيد "**دي ماليزيرب**"، ومن ثم فقد شق علي أن أدرك كيف كان رأيه يختلف كثيرا عن رأي ذاك السيد، في موضوع واحد.

✽✽✽✽✽

ولقد أقمت في "**مونمورنسي**" فوق أربع سنوات، دون أن أستمتع بصحة طيبة ليوم واحد. فبالرغم من أن الهواء كان بديعا، إلا أن المياه كانت رديئة، ومن المحتمل كل الاحتمال أن يكون هذا من الأسباب التي ساهمت في استفحال عللي المعهودة. وفي أواخر خريف سنة ١٧٦١، سقطت مريضا، وقضيت الشتاء كله في أوجاع لم تكن تهن تقريبا. وكان سقمي البدني يزداد وطأة بألف هم وقلق، مما يضاعف إحساسي به وتوجعي له. فلقد ظللت تراودني -فترة من الزمن- وساوس خفية، كئيبة، لم أكن أدري لها مأتى. وكنت أتلقى رسائل جد عجيبة، خالية مما ينم عن مرسليها.. بل ورسائل كانت تحمل توقيعات كاتبيها، ولا تقل عنها غرابة. وكانت منها رسالة من مستشار بالبرلمان، في "**باريس**"، لم يكن راضيا عن الوضع الراهن، ولا مطمئنا إلى نتائجه، فشاء أن يستشيرني في أن اختار ملاذا في "**جنيف**" أو في "**سويسرا**" يستطيع أن ياوي إليه مع أسرته.. ورسالة أخرى من السيد دي "..."، رئيس الدورة النيابية في برلمان "..." الذي سألني أن أوجه مذكرة أستنهض بها أعضاء هذا البرلمان، الذي كان -في ذلك الوقت- على غير وئام مع البلاط الملكي وعرض -في الوقت ذاته- أن يمدني بكل الوثائق والمواد التي أحتاج إليها في هذا الصدد.

وعندما أكون معذبا بالألم، أغدو فريسة سهلة للانفعال. وهذا ما حدث عندما تسلمت هذه الخطابات، وقد أظهرت حالي في إجاباتي، إذ رفضت فيها رفضا باتا أن أفعل ما سئلته، ويقينا أنني لا ألوم نفسي على هذا الرفض، إذ كان من المحتمل أن هذه الخطابات فخاخ أعدها أعدائي(١)، وقد كان ما سئلته مخالفا للمبادئ التي كنت ماأزال أقل ميلا إلى التحول عنها، مني في أي وقت آخر. ولكني رفضت بفظاظة، في حين أنني كنت أملك أن أرفض في أدب. وقد كنت في هذا مخطئا.

ولسوف توجد الرسالتان اللتان ذكرتهما، بين أوراقي. ولم يدهشني خطاب المستشار البتة، لأنني كنت أرى –مثله ومثل كثيرين غيره– أن تداعي الدستور كان ينذر "**فرنسا**" بخراب قريب. كانت الخسائر التي خلفتها حرب منكودة، ترتبت بأسرها على خطأ من الحكومة(٢).. وكان الارتباك المالي الذي يجل على التصور.. والخلافات المستمرة في الهيئة التنفيذية التي كانت موزعة –حتى ذلك الحين– بين وزيرين أو ثلاثة، كل منهم في حرب مكشوفة مع الآخر، وثلاثتهم يسعون إلى توريط المملكة في مآزق، ليكيد كل منهم للآخر (٣).. والتذمر العام الذي ساد الشعب وكافة طبقات الدولة.. وتشبث امرأة عنيدة، درجت دائما على أن تضحي بمواهبها الذهنية –إذا كانت قد أوتيت مواهب ما– في سبيل ميولها ونزواتها، وكانت دائما ما تقصي القادرين عن مناصب الدولة، لكي تملأها بالمقربين إليها.. كانت كل هذه العوامل، تساهم في تبرير مخاوف المستشار، والجمهور، وأنا!

ولقد حملتني هذه الوساوس مرارا على أن أتساءل، عما إذا كان من الجدير بي أن أبحث أنا الآخر عن ملجأ لي خارج المملكة، قبل قيام الاضطرابات التي كان يبدو أنها تتهددها، ولكنني كنت –اطمئنانا إلى تفاهة شأني، وإلى مسلكي الوادع– أعتقد أن شيئا من العاصفة ما كان ليقوى على أن يصل إلي، في العزلة التي اعتزمت أن أعيش فيها. ولم يكن يحزنني سوى أن السيد "**دي لوكسمبورج**"، انصرف –في هذه الظروف– إلى الاضطلاع بمهام كانت خليقة بألا تجعله موضع رضا من حكومته ذاتها. وكنت أود لو أنه أعد لنفسه –في مثل هذه الحال– مخرجا، وتأهب لكل الطوارئ، إذا ما قدر للجهاز الضخم أن يتهدم.. الأمر الذي كان ثمة ما يبرر الخوف من حدوثه، تحت الظروف القائمة، وما يزال يبدو لي –في الوقت الحاضر– أنه لا مجال للشك في أنه لو لم تقع جميع أزمّة الحكم –في النهاية– في يد واحدة(٤)، لكانت الملكية الفرنسية الآن في النزع الأخير!

وبينما كانت حالي تزداد سوءا، أخذ طبع "**إميل**" يزداد بطئا، ثم أوقف تماما، في النهاية، دون أن أتمكن من معرفة السبب، ودون أن يتنازل "**دي جاي**" فيكتب لي، أو يرد على رسائلي. ولم أستطع أن أحصل على أنباء من أحد، ولا عرفت شيئا مما كان يجري، إذ إن السيد "**دي ماليزيرب**" كان في الريف، في تلك الآونة. وما قدر لأية محنة –مهما تكن– أن تزعجني أو أن تربكني ما دمت أعرف كنهها ومبناها، ولكنني فطرت على التخوف من الظلمات، فأنا أكره وأرهب مظهرها الأسود.. إن الغموض يقلقني دائما، فهو شديد التناقض مع طبيعتي، التي تتسم بصراحة تكاد تبلغ التهور ومجافاة الحكمة. إن مرأى أفظع الهوام لا يفزعني إلا قليلا –فيما أحسب– ولكنني أذعر إذا ما لمحت في الليل شبحا تحت كساء أبيض!.. ومن ثم فقد شغل خيالي –إذ أذكاه هذا الصمت الطويل –برسم أشباح مرعبة لي. وكنت كلما تحمست لنشر آخر مؤلفاتي وأفضلها، وأمعنت في إضناء نفسي بحثا عما قد يكون السبب في تأخره. ولما كنت أمعن في التطرف –في كل شيء– فقد خيل إلي أنني ألمح

---

(١) أضاف "روسو" إلى هذا: "كنت أعرف –على سبيل المثال– أن رئيس برلمان "..". كان وثيق الصلة بجماعة دائرة المعارف، وبعصبة دولباخ".

(٢) حرب السنوات السبع.(٣) كان وزير المالية ووزير الحربية في صراع مستمر، على نسق الصراع الذي كان دائرا بين البرلمان ورجال الدين.. وكان البلاط الملكي ذاته منقسما إلى فريقين، أحدهما يتزعمه دوق "ديجيون"، ويلتف حول ولي العهد، والآخر يتزعمه الكونت "دي ستانفيي" الذي أصبح دوق "شوازيل"– ويلتف حول محظية الملك، مدام "دي بومبادور"! (٤) الدوق دي شوازيل.

وراء إيقاف طبع الكتاب، بوادر مصادرته!

على أنني لعجزي عن تصور السبب أو الطريقة، لهذه المصادرة، ظللت في أقسى ألوان الشك في الدنيا. ورحت أكتب الخطابات إثر الخطابات، إلى "**جاي**"، وإلى السيد "**دي ماليزيرب**"، وإلى السيدة "**دي لوكسمبورج**" دون أن تصلني الإجابات قط، أو أنها لم تكن تفد في الأوقات التي كنت أتوقعها، فاشتد اضطرابي، حتى لقد رحت أهذي. وسمعت -لسوء الحظ- في تلك الآونة، أن الأب "**جريفيه**" -وكان من الجيزويت- قد تحدث عن "**إميل**"، بل وسرد فقرات منه، فإذا خيالي يفض -كالبرق الخاطف- هذا الغموض المحير بأسره. ورأيت بجلاء تام تطورات الأمور، كما لو أنها كانت قد كشفت لي.. فتمثلت أن "**الجزويت**" قد هاجتهم لهجة الازدراء، التي تحدثت بها عن مدارسهم، فاستولوا على مؤلفي، وأنهم هم الذين كانوا يعطلون نشره.. وأنهم قد علموا من صديقهم "**جيران**" بحالي الراهنة، فتوقعوا قرب موتي -الأمر الذي لم أكن، أنا نفسي، أرتاب فيه- ومن ثم فقد كانت غايتهم هي تعطيل الطبع إلى أن تحدث الوفاة، معتزمين أن يشوهوا ويحرفوا الكتاب لكي يخدم أغراضهم هم، بأن يعزوا إلي آراء تخالف آرائي تماما!

وما كان أعجب تلك الوقائع والظروف التي توافدت على عقلي، والتفت حول هذه الفكرة الحمقاء فأكسبتها مظهر الحقيقة.. بل راحت تثبت صدقها! وكنت أعرف أن "**جيران**" كان على ولاء تام للجيزويت، فعزوت إليهم كل المحاولات الودية التي عرضها علي من قبل، واقنعت نفسي بانه ما ألح علي بالاتفاق مع "**نياولم**" إلا بوازع منهم، وبأنهم ما توصلوا إلى الصفحات الأولى من مؤلفي، إلا عن طريق هذا الناشر، وأنهم لم يلبثوا أن اهتدوا إلى طريقة لحمل "**دوشين**" على أن يوقف الطباعة، ولعلهم استطاعوا أيضا أن يستولوا على الأصل الخطي للكتاب، كي يعملوا على مهل في تحريفه، حتى يطلق موتي الحرية لهم في أن ينشروا هذا الزيف وفق هواهم. ولقد كنت أشعر دائما -وبالرغم من ملق الأب "**بيرتييه**"- أن "**الجيزويت**" لم يكنوا لي شيئا من الحب، على الإطلاق، لا لاشتراكي في جماعة الموسوعة أو "القاموس المحيط" فحسب، وإنما لأن آرائي -أيضا- كانت أشد عداء لمبادئهم ونفوذهم من كفر زملائي، إذ إن من الممكن للتطرف الزندقي والتطرف الديني أن يتقاربا بفضل تعصبهما المشترك، بل إن من الممكن أن يتحدا، كما فعلا في الصين، وكما يفعلان الآن في عدائهما لي. أما العقيدة القائمة على العقل والمبادئ الخلقية، والتي تلغي كل سلطان إنساني على الضمائر، فإنها لا تدع موردا يستغله أولئك الذين يزعمون لأنفسهم هذا السلطان!

ولقد كنت أعرف -كذلك- أن السيد المستشار(١) كان صديقا حميما للـ"**جيزويت**"، فخشيت أن يكون الابن قد وجد نفسه مضطرا إلى أن يسلمهم المخطوط الذي تكفل بحمايته، تحت الشعور بالحرج أمام أبيه!.. بل لقد زين لي الوهم أن أرى أثر هذا التخلي منه عن المخطوط، في تلك التحرشات التي بدئ في توجيهها إلي، بصدد الجزءين الأولين من الكتاب، اللذين احتجزا، دون تجليد لبعض أمور تافهة.. في حين أن الجزءين الباقيين، كانا -كما هو غير مجهول- مفعمين بآراء عنيفة، مما كان يستدعي إعادة صوغهما باكملهما، إذا كان الرقيب قد انتقدهما، كما فعل بسابقيهما. ثم إنني كنت أعرف -فوق هذا، كما انبأني به السيد "**دي ماليزيرب**" نفسه- أن الراهب "**دي جراف**"، الذي وكل إليه أمر مراجعة هذه الطبعة، كان هو الآخر من أتباع "**الجيزويت**". وهكذا لم أكن أرى سوى "**الجيزويت**" في كل مكان، دون أن أفكر في أنهم كانوا على أعتاب إبادتهم، وأنهم كانوا جد منهمكين في الدفاع عن أنفسهم، فكان لديهم ما يشغلهم عن التآمر ضد طبع كتاب لم يكن لهم به

---

(١) المستشار "دي ماليزيرب"، والد رقيب المطبوعات.

أي شأن.

بل إنني لأخطئ إذ أقول: "دون أن أفكر"، فالواقع أنني فكرت جيدا، وكان هذا بالذات من الاعتراضات التي عني السيد "**دي ماليزيرب**" بأن يبديها لي، بمجرد أن فطن إلى الفكرة الواهمة التي تملكتني.

ولكنني بنزوة من تلك النزوات التي تتملك رجلا يحاول -من أعماق معزله- أن يجلو أسرار جسام الأمور، وهو لا يعرف عنها شيئا، لم أشأ قط أن أصدق أن "**الجيزويت**" كانوا في خطر، بل اعتبرت مثل هذه الشائعات بمثابة حيلة منهم، لتخدير أعصاب خصومهم.

وكانت انتصاراتهم الماضية -التي لا سبيل إلى إنكارها- توحي إلي بفكرة رهيبة عن نفوذهم، حتى إنني رحت أنعى على البرلمان هوانه إزاءهم. وكنت أعرف أن السيد "**دي شوازيل**" قد درس على أيدي "**الجيزويت**"، وأن السيدة "**دي بومبادور**" لم تكن على علاقات سيئة معهم، وأن تحالفهم مع ذوي الحظوة والوزراء، كان يعتبر دائما ذا نفع كبير لكل من الطرفين ضد عدوهما المشترك. وكان البلاط الملكي يبدو متباعدا عن الزج بنفسه في هذه الأمور.. ولما كنت مقتنعا بأن المجتمع إذا تعرض يوما لأية هزة عنيفة، فلن يكون البرلمان من القوة بحيث يحدث هذه الهزة، فقد اتخذت من هذا الإعراض عن العمل من جانب البلاط، أساسا لثقة "**الجيزويت**" واطمئنانهم إلى الفوز.

وقصارى القول: إنني لم أكن أرى في كل شائعات تلك الفترة، سوى تعمية وشباك من جانب "**الجيزويت**"، ولما كنت مؤمنا بأنهم -في موقفهم الأمين- قد أوتوا الوقت الكافي لكي يعدوا عدتهم لكل شيء، فإنني لم أكن أرتاب قط في أنهم لن يلبثوا أن يسحقوا "**اليانسيين**"، والبرلمان. وأصحاب الموسوعة، وكل من لم ينصاعوا لربقتهم... وإنهم إذا أتاحوا لكتابي أن يظهر -في النهاية- فلن يكون ذلك إلا بعد أن يحولوه إلى سلاح، وأن يستغلوا اسمي في التغرير بقرائي.

ولقد كنت أشعر بأنني موشك على الموت، ومن ثم فإنني لا أكاد أدري، كيف أن هذا التهوس لم يقض علي!.. فشد ما جزعت لفكرة أن ذكراي قد تشوه بعد موتي، في أفضل كتبي وأجدرها بالمجد!.. أبدا ما شعرت بمثل ذلك الخوف من الموت الذي تولاني إذ ذاك، وأعتقد أنه لو كان مقدرا لي أن أموت إذ ذاك، لقضيت نحبي وأنا في يأس قاتل. بل إنني اليوم، وأنا أرى أسود وأبشع مؤامرة دبرت ضد ذكرى امرئ، تسير قدما نحو غايتها، أشعر بأنني سأموت أكثر طمأنينة، إذ أترك خلفي -في كتاباتي- شاهدا لن يلبث أن ينتصر -إن عاجلا أو آجلا- على مؤامرات البشر!

سنة ١٧٦٢

وكان السيد "**دي ماليزيرب**" هو شاهد انفعالي، ومستودع سري بشأنه، فبذل في سبيل التسرية عني جهودا نمت عن طيبة قلب لا ينضب لها معين. ولقد ساهمت السيدة دي "**لوكسمبورج**" في هذا العمل الطيب، وزارت "**دوشين**" عدة مرات، لكي تتبين مدى تقدم سير الطبعة. وأخيرا، استؤنفت الطباعة، وراحت تتقدم أسرع من ذي قبل، وما قدر لي قط أن أعرف سر توقفها من قبل.

ولقد تجشم السيد "**دي ماليزيرب**" عناء الحضور إلى "**مونمورنسي**" كي يهدئ من هواجسي، ووفق في ذلك، إذ إن ثقتي التامة باستقامته، تغلبت على تخبط فكري، فجعلت كل مجهود منه -ليعيد إلى ذهني اتزانه- مجهودا مثمرا. وكان من الطبيعي أن يجدني جد جدير بالرثاء، بعد كل

الذي شهده من شجوني وآلامي. ولقد عاودته فكرة التعنت الفلسفي التي كانت تحيط به، وتردد على سمعه باستمرار. فلقد قيل للملأ، عندما ذهبت للإقامة في "ليرميتاج" -كما ذكرت من قبل- إنني لن أطيق البقاء طويلا، فلما رأى المتقولون انني بقيت هناك، زعموا ان بقائي إنما كان بدافع من عنادي، وكبريائي، واستحيائي من ان أتراجع.... وإنني كنت في الحقيقة أعاني ضيقا قاتلا، وشقاء بالغا. ولقد صدق السيد "ماليزيرب" ذلك، وكتب إلي. فكان شعوري مضاعفا لصدور هذا الخطأ عن رجل كنت أكن له كثيرا من التقدير، ومن ثم كتبت له أربع رسائل تباعا، شرحت له فيها الدوافع الحقيقية لمسلكي، ووصفت له بإخلاص ميولي، ونزعاتي، وشخصيتي، وكل ما يخالج فؤادي.. هذه الرسائل الأربع، التي كتبت دون تحضير ولا مسودات، وإنما بسرعة، وبجرة قلم، ودون ما مراجعة، قد تكون المؤلفات الوحيدة -في حياتي- التي كتبتها بسهولة.. والأعجب من هذا انني كتبتها وسط آلامي والتداعي المفرط الذي كنت اعانيه. وإذ كنت أشعر بأن قواي كانت في اضمحلال، فقد تنهدت حسرة إذ فكرت في انني سأخلف ورائي -في اذهان الرجال الأشراف- مثل ذاك الرأي الظالم عن نفسي، ومن ثم فقد حاولت بالصورة السريعة التي رسمتها في الرسائل الأربع، ان أسد الفراغ الذي كان يجب أن تملأه المذكرات التي اعتزمت من قبل ان أكتبها!.. إن هذه الرسائل التي أعجب بها السيد "دي ماليزيرب"، والتي اطلع عليها أهل "باريس"، تعتبر -إلى حدما- ملخصا لهذا الذي أعرضه هنا بالتفصيل، ومن ثم فهي جديرة بأن تصان. ولسوف توجد منها -بين أوراقي- نسخة نقلها برجاء مني، وأرسلها إلي بعد ذلك بسنوات.

وأصبح الشيء الوحيد الذي يكربني -منذ ذلك الحين- كلما فكرت، انني كنت موشكا على الموت، هو انني كنت محروما من أي أديب أركن إليه، وأستطيع ان أضع بين يديه أوراقي، لكي يراجعها ويفرزها بعد وفاتي!.. وكنت منذ رحلتي إلى "جنيف"، قد اتصلت بـ"مولتو" برباط من المودة، فقد شغفت بهذا الشاب، وكنت اتمنى لو أنه جاء ليغمض عيني عندما أموت. ولقد أطلعته على هذه الرغبة، وأعتقد انه كان على استعداد لأن يؤدي هذا الواجب الإنساني، وهو راض، لو ان شؤونه وأسرته سمحت له بذلك. أما وقد حرمت من هذا العزاء، فقد رغبت في أن أهبه دليلا على ثقتي به -على الأقل- بأن أرسلت إليه "إعلان أسقف سافوا إيمانه"، قبل النشر. ولقد سر بها، ولكني لم أشتم في لهجة رده ما ينم عن أنه كان يشاطرني الاطمئنان إلى الثقة التي أردت بعملي أن أشعره بها. فقد رغب في الحصول على بضع قطع أدبية لم يقدر لسواه أن يحرزها. ومن ثم أرسلت إليه: "رثاء الدوق دورليان عند وفاته"، وكنت قد كتبت هذا الرثاء للراهب "دارتي"، بيد انه لم يقدر له أن يلقيه، إذ عهد بمهمة رثاء الفقيد إلى سواه، على غير ما كان يتوقع!

وما إن استؤنف طبع "إميل"، حتى مضت العملية قدما وانتهت في هدوء، وقد لاحظت في هذه المرة ظاهرة عجيبة، فبعد الصفحات التي حذفت في قسوة من الجزءين الأولين، أجيز الجزءان التاليان دون ما اعتراض، ودون أن يتخذ من محتوياتهما ما يعرقل النشر. وكنت ما أزال أحتفظ ببعض التوجس الذي ينبغي الا اغفله هنا. فبعد ان كنت في خوف من "الجيزويت"، إذا بي في خوف من "اليانسيين" ومن الفلاسفة. إذ إنني كعدو لكل ما يسمى تحزبا، أو تعصبا، أو تعنتا، لم أكن أتوقع قط أي خير من أولئك الذين أتوا شيئا من ذلك.

وكان "الشرثاران" قد خلفا -قبل ذلك بزمن- مقرهما القديم، واستقر بهما المقام جد قريب مني، حتى لقد كان من الممكن ان يسمع في غرفتهما كل ما يقال في غرفتي أو شرفتي، كما كان من

السهل جدا تسلق السياج القصير الذي كان يفصل حديقتهما عن شرفتي المغلقة الجوانب، وكنت قد اتخذتها حجرة مكتب، فاقمت فيها منضدة تكدست عليها "بروفات" وصفحات "**إميل**" و"**العقد الاجتماعي**". ولقد اعتدت أن أخيط هذه الأوراق بعضها إلى بعض، عندما ترسل إلي، وبهذا كنت أحصل على نسخ من كتبي قبل ظهورها بوقت طويل. وكان غبائي وإهمالي وثقتي بالسيد "**متى**"(١) واطمئناني إلى الحديقة التي كانت تحيط بمسكني.. كل هذه كثيرا ما كانت تجعلني أنسى إغلاق الشرفة في الليل، فكنت أجدها في الصباح مفتوحة.. وما كان هذا ليسبب لي أتفه شاغل، لولا أن خيل إلي أنني لاحظت أن أوراقي لم تكن كما رتبتها. وإذ لاحظت هذا عدة مرات، أصبحت أكثر عناية بإغلاق شرفتي. وكان القفل رديئا، لا يكاد المفتاح يدور فيه سوى نصف دورة. وإذ ازددت انتباها، وجدت أن العبث بأوراقي أصبح أكثر مما كان عندما كنت أترك الباب مفتوحا.

وأخيرا، اختفى أحد كتبي يوما وليلتين، وعجزت تماما عن أن أتبين ما جرى له، إلى أن كان صباح اليوم الثالث، إذ وجدته ثانية على المنضدة!.. ولم أشعر إذ ذاك -ولا شعرت يوما- بأي ارتياب في السيد "**متى**"، ولا في ابن أخيه السيد "**دومولان**"، إذ كنت أعرف أن كلا منهما كان يحبني، ومن ثم فقد كنت أوليهما كل ثقة. وبدأت أشعر باطمئناني إلى "**الشرثارين**" يتضاءل. وكنت أعرف أن لهما علاقة بـ"**دالمبير**" -برغم أنهما كانا من "**اليانسيين**"- كما أنهما كانا يقيمان معه في مسكن واحد في "**باريس**". وقد سبب لي هذا شيئا من عدم الارتياح، وجعلني أكثر حذرا. فنقلت أوراقي إلى مخدعي، وانصرفت نهائيا عن زيارة هذين الشخصين، لا سيما وأنني سمعت كذلك أنهما عرضا -في عدة بيوت- الجزء الأول من "**إميل**"، الذي كنت من عدم الحكمة بحيث إنني أعرتهما إياه. ومع أنهما ظلا يجاوراني في السكنى إلى أن غادرت المكان، إلا أنني لم أتصل بهما قط منذ ذلك الحين!

*****

وسبق "**العقد الاجتماعي**" كتاب "**إميل**" إلى الظهور، بشهر أو شهرين. وكان "**ريي**" -الذي اعتدت دائما أن أحرم عليه تحريما باتا إدخال أي كتاب من كتبي إلى "**فرنسا**"- قد أرسل إلى المستشار يرجو الحصول على إذن بأن يدخل "**العقد الاجتماعي**" إلى "**فرنسا**"، عن طريق "**روان**"، حيث كان قد أرسله بحرا. ولم يتلق "**ريي**" ردا، فظلت طروده في "**روان**" عدة أشهر، ثم ردت إليه، بعد أن بذلت محاولة لمصادرتها ولكنه أحدث ضجة اضطرت أصحاب المحاولة إلى ردها له. على أن الفضول دفع البعض إلى الحصول على نسخ من "**امستردام**"، تدوولت في غير ضجة تذكر. ولقد حدثني "**موليون**" -الذي كان قد سمع، بل ورأى بعض هذه النسخ- عن الأمر، في شيء من الغموض الذي أدهشني، وكان خليقا بأن يثير قلقي -كذلك- لولا أنني في تأكدي من أنني اتبعت القانون في كافة الاعتبارات، ولم آت ما أؤاخذ نفسي عليه، رحت أطمئن نفسي مستندا إلى مبدئي العظيم. ولم يخالجني شك في أن السيد دي "**شوازيل**" -الذي كان قد أبدى ميلا طيبا نحوي، ورضاء عن المديح الذي دفعني تقديري إياه إلى أن أورده في هذا الكتاب- لن يتردد عن مؤازرتي، في هذه المناسبة، ضد النوايا السيئة التي تصدر عن السيدة "**دي بومبادور**"!

وكان من المؤكد أن بوسعي إذ ذاك أن أركن إلى أفضال السيد دي "**لوكسمبورج**"، أكثر من ذي قبل، وأن أطمئن إلى تعضيده لي عند الضرورة. إذ إنه لم يبد لي يوما ما يفوق ما كان يبديه لي إذ ذاك من دلائل الود والصداقة. ومع أن حالتي الصحية المحزنة لم تكن تتيح لي أن أسعى إلى القصر

---

(١) صاحب "مون لوي"، الدار التي سكنها "روسو" في "مونمورنسي" بعد أن غادر "ليرميتاج".

-عندما قدم في رحلة عيد الفصح- إلا أنه لم يكن يدع يوما يمر دون أن يزورني. وإذ رأى أن آلامي لا تنقطع، اقنعني -في النهاية- بأن أعرض نفسي على الأخ "**كـوم**"(١). وأرسل يبحث عنه، ثم أحضره بنفسه، وأوتي الجلد على أن يبقى معي أثناء العملية التي كانت مؤلمة وطويلة، وهو أمر نادر -وجدير بالتقدير- لدى نبيل عظيم الجاه مثله. على أن العملية لم تكن تتجاوز استخدام المسابر والمجسات بيد أنني لم أكن يوما قادرا على تحملها، حتى على يدي "**موران**" الذي حاولها عدة مرات، ولكنه باء بالفشل باستمرار. على أن الأخ "**كوم**" -الذي أوتي مهارة وخفة يد لاتضارعان- وفق في النهاية، إلى إنفاذ مسبر جد صغير، بعد أن سبب لي ألما عظيما لأكثر من ساعتين، كنت خلالهما أبذل قصارى جهدي لأكتم صرخاتي، حتى لا أمس الفؤاد الحساس الذي أوتيه المارشال الطيب!.. وخيل إلى الأخ "**كوم**" -بعد الفحص الأول- أنه قد اهتدى إلى "حصوة كبيرة"، وأنبأني بذلك. بيد أنه لم يستطع العثور عليها في الفحص الثاني. وبعد أن أجرى فحصا ثانيا، وثالثا، في عناية ودقة جعلتاني أشعر بالوقت يستطيل كل الطول، أعلن أن لا "حصوة" هناك ألبتة، ولكن "البروستاتا" كانت متحجرة، ومتضخمة إلى درجة غير عادية. ووجد أن المثانة كبيرة وفي حال جيدة، وانتهى بأن أبدى لي أنني سأعاني كثيرا، ولكنني سأعيش طويلا. وإذا كان قد قدر للنبوءة الثانية أن تكتمل، كما اكتملت الأولى، فإن آلامي لم تقترب بعد من نهايتها!

وهكذا انتهى بي الأمر، بعد أن عولجت طيلة هذه السنين المتتابعة من علل لم تكن بي، إلى أن أعرف أن دائي لم يكن منه شفاء، وإن لم يكن مميتا، وأنه خليق بأن يظل ما ظللت أنا على قيد الحياة. ولم يعد خيالي -بعد أن كبحته هذه المعرفة- يصور لي وفاة أليمة قاسية، تتم وسط الأوجاع الناشئة عن "الحصوة". ومن ثم فقد كففت عن الخوف من أن تكون نهاية مسبر كسرت -منذ أمد طويل- في القناة البولية، قد غدت نواة تكونت حولها "حصوة". وإذ تحررت من شرور الوهم -التي كانت أقسى من أوجاع الحقيقة- رحت أتحمل هذه الحقيقة في جلد وصبر. وليس من شك في أنني منذ ذلك الحين، أصبحت أقل توجعا من مرضي، من ذي قبل. وما تذكرت مرة أنني كنت مدينا بهذه الراحة إلى السيد دي "**لوكسمبورج**"، دون أن تهتز مشاعري من جديد، تأثرا لذكراه!

وإذ عدت -بهذا- إلى الحياة، كما ينبغي أن يقال، أصبحت أكثر من ذي قبل انشغالا بإنجاز ما تبقى من مشروعي(٢). ولم أكن أنتظر -لهذا الإنجاز- سوى ظهور "**إميل**". وفكرت في "**تورين**" التي كنت قد زرتها من قبل، والتي راقت لي، نظرا للطف جوها وأهلها.

"فالأرض الحنون، الخصبة، البهيجة

وأهلها يشبهونها في كل شيء"(٣)!

وكنت قد تحدثت عن مشروعي إلى السيد دي "**لوكسمبورج**"، فحاول أن يثنيني عنه. وعدت إلى أن أكلمه بصدده كأمر استقر الرأي عليه. وإذ ذاك اقترح عليّ قصر "**ميرلو**" -الذي كان يقع على بعد خمسة عشر فرسخا من "**باريس**"- كملجأ قد يناسبني، وأعرب عن اغتباطه وزوجته بأن يرياني

(١) الأخ "كوم"، هو "جان باسييلاك"، الذي عاش بين سنتي ١٧٠٣ و١٧٨١، وكان حجة في "الحصوة" وعلل المثانة والكلى. وكان راهبا.

(٢) مشروع اعتزال الأدب والناس. (٣) بيت من الشعر اللاتيني للشاعر "تاسو".

أستقر فيه. ولقد صادف الاقتراح هوى من نفسي، فلم أر فيه ما يضير. وكان لابد من رؤية المكان، قبل كل شيء، فاتفقنا على أن يرسل وصيفه الخاص مع عربة، لتقلني إلى هناك في يوم محدد. ولكني شعرت -في ذلك اليوم- بوعكة شديدة، ومن ثم أرجأت الرحلة. ثم تكاتفت عدة عوائق بعد ذلك، على أن تحول بيني وبين القيام بها. وإذ قدر لي -فيما بعد- أن أسمع أن ضيعة "**ميرلو**" لم تكن من أملاك السيد دي "**لوكسمبورج**"، وإنما كانت من أملاك زوجته، فإنني لم أجد كثير عناء في أن أعزي نفسي لعدم ذهابي إلى هناك!

*****

وظهر "**إميل**" أخيرا، دون أن أسمع أي نبأ جديد عن حذف شيء آخر، أو عن أية عقبات. وكان السيد دي "**لوكسمبورج**" قد طلب إلي، قبل ظهور الكتاب، كل رسائل السيد "**دي ماليزيرب**" التي تتعلق بهذا المؤلف. ولقد حالت ثقتي بكل منهما، وشعوري بالطمأنينة التامة، دون أن أرى في هذا الطلب أية غرابة أو شبهة. ومن ثم فإنني أعدت الخطابات، عدا واحد أو اثنين، تخلفا عفوا بين صفحات بعض الكتب. وكان السيد "**دي ماليزيرب**" قد أشار -قبل ذلك بفترة من الزمن- إلى أنه قد يسحب الرسائل التي كتبتها إلى "**دوشين**"، عندما كنت في جزع بشأن "**الجيزويت**". ومن الواجب أن أعترف بأن هذه الرسائل لم تكن مما يشرف عقلي وتفكيري. ولكني أنبأته بأنني لم أكن تواقا إلى أن أظهر بمظهر يفضل حقيقتي بأية حال، وأن من الخليق به أن يدع الرسائل لـ"**دوشين**".. ولست أدري ما إذا كان قد فعل.

ولم يقابل ظهور هذا الكتاب بالضجة والإعجاب اللذين اعتادا أن يحفا بظهور كل مؤلفاتي. بل إن كتابا سواه لم يقابل بمثل ما قوبل به هو من إطراء من الخاصة، ومن استحسان واهن من العامة. فإن كل ما كتبه وقاله لي أقدر الناس على الحكم، عزز رأيي في أنه أفضل مؤلفاتي وأهمها قيمة. ولكن كل الذي قيل لي قيل في أغرب مظاهر التحوط والحذر، وكأنما كان من المهم تكتم الاستحسان، واعتباره سرا!.. فالسيدة "**دي بوفلير**"، التي ذكرت لي أن مؤلف مثل هذا الكتاب جدير بأن تقام له تماثيل، وأن يتلقى آيات التكريم من البشر قاطبة، رجتني في نهاية رسالتها -في غير مواراة- بأن أرد إليها الرسالة!.. أما "**دالمبير**" -الذي كتب لي ما معناه أن الكتاب قد أقر تفوقي وسمو شأني، وأنه خليق بأن يجعلني على رأس كافة الأدباء- فقد أغفل توقيع الرسالة، مع أنه اعتاد توقيع كل الرسائل التي أرسلها إلي قبل ذلك. ولقد كان "**ديكلو**" صديقا جديرا بكل ثقة، وكان رجلا صادقا، ولكنه كان حذرا حريصا. ومع أنه قدر هذا الكتاب تقديرا عاليا، إلا أنه تجنب إبداء أي رأي فيه كتابة!.. ولقد حمل "**لاكوندمين**" على "إعلان الإيمان"، وراح يتخبط في أقواله. وكذلك اقتصر "**كليرو**" على عين هذا الجزء من الكتاب -في رسالته- ولكنه لم يخش أن يجاهر بمدى تأثره بقراءته، فأطلعني بعبارات صريحة على أن هذه القراءة قد بعثت الدفء في نفسه العجوز. وكان -دون جميع من أرسلت إليهم كتابي- الوحيد الذي أعلن على الملأ جهرا وبصوت مدو، مدى إكباره هذا الكتاب.

أما "**متى**" -الذي كنت قد أعطيته إحدى النسخ الأول، قبل أن يعرض الكتاب للبيع- فقد أعار السيد "**دي بلير**" المستشار البرلماني، ووالد ممثل الحكومة في "**ستراسبورج**"، هذه النسخة.. إذ كان للسيد "**دي بلير**" بيت ريفي في "**سان جراسيان**" وقد اعتاد "**متى**" -الذي كان من معارفه القدامى-

أن يزوره من آن إلى آخر، كلما استطاع إلى ذلك سبيلا. ومن ثم فقد مكنه من أن يقرأ "**إميل**" قبل صدوره، فلما رد السيد "**دي بلير**" إليه الكتاب، أفضى بهذه الملاحظة، التي رددت على سمعي في اليوم ذاته: "هذا كتاب جديد بديع يا سيد "**متى**"، ولكنه لن يلبث أن يثير أحاديث تتجاوز ما قد يوده المؤلف!". ولقد اكتفيت، حين ردد لي هذا القول، بأن أضحك، ولم أر في هذه الملاحظة أكثر من مجرد مظهر من أساليب المستشارين، الذين يحبون أن يضفوا جوا من الغموض على كل شيء. وهكذا لم تترك كل التعليقات المشحونة بالقلق، والتي نميت إلي، سوى أثر ضئيل في نفسي. فقد كنت أبعد من أن أبصر الكارثة التي كانت موشكة أن تحيق بي، مقتنعا بجمال مؤلفي ونفعه، واثقا بأنه في حدود القانون من كل ناحية، مرتكنا -كما خيل إلي- إلى كل ما للسيدة "**دي لوكسمبورج**" من نفوذ، بل وإلى رضاء الوزراء كذلك. فرحت أحبذ لنفسي القرار الذي اتخذته باعتزال الأدب وأنا في غمرة انتصاراتي، وبعد أن سحقت كل الحاسدين لي.

ولم يزعجني من نشر هذا الكتاب سوى شيء واحد، ولم يكن إزعاجه صادرا عن مراعاة لسلامتي، بقدر ما كان منبعثا عن رغبة في أن أطمئن ضميري. ذلك أنني كنت قد شهدت عن كثب، وباستنكار -أثناء وجودي في "**ليرميتاج**" و"**مونمورنسي**"- المنغصات التي كان تنافس الأمراء على اللهو يفرضها على الفلاحين البائسين، فيضطرهم إلى تحمل الخسائر، التي كانت تصيب حقولهم من جراء الصيد والقنص، دون أن يجسروا على الذود عن هذه الحقول إلا بإحداث الضجة، ويضطرهم إلى أن يقضوا الليالي بين فولهم وبازلائهم، وهم يدقون على الأواني والطبول والأجراس، لينفروا الوعول البرية. ولقد شهدت الوحشية القاسية التي كان السيد "**الكونت دي شالروا**" يعامل بها هؤلاء المساكين، فحملت -عندما أوشكت على نهاية "**إميل**"- حملة شعواء على هذا التصرف القاسي. وكان هذا العمل مني، خرقا آخر لمبادئي، ولم يقدر له أن يمضي دون ما عقاب. فقد سمعت أن رجال السيد الأمير "**دي كونتي**"، لم يخففوا من قسوتهم على فلاحي أراضيه. ورحت أرتجف خشية أن يكون هذا الأمير -الذي كنت أكن له أعمق مشاعر الاحترام والعرفان- قد حمل على محمل الإساءة إليه، ما دفعني الشمم الإنساني إلى أن أوجهه إلى عمه "**الكونت دي شارلروا**"، على أنني رحت أطمئن نفسي، فقد كان ضميري يبرر كل التبرير حملتي هذه، وقد كنت مصيبا في ذلك. إذ إنني لم أسمع قط أن هذا الأمير العظيم قد أبدى أتفه اهتمام لهذه الفقرة التي كتبتها قبل أن أحظى بشرف التعرف إليه، بوقت طويل.

*****

ولقد ظهر قبل نشر كتابي بأيام قلائل، أو بعده -إذ إنني لا أذكر الوقت تماما- كتاب آخر في الموضوع ذاته، نقل بنصه عن الجزء الأول من مؤلفي -كلمة بكلمة- فيما عدا بعض تعديلات نثرت خلاله. وكان هذا الكتاب يحمل اسم شخص من "**جنيف**" كان يدعى "**باليكسير**"، قيل -على ما جاء في عنوانه- أنه كان قد فاز بجائزة مجمع "**هارليم**". وأدركت دون عناء أن هذا المحفل، وهذه الجائزة ابتدعا حديثا، لتعمية الرأي العام عن السرقة. بيد أنني رأيت -كذلك- أن في هذا مؤامرة داخلية، لم أستطع أن أدري أكانت تتمثل في نقل مخطوطي إلى الناشر -الأمر الذي لم يكن من سبيل إلى السرقة بدونه- أم في إنشاء قصة الجائزة المزعومة، التي كانت تستدعي ضرورة إنشاء الهيئة التي منحتها!.. ولم أستطع أن أبدد هذا الغموض إلا بعد سنوات عديدة، وبناء على كلمة أفلتت من

"**ديفيرنوا**" فمكنتني من أن أتبين خلال الأحداث أولئك الذين رسموا دور السيد "**باليكسير**"!

وبدأت الغمغمة المكتومة التي تسبق العاصفة، تتناهى إلى السمع، ورأى كل من أوتي بصيرة ثاقبة، أن ثمة مكيدة كانت تتفاعل، لتحيق بكتابي وبي، وأنها لن تلبث أن تنفجر. أما أنا، فإن اطمئناني وغبائي كانا من الضخامة بحيث إنني لم أبصر محنتي.. بل إنني لم أحدس شيئا عن سببها، بالرغم من أنني بدأت أشعر بأثرها. فقد تمثلت بدايتها في دهاء بارع، اتجه إلى الترويج لفكرة مؤداها أن المعاملة القاسية التي كان "**الجيزيويت**" يلقونها، ما كان ينبغي أن توحي بأي سبيل إلى إبداء العطف نحو الكتب والمؤلفين الذين يهاجمون الدين. ولقد وجه إلي اللوم لأنني وضعت اسمي على "**إميل**"، وكأنني لم أكن قد وضعته على كتاباتي الأخرى دون أن يقال لي شيء عن ذلك، وبدا كأنما كان ثمة خوف من أن يضطر القوم إلى اتخاذ خطوات قد يأسفون لها، ولكن الظروف كانت تجعلها ضرورية، وكانت رعونتي قد مهدت السبيل إليها!

ولقد بلغتني هذه الأقاويل، ولكنها لم تسبب لي أقل قلق بل إنه لم يخطر لي إطلاقا أن في المسألة كلها ما يمسني شخصيا.. أنا الذي كنت أشعر بأنني فوق كل لوم، وأنني مؤيد أشد تأييد، وأنني بخير من كافة النواحي، وأنه لم يكن لي أن أخشى أن تتركني السيدة دي "**لوكسمبورج**" وسط المآزق، من أجل ذنب إذا كان قد ارتكب حقا، فقد كانت هي منشأه الأوحد!.. على أنني لما كنت قد عرفت من تطورات الأمور عادة -في مثل هذه القضايا- أن السخط كان ينصب على الناشرين، دون المؤلفين، فقد داخلني القلق من أجل "**دوشين**" المسكين، لو أن السيد "**دي ماليزيرب**" تخلى عنه!

وظللت ساكنا.. وتضاعفت الشائعات، وسرعان ما تغيرت لهجتها، وبدا أن الرأي العام، والبرلمان بوجه خاص، قد أهاجهما صمتي. وبعد أيام قلائل، أصبح الانفعال فظيعا، وتبدل هدف التهديدات وأصبحت موجهة إلي -أنا بالذات- مباشرة، وسمعت أعضاء البرلمان يقولون بكل صراحة أن لا نفع يرجى من إحراق الكتب، وإنما يجب إحراق المؤلفين، أما الناشرون، فلم تذكر كلمة واحدة عنهم!.. وفي المرة الأولى التي رددت فيها أمامي هذه الآراء -التي كانت أجدر بأن تصدر عن محقق مغرض، وليس عن عضو في الشيوخ- لم يداخلني أي شك في أنها كانت ابتكارا من عصبة "**دولباخ**"، أريد به إثارة ذعري، ودفعي إلى الفرار. وضحكت لهذه الحيلة الصبيانية، وقلت لنفسي وأنا أسخر منهم، إنه لو أتيح لهم أن يعرفوا حقيقة الأمور، لبحثوا عن وسيلة أخرى لإرهابي، بيد أن الشائعة لم تلبث أن بلغت من الوضوح ما أوحى بأنها جدية. وكان السيد والسيدة دي "**لوكسمبورج**" قد بكرا في زيارتهما الثانية لـ"**مونمورنسي**"، بحيث إنهما كانا هناك في بداية شهر حزيران (يونيو). ولم أسمع في دارهما حديثا يذكر عن كتابي الجديدين، برغم الضجة التي أحدثاها في "**باريس**"، كما أن ربي الدار لم يحدثاني إطلاقا في هذا الصدد.

ومع ذلك، فقد تصادف أن كنت على انفراد مع السيد دي "**لوكسمبورج**" -ذات صباح- فسألني: "هل تحدثت بسوء عن السيد "**دي شوازيل**" في كتاب: "**العقد الاجتماعي**"؟". فأجفلت دهشة، وقلت: "أنا؟.. يقينا: لا! اقسم لك. على أنني قدمت له عكس هذا.. فبقلم لم يكن يوما متملقا، كتبت فيه أبدع إطراء حظي به وزير، في أي يوم من الأيام!". وأردفت بأن تلوت عليه الفقرة كلها فعاد يتساءل: "وفي "**إميل**"؟". فأجبت: "ولا كلمة.. ليست به كلمة واحدة تتعلق بالسيد". فهتف في حرارة لم تكن من عادته: "آه!.. كان خليقا بك أن تفعل الشيء ذاته في الكتاب الآخر، أو

أن تكون أكثر وضوحا فيما كتبت!". فأجبت: "لقد خلت أنني فعلت.. ولقد قدرته تقديرا كافيا". وكان على وشك أن يرد إلي القول، ولمحت أنه كان يتأهب لأن يصارحني بما كان يخفى، ولكنه كبح نفسه، ولاذ بالصمت. فما أتعس سياسة عضو حاشية الملك، إذ إنها تطغى على الصداقة ذاتها، في أحسن القلوب!

ولقد أنار هذا الحديث -على قصره- بصيرتي، بشأن موقفي -أو بشأن ناحية معينة، على الأقل- وجعلني أدرك أنني كنت هدف المهاجمين. ورحت أنعى هذا النحس -الذي لا نظير له- والذي قلب إلى غير صالحي كل طيب قلته أو فعلته. ومع ذلك، فقد ظللت أشعر بأنه كان لي أن أعتمد في هذه المسألة على السيدة "**دي لوكسمبورج**"، والسيد "**ماليزيرب**"، فلم أر كيف كان في الوسع إزاحتهما للوصول إلي. إذ إنني -منذ تلك اللحظة- شعرت بجلاء أن المسألة لم تعد مسألة إنصاف أو عدالة، وأنه لن يكون ثمة اكتراث بتبين ما إذا كنت مخطئا حقا، أو لم أكن. على أن هدير العاصفة أخذ يزداد شيئا فشيئا. بل إن "**نياولم**" نفسه، لم يلبث أن أطلعني خلال ثرثرته المسهبة، على أسفه لأنه أقحم نفسه في هذا المؤلف، وعلى يقينه من سوء الطالع الذي كان يتهدد الكتاب وكاتبه. ومع ذلك، فقد بقي أمر واحد ظل يطمئنني دائما: فلقد كنت أرى السيدة "**دي لوكسمبورج**" جد هادئة النفس، مطمئنة، بل وضاحكة، مما أوحى بأنها كانت واثقة بنفسها، إذ إنها لم تبد أي قلق من ناحيتي، ولم تنبس بكلمة إشفاق أو اعتذار، وأنها كانت ترمق تطور هذه المسألة في هدوء، وكأنما لم تكن لها يد فيها، أو كأنها لم تكن تشعر بأتفه اهتمام بأمري!.. ولم يكن يدهشني سوى أنها لم تقل لي شيئا ألبتة، إذ لاح لي أنه كان خليقا بها أن تقول لي شيئا ما. أما السيدة "**دي بوفلير**"، فقد تراءت أقل طمأنينة، وكانت تروح وتغدو، والاضطراب يلازمها، وتسرف في الحركة، وتؤكد لي أن السيد الأمير "**دي كونتي**" كان يبذل الكثير لصد الضربة التي كانت تعد لي، والتي كانت تعزوها دائما إلى الأحوال الراهنة، التي كان على البرلمان فيها ألا يتيح لـ"**جيزويت**" فرصة اتهامه بالتهاون إزاء الدين. على أنها كانت تبدو قليلة الثقة في نجاح خطوات الأمير وخطواتها. وكانت أحاديثها أدعى إلى الجزع، منها إلى التسرية، فقد مالت دائما إلى حملي على مغادرة البلاد. وكانت لا تني تنصحني بالنزوح إلى "**إنجلترا**"، حيث كان بوسعها أن تتيح لي كثيرا من الأصدقاء بينهم "**هيوم**" الشهير، الذي كان صديقا لها منذ أمد طويل. وإذ رأتني سادرا في سكينتي، اتخذت نهجا آخر كان أقدر على زحزحتي من جمودي. فقد أوحت إلي بأنني قد أضطر -إذا قبض علي، واستجوبت- إلى أن أذكر اسم السيدة "**دي لوكسمبورج**"، وبأن صداقتها لي كانت تستحق ما هو أفضل من أن أعرض نفسي للاضطرار لإحراجها!.. ولقد أجبتها بأن بوسعها أن تطمئن إلى أنني لن أقحمها في مثل هذه الحال. فردت بأن هذا العزم أيسر قولا منه تنفيذا، وقد كانت على صواب في ذلك، لا سيما معي أنا بالذات، إذ كنت مصرا كل الإصرار على ألا أحلف كذبا، أو أقول زورا أمام القضاء، مهما يكن الخطر الذي قد يترتب على قول الحق!

وإذ رأت أن هذه الفكرة قد أثرت في نفسي، وإن لم يكن بوسعي بعد أن أحمل نفسي على الفرار، راحت تتحدث إلي عن "**الباستيل**" -بضعة أسابيع- كوسيلة للتهرب من سلطة البرلمان التشريعية، إذ لم يكن للبرلمان أي شأن بمسجوني الحكومة. ولم أبد اعتراضا على هذا الكرم العجيب، على شريطة ألا يلتمس باسمي. ولما لم تعد إلى الحديث عن هذا الاقتراح مرة أخرى، أدركت أنها إنما أبدته لتبلوني، وأن حيلة كهذه -تضع نهاية لكل شيء- لم تكن مرغوبة!

بعد ذلك بأيام قلائل، تلقى السيد "**المارشال**" من أسقف "**دويي**" -صديق "**جريم**" والسيدة "**ديبيناي**"- رسالة ضمنها نبأ قال: إنه من مصدر موثوق به، عن اعتزام البرلمان أن يتخذ إجراءات غاية في القسوة ضدي، وأن مرسوما بإلقاء القبض علي سيصدر في يوم حدده. ورأيت أن هذا النبأ فرية من عصبة "**دولباخ**"، فقد كنت أعرف أن البرلمان كان شديد الحرص على الشكليات، وأنه من الانتهاك لجميع هذه الشكليات أن يبدأ -في هذه المناسبة- بمرسوم بالاعتقال، قبل أن يتثبت بالطرق المشروعة مما إذا كنت أعترف بالكتاب وبأنني كنت مؤلفه حقا. وقلت للسيدة "**دي بوفلير**": "إن أمر الاعتقال -المبني على مجرد البلاغ العادي- لا يصدر إلا في حالة تلك الجرائم التي تمس الأمن العام، وذلك خشية تمكن المجرمين من الفرار أما إذا أريد عقاب ذنب كذنبي، لا يستحق سوى التكريم والمكافاة، فإن العرف يقضي باتخاذ الإجراءات القضائية ضد الكتاب، مع تفادي المساس بالمؤلف قدر الإمكان!". وعند ذلك نبهتني إلى فارق دقيق، كنت قد نسيته، لتبين لي أنه كان من التكريم لي أن يصدر قرار بالقبض علي، بدلا من استدعائي لسماع أقوالي!

وتلقيت في اليوم التالي رسالة من "**جاي**" الذي أنبأني بأنه كان -في عين اليوم الذي كتب فيه الرسالة- في زيارة للسيد المدعي العام، فلمح على مكتبه مسودة "دعوى" ضد كتاب "**إميل**" ومؤلفه. ولاحظوا أن "**جاي**" كان شريكا لـ"**دوشين**" الذي طبع الكتاب، وأنه كان مطمئنا إلى حسابه الخاص، فتطوع لإزجاء هذا النبأ إلى المؤلف من قبيل الإحسان!.. وكان من البسيط، بل من الطبيعي، أن يتاح لتاجر كتب قدر له أن يزور السيد المدعي العام، أن يقرأ -في هدوء- المخطوطات والمسودات المتناثرة على مكتبه!!.. ولقد أكدت لي السيدة "**دي بوفلير**" وغيرها أن الأمر كان صحيحا. ومن جراء السخافات التي كانت تلقى في أذني دون انقطاع، أصبحت ميالا إلى الاعتقاد بأن الناس جميعا قد اختبلوا!

وشعرت بيقين بأن ثمة سرا وراء كل هذا، سرا كان يحجب عني، فرحت أرقب في هدوء مجرى الأحداث، وأنا وطيد الثقة باستقامة مسلكي، وبراءتي في المسألة بأسرها. بل إنني كنت جد سعيد بأن أساق إلى شرف المعاناة في سبيل الحقيقة، مهما يكن الجور الذي يرتقبني. وبدلا من أن أخاف وأستتر، واظبت على زيارة القصر يوميا، وعلى التريض على قدمي -كعادتي- في أصيل كل يوم. وفي اليوم الثامن من شهر حزيران (**يونيو**) -وهو اليوم السابق لإصدار المرسوم- قمت برياضتي في صحبة أستاذين من الوعاظ، هما الأب "**الماني**" والأب "**ماندار**". وحملنا معنا بعض القوت، إلى "**شامبو**"، حيث استمتعنا بوجبة شهية. وكنا قد نسينا أن نحمل معنا أكوابا، فاستعضنا عنها بأعواد من القش، رحنا نمتص خلالها الشراب من الزجاجات، متلهفين على اختيار أسمك الأعواد، لكي نرى أيها أكثر قدرة على الامتصاص. وما كنت يوما أكثر مني طربا في ذلك اليوم!

ولقد ذكرت كيف أنني كنت أعاني الأرق في صباي. ولقد تعودت من ذلك الحين أن أقرأ في السرير -في كل ليلة- حتى أشعر بعيني تغفوان، فأطفئ الشمعة، وأحاول أن أنام لبضع دقائق، لم تكن تدوم طويلا. وكانت مطالعاتي الليلية المعتادة هي "**التوراة**"، واستطعت بهذه الطريقة أن أقرأها خمس مرات أو ستا، على الأقل. وفي مساء ذلك اليوم بالذات، وجدت نفسي أكثر يقظة من المعتاد، فواصلت القراءة فترة أطول، حتى أتيت على السفر الذي ينتهي بقصة "**اللاويين**" و"**أفرايم**"، وهو "**سفر القضاة**" إذا لم تخني الذاكرة، إذ إنني لم أنظر إليه قط منذ ذلك الحين. ولقد تأثرت كل التأثر بهذه القصة. وكنت مستغرقا في التفكير فيها، بين النوم واليقظة، عندما انتبهت فجأة إلى ضجة

وضوء. وكانت "**تيريز**" هي التي حملت الضوء، وتقدمت تقود السيد "**لاروش**"، الذي قال: إذ رآني أجفل مذعورا: "لا تنزعج!.. لقد أقبلت من لدن السيدة "**المارشالة**"، التي كتبت لك، كما أرسلت إليك خطابا من السيد الأمير "**دي كونتي**". وفعلا وجدت داخل رسالة السيدة "**دي لوكسمبورج**"، رسالة من الأمير حملها إليها أحد رسله، وقد ضمنها أنه قد تقرر -برغم كل جهوده- اتخاذ أقسى الإجراءات ضدي. ومما ذكره: "إن الانفعال بالغ الشدة، ولا سبيل إلى منع هذه الضربة، فالبلاط يطالب بها، والبرلمان راغب فيها. وفي الساعة السابعة صباحا، سيصدر المرسوم بإلقاء القبض، وسيجري تنفيذه في الحال. وقد توصلت إلى أنه لن يطارد إذا بادر إلى الابتعاد، أما إذا أصر على رغبته في أن يسلمهم نفسه، فسيلقى القبض عليه"!.. وراح "**لاروش**" يستحلفني -باسم السيدة "**المارشالة**"- أن أبادر فأذهب للتشاور معها. وكانت الساعة الثانية صباحا، وقد أوت إلى مخدعها، ولكنه أضاف: "إنها في انتظارك، ولن تنام حتى تراك". فبادرت إلى ارتداء ثيابي، وأسرعت إليها!

وبدت لي مضطربة، لأول مرة. ومس قلقها مشاعري. وما كنت بمنجى من الانفعال -أنا الآخر- في هذه اللحظة المفاجئة -في جوف الليل- ولكني نسيت نفسي حين رأيتها، فلم أعد أفكر إلا فيها، وفي الدور المحزن الذي كان عليها أن تؤديه، إذا أسلمت نفسي. ذلك لأنني في شعوري بأنني أوتيت الشجاعة على ألا أقول سوى الحق -ولو أدى ذلك إلى الإضرار بي وإلى إهلاكي- لم أتوقع أن يكون لدي من حضور الذهن، أو الدهاء، بل ولا أن يكون لدي الجلد الكافي على أن أتحاشى إقحامها، إذا ما اشتد الضغط علي. ودفعني هذا إلى أن أقرر أن أضحي بسمعتي في سبيل راحة بالها، وأن أفعل من أجلها -في هذه المناسبة- مالم يكن في وسع أية قوة أن تغريني على أن أفعله من أجل نفسي. وما إن استقر رأيي، حتى أعلنته لها، غير راغب في أن أحط من قيمة تضحيتي بأن أمكنها من أن تشتريها! وإني لواثق بأنها ما كانت لتخطئ فهم الحافز الذي دفعني إلى ذلك. بيد أنها لم تفه لي بكلمة توحي بأنها قدرت هذا الحافز. ولقد بهت لهذا التغافل، حتى لقد وجدتني أوازن بين المضي والتراجع. ولكن السيد "**المارشال**" أقبل، كما وصلت السيدة "**دي بوفلير**" من "**باريس**" بعد لحظات، ففعلا ما كان خليقا بالسيدة "**دي لوكسمبورج**" أن تفعله. واستسلمت لإطراءاتهما، فقد استحييت من أن أتراجع، ولم تعد ثمة مسألة سوى اختيار المكان الذي ألوذ به، وموعد رحيلي. وعرض السيد "**دي لوكسمبورج**" أن أبقى أياما مستخفيا في داره، لأن هذا يتيح لي وقتا للتدبير والبت في بحبوحة من الوقت. ولم أقبل هذا إطلاقا، ولا قبلت اقتراح الانتقال سرا إلى قلعة الأسرة، بل أصررت على رغبتي في الرحيل في اليوم ذاته، مفضلا هذا على البقاء مستخفيا في أي مكان!

*****

ولما كنت قد شعرت بأن لي أعداء مستترين وأقوياء في المملكة، فقد رأيت أن لابد لي من أن أغادر "**فرنسا**" -برغم حبي إياها- لأضمن راحة بالي. وكانت رغبتي الأولى هي أن ألجأ إلى "**جنيف**"، ولكن لحظة تفكير واحدة، كانت كافية لأن تحولني عن ارتكاب هذه الحماقة. فقد كنت أعرف أن الحكومة الفرنسية -التي كان لها في "**جنيف**" نفوذ يفوق مالها في "**باريس**"- لن تدعني في سلام في أي من هاتين المدينتين، إذا كانت قد عقدت عزمها على اضطهادي. وكنت أعرف أن كتابي: "**حديث في عدم المساواة**" قد أثار ضدي -في المجلس- كراهية كان يزيد من خطورتها أن هذه الهيئة لم تكن تجسر على أن تكشفها علانية. ثم إنني كنت أعرف أن المجلس كان شديد

التحمس لتحريم تداول كتابي "**هيلويز الجديدة**"، عند ظهوره -بناء على تحريض الدكتور "**ترونشان**"- ولكنه حين تبين أن أية هيئة أخرى لم تحذ حذوه -ولا في "**باريس**" ذاتها- خجل من خسته، ورجع عن التحريم. لذلك لم يخالجني شك في أن المجلس إذا ما وجد الفرصة الراهنة سانحة، لن يدخر وسعا في استغلالها. وكنت أدرك أن ثمة غيرة خفية توغر صدور كل أهل "**جنيف**" ضدي -برغم كل المظاهر الجميلة- وأن هذه الغيرة لم تكن ترجو سوى مناسبة سانحة لتشبع نهمها. ومع ذلك فإن الشعور الوطني كان يدعوني إلى العودة إلى وطني، ولو أنني استطعت أن أقنع نفسي بأنه كان في وسعي أن أعيش في سلام هناك، لما ترددت لحظة. أما وقد كانت الكرامة والعقل لا يقران أن ألوذ بوطني كلاجئ، فقد عزمت، على أن أقيم على مقربة منه فحسب، فامكث في "**سويسرا**" في انتظار ما قد يجري في "**جنيف**" بشأني. ولسوف يتجلى أن هذا التردد لم يدم طويلا!

وعارضت السيدة "**دي بوفلير**" هذا القرار طويلا، وعادت تبذل جهودا جديدة لحملي على أن انتقل إلى "**إنجلترا**". ولكنها لم تزعزع عزيمتي، فما أحببت قط "**إنجلترا**" ولا الإنجليز. وبدلا من أن تتغلب لباقة السيدة "**دي بوفلير**" على نفوري، بدا أنها راحت تضاعفه، دون أن أدري السر في ذلك.

وإذ اعتزمت الرحيل في اليوم ذاته، فقد شرعت في ذلك منذ الصباح، واعتبرتني مسافرا بالنسبة للجميع، ومن ثم فإن "**لاروش**" -الذي كنت قد أرسلته ليحضر إلي أوراقي- لم يشأ أن يقول لـ"**تيريز**" نفسها ما إذا كنت قد رحلت أو لم أرحل. وكنت منذ اعتزمت يوما أن أكتب ذكريات حياتي، فقد جمعت عددا من الرسائل والأوراق، ومن ثم فقد اضطر إلى أن يذهب إلى داري عدة مرات لنقلها. وكانت هذه الأوراق -التي فحصتها من قبل- قد جمعت على حدة، لذلك قضيت بقية الصباح في فحص الأوراق الاخرى، معتزما ألا آخذ معي إلا ما يكون ذا نفع لي، وأن أحرق الباقي. ولقد رغب السيد "**دي لوكسمبورج**" في أن يساعدني في هذا العمل، الذي استغرق وقتا طويلا، حتى إننا لم نستطع أن نفرغ منه في فترة الصباح، ولم أجد متسعا من الوقت كي أحرق شيئا. فعرض السيد "**المارشال**" أن يتكفل بفحص الأوراق المتبقية، وأن يحرق بنفسه الفضلات -دون أن يدع هذه المهمة لأحد سواه- وأن يرسل إلي كل ما يستبقيه. ولقد قبلت هذا العرض وأنا جد مغتبط بأن أتحرر من هذا الشاغل، حتى أتمكن من أن أقضي الساعات القلائل التي مازالت باقية لدي، مع أولئك الذين كانوا جد أعزاء علي، والذين كنت مزمعا فراقهم إلى الأبد!.. وأخذ السيد "**المارشال**" مفتاح الحجرة التي تركت فيها هذه الأوراق، وأرسل -تحت إلحاحي الدائب- في استدعاء "عمتي" المسكينة، التي كانت تكتوي بالحيرة القاتلة إزاء ما قد جرى لي، وما هو موشك أن يجري. والتي كانت ترتقب الجنود -في كل لحظة- دون أن تدري كيف تعاملهم، ولا ما ينبغي أن تجيبهم به!

وأحضرها "**لاروش**" إلى القصر، دون أن يذكر لها شيئا. وكانت تظنني قد أصبحت على بعد شاسع. فما إن رأتني، حتى أطلقت صرخاتها الحبيسة، وارتمت بين ذراعي. فيا للمودة، ويا لتجاوب القلوب، ويا للمعاشرة، ويا للألفة!.. لقد تجمعت في تلك اللحظة -العذبة والقاسية- كل الأيام الهنيئة، الناعمة، الوادعة، التي قضيناها معا، لتزيدني شعورا بوطأة أول فراق لنا، بعد أن كان كل منا لا يكاد يغيب عن بصر الآخر يوما واحدا، خلال فترة تقرب من سبعة عشر عاما!.. ولم يقو "**المارشال**" -الذي كان يشهد هذا العناق- على كبح دموعه، فتركنا!.. ولم تشأ "**تيريز**" أن تفارقني، فأوضحت لها ما في مرافقتها إياي -في تلك الظروف- من صعاب، وضرورة بقائها لكي

تسوي شؤوني، وتحصل أموالي. ولقد كان من المعتاد -عند إصدار مرسوم بالقبض على امرئ- أن يستولى على أوراقه، أو أن توضع الأختام على مقتنياته، أو أن يوقع الحجز عليها ويعين وصي لحراستها. ومن ثم فقد كان من اللازم أن تبقى هي؛ لكي تراقب ما يجري. وتبذل قصارى وسعها. ووعدتها بأنها لن تلبث أن تلحق بي في القريب. وقد عزز السيد "**المارشال**" وعدي، ولكني لم أشأ قط أن أنبئها بالمكان الذي كنت أعتزم الذهاب إليه، حتى إذا سألها أولئك القادمون للقبض علي، كان بوسعها أن تعرب عن جهلها بذلك صادقة. وعندما احتضنتها في لحظة الفراق، شعرت بانفعال عاطفي غير عادي. فقلت لها في حرارة، وكأنما كنت -واأسفاه!- أتنبأ بما يضمره المستقبل: "عليك أن تتذرعي بالشجاعة يا بنيتي!.. لقد قاسمتني نعيم الأيام الحلوة، وبقي عليك -مادامت هذه رغبتك- أن تشاطريني محني. فلا تتوقعي سوى الإهانات والنكبات إذا تبعتني. إذ إن الحظ الذي يبدأ معي اليوم، سيتعقبني إلى آخر ساعة في حياتي!".

ولم يبق لي ما أفعله سوى أن أدبر أمر رحيلي.. كان من المتوقع أن يكون رجال الأمن قد وصلوا في الساعة العاشرة، ولكن الساعة كانت الرابعة -بعد الظهر- عندما انطلقت، دون أن يكونوا قد وصلوا بعد. وكان الرأي قد استقر على أن أسافر بعربة البريد، ولكني لم أجد محفة تقلني إلى هناك، فأهداني السيد "**المارشال**" عربة خفيفة ذات عجلتين، وأعارني جوادين وحوذيا، ريثما أبلغ المحط التالي، حيث لم أجد عناء في الحصول على جياد، بفضل التدبيرات التي كان قد اتخذها.

ولم أكن قد تناولت غدائي على المائدة، ولا أظهرت نفسي في القصر، فجاءت السيدات لوداعي، في الطابق القائم بين الطابقين الأرضي والأول "**الأنترسول**"، حيث قضيت اليوم كله. وعانقتني السيدة "**المارشالة**" عدة مرات في حزن باد، ولكنني لم ألمس في عناقها الحرارة التي كانت قد غمرتني بها قبل سنتين أو ثلاث. كذلك عانقتني السيدة "**دي بوفلير**" ووجهت إلي أعذب القول. وكان ثمة عناق فوجئت به دون توقع.. ذلك هو عناق السيدة "**دي ميربوا**"، التي كانت هناك، هي الأخرى! فإن السيدة حرم "**المارشال**" "**دي ميربوا**"، سيدة فاترة العواطف إلى أبعد مدى، شديدة التكلف والتحفظ، ولا تخلو -كما يبدو لي- من الكبرياء والترفع اللذين يفطر عليهما أبناء أسرة "**لورين**". ولم تكن قد أعارتني -من قبل- أي انتباه. وسواء كنت إذ ذاك ميالا إلى أن أضاعف من قيمة هذا الشرف غير المرتقب -وقد استخفني أن أحظى به- أو أنها مزجت حقا عناقها بقليل من العطف المألوف لدى القلوب الرحيمة، فإنني لمست في حركاتها ونظراتها قدرا من الصدق، مما أحدث في نفسي أبلغ الأثر. وكثيرا ما خيل إلي -عندما كنت أفكر في ذلك، فيما بعد- أنها كانت على دراية بالحظ الذي قدر لي، فلم تقو على مقاومة إشفاق عابر، إزاء المصير الذي كان يرتقبني.

أما السيد "**المارشال**"، فلم ينبس ببنت شفة.. وكان في شحوب الموتى. ورغب -في إصرار- في أن يرافقني حتى المركبة التي كانت تنتظرني عند حوض المياه. فقطعنا الحديقة بأسرها معا، دون أن نتبادل كلمة واحدة. وكان لدي مفتاح للمتنزه، استخدمته في فتح الباب، وبدلا من أن أضعه في جيبي بعد ذلك، رددته إلى السيد "**المارشال**"، دون أن أتفوه بشيء. فتناوله في لهفة مدهشة، لا أستطيع أن أمنع نفسي عن التفكير فيها كثيرا، منذ ذلك الحين. ونادرا ما عانيت في حياتي لحظة أمر من لحظة هذا الفراق. وكان عناقنا طويلا، صامتا.. فقد كان كل منا يشعر بأنه الوداع الأخير!

وصادفت في الطريق بين "**لابار**" و"**مونمورنسي**"، عربة مستأجرة، كانت تقل أربعة رجال في ثياب سوداء، حيوني مبتسمين. ومما أنبأتني به "**تيريز**" -فيما بعد- عن مظهر الضباط، وساعة

وصولهم، ومسلكهم، لم يداخلني أي شك في أنهم كانوا نفس ركاب العربة، لا سيما أنني علمت –بعد ذلك– أن مرسوم إلقاء القبض علي، لم يصدر في الساعة السابعة صباحا، كما قيل لي من قبل، وإنما أصدر في منتصف النهار. وكان لابد لي من أن أمر خلال "**باريس**" بأسرها، ولم تكن ثمة وسيلة للاستتار في مركبة صغيرة مكشوفة. ورأيت في الطرقات أشخاصا كثيرين، حيوني شأن من كانوا يعرفونني، وإن كنت لم أتعرف على واحد منهم!.. وفي مساء اليوم ذاته، انحرفت عن طريقي في دورة، لأعرج على "فيلروي".. ذلك لأنه كان على المسافرين الذين ينتفعون بجياد المحطات، أن يسعوا إلى "**حكمدار**" المدينة، في "**ليون**". وكان هذا أمرا محرجا بالنسبة لمسافر كان غير راغب في أن يكذب، ولا في أن يغير اسمه، ومن ثم فإنني ذهبت بخطاب من السيدة "**دي لوكسمبورج**" لأرجو السيد "**دي فيلروي**" أن يعمل على إعفائي من هذا الالتزام. فأعطاني السيد "**فيلروي**" رسالة لم أفد منها؛ لأنني لم أمر بمدينة "**ليون**". ولا يزال هذا الخطاب –بأختامه– بين أوراقي. ولقد ألح السيد الدوق كثيرا، كي أنام ليلتي في "**فيلروي**"، ولكنني استحسنت أن أواصل السفر، وبذلك قطعت مرحلتين أخريين، في اليوم ذاته.

وكانت مركبتي خشنة، كما أنني لم أحظ بقدر من الراحة يمكنني من المضي في الرحيل أياما بطولها. وإلى جانب ذلك، لم يكن لي من فخامة المظهر ما يمكنني من أن أحظى بالخدمات. ومن المعروف في فرنسا أن خيل البريد لا تشعر بالسوط إلا عبر كتفي الحوذي، ومن ثم فقد خيل إلي أنني كنت أستطيع أن أستعيض بالسخاء في عطاء الأدلاء والمرشدين، عن كلمات وإرشادات الوعيد. ولكن هذا زاد الأمر سوءا، فقد ظنوا أنني أفاق، موفد في مهمة، وأنني لم أعتد سوى السير على القدمين، وإنني كنت أسافر مستخدما خيل البريد، للمرة الأولى في حياتي. ومن ذلك الحين لم أعد أحصل إلا على ضعاف الخيل، كما أصبحت ألعوبة الحوذية. وانتهى بي الأمر إلى ما كان يجب أن أتبعه من البداية، فآثرت الصبر والصمت، وتركتهم يتصرفون وفق هواهم!

وكان لدي ما يصونني من السأم خلال الرحلة، إذ أسلمت نفسي إلى الخواطر التي راحت تصور كل ما جرى لي. غير أن هذه لم تكن محور فكري، ولا ملتقى ميول فؤادي. فإن السهولة التي أنسى بها كل سوء انقضى –مهما يكن حديث العهد– تدعو إلى العجب!.. وبقدر ما يزعجني ترقب المحن التي أتمثلها في المستقبل، فإنها لا تعاود ذهني –بمجرد وقوعها– إلا في وهن، ثم تتلاشى دون عناء!.. ذلك لأن خيالي القاسي، الذي يضني نفسه –بلا انقطاع– في ارتقاب النوائب قبل أن تحين، لا يلبث أن يشتت ذاكرتي، ويحول دون أن أسترجع ذكرى ما انقضى من هذه النوائب. فلا حيلة هناك إزاء ماولى، ومن ثم فلا جدوى من الانشغال به. والواقع أنني أستنفد محني مقدما، بطريقة ما، فكلما اشتد عنائي في ارتقابها، سهل عليّ نسيانها.. في حين أنني –على العكس من ذلك– لا أنفك أشغل بالتفكير في ماضي هنائي، فأتذكره وأجتره –كما ينبغي أن يقال– إلى درجة أنني أستطيع أن أستمتع به من جديد عندما يحلو لي!.. وأعتقد أنني مدين لهذا الطبع السعيد بأنني لم أعرف قط ذلك المزاج الناقم الذي يتخمر في قلب حقود –من جراء التفكير المستمر في الإساءة التي حاقت– والذي يعذب نفسه بكل ما يخطر له من شر يريد أن يوقعه بعدوه!.. وإذ كنت بطبيعتي حاد المزاج، فإنني أشعر بالغضب، بل وبالهياج، في عنفوان اللحظة، ولكن الرغبة في الانتقام لم تتغلغل قط في فؤادي. فما أقل ما أفكر في الإهانة، وما أكثر ما أفكر في صاحبها، ولست أفكر في الضرر الذي تلقيته منه، إلا تقديرا لما قد أتلقاه من ضرر جديد منه، فإذا ما وثقت بأنه لن يلحق بي مزيدا من الضرر، فإن

الضرر الذي ألحقه بي من قبل، لا يلبث أن يروح في أدراج النسيان!.. إننا كثيرا ما نوعظ بالصفح عن الإساءات، وهي فضيلة جد بديعة ولا ريب، بيد أنها لا تصلح لي. فأنا أجهل ما إذا كان قلبي قادرا على إيواء البغضاء، لأنه لم يحس بشيء منها قط.. كما أنني أقل تفكيرا في إعفائي من أن أكتسب فضيلة الصفح عنهم!.. ولن أقول إلى أي مدى يعذب أعدائي أنفسهم لكي يعذبوني. فأنا تحت رحمتهم، ولديهم كل السلطان، وإنهم ليستخدمونه!.. على أن ثمة شيئا واحدا فوق سلطانهم، وإني لأتحداهم أن يفعلوه.. ذلك هو أنهم لا يملكون -مهما يعذبوا أنفسهم بسببي- أن يضطروني إلى أن أعذب نفسي من أجلهم!

ومن ثم فإنني -في غداة رحيلي- نسيت كل ما جرى، والبرلمان، والسيدة "**دي بومبادور**"، و السيد "**دي شوازيل**"، و"**جريم**"، و"**دالمبير**"، والمتآمرين معهم والمتآمرات، حتى إنني ما كنت لأفكر ثانية فيهم، لولا الاحتياطات التي كنت مضطرا إلى أن أتخذها.. وواتتني -بدلا من كل هذا- ذكرى أخرى هي مطالعاتي في عشية اليوم السابق على رحيلي. كذلك تذكرت قصائد الرعاة للشاعر "**جيسنر**" التي ترجمها "**هوبير**"وأرسل إلي نسخة منها منذ زمن. ولقد راحت هاتان الذكريان تترددان على فكري، وتمتزجان بشتى الأشكال في عقلي، حتى اعتزمت أن أحاول الجمع بينهما، بأن أعالج موضوع قصة "**اللاويين وأفرايم**"، على طريقة "**جيسنر**". على أن أسلوب قصائد الرعاة بدا -في بساطته- قليل الملاءمة لموضوع رهيب كموضوع قصة التوراة، كما أن من العسير تصور أن حالي الراهنة كانت كفيلة بأن تمدني بأفكار جديدة تخفف من قتامة الموضوع. ومع ذلك فقد أقدمت على التجربة، لمجرد التسلية في مركبتي، ودون ما أمل في التوفيق. فما إن بدأت، حتى ذهلت لسلاسة أفكاري، والسهولة التي أخذت أعبر بها عنها. وفي ثلاثة أيام، نظمت الأناشيد الثلاثة الأولى في هذه القصيدة التي لم ألبث أن أتممتها في "**موتيير**". وأعتقد أنني لم أؤلف في حياتي شيئا يفوقها فيما سادها من رقة مؤثرة، ومن نضارة اللون، وطرافة التصوير وبساطته، ودقة الوصف، والسذاجة العريقة التي شاعت في كل شيء.. كل هذا بالرغم من طبيعة الموضوع المخيفة، التي كانت في جوهرها منفرة. ومن ثم فقد كان لي الفضل في التغلب على هذه العقبة، إلى جانب الصفات الأخرى. وإذا لم يكن ديوان "**لاويو أفرايم**" هو أفضل مؤلفاتي، فإنه سيظل دائما أحبها إلي!.. فما قرأتها ثانية، ولن يقدر لي أن أقرأها مرة أخرى، دون أن ألمس فيها إشراقة قلب خال من السخط، لا يوغره النحس، بل إنه يجد العزاء في نفسه، ويستمد العوض والجزاء من دخيلته، ولو أن جميع أولئك الفلاسفة الذين يتعالون على الشدائد ولما يعرفوها، حشدوا، ووضعوا في موقف كموقفي، وقدم إليهم -في أولى فورات الكرامة والشرف الجريح- مهمة مشابهة لهذه التي أنجزتها، وسئلوا أن يعكفوا عليها، لتبدى كيف أنهم سيبادرون إلى التهرب!

✽✽✽✽✽

وكنت -عند مغادرتي "**مونمورنسي**" إلى "**سويسرا**" -قد عزمت على أن أذهب للإقامة في "**أيفردون**"، مع صديقي القديم الطيب، السيد "**روجان**"، الذي كان قد اعتكف هناك منذ بضع سنوات، والذي كان قد دعاني إلى زيارته. وسمعت في طريقي أن "**ليون**" ستكون بمنأى عن خط سيري، الأمر الذي حال دون أن أمر خلالها. ولكنني من ناحية أخرى - اضطررت إلى أن أمر

"**بيـزانسـون**"، وهي بلدة محصنة، ومن ثم فإنها عرضتني لعين المضايقة التي كنت أخشاها في "**ليـون**". لذلك قررت أن أنحرف إلى اليسار، وأن أواصل سفري عن طريق "**سـالان**"، بحجة زيارة السيد "**دي ميـران**" –ابن أخ السيد "**دوبـان**"– الذي كان يعمل في مصانع الملح، والذي كثيرا ما تلقيت منه دعوات ملحة لأن أزوره. ووفقت حيلتي، إذ إنني لم أجد السيد "**دي ميـران**"، فاغتبطت لأن هذا جنبني التأخر، فاستأنفت رحلتي دون أن يقول لي أي امرئ كلمة واحدة. وإذ اجتزت حدود "**بيـرن**" استوقفت، فهبطت من المركبة، وارتميت على الأرض، ورحت أحتضنها وأقبلها. وهتفت في فرحتي: "أحمدك أيتها السماء، يا حامية الفضيلة.. إنني لأطأ الآن موئلا للحرية!". وهكذا اعتدت –في ثقتي العمياء بأماني– أن أتحمس لما قد يجلب لي الشقاء. ولقد ظن الحوذي المشدوه أنني جننت!.. وعدت أستقل المركبة، فإن هي إلا سويعات قليلة، حتى كنت أحظى بالغبطة النقية العارمة، التي غمرتني إذ وجدت نفسي في أحضان "**روجـان**" الوفي. آه!.. لنتنفس الصعداء لبضع لحظات، لدى مضيفي الكريم. فلابد لي أن أسترد شجاعتي وقوتي، إذ إنني لن ألبث أن أحتاج إليهما معا!

وما أسهبت –دون داع– في ذكر تفصيلات كل الظروف التي قدر لي أن أتذكرها، في رواية الأحداث السالفة. ومع أن هذه الظروف قد لا تبدو جد براقة، إلا أنها قد تلقي ضوءا على مجرى الأحداث، إذا ما أمسك المرء مرة بخيط المؤامرة. مثال ذلك، أنها وإن لم تبين الفكرة الأولى التي نشأت عنها المشكلة التي سأعرضها، إلا أنها تساعد كثيرا على حلها!

فلو أننا افترضنا، أن إقصائي كان ضرورة لا غنى عنها لتنفيذ المؤامرة التي كانت مدبرة لي، لكان كل شيء مسوقا إلى أن يحدث بنفس الشكل الذي حدث به –تقريبا– لكي يتسنى للمؤامرة أن تتم.. أما لو أنني كنت قد واصلت صمودي –كما فعلت في بادئ الأمر– بدلا من أن أسمح للذعر بأن يستولي علي، من جراء الرسالة الليلية التي بعثت بها السيدة "**دي لوكسمبورج**"، وبدلا من أن أضطرب لاضطرابها.. ولو أنني –بدلا من البقاء في القصر– عدت إلى سريري، واستغرقت في النوم حتى الصباح.. فهل كان سيقدر لأمر القبض أن يصدر بالطريقة التي صدر بها؟.. إنه سؤال عظيم، يتوقف عليه حل أسئلة أخرى كثيرة.. ولن يكون من غير المجدي –في دراسته وبحثه– أن نلاحظ الساعة التي أنذرت بأن مرسوم القبض علي سيصدر فيها، والساعة التي صدر فيها فعلا. هذا مثال غير مصقول –ولكنه معقول– لأهمية أتفه التفصيلات في عرض الوقائع التي نبحث خلالها عن الأسباب الدفينة، حتى يتسنى لنا أن نكتشف هذه الأسباب بالاستقراءوالاستنتاج!

الكراسة الثانية عشرة

هنا يبدأ عمل الدياجير، التي أتخبط فيها منذ ثماني سنوات، دون أن يتسنى لي -مهما تكن حيلتي وجهدي- أن أنفذ خلال الظلام الرهيب.. إنني لأحس -في غياهب التعاسات التي اكتنفتني- بإيذاء الصفعات التي توجه إلي، وإني لألمح الأداة المباشرة التي توجهها، ولكنني لا أقوى على أن أرى اليد التي تصدرها، ولا الوسائل التي تحركها وتستخدمها، إن العار والمحن لتهوي علي، وكأنها تتساقط من تلقاء نفسها، دون أن يفطن إليها أحد. وعندما يفلت قلبي الممزق شيئا من الأنين، أبدو في مظهر الرجل الذي يشكو دون ما مبرر لشكوى، فإن مبتدعي دماري، وفقوا إلى الفن الذي يفوق كل إدراك.. الفن الذي استطاعوا به أن يحولوا الرأي العام إلى شريك في مؤامرتهم، دون أن يحدس الرأي العام ذلك، أو يفطن إلى نتائجه!.. ومن ثم فإنني إذ أروي الأحداث المتعلقة بي، وألوان المعاملة التي عانيتها، وكل ما جرى لي، أراني في حال لا تمكنني من أن أكشف عن اليد المحركة، ولا من أن أعين الأسباب وأنا أذكر الأفعال.. فإن هذه الأسباب الأولية تلمس جميعا في الكراسات الثلاث السابقة، حيث تكشفت كل الالتفاتات التي وجهت نحوي، والميول المتعلقة بي، وكل البواعث المستترة. أما أن أذكر كيف تجمعت هذه الأسباب المتباينة، لتخلق الأحداث العجيبة في حياتي، فهذا ما لا سبيل لي إلى شرحه وتعليله، ولو بالحدس والتكهن!.. وإذا كان بين قرائي من أوتوا من كرم النفس، ما يحفزهم على الرغبة في الغوص إلى أعماق هذه المعميات للكشف عن الحقيقة، فليعودوا إلى مطالعة الكراسات الثلاث السابقة بعناية، وليفيدوا من كل واقعة يقرءونها، ومن المعرفة التي يستخلصونها منها، في متابعة الوقائع التي تليها.. وليرجعوا القهقرى من مكيدة إلى مكيدة، ومن عميل إلى عميل، حتى يصلوا إلى المحركين الأوائل لكل شيء.. وإني لأعرف موقنا ما سوف تنتهي إليه أبحاثهم، ولكني تائه أتخبط في الطرق المظلمة المتعرجة الضاربة في أعماق الأرض، حيث قادوني!

*****

تعرفت -خلال إقامتي في "**ايفردون**"- على جميع أفراد أسرة السيد "**روجان**"، ومنهم ابنة أخيه السيدة "**بوي ديلاتور**"، وبناتها اللائي تعرفت أباهن في "**ليون**"، كما أحسبني قد ذكرت من قبل. وكانت السيدة قد جاءت إلى "**ايفردون**" لتزور عمها وشقيقاتها. ولقد أطربتني ابنتها الكبرى -التي كانت في حوالي الخامسة عشرة من عمرها- بمداركها الواسعة وشخصيتها الرائعة. وسرعان ما ارتبطت بالأم والابنة، بأرق روابط الود. وكان السيد "**روجان**" قد اعتزم أن يزوج الأخيرة من ابن أخت له "**كولونيل**"، كان قد تجاوز السن المعقولة، وكان يوليني -هو الآخر- أعظم الود. ولكن.. بالرغم من تحمس العم لهذا الزواج، ومن أن ابن الأخ كان راغبا فيه، ومن إنني اهتممت -في حرارة- بأن أرضي كلا منهما، إلا أن الفارق الكبير في السن، والنفور المسف من ناحية الفتاة، حملاني على أن أعاون الأم في عرقلة هذا الزواج، فلم يقدر له أن يتم. وما لبث "**الكولونيل**" أن تزوج من الآنسة "**ديلان**"، وهي من قريباته، وكانت سيدة ذات جمال وخلق يروقان لفؤادي، وقد جعلته أسعد الأزواج والآباء. ومع ذلك فإن السيد "**روجان**" لم ينس لي قط أنني عارضت رغباته، في هذه

المناسبة. ويعزيني في ذلك يقيني من أنني أديت -سواء نحوه أو نحو أسرته- أقدس واجبات الصداقة، وهو ما لا يتطلب من المرء أن يجعل نفسه مرغوبا على الدوام، ولكنه يتطلب منه أن يكون ناصحا فلا يشير دائما إلا بما فيه الخير!

ولم يطل بي الشك فيما قد ينتظرني من استقبال في "**جنيف**"، إذا أنا ملت إلى العودة إليها، إذ إن كتابي أحرق هناك، كما أصدر مرسوم بالقبض علي في ١٨ حزيران (يونيو)، أي بعد تسعة أيام من ذاك الذي أصدر في "**باريس**". ولقد حشدت في المرسوم الجنيفي كثير من السخافات التي لا يصدقها العقل، كما أن المراسيم الكنسية انتهكت فيه بشكل واضح، حتى إنني لم أشأ أن أصدق الأنباء الأولى، التي تناهت لي عنه، فلما أيدت فعلا، رحت أرتجف فرقا من أن يؤدي مثل هذا الانتهاك المكشوف الصارخ لكل القوانين، إلى إثارة الرأي العام، وإلى قلب "**جنيف**" رأسا على عقب!.. وما كان لي أن أنزعج، فإن كل شيء ظل هادئا!.. وإذا كانت بعض الاضطرابات قد سرت بين الناس، فإنها كانت موجهة ضدي.. فقد عوملت -في جميع الشائعات والتقولات التي انتشرت بين الرأي العام في المدينة- كما يعامل التلميذ الذي ينذر بالضرب بالسياط، لأنه لم يحسن تلاوة درسه الديني!

ولقد كان هذان المرسومان، إيذانا بانطلاق صرخة اللعنة التي تعالت ضدي في "**أوروبا**" بأسرها، مصحوبة بهياج لم يسبقه مثيل. فإذا جميع النشرات الرسمية، والصحف، والكتيبات تردد أفظع إشارات التنبيه إلى الخطر. وإذا الفرنسيون بوجه خاص، ذلك الشعب اللطيف، المؤدب، الكريم، الذي يفخر بقوة ميله إلى الخير، ورعايته للمنكوبين.. إذا بهذا الشعب ينسى فجأة فضائله المحببة إليه، ويمتاز على ما عداه بعدد وقذاعة الإهانات التي تبارى في قذفي بها!.. فرميت بأنني كافر، زنديق، معتوه، متهوس، وحش كاسر، ذئب.. وشن المعلق في "**جورنال دي تريفو**" -صحيفة "**الجيزويت**"- على سعاري الوحشي المزعوم حملة إضافية لم تشن إلا بسعاره هو. وفي وسعك -بإيجاز- أن تقول: إن كل كاتب في باريس، أصبح يخشى أن يصطدم بالبوليس -عندما ينشر شيئا في أي موضوع- إذا هو أغفل أن يحشوه ببعض الإهانات ضدي!.. وأوشكت -في بحثي عبثا عن سبب هذا العداء الشامل- أن أعتقد أن العالم بأسره قد اختبل. يا للعجب!.. أيبث منقح "**السلام الدائم**" الفرقة والشقاق؟.. أيكون مؤلف "أسقف من سافوا" كافرا؟.. أيكون كاتب "**هيلويز الجديدة**"، ذئبا، وكاتب "**إميل**" ملتاثا؟.. أواه يا إلهي!.. فماذا كنت أصبح إذن، لو أنني نشرت كتاب "**العقل**" "الذي وضعه "**مونتسكيو**"، ودعا فيه إلى الإيمان بالعقل وحده" أو أي مؤلف آخر على شاكلته؟.. ومع ذلك، ففي عنفوان العاصفة التي انفجرت على رأس مؤلف هذا الكتاب، لم يضم الرأي العام صوته إلى صوت ظالميه، وإنما انتقم للمؤلف بما أهاله عليه من مديح!.. فمن لي بمن يقارن بين كتابه وكتابي، والاستقبالين المختلفين اللذين استقبلا بهما، والمعاملتين اللتين عومل بهما المؤلفان في مختلف دول أوروبا، ثم يعثر خلال هذه الاختلافات على أسباب لها تقنع أي امرئ سليم الإدراك؟! هذا جل ما أطلب، ولن أزيد!

*****

ووجدت من الراحة في "**ايفردون**" ما جعلني أقرر المقام هناك، مستجيبا للإلحاح الحار، الذي انهال علي من السيد "**روجان**" وأسرته. كذلك شجعني السيد "**دي مواري دي جانجان**" -القائم على الأمن والعدالة في هذه المدينة- على أن أبقى في ظلال سلطانه، بما أبداه لي من أفضال. وأصر

"**الكولونيل**" كل الإصرار على أن أسكن مبنى صغيرا مستقلا، بين فناء داره وحديقتها. وما إن قبلت، حتى انصرف إلى تأثيثه وتجهيزه بكل ما كان ضروريا لحاجاتي المتواضعة. وكان "**روجان**" -صاحب الراية(١)- شديد الحرص على ملازمتي، حتى إنه لم يكن يفارقني طيلة النهار. ولقد كنت أقدر مكرماته كل التقدير، ولكنني كنت أضيق بها أحيانا!

وكان موعد استقراري في المسكن الجديد قد حدد، وكتبت إلى "**تيريز**" كي تلحق بي، عندما نُمي إلي أن زوبعة قامت في "**بيرن**" ضدي، وعزيت إلى غلاة المتدينين، ولم يقدر لي قط أن أكتشف منشأها. فلقد هب مجلس الشيوخ -دون أن يعرف من الذي استنهضه- وبدا أنه غير راغب في أن يدعني في سلام، في عزلتي. وما إن سمع حاكم المدينة بهذا الهياج، حتى كتب في صالحي إلى عدد من أعضاء الحكومة، ولامهم على تعصبهم الأعمى، وعاب عليهم الرغبة في أن يأبوا على رجل قدير، مظلوم، المأوى الذي يجده كثير من الأشرار في ولاياتهم!.. ولقد حدس ذوو العقول الحصيفة، أن تكون حرارة لومه قد أهاجت الأفكار، بدلا من أن تهدئها. ومهما يكن الأمر، فإن مكانته وبلاغته لم تستطيعا دفع الصدمة. وما إن تناهت إليه بادرة عن الأمر الذي كان عليه أن يعاملني بمقتضاه، حتى أوعز إلي به مقدما، فقررت ألا أنتظر هذا الأمر، وأن أرحل في اليوم التالي. وكانت الصعوبة تتمثل في معرفة المكان الذي أذهب إليه. فقد كانت "**جنيف**" و"**فرنسا**" مغلقتين في وجهي، وقد رأيت -مقدما- أن كل حكومة تقلد جارتها، في مثل هذه المسألة!

واقترحت السيدة "**بوي ديلاتور**" أن أقيم في بيت خال، ولكنه مكتمل الأثاث، كان ابنها يمتلكه في قرية "**موتيير**"، في "**فال دي ترافير**" بمقاطعة "**نيوشاتيل**". ولم يكن علي سوى أن أجتاز أحد الجبال، كي أصل إلى هناك. ولقد كان الاقتراح جد مناسب؛ إذ إنني خليق بأن أجد ملجأ من الاضطهاد -بطبيعة الحال- في أراضي ملك "**بروسيا**"، حيث لا يمكن اتخاذ الدين ذريعة لذلك. بيد أن عقبة خفية -لم يكن من اللائق بي أن أذكرها- حملتني على التردد. ذلك أن حب العدالة، الذي يتغلغل في قلبي ويعمره دائما، اتحد مع حبي الخفي لـ"**فرنسا**"، وأوحيا إلي بنفور من ملك "**بروسيا**"، الذي لاح لي أنه -من حيث المبادئ والسلوك- كان يدوس كل اعتبار للقانون الطبيعي، والالتزامات الإنسانية، وقد كان بين اللوحات ذات الإطارات، التي كانت تزين جدران شرفتي في "**مونمورنسي**"، صورة لهذا الأمير، كتبت تحتها بيتين من الشعر، هذا ختامها:

"إنه يفكر بعقل فيلسوف، ويتصرف كملك"!

هذه الشطرة التي كانت خليقة بأن تكون مديحا بديعا -إذا كتبها أي قلم آخر- كانت من قلمي توحي بمعنى غير مبهم ولا غامض، لا يتضح إلا بالشطرة التي كانت تسبقها(٢). وكان "**الشيفالييه دي لورنزي**" قد نقل هذا البيت الشعري وكتبه لـ"**دالمبير**". وما كان لدي أي شك في أن "**دالمبير**" قد عني بأن يستغله، وبأن يرسله قبلي إلى هذا الأمير!.. ولقد ضاعفت من هذا الذنب بفقرة في "**إميل**" تبدي بجلاء شخصية الملك الذي كنت أتمثله تحت اسم "**أدراستي**"، ملك "**داوينيان**". ولم تفت هذه التورية النقاد، إذ رددتها السيدة "**دي بوفلير**" أمامي مرارا. ومن ثم فقد كنت واثقا بأن اسمي قد سجل بمداد أحمر في سجلات ملك "**بروسيا**"، وإذ كنت أرى -إلى جانب ذلك- أن هذا الأمير قد أوتي ما جرؤت على أن أعزوه إليه من مبادئ، لذلك لم يكن من سبيل لكتاباتي، ولا لصاحبها، بأن ينالها منه رضا.. فمن المعروف أن أهل الخبث والطغاة اعتادوا أن يكنوا لي دائما أشد

---

(١) لقب كان يطلق على أي اقطاعي أوتي عددا معينا من رقيق الأرض يبيح له أن يرفع على قصره علما خاصا. (٢) تلك هي: "الشهرة والمنفعة.. هذان هما ربه وقانونه". ولم يكن "روسو" قد كتب هذه الشطرة فوق أختها -تحت الصورة- وإنما كتبها خلفها!

الكراهية القاتلة، بمجرد اطلاعهم على مؤلفاتي، ولو لم يعرفوني معرفة شخصية!

ومع ذلك فإنني لم ألبث أن أقدمت على وضع نفسي تحت رحمته، وقد خيل إلي أنني لن أتعرض لكبير خطر، فقد كنت أعرف أن المشاعر الخسيسة لا تتملك سوى ضعاف الرجال، ولكنها لا تظفر بسلطان يذكر على النفوس ذات الطابع القوي، كتلك التي طالما لمستها في شخصية هذا الأمير. وقدرت أن من سياسته في الحكم، أن يظهر نفسه -في مناسبة كهذه- بمظهر الشهم العالي النفس.. وحكمت -لنفسي- بأن الانتقام الخسيس السهل، لا يمكن أن يعدل في نفسه -ولو للحظة واحدة- حب المجد والشهرة. ووضعت نفسي في مكانه، فلم أر من المستحيل عليه أن ينتهز الظرف، لكي يثقل بكرمه كاهل رجل جرؤ على أن يسيء الظن به. ومن ثم فقد سعيت إلى الإقامة في "**موتيير**"، وأنا مليء النفس بثقة خيل إلي أنه قمين بأن يدرك قيمتها. ورحت أقول لنفسي: "إذا رفع "**چان چاك**" نفسه إلى مرتبة "**كوريولانوس**"، فهل يرضى "**فردريك**" لنفسه بأن يكون أدنى من قائد الفولك؟(١).

ولقد رغب الكولونيل "**روجان**" -في إصرار- في أن يجتاز الجبل معي، ويطمئن إلى استقراري في "**موتيير**". ولم تبتهج لوصولي أخت الزوج السيدة "**بوي دي لاتور**" -وتدعى السيدة "**جيراردييه**"- إذ كانت تجد البيت، الذي كنت موشكا أن أشغله، أكثر ملاءمة لها هي. ومع ذلك فإنها تركتني أستولي عليه في أدب وتلطف، وأصبحت أتناول وجباتي لديها، إلى أن وصلت "**تيريز**" وانتظمت في سكناي الصغيرة وحياتي.

*****

وكنت -منذ رحيلي عن "**مونمورنسي**"- قد أحسست بيقين أنني سأغدو، من ذلك الحين، جواب آفاق، هائما في الأرض. ومن ثم فإنني كنت مترددا في السماح لـ"**تيريز**" بأن تلحق بي، وأن تشاركني حياة التجوال التي رأيت أنه قد قضي علي بها!.. وشعرت بأن الروابط بيننا خليقة بأن تتبدل من جراء هذه الكارثة، وأن ما كان كرما وفضلا -من ناحيتي- من قبل، يجب أن يصبح كرما وفضلا من ناحيتها، بعد اليوم. وإذا كان ولاؤها قد ظل في حصانة ضد محني وتعاساتي، فإنها ولابد كانت شديدة الأسى بسبب هذه المحن والتعاسات. وما كان أساها ليزيدني إلا هموما. أما إذا كانت مصائبي قد خففت من عواطفها نحوي، فلابد أنها مسوقة إلى أن ترى في بقائها على ولاء مستمر لي، تضحية من ناحيتها. وبدلا من أن تشعر بالمتعة التي كنت أحس بها إذ أشركها معي آخر كسرة من الخبز لدي، فإنها كانت خليقة بأن تزداد شعورا بقيمة تضحيتها إذا قدر لها أن تتبعني إلى حيثما كان القدر يسوقني!

ومن الواجب أن أقول: إنني لم أتستر قط على أخطاء "**ماما**" ولا على أخطائي. ومن ثم فلا يجدر بي أن أبدي كثير محاباة لـ"**تيريز**" بدورها. وبقدر ما يسرني أن أكرم شخصا مثلها، جد عزيز على نفسي، فإنني ما كنت لأبغي التستر على عيوبها، إذا اعتبر تحول عواطف القلب -التحول غير الإرادي- عيبا. ذلك أنني كنت قد لاحظت من أمد طويل، أن ودها لي قد فتر. وشعرت بأنها لم تعد لي كما كانت في أيامنا الهنيئة. وقد زادني إحساسا بذلك، أنني ظللت دائما على حالي نحوها.

---

(١) كان "كوريولانوس" قائدا رومانيا أدى لوطنه أجل الخدمات في القرن الخامس، ولكن مزاحميه أوغروا صدور الشعب ضده، ففر لائذا بقبائل "الفولك"، المعادية للرومان، والتي كان قد هزمها من قبل. وقاد جيشا منها فحاصر "روما" وكاد يدمرها لولا ضراعات الشعب التي حملتها إليه أمه وزوجته.

وفطنت -مرة أخرى- إلى شعور بالاستياء، كذلك الذي سبق أن فطنت إليه عندما كنت مع "**ماما**"، وكان له عين النتائج. وليس لنا أن نبحث عن الكمال الذي لا وجود له في الطبيعة، فإن هذا هو عين الشعور الذي كان من المحتمل أن يراود أية امرأة أخرى، مهما تكن.

وما قدر للتصرف الذي اتخذته نحو أولادي -مهما يكن قد لاح لي متمشيا مع العقل والمنطق- أن يدع قلبي في سلام. فبينما كنت أفكر في كتابي: "**رسالة في التربية**"، شعرت بأنني قد أهملت واجبات لا حجة لي في إهمالها ولا عذر. ومالبث ندمي أن اشتد، حتى إنه انتزع مني -تقريبا- اعترافا علنيا بذنبي، في بداية كتاب "**إميل**". وقد ظل هذا الندم ملحوظا بعد ذلك، حتى ليغدو من المدهش حقا، أن ينحى أحد باللائمة علي، بعد مثل تلك الفقرة. على أن مركزي ظل -في ذلك الوقت- على حاله.. بل إنه تفاقم بسبب بغضاء أعدائي، الذين لم يكونوا يرجون سوى أن يعثروا لي على ذنب. ومن ثم فإنني خشيت أن أكرر الذنب.. ولكي لا أتعرض لارتكابه، آثرت أن أقضي على نفسي بانتهاج زهد شديد، حتى لا أعرض "**تيريز**" إلى أن تجد نفسها -مرة أخرى- في نفس الوضع(١).

وإلى جانب هذا، كنت قد لاحظت أن معاشرة النساء كانت تؤثر على صحتي تأثيرا محسوسا.. ولقد أدت كل هذه الأسباب إلى أن عقدت عزمي على أمور لم أكن أواظب على اتباعها في بعض الأحيان، إلا أنني ازددت اطرادا في الدأب عليها منذ سنوات ثلاث أو أربع. وفي هذه الفترة بالذات، شعرت بالبرود يدب في عواطف "**تيريز**" ولقد ظلت على وفاء لي، عن واجب وليس عن حب. وكان لابد من أن يلقي هذا ظلا على بهجة تعاشرنا، فخيل إلي أنها في وثوقها بأنني سأواصل رعايتها أينما كانت، تؤثر أن تظل في "**باريس**"، على أن تهيم معي في أرجاء الدنيا!.. ومع ذلك، فإنها أبدت كثيرا من الألم عند فراقنا، وانتزعت مني وعودا مغلظة بأن نصل شملنا من جديد، وقد عبرت عن هذه الرغبة -منذ رحيلي- للسيد الأمير "**دي كونتي**"، وللسيد "**دي لوكمسبورج**"، بحرارة لم تجعل من العسير علي أن أجد الجرأة على أن أحدثها عن الانفصال فحسب، بل إنني لم أكد أقوى على أن أفكر في ذلك. ومن ثم فما إن شعرت في قرارة فؤادي بمدى استحالة استغنائي عنها، حتى أصبحت لا أفكر إلا في أن أدعوها، دون ما إرجاء. ولهذا فقد كتبت إليها كي تأتي!

وجاءت.. ولم يكن قد انقضى شهران على فراقي إياها، ولكنه كان الفراق الأول بعد سنوات طويلة، فشعر كل منا بقسوته مضاعفة. وكم اهتز قلبانا عندما تعانقنا!... ويا لعذوبة دموع الفرح والحنان!.. لكم ارتوى منها فؤادي!.. فلماذا لم يتح لي أن أذرف منها بحورا؟!

*****

وكنت -عند وصولي إلى "**مونتير**"- قد كتبت إلى اللورد "**كيث**" مارشال "**ايقوسيا**"(اسكتلندا)، وحاكم "**نيوشاتيل**"، أنبئه بأنني قد لذت لاجئا بالأرض التي تخضع لسلطانه، وأسأله أن يبسط علي حمايته. وقد أجاب بالكرم المعروف عنه، والذي كنت أتوقعه منه. ودعاني إلى أن أزوره،. فذهبت في صحبة السيد "**مارتينيه**" -سيد ضيعة "**فال-دي ترافير**"- الذي كان يحظى بمكانة رفيعة لدى سعادته. وكان لوقار مظهر هذا السيد "**الأيقوسي**" الجليل الصالح، ومهابته، أثر في قلبي، حتى لقد كانت تلك اللحظة بالذات، بداية ود حار بيننا، ظل دائما على قوته -بالنسبة لي- وكان جديرا بأن يظل كذلك، بالنسبة له، لولا أن الغادرين الذين حرموني كل عزاء في

(١) أي أنه لم يعد يعاشر "تيريز" معاشرة الأزواج، حتى لا تحمل ثمرة تضعه في موضع المذنب مرة أخرى!

الحياة، استغلوا غيابي وكهولته، فشوهوا من أمري لديه!

وكان "**جورج كييث**" -مارشال "**ايقوسيا**" بالوراثة، وشقيق الجنرال "**كييث الشهير**"، الذي مات ميتة مشرفة، في أعقاب حياة مجيدة -قد هجر بلاده في شبابه، إذ قضي عليه، دون محاكمة، لولائه لآل "**سيتوراث**"، الذين لم يلبث أن عافهم لما ألفاه لديهم من روح ظالمة طاغية، كانت دائما طابع حكمهم. ولقد أقام زمنا طويلا في "**إسبانيا**"، ولكن جوها لم يطب له، وانتهى الأمر إلى ما انتهى بأخيه من قبل، فارتبط بملك "**بروسيا**"، الذي كان خبيرا بالرجال، والذي كان يتلقاهم بما هم به جديرون. ولقد تلقى الجزاء وافيا على هذا الاستقبال، بما أداه له المارشال "**كييث**" من خدمات جليلة، وبما هو أثمن من هذا.. وأعني بذلك ود السيد "**اللورد المارشال**". فما كان هذا الرجل الجليل، المفعم بالحرية والكرامة، والذي أوتي نفسا كبيرة، لينحني إلا لربقة الصداقة والود. على أنه في انحنائه للصداقة كان يسف، إلى درجة أنه لم يعد يتطلع إلى غير "**فردريك**"، مذ تعلق به. ولقد عهد إليه الملك بشؤون مهمة، وأوفده إلى "**باريس**" وإلى "**إسبانيا**"، حتى إذا رآه -في النهاية- قد طعن في السن، وأصبح في حاجة إلى الراحة، أنعم عليه بحكم "**نيوشاتيل**"، حيث راح يقضي ما تبقى له من عمر في عزلة، وقد وجد في إسعاد أهل هذه الولاية مهمة مستعذبة! أما أهالي "**نيوشاتيل**" -الذين لم يكونوا يغرمون بغير المظاهر والسفاسف، والذين لم يؤتوا القدرة على أن يحكموا على حقائق الأشياء والرجال، والذين كانوا يولعون بالإطالة في الحديث- فإنهم حين رأوا الرجل هادئ النفس، بعيدا عن التظاهر، أخذوا بساطته على أنها ترفع، وصراحته على أنها غلظة، وإيجازه في الكلام على أنه غباء، وثاروا على تدابيره وجهوده الرامية إلى الخير، لأنه -في رغبته في أن يكون نافعا، دونما تشدق أو من- لم يعرف كيف يتملق القوم الذين لم يقدروه حق قدره. ففي قضية القس- "**بيتيبيير**" - الذي اضطهده زملاؤه من رجال الدين، لأنه أبى أن يؤمن أنهم ملعونون إلى الأبد، وقف اللورد في وجه ما كان القساوسة يمارسونه من استغلال، فإذا بهم يؤلبون عليه كل البلاد التي كان يعمل من أجلها. ولم يكن هذا الهياج الأخرق قد سكن تماما، في آونة وصولي إلى هناك. إذ كان اللورد معتبرا كرجل متشبث برأيه، ومعتد به -على الأقل- وكانت هذه أدنى الاتهامات التي كان يرمي بها إلى الظلم!

ولقد كان أول شعور خالجني -إذ أبصرت هذا الشيخ الوقور- هو الإشفاق على هذا الجسد النحيل، الذي أنهكته الشيخوخة. ولكنني لم أكد أرفع عيني إلى تلك الأسارير القوية، الصريحة، النبيلة، حتى شعرت باحترام ممتزج بالثقة يستولي علي، ويطغى على كل إحساس آخر. ولقد رد علي التحية الموجزة التي رفعتها إليه -حين قدمت نفسي- بأن تحدث عن أمر آخر،، وكأنني كنت معه منذ أيام ثمانية. بل إنه لم يأمرنا بالجلوس، فظل سيد الضيعة -ذو الثياب المنشاة- واقفا. أما أنا، فقد رأيت في نظرة اللورد الحادة، واللطيفة -في آن واحد- عطفا لم أدر كنهه، أشعرني بارتياح وطمأنينة، فإذا بي أشاطره أريكته -في غير ما كلفة- فأجلس إلى جانبه. وأدركت من اللهجة الأليفة -التي التزمها فورا- أن هذا التحرر مني، صادف قبولا لديه، وأنه قال لنفسه: "هذا ليس على شاكلة أبناء "**نيوشاتيل**"!".

فيا له من أثر فذ انبعث عن شخصية كبيرة فذة!.. وفي السن التي يفقد فيها القلب حرارته الطبيعية، شعرت بقلب هذا الشيخ الطيب يشيع نحوي دفئا، بدرجة أدهشت كل امرئ. ولقد جاء لزيارتي في "موتيير"، بحجة صيد السماني فقضى يومين، دون أن يمس بندقية!

وتوطدت بين الأمير وبيني صداقة -فهذه الكلمة الصحيحة- حتى لم يعد بوسع أحدنا أن يستغني عن الآخر. وكان قصر "**كولومبييه**" -الذي اعتاد أن يقيم فيه، في الصيف- على ستة فراسخ من "**موتيير**"، فكنت أذهب في كل خمسة عشر يوما -على الأكثر- لأقضي هناك أربعا وعشرين ساعة، ثم أعود بقلب مليء بالأمير دائما، وكأنني كنت في حج. ومن المحقق أن الأحاسيس التي كنت أعهدها في طريقي من "**ليرميتاج**" إلى "**أوبون**" -من قبل- كانت تختلف عن هذه التي كنت أستشعرها في عودتي من "**كولومبييه**" إلى "**موتيير**"، بيد أنها لم تكن تفوق هذه لطفا وعذوبة. فكم من دموع كنت كثيرا ما أنفقها -في طريقي- حنانا، إذ أفكر في المكرمات الأبوية، والفضائل الحبيبة، والفلسفة الرقيقة التي أوتيها هذا الشيخ الجليل!.. واعتدت أن أدعوه أبي، فكان يدعوني ابنه. وإن هذين النداءين المستعذبين ليوحيان -إلى حدما- بفكرة عن المودة التي وحدت بيننا، ولكنهما لا يصوران مدى حاجة كل منا إلى الآخر، والرغبة في أن يظل قربنا مستمرا. وراح يصر على الرغبة في أن أقيم بقصر "**كولومبييه**"، وأخذ يستحثني طويلا على أن أتخذ الجناح الذي كنت أنزل به مسكنا لي، ولكنني -في النهاية- أنبأته بأنني كنت أنعم بمزيد من الحرية في مسكني الخاص، وأنني كنت أوثر أن أنفق عمري في السعي لزيارته. فارتاح إلى صراحتي، ولم يعد إلى إثارة الموضوع.

أواه! يا مولاي الطيب!.. أواه، يا أبي الكريم!.. لكم يهتز قلبي -حتى اليوم- كلما تذكرتك!.. آه، يا للقساة الغلاظ!.. أية ضربة أنزلوها بي إذ فرقوا بيننا! ولكن، كلا، ثم كلا، أيها العظيم.. إنك اليوم -وستظل دائما- كما كنت من نفسي! وإذا كانوا قد غرروا بك، إلا أنهم لم يحولوك قط(١)!

ولم يكن اللورد "**المارشال**" مبرءا من العيوب، فهو إنسان، وإن كان حكيما!.. ومع أنه أوتي أشد العقول قدرة على الغوص في أعماق الأمور، وأرق أسلوب يؤتاه بشر، وأعمق معارف الإنسان، إلا أنه كان يستسلم لتغرير الغير به، ولم يكن خداعه ليستعصي عليهم.. كان ذا مزاج فذ، فقد كان يشوب سير عقله شيء من الغرابة والطرافة. كان يبدو عليه أنه ينسى أولئك الذين كان بصره يقع عليهم في جميع الأيام، ثم يذكرهم في اللحظات التي لا يكاد يفكر فيهم خلالها. وكانت التفاتاته تبدو في غير مواضعها، وهداياه تمنح جزافا، دونما مراعاة لمناسبتها. فهو يبعث أو يمنح ما يخطر له عفو اللحظة، غير حافل بعظم قدر الهدية، أو ببخس قيمتها. ولقد قدم إليه يوما شاب من "**جنيف**"، كان راغبا في العمل في خدمة ملك "**بروسيا**"، فبدلا من أن يزوده اللورد بخطاب، دفع إليه بكيس صغير مليء بالبازلاء، وعهد إليه بأن يسلمه إلى الملك الذي لم يكد يتسلم هذه التوصية العجيبة، حتى أنعم على حاملها بمنصب!.. إن لهؤلاء العباقرة الأجلاء لغة خاصة، لن يقدر للعقول العادية أن تفهمها!

وما كانت هذه التصرفات الطريفة، التي تشبه نزوات الحسناء، لتزيد "**اللورد المارشال**" إلا مكانة، ولقد كنت متأكدا -ووجدت فيما بعد الأدلة الكافية- على أن هذه التصرفات لم تكن لتؤثر أي تأثير على أحاسيسه، أو على الاهتمام الذي تفرضه عليه الصداقة في جلائل الأمور. ولكن من الصحيح أنه في تفضله، كان يكشف عن نفس هذه الغرابة التي تخالط مسلكه. ولن أذكر سوى مثال واحد للدلالة على مسألة تافهة القيمة كهذه: ذلك أنه لما كانت الرحلة من "**موتيير**" إلى "**كولومبييه**" أشق من أن أقطعها في يوم، فإنني اعتدت أن أقسمها إلى شطرين. فكنت أشرع فيها بعد الغداء، وأقضي الليل في "**برو**"، القائمة في منتصف الطريق. وكانت لصاحب النزل -ويدعى "**ساندوز**"- حاجة في برلين، يعلق عليها أهمية كبرى. فرجاني أن أسأل صاحب السعادة أن يطلبها له باسمه. ووافقت عن

---

(١) من الصحيح أن اللورد "المارشال". كان وثيق الصلة بـ"هيوم"، ومن ثم فإنه تأثر للأخطاء التي ارتكبها "روسو" نحو الأخير. ولكنه ظل صادق الود لـ"روسو" برغم ذلك. حتى إنه أهداه قبيل موته -وقد توفي في "مايو" سنة ١٧٧٨. سابقا "روسو" بستة أسابيع -ساعة لم يكن يفارقها.

طيب خاطر، فاصطحبته، وتركته في الحجرة الخارجية، ثم ذكرت مسألته للورد، الذي لم يرد بشيء!.. وانقضى الصباح. وفيما كنت أقطع البهو، في طريقي إلى الغداء، رأيت "**ساندوز**" المسكين، وقد أنهكه الانتظار. وخطر لي أن اللورد قد نسي أمره، فعدت إلى الحديث عنه قبل أن يجلس إلى المائدة. ولكنه لم ينبس بكلمة، كما فعل من قبل.. واشتممت من مسلكه أنه كان يوحي بأنني قد تجاوزت حدي في مضايقته، فلذت بالصمت، وأنا أرثي لـ"**ساندوز**" المسكين في سريرتي!.. وشد ما كانت دهشتي حين قابلني في عودتي -في اليوم التالي- بشكر دافق لما أتاحه له صاحب السعادة من كرم الوفادة، وشهي الطعام، فضلا عن تكفله بأوراقه. وبعد ثلاثة أسابيع، أرسل إليه اللورد الوثيقة الرسمية التي كان يسعى وراءها، وقد أعدها الوزير ووقعها الملك.. كل هذا دون أن يبدي أقل رغبة في الحديث إلي، ودون أن يرد علي أو عليه بكلمة واحدة بصدد هذا الأمر الذي خيل إلي أنه كان غير راغب في أن يتكفل به!

وبودي ألا أكف عن الكلام عن "**جورج كيث**"، فمنه تواتيني آخر ذكرياتي السعيدة، أما بقية عمري فلم يكن سوى هموم وشجون تعتصر القلب. ولشد ما تبعث ذكراها الأسى في نفسي، فهي تواتيني مضطربة مهوشة، حتى ليعز علي أن أحتفظ بانتظام سياق قصتي، ومن ثم فسأضطر -منذ الآن- إلى أن أسوقها عفوا، وحسب ما تخطر لي، لا حسب ما وقعت!

*****

لم يطل بي أمد القلق بشأن المكان الذي لجأت إليه، بفضل رد الملك على اللورد "**المارشال**" الذي وجدت فيه -كما يسهل الحدس- محاميا بارعا. فإن جلالة الملك لم يقر ما جرى فحسب، بل إنه كلفه -كما ينبغي أن يقال- بأن يمنحني اثني عشر "**لوي**". وإذ شعر اللورد الطيب بالحرج من مهمة كهذه، ولم يدر كيف ينفذها بنفسه في تلطف، سعى إلى تخفيف ما في تنفيذها من جرح لشعوري، بأن حول النقود إلى حاجيات مادية، فأشار إلي، أنه تلقى أمرا بأن يزودني بالخشب والفحم اللازمين لي في بداية استقراري في المسكن الصغير. بل إنه أضاف إلى هذا -وربما صدر في ذلك عن إيعاز من نفسه- بأن الملك سيسر بأن يعمل على بناء منزل صغير لي، وفق هواي، إذا أنا اخترت الموقع. ولقد أثر هذا العرض الأخير في نفسي أبلغ تأثير، وأنساني رذالات الآخرين. وبدون أن أقبل أيا من الهبتين، رحت أتطلع إلى "**فردريك**" كراع لي وحام. فملت إليه بولاء صادق، حتى إنني اهتممت بسمعته، فوجدت -منذ ذلك الحين- كثيرا من الظلم يشوب انتصاراته. وعندما عقد الصلح -بعد ذلك بقليل- أعلنت اغتباطي بزينات مفرطة الجمال، تمثلت في حبل من زهور الغار زينت به الدار التي كنت أقيم فيها، وأنفقت عليه -بدافع من الانتقام لكرامتي، في الواقع- مبلغا يوازي ذاك الذي أراد أن يمنحنيه.

وخيل إلي، وقد استتب السلام، وأصبح صيت الملك الحربي والسياسي في أوجه، أنه لن يلبث أن يسعى إلى الحصول لنفسه على صيت من نوع آخر، وذلك بإنعاش ولاياته، فيمكن للتجارة والزراعة من أن تتسعا، ويستصلح الأراضي ويعمرها بخلق جديد، ويحافظ على السلم مع جيرانه، ويغدو داعية الوئام في "**أوروبا**"، بعد أن كان مصدر الذعر. كان بوسعه أن يغمد السيف دون أن يتعرض لخطر، وهو مطمئن إلى أنه لن يضطر إلى أن يشهره من جديد. فلما رأيت أنه لم يخفض من تسلحه، خشيت أن يسيء استغلال مميزاته، وألا يمضي في طريق العظمة إلا إلى منتصفه. فجرؤت على أن

أكتب إليه بهذا الصدد، متخذا أسلوب الألفة -وهو خير ما ينتهج لإرضاء الرجال الذين من نوعه- حتى يبلغ مسمعه صوت الحق المقدس، الذي لا يطيق سماعه سوى قلة من الملوك!.. وما استبحت هذا لنفسي إلا في الخفاء، وفيما بيننا فقط، فلم أشرك أحدا، ولا سيدي المارشال، الذي أرسلت إليه الخطاب الموجه إلى الملك مغلقا، فأرسله بدوره إلى هذا، دون أن يطلع على ما حواه، ولم يجب الملك بشيء. وبعد ذلك بوقت قصير، ذهب سيدي المارشال إلى "**برلين**" فاكتفى بأن قال له: إنني عنفت في تأنيبه!.. وأدركت من ذلك أن خطابي لم يلق استحسانا، وأن تحمسي الصريح أخذ على محمل التطفل الخشن، وقد يكون الأمر كذلك، في جوهره. ولعلني لم أقل ما كان ينبغي أن يقال، ولا اتخذت اللهجة التي كان ينبغي أن اتخذها. ولكني لا أحاسب نفسي إلا عن الشعور الذي دفع بالقلم إلى يدي!

وبعد استقراري في "**موتيير-ترافير**" بوقت قصير، واطمئناني إلى كل الضمانات التي تكفل لي العيش في سكينة، اتخذت الزي الأرمني. ولم تكن الفكرة بالجديدة علي، فقد خطرت لي مرارا في سياق حياتي، ثم عاودتني كثيرا في "**مونمورنسي**"، حيث كان استخدامي المستمر للمجسات "لعلاج احتباس البول"، يضطرني إلى أن ألزم مخدعي في كثير من الأحيان، مما جعلني أكثر شعورا بفوائد الثوب الطويل. ولقد ساقت المصادفة حائكا أرمنيا، كان يكثر من التردد على قريب له في "**مونمورنسي**"، فأغراني ذلك بأن أنتهز الفرصة لأتخذ الزي الجديد، برغم ما قد يتقوله الناس، فما كنت شديد الشغل بتقولاتهم. على أنني شئت -قبل أن أرتدي هذه الحلة الجديدة- أن أتعرف رأي السيدة "**دي لوكسمبورج**"، فحبذت كل التحبيذ رأيي. ومن ثم فإنني أعددت "طاقما" صغيرا من الملابس الأرمنية، بيد أن الضجة التي أثيرت ضدي، جعلتني أرجئ استخدامه إلى وقت يكون أكثر هدوءا. ولم يتسن ذلك إلا بعد بضعة أشهر، عندما اضطررت إلى العودة إلى استخدام المجسات، مدفوعا بنوبات جديدة لعلتي.. فخيل إلي أن بوسعي أن أتخذ هذا الزي في "**موتيير**"، دون أن أتعرض لشيء، لا سيما بعد أن استشرت راعي كنيسة المنطقة، فأنبأني بأن بوسعي ارتداءه -حتى في الكنيسة- دون ما استحياء أو إنكار. ومن ثم أقبلت على ارتداء السترة والقفطان، والقلنسوة المصنوعة من الفرو، والحزام. وبعد أن اشتركت في أداء الفروض الدينية بهذا الزي، لم أر أي ضير في أن أرتديه في زيارتي لسيدي "**المارشال**". وما إن رآني سعادته في هذا اللباس، حتى قال، على سبيل الملاطفة: "السلام عليكم"، فكان في هذا حسم الأمر، ولم أعد بعد ذلك أرتدي زيا آخر!

*****

ولما كنت قد هجرت الأدب تماما، فإنني لم أعد أفكر إلا في ممارسة حياة هادئة، وادعة، في نطاق إمكاني. فما عرفت يوما -حين أخلو إلى نفسي- معنى الملل، حتى عندما أكون متعطلا تماما.. إذ إن خيالي كفيل بأن يملأ كل فراغ، وهو وحده خليق بأن يشغلني عما سواه. ولكن الذي أعجز عن احتماله دائما، هو الثرثرة الخاملة، بين جدران أربعة، حين يجلس الناس بعضهم إلى بعض، دون أن يحركوا شيئا سوى ألسنتهم!.. كذلك المشي والتريض من الأمور التي أحتملها، إذ إنهما يمكنان القدمين والعينين من أن تعمل، على الأقل!.. أما الجلوس بذراعين معقودتين، والحديث عن الجو، والذباب يحلق في المكان، أو تبادل المجاملات -وهو أسوأ مما سبق- فهذا عبء لا يطاق بالنسبة لي.

ولقد راق لي -حتى لا أعيش في عزلة وحشية- أن أشغل نفسي بالتطريز "**اللاسيه**"، فكنت أحمل وسادة الشغل في زياراتي، أو أنهمك في التطريز لدى بابي، وأنا أجاذب المارة الحديث، كما تفعل النساء!

ولقد ساعدني هذا على احتمال اللغو الفارغ، وعلى قضاء الوقت -دونما ضجر- في دور الجيران، الذين كان بينهم عدد لا يعوزهم اللطف، ولا ينقصهم الذكاء. وقد كانت من هؤلاء امرأة تدعى "**ايزابيل دانفرنوا**"، ابنة المدعي العام في "**نيوشاتيل**"، وقد لاح لي أنها جديرة بأن أرتبط معها برباط خاص من الود، لم تجد فيه ما يضيرها، بفضل النصائح النافعة التي كنت أزجيها إليها، وبفضل الخدمات التي كنت أؤديها لها في المناسبات الماسة.. فأصبحت اليوم أما محترمة، وربة أسرة فاضلة.. ولعلها مدينة لي بحكمتها، وزوجها، وحياتها، وسعادتها!.. أما أنا، فادين إليها بكثير من التسرية الرقيقة، لا سيما خلال الشتاء الكئيب، عندما كانت عللي وأوجاعي ترقى إلى ذروتها. فكانت تأتي لتقضي مع "**تيريز**" وإياي السهرات الطويلة، التي تحذق تقصيرها بروحها المرحة، وبالثقة التي كانت متبادلة بيننا. وقد اعتادت أن تدعوني "بابا" وأناديها بيا"**ابنتي**". ولا نزال نستخدم هذين اللقبين، وإني لآمل أن أظل عزيزا عليها -دون انقطاع- كما هي عزيزة علي!

ولكي أجعل لأشغال "**اللاسيه**" نفعا، اعتدت أن أهديها إلى صديقاتي الشابات عند زواجهن، على شريطة أن يغذين أطفالهن بلبانهن. وعلى هذا، حصلت الأخت الكبرى لـ"**إيزابيل**" على مفرش من "**اللاسيه**"، وكانت جديرة به حقا.. ولكنها لم تسعد بحمل الأطفال، ولم يقدر لها أن تكون أما. ولقد حرصت -عند إرسال "**اللاسيه**" إلى "**ايزابيل**" وأختها- على أن أكتب لكل منهما رسالة. وقد طافت أولى هاتين الرسالتين أرجاء العالم. أما الثانية، فلم يقدر لها هذا الحظ من الشهرة.. فإن الصداقة لا تستقيم مع الصخب والضجيج!

*****

ومن الصلات التي عقدتها في الجيرة -والتي لن أخوض في تفصيلاتها- علاقتي بالكولونيل "**بوري**"، الذي كان يمتلك دارا فوق الجبل، اعتاد أن يقضي فيها فصل الصيف. ولم أكن مشوقا إلى معرفته، إذ كنت قد عرفت أنه على علاقات سيئة مع البلاط الملكي، ومع السيد المارشال، الذي لم يزره قط. ومع ذلك، فقد اضطررت إلى أن أزوره، إذ زارني وأبدى لي كثيرا من التكريم والحفاوة. وقد استمر تزاورنا، وكنا نتناول الطعام أحيانا، على مائدته أو مائدتي. ولقد تعرفت في داره بالسيد "**دوبييرو**"، الذي لم يلبث أن غدا صديقا حميما، حتى إنني لا أستطيع أن أتحاشى الحديث عنه.

كان السيد "**دوبييرو**" أمريكيا، ابن قائد "**سورينام**" الذي تزوجت أرملته من خليفته السيد "**لوشامبرييه**" -من أبناء "**نيوشاتيل**"- حتى إذا ترملت مرة أخرى، وفدت مع ابنها ليقيما في بلاد زوجها الثاني. وكان "**دوبيير**" ابنا لا مثيل له، واسع الثراء، مشغوفا بحب أمه، وقد نشأ في رعاية وعناية، وأفاد من تربيته، إذ كان قد حصل قدرا كبيرا من المعرفة العامة، وكان على ميل إلى الفن، كما كان يفخر بأنه أنمى بنفسه مداركه وعقله، وكان مسلكه فاترا، فيلسوفيا، على نسق الهولنديين.. وكانت بشرته السمراء، وخلقه الصامت المتحفظ تؤيد هذه الفكرة كل التأييد. وكان أصم، ومصابا بالنقرس، بالرغم من أنه كان شابا. وقد جعل هذا حركاته جد متزنة، ومفرطة في التثاقل. ومع أنه كان يحب النقاش -ويطيله في بعض الأحيان- إلا أنه كان قليل الكلام، بوجه عام، لأنه لم يكن يسمع!

ولقد غرني كل هذا المظهر، فقلت لنفسي: "ها هو ذا رجل مفكر، عاقل، من الصنف الذي يسعد المرء بصداقته". ومما زادني اغترارا فيه، أنه كان كثيرا ما يوجه إلي الحديث، دون أي إطراء. وكان قليل الحديث عني وعن كتبي، وأقل من ذلك عن نفسه. ولم يكن خلوا من الآراء، بل كان كل ما يقوله منها صحيحا إلى درجة كبيرة. وقد اجتذبتني إليه هذه الدقة، وهذا الصواب. ولم يؤت عقله شيئا من السمو ولا من الإرهاب اللذين أوتيهما السيد "**المارشـال**"، ولكنه أوتي البساطة.. فكانت تتمثل دائما في كل شيء.

ولم أشغف به، ولكنني انجذبت إليه بشعور من التقدير، وقد أفضى هذا التقدير -تدريجا- إلى الصداقة. ولقد نسيت تماما -في صداقتي معه- الاعتراض الذي كنت أبديته إزاء صداقتي مع البارون "**دولبـاخ**"، وذلك أنه كان واسع الثراء.. وأعتقد أنني كنت في ذلك على خطأ. فلقد تعلمت أن أرتاب في أن أي رجل أوتي ثروة طائلة، يستطيع أن يحب مبادئي بإخلاص، وأن يحب صاحبها!

ولقد ظللت فترة طويلة، لم أكن أرى "**دو بييرو**" فيها إلا لماما، إذ إنني نادرا ما كنت أذهب إلى "**نيوشاتيل**"، كما أنه لم يكن يزور الكولونيل "**بوري**" -في بيته الجبلي- إلا مرة في العام. فلماذا لم أكن أذهب إلى "**نيوشاتيل**"؟.. لسبب صبياني، لا أرى أن أغفله.

ذلك أنني وإن كنت -في حماية ملك "**بروسيا**" والسيد "**اللورد**" -قد نجوت، في البداية، من الاضطهاد في البلد الذي لذت به، إلا أنني لم أنج قط من تمتمات الجمهور، ومستشاري البلدية، والقساوسة. وبعد المثل الذي ضربته "**فرنسا**"، لم يكن من المستحسن ألا توجه إلي بعض الإهانات، على الأقل. فلقد خشي القوم أن يظهروا بمظهر غير المحبذين لمضطهدي، إذا هم لم يقلدوهم. وكانت الطبقة الممتازة في "**نيوشاتيل**" -وأعني جماعة القساوسة في تلك المدينة- هي البادئة، إذ حاولت أن تؤلب مجلس الدولة ضدي. فلما لم يقدر لهذه المحاولة النجاح، اتجه القساوسة إلى أعضاء المجلس البلدي، الذين بادروا بتحريم كتبي، وراحوا في كل مناسبة يعاملونني في أزورار، ليوحوا إلي -بالقول وليس بالإشارة فحسب- بأنني إذا كنت أبغي الاستقرار في مدينتهم، فإنهم لن يطيقوا مقامي. وملئوا أعمدة صحيفتهم "**ميركور**" بالسفاسف المضحكة، والانتقادات السطحية، التي أضحكت ذوي الإدراك، ولكنها لم تخفق في إثارة الجمهور وتحفيزه ضدي. وما كان سماعي بكل هذا ليمنعني من أن أكون جد شاكر لهم فضلهم البالغ، إذ سمحوا لي بأن أقيم في "**موتيير**"، حيث لم يكن لهم أي سلطان.. فقد كانوا خليقين بأن يقيسوا الهواء بالشبر، ليتقاضوا مني -في مقابله- ثمنا باهظا! فلقد كانوا تواقين إلى أن يشعروني بأنني أسير فضل كبير لهم، من جراء الحماية التي أضفاها الملك علي بالرغم منهم، والتي كانوا دائبين على العمل لحرماني منها، وإذ تبينوا -أخيرا- أنهم لن يوفقوا في ذلك، وبعد أن ألحقوا بي كل ما كان بوسعهم من إيذاء، وأساءوا إلي بكل ما في طاقتهم، فقد جعلوا من قحتهم فضيلة، بأن راحوا يمنون علي بفضلهم إذ تحملوا بقائي في بلادهم. وكان الجواب الوحيد الذي يخلق بي أن أوجهه إليهم هو: أن أضحك منهم ساخرا. لكنني -بدلا من ذلك- كنت من الغباء بدرجة أنني غضبت، وكنت من الحماقة بدرجة أن عقدت العزم على ألا أذهب إلى "**نيوشاتيل**".. وهو عزم تشبثت به عامين تقريبا، وكأنني لم أكن أبدي لمثل هؤلاء المخلوقات كثيرا من الإكبار، بما كنت أبديه من احتفال بمسلكهم الذي ما كانوا ليعتبروا مسؤولين عنه -سواء كان طيبا أو خبيثا- لأنهم ما كانوا ليتصرفوا قط، دون تحريض! وإلى جانب ذلك، فإن العقول الخالية من الثقافة والنور، لا تعرف هدفا تقدره سوى الصيت، والنفوذ، والمال.. وهي بعيدة كل البعد عن أن تحدس أن

المواهب جديرة بشيء من الاحترام، وأن في إهانتها عارا يحط من أقدارهم!

ولقد قال مرة أحد عمداء القرى -وكان قد أوقف عن عمله لسوء تصرفاته- لرئيس بولي "**فال-دي-ترافير**"، الذي كان زوجا لصديقتي "**ايزابيل**": "يقال: إن هذا الـ"**روسو**" رجل واسع العقل، فهاته لي، كي أتبين مدى صدق هذا!". ومن المؤكد أن عدم رضاء رجل يتحدث بهذه اللهجة، لا يستحق أن يضايق أولئك الذين يريد أن يفحصهم ويختبرهم!

*****

وعلى ضوء الطريقة التي عوملت بها في "**باريس**"، و"**جنيف**"، و"**بيرن**"، و"**نيوشاتيل**" ذاتها، لم أتوقع كثيرا من الاعتبار، من الراعي الديني للمنطقة. ومع ذلك فإن السيدة "**بوي ديلاتور**" كانت قد أوصته بي خيرا، وكان قد استقبلني في حفاوة بالغة. ولكن المجاملات لم تكن تعني شيئا، في هذا البلد الذي كان النفاق يسوده. على أنني بعد عودتي الصادقة إلى الكنيسة البروتستانتية، وإقامتي في بلاد بروتستانتية، لم أعد أملك إهمال إبداء إيماني للملأ بالدين الذي عدت إليه، وإلا كنت ناكثا بعهودي، مغفلا واجباتي كمواطن. ولهذا أخذت أحضر الطقوس الدينية. ولكني من ناحية أخرى، كنت أخشى أن يؤدي حضوري المأدبة الربانية، إلى أن أتعرض للإهانة بأن يرفض القس السماح لي بتناول القربان. فما كان من المحتمل إطلاقا -بعد الضجة التي أقامها المجلس ضدي في "**جنيف**"، وتلك التي أثارها رجال الدين في "**نيوشاتيل**" -أن يقوم القس بطقوس المناولة لي، في هدوء، في كنيسته. ولما كان موعد المناولة يقترب، فقد قررت أن أكتب إلى السيد "**دي مونمولان**" -وهذا اسم القس- معربا عن حسن نواياي، ومعلنا له أنني كنت مرتبطا بقلبي بالكنيسة البروتستانتية دائما. وقلت له في الوقت ذاته -تفاديا لكل خلاف على نصوص العقيدة-: إنني لم أكن راغبا في أي شرح خاص لأسس العقيدة.. وإذ أوضحت موقفي -بهذا الشكل- لزمت الهدوء، والشك لا يخامرني في أن السيد "**دي مونمولان**" لن يأبى أن يعفيني من المناقشات الأولية -التي تسبق المناولة عادة، والتي كنت مصرا على ألا أخوضها إطلاقا- وأن المسألة ستسوى على هذا الوضع، دونما لوم ينصب علي.

ولكن شيئا من هذا لم يحدث! ففي اللحظة التي لم أكن أتوقع فيها هذه المفاجأة، إذا بالسيد "**دي مونمولان**" يقبل.. لا لينبئني بأنه كان راضيا عن مناولتي القربان -بالشرط الذي ذكرته- فحسب، وإنما ليخبرني فوق هذا، بأنه وشيوخ الكنيسة يرون أن في وجودي عضوا بين رعاياهم شرفا لهم!.. أبدا لم أفاجأ في حياتي كما فوجئت بذلك، وأبدا لم أجد في شيء ما وجدت في هذا النبأ من عزاء.

كان اضطراري إلى العيش في عزلة على الدوام، يبدو لي مصيرا جد كئيب، لا سيما في أوقات المحنة. ففي وسط كل هذه الأحكام التي كنت أدمغ بها -دونما إنصاف- وكل هذه الاضطهادات، كنت أجد ترفيها بالغا في أن أستطيع أن أقول لنفسي: "هأنذا بين أخوة، على الأقل!". ومن ثم فقد ذهبت للتناول بقلب يفيض بالانفعالات، وبدموع منبعثة من عواطف رقيقة، لعلها كانت خير عدة يقبلها الله، ويستطيع امرؤ أن يحملها إلى المائدة الربانية!

وأرسل لي السيد "**اللورد**" -بعد ذلك بزمن- رسالة من السيدة "**دي بوفلير**"، جاءت -كما خيل إلي- عن طريق "**دالمبير**" الذي كان يعرف السيد "**المارشال**". وكانت هذه هي الرسالة الأولى التي

كتبتها إلي هذه السيدة، منذ رحيلي عن "**مونمورنسي**"، وقد لامتني فيها -أشد اللوم- على أنني كتبت إلى السيد "**دي مونمولان**"، وعلى أنني تناولت القربان، بوجه خاص. ولم أكد أفهم داعيا للومها هذا، إذ إنني -منذ رحلتي الأولى إلى "**جنيف**"- كنت أعلن جهارا أنني بروتستانتي، وقد ترددت علانية على كاتدرائية "**هولندا**"، فلم ير أحد في هذا أي سوء. وبدا لي من المضحك أن ترغب السيدة الكونتة "**دي بوفلير**" في أن تقحم نفسها في توجيه ضميري، من الناحية الدينية. على أنني كنت لا أرتاب في أن نواياها -لا سيما هذه التي لم أستطع أن أفهمها- هي خير النوايا، ومن ثم فإنني لم أستأ من هذا العتاب العجيب، بل أجبت في غير غضب، وأوضحت لها الأسباب.

وفي تلك الأثناء، كانت الإساءات المطبوعة مستمرة، كشأنها من قبل، وكان مؤلفوها "الكرام!" يؤنبون السلطات لأنها تعاملني في لين فوق ما ينبغي. ولقد كان هذا النباح -الذي ظل قادته يعملون في الخفاء- نذير شؤم وفزع. على أنني -من ناحيتي- تركتهم يقولون ما شاءوا، دون أن أتأثر. ولقد أكد لي البعض أن ثمة قرارا بلومي على كتبي، قد صدر عن "**السوربون**"، فأبيت أن أصدق ذلك(١).

إذ كيف للسوربون أن يتدخل في هذه المسألة؟ فهل أريد بذلك تأكيد أنني لم أكن كاثوليكيا؟ لقد كان كل امرئ يعرف هذا بالفعل!.. أم أريد به إثبات أنني لم أكن من أتباع "كالفن" الصالحين(٢)؟ فأي شأن للسوربون في هذا؟.. كان معنى هذا أن "**السوربون**" أخذ على عاتقه مهمة نافذة، وأناب نفسه عن قساوستنا. وأيقنت -قبل أن أرى الوثيقة- أنها كانت تروج باسم "**السوربون**"، للسخرية منه، وقد ازددت اقتناعا بذلك عندما قرأتها.

وعندما عجزت عن أن أشك في صحة صدورها عن "**السوربون**" -في النهاية- لم يبق لي ما أفكر فيه سوى أنه كان من الواجب تحويل "**السوربون**" إلى مصحة للأمراض العقلية!

سنة ١٧٦٣

وهناك وثيقة أخرى أثرت في نفسي فوق تأثير هذه، لأنها صدرت عن رجل كنت أقدره -على الدوام- وكنت أعجب بجلده وأنا أرثي لضياع بصره. وأقصد بهذا القول الرسالة الأسقفية التي كتبها كبير أساقفة باريس ضدي. ولقد خيل إلي أن ليس ثمة داع لأن أرد عليها. وكان بوسعي أن أفعل، دون أن أنزل من قدر نفسي. فقد كانت مسألة قريبة الشبه من مسألة ملك "**بولندا**". وما كنت يوما مولعا بالمشاحنات الوحشية، "على طريقة فولتير"!.. فلست أجيد سوى النزال الذي يحفظ للمرء كرامته، ولابد -قبل أن أتنازل بالدفاع عن نفسي- من أن أستوثق بأن الذي يهاجمني لن يشوه ضرباتي!

ولم يداخلني شك في أن هذه الرسالة الأسقفية كانت من عمل "**الجيزويت**"، ومع أنهم كانوا إذ ذاك منكوبين، إلا أنني رأيت في هذا العمل مصداقا لمبدئهم القديم.. "مبدأ سحق المنكوبين" ومن ثم فقد كان بوسعي أن أتبع -أنا الآخر- مبدئي القديم، مبدأ تكريم المؤلف وسحق الكتاب. وهذا ما أعتقد أنني وفقت في أدائه.

---

(١) كان "السوربون" معهدا لعلوم اللاهوت، في ذلك الحين. (٢) "جون كالفن" مصلح ديني سويسري، قام يبشر بإصلاح الكنيسة منذ سنة ١٥٣٢، ويسمى المذهب الذي قام على تعاليمه بالمذهب البريسبيتيري. وهو قريب من المذهب البروتستانتي.

ولقد وجدت إقامتي في "**موتييير**" جد مستحبة، فلم يكن يعوزني سوى الحاجة إلى مورد ثابت للعيش، كي أقرر قضاء آخر أيام عمري هناك. بيد أن الحياة كانت باهظة التكاليف، وكانت كل مشروعاتي القديمة قد انقلبت رأسا على عقب، بسبب نزوحي عن مكان إقامتي القديم، والعمل على إنشاء مقر جديد لي، وبسبب بيع أمتعتي أو تبديدها، وبسبب النفقات التي كنت مضطرا إلي تكبدها منذ رحيلي عن "**مونمورنسي**". ورحت أرى رأس مالي الصغير يتضاءل يوما بعد يوم، حتى بات في وسع عامين آخرين أو ثلاثة، أن تأتي على ما تبقى منه، دون أن أرى موردا آخر لتعويضه، اللهم إلا إذا شرعت في تاليف الكتب من جديد.. وممارسة المهنة المشؤومة التي كنت قد نبذتها!

*****

وإذ كنت مؤمنا بأن الأمور لن تلبث أن تتطور عما قريب، وأن الرأي العام لن يلبث أن يثوب من تهوسه، وأن يحمل السلطات على أن تخجل من تصرفها، فكان همي الأوحد، هو أن أجعل مواردي تستمر حتى يحدث هذا الانقلاب السعيد، الذي سيتيح لي وضعا، أكون أكثر مقدرة فيه على أن أختار موردا من الموارد التي تعرض لي. وفي سبيل ذلك، عدت إلى استئناف موسوعتي الموسيقية التي كنت -بعد جهد استغرق عشر سنوات- قد قطعت شوطا بعيدا فيها، فلم يعد ينقصها سوى المراجعة الأخيرة، وأن تنسخ نسخا نظيفا. ولقد وفرت لي كتبي -التي كانت قد أرسلت إلي منذ وقت قصير- وسائل إتمام هذا المؤلف.. كما أن أوراقي -التي أرسلت إلي في الوقت ذاته- مكنتني من البدء في مشروع مذكراتي، التي اعتزمت أن أجعلها شاغلي الوحيد، من ذلك الحين. وقد شرعت في نسخ الرسائل في مجموعة تهدي ذاكرتي إلى نظام الوقائع والتواريخ. وكنت قد اخترت تلك الرسائل التي رأيت أن أعدها لهذا الغرض، وقد نسقت في تتابع لم ينقطع زهاء عشر سنوات تقريبا. غير أنني تبينت -وأنا أراجعها لأنسخها- ثغرة خلالها أدهشتني. وكانت هذه الثغرة تشمل ستة أشهر، من تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٧٥٦ إلى آذار (مارس) التالي!

وكنت أذكر تمام التذكر أنني ضمنت مجموعتي عددا من الرسائل التي تلقيتها من "**ديدرو**"، و"**دي ديلير**"، والسيدة "**ديبيناي**"، والسيدة "**دي شينونسو**" وغيرهم، والتي كانت تملأ هذه الثغرة، ولم يعد لها وجود. فما الذي جرى لها؟.. هل عبثت يد بأوراقي أثناء بضعة الأشهر التي مكثتها في قصر "**لوكسمبورج**"؟.. كان هذا الأمر بعيدا عن المعقول، إذ إنني رأيت السيد "**المارشال**" يأخذ بنفسه مفتاح الغرفة التي أودعت فيها هذه الأوراق. ولما كان كثير من رسائل السيدات، وكل رسائل "**ديدرو**"، لا تحمل تاريخا، وكنت قد اضطررت إلى ترتيب تواريخها اعتمادا على الذاكرة، وكنت كمن يتلمس طريقه في الظلام لتنسيق ترتيبها، فقد ظننت -في بادئ الأمر- أنني ربما كنت قد أخطأت حدس التواريخ.. ورحت أراجع كل الخطابات التي لم تكن تحمل تواريخ، أو التي كنت قد سجلت عليها التواريخ بنفسي، لأتبين ما إذا لم يكن بوسعي العثور على تلك التي كانت لازمة لملء الثغرة.

ولم تفلح هذه المحاولة، فتبينت أن الفراغ كان قائما حقا، وأن الخطابات كانت قد رفعت من مكانها يقينا. فمن الذي رفعها، ولماذا؟ هذا ما لم أستطع إدراكه!.. كانت هذه الرسائل سابقة على مشاحناتي الكبرى، وتمت إلى فترة نشوتي الأولى بـ"**جولي**". ومن ثم فإنها لم تكن ذات أهمية

لأحد. كانت تضم -في الغالب- بعض مشاكسات من "**ديدرو**"، وبعض سخريات من "**ديلبير**"، وبعض تأكيدات للود من السيدة "**دي شينونسو**"، بل ومن السيدة "**ديبناي**" التي كنت معها إذ ذاك على خير وئام. فمن الذي تهمه هذه الخطابات؟.. وماذا يراد بها.. ولكني لم أحدس الغرض البشع من هذه السرقة إلا بعد سبع سنوات!

وحملني تأكدي من هذا النقص، على أن أفحص مسوداتي لأتبين ما إذا كان ثمة نقص آخر، فوجدت عددا منها مفقودا، ونظرا لقصور ذاكرتي، جعلني هذا أفترض ضياع أوراق أخرى من أكداس أوراقي. وكانت المسودات التي لاحظت غيابها، هي تلك المتعلقة بكتاب "**المبادئ الخلقية الحسية**"، والفقرات المستخلصة من "**مغامرات اللورد إدوار**". وأعترف أن غياب هذه الأخيرة، أوحى إلي بالشك في السيدة "**دي لوكسمبورج**". فلقد كان وصيفها الخاص "**لاروش**"، هو الذي نقل أوراقي، وما كنت لأتصور سواها -دون الناس أجمعين- من يهتم بمثل هذه القطعة. ولكن، أي اهتمام كان يدفعها إلى أخذ الثانية، وإلى أخذ الرسائل الغائبة، التي ما كان بوسع امرئ أن يفيد منها في مضايقتي -مهما تكن نياته خبيثة- اللهم إلا إذا زيفها؟.. أما السيد "**المارشال**"، الذي عهدت فيه استقامة لا تتذبذب، وصدقا في وده لي، فإنني لم أملك أن أرتاب فيه لحظة واحدة. بل إنني لم أملك أن أثبت هذا الشك على السيدة "**المارشالة**"!

وكان أكثر الافتراضات التي خطرت لي، تمشيا مع المعقول -بعد أن أضنيت نفسي وقتا طويلا في البحث عن مرتكب هذه السرقة- هو أن ألقي بالوزر على "**دالمبير**"، الذي كان قد وفق إلى اكتساب مكانة لدى السيدة "**دي لوكسمبورج**"، فكان من المحتمل أن يكون قد وفق إلى وسيلة للنبش في أوراقي، والاستيلاء على ما استطاع الاستيلاء عليه، سواء من المخطوطات، أو من الرسائل، وسواء جريا منه وراء إثارة بعض الفتن، أو لكي ينسب إلى نفسه ما قد يراه نافعا منها. وافترضت أن يكون قد أساء فهم عنوان "**المبادئ الخلقية الحسية**"، فخيل إليه أنه قد عثر على مشروع رسالة حقيقية عن "المادية"، يستطيع أن يستغلها ضدي بالقدر الذي صوره له خياله. وإذ كنت واثقا بأنه لن يلبث أن يتبين الحقيقة عندما يفحص المسودة، كما كنت قد عقدت العزم على أن أهجر الأدب نهائيا، فإنني لم أهتم كثيرا بهذه السرقات، التي لم تكن أول ما ارتكبته تلك اليد ذاتها، والتي احتملتها دون ما شكوى. فلقد وجدت في كتاب "**دالمبير**": "**مبادئ الموسيقى**" كثيرا من الأشياء المأخوذة عما كنت قد كتبته في هذا الفن لدائرة المعارف، والتي كانت قد أرسلت إليه قبل طبع كتابه بسنوات عديدة. وإني لأجهل ما قد يكون له من نصيب في كتاب بعنوان "**موسوعة الفنون الجميلة**"، ولكني وجدت فيه مقالات منقولة بالكلمة من مقالاتي.. قبل أن تنشر هذه في دائرة المعارف!

وسرعان ما كففت عن التفكير في هذه الخيانة، وكأنما لم يرتكب ضدي قط عمل كهذا، وشرعت أنسق المواد التي تبقت لي، لكي أتوفر على "اعترافاتي".

*****

وكنت قد ظللت طويلا أعتقد أن جماعة القساوسة في "**جنيف**"، أو أن المدنيين وسكان المدن -على الأقل- لن يلبثوا أن يحتجوا على انتهاك القانون، في المرسوم الذي كان قد أصدر ضدي، بيد أن كل شيء ظل ساكنا.. في الظاهر على الأقل، إذ إنه كان ثمة تذكر عام، لم يكن ينتظر سوى مناسبة يعلن فيها عن وجوده. وكان أصدقائي -أو من يسمون أنفسهم كذلك- قد كتبوا لي الرسائل

تلو الرسائل، يستحثونني على أن أذهب فأضع نفسي على رأسهم، مؤكدين لي أن المجلس لن يلبث أن يصدر اعتذارا علنيا، إذ ذاك. على أن الخوف من القلاقل والاضطرابات، التي قد يثيرها وجودي، منعني من قبول إلحاحهم.

وفي وفائي للعهد الذي كنت قد أخذته على نفسي في الماضي، بألا أقحم نفسي في أي شقاق أهلي في بلادي؛ ولذلك آثرت أن يبقى انتهاك العدالة قائما على حاله، وأن أحرم وطني على نفسي إلى الأبد، على أن أجبه بوسائل عنيفة وخطرة. ومن الصحيح أنني كنت أرتقب من أبناء المدن مظاهرات سلمية وقانونية ضد المخالفة التي كانت تهمهم إلى أقصى حد، إلا أن شيئا من هذا لم يحدث. فإن أولئك الذين كانوا يقودونهم، لم يكونوا يسعون إلى علاج الأخطاء والمساوئ، بقدر ما كانوا ينشدون فرصة ليجعلوا من أنفسهم قادة لا غنى عنهم. وكانوا يسعون بالتحريض، ولكنهم لزموا الصمت، وأطلقوا الزمام للشائعات والأكاذيب التي كان المجلس يروجها ليشوه من سمعتي أمام الأهالي، وليعزو إساءاته إلى الحماس الديني!

وبعد أن انتظرت –دون جدوى– أكثر من عام، على أمل أن يحتج أحد على الإجراء غير القانوني، استقر رأيي –في النهاية– على قراره وإذ وجدت نفسي مهجورا من مواطني، صممت على أن أنبذ وطني الجاحد، الذي لم أقم فيه قط، والذي لم أتلق منه خيرا ولا عونا، والذي جازاني على الشرف الذي سعيت لإضفائه عليه، بأن وافق بالإجماع على معاملة مهينة. وإذ لم ينبس بكلمة أولئك الذين كان ينبغي عليهم أن يتكلموا، كتبت إلى "السنديك الأول"(١) لذلك العام –وكان السيد "**فافر**"، على ما أظن –رسالة نزلت فيها بشمم عن حقي في أن أكون مواطنا، وراعيت فيها– إلى جانب ذلك– الأدب والاعتدال اللذين كنت أحرص عليهما في التصرفات المتعلقة بكرامتي، والتي كثيرا ما كانت قسوة أعدائي تدفعني إليها في أويقات محنتي.

وفتحت هذه الخطوة أعين المواطنين، فأحسوا بأنهم قد أذنبوا إزاء مصلحتهم الحقيقية إذ تخلوا عن الدفاع عني، فهبوا لذلك بعد فوات الأوان. وكانت لهم مظالم أخرى ضموها إلى هذه، وجعلوا منها مادة لشكايات عديدة، جد معقولة، راحوا يوسعون نطاقها ويعززونها، نتيجة للرفض الجاف المثبط الذي أخذ المجلس يقابلها به، وهو مستند إلى تأييد الوزير الفرنسي، مما جعل المواطنين يزدادون شعورا بالخطة التي كانت موضوعة لاستبعادهم. ولقد دعت هذه الخلافات إلى إصدار منشورات عديدة، لم تبت بشيء، إلى أن ظهر فجأة "رسائل كتبت من الريف". وهو مؤلف وضع لتأييد المجلس بدهاء لا حد له، وقد أفحم الفريق المتذمر وهزمه فترة من الزمن. وهذا الكتاب أثر باق على ما أوتي مؤلفه من مواهب نادرة، وهو من إنتاج المدعي العام "**ترونشان**"(٢)، وقد كان رجلا ذكيا، متنورا، متبحرا في القوانين وفي نظم الحكم الجمهوري.

سنة ١٧٦٤

وأفاق المتذمرون من هزيمتهم الأولى، فتولوا الرد، وخرجوا من مأزقهم على خير حال. ولكن الجميع راحوا يوجهون أنظارهم نحوي، وكأنني الوحيد الذي كان يقوى على مقارعة خصم كهذا يأمل التغلب عليه. وأعترف أني كنت أرى الرأي ذاته، فلما أخذ مواطني القدامى يستحثونني

---

(١) رئيس المجلس الذي كان يتولى إدارة شؤون جمهورية "جنيف". (٢) جان روبير ترونشان، وهو غير "ثيو دور ترونشان: الطبيب المشهور الذي ورد ذكره في الكراستين الثامنة والعاشرة. وكانا ابني عمومة.

ويبينون أن من واجبي أن أساعدهم بقلمي في مأزق كنت أنا سببه. فعكفت على دحض "**رسائل من الريف**"، وقلبت العنوان إلى "**رسائل من الجبل**"، وهو الذي اتخذته لردي. وقد فكرت في هذا المشروع ونفذته في تكتم شديد، حتى إنني -في اجتماع مع رؤساء المتذمرين في "**تانون**"، لنتشاور في أمورهم، وليطلعوني على مشروع ردهم- لم أشر بكلمة إلى ردي الذي كان قد اكتمل، خشية ألا يتغلبوا على بعض العقبات في سبيل طباعته، لو أن أعضاء المجلس أو أعدائي الشخصيين سمعوا أتفه همسة عنه. ومع ذلك فإنني لم أستطع أن أحول دون أن يذاع أمر هذا المؤلف في "**فرنسا**" قبل نشره، على أنه رؤي تركه يظهر، بدلا من إطلاعي بجلاء على الوسيلة التي اكتشف بها سري. ولسوف أبين -فيما بعد- ما علمته، وإن لم يكن بالكثير، ولن أذكر شيئا عن هواجسي وتخميناتي.

كان الزائرون يتوافدون على داري في "**موتيير**"، بعين كثرتهم في "**ليرميتاج**" و"**مونمورنسي**" تقريبا. ولكنهم كانوا -في الغالب- من نوع آخر. فقد كان الساعون إلى لقائي -قبل ذلك الحين- من أولئك الذين تربطهم بي روابط المواهب، والميول، والمبادئ. فكانت هذه مبررات لزياراتهم. وكانوا يطلعونني على موضوعات أستطيع أن أناقشها معهم، قبل نشرها. ولكن هذه لم تكن الحال في "**موتيير**"، لا سيما في الجانب الفرنسي. فقد كان زائري من الضباط، أو الموظفين، أو سواهم ممن لم يؤتوا أي ميل للأدب، وممن لم يقرأ معظمهم مؤلفاتي.. ومع ذلك، فإنهم كانوا -على قولهم- يقطعون ثلاثين، أو أربعين، أو ستين، أو مائة فرسخ ليزوروني، وليرضوا إعجابهم برجل لامع، شهير، شهير جدا، بل الرجل العظيم...، إلخ ذلك لأن الناس لم يكونوا قد كفوا -إذ ذاك- عن أن يقذفوني في وجهي بأغلظ ألفاظ الملق وأوقحها، فلم يكن يحميني منها -منذ ذلك الحين- سوى تقدير أولئك الذين كانوا يفدون لزيارتي. ولم أكن أدري فيم أتحدث إلى هؤلاء؟ إذ كان أغلبهم لا يتفضلون بذكر أسمائهم، ولا يطلعوني على مراكزهم. وكانت معرفتهم ومعرفتي لا تتسقان حول محور مشترك.. وكنت أصمت مرتقبا أن يفتحوا هم الحديث، إذ كان عليهم أن يذكروا لي سبب زيارتهم، لأنهم كانوا أدرى به مني. ومن السهل إدراك أن هذا المسلك لم يكن يؤدي إلى حديث مشوق لي بوجه خاص، وإن كان من المحتمل أنه مشوق لهم، تبعا لما جاءوا ينشدون معرفته. إذ إنني لبعدي عن أن أرتاب في شيء، كنت أسهب في الحديث -دون تحفظ- في كل ما كانوا يرون من اللائق طرحه علي من موضوعات. وكانوا يخرجون من هذا -في العادة- وهم لا يقلون عني إلماما بكل تفصيلات موقفي.

ومن أمثلة هذا الصنف، السيد "**دي فيان**"، حامل سلاح الملكة، وقائد الفرسان في لواء الملكة، الذي دأب على أن يقضي عدة أيام في "**موتيير**" وكان يرافقني في نزهاتي على القدمين، حتى "لافيريير"، وهو يقود فرسه ممسكا بعنانه، دون أن يكون ثمة ما يجمعنا، اللهم إلا أن كلينا كان يعرف الآنسة "**فيل**"(١)، وكنا نتبادل لعبة الكرة والكوب. ولقد حظيت -قبل السيد "**دي فيان**" وبعده- بزيارة أخرى، أكثر غرابة. إذ وصل رجلان يسيران على أقدامهما، وقد راح كل منهما يقود بغلا محملا بمتاعه القليل، فهبطا في نزل البلدة، وبعد أن نظفا بغليهما بنفسيهما، طلبا زيارتي. وكان مظهر راكبي البغلين، يوحي بأنهما من مهربي السلع عبر الحدود، فسرعان ما ذاع النبأ بأن المهربين يفدون لزيارتي. بيد أن الطريقة التي خاطباني بها، أشعرتني بأنهما من صنف آخر. على أنهما إذا لم يكونا مهربين، فقد كان من المحتمل أن يكونا من طلاب المغامرة، مما جعلني على حذر منهما فترة. ولم يطل بي القلق، فإذا أحدهما السيد "**مونتوبان**"، الذي كان يعرف بالكونت

---

(١) الآنسة "فيل" كانت ممثلة في "الأوبرا" الفرنسية، ورد ذكرها في مواقع متفرقة من الأجزاء السابقة.

"**ديلاتور–دو–بان**"، الذي كان من سادة "**دوفينيه**". أما الآخر، فكان السيد "**داستييه**"، وهو جندي قديم من "**كاربنترا**"، دس وسام "صليب القديس لوي" في جيبه، عزوفا عن المظهر. ولقد كان هذان السيدان اللطيفان، رقيقين، واسعي العقل، فكان حديثهما ممتعا ومشوقا. وقد جعلتني طريقتهما في الأسفار –وكانت تروق لي كثيرا، وإن لم تتناسب مع طرق السادة الفرنسيين– أشعر بميل نحوهما، ما كانت الخلطة لتزيده إلا توثقا. ولم ينته تعارفنا عند هذا الحد، بل إنه لا يزال قائما، وقد زاراني مرارا –منذ ذلك الحين– ولكنهما لم يعودا يأتيان على الأقدام؛ فقد كانت هذه الطريقة صالحة لزيارة التعارف الأولى فحسب. على أنني كلما ازددت تلاقيا بهما، قل ما القاه من تجاوب بين ميولهما وميولي، وقل شعوري بأن مبادئهما هي مبادئي وبأنهما على دراية بمؤلفاتي وبأن كلا منا يكن للآخر ميلا حقيقيا! فماذا كانا يبغيان مني، إذن؟ ولماذا جاءا لزيارتي بهذا الشكل والمظهر؟ ولماذا بقيا عدة أيام؟ ولماذا تكررت زياراتهما عدة مرات؟ ولماذا كانا شديدي الرغبة في أن أستضيفهما؟.. لم يخطر ببالي إذ ذاك، أن أوجه هذه الأسئلة إلى نفسي، ولكني وجهتها بضع مرات، منذ ذاك الحين!

وإزاء تقربهما ومجاملاتهما الودية، مال قلبي –دون روية– إليهما، لاسيما إلى السيد "**داستييه**"، الذي سرني منه أن كانت أخلاقه صريحة، وواضحة.. حتى لقد واصلت تبادل الرسائل معه، وعندما أردت أن أنشر كتابي "**رسائل من الجبل**"، فكرت في أن أرسل المخطوط باسمه، لأموه على أولئك الذين كانوا يتربصون للكتاب وهو في طريقه إلى "**هولندا**". وكان قد حدثني كثيرا –وربما عن قصد– عن حرية النشر في "**أفنيون**"، وعرض علي خدماته إذا شئت أن أطبع شيئا هناك. فتقبلت هذا العرض، وأرسلت إليه الأوراق الأولى تباعا بالبريد. وبعد أن استبقاها فترة ليست بالقصيرة، ردها ثانية، وأنبأني –في الوقت ذاته– بأن أحدا من الناشرين لم يجد من نفسه جرأة على أن يتكفل بطبعه.. واضطررت إلى أن أعود إلى "**ريي**"، متخذا الحذر، بحيث إنني كنت أرسل أوراقي واحدة بعد أخرى، على ألا أرسل واحدة، حتى أتسلم ما ينبئ بوصول سابقتها.

وقبل أن يطبع الكتاب، علمت أنه روجع في دوائر القساوسة، وحدثني "**ديشيرني**" –من "**نيوشاتيل**"– عن كتاب اسمه "**رجل من الجبل**"، قال له "**دولباخ**": إنني كاتبه. فأكدت له أنني لم أكتب قط كتابا بهذا العنوان، وكنت في ذلك صادقا. لذلك فإنه اهتاج عندما ظهرت الرسائل، واتهمني بالغش، بالرغم من أنني أنباته بمجرد الحقيقة.

وهكذا اقتنعت بأن المخطوط كان معروفا. ولما كنت موقنا من أمانة "**ريي**" فقد اضطررت إلى أن أنقل شكوكي إلى اتجاه آخر، وكان أقرب التخمين إلى المنطق، بل كان الحدس الذي فضلته على سواه، هو أن رسائلي كانت تفتح أثناء ذهابها بالبريد!

*****

وممن تعرفت بهم –حوالي هذه الفترة بالذات، ولكن تعارفنا اقتصر في البداية على تبادل الرسائل– السيد "**لالياود**"، من أبناء "**نيم**". فقد كتب إلي من "**باريس**" يسألني أن أرسل إليه صورة جانبية لوجهي لأنه –كما قال– كان بحاجة إليها في نحت تمثال نصفي من المرمر لي، كان قد عهد إلى "**لوموان**" بعمله، رغبة منه في أن يقيمه في مكتبته الخاصة. وإذا كانت هذه حيلة ابتكرت لاستمالتي، فالحق أنها أفلحت تماما. فلقد خلت أن رجلا يرغب في إقامة تمثال لي في مكتبته، لابد أن يكون مليء الرأس بمؤلفاتي، وبالتالي بمبادئي، وأنه لابد يحبني، لأن روحه كانت على شاكلة

روحي. وكانت هذه الفكرة خليقة بأن تستهويني. ولقد رأيت السيد "**لاليـاود**" بعد ذلك، فوجدته تواقا إلى أن يؤدي إلي بعض الخدمات الطفيفة، لكي يوغل في التدخل في شؤوني البسيطة!.. وفيما عدا ذلك، أظن كتابا واحدا من مؤلفاتي كان بين الكتب القليلة التي قرأها في حياته. وإني لأجهل، إذا كانت لديه مكتبة، وما إذا كانت هذه المكتبة مجرد أثاث يحلو له أن يستخدمه!.. أما التمثال النصفي، فقد اقتصر على شكل مشوه من الطين، صنعه "**لومـوان**"، وحفر عليه قسمات بشعة، حملت برغم ذلك اسمي، وكأنما فيها شيء من الشبه بي!

وكان الفرنسي الوحيد، الذي بدا أنه جاء يزورني عن ميل إلى مشاعري وكتاباتي، ضابطا شابا من كتيبة "**ليمزان**" يدعى "**سيجوييه دي سان- بريسون**"، كان -ومايزال- من المتوقع أن يتالق نجمه في "**باريس**" والعالم، بفضل ما أوتي من مواهب مستحبة، وما كان يبديه من جمال الفكر. وكان قد وفد على "**مـونمورنسي**" لزيارتي، في الشتاء الذي سبق كارثتي. ثم كتب لي بعد ذلك، في "**موتيير**".. وسواء كان راغبا في تملقي، أو أن شخصية "**إميل**" كانت قد استهوته حقا، فإنه أنبأني باعتزامه ترك الخدمة، ليعيش حرا.. وأنه لذلك أخذ يتعلم حرفة التجارة. ولقد كان له أخ يكبره -"**كـابتن**" في الكتيبة ذاتها- كان أثيرا بحب أمه، التي كانت متطرفة في التقوى، وكانت -في خضوعها لسلطان راهب دجال- تسيء معاملة ابنها الأصغر، وتتهمه بالمروق على الدين، بل وبالعيب الذي لا يغتفر.. وهو توثق العلاقة بينه وبيني. وكانت هذه هي المظالم التي أراد من أجلها أن يقطع وشائجه مع أمه، وأن ينتهج الرأي الذي ذكرته من قبل.. أن يكون "**إميل**" الصغير، في كل شيء!

وجزعت لهذا الطيش، فبادرت إلى الكتابة إليه، محاولا أن أثنيه عن عزمه، مزجيا إليه أقوى المواعظ تأثيرا. ولقد أخذ بنصحي، وعاد إلى واجبه كابن، كما سحب من يدي قائده الاستقالة التي كان قدمها، والتي كانت حكمة القائد قد أبت عليه أن يقبلها، ليوسع له الوقت كي يعيد التفكير في الأمر. وما إن شفي "**سان بريسون**" من هذه الحماقات، حتى أقدم على حماقة جديدة، لم تكن مثيرة للسخط كتلك، ولكنها لم تصادف هوى من نفسي.. إذ جعل من نفسه مؤلفا. فأصدر كتيبين أو ثلاثة، تباعا، كشف فيها عن قدر من الاستعداد.. ولكني لا أحمل وزر إطرائها بما كان كفيلا بأن يشجعه على المضي في هذه الحرفة!

ولقد جاء لزيارتي -بعد ذلك بزمن- وقمنا بنزهة معا إلى جزيرة "**سان بيير**". ووجدته خلال هذه الرحلة، على غير ما رأيته في "**مونمورنسي**". كان ثمة تغير قد ألم به، لم يصدمني في البداية، ولكنه كثيرا ما تمثل لخاطري، منذ ذلك الحين. ولقد زارني مرة أخرى، في فندق "**سان سيمون**"، أثناء مروري بـ"**باريس**"، في طريقي إلى "**إنجلترا**". وإذ ذاك سمعت مالم يقله لي هو، من أنه أصبح يرتاد المجتمعات الراقية، وأنه كثير التردد على السيدة "**دي لوكسمبورج**". ولم يبد -أثناء وجودي في قلعة "**تيـر**"- ما ينم عن وجوده على قيد الحياة، ولا أبلغني شيئا عن الآنسة "**سيجوييه**"، قريبته التي كانت جارة لي. وقصارى القول، إن شغف السيد "**دي سان-بريسون**" انتهى فجاة، كما انتهت علاقة السيد "**دي فيـان**"، ولكن إذا لم يكن الأخير مدينا لي بشيء، فإن الأول كان مدينا لي ببعض الشيء، مالم تكن النزوات الطائشة التي صددته عن ارتكابها، مجرد حيلة من جانبه، وهو أمر جد محتمل!

*****

وتردد علي كذلك، مثل هذا العدد -أو أكثر- من الزائرين الوافدين من "**جنيف**". فاختارني "**ديلوك**" وابنه -على التعاقب- ممرضا أسهر عليهما. فقد مرض الأب أثناء الطريق، وكان ابنه قد مرض -هو الآخر- مذ غادر "**جنيف**"، فحلا للاثنين المقام في داري. وتوافد من "**جنيف**" ومن "**سويسرا**" الزائرون، من قساوسة، إلى أقارب، إلى مرائين، إلى نكرات، لا لإبداء إعجابهم بي، أو للسخرية مني -كما كان يفعل القادمون من "**فرنسا**"- وإنما ليؤنبوني، ويعظوني!.. وكان الوحيد الذي يروق لي منهم، هو "**مولتو**" الذي اقبل لقضاء ثلاثة أو أربعة أيام معي، والذي كنت أرجو أن أستضيفه فترة أطول. على أن أكثرهم مثابرة، وأشدهم صلابة، كان رجلا يدعى السيد "**دانفيرنوا**"، استطاع أن يقهرني بمضايقاته. وكان تاجرا من "**جنيف**"، من المهاجرين الفرنسيين، كما كان قريبا للمدعي العام في "**نيوشاتيل**". وكان هذا السيد "**دانفيرنوا**" الجنيفي، يمر بـ"**موتيير**" مرتين في العام، وكله شوق إلى أن يزورني، ويمكث في داري من الصباح إلى المساء، لعدة أيام بعد ذلك، فيفرض صحبته علي في نزهاتي، ويجلب إلي ألف نوع من الهدايا الصغيرة، ويقحم نفسه على أسراري بالرغم مني، ويتدخل في جميع شؤوني.. دون أن يجمع أحدنا بالآخر أي تشابه في الآراء، أو الميول، أو الأحاسيس، أو المدارك. وإني لأشك في أنه قرأ كتابا واحدا في حياته، من أوله إلى آخره، وفي أنه كان يعرف ما تناولته كتبي بالذات. وعندما شرعت في هواية النباتات، أخذ يرافقني في جولاتي لتفقد أنواع النبات، دونما ميل إلى هذه الهواية، ودون أن يملك ما يقوله لي، كما أنني لم أكن أملك ما أقوله له. بل لقد أوتي الجلد على أن يقضي معي ثلاثة أيام كاملة، وحيدين لا ثالث لنا، في مكان عام في "**جوموان**"، كنت أرجو أن أتخلص منه عنده، بفضل العمل على إملاله ،وإشعاره بمدى ما كان يسببه لي من ملل. بيد أنني لم أقو قط على أن أثبط دابه الذي لا يصدقه عقل، ولا على اكتشاف الباعث إليه!

وبين كل هذه العلاقات، التي لم أصلها ولم أرعها إلا غصبا، أرى من الواجب ألا أغفل العلاقة الوحيدة التي كانت تروق لي، والتي أثارت اهتماما حقيقيا في فؤادي.. تلك هي صلتي بشاب مجري، جاء ليقيم في "**نيوشاتيل**"، ثم في "**موتيير**" -بعد ذلك- عقب استقراري هناك ببضعة أشهر، وقد عرف في المنطقة باسم "**البارون دي سوتيرن**"، وهو الاسم الذي ورد في التوصيات التي حملها من "**زيورخ**". وكان شابا طويلا عريضا، متناسق القوام، مليح القسمات، رقيق الطباع دمثها. ولقد أنبأ الجميع -وأوقع في روعي أنا الآخر- بأنه لم يأت إلى "**نيوشاتيل**" إلا ليراني، وليروض شبابه على الفضيلة بالاتصال بي. وكانت أساريره، ومسلكه، وأخلاقه، تبدو لي مصداقة لكلماته. فكنت خليقا بأن ألوم نفسي على تخليها عن واجب من أهم الواجبات، لو أنني أبيت أن أقابل شابا لم أر فيه إلا كل مستحب، وكان الباعث الذي حفزه على السعي للتعرف إلي، جديرا بكل اعتبار، ولا يحذق قلبي الاستسلام الناقص، ومن ثم فسرعان ما استولى الشاب على صداقتي الكاملة، وثقتي الشاملة، وأصبحنا لا نفترق.. فكان يرافقني في كل نزهاتي على الأقدام، ويستمتع بها كل الاستمتاع. ولقد صحبته إلى السيد اللورد "**المارشال**"، الذي أبدى له ألف مجاملة!

وإذ لم يكن قد أجاد بعد الحديث بالفرنسية، فقد كان يخاطبني ويكتب إلي باللاتينية، وكنت أجيبه بالفرنسية بيد أن هذا الخلط بين اللغتين، لم يقلل من تدفق محادثاتنا، ولا من حيويتها، بأي حال!

ولقد حدثني عن أسرته، وشؤونه، ومغامراته، والبلاط الملكي في "**فينا**"، الذي بدا على إلمام تام

بدقائق الحياة فيه. وموجز القول: إنني لم أجد فيه -خلال السنتين اللتين قضيناهما في أشد الود- سوى لطف الشخصية في كل الأحوال، وسوى أخلاق لم تكن كريمة فحسب، وإنما كانت مهذبة.. وسوى نظافة تامة في شخصه، وعفة مفرطة في قوله.. كانت له -بإيجاز- كل صفات الرجل الطيب المنبت، مما جعلني -بغض النظر عن إعزازي إياه- أجله أسمى إجلال!

*****

وفي عنفوان علاقاتي به كتب لي "**دانفيرنوا**" الجنيفي بأن أحذر شابا مجريا وفد للإقامة على مقربة مني، فقد قيل له -في تأكيد- إنه جاسوس من الوزير الفرنسي، ليكون عينا علي!.. ولقد دبرت هذه النصيحة لكي تسبب لي مزيدا من القلق، ففي تلك البلاد، كان كل الناس ينصحونني بأن أكون على حذر، لأنني مراقب. وكان الهدف من ذلك استدراجي إلى الأراضي الفرنسية، ثم الانقضاض علي!

ولكي أخرس كل هؤلاء الناصحين نهائيا، اقترحت على "**سوتيرن**" أن يصحبني إلى نزهة على الأقدام، إلى "**بونتارلييه**" -دون أن انبئه بشيء- فقبل. عندما وصلنا إلى "**بونتارلييه**"، أعطيته خطاب "**دانفيرنوا**" ليقرأه، ثم عانقته في حرارة، وقلت: "ليس "**سوتيرن**" بحاجة إلى أن أبرهن له على ثقتي، ولكن الجمهور بحاجة إلى دليل يبين من هو جدير بها"!.. وكان هذا العناق عذبا جدا.. كان من تلك المتع الروحية التي لا يعرف الظالمون مذاقها، والتي لا يستطيعون أن يحرموا منها المظلومين!

ولن أصدق قط أن "**سوتيرن**" كان جاسوسا، أو أنه خانني، بيد أنه غرر بي. فعندما فتحت له قلبي في غير تحفظ، إذا به يؤتى الجلد على أن يغلق قلبه، ويخدعني بأكاذيبه. فقد ابتكر لي قصة لا أدري مأتاها، جعلني أحدس أن وجوده في بلاده كان أمرا ضروريا، فحضضته على الرحيل إليها دون إرجاء، وقد فعل، وعندما خيل إلي أنه قد وصل إلى "**المجر**" سمعت أنه كان في "**ستراسبورج**". ولم تكن هذه أول مرة يوجد فيها هناك. فلقد أوقع الفرقة في أسرة بالمدينة، فكتب لي الزوج إذ عرف أنني اعتدت أن أقابله. ولم أدخر وسعا في رد الزوجة إلى طريق الفضيلة، ورد "**سوتيرن**" إلى نطاق الواجب. وما إن ظننت أنهما قد افترقا تماما، حتى عادا إلى اتصالهما، وأوتي الزوج من اللين واللطف ما جعله يؤوي الشاب في داره. ولم يبق لي بعد ذلك مجال لقول.

على أنني تبينت أن البارون المزعوم، قد تقرب إلي بطائفة من الأكاذيب ولم يكن اسمه "**سوتيرن**" -على الإطلاق- وإنما "**سوتير شايم**". أما لقب "**بارون**" -الذي أطلق عليه في "**سويسرا**"- فلست أملك أن ألومه عليه، لأنه لم يستحله لنفسه قط!.. على أنني لا أرتاب في أنه كان سيدا مهذبا، راقيا حقا، وقد اعتاد اللورد "**المارشال**" -الذي كان خبيرا بالرجال، والذي عرف بلاده من قبل- أن ينظر إليه وأن يعامله كسيد! وما إن رحل "**سوتيرن**"، حتى أعلنت خادم الفندق الذي اعتاد تناول الوجبات فيه -في "**موتيير**"- أنها حامل عن طريقه. وكانت عاهرة قذرة، في حين أن "**سوتيرن**" كان محترما لدى الجميع، وكان معروفا في كل مكان بمسلكه وخلقه الكريمين، وبانه كان جد فخور بنظافته وعفته. ومن ثم أذهلت هذه الوقاحة جميع الناس. وهاج سخط أبدع حسان البلد، اللائي كن يؤثرنه بمفاتنهن دون جدوى. كذلك ثرت أنا استنكارا، ورحت أبذل كل جهد في

سبيل الزج بهذه الفاجرة في السجن، عارضا أن أتكفل بجميع النفقات، وأن أكون ضامنا لـ"**سوتير شايم**" . وكتبت إليه وأنا أشد ما أكون اقتناعا، لا بان هذا الحمل لم يكن ذنبه فحسب، وإنما بانه حمل مزعوم، وأن كل هذه الضجة لم تكن سوى مكيدة دبرها أعداؤه وأعدائي. ورغبت إليه في أن يعود إلى البلد، ليخزي هذه المجرمة، وأولئك الذين كانوا يحرضونها. وكم بهت لميوعة رده. فقد كتب إلي راعي الأبرشية التي كانت الفاجرة تتبعها، وحاول أن يخمد المسألة. ومن ثم فقد كففت عن التدخل في الأمر، وأنا في أشد الدهشة من أن يستطيع رجل انحط إلى هذا الدرك، أن يسيطر على نفسه بالشكل الذي مكنه من أن يخدعني بتحفظه طيلة الفترة التي كنا فيها على أوثق ائتلاف!

ومن "**ستراسبورج**" انتقل "**سوتيرشايم**" إلى "**باريس**" سعيا وراء الحظ، فلم يفز إلا بالشقاء. لقد كتب إلي معترفا بذنوبه، فهفت عواطفي لذكرى صداقتنا القديمة، وأرسلت إليه بعض المال. وعندما مررت بـ"**باريس**" ، في العام التالي، رأيته –مرة أخرى– في عين الحال تقريبا، ولكنه كان قد أصبح صديقا حميما للسيد "**لاليـاود**" . ولم يقدر لي إطلاقا أن أعرف كيف تعرف إليه، وما إذا كان هذا التعارف حديث عهد أو قديما. ومالبث "**سوتيرشايم**" أن عاد إلى "**ستراسبورج**" ، بعد عامين، وكتب إلي من هذا المكان.. وفيه مات!

هذه –بإيجاز– قصة علاقتي به، ومغامراته. ولكني –في الوقت الذي أنعى فيه حظ هذا التعس– ساظل أؤمن بأنه كان طيب المنبت، وأن كل ما تبدى في سلوكه من اضطراب، لم يكن سوى نتيجة المواقف التي تردى فيها!

*****

وهكذا كانت المكاسب التي فزت بها من "**موتيير**" في مجال العلاقات والصداقات. وما أكثر ما كنت بحاجة إليه من هذه العلاقات، لأعوض الخسائر القاسية التي منيت بها في تلك الفترة ذاتها.. فلقد منيت أولا بفقد السيد "**دي لوكسمبورج**" ، الذي تعذب طويلا على أيدي الأطباء، ثم راح –في النهاية– ضحية لهؤلاء الذين كانوا يعالجون النقرس على أنه مرض يسهل عليهم إبراؤه، دون أن يعترفوا بحقيقته!.. ولو أننا أخذنا بالرواية التي كتبها لي "**لاروش**" –موضوع ثقة السيدة "**دي لوكسمبورج**" –بهذا الصدد، لوجدنا في قصته مثالا قاسيا وأليم الذكرى، لمدى مصائب العظمة!

ولقد كان لفقد هذا السيد العظيم الطيب، وقع شديد على نفسي، إذ إنه كان الصديق الوحيد الذي بقي لي في "**فرنسا**" .. ولقد كانت رقة شخصيته بالغة، حتى إنها أنستني مكانته ومرتبته، فارتبطت به وكأنني ند له. ولم تنته وشائجنا برحيلي عن البلاد، بل إنه واصل الكتابة إلي، كما كان شأنه من قبل. ومع ذلك، فإنني خلت أن غيابي أو نحس طالعي قد أخفى عواطفه نحوي. فمن العسير على عضو في حاشية الملك، أن يحتفظ بنفس العلاقة مع شخص كان يدرك أن السلطات غاضبة عليه. كذلك انتهى بي التفكير إلى أن التأثير الكبير الذي كان للسيدة "**دي لوكسمبورج**" عليه، لم يكن مواتيا لي في شيء، وأنها قد انتهزت فرصة غيابي لكي تسيء إلي في نظره. بل إنها –بالرغم من مظاهر الود الحارة، التي أخذت في التضاؤل– لم تعد تجشم نفسها عناء إخفاء تحول عواطفها عني. ولقد كتبت لي أربع مرات أو خمسا، على فترات متباعدة –وأنا في "**سويسرا**"– ثم كفت عن الكتابة نهائيا. وكان لابد لي من كل التكهنات، وكل الثقة، وكل الغباء الأعمى –الذي كنت أتخبط فيه مرة أخرى– حتى لا أبصر البرود الذي شاب عواطفها إزائي!

ولقد كتب لي الناشر "**جاي**" -شريك "**دوشين**"، الذي أصبح كثير التردد على قصر "**لوكسمبورج**" بعد رحيلي- ينبئني بان اسمي ورد في وصية السيد "**المارشال**". ولم يكن في هذا ما يدعو إلى العجب، أو ما يجل على التصور، ومن ثم فإنني لم أرتب فيه. وقد حملني هذا على أن أتدبر -بيني وبين نفسي- ما ينبغي ان يكون عليه موقفي من الوصية. وبعد روية وتفكير، عزمت على قبولها، مهما تكن، وأن أعبر بهذا عن تكريمي لرجل أمين، حمل لي ودا صادقا، بالرغم من انتمائه إلى طبقة لا تنفذ الصداقة إلى مشاعر أبنائها قط. على أنني أعفيت من هذا الواجب، إذ إنني لم أسمع إطلاقا عن الوصية مرة أخرى، سواء كانت القصة صحيحة أو كاذبة. ولقد كان من الشاق على نفسي -في الحقيقة- أن أهدرمبدأ من مبادئي الخلقية الكبرى، إذ أفيد من موت امرئ كان جد عزيز لدي. ولقد حدث أثناء المرض الأخير لصديقنا "**موسار**"، أن عرض "**لينييب**" على أن نستغل امتنانه لودنا، وعرفانه لعنايتنا به، فنقترح عليه أن يترك لنا في وصيته شيئا. فما كان مني إلا أن قلت له: "آه، يا عزيزي "**لينييب**"!.. ما ينبغي أن ندنس -بأفكار عن المصلحة الذاتية- الواجبات المحزنة، ولكنها مقدسة- التي يجب علينا أن نؤديها لصديقنا المحتضر!".

وإني لآمل ألا أذكر قط في وصية أي امرئ، لا سيما إذا كان صديقا. ولقد تحدث إلي سيدي "المارشال" -حوالي هذه الفترة- عن وصيته، وما كان يعتزم أن يفعله من أجلي، فأبديت في هذه المناسبة الرد الذي ذكرته في الجزء الأول من اعترافاتي.

*****

وكانت الخسارة الثانية التي حاقت بي، أكثر إيلاما وأعز من أن تعوض.. تلك هي فقدان خير النساء والأمهات، التي كانت السنون قد أثقلت كاهلها، ثم أعياها حمل العلل والمحن، فهجرت هذه الحياة -وادي الدموع- لتنتقل إلى ملاذ الطيبين والصالحين، حيث تكون ذكرى الخير الذي أسديناه في هذه الدنيا، هو خير جزاء نكافأ به عنه. فاذهبي أيتها الروح الوادعة المحسنة، إلى جوار "**فينولون**"، و"**برنيكس**"، و"**كاتينا**"، وكل أولئك الذين حذوا حذوهم، ففتحوا قلوبهم للخير والإحسان الحقيقيين، برغم تواضع ظروفهم!.. اذهبي فتذوقي ثمرة إحسانك، ومهدي لتلميذك المكان الذي يأمل أن يشغله يوما، إلى جوارك!.. وما أسعدك وسط كل مصائبك، فإن السماء -حين وضعت لها نهاية- قد جنبتك قسوة مرأى مصائبي!.. ذلك لأنني لم أكتب إليها إطلاقا، عقب وصولي إلى "**سويسرا**"، خشية أن أدخل الأسى على فؤادها بذكر مصائبي الأولى. بيد أنني كتبت إلى السيد "**دي كونزييه**"، أنشد أنباءها. ومنه علمت أنها قد كفت عن أن تواسي آلام الغير، وأن آلامها هي قد انقضت!.. ولسوف أكف أنا الآخر عن التألم، عما قريب. ولو لم أكن أؤمن بأنني سأراها ثانية. في العالم الآخر، لأبى خيالي الواهن على نفسه أن يفكر في الهناء الكامل الذي أتطلع إليه هناك!

أما المصاب الثالث والأخير -إذ لم يعد لي بعده أصدقاء أمني فيهم- فهو فقدان سيدي اللورد "**المارشال**". وما فقدته بالموت، ولكنه حين سئم خدمة سادة جاحدين، هجر "**نيوشاتيل**"، فلم يقدر لي أن أراه بعد ذلك. وهو مايزال على قيد الحياة، وآمل أن يعيش بعدي.. إنه مايزال على قيد الحياة، ومن ثم فإن الروابط التي تربطني بالأرض، لم تنقطع عن آخرها، بفضله.. فمايزال باقيا على الأرض رجل جدير بصداقتي.. الصداقة التي تتمثل قيمتها الحقيقية في الود الذي يحس به المرء، أكثر منها في الود الذي يوحيه للغير. غير أنني فقدت البهجة التي كانت صداقتي تملأ بها نفسي، ولم أعد اليوم

أملك أكثر من أن أعده بين أولئك الذين مازال على حبهم، وإن كانوا لم يعودوا على اتصال بي. فلقد ذهب إلى "**إنجلترا**"؛ ليتلقى العفو من الملك، وليسترد ثروته التي كانت قد صودرت. ولم نفترق دون أن ندبر للقاء جديد، بدا أن توقعه كان يوحي إليه بقدر ما كان يوحي إلي من سرور.

وكان قد اعتزم الإقامة في قصر "**كيبث هول**" -على مقربة من "**ابردين**"- فتم الاتفاق على أن أزوره هناك. ولكن هذا الاحتمال كان أكثر بهجة من أن أطمع في تحققه يوما. ولم يطل مكث السيد "**المارشال**" في "**اسكتلندا**"، فإن الإلحاح الرقيق الذي لاحقه به ملك "**بروسيا**"، لم يلبث أن رده إلى "**برلين**". وسيتبدى -فيما يلي- كيف حيل بيني وبين أن انضم إليه.

فعندما رأى -قبيل رحيله- أن العاصفة كانت توشك أن تهب علي مرة أخرى، أرسل إلي -من تلقاء نفسه- وثائق إثبات تجنسي بالجنسية البروسية. وقد بدا هذا احتياطا جد مأمون، حتى يصبح من المستحيل طردي من البلاد. ولقد حذا اتحاد مدينة "**كوفيه**" -في "**فال دي ترافير**"- حذو الحاكم، وكفل لي حقوق المواطن، دونما مقابل، كما حدث إزاء الوثائق الأولى. وإذ أصبحت مواطنا كاملا -من جميع الاعتبارات- غدوت في حمى من أي إقصاء قانوني عن البلاد، ولو صدر هذا الإقصاء عن العاهل ذاته. ولكن أعدائي لم يتبعوا يوما الوسائل المشروعة في اضطهاد رجل كان دائما يفوق سواه احتراما للقوانين!

ولست أرى من الواجب أن أحصي بين الخسائر التي منيت بها -في تلك الفترة بالذات- وفاة الراهب "**دي مابلي**". فإن إقامتي في دار أخيه، مكنتني من أن أكون على تعارف بسيط معه، ولكنه لم يرق قط إلى مرتبة الألفة والصداقة. ولدي من الأسباب ما يحملني على أن أعتقد أن مشاعره نحوي قد تبدلت مذ ظفرت بصيت ذائع، يفوق صيته. على أنني لم أفطن إلى أولى بوادر سوء نيته، إلا بعد نشر "**رسائل من الجبل**". فلقد روج في "**جنيف**" خطابا إلى السيدة "**سالادان**"، عزى إليه أنه كاتبه، وقد وصف فيه مؤلفي بأنه ضجيج، مضلل، صادر عن تعصب شعبي جامح. ولم يمكني الاحترام -الذي كنت أكنه للراهب "**دي مابلي**"، وما كان لدي من رأي في تنوره وسعة ذهنه- من أن أصدق لحظة أنه كاتب ذلك الخطاب المتحامل.

ورأيت أن أتصرف وفق ما أملته علي صراحتي، فأرسلت إليه نسخة من الخطاب، وأنبأته بأنه كان معزوا إليه. ولكنه لم يجب. وقد أذهلني هذا الصمت منه، ولكن في الوسع تصور دهشتي عندما أنبأتني السيدة "**دي شينونسو**" بأنه هو الذي كتب الخطاب حقا، وأن رسالتي قد أحرجته أشد الإحراج.. ذلك لأنه إذا كان على صواب، فكيف كان يستطيع أن يبرر خطوة رنانة علنية، صدرت عن طيب خاطر وطواعية، دونما غصب أو إلزام، ودونما ضرورة، ودون أن يكون لها أية غاية، سوى الإساءة إلى رجل في أشد محنة.. رجل لم يبد له قط سوى كل نية حسنة، ولم يقصر يوما في تقديره؟

ولقد ظهرت -بعد ذلك بقليل- "**محاورات فوسيون**"(١)، التي لم أر فيها سوى مجموعة منتخبات من كتاباتي، أعدت في جراة، ودون استحياء. وشعرت وأنا أقرأ هذا الكتاب، بأن المؤلف كان قد بت في أمري، وأنني لم يعد لي من هو ألد منه عداء، منذ ذلك الحين. وأعتقد أنه ما كان ليملك أن يغفر لي يوما أن كتبت "**العقد الاجتماعي**" -الذي كان فوق طاقة مواهبه- ولا "**السلام الدائم**".. وأنه لم يكن يرجو -على ما بدا لي- سوى أن أعد مختارات من مؤلفات الراهب "**سان بيير**"، لأنه ظن أنني لن أوفق فيها(٢).

---

(١) كان "فوسيون" قائدا وخطيبا أثينيا في القرن الرابع قبل الميلاد. وكان داعية للسلام، بقدر ما كان جنديا باسلا. وقد عرف بإنكار الذات ولباقة الحوار، والمقدرة على الإفحام. (٢) كان الراهب "دي مابلي" قد عرض على "روسو" مراجعة مؤلفات الأب "دي سان بيير". واختيار أصلحها للنشر. ولكن "روسو" عمد -إلى جانب الاختيار- إلى تسجيل تعليقات وآراء ودراسات بصدد كتابات الأب "دي سان بيير"، ضمنها كتابيه "العقد الاجتماعي" و"السلام الدائم".

كلما أوغلت في قصتي، قلت قدرتي على تنسيقها، وترتيب سياقها، فإن الاضطراب الذي ساد بقية حياتي، لم يدع للأحداث وقتا لتنظم ذاتها في رأسي. إذ إنها كانت من الكثرة، ومن الامتزاج، ومن الإزعاج بحيث لا يتسنى روايتها دون خلط أو اضطراب. ولقد كان الطابع القوي الوحيد الذي خلفته هذه الأحداث في ذهني، هو ذلك الغموض الرهيب الذي أحاط بسببها، والحال الداعية للرثاء، التي هوت بي إليها!.. ولا سبيل إلى استطراد القصة إلا وفقا للمصادفة ولتوارد الأفكار على ذاكرتي. وأذكر أنني -في الفترة التي أتحدث عنها، وأثناء استغراقي في "الاعترافات" -كنت من الحكمة بحيث أتحدث عنها إلى كل امرئ، دون أن أتصور مرة واحدة أن لا أحد له مصلحة، أو رغبة، أو قدرة على أن يلقي العراقيل في طريق هذا المشروع.. وحتى لو أن هذا خطر لي لما كان بوسعي أن أبدي مزيدا من التكتم، إذ إن طبيعتي تجعل من المستحيل تماما علي أن أخفي شيئا من أفكاري ومشاعري. ولقد كان تكشف أمر هذا المشروع -بقدر ما بوسعي أن أحكم- هو السبب الحقيقي للعاصفة التي أثيرت لإقصائي عن "**سويسرا**"، وللإلقاء بي بين الأيدي التي كانت خليقة بأن تمنعني من تنفيذه!

وكان لدي مشروع آخر، لم يكن يحظى -من أولئك الذين كانوا يخشون المشروع الأول،- بمزيد من الرضا. وذلك هو إصدار طبعة عامة من مؤلفاتي. فقد تراءى لي أن مثل هذه الطبعة ضرورية لتعزيز ما كان يمت إلي حقا من تلك الكتب التي كانت تحمل اسمي، ولجعل الجمهور في وضع يمكنهم من أن يميزوها، ويفرقوا بينها وبين المؤلفات التي كانت تحمل أسماء مستعارة، وكان أعدائي يعزونها إلي، لكي يشوهوا سمعتي ويحطوا من قدري. وفضلا عن ذلك، فإن هذه الطبعة كانت كفيلة بأن تصبح وسيلة سهلة وشريفة لتأمين مورد للعيش. بل إنها -في الواقع- كانت الطريقة الوحيدة، إذ إنني كنت قد هجرت تاليف الكتب، وما كان في الوسع نشر مذكراتي أثناء حياتي، ولم أكن أكسب "**سـو**" واحدا بأية طريقة أخرى، في حين أنني كنت أنفق باستمرار.. ومن ثم فقد أيقنت من انتهاء مواردي بمجرد استنفاد إيراد مؤلفاتي الأخيرة. ولقد حملني هذا السبب على أن أتعجل ظهور كتابي: "**الموسوعة الموسيقية**"، وإن لم يكن قد اكتمل. وقد در علي مائة "**لوي**" نقدا، ومائة "**إيكو**" سنويا ما حييت. ومع ذلك، فقد ظل من الواجب توقع نفاد المائة "**لوي**" سريعا، لا سيما وقد كانت النفقات تزيد على الستين سنويا.. كما أن المائة "**أيكو**" كانت بمثابة لا شيء، لرجل كان النكرات والمتسولون يحومون حوله -دون انقطاع- كالعصافير!

وعرضت شركة من تجار "**نيوشاتيل**" أن تتعهد مشروع مجموعة المؤلفات، واستطاع صاحب مطبعة -أو تاجر كتب- من "**ليون**"، يدعى "**ريجيا**" أن يندس بينهم، بطريقة لا أدريها، ليتولى توجيههم، وعقدت اتفاقية وفقا لشروط معقولة ومرضية، لتحقيق بغيتي خير تحقيق. وكانت مؤلفاتي المطبوعة، وتلك التي ظلت بخط اليد، تكفي لأن تملأ ستة مجلدات من حجم "ربع القطع" أو "**الكوارتو**". وقد تعهدت -فوق ذلك- بأن أشرف على الطبعة، في مقابل أن يؤدوا لي معاشا لمدى حياتي -قدره ألف وستمائة ليرة فرنسية- ومبلغا يدفع نقدا، لمرة واحدة، قدره ألف "أيكو".

سنة ١٧٦٥

كانت الاتفاقية قد عقدت، ولكنها لم تكن قد وقعت، عندما ظهر كتاب "رسائل كتبت من الجبل"، فإذا السخط الفظيع -الذي انصب على هذا الكتاب الجهنمي وعلى مؤلفه المقيت- يفزع

الشركة، ومن ثم انفض المشروع. وبوسعي أن أشبه أثر هذا المؤلف الأخير، بأثر "رسالة عن الموسيقى الفرنسية"، لولا أن هذه الرسالة وإن جلبت علي السخط وعرضتني للخطر، إلا أنها تركت لي الاعتبار والاحترام، على الأقل. أما بعد هذا المؤلف الأخير، فقد تبدت الدهشة في "**جنيف**" وفي "**فرساي**"، من ترك وحش مثلي، يتنفس ويعيش. وإذا المجلس الصغير -بتحريض من الوزير الفرنسي المقيم، وبتوجيه من المدعي العام -يصدر بيانا عن الكتاب، أعلن فيه، بعد وصفه بأقذع النعوت، أنه غير جدير بأن يحرق بيدي منفذ الأحكام.. وأضاف إلى هذا -في دهاء، يكاد يثير الضحك- أن لا سبيل لامرئ إلى الرد على هذا الكتاب، بل إلى مجرد ذكره، دون أن يشين نفسه!

ولكم أتمنى لو استطعت أن أنقل هنا هذا البيان العجيب، ولكني -لسوء الحظ- لا أملك نسخة، ولا أذكر كلمة واحدة منه. وشد ما أرجو أن يتفضل أحد من قرائي -بدافع من الغيرة على الحقيقة والعدالة- على إعادة قراءة "**رسائل من الجبل**" بأكمله. وأستطيع أن أقول إنه سيلمس الاعتدال الشديد الذي ساد هذا الكتاب، بعد الإهانات العنيفة القاسية، التي تبارى الناس في صبها على المؤلف. ولكن أعدائي -إذ عجزوا عن الرد على السباب؛ لأن الكتاب لم يحو شيئا منه.. ولا على الحجج، لأنها كانت مفحمة -عمدوا إلى التظاهر بأنهم أكثر ترفعا من أن يجيبوا.. ومن الصحيح حقا، أنهم إذا حملوا الحجج المفحمة على أنها إهانات، لحق عليهم أن يشعروا بأنهم أوذوا أشد الإيذاء!

أما فريق المتذمرين، فإنهم بدلا من أن يثيروا أية شكوى من هذا البيان البشع، سلكوا الطريق التي رسمها لهم.. وبدلا من أن يمجدوا "**رسائل من الجبل**" كغنيمة ظفروا بها، إذا بهم يستترون خلفها كدرع.. فكانوا من الجبن بحيث إنهم لم يؤدوا أي تكريم ولا إنصاف إلى هذا المؤلف الذي وضع للدفاع عنهم وعن مطالبهم.. بل إنهم لم يذكروه، ولا نقلوا عنه، وإن كانوا قد اقتبسوا عنه -في الخفاء- كل حججهم.. وكانت الدقة التي اتبعوا بها النصيحة التي اختتم بها هذا المؤلف، هي السبب الوحيد في خلاصهم وانتصارهم!.. لقد فرضوا علي هذا الواجب، وقد أديته.. ولقد خدمت الوطن وقضيتهم إلى النهاية. ولقد توسلت إليهم أن يتخلوا عن قضيتي ولا يفكروا إلا في أنفسهم، وفي مشاحناتهم. وقد أخذوني بكلمتي،فلم أتدخل في شؤونهم بأكثر من أن رحت أستحثهم على السلام، دون انقطاع. وما من ريب لدي في أنهم لو كانوا قد مضوا في عنادهم لأنفسهم، لسحقتهم "**فرنسا**". وهذا ما لم يحدث.. وإني لأدرك السبب، ولكن هذا ليس مجال الإفضاء به!

ولقد كان الأثر الذي أحدثه كتاب "**رسائل من الجبل**" في "**نيوشاتيل**"، يتسم بالهدوء في البداية. ولقد أرسلت نسخة منه إلى السيد "**دي مونمولان**"، فسره أن حصل عليها، وقرأها دون أن يجد فيها مأخذا. وكان مريضا -مثلي- فلما استرد صحته، قام بزيارة ودية لي، ولم يقل شيئا عن الكتاب. ومع ذلك، فإن الهياج كان قد دب، وأحرق الكتاب حيث لا أدري(١). ومن "**جنيف**"، ومن "**بيرن**"، وربما من "**فرساي**"، لم يلبث مركز الفوران أن انتقل إلى "**نيوشاتيل**"، وإلى "**فال دي ترافير**" -بوجه خاص- حيث بدئ، حتى قبل أن تبدر عن طبقة رجال الدين أول بادرة، في تحريض الجمهور بالأساليب المستخفية. ومن حقي أن أقول: إنني كنت خليقا بأن أكون محبوبا من أهل هذه البلاد، كما كنت من جميع أولئك الذين عشت بينهم. وكنت أغدق الصدقات بسخاء، ولا أدع محتاجا ممن يحيطون بي دون معونة، ولا أرفض أن أؤدي أية خدمة في نطاق مقدرتي، مادامت تتمشى مع العدالة.. بل لعلني كنت أسرف في التآلف مع كل الناس، أكثر مما ينبغي.. كما أنني

---

(١) في "باريس" مع الموسوعة الفلسفية لـ"فولتير"، وبنفس القرار المؤرخ في ١٩ مارس سنة ١٧٦٥.

اعتدت -بقدر ما وسعني- أن أرفض كل تمييز في المعاملة، قد يثير الغيرة!.. ومع ذلك، فإن كل هذا لم يحل دون استنهاض السكان سرا، دون أن أدري محرضهم، ومن أن يوغروا تدريجيا ضدي، حتى بلغوا درجة الهياج، فراحوا يسبونني علنا في رائعة النهار، لا في الريف، أو في الطرق الخلوية فحسب، بل وفي الشوارع الرئيسية..

وكان أشدهم تحرشا بي، هم أولئك الذين أسديت إليهم أكبر قسط من الخير.. بل إن من الناس -الذين واصلت إسداء المعروف إليهم- من لم يجرؤوا على التحرش علنا، فراحوا يثيرون الباقين، وكأنما كانوا بهذه الطريقة يثأرون لأنفسهم من هوان أن يكونوا مدينين بالفضل لي!

ولم يبد على "**مونمولان**" أنه رأى شيئا مما كان يجري، لا ولم يعد يزورني. على أنه لم يلبث أن زارني -إذ اقتربت إحدى مناسبات الاحتفال بالقربان- لينصحني بأن أتفادى حضورها، مؤكدا لي أنه لن يعارضني في غير ذلك، وأنه سيدعني في سكينتي. وألفيت هذه المجاملة منه غريبة في نوعها. وذكرني بخطاب السيدة "**دي بوفلير**"، فلم أستطع أن أفقه أن من الممكن أن يكون لأي أحد شأن بما إذا كنت أتناول القربان أو لا أتناوله. وإذ وجدت أن قبول اقتراحه يعد جبنا من ناحيتي، فضلا عن أنني لم أكن راغبا في أن أتيح للناس هذه الحجة الجديدة كي يصيحوا في وجهي: "ها هو ذا الكافر!"، فإنني رفضت رجاء القس رفضا باتا، وإذا به يستاء ويوحي إلي بأنني لن ألبث أن أندم. على أنه لم يكن يملك أن يمنعني من التناول بأمر منه وحده، بل كان لابد من قرار من المجمع الديني الذي سمح له بالانضواء تحت لواء الكنيسة. وما دام المجمع لم يقل شيئا، فقد كان من حقي أن أتقدم في جرأة، دون أن أخشى رفضا. ومن ثم فقد عمد "**مونمولان**" إلى الحصول من القساوسة على تخويل بدعوتي للمثول أمام المجمع، لأقدم حسابا عن إيماني، على أن أجازى بالحرمان، إذا أنا أبيت أن ألبي الدعوة.

على أن الحرمان بدوره لم يكن ميسورا مالم يصدر عن المجمع وبإجماع الآراء. ولكن الفلاحين الذين ألفوا هذه الهيئة -تحت اسم الشيوخ الحكماء- كانوا تحت رئاسة القس، وبالتالي تحت نفوذه، كما هو مفهوم. فلم يكن لهم -بطبيعة الأمر- رأي سوى رأيه، لا سيما في المسائل اللاهوتية، التي كانوا أقل إدراكا لها منه. ومن ثم فقد قررت أن ألبي الدعوة، عندما أعلنت بها!

*****

أي ظرف سعيد، وأي نصر لي، لو أنني عرفت كيف أتكلم -في هذه المناسبة- عن نفسي، وأن أضع قلمي في فمي، كما ينبغي أن يقال!.. بأي تفوق جائح، وبأي يسر كان في وسعي أن أهزم القس البائس، وسط فلاحيه الستة، أعضاء المجمع!.. كان الطمع في السلطان قد أنسى رجال الدين البروتستانت مبادئ الإصلاح الديني، وكان كل ما يعوزني لتذكيره بهذا، ولإفحامه، هو أن أشرح "**الرسائل الجبلية الأولى**"، التي كانوا من الغباء بحيث راحوا يعيبونها علي. وهكذا كان موضوعي معدا، ولم يكن ينقصني سوى المثول أمام المجمع، فإذا بغريمي يفحم!.. وما كنت من الغباء بحيث أقتصر على الدفاع بل كان الجو ممهدا لأن أنقلب مهاجما، دون أن يفطن هو، ودون أن يقوى على صد الهجوم؛ ذلك لأن الحمقى التافهين من رجال الدين، كانوا عاطلي العقول بقدر ما كانوا جهلة، وقد وضعوا أنفسهم -بالنظام الذي ابتدعوه- في أنسب وضع كنت أشتهيه، لكي أدهمهم كما يحلو لي! ولكن مهلا!.. كان لابد لي من أن أتكلم، ومن أن أتكلم في الموضوع، ومن أن أعثر على الأفكار،

وأن أقلبها على كل جانب، وأن أجد الكلمات في لحظة الحاجة إليها، وأن أحتفظ دائما بحضور بديهتي، وأن أكون هادئ الأعصاب باستمرار، فلا أضطرب لحظة واحدة.. فما الذي كنت أملك أن أرجوه من نفسي، وأنا الذي كنت ألمس تماما عجزي عن أن أعبر عن نفسي للفور؟.. لقد اضطررت إلى أن الزم أزرى حالات الصمت، في "**جنيف**"، أمام لجنة كانت محابية لي كل المحاباة، وكانت قد عقدت العزم مقدما على أن تحبذ كل ما أقول. أما هنا، فقد كان الأمر على النقيض.. كان علي أن أنازل شخصا مشاكسا، وضع الدهاء في موضع المعرفة، وفي وسعه أن ينصب لي مائة شرك، قبل أن ألمح واحدا منها، وقد عقد عزمه على أن يظهرني مخطئا، مهما يكبده هذا من ثمن!.. وكنت كلما فحصت موقفي هذا، ازددت شعورا بخطره. فلما اقتنعت بأن من المستحيل أن أنتزع نفسي من هذا الموقف بنجاح، فكرت في حيلة أخرى. ورحت أفكر في خطاب اعتزمت أن ألقيه أمام المجمع، لكي أطعن في اختصاصه، فأحل نفسي من ضرورة الإجابة. وكان الأمر غاية في السهولة، فكتبت الخطاب، وشرعت أستذكره عن ظهر قلب في تحمس لا مثيل له. وإذ سمعتني "**تيريز**" وأنا أتمتم لنفسي -بلا انقطاع- مكررا نفس العبارات، محاولا أن أحشرها في رأسي، راحت تضحك مني. وكنت آمل أن أستوعب الخطاب في النهاية.

فقد كنت أعرف أن حاكم المقاطعة -كمندوب من العاهل- سيحضر جلسة المجمع، وأن معظم الشيوخ كانوا -بالرغم من مناورات "**مونمولان**" وزجاجات الخمر التي وزعها- طيبي الشعور نحوي. وكان يناصرني المنطق، والحق، والعدالة، وحماية الملك، وسلطان مجلس الدولة، ودعوات كل المواطنين الصالحين الذين تأثروا بتقرير هذا التحقيق.. كان كل شيء يساهم في تشجيعي، في الواقع!

و ما إن حان اليوم السابق على الموعد المحدد، حتى كنت قد حفظت خطابي عن ظهر قلب، ورحت أردده دونما خطأ. ورحت أسترجعه ثانية، في ذهني، طيلة الليل. ولكنني في الصباح.. نسيته! ورحت أتردد عند كل كلمة.. وتمثلت نفسي أمام المجلس الموقر، فإذا بي أرتبك، وأتلعثم. وإذا بفكري يتشتت!.. وأخيرا، خذلتني شجاعتي تماما، في لحظة الانطلاق، فبقيت في البيت، وعزمت على أن أكتب إلى المجمع ساردا -في عجلة- أسبابي، ناسبا عدم ذهابي إلى توعك صحتي التي كانت -في حالتي تلك- تجعل من المستحيل علي حقا، أن أمكث طيلة الجلسة!

وأحرج خطابي الوزير، فأرجأ القضية إلى جلسة أخرى. وفي تلك الأثناء، راح يبذل -هو وأذنابه- ألف حيلة وجهد، لإغراء أولئك الذين لم يتبعوا سوى إيعازات ضمائرهم دون إيعازاته، من الشيوخ الذين لم يروا ما كان يراه هو ورجال الدين. وبالرغم مما كان للحجج -المستمدة من قبو الخمور في داره- من تأثير على أناس من هذا القبيل، إلا أنه لم يستطع أن يكسب أحدا سوى الاثنين أو الثلاثة الذين كانوا أوفياء له من قبل، والذين عرفوا باسم "شياطينه اللعينة"!.. واستطاع مندوب الملك والكولونيل "**دي بوري**" -الذي أبدى كثيرا من الهمة في هذه المسألة- أن يحملا بقية الأعضاء على أن يلزموا نطاق الواجب. فلما أراد "**مونمولان**" أن يدفع قرار حرماني من الكنيسة قدما، رفض اقتراحه رفضا باتا بأغلبية الأصوات. ولم يبق أمامه سوى إثارة الناس -كحيلة أخيرة- فشرع يعمل جهارا، بمساعدة زملائه وغيرهم، واستطاع أن يوفق إلى درجة أنني اضطررت في النهاية -بالرغم من التعليمات العديدة الشديدة اللهجة من الملك، وبالرغم من جميع أوامر مجلس الدولة- إلى مغادرة البلاد، حتى لا أعرض مندوب الملك إلى الاغتيال بسبب جهوده للدفاع عني.

ولست أحتفظ لهذه القضية كلها، بغير ذكرى مهوشة إلى درجة يستحيل علي معها أن أبث أي

ترتيب أو روابط بين الأفكار التي تعاودني عنها. ولست أملك سوى أن أعرضها متفرقة، متباعدة، كما تتوارد على ذهني. وإني لأذكر أن شيئا من المفاوضات دار مع رجال الدين، وكان "**مونمولان**" وسيطا في ذلك؛ ذلك لأنه كان قد تظاهر بالخشية من أن تؤدي كتاباتي إلى قلقلة هدوء البلاد، الأمر الذي كان يعتبر نفسه مسؤولا عنه إذا ظل يبيح لي حرية الكتابة!.. ومن ثم فقد عمد إلى الإيعاز إلي بأن من الممكن التجاوز عن الماضي، إذا أنا ألقيت القلم من يدي. وكنت قد انتهيت إلى هذا -فيما بيني وبين نفسي- من قبل، فلم أتردد على أن أنتهي إليه مع فريق رجال الدين، ولكن بشرط، وفيما يتعلق بالمسائل الدينية فحسب. وتعمد "**مونمولان**" أن يعد صيغتين من الاتفاق، بسبب تعديلات أدخلها على الصيغة الأولى. وحدث أن قوبل الشرط بالرفض من حزب رجال الدين، فطلبت رد الاتفاق المكتوب، وإذا "**مونمولان**" يرد إلي إحدى النسختين ويحتفظ بالأخرى، زاعما أنه أتلفها!

وعمد الجمهور -بعد ذلك، وبتحريض من رجال الدين- إلى السخرية من تعليمات الملك، ومن أوامر مجلس الدولة، ولم يعودوا يقفون عند حد في جموحهم. وكانت الهجمات تشن علي من خلال المواعظ، من فوق المنابر، فلقبت بـ "**عدو المسيح**"، وطوردت في الريف كما لو كنت ذئبا مسعورا. وكانت ثيابي الأرمنية سمة كافية كي يعرفني الناس بها. فأحسست أقسى الإحساس بعدم ملاءمتها، ولكن نبذها -في مثل هذه الظروف- كان في رأيي، بمثابة الجبن. فلم أستطع أن أحل هذه المشكلة، وظللت أتمشى في كل مكان بهدوء، وأنا في القفطان، وقد ارتديت القلنسوة الفرو، تتبعني سخريات الغوغاء وصياحهم.. وقطع الحصى التي كانوا يقذفونني بها أحيانا!.. وكم من مرة سمعت -وأنا أمر بالمنازل- أصوات ساكنيها وهم يصيحون: "ناولوني بندقيتي، حتى أرديه في مكانه!". ولم أكن أوسع الخطى، فكان هذا يضاعف من حنقهم، ولكنهم اقتصروا دائما على التهديد والوعيد.. فيما يتعلق بالأسلحة النارية، على الأقل!

✽✽✽✽✽

على أنني -خلال هذا الهياج كله- لم أعدم مناسبتين كانتا مبعث سرور عظيم استمرأته كل الاستمراء. وكانت أولاهما التي استطعت أن أعرب عن عرفاني بالصنيع، بفضل سيدي اللورد "**المارشال**". ذلك أن جميع ذوي المكانة من أهالي "**نيوشاتيل**"، استنكروا المعاملة التي كنت ألقاها، والمكائد التي كنت ضحية لها، مما أوغر صدورهم كثيرا على فريق رجال الدين، إذ فطنوا إلى أنه كان منصاعا لنفوذ أجنبي، وأنه لم يكن سوى أداة للغير، ممن كانوا يتوارون في المؤخرة وهم يستحثونه على التصرف. ومن ثم فقد بدءوا يخشون ألا تؤدي حالي إلا إلى إنشاء محكمة للتفتيش حقا(١)!.. وبذل رجال الحكومة -لاسيما السيد "**مورون**" الذي خلف السيد "**دانفيرنوا**" في منصب المدعي العام- كل ما في وسعهم لحمايتي. ومع أن الكولونيل "**بوري**" لم يكن سوى فرد عادي، إلا أنه فاقهم جهدا. وكان أكثر منهم توفيقا. فهو الذي ابتكر الوسيلة لخذلان "**مونمولان**" في المجمع، بإلزام الشيوخ حدود الواجب. وإذ كان واسع السمعة، فقد استخدم مكانته في القضاء على الفتنة. ولكنه لم يكن يملك سوى سلطان القانون، والعدالة، والمنطق، في مواجهة نفوذ المال والشراب!.. وهكذا لم يكن الفريقان متعادلين، فأحرز "**مونمولان**" نصرا عليه، في هذه الناحية. ومع ذلك فإنني كنت مقدرا جهوده وتحمسه من أجلي، وكنت تواقا إلى أن أقدم له جميلا، في مقابل

---

(١) كانت محاكم التفتيش هيئات كنسية لقمع الزندقة، أنشئت لأول مرة في "تولوز" في سنة ١٢٢٩، ثم انتشرت في القرون الوسطى في فرنسا وإيطاليا وإسبانيا -بوجه خاص- واستفحل نفوذها فكثر جورها، وغدت أداة سياسية أكثر منها دينية. وكانت محاكماتها تجرى سرية، وتستخدم فيها أبشع طرق التعذيب لحمل السجين على أن يقر بالذنب الذي يتهم به!

جميله، ما استطعت.. وأن أرد له الفضل بطريقة ما. وكنت أعرف أنه كان يصبو إلى أن يصبح مستشارا في مجلس الدولة، ولكنه إذ أساء إلى البلاط الملكي -في قضية القس "**بيتيبيير**"- باء بعدم رضا العاهل والحاكم. فجرؤت على أن أكتب في صالحه -بالرغم من ذلك- إلى السيد "المارشال".. بل وتجاسرت على أن أذكر المنصب الذي كان يشتهيه، وكنت موفقا كل التوفيق -بالرغم مما توقعه كل الناس- حتى إن المنصب خلع عليه فورا بأمر الملك.

وهكذا ظل القدر -الذي اعتاد دائما أن يرفعني عاليا، وأن يخفضني إلى الحضيض، في آن واحد- يتقاذفني بين هذين النقيضين. وفي الوقت الذي كان الناس يلطخونني فيه بالوحل، استطعت أن أعين مستشارا للدولة!

وكانت ثانية المناسبات التي حظيت فيها بأعظم سرور، هي زيارة تلقيتها من السيدة "**دي فيرديلان**" وابنتها، التي كانت تصطحبها إلى حمامات "**بوربون**"، التي أقبلتا منها، فقضيتا يومين أو ثلاثة معي. ولقد استطاعت بمجاملاتها المستمرة، وما تجشمته من أجلي، أن تتغلب على نفوري الطويل منها، فإذا قلبي -وقد غزته مجاملاتها- يبادلها كل الود الذي ظلت طويلا توليني إياه. ولقد تأثرت بهذه الزيارة، لا سيما في الظروف التي كنت أعانيها، وعندما كنت في أشد الحاجة إلى مواساة الصداقة، كي أحتفظ بشجاعتي. ولقد خشيت أن تتأثر أبلغ التأثر بالإهانات التي كنت أعانيها من الأهالي، وكم وددت أن أجنبها المنظر، حتى لا يملأ فؤادها أسى. ولكن هذا لم يكن في طوقي، ومع أن وجودها كبح قليلا البذاءات -أثناء نزهاتنا- إلا أنها رأت ما يكفي لأن تحدس ما كان يجري في الأوقات الأخرى.

والواقع أنني بدأت أتعرض لأول مرة لحملات ليلية، في عقر داري، أثناء وجودها. ففي صباح أحد الأيام، وجدت وصيفتها نافذتي محجوبة بأحجار قذفت عليها في المساء. وكان ثمة مقعد عريض، ثقيل، مثبت تثبيتا قويا في الطريق، إلى جوار بابي. فإذا به قد نزع من مكانه، ونقل، وأقيم على أحد أطرافه مستندا إلى الباب، بحيث كان من المقصود -لولا أن اكتشف- أن يهوي على رأس أول شخص يفتح الباب ليخرج. ولقد ألمت السيدة "**دي فيرديلان**" إلماما تاما بكل ما كان يجري. فإلى جانب ما كان بوسعها أن تراه بنفسها، أخذ خادمها الخاص يتعرف على أهل القرية، ويستدرجهم إلى الحديث. بل إنه رؤي وهو يجاذب "**مونمولان**" الحديث. ومع ذلك، فإنها لم تبد أنها انتبهت إلى شيء مما كان يجري لي، ولم تحدثني عن "**مونمولان**"، ولا عن أي شخص، ولم تجب بغير كلمات موجزة على ما كنت -أحيانا- أرويه لها عن نفسي. على أنها لاحت مقتنعة بأن إقامتي في "**إنجلترا**"، أكثر ملاءمة لي من أية إقامة أخرى. وأسهبت في الحديث إلي عن السيد "**هيوم**" -الذي كان، إذ ذاك، في "**باريس**"- وعن وده لي، ورغبته في أن يكون ذا نفع لي في بلاده. وقد آن لي أن أذكر شيئا عن السيد "**هيوم**".

كان هذا السيد قد اكتسب في "**فرنسا**" صيتا ذائعا، لا سيما بين جماعة دائرة المعارف، بفضل الرسائل التي ألفها في الشؤون التجارية والسياسية، ثم -أخيرا- بفضل كتابه في: "**تاريخ آل ستيورات**"، وهو الوحيد من مؤلفاته، الذي اطلعت على قسط منه، مترجما بقلم الراهب "**بريفو**". ومع أنني لم أكن قد قرأت مؤلفاته الأخرى، إلا أنني اقتنعت -على ضوء ما قيل لي عنه- بأن السيد "**هيوم**" كان يجمع بين نزعة جمهورية قوية، تميل -بفضل الأهواء الإنجليزية- إلى تحبيذ الترف. وعلى ضوء هذا الرأي، اعتبرت كل المعاذير التي ساقها -لتبرير تصرفات "**تشارلس الأول**"- أعجوبة في

الرأي المحايد، ومن ثم فإنني أكبرت فيه صدقه ونزاهته، أكثر مما أكبرت عبقريته. وكثيرا ما ضاعفت الرغبة في التعرف إلى هذا الرجل النادر واكتساب وده، من المغريات التي أثارها في نفسي بإلحاح السيدة "**دي بوفلير**" -صديقته الحميمة- والتي كانت تدفعني إلى الانتقال إلى "**إنجلترا**".

ولقد تلقيت منه -عن طريقها- عند وصولي إلى "**سويسرا**"، خطابا مطيبا للخاطر إلى أقصى حد. وبعد أن قدم أعظم آيات الإطراء لعبقريتي -في هذا الخطاب- وجه دعوة ملحة كي أنتقل إلى "**إنجلترا**"، وتطوع بكل ماله من مكانة، وبكل أصدقائه لجعل إقامتي هناك مستحبة ومريحة. وقد سعيت لفوري إلى استشارة السيد "**المارشال**" -الذي كان مواطنا وصديقا للسيد "**هيوم**"- فأكد لي حسن ظني بهذا السيد. وروى لي نادرة أدبية عنه، أدهشتني بقدر ما أدهشته. تلك هي أن "**ولاس**" -الذي وضع كتابا يعارض فيه آراء "**هيوم**" بشأن سكان العالم القديم- كان متغيبا عندما طبع كتابه، فتطوع "**هيوم**" بمراجعة "البروفات"، وبالإشراف على إصدار الكتاب. وكان هذا المسلك مما يصادف هوى من نفسي، إذ إنني كنت -بنفس الروح- قد توليت بيع نسخ من أغنية كانت قد نظمت ضدي، في مقابل ستة "**سو**" للنسخة!... ومن ثم فقد كنت محقا في أن أكون لنفسي كل فكرة طيبة عن "**هيوم**"، قبل أن تأتي السيدة "**دي فيرديلان**"، وتحدثني في حرارة عن الود الذي قال: إنه يكنه نحوي، وعن تشوقه إلى أن يؤدي لي كل تكريم في "**إنجلترا**".. فهذا عين ما ذكرته لي!

ولقد ألحت كثيرا لحملي على الإفادة من هذه الشهامة، وعلى الكتابة إلى "**هيوم**". ولما لم أكن بطبعي ميالا إلى "**إنجلترا**"، ولم أكن راغبا في اتخاذ هذا القرار -اللهم إلا عند الضرورة القصوى- فقد رفضت أن أكتب، أو أن أعد بالكتابة، بيد أنني تركت لها حرية اتخاذ التصرف الذي تراه صالحا، لاستبقاء ميل "**هيوم**" نحوي. وعندما غادرت "**موتيير**"، خلفتني وأنا مقتنع تماما -بكل ما قالته لي عن هذا الرجل الجليل- بأنه كان في عداد أصدقائي، وبأنها كانت من أقرب أصدقائه إليه!

*****

ولقد مضى "**مونمولان**" قدما في مكائده -بعد رحيلها- وأصبح القوم لا يقفون عند حد في جموحهم، ومع ذلك فقد واصلت نزهاتي على القدمين في هدوء وسط صخبهم. وأضفت هواية النباتات -التي كنت قد شرعت في ممارستها بفضل الدكتور "**دانفيرنوا**"- طرافة جديدة على رياضتي، وحملتني على أن أهيم في الريف، أجمع النباتات، دون أن أتأثر بصيحات الغوغاء، الذين لم يكن هدوء أعصابي ليزيدهم إلا هياجا! ولقد كان من الأشياء التي حزت في نفسي، أن رأيت أسرات أصدقائي(١)، أو من كانوا يسمون أنفسهم كذلك، ينضمون جهارا إلى صفوف مضطهدي.. كآل "**دانفيرنوا**"... ولم يشذ عنهم حتى والد وأخ صديقتي "**ايزابيل**".. و"**بوي ديلاتور**" قريب الصديقة التي أقمت في دارها، والسيدة "**جيراردييه**" زوجة أخيها. ولقد كان هذا الـ"**بيير بوي**" شديد الغباء، وبليد الذهن، وكان عنيفا في طباعه، حتى إنني أبحث لنفسي أن أضحكه، لكي أتفادى هياجه. ووضعت -بالأسلوب الذي انتهجته في "النبي الصغير"- كتيبا من

---

(١) عقب "روسو" على هذا بقوله: "بدأت هذه الظاهرة المشؤومة، منذ إقامتي في "ايفردون". إذ إن السيد الاقطاعي "روجان" توفي بعد رحيلي عن هذه المدينة بعام أو اثنين، فإذا أبوه الشيخ يجد من الأمانة ما يحمله على أن يخبرني -وهو آسف- أنه قد ثبت من أوراق ابنه أنه قد اشترك في مؤامرة إقصائي عن "ايفردون" وولاية "بيرن". وقد دل هذا بجلاء. على أن المؤامرة لم تكن فرية -كما رغب الناس في أن يصدقوا- وإنما كانت مجرد مظاهرة كاذبة. إذ إن الاقطاعي "روجان"، لم يكن بعيدا عن التقوى فحسب، وإنما كان يمعن في ماديته وكفره إلى درجة التعصب والتهوس. وإلى جانب ذلك. لم يكن في "ايفردون" من استولى على ودي، وغمرني بالمجاملات المفرطة، وبالملق والرياء، كما فعل الإقطاعي "روجان" المذكور. فكان وفيا في اتباع الخطة المحببة لدى مضطهدي".

بضع صفحات، أسميته "**رؤيا بيير الجبلي، الملقب بالبصير**"!.. ولقد وجدت في هذا الكتاب فرصة لشن هجوم ساخر على المعجزات، اتخذ -في ذلك الحين- حجة رئيسية لاضطهادي. ولقد عمد "**دوبييرو**" إلى طبع هذا الكتيب في "**جنيف**"، فلم يظفر -في تلك البلاد- بأكثر من نجاح متوسط، إذ إن أهالي "**نيوشاتيل**" لا يميلون كثيرا إلى تقدير السخرية اللاذعة أو الدعابات الضاحكة، برغم ما أوتوا من المعية!

ولقد بذلت قدرا أكبر من الجهد، في كتاب آخر، في عين تلك الفترة. وقد عثرت على مخطوطه بين أوراقي، فجدير بي أن أذكر شيئا بصدده:

فعندما كانت حمى المراسيم والاضطهادات في عنفوانها، بز أهل "**جنيف**" سواهم، بأن راحوا يطلقون صيحاتهم بأعلى مافي طاقتهم من صوت. واختار صديقي "**فيرن**" تلك الفترة بالذات -في كرم جدير برجال الدين حقا!- لينشر بعض رسائل ضدي، حاول فيها أن يبرهن زورا على أنني لم أكن مسيحيا.. على أن هذه الرسائل -التي صيغت في أسلوب مقنع- لم تجد نفعا، بالرغم مما قيل من أن الطبيعي "المؤمن بالطبيعة دون الله" "**بونيه**"، قد ساهم فيها. ذلك لأن "**بونيه**" هذا، كان ماديا، ولكنه لم يكن ليتوانى عن أن ينقلب إلى متعصب ديني متعنت، إذا ما كان الأمر يتعلق بي. ومن المحقق أنني لم أشعر بميل إلى أن أرد على هذا الكتيب، ولكن الفرصة عرضت لأقول كلمة فيه، في "**رسائل من الجبل**"، فأوردت في سياقه إشارة مترفعة، أهاجت حنق "**فيرن**"، فراح يملأ "**جنيف**" بصيحات غيظه، وقال لي "**دانفيرنوا**": إنه فقد حجاه. وبعد فترة، ظهرت وريقة لا تحمل اسم كاتبها، وكأنما كتبت بمياه "**فليجيتون**" -أحد أنهار الجحيم- لا بمداد. واتهمت في هذه الوريقة بأنني ألقيت بأبنائي إلى عرض الطريق، وأنني كنت أجر ورائي إحدى مومسات جنود الحرس، وأن الإفراط في الملاذ قد أنهك قواي، وأنني موبوء بالزهري.. وما إلى ذلك من أوصاف "مهذبة"!

ولم يشق علي أن أعرف كاتب هذا المنشور. وكان أول ما خطر لي، عند قراءة هذا التشهير، هو أن اقدر بمقياسه كل ما يسمى بين الناس بالسمعة والشهرة، فقد رأيت رجلا يتهم بأنه ربيب العواهر وهو الذي لم يرتد يوما دار فسق، وكان أعظم عيوبه دائما، هو انه في حياء العذراء وخجلها.. رأيتني أوصف بأن "الزهري" كان يفري كياني، وأنا الذي لم أصب يوما بأتفه الأمراض التناسلية، بل إن أهل الاختصاص أنفسهم أكدوا أنني أوتيت حصانة فطرية ضد هذه الأمراض!

وبعد أن قلبت الرأي، انتهيت إلى أن خير طريقة لدحض هذا الافتراء، هي أن أنشرها في المدينة التي أقمت فيها أكثر من سواها. لذلك أرسلت المنشور إلى "**دوشين**" ليقوم بطبعه بنصه، مع مقدمة أوردت فيها اسم السيد "**فيرن**"، وبعض سطور موجزة لإيضاح الوقائع. على أنني لم اقنع بنشر هذا المنشور، فأرسلته بنفسي إلى عدة أشخاص، بينهم الأمير لويس "**دي فيرتمبيرج**"، الذي كان قد اظهر لي مجاملات غاية في الكرم، والذي كنت أبادله الرسائل، في ذلك الحين.. ولاح أن الأمير، "**ودوبييرو**"، وغيرهما، كانوا في شك من أن "**دي فيرن**" هو مؤلف هذا التشهير، وعتبوا علي أن ذكرت اسمه دون تحر كاف. وبناء على ملاحظاتهم، ندمت على ما فعلت، وكتبت إلى "**دوشين**" كي يوقف نشر هذه الوريقة، فكتب إلي "**جاي**" بأنها أوقفت. ولست أدري ما إذا كان هذا حقا، فقد عهدت "**جاي**" كثير الكذب، في مناسبات كثيرة، حتى إن صدور أكذوبة جديدة منه، ليس بالأمر المستغرب!.. ولقد كنت -إذ ذاك- محوطا بهذه الظلمات الدامسة، التي كان من المستحيل علي أن أنفذ خلالها إلى أي شيء من الحقيقة!

ولقد احتمل السيد "**ديفرن**" هذا الاتهام في رزانة كانت أكثر من مستغربة بعد السخط المهتاج الذي أبداه من قبل، لا سيما إذا صح أنه لم يكن يستحق هذا الاتهام!.. ولقد كتب لي رسالتين أو ثلاثا، في أسلوب جد حذر، بدا لي أنه كان يرمي بها إلى محاولة الوصول -خلال ردودي- إلى مدى ما كنت أعرفه، وما إذا كان لدي دليل ضده. على أنني أجبت بخطابين قصيرين جافين، خشني المعنى دون نبو في العبارة، فلم يغضب منهما إطلاقا. ولكني لم أجب عن خطابه الثالث قط، إذ تبينت أنه كان يستدرجني إلى مراسلته.. وقد أرسل "**دانفيرنوا**" ليحدثني بهذا الصدد. وكتبت السيدة "**كراميه**" إلى "**دوبييرو**" أنها كانت واثقة بأن التشهير لم يصدر عن "**فيرن**". ولم يزحزحني هذا كله عن اقتناعي. على أنه لما كان من المحتمل أن أكون مخطئا -فأكون مدينا لـ"**فيرن**" باعتذار علني، في هذه الحال- فقد قلت له، عن طريق "**دانفيرنوا**": "إنني على استعداد لأن أقدم له اعتذارا يرضيه، إذا هو استطاع أن يبين لي الكاتب الحقيقي لهذا التشهير، أو أن يبرهن لي -على الأقل- على أنه لم يكن هذا الكاتب. بل إنني ذهبت إلى أبعد من ذلك، إذ شعرت بأنه -على أية حال- ليس من حقي أن أطالبه بأن يثبت لي أي شيء، إذا لم يكن مذنبا. فعزمت على أن أكتب -في مذكرة مسهبة- الأسباب التي حملتني على اعتقادي، وأن أعهد بها إلى حكم فيصل لا يستطيع "**فيرن**" أن يطعن في ذمته. وما كان أحد ليحدس هذا الفيصل الذي اخترته، فقد وقع اختياري على: مجلس "**جنيف**"!

ولقد أعلنت في نهاية المذكرة، أنه إذا قضى المجلس -بعد فحصها وإجراء التحريات التي يراها لازمة، والتي كان من السهل إجراؤها بنجاح- أن السيد "**فيرن**" لم يكن كاتب التشهير، فإنني على استعداد لأن أكف صادقا، منذ تلك اللحظة، عن اعتقادي بأنه الكاتب، ولأن أذهب فأرتمي على قدميه، وأظل أناشده الصفح، حتى أظفر به!.. وبوسعي أن أقول إن تأجج غيرتي من أجل العدالة، واستقامتي وكرم نفسي، وثقتي بهذا الحب -الدفين في قلبي- نحو العدالة.. أستطيع أن أقول: إن هذه لم يقدر لها يوما أن تتكشف أكثر وضوحا وكمالا مما تكشفت في هذه المذكرة.. ولا أكثر حكمة ونفاذا إلى القلوب مما تمثل في أنني لم أتردد في قبول الد أعدائي ليفصلوا بيني وبين من ذمني!.. ولقد قرأت هذه المذكرة على "**دوبييرو**" فنصحني بأن أعدمها، وقد فعلت. وأشار علي بأن أرتقب ما قد يظهره "**فيرن**" من أدلة. فانتظرت، ولا أزال أنتظر!.. كذلك نصحني بأن ألتزم الصمت أثناء الانتظار، فلزمت الصمت، وسأظل صامتا بقية عمري، ملوما على أنني وجهت إلى "**فيرن**" اتهاما خطيرا، زائفا لم يقم عليه دليل.. وإن كنت مازال موقنا، ومقتنعا -في دخيلتي- بأنه كاتب ذلك الهجاء، يقيني واقتناعي بوجودي!.. إن مذكرتي في حوزة السيد "**دوبييرو**"، فإذا قدر لها يوما أن ترى النور، فستتبدى فيها حججي وأسبابي.. وآمل أن تجد روح "**جان جاك**" -التي أبى معاصري أن يفهموها-، من يفهمها إذ ذاك!

لقد حان الوقت لننتقل إلى الكارثة الأخيرة في "**موتييه**"، ورحيلي عن "**فال -دي ترافير**"، بعد إقامة دامت سنتين ونصف السنة.. وبعد ثمانية أشهر من جلد لم يهن، في احتمال أزرى المعاملات!.. إن من المستحيل أن أذكر بجلاء دقائق هذه الفترة غير البهيجة، من حياتي. ولكنها ستوجد في السيرة التي نشرها "**دوبييرو**"، والتي سأتكلم عنها فيما بعد.

*****

اشتد الهياج عنفا، منذ رحيل السيدة "**دي فيـرديلان**". وبالرغم من الإنذارات المتكررة –من الملك– وبالرغم من الأوامر المتتابعة من مجلس الدولة، وبالرغم من الجهود التي بذلها سيد المقاطعة، ورجال الحكومة في المنطقة، فقد ظل الناس يعتبرونني –في جد واعتقاد حازم– عدوا للمسيح!.. وإذ رأوا أن كل صخبهم لم يؤد إلى جدوى، بدا أنهم تهيئوا أخيرا للإقدام على تصرفات عنيفة!.. فبدأت الأحجار تتطاير خلفي في الطرق، وهي تلقى من بعد لم يكن يمكنها من أن تصيبني.

وأخيرا.. وفي ليلة سوق "**موتيير**"، التي تقام في بداية شهر أيلول (سبتمبر)، هوجمت في عقر داري، التي كنت أقيم فيها، بطريقة عرضت حياة ساكني الدار للخطر!

ففي منتصف الليل، سمعت جلبة في البهو الذي كان يمتد بطول الجزء الخلفي للدار. وانهال سيل من الأحجار –التي صوبت إلى النافذة والباب المفضي إلى البهو– فراحت تهوي في ضجيج قوي، حتى إن كلبي، الذي اعتاد النوم في البهو، بدأ يعوي، ثم أخرسه الذعر، وهرع إلى أحد الأركان، وراح ينبش الأرض الخشبية ويقرضها، بحثا عن مفر!.. واستيقظت على الضجة، وفيما كنت أهم بمغادرة مخدعي؛ لأنتقل إلى المطبخ، إذا بحجر –طوحت به يد قوية– يهشم نافذة المطبخ، ويطير في جوه ثم يصدم باب غرفتي فيفتحه، ويقع عند مؤخر فراشي. ولو أنني تعجلت الخروج لحظة، لكان قد أصاب بطني!.. وحدست أن هذه الضجة كانت تهدف إلى استدراجي، وأن الحجر ألقي لكي يستقبلني وأنا أغادر غرفتي.

واندفعت إلى المطبخ، فوجدت "**تيـريز**"، التي كانت قد استيقظت –هي الأخرى– التي جرت إلي، وهي ترتجف ووقفنا ملتصقين بالجدار، بعيدين عن مستوى النافذة، لنتجنب الإصابة بالطوب، ولنتدبر ما في وسعنا أن نفعله.. فقد كان الخروج لطلب النجدة هو الوسيلة للقضاء علينا. ولحسن الحظ، استيقظ على الجلبة خادم شيخ جليل كان يقطن أسفل طابقنا، فجرى ليطلب النجدة من حاكم المنطقة، الذي كان بابه مجاورا لبابنا. فقفز من فراشه، وألقى عباءته "**الروب دي شامبر**" على كتفيه في عجلة، وأقبل لفوره مع الحرس الذين كانوا ساهرين –في تلك الليلة– بسبب السوق، ومن ثم فقد كانوا على استعداد. وكان جزع حاكم المنطقة بالغا، حين رأى الخسائر، حتى إن وجهه شحب.. وعند مرأى الحصى الذي امتلأ به البهو، صاح: "يا إلهي!.. كأنني في محجر!". وإذ هبطنا إلى الطابق الأسفل، وجدنا أن باب فناء صغير قد اقتحم، وأن محاولة بذلت للنفاذ إلى داخل البيت، عن طريق البهو. وعند التحري عن سبب عدم انتباه الحراس إلى هذا الشغب، وعدم حيلولتهم دون حدوثه، فظهر أن حراس "**موتيير**" ألحوا في القيام بهذه النوبة من نوبات الحراسة، برغم أنها لم تكن نوبتهم، إذ كان الدور على حراس من قرية أخرى!

وفي اليوم التالي، أرسل حاكم المنطقة تقريرا إلى مجلس الدولة، الذي انتدبه –بعد يومين– للقيام بتحقيق في الأمر، وبان يعد بمكافأة، وبكتمان سر أولئك الذين يشون بالجناة، وكان عليه في الوقت ذاته، أن يقيم حارسا –على نفقة الحكومة– ليحرس داري وداره، التي كانت ملاصقة لها. وفي اليوم التالي، أقبل لزيارتي الكولونيل "**دي بوري**"، و"**مورون**" المدعي العام، و"**مارتينيه**" حاكم المنطقة، و"**جوينييه**" محصل الضرائب، و"**دانفيرنوا**" أمين خزانة المنطقة، وأبوه... وقصارى القول: إن كل ذوي المكانة في المنطقة، جاءوا لزيارتي، وأجمعوا على الإلحاح علي لإغرائي على أن أنحني للعاصفة، وأن أرحل –ولو إلى فترة من الزمن– عن أبرشية لم يعد بوسعي أن أعيش فيها آمنا أو مكرما. بل إنني لاحظت أن حاكم الإقليم– في ذعره من فورة الأهالي الساخطين، وفي جزعه من أن تمتد إليه– كان

على استعداد لأن يبدي اغتباطه إذا رآني أرحل فورا؛ حتى يتخفف من مسؤولية حمايتي، وحتى يستطيع أن يبرح المنطقة هو الآخر.. وهذا ما حدث فعلا، بعد رحيلي.

ورضخت لهم.. بل إنني انصعت دون عناء تقريبا، لأن منظر حقد الجمهور مزق قلبي بدرجة لم أعد أقوى معها على احتمال الألم!

وكان ثمة عدة أماكن أتخير منها ملاذي. فلقد ذكرت لي السيدة "**ديفيرديلان**"، في عدة خطابات –منذ عودتها إلى "**باريس**"– سيدا يدعى "**ولبول**"، كانت تلقبه باللورد، وكان شديد الاهتمام بأمري، فعرض علي مقاما في إحدى ضياعه، التي صورتها لي السيدة أبدع تصوير، وتناولت التفصيلات الخاصة بإقامتي، وسكناي.. مما أوحى لي بمدى اهتمام اللورد "**ولبول**" معها بهذا المشروع. ولقد كان "**اللورد مارشال**" يوصيني باستمرار بأن ألجأ إلى "**إنجلترا**" أو "**ايقوسيا**"، حيث عرض علي –هو الآخر– أن أقيم في إحدى ضياعه. ولكنه عرض علي كذلك ملجأ آخر في "**بوتسدام**"، كان أكثر إغراء لي، لأنه كان مجاورا لمقره. وكان قد أطلعني –من عهد قريب– على اقتراح أبداه الملك له بشأني، كان بمثابة دعوة موجهة إلي، وقد أبدت السيدة دوقة "**ساكس–جوتا**" ارتياحها البالغ إلى هذا، حتى إنها كتبت إلي ملحة في أن أزورها، في طريقي، وأن أقيم أياما معها. ولكنني أحسست بميل شديد إلى "**سويسرا**"، حتى إنني لم أكن أقوى على أن أحزم أمري على مغادرتها، طالما كان من الممكن أن أعيش فيها. ومن ثم فقد انتهزت هذه الفرصة لتحقيق خطة كانت تشغل بالي منذ عدة أشهر، ولم أستطع –قبل الآن– أن أتحدث عنها، حتى لا أقطع استطراد القصة.

كانت هذه الخطة هي أن أذهب فأقيم في جزيرة "**سان بيير**"، وهي من أملاك مستشفى "**بيرن**". وكنت قد زرت مع "**دوبييرو**" هذه الجزيرة، أثناء إحدى جولاتنا، ففتنت بها حتى إنني –من ذلك الحين– لم أكف عن التفكير في وسيلة للإقامة بها. وكانت أعظم عقبة هي أن الجزيرة كانت ملكا لأهل "**بيرن**" الذين طردوني من أراضيهم –قبل ثلاث سنوات– في ظلم مهين. وفضلا عن أن كرامتي كانت خليقة بأن تتأذى من العودة إلى الإقامة بين قوم أساءوا وفادتي، فقد كان لدي ما يبرر الخوف من أنهم لن يدعوني أعيش في هذه الجزيرة، في هدوء يفوق ذاك الذي كنت فيه في "**ايفردون**". ولقد استشرت السيد "**المارشال**" في هذا الأمر، فرأى –كما رأيت– أن أهل "**بيرن**" خليقون بأن يشيروا بنفيي إلى هذه الجزيرة، وبأن يستبقوني رهينة إزاء أية مؤلفات جديدة قد أصبوا إلى وضعها، فقد اشتم منهم هذه الرغبة، عن طريق سيد يدعى "**ستيرلر**"، كان جارا قديما له في "**كولومبيه**".

ولقد خاطب السيد "**ستيرلر**" في هذا الشأن– كبار رجال الدولة، وأكد للسيد "**المارشال**" –استنادا إلى الإجابة التي تلقاها– أن أهل "**بيرن**" لم يكونوا يرجون، في خجلهم من مسلكهم السابق، أفضل من أن آوي إلى جزيرة "**سان بيير**"، وأن يدعوني أعيش هناك في سلام. وإمعانا في الحيطة، سعيت –قبل أن أجرؤ على الذهاب للإقامة هناك– إلى الحصول على مزيد من المعلومات، بوساطة الكولونيل "**شاييه**"، الذي أكد لي هذه الأمور بالذات. وإذ ظفر محصل الضرائب في الجزيرة، بإذن من رؤسائه بأن يستضيفني في داره، فقد خيل إلي أن لا مخاطرة في الذهاب إلى هناك، بعد هذا القبول الضمني من الحكام والملاك "الشعب"، فما كنت لأطمع أن يعترف سادة "**بيرن**" جهارا بالظلم الذي أوقعوه علي، فيخرجوا على أشد المبادئ مناعة لدى كل أصحاب السلطان.

*****

وتقع جزيرة "**سان بيير**" -وتسمى في "**نيوشاتيل**" بجزيرة "**لاموت**"- وسط بحيرة "**بيين**". ويبلغ محيطها حوالي نصف فرسخ، ولكن هذه المساحة الضئيلة تنتج كل المحصولات الرئيسية اللازمة للحياة. ففيها حقول، ومروج، ومراع، وبساتين، وغابات، وكروم. وهذه جميعا موزعة - -بفضل الأرض المتباينة والجبلية- بشكل مستحب جدا إذ إن مناظرها المختلفة، لا تتكشف جميعا في وقت واحد، وإنما تتعاقب في توال متبادل، فتوحي بأن الجزيرة أكبر مما هي في الواقع. ويتألف الجانب الغربي منها -المواجه لـ"**جليريس وبونفيل**"- من مرتفع شاهق، تكون الأشجار فيه طريقا طويلة، يتوسطها فراغ تسده النباتات من كل جانب، كأنه قاعة، يجتمع فيه الوافدون من كل الشطآن المجاورة -في أيام الآحاد من موسم حصاد العنب- ليرقصوا ويلهوا. وليس في الجزيرة سوى دار واحدة، يقيم فيها محصل الضرائب. ولكنها كبيرة، رحبة، تقع في منخفض يحميها من الرياح.

وعلى خمسمائة أو ستمائة ياردة من "**سان -بيير**" -من الناحية الجنوبية- جزيرة أخرى، أصغر منها مساحة بكثير، غير مزروعة ولا مأهولة، وتبدو كما لو كانت قد انفصلت عن الجزيرة الكبرى -في زمن ما- بفعل العواصف العاتية... وهي لا تنبت بين حصبائها سوى الصفصاف، بيد أنها تضم بقعة مرتفعة مكسوة بالحشائش، وذات حسن بديع. ويكاد شكل البحيرة أن يكون بيضاويا مكتمل التكوين. ومع أن شطآنها ليست خصبة كشواطئ بحيرتي "**جنيف**" و"**نيوشاتيل**"، إلا أنها ذات منظر زخرفي بديع للغاية، لا سيما في الجانب الغربي الكثير السكان، وعند سفح سلسلة من التلال لها حافة من الكروم كتلك التي تحف بـ"**كوت-روتي**" -في منطقة "**الرون**"- وإن لم تشبهها في جودة النبيذ الذي تدره. وتوجد في الطريق من الجنوب إلى الشمال، المناطق التابعة لقضاء "**سان جان**" و"**بونفيل**" و"**بيين**" و"**نيداو**" عند طرف البحيرة، وقد تناثر فيها عدد من القرى البهيجة المناظر.

هكذا كان الملجأ الذي دبرته لنفسي، والذي قررت أن أستقر فيه إذ أبارح "**فال-دي-ترافير**". ولعله ليس من اللغو غير المجدي، أن أذكر أنني خلفت هناك عدوا ألد، تمثل في السيد "**دوتيرو**" -عمدة "**فيربير**"- الذي لم يكن يحظى بكثير احترام في المنطقة، ولكنه أوتي شقيقا قيل إنه رجل أمين، كريم، كان يعمل في مكتب السيد "**دي سان فلورنتان**". ولقد زاره العمدة قبل الحادث الذي جرى لي بوقت قصير.. مثل هذه الملاحظات البسيطة -التي لا قيمة لها في حد ذاتها- قد تساعد فيما بعد، في الكشف عن كثير من الحوادث المستترة.

ولقد كان اختياري هذا الملجأ متمشيا تماما مع أهوائي وطباعي الميالة إلى العزلة والخمول، حتى إنني أعده بين الأحلام العذبة التي كنت مشغوفا بها كل الشغف. ولاح لي أنني سأغدو -في هذه الجزيرة- أكثر بعدا عن مجتمع البشر، وفي مزيد من الأمان من إهاناتهم، وأشد ما أكون بعدا عن ذاكرتهم.. وقصارى القول: إنني سأكون أكثر تحررا في الاستسلام لمباهج البطالة وحياة التأمل. ولقد كنت أتمنى أن أعزل تماما -في هذه الجزيرة- فلا يعود لي أي اتصال بأي إنسان حي. ولقد اتخذت -بلا شك- كل التدابير الممكن تصورها، لأعفي نفسي من ضرورة الإبقاء على هذه الحال.

*****

على أنه لم يكن ثمة بد من القوت، وقد كان العيش على هذه الجزيرة باهظ النفقات جدا، من

جراء ارتفاع أسعار المؤن، وصعوبة المواصلات. فضلا عن أن المرء كان تحت رحمة محصل الضرائب. ولقد أزيلت هذه الصعوبة بتدبير تكرم السيد "**دوبييرو**" بإجرائه معي، حل بمقتضاه محل الشركة التي كانت قد تعهدت بإنتاج طبعة شاملة لمؤلفاتي، ثم تخلت عن المشروع. فوضعت بين يديه كل المواد اللازمة، وتعهدت بتنسيقها وتوزيعها. كذلك ارتبطت بأن أسلمه ذكريات حياتي، وجعلته الوصي العام على كل أوراقي، مع اشتراط خاص بألا يستغلها إلا بعد وفاتي، إذ كنت قد آليت على نفسي أن أختتم حياتي العملية في سكينة، دون أن أذكر الرأي العام بوجودي على قيد الحياة. وكان المعاش السنوي -الذي تعهد بدفعه في مقابل ذلك -كافيا لحاجاتي. كذلك عرض علي السيد "**المارشال**"- الذي كان قد استرد كل ثروته- معاشا سنويا قدره ألف ومائتا فرنك، لم أتقبل سوى نصفه. ولقد رغب في أن يرسل إلي مجموع المبلغ دفعة واحدة، فرفضت، إذ حرت في أمر استثماره؛ ومن ثم فإنه أرسله إلى "**دوبييرو**"، فظل بين يديه، وقد تعهد أن يسلمني الفائدة السنوية، على أساس الفئة المتفق عليها. ومن ثم فبضم اتفاقي مع "**دوبييرو**"، إلى المعاش الذي وهبنيه السيد "**المارشال**" -على أن يؤول ثلثاه إلى "**تيريز**" عقب وفاتي- إلى الثلاثمائة فرنك التي كنت أتسلمها سنويا من "**دوشين**"، أصبح في وسعي أن أرتكن إلى دخل محترم لنفسي، ولـ"**تيريز**" بعد مماتي. إذ تركت لها سبعمائة فرنك سنويا، من معاش "**ريي**" ومن معاش السيد "**المارشال**".

وهكذا لم يعد خوف لدي من أن تفتقد "**تيريز**" خبزها يوما، أو من أن أشعر أنا الآخر بحاجة!.. بيد أنه كان قد كتب لي أن أضطر إلى أن أنبذ كل الموارد التي ساقها إلى يدي الحظ أو جهدي، وأن أموت -كما عشت- فقيرا!.. وسيكون في الوسع تبين ما إذا كان في وسعي -دون أن أتردى في أدنى مهاوي الهوان- أن أتشبث بتدابير حرص الغير دائما على أن يجعلوها مذلة لي، إذ عمدوا -في عناية- إلى تجريدي من أية موارد أخرى، لكي يقسروني على أن أرضى بالهوان. فكيف خالجهم الشك في القرار الذي كنت خليقا بأن أتخذه، إذا ما خيرت بين الفقر، وبين الرخاء مع الهوان؟.. لقد كانوا دائما يحكمون على قلبي، بالقياس إلى قلوبهم.

*****

وإذ ارتاح بالي إلى موارد عيشي، لم يعد لدي أي شاغل آخر. ومع أنني كنت قد تركت الميدان -في الدنيا- خاليا لأعدائي، إلا أنني خلفت -في الحماس النبيل الذي أملى علي مؤلفاتي، وفي استمرار صمود مبادئي وتماسكها- شاهدا على روحي التي كانت مسؤولة عن كل النهج الذي اتخذته شخصيتي في مسلكها. ولم أكن في حاجة إلى دفاع فوق هذا، ضد من سعوا إلى مذمتي وتشويه سمعتي. إنهم قد يصورون -تحت اسمي- رجلا آخر يختلف عني تماما، ولكنهم لا يملكون أن يخدعوا سوى أولئك الذين قد يرغبون في أن يكونوا مخدوعين!.. لقد كان بوسعي أن أترك لهم حياتي لينتقدوها، من أولها إلى آخرها. فلقد كنت مطمئنا إلى أنهم خليقون دائما بأن يجدوا -وراء كل أغلاطي ومواطن ضعفي، وعدم طاقتي على احتمال أي نير- رجلا كان عدلا، وصالحا، وخلوا من الحقد والكراهية والغيرة، على استعداد دوما لأن يعترف بأغلاطه الظالمة، وأكثر استعدادا لأن ينسى مظالم الآخرين.. رجلا كان ينشد كل سعادته في عواطف الحب واللطف، وكان يكشف في كل شيء عن إخلاص بلغ مبلغ التهور وأبعد حدود التجرد من الذاتية!

وعلى هذا، فإنني -بشكل ما- ودعت القرن الذي كنت أعيش فيه، وودعت معاصري، وودعت

مجتمع البشر، وأويت إلى هذه الجزيرة لأقضي ما تبقى لي من أيام.. فهكذا كان عزمي، وهناك كنت أعول على أن أنفذ -أخيرا- مشروعي الكبير.. مشروع الحياة الخاملة، التي كرست لها عبثا -حتى ذلك الحين- كل الطاقة المتواضعة التي أودعتها السماء في. لقد كانت هذه الجزيرة جديرة بأن تغدو لي كجزيرة "**بابيماني**"(١)، تلك البلاد السعيدة، التي ينام فيها المرء:

"فهناك عمل جديد.. إتيان لا شيء البتة"(٢)!

هذا "العمل الجديد" كان هو كل شيء لدي، لأنني لم أتحسر كثيرا على النوم، بل كانت البطالة تكفيني. فإذا ما قدر لي ألا أعمل شيئا، فإنني أوثر أحلام اليقظة على النعاس. وإذ كانت سن المشروعات القصصية الخيالية قد ولت، وبخور المجد الباطل قد أغثى نفسي أكثر مما استهوى غروري، فلم يبق لي -كأمل أخير- سوى حياة طلقة من كل قيد، تقضى في فراغ دائم. فهذه هي حياة المرضي عنهم في العالم الآخر.. ومنذ ذلك الحين، قصرت سعادتي في عالمي الراهن، على هذا اللون من الحياة!

إن الذين يلومونني على كثرة متناقضاتي، لن يغفلوا أن يعتبوا علي -هنا- تناقضا جديدا. فلقد قلت -من قبل- إن البطالة في المجتمعات، كانت عبئا لا أطيقه. ومع ذلك، فهأنذا أنشد الوحدة هنا لغرض واحد، هو أن أسلم نفسي للبطالة. ومع ذلك، فهكذا هي طبيعتي. وإذا كان ثمة تناقض في هذا، فهو من عمل الطبيعة، وليس من صنعي. ولكن هنا فارق جد صغير.. وبهذا الفارق الصغير تمتاز شخصيتي الحقيقية. إن بطالة المجتمعات ممضة، لأنها مفروضة بحكم الضرورة، أما بطالة الوحدة، فبهيجة لأنها طليقة، وصادرة عن رضا ورغبة.. إن التعطل عن عمل شيء -إذا كنت بين الناس- مهمة شاقة، لأنني أكون في ذلك مضطرا. فأنا مضطر إلى أن أبقى بينهم. مسمرا إلى مقعدي، أو واقفا منتصب القامة كالعسكري في الحراسة، دون أن أحرك يدا أو قدما.. لا أجرؤ على أن أجري أو أن أقفز، أو أن أغني، أو أن أصرح، أو أن أشير، إذا ما خطر لي أن أفعل.. بل إنني لا أجرؤ على أن أحلم!.. فأشعر لفوري بالسأم من البطالة وبكل عذاب الضيق وضبط النفس؛ ذلك لأنني مضطر إلى أن أصيخ السمع لكل السخافات التي تقال، وكل المجاملات التي تتبادل، وأن أعتصر قريحتي باستمرار، حتى لا أخفق في أن أقدم -بدوري- سخافتي أو أكذوبتي. وهذا ما يسمى بالتبطل. إنه عمل المحكوم عليهم بالسجن المؤبد!

أما البطالة التي أحبها، فليست بطالة المتعطل الذي يبقى مكتوف الذراعين في حالة توقف تام عن النشاط، فلا تفكير ولا حركة.. البطالة التي أحبها خليط يجمع بين بطالة الطفل الذي لا يكف عن الحراك دون ما عمل، وبطالة المخرف الذي يهيم من موضوع إلى آخر، وذراعاه ساكنتان!.. إنني أحب أن أشغل نفسي بالتوافه، وأن أشرع في مائة شيء، ولا أتم شيئا، وأن أجيء وأروح كما يحملني هواي، وأن أبدل خططي في كل دقيقة، وأن أتتبع ذبابة في كل حركاتها، وأن أحاول أن أقلقل صخرة لأتبين ما تحتها، وأن أضطلع في تحمس بعمل قد يستغرق عشر سنوات، ثم أهجره -دون ما ندم- بعد عشر دقائق.. وقصارى القول، إنني أحب أن أقضي نهاري كله على غير نظام، ودونما تبعة، وألا أتبع -في كل شيء- سوى هوى لحظته، ونزوة دقيقته!

لقد كان علم النبات -كما عهدته دائما، وكما وجدته إذ بدأ يتملكني الشغف به- هو الدراسة الملائمة حقا للبطالة، والصالحة لملء فراغ أوقاتي، دون أن تدع مجالا لشطحات الخيال، أو لسآمة التعطل الكامل.. فالضرب في الغابات والريف على غير مقصد، والإقبال الآلي على اقتطاف زهرة من هنا، أو فرع من هناك، والتهام الطعام دون موعد تقريبا. وتأمل الأشياء ألف وألف مرة -وهي هي لم

---

(١) اسم ابتكره "رابليه" للأرض التي أوت إليها حاشية البابا. (٢) من شعر "لافونتين". ويقصد بالعمل الجديد.. عدم العمل.

تتغير- بنفس الاهتمام، لأنني كنت أنساها جميعا أولا بأول.. كل هذه تؤلف الطريقة لإنفاق الزمن السرمدي، دون لحظة واحدة من السأم. إن تركيب النباتات -مهما يكن دقيقا، ومهما يكن بديعا، ومهما يكن متباينا- قل أن يسترعي العين الجاهلة إلى الدرجة التي تحملها على الاهتمام به.. إن التجانس الشامل المستطرد، مع -وفي ذات الوقت- التباين الواسع النطاق، الذي يميز أعضاء النباتات، لا يبهجان سوى أولئك الذين أوتو فعلا فكرة ما عن نظام مملكة النبات. أما غير هؤلاء، فإنهم لا يشعرون -حين يرون كل هذه الكنوز الطبيعية- بغير إعجاب جامد، متواتر على نسق واحد.. إنهم لا يرون شيئا -بتفصيله أو دقائقه- لأنهم لا يكادون يعرفون أين يجب أن تتجه نظرتهم.. ثم إنهم لا يرونه في مجموعه كذلك- لأنهم لم يؤتوا فكرة عن تسلسل الروابط والصلات التي تحير بطرافتها وغرابتها ذهن المتأمل. ولقد كنت -وكانت ذاكرتي الكليلة خليقة بأن تستبقيني دائما- في تلك الحال المريحة، الحال التي لم أكن أعرف فيها عن الشيء سوى القدر الضئيل الذي لا يبدو في عيني جديدا.. ولكن هذا القدر كان كافيا لأن يحملني على التفكير!.. وكان تباين أنواع التربة الموزعة في أرجاء الجزيرة، بالرغم من صغر مساحتها، يتيح لي تباينا في نباتاتها، كافيا للدراسة والتأمل بقية عمري.. فعزمت على ألا أدع عرقا واحدا من عشب، دون أن أفحصه. وبدأت -بالفعل- اتخاذ التدابير لأكتب عن مملكة النبات، موردا مجموعة هائلة من المشاهدات الطريفة والغريبة!

*****

وأرسلت في طلب "**تيريز**"، وكتبي، وأمتعتي، فأقمنا في دار محصل الضرائب. وكانت شقيقات زوجته -اللائي كن يقمن في "**نيداو**"- يفدن لزيارتها، كل بدورها، فكان في هذا إيناس لـ"**تيريز**". وهناك أحسست بحياة ناعمة كنت أتمنى لو تدوم إلى ما بعد انتهاء حياتي، ولكن الشغف الذي تولاني بها، لم يؤد إلا إلى زيادة إحساسي بمرارة تلك الحياة التي كانت موشكة على أن تعقبها.

لقد اعتدت دائما أن أحب الماء حب المشغوف، حتى إن مرآه يلقي بي إلى أحلام عذبة، برغم أنها كثيرا ما تفتقد الغاية المحددة. فلم أغفل يوما عند يقظتي، أن أهرع إلى الشرفة -عندما يكون الطقس معتدلا- لأعب من هواء الصباح الصحي العليل؛ ولأطلق نظراتي إلى أفق البحيرة الجميلة، التي كانت الجبال تحيط شطآنها، فتؤلف منظرا فاتنا. ولم أكن أجد تحية جديرة بالذات الإلهية أكثر من الإعجاب الصامت، الذي ينبع من تأمل خلقها، والذي يعجز عن أن يعبر عن ذاته بتصرفات ظاهرة.

إن بوسعي أن أدرك السر في أن سكان المدن -الذين لا يرون سوى الجدران، والطرقات، والجرائم- لا يؤتون سوى القليل من الإيمان. ولكني لا أستطيع أن أفهم السر في أن أولئك الذين يعيشون في الريف -لاسيما في الأماكن المنعزلة- يستطيعون أن يضلوا الطريق إلى الإيمان!.. كيف يتسنى لأرواحهم ألا تسمو في غيبوبة نشوانة، مائة مرة في اليوم، نحو مبدع العجائب التي تذهلهم؟.. أما أنا، فقد اعتدت من أمد طويل أن أنساق عقب اليقظة بوجه خاص -وأنا بعد كليل الجسم لحرماني من النوم طيلة ليلي- إلى تلك النوبات التي يسمو فيها قلبي محلقا، والتي لا تفرض علي عناء التفكير. على أنه لابد -لحدوث ذلك- من أن يصافح عيني سحر منظر الطبيعة!.. أما في حجرتي، فإن صلواتي لا تنبعث بمثل هذه الكثرة أو الحرارة، ولكني أشعر -إذا ما رأيت منظرا طبيعيا جميلا- بتأثر عاطفي لا أدري مأتاه. وأذكر أنني قرأت عن أسقف حكيم، صادف أثناء زيارته لأبرشيته، عجوزا لم تكن تملك في صلاتها أن تقول أكثر من: "أواه!". فقال لها الأسقف: "واصلي صلاتك

على هذا النحو، أيتها الأم الصالحة، فإن صلاتك هذه خير من صلواتنا" .. وهذه الصلاة -التي هي خير من سواها- هي صلاتي أنا الآخر!

وكنت أسرع -بعد الفطور- إلى كتابة بعض الرسائل المقتضبة، وأنا متجهم، ضيق الصدر، متلهف إلى اللحظة السعيدة التي لا أعود فيها بحاجة إلى الكتابة. وكنت أقلب كتبي وأوراقي لبضع لحظات، رغبة في فرزها وترتيبها، أكثر مني في قراءتها. وكانت هذه المهمة تتيح لي متعة التأمل الفكري للحظات قلائل، أمل بعدها العمل، فأقضي الساعات الثلاث أو الأربع المتبقية من فترة الصباح، في دراسة علم النبات، لاسيما منهج "**ليناوس**"، الذي تملكني الشغف به، حتى إنني لم أقو على التحول عنه تماما، حتى بعد أن تبينت عيوبه فإن هذا المدقق العظيم، هو في رأيي، الوحيد بعد "**لودفيج**" -حتى يومنا هذا- الذي نظر إلى علم النبات من ناحية رجل الطبيعة والفيلسوف. ولكنه أفرط -أكثر مما ينبغي- في الاعتماد في دراسته على مجموعات الأعشاب المجففة وعلى الحدائق، فلم يأخذ عن الطبيعة إلا القليل. أما أنا، فقد كانت الجزيرة بأسرها حديقة لي، وما إن أحتاج إلى أن أتأمل أو أتحرى شيئا، حتى أهرع إلى الغابات أو المروج، متأبطا كتابا.. وهناك، كنت أنطرح على الأرض بجانب النبات الذي أقصده، فأفحصه في مكانه، على مهل. ولقد أعانتني هذه الطريقة أكبر العون، على أن أحصل معرفة بالنباتات وهي في وضعها الطبيعي، قبل أن تستنبتها يد الإنسان، وتنأى بها عن طبيعتها!.. ويقال: إن "**فاجون**" -الطبيب الأول للملك "**لويس الرابع عشر**"- كان ملما بأسماء جميع نباتات الحديقة الملكية، وعلى معرفة تامة بها. ولكنه بقدر علمه هذا، كان جاهلا بنفس النباتات، في الريف، حتى إنه كان يعجز عن معرفة شيء منها. وهذا على النقيض مني تماما، فإني أعرف شيئا عن نتاج الطبيعة، ولكن لا أعرف البتة عن نتاج البستاني!

أما الأوقات التي كانت تعقب الغداء، فقد اعتدت أن أستسلم فيها تماما لميلي للبطالة وعدم الاكتراث بشيء، و كنت أتبع وحي لحظتي، دونما قاعدة أو نظام. وفي كثير من الأحيان كنت أبادر فور مغادرتي المائدة -عندما يكون الهواء ساكنا- إلى القفز وحيدا إلى قارب صغير، علمني محصل الضرائب كيف أسيطر عليه بمجداف واحد، فكنت أجدف إلى منتصف البحيرة. وكانت لحظة انطلاقي تبعث في نفسي فرحة يختلج لها قلبي. ومن المستحيل علي أن أصف هذا الشعور، أو أن أعلله.. اللهم إلا أن يكون اغتباطا مستترا بأنني -في هذه الحال- بمنأى عن الأشرار!

وكنت أجدف في البحيرة وحيدا، أقترب من الشاطئ أحيانا، ولكني لم أكن أرسو عليه قط. وكثيرا ما تركت قاربي لرحمة الماء والهواء، وأسلمت نفسي لخواطر شاردة، قد تكون منطوية على غباء، ولكن هذا لم يكن يضعف من عذوبتها. وكنت أهتف أحيانا، في انفعال: "أواه، أيتها الطبيعة!.. أواه، يا أمي! هأنذا في حمايتك وحدك!.. ما من إنسان لئيم خبيث هنا، ليحول بيني وبينك!". وعلى هذا النحو كنت أبتعد عن البر بنصف فرسخ، وأنا أتمنى لو أن هذه البحيرة كانت محيطا!.. على أنني -رغبة في إرضاء كلبي المسكين، الذي لم يكن شديد الحب مثلي لهذه النزهات المائية الطويلة- اعتدت أن أجعل لنزهتي غاية. تلك هي أن أرسو عند الجزيرة الصغيرة، فأتمشى على أرضها ساعة أو ساعتين، أو أستلقي على الحشائش، على قمة البقعة المرتفعة فيها؛ لأستمرئ لذة الإعجاب بهذه البحيرة وبما يحيط بها؛ ولأعكف على فحص وتشريح كل النباتات التي تقع عليها يدي، ولأبني لنفسي مسكنا خياليا، على هذه الجزيرة الصغيرة، وكأنني "**روبنسن كروزو**" جديد!.. ولقد تعلق قلبي بهذه البقعة المرتفعة!. وعندما كنت أصحب "**تيريز**" وزوجة محصل الضرائب

وشقيقاتها للنزهة، كان الزهو يستخفني بأن أكون دليلهن ومرشدهن!.. ولقد نقلنا -في موكب بهيج- بعض الأرانب لنعمر بها هذه البقعة، فكان هذا عيدا من أعياد "**جان جاك**"!.. ولقد أضفى هؤلاء السكان على الجزيرة الصغيرة مزيدا من الرواء والقيمة، في نظري. فاصبحت أكثر من التردد عليها في مزيد من السرور؛ لأتفقد مظاهر تقدم السكان الجدد!

*****

ولقد أضفت إلي هذه الملاهي، ملهاة أخرى ذكرتني بالحياة البهيجة في "**ليه شارميت**"، وحفزني إليها، ذلك الفصل من السنة. تلك هي ممارسة أعمال الحياة الريفية بجمع الفاكهة والخضر، التي كنت و"**تيريز**" نسر أن نتقاسمها مع محصل الضرائب وأسرته. وأذكر أن شخصا من أبناء "**بيرن**" -يدعى السيد "**كيرشبيرجر**"- جاء يوما لزيارتي، فوجدني محشورا فوق فروع شجرة عالية، وقد ربطت إلى خاصرتي كيسا امتلأ بالتفاح إلى درجة تعذرت علي معها الحركة!.. ولم أستأ لهذا اللقاء، ولا للقاءات أخرى على شاكلته، بل إنني رجوت أن يكف أهل "**بيرن**" عن أن يعكروا صفو فراغي -بعد أن رأوا كيف كنت أستغله- وأن يدعوني في عزلتي آمنا. ولقد كنت أوثر أن أكون حبيس هذه الجزيرة بإرادتهم، وليس بإرادتي. لأنني كنت خليقا بأن أكون -في هذه الحال- أكثر اطمئنانا إلى عدم تعكير صفو راحتي!

إن في هذا اعترافا من تلك الاعترافات، التي أشعر -مقدما- بأنها لن تلقى تصديقا من أولئك القراء الذين يصرون دائما على أن يحكموا علي بالقياس إلى أنفسهم، بالرغم من أنهم قد رأوا مرغمين -في سياق حياتي بأسرها- ألف إحساس داخلي لا يشبه البتة أحاسيسهم في شيء!.. وأغرب ما في الأمر، أنهم في الوقت الذي ينكرون علي فيه كل شعور طيب أو مبرأ لم يؤتوه هم، إذا بهم على أتم الاستعداد لأن يخلعوا علي من خبيث المشاعر مالا قبل لهم بأن يبشوه -لو شاءوا- في أي قلب بشري!.. فهم يجدون من البساطة أن يصوروني على نقيض الطبيعة، وأن يرسموني كوحش هائل لا يمكن أن يكون له وجود. ذلك لأنهم يرون أن ليس ثمة سخافة تجل على التصديق، ما دامت موجهة إلى تشويه سمعتي.. وليس من شيء خارق يبدو لهم محتملا، طالما كان فيه تمجيد لي.

ولكنني سأمضي بنفس الإخلاص الصادق -بالرغم مما قد يقولون أو يعتقدون- في عرض ما كان عليه "**جان جاك روسو**"، وما كان يفعله، وما كان يطوف بخاطره، دونما إيضاح أو تبرير لغرابة مشاعره وآرائه، ودون أن أتحرى عما إذا كان سواه قد فكر على نسقه. ولقد استهوتني جزيرة "**سان بيير**"، وكنت جد مرتاح إليها، حتى إنني لفرط تركيز رغباتي على هذه الجزيرة، عزمت على ألا أبرحها إطلاقا. فلقد ضقت -بيني وبين نفسي- بالزيارات التي كنت مضطرا إلى أدائها في المناطق المحيطة، والرحلات التي كنت مجبرا على القيام بها إلي "**نيوشاتيل**" و"**بيين**"، و"**ايفردون**"، "**نيداو**".. كان اليوم الذي أقضيه خارج الجزيرة، يبدو لي بمثابة انتقاص من سعادتي. كما أن تجاوز نطاق البحيرة، غدا بالنسبة لي بمثابة تحول عن طبيعتي الفطرية. وفضلا عن ذلك، فإن تجاربي الماضية جعلتني هيابا فما إن كنت أصادف شيئا يرتاح إليه قلبي، حتى أتوقع أن أفقده، وغدت رغبتي الحارة في أن أختتم عمري في هذه الجزيرة، مرتبطة -ارتباطا لا انفصام له- بالخوف من أن أقسر على مغادرتها!

واعتدت أن أذهب كل مساء، فأجلس على الشاطئ، لا سيما حين تكون البحيرة متلاطمة

الأمواج.. كنت أحس بلذة فذة إذ أرى الأمواج تتكسر عند قدمي، فقد كانت تمثل لي اصطخاب الدنيا، وسكينة معقلي. وكانت هذه الفكرة تهفو بعواطفي أحيانا، حتى أشعر بالدموع تتساقط من عيني!.. ولم يكن يعكر هذه السكينة -التي اعتدت أن أستمتع بها بكل عواطفي- سوى توجس فقدانها، على أن هذا التوجس بالذات، كان يفسد سحرها علي!

كنت أشعر بوضعي متأرجحا إلى درجة لا تمكنني من أن أجرؤ على أن أعول عليه، أو أطمئن إليه. وكنت أقول لنفسي: "آه!.. كم أتمنى راضيا أن أستبدل حريتي في مغادرة الجزيرة -الأمر الذي لا أحفل به إطلاقا- بضمان تمكنني من البقاء فيها دائما!.. لماذا لا أستبقى هنا قسرا، بدلا من أن أبقى تفضلا؟.. إن أولئك الذين يدعونني هنا -من قبيل التفضل- يستطيعون أن يطردوني في أية لحظة، فكيف لي أن أجرؤ على الأمل في أن يدعني مضطهدي أواصل هناءتي -التي يرونني عليها- هنا؟.. آه! إن السماح لي بالعيش هنا، أقل مما أصبو إليه. إنما أتمنى أن يقضى علي بالبقاء، وأن أقسر على البقاء في هذه الجزيرة، حتى لا أغضب على مبارحتها!".. وكنت أرمق بحسد ذلك السعيد "**ميكيلي دوكريه**"، الذي كان يعيش آمنا في قلعة "**داربيرج**"، دون أن ينقصه -لكي يكون سعيدا- سوى أن يرغب في السعادة!!

وأخيرا، انتهيت -لفرط استسلامي لهذه الخواطر، وللهواجس المزعجة التي كانت تجعلني دائما في خوف من انقضاض عواصف جديدة على رأسي- إلى أن أتمنى، في لهفة تفوق كل تصور، أن يعدل ظالمي عن مجرد التساهل معي إزاء مقامي في الجزيرة، وأن يجعلوها سجنا يقسرونني على ملازمته طيلة حياتي.. وبوسعي أن أقسم إنني لو كنت أملك السلطة على أن أحصل على حكم بهذا الصدد، لفعلت بأقصى اغتباط إذ كنت أوثر -ألف مرة- أن أضطر اضطرارا إلى قضاء بقية عمري هناك، على أن أتعرض لخطر الطرد منها!

*****

ولم تبق هواجسي طويلا، دون تحقيق.. فقد تلقيت -وأنا أقل ما أكون توقعا لذلك- خطابا من حاكم "**نيداو**"، الذي كانت جزيرة "**سان بيير**" في نطاق سلطانه.. وفي هذا الخطاب، أبلغني -نيابة عن حكومته- الأمر بمغادرة الجزيرة والأراضي التابعة لهذه الحكومة!

وخيل إلي، عندما قرأت الخطاب، أنني كنت أحلم، فما كان ثمة ما هو أبعد عن الطبيعي، ولا ما هو أبعد عن المنطق، ولا ما هو أبعد عن التوقع، من مثل هذا الأمر؛ ذلك لأنني كنت قد نظرت إلى هواجسي على أنها قلق رجل أزعجته مصائبه، أكثر منها توقعات تستند إلى أتفه أساس. وكانت الخطوات التي اتخذتها لأطمئن نفسي إلى القبول الضمني الذي صدر من السلطات، وإلى الأسلوب الوادع الذي أبيح لي بمقتضاه أن أستقر في الجزيرة، وإلى الزيارات التي تلقيتها من عديد من أهل "**بيرن**" ومن الحاكم نفسه -الذي أذهلني بما أبداه نحوي من ود ورعاية -وإلى قسوة الطقس، التي كانت تجعل من العنف الوحشي طرد رجل معلول من مأواه.. كل هذه الاعتبارات، جعلتني -وجعلت كثيرين غيري- يؤمنون بأن ثمة شبهات تحوم حول هذا الأمر، وأن ذوي النوايا السيئة نحوي، قد تعمدوا اختيار وقت جني العنب، وتغيب أعضاء مجلس الشيوخ، كي يوقعوا بي هذه الضربة فجأة، وبحدة!

ولو أنني أصغيت لأول إيعاز من كرامتي، لكنت قد بادرت إلى الرحيل فورا. ولكن، إلى أين

كنت أذهب؟.. وماذا يجري والشتاء قد أقبل، وليس لي من مقصد، ولا اتخذت عدة، وليس ثمة مرشد، ولا عربات للنقل؟.. وما لم أترك ورائي كل شيء -أوراقي، وأمتعتي، وكل شؤوني- فقد كنت بحاجة إلى وقت كي أعدها للنقل.. ثم إن الأمر لم يذكر ما إذا كان يسمح لي بأخذها أو لا يسمح!

وبدأت ملاحقة المصائب توهن جلدي.. ولأول مرة في حياتي، شعرت بكبريائي الفطرية تنحني تحت وطأة الضرورة. وبالرغم من تذمر قلبي، لم يكن ثمة بد من أن أتنزل فأطلب إمهالا. وإلى السيد "**دي جرافنرييه**" -الذي أرسل إلي الأمر- وجهت مسعاي. وكان في خطابه قد عبر عن استهجانه الشديد لهذا الأمر، وأنه ما أبلغني إياه إلا في أسف بالغ. فلاح لي مما ملأ الخطاب من مظاهر الألم والتقدير، أن هذا الخطاب لم يكن سوى دعوى مترفقة، متلطفة، إلى أن أفاتحه بما في صدري.. وهذا ما فعلته. ولم أشك في أن خطابي خليق بأن يفتح عيون هؤلاء الجائرين على تصرفهم المجرد من الإنسانية، وأنهم -ولو لم يلغوا مثل هذا الأمر القاسي- سيمنحونني مهلة معقولة، قد تشمل الشتاء كله، لكي أستعد للرحيل، ولكي أختار مكانا ألجأ إليه.

وأخذت -في انتظار جوابه- أفكر في موقفي، وأتدبر القرار الذي كان علي أن أتخذه. ورأيت كثيرا من الصعاب في كل ناحية. وكان الحزن قد أثر علي أشد تأثير، كما كانت صحتي -في تلك الآونة- في أسوأ حال، فأسلمت نفسي للتداعي، وإذا ثبوط همتي يجردني مما تبقى لي من قوى عقلية متواضعة، كان من الممكن أن تساعدني على أن أبت في موقفي المحزن.. كان من الواضح أنني لم أكن أملك أن أتفادى -في أي مكان قد ألوذ به- أن أتعرض للأسلوبين اللذين استخدما، حتى ذلك الحين، في طردي، وأولهما: إثارة الناس ضدي، بالدسائس المتوارية.. في حين أن الثاني، هو: نفيي بالقوة الصريحة، دون إبداء أي سبب أو مبرر لذلك!

ومن ثم فإنني لم أكن أملك أن أعول على أي ملجأ، وأطمئن إلى أنه مأمون اللهم إلا إذا ذهبت إلى أبعد مما كانت قواي، وموسم الشتاء، تسمح به، على ما تراءى لي!.. ولقد عادت بي كل هذه الاعتبارات، إلى عين الأفكار التي كانت تشغل بالي منذ البداية. ورحت أشتهي لو أنني سجنت طيلة العمر، بدلا من أن أساق إلى أن أضرب في الأرض، بلا انقطاع! وأن أطرد من كل مكان ألوذ به، على التعاقب.

وبعد رسالتي الأولى بيومين، كتبت رسالة ثانية إلى السيد "**دي جرافنرييه**"، أسأله أن يعرض الاقتراح على المجلس.. وجاء الرد على هاتين الرسالتين من "**بيرن**". وكان أمرا صيغ في أخشن عبارات رسمية، بأن أغادر الجزيرة، وكل الأراضي التي تتبع الجمهورية -مباشرة أو غير مباشرة- في أربع وعشرين ساعة، وألا أعود إلى دخولها قط، وإلا تعرضت لأقسى صنوف العقاب!

✽✽✽✽✽

وكانت تلك اللحظة رهيبة، ووجدت نفسي بعدها في أقسى الهموم، وليس في أعظم حيرة!.. على أن أشد ما آلمني هو أن أضطر إلى التخلي عن المشروع الذي كان يجعلني أشتهي قضاء الشتاء في الجزيرة. وقد حان الوقت كي أروي القصة الأليمة التي توجت مصائبي، والتي استدرجت -إلى القضاء علي- شعبا تعسا، كانت فضائله المتزايدة تبشر بأنه سيعادل يوما شعبي "**اسبرطة**" و"**روما**".

فلقد تحدثت في "**العقد الاجتماعي**" عن الكورسيكيين كشعب جديد، كان هو الشعب الوحيد -في "**أوروبا**"- الذي لم يستغله التشريع أو يفسده. وقد أوضحت أن ثمة آمالا كبارا قد ترتجى من مثل هؤلاء القوم، لو أنهم وجدوا مرشدا حكيما!

ولقد اطلع على كتابي بعض "**الكورسيكيين**"، الذين قدروا الأسلوب الكريم الذي تحدثت به عن شعبهم، وإذ ألفوا أنفسهم مضطرين إلى أن يكرسوا كل همهم إلى إنشاء جمهوريتهم، فقد رأى بعض زعمائهم أن يستشيروني في هذا العمل الجليل. وكتب إلي -بهذا الصدد- سيد يدعى "**بوتافوكو**"، كان ينتمي إلى إحدى الأسرات الكبرى في الجزيرة، وكان "**كابتن**" في اللواء الملكي الإيطالي بـ"**فرنسا**"، وقد أمدني بعدد من الوثائق التي كنت قد طلبتها منه؛ لكي أزداد تعرفا على تاريخ الأمة، وعلى أحوال البلد. كذلك كتب لي السيد "**باولي**" عدة مرات، ومع أنني شعرت بأن مثل هذه المهمة فوق ما تتحمل قواي، إلا أنني رأيت ألا سبيل إلى أن أضن بمعونتي في مثل هذه المهمة الجليلة السامية، بعد أن حصلت على كل البيانات التي طلبتها. وبهذا المعنى كتبت إلى كل من السيدين، وقد استمر تبادل الرسائل إلى أن غادرت "**سان بيير**".

وفي تلك الفترة بالذات، سمعت أن "**فرنسا**" كانت توفد جنودها إلى "**كورسيكا**"، وأنها عقدت معاهدة مع أهل "**جنوا**". ولقد أثارت هذه المعاهدة، وإيفاد الجنود، قلقي. ودون أن أتصور أن تكون لي أية علاقة بذلك، قدرت أن من المستحيل -بل ومن العبث- أن أكرس اهتمامي لعمل يتطلب هدوءا وسكينة كاملين.. وأعني به تنظيم شعب، في اللحظة التي كان يحتمل أن يكون فيها على شفا إخضاعه لنير الطغيان.

ولم أخف قلقي عن السيد "**بوتافوكو**"، الذي طمأنني بأن أكد لي أنه -كمواطن صالح- ما كان ليبقى في خدمة "**فرنسا**" كما كان فعلا؛ لو أن هذه المعاهدة اشتملت على ما يمس حرية بلاده. والواقع أن تحمسه للتبريرات التشريعية لـ"**كورسيكا**"، وعلاقته الوثيقة بالسيد "**باولي**"، حالتا دون أن يخالجني أي شك من ناحيته. وعندما سمعت أنه كان يكثر من التردد على "**فرساي**" و"**فونتينبلو**"، وأنه كان يقابل السيد "**دي شوازيل**"، لم أملك سوى أن أستنتج أنه حصل على ضمانات بشأن النوايا الحقيقية للبلاط الفرنسي. وهو الأمر الذي تركني أحدسه، ولكنه لم يبد رغبة في أن يشرح ما لديه بشأنه بجلاء، في خطاب!

ولقد طمأنني كل هذا، إلى حد ما. على أنني لم أقو على أن أفهم معنى إيفاد الجنود الفرنسيين، ولم أستطع أن أرى أي إغراء يوحي بتصديق أنهم كانوا لحماية حرية الكورسيكيين، فقد كان هؤلاء جد قادرين على أن يذودوا عن حريتهم بأنفسهم ضد أهل "**جنوا**".. كذلك لم أكن أملك أن أشعر بارتياح تام، إلى أن أوقف اهتمامي في إخلاص صادق لوضع الدستور المقترح، مالم يكن لدي الدليل المقنع بأنه لم يكن مجرد دعابة للضحك مني!.. ولكم كنت أرجو أن اتحدث إلى السيد "**بوتافوكو**"،

فقد كانت هذه هي الوسيلة الوحيدة لكي أحصل منه على الإيضاحات التي كنت أنشدها. ولقد أبدى أمله في أن يتاح لنا لقاء، فرحت أنتظر هذا اللقاء بصبر جد نافد. ولست أدري ما إذا كان قد اعتزم حقا أن يتيح لي لقاء، ولكن لو أن هذه كانت نيته حقا، لكانت محنتي خليقة بأن تمنعني من أن أفيد من هذا اللقاء!

*****

وكنت كلما أطلت التفكير في المشروع المقترح، وكلما أمعنت في فحص الوثائق التي كانت بين يدي، ازددت شعورا بالحاجة الملحة إلى أن أدرس -عن كثب- البلاد، والشعب الذي كان التشريع يعد له، والأرض التي يقيم عليها، وكافة الوجوه التي كان عليه أن يطبق هذا التشريع فيها. وكنت أزداد إدراكا -يوما بعد يوم- بأنه من المستحيل أن أظفر -وأنا بعيد- بكافة الأضواء اللازمة لإرشادي.
ولقد كتبت عن هذه الأمور إلى "**بوتافوكو**"، فإذا به كان يشعر بها. وإذا كنت لم أستقر تماما على قرار الانتقال إلى "**كورسيكا**"، إلا أنني شغلت كل الشغل بوسائل أداء هذه الرحلة. فتكلمت إلى السيد "**داستييه**" الذي كان خليقا بأن يلم بها، إذ كان قد عمل حينا -فيما مضى- تحت رئاسة السيد "**دي مايبوا**". ولكنه لم يدخر وسعا، في سبيل إثنائي عن نيتي، وأعترف أن الصورة البشعة التي رسمها للكورسيكيين وبلادهم، أخبت كثيرا من جذوة رغبتي في الذهاب إليهم والإقامة بينهم!
على أن هذه الرغبة عادت إلى التأجج -عندما أدى الاضطهاد الذي تعرضت له في "**موتيير**" إلى أن أفكر في مغادرة "**سويسرا**"- بفضل الأمل في أن أجد بين هؤلاء الجزائريين الهدوء الذي حرمت منه في كل مكان آخر. ولم يكن يزعجني -بصدد هذه الرحلة- سوى أمر واحد.. عدم قدرتي الصحية عليها، والنفور الذي طالما تملكني نحو الحياة النشيطة التي قد أضطر إلى ممارستها. ذلك لأن الطبيعة هيأتني لكي أتأمل وأفكر في الوحدة، وحسب هواي، ومن ثم فإنني لم أكن مهيأ البتة للكلام والعمل، وتوجيه الشؤون والمسائل وسط الناس.
إن الطبيعة حين منحتني الموهبة للحالة الأولى، أبت علي الموهبة للثانية!.. ومع ذلك فقد شعرت أنني خليق بأن أضطر بمجرد وصولي إلى "**كورسيكا**"، بأن ألقي بنفسي في غمار تلهف الشعب، وأن أعقد عدة مؤتمرات مع الشخصيات التي تتولى الزعامة في الجزيرة، ولو لم أساهم بدور مباشر في المسائل العامة.
وكانت غاية رحلتي ذاتها، تفرض علي السعي -وسط هذه الأمة- إلى العثور على المعلومات التي كنت أنشدها، بدلا من السعي إلى الراحة والعزلة.. كان من الواضح أنني لن أستطيع أن أظل بحريتي واستقلالي، إذ إنني سأدفع -على الرغم مني- إلى دوامة من النشاط، لم أكن بفطرتي مهيئا لها، وأنني سأمارس حياة تتعارض تماما مع أهوائي، ولا توحي بنفع لي.
وتكهنت بأنني لن أحقق بوجودي، الفكرة التي ربما كانت قد تكونت عن مقدرتي خلال كتبي.. وكان معنى ذلك، أن أفقد مكانتي لدى "**الكورسيكيين**"، بعد الثقة التي أضفوها علي، والتي ما كنت لأملك بدونها أن أحقق العمل الذي كانوا يتوقعونه مني. ولقد شعرت بيقين من أنني إذ أخرج -بهذا- من الجو الذي خلقت به، لن أغدو ذا نفع لهم، وإنما سأعمل على إشقاء نفسي!

*****

وكنت مكروبا، معذبا، حطمتني العواصف من كل نوع، وأضنتني التنقلات والاضطهادات خلال السنوات العديدة، وأصبحت أشعر شعورا طاغيا بالحاجة إلى الراحة التي اتخذ أعدائي -الغلاظ القلوب- ملهاة من حرماني منها!.. ورحت أتنهد حسرة -كما لم أتنهد من قبل- على ذلك الفراغ المحبب إلى نفسي، وعلى تلك الدعة الناعمة التي تشمل عقلي وجسمي، والتي طالما صبوت إليها واقتصرت عليها السعادة العظمى لقلبي الذي شفي من أوهام الحب والصداقة!
لذلك تطلعت في جزع إلى المهمة التي كنت أوشك أن أقدم عليها؛ إلى الحياة الصاخبة التي كنت

أوشك أن أنغمس فيها.

وإذا كان جلال الهدف وجماله ونفعه قد أذكت عزيمتي، فإن استحالة إرضاء نفسي بالنجاح، وتعويضها عما كانت فيه، ثبط تلك العزيمة تماما!.. إن عشرين عاما من التفكير العميق والتأمل -في وحدة- كانت أقل عناء في نظري من ستة أشهر أقضيها في حياة حافلة بالنشاط، وسط أناس ومسائل عامة كنت موقنا من الفشل فيها!

وفكرت في حيلة لاحت لي جد مناسبة لتسوية كل شيء.. ذلك لأنني -وقد كانت تتعقبني في كل مكان، المؤامرات الخفية التي كان يبذلها ظالمي المستترون -لم أر سوى "**كورسيكا**" مكانا أستطيع أن أتطلع إليه في شيخوختي، للحصول على الراحة التي أبوها علي في كل مكان، فقررت أن أذهب إلى هناك، وفقا لتعليمات "**بوتافوكو**"، بمجرد أن يتسنى لي ذلك.

ولكنني عقدت عزمي -لكي أعيش في هدوء هناك- على أن أطرح عني مهمة التشريع، ولو في الظاهر، على الأقل. ولكي أرد إلى مضيفي كرمهم، بطريقة ما، قررت أن أعكف على كتابة تاريخهم، في مسرحه.

على أن أجمع -في هدوء- المعلومات اللازمة التي تجعلني ذا نفع كبير لهم، إذا ما لاح لي أي أمل في النجاح. وداخلني الأمل بأن أستطيع -إذا لم أقيد نفسي بشيء، على هذا النسق- أن أفكر فيما بيني وبين نفسي، وأنا مطلق الحرية، في مشروع مناسب، دون أن أنبذ آمالي المشتهاة في العزلة، ودون أن أنتهج أي أسلوب للحياة لا أقوى على احتماله، ولا أنا مهيأ له!

غير أن هذه الرحلة لم تكن سهلة التحقق، في وضعي الراهن. فعلى ما أنبأني به السيد "**داستييه**" عن "**كورسيكا**"، لم أتوقع أن أجد هناك أبسط أسباب الراحة في الحياة، ما لم أصحب هذه الأسباب معي: من أقمشة، إلى ملابس، إلى أطباق وصحاف، إلى آنية المطبخ، إلى الورق والكتب. كان لابد للمرء من أن يحمل كل هذه معه. ولكي أنتقل إلى هناك مع "**تيريز**"، كان من الضروري اجتياز جبال الألب، وأن أجر خلفي متاعي مائتي فرسخ.. وكان لابد من اجتياز أراضي عدة حكومات، وعلى ضوء المعاملة التي لقيتها من "**أوروبا**" كلها، كان من الجدير أن أستعد -بطبيعة الوضع، وبعد المحن والنكبات- لأن أصادف عقبات في كل مكان، ولأن أجد كل امرئ فخورا بأن يعذبني بمحنة جديدة، وبأن يمتهن -في شخصي- كل حقوق الشعوب والإنسانية. ولقد اضطرتني فداحة نفقات رحلة كهذه، ومتاعبها، وأخطارها، إلى أن أتدبر مقدما كل صعابها، وأن أزنها وأقدرها في عناية.

وفيما كنت مترددا -بهذا الشكل- حدثت اضطهادات "**موتيير**" التي اضطرتني إلى الانسحاب. ولم أكن مستعدا لرحلة طويلة، لا سيما إلى "**كورسيكا**"، فقد كنت أرتقب ردا من "**بوتافوكو**"، ومن ثم فقد لذت بجزيرة "**سان بيير**"، التي طردت منها في بداية الشتاء، على ما ذكرت من قبل. وكان الجليد الذي اكتست به "**الألب**" يجعل من المستحيل علي أن أبرح البلاد -عن ذلك الطريق- لا سيما بعد إنذار قصير الأمد. والواقع أن تطرف أمر كهذا، جعل الصدوع به مستحيلا فلقد كان من العسير أن أطيعه وأنا في مقامي المنعزل المحوط بالماء، وليس أمامي سوى أربع وعشرين ساعة -بدأت منذ إخطاري بالأمر- لأقوم باستعداداتي للرحيل؛ ولأستأجر القوارب ووسائل النقل التي أغادر بها الجزيرة والمنطقة.. كان من العسير أن أنفذ الأمر، ولو أوتيت أجنحة!

ولقد أنبأت حاكم "**نيداو**" بذلك في ردي على خطابه، ثم رحت أتعجل ما استطعت، فراق هذه البلاد، التي لم ألق بها سوى الاضطرابات.. وهكذا اضطررت إلى العدول عن مشروعي الغالي..

وهكذا أيضا قررت -إذ عجزت، في قنوطي وثبوط عزيمتي، عن أن أحمل أعدائي على أن يترفقوا بي -أن أرحل إلى "**برلين**"، بدعوة من السيد "**المارشال**"، تاركا "**تيريز**" لتقضي الشتاء في جزيرة "**سان-بيير**" مع متاعي وكتبي، بعد أن أودعت أوراقي بين يدي "**دوبيرو**". ولقد بذلت كل تعجل، حتى إنني غادرت الجزيرة في الصباح التالي لوصول الأمر، فبلغت "**بيين**" قبيل الظهر. وقد كادت رحلتي تنتهي هناك تقريبا، بحادث يجب عدم إغفال ذكره.

فما إن تردد أنني تلقيت أمرا بمغادرة مقري، حتى تدفق علي الزائرون من المناطق المجاورة، لا سيما من أبناء "**بيرن**" الذين جاءوا ليراءوني ويطيبوا خاطري، في أبشع آيات النفاق، وليؤكدوا لي أن فرصة العطلات وغياب كثير من أعضاء مجلس الشيوخ، قد استغلت لإصدار هذا الأمر -الذي استنكره كل "المائتين"، على ما قالوا- وإنذاري به. وكان بين هذا الحشد من المواسين، بضعة أشخاص من مدينة "**بيين**"، وهي ولاية صغيرة حرة، تحيط بها أراضي جمهورية "**بيرن**".

وكان بين هؤلاء شاب يدعى "**فيلدرميه**"، كانت أسرته تحتل الصدارة، وتستمتع بأرفع سمعة في هذه المدينة الصغيرة. ولقد الح علي "**فيلدرميه**" في حرارة -باسم مواطنيه- كي أتخذ ملجئي بينهم، مؤكدا لي أنهم كانوا تواقين ومتحمسين لاستقبالي... وأنهم يعتبرون مساعدتي على أن انسى المظالم التي عانيتها، شرفا وواجبا، وأنني لن أجد ما أخشاه من نفوذ أهل "**بيرن**" بينهم، فإن "**بيين**" كانت مدينة حرة، لا تخضع لسلطان أحد، وقد أجمع مواطنوها -عن بكرة أبيهم- على الا يصغوا إلى أي طلب يسيء إلي!

وعندما رأى "**فيلدرميه**" أن ليس بوسعه أن يزعزع إصراري، أهاب بعدة أشخاص آخرين من "**بيين**" والمناطق المجاورة -بل ومن "**بيرن**" ذاتها- أن ينضموا إليه ويؤيدوه، وكان بين هؤلاء "**كيرشبيرجر**" -الذي سبق لي أن تحدثت عنه- الذي زارني مع "**فيلدرميه**"، وراح يستحثني في إلحاف على أن يجتذب اهتمامي إليه بفضل مواهبه ومبادئه. ولقد كانت أبعد الرجاوات عن توقعي، وأشدها إلحاحا، هي تلك التي راح يبذلها السيد "**بارثيه**" -سكرتير السفارة الفرنسية- الذي زارني مع "**فيلدرميه**"، وراح يستحثني في إلحاف على أن أقبل دعوته.

وقد أدهشني بما أبداه لي من اهتمام كريم وحار. ولم أكن أعرف السيد "**بارثيه**" إطلاقا، ولكني -مع ذلك- لمست في كلماته حرارة وحمية الصداقة، ورأيت أنه كان تواقا حقا إلى إقناعي بالإقامة في "**بيين**". ولقد امتدح -في أسلوب رفيع طلق- تلك المدينة وأهلها، الذين بدا أنه كان على وئام بالغ معهم، حتى إنه كان يدعوهم -في كثير من المناسبات في حضوري- رعاته وأهله!

ولقد قوضت هذه الخطوة -من "**بارثيه**"- كل تكهناتي. فلقد اعتدت دائما أن أرتاب في أن السيد "**دي شوازيل**"، كان المصدر السري لكل الاضطهادات والمظالم التي تعرضت لها في "**سويسرا**"، ولم يؤد تصرف الوزير الفرنسي المقيم في "**جنيف**"، والسفير الفرنسي في "**سلور**"، إلا إلى تعزيز هذه الشكوك بقوة. كنت أرى النفوذ الخفي لـ"**فرنسا**" في كل ما حدث لي في "**بيرن**" و"**جنيف**" و"**نيوشاتيل**"، وقد خيل إلي أن عدوي القوي الوحيد في "**فرنسا**": هو الدوق "**دي شوازيل**". فكيف كان خليقا بي أن أرى زيارة "**بارثيه**" والاهتمام الكريم الذي بدا منه نحو مصيري؟.

لم تكن مصائبي قد قوضت ما كان يعمر قلبي من ثقة فطرية وسذاجة طبيعية، ولم تكن التجربة قد علمتني كيف أتبين في كل مظهر للود والعطف فخا للإيقاع بي!.. وأخذت أبحث في دهشة عن

سبب هذا الكرم من "**بارثيه**"، فما كنت من الغفلة بحيث أصدق انه اتخذ هذه الخطوة من تلقاء نفسه.

ولمحت في مسلكه دعاية، بل وتظاهرا، ينمان عن مقصد مستتر، وكنت بعيد البال عن أن أبصر في كل هذه العناصر الثانوية البسيطة، تلك الشهامة الكريمة التي كانت كفيلة بأن تجعل قلبي يغلي غليانا، لو أنني كنت في مركز مشابه لمركز محدثي!

وكنت قد تعرفت –في الماضي– بـ"**الشفاليه دي بوتفيل**"، معرفة بسيطة، في قصر "**لوكسمبورج**"، حيث أبدى لي بعض الكرم. ولقد حرص –منذ تعيينه سفيرا– على أن يظهر أنه لم ينسني، حتى لقد دعاني إلى أن أزوره في "**سلور**". ومع أنني لم ألب الدعوى، إلا أنني تأثرت بها، إذ إنني لم أعتد أن أعامل بمثل هذا الكرم، من أصحاب هذه المراكز الرفيعة. ومن ثم فقد حدست – من مسلك "**بارثيه**"– أن السيد "**دي بوتفيل**"، وإن كان مضطرا إلى إطاعة التعليمات فيما يتعلق بشؤون "**جنيف**". إلا أنه أشفق علي في محنتي، وأعد لي –بما له من نفوذ شخصي– هذا الملجأ في "**بيين**"، حتى أستطيع أن أعيش هناك في سلام، تحت رعايته.

ولقد شعرت بامتنان لهذه اللفتة، وإن لم أر أن أفيد منها. ولما كنت قد عقدت العزم على الرحيل إلى "**برلين**"، فإنني رحت أتطلع في لهفة إلى اللحظة التي أنضم فيها إلى السيد "**المارشال**"، وأنا موقن من أنني لن أحظى بالراحة الحقيقية، والسعادة الباقية، إلا معه.

*****

ورافقني "**كيرشبيرجر**" –عند رحيلي عن الجزيرة– حتى "**بيين**"، حيث ألفيت "**فيلدرميه**"، وبعض البيينيين الآخرين، في انتظاري. وتناولنا الغداء معا في فندق البلدة، وكان أول ما فعلته –عند الوصول– هو البحث عن محفة، إذ كنت معتزما الرحيل في الصباح التالي. ولقد عاد أولئك السادة –أثناء الغداء– إلى تجديد إلحاحهم علي بالبقاء بينهم، في حرارة، وفي تأكيدات مؤثرة، حتى إن عواطفي لانت لهم بالرغم من كل إصراري، ومن قلبي. وما إن رأوا أنني بدأت أتزعزع، حتى ضاعفوا جهودهم، ووفقوا في ذلك، حتى إنني ارتضيت في النهاية– أن أغلب على أمري، ووافقت على البقاء في "**بيين**".. حتى الربيع المقبل، على الأقل.

وبادر "**فيلدرميه**" –لفوره– إلى البحث لي عن مسكن، وراح يطري لي في تحمس غرفة صغيرة تعسة، في مؤخرة طابق ثالث من مبنى، تطل على فناء أستطيع أن أمتع بصري فيه، على مرأى الجلود ذات الرائحة النتنة، في مدبغة للجلود. وكان صاحب المسكن رجلا ضئيل الجسم، وغدا وضيعا، لا ضرر منه. وقد سمعت عنه –في اليوم التالي– أنه كان سكيرا، مقامرا، سيئ السمعة جدا في المنطقة. ولم تكن له زوجة ولا أطفال ولا خدم. وإذ احتبست نفسي –في غرفتي المنعزلة– في وحدة كئيبة، شعرت أنني –في أبهج بلد في العالم– قد انسقت في سكناي، لأفضل خطة مدبرة للقضاء على رجل بالموت اكتئابا وغما، في بضعة أيام قلائل. وكان أشد ما أحزنني أنني –بالرغم من كل ما قيل لي عن تلهف الأهالي على أن أقيم بينهم –لم أكن ألاحظ، عندما أسير في الطرقات، أي كرم في السلوك، أو أي ود في النظرات!.. ومع ذلك فإنني كنت قد عقدت عزمي تماما على أن أمكث هناك، عندما علمت –في اليوم التالي بالذات– ورأيت، ولاحظت بنفسي، أن المدينة كانت في اضطراب فظيع من أجلي. وبلغ الكرم بعدد من الناس، أن أسرعوا إلى إنبائي بأنني سأخطر –في اليوم التالي، وبأخشن

الأساليب- بأن أغادر لفوري البلاد، أعني البلدة!

ولم أجد من أستطيع أن أعتمد عليه، فقد تشتت كل أولئك الذين كانوا قد ألحوا علي في البقاء.. فاختفى "**فيليدرميه**"، ولم أعد أسمع شيئا عن "**بارثيه**"، ولم يلح لي ما ينم عن أن توصياته قد أكسبتني رضا "رعاته وأهله"، الذين كان يفخر بهم. على أن سيدا من أبناء "**بيرن**"، يدعى السيد "**دي فو-ترافير**"، كان يمتلك بيتا بديعا بالقرب من المدينة، فعرض علي أن ياويني، أملا في أن أنجو -كما قال- من الرجم بالطوب. ولم يبد هذا العرض كافيا لإغرائي على أن أطيل مقامي بين هؤلاء القوم المضيافين.

وإذ كنت قد بددت بهذا التأخير ثلاثة أيام، فإنني كنت قد تجاوزت الأربع والعشرين الساعة -التي أمهلتنيها سلطات "**بيرن**" لأغادر أراضيها- بأمد كبير. ولما كنت أعرف غلظة القوم، فإنني لم أخل من قلق بشأن الطريقة التي قد يعاملونني بها في مروري بأراضيهم. وأعفاني من هذه الحيرة حاكم "**نيداو**"، بتصرف كان أبعد ما يخطر بالبال. فقد أعرب جهرا عن عدم رضائه عن الأساليب العنيفة التي انتهجها أعضاء مجلس الشيوخ، وذكر -بكرامة نفس- أنه يرى أن واجبه يقتضيه أن يشهد الملأ على أنه لم يكن ذا علاقة بالأمر. ولم يتورع عن أن يغادر منطقته؛ ليفد لزيارتي في "**بيين**"!

ووصل في اليوم السابق على رحيلي، غير مستخف، بل في كثير من المظاهر، فقد جاء في زيه الرسمي وعربته، مصطحبا سكرتيره. وحمل إلي جواز سفر صادر منه، يمكنني من عبور أراضي حكومة "**بيرن**"، دونما خوف من اعتداء.، ولقد أثرت الزيارة في نفسي، أكثر مما أثر جواز السفر. وما كان شعوري بهذا التأثر ليقل، لو أن هذه الزيارة كانت لشخص آخر غيري، فلست أعرف شيئا أعظم نفوذا على القلب من الشهامة التي تؤدى في لحظتها المناسبة، من أجل شخص مستضعف، اضطهد ظلما!

واستطعت -أخيرا- أن أستأجر محفة، بعد عناء، فانطلقت في الصباح التالي، مغادرا هذه الأرض القاتلة، قبل وصول الوفد الذي أريد به تكريمي.. بل قبل أن أتمكن من رؤية "**تيريز**" مرة أخرى. إذ إنني -حين ظننت أنني سأمكث في "**بيين**"- كنت قد كتبت إليها لتلحق بي، بل إنني كدت لا أجد وقتا كافيا لأكتب لها بضعة سطور، أنبئها فيها بسوء طالعي الجديد، ولسوف يتبدى في الجزء الثالث من "اعترافاتي" -إذا قدر لي أن أوتى القوة كي أكتبه- كيف أنني كنت في الواقع منطلقا إلى "**إنجلترا**"، وأنا أظنني منطلقا إلى "**برلين**".. وكيف أن السيدتين اللتين كانتا تواقتين إلى أن تتحكما في حركاتي -بعد أن طاردتاني بمؤامراتهما من "**سويسرا**"، حيث كنت في قبضة نفوذهما تماما- أفلحتا، في النهاية، في أن تسوقاني إلى أيدي أصدقائهما!

*****

ولقد أضفت ما يلي، عند قراءتي هذه "الاعترافات" على السيد والسيدة "**كونته ديجمون**"، والسيد الأمير "**بيجناتيللي**"، والسيدة المركيزة "**دي ميم**"، والسيد المركيز "**دي جيينيه**":

"إنما قلت الحق، فإن عرف أحد أشياء تناقض ما عرضت، فإنما يعرف أكاذيب وافتراءات، ولو قام عليها ألف دليل.. وإذا هو أبى أن يتحرى صحتها، وأن يمحصها معي، وأنا بعد على قيد الحياة.، فهو لا يحب العدالة ولا الحقيقة، أما أنا، فإنني أعلن بصوت عال، ودونما خوف: أن أي امرئ، يستطيع

-ولو لم يقرأ مؤلفاتي- أن يصدق بعد أن يتبين بعينيه طباعي، وخلقي، ومسلكي، وميولي، ومسراتي وعاداتي، أنني رجل عديم الشرف والاستقامة.. فإنما هو رجل جدير بأن يخنق"!

بهذا اختتمت قراءة "اعترافاتي"، والجميع سكوت.. وكانت السيدة "**ديجمون**" هي الوحيدة التي بدا عليها التأثر، فراحت ترتجف بوضوح، ولكنها سرعان ما تمالكت نفسها، ولاذت بالصمت، كبقية الجماعة.

وهكذا كانت النتيجة التي خرجت بها من هذه القراءة ومن بياني.

تمّت بعون الله

وهذه قائمة بأسماء الكتب التي صدرت حتى تاريخ طباعة الكتاب الموجود بين يديك .

سارع الآن بإرسال طلبك.

ولا تنسى أن تُرْسِل شيك بقيمة ما تطلب من كتب حتى لا تُهْمَل رسالتك.

تُرسَل الطلبات بموجب شيك مصرفي باسم "**دار البشير**" مسحوب على أي مصرف في لبنان وبالدولار الأميركي. ودار البشير لا تتحمل مسؤولية إرسال أي مبالغ نقدية داخل الرسائل.

ويجب أن يُكتب على الشيك عبارة (يُصرف للمستفيد الأول فقط)

تُرسل الطلبات على العنوان التالي :

دار البشير ص.ب 13-5329 بيروت – لبنان.

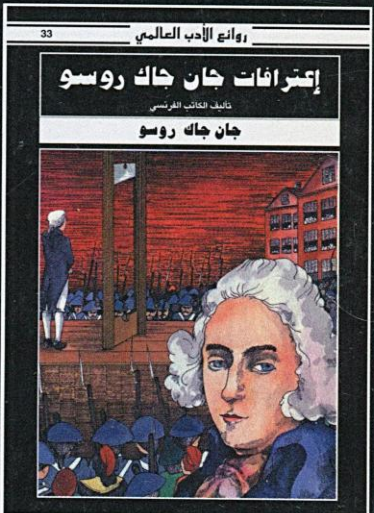
وهذه قائمة بأسماء الكتب التي صدرت حتى الآن مع أسعارها بالدولار الأميركي شاملة أجور البريد.

ثمن أي كتاب 7 دولارات أميركية.

إدفع ثمن خمس (5) كتب واحصل على السادس (6) مجاناً.

الرقم	إسم الكتاب	إسم المؤلف
١	أوديب	أندريه جيد
٢	الخمسمائة مليون ثروة البيجوم	جول فيرن
٣	الحرب والسلام	ليو تولستوي
٤	مدام بوڤاري	جوستاف فلوبير
٥	سفينة الملذات	موريس ديكوبرا
٦	البؤساء	فيكتور هوجو
٧	الثأر للوطن	جون شتينبك
٨	الخاطئة	سومرست موم
٩	الأمير	نيكولاس ماكيافلي
١٠	الإلياذة	هوميروس
١١	الكونت دي مونت كريستو	ألكسندر ديماس
١٢	أرواح هائمة	سومرست موم
١٣	المقامر	فيودور دستوفسكي

الرقم	إسم الكتاب	إسم المؤلف
١٤	عاشقات في الخريف	ستيفان زفايج
١٥	ديكاميرون	جيوفاني بوكاشيو
١٦	إعترافات جان جاك روسو	جان جاك روسو
١٧	صافو	ألفونس دوديه
١٨	دم... وخمر	ليو تولستوي
١٩	الآلهة عطشى	أناتول فرانس
٢٠	مياه الربيع	إيفان ترجنيف
٢١	أنّا كارنينا	ليو تولستوي
٢٢	رسول القيصر	جول فيرن
٢٣	حذار من الشفقة	ستيفان زفايج
٢٤	ضحكة في الظلام	فلاديمير نابوكوف
٢٥	مرتفعات ويذرنج	إميلي برونتي
٢٦	الخطيئة الأولى	ألبرتو مورافيا
٢٧	جين إير	شارلوت برونتي
٢٨	الدكتور جيفاجو	بوريس باسترناك
٢٩	المسبحة	فلورنس باركلي
٣٠	رجال ونساء	مكسيمو جوركي
٣١	حياة	جي دي موباسان
٣٢	ليالي بلزاك	أونوري دي بلزاك



"جان جاك روسو"

١٧١٢-١٧٧٨

ولد "جان جاك روسو" في سنة ١٧١٢ وهو نجل ساعاتي من "جنيف" كان في طفولته وشبابه مثالا للنشاط والتوثب، ولم يكد يبلغ السابعة والثلاثين من عمره حتى نشر كتابه "خطب في العلوم والفنون".

وأشهر مؤلفاته هي "رسالة في عدم المساواة"، و"العقد الاجتماعي"، و"هيلواز الجديدة"، و"الاعترافات".

وكان في نقده شديد القسوة على معاصريه، وكان من رسل الطبيعة الداعين إلى البساطة لأنه يرى أن الناس جديرون أن يحبوا- إذا تركوا التصنع -حياة وادعة سعيدة.

وقد كان "روسو" من أكبر الكتاب الثائرين الذين تفخر بهم "فرنسا"، وقد وهبه الله خيالا رائعا وقلبا جياشا بأسمى الأحاسيس. وقد أبدع في وصف الطبيعة وروائعها أيما إبداع فأعاد بذلك عهود "برناردن دي سان بيير" و"شاتو بريان" و"جورج ساند".

وقد مات في سنة ١٧٧٨ عن عمر يناهز ٦٦ سنة.

الاعترافات:

وهي مجموعة قصص للسيرة الذاتية كتبت في الأعوام بين (١٧٦٤-١٧٧٠) ويحكي فيها الكاتب أحداث حياته ولم يكن "روسو" ينوي إضافة صفتي الكمال والحياة المثالية على هذه المجموعة من الكتب، وإنما كان يحكي جميع أحداث حياته ويعترف بكل أخطائه ومنها اتهامه الكاذب بالسرقة وهو طفل.

وتحولت هذه المجموعة القصصية إلى مسرحية وكان الراوي هو الحاكم وكانت تنقسم إلى جزئين كل جزء يتضمن ١٠ كتب.

وكانت الاعترافات تحكي حياة الكاتب وروحه الحساسة وقال "روسو" عن كتابه الشهير "الاعترافات": "لكي يعرفني قرائي جيدا يجب أن يعرفوا طفولتي وشبابي و"الاعترافات" مليئة بالانفعالات والأفكار المتتابعة التي تجعل القارئ يحكم جيدا على الكاتب ويعطيه الأسباب والأعذار ويشعر بتسلسل الأحداث".

وكتب "روسو" "الاعترافات" بطريقة تجعل القارئ يشعر بنبض الكاتب ومدى معاناته الصادقة في ميلاده وطفولته البائسة وحياته بجانب مدام "ورنس" والسنوات الباريسية ونجاحاته وصداقاته وتنقسم حياة "روسو" إلى فترتين: الفترة الأولى سعيدة وبريئة، والفترة الثانية حزينة وسوداء.

ISBN 9953-443-29-7
9 789953 443294